الجمهورية العربية السورية

وزارة التعليم العالي

جامعة البعث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الأدب الجغرافي والرحلات في بلاد الشام في عصر ولة المماليك البحرية(٦٤٨- ١٣٨٤هـ/ ١٢٥٠- ١٣٨٢م).

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد

المعيد أحمد عبد الكريم الدالي

إشراف الأستاذ الدكتور

عمار محمد النهار

٢٠١٨م.

فهرس المُحتويات

مُلخَّص الموضوع باللُغة العربيَّة

تناولَ البحث دراسة الأدب الجُغرافيّ، والرحلات إلى بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة(٦٤٨- ٧٨٤ هـ/١٢٥٠ - ١٣٨٢م).

وتمَّت دراسة الموضوع من خلال البحث في تعريف الجُغرافية ومفاهيمها، وأقسامها وفروعها، وعوامل تطوّر الفكر الجُغرافيّ العربيّ الإسلاميّ وازدهاره، ودراسة اتِّجاهات المعرفة الجُغرافيَّة عند عُلماء العرب المسلمين بشقَّيها الفلكي الرياضي، والإقليمي البُلداني.

ثمَّ جاء الحديث عن عوامل تطوُّر وازدهار الأدب الجُغرافيّ في عصر دولة المماليك البحريَّة، وتعريف بأهمِّ المراكز العلميَّة في بلاد الشام ومصر، ودراسة لأهمِّ العلوم المُساعدة التي ارتبطت بالجُغرافية، وأسهمت في تقدُّمِها، إضافةً لأهمِّ إنجازات عُلماء هذا العصر في ميدان البحث الجُغرافيّ، وكشُوفهِ.

وتناولت الدراسة البحث في فنِّ التقاويم الجُغرافيَّة، من خلال دراسة نماذج لأشهر جُغرافيِّ التقاويم، مُتضمِّنَة التعريف بحياة كلِّ جُغرافيّ، ودراسة كتابه من حيث المُحتوى، والمنهج، والموارد، والأهمِّية، ودراسة نواحي الحياة في بلاد الشام من خلال هذه النماذج، دراسة وصفيَّة مُقارنة نقديَّة، مع كتب التقاويم الأُخرى.

وتمَّت دراسة أدب الرحلات العربيَّة، والأجنبيَّة إلى بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، بوصف جوانب الحياة العُمرانيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، و السياسيَّة، والحربيَّة فيها، من خلال نماذج لأشهر الرحَّالين العرب والأجانب، الَّذين زاروها، دراسة وصفيَّة مُقارنة نقديَّة مع مثيلاتها من الرحلات العربيَّة، والأجنبيَّة الأُخرى.

وتطرَّق البحث إلى دراسة أحد جوانب المعرفة الجُغرافيَّة(جُغرافية الخطط) المُرتبطة بالتاريخ، بتقديم وصفٍ لجُغرافيَّة وخُطط بلاد الشام، من خلال نماذجٍ لأشهر جُغرافيِّ هذا الفنُّ، مُقارنةً مع مثيلاتها من كتب الخُطط الجُغرافيَّة الأُخرى.

المُختصرات

١ – المُختصرات العربيَّة	
الكلمة	الرمز
توفي	ت
تحقيق	تح
ترجمة	تر
مُراجعة	مر
دون تاريخ نشر	د. ت
دون مكان نشر	د. م
طبعة	ط
مجلد	مج
جزء	ج
قسم	ق
صفحة	ص
قبل الميلاد	ق. م
ميلادي	م
هجري	هـ
٢ – المُختصرات الأجنبيَّة	
توفي	T
طبعة	Ed
جزء	Vol
صفحة	P
ميلادي	M
هجري	E

الأدب الجغرافي و الرحلات في بلاد الشام

مُقدِّمَة:

الحمد لله رب العالمين، لا يسأم من كُثْرةِ السؤالِ والطلبِ، سُبحانه إذا سُئِلَ أعطَى وأجابَ، وإذا لم يُسأَل غَضَب، يُعطي الدُنيا لمن يُحب ومنْ لا يُحب، مَنْ رضيَ بالقليلِ أعطاهُ الكثير، ومن سخط فالحرمانُ قد وجب.

وبعد:

لم يكن عند العرب قبل الإسلام سوى معلوماتٍ جُغرافيَّة بسيطة- أوليَّة، تمثَّلت بأشعارهم، وبِمَا نقله التجار عن المناطق التي ارتادوها، وبعد ظهور الإسلام تطورت المعرفة الجُغرافيَّة العربيَّة الإسلاميَّة، وبدأ علم الجُغرافية بالنمو والتطوّر خاصَّةً في العصر الأموي، إذ تفاعلت مجموعة من العوامل لتطوره، فالمعلومات الجُغرافيَّة المتوفِّرة قبل الإسلام، وحركة التُجَّار العرب ورحلات الحُجَّاج، والعلماء الَّذين كانوا يقصدون الأماكن المُقدَّسة، إضافةً إلى الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة خاصة فتح بلاد الشام والمغرب وفتح الهند أسهمت في إثراء المعرفة الجُغرافيَّة؛ إلَّا أنَّ ثقافة التواصل بين الشعوب وبين الحضارات لم تأتِ ثمارها إلَّا في العصر العباسي، لذا يُعدُّ العصر العباسي عصراً ذهبياً للمعرفة الجُغرافيَّة، فقد أدَّت حركة الترجمة دوراً ريادياً في تطوّر المعرفة الجُغرافيَّة وخاصة الكتب التي تتناول عادات الشعوب وتقاليدهم، إضافةً إلى الرحلات العلميَّة، إذ كانت مصدراً مُهمَّاً لتزويد الجُغرافية بالمعارف الجديدة، أمَّا الرحلاتَ البحريَّة فأسهمت بدورها في تطوّر المعرفة الجُغرافيَّة عند العرب المسلمين.

فقد قام عُلماء العرب المسلمين بمجهودات عظيمة في الكشف عن المعرفة الجُغرافية، فحملوا مشعل الفكر الجُغرافي في زمنٍ كانت فيه دياجير الظلام ضاربة بأطنابها على بلاد الغرب، وذلك بترجمة نتاج كلٍّ من علماءِ اليونان والهنود والفرس إلى اللغة العربية، وتخليصها من الخرافات والأوهام التي ليست لها صلة بالجُغرافية، مُعتمدين في دراساتهم، وبحوثهم الجُغرافيَّة على المُلاحظة، والقيام بالتجارب، والقياسات الدقيقة، والرحلات الميدانية، والمراجع الموثوق بها، فافتتحوا بذلك الطريقة العلميَّة الحديثة في التفكير، والبحث لمعرفة الحقائق الجُغرافيَّة، فأسهم بذلك التراث الجُغرافيّ العربيّ الإسلاميّ إسهاماً فعَّالاً في إذكاء جذوة العلم الجُغرافي.

ويرى بعض الباحثين أنَّ الدراسات الجُغرافيَّة العربيَّة الإسلاميَّة انقسمت خلال العصر العباسي، إلى حقلين مُتميّزين الأوَّل: حقل الدراسات الفلكيَّة والرياضيَّة، والثاني: حقل الجُغرافية العامَّة، والإقليميَّة، والتي يُطلق عليها الجُغرافية الوصفيَّة، وبلغَ الأدب الجُغرافي أوجه في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وذلك عندما ظهرت المدرسة الكلاسيكية التي اهتمَّت بوصف المسالك والممالك، ورسم الخرائط الجُغرافيَّة، وفي القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ظهرت مصادر جُغرافيَّة جديدة على شكل معاجم جُغرافيَّة، وكتب الأوصاف العامَّة لجميع بُلدان العالم.

الأدب الجغرافي و الرحلات في بلاد الشام

ويُعدُّ العصر المملوكي(٦٤٨- ٩٢٣هـ/١٢٥٠- ١٥١٧م) من العصور المُهمَّة في تاريخ المنطقة العربيَّة والعالم الإسلامي عامَّة، ومصر والشام خاصَّة، إذ شكَّل مُنعطفاً مُهمَّاً في تاريخ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، وشَهِدَ نهضة فكريَّة شاملة في كلِّ نواحي البلاد، فانبعثت الحركة الثقافيَّة بشكلٍ لامثيل له، وخُرِّجَت الكتب في مختلف الفنون، فكان علم الجغرافية من أهمِّ العلوم التي ازدهرت فيه، إذ اهتمَّ المماليك بالجُغرافية اهتماماً بالغاً، فظهرت المؤلفات الضخمة في هذا المجال، يُضاف إليها ما قدَّموه من إنجازاتٍ في مجال الجُغرافية العمليَّة، لاسيَّما رسم الخرائط، واستخدام البوصلة والاسطرلاب، والاكتشافات الجُغرافيَّة، وبالإضافة إلى ما كتبه الجُغرافيين في بلاد الشام من مؤلفاتٍ وموسوعات جُغرافيَّة، فقد زار عدداً من الرحَّالة الغُرباء العرب والأجانب بلاد الشام خلال هذا العصر، وكتبوا عن جُغرافيتها، ووصل بالبعض منهم إلى وصف الوضع الاقتصادي، والاجتماعي، والعمراني، والحديث عن بعضِ المُدن الداثرة والعامرة فيها.

ويمكن القول:

إنَّ المعرفة الجُغرافيَّة قد تجمَّعت لدى عُلماء العرب المسلمين من قنوات عدَّة، فأصبحت تلك المعرفة الجُغرافيَّة أساساً من أُسس الجُغرافية، وتدوينها لدى الجُغرافيين العرب المسلمين في العصر المملوكي الذي شهد نهضة كبيرة في مجال التطوّر الجُغرافيّ، فأُلِّفت كتب المسالك والممالك، والخطط الجُغرافيَّة، والتقاويم، وتقسيم الأقاليم، ووصف البحار والمحيطات، فكان النتاج الفكري في هذا المجال غنيَّاً، وانطلاقاً من أهمِّية البحث في هذا الموضوع تمَّ اختياره؛ للتعرُّف على أهمِّ علوم العصر المملوكي، والإنجازات التي قدَّمها المماليك في هذا المجال.

ويتمحور الإطار النظري للبحث بذكر حدوده الزمانيَّة والمكانيَّة، إذ تتمثَّل الحدود الزمانية بدارسة نماذج من كتب جُغرافيّة التقاويم والخطط، والرحلات العربيَّة والأجنبيَّة خلال عصر دولة المماليك البحرية(٦٤٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ – ١٣٨٢م)، أمَّا حدوده المكانيَّة، فتتمثَّل بدارسة بلاد الشام فقط، وما يتبعها من نيابات، وهي ثماني نيابات: طرابلس، وحلب، وحماة، و دمشق، والقدس، والكرك، وغزة، وصفد، وما يلحق بها من ولايات ومناطق، دراسة وصفيَّة مُقارنة من خلال كتب الجُغرافية والرحلات في العصر المملوكي الأوَّل، مع مثيلاتها من ذات العصرِ وعصورٍ أُخرى.

وتبدو أهمِّية البحث من خلال الحديث عن عوامل تطوّر علم الجُغرافية وازدهاره في العصر المملوكي الأوَّل، ودراسة أهمّ العلوم المساعدة له، يُضاف إليها ذكر نماذج من كتب التقاويم، والخُطط الجُغرافيَّة، والرحلات العربيَّة والأجنبيَّة إلى بلاد الشام، والتي تمَّ من خلالها دراسة الموضوعات التي تتعلق بالمدن في كتب التراث الجُغرافيّ العربيّ الإسلاميّ في عصر دولة المماليك البحريَّة، من خلال استعراض ما كتبه بعض علمائنا في هذا المجال؛ لإعطاء صورة عن هذا الجانب المُشرق من جوانب المعرفة الجُغرافيَّة، والتنبيه إلى مُحاولة الاستفادة من هذه المعارف.

ومن جهة أُخرى، فإنَّ المادَّة التي احتوت عليها مؤلفات الجُغرافيين والرحَّالة العرب المسلمين، والأجانب كانت غنيَّة بالمعلومات، إذ إنَّ نصوص كتبهم ورحلاتهم تسدُّ جانباً له شأنه في تاريخ بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة؛ لاحتوائها على إشاراتٍ قيّمة على الأصعدة الحضاريَّة، والعمرانيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والدينيَّة وغيرها، لاسيَّما أنَّ أغلب الجُغرافيون والرحَّالة كانوا في الغالب موسوعيي الثقافة، وبناءً عليه فإنَّ مؤلفاتهم تُقدِّم نوعاً مُهمَّاً من المصادر التي تلتقي فيها الرؤيتين الجُغرافيَّة والتاريخيَّة، ومنها أُدرِكَ أهمِّية البحث في مؤلفات الأدب الجُغرافي، و الرحلات العربيَّة والأجنبيَّة.

وتكمُن إشكالية البحث بمحاولة فهم الأسباب التي دفعت عُلماء العرب المسلمين للاهتمام بعلم الجغرافية في عصر دولة المماليك البحريَّة؟، والوقوف على مصادر الدراسة الأوليَّة عندهم، وتبيان الدور الذي قدَّموه آنذاك لإثراء الفكر الجُغرافيّ العربيّ الإسلاميّ، ومناقشة فكرة نقد الأدب الجُغرافي عندهم، وماهي أهمّ الإنجازات والاكتشافات الجُغرافيَّة التي قام بها عُلماء العصر المملوكي، وكيف أثَّرت على الحياة العامَّة في بلاد الشام؟. وكيف أثَّر الوضع الطبقي الاجتماعي والاقتصادي على كتابات الجُغرافيين والرحَّالة، فهل ساعدَ عمل بعضهم في أحَّد المناصب على التدوين، والقيام بهذه الرحلات والزيارات؟.

وهل كان للرحلات التي قام بها الرحَّالة الغُرباء العرب والأجانب إلى بلاد الشام دوافع؟. فهل هي دوافع سياسيَّة أم علميَّة أم شخصيَّة أم رسميَّة أم بهدف التجارة ؟، وهل من المُمكن الأخذ بكامل المعلومات التي احتوت عليها كتبهم، لاسيَّما أنَّ العديد منهم كانت رحلته لا تتعدَّى أياماً، وكتبوا عمَّا شاهدوه، بل وصلَ بالبعضِ منهم إلى وصف مدنها، فيكف يُمكن التأكد من صحِّة ما أورده هؤلاء الإخباريون؟، وخاصةً إذا عُلِمَ أنَّ الرحَّالة الأجانب قدَّموا في غالب الأحيان صورة سلبية عن العرب المسلمين، و بجانبٍ آخر أنَّ رحلاتهم ركَّزت على الجانب الديني، فما هو مدى صحّة المعلومات التي قدَّموها عن الجوانب الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة؟، وما مدى ارتباط التاريخ بالجُغرافية، والجُغرافية بالمعرفة التاريخيَّة، فهل كلاهما مُتمِّم للآخر؟.

وفيما يخصُّ المنهج المُتَّبع في البحث فإنَّه سيُعتَمد على جمعِ المعلومات الجُغرافيَّة والتاريخيَّة من المصادر المخطوطة والمطبوعة، وسيتَّبع البحث المنهج الوصفي التحليلي للأوصاف الجُغرافيَّة، وكلّ ما يتعلَّق بالجوانب الجُغرافيَّة التي تتناول بلاد الشام في عصر دولة المماليك البحريَّة، وخاصة النواحي العُمرانيَّة الوصفيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والسياسيَّة، يُضاف إليها تناول الأحداث التاريخيَّة، وذلك بوصف الأحداث، ونقد محتواها وبيان مُسبِّباتها.

واعتماداً على المنهج الوصفي التحليلي المُتَّبع، سيتمُّ رصد نماذج مما كتبه الجُغرافيين العرب المسلمين، وأهمّ الإنجازات التي قدموها في مجال الجُغرافية في عصر دولة المماليك البحريَّة، إضافةً لأهمِّ الرحلات والزيارات العربيَّة والأجنبيَّة إلى بلاد الشام، ولما كان من العسير جداً استعراض جميع ما كتبه

علماؤنا في هذا المجال، فقد كان أسلوب البحث انتقائياً، إذ تمُّ اختيار نماذج مُعيَّنة مما كتبه ودونه هؤلاء الجغرافيون والرحَّالة، مع مقارنتها تحليليَّاً ونقديَّاً بوصف غيرهم من الجُغرافيين والرحَّالة الَّذين زاروا بلاد الشام؛ وذلك اغناءً للبحث، ولفهم التطوّرات التي طرأت على الأوصاف الجُغرافيَّة، وجوانب الحياة العامَّة(السياسيَّة، الفكريَّة، الاجتماعيَّة، الاقتصاديَّة).

واعتماداً على هذا المنهج تمَّ تقسيم البحث إلى ستِّة فصول، فرضتها المحاور العلميَّة التي عالجها البحث، مسبُوقة بمخططٍ تفصيلي، ومُلخَّص للبحث باللغة العربيَّة، وقائمة بدلالة الرموز المستخدمة، ثمَّ مُقدِّمة البحث، التي تناول فيها الحديث عن تطوّر علم الجُغرافية عبر العصور، وصولاً إلى العصر المملوكي، إضافةً لتحديد الإطار الزماني والمكاني للبحث، وأسباب اختياره، وتبيان أهمِّيته، مع طرح فرضيات عدِّة تتمحور حول إشكاليته، والمنهج المُتَّبع في الدراسة، و تقديم عرض لأهمِّ المصادر والمراجع التي تمَّ الاعتماد عليها، وفيما يلي ذكر لفصول البحث:

الفصل الأوَّل:

عُنونَ بـ" علم الجُغرافية وتطوّره عند العرب المسلمين"، وجاء تمهيداً لدراسة علم الجُغرافية قبل العصر المملوكي، لتوضيح الأرضيَّة الرئيسة لتطوّر هذا العلم عبر العصور الإسلاميَّة، و تمَّ فيه تعريف علم الجُغرافية، ومفاهيمها، وأقسامها وفروعها، والبحث في الفكر الجُغرافيّ وكشوفه قبل الإسلام، ثمَّ تمَّ تناول الجُغرافية عند العرب المسلمين، من حيثُ اهتمامهم بها، وعوامل ظهورها وتطوّرها، وأثر الإسلام في إثراء الفكر الجُغرافيّ، ومصادر الدراسات الأوليَّة للمعرفة الجُغرافيَّة، مع دراسة اتِّجاهات الجُغرافية الفلكيَّة الرياضيَّة، والبُلدانيَّة الوصفيَّة، بذكر نماذج لأشهر الجُغرافيين، وأهمّ انجازاتهم، واختتمَ الفصل بنقد الأدب الجُغرافيّ عند العرب المسلمين نقداً سلبياً وايجابياً.

الفصل الثاني:

عُنونَ بـ" علم الجُغرافية في عصر دولة المماليك البحريَّة"، وهو فصل تخصُّصِي هُدِفَ منه التعرُّف على تطوّر علم الجغرافية خلال هذا العصر، ومعرفة ما تمَّ فيه من إنجازات جُغرافيَّة، وتمَّ الحديث فيه عن عوامل ازدهار وتطوّر علم الجُغرافية في عصر دولة المماليك البحريَّة، وذكر مراكزه العلميَّة في بلاد الشام ومصر، ثمَّ عالج هذا الفصل قضية مُهمَّة وهي ارتباط علم الجُغرافية بغيره من العلوم النظريَّة والعمليَّة، وجاءت هذه الدراسة بعنوان العلوم المُساعدة لعلم الجغرافية في العصر المملوكي، مُحاولةً لمعرفة تعدُّد مجالات البحث في الجُغرافية، واهتماماتها واتجاهاتها، إضافةً لتناول فكرة الأدب الجُغرافي بشقَّيه الفلكيّ الرياضيّ، والوصفيّ البلدانيّ، وذكر أهمّ الانجازات الجُغرافيَّة في هذا العصر، مثل قضية دوران الأرض، وكرويّتها، وتحديد مساحتها، وخطوط الطول والعرض، وقضيّة اكتشاف قارّة أمريكا.

الفصل الثالث:

عنُونِ بـ" الأدب الجُغرافي – فن التقاويم الجُغرافيَّة"، ويندرج هذا الفصل ضمنَ ما يُسمَّى بالجُغرافية الفلكيَّة الرياضيَّة، إذ تناول التعريف بفن التقاويم الجُغرافيَّة، وأهمّ مُصطلحاته، ثمَّ الحديث عن تطوّر فن التقاويم الجُغرافيَّة في عصر دولة المماليك البحريَّة، و جاءت الدراسة التخصّصية لبلاد الشام من خلال انتقاء نماذج لأشهر جُغرافيٍّ فن التقاويم، **وهم:** الجُغرافي شيخ الرَّبوة الدمشقي(ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، وكتابه" نخبة الدهر في عجائب البرِّ والبحر"، وأبو الفداء الحموي(ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) وكتابه" تقويم البلدان"، وابن فضل الله العمري(ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) وكتابه" مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، وشملت الدراسة التعريف بحياتهم، ودراسة كتبهم دراسة نظرية بذكر محتوياتها، ومواردها، ومنهجها، وأهمّيتها، ومعرفتها في الأوساط، مُتبعة بدراسة وصفيَّة مُقارنة لنماذج من جُغرافية بلاد الشام من خلال هذه الكتب، مُقارنة مع ما ذكره غيرهم من مؤلفي فنِّ التقاويم الجُغرافية، وذلك بحسب طبيعة كلّ كتاب، مُلحقة بأهمِّ المآخذ التي تخصُّ كلَّ واحدٍ من هذه المؤلفات.

الفصل الرابع:

عُنونَ بـ" الأدب الجُغرافي – الرحلات العربيَّة إلى بلاد الشام"، وتناول محاور عدَّة، منها تعريف أدب الرحلة وأقسامها، وتطوّرها، و إرهاصاتها، وأغراضها ودوافعها، ودوافع تدوينها، ومنهجها ومصادرها، وأثرها في إثراء الفكر الجُغرافي العربي الإسلامي خلال عصر دولة المماليك البحريَّة ، وتمَّ في هذا الفصل اختيار نماذج لأشهر الرحَّالة الَّذين زاروا بلاد الشام، **وهم:** الرحَّالة محمد العبدري(ت ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) ورحلته" الرحلة المغربية"، وابن رشيد السبتي الفهري(ت ٧٢١هـ/ ١٣٢١م) ورحلته" ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة"، وخالد بن عيسى البلوي(ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) ورحلته" تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، وابن بطوطة الطنجي(ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) ورحلته" تحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، إذ تمَّ تناول رحلاتهم بالتعريف بحياتهم، وتقديم دراسة نظرية لرحلاتهم، بالحديث عن دوافع كلّ رحلة، وخط سيرها، وتدوينها ومنهجها، ومصادرها، وأهميتها، وبعدها جاءت الدراسة الوصفية لبلاد الشام من خلال الرحلات السابقة، مقارنة مع كتب الرحلات الأخرى بتناول نماذج مما يتوافر فيها عن بلاد الشام حسب طبيعة الرحلة، مثل دراسة الجانب المعماري، والاقتصادي، والاجتماعي، والفكري، مصحوبة بمآخذٍ عن كلِّ رحلة منها.

الفصل الخامس:

عُنونَ بـ" الأدب الجغرافي – الرحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام"، ويُعدُّ هذا الفصل تتمَّة لما سبقه بالحديث عن الرحَّالة الَّذين زاروا بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، لكنَّه تخصص بالرحَّالة الأجانب، و تمَّ فيه تناول دوافع الرحلات الأجنبيَّة، ومضامينها وعوامل زيفها، ثمَّ تعريف بأشهر الرحَّالة الَّذين زاروها قبل العصر المملوكي، وبعدها أُختِيرَ نموذجين لأشهر رحَّالي الغرب الأوربِّيّ إلى بلاد الشام،

وهما: الرحَّالة الألماني بورشارد ورحلته المُترجمة للغة العربية بعنوان" وصف الأرض المقدسة"، والرحَّالة الإنكليزي جون ماندڤيل ورحلته المترجمة للغة العربية بعنوان" أسفار السير جون ماندڤيل ورحلاته"، ودُرِسَت رحلاتهم من خلال التعريف بحياتهم، ثمَّ دراسة رحلاتهم بذكر دوافعها، وخط سيرها، ومصادرها، ومنهجها، وأهمِّيتها، وتقديم دراسة وصفية لبلاد الشام من خلال هاتين الرحلتين مُقارنة مع الرحلات الأجنبيَّة الأُخرى فقط التي تناولت بالذكر بلاد الشام، لا سيَّما بالتطرُّق للجوانب المعماريَّة، والاقتصاديَّة، والسياسيَّة، والاجتماعيَّة، واختُتِمَ هذا الفصل بمُقارنة بين ميّزات الرحلات العربيَّة، والأجنبيَّة إلى بلاد الشام في عصر دولة المماليك البحريَّة.

الفصل السادس:

عُنونَ بـ" الجُغرافية التاريخيَّة – فن الخطط الجُغرافيَّة"، وتناول هذا الفصل الحديث عن الجُغرافية التاريخيَّة، وماهيَّتها ومنهجها، ومصادرها، والتفسير الجُغرافي للتاريخ، وعلاقة التاريخ بالجُغرافية وارتباطهما ببعض في العصر المملوكي، ثُمَّ أُختِيرَ نموذجين لأشهر جُغرافيِّ الخطط، **وهما:** الكمال ابن العديم الحلبي(ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) وكتابه" بُغية الطلب في تاريخ حلب"، وعز الدين ابن شداد الحلبي(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) و كتابه" الأعلاق الخطيرة بذكر أُمراء الشام والجزيرة"، إذ تمَّ التعريف بحياتهم، ودراسة كتابيهما من ناحية المحتوى، والموارد، والمنهج، والأهمِّية، مع دراسة وصفية لخُطط بلاد الشام مُقارنة مع كتب الخطط الأخرى، مصحوبة بمآخذ عن الكتابين.

الخاتمة:

عُرضت فيها النتائج التي تمَّ التوصل إليها في البحث، مُدرجة كلّ نتيجةٍ منها بحسب الفصل الذي تتَّبع إليه بالترتيب.

الملاحق:

وتشملُ على عددٍ من الخرائط الجُغرافيَّة، التي تخصُّ بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، وخرائط توضِّح خط سير الرحلات، إضافةً إلى عددٍ من الصور التوضيحيَّة التي تخصُّ موضوع البحث.

قائمة المصادر والمراجع:

عُرِضَ فيها جميع المصادر المخطوطة والمطبوعة، العربية منها والأجنبية، إضافةَ للمراجع والدراسات العلمية، العربيَّة والمُعرَّبة، والأجنبيَّة، التي تمَّ تسخيرها في البحث، مُرتَّبة ترتيباً أبجدياً وفقَ منهجية البحث التاريخي.

وفي الختام أُقدِّم بين أيدي أساتذتي مُلخَّص جُهدي، وما وفقني الله إليه وأعانني عليه، فإنْ كان صواباً فمن الله، وإن لمْ أبلغْ المُراد، فتلك صفة البشر؛ لأنَّ الكمال لا يكون إلَّا لله وحده، وإنِّي

لأستحضرَ مقولة القاضي عبد الرحيم البيساني العسقلاني(ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)، التي قال فيها: « إنِّي رأيتُ أنَّه ما كَتَبَ أحدُهُم كتاباً في يومهِ إلَّا قال في غَدِهِ: لوُ غيَّرَ هذا لكانَ أحسن ولو زيَّد هذا لكانَ يُستحَسن، ولو قُدِّم هذا لكانَ أفضل، ولو تُرِك ذاك لكانَ أجمل، وهذا أعظمُ العبر، وهو دليلٌ على استيلاءِ النَّقصِ على جُملةِ البشر».

والحمدُ لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبيّنَا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين صلاةً وتسليماً دائمين.

التدقيق اللُغوي

الدكتور أنس بديوي.

تعريف بأهمِّ المصادر والمراجع المُعتمدة في الأُطروحة:

إنَّ أيَّة دراسة علميَّة تحتاج أولاً إلى جمع مصادر الفترة التي ستُعالجها، سواءً كانت مصادر مخطوطة، أمْ مطبوعة، العربيَّة منها والأجنبيَّة، المشرقيَّة، والمغربيَّة، وهي مصادر مُتعدِّدة تشمل المصادر الجُغرافيَّة، والتاريخيَّة، والأدبيَّة، وكتب الدساتير، والفقه، والحديث، ودواوين الشعر، وغيرها. وفيما يلي تعريف بأهمِّ المصادر والمراجع التي جرى تسخيرها في خدمة الأطروحة، وسيتمُّ ترتيب المصادر ترتيباً زمنياً بدءاً من الأقدم فالأحدث، أمَّا المراجع فسيتمُّ ترتيبها ألفبائياً مُبتدئاً بالكنية فالاسم:

أوَّلاً- المصادر الجُغرافيَّة:

يتطلَّب البحث في موضوع الأدب الجُغرافيّ والرحلات إلى بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، كأيِّ بحث أكاديميّ آخر إلى جمع المصادر الجُغرافيَّة التي تخدمه، إلَّا أنَّ أهمَّ ما يُميّز هذا البحث هو اعتماده على المصادر الجُغرافيَّة بكثرة، إذ قدَّمت المصادر الجُغرافيَّة بكافَّة أنواعها من كتب المسالك والممالك، والأقاليم، والتقاويم، والخطط، والمعاجم الجغرافيَّة، والرحلات العربيَّة والأجنبيَّة، وكُتب الفلاحة معلومات قيّمة للبحث، وذلك بتناولها الأوصاف الجُغرافيَّة فيما يخصُّ المدن، والأسوار، والأبواب، والمساجد، والجوامع، والكنائس، والأديرة، والشوارع، والمدارس، والقبور، والمزارات، والخانقات، والبيمارستانات، إضافةً إلى معلومات عن الحياة الاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والفكريَّة، والسياسيَّة، والحربيَّة.

١- كتب الجُغرافية(أديرة، تقاويم، جغرافية فلكيّة، خطط، مسالك وأقاليم، معاجم):

أ- ابن الفقيه الهمذانيّ(أحمد بن محمَّد بن إسحاق ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م):

وُلِدَ بهمذان لأُسرة اشتُهرت بعلم الحديث والأدب، فحازَ مكانةً علميَّةً عاليةً بين عُلماء عصره في ميادين الحديث والأدب، ولكنَّه تميَّز وتألَّقَ نجمه في علم الجُغرافية، الأمر الذي أسهمَ في ذيوع شهرته في عهد الخليفة العباسي المُعتضد(٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م)، الذي كان على صلةٍ وطيدة معه، ووفَّر له إمكانيَّة القيام برحلات مُختلفة إلى شتَّى الأمصار والبلدان، وبعد مجموعة من الرحلات صنَّف كتابه الشهير" **البُلدان**".

تناول الهمذانيّ في كتابه العلوم الجُغرافيَّة بأسلوبٍ أدبيٍّ، وشمل أفكاراً ونظريات جُغرافيَّة وتاريخيَّة عن البحار والأنهار، و كذلك ضمَّ معلومات مُفيدة جداً اقتبسها من خلال رحلاته التي قام بها إلى الصين، والهند، وبعض أطراف البلاد الإسلامية، و تحدَّث فيه عن خطِّ الاستواء، كما تطرَّق إلى كرويَّة الأرض. وشكَّل هذا الكتاب أحَّد أهمّ المصادر المُعتمد عليها في ترجمة كثيرٍ من أسماء الأماكن، والمواقع، إضافةً لاستخدامه مصدر مُقارنة لا سيَّما خلال الفصل الثالث من الأُطروحة.

ب- الإصطخري الكرخي(إبراهيم بن محمد ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):

عالمٌ مُسلمٌ من روَّاد عُلماء البلدان، نشأ في إصطخر ونُسِبَ إليها، خَرَج سنة(٣٤٠هـ / ٩٥١ م) يطوف البلاد مُبتدئاً من بلاد العرب إلى الهند، ثمَّ إلى سواحل المُحيط الأطلسيّ، وصنَّفَ كتاباً في الجُغرافية اعتمد فيه على مُشاهداته، وعلى كتاب بطليموس سمّاه" **مسالك الممالك**"، و ضمَّن فيه وصفاً للبلدان والتقسيمات الإداريَّة، وذكر فيه أقاليم الأرض وممالكها، ثمَّ عرَّج على ذِكر بلاد الإسلام مُفصَّلة، وقسَّم المعمور من الأرض عشرين إقليماً، ثمَّ ذكر كلَّ إقليمٍ منها بما اشتملَ عليه من المُدن والبقاع والبحار والأنهار. وكان هذا الكتاب أحَّد أهمّ المصادر المُعتمد عليها في ترجمة الكثير من أسماء الأماكن في مُختلف فصول الأُطروحة.

ج- أبو الفرج الأصبهاني(علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م):

ولِدَ في مدينة أصبهان سنة(٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، ونُسِبَ إليها مع أنَّه لم ينشأ بها، وإنَّما نشأ في مدينة بغداد وجعلها موطِناً له، وأخذ العلم عن أعلامها، برع الأصبهاني في التاريخ، والآثار، والجُغرافية فصنَّف فيها كتاب" **الديارات**"، الذي يُعدُّ أهمَّ المصادر المُعتمد عليها في الأُطروحة لاسيَّما في الفصل الثالث، إذ تمَّ تسخيرُ معلوماتَه بمُقارنتها مع ما ورد الحديث عنه من ديارات بلاد الشام عند ابن فضل الله العمري في كتابه" **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**".

د- الشابشتي(علي بن محمد ت ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م):

يُكنَّى أبو الحسين، وهو عالمٌ جغرافيٌّ من قُرى مرو، برعَ في الفلك والجُغرافية، فصنَّف فيها كتاباً سمَّاه" **الديارات**"، وهو كتاب بُلدان، وتاريخ، وتراجم، وأدب، و حضارة، توسَّع فيه مؤلفه، فكتبَ عمَّا يزيد على الخمسين ديراً، زالَ أكثرها من عالم الوجود، وكان مُعظمها في العراق، وبعضها في الشام ومصر والجزيرة؛ ولأهمِّية الكتاب فقد فرضَ نفسه كأحَّد أهمّ مصادر الدراسة، فجرى استخدامه كمصدر مُقارنة عند الحديث عن الديارات التي ورد ذكرها في الفصل الثالث من الأُطروحة.

هـ- المقدسي(شمس الدين بن أحمد ت ٣٩٠هـ/١٠٠٠م):

صنَّفَ كتاباً في الجُغرافية سمَّاه" **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**"، وأفرده لذكر الأقاليم الإسلاميَّة، وما فيها من البحار، والأنهار، ووصفَ مُدنها، وذكر الرمال والتلال والسهول والجبال. ويُعدُّ هذا الكتاب من أهمِّ المصادر الجُغرافيَّة التي اعتمدت عليها الدراسة، إذ تمَّت الإفادة منه بتعريفِ بعض مُدن بلاد الشام، ومُقارنة أوصافها مع ما ذكره جُغرافيي فنّ التقاويم في الفصل الثالث، خاصَّة أنَّ المقدسي قد ضمَّنَ كتابه مُعلومات مُهمَّة عن مصادر المياه، ومظاهر العُمران، والحياة الاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة.

و- ابن حوقل(أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي ت ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م):

رحَّالةٌ جُغرافيٌّ قضى ثلاثين عاماً في التجوال والاستكشاف، وزار بلاد العرب، اشتهر ابن حوقل بكتابه" **صورة الأرض**" الذي اشتمل على خرائطٍ متطوِّرة، وعلى وصفٍ تفصيليٍّ للأرضِ، والتعريف بكثير من أسماء المُدن والأقاليم؛ ولكونه احتوى في طيَّاته على كثيرٍ من المعلومات الاقتصاديَّة، والعمرانيَّة، والاجتماعيَّة التي تخصُّ بلاد الشام، فقد تمَّت الاستعانة به في تعريف كثيرٍ من أسماء الأماكن، إضافةً لاستخدام المعلومات التي أوردها مُقارنةً مع نظيراتها من المعلومات الواردة في كتب التقاويم الجُغرافيّة في الفصل الثالث من الأُطروحة.

ز- البكري(أبو عبيد عبد الله ت ٤٨٧هـ/١٠٩٥م):

يُعدُّ البكري أعظم جُغرافيّ أخرجته بلاد الأندلس قاطبة، إذ أضافَ إلى المُصنَّفات العربيَّة الإسلاميَّة كتابين هامِّين، الأوّل: كتاب" **المسالك والممالك**" الذي تناول فيه وصف طرق المواصلات، وبلاد العالم الإسلاميّ، والثاني" **مُعجم ما استعجم**" الذي جاء على صورة مُعجم جغرافيّ شامل رتَّب فيه البلدان، وعالجها حسب ترتيبها الأبجديّ. وكانت الإفادة من هذين الكتابين كبيرة لاسيَّما فيما يتعلَّق بالتعريف بالأماكن الواردة في أغلب مواضع الأُطروحة، إضافةً لاستخدامهما مُقارنة مع المعلومات التي قدَّمتها كتب التقاويم الجُغرافيَّة، وهو ما سيبدو بوضوحٍ في الفصل الثالث.

ح- الإدريسي(محمد بن محمد ت ٥٦٠هـ/١١٦٦م):

عُرِفَ بحبِّهِ للأسفار وشغفهِ بعلم الجُغرافية، ولعلَّ أهمَّ أعماله الجُغرافيَّة كتابه" **نزهة المُشتاق في اختراق الآفاق**"، وتكمُن أهمِّيته أنَّ صاحبه زار عدداً من مناطق بلاد الشام، فتحدَّث عن المُدن الرئيسة في الساحل الشاميّ، وعن الجوانب الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة فيها؛ لذلك كانت الإفادة منه عظيمة بتعريفِ كثيرٍ من الأماكن، و استخدام معلوماته مُقارنةً مع المعلومات الواردة في كتب التقاويم الجُغرافيَّة.

ط- الحازميّ(أبو بكر محمد بن موسى ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م):

وُلد الإمام الحازميّ بطريق همذان سنة(٥٤٨هـ/ ١١٥٤م)، وحُمِل إليها، ونشأ بها، فأقبل على حفظ القرآن، وقدِمَ بعدها إلى بغداد، ثمَّ أمعنَ في الرحلة، فدخل الموصل، وسمعَ بها، وعُنِيَ بنفسه بالعلم، فارتحلَ في طلبه إلى بلاد عدَّة منها بلاد الشام، وكتب عن أكثر شيوخ هذه البلاد.

وبرع الحازميّ في الأدب، والجغرافية، فصنَّف فيها كتاباً سمَّاه" **ما اتُّفق لفظه وافترقَ مُسمَّاه من الأمكنة**"، خصصه للحديث عن الأماكن التي اتَّفقَ في لفظها، واختلف في موقعها، والمنسوب إليها نفرٍ من الرواة، والمواضع المذكورة في مغازي الرسول ﷺ، وسراياه، وقطائعه، ومغازي أصحابه، والولاة بعدهم. كما أورد فيه أسماء كثير من أماكن البادية، ورتَّبه على حروف المعجم، وخصَّص لكلِّ حرفٍ كتاباً أوردَ فيه الأسماء المبدوءة بذلك الحرف، مع ما يُثنِّيها أو يثلِّثُها من الحروف مُرتَّبة أيضاً مقرونة بما يشابهها في صورة الكتابة، ومشروحة مُحدَّدة من كتابِ الهمزة إلى كتاب الياء، و الكتاب ذو أهمِّية كبيرة بالنسبة لترجمة بعض

الأماكن المُختلف في موضعها والمُتَّفق في مُسمَّاها، لذلك كانَ لابُدَّ من الاعتماد عليه بترجمة بعض أسماء الأماكن، خاصَّة في الفصل الثالث، كما استُخدمت معلوماته مُقارنة مع ما ذُكِرَ عند جُغرافيي فنّ التقاويم الجُغرافيَّة؛ لاحتوائه على إشاراتٍ اقتصاديَّة، واجتماعيَّة، وعُمرانيَّة وصفيَّة مُهمَّة.

ي- الحمويّ(شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٧هـ/١٢٢٩م):

برعَ الحموي في الجُغرافية، فصنَّف فيها مُعجماً سمَّاه" **مُعجم البلدان**"، عُدَّ موسوعة جُغرافيَّة نظراً لوفرة المادَّة التي أوردها، وتحدَّث فيه عن البُلدان، والأقاليم، والمدن، و الجبال، والأنهار، وغير ذلك، ورتَّبه حسب الحروف الأبجدية، والكتاب ذو أهمِّية للباحثين في مجالِ التاريخ، والجُغرافية، والأدب؛ لذلك كانت الإفادة منه كبيرة لا سيَّما أنَّ الحموي قد وصفَ العديد من الجُوانب المُتعلِّقة بأوضاع بلاد الشام، والساحل الشاميّ، وذَكرَ الوضع السُكَّاني لبعض مدنِ الشام، مع ذِكر العوامل الاقتصاديَّة مثل مصادر المياه، والأنشطة الصناعيَّة والزراعيَّة، ووصفَ العمائر الحربيَّة، والمقامات والمزارات، فكانَ الكتاب حاضراً في أغلبِ فصول الأُطروحة، إذ اعتُمِدَ عليه بترجمة كثيرٍ من أسماء المواضع والمُدن، والبلدان، إضافةً للتعريفِ ببعضِ مُصطلحات كُتب فنّ التقاويم الجُغرافيَّة في الفصل الثالث.

ك- القزويني(زكريا بن محمد ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م):

مُؤرِّخٌ وجغرافيٌّ، وُلِدَ بقزوين سنة(٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م)، ورحلَ إلى العراق فوُلِّي قضاء واسط، والحلَّة في أيام المُستعصم العباسي(ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، ثمَّ رحل إلى بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة فزار مُدناً عدَّة، ودوَّن مشاهداته في كتاب سمَّاه" **آثار البلاد وأخبار العباد**"، جمع فيه كلّ ما وقعَ له وعرفه، وسمع به، وشاهده من لطائف صُنع الله سبحانه و تعالى، وعجائب حكمته المُودعة في بلاده وعباده.

بدأ القزويني كتابه بالحاجة الداعية إلى إحداث المُدن والقُرى وخواص البلاد في تأثير البيئة في سُكَّانها وفي المعادن والنبات والحيوان، وقسَّمَ الأرض إلى سبعة أقاليم، وذَكَرَ ما اشتملت عليه من أُممٍ وممالك، ووصفَ الجبال والأنهار، مرتَّبة على الحروف الأبجديَّة، كما ضمَّ أخبار الأُمم وتراجم العُلماء والأُدباء والسلاطين، وأوصاف الزوابع، والتنين الطائر أو نافورة الماء وغير ذلك. ويُعدُّ الكتاب من أهمِّ الكتب التي تمَّ الاعتماد عليها في الدراسة، إذ استُعينَ به بتعريف بعض أسماء الأماكن، إضافةً لاستخدام معلوماته مُقارنة مع بعض ما تمَّ دراسته في أغلب فصول الأُطروحة.

ل- ابن سعيد المغربي(علي بن موسى ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م):

وُلِدَ بنواحي غرناطة سنة(٦١٠هـ/١٢١٣م)، من أُسرةٍ عريقة في الحسب والنسب، والعلم، والوزارة، والقضاء، والكتابة، قضى فترة طفولته بغرناطة، وفترة شبابه بإشبيلية، وتتلمذَ على يد روَّاد الأدب والنحو في عصره، وفي سنة(٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م) سافر مع أبيه إلى مراكش، ثمَّ عاد إلى الأندلس متنقّلاً بين حواضرها، ثمَّ سافر إلى تونس سنة(٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) بعد تدهور الأوضاع بالأندلس، ومكثَ بها سنتين،

ومن تونس انتقلَ إلى مصرَ، ولقي فيها عدداً كبيراً من الشعراء المشهورين والأعيان والعلماء المرموقين، وفي سنة(٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) غادر القاهرة إلى مكَّة، حيثُ أدَّى فريضة الحج، ثمَّ توجّه إلى العراق وزار خلالها البصرة وبغداد، ثمَّ سافر إلى الموصل، ومنها إلى مدينة حلب في بلاد الشام، وفي سنة(٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) توجَّه إلى مكَّة ليحجَّ مرَّة ثانية، وبعدها عاد إلى تونس، وبسبب المكائد والدسائس التي حيكَت ضدَّه غادرها إلى المشرق مُجدَّداً، فزارَ الشام ثمَّ إيران، وتوغَّل في إقليم أرمينيا، وبعد الانتهاء من أسفاره عاد في المرحلة الأخيرة من عمره إلى تونس ليقضيَ بقيَّة حياته إلى حين وفاته سنة(٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م). لقد كان ابن سعيد المغربي رحَّالة، ومؤرِّخاً جُغرافيَّاً، خلَّف ثروة ثقافية غزيرة تشهد له بعلوِّ شأنه.

ولعلَّ أشهر ما صنَّفه في الجغرافية كتابه" **الجُغرافية**" الذي يحمل بين دفّتيه معارف جُغرافيَّة مُهمَّة عن العالم العربي والإسلاميّ، وعن بلاد الغرب، ومعظم محتويات الكتاب تدور حول رحلاته المُترامية في المغرب والمشرق، إذ استطاع ابن سعيد المغربي أنْ يوظِّفَ في كتابه خطوط الطول والعرض في تحديد الأماكن المأهولة بالسُكَّان بطريقة علميَّة دقيقة وسهلة، وخصَّص لبلاد الشام جزءاً كبيراً من كتابه، فتناول فيه أطوال وأبعاد مدن بلاد الشام، مع حرصه على تناول الجانب المعماريّ فيما يخصُّ المُدن، والقلاع والحصون، ولم يغفلْ الإشارة إلى الحياة الاقتصاديَّة في مدنها خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، لاسيَّما النشاط التجاريّ، والزراعة، ومن الطبيعيّ عند حديثه عن الزراعة أنَّه تناول مصادر المياه فيها، كما تناول بجانبٍ آخر المزارات الدينيَّة والعلاجيَّة، وبذلك أفادت إشارات ابن سعيد المغربي في إلقاءِ الضوء على جوانبٍ مُتعدِّدة عن أوضاع بلاد الشام خلال القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ. ومن هنا كان لا بُدَّ من الاعتماد على كتابه في الأطروحة، إذ كان أَحَدُ أهمَّ مصادر العصر المملوكيّ المُعتمد عليها في توظيف ما ورد فيه من معلومات، بمُقارنتها مع ما تمَّ دراسته في الفصل الثالث لا سيَّما ما ذكره شيخ الرَّبوة الدمشقيّ، وأبو الفداء خاصَّة في مقارنة أطوال وعروض المُدن بالدرجات والدقائق، إضافةً للاستعانة به في تعريف عدد من الأماكن في مواضع عدَّة من البحث.

م- الحميري(محمد بن محمد بن عبد المنعم ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

عالم بالبُلدان والسير والأخبار، اهتمَّ الحميري بالأدب والجُغرافية، وكان مُلمَّاً بالحديث واللغة والنحو، مُشاركاً في الأصول، آخذاً في العلوم العقليَّة، ومع بلوغهِ هذا الشأن من العلوم لم يُذكَر لهُ مؤلف آخر غير كتاب" **الروض المعطار في خبر الأقطار**" الذي دار جدال حول تسميته بين تنكير كلمة(روض) أمْ تعريفها، وكذلك بين(خبر الأقطار) أمْ(أخبار الأقطار) أمْ(ذكر الأقطار). حرصَ الحميريّ أنْ يجعلَ من كتابه مُعجماً جُغرافيَّاً تاريخيَّاً قاصراً اهتمامه على الأماكن المشهورة، ورتَّبه على حروف المعجم حسب ترتيبها المشرقيّ، وساير الترتيب المغربيّ في داخل الحرف الواحد، مع حرصه الشديد على الإيجاز.

وأولى الناحية الاقتصاديَّة في كتابه أهمِّية كبيرة، إذ تناولَ فيه جانباً مُهمَّاً في تاريخ الاقتصاد الإسلاميّ، وهو موارد بيت المال، وقدَّم تفصيلات واضحة حول قطَّاعات الإنتاج، أي الثروات الزراعيَّة، والحيوانيّة، والمعدنية، وبعض الصناعات، هذا إلى جانب اهتمامه بموضوع التجارة، حيثُ تطرَّق للحديث عن الطُرق والمُدن التجاريَّة، و الصادرات والواردات، والأسواق والمكاييل والأوزان والنقود التي كانت تُستخدم في العصر المملوكيّ؛ ولغنى مادَّته العلميَّة المُتعدِّدة الجوانب، فقد كانت الإفادة منه عظيمة في كثير من مواضع البحث، وتمَّ توظيف كثيراً من معلوماته في تعريف بعض الأماكن، إضافةً لاستخدامه مصدر مُقارنة مع ما تمَّ دراسته من معلومات عند جغرافيي فنّ التقاويم الجُغرافيَّة، مع بعض الاستخدامات الأُخرى للتعريف ببعض الأماكن في الفصلين الرابع والسادس.

ن- المقدسيّ(أحمد بن محمد بن إبراهيم ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م):

أبو محمود، جمال الدِّين أحمد بن محمد المقدسيّ الشافعيّ، وُلِدَ في القدس وأخذ العِلم عن عُلماء مصر ودمشق، وبرع في الجغرافية والرحلات، فصنَّف فيها كتاباً خصَّصهُ لمدينة القدس، وسمَّاه" **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام**"، وهو من كُتب فضائل بيت المقدس، وينقسم الكتاب إلى قسمين: القسم الأوَّل: يبحث في فضائل الشام وبيان حدودها وفلسطين عامَّة، والقسم الثاني: رسالة تبحث في فضائل المسجد الأقصى، والخاتمة في ذكر من ورد القدس من الأخيار. ويُعدُّ هذا الكتاب من أهمِّ المصادر التي جرى الاعتماد عليها في الفصل الرابع من الأُطروحة لاسيّما بمُقارنة ما ورد فيه من معلومات عن مساجد الأراضي المُقدَّسة، وقبورها ومزاراتها، مع ما ذكره الرحَّالة العرب حولها.

س- المقريزي(تقي الدِّين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢م):

وُلد بالقاهرة سنة(٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م)، وهو بعلبكيّ الأصل، مصريّ المَولد والنشأة، عُرف بالمقريزيّ نسبةً إلى حارة المقارزة في بعلبك، عكف المقريزي على دراسة القرآن وعلوم الدين، والتاريخ وغيرهما، ثمَّ التحقَ بالخدمة الحكوميَّة، فعُيِّنَ كاتباً بديوان الإنشاء بالقلعة، ثمَّ قاضياً، ثمَّ إماماً ومدرِّساً للحديث، ثمَّ تولَّى وظيفة مُحتسب القاهرة والوجه البحريّ، وعُيِّنَ سنة(٨١١هـ/ ١٤٠٨م) ناظراً للأوقاف ومُدرِّساً بدمشق.

يُعدُّ المقريزي مثالاً طيّباً للمُصنِّفين في العصر المملوكيّ إذ كانَ واسع القراءة، و المعرفة، والاطِّلاع، اشتهرَ في مجال الجغرافية، فصنَّف فيها كتاباً سمَّاه" **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**"، تناولَ فيه المدن والآثار المصريَّة القديمة والوسيطة، ووصفها وصفاً دقيقاً. وقد أفاد الباحث من هذا المصدر في دراسته المُرتبطة بجزئيَّة الزوايا والربط والخوانق، والمدارس، والجوامع والمساجد، التي تمَّ بحثها في الفصل الثاني من الأُطروحة.

ع- ابن الوردي(سراج الدِّين عمر بن المظفَّر ت ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م):

كان ابن الوردي عالماً زراعيَّاً وجغرافيَّاً، صنَّفَ كتاباً في الجُغرافية تلبية لأمر نائب السلطنة الشريفة بالقلعة المنصورة سنة(٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)، سمَّاه" **خريدة العجائب وفريدة الغرائب**"، وجعله شرحاً للخريطة التي رسمها له، بحيث يصعُب الفصل بين الكتاب والخريطة، وأتبعَ ذلك بذكر ما تضمَّنَته الخريطة من أسماء البلدان، وعجائبها وآثارها، مُرتَّبةً حسب الأقاليم المرسومة، ثمَّ البحار والجزر والآبار والأنهار والعيون، ثمَّ الجبال والأحجار، والنباتات والحيوانات، وختمَهُ بأبوابٍ شتَّى منها: رسالة في أجوبة النبي ﷺ على مسائل لليهود، وفصول في علامات الساعة، وأحوال القيامة.

كما تضمّن الكتاب ما توصَّل إليه الجغرافيّون في زمان ابن الوردي مع إشاراتٍ تاريخيَّة طرأت على البُلدان التي ذكرها، مُقدِّماً فيه جملة فوائد جُغرافيَّة، وتاريخيَّة، ونباتيَّة، وفلكيَّة؛ ولأهمِّية ما تضمَّنه من معلومات كان أَحَّدُ أهمَّ المصادر المُعتمد عليها في البحث، بمُقارنة ما وردَ فيه من معلومات، مع ما تمَّ دراسته في الفصول الثالث، والرابع، والسادس من الأُطروحة.

ف- سبط ابن العجميّ(أحمد بن إبراهيم ت ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م):

وُلِدَ في ليلة الجمعة تاسع محرّم سنة(٨١٨هـ/١٤١٥م)، ونَهَلَ من مُختلف العلوم والفنون، وبرعَ في الجُغرافية التاريخيَّة فغدا مثلاً لأهمِّ مُؤلِّفي كُتب فنّ الخطط الجُغرافيّة، ولعلَّ أهمَّ ما صنَّفه في هذا المجال كتابه" **كنوز الذهب في تاريخ حلب**"، ذيَّل فيه على شيخه ابن خطيب الناصرية(ت ٨٤٣هـ/١٤٤٠م) في تاريخه" **الدر المُنتخب في تاريخ حلب**".

وتبدو أهمِّية هذا التاريخ وقيمته العلميَّة للباحثين بأنَّ صاحبه كان شاهدُ عياناً لعصر المماليك، وراصداً لأحداثه ومدوِّناً لأخبارِهِ عن كثبٍ، وبجانبٍ آخر فإنَّ كتابه كان من أوائل الكتب التي تناولت بعد ابن شدّاد تاريخ المعالم الإسلاميَّة بحلب كالجوامع والمساجد، والمدارس، والربط، والبيمارستانات والخوانق، والأبواب، والكنائس، والأديرة، والدروب، إذْ دوَّنَ فيه ما نقلهُ عن ابن شداد، وأضافَ عليه حتَّى عصره، وبتفصيل دقيق، وقد قدَّمَ هذا الكتاب معلومات مُهمَّة للفصلين الرابع والسادس من الأُطروحة لاسيّما عند ذكر المدارس التي أوردها ابن بطوطة، كما تمَّت الاستعانة به بمُقارنة معلوماته التي أوردها عن خطط مدينة حلب، مع نظيراتها التي أوردَها ابن العديم العُقيليّ، وعز الدِّين ابن شدّاد الحلبيّ عن خُطط المدينة ذاتها.

ص- ابن الشُحنة الحلبيّ(أبو الفضل محمد بن محمد ت ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م):

وُلد سنة(٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م)، وتلقَّى أوائل علومه على يد عُلماء حلب، فأخذ عنهم الأدب، والتاريخ، والجُغرافية، ثمَّ مارس التدريس، ووُلِّي قضاء العسكر في بلده، وفي سنة(٨٣٦هـ /١٤٣٢م) ولاه الملك الأشرف برسباي، قضاء الحنفيَّة في حلب، ثمَّ أصبح كاتباً للسرِّ وناظراً للجوالي(ما يؤخذ من أهل الذمَّة من الجزية)، إضافةً إلى القضاء والنظر في جيش حلب، والتدريس والخطابة بالجامع، وفي سنة(

٨٥٧هـ/١٤٥٣م)، دخل إلى القاهرة دونَ طلب، فخلع عليه السُلطان وأقرَّه على كتابة السرِّ في مصر، ثمَّ عُزل عن القضاء وعاد إلى حلب، بعد أن نفَاه الأشرف قايتباي إلى القُدس سنة(٨٧٧هـ/١٤٧٢م).

وفي حلب دوَّن أشهر كتبه، وهو كتاب" **الدُرّ المُنتخب في تاريخ مملكة حلب**" تكلَّم فيه عن آثار مدينة حلب، مُتناولاً ذكرَ عمارتها وأسوارها، وعدد أبوابها مُفصَّلة، و القلعة الحلبيَّة، والقصور التي كانت لملوك حلب، ومسجدها الجامع وما كان بها من الجوامع، و ذكر المزارات في باطن حلب وظاهرها، ويعدُّ هذا الكتاب من أهمِّ المصادر التي تمَّت الإفادة منها في الفصل السادس بمُقارنة ما وردَ فيه من معلومات عن خُطط مدينة حلب، مع ما ذكره ابن العديم العُقيلي، وابن شداد الحلبي عنها.

ق- أبو البقاء البدري(عبد الله بن محمد ت ٨٩٤هـ/١٤٨٩م):

وُلد في شهر ﷺ سنة(٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م) بدمشق ونشأ بها، وتكرَّرَ قدومه مع أبيه للقاهرة، ثمَّ أقام فيها مُدَّة، وكتب عن خلقٍ من الشيوخ، وبرَع في الجغرافية، فصنَّفَ فيها كتاباً سمَّاه" **نزهة الأنام في محاسن الشام**"، وهو من الكُتب الأكثر أهمِّية التي تناولت دمشق الشام، إذ استوحى المؤلِّف موضوع كتابه من غوطة دمشق، وهي بُقعة متفرِّدة بجمالها في عصر المؤلِّف، فقدَّم الكتاب وصفاً لها، وتعداداً لثمارها وورودها، وضواحيها ونواحيها، وأنهارها؛ ولأهمِّيته فقد اعتُمد عليه في الفصل الثالث من الأُطروحة لاسيّما عند الحديث عن مزروعات، وأنهار دمشق وغوطتها، مُقارنةً مع ما ذكره شيخ الرَّبوة الدمشقيّ.

ر- النعيمي(عبد القادر بن محمد ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م).

اشتهرَ النُّعيميّ بالتاريخ والحديث والتصوّف، وألَّف كُتباً كثيرة أهمَّها" **الدارس في تاريخ المدارس**"، الذي يُعدُّ من أهمِّ كتب تاريخ دمشق بعد تاريخ ابن عساكر، وقد جمعَ فيه تاريخ دور القُرآن الكريم، والحديث الشريف، والمدارس، والتكايا، والزوايا، و الجوامع المعروفة في دمشق حتَّى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وذكرَ فيه تراجم أصحابها وسِيَر من درَّسَ فيها، ومن ميّزات هذا الكتاب ومحاسنه أنَّهَ جمعَ فيه الأخبار الموزَّعة في كتب التاريخ والمؤرِّخين(كتاريخ ابن الأثير، وأبو شامة، وابن خلَّكان، وابن شدّاد، والذهبيّ، وابن كثير، وابن قاضي شهبة، وغيرهم).

ويُعدُّ هذا الكتاب من أهمِّ المصادر التي تمَّ الاعتماد عليها في الأُطروحة، فاستُخدِمَ بشكلٍ كبيرٍ في الفصل الثاني عند بحث الحركة العلميَّة في بلاد الشام في العصر المملوكيّ، فتمَّ تخريج كثير من أسماء المدارس، والزوايا، والخوانق، والربط، والمساجد، وتعريفها من خلاله. كذلك وُظِّفَ في الفصل الرابع، عند مُقارنته مع ما ذكره ابن بطوطة عن المراكز العلميَّة في بلاد الشام، مع مُلاحظة أنَّ الكتابَ كان حاضراً بشكلٍ كبير في الفصل السادس أيّ فصل الخطط الجُغرافيَّة، إذ تمَّت الاستعانة فيه بمُقارنة ما وردَ فيه من معلومات عن خططِ مدينة دمشق، مع ما تناولَهُ ابن شدَّاد الحلبيّ بمثيلاتها من الخطط.

ش- العُليمي(مُجير الدِّين عبد الرحمن بن محمد ت ٩٢٨ هـ/ ١٥٢٢ م):

وُلد العليميّ بالقدس سنة(٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م)، ونشأ في بيت عُرِف بحبِّهِ وبعنايته بالعلم، تدرَّج في تحصيل العلم، وارتحلَ في سبيله إلى الشام، ومصر، وبيت المقدس، فأخذَ الفقه الحنبليّ عن عُلمائه والحديث عن أئمَّته، وتمكَّن من علوم اللغة، ممَّا أهَّله ليكون فقيهاً ومُحدِّثاً وخطيباً وقاضياً للقُضاة الحنابلة، فتولَّى قضاء الرملة سنة(٨٨٩هـ/١٤٨٤م)، ثمَّ توسَّعَ عمله وأصبحَ قاضياً في القدس، والخليل، والرملة، ونابلس.

اشتهر العُليمي مُؤرِّخاً وجغرافيَّاً فصنَّف كتاباً في الجُغرافية التاريخيَّة، سمَّاه" **الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**" ضمَّنه الحديث عن مدينة بيت المقدس، ومدن الأراضي المُقدَّسة في فلسطين، وما فيها من المساجد، والجوامع، والكنائس، والأبواب، والشوارع، والمزارات، والقبور، والخانقات، والزوايا، ومصادر المياه. ولهذا المصدر أهمِّية لا بأسَ بها في الأُطروحة، إذ تمَّت الاستعانة فيه بتعريفِ كثيرٍ من المدارس، والمساجد، والكنائس، والأديرة، والأبواب ضمنَ الفصل الرابع، كما استُخدمَ مُقارنة مع ما أورده رحَّالة العرب من معلومات عن خطط الأماكن المُقدَّسة، لا سيَّما مساجدها ومزاراتها، وأبوابها، وقبورها، وغير ذلك.

ت- ابن طولون الصالحيّ الدمشقيّ(محمد بن علي ت ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦ م):

وُلِد بصالحية دمشق في ﷺ سنة(٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)، وكان مؤرِّخاً عالماً بالتراجم، وله مُشاركة في سائر العلوم حتَّى في التعبير والطب، وبرعَ في الجُغرافية فصنَّفَ فيها كُتباً عدَّة أشهرها" **الشمعة المُضيئة في أخبار القلعة الدمشقيَّة**"، و" **القلائد الجوهريَّة في تاريخ الصالحيَّة**"، و" **ضرب الحُوطة على جميع قُرى الغوطة**"، وهي كتب في جُغرافيَّة دمشق، وما فيها من الخطط والآثار، وتمَّت الاستعانة بها بتعريفِ ما وردَ في البحث من الخطط والآثار، لاسيَّما في الفصلين الثاني والسادس من الأُطروحة.

ث- ابن كنان الدمشقي(محمد بن عيسى بن محمود ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م):

مُؤرِّخٌ مُشارِكٌ في بعض العلوم لا سيَّما علم الجغرافية الذي صنَّفَ فيه كُتباً عدَّة، أشهرها" **المواكب الإسلاميَّة في الممالك والمحاسن الشاميَّة**"، و" **المروج السندسيَّة في تاريخ الصالحيَّة** "، وهما كتابان في خطط مدينة دمشق وما حولها، ضمَّنَهُما الحديث عن مدارسها، ومساجدها، وكنائسها، وأبوابها، وحاراتها، وشوارعها، وأنهارها، وخوانقها، وزواياها، وبيمارستاناتها، وجرى الاعتماد على هذين الكتابيين في تعريف الكثير من خطط دمشق وآثارها، لاسيَّما في الفصلين الثاني والسادس من الأُطروحة.

٢- كُتب الرحلات:

ًً١- الرحلات العربيَّة:

أ- خسرو(ناصر علوي ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م):

وُلِد سنة(٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م) في بلدة قباديان من أعمال بلخ بإقليم خُرسان، سافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحجّ، وقامَ برحلاتٍ طويلة إلى العالم الإسلاميّ، فزار فلسطين سنة(٤٣٦هـ/ ١٠٤٧م)، وترك وصفاً لرحلته بكتاب سمَّاه" **سفرنامه**". وقدَّمت رحلته معلومات قيّمة عن الأحوال الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، والتطوّر العُمرانيّ ووصف بعض المُدن، وتطوّر عدد من القُرى؛ لذلك كان لابُدَّ من الاعتماد عليه خاصَّة في الفصل الرابع من الأطروحة، بمُقارنة معلوماته عن الأماكن المُقدَّسة، مع ما أوردَهُ رحَّالة العرب عنها.

ب- الهرويّ(أبو الحسن علي بن أبي بكر ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م):

رحَّالة و مُؤرِّخ، أصله من هُراة، ومولِدَه بالموصل، اشتهرَ بكُثرة ترحَاله وقضَى مُعظم حياته في أنحاء المشرق والمغرب الإسلاميّ، لذلك عُرِفَ بالسائح الهرويّ. سجَّل مُشاهدته في كتاب سمَّاه" **الإشارات إلى معرفة الزيارات**"، وهو كتاب حافل بالمعلومات الجُغرافيَّة والتاريخيَّة عن العالم أجمع، وقد احتوى الكتاب في طيَّاته وصفاً لكثيرٍ من المزارات والأماكن الدينيَّة المُقدَّسة في بلاد الشام؛ لذلك أمكَنَ الإفادة منه بمُقارنة ما وقعَ فيه من ذكر للمزارات والأماكن المُقدَّسة، مع مثيلاتها عند الرحَّالة العرب في الفصل الرابع.

ج- ابن جُبير(محمد بن أحمد الكتاني ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م):

وُلِد في مدينة بلنسية، وتلقَّى العلم على الكثير من شيوخ عصره، وقام بثلاث رحلات إلى المشرق العربي الإسلامي، كان آخرها سنة(٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، وأهمُّ ما يُمَيِّز رحلاته تلك أنَّها مكتوبة على شكل مُذكَّرات يوميَّة، مع كلّ مَشْهَد وكلّ بلدة مرَّ بها باليوم والشهر. ولم يكتب ابن جبير رحلته في شكل كتاب بل كانت أوراقاً مُنفصلة، جمعها أحَّد تلامذته، ونشرها في كتاب باسم" **تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار**"، ذكر فيها الكثير من الجوانب المُتعلِّقة بأوضاع بلاد الشام في المناطق الصليبيَّة و الإسلاميَّة، ومن ذلك وصفه للساحل الشاميّ، والحياة الاقتصاديَّة، والخارطة المذهبيَّة، والقلاع، والعلاقات التجاريَّة.

وقدَّم هذا المصدر معلومات مُهمَّة عن الجوانب الاجتماعيَّة المتعلِّقة بالعادات والتقاليد سواء لدى المسلمين أو الصليبيين، فكانت الإفادة منه عظيمة في الفصل الرابع من الأُطروحة بمُقارنة ما تمَّ دراسته عند الرحَّالة موضوع الفصل مع ما دوَّنَهُ ابن جبير، وهي مُقارنة وصفيَّة، شملت الحديث عن أوصاف المُدن، والقلاع، والحصون، والأنهار، و النواعير، والمساجد، والكنائس، وغيرها من الجانب العُمرانيّ، مع إشاراتٍ إلى بعض الجوانب الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة.

د- التجيبي البلنسي(القاسم بن يوسف ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م):

وُلِد سنة(٦٧٠هـ/١٢٧١م)، في بلنسيَّة، وهاجرت أُسرته إلى سبتة، ويبدو أنَّ خروجه للرحلة والطلب كان نحو(٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م)، فدخلَ بجاية وتونس، والإسكندريَّة و القاهرة، ثمَّ حجَّ، و بعدها انصرف من حجِّهِ إلى دمشق، حيثُ مكثَ فيها أياماً عدَّة، وبعد عودته من رحلته جمع كلَّ ما شاهده في مُصنَّفٍ سمَّاه" **مُستفاد الرحلة والاغتراب**". وجرى الاعتماد عليه في مواضعٍ عدَّة من الأطروحة لاسيَّما في الفصل الرابع منها.

هـ- العيَّاشي(عبد الله بن محمد ت ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩م):

رحَّالةٌ مغربيٌّ، وُلِدَ في شهر شَعْبَان من سنة(١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م)، يُعدُّ من أبرز أعلام المغرب والمشرق، رحلَ العيَّاشي إلى الحجِّ مرَّات عدَّة، كان أوَّلها سنة(١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م)، وبدأ رحلته من سجلماسة ثمَّ طرابلس ثمَّ برقة، فالجبل الأخضر ودرنة فالقاهرة والسويس والعقبة، ووصل إلى القدس في مُحَرَّم سنة(١٠٧٤هـ/ ١٦٦٢م)، وسكنَ أثناء اقامته بالقُدس في زاوية المغاربة، فوصف الحرم القُدسيّ الشريف في رحلته، وأورد بعض قياسات الصخرة والقباب التذكاريَّة الموجودة في سطوح الصخرة، ثمَّ زار جبل الطور وعين سلوان ومقام النبي موسى، وتطرَّق في حديثه إلى المسجد الأقصى القديم، ثمَّ تحدَّث عن الحياة العلميَّة في القُدس.

سجَّلَ رحلته في كتاب حمل عنوان" **الرحلة العياشية**" نسبة لمؤلِّفه، وتُعدُّ رحلته ديوان علم وأدب، وسِجِلَ تاريخ وتصوُّف، وأخبار وآثار، انفردت دونَ سواها من الرحلات وأُمَّهات المصادر بإيراد جُملة من النصوص والرسائل والإجازات والنقول وخطب الكتب، كما أنَّها ترجمت لعددٍ من الأعلام الَّذين لا يكاد يُسمَع لهم رِكْزاً في غير هذه الرحلة؛ ولأهمِّية الرحلة فقد كانت الاعتماد عليها كبيراً لا سيَّما في الفصل الرابع من الأُطروحة، بمُقارنة ما وردَ فيها من معلومات عن الأماكن المُقدَّسة، من وصف للمُدن، والخطط، والآثار، مع ما تمَّ دراسته عند الرحَّالة العرب.

٢- الرحلات الأجنبيَّة:

أ- الرحّالة الإنكليزي سايلوف(Sawulf)(ق٦هـ/ ١٢م):

رحَّالة إنجليزي، لُقِّبَ سايلوف؛ لكُثرة ترحَاله وأسفاره، رحلَ إلى الأراضي المُقدَّسة في فلسطين سنة(٤٩٦هـ/ ١١٠٢م)، بعد أن مضَى على استقرار الصليبيين فيها نحو ثلاث سنوات وثمانية أشهر، ودَوَّن كلَّ ما شاهدَه في رحلته. وقد تمَّ الاعتماد على نصِّ الرحلة المُترجم للُغة العربيَّة المُعنون بـ" **رحلة الحاج سايلوف لبيت المَقدِس والأراضي المُقدَّسة ١١٠٢- ١١٠٣م(وصف الأراضي المُقدَّسة)**"، إذ اعتُمِد عليها في الفصل الخامس من الأُطروحة، فاستُخدمت معلوماتها مُقارنةً مع ما وردَ من معلومات تمَّ تناولها عند الرحَّالة الألماني بورشارد.

ب- الرحَّالة الروسي دانيال الراهب(Danial alrahb)(ت ٥١٦هـ/١١٢٢م):

وُلِد في مقاطعة تكرينكوف في روسيا الصُغرى، وكلُّ ما يُعرف عنه أنَّهُ عَملَ في أواخر حياته أسقفاً. وقد تمَّ الاعتماد على رحلته المُترجمة للُغة العربيَّة والموسومة بعنوان" **وصف الأرض المُقدَّسة في فلسطين**". وتُعدُّ رحلته وثيقة مُهمَّة عن الأراضي المقدَّسة خلال بدايات الاستقرار الصليبي في المشرِق، إذ احتوت على جوانبٍ عدَّة ذات أهمِّيةٍ لا بأس بها على مُستوى العلاقات السياسيَّة والحربيَّة بين مملكة بيت المقدس، والقوى المجاورة لها، كما احتوت على معلومات مُهمَّة عن الحياة الاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والحضاريَّة المعماريَّة في الأراضي المُقدَّسة؛ ولذلك كانت هذه الرحلة إحدى أهمّ المصادر التي لا يُمكن الاستغناء عنها في الأُطروحة، إذ جرى توظيف ما وردَ فيها من معلومات بمُقارنتها مع ما تمَّ دراستَهُ في الفصل الخامس المُختصّ بالرحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام في عصر دولة المماليك البحريَّة في مُختلف الجوانب السابقة الذكر.

ج- الرحَّالة الروسي الحاج فيتلوس(Fetellus)(ت ٥٦٤هـ/١١٦٨م):

وُلِدَ في مُقاطعة تكرينكوف الروسيَّة، ورحلَ إلى الأراضي المُقدَّسة خلال الاحتلال الصليبي لها، ودَوَّن مُشاهداته في كتابٍ، تمَّ الاعتماد على ترجمتِهِ العربيَّة المُعنونة بـ" **وصف الأرض المُقدَّسة في فلسطين**"، فكانت الإفادة منه عظيمة في الفصل الخامس من الأُطروحة بمُقارنة معلوماته مع ما أوردَهُ الرحَّالة الألماني بورشارد من معلوماتٍ عن النواحي العُمرانيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والسياسيَّة، والحربيَّة، في الأراضي المُقدَّسة.

د- الرحَّالة الألماني ثيودوريش(Theoderich's)(ت ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م):

رحَّالةٌ ألمانيٌ لم يُعرف عنه سوى اسمه الأوَّل، رحلَ إلى الأراضي المُقدَّسة، وبقي فيها نحو سنتين، وخلال رحلته زارَ أغلب مناطقها، وقدَّم وصفاً لكلِّ مُشاهداته في كتابٍ اعتُمِدَ على ترجمته العربيَّة المُعنونة بـ" **وصف الأماكن المُقدَّسة في فلسطين**"، فكانت الإفادة من هذه الرحلة كبيرة بدراستها كرحلة مُقارنة، مع ما تمَّ تناوله ودراسته في رحلة الألماني بورشارد، خاصَّة من الناحية الاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة.

هـ- الرحَّالة الألماني يوحنَّا الورزبرجي(John of Wurzburg)(ت ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م):

اعتُمِدَ في الأُطروحة على الترجمة العربيَّة لرحلته والمعنونة بـ" **وصف الأراضي المُقدَّسة في فلسطين**"، وتكمُن أهمِّية الرحلة بأنَّ صاحبها قدَّمَ معلومات مُهمَّة عن أساليب المُقاومة العربيَّة الإسلاميَّة للاحتلال الصليبي، إضافةً لتناوله الهيئات الحربيَّة الصليبيَّة بشكلٍ خاص ممَّا ميَّزه عن غيره من الرحَّالة الأوروبيين بصفة عامَّة، والألمان منهم بصفة خاصَّة، وهذا ما جعلَ الإفادة منها عظيمة كون المعلومات التي احتوتها لا توجد بغيرها من الرحلات. وقد تمَّ توظيف هذه المعلومات في الفصل الخامس، لا سيَّما عند مُقارنتها مع ما أورده كُلَّاً من الرحَّالة الألماني بورشارد، و الرحَّالة الإنكليزي جون ماندڤيل، بخصوص

الهيئات الحربيَّة في الأراضي المُقدَّسة، والعلاقات السياسيَّة والحربيَّة بين العرب المسلمين والصليبيين، إضافةً إلى مُقارنتها بالجوانب الاقتصاديَّة، والعمرانيَّة في الأراضي المُقدَّسة.

و- بنيامين التطيلي(Benjamin of Tudela)(ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م):

بنيامين بن الرابي يونة التطيلي النبَّاري الإسباني الأندلسي، رحَّالة يهودي، من أهل تطيلة في الأندلس، قامَ برحلته بين سنتي(٥٦١- ٥٦٩هـ/١١٦٥-١١٧٣م)، فزار بلاد الشام، والعراق، ومصر، واليمن، ثمَّ عاد إلى إسبانيا وأنهى رحلته في قشتالة سنة(٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)، ودوَّن في رحلته مشاهداته التي شغلت ثلاث وأربعين فصلاً، غصَّت بالمعلومات الجُغرافيَّة، والتاريخيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، إضافةً إلى قائمة مُهمَّة لأسماء أعيان الرجال في البلاد التي مرَّ بها، مع الدلالات المُفيدة عن المُدن والأعمال والحرف.

قدّمت رحلة التطيلي معلومات مُهمَّة للفصل الخامس من الأُطروحة وذلك بإجراء مُقارنة وصفيَّة لما ذكره من معلومات تخصُّ الجوانب العُمرانية، والاجتماعيَّة الخاصَّة باليهود في الأراضي المُقدَّسة، مع ما ذكره الرحَّالة الألماني بورشارد، والرحَّالة الإنكليزي جون ماندڤيل عن الجوانب ذاتها.

ز- الرحّالة لودولف فون سوخم(Ludolph Von Suchem's)(ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م):

زارَ هذا الرحَّالة بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، وقد تمَّ الاعتماد على نصِّ رحلته المُترجمة للُغة العربية بعنوان" **وصف الأرض المُقدَّسة**"، والتي وقعت ضمن الجزء السابع والثلاثين من الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيَّة للأستاذ الدكتور سهيل زكّار. احتوت رحلة فون سوخم على معلومات عن الحياة السياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والحضاريّة العُمرانيَّة، وما تتضمَّنه من وصفِ المدن، والأديرة، والكنائس، والأبواب، فكانت الإفادة منها عظيمة في الفصل الخامس بمُقارنة معلومات ما تمَّ دراسته عند الرحَّالة بورشارد، والرحَّالة جون ماندڤيل، مُقارنة وصفيَّة مع ما وردَ عند الرحَّالة فون سوخم.

ح- الرحَّالة ليوناردو فريسكو بالدي- الرحَّالة سيمون سيغولي(ق ٨هـ/ ١٤م):

***- فريسكو بالدي(Lionardo di Niccolò Fresco- Baldi):**

أحَّد الشخصيات البارزة، وابن عائلة فلورنسيَّة نبيلة، حملَ السلاح في شبابه، واشتركَ في سبع حروب قبل رحلته سنة(٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)، وهو أبٌ لستَّةِ أطفالٍ. رحلَ إلى الشرق برفقة سيمون سيغولي، وعند عودته من رحلته سنة(٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م) أصبحَ مُحافظاً لمدينة كاستيلو، ثمَّ حكم مدينة مونته في جمهورية فلورنسا.

***- سيمون سيغولي(Simone Sigoli):**

أحَّد الشخصيات المُهمَّة من فلورنسا، لا يُعرف الكثير عن سيرته، ويبدو أنَّه لم يحصل على أيِّ منصبٍ حكومي في حياته.

في سنة(٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م) قام ثلاثةَ عشر رجُلاً من نُبلاء توسكانا برحلة حجٍّ إلى الأراضي المقدَّسة في فلسطين، في أوائل أيام دولة المماليك البُرجيَّة التي كان يحكمُها آنذاك السلطان الظاهر برقوق، و من بين هؤلاء الرحَّالة قام اثنان من مدينة فلورنسا، وهما: فريسكو بالدي، وسيمون سيغولي بتدوين وقائع رحلتهم، وما جرى لهم فيها من أحداثٍ، وما رأوهُ من عظمة مُدن الشرق إبَّان ازدهار المماليك، وذلك بعد سبعٍ وتسعينَ عاماً من طرد الغُزاة الصليبيين.

وقد تمَّ الاعتماد على نصِّ الرحلة المُترجمة للغة العربيّة والمعنونة بـ " **رحلات إلى الأراضي المُقدَّسة**"، وقد احتوى نصّ الرحلة على أحداثٍ ووصفٍ حيٍّ مُدهشٍ لمُدن الشرق التي زارها هؤلاء النبلاء الإيطاليُّون، فعدَّدوا فيها أماكن الحجّ والزيارة بفلسطين، ووصفوا طُرق السفر، والمدن، والقُرى، والمعالم الطبيعيّة، وخصُّوا التجارة بجانبٍ وافٍ من كتاباتهم، إذ أدهشهم الغنى التجاري والتقدُّم الحضاري للمشرق أيَّام دولة المماليك، فقدَّموا وصفاً لهذا الجانب.

وأهمُّ ما يُلاحظ في نصِّ الرحلة هو تقديمها صورة غنيَّة مليئة بالحركة والألوان والتفاصيل الدقيقة الجذَّابة لمُجتمعات المشرق العربي قُبيل سنوات من كارثة الاجتياح التتري التي عصفت بالمشرق العربي سنة(٨٠٠هـ/ ١٤٠٠م)، وتركت بعضَ بُلدانه ومُدنه خراباً بعدما كانت زاهرة عامرة ترفل بالحضارة والحياة، إضافةً إلى احتواءها على معلومات تخصُّ الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في مُدن بلاد الشام خلال العصر المملوكي، ومن هنا تكمُن أهمِّية الرحلة والحاجة إليها في البحث، إذ جرى تسخير معلوماتها في الفصل الخامس بشكلٍ كبير، واستُخدمت هذه المعلومات مُقارنةً مع ما ذَكرَهُ الرحَّالة الألماني بورشارد، لا سيَّما ما يخصُّ الجانب العُمراني الوصفي، لكنْ الجانب الأكبر باستخدامها، كان مُقارنة مع ما ذُكِرَ عند الرحَّالة الإنكليزي جون ماندفيل، فَرُفِقَت معلومات ما تمَّ ذكره عند ماندفيل بدراسة مُقارنة مع ما ورد عند فريسكو بالدي، وسيمون سيغولي، في مُختلف الجوانب العُمرانيَّة الوصفيَّة بذكر المدن، والقلاع، والأديرة، والكنائس، والأبواب، إضافةً للجوانب الاقتصاديَّة، و الاجتماعيَّة، والسياسيَّة الحربيَّة.

ثانياً- المصادر التاريخيّة:

إنَّ البحثَ في موضوع الأدب الجُغرافيّ والرحلات يتطلَّب الاعتماد على عددٍ وافر من المصادر التاريخيَّة، لاسيما أنَّ علم التاريخ يرتبط بالجُغرافية في كثير من جوانبه، ويعدُّ أحَّد أهمّ العلوم المساعدة له، ولإتمام الفائدة المرجوَّة من البحث، تمَّ الاعتماد على عددٍ كبيرٍ من هذا النوع من المصادر، سواءً منها التواريخ العامَّة، التي جرى استخدمها لتوثيق الأحداث التاريخيَّة، أو كتب التاريخ التي تهمُّ فئات مُعيَّنة من تراجم الأعلام، وهي بدورها متنوِّعة، وتشمل كتب السير، والطبقات، والنُحاة، واللغويين، وغيرهم، وإنَّ نظرة سريعة لأهمِّ مصادر البحث التاريخيَّة كفيلة بإعطاء فكرة عن المصادر التي زوَّدت موضوع الدراسة بكثير من المعلومات القيّمة، والتي لولاها لما قُدِّرَ لهذا البحث أن يتمَّ، ولعلَّ من أهمِّها:

١- كتب التاريخ العام:

أ- ابن العميد(أبو اليسر المكين جرجس ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م):

صاحب كتاب" **أخبار الأيُّوبيين**" اعتُمِد عليه في ذكر بعض الأحداث المتعلِّقة بملوك بني أيُّوب، إضافةً لاستخدامه مصدراً لعددٍ من تراجم عُلماء الجُغرافية الَّذين اشتهرَ ذكرهم في العصر المملوكيّ.

ب- ابن واصل الحموي(محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م):

تمَّ الاعتماد على كتابه" **مُفرِّج الكروب في أخبار بني أيُّوب**" الذي أوردَ فيه الأحداث المُتعلِّقة بملوك بني أيوب، فأمكنَ الإفادة منه في ذكر بعض الأحداث التاريخيَّة، لا سيَّما في الفصل الثاني عند الحديث عن عوامل تطوّر علم الجُغرافية، كذلك اعتُمِد عليه في ترجمة كثير من أعلام البيت الأيوبيّ الَّذين وردت تراجمهم فيه بشكل لا توجد عند غيره من المؤرِّخين، فكانت الإفادة منه كبيرة للغاية، إضافةً لاستخدامه مصدراً لعددٍ من تراجم عُلماء الجُغرافية، مثل الجُغرافيّ أبي الفداء.

ج- المنصوريّ(ركن الدين بيبرس ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م):

صنَّفَ كتاباً في التاريخ سمَّاه" **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**"، تضمَّن السنوات من سنة(٦٥٠- ٧٠٩هـ/ ١٢٥٢م -١٣٠٩م)، ويُعدُّ من أهمِّ المصادر التي تتحدَّث عن تاريخ دولة المماليك البحريَّة نظراً لكونَ مؤلِّفه مُعاصراً وشاهد عيان على أحداث ذلك العصر، إذ اعتُمد عليه في توثيق ما ورد من أحداثٍ تاريخيَّة تخصُّ عصر دولة المماليك البحريَّة، إضافةً لاستخدامه مصدراً لعدد من تراجم عُلماء الجُغرافية.

د- أبو الفداء(عماد الدين إسماعيل بن علي ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):

يُعدُّ كتابه" **المُختصَر في أخبار البشر**" من المصادر المُهمَّة عن الفترة التي تناولها البحث، إذ كانت الإفادة منه كبيرة في توثيق ما ذُكِرَ من أحداثٍ تاريخيَّة، وتراجم لعددٍ من مشاهير العصر المملوكيّ الَّذين تمَّ ذكرهم في مُختلف فصول البحث.

هـ- الذهبي(محمد بن أحمد بن قايماز ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م):

اعتُمِد على كتابه" **تاريخ الإسلام الكبير**" وهو كتاب تاريخ وتراجم يتألَّف من اثنين وخمسين جزءاً ابتدأ فيه صاحبه من أوَّل تاريخ الإسلام، وانتهى به حتَّى سنة(٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، فأمكنَ الإفادة منه في توثيق كثير من الأحداث التاريخيَّة الواردة في البحث، مع استخدامه مصدر تراجم لعددٍ من مشاهير عُلماء العصر المملوكيّ، وبشكلٍ خاص في الفصل الثاني، إضافةً لاستخدامه مصدراً لعددٍ من تراجم مشاهير عُلماء الجُغرافية الَّذين ورد ذكرَهم في مُختلف فصول البحث.

و- العيني(بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م):

اشتهرَ كتابه" **عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان**"، ويُعدُّ من أهمِّ المصادر التي ظهرت في العصر المملوكيّ، إذ ابتدأ العيني كتابه منذُ عهد آدم حتَّى سنة(٨٠٥هـ/١٤٠٣م). وقد اعتُمِدَ عليه في ذكرِ

بعض الأحداث التاريخيَّة الواردة في البحث، مع تخريج عددٍ من التراجم لأشهر عُلماء و جغرافيين العصر المملوكيّ، لاسيَّما في الفصل الثاني.

ز- ابن تغري بردي(جمال الدِّين يوسف الأتابكي ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م):

يُعدُّ كتابه" **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**" من المصادر المُهمَّة التي تُؤرِّخ لعصر سلاطين المماليك، وقد ابتدأ فيه صاحبه من خلق الكون حتَّى سنة(٨٧١هـ/١٤٦٦م)، ويقع هذا الكتاب في ستة عشر جزءاً، وتزداد أهمِّية أحداثه بعد سنة(٨٤٥هـ/ ١٤٤٧م)، إذ أرَّخ فيه صاحبه للأحداث التاريخيَّة التي كان شاهد عيان عليها، وتمَّت الإفادة منه فيما يتعلَّق بكثيرٍ من الأحداث التاريخيَّة الواردة في البحث، وترجمة بعض الأعلام من مشاهير العُلماء والجغرافيين، ورجال الحكم، وذلك في أغلب فصول البحث.

ح- السيوطيّ(جلال الدِّين عبد الرحمن ت ٩١١هـ/١٥٠٥م):

اشتهرَ كتابه" **تاريخ الخُلفاء**" الذي تحدَّث فيه عن الخُلفاء الراشدين، وخلفاء بني أُميَّة، والعباسيين في العراق و مصر، فاعتُمِد عليه في الفصل الثاني لاسيَّما عند الحديث عن إحياء الخلافة العباسيَّة في مصر كعاملٍ من عوامل تطوّر علم الجُغرافية في عصر دولة المماليك البحريَّة.

٢- كتب التراجم والطبقات:

أ- ابن أبي أصيبعة(موفق الدِّين أحمد بن القاسم ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م):

وُلِدَ في دمشق، وكان عالماً في الأدبِ والتاريخ، واشتهر بمعرفته بالطبِّ، فصنَّف فيه كتاباً سمَّاه" **عيون الأنباء في طبقات الأطبَّاء**"، تمَّت الاستعانة به بالترجمة لمشاهير أطبَّاء العصر المملوكيّ في الفصل الثاني.

ب- ابن خلَّكان(شمس الدِّين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):

يُعدُّ كتابه" **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**" من أشهر كُتب التراجم والتاريخ الأدبيّ في العصر المملوكي، وقد بدأ ابن خلَّكان تأليفه بالقاهرة سنة(٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، وكان عُمره آنذاك ست وأربعين عاماً، وتكمُن أهمِّيته في أنَّ مُصنِّفَهُ اعتمد في تأليفه على مصادر عديدة منها" **تاريخ دمشق**" لابن عساكر، و" **النوادر السلطانيَّة والمحاسن اليوسفيَّة**" لبهاء الدِّين ابن شدَّاد وغيرها، وترجمَ فيه للعديد من سلاطين وعُلماء وأُدباء العصر المملوكيّ، فكانت الإفادة منه كبيرة في مُختلف فصول البحث.

ج- الصفديّ(صلاح الدِّين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م):

تمَّت الإفادة في هذا البحث من كتابه" **الوافي بالوفيَّات**"، الذي يُعدُّ بمنزلة مُعجمٍ لتراجم الرجال، بدأه منذُ القرن الأوَّل الهجري إلى عصره، فكانت الإفادة منه كبيرة في الترجمة لكثيرٍ من مشاهير العُلماء الَّذين ورد ذكرهم في مُختلف فصول البحث.

كذلك تمَّ الاعتماد في ترجمة عددٍ من مشاهير العُلماء على كتابه الآخر المُعنوَن بـ" **أعيان العصر وأعوان العصر**"، فكانت الإفادة منه كبيرة.

د- ابن الخطيب الغرناطي(محمد بن عبد الله بن سعيد ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م):

يُعدُّ كتاب" **الإحاطة في أخبار غرناطة**" للأديب الأندلسي لسان الدِّين ابن الخطيب، من أُمَّهات كتب التاريخ الأندلسي، ويتمحور موضوع الكتاب حولَ الحديث عن تاريخ غرناطة آخر معقل عربي إسلامي سقط في الأندلس، وهو عبارة عن موسوعة تُؤرِّخ لكلِّ ما يتعلَّق بهذه المدينة من أخبارٍ، وأوصافٍ ومعالمٍ تاريخيَّة، وقد عُنِيَ مؤلِّفه بتغطية جميع الجوانب الجُغرافيَّة من مواقع وتضاريس، والجوانب الفكريَّة والاجتماعيَّة مع الترجمة لكلِّ من مرَّ بها من الكُتَّاب، والشُعراء، والأُدباء، والوزراء، والمتغلِّبين، فشملت تراجمه أكثر من خمسمائة شخصيَّة مُهمَّة في تاريخ المدينة. غير أنَّ المُلاحظ على ابن الخطيب في كتابه عدم التقيُّد بالترتيبِ التاريخيّ للعصور والحوادث والأشخاص، وإنَّما التزمَ بالترتيب الأبجدي للتراجم، وقد تمَّت الاستعانة بهذا الكتاب في الفصل الرابع من الأُطروحة عند الترجمة للرحَّالة المغاربة الَّذين زاروا بلاد الشام في عصر دولة المماليك البحريَّة، فكانت الإفادة منه عظيمة.

ولا تقلُّ عنه أهمِّية كُتبه الأخرى التي اعتُمِد عليها أيضاً في الفصل الرابع عند الحديث عن الرحَّالة العرب المغاربة، لاسيَّما كتاب" **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**"، و" **الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شُعراء المائة الثامنة**"، و" **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**"، و" **ريحانة الكتاب ونجعة المُنتاب**"، و" **خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف**".

هـ- ابن حَجَر العسقلانيّ(أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م):

يُعدّ كتابه" **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**" الذي تضمَّن تراجم لرجال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي من أهمِّ الكتب التي اعتُمد عليها في البحث، لاسيَّما في دراسة حياة عدد من جُغرافيّي العصر المملوكيّ الَّذين تمَّ تناولهم في أغلب فصول البحث، كما تمَّ الاعتماد على كتابه الآخر" إنباء الغمر بأبناء العُمر" وذلك عند الحديث عن عددٍ من مشاهير العُلماء في الفصل الثاني من الأُطروحة.

و- السخاوي(شمس الدِّين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م):

اشتهرَ كتابه" **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**" الذي ترجم فيه لأعيان القرن التاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ بين سنتي(٨٠١- ٩٠٠هـ/١٣٩٨-١٤٩٤م) مُرتَّباً تراجمه ترتيباً ألفبائياً، وكانت الإفادة منه كبيرة للغاية في الترجمة لعددٍ من مشاهير العُلماء، والشخصيَّات المشهورة التي وردَ ذكرها في مُختلف فصول الأُطروحة.

ز- ابن القاضي المكناسي(أبو العباس أحمد بن محمد ت ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م):

ولِدَ بمكناس، ونشأ في بيت علمٍ، وأخذ عن شيوخ عصره في المغرب والمشرق، وكان ابن القاضي حريصاً على نشر العلم والإفادة، فصنَّف مؤلَّفاتٍ عدَّة أشهرها" **جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينة فاس**"، تحدَّث فيه عن جُغرافيَّة المغرب وساكنيه، والأُصول العِرقيَّة للمغاربة، وبناء مدينة فاس، ثمَّ تحدَّث عن الحركة العلميَّة والفكريَّة بحاضرة فاس عبر التراجم والمناقب، فذكر تراجم ملوكها، وعلماءها، وأعلامها، وما لهم من نُظمٍ وتأليف، ومن أخذوا عنه، أو أُخذ عنهم، سواء كان من الغُرباء القادمين عليها أو من أهلها، مُرتِّباً تراجمه على حروف المُعجم، ويُعدُّ هذا الكتاب من أهمِّ المصادر التي جرى تسخيرها في الفصل الرابع من الأُطروحة عندَ الترجمة لمشاهير الرحَّالة العرب المغاربة.

كذلك تمَّت الإفادة من كتابه الآخر الموسوم بعنوان" **دُرَّة الحجال في أسماء الرجال**"، وهو ذيل على كتاب" **وفيات الأعيان**" لابن خلِّكان، ترجم فيه صاحبه لأعيان الرجال منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حتَّى أوائل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، فكانت الإفادة منه عظيمة بالترجمة لعددٍ من مشاهير عُلماء العصر المملوكي في مُختلف فصول الأُطروحة.

ح- المقرّي(أبو العباس أحمد بن محمد ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م):

يُعدُّ كتابه" **أزهار الرياض في أخبار القاضي عيَّاض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض**"، موسوعة ضخمة، تقع في خمسة مُجلَّدات، جعلَ مؤلِّفها محورها أخبار القاضي عياض، وجمعَ فيها ألواناً من المعارف التاريخيَّة والأدبيَّة واللغويَّة، إذ ألمَّ فيها بكثيرٍ من شؤون بلاد الأندلس، وأحوال المُسلمين في عصر الجلاء عنها، فقيَّدَ فيها كثيراً من مشاهداته، وأخبار تنقُّلاته في البلاد. فامتازَ باحتفاظه بفئة كبيرة من الأخبار والنصوص المغربيَّة والأندلسيَّة، التي لم ترِدْ في غيرها من الكتب. وتُعدُّ هذه الموسوعة من أهمِّ المصادر التي اعتُمِدَ عليها بالترجمة لمشاهير الرحَّالة المغاربة في الفصل الرابع من الأُطروحة.

كذلك اعتُمِدَ في الترجمة لعددٍ من مشاهير العُلماء المغاربة والأندلسيين على كتابه الآخر الموسوم بعنوان" **نفح الطيب من غُصن الأندلس الرطيب**"، فكانت الإفادة منه عظيمة في مُختلف فصول البحث؛ وتأتي أهمية الاعتماد على كتابه المعنون بـ" **فتح المُتعال في مدح النعال**" بترميم ما فُقِد من رحلة ابن رشيد السبتي الفهري، لا سيَّما الجزء الخاص ببلاد الشام، فمن خلال هذا الكتاب أمكَنَ التعرُّف على بعض المناطق التي زارها ابن رشيد السبتي في بلاد الشام.

ومن كتب التراجم الأخرى التي أفادت الدراسة: كتاب" **الأنساب**" للسمعاني(ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م)، و" **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان**"، لليافعيّ(ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م)، و" **طبقات الشافعيَّة الكُبرى**" لتاج الدِّين السبكيّ(ت٧٧١هـ/١٣٧٠م)، و" **طبقات الشافعية**" للأسنوي(ت ٧٧٢هـ/١٣٧١م)، و" **الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفية**" لأبي الوفاء القرشيّ(ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م)، و" **طبقات الحنابلة**"

لابن رجب(ت ٧٩٥هـ/١٣٩٣م)، وغيرها من المصادر التي لا مجال لذكرها كاملة؛ لكُثرتها، لذلك تمَّ اختيار المصادر ذات الأهمِّيَّة الأكبر في الدراسة.

و لابدَّ من الإشارة إلى وجود عددٍ من المصادر المُتخصِّصة في مجال الفلك، والرياضيَّات، والهندسة، والكيمياء، والحياة، والطب، وعلوم القرآن الكريم، والحديث، والفقه، وعلوم اللغة العربيّة من نحو وصرف، ودواوين شعر، ومعاجم لغويَّة، تلك المصادر قدَّمت معلومات قيّمة لإغناء البحث، وكانت بحُكم المصادر الأصليَّة التي لا يُمكنَ الاستغناءُ عنها في كثيرٍ من مواضعِ البحث.

ثالثاً- المراجع:

قدَّمت الدراسات الحديثة، لاسيَّما العربيَّة منها، والمُعرَّبة معلومات ذات أهمِّية كبيرة، ساهمت في إغناء البحث. فجرى الاعتماد على العديد منها؛ لما تحتويه من معلوماتٍ مُهمَّة تلقي الضوء على تطوّر علم الجغرافية، وانجازات عُلماء الجغرافية العرب المسلمين منذُ بداية الدولة العربيَّة الإسلاميَّة وصولاً إلى العصر المملوكيّ موضوع البحث؛ لذلك لا يُمكن تجاهل هذه المراجع، وأهمِّيتها عند البحث في المادَّة العلميَّة التي اعتمدت عليها الأطروحة.

وفيما يلي يُقدِّم الباحث عرض موجز لأهمِّ هذه الدراسات، مُرتَّبة ترتيباً ألفبائيَّاً:

١- المراجع العربيَّة:

أ- أحمد(أحمد رمضان):

يعدُّ كتابه" **الرحلة والرحَّالة المسلمون**"، من أهمِّ كتب الدراسات الجُغرافيَّة الحديثة، إذْ ضمَّنه الحديث عن الرحلة وأسبابها، وتطوّر الرحلة عند العرب، ثمَّ الحديث عن أوائل الرحَّالة في العصر الإسلامي، مع ذكر نماذجٍ من الرحَّالة الجغرافيين المشارقة والمغاربة، وقد أمكَنَ الإفادة منه بشكلٍ كبير في الفصل الأوَّل من الأُطروحة عند الحديث عن تطوّر علم الجغرافية عند العرب المسلمين، وعند الحديث عن اتِّجاهات الدراسات الجُغرافيَّة، مع استخدامه في الفصل الرابع بالحديثِ عن أدبِ الرحلة، وأقسامها.

ب- حميدة(عبد الرحمن):

اشتهر كتابه" **أعلام الجُغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**"، إذ تناولَ فيه عوامل ظهور الجُغرافية عند العرب، ونقد الأدب الجُغرافي العربي الإسلامي، ودراسة نماذج لأشهر الجُغرافيين العرب المسلمين، وروَّاد الرحَّالة. وقد قدَّم الكتاب معلومات مُهمَّة تمَّ الاستعانة بها في الفصل الأوَّل من الأُطروحة بالحديث عن تطوّر علم الجُغرافية عند العرب المسلمين، وعوامل ظهوره، إضافةً لاستخدامه عند البحث في نقد الأدب الجُغرافي العربي.

ج- الدفاع(علي عبد الله):

لعلَّ أهمَّ ما صنّفه في مجال الجُغرافية كانَ كتابه" **روَّاد علم الجُغرافية في الحضارة العربيَّة والإسلاميَّة**"، وهو من أهمِّ كتب الجُغرافيَّة التي تناولت تعريف الجُغرافية، و تطوّرَها عند قدماء العرب، والمصادر الأوليَّة للمعرفة الجُغرافيَّة، مع ذكر بعض مشاهير الجُغرافية؛ ولأهمِّيته تمَّت الاستعانة به في الفصل الأوَّل، والثاني ، والثالث من الأُطروحة، فيما يتعلَّق بذكرِ الموضوعات السابقة.

د- الشامي(صلاح الدِّين علي):

تناولَ المؤلِّف الحديث عن تطوّر الفكر الجُغرافي عند العرب المسلمين، مع دراسة التراث الجُغرافيّ العربي الإسلامي، وفروع الجُغرافية، لاسيَّما البشريَّة، والطبيعيَّة، والاقتصاديَّة، والفلكيَّة، في كتابه المُعنوَن بـ" **الفكر الجُغرافيّ سيرة ومسيرة**"، وقد تمَّت الإفادة منه بشكلٍ كبير في مواضعٍ مُختلفة من الفصل الأوَّل من الأُطروحة.

هـ- الفندي(جمال):

اعُتمِدَ في الأُطروحة على كتابه الموسوم بعنوان" **الجُغرافية عند المسلمين**"، الذي تناولَ فيه تطوّر علم الجُغرافية عند المسلمين، وكتب الجُغرافية العامَّة، والفلكيَّة، و البحريَّة، والإقليميَّة، والرحلات؛ ولأهمِّية ما تناوله المؤلِّف في كتابهِ، فقد استُعين به ليكونَ أحَّد أهمّ الدراسات الحديثة التي جرى تسخيرها في الفصل الأوَّل من البحث.

و- قنديل(فؤاد):

يُعدُّ كتابه" **أدب الرحلة في التُراث العربي**"، من أهمِّ الكتب التي تناولت الرحلات عند العرب، إذ تناول فيه الرحلة العربيَّة قبل الإسلام، وتقاليد السفر وآدابه، ومسيرة تطوّر الرحلة عند العرب المسلمين، مع ذكر نماذجٍ لأشهر رحَّالة العرب المسلمين، ومن هُنا كانت الإفادة منه كبيرة في الفصل الرابع بتعريفِ أدب الرحلة، وأقسامها، ومصادر الرحَّالة العرب المسلمين في تدوينِ رحلاتِهم.

ز- محمدين(محمد محمود):

لعلَّ أشهرَ ما صنَّفه المؤلِّف في مجال الجُغرافية كانَ كتابه" **الجُغرافية والجُغرافيُّون بين الزمان والمكان**"، وهو من أهمِّ الكُتب التي تناولت التعريفات المُعجميَّة لعلم الجُغرافية، والمعرفة الجُغرافيَّة عند قُدماء العرب، ورسم الخرائط الجُغرافيَّة في العصور القديمة، ودور العرب وإسهامهم في مجال الكشف الجُغرافي، وإرهاصات علم الجُغرافية عند عُلماء العرب المسلمين، والرحلات الجُغرافيَّة العربيَّة وأهمّ روَّادها، مع تناوله فروع الجُغرافية الطبيعيَّة والبشريَّة؛ ولتعدُّدِ موضوعات الكتاب، فقد كانت الإفادة منه كبيرة للغاية، عند بحث الجوانب السالفة الِذكر في الفصل الأوَّل من الأُطروحة.

٢- المراجع المُعرَّبة:

تُشكِّل الدراسات المُترجمة عن اللغة الأجنبيَّة رديفاً لا يُمكن الاستغناء عنه في كتابة أيِّ بحثٍ أكاديميٍّ، إذْ أنَّها تُقدِّم معلومات غفلت عنها الدراسات العربيَّة الحديثة، كما أنَّها تُساهم في فهم العقليَّة والنظرة الغربيَّة لتطوّر العلوم العربيَّة الإسلاميَّة، و قد كان لعلم الجغرافية حظوظٍ قويَّة من العناية الغربيَّة، وبناءً عليه فقد استعان الباحث بعددٍ لا بأس به من هذه الدراسات المُعرَّبة، وفيما يلي أهمَّها:

أ- كراتشكوفسكي(أغناطيوس)(Krackovski. J):

مُستشرقٌ روسيٌّ، وُلد في ٤ مارس عام(١٨٨٣م) في فيلنيوس، وتُوفي في ٢٤ يناير(١٩٥١م) في لينينغراد. شُغِفَ منذُ صغرهِ بدراسة آراء المُستشرقين ودراسة اللغة العربيَّة، ودرس تاريخ الشرق الإسلامي، وزار مصر وسورية وفلسطين، فأطَّلع على خزائن كتبها، وتعرَّف إلى علمائها وأُدباءها، ثمَّ عاد إلى بلاده، وعُيّن أستاذاً للعربيَّة وثمَّة رأي يقول: إنَّه كان مُكتشف الأدب العربي الجديد بالنسبة للغرب.

لمْ يعرفْ الاستشراق الروسي عُلماء أولوا اهتماماً كبيراً بالثقافة العربيَّة كما فعل كراتشكوفسكي الذي نشرَ أكثر من أربعمائة وخمسين بحثاً علمياً، كان أبرزها كتابه" **تاريخ الأدب الجُغرافي العربي**" الذي عُدَّ موسوعة حقيقيَّة دقيقة وعابقة بالمعلومات والسِير، والتحليلات لواحدٍ من فنون الكتابة التي شكَّلت جزءاً أساسياً ليس من التُراث العربيّ والإسلاميّ فحسب، لكن من الحضارة العربيَّة ككل، وهو علم الجغرافية.

وتوسَّع كراتشكوفسكي في تناوله له، فبدأ من قرون عديدة قبل الإسلام باحثاً في جذور الرحلات العربيَّة القديمة عائداً الى مُدوَّناتٍ قديمةٍ، مُفصِّلاً في تلك المُدوَّنات ما كتب عن المناطق والبلدان، وإنْ كان في شكلٍ عشوائي، قبل أنْ يبدأ العمل الأكثر علميَّة في الفصول التالية من الكتاب بالحديث عن الكُتب الجغرافيَّة، ومن بينها كتب الرحَّالة العرب، والكتب العلميَّة عن المخلوقات، والتضاريس، وانطلاقاً منها بدأ بالتالي البحث في الجُغرافية بمعانيها الأقرب الى العلميَّة، فتوسَّع في فصول مُتتالية في تحليلهِ لمؤلفات العشرات من الجُغرافيين، والمغامرين، والرحَّالة، والحُجّاج، والتُجَّار الَّذين توغلوا في الصحارى الإفريقيَّة، كما في مناطق الإسلام وبلدان آسيا وما تيسَّر لهم من البُلدان الأوربيَّة، في كلِّ رحابِ العالم القديم؛ ولأهمِّية هذه الموسوعة الجُغرافيَّة، فقد كانت الإفادة منها عظيمة للغاية، وشغلت المعلومات المستوفاة منها مواضع عدَّة في أغلب فصول الأُطروحة.

ب- كلوزيه(رينيه)(Rene. K):

اشتهر كتابه" **تطوّر الفكر الجغرافي**"، عرَّبَهُ الباحث عبد الرحمن حميدة، تناول فيه أُسس الاكتشافات الجُغرافيَّة، وِذكر المسالك والطرق، مع عدد من الرحلات البحريَّة، وتفسير ومنهج علم الجُغرافية، وقد تمَّت الإفادة ممَّا ورد فيه من معلومات بتوظيفها في مواضعها المُناسبة في الفصل الأوَّل من الأطروحة.

ج- لوبون(جوستاف)(Le Bon, G):

يعدُّ كتابه" **حضارة العرب**" من أهمِّ الدراسات الأجنبيَّة الحديثة المُعرَّبة التي تناولت تأثير الحضارة العربيَّة في أوربَّة، إذ أرَّخ فيه صاحبه للعرب وحضارتهم العريقة، فعَرَض الكتاب تأثير الحضارة العربيَّة في العالم، والأمجاد التي حقَّقها العرب عبر العصور المُختلفة، وما وصلوا إليه في مُختلف العلوم، والآداب، والفنون، كما تناولَ فيه بعضاً من أخلاق العرب، وعاداتهم ومكانة المرأة عندهم، فجاء هذا الكتاب كاشفاً عن مكنون الحضارة العربيَّة، جامعاً لعلومها، وفنونها، وآدابها، ومن هُنا كانت الإفادة منه كبيرة بالحديث عن أهمِّ العلوم المُساعدة لعلم الجُغرافية التي تمَّ تناولها في الفصل الثاني من الأُطروحة، إضافةً للاستعانة به بالحديث عن مشاهير عُلماء عصر المماليك البحريَّة في مُختلف العلوم.

د- هارتشون(ريتشارد)(Hartshorn. R):

جُغرافيٌّ أمريكي، يُعدُّ أفضل من كتبَ في طبيعة الفكر الجغرافي ومناهجه، ومن أشهر كتبه في هذا المجالِ كان كتاب" **نظرة في طبيعة الجُغرافية**"، الذي تناولَ فيه مجال الجُغرافية، وسطح الأرض، والغلاف الصخريّ، والمائيّ، والغازيّ، والحيويّ، والبشريّ. وقد تمَّت الاستعانة به في توظيف معلومات مُهمَّة منه عن الجُغرافية عند العرب المسلمين، وأقسامها، وفروعها في مواضع عدَّة من الفصل الأوَّل.

ولابُدَّ من الإشارة إلى أنَّه اعتُمِدَ في الأُطروحة على عددٍ من المصادر والمراجع باللُّغة الأجنبيَّة، التي لن يتمَّ دراستها هُنا تجنُّباً للإطالة، وسيُكتَفى بإدراجها بقائمة المصادر والمراجع الأجنبيَّة الواردة في نهاية الأُطروحة.

الفصل الأوّل

علم الجغرافية وتطوّره عند العرب المسلمين

علم الجُغرافية وتطوّره عند العرب المسلمين

أولاً- تعريف الجُغرافية ومفاهيمها وأقسامها:

١- تعريف الجُغرافية ومفاهيمها:

الجغرافية(Geography) علمٌ قديمٌ، عرفه الإنسان منذ نشأتِه الأولى على سطح الأرض، إذْ كان من الضروري له أن يتعرّف المكان الذي نشأ فيه، و يُعاين خصائصه مثل معالم السطح، والمناخ، والنبات، والحيوان الذي يعيش فيه، وموارد المياه التي تتوفّر به، وذلك حتَّى يستطيع أن يؤمِّن حياته.

وظهرت الجغرافية مع ظهور الإنسان على الأرض، فعلم الجغرافية متّصل بشكلٍ كبيرٍ بالإنسان، فهو كائنٌ جغرافيٌّ بطبعهِ، ولولا وجوده ما كان للجغرافية قيمة، إذ لبَّى الإنسان القديم حاجاته الأساسيَّة من مأكلٍ، ومشربٍ، وملبسٍ باستخدامهِ للفكر الجُغرافيّ[1].

ولمْ يتّفق العلماء على تعريفٍ جامعٍ لعلم الجغرافية، لذلك فقد انقسموا في تعريفه، وفي تحديد مجالات البحث فيه إلى مذاهبَ شتَّى.

والجغرافية علمٌ يُساعد الباحثين على معرفةِ أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الرُبع المسكون من الكرة الأرضيَّة، وكذلك عروض البلدان وأطوالها الواقعة فيها، وأيضاً عدد المدن والجبال والبحار والأنهار والبراري إلى غير ذلك من أحوال الرُبع المعمور[2].

وقيلَ: هي علمُ خواص الأقاليم يُتعرف منه على ما في كل إقليم أو بلد من المنافع والمضار والغرائب والعجائب[3].

---

[1] إسماعيل(أحمد علي): الجغرافية العامة(موضوعات مختارة)، دار الثقافة، الفجالة – مصر، ١٩٩٥م، ص٦.

[2] طاش كبرى(أحمد بن مصطفى زاده): مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٥م، ج١، ص٣٦١؛ حاجي خليفة(مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، ١٩٤١م، مج١، ص٥٩٠؛ القنوجي(صديق بن حسين): أبجد العلوم(السحاب المرقوم الممطر بأنواع الفنون وأصناف العلوم)، وضع فهارسه: عبد الجبار زكّار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨م، ج٢، ص٢١٣؛ الدفاع(علي عبد الله): رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة النوبة، الظهران، ١٩٩٠م، ص١١.

[3] طاش كبرى: مفتاح السعادة، ج١، ص٣٦٢.

الأدب الجغرافي و الرحلات في بلاد الشام

والجُغرافية علمٌ يدرس الأرض والظواهر الطبيعيَّة والبشريَّة عليها، وعلمٌ بأحوالِ الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار، وما يختلف حال السُكان باختلافهِ، وهو الصواب لشمولهِ على غير الأقاليمِ السبعة[١].

ويعود مُصطلح الجغرافية في الأصل إلى اللغة الإغريقيّة، فهو مُشتقّ من كلمة جيوغرافيكا (Geographica)، وجيوغرافيكا الإغريقيَّة مؤلفة من **شقّين** هما: جيو(Geo)، و جرافيكا(Graphica). أمّا الشقّ **الأوّل** أيّ" جيو"، فيعود بأصله إلى جيا(Gaia) التي كانت إحدى الآلهة في مَجمَع الآلهة اليونانيّ، وقدّسها اليونان على أنّها إلهة الأرض الخِصبة، فدلّل اسمها في هذا الموضِع على" الأرض". أمّا الشقّ **الثاني** أيّ" جرافيكا(Graphica) فيعني الوصف أو الصورة. وبذلك يُدلّل مُصطلح جيوغرافيكا على" وصف الأرض"[٢].

أمّا في اللغة العربيّة، فتُعدُّ كلمة الجغرافية حديثة بعض الشيء، إذْ كان العرب والمسلمون يستعملون بدلاً منها صورة الأرض، أو قطع الأرض، أو خريطة العالم والأقاليم، أو علم المسالك والممالك، أو علم تقويم البلدان أو علم الطرق، وصور الأقاليم، وعلم البرود، وعلم عجائب البلاد، والأطوال والعروض، وعلم الأنواء (المناخ)، وعلم الهيئة وهي الجغرافية الفلكيَّة[٣]. وعند التدقيق في هذه العبارات يُلاحظ أنَّها لا تُشير إلى الجغرافية بشكل عامٍّ، بل إلى تقسيمات العالَم.

فمُصطلح كُلٌّ من الأطوالِ والعروض، وعلم تقويم البلدان يُشيران، حسب مدلولهما نفسه، إلى دراسة جُغرافيَّة الكون" كوزموغرافيا(Cosmo Graphia)"، وهو علم المصورات" كارتوغرافيا (Carto Graphia)"، و إلى تحديد عرض المدن وطولها، وإلى تقسيم الأرض إلى مناخاتٍ، وإلى صُنع قوائم تضمُّ التضاريس الجغرافيَّة والبلدان والمدن، أي تشير إلى الجُغرافية الرياضيَّة.

أمَّا علمَ المسالك والممالك، وعلم عجائب البلدان فيُشيران إلى تقسيماتٍ فرعيَّة من العلوم الجُغرافيَّة، ورغم استخدامهما في بحوث الكوزموغرافيين الرياضيّين، والرحَّالة، والمؤرِّخين، فإنَّهما يرميان إلى إلقاء نظرة على الأرض والعالم، وهو ما يُسمَّى الجغرافية الأدبيَّة أو الوصفيَّة[٤].

---

[١] الأنطاكي(داود بن عمر): تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، مكتبة جامعة لايبزيك، ألمانيا، رقم المخطوط Ms. or. 365، ورقة ١٢٠و.

[٢] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١١؛ محمدين(محمد محمود): الجغرافية والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٦م، ص٢٢؛ الحكيم(عمر): تمهيد في علم الجغرافية، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٥م، ص١؛ إسماعيل: الجغرافية العامة، ص٦.

[٣] محمدين(محمد محمود): التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٩م، ص١٧.

[٤] حميدة(عبد الرحمن): أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤، ص٣٦، ٣٧.

وقد استخدم الجغرافيُّون العرب لفظ جُغرافية للدلالة على كتاب بطليموس القلوذيّ (Claudius Ptolemaius)، وفُسرت بأنَّها قطعُ الأرض[1]، واستعملت لأوَّل مرَّة بمعنى جغرافية في" رسائل إخوان الصفا"، ولكنَّها فُسرت أيضاً بمعنى صورة الأرض. وكان الجغرافيّون العرب يقصدون بلفظ جغرافية خريطة الدنيا، كما جاء في الرسالة الرابعة من القسم الرياضيّ عند إخوان الصفا، إذ قالوا: « الرسالة الرابعة في الجغرافية يعني صورة الأرض والأقاليم»[2].

وقد جاء في المعجم العربيّ اللاتينيّ المعروف بـ" الفوكابوليستا(Voco polista)" الذي وضعه أحَّد الرُهبان في القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ ليستعينَ به المبشّرون: « لفظ جغرافية بالعين المُهملة مرَّتين وأمامه(Mapa) أي خريطة و استخدم أيضاً" جغرفيَّة" وأمامه(Mapamundi) أي خريطة الدنيا» [3].

وقيلَ: إنَّ عُلماءَ العربُ المسلمين في القرون الوسطى زعموا أنَّ" الجُغرافية" اسم من الأعلام الأعجميَّة فما عرَّفوه أبداً بتعريفٍ ولا قيَّدوه في كتب اللغة[4].

وذكر ياقوت الحمويّ أنَّ مَنْ قصدَ العُمران من القُدماء والفلاسفة والحكماء ومنهم بطليموس، سمُّوا كتبهم في ذلك جغرافية ومنهم من يقولها: بالعين المُعجمة والمُهملة ومعناه: صورة الأرض[5]، وفي هذا الصدد قال عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): « وصوَّروا في الجُغرافية جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية» [6].

وقيل: إنَّ الجغرافيةَ علمٌ يُبحَثُ فيه عن أسماء البلاد التي على وجه الأرض و أوضاعها[7].

وبالمُحصِّلة يُمكن القول: إنَّ تعريف الجغرافية اختلف مع مرور الزمن، فصار لها العديد من التعريفات التي اختلفت من باحثٍ إلى آخر، ولكنَّ الأساسَ الذي اتفق عليه العلماء أنَّ الجغرافية هي العلم الذى يدرس العلاقة ما بين الإنسان ومحيطه(أيّ بيئته)، وما ينتجُ عن تلك العلاقة من ظواهر بهدف منفعة الإنسان، سواء في حاضره أم مستقبله.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الجغرافيةَ كانت تعتمد قديماً على المنهج الوصفيّ، أي وصف الأرض وما عليها من ظاهرات طبيعيّة وبشريّة، ولكن في العصر الحديث اعتمدت الجُغرافية الحديثة بشكل أساسي على

---

[1] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٧.

[2] الصفاء و الوفاء(إخوان و خلّان): رسائل إخوان الصفاء، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م، ج١، ص١٥٨.

[3] مؤنس(حسين): تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات، مدريد، ١٩٦٧م، ص٣٦٩.

[4] نالينو(كرلو): علم الفلك(تاريخه عند العرب في القرون الوسطى)، روما، ١٩١١م، ص٢٧٨.

[5] الحموي(ياقوت): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٧م، ج١، ص١١.

[6] ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر(المقدمة)، تح: علي عبد الواحد وافي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٤٨.

[7] كامل(حسين باشا): مُختصر الجغرافية، المطبعة الخديوية، بولاق، ١٨٧٣م، ص٣.

المنهج التحليليّ التطبيقيّ المُعتَمِد على التحليل والقياس، والربط واستخدام النماذج والنظريات الحديثة بهدف تحقيق منفعة الإنسان[١].

التعريفات الحديثة لمصطلح الجغرافية:

أُشير في بداية هذا الفصل إلى أنَّ العلماء لمْ يستقروا على تعريفٍ واحد لمُصطلح الجغرافية، بلْ تعدَّدت آراؤهم في معناه الأمر الذي انعكس على التعريفات التي جاءت بها الدراسات الحديثة. ويعود السبب في صعوبة صياغة تعريفٍ جامعٍ للجغرافية يتمسَّك به جميع الجغرافيون، ويلتفُّون حوله إلى **عاملين أساسيين:**

الأول: تعدُّد فروع الجغرافية، وتنوّع التخصُّصات الجُغرافيَّة الفرعيَّة.

الثاني: تطوّر المعرفة الجُغرافيَّة واتِّساع مجالها باستمرار، بحيثُ لا تعرف حدودها الاستقرار[٢].

وفيما يلي يُعرِضُ الباحث أهمَّ تلك التعريفات:

ذهب الأستاذ روبروت كامبل(Robert Campbell) إلى تعريفه على أنَّه أساسُ كلُّ العلومِ التي تختصُّ بدراسةِ الأرض[٣].

في حين ذهبت الموسوعة العلميَّة الفرنسيّة" لاروس(Larrousse)" إلى تعريف الجغرافية بأنَّها العلم الذي يهدف إلى وصف الشكل الحاليّ لسطح الأرض، بعناصره الطبيعيّة والبشريّة.

واتَّفقت الموسوعة البريطانيّة مع ما جاء في الموسوعة العلميّة الفرنسيّة بخصوص أنَّ الجُغرافية هي العلم الذي يهدف إلى بيان وتفسير سطح الأرض الحالي حسب عناصره الطبيعيّة والبشريّة، بهدف تحديد شخصية الأقاليم[٤].

أمَّا لجنةَ المصطلحات البريطانيَّة فأوردت، في عام(١٩٥٠م)، تعريفاً للجغرافية بأنَّها: دراسة الاختلاف المكانيّ لسطح الأرض كما يبدو حسب خصائص وصفات وعلاقات عناصر سطح الأرض بعضها ببعض، وانتظامهما، كالمناخ، والتضاريس، والأنهار، والنبات، والسكان، و الصناعة، والإدارة.

أمّا الجمعيَّة الجُغرافية الأمريكية، فسرت معنى مُصطلح الجغرافية تفسيراً مُرتبطاً ارتباطاً أكبر بالإنسان، فأوردت، في عام(١٩٢٧م)، أنَّ الجُغرافية هي: علم إيكولوجية سطح الأرض الذي يُعنى بدراسة استجابات الإنسان لعناصر البيئات الطبيعيَّة المختلفة[٥].

---

[١] الفرا(محمد علي عمر): علم الجغرافية دراسة تحليلية نقدية، منشورات جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٠م، ص٢٨.

[٢] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٣٦.

[3] Campbell .R. D; Question Of Place, Virginia, 1969, p100.

[٤] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٢٧؛ أبو العلا (محمود): الفكر الجغرافي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ١٩٩٨م، ص٦.

[٥] أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص٦.

وظهرت مؤخَّراً تعريفات للجُغرافية من قبلِ الجغرافيين ذوي الشُهرة العالميّة، من تلك التعريفات:

تعريف العالِم الألماني" ألفريد هينتر(Alfred hettner)" الذي أورد أنَّ الجغرافية هي العلم الذي يدرس التوزيعات الجغرافيّة لسطح الأرض، أي علم المناطق والأمكنة وما يختصُّ باختلافاتها وعلاقاتها المكانيّة[١].

تعريف العالِم الفرنسي" دو كلوزيه(Do Clozei)" الذي عرَّف الجغرافية بأنَّها العلم الذي يدرس سمات سطح الأرض أي المشهد المنظور" اللاند سكيب(landscape)" الذي ينتج عن تفاعل المناخ والتضاريس، والتجمعات النباتيَّة والحشود البشريَّة، و يدرس أيضاً القوى الطبيعيّة والبشريّة التي تتحكَّم بتنظيم ذلك المشهد المنظور في الزمان والمكان، فهي تسعى إلى تفسير تناسقها على سطح الأرض داخل الإطارات الإقليميَّة[٢].

تعريف العالِم الأمريكي" جيمس بريستون(James Preston)": الذي ذهب إلى أنَّ الجغرافية تُعنى بدراسة الظواهر المُجتمعة التي تُشكل الأماكن وتكون سِمة لها، كما تُعنى بدراسة أوجه الشبة والاختلاف بين الأمكنة[٣].

ولم يبتعد الجغرافي" موور(Moore) " في تعريفه عن هذا الإطار، فرأى أنَّ الجغرافية هي الموضوع الذي يصف سطح الأرض من حيث ملامح الطبيعة والمناخ والإنتاج والشعوب[٤].

وبدوره ذهب الجُغرافي البريطاني" دودلي ستامب(Dudley Stamp)" إلى أنَّ الجُغرافية علمٌ وفنٌّ وفلسفة، ومِن ثَمَّ هي علم بمادَّتِها، وفنّ بمعالجتها، وفلسفة بنظرتها[٥].

أمَّا" ريتشارد هارتشورن(Richard Hartshorne)" فعرَّف الجُغرافية تعريفاً وصفياً، فرأى: إنَّها تزود الباحثين بوصف وتفسير عقلانيّ، ونظاميّ دقيق لشخصية سطح الأرض المُتغيّر[٦].

وفَهِمَ البعض أنَّ الجُغرافية هي علمُ التنبُّؤ البشريّ، وهذا التعريف يُجسِّد اتجاه المدرسة الأيكولوجيَّة، التي ترى أنَّ الجغرافية هي دراسة تأثير البيئة الطبيعيَّة في الإنسان وأوجه نشاطاته المختلفة[٧].

---

١ محمدين: الجغرافية والجغرافيون ص٣٠٨؛ عبد الحكيم(محمد صبحي): دراسات في الجغرافية العامة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٥؛ هارتشون(ريتشارد): نظرة في طبيعة الجغرافية، تر: عبد العزيز آل الشيخ وعيسى موسى الشاعر، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٨م، ص١٦.

٢ كلوزيه(رينيه): تطور الفكر الجغرافي، تر: عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢م، ص١٢٢.

٣ أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص٦؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٣٣.

٤ توني(يوسف): معجم المصطلحات الجغرافية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص١٥٣.

٥ شريف(شريف محمد): تطور الفكر الجغرافي، مكتبة العصور القديمة، القاهرة، ١٩٦٩م، ج١، ص٢٢.

٦ هارتشون: نظرة في طبيعة الجغرافية، ص١٦؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٣٥.

٧ حسين(عبد الرزاق عباس): الإطار النظري للجغرافية، منشورات جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٠م، ص١٩.

ومؤخراً ضمَّن مجموعة من العلماء الأزهريّين تعريفاً للجغرافية بصورةٍ شعريَّة جميلة فقالوا فيها:

أُهديكُم قلائد العقيان في علمِ تقويم لذي البُلدان

فحدُّه علم بسطحِ الأرض وما حوتْ من طولِها والعرض

وما عليها من بلادٍ عامرة ومن جبالٍ وبحارٍ زاخرة

موضوعةُ السطح وما عليها من كلِّ شيءٍ ثابت عليها

واسمهُ التقويم للبُلدان تعريبُ جُغرافية يونانيّ

فالأرضُ قالوا: إنَّها لدائرة عظيمة الجرم على شكلِ الكرة

ورؤيةُ للأرض في وجهِ القمر عندَ الخسوف مُستديرة الأثر

والأرضُ قالوا: إنَّها موصوفةٌ بحركاتٍ عندهُم معرُوفة

يوميَّة والليل والنهار من هذه كلٌّ لهُ انتشار

سنويَّة تدور حول الشمس في كلِّ عام مرَّة بالحدسِ

فصلُ الشتا منها مع الخريف فصلُ الربيع ثمَّ فصل الصيف

والشمسُ حقاً مثلَ أضعاف القمر ومثلَ أضعاف الأراضي في الكِبر

إنَّ الجهاتَ أربعٌ أصليَّة وأربعٌ جزئيَّة فرعيَّة

فقابلَ الجنوب بالشمالِ والغربِ بالشرقِ على التوالي

وأربعٌ فرعيّة معلومة في غايةِ الضبط أتتْ منظومة

ما كانَ بينَ الشرق والشمال يُدعى شمال الشرق في ذي الحالْ

ثمَّ شمال الغرب ما كانَ على يسارِ الغرب والشمال قد تلاْ

كذا الجنوب عندهُم قسمان مثل الشمال عندَ ذي الإتقانْ

مرســـــومةٌ فيهـــــا الـــــبلاد والبحـــــار كـــــذا الجبـــــال والبـــــوادي والقفـــــارْ

شـــمالُها مـــا كـــان مـــن أعلاهَـــا ثـــمَّ الجنـــوب مـــا بهـــا تناهـــاْ

والشـــرقُ فيهـــا عـــن يمـــينِ النَّـــاظر والغـــرب فيهـــا عـــن يســـارِ الباصـــرْ

وقسَّـــــموا ذي الكُـــــرة الأرضـــــية قســـــمين عنـــــدهم بـــــذي الكيفيّـــــةْ

ثلاثـــــةُ أربـــــاعٌ منهـــــا المـــــاءُ والرُبـــــع يـــــابس لـــــه انتهـــــاءْ

أمَّـــا المُحيطـــاتَ فخمـــسٌ ذكـــروا مُحيطهـــا الهـــادي وهـــذا أكبـــرُ

والأطلســـــيّ وهـــــو الأطلانطيقـــــي والثالـــــث الهنـــــديّ بـــــالتحقيقِ

والرابـــــع المُتجمِّـــــد الشـــــماليّ والخـــــامس المُتجمـــــد الجنـــــوبيّ

وقسَّـــموا القـــارات أيضـــاً خمســـاً فاحفظهـــا جيـــداً لا تنســـىْ

إفريقيـــــا وآســـــيا وأوروبـــــا وأســـــتراليا وقيـــــت الكربـــــا

وأمريكـــــا خـــــامس الأقســـــام فـــــاحفظ هـــــداكَ بـــــارئ الأنـــــامْ[١].

٢- أقسام علم الجغرافية وفروعه:

تُقسم الجغرافية، كغيرها من العلوم التي تُعنى بدارسة الإنسان ومُحيطه والظواهر التي تُؤثّر في حياته، إلى أقسامٍ رئيسيَّة عدَّة، وقد يتفرَّع منها فروعٌ عدَّة هي:

أ- الجُغرافية الطبيعيَّة:

ويُقصد بها الجغرافية المُتعلِّقة بطبيعةِ الأرض الجيولوجيّة، بالإضافة إلى العوامل الجويّة والمناخيّة، ودراسة علم النبات، وعالم الحيوانات، كما تُعنى بدراسة الفلك والكواكب وعلاقاتها وحركتها وأحجامها[٢]. وتتفرّع الجغرافية الطبيعيّة إلى:

---

[١] الكردي(محمد طاهر): التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، تح: عبد الملك بن دُهيس، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ج١، ص٧٦- ٧٨.

[٢] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١١.

أ-أ- جُغرافيَّة أشكال سطح الأرض: وتشمل الغلاف القشريّ، وأشكال سطح الأرض، ومراحل تطور أشكال السطح، والعمليّات الجيومورفولوجيَّة.

ب-أ- جُغرافيَّة المناخ: وتشمل الغلاف الجويّ، والظاهرة المناخيّة وعناصرها، وأنماط المناخات الإقليميّة والمحليّة.

ج-أ- الجُغرافية الحيويَّة: وتشملُ المنطقة البيئيَّة بينَ الغلاف الجويّ والقشريّ، و الغطاء الحيويّ(النباتيّ والحيوانيّ)، والعوامل المؤثِّرة في توزيعهِ، والأقاليم الحيويَّة.

ب- الجُغرافية البشريَّة:

وتشملُ الجُغرافية الاجتماعيَّة التي تدرسُ جغرافية السُكان، وتدرس نمو السكان والعناصر الداخلة فيه من المواليد والوفيات، والزيادة الطبيعيَّة، والهجرة، وتوزيع السُكَّان، والعوامل المؤثّرة في نموّهم وتوزيعهم، وجُغرافية المدن التي تهتمُّ بدارسةِ المدن من حيث مواقعها وخصائص الموضِع، وعلاقات المدن بعضها ببعض في المجالات كلِّها، وجغرافية الريف التي تهتمُّ بدراسةِ المناطق الريفيَّة والعلاقة بين المدن والريف.

ج- الجُغرافية الاقتصاديَّة:

وتضمُّ جغرافيَّة الزراعة، والصناعة، والنقل، والمواصلات، والسياحة، والتجارة الدوليّة[١].

د- الجُغرافية الفلكيَّة:

وتدرسُ شكل الأرض، وحجمها، وحركتها، وكرويَّتها، وعلاقتها بالكواكب الأخرى، وغيرها.

هـ- الجُغرافية السياسيَّة:

وتبحثُ في أقطارِ الأرض من حيثُ حدودها السياسيَّة، وفي السُكَّان من حيثُ العدد، وفي الحياة الاجتماعيَّة[٢].

ثانياً- الفكر الجغرافيّ وكشوفه قبل الإسلام:

لعلَّهُ لمْ يسبقْ علم الجغرافية، تاريخيَّاً، علم من العلوم إلَّا علم الفلك، والذي يُعدُّ في نظر بعض الجغرافيين فرعاً من فروع الجغرافية. ومع ذلك فإنَّ علم الجغرافية لم يظهر في القديم كما هو اليوم، وهذا من طبائع كلّ العلوم، فكلُّ علمٌ لا بدَّ له من إرهاصات، ثمَّ ينشأ نشأة مُشوشة يتداخل بها هذا الفنُّ مع غيره من العلوم، ثمَّ يأخذُ دوره في التشكُّل والتكوين، خاصَّة مع ظهور المتخصِّصين. وقد برعت شعوب العالَم

---

[١] إسماعيل: الجغرافية العامة، ص١٣-٢٠.

[٢] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١١.

القديم، ولا سيَّما قبل ظهور الإسلام، بالمعرفة الجغرافيَّة، وهي وإنْ كانت قديمةٌ إلَّا أنّها تُعدُّ ذاتُ قيمةٍ كبيرةٍ للباحثين في مجالِ الأدب الجغرافي[١].

١- الفكر الجغرافيّ لبلاد ما بين النهرين:

إنَّ تعبير ما بين النهرين أو ميزوبوتاميا(Mesopotamia) يُعادل على وجه التقريب اصطلاح الجزيرة الذي أطلقه الجغرافيّون العرب على تلك الرُقعة التي تمتدُّ ما بين نهريّ دجلة والفرات شمال بغداد[٢]. ويُعدُّ البابليُّون (١٨٨٠- ١٥٩٥ ق. م) أوَّل من أسهمَ في الفكر الجغرافي في بلاد الرافدين.

وكانت بابل مجرَّد بلدة عاديَّة عرفها السومريُّون باسم كدنجيرا(Kandgira)، وأطلقوا عليها اسم بابل[٣]، واهتمَّ سكَّانها بالتجارة مع البلدان المجاورة لهم، فوصلوا إلى أغلب أجزاء شبه جزيرة العرب، وأقصى الهند وشمال أفريقية، وعبروا مضيق جبل طارق، وكثرت أسفارهم مما جعلهم يدرسون عن كثب حركة النجوم؛ لأنَّها من المصادر المُهمَّة التي كانوا يستعينون بها في معرفة الجهات الأربع والمسالك الصحراويّة[٤]. وقد أبدعَ سُكَّان بابل في مجالاتٍ علميَّة متعدِّدة، وأسهموا بشكلٍ فعَّال في ميادين المعرفة الجغرافيّة، ومن هذه الإسهامات:

أ- الدراسات الفلكيّة:

امتازت سماء بلاد الرافدين" بابل" بصفائها مما ساعد على رؤية الأجرام السماويَّة وتتبُّع حركتها بوضوح ، فاستخدموا المزاول الشمسيَّة، وبنوا الأبراج لمتابعة الأجرام السماويَّة ورصدها، كما اهتمَّ البابليون بالكواكب، وعرفوا عُطارد، والزهرة، والمرّيخ، والمشتري وزُحل، وتمكَّنوا من رصد ظاهرتي الكسوف والخسوف[٥]، ووضعوا تقويماً سنويَّاً قمريَّاً، وجعلوا طول الشهر القمري تسعة وعشرين يوماً، وثلاثين يوماً بالتتابع؛ و على هذا صار طولُ السنةَ ثلاثمئة وأربعة وخمسين يوماً[٦]. ولكي يتمُّ التوافق بين السنة القمرية والشمسية أضافوا شهراً آخر للسنة لتصير ثلاثة عشر شهراً عند الضرورة. كما قسَّم البابليُّون الدائرة إلى ثلاثمئة

---

١ نصر(محمد سيد): تطور علم الجغرافية وفضل العرب فيه، مرآة العلوم الاجتماعية، العدد الأول، ١٩٦١م، ص١، ٢.

٢ الأحمد(سامي سعيد): السومريون وتراثهم الحضاري، منشورات الجمعية التاريخية العراقية، بغداد، ١٩٧٥م، ص١٥-٢١.

٣ إبراهيم(عيسى علي): الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص١٩؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٦٣.

٤ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩.

٥ سارتون(جورج): تاريخ العلم والإنسية الجديدة، تر: إسماعيل مظهر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٨٥.

٦ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٦٤.

وستين درجة، والدرجة إلى ستين دقيقة، ثمَّ قسَّموا الدقيقة إلى ستين ثانية، وتصوَّر البابليون أنَّ الأرض " قفة" مقلوبة طافية فيها سبع طبقات، وتصوَّروا السماء سبع طبقات، وأطلقوا عليها" تبقات "(Tupukat)[1].

ب- فن الخرائط(الكارتوجرافيا):

برعَ البابليون في رسم الخرائط حيث توافر الطين، وتُشير المصادر التاريخيّة إلى أنَّ البابليين كانوا أوَّل من وضع أُسس فنّ صُنع الخرائط، وقاموا بتمثيل ظواهر ومعالم سطح الأرض الطبوغرافيّة على ألواح مستوية من الطين، واستخدموا الرموز الاصطلاحيَّة، واهتمّوا بخرائط تنظيم الري وتثبيت ملكيّات الحقول الزراعيّة و القرى. وعُثر في خرائب تلو على إحدى هذه الخرائط، التي يزيد عمرها عن ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة، منقوشة على لوح من الطين[2]، وهي تُمثِّلُ مساحة تصل إلى ثمانمائة دنم عراقيّ، وقد قُسِّمت بخطوطٍ مستقيمة كتبت عليها الأبعاد، وترجع هذه الخارطة إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد[3].

ومن أهم الدوافع التي شجَّعت البابليين على الاهتمامِ بالخرائط كان محاولاتهم تقرير الضرائب على أساس دقيق. والبابليُّون هم أصحابُ أقدم خريطة عرفها العالم، والتي رُسِمَت منذ أربعةِ آلاف سنة على لوح من الصلصال[4]، مُتمثِّلة على هيئة الدائرة، و تجمع بلاد بابل، وآشور، والأهوار في الجنوب، و يُحيط بهذه الدائرة البحر، وعلى أطرافه رُسِمَت جزر على هيئة مثلثات. كما رسم البابليُّون خرائط للمدن[5]، كانت أهمَّها خريطة لمدينة" نفر"[6]، وترجعُ إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وقد أوضحت الخريطة[7] الحديقة المركزيّة لمدينة نفر وعددٍ من المعابد والعمارات والأنهار والقنوات والأسوار والأبواب. وتُعدُّ لوحة "جاسور" في شمال بابل من أقدم الخرائط الطبوغرافيّة حتَّى الآن، إذ ترجع لنحو ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة قبل الميلاد[8]، كما أنَّها رسمت سلسلتين من الجبال في الشرق والغرب، واحتوت ما يمكن تفسيره بالأنهار[9]،

---

[1] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص ١٩؛ سوسة(أحمد): العراق في الخوارط القديمة، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٩م، ص٥؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠، ٢١.

[2] وهي أقدم خريطة تفصيلية كاد سترالية، محفوظة في متحف إستانبول. سوسة: العراق في الخوارط القديمة، ص٥، ٦.

[3] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٢١؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٦٥، ٦٦.

[4] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠.

[5] سوسة: العراق في الخوارط القديمة، ص٧؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٦٥.

[6] عُثِرَ على اللوح الذي رسُمت عليه الخريطة سنة(١٨٩٩م)، وذلك في التنقيبات التي قامت بها جامعة بنسلفانيا، ونشرت في الكتاب المُسمَّى التنقيبات في بلاد التوراة، وذلك سنة(١٩٠٣م). محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٦٦.

[7] استخدمت هذه الخريطة وحدة قياس تسمى جار(Gar)، ومقدارها عشرين قدماً تقريباً. محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٦٩.

[8] النهار(عمار محمد): سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية في إبداع منهج البحث العلمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥م، ص٢٩٠، ٢٩٢.

بالأنهار[١]، وقد دُوّن على الخريطة بعض الأسماء الجغرافيّة أهمها أسم " أرافا(Arava)" الذي يُظنُّ أنَّه الاسمُ القديمُ لمدينة كركوك[٢].

ج- قوائم البيانات الجغرافيّة:

دوَّن البابليُّون قوائم بالبيانات الجغرافيّة التي عرفوها عن الأقاليم المختلفة مثل قوائم الملك سرجون، و تُعدُّ هذه البياناتُ بمنزلةِ إرشادات للسفر ومعلومات عن الطرق[٣]. واهتمَّ البابليون بمعرفة موقع بلادهم بالنسبة بالنسبة لما يجاورها، واعتقدوا أنَّ الأرضَ مُقسَّمةٌ إلى أربع مناطق، هي عيلام جنوب بابل، و أكَّاد أي عقّاد في الشمال، و سوبارتو في الشرق، و أمورو في الغرب[٤].

٢- الفكر الجغرافيّ في مصر القديمة:

ظهرت الحضارة المصريَّة على ضفاف النيل منذ عصرِ ما قبل الأُسرات(٢٩٥٠- ٢٦٤٧ ق. م). وتصوَّر المصريُّون الأرض كصندوق طافٍ فوق الماء الأزليّ أو البحر المُحيط الذي ينبع منه نهر النيل. ويعود الفضل لنهر النيل في معرفة المصريين للإحصاء والهندسة والحساب، عندما أخذوا يُراقبون فيضانه ويُحاولون التحكُّم فيه والاستفادة منه، فأنشأوا المقاييس، وعرفوا المكاييل، وقدَّروا مساحات الأرض المرويَّة بماء النيل. وأقام المصريُّون للنيل التماثيل، فصوَّروه في هيئة آدميٍّ ضخم البطن كبير الثديين إشارة إلى الخير والبركة. وقد اقتبسَ الإغريق فكرة وجود الأرض(العالم)، طافية فوق الماء، التي ابتدعها المصريّون[٥].

وأوحى النيل للمصريين بفكرة البحث، فكانوا يرون فيضانه يتجدَّد كلَّ صيفٍ، فتتجدَّدُ الحياة وخصوبة الأرض وتنبت البذور. كما استمدُّوا أملهم في البعث من ملاحظة الحركة الدوريَّة للشمس، وارتباط شروقها بيقظةِ الكائنات الحيَّة بعد النوم[٦].

وقد تحدّدت معارف المصريين القدماء في **ثلاثة أمور هي:**

أ- مُلاحظة الظاهرات الفلكيَّة وتفسيرها:

---

[١] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٢٢.

[٢] الصياد(محمد محمود): الجغرافية والجغرافيون، دار العلوم، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص ٤٨- ٥٠؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٦٥- ٦٩.

[٣] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٢٣.

[٤] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٧٠.

[٥] سليمان(مصطفى محمود): تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى ومكانة الحضارة الإسلامية فيه، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٣٩٣، ٣٩٤.

[٦] صالح(عبد العزيز) : تاريخ الشرق الأدنى القديم، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ٢٠١٢م، ج١، ص٢٩٧؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٥٤.

كان لموقع مصر وعمل أهلها بالزراعة التي اعتمدت بشكل أساسيّ على نهر النيل وتوقيت فيضانه أكبر الأثر في ملاحظتهم للنجوم وحركة الكواكب وغيرها من الظواهر الفلكيّة. ومن أهمِّ الملاحظات الفلكيّة للمصريين القدماء، ملاحظة النجم "سيروس" أي الشعَّرى اليمانية في الصباح قُبيل مجيء شروق الشمس عند الفيضان[١]، فاهتمَّ كهنة مصر القديمة بهذا النجم، وتغنَّى المصريون به في أشعارهم كما لاحظوا حركته بدقّة ذلك[٢]. ومن المعروف فلكياً أنَّ النجمَ سيروس يُشرق مع الشمس في ١٩ يوليو/ تموز، وتوصَّل المؤرِّخون إلى أنَّ التقويمَ المصريَّ بدأ في ١٩ يوليو/ تموز سنة(٤٢٤١ ق. م) بمعنى أنَّ المصريين القدماء سبقوا الرومان في استخدام التقويم بأكثر من ٤٠٠٠ سنة[٣]، وبذلك يكون التقويم المصريّ القديم أقدم تقويم وُضع في العالم[٤].

وقسَّم المصريُّون السنة إلى اثني عشر شهراً، لكلِّ شهر ثلاثين يوماً مُضافاً إلى الشهر الأخير خمسة أيام لتكتمل السنة ثلاثمئة وخمس وستين يوماً. كما قسّم المصريّون القدماء السنة إلى **ثلاثة فصول:** "أخت(Ekhet)" أي فصل الفيضان، و" برت(Pert)" أي فصل الإنبات والزراعة و" شمو(shmiw)" أي فصل الجفاف والحصاد[٥].

ب- الرحلات البحريّة عند المصريين القدماء:

زادت معرفة المصريين الجغرافية عن طريق الرحلات التي قاموا بها، وقد ارتبط هذا التفوق بعوامل عدَّة منها:

أ- ب- هبوب الرياح الشمالية عكس اتجاه النيل مما يسَّر الملاحة في النهر.

ب- ب- تعدد المسطَّحات المائيَّة التي تُشرف عليها مصر كالبحيرات والبحر المتوسط والبحر الأحمر.

ج- ب- توافر الأخشاب الضرورية لصناعة القوارب والسفن اللازمة لقيام بتلك الرحلات[٦].

د- ب- حاجة المصريين القدماء للبخُّور والنباتات العطريّة التي كانت تحتلُّ مكانة مهمَّة في طقوسهم الدينيَّة[١] لدرجة أنَّها دُعيت بـ" غذاء الآلهة"[٢]. وعلى اعتبار أنَّ موطن البخور كان في اليمن وشرقيّ

---

١ س. (بروشكين): أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة، تر: حسان مخائيل إسحاق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠٦م، ص٣٨، ٣٩.

٢ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٥٥؛ خفاجة(محمد صقر): هيرودوت يتحدث عن مصر، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٧٠، ٧١.

٣ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص١٥.

٤ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٥٥، ٥٦؛ خفاجة: هيرودوت يتحدث عن مصر، ص٧٠، ٧١.

٥ الصياد: الجغرافية والجغرافيون، ص٥٠ -٥٢؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٥٦؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٦.

٦ خفاجة: هيرودوت يتحدث عن مصر، ص٢٠٩؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٥٧.

أفريقية لذلك كان المصريُّون بحاجة للقيام ببعثات تجاريّة للحصول على البخور وغيره من السلع العطريّة(٣).

وسجَّلت المصادر التاريخيَّة عدداً من الرحلات التي قام بها المصريّون القدماء منها:

1ً- رحلة الفرعون سنفرو(Sneferu)(٢٦١٣- ٢٥٨٩ق. م) لجلب الأخشاب من سوريا.

2ً- رحلة الملكة حتشبسوت(Hatshepsut)(١٤٧٣- ١٤٥٨ق. م) إلى بلاد البونت (Punt)(٤) لجلب البخور والمواد العطريّة.

3ً- رحلة الفرعون المصريّ نخاو(Necho)(٦١٠- ٥٩٥ق.م) حول إفريقية وقام بها الفينيقيّون بأمر نخاو(٥).

4ً- حملات وبعثات عسكريّة قام بها تحوتمس الثالث(Thutmose III)(١٤٧٩- ١٤٢٥ق. م) ورعمسيس الثاني(Ramesses II)(١٢٧٩- ١٢٣١ق. م) إلى الشام والنوبة لزيادة رقعة المعرفة الجغرافيّة لمصر القديمة(٦).

ج- الخرائط المصريَّة القديمة:

كان اهتمام المصريّين الأساسيّ مُنصبَّاً على بيانِ مواقع المناجم والمعادن والطرق المؤدية إليها وخاصة الذهب. كما رسم المصريُّون القدماء مجموعة من الخرائط لغرض مسح الأراضي، وبالتالي قُسِّمت أراضي مصر إلى مقاطعات(٧). وأشهر هذه الخرائط خريطة تعود لعهد الفرعون رعمسيس الثاني(٨)، كما عثرت

---

[1] Byl. S. A; The Essence and Use of Perfume In Ancient Egypt, University Of South Africa, 2012, pp 23, 24.

[2] Diodorus Siculus; Library of History, III, 46.

[3] Glenister. C. L; Profiling Punt: Using Trade Relations To Locate God's Land', Stellenbosch University, 2008, pp 40- 44.

[٤] اختلف الباحثون في تحديد منطقة البونت. فذهب الرأي الأوّل إلى أنَّها تقع بالعروض الجغرافيّة للصومال وأريتيرية على الساحل الأفريقيّ للبحر الأحمر. وذهب الرأي الثاني إلى أنَّ المقصود بها هو مناطق جنوبيّ الجزيرة العربيّة(اليمن). أمّا الرأي الثالث، فذهب إلى أنّها تشمل الجانبين الأسيوي والأفريقيّ جنوبيّ منطقة البحر الأحمر(أيّ اليمن وما يُقابلها على الجانب الآخر). صالح(عبد العزيز): شبه الجزيرة العربيَّة في المصادر المصريّة القديمة، مجلّة عالم الفكر، مج١٥، عدد١، ١٩٨٤م، ص١٩٨- ٣٠٨.

[5] Shea. W. H; A Date for the Recently Discovered Canal of Egypt, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, No 226, 1977,pp31- 34, p32.

[٦] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٥٩.

[٧] حسن(سليم): أقسام مصر الجغرافية في العهد الفرعوني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٤م، ص١٧.

[٨] النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٨٩.

الأبحاث الأثريَّة على بعضِ الخرائط عن مناجم الذهب، بالإضافة إلى خرائط تُوضِّح مواضع قبور الموتى لترشدهم إلى العالم الآخر[١].

٣- الفكر الجغرافيّ عند الفينيقيين:

عاش الفينيقيُّون منذ العام(١٦٠٠ ق. م) على الساحل الشرقيّ للبحر المتوسط إلى شمال فلسطين. وكان الفينيقيّون شعباً تجارياً[٢]، ولهذا أنشؤوا خمسين مستوطنة في حوض البحر المتوسط، **أهمَّها:** صور، و قبرص، ورودس، وصقلية، وبانتلاريا وسردينيا، وقرطاجة(تونس)[٣]. وساعدت الظروف الطبيعيَّة، والبشريّة على لجوء الفينيقيين للبحر والتجارة مُستعينين بالنجم القطبيّ في أسفارهم. ورغم رحلات الفينيقيّين التجارية الواسعة فإنهم لم يتركوا أي خرائط، وربما كان ذلك بدافع الحفاظ على أسرار البحر[٤]. ويُنسب للفينيقيين لفظ " المحيط"، وأغلب الظنِّ أن اسم البحر الأحمر يعود إليهم على أساس لون بشرتهم الحمراء، وربَّما وصولوا إلى البرازيل أيضاً[٥].

ورأى بعض الباحثين أنَّ تسمية ميناء بلتيمور البريطاني مكونة من مقطعين هما: بعل تيمور أي مكان أو معبد الإله الفينيقي بعل[٦]، كما يُظنُّ أنَّهم كانوا على دراية بالمحيط الأطلسيّ، ووصلوا في رحلاتهم شرقاً شرقاً إلى شمال غرب الهند[٧]، و لا بدَّ أنَّ اهتمام الفينيقيين بأعمالهِم التجاريّة، ورحلاتهم البحريَّة الواسعة جعلهم يعتمدونَ على الخرائط، ولعلَّ تكتُّمهم بالحديث عن مسالكهم الجغرافيَّة؛ هو السببُ في قلِّة ما يُعرف عن خرائطهم، وتُراثهم الجغرافيّ[٨].

٤- الفكر الجغرافيّ عند الإغريق:

سكنَ الإغريق على سواحل بحر إيجة وجزره[٩]، وأطلقوا على أنفسهم الهيلّلينيين نسبة إلى جدهم هيلين[١]، هيلين[١]، وشهد عصر الإغريق معرفة في الفكر الجغرافيّ تجلَّت في وصف الرحلات والمشاهدة والقياس[٢]، ويمكن ذكر أهمّ مصادر هذه المعرفة بما يأتي:

---

[١] الصياد: الجغرافية والجغرافيون، ص ٥٣ ؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٥٩، ٦٠.

[٢] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٣.

[٣] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٢٤.

[٤] غانم(محمد الصغير): التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٨، ١٩؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٧١.

[٥] إدة(اميل): الفينيقيون واكتشاف أمريكا، دار النهار، بيروت، ١٩٦٩م، ص٩٨.

[٦] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٧٧، ٧٨.

[٧] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٢٤، ٢٥.

[٨] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٧٦-٧٨.

[٩] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٣٥.

أ- الملاحم الشعريّة:

تُعد مصدراً مهمَّاً في تتبع المعرفة الجغرافيّة عند الإغريق، و أهمّها ملحمة هوميروس(Homer) المعروفة باسم الإلياذة (Iliad)، وهي قصة حرب تناولت أعلاماً جغرافيّة كثيرة من البلدان والجبال والوهاد والأنهار، وملحمة الأُوديسة (Odyssey)[٣]، وهي قصة أمن وسلام، ويرى فيها صاحبها أنَّ المحيط هو المصدر الأوَّل للبحار والأنهار والعيون، وإنَّ الماءَ هو أصل الحياة، ويرى أن أطلس هو الذي يحمي الأعمدة التي ترتكز عليها السماء[٤].

ب- المرحلة الوصفيَّة والمُشاهدة والقياس:

أ-ب- المرحلة الوصفيّة: و جمعت عدداً من مشاهير كُتَّاب الإغريق، منهم:

1ً- طاليس الملطي(Thales)(٦٤٠ -٥٤٦ ق. م):

فينيقيّ الأصل تعلَّم الهندسة بمصر مما مكَّنه من التنبّؤ بكسوف الشمس قبل حدوثه، ولاحظ أنَّ القمر يعكس أشعة الشمس، ولاحظَ انحرافات الأنهار، واعتقد أنَّ فيضان النيل سببهُ الرياح الموسميّة[٥] التي تعوق النهر عن أنْ يصبَّ في البحر. وتصوَّر الأرض كقرص سابح في الأوقيانوس[٦]، كما نادى طاليس باستخدام حساب المثلثات في قياس الارتفاعات والمسافات[٧].

2ً- هيكاتايوس المليتيّ(Hecataeus) (٥٥٠ -٤٧٥ ق. م):

جمع شتات المعارف في الجغرافية ونقَّحها وأضاف عليها، ورسم خريطة للأرض تصوَّرها كقرص مُسطَّح مُحاط بالأوقيانوس. وقسَّم هيكاتايوس اليابسة إلى **قسمين** متساويين تقريباً، قسم شماليّ وهو أوربة، وقسَّم جنوبيّ ويضمُّ آسيا إفريقية[٨]. ألّف كتاباً بعنوان" رحلة حول الأرض" ضمَّت دراسة عن أوروبة وآسيا وليبيا (إفريقية)[٩]، يقع مركزه في دلفي وسط بلاد اليونان، كما اهتمَّ بالنواحي البشريَّة، فدرسَ الشعوب، والقبائل حول البحر المتوسط[١٠].

---

١ يحيى(لطفي عبد الوهاب): اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣٦.

٢ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٧٩.

٣ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٢٦.

٤ البستاني(سليمان): إلياذة هوميروس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ص١١.

٥ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٢٩.

٦ سليمان: تاريخ العلوم والتكنولوجيا، ص ٣٩٧.

٧ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٨٤، ٨٥.

٨ سليمان: تاريخ العلوم والتكنلوجيا، ص ٣٩٧.

٩ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٣٠.

١٠ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٨٧.

3ً- هيرودوت(Herodotus)(٤٨٤- ٤٢٥ ق. م):

رحَّالة واسع المعرفة، ذهب إلى برقة ومرَّ بغزة وصور، وأبحر في الفرات حتَّى بابل، وجالَ في منطقة شمال بحر إيجة، وزار سكيثيا شمال البحر الأسود[١]. وألَّف كتاباً سمَّاه" تمحيص الأخبار"[٢] الذي يُعدُّ أول مُصنَّف في الجغرافية البشريّة، ورسمَ خريطة لمصر وللعالم، وتبنَّى تقسيم العالم إلى ثلاث قارات وفضَّلَ أنْ يكونَ البحر الأحمر هو الفاصل بين ليبيا وآسيا وليس نهر النيل[٣].

4ً- الإسكندر المقدونيّ الكبير(Alexander the Great)(٣٥٦- ٣٢٣ق. م):

تلميذ أرسطو(Aristotle)(٣٨٤- ٣٢٢ق. م)، حكم مقدونيا بعد مقتل أبيه وهو في العشرين من عمره، قامَ بعددٍ من الحملات العسكريّة لإخماد الفتن التي سادت اليونان وتوابعها. قاد حملة على الشرق فاتَّجه عبر نهريّ سيحون وجيحون، واتَّجه جنوب الهند، وأبحر مع جنوده في نهر السند، واستمرت حملاته ثلاثة عشر عاماً، فتح خلالها جانباً كبيراً من العالم[٤]. وتأتي أهمِّية حملاته أنَّها كانت حربيَّة وعلميَّة في آنٍ واحد، فقد ضمَّت مُهندسين وجغرافيين ومسَّاحين[٥]، وأسَّس الإسكندر مدينة الإسكندريّة لتُصبح أعظم مركز تجاريّ وعلميّ في العالم[٦].

ب-ب- مرحلة المشاهدة والقياس: استمرَّت ثلاثة قرون وعُرفت هذه المُدَّةُ بالعصر الهلّلينستيّ، وشملت عدداً من العلماء أبرزهم:

1ً- إيراتوستين(Eratosthenes)(٢٧٦- ١٩٤ق. م):

وُلد في برقة، وتعلّم بأثينا، و انتقل إلى الإسكندريّة، وعمل أميناً لمكتبتها[٧]. يعدّ أبا الجغرافية العلميّة[٨]، ويعودُ الفضل له في تطوير علم الجغرافية، حيث بدأت الجغرافية في عهده تأخذ طبيعة منتظمة وتستند الى مبادئ علميّة ثابتة[٩].

---

[١] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٣٢.

[٢] هيرودوت: تمحيص الأخبار، تر: عبد الإله الملاح، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٦م، ص٥.

[٣] سارتون: تاريخ العلم، ج٢، ص١٥٥، ١٦٦؛ مُحمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٨٩، ٩٠.

[٤] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٣٤.

[5] Worthington. I; Ptolemy I King and Pharaoh of Egypt, Oxford, 2016, p53.

[6] Curtius Rufus; History Of Alexander The Great, IV. 8.

[٧] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٣٦.

[8] Bunbury. E.H; A History of ancient geography . amon the Greek and Ramans from the Earliest Earliest Ages Till the fall of the Rom Empire, vol. I, New York, 1959, p 615.

[9] Bunbury. E.H; op, cit, p615.

وحظيت الجُغرافية بأعظم أعماله قاطبة، وكان دافعه أنَّه وجد الجغرافية في حالة غير مُرضية ، فهدف إلى أن يجعلها علماً(Science)، وبدأ في ذلك بقياس محيط الكرة الأرضيّة، الذي يعدُّ أهم من اضّطلع بقياسه[١]، وقدَّره بنحو مئتان وخمسين ألف ستاديا[٢].

وضع ايراتوسثنيس مُصنّفاً سمَّاه" الجغرافية (Geographica)" وجعله في ثلاثة أجزاء، إلَّا أنَّه مع الأسف فُقد، غير أنَّ محتواه قد وصل إلى الأجيال اللّاحقة عن طريق الجغرافيّ اليونانيّ سترابو(Strabo)[٣].

2ً– هيبارخوس(Hipparchus) (١٩٠– ١٢٥ق. م):

خلفَ إيراتوستين في أمانة مكتبة الإسكندريّة، ووضع بداية لمساقط الخرائط ولاحظ حركة الشمس الظاهريّة[٤]، وحدّد أطول الفصول الأربعة، وتنبّأ بحدوث الخسوف والكسوف، واخترع الإسطرلاب الذي يُمكن بوساطته رصد النجم القطبي[٥]. ويُعدُّ هيبارخوس أوَّل من قسَّم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة وهو التقسيم الذي طبّقه بطليموس القلوذيّ بعده[٦].

ج– خرائط الإغريق:

ظهرت المحاولات الأولى لرسم الخرائط على أُسسٍ علميّة دقيقة عند الإغريق مُعتمدين فيها على القياسات الفلكيّة و الرياضيّة في وضع خطوط الطول و دوائر العرض[٧] وتحديد المواقع الجغرافيّة بالنسبة إليها. وكان الفيلسوف وعالم الرياضيات الإغريقي فيثاغورس (Pythagoras) (٥٧٠–٤٩٥ق. م) أوَّل من نادى بكرويّة الأرض على أساس فلسفيّ[٨]. ورغم ذلك استمرَّت خرائط الإغريق بالظهور على شكل قرص دائريّ تُحيط به البحار من كلِّ جانب متأثِّرين بفكرة البابليين، والكلدانيين[٩] التي ورثها عنهم العرب فيما

---

١ القلوذي(بطليموس): الجغرافية، تصدير فؤاد سزكين، وآخرون، معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، ألمانيا الاتحادية، ١٩٨٧م، ص٢.

٢ **الستاديا:** وحدة قياس للمسافات البحريّة، تُعادل عشر الميل وسدس الكيلومتر. زيادة(نقولا): دليل البحر الإريثريّ وتجارة وتجارة الجزيرة العربيّة، سلسلة دراسات في تاريخ الجزيرة العربيّة، الكتاب الثاني، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٤م، ص٢٦٩.

3 Hogarth. D. G; The penetration of Arabia, Beirut, 1966, p10.

٤ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٣٨.

٥ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١١١، ١١٢.

6 Bunbury. E.H; op, cit, p609.

٧ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٣٩.

٨ كلوزيه: تطور الفكر الجغرافي، ص١٣.

٩ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٣٨، ٣٩.

بعد. ومن أهمِّ ما أنتجه الإغريق في هذ المجال خريطة العالم المعروف آنذاك والتي تألَّفت من ستٍ وعشرين قطعة رسمها بطليموس القلوذي[١].

٥- الفكر الجغرافيّ عند الرومان:

في القرن الثالث قبل الميلاد ظهرت روما في إيطاليا ذات الأهمِّيةِ النسبيَّة للبحر المتوسط، إذ تقسُم البحر لقسمين شرقيّ وغربيّ، وخَلَفَ الرومانُ كلّاً من الفينيقيين والإغريق، واعتمدوا على أصول المعرفة اليونانيَّة وكان لهم اهتماماتهم بالقياس والخرائط، واجتذبت الإسكندريّة عدداً من الجغرافيين أمثال:

أ- استرابون(Strabon) (٦٤ ق. م- ٢٠م):

مؤرِّخ وجُغرافي اغريقيّ، ولد عام(٦٤ أو ٦٣ ق. م)، بمدينة أماسيا(Amasia)[٢] الواقعة في قلب وادي نهر ايريس وتُسمَّى حالياً" إيشيكيل بارماك"، وتوفي عام (١٩/٢٠م)[٣].

انتقل استرابون إلى روما، وسافر من أرمينيا شرقاً إلى إيطاليا غرباً، وزار اليونان ومصر، وأبحر في النيل حتَّى أطراف أثيوبيا. ألَّف استرابون مُؤلّفاً يقع في سبعة عشر جزءاً[٤]، ضمَّ فيه بعض الأفكار الجغرافيّة، إذْ ظنّ أنَّ سبب البراكين يعود إلى قوّة الرياح الحبيسة داخل الأرض، ورجَّح أنَّ جُزر البحر المتوسّط انفصلت عن اليابسة بفعل الزلازل والبراكين[٥]، وضمَّ مُؤلَّفه دراسة إقليميَّة وصفيَّة عن دول أوربة، وآسيا الصغرى، والهند وفارس، وبلاد ما بين النهرين، وبلاد العرب ومصر[٦]. كما اهتمَّ بدراسة الأقاليم المناخيّة المناخيّة وتنوّعها على أساس دوائر العرض، كما ربط بين حدوث المدّ والجزر من ناحية والقمر من ناحية أخرى[٧].

ب- بليني الأكبر(Pliny The Elder)(٢٣/٢٤-٧٩م):

گايوس پلينيوس سكوندوس(Gaius Plinius Secundus) اشتهر باسم بليني الأكبر تمييزاً له عن ابن أخيه بليني الأصغر(Pliny The Younger).

وكانت مؤلفات بليني قد شهرته بأنَّه أكثر الناس علماً في عصره، فقد كان عالماً موسوعيّاً، إذ تناول إلى جانب الاعمال العسكرية والحربيّة، التاريخ والتعليم واللغة ، ولم يبقَ من مؤلفاته البالغ عددها(١٠٢)، سوى موسوعةِ" التاريخ الطبيعي (Natural History)" التي تبحث في علوم: الجغرافية، والتاريخ،

---

[1] Hogarth. D. G; op, cit, p18.

[٢] الملائكة(إحسان): أعلام الكتاب الإغريق والرومان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠١م، ص٢٥٢.

[٣] كامل(وهيب): استرابون في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٥٣م، ص٨.

[4] Strabo, The Geography, I- XVII.

[٥] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٤٠.

[٦] هـ. ج(وود): الارتياد والكشف الجغرافي، تر: شاكر خصباك، دار المكتبة العصرية، بيروت، د. ت، ص١٥.

[٧] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١١٦- ١١٩.

والأجناس، والسلالات البشريّة، ووظائف الأعضاء، وعلوم الحيوان، والنبات، والصيدلة، والمعادن، كما درس فيها الكون والظواهر الجويّة[١]، ودرس كذلك الإنسان وخصائصه.

ويرى بليني أنَّ الجغرافية ليست مُجرَّد أسماء مواقع وأماكن، بل لا بدَّ أن تكونَ ذاتُ سعةٍ تُحيط بقدر كبير من مختلف المعلومات[٢]، وتحتوي الموسوعة على (٢٠،٠٠٠) مادَّة مُستقاة من مُؤلفين يونان ورومان[٣]. ورومان[٣].

ج- كلاوديوس بطليموس(Claudius Ptolemaius)(٧٥- ١٥٣م):

كلاوديوس بطلميوس أو كما يُعرف لدى" الهمدانيّ"[٤] " بطليموس القلوذيّ"، إذْ خلط بين الإسم والنسبة. هو عالم فلك وجغرافية ورياضيّات يونانيّ من مواطني الإسكندريّة[٥]. عاش وكتب في منتصف القرن الثاني الميلادي، وكانت ولادته ووفاته بمصر [٦]. وقد كان أعظم شخصيّة جغرافيّة في العصر الرومانيّ[٧].

ترك بطلميوس مؤلّفات شهيرة منها كتاب" المجسطي(Almagest)"[٨]، في علم الفلك، والرياضيات، واشتمل على ثلاثة عشر جزءاً. إلَّا أنَّ مُؤلَّفه الأشهر والأهمُّ كان" كتاب الجغرافية أو الدليل الجغرافيّ(Geographike Hyphegesis)"، والذي دُرّس في مُعظم مدارسِ العالم إلى ما بعد انتهاء القرون الوسطى، وقد أُعجب رجال عصر النهضة الأوربيّة بما احتواه هذا الكتابُ من اكتشاف علميّ سمح

---

١ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٤١.

٢ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص ١١٩.

٣ علي(عبد اللطيف أحمد): مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠م، ص٢٧، ٢٨.

٤ الهمداني(الحسن بن أحمد بن يعقوب): صفة جزيرة العرب، تح: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠ م، ص٤٥.

5 Encyclopedia Britannica, Inc, London, 1985, Vol. XXII, p752.

٦ الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٤٥.

٧ شريف: تطور الفكر الجغرافي، ص٣٩١.

٨ المَجَسْطي: وهي لفظة يونانية الأصل ومعناها (الأعظم) ، وهو كتاب من أهم آثار بَطْلَيموس، ألَّفه نحو عام(١٤٠ م)، م)، كان مرجعاً رئيساً لعلماء الفلك العرب والأوربيين حتَّى مطلع القرن السابع عشر م تقريباً، ثمَّ تُرجم إلى العربية، نقلاً من السريانية، عام(٨٢٧ م)، ثمَّ ترجم إلى اللاتينية، نقلاً عن العربية، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر م، ويقسم كتاب المجسطي إلى ثلاثة عشر جزءاً. مؤمن(عبد الأمير): قاموس دار العلم الفلكي، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٦م، ص٢٨٣.

بتعيين مواقع الأماكن المعروفة في العالم على الورق[١] من خلال خطوط الطول والعرض الخاصّة بها[٢].
بها[٢].

جمع بطليموس في كُتبه كلّ ما عرفه العلماء اليونان السابقون، وما سمعه هو بنفسه، وما شاهده بعينه. وقسَّم العالم إلى أقاليم بحسب درجات الطول والعرض[٣]. وهو تقسيمٌ لا يختلف كثيراً عن التقسيم القائم في في أيَّامنا هذه. ورسم خريطة للعالم المعمور آنذاك، وذكرَ أنَّ عدد المدن أربعة آلاف وخمسمئة وثلاثون مدينة في عصره، وسمَّاها مدينة مدينة. كما عدّد جبال الدنيا وعددها مئتا جبل ونيف، و ذكرَ مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر، وذكرَ البحار وما فيها من الجزائر والحيوانات وخواصها، وذكرَ أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صورهم وأخلاقهم وما يأكلون وما يشربون، وما في كل صقع ما ليس في الآخر من الأرزاق والتحف والأمتعة، فصار هذا الكتاب أصلاً يرجع إليه من صنف بعده، وتُرجم في العصر العباسي على عهد الخليفة العباسي المأمون(ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣ م)[٤].

وجمع بطليموس معلومات عن مواقع البلدان[٥]، ووقَّعها على خريطة حسب درجات الطول والعرض، ويشمل العالم المعروف على الخريطة ١٨٠ درجة طوليَّة بين جزر كناري في الغرب إلى الصين في أقصى الشرق. واستناداً إلى جغرافية بطليموس فقد كان العالم المعروف لدى الأقدمين يمتدّ من جزر الخالدات غرباً إلى الصين شرقاً، أمَّا حدودَهُ الشماليّة، فكانت الجزر الواقعة شمال بريطانيا، في حين لا تتعدَّى حدوده الجنوبيّة منطقة السودان والبحيرات الكبرى. وكان كتاب بطليموس مُزوّداً بسبع وعشرين خارطة، كانت إحداها تمُدّ البحر المتوسط بنحو ٢٠ درجة شرقاً مما أدَّى إلى استطالة الأراضي بشكل مفرط باتجاه الشرق.

وأهمُّ ما يُمكن ملاحظته على الخريطة ما يأتي:

أ- **ج**- يبدو خط الاستواء شمال وضعه الأصليّ، في حين أنَّ مدار السرطان يمرُّ بمدينة أسوان، وإنْ سبقَه في هذا التحديد لمدار السرطان ايراتوستثيس على خريطته.

ب-ج- جعل جبل طارق وسردينيا ورودس على دائرة عرض واحدة، رغم أنَّ سردينيا تقع إلى الشمال من رودس، وجبل طارق.

ج-ج- وضع بطليموس شبه جزيرة الهند في حجم أصغر من حجمها الحقيقيّ، كما بالغ في حجم جزيرة سيلان.

---

[١] بيرين(جاكلين): اكتشاف جزيرة العرب، تر: قدري قلعجي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، ص٣٥.

[2] Bunbury. E.H; op, cit, pp 546, 547.

[3] Hogarth. D. G; op, cit, p 61.

[٤] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٥٩٠؛ القنوجي: أبجد العلوم، ج٢، ص٢١٣.

[٥] أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٢.

د–ج– تظهر الجزيرة البريطانيّة في الخريطة، إلّا أنَّ اسكتلندا تمتدّ نحو الشرق ليس إلى الشمال، وبالغ بطليموس في رسم الدانمارك، ولم تظهر شبه الجزيرة الإسكندنافيّة في الخريطة .

هـ–ج– جعل بطليموس بحر قزوين مُغلقاً[1] .

و–ج– يبدو في الخريطة امتداد إفريقية نحو الشرق في جنوب المحيط الهنديّ تتَّصل بوساطته بشبه جزيرة الملاويَّة. كما جعلَ بطليموس المحيط الهنديّ مُغلقاً .

ز–ج– اعتقدَ بطليموس بامتداد أسيا كثيراً إلى الشرق نتيجة للمبالغة في قياس الأطوال، وما يُقابل الدرجات من مسافات.

ح–ج– جعل نهر النيل ينبع من جبال القمر[2].

ومن الجدير ذكره أنَّ العالم الحسن ابن الهيثم نقد أفكار بطليموس بكتاب سمَّاه الشكوك على بطليموس[3]. وبانقسام الإمبراطوريّة الرومانيّة، وتأسيس القسطنطينية (Constantinople) سنة(٣٣٠ م) على يدّ الإمبراطور قسطنطين الكبير(Constantine)(٣٠٦– ٣٣٧ م) بدأت في أوربة فترة من الجمود في الفكر الجغرافيّ. ذلك الجمود الذي بقي مُستمرّاً حتّى كسره الإسلام الذي شجَّع، أعظم تشجيع، على البحث والاستقصاء والتفكّر وإعمال العقل للوصول إلى الحقيقة. فكان لتعاليم الإسلام والرعاية التي أولاها أولوا الأمر للعلم والعلماء أكبر الأثر في تطوّر المعرفة الجغرافيّة. فظهر عدد من الجغرافيين المُهتمّين بالمعرفة الجغرافيّة والَّذين ورثوا معلومات جغرافيّة عمّن سبقهم، وقاموا بتطويرها، فكانوا رواداً بذلك، وصنَّفوا العديد من المؤلفات الجغرافيّة إضافةً إلى وضعهم العديد من النظريات الجغرافيّة المُعتمدة على أساسٍ علميّ مع البراهين المُلحقة بما قالوه، ورسموا الخرائط التي كان لها دور فعَّال في تطوّر الجغرافية خلال تلك الفترة[4].

ثالثاً– علم الجغرافية عند العرب المسلمين:

١ – اهتمام العرب المسلمين بالمعرفة الجغرافية:

وُجد عند العرب قبل الإسلام نوع من المعرفة الجغرافيّة والفلكيّة البسيطة[5]، ومع ظهور الإسلام تطوّرت المعرفة الجغرافيّة بشكل جذريّ، إذ مجَّد الإسلام الفكر ورفع شأنه وقدّره ورفع من قدْر العلماء والمفكّرين

---

[1] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٤٤.

[2] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص ١٢٠– ١٣٦؛ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص ٣٩.

[3] ابن الهيثم(أبو علي الحسن بن الحسن): الشكوك على بطليموس، تح: عبد الحميد صبره و نبيل الشهابي، دار الكتب الوطنية، القاهرة، ط١، ١٩٧١م.

[4] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٤٧.

[5] الفندي(جمال): الجغرافية عند المسلمين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٨.

ومجّد آراءهم[١]. وقد نبّه الله سبحانه لعظمة هذا الكون فأشارَ في مواضع عديدة إلى نشأة هذا الكون وقُدرة الخالق العظيم بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى :﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ* وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٤].

وفي خِضمِ هذه الآيات القرآنيّة حثَّ الدين المسلمين على الكشف والترحال والتجارة والزراعة والإبداع والابتكار، فكان عليهم أن يحتكّوا بأصحاب الحضارات الأخرى، وحثَّهم ذلك على تطوير الفكر الجغرافيّ، فقد كانت دراسة علماء العرب المسلمين لعلم الجغرافية تستند إلى معرفة الأرض من حيث مسالكها وسكانها من إنسان وحيوان ومنتجاتها النباتيّة والمعدنيّة وغيرها[٥].

من جهة أخرى وجد الخلفاء خلال الفتح الإسلاميّ ضرورة إعمال الفكر الجغرافيّ و الإلمام بمعلومات كافية عن البلاد التي يبتغون فتحها، خصوصاً عن الطرق التي تؤدي إليها[٦]، ومثل هذه العمليّات لم تكن تكن موجودة إلَّا في كتب الجغرافيين القدامى والتجَّار الَّذين ارتادوا هذه الطرق. فكان هذا الأمر حافزاً لزيادة حركة النقل والترجمة من اللغة اليونانيّة القديمة واللاتينيّة لكل أنواع المعارف[٧]. وبلغت حركة الترجمة أوجها في عهد أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد (ت ١٩٣هـ/٨٠٩ م) والمأمون. كما ظهر في العالم الإسلاميّ مجموعة من المراكز الثقافيّة جذبت إليها الطلّاب من كل أنحائه[٨]، فأنشأ هارون الرشيد

---

[١] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٤٦.
[٢] القرآن الكريم: سورة الأنبياء، الآية ١٦.
[٣] القرآن الكريم: سورة إبراهيم، الآيات ٣٢-٣٤.
[٤] القرآن الكريم: سورة يس، الآيات ٣٧-٤٠.
[٥] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٠.
[٦] أحمد(أحمد رمضان): الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، د. ت، ص١٠.
[٧] خصباك(شاكر): الجغرافية عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص١٠.
[٨] حسن(زكي محمد): الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص١٠. ص١٠.

معهداً للترجمة سُميَّ ببيت الحكمة[١]، الذي ازدهر في عهد الخليفة المأمون. واشتهر المأمون باهتمامه بالترجمة والعطاء بسخاء للمترجمين وقد أمرَ بترجمة كتاب بطليموس القلوذيّ[٢].

واهتمَّ علماء العرب المسلمين بدراسة مؤلَّفات بطليموس القلوذيّ وخاصَّة كتابه المجسطيّ وكتاب الجغرافية، فأوعز الحَجّاج بن يوسف الثقفيّ(ت ٩٥هـ/٧١٤م) بترجمة كتاب" المجسطيّ"، ثُمَّ قام العالِم ثابت بن قرة الحرّاني(ت ٢٨٨هـ/ ٩٠١م)[٣] بتصحيح هذه الترجمة وعلَّق عليها[٤].

وبعد اتِّساع رقعة الدولة الإسلامية، بعد الفتوحات، ازدادت حاجة المسلمين للاهتمام بعلم الجغرافية؛ وذلك للوقوف على أحوال البلاد من أجواء ومسافات وعادات وحرارة وبرودة واتجاهات سياسيّة واقتصاديّة، لذلك اهتمّوا اهتماماً بالغاً بالجغرافية الوصفيّة، وهي الجغرافية التي أهملها الهنود واليونان والرومان وغيرهم من السابقين لعلماء العرب المسلمين، ويمكن القول إنَّ العربَ هم مؤسِّسو الجغرافية الوصفيَّة[٥].

وقد أولى علماء العرب المسلمين عناية خاصة للجغرافية الفلكيّة والرياضيَّة لأنَّها تُحدِّد خطوط الطول والعرض[٦]، وهم الَّذين طوَّروا في علم الجغرافية الفلكيَّة والرياضيَّة إذْ استعملوا النظريات الرياضيّة والمثلثيّة في بعض ابتكاراتهم الجغرافيّة[٧]. لذلك فهُم بحق مطوِّرو الجُغرافية الفلكيّة والرياضيّة التي كانت في أوجها في العصر اليونانيّ[٨]. كذلك أولى المسلمون عناية تامّة لمعرفة المناخ والتقاسيم السياسيّة

---

[١] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٠.

[٢] ابن العبري(غريغوروس بن أهرون): تاريخ مختصر الدول، تصحيح: أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص٢٣٦.

[٣] ثابت بن قرة بن مروان الحراني، عالمٌ عربيٌّ ولد في مدينة حران، واشتهر بعمله في الفلك والرياضيات والهندسة والموسيقى، وتوفي سنة(٢٨٨هـ/٩٠١ م). ابن جلجل الأندلسي(سليمان بن حسان): طبقات الحكماء والأطباء، تح: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص٧٥؛ ابن النديم(محمد بن إسحاق): الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء المحدثين وأسماء كتبهم، تح: رضا تجدّد، طهران، ط١، ١٩٧١م، ص٢٧٢؛ الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم): الملل والنحل، تعليق: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م، ج٢، ٢٠٢-٢٥١؛ ابن الأثير(علي بن أبي الكرم): الكامل في التاريخ، مر: محمد يوسف العقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠٠٣م، ج٧، ص٥١٠؛ العظيمي (محمد بن علي): تاريخ حلب، تح: إبراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٤م، ص٢٧٣، ٢٨٦.

[٤] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٠، ٥١.

[٥] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٠.

[٦] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٥، ٦.

[٧] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٤٤.

[٨] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥١.

وعادات الناس، ولم يُهملوا أبداً العلاقة القويّة بين علم الجغرافية والتاريخ، وساقَ علماء العرب المسلمين الأدلة البراهين على أنَّ للأرض والمناخ تأثيراً في بشرة الإنسان وبدنه وأخلاقه[١].

كما بيَّن علماء العرب المسلمين الصلة الوثيقة بين علميّ الجغرافية والفلك بما جاؤوا به من نظريات في علميّ الجغرافية الفلكيّة والرياضيّة، وأولوا الفلكيّة عناية خاصّة على عدِّ أنَّها تدلّ على مواقيت الصلاة والصيام والحجّ، ومن ثمَّ كان لهم الدور الرائد في ربط علم الجغرافية بالفلك والرياضيات. وتميّزت الجغرافية عندهم عن سائر العلوم لأنَّ الَّذين عملوا في ميدانها غير مُتخصِّصين فمنهم اللغويّ والطبيب والرياضيّ والفلكيّ وغيرهم، ونظروا إلى علم الجغرافية على أنَّه مادة ثقافيَّة وضروريَّة للإنسان لأنَّه يجمع الكثير من علوم المعرفة.

واعتمدَ علماء العرب المسلمين في علم الجغرافية على الرحلات الميدانيّة أشدّ اعتماد، لكي يحصلوا على الخبرة الشخصيّة التي لا تُقدّر بثمن، وذلك لاهتمام العرب المسلمين بالنواحي التجاريّة والفتوحات، لذلك تميَّزوا عن غيرهم في الأسفار للمُعاينة الميدانيّة، و يظهر ذلك في مؤلّفاتهم. ونتيجة لرحلاتهم الكثيرة، فإنَّهم عرفوا الجزء المعمور من الأرض(الجزء الشماليّ)، وغير المعمورِ(الجزء الجنوبيّ)، وخطّ الاستواء والمنطقتين الاستوائيَّة والقُطبيّة وغير ذلك[٢]. وهكذا نالت الرحلة الإسلاميَّة حقَّها الكامل مع الاهتمام والأمان من ناحية، واستحقاقها الفعَّال من قوَّةِ الدفع والحوافز على الطريق في البرِّ والبحر من ناحية أخرى. وواصل نفر نشيط من العرب المسلمين، من أصحاب الخبرة في الرحلة، أداء دورهم الوظيفيّ والخروج في الرحلة لإنجاز المهام المنوطة بهم في كلّ رحلة في البرّ أو في البحر على حدٍ سواء[٣].

ويجب التنويه إلى أنَّ الإسلام وتعاليمه قد حثَّ على الرحلة؛ ولذلك كانت الأسفار تُزيدهم علماً، والمُسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تُنبِّه على فضيلة السفر وتدعوا إليها[٤]، منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[٥].

وكان من نتائج ريادة العرب المسلمين ومعارفهم الفلكيّة أن تحقّق لعلم الجغرافية تقدُّم مهمّ. ولا عجب في ذلك فالعرب الَّذين اعتمدوا في البداية على علوم اليونان الجغرافية لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على

---

١ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٣٨.

٢ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٢، ٥٣.

٣ الشامي(صلاح الدين علي): الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد ١٣، ١٩٨٣م، ص ١٠٠.

٤ السنوسي(محمد): الرحلة الحجازية، تح: علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٦م، ج١، ص ٤٥.

٥ القرآن الكريم: سورة الملك، الآية ١٥.

حسب عادتهم[1]. إذْ صحَّحوا الأغلاط الواردة عن من سبقهم ولاسيّما بطليموس القلوذيّ، وأضافوا معارفهم الخاصّة[2]. فكانت النتيجة معارف جغرافيّة مُتكاملة بقيت هي الأساس والجذر الذي يُدرّس في جميع أنحاء أوربّة حتَّى بداية عصر النهضة الأوربيّ.

٢- عوامل ظهور وتطور المعرفة الجغرافية عند العرب المسلمين:

إنَّ الباحث في تاريخ علم الجغرافيّة وتطوّر المعرفة الجغرافيّة لدى العرب المسلمين يُلاحظ أنَّ ثمَّة عوامل عدَّة قد أسهمت في ذلك التطوّر، لعلَّ أهمَّها:

أ- العوامل الطبيعيّة:

أ-أ- الموقع الجغرافيّ:

إذْ قامت الحضارة العربيّة والإسلاميّة في وسط العالم وفي مُلتقى القارات الثلاثة: آسيا و أوربة و إفريقية. فالموقع الجغرافيّ أدَّى دوراً مهمَّاً في عالم التجارة بين العالم الأوروبيّ الغربيّ، وبين العالم الآسيويّ الشرقيّ فجعل الحضارة الإسلاميّة دائمة الاحتكاك بالحضارات الأخرى في الشرق والغرب[3]، فتبادلت معها المعارف والخبرات. كما كان هذا الموقع مهد الديانات السماويّة الثلاث ومنه خرجت إلى العالم الغربيّ والعالم الشرقيّ، وكانت موطناً لكثير من الحضارات القديمة[4].

ب-أ- تنوّع الظاهرات الطبيعيّة من هضاب وجبال وسهول ووديان وأنهار، ساعد على تنوّع المعرفة الجغرافيّة عند العرب المسلمين.

ج-أ- تنوّع المناخ وارتفاع درجات الحرارة في بعض الجهات يقابله اعتدال الجوّ في جهات أخرى، يقابل ذلك شدَّة البرودة في جهات أخرى، وتنوّع المحاصيل، مما أدَّى إلى التبادل التجاريّ، كرحلتي الشتاء لليمن والصيف للشام[5].

ب- العوامل البشريّة:

أ-ب- نشر دعوة الإسلام:

---

[1] لوبون(جوستاف): حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٢م، ص٤٨٤.

[2] السرجاني(راغب): ماذا قدم المسلمون للعالم(إسهامات المسلمين في الحضارة الانسانية)، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م، ج١، ص٢٨٣.

[3] حميدة: أعلام الجغرافيين، ص٤٣.

[4] الشامي(صلاح الدين علي): الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، منشأة المعارف، الإسكندرية،١٩٨٠م، ص١٩٧، ١٩٨.

[5] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٥-٦٧.

ارتبط الفكر الجغرافيّ لدى العرب المسلمين بانتشار الإسلام و ترتَّب على ذلك اختلاف خصائص البيئات التي سادها الدين الإسلاميّ، ممَّا أوجد حاجة ماسَّة لمعرفة وجمع معلومات متخصِّصة عن تلك البيئات، واتَّسع اهتمام العرب بالعالم الواقع خارج بلادهم تدريجيّاً، وعرفوا الكثير عن خصائص هذه المناطق الطبيعيَّة والبشريَّة مما أسهم في دفع عجلة التقدُّم الجغرافيّ نحوَ الأمام[١].

ب–ب– الفتوحات الإسلاميَّة واتّساع الدولة:

أسهمت الفتوحات الإسلاميّة الواسعة في انتشار الإسلام[٢]، وكانت الفتوحات واتِّساع الدولة الإسلامية من العوامل التي أدَّت إلى الاهتمام بالمعرفة الجغرافيّة لأقطار هذه الدولة المترامية الأطراف[٣]، فقد نمت الدولة الإسلاميَّة وبلغت حدودها من الصين شرقاً حتَّى الأندلس غرباً في غضون سبعين سنة تقريباً، وعندما بلغت الفتوح الإسلاميَّة أوجَّها في التوسُّع ظهرت الحاجة الشديدة إلى علوم جغرافيَّة متطوّرة لمعرفة هذه الإمبراطوريَّة المترامية الأطراف، والتعرُّف على المسالك والممالك لهذه البلدان[٤]، وطلب الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وصف المدن التي تم فتحها ووصف جوّها ومناخها وأثرها في سكانها[٥]، كما طلب وضع وضع قوائم بالقبائل العربيّة القاطنة في هذه المدن، ومن هنا ظهرت أعظم المراجع في الجغرافية الاقتصاديَّة، وجغرافية الشعوب، وجغرافية الطرق والبلدان، ومن ذلك كُتب" المسالك والممالك "[٦].

وتطلَّب التوسُّع في الدولة مراعاة أمور ترتبط بهذا التوسُّع[٧]، **منها:**

1ً– إدارة المناطق:

فقد كان من الأولويّات التي اهتُمَّ بها إدارة المناطق بما يتّفق مع الإمكانات البيئيّة والخصائص الاجتماعيَّة لكلِّ منطقة[٨]، وكان الأمر يتمُّ بدراسة التقارير الجغرافيَّة الوصفيّة الأوليَّة من قبل الفاتحين لتحديد الطريقة الطريقة المُثلى لإدارة تلك الأقطار، وتُعدُّ تلك التقارير النواة الأولى لتطوّر اتجاهات الدراسات الإقليميّة[٩]. الإقليميّة[٩].

---

١ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٨.

٢ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

٣ خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٧.

٤ الجوهري(يسرى): الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٤م، ص٢٣.

٥ المسعودي(علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، مر: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥م، ج٢، ص٢٥٩.

٦ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

٧ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٨.

٨ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٠.

٩ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

2ً- النظام الإداريّ الجديد في جمع الضرائب والخراج[١]، الأمر الذي يتطلَّب معرفة المعلومات الدقيقة عن الحيازات والمحاصيل الزراعيَّة والصناعيَّة والتجمُّعات السكانيَّة وتقدير الخراج والضرائب النقديَّة والعينيَّة[٢]، ومثالها ما قام به المقدسيّ(ت ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) من تحديد للأقلِّيات غير المُسلمةِ في إطار الممالك الإسلاميَّة[٣].

3ً- تلبية احتياجات المناطق من المتطلّبات المهمَّة، وهي تقترن بالمعرفة الجغرافيّة التي تُحدّد الأولويّة في تقديم المُتطلّبات لسكان الولايات الإسلاميّة[٤].

ومثالها فتح الطُرق وايجاد جهاز البريد[٥]، الذي يربط الأمصار بعاصمة الخلافة، والذي رُتِّب منذ عهدِ الرسول الكريم ﷺ[٦]، وأصبحت مهمّته في زمن الخليفة عمر بن الخطاب ﵁ نقل الأخبار إلى عمال الرقابة[٧]، وضرورة إيجاد بيانات وصفيَّة وافية لها، وتحديد المسافات وظروف السفر وتأمين طريق البريد عند اختراقها للطرق الصحراويّة وخدمتها وحفر الآبار[٨].

4ً- تحديد المناطق المُثلى لإنشاء خطوط الدفاع عن الدولة الإسلاميَّة، وفي هذا بيان لأهمِّية الموقع الجغرافيّ في الاتجاه العلميّ للمُتطلبات التي تحتاجها الدولة الإسلاميّة[٩].

5ً- الحاجة الفقهيَّة إلى معرفة الأماكن والبلاد، وهل فتحت صُلحاً أمْ عنوة؛ ليعرف الفقهاء حُكمها في الجزية والخراج والفيء[١٠]، كما قال ياقوت الحمويّ: « ومن هذه الأماكن ماهي مواقيت للحُجّاج والزائرين، ومعالم للصحابة والتَّابعين، رضوان الله عليهم أجمعين، ومشاهد للأولياء والصالحين ومواطن غزوات سرايا سيّد المُرسلين وفتوح الأئمَّة من الخلفاء والراشدين»[١١].

ج- الفروض الدينيّة الإسلاميّة:

أ-ج- فُروض العبادة:

---

[١] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٠.

[٢] أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٤؛ خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٧.

[٣] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٠.

[٤] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

[٥] أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٤؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٠؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٤٦، ٤٧.

[٦] الطبري(محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ج٣، ص١٢٣٦.

[٧] كرد علي(محمد): الإدارة الإسلامية في عزِّ العرب، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤م، ص٣٠.

[٨] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٠.

[٩] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٩.

[١٠] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٥.

[١١] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٨.

اهتمَّ المسلمون بالتوقيت، وتحديده بدقَّة بوساطة قياس زاوية سقوط الأشعّة الشمسيّة على سطح الكرة الأرضيّة، إذْ قام الإسلام على أصول من الكتاب والسنة في تعاليمه التعبُّدية[١]، فتعتمد أركانه في أدائها على مواقيت زمنيّة ومكانيّة؛ فالصلاة تُقام في أوقات زمنيّة محدّدة ويُستقبل فيها جهة محّددة. وبما أن بقاع الأرض تختلف في مواقيتها الزمنيَّة والمكانيَّة فقد كان هناك ضرورة لأنْ يهتمَّ علماء كلُّ ولاية إسلاميَّة[٢] بتوضيح هذه الأمور لعامّة الناس. كما حُدِّد الصيام بحدود شهريَّة وحدود يوميَّة[٣] لقول الرسول الرسول ﷺ: « إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإنْ غُمَّ عليكم فصوموا ثلاثين يوماً»[٤]. وجاء التحديد اليوميّ بنصِّ القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[٥] .

ويُمكن الاستنتاج أنَّ أهمِّية أمر العبادة فيما يخصُّ تحديديها المكانيّ والزمانيّ اتَّخذت بعض الاتجاهات العلميّة في كتابة بعض المصنّفات التي تفي بأمرها، فمثلاً كان من أهداف الكتابات الجغرافيّة والفلكيّة تحقيق الفائدة وتبصير الأمّة للأوقات، ومن ذلك ما أورده البيرونيّ(ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، إذ قال: « فقد سألني أحَّد الأدباء عن التواريخ التي تستعملها الأمم، والاختلاف الواقع في الأصول التي هي في مبادئها، والفروع التي هي شهورها وسنونها، والأسباب الداعية لأهلها إلى ذلك، وعن الأعياد المشهورة والأيام المذكورة للأوقات والأعمال وغيرها ممّا يعمل عليه بعض الأمم دون بعض، واقترح عليّ الإبانة عن ذلك بأوضح ما يمكن السبيل إليه حتّى تقترب من فهم الناظر فيها»[٦].

كذلك ارتبطَ الحجُّ بمواقيت مكانيّة للإحرام، وهي مُختلفة في أبعادها من مكَّة حسب الجهات التي يأتي منها المسلمون لأداء الفريضة[٧]، وكان ضرورياً معرفة تلك المواضع التي يتمُّ إحرام الحُجَّاج والمُعتمرين منها، حتَّى لا يترتَّب عند تجاوزها مخالفة شرعيّة في تمام العبادة، ويتحدّد الحجّ بميقات زمنيّ متمثّلاً بدخول شهر ذي الحجة[٨]. و كان المسلمون يسافرون من أقصى بقاع الأرض إلى مكَّة وهذا الترحال

---

[١] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٨.

[٢] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٤٦.

[٣] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٩.

[٤] الزبيدي(أحمد بن عبد اللطيف): التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح، دار الآثار، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٢٣٢ (باب الصوم).

[٥] القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية ١٨٧.

[٦] البيروني(محمد بن أحمد): الأثار الباقية على القرون الخالية، تقديم: أحمد سعيد الدمرداش، دار ومكتبة ببيليون، جبيل- جبيل- لبنان، ٢٠١٢م، ص٤.

[٧] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٤٦.

[٨] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

الطويل[1] قد اقتضى منهم وضع الخرائط الدقيقة لهذه المناطق الشاسعة[2] التي يعبرونها من الصين شرقاً شرقاً إلى الأندلس غرباً[3]. ومن هنا كانت خرائط العرب المسلمين الأولى تجعل مكَّة في وسط الكون المعمور، فكان خطُّ الطولَ المارَ بها يُحسب تبعاً لخطِّ الزوال، ولم يكتفِ المسلمون في ذلك بالخرائط العامّة بلْ رسموا الطرق والاستراحات وقاسوا المسافات بين البلدان والمدن ورسموا الأنهار والجبال التي تعبرها قوافل الحج[4].

ب-ج- تفسير ما ورد من نصوص شرعيّة:

حيثُ جاء القرآن الكريم ببيان كثير من الظواهر التي أودعها الله في الأرض[5]، منها قوله تعالى:﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾[7]. وهذه الظاهرة الجغرافية تتحقّق عند التقاء الماء العذب بالمالح في المسطَّحات المائيَّة جميعها. وقد تدبَّر روَّاد الجغرافية من العرب المسلمين هذه النصوص المتخصّصة، ممَّا أسهمَ في تأصيل الاتِّجاه العلميّ الجغرافيّ لديهم. والقرآن الكريم فيه بيان لعدد من الظواهر الكونيَّة والجويَّة والأرضيَّة التي استرعت تفكير نخبة من العلماء، وبهذا تحدَّد ميدان الجغرافية لديهم بما يتَّفق مع ما هو معروف اليوم بالأغلفة الجويّة والصخريّة والمائيّة.

كذلك أسهمت بعض النصوص الشرعيّة التي وردت في السُنَّة النبويّة الشريفة في تنشيط المعرفة الجغرافيّة في محاولة منه العلماء لتفسير تلك النصوص[8]. وأظهرت حاجة مُلحِّة لمعرفة المقصود منها بهدف العمل بما أمر الرسول ﷺ. من تلك النصوص قول الرسول ﷺ: « لا يبقينَّ دينان بأرض العرب»[9]. وقوله عليهﷺ: « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[10].

---

[1] أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٤.

[2] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٩.

[3] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

[4] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣.

[5] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤١.

[6] القرآن الكريم: سورة الحجر، الآية ١٩.

[7] القرآن الكريم: سورة الرحمن، الآيتان ١٩، ٢٠.

[8] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٥.

[9] ابن مالك الحميري(أنس بن مالك): الموطَّأ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٨٩٢؛ ابن عبد البر الأندلسي(يوسف بن عبد الله): الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تح: عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق- بيروت، ١٩٩٣م، مج٢٦، ص٥٧.

[10] ابن مالك الحميري: الموطَّأ، ص٨٩٢؛ ابن عبد البر الأندلسي: الاستذكار الجامع، مج٢٦، ص٥٧.

وجعلت هذه الأحاديث الشريفة من تحديد جزيرة العرب محلَّ اختلاف بنَّاء بين الجغرافيين العرب المسلمين، إذْ أسهمت في ترسيخ مبادئ الاتِّجاه الإقليميّ المتخصِّص كما هو الحال في مصنف" صفة جزيرة العرب" للهمدانيّ(ت ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م).

ج-ج- الدعوة إلى عبادة الله الواحد وتعلُّم أمور الدين:

بعد فتح البلاد الإسلاميّة أصبحت هناك حاجة ملحَّة لتعلُّم شرائع الدين، حيث قامَ عدد من التّابعين بالسفر إلى البلاد المفتوحة لتعليم أبنائها أمور الدين والدعوة إليه[١]، وفي الوقت نفسه قام أفراد من سكان تلك البلاد بطلب العلم من المنابع التي ظهر فيها الإسلام، سواءً في مكّة أم المدينة لما تتمتع به المدينتان من وجود لكبار الصحابة والتابعين. وذهب الكثير من الرحَّالة لجمع الحديث من أفواه الرواة[٢]، وكانت هذه الرحلات، في سبيل الدعوة إلى عبادة الله أو طلب العلم، تستلزم المعرفة بالمسالك المؤدّية للمناطق المقصودة، إذ ترك الكثيرون أوطانهم ورحلوا إلى بلاد أخرى طلباً للعلم والمعرفة والفقه في الدين والجلوس للأخذ عن أحّد العلماء أو الفقهاء[٣]، ومن هنا قام الكثيرون بعمليات استكشاف وذلك حباً في معرفة ما جهلوا عنه من الأرض[٤].

د- اتّصالهم بثقافات الشعوب الأخرى والاستفادة من علوم القدماء:

اهتمَّ العرب المسلمين بدراسة كُتب علماء اليونان والرومان والهند وفارس، وذلك عن طريق ترجمة كتبهم، وتمكنوا من استيعاب ما جاء في كتب القدماء، واستطاعوا أن يُضيفوا إليها، وأن يصحّحوا ما بها من أخطاء، وعلَّلوا الظاهرات الجغرافيّة تعليلاً علميّاً دقيقاً ففُتح أمامهم أبواب جديدة من المعرفة كان من ضمنها المعرفة الفلكيّة المنظَّمة والمعرفة الجغرافيّة[٥].

هـ- تشجيع الخلفاء واهتمام الولاة بالعلم والعلماء:

شجَّع الخلفاءُ العلماءَ في جمع المعلومات الجغرافيّة التي لم تكن متوفّرة إلَّا في كتب الجغرافيين القدامى والتجار، وقرَّب الخلفاء والأمراء والقادة إليهم رجالَ العلم، وتابعوا ما توصَّل إليه العلماء من نظريَّات جديدة وما كتبوه من كُتب، و أغدقوا المال، بشكل خاصّ، على العلماء ممّن كانوا يُؤلّفون أو يُترجمون كتباً جديدة، وأسهم تشجيع العلماء في إبراز الاتِّجاه العلميّ في الكتابات الجغرافيَّة[٦]. وظهرت ثمرات هذا

---

[١] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٧.

[٢] ابن سعد(محمد الهاشمي): الطبقات الكبرى، تح: محمد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج٧، ص٣٢٨.

[٣] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٠، ٧١.

[٤] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣.

[٥] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٧.

[٦] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

التشجيع في المصنَّفات التي خلَّفها علماء العرب المسلمين. كما كانَ لاهتمام الخلفاء المسلمين أثر بالغ في تنشيط حركة البحث والترجمة وازدهار العلوم، ومنها الجغرافية، ورسم الخرائط على أُسُس علميّة[١].

و- الدوافع الاقتصاديَّة(زيادة نشاط الحركة التجاريَّة):

كان لاتِّساع رقعة الدولة وانتشار الأمن آثر كبير في نشاط التجارة[٢]، فشملت التجارة أرجاء البلاد الإسلاميّة و العالم المعروف آنذاك" آسيا، وأوربة وأفريقية "[٣]. وأسهمَ النشاط التجاريّ في إثراء المعرفة الجغرافيّة عند العرب المسلمين، إذ كوَّن تجّار العرب المسلمين خلفيّة واسعة عن البلاد المحيطة بهم عبر علاقاتهم التجاريّة معها[٤]، وتولَّى التُجَّار مهمَّة جمع المعلومات البشريّة والاقتصاديّة والطبوغرافيّة عن البلدان المختلفة، وأصبحوا في بعض الحالات من الجغرافيين البارزين[٥]، وكان أبرزهم ابن حوقل الموصليّ (ت ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م)، وياقوت الحمويّ(ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م)، و أكثَرَ الرحَّالة العرب من نقل كلام التجار وما رأته أعينهم[٦]. وفي هذا المضمار قال الجغرافيّ المقدسيّ: « وعلمت أنَّه بابٌ لا بدَّ منه للمسافرين والتجَّار، ولا غنىً عنه للصالحين والأخيار، إذْ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء، يطلبه القضاة والفقهاء وتحبّه العامّة والرؤساء وينفع كل مسافر ويحظى به كل تاجر» [٧].

ز- الحرص على الخبرة الشخصيَّة:

التي قادت علماء العرب المسلمين في علم الجغرافية لأنْ يتنقَّلوا في البادية ليسمعوا أخبار القبائل وأشعارهم، وليستخلصُوا بعض المعلومات الجغرافيّة الفلكيّة من أقوالهم[٨]، وكثيراً ما كانوا يُخالطون الأعراب و يؤاكلونهم ويشاربونهم ويسمعون منهم ويدوِّنون عنهم[٩].

ح- انتماء علماء الجُغرافية العرب المسلمين لبلدان عدَّة:

فمنهم من جاء من سمرقند والهند وفارس ومنهم من جاء من الأندلس والشام ومصر. وكلُّ هؤلاء دوَّنوا معلوماتهم الجغرافيّة بلغة واحدة هي اللغة العربيّة، لذا نجد أنَّ علوم الجُغرافية عند العرب المسلمين تمتاز

---

١ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٨.

٢ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧١.

٣ أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٤.

٤ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١.

٥ خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٧.

٦ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١، ٥٢.

٧ المقدسي(محمد بن أحمد): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٩٩١م، ص٢.

٨ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

٩ أمين(أحمد): ضُحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٢٥٦.

عن غيرها بالتجارب والمشاهدات الشخصيّة، فمثلاً العالِم من الشام بمقدوره الكتابة عن بلاد الشام وغيرها من الأقاليم[1].

ط- تقدير الدين الإسلاميّ متاعب السفر:

فخفَّف عن المسافرين بعض الواجبات الدينيَّة في الصوم والصلاة، ممَّا سهَّل الرحلات وشجَّع على القيام بها، وكذلك فإنَّ إباحة تعدُّد الزوجات في الإسلام كان تخفيفاً لبعض مشاق السفر، ولا تجعل الرحَّالة محلَّ شكوك أو مصدر متاعب اجتماعية. ومن الطريف معرفته في هذا الصدد أنَّ الرحَّالة ابن بطوطة(ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) تزوَّج في مصر مرَّاتٍ عدَّة، وكان له في جزيرة الملديف جنوبيّ الهند أربع زوجات شرعيَّات[2].

ي- الأقوال المأثورة والحِكم:

قال الخليفة المأمون: « إنَّه لا شيء ألذُّ من السفر في كفاية و عافية، لأنَّك تحلُّ كلَّ يوماً في محلَّةٍ لمْ تحلَّ فيها، وتعاشر قوماً لم تعرفهم».

وقال الإمام الشافعيّ رحمه الله:

سافر تجد عوضاً عمَّن تفارقهُ وَانْصِبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسدهُ إنْ سَاحَ طَابَ وَإنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست والسَّهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يصبِ

والشمس لو وقفت في الفلكِ دائمةً لمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنَ عَرَبِ[3].

وقال أحَّد الأُدباء: « السفر أحد أسباب العيش التي بها مقامه، وعليها انتظامه، و المُسافر يسمع العجائب ويكسب المكاسب».

وقال أحَّد حُكماء العرب: « السفر يسفر عن أخلاق الرجال».

وفي خلافة أبو بكر الصديق ﷺ ذهب عبادة بن الصامت وهشام بن العاص وغيرهم إلى القسطنطينية في رسالة من الخليفة إلى قيصر الروم يدعونه فيها للدخول بالإسلام[4]، ولما لقوا قيصر سألهم: « ما أعظم

---

[1] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

[2] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٥.

[3] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٢.

[4] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٢، ٤٣.

أعظم كلامكم؟». فأجابوا: « لا إله إلّا الله والله أكبر». فانتفضَ سقفه حتَّى ظنَّ هو وأصحابه أنَّه سيسقط عليهم، ثمَّ دعاهم قيصر ليلاً وعرض عليهم صندوقاً فيه صور الأنبياء من آدم إلى مُحمَّد ﷺ [1].

ك- حُبّ الرحلات:

اشتهر كثيرٌ من الرحَّالة العرب الَّذين سجَّلوا كلَّ مشاهداتهم مع جغرافيَّة البلاد التي زاروها. وكان من أهمِّ عوامل نشاط الرحلات هو إيجاد البريد في مختلف أمصار الدولة الإسلاميّة، إذْ تتطلَّب وجوده فتح الطرقات والمسالك مما سهّل عمليَّة الرحلة[2]. كما بُنيت الخانات والفنادق لنزول المسافرين، فكان ذلك عاملاً مشجِّعاً للرحلة[3]. وقد بدؤوا برحلة الحجّ، ثمَّ استهواهم الترحال، فجابوا بقاع العالم الإسلاميّ كلَّه، ثمَّ استهواهم نشر دعوة الإسلام فزاروا المجاهل التي لم يزرها أحد قبلهم[4]، ومن هذه الرحلات، الرحلة في طلب العلم للبحث والاطِّلاع والوقوف على ما أودع الله في البلاد الأخرى والأرض والبحار والجبال من الغرائب والعجائب[5].

وباتِّساع العالم الإسلاميّ وتعدُّد البلاد الناطقة باللغة العربيَّة كان هذا العالَم يعجُّ بطلَّاب العلم من كلِّ الأعمار والمستويات العلميَّة[6]. وأكثر جغرافيّ العرب السائحين كان أبو زيد السيرافي(ت ٣٣٠هـ/٩٤١م)[7]، وأبو إسحاق الإصطخريّ(ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، والشريف الإدريسيّ(ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٦م)، وأبو الحسن المسعوديّ(ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، وغيرهم كثيرون من مشاهير الرحَّالة العرب الَّذين كانت بحوثهم الجغرافيَّة عاملاً مهمَّاً في تطوّر علم الجغرافية عند العرب المسلمين[8]. و تجدرُ الإشارة إلى إلى وجود نمط آخر من الرحلات العلميّة هي تلك التي سعت للوصول إلى الأماكن الواردة في القرآن الكريم، مثل الرحلات التي تمت في عهد الخليفة العباسيّ الواثق(ت ٢٣٢هـ/٨٤٦ م) حيث أمر محمد بن موسى الفلكيّ بالتوجُّه إلى آسيا الصغرى بغية فحص كهف الرقيم وذلك بين عموريَّة ونيقيا[9].

وكان للحافز الدينيّ دوره في الرحلة لمسافات بعيدة بغية الالتقاء بأحَّد رجال العلم أو زيارة مكتبة علميَّة. ولم يقتصر دور هذه العوامل على صُنع جغرافيّين ورحّالة فقط، إنَّما كان، إلى جانب هؤلاء، نخبة من

---

[1] ابن الفقيه الهمذاني(أحمد بن محمد): مُختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن،١٨٨٤م، ص١٤١- ١٤٣.

[2] بارتولد(ف): تاريخ الحضارة الإسلامية، تر: حمزة طاهر، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٦٦، ص٥١.

[3] الكتاني(محمد بن عبد الحي): نظام الحكومة النبوية المُسمَّى التراتيب الإدارية، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، د. ت، ج١، ص٣٥٠.

[4] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٨.

[5] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٢، ٥٥.

[6] قنديل(فؤاد): أدب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣١.

[7] السيرافي(حسن بن يزيد): رحلة السيرافي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م، ص٢.

[8] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٢.

[9] السنوسى: الرحلة الحجازية، ج١، ص ٤٥ .

الفلكيين والرياضيين والفلاسفة والأطباء والمهندسين[١]. ومن الرحلات الجغرافيّة الرحلات السياسيَّة التي ازدهرت بعد اتّساع نطاق الدولة الإسلاميَّة، فنشطت السفارات إلى جيرانهم[٢].

وبالمُحصِّلة، يُمكن القول: إنَّ الرحلات أدَّت، بأغلب أغراضها، إلى تفوّق الجغرافية الوصفيَّة، كما أسهمت في تطوّر الجُغرافية البلدانيَّة(الإقليميَّة)، إذ كانت الرحلة هي المَصدر العلميّ لهذا النوع من الكتابات الجغرافيّة، ومثّلت الرحلة الوجه المُشرق للجُغرافية الإسلاميّة، ففي بطونها مَعينٌ لا ينضُب من المعلومات التاريخيّة، و الاقتصاديَّة، و الأنثروبولوجيَّة لمعظم مناطقِ العالم الإسلاميّ.

رابعاً- أثر الإسلام في إثراء الفكر الجُغرافيّ:

ازدهرت سائر أنواع المعرفة، بصفة عامّة، والجغرافية بصفة خاصة في ظلّ الإسلام، فكثيرٌ من العبادات في الإسلام ترتبط بتحديد الأوقات مثل الصلاة والصوم، وقد ساعد الحجّ على تلاقي الشعوب الإسلاميّة، وتبادل المعرفة الجغرافيّة[٣].

وكان للقرآن الكريم دوراً مُهمَّاً في إثراء الفكر الجغرافيّ، لأنَّه وجَّه أنظار المسلمين إلى التأمّل فيما خلق الله من ظواهر كونيّة، ونشط بعض الرحَّالة العرب المسلمين للبحث عن الأماكن التي ورد ذكرها في القرآن مثل رحلة عبادة بن الصامت[٤] إلى بلاد الروم للبحث عن الرقيم قرب القسطنطينيّة حيثُ يرقد أصحاب الكهف، وذهاب محمد بن موسى الفلكيّ الخوارزميّ(ت ٢٣٢هـ/٨٤٦م) بعد ذلك ليستقصي خبر أهل الكهف وأرسل الخليفة الواثق(٢٢٧- ٢٣٢هـ/٨٤٢- ٨٤٦م) سلام الترجمان إلى الأصقاع الشماليَّة (أرمينيا وجورجيا وبلاد الخزر وبحر قزوين) ليرى سدّ يأجوج ومأجوج، و كان الخليفة قد رأى في منامه كأنَّما السدَّ الذي بناه الإسكندر ذو القرنين قد انفتح[٥].

---

[١] فهيم(حسين محمد): أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م، ص٦٠ -٦٣ .

[٢] ضيف(شوقي): الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٥٦، ص٩، ١٠.

[٣] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٣٨؛ التراث الجغرافي الإسلامي، ص٤٦، ٤٧.

[٤] عُبَادَةُ بنَ الصَّامِتِ بن قيس بن أصرم الخزرجي الأنصاري، شهد بيعة العقبة الأولى والثانية، وكان نقيباً على قوافل بني عوف بن الخزرج، توفي سنة(٣٤هـ/ ٦٥٤م) وهو ابن اثنين وسبعين عاماً، ودفن بالقدس الشريف. ابن مبارك المروزي(عبد الله): الزهد والرقائق، تح: أحمد فريد، دار المعراج الدولية، الرياض، ١٩٩٥م، مج١، ص١١٥٧؛ الواقدي(محمد بن عمر): فتوح الشام، تح: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت، ج١، ص٢٣٤؛ ابن جعفر(قدامة): الخراج وصناعة الكتابة، تح: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م، ص٢٩٧، ٢٩٨؛ ابن حبان البستي(محمد بن أحمد): مشاهير علماء الأمصار، تعليق: مجدي بن منصور الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ص٦٦؛ المقدسي(مطهر بن طاهر): البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، ج٥، ص١١٥، ١١٦؛ الهروي(علي بن أبي بكر): الإشارات إلى معرفة الزيارات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٣.

[٥] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٣٨؛ أحمد(نفيس): جهود المسلمين في الجغرافية، دار القلم، القاهرة، ١٩٤٧م، ص٢٥.

ومازال مَعين القرآن الكريم في مجال الجغرافية أثر لا يَنضُب، يُشير إلى فعل يسبحون في قوله تعالى :﴿ وكلٌّ في فلك يسبحون﴾[١]، و قال الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢]، و من المُلاحظ أنَّه يستحيل أن تختلف حقيقة كونيَّة وحقيقة قرآنيَّة فمصدرهما واحد[٣]، فالقرآن الكريم هو الكتاب المُنزَّل من السماء الذي لا تتعارض آياته الكونيَّة مع أية نظريَّة علمية فهو أصدق الأفعال التي تصف الحركة في الفضاء. كما أنَّ اتِّساع الكون حدث عظيم اكتشفه العلم الحديث من تتبّع صور المجرات[٤]، وقد تعرّض القرآن الكريم لذلك بقوله تعالى: ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنَّا لموسعون﴾[٥].

وجاء في سُنن الترمذيّ في كتاب فضائل القرآن: « هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، و لا يشبع به العلماء، و لا يخلق على كثرة الردّ و لا تنقضي عجائبه»[٦]. فكلام الله غير مخلوقٍ، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهو محدثة مخلوقة[٧]. فدرسٌ في الجغرافية هو تسبيح وتحميد لله الذي أبدعَ نظام هذا الكون، وخاصّة عندما يُلاحظ الباحث تفسير آية أو تكرار عبارة، وقال فلان وقال آخرون وهنا يجوز التأويل[٨]. فالقُرآن ليس مرجعاً في الجغرافية لكنَّ ما فيه من إشارات تُعطي صورة حقيقة عن الكون، لأنَّ القرآن حقيقة أنزلها الحق، وهي حقيقة لا تتغير وإنْ تغيَّرت الأزمنة والأمكنة.

وهنا لابدَّ من الإشارة إلى أنَّ المستشرق الروسيّ كراتشكوفسكي قد ارتكب خطأً فادحاً حينما ناقش القرآن وكأنَّه يناقش مرجعاً جُغرافياً فيقول:« إنَّ المادَّةَ الجُغرافيَّةُ في القرآن طفيفة على العموم، والنظرات الجغرافيَّة فيه قائمة على تصوّرات غير واضحةٍ فمادَّته أفقر من الشعر الجاهليّ بكثير، فهو لم يحتوِ على ذكر إلَّا لعشرة أماكن كما لمْ يردْ فيه إلَّا ذكر لقبيلة قريش»[٩].

---

[١] القرآن الكريم، سورة يس، الآية ٤٠.

[٢] القرآن الكريم: سورة الزمر، الآية ٢٧.

[٣] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٤٨.

[٤] بوكاي(موريس): التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث، تر: حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت، د. ت، ص٢٠٢.

[٥] القرآن الكريم: سورة الذاريات، الآية ٤٧.

[٦] الترمذي(محمد بن عيسى بن سورة): الجامع الصحيح(سنن الترمذي)، تح: أحمد شاكر وأخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٧م ، ج٥، ص١٧٢، ١٧٣.

[٧] الزركشي(محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٧م، ج١، ص٩.

[٨] الطبري(محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل القرآن، تح: محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٥٥م، ج١، ص٤٥٠، ٤٥١، ج٣، ص٣٠٤.

[٩] كراتشكوفسكي(أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧م، ج١، ص٤٥، ٤٩.

وفيما يأتي نماذج من الإشارات الجغرافيّة في القرآن الكريم، تُبيّن أنَّ القرآن يُعدُّ المصدر الأساسيّ للمعرفة الجُغرافيَّة عند علماء العرب المسلمين وتؤكِّدُ على دور الإسلام في إثراءِ الفكر الجغرافيّ:

١- حقائق عن السماء والنجوم:

وردَ ذكر السماء والسموات في القرآن ثلاثمئة وإحدى عشرة مرَّة، مع ذكر ما فيها من شمس وقمر ونجوم، فذُكرت الشمس ثلاثاً وثلاثين مرَّة، والقمر سبعاً وعشرين مرَّة، و النجوم اثنتي عشرة مرَّة.

ومن الآيات التي يقف عندها الإنسان كثيراً في ظلّ ما توُفّر من معلومات[١] الآيتان الكريمتان﴿ فَلَا أُقْسِمُ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٢]. و كوكب الأرض الذي نعيش على سطحه يتْبع مجموعة كواكب تدور حول الشمس تُعرف بالمجموعة الشمسيّة، وبعض هذه الكواكب كعطارد يُتمّ دورته حول الشمس في ٨٨ يوماً. ويكمِّل كوكب بلوتو هذه الدورة في ٢٤٨ سنة أرضيَّة، ويبعدُ نجم الشمس عن الأرض بمقدار ٩٣ مليون ميل في المتوسط أو ١٥٠ مليون كم، وتصل إلينا أشعة الشمس في ثماني دقائق وثلث، وهي المدَّة التي تقطع فيها هذه الأشعة بين الشمس والأرض بسرعة تصل إلى ٣٠٠ ألف كم/ ثانية، ولو تطير طائرة في اتِّجاه الشمس بسرعة ٤٠٠ كم / ساعة فلن تصل إلى الشمس إلَّا بعد ٤٢ سنة.

وما الشمس إلَّا نجم في مجرَّة يُطلق عليها درب التبّانة، وتضم هذه المجرة مئة ألف مليون نجم شقيق للشمس. ولكي يتمَّ تصوّر مئة ألف مليون، فقد تمَّ إجراء عملية حسابيَّة لحساب الوقت الذي يستغرقه عدَّ مئة ألف مليون بالآلة الحاسبة، على أساس أنَّ كلَّ رقمٌ يستغرق نصف ثانية فكانت النتيجة أنَّ الزمن اللازم هو ١٥٨٠ سنة.

هذه هي مجرتنا التي تدور في المجموعة الشمسية حول مركزها مرَّة كلَّ ٢٠٠ مليون سنة بسرعة ٣٢٠ كيلو متر في الثانية[٣]، وصدق الحقّ تبارك وتعالى بقوله:﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٤]، وإنَّ كلّاً من الشمس والقمر مُنيران[٥]، ويتجلَّى ذلك بقوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾[٦].

٢- حقائق عن الفضاء:

---

[١] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٥٣.

[٢] القرآن الكريم: سورة الواقعة، الآيتان ٧٥ ، ٧٦.

[٣] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٥٣، ٥٤.

[٤] القرآن الكريم: سورة يس، الآية ٣٨.

[٥] الجندي(أنور): صفحات مضيئة من تراث الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص١٣.

[٦] القرآن الكريم: سورة يُونس، الآية ٥.

من الحقائق التي وصل إليها العلم أنَّ نسبة الأوكسجين الذي يحتاجه الإنسان في التنفس تقلُّ في الهواء كلما ارتفعنا إلى أعلى، وقد قدَّر العلماء وزن الغلاف الغازيّ بخمسة آلاف مليون مليون طنٍّ، أي نصيب كلُّ فرد على سطح هذا الكوكب يصل إلى نحو مليون طنّ من الهواء وذلك إذا استأثر الإنسان دون سائر الكائنات الحية بالهواء. ويقع نحو ٩٧% من وزن هذا الغلاف الغازيّ في نطاق ٢٩ كيلو متراً فقط فوق سطح الأرض[١] وقد تجلَّى ذلك بقوله تعالى:﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[٢].

٣- حقائق عن كرويّة الأرض:

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ* يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ* وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ* كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى* أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[٣]، وقد تناول ابن حزم كرويَّة الأرض تحت عنوان" مطلب بيان كرويّة الأرض"، وذكر البراهين من القرآن والسنة[٤]، وهذا تعبير عجيب يُجبر الناظر فيه على الالتفات إلى ما كُشف حديثاً عن كرويَّةِ الأرض[٥].

٤- حقائق عن دوران الأرض:

إنَّ ما يدلُّ على حركة الأرض وليس كما فسَّرها بعضهم بيوم القيامة، وإنكارهم لدوران الأرض[٦] قوله تعالى:﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[٧].

٥- حقائق عن ظاهرة الليل والنهار:

---

١ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٥٦.

٢ القرآن الكريم: سورة الأنعام، الآية ١٢٥.

٣ القرآن الكريم: سورة الزمر، الآية ٥.

٤ ابن حزم الأندلسي(علي بن أحمد): الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، ١٩٢٩م، ج٢، ص٧٨.

٥ الشاذلي(سيد قطب إبراهيم حسين): في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط٣٢، ٢٠٠٣م، تفسير الآية ٥ من سورة الزمر، ص١٣٤٣.

٦ ابن باز(عبد العزيز): الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب، مطبوعات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٩٧٥م، ص٢١، ٣٠.

٧ القرآن الكريم: سورة النمل، الآية ٨٨.

يتساوى الليل والنهار مرَّتين في السنة إحداهما في ٢١ آذار(الاعتدال الربيعيّ) والأخرى في ٢٣ أيلول(الاعتدال الخريفيّ)، ويزيد طول النهار في نصف الكرة الشماليّ في فصل الصيف حينما تتعامد الشمس على مدار السرطان ويقصُر الليل.

ويحدث العكس في فصل الشتاء حينما تتعامد الشمس على مدار الجدي، أيّ يدخل جزءٌ من الليل في النهار في فصل الصيف حينما يتعدّى نصيب النهار أكثر من نصف اليوم، ويُولج النهار في الليل وذلك حينما يتعدّى نصيب الليل أكثر من نصف اليوم في فصل الشتاء[١]. وهذه الحقيقة تُفسِّرُها الآية الكريمة بقوله تعالى:﴿ يولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢].

٦- حقائق توزع اليابسة والماء:

وردت كلمة بحر في القرآن الكريم إحدى وأربعين مرَّة وجاء ذكر البَرّ بمعنى اليابسة اثنتي عشرةِ مرَّة، أيّ بنسبة ٢٣% لليابسة، و٧٧% للبحر، وهذه النسبة تُقارب نسبة التوزيع الحاليّ لليابس والماء فوق سطح الأرض الذي ينقسم إلى ٢٩% لليابس و ٧١% للبحار[٣].

خامساً- المصادر الأوليَّة للمعرفة الجُغرافيَّة عند عُلماء العرب المسلمين:

كانت معرفة العرب الجغرافيَّة قبل الإسلام محدودة للغاية، فلم تتعدَّ معرفة البلاد المُجاورة لهم كالهند وإيران ومصر والحبشة والعراق، وذلك فيما يتعلَّق بعلم الأنواء والهِداية بالنجوم ومسالك الطرق الصحراويّة والإنتاج الزراعيّ[٤]، وهو أساسُ التعامل التجاريّ مع هذه البلدان[٥]. ولم تستمرّ الحال كذلك، فبعد بعثة الرسول ﷺ انتشر الإسلام و كثرت الفتوحات[٦].

وأصبح للعرب المسلمين معرفة بالطرق والمسالك[٧]، وقام علماء العرب المسلمين بعد ذلك بتذليل المعلومات الجغرافيّة التي ورثوها من الحضارات السابقة لهم، وقاموا بتصحيح كثير من أغلاطهم الجغرافيّة[٨]، وفيما بعد تفوَّق علماء العرب المسلمين على علماء الرومان في مجال علم الجغرافية لأنَّهم

---

[١] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٥٩، ٦٠.

[٢] القرآن الكريم: سورة الحديد، الآية ٦.

[٣] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٦١.

[٤] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦.

[٥] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٨.

[٦] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٨.

[٧] أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٤.

[٨] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٥.

دخلوا الصين وإفريقية دون الرومان، ودعاهم ذلك إلى دراسة مناخ الغابات المختلفة، هذا الأمر دفع علماء أوربة إلى تلقِّي معلوماتهم عن هذه المناطق من المصادر العربيّة[١].
إضافةً إلى ذلك كان للعرب المسلمين الفضل في التعرف على الجغرافية الطبيعيّة والاقتصاديّة لهذه البلدان[٢]، وصحيح أنَّ العرب المسلمين قد برعوا في علم الجغرافية لكنَّ معلوماتهم الجغرافيّة البدائيَّة كانت بسيطة، و قاموا فيما بعد بتطويرها. وقد حصلوا عليها من مصادر كان **من أهمِّهَا:**

١ – ترجمة موروث الحضارات السابقة:

أقبل العرب المسلمين، لزيادة معرفتهم الجغرافيّة، على الأخذ بالنظريات اليونانيّة والرومانيّة خاصّة، وللتراث الجغرافيّ النظريّ الذي ورثوه من الحضارات السابقة عموماً، فبنوا عليها وطوّروها وازدهرت في عهدهم، وصحّحوا كثيراً من الأغلاط التي ارتكبها اليونانيون[٣]، ومثالها مبالغة بطليموس في تحديد طول البحر المتوسّط وامتداد الجزء المعمور من الأرض[٤]. وكانت لهم إبداعات وابتكارات علميّة فأضافوا أفكاراً أفكاراً ومفاهيم جديدة، وقد كان لدى العلماء العرب المسلمين الرغبة الصادقة والعارمة في معرفة المسالك والطرق في العالم الإسلامي الفسيح وفي العالم أجمع.
وفي الوقت الذي أخفق فيه علماء الرومان في الأخذ بآراء فلاسفتهم وتبنَّت الكنيسة بلورة أفكارها[٥]، فإنَّ العرب المسلمين عادوا إلى بعث النظريات الجغرافيّة اليونانيّة القديمة[٦]، إذْ كان العرب أصحاب ثقافة وحضارة، وأصحاب حروب وفتوح، فارتبط الأمران عندهم ببعضهما، من ثَمَّ استفاد علماء العرب من نتاج علماء اليونان والرومان في مجال الجغرافيّة الفلكيّة[٧]، لكنَّهم لم يتوقّفوا عن النقل عنهم، بل أبدعوا ليس فقط في الجغرافية الفلكيّة ولكن أيضاً في الجغرافية الوصفيّة التي تعدّ من أهم ابتكارات العرب العلميّة[٨]،

---

[١] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٥١.
[٢] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٥.
[٣] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٣.
[٤] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٥، ٤٦؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٧.
[٥] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٣، ٧٤.
[٦] أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٣.
[٧] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٦، ٤٧.
[٨] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧١.

فأضافوا أفكاراً ومفاهيم جديدة في مجال البحث الجغرافي[١]، وكذلك أخذوا عن الحضارة الفارسيّة والهنديّة والمصريّة وغيرها[٢].

فالنظريات الجُغرافيّة كانت مُتقدّمة عند اليونانيين، فعلّلوا مثلاً وجود الأصداف و القوافل البحريّة في الأرض اليابسة البعيدة عن البحر، بأنَّها كانت في ما مضى بحراً ثمَّ تحولت أرضاً، وذلك بسبب حرارة الشمس التي قلصت مساحة البحر. ولهم آراء أخرى في هذا الموضوع، مما يدلل على تقدّمهم في هذا العلم.

ورُغم اعتماد العرب المسلمين على نتاج الرومان واليونان، إلَّا أنَّهم هم الَّذين أرسوا الأسس الأولى لعلم الجغرافية الحديثة[٣]. وفي هذا المجال عمل المترجمون العرب على نقل أهم المؤلفات الجغرافيّة والرياضيّة والرياضيّة والفلكيّة[٤] إلى اللغة العربية، ثمَّ جاءت مرحلة الإبداع الذاتيّ التي طور فيها علماء العرب المسلمين علوم الفلك والجغرافية والرياضيات[٥]. ومن هنا كان للعرب المسلمين دور كبير في حفظ نتاج اليونان الجغرافيّ من الضياع، إضافةً إلى تقديمهم مفاهيم جغرافيّة في حقول مهمّة[٦].

وكانت معرفة العرب بالجغرافية الفلكيَّة اليونانيَّة وثيقة الصلة بالنهضة العلميَّة التي أذكاها الخليفة العباسي المأمون، فقد كلَّف بعض العلماء القيام بالأرصاد الفلكيّة وقد قِيست الدرجة الجغرافيّة خلال هذه الأرصاد. وكانت الجداول الفلكيّة المعروفة باسم الزيج المأمونيّ ضمن ثمرات ذلك، ثمَّ إنَّ القيام برسم مصور المأمون يُعد مثالاً لما كانت عليه الحال في فارس القديمة؛ إذ إنَّ هذه المصورات قد رُسمت لملوك الساسانيين[٧].

ويندرجُ ضمنها الإشارات التي يمكن أن تُسمَّى بالجغرافية الفلكيّة، ويُستخلص من شواهد شتَّى أن هذه الآراء عُرفت من المشرق، ولعلّهم نقلوها من الرسائل الهنديّة التي كتبت في الفلك مثل" السد هانا"[٨] التي عُرِفت في بغداد أيام الخليفة المنصور عن طريق مدرسة جند يسابور[١].

---

١ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٧.

٢ أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٥؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٨.

٣ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٤٧.

٤ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٧؛ خصباك: الجغرافية عند العرب، ص١٠.

٥ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٨، ٦٩.

٦ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٧.

٧ الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص٢٥، ٢٦.

٨ تعني المستقيم الذي لا يعوج ولا يتغير، ويقع هذا الاسم كلما علت الرتبة عند أهل الهند من علم حساب النجوم. البيروني(محمد بن أحمد): مفتاح علم الهيئة وتحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد الدكن– الهند، ١٩٥٨م، ص١١٨.

ولا شكَّ أنَّ القول بالأقاليم السبعة قد عُرف أصلاً عن هذا السبيل، ولعلَّ هذا القول تأثَّر بالتقسيم الفارسيّ للأرض إلى سبعة كشورات[٢]، ويُؤيّد ذلك أنَّ الأوصاف التي تناولت الأقاليم السبعة بدأت بذكر البلدان التابعة لأقاليم الشرق، في حين أنَّ الاعتقاد في قبّة الأرض من المعتقدات الهندية الأصل، كما يُثبت ذلك اسم " أرين" الذي يُطلق على هذه القبَّة، وهو قراءة خاطئة لاسم المدينة الهندية" أجّيني"، وانتقلت فكرة أرين كما هو معروف إلى تصوّرات الجغرافيين العرب المسلمين فيما بعد. ولعلَّ اسم زيج الذي يُطلق على الجداول الفلكيَّة وعلى الجداول الجغرافيَّة الخاصَّة بخطوط الطول والعرض يرجع إلى ما أُثِرَ عن هذا العِلم الفارسيّ والهنديّ[٣].

٢ – الشعر العربيّ القديم والجاهليّ:

اشتملت أشعار العرب على كمٍّ كبيرٍ من أسماء الأعلام والأماكن الجغرافية التي كانت معروفة عند البدو الرحل[٤]. كما احتوت تلك الأشعار على كثير من الحقائق الجُغرافيَّة و الأعلام الجُغرافيَّة[٥] من أودية وآبار وجبال وتلال ومعالم ورسوم. فغدا الشعر الجاهليّ مصدراً مُهمَّاً في الكتابات الجغرافية الأولى، وإنَّ نظرةً سريعةً في المعلَّقات السبع أو العشر[٦] تُوضِّح مدى اهتمام العرب بالمظاهر الجغرافيّة، وقد انتقلت هذه المعلومات الجغرافيّة من جيلٍ لآخر على ألسنة الرواة[٧]، فقد كانت رواية الشعر من أفضل ما عُني به العرب على مرِّ العصور؛ و لذلك كانت المعرفة الجغرافية موجودة بين اللغويين[٨].

---

[١] مدينة حصينة من بلاد خوزستان بأرض فارس. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٧٠؛ القرماني(أحمد بن يوسف): أخبار الدول وآثار الأوّل في التاريخ، تح: أحمد حطيط، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج٣، ص٣٥٠.

[٢] الكشور: مأخوذ من اللغة الفارسية والمشتقة من كشسته، وهي اسم الخط في لغتهم، وعلى هذا تكون الكشورات السبع هي سبعة خطوط، وهي ما يقابلها بالعربية سبعة أقاليم. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٦.

[٣] الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٩، ٢٠.

[٤] الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٣، ١٤.

[٥] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٣٥، ١٣٦.

[٦] تسمى المذهبات، قيل: لأنَّها كتبت بماء الذهب، وقد اختلف في عددها، فمنهم من قال: سبع، ومنهم من قال: عشر معلقات، وهي من أشهر قصائد شعراء عرب الجاهلية، ومنهم: امرؤ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، وعمرو بن كلثوم، وغيرهم من مشاهير شعراء العرب. الأنباري(محمد بن القاسم): شرح القصائد الطوال السبع الجاهليات، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٨م، ص١٣؛ الزوزني(الحسين بن أحمد): شرح المعلقات العشر، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٠؛ الشنقيطي(أحمد الأمين): شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، تح: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، ٢٠٠٥م، ص١.

[٧] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٠.

[٨] الصياد(محمود): من الوجهة الجغرافية، جامعة بيروت العربية، بيروت، ط١، ١٩٧١م، ص٣.

وقد ضمَّت هذه الأشعار معلومات مهمّة عن الجغرافية الوصفيّة التي تَميّز بها علماء العرب المسلمين، إضافةً إلى اهتمامهم بالجغرافية الفلكيّة التي تتحدَّث عن المناخِ وحركة النجوم التي يهتدي بها العرب في الصحاري القاحلة[١]، ولعلّ من أبرز هذه الأشعار التي احتوت على معلومات جغرافية مهمَّة قول الشاعر الشاعر طرفة بن العبد[٢]:

رأى منظـــــراً منهــــا بــــوادي تبالـــــة فكـــانَ عليـــه الـــزاد كـــالمقرِّ أو أمـــر

أقامـــت علـــى الزعـــراء يومـــاً وليلـــة تعاورهـــا الأرواح بالســـقي والمطـــر[٣].

وقول حسان بن ثابت[٤]:

لمــــن الــــدار أوحشــــت بمعــــانٍ بـــينَ أعـــلا اليرمـــوك فالخمـــان

فالقُريَّـــات مــــن بـــلاس فـــداريا فســــكَّاء فالقصــــور الـــــدواني

فقفـــا جاســـم فأموديـــة الصـــفر مغنـــا قبايـــل وهجـــان[٥].

وقول امرؤ القيس[٦]:

لمــــن الــــديار عرفتهـــا بســــحامِ فعمــــايتين فهضـــب ذي أقـــدام[١].

---

[١] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٨،٤٩.

[٢] شاعر عربي جاهلي، من إقليم البحرين، وهو مصنَّف بين شعراء المعلقات، و قيل: اسمه طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد أبو عمرو لُقّب بطَرَفَة، وهو من بني قيس بن ثعلبة من بني بكر بن وائل واتَّصل بالملك عمرو بن هند، فجعله في ندمائه، ثمَّ أرسله بكتاب إلى المكعبر عامله على البحرين وعُمان يأمره فيه بقتلهِ، لأبيات بلغَ الملك أنَّ طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر شاباً دونَ الثلاثين من عمره سنة(٥٦٩ م) الأنباري: شرح القصائد الطوال، ص١١٥؛ الزوزني: شرح المعلقات العشر، ص٨١؛ الشنقيطي: شرح المعلقات العشر، ص٧٥.

[٣] طرفة ابن العبد(عمرو): الديوان، تقديم: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٤٠.

[٤] حسان بن ثابت الأنصاري شاعر عربي وصحابي من الأنصار، ينتمي إلى قبيلة الخزرج من أهل المدينة، كما كان شاعراً معتبراً يَفدْ على ملوك آل غسان في الشام قبل إسلامه، ثمَّ أسلم وصار شاعرُ الرسولﷺ بعد الهجرة توفي سنة(٤٠هـ/ ٦٦٠م). ابن ثابت الأنصاري(حسان): الديوان، تقديم: عبدا مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص٨- ١٥.

[٥] ابن ثابت الأنصاري: الديوان، ص٢٤٧. وهذه المواضع التي ذكرها هي مقرُّ آل جفنة الغساسنة بدمشق.

[٦] امرؤ القيس بن حِجر بن الحارث الكندي، كان شاعراً عربياً جاهلياً عالي الطبقة من قبيلة كندة، يُعدُّ رأس شعراء العرب وأعظم شعرائهم في التاريخ، يُعرف في كتب التراث العربية باسم" الملك الضليل" و" ذي القروح" توفي سنة(٥٦٥ م)." الأنباري: شرح القصائد الطوال، ص٣؛ الزوزني: شرح المعلقات العشر، ص٢٢؛ الشنقيطي: شرح المعلقات العشر، ص٢.

ومن المعروف أنَّ العرب قبل الإسلام اشتهروا برحلتي الصيف والشتاء، ومن ثَمَّ أصبحوا أصحاب معرفة بالطُرق والمسالك. وبعد ظهور الإسلام كانت هذه المعلومات موجودة عند العرب المسلمين فاعتمدوا عليها وطوروها[٢]. ونتيجة لملاحظتهم السماء ومراقبة نجوم معيّنة أمكنهم التنبُّؤ بحالة الطقس وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة، وقد عرفوا ذلك باسم" النوء".

و انعكست هذه المعرفة التي استفاد منها العرب المسلمين في كثير من أمثال العرب في العصر الجاهلي، ومن هذه الأمثال:

« إذا طلع الدبران توقّدت الحزان ويبست الغدران وكرهت النيران واستعرت الذبان، ورمت بأنفسها حيث شاءت الصبيان».

« إذا طلع سعد السعود نضُر العود ولانت الجلود وكُره في الشمس القعود»[٣].

« إذا طلع الدلو فالربيع والبدو والصيف بعد الشتو»[٤].

و من أهم أسباب تفوّق العرب المسلمين بعلم الجغرافية هو معرفتهم بعلم الفلك و صحاء السماء خلال معظم شهور السنة، لاسيَّما أنَّهم قاموا بمجموعة من الاهتمامات بهذا المجال، منها دراسة النجوم وحركتها، وعرفوا عدداً كبيراً منها[٥]، وهي لا تزال تحمل الاسم العربي، فالجغرافية كانت عندهم المصدر الذي يَعرف منه الإنسان تاريخ الصناعة والتجارة وموقع البلاد وعادات أهلها[٦].

ومن جهة أخرى إنَّ حياة العرب المسلمين في بيئة صحراويّة فرضت عليهم السعي للوصول إلى المعلومات الجغرافيّة، وذلك للقيام بتجاراتهم وأسفارهم[٧]، لذلك عملوا على معرفة النجوم والكواكب التي تلمع في السماء الصافية ليتّخذوا منها علامات تدلَّهم على مسالك الطُرق[٨]. وفي هذ المجال قال ابن

---

[١] القيس(امرؤ): الديوان، تح: مصطفى الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٥، ٢٠٠٤م، ص١٥٥، والسحام: واد بفلج، وبلاد بني سحام باليمن من ناحية ذمار، وعمايتان مثنى عماية، وعماية ويذبل جبلان بالعالية، وذو إقدام جبل. الهمذاني(الحسن بن أحمد): صفة جزيرة العرب، طبعة ليدن، ١٩٣٨م، ص١٧٣-١٧٥.

[٢] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٨.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١.

[٤] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦.

[٥] أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٤.

[٦] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٩.

[٧] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٨.

[٨] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، صٍ٤١؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٤٤.

منظور(ت ٧١١هـ/١٣١١م): « أنِسُوا بالقمر لأنَّهم يَجلسون فيه للسمر، ويُهديهم السبل في سرى الليل والسفر، ويُزيل عنهم وحشة الغاسق، وينمُّ على المؤذي والطارق»[١].

وإنَّ امتهان العرب لحرفة رعي الإبل والأغنام كان عاملاً آخراً ساعد في تطوّر معارفهم الجُغرافيَّة، إذْ كان عليهم معرفة موارد المياه ومنابت الكلأ الضرورية لمواشيهم[٢]، وخاصة إذا عُلِمَ أنَّ العرب كانوا يلجؤون في سنوات الجدب إلى نار الاستمطار[٣]، وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية حين يجتمعون ويجمعون عدداً من الأبقار، ثمَّ يعقدون في أذنابها وعراقيبها الأحطاب، ثمَّ يصعدون فوق جبل ويشعلون فيها النيران ويرفعون أصواتهم بالتضرّع والدعاء[٤].

٣- القرآن الكريم والسنّة النبويّة:

أخذَ علماء الجغرافية العرب المسلمين كثير من المعلومات الجغرافيّة من وصف للمدن والأرض والفلك وغير ذلك من القرآن الكريم والسنة النبويّة[٥]، وشكَّل القرآن الكريم حافزاً أساسيّاً في ازدهار المعرفة الجغرافيَّة عند العرب المسلمين، إذْ أورد معلومات جغرافيَّة لم يكن العرب يعرفونها من قبل، وأثارَ الاهتمام بالجغرافية في كثير من آياته التي تحثُّ على التأمُّل والتفكير في خلق السماوات والأرض[٦]، وتدعوا إلى النظر في مخلوقات الله وما سخَّره للناس من نجوم وكواكب ورياح وأمطار[٧].

ومن جهة أخرى دعا الإسلام العرب و المسلمين عامَّة إلى النظر في السماوات والأرض وإلى تأمُّل الكون وظواهر الطبيعة[٨] وسقوط الأمطار ونمو الأعشاب و الأشجار وتعاقب الليل والنهار وخسوف القمر وكسوف الشمس وبدء الخلق وتطوّره، كما دعا إلى السفر والارتحال وتأمُّل خلق الله واختلاف الألسنة، وإلى التدبُّر والتعقُّل لاكتشاف أسرار المخلوقات وتعظيم الخالق سبحانه وتعالى[٩] حتَّى يُهتدى إلى الإلمام بمقدرة الله ﷻ، وأنَّه أتقن كل شيء خلقاً. فالعرب المسلمين كانوا يتلون آناء الليل وأطراف النهار كتاباً

---

[١] ابن منظور(محمد بن جلال الدين): نثار الأزهار في الليل والنهار، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، ١٨٨١م، ج١، ص٥٧.

[٢] محمدين(محمد محمود): كيف يستفاد من الشعر الجاهلي في دراسة جغرافية الجزيرة العربية، مجلة الدارة، العدد ٣، الرياض، ١٩٧٩م، ص١١٠؛ أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٤.

[٣] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٣٥.

[٤] النويري(أحمد بن عبد الوهّاب): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: محمد ضياء الريس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٧م، ج١، ص١٠٩، ١١٠.

[٥] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٣٧.

[٦] الشامي: الفكر الجغرافي، ص١٥٠.

[٧] نالينو: علم الفلك، ص١٠٥.

[٨] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٨.

[٩] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٦.

يحثّهم على السير في الأرض والاعتبار بآثارها الدائرة وأممها الغابرة[١]. قال تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ﴾ [٢]، وقوله وقوله تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [٣]، وقوله تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٤].

والقُرآن أقدم الوثائق التي تناولت معلومات جغرافيّة، ومع ذلك ذكرَ المستشرق كراتشكوفسكي أنَّ الإرشادات الجغرافية الواردة فيه نادرة[٥]، وربَّما يكون هذا المستشرق قد وقعَ في خطأٍ كبيرٍ عندما علَّل ذلك، فكيفَ يُمكن الأخذ بفكرته والقرآن الكريم فيه معلومات جغرافيّة غزيرة بكلِّ ما يتعلَّق بهذا الكون؟، ومن هذه الإشارات الفكرة القائلة بأنَّ الأرض مستوية عليها الجبال كالأوتاد[٦]، ويتجلَّى ذلك بقوله تعالى:﴿ تعالى:﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[٧]، كذلك حثَّ الإسلام على الأسفار في طلب الرزق ونشر تعاليم الدين الحنيف[٨]، فقال تبارك وتعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[٩].

وكثيرٌ من الجغرافيين العرب المسلمين يستشهدون بهذه الآيات في أدعيتهم أو يسعون إلى تأييد آرائهم بما ورد في القرآن، ومثال ذلك الإدريسي، وينطبق هذا خاصة على مذهب" البحرين بينهما برزخ"[١٠]، وقد وردت في القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿ مرج البحرين يلتقيان* بينهما برزخ لا يبغيان﴾[١١]، وهذا ما أشارَ إليه المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم وذلك عندما تحدَّث عن البحار[١٢].

---

[١] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤١.

[٢] القرآن الكريم: سورة غافر، الآية ٨٢.

[٣] القرآن الكريم: سورة الحج، الآية ٤٦.

[٤] القرآن الكريم: سورة الأنعام، الآية ١١.

[٥] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٧.

[٦] الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٥، ١٦.

[٧] القرآن الكريم: سورة النبأ، الآيتان ٦، ٧.

[٨] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٣.

[٩] القرآن الكريم: سورة الملك، الآية ١٥.

[١٠] الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٦.

[١١] القرآن الكريم: سورة الرحمن، الآيتان ١٩، ٢٠.

[١٢] المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٦.

وبالتالي أصبحَ المذهب عقيدة في علم الجغرافية وعلم رسم المصورات الجغرافيّة، و خاصة إذا عُلمَ أنَّ القرآن الكريم يتحدّث في آية من آياته عن البحار[1] ويتجلّى ذلك بقوله تعالى﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

وتُؤيّد الأحاديث النبويّة الدعوة للسفر والترحال، من ذلك ما رُوي عن أبي هريرة ﷺ، قال رسول الله ﷺ: « لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبحَ الناس على ظهر السفر، وهو ميزانُ الأخلاق، إنَّ الله بالمسافر رحيم»، وروى أبو هريرة عن الرسول الكريم قوله:« اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إنِّي أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال». وقوله ﷺ: « اللهم اطرِ لنا الأرض وهوِّن علينا السفر»، وروى الطبراني من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « اغزوا تغنموا، وصُوموا تصحّوا، وسافروا تستغنوا»[3].

ومن هنا يُستنتج أنَّ القرآن الكريم والسنة النبويّة من أهمِّ المصادر التي استقى منها علماء العرب المسلمين معلوماتهم الجغرافيّة، فطوروا معارفهم الجغرافية اعتماداً على ما أخذوه منهما.

٤- علماء اللغة العربيَّة:

إنَّ العلاقة بين اللغويّين والجغرافيّين متينة[4]، وهناك من جمع بينهما، وظهر ذلك من خلال المعاجم العربيَّة[5]، وانتشارها في كثير من الأقطار التي فتحها العرب المسلمين. فأخذَ العرب المسلمين من كلِّ قطر يستخدمونها في التأليف، كما غدُت اللغة العربية هي اللغة الرسميَّة في الدواوين والتعامل[6]. وقد عبَّر أحَّد الأُدباء عن أهمِّية الجغرافية بقوله: « السفر أحّد أسباب العيش التي بها مقامه، وعليها انتظامه، والمسافر يسمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب». وقال أحَّد حكماء ولغويي العرب: « السفر يسفر عن أخلاق الرجال»[7].

و كان الأصمعي من أهم اللغويين المُتقصّين في الجغرافية[8]، ولعلَّ من أبرز المؤلَّفات المُبكِّرة في هذا الميدان تلك التي تُنسب إلى هشام بن محمد السائب الكلبيّ(ت ٢٠٤هـ/ ٨٢٠ م) الذي ألَّف ما لا يقلُّ عن عشرة كتب في الجغرافية، ولكنْ فُقِدَ قسمٌ كبيراً منها، لذلك لا يُعرف فيما إذا تضمَّنت كتبه معلومات

---

[1] الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٦؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٨.

[2] القرآن الكريم: سورة لقمان، الآية ٢٧.

[3] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٢.

[4] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٠.

[5] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٤٧؛ خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٨.

[6] الهيتي(صبري): الفكر الجغرافي نشأته و مناهجه، دار عمان، عمان، ٢٠٠٥ م، ص ٣٥.

[7] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٢.

[8] الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٤؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٣٦.

جغرافيَّة خارج نطاق شبه جزيرة العرب أمْ لا ؟. و لعلَّ أبرز ما بقيَ منها كتاب" البلدان الكبير"، و" البلدان الصغير"، و" الأنهار"، و" الأقاليم"[1].

كذلك كتب اللغويّ الحسن بن منذر كتاب" العجائب"[2]، وصنَّف اللغويّ أبو زيد سعيد الأنصاري[3] كتاباً في المطر ضمَّنه مختلف المفردات اللغوية في المطر والسحاب والرعد والبرق والندى والجمر. وهناك كتاب النضر بن شميل[4] المُسمَّى" الأنواء". و استمرَّ هذا النمط من الكتابة الجغرافيّة ذات الصفةِ الأدبيَّة واللغويَّة خلال الفترة الأولى من تطوّر علم الجغرافية عند العرب المسلمين.

ويُمكن القول: إنَّ هذه المؤلّفات كانت بصفتها العامَّة ذات أوصافٍ جُغرافيَّة أقرب منها للإرهاصات الجغرافيّة، فاشتملت على أوصاف عامَّة أقرب إلى الحِكَم اللغويّة من النمط الذي أُطلق عليه اسم" الفضائل" والتي عُرفت بطلائع الكتابات الجغرافيّة الوصفيّة[5]، وهي بدورها تُعدُّ مصدراً مهمَّاً اعتمد عليه من جاء بعدهم من علماء العرب المسلمين الجُغرافيين الَّذين أخذوا ما في هذه المؤلفات من معلومات جغرافيّة، و أضافوا عليها حتَّى أسهموا بشكلٍ فعَّال بتطوير الأدب الجغرافي خلال تلك الفترة.

٥- قصص تناولها اليهود والمسيحيين تحتوي معلومات جُغرافيَّة[6]:

تناقلَ اليهودُ والمسيحيون مجموعة من الآراء الجغرافية من عهود موغلة في القدم، وكانت هذه الآراء، ذات الأصلِ الشرقي، أقرب إلى علم وصف الكون منها إلى الجغرافية، فهي تتحدَّث عن امتداد الأرض بما

---

[1] ابن النديم: الفهرست، ص٩٧.

[2] ابن النديم: الفهرست، ص٩٧.

[3] أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري البصري، لغوي من أئمة الأدب، غلب عليه الاهتمام باللغات والنوادر والغريب توفي سنة(٢١٥هـ/ ٨٢٩ م). الدولابي(محمد بن أحمد): الكنى والأسماء، تح: نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم، د. م، ٢٠٠٠م، ج١، ص١٨٠؛ ابن حبّان البستي(محمد): المجروحين من المحدثين، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط١، ٢٠٠٠ م، ج١، ص٣٤٢؛ الحاكم(محمد بن محمد): الأسامي والكنى، تح: يوسف بن محمد الدخيل، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ١٩٩٤م، ج١، ص٢٠٤؛ ابن سيد البطليوسي(عبد الله بن محمد): المثلث، تح: صلاح مهدي الفرطوسي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م، ج١، ص٣٢٤، ٣٧١.

[4] أبو الحسن النضر بن شميل بن كلثوم المازني التميمي البصري، قاضٍ ولغوي وراوٍ للحديث و فقيه، توفي سنة (٢٠٣هـ/٨١٧ م). وكيع(محمد بن خلف): أخبار القضاة، مر: سعيد محمد اللحم، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٨م، ج٢، ص٢٨٥؛ ابن حماد العقيلي(محمد بن عمرو): الضعفاء الكبير، تح: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج٤، ص٢٩٣؛ السهمي(حمزة بن يوسف): تاريخ جرجان، تح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الهند، ١٩٤٩م، ص٢٥٦، ٣٢٥؛ ابن هلال الصابئ(محمد): الهفوات النادرة، تح: صالح الأشتر، دار الأوزاعي للطباعة والنشر، ط١، بيروت ،١٩٨٧م، ص٣٧.

[5] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٩.

[6] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦٠.

يُقدر بمئات السنين عن البحر المحيط، وعن بعض الأنهار التي أصلها من الجنة وعن عمق البحار، وعن تماسك الجبال والسلاسل الجبليّة، وعن توزيع الشعوب على سطح الأرض، ونُقلت هذه الآراء الأخيرة غالباً عن وهب بن منبه.

ومن الواضح أنَّ هذه الآراء مأخوذة عن أسفار العهد القديم[١]: منها إسكان يأجوج ومأجوج في أقصى الشمال الشرقي، وهم من الأقوام التي ذكرها القرآن، ورُبَطَ نسب بعض الأقوام المختلفة بأبناء نوح[٢]. وعندما كثرت الأعاجم في الإسلام أُضيفت، بالتدريج، بعض التصوّرات البدائيَّة المُماثلة المأخوذة عن المصادر الفارسيّة والمصريّة واليونانيّة، وهي من أصل قديم، بلا شكٍّ، ومثلها الاعتقاد بأنَّ جبل قاف[٣] يُحيط بالأرض [٤].

ومن هذه الآراء أيضاً روايات خاصَّة بتقسيم مبكِّر للأرض وتصوّرات عن شكلها، فقد جاء في رواية عند عبد الله بن عمرو بن العاص أنَّها على هيئة الطير[٥]، فقال: « صورة الدنيا على خمسة أجزاء كرأس الطير والجناحين والصدر والذنب فرأس الطير الصين. وخلف الصين أمّة يُقال لها واق واق، ووراء واق واق من الأمم ما لا يُحصى، ولا يعلمه إلَّا الله، والجناح الأيمن الهند وخلف الهند البحر، وليس خلفه خلق، والجناح الأيسر الخزر، وخلف الخزر أُمّتان يُقال لهما: منشك وماشك، وخلف منشك وماشك يأجوج ومأجوج من الأمم ما لا يعلمها إلَّا الله، وصدر الدنيا مكّة والحجاز والشام والعراق ومصر، والذنب من ذات الحمامِ إلى المغرب وشرِّ ما في الطير الذنب»[٦].

وفي هذا المضمار اعتمدَ العرب المسلمين معلومات جغرافيّة وردت ببعض القصص والروايات الفارسيَّة، ويظهرُ ذلك واضحاً من بعض المصطلحات الفارسيَّة التي لا تزال متداولة في البحريّة الإسلاميّة مثل" بندر" والتي تعني الثغر، و" نوخذا" التي تعني ربان السفينة، و" دفتر" ويعني الإرشادات البحرية، وغيرها من المصطلحات الأخرى[٧]. ومن ثَمَّ كانت هذه القصص والروايات التي سمعها الجغرافيّين العرب المسلمين من أهمِّ المصادر التي اعتمدوا عليها في معارفهم الجغرافية، وسعوا فيما بعد لتطويرها.

٦- الرحلات الجُغرافيَّة:

---

[١] الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٧.

[٢] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٥٢.

[٣] ذُكِر هذا الجبل في القرآن، وقيل: إنَّه الجبل الذي يحيط بالأرض، وبينه وبين السماء قامة رجل، وقالوا: هو من زبر جدَّة خضراء، وإنَّ خضرة السماء من خضرته. الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٢٩٨.

[٤] الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٦- ١٨.

[٥] ابن الفقيه الهمذاني(أحمد بن محمد): البلدان، تح: يوسف هادي، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦م، ص٥٩.

[٦] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٥٢.

[٧] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٤.

لم يكتفِ المسلمون بالسماع والنقل من كتب الأقدمين للوصول إلى المعلومات الجغرافيّة الدقيقة، بل اتّجهوا نحو الرحلة واكتشاف المجهول[١]، ليس للاستمتاع باكتساب معارف جديدة فحسب، ولكنْ بهدف التجربة والمشاهدة على عدِّ أنَّهما السبيل الأمثل للحصول على المعلومات الصحيحة، وكشف أوجه الحياة، وكان هدف الرحلات التي قام بها الرحَّالة العرب المسلمين محاولة معرفة المسالك والممالك[٢]، فقد تحمَّلوا مشاق ومخاطر الطُرق للطواف في البلدان النائية للحصول على معلومات جُغرافيَّة جديدة[٣].

ولعلَّ تشجيع الحُكَّام والتجَّار للرحلات نابعاً من أهمِّية المعلومات التي يحصل عليها علماء الجغرافية، والتي ساعدت هؤلاء الحُكَّام والتجار في معرفة الطرق والأقاليم وعادات السكان والمحصولات الزراعية والمعدنية. وخاصةً أنَّ الدراسات التي قام بها علماء العرب المسلمين في ميدان علم الجغرافية كانت من أهمِّ المصادر لتقوية نفوذهم[٤]. واعتمد علماء العرب المسلمين في علم الجغرافية كذلك على الرحلات الميدانية، لكي يحصلوا على الخبرة الشخصيّة التي لا تُقدر بثمن، وذلك لاهتمامهم بالنواحي التجاريّة والفتوحات[٥]، لذا تميّزوا عن غيرهم في الأسفار للمُعاينة الميدانيَّة، ويظهر ذلك في مؤلّفاتهم. ونتيجة لرحلاتهم عرفوا الجزء المعمور من الأرض(الجزء الشماليّ)، وغير المعمورِ(الجزء الجنوبي)، وخطّ الاستواء، والمنطقتين الاستوائيَّة والقطبيَّة، وغير ذلك[٦].

وكانت رحلات المستكشفين العرب المسلمين في القرون الوسطى مصدراً مُهمَّاً من مصادر علم الجغرافية، إذ جابَ الرحَّالة العرب المسلمين العالم القديم، وسجَّلوا ملاحظاتهم، ودوَّنوا معلومات في غاية الأهمِّية عن التضاريس الجغرافيَّة من جبال وسهول، ومواقع المدن الكبرى وأهميتها الاقتصاديّة والسياسيّة. ودرسوا البحار والأنهار والخلجان، والحدود، ومواقع المدن، وتحدَّثوا عن طرق المواصلات وقاسوا المسافات بينها، وسجَّلوا في مدوَّناتهم أحوال السكّان الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، وربطوا بين البيئة والنشاط البشريّ، لما للعوامل الجغرافيّة من أثر في السكّان وصفاتهم وأخلاقهم، وعاداتهم[٧].

ولاحظوا أثر مناخ الإقليم في العلوم والصنائع والمباني والملابس والأوقات والفواكه والحيوانات، ودوَّنوا الأحداث التي وقعت خلال رحلاتهم. وكانت المعلومات الجغرافيّة الوصفيّة والسكانيّة، ومعرفة المسالك، وطرق القوافل البريّة، والخطوط البحرية بين موانئ مدن الإسلام، ذات أهمِّيةٍ بالغة بالنسبة لدولة إسلاميَّة

---

١ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٤.

٢ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٤٧، ٤٨، ٥٣.

٣ خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٥.

٤ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٢.

٥ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٠.

٦ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٢، ٥٣.

٧ إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٤، ٧٥.

مُترامية الأطراف، نشطت فيها حركة النقل والتجارة، بسبب ما تمتَّعت به من أمانٍ واستقرارٍ وازدهارٍ اقتصاديّ.

وعرف العرب المسلمين الرحلة نحو حواضر العالم الإسلاميّ ومراكز الثقافة فيه[١]، فجابوا الآفاق، وطلبوا العلم في البلاد البعيدة[٢]. كما عرفوا الرحلات الحجازيَّة طلباً للحجّ والعمرة والزيارة، وشدُّوا الرحال إلى القدس والبيت الحرام[٣]، وتفوَّقوا في الوصف، وقوّة الملاحظة، وبلغوا ما لم يبلغه غيرهم من الرحَّالين[٤].

ومن جهة أخرى فإنَّ الرحلات الميمونة وما تخللها من القصص الظريفة التي تُنعش القارئ ساعدت الكثير من الناس على زيارة تلك البلاد مما دفع عجلة المعرفة الجغرافيّة نحو الأمام. كذلك حصل العرب المسلمين على معلوماتهم الجغرافيّة من بعض الرحلات التي كان يقوم بها بعض السائحين والمثقّفين للحصول على معلومات استكشافيّة، وقاموا بنقلها بدورهم إلى الناس، وقد استغلَّ العرب المسلمين هذا الجانب أحسن استغلال لتطوير معارفهم الجغرافيّة[٥].

٧- بعد الفتوحات الإسلامية اضطرَّ العرب المسلمين لمواجهة الروم في البحر المتوسط، وكذلك الفرس، فقاموا بإنشاء دور لصناعة السفن، فوضعوا الخرائط اللازمة لذلك[٦]. وقاموا بوضع أصول الرسم على سطح الكرة الأرضيّة، و كان ذلك من المصادر التي زادت معرفتهم الجغرافيّة التي قاموا بتطويرها فيما بعد حتَّى وصلت إلى مرحلة وضع المؤلَّفات الجغرافيّة ورسم الخرائط، ووضع نظريات مُهمَّة في الجُغرافية، كانت كفيلة بتسليمهم دور الريادة في ميدان البحث الجغرافيّ[٧].

سادساً- اتجاهات الدراسات الجُغرافيّة عند العرب المسلمين:

لمْ يتوافر قبل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي مُصنَّفات عربيَّة جغرافيَّة قائمة بذاتها، وإنَّما هي معلومات جغرافيَّة مُتناثرة، فاقتصرت المعارف الجغرافية على ترجمات موروث من سبقهم، وبعدها تشكَّلت أنماط الجغرافية الوصفيَّة عندهم.

---

[١] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٠، ٧١.

[٢] الكحلاوي(محمد): آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٥.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٥٦.

[٤] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٤.

[٥] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٣.

[٦] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٦٤، ٦٨.

[٧] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٥٤، ٥٥.

وبلغَ الأدب الجغرافيّ العربيّ أوجه في القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ وذلك عندما ظهرت المدرسة الكلاسيكيّة للجغرافيين العرب المسلمين التي اهتمَّت بوصف المسالك والممالك ورسم المصورات الجغرافيّة. ومع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ظهر نوع جديد من المصادر الجُغرافيَّة، وهي ما عُرفت باسم" المعاجم الجُغرافيَّة" ، إضافةً إلى كُتب الأوصاف العامَّة لجميع العالم[١].

ومع اشتغال العرب المسلمين بالتجارة في المحيط الهندي وشرق إفريقية والبحر المتوسِّط وأوربة زادت معرفتهم وخبرتهم الجغرافيّة. وقادهم هذا الأمر إلى مرحلة الإبحار باتجاه بلدان الشرق الأقصى، وهذا ما عُرِفَ بمرحلة" الكشوف الجغرافية"[٢].

بناءً عليه تطوَّرت كتابات العرب المسلمين في الجغرافية، فامتدت وشملت مجالات عدَّة، من أهمِّها:

١- الجغرافية الفلكيّة الرياضيّة:

حُظيت الجغرافية الفلكيّة باهتمامٍ خاص عند علماء العرب المسلمين بسبب الرغبة في معرفة التقاويم وتحديد المواقع والاتجاهات؛ لذلك اهتمَّ العرب والمسلمون بالجغرافية الفلكيّة التي تُعدّ فرعاً من الجغرافية التي تقوم في أغلبها، على الأساليب الرياضيّة، وذلك لاتّصال الجغرافيّة الفلكيّة بمواقيت الصلاة والصيام والحج، وفي هذا المجال كتبوا عن الشكل الكرويّ للأرض ودورانها حول محورها، وتحدّثوا عن ظاهرة الكسوف والخسوف، وتعاقب الفصول الأربعة، وقاموا بمحاولات قياس الفرق بين الدائرة العرضيّة والتي تليها، وعملوا على تحديد خطوط الطول ودوائر العرض[٣].

واستقوا هذا النوع من الجغرافية من المذهب الهنديّ في الجغرافية الرياضيّة عن طريق بلاد فارس، وتمثّل ذلك في كتاب" السد هانتا"، وكذلك من المذهب اليونانيّ عن طريق السريان[٤]، وتمثَّل ذلك في كتاب" المجسطيّ" لبطليموس[٥].

ورغم اعتماد العرب المسلمين على موروث هذه الحضارات، إلَّا أنَّهم فاقوا من سبقهم في هذا المجال، و ذاعت شهرة الكثير من جُغرافييهم الفلكيين الَّذين قدَّموا كثيراً من الإنجازات في هذا الجانب، وفيما يلي نماذج لأهمِّهم، وأبرز إنجازاتهم:

أ- أشهر عُلماء العرب المسلمين في الجغرافية الفلكيَّة:

1ً- الخوارزميّ(ت ٢٣٢هـ/ ٨٤٦ م):

---

[١] النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٦٤.

[٢] جوهر(دلال): جغرافية العالم الإسلامي، مطبعة الصباح، دمشق، ١٩٩٢م، ص١٣؛ مقبل(فهمي): دور العرب في اكتشاف العالم الجديد، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٣٦، ٣٧.

[٣] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٢، ٧٣.

[٤] نالينو: علم الفلك، ص٤٢؛ الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٤٦.

[٥] الشامي(صلاح الدين علي): الإسلام والفكر الجغرافي العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٨م، ص١٩٨.

أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزميّ أحَّد مشاهير علماء المسلمين في الجغرافية والفلك، عمل تحت رعاية الخليفة العباسي المأمون الذي عُرف بتشجيعه للعلم و العلماء[١]، برع الخوارزمي في الجغرافية الفلكيَّة، ولعلَّ أشهر أعماله الجغرافيّة التي ذاعت شهرتها كان كتابه" صورة الأرض" الذي يُعدّ أشهر مؤلَّفات الجُغرافية الفلكيَّة[٢]، و أكثرها أثراً في الجغرافيين الَّذين أتوا بعده[٣].

اعتمدَ الخوارزمي في كتابه على ظاهرة فلكيَّة مُهمَّة في تقسيمه للعالم إلى سبعة أقاليم حسب درجات العرض[٤]، وهو أوَّل من قام بهذا، فبدأ هذه الأقاليم من الجنوب إلى الشمال. كذلك أكثر الخوارزمي في كتابه من الجداول الفلكية التي رتَّب فيها أسماء الظواهر البشريَّة والطبيعيَّة المختلفة مثل المدن والجبال والبحار والجزر والأنهار والعمران منفردة وفق كل إقليم. وبيَّنت إحدى خرائطه مجرى نهر النيل. أمَّا خريطتَهُ لبحر أزوف (Azof)(البحر الأسود الحالي) فقد كانت فريدة من نوعها، واختلفت عن الخرائط الأخرى، التي جاءت قبلها، في أنَّها تُظهر الشمال في الجزء الأعلى من الخريطة كما هو سائد حالياً[٥].

وقد استفاد الغرب، فيما بعد، من مادَّة كتابه" صورة الأرض" ولاسيَّما الجزء المُتعلِّق بخطوط الطول ودوائر العرض وذلك بطريق غير مباشر، فاستخدمها الزرقالي في" جداول طليطلة"[٦] التي كتبها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وتمَّت ترجمتها إلى اللاتينية بعد ذلك فاستخدمها الغربيُّون[٧].

2ً- البتّانيّ(ت ٣١٧هـ/ ٩٢٩م):

أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحرّاني الصابئ. أمضى البتَّاني حياته يرصد الأجرام السماويّة بمرصد الرقّة بيني سنتي(٢٦٤- ٣٠٦هـ/ ٨٧٧- ٩١٨م)، ثمَّ قصد بغداد في إحدى رحلاته العلميّة،

---

[١] القفطي(علي بن يوسف): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مطبعة دار السعادة، مصر، ١٩٠٨م، ص١٨٧، ١٨٨؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ١٣٨.

[٢] مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيون، ص ٣٦٠.

[٣] أحمد(إمام إبراهيم): تاريخ الفلك عند العرب، المكتبة الثقافية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٥٢.

[٤] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص١٩.

[٥] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٦٣، ٦٤.

[٦] تسمى تقويم الزرقيال، وهي منسوبةٌ لأبي إسحاق إبراهيم بن يحيى التجيبي المعروف بابن الزرقالة (ت ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) وعرفت باسم الصحيفة الزرقالية، وهي إحدى النظريات الفلكية الأكثر إثارة للجدل، وبُرهن فيها على التأرجح في اعتدالي الربيع والخريف، وإنَّ بُعد الأرض والشمس تُعادل نقاط تعادل الليل والنهار، وبسبب هذا التأرجحُ لا يمكن لتقاطع خطِّ الظاهرة الدائرية لمسير الشمس مع خطِّ الاعتدال أنْ يتراجعَ إلى ما لا نهاية إلَّا أنَّ يتخذ حركة نوسان حول الاعتدالين. النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢١٢، ٢١٣؛ هونكه(زيغريد): شمس العرب تستطع على الغرب، تر: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص١٤٤، ١٤٥.

[٧] فيرنيت(خوانت): فضل الأندلس على ثقافة الغرب، تر: نهاد رضا، دار إشبيلية، دمشق، ١٩٩٧م، ص٢١٩؛ النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢١٣.

وأثناء عودته منها توفي في الطريق[١]. اشتهر البتَّاني بالجغرافية الفلكيَّة، ولعلَّ شهرتَه ذاعت من خلال عمله" الزيج الصابئ"[٢]، الذي تحدَّث فيه عن البلدان وفق خطوط الطول والعرض، وتحديد أطوال فصول السنة إضافةً إلى تحديد مواقع الكثير من البلدان[٣].

وكذلك تضمَّن كتابه نتائج أرصاده للكواكب الثابتة، وقد حدَّد فيه ميل دائرة الكسوف بدقة كبيرة، وطول السنة والفصول ومدار الشمس، كذلك حقَّق كثيراً من مواقع النجوم وبحث في حركات القمر والكواكب السيّارة، وصحَّح بعض المعلومات عنها، وحدَّد العديد من الأخطاء البطليموسية. كما اشتملَ كتابه على فصل جغرافيّ تضمَّن وصفاً مفصلاً للعالَم ولاسيَّما بِحار العالَم ومُحيطاته[٤].

واقتدى بكتابه أبو الحسن علي بن يونس الصدفي(ت ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م)، فعملَ على نموذجه، وسمَّاه" الزيج الحاكميّ الكبير" الذي تحدَّث فيه عن خسوف القمر بمصر، و يرجع إليه اختراع" البندول" الذي يُستعمل لحساب الفترات الزمنيّة في أثناء الرصد[٥].

3ً- البيرونيّ(ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م):

محمد بن أحمد أبو الريحان البيرونيّ، وُلد في بيرون(إحدى ضواحي خوارزم) سنة(٣٦٣هـ/ ٩٧٣ م). و كان عالماً بالصيدلة والفلك والرياضيات والجغرافية، و لعَّل أشهر ما كتبه في الجُغرافية كان" عِلم البحار" وجاء ذلك في أحد مصنفاته" القانون المسعوديّ".

وتمكَّن البيروني من الاستفادة من المعلومات التي جمعها الجغرافيّين العرب المسلمين الَّذين أشار بعضهم إلى وجود مناطق في إفريقية تقع جنوبيّ خط الاستواء[٦]. وبناء على ما جمع من معلومات أكَّد أنَّ تلك المناطق يكون فيها الوقت شتاء عندما يكون لدينا الوقت صيفاً.

---

[١] ابن صاعد الأندلسي(صاعد بن أحمد): طبقات الأمم، المكتبة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٢م، ص٣١؛ ابن النديم: الفهرست، ٣٨٩، ٣٩٠؛ القفطي: إخبار العلماء، ص٢٨٠؛ الصفدي(خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات، اعتناء: رمضان عبد التواب، دار فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٨٥م، ج٢، ص٢٨٣.

[٢] الزيج: تجمع على أزياج من لفظ زيك من اللغة البهلوية التي استخدمها الفرس في زمن الساسانيين، وتعني زيل خيوط النسيج الطولية، وقد أطلق الفرس هذا الاسم على الجداول العددية لتشابه خطوطها الرأسية بخيوط السدى. نالينو: علم الفلك، ص٤٢.

[٣] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٢١؛ نالينو: علم الفلك، ص٢٣٤؛ الطويل(توفيق): في تُراثنا العربي الإسلامي، دار دار عالم المعرفة، د. م، ١٩٨٥م، ص٤٥.

[٤] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٢١، ٢٢؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص١٥٩، ١٦٠.

[٥] منتصر(عبد الحليم): تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م، ص١٩٥.

[٦] أحمد: الرحلة والرحالة، ص١٣٧، ١٣٨؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٤٠-٣٤٢؛ مقبل (فهمي توفيق): مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوربية(الفكر الجغرافي أنموذجاً)، دار المأمون، عمان، ٢٠١٣م، ص٥٦.

ومثل هذا التوكيد يُمكن أن يُتَّخذ أساساً للاكتشاف العلميّ الذي جاء مؤخراً، والذي أثبت فكرة حدوث الفصول الأربعة نتيجة لميل المحور القطبيّ بمقدار ٢٣.٥ درجة على سطح الدوران وكذلك دوران الأرض حول الشمس[١].

كما كتب البيرونيّ عن بحر البلطيق، والبحر الأبيض الشماليّ ، وعن النورمان سكان شبه جزيرة اسكندنافيا في تلك الفترة من الزمن[٢].

وتطرَّق البيروني إلى مسائل كثيرة واقعة في دائرة علم الجغرافية فتناولها بالشرح والتحليل، مثل فكرة دوران الأرض حول محورها[٣]. وكذلك أجادَ في كتابته عن الجُغرافية الرياضيّة، حيث أتى بتحليل مُفصَّل لآرائه بخصوص الخرائط.

ومن أهمّ مؤلّفاته الجُغرافيَّة كتابه المعروف باسم" تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن". أمَّا كتابَهُ" التفهيم لأوائل صناعة التنجيم"[٤]، فجاء كتاباً جامع لعدد من العلوم المهمّة كالرياضيات والفلك والجغرافية، وقد خُصِّص الجزء الثالث منه للفلك وضمَّنه معلومات جغرافيّة مهمّة عن خطوط الطول ودوائر العرض، وتوزيع البحار على الأرض مُوضحاً ذلك على خريطة للعالم المعروف آنذاك[٥].

ب- انجازات عُلماء العرب المسلمين في مجال الجُغرافية الفلكيَّة:

1ً- كرويّة الأرض:

كان الإغريقُ يعتقدونَ أنَّ الأرض قرص دائري مسطح تحيط به مياه المحيطات من كل جانب، فهيكاتايوس رسم خرائطه على أساس القرص المستدير. ثمَّ جاء أفلاطون (**Plato**)(٤٢٧- ٣٤٧ق. م) بأوّل نظريّة عن كرويّة الأرض. وقد رفضت الدولة البيزنطيّة هذه الفكرة، وكتب كوزماس(Cosmas) في القرن السادس الميلاديّ أنَّ العالم يشبه العجلة، وأنَّ مياه المحيط حوله من كل الجهات[٦]. وقد تبنَّت الكنيسة هذه النظرية بشدّة، وقالت: « إنَّ الأرض مُسطّحة، وإنَّ الجانب الآخر غير مأهولٍ وإلَّا سقط الناس في الفضاء» [٧]. وكلُّ من عارض نظرية الكنيسة هذه واجه عقوبة الموت بتهمة الهرطقة. ورسم

---

[١] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٢٢.

[٢] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٤٢.

[٣] البيروني: مفتاح علم الهيئة، ص٢٢٣.

[٤] أحمد: الرحلة والرحالة، ص١٣٩؛ مقبل: مآثر العرب المسلمين، ص٥٦.

[٥] مقبل: مآثر العرب المسلمين، ص٥٧، ٥٨؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٣١، ١٣٢.

[6] Cosmas Indicopleustes; Christian Topography, II.

[٧] مظهر(جلال): حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤م، ص٣٩٧، ٣٩٨؛ لوبون: لوبون: حضارة العرب، ص٤٦٨.

علماء أوربة خريطة العالم على شكل صليب رأسه هي الجنَّة وقدماه هي النار وذراعاه البحر المتوسط والبحر الأحمر، وبيت المقدس في موضع القلب.

ثمَّ جاءت الحضارة العربية الإسلاميَّة فأحيت نظرية كروية الأرض وتبنّتها، وربَّما كان من أهم أسباب ذلك أنَّ القرآن الكريم ذكر أنَّ الأرض كرة: وتجلَّى ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[1]، ويُؤكَّد هذا المعنى في سورة الرحمن بقوله تعالى: ﴿ ربُّ المشرقين وربُّ المغربين﴾[2] ، فهذه الآية تُشير بُوضوح بُوضوح إلى أنَّ الشمس عندما تُشرق على نصف الكرة الأرضيّة يكون هناك غروب على النصف الآخر أي أنَّ هُناك مشرقين ومغربين يتعاقبان بسبب دوران الكرة الأرضيّة حول نفسها.

وهذا ما ذكره ابن خرداذبة(ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٥ م)[3]، فقال:« إنَّ الأرض مدوَّرة كدوران الكرة موضحة كالمحَّة[4] في جوف البيضة»[5]. وقال إخوان الصفا(٣هـ/ ٩ م) في " رسالتهم الرابعة كرويّة الأرض": « « والأرض جسم مدور مثل الكرة وهي واقفة في الهواء»[6]. وكتب ابن رستة(ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)[7] عن عن كرويّة الأرض، فقال: « إنَّ الله ﷻ وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دوارناً والأرض مُستديرة أيضاً ومصمته في جوف الفلك»[8].

وللأديب الشهير ابن عبد ربه(ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)[9] صاحب كتاب" العقد الفريد"، أبيات له يردُّ فيها على على أبي عبيدة مسلم بن أحمد الفلكي[1] ، عُرِفَ منها أن أبا عبيدة الفلكي قال: بكرويّة الأرض، ولكنَّ ابن ابن عبد ربه لم يوافق على هذا، فقال:

---

[1] القرآن الكريم: سورة النازعات، الآية ٣٠.

[2] القرآن الكريم: سورة الرحمن، الآية رقم١٧.

[3] أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه، مؤرخ جغرافي، أسلم على أيدي البرامكة وتوفي سنة(٢٧٢هـ/ ٨٨٥ م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٩، ص٢٢٩.

[4] المُحَّة: صفار البيض. ابن منظور(محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، مادة مح، ج٢، ص٥٨٩.

[5] ابن خرداذبة(عُبيد الله بن عبد الله): المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩م، ص٤.

[6] الصفاء و الوفاء: رسائل إخوان الصفا، ج٢، ص ١١١.

[7] أبو علي أحمد بن عمر بن رستة الأصفهاني، عالم جغرافي، اشتهر بالجغرافية وصنَّف فيها كتابه الشهير" الأعلاق النفيسة"، توفي سنة(٣٠٠هـ/ ٩١٢ م). الزركلي(خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م، ج١، ص١٨٥.

[8] ابن رستة(أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة، مطبعة ليدن، بريل، ١٨٩٣م، ص٨.

[9] أحمد بن محمد بن عبد ربه، أبو عمر المشهور بابن عبد ربه الأندلسي، أديب وعالم ومؤرخ ، صنَّف كتابه الشهير" العقد العقد الفريد"، وتوفي سنة(٣٢٨هـ/ ٩٤٠م). الزركلي: الأعلام، ج١، ص٢٠٧.

الأرض كرِويَّـــة حـــفَّ السمـــاء بهـــا فوقـــاً وتحتـــاً فصــارتْ نُقطـــة مَـــثَلا

صــيف الجنــوب شتــاء للشمـــال بهـــا قـــد صـــار بينهمـــا هـــذا وذا دُوَلا[٢].

وتناول ابن الفقيه الهمدانيّ(ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م) مسألة كروية الأرض، فقال: « و ذكر بعض الفلاسفة أنَّ الأرض مدوَّرة كتدوير الكُرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة والنسيم حول الأرض، وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك، وبنية الخلق على الأرض أنَّ النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة، و الأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل، لأنَّ الأرض بمنزلة الحجر الذي الحديد»[٣].
وكتب المسعوديّ(ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): « جعل الله ﷻ الفلك، وهو فلك الاستواء وما يشمل عليه من طبائع التدوير، فأولها كرة الأرض، يحيط بها فلك القمر، ويحيط بفلك القمر فلك عطارد»[٤].
وقال أبو الريحان البيرونيّ(ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م): « والأرض مستديرة وإنْ كانت كذلك في جهتي الطول والعرض وجبَ لسطحها الكريَّة»[٥]، وعلَّق ابن حزم(ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) على كرويَّة الأرض قائلاً: « قالوا: إنَّ البراهين قد صحَّت بأن الأرض كرويَّة، والعامَّة تقول غير ذلك، وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحّداً من أئمّة المسلمين المستحقِّين لاسم الإمامة بالعلم لم يُنكروا تكوير الأرض، ولا يُحفَظ لأحدٍ منهم في دفعه كلمةٌ، بل البراهين من القرآن والسُّنَّة قد جاءت بتكويرها، قال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[٦] وهذا أوضح بيانٍ في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من: كوَّر العمامة، وهو إدارتها، وهذا نصٌّ على تكوير الأرض» [٧] .
وذكر الشريف الإدريسي(ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٦م) ما نصُّه: « وإنّ الأرض مدوَّرة كتدوير الكرة، والماء لاصقٌ بها، وراكد عليها ركودًا طبيعيَّاً لا يُفارقها، والأرض والماء مستقرَّان في جوف الفلك كالمُحَّة في

---

[١] أبو عبيدة مسلم بن أحمد الفلكي، الأندلسي، كان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها، وبصيراً بالحساب والنجوم والأخبار والجداول، توفي سنة(٢٩٥هـ/ ٩٠٨م). المقري(أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م، ج٣، ص٣٧٤.

[٢] السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، ص٢٨٥.

[٣] ابن الفقيه: البلدان، ص٦٠.

[٤] المسعودي(علي بن الحسين): التنبيه والإشراف، مطبعة ليدن، بريل، ١٨٩٣م، ص٩.

[٥] البيروني(أبو الريحان محمد بن أحمد): القانون المسعودي، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند، حيدر آباد ١٩٥٤، ج١، ص٣٦.

[٦] القرآن الكريم: سورة الزمر، الآية ٥.

[٧] ابن حزم: الفصل في الملل، ج٢، ص٧٨.

جوف البيضة، ووَضْعُهُما وَضْعٌ متوسط، والنسيم يحيط بها من جميع جهاتها»[١]، وقال ياقوت الحمويّ(ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م): « إنَّ الأرض في وسط السماء والوسط هو السفل بالحقيقة، والأرض مدوّرة بالكلّيَّة مضرّسة بالجزئيَّة من جهة الجبال البارزة والوهدات الغائرة، ولا يخرجها ذلك من الكرويّة إذا وقعَ الحس منها على الجملة، لأنَّ مقادير الجبال وإنْ شمخت صغيرة بالمقياس إلى كلِّ الأرض»[٢].

2ً– تحديد مساحات الأرض:

شغلت مسألة تحديد حجم الأرض ومساحات الجهات المسكونة منها، ومدى امتدادها على سطح الأرض الجغرافيين العرب المسلمين، فأمَّا ما يتعلَّق بحجم الأرض فقد تداولوا أولاً أرقاماً عديدة يمتُّ بعض منها بصلة إلى الهنود، ويمتُّ بعضها الآخر إلى اليونان والرومان، إلى أن توصلوا إلى رقمٍ خاص بهم. وقد تراوحت التقديرات الهنديَّة لمحيط الأرض بين ٣٣١٧٧ ميلاً " أريا بهاتا" و ٥٠٩٣٨ ميلاً" براهما جويتا" و ٤٧١٤ ميلًا" أكاريا"[٣]. كما تراوحت التقديرات اليونانية –الرومانية بين ٤٤٠٠٠ ميل" أرسطو" و ٢٦٦٦٠ ميلاً" إراتوستنيس" و ١٨٠٠٠ ميل " بوسيدونيس وبطليموس[٤]. وبعدها وضع علماء العرب المسلمين تقديرات لمساحة الأرض فمن هذه التقديرات:

محاولة قياس أبعاد الكرة الأرضيّة من قبل الخليفة العباسي المأمون فقد جاء بفريقين من علماء الفلك والجغرافية فريق برئاسة" سند بن علي"[٥]، وفريق بقيادة "علي بن عيسى الأسطرلابيّ"[٦]، واتَّفق معهما أن أن يذهبا إلى بقعتين مختلفتين على الدائرة العظمى من محيط الأرض شرقاً وغرباً، ثمَّ يقيسا درجة واحدة من المحيط، وقد اختار كلُّ فريق بقعة واسعة مسطحّة، وركَّز في مكانٍ منها وتداً، واتَّخذ النجم القطبي نقطةً ثابتةً، ثمَّ قاس الزاوية بين الوتر وبين النجم القطبي والأرض، ثمَّ سار شمالاً على مكان زادت فيه تلك الزاوية، وقاس كل فريق المسافة بين الوتدين، وكانوا يقيسون المسافات على الأرض بحبال يشدّونها

---

١ الإدريسي(محمد بن محمد): نزهة المُشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ،٢٠٠٢م، مج١، ص٧.

٢ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص١٧.

٣ أحمد: جهود المسلمين في الجغرافية، ص ١٩٢.

٤ شريف: تطور الفكر الجغرافي، ص٣٣، ٢١١، ٤٠٨.

٥ أبو الطيب سند بن علي اليهودي، منجم ورياضي وفلكي، اتصل بخدمة المأمون، وأسلم على يده. من أهم كتبه" المنفصلات"، و" المتوسطات"، توفي بعد(٢١٨هـ/ ٨٣٣ م). الصفدي: الوافي بالوفيات ج١٥، ص٢٤٢.

٦ علي بن عيسى الأَسْطُرلابيّ، من مشاهير الرياضيين الفلكيين في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، عاش في بغداد، وكان من بين العلماء الَّذين عهد إليهم المأمون بقياس طول درجة من دائرة خط الاستواء. السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، ص٢٨٦.

على الأوتاد[١]. والعجيب أنَّ النتائج جاءت دقيقة إلى حدٍّ بعيد، فقد توصَّل الفريق إلى أنَّ محيط الأرض يساوي (٦٦ ميلاً عربياً) وهو ما يعادل (٤٧.٣٥٦ كم) لمدار الأرض، وهي نتيجة مقارِبة جدَّاً للطول الحقيقي لمدار الأرض والذي عُرِف حديثاً وهو زهاء ٤٠.٠٠٠ كم تقريباً، أي أنَّ نسبة الخطأ في هذا القياس العباسي لم تتجاوز ٢ % وهو أمر جدير بالتقدير[٢].

وأشارَ إخوان الصفا إلى أنَّ بُعد الأرض عن السماء من جميع جهاتها متساوٍ، وأن أعظم دائرة في بسيط الأرض هي ٢٥٤٥٥ ميلاً"٦٨٥٥" فرسخاً، وقطر هذه الدائرة هو قطر الأرض وهو ٦٥٥١ ميلاً "٢١٦٧" فرسخاً بالتقريب، ومركزها هو نقطة متوهِّمة في عمقها على نصف القطر، وبُعدها من ظاهر سطح الأرض ومن سطح البحر من جميع الجهات متساوٍ، لأنَّ الأرض بجميع البحار التي على ظهرها كرة واحدة[٣].

وحدّد ابن رسته(ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) مساحة الأرض بقوله: « الذي يُحيط بالأرض أعني الدائرة العظمى التي على كرتها أربعة وعشرون ألف ميل» [٤]. وقال ابن الفقيه الهمدانيّ: « واستدارة الأرض في موضع خطّ الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً»[٥].

أما المسعوديّ فأورد أرقام محيط الأرض بقوله: « وذكر من عني بمساحة الأرض وشكلها أن تدويرها يكون بالتقريب أربعة وعشرين ألف ميل»[٦]، ثمَّ جاء البيروني فقام بتجربة جديدة على أساس مختلف فاختار جبلاً في بلاد الهند مشرفاً على البحر على برّية مستوية، ثمَّ قاس ارتفاع الجبل فوجده" ٦٥٢.٥" ذراعاً، وقاس الانحطاط فوجده ٣٤ دقيقة فاستنبط أنَّ مقدارَ درجة من خطّ نصف النهار هو ٥٨ ميلاً تقريباً فجاءت شبيهة بأرقام فلكيي المأمون[٧].

وقال ياقوت الحموي: « إنَّ طولَ قطر الأرض بالفراسخ ألفان ومائة وثلاثة وستّون فرسخاً وثلثا فرسخ، ودورها بالفراسخ ستة آلاف وثمانمائة فرسخ، وعلى هذا تكون مساحة سطحها الخارج منكسراً أربعة عشر ألفاً وسبعمائة وأربعة وأربعين ألفاً ومائتين واثنين وأربعين فرسخاً و خمس فرسخ»[٨].

---

[١] ابن خلكان(أحمد بن محمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م، ج٥، ص١٦٢.

[٢] فيلارز(يوهانس): كنوز علم الفلك، المتحف القومي الألماني، نورنبرج، ١٩٨٣م، ص٢٥.

[٣] الصفا و الوفا: رسائل إخوان الصفا، ص١١١، ١١٢.

[٤] ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص١٧، ١٨.

[٥] ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص٦٠.

[٦] المسعودي: التنبيه والأشراف، ص٢٦.

[٧] طوقان(قدري حافظ): تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٤م، ص ٦٣.

[٨] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص١٩.

3ً- وضع خطوط الطول والعرض:

اهتمَّ الجغرافيون والفلكيون العرب المسلمين بتحديد خطوط طول المكان وعرضه لتعيين الموقع الجغرافي للمدن، والظواهر الجغرافيّة المختلفة، وقد استفادوا في هذا الميدان من تجارب اليونان، إلَّا أنَّهم في الوقت نفسه ابتكروا طرقاً جديدة أضفت على قياساتهم مزيداً من الدقّة والضبط[١] . وكانت أهمّ وسائلهم لتعيين عرض المكان قياس ارتفاع النجم القطبيّ، أو ارتفاع الشمس، أو ارتفاع النجم حول القطبيّ[٢].

أما فيما يتعلّق بخطوط الطول، فقد اتَّجه بعضهم إلى الأخذ بالطريقة البطليموسيّة في تحديد خط الطول صفر في أقصى غرب المعمورة، و اتخذوا خطّاً يبعد عن خطّ بطليموس نحو الشرق بعشر درجات، ويمرُّ بطرق الساحل المغربيّ، وقد اعتبروا مجموع خطوط الطول ٣٦٠ خطَّاً، وأحصوا ١٨٠ خطَّاً منها ابتداءً من ساحل إفريقية الغربيّ نحو الشرق، تنتهي في أقصى حدود الصين الشرقيّة في مدينة أطلقوا عليها اسم" السيلي أو سيلا". وفي بعض الأحيان أحصوا ٩٠ درجة إلى الشرق و ٩٠ درجة إلى الغرب من خطّ افتراضيّ يخترق" قبة الأرين" في مركز الأرض، ويبدو أنَّ الاسم قد اشتُقَّ من اسم مدية أوجين(Ujjain) الهندية الواقعة على خط الاستواء والذي حُرِف إلى أوزين ثمَّ إلى أرين[٣].

كما وضع البيرونيّ قاعدة حسابيَّة لتسطيح الكرة، أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطحٍ مسطَّح وبالعكس، وبهذا سهَّل رسم الخرائط الجغرافية[٤].

4ً- دوران الأرض حول نفسها:

مالَ الجغرافيون العرب المسلمين إلى الأخذ بفرضية العلماء اليونان وهي سكون الأرض، لا سيَّما أنَّ هذه الفرضية تتناسب ومعتقداتهم الموروثة[٥].

ومن بين الَّذين تعرضوا لبحث هذه القضية إخوان الصفا، ففسروا ثبات الأرض في وسط السماء على النحو الآتي: « وأما سبب وقوف الأرض في وسط الهواء ففيه أربعة أقاويل، منها ما قيلَ: إنَّ سبب وقوفها هو جذب القلب لها من جميع جهاتها بالسوية، فوجب لها الوقوف في الوسط لما تساوت قوة الجذب من جميع الجهات، ومنها ما قيل: إنَّه الدفع بمثل ذلك فوجب لها الوقوف في الوسط لما تساوت قوة الدفع من جميع الجهات، ومنها ما قيل: إنَّ سبب وقوفها في الوسط هو جذب المركز لجميع أجزائها من جميع الجهات إلى الوسط؛ لأنَّه لما كان مركزُ الأرضَ مركز الفلك أيضاً، وهو مغناطيس الأثقال

---

١ أحمد: جهود المسلمين في الجغرافية، ص١٨٧.

٢ طوقان: تراث العرب العلمي، ص ٩٢.

٣ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص ٨٥.

٤ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٥٩؛ مظهر: حضارة الإسلام، ص٣٩٧.

٥ البدوي(خليل): الموسوعة الفلكية، دار عالم الثقافة، عمان، ١٩٩٩م، ص٥٨.

يعني مركز الأرض، وأجزاء الأرض لما كانت كلها ثقيلة انجذبت إلى المركز، وسيقَ جزء واحد وحصل في المركز، فصارت الأرض بجميع أجزائها كرة واحدة بذلك السبب»[١].

وبرهن البيروني على ثبات الأرض بقوله: « فليعلم الآن أنَّ الأرض لو كانت متحركةً كما ذكر لكان ما ذكرنا من الأميال لمنطقة حركتها ثلاثمئة وستين ضعفاً في أربع وعشرين ساعة يختص الجزء من تسعمائة من الساعة»[٢]. ثمَّ عاد ليقول بموضع آخر« إنَّ الأرض متحركة حركة الرحى على محورها»[٣].

٢- الجُغرافية الوصفيَّة و الإقليميَّة:

تُسمَّى الجغرافية البلدانيّة، وتتمثَّل في المصنَّفات التي اتَّخذت المنهج الوصفيّ أساساً لها، وكذلك المعاجم الجغرافيّة، وأحياناً كتب الرحلات الجغرافيّة التي يغلب على تناولها المنهج الوصفيّ. وقد اتَّبع الجغرافيون العرب المسلمين، في تناولهم لجغرافية البلدان، أسلوب المشاهدة والزيارات الميدانيّة، فقد زار معظمهم الأقاليم والبلدان التي تحدّثوا عنها[٤]. واهتمُّوا بوصف جزيرتهم، وبمشاهدة أماكنها فيما يعرف باسم " الجغرافية الوصفية". واعتمدَ جغرافيو العرب المسلمين الإقليميِّين أسلوباً يقوم على الوصف، ولذا اتَّسمت رحلاتهم بغزارة مادَّتها التي تحدَّثوا فيها عن عجائب ما شاهدوه، وارتكزَ الوصف في كلِّ الحالات على المشاهدة بالعين المُجرَّدة أو الملاحظة المباشرة، والقياس لتقدير المسافات، والمساحات والارتفاع، إضافةً إلى ما نقلوه من روايات عن غيرهم[٥].

ولعلَّ من أهمِّ معطيات الجغرافية الإقليمية إيضاح العلاقات المكانيّة للموضِع الذي تدرسه، واستعانت بذلك إمَّا بالظاهرات الطبيعيّة من جبال وأنهار وبحار وبحيرات و صحاري، أو بالأقسام السياسيّة المجاورة للإقليم، أو بالمعالم الفلكيّة المتمثّلة بخطوط الطول والعرض[٦]. ومثال ذلك قول ابن حوقل في تحديد موقع مصر: « فأمَّا مصرَ فلها حدٌّ يأخذ من بحر الروم من الإسكندرية، ويزعم قوم من برقة في البريّة، حتَّى ينتهي إلى ظهر الواحات ويمتد إلى بلد النوبة، ثمَّ يعطف على حدود النوبة من حدِّ أسوان على أرض البجة في قبلي أسوان حتَّى ينتهي إلى بحر القلزم، ثمَّ يمتدُّ على بحر القلزم ومجاور القلزم في طور سيناء، ويعطفُ على تيه بني إسرائيل مارَّاً إلى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفح، ويرجع على الساحل ماراً على بحر الروم إلى الإسكندريّة، ويتَّصلُ بالحدِّ الذي قدَّمت ذكره من نواحي برقة»[٧].

---

[١] الصفا و الوفا: رسائل إخوان الصفا، ص١١٣.

[٢] البيروني: القانون المسعودي، ج١، ص٤٩، ٥٠.

[٣] البيروني: مفتاح علم الهيئة، ص٢٢٣.

[٤] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٢٤.

[٥] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٤، ٧٥.

[٦] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٦٥.

[٧] ابن حوقل(محمد): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص١٢٦.

كما تناولَ الجغرافيون العرب المسلمين في مصنّفاتهم الجُغرافيّة أوصافاً للأقاليم و المدن والشعوب وأديانها وعاداتها، ودراسة للمسالك وطرق المواصلات التي تربط بين المدن المختلفة والأبعاد بينها، وما يفصل بينها من أنهار وبحار وبحيرات وجبال[١]. فظهرت في الجغرافية الإقليميَّة مؤلّفات تحمل عنوان" المسالك والممالك"[٢] على أنَّ مفهوم الإقليم عند الجغرافيّين العرب المسلمين قد حدّدوه طبيعيّاً وسياسيّاً وبشريّاً.

وفي هذا المضمار قال الإصطخريّ: « أمَّا بعد فإنِّي ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك، وقصدتُ منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها، ولمْ أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلت كلَّ قطعة أفردتها مصوَّرة تحكي موضع ذلك الإقليم، ثمَّ ذكرت ما يُحيط به من الأماكن، وما في أضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار، والأنهار وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم»[٣].

وعرَّف ابن حوقل مفهوم الإقليم بقوله: « وقد عملت له كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان، ومحل الغامر منها والعمران، من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها» [٤]، بينما عرَّفه ياقوت الحمويّ الإقليم بقوله: « وهو اصطلاحُ العامَّة وجمهور الأمة وهو أن يُسمَّى كلُّ ناحية مشتملة على عدَّةِ مُدنٍ وقرى إقليماً نحو الصين وخراسان و العراق والشام ومصر وإفريقية ونحو ذلك، فالأقاليم على هذا كثيرة لا تحصى»[٥].

وعلى هذا فإنَّ مفهوم الإقليم عند العرب المسلمين لا يتَّبع قوالب فلكيّة مُتفقاً عليها بل يُطبقها كفكرة جغرافية بحتة تخضع للمنهج الذي يتخذه في شرحه لأقطار معينة، ولهذا السبب اختلف الجغرافيّون الإقليميّون فيما بينهم في تحديدهم لأقاليم الإسلام[٦].

كما اقتصد الجغرافيّون في مجال الجُغرافية الإقليميّة في معلوماتهم التاريخية وأكّدوا المعلومات ذاتُ الصبغةِ الجغرافيّة مثل معالم الطبيعة، والطبوغرافية، والاهتمام بمظاهر الحياة الاقتصاديّة من زراعة وصناعة وتجارة، وأحوال السكّان الاجتماعيّة، والثقافيّة، والدينيّة، إضافةً إلى اهتمامهم بالمدن وصفاتها وما يربط بينها من المواصلات[٧].

---

[١] أوليري(دي لاسي): مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، تر: تمام حسان، المكتبة الثقافية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٣٩.

[٢] شريف: تطور الفكر الجغرافي، ص٨٥.

[٣] الإصطخري(إبراهيم بن محمد): مسالك الممالك، مطبعة ليدن، بريل، ١٩٣٧م، ص٢، ٣.

[٤] ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠.

[٥] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٢٦.

[٦] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٥٦.

[٧] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٧١.

وفيما بعد ظهرت مُصنّفات إقليميّة عُرفت باسم المعاجم الجغرافية احتوت كثيراً من المعلومات عن المدن والمظاهر الطبيعيّة، وتعدُّ عملاً فريداً استأثر به العرب المسلمين، ولم تسبقهم إليه أمّة من الأمم، وهي تسيرُ على نمط المعاجم الأخرى التي وُضعت في تخصّصات أُخرى مثل معاجم علوم الحيوان، والنبات، واللغة، وغيرها.

وتُعدُّ كتب الرحلات من أفضل مصادر الجغرافية الإقليمية في عصر ازدهارها. وممَّا يسَّرَ هذه الرحلات كان حثُّ الإسلام على السياحة في الأرض، والوحدة الدينيّة التي كانت تربط البقعة الإسلاميّة من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسيّ غرباً، واستتباب الأمن فيها، ثمَّ رحلات الحُجاج إلى بيت الله في مكة المكرمة ومنها، ومسجد رسوله في المدينة المنورة، وكذلك الخروج في طلب العلم، والرحلات التجاريّة[١].

كما ارتبط بالجغرافية الإقليميّة جغرافية المدن التي اهتمت بذكرِ أسماء الأمصار و المدن والبلاد، وضبط هذه الأسماء واشتقاقاتها إنْ كانت عربيةً، ووضع بعضهم مؤلفات اقتصرها على أسماء الأماكن المتشابهة في الاسم، مثل كتاب" المشترك وَضْعاً والمفترق صقْعاً" لياقوت الحموي. وتناول إخوان الصفا أيضاً جغرافيَّة المدن، وسكّانها وطبائعهم، وأعمالهم، وعاداتهم[٢]، واقتصر كتاب" الإفادة والاعتبار" لعبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م) على مدن مصر وسكَّانها ونباتها وحيوانها، ووصفَ ما بها من آثار، وصبَّ باللائمة على الَّذين شوَّهوها أو خربوها، وتحدَّث عن الأبنية وأنواع الأطعمة والشراب[٣].

وفيما يأتي نماذج لأشهر جُغرافيّي العرب المسلمين الإقليميّين، وأبرز إنجازاتهم:

أ- أشهر علماء العرب المسلمين في الجغرافية الإقليمية والوصفية:

1ً- الهمداني(ت ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م):

أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، يمنيّ الأصل والمولد والنشأة، اهتمَّ في صباه بدراسة الأدب القديم في بلاد اليمن وجنوب الجزيرة العربيّة، و تناولَ علوماً شتَّى كالتاريخ والجغرافية والفلك وعلم أنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية وآثارها القديمة[٤]. وقد استطاع أن يفكَّ رموز كتابات عربيَّة قديمة وُجدت في جنوب الجزيرة.

---

١ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٢٤، ٢٥.

٢ الشامي: الفكر الجغرافي، ص٢٢٣.

3 Bunbury. E.H; op, cit, p 59.

٤ القفطي: إخبار العلماء، ص١١٣؛ القفطي(علي بن يوسف): إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م، ج١، ص٢٧٩- ٢٨٤؛ السيوطي(عبد الرحمن): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ج١، ص٤٩٨؛ الخوانساري(الميرزة محمد باقر): روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، الدار الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ج١، ص٢٣٨.

برع الهمدانيّ وأجاد في كتابة الجُغرافية الإقليمية، و يُعدُّ كتابه " صفة جزيرة العرب" فريداً من نوعه في هذا المضمار، فقد أجاد في وصف جزيرة العرب، واعتمد في وصفه لبلاد اليمن على ملاحظاته الشخصيَّة، أمَّا وصفَهُ لجزيرة العرب فإنَّه يعتمد، في الدرجة الأولى، على الرحَّالة والتجّار والحُجَّاج الذاهبين إلى مكة والعائدين منها. بدأ الهمداني كتابه بتمهيد رياضيّ جغرافيّ شرحَ فيه الطرق المختلفة لتحديد خطوط الطول ودوائر العرض، وبعد ذلك قسَّم العالم إلى سبعة أقاليم على غرار التقسيم الذي اتبعه بطليموس، ثمَّ كرَّس الجزء الأساسيّ من كتابه لوصف الجزيرة العربية، فقسّمها إلى **خمسة أقاليم** منها: نجد، وتهامة، والحجاز، واليمن، وتناولها جميعاً بالشرحِ والتحليل[١].

2ً- المقدسيّ(ت ٣٩٠هـ/١٠٠٠م):

شمس الدين أبو عبيد الله محمد بن أحمد المقدسيّ، جغرافيّ ورحَّالة. وُلِد بمدينة بيت المقدس ومنها جاءت نسبته" المقدسيّ". سافر المقدسي إلى دمشق، وبها نشأ وترعرع، ثمَّ انتقل إلى العراق، وطاف في أنحاء البلاد الإسلاميّة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، ومن القسطنطينيّة إلى جنوب الجزيرة العربيّة[٢]، ولم يترك إقليماً إلَّا دخله عدا الأندلس. وكان المقدسيّ في أثناء رحلاته يمكث في البلدة يُسجّل فيها مشاهداته وملاحظاته[٣]. وفي نهاية رحلته، وبعد عناء طويل، استطاعَ المقدسيّ أن يضع كتاباً بالهدف الذي أراده فكان كتابه" أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الذي أنهاه سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥ م[٤]، و أودع فيه من الخرائط المُزيّنة، والحُجج الموثّقة، و الحكايات المحقّقة، ما جعله يحتلُّ مكاناً مرموقاً بين مشاهير الجغرافيين العرب المسلمين[٥].

وأفرد المقدسيّ مصنَّفه بذكرِ الأقاليم الإسلاميّة وما فيها من المفاوز والبحار، والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة[٦]، ومنازلها المسكونة، وطرقها المُستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم وصروفهم، وصِفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة

---

[١] أحمد: الرحلة والرحالة، ص٩٩، ١٠٠.

[٢] مينورسكي(م. ف): الجغرافيون والرحالة المسلمون، تر: عبد الرحمن حميدة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٩٨٥م، ص١٤؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٢٤؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٢٥٥؛ أحمد: الرحالة والرحالة، ص١٢٩؛ زيادة (نقولا): الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الأهلية للنشر، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٣٧.

[٣] بروكلمان(كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٦٥م، ص٢٦٥، ٢٦٦.

[٤] متز(آدم): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تر: محمد عبد الهادي أبو ريده، مطبعة التأليف و الترجمة والنشر، د. م، ط٣، ١٩٥٧م، ج٢، ص٢.

[٥] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٢٤.

[٦] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٢٥٦.

مفاخرهم وعيوبهم، وما يُحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار، وعدد المنازل، وذكر الرمال والتلال والسهول والجبال، ومعادن السعة، ومواضع الضيق والجدب[١]، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص، والممالك والحدود والمصادر، وذكر الصنائع والعلوم[٢] .

بدأ المقدسيّ كتابه بمقدّمة وفصول، فضمَّت المُقدمة المصطلحات الخاصّة بالكتاب، ثمَّ تناول الأقاليم ببيان كور كل إقليم، وبيان أمصاره، وترتيب مدنه وأجناده، ورسم حدوده وتحرير طرقه، مع تمييز الطرق المعروفة بالحمرة والرمال بالصفرة ليعرفها العامّ والخاصّ[٣].

وقسَّم الكتاب إلى **جزأين،** فذكرَ في **الأوّل** أقاليم العرب، وفي **الثاني** أقاليم العجم، و هي كما يلي:

الجزء الأول:

ذكرَ فيه البحار والأنهار، والأسامي واختلافها، وخصائص الأقاليم، و المواضع المختلف فيها، مع بيان مُختصر لمعرفة أمصار المسلمين، وذكر أقاليم العالم ومركز القِبلة، ثمَّ أخذ يُعدّد أقاليم العرب الستة[٤]، **وهي:**

الإقليم الأوَّل:

إقليم جزيرة العرب، و اشتملَ هذا الإقليم أربعة كور هي: الحجاز، و اليمن، و عمان، و هجر.

الإقليم الثاني:

إقليم العراق، وبه ستّ كور هي: الكوفة، والبصرة، وواسط، وبغداد، وسامراء، و حلوان.

الإقليم الثالث:

إقليم أقور، وقد قُسِّم على بطون العرب لمعرفة ديارهم وتميّزها وتقع فيه ثلاث كور من قبل العراق ديار ربيعة، و ديار مضر، و ديار بكر.

الإقليم الرابع:

إقليم الشام، وهو ستّ كور هي: قنسرين، وحمص، ودمشق، والأردن، و فلسطين، والشراة.

الإقليم الخامس:

إقليم مصر، ويحتوي سبع كور هي: الجفار، والحوف، والريف، والإسكندريّة، و مقدونية، والصعيد، و الواحات.

الإقليم السادس:

---

[١] أحمد: الرحلة والرحالة، ص١٣٠، ١٣١.

[٢] أبو سعد(أحمد): أدب الرحلات، دار الشروق، بيروت، ١٩٦١م، ص٨٠.

[٣] أحمد: الرحلة والرحالة، ص١٣٠.

[٤] المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩.

إقليم المغرب، وهو إقليم كبير كثير المدن، جعله المؤلّف كوراً كثيرة هي: برقة، وإفريقية، وتاهرت، وسجلماسة، وفلس، والسوس الأقصى، وجزيرة صقلية، والأندلس، وطنجة، و الزاب.

الجزء الثاني:

ويشمل أقاليم العجم الثمانية، وهي: إقليم المشرق، وإقليم الديلم، وإقليم الرحاب، وإقليم الجبال، وإقليم خوزستان، وإقليم فارس، وإقليم كرمان، وإقليم السند(١).

كما برعَ المقدسيّ في علم الملاحة لا سيَّما الخرائط أو المرشدات البحريّة، وكان يطَّلع على ما عند الملاحين من دفاتر ويتدارسها ويتدبرها(٢).

3ً- ابن حوقل(ت ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م):

أبو القاسم محمد البغداديّ الموصليّ، رحَّالة وجغرافيّ. قضى ثلاثون عاماً في التجوال والاستكشاف، وزار بلاد العرب والبحر الفارسيّ والمغرب ومصر وسورية وأراضي الروم وبلاد ما بين النهرين وكرمان وبحر قزوين، وشاهد الكثير من البحار والمحيطات(٣)، وزار شمال إفريقية ولا سيَّما منطقة برقة وصقلية والأندلس، وأمضى بعض الوقت في حاضرتها قرطبة(٤).

اشتهر ابن حوقل بكتابه" صورة الأرض" الذي يشتمل خرائط متطوّرة، وضمّنه وصفاً تفصيلياً للأراضي التي سيطر عليها المسلمون في إسبانيا وايطاليا وبلاد الروم وذكر بأنَّ عدد اللغات في القوقاز ثلاثمئة وستين لغة(٥). وذكرَ محتوى كتابه في مقدّمته، فقال: « هذا كتاب المسالك والممالك، وذكر الأقاليم والبلدان على مرِّ الدهور والأزمان، والطبائع التي يتميّز بها أهلها وخواص البلاد في نفسها، وذكر جباياتها وخراجها ومستغلّاتها، وأنهارها واتِّصالها بالبحار وما على سواحل البحار من المدن والأمصار »(٦).

وقسَّم ابن حوقل كتابه إلى **قسمين:**

---

١ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩، ١٠.

٢ محمد(صباح محمود): دراسات في التراث الجغرافي العربي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م، ص٤٣.

٣ الجوهري: الفكر الجغرافي، ص١٠٣-١٠٥؛ مينورسكي: الجغرافيون والرحالة، ص١٣؛ أحمد: الرحالة والرحالة، ص١١٧.

٤ كريم(مسعود عياد): مراحل تطور الفكر الجغرافي، دار الكتب الوطنية للكتاب، بنغازي، ٢٠٠٧م، ص١٢٨.

٥ الجوهري: الفكر الجغرافي، ص١٠٥.

٦ ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧.

الأوَّل: اشتملَ بحث صورة الأرض، و ديار العرب، والبحر الأحمر، وبحر العرب، و الأندلس، وصقلية، ومصر، والشام، وبحر الروم، والجزيرة، والعراق، **الثاني:** دراسة الأحواز، وفارس، وكرمان، والسند، وأرمينية، وأذربيجان، والديلم، وبحر الخزر ومفازة خرسان، وسجستان، وما وراء النهر[1].

4ً- البكريّ(ت ٤٨٧هـ/١٠٩٥م):

أبو عبيد عبد الله البكريّ الذي يُنسب إلى بكر بن وائل، وُلد في الأندلس سنة(٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م)، يُعدُّ البكري أعظم جغرافيي بلاد الأندلس قاطبة. وقد أضاف إلى المصنفات الإسلامية العربية **كتابين** مُهمّين: **الأوّل:** كتاب" المسالك والممالك"[2] ، تناول فيه وصف طُرق المواصلات، وبلاد العالم الإسلاميّ المختلفة، واحتوى على وصفٍ مفصَّل لشمال إفريقية، وسكان منطقة بحر قزوين[3].

والثاني: كتاب" معجم ما استعجم"، وقد أتى على صورة معجم جغرافيّ شامل رتَّب فيه البلدان وعالجها حسب ترتيبها الأبجديّ، وتناول معجمه كلاماً عن جزيرة العرب وحدودها ومناطقها وأقاليمها كالحجاز وتهامة واليمن، وتعرَّض لأسماء الأماكن التي وردت في القرآن الكريم والحديث والشعر الجاهليّ والقصص البطوليّة وأخبار الغزو، وتحدّث فيه عن القبائل العربيّة في بلاد العرب وهجرتها المختلفة[4].

5ً- الإدريسيّ (ت ٥٦٠هـ/١١٦٦م):

محمد بن عبد الله بن إدريس وُلد في سبتة سنة(٤٩٣هـ /١١٠٠م)، يرجع نسبه إلى علي بن أبي طالب ﷺ، ولذلك عُرف بالشريف الإدريسيّ، وعُرف بحبِّهِ للأسفار[5]، وشُغف بعلم الجغرافية والأدب، وتمكَّن من

---

[1] الهيتي(صبري): الفكر الجغرافي وطرق البحث، منشورات جامعة الموصل، العراق، ١٩٨٥م، ص٤٩.

[2] سالم(عبد العزيز): قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٢٠٥.

[3] ابن خاقان الإشبيلي(الفتح بن محمد): قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار الأردن، ١٩٨٩م، ص٦١، ٦١٥، ٧٦٨؛ ابن بسام الشنتريني(علي): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د. م، مج١/ ق٢، ص٢٣٢- ٢٣٨؛ ابن بشكوال(خلف بن عبد الملك): الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ج١، ص٢٨٧؛ الضبي(أحمد بن يحيى): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ج٢، ص٤٤٩؛ ابن الآبار(محمد بن عبد الله القضاعي): الحلّة السيراء، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م، ج٢، ص١٨٠-١٨٧؛ ابن أبي أُصيبعة(أحمد بن القاسم): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية، مصر، ط١، ١٨٨٢م، ج١، ص٤٩٦؛ ابن سعيد المغربي(علي بن موسى): المُغرِب في حِلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٦٤م، جـ١، ص٣٤٧- ٣٤٩؛.

[4] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٥٧؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٣٩.

[5] ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء، ص ٥٠١؛ السيوطي(عبد الرحمن): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٧م، ج١، ص٢٣٨؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص١٩٤٧؛ افرالاغ(فلورانس): بحث ضمن كتاب عبقرية الحضارة العربية، تر: عبد الكريم محفوق، دمشق،

من زيارة أماكن عدَّة، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وذكرَ في كتابه أنَّه زار لشبونة حاضرة البرتغال، و سواحل كل من فرنسا وبريطانيا، بالإضافة إلى آسيا الصغرى وبعض البلاد الأخرى[١].

أهم أعماله الجغرافية:

*** كتاب" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق":**

عندما انتقل الشريف الإدريسي من قرطبة إلى صقلية دعاه الملك روجر الثاني ملك صقلية أنْ يؤلِّفَ له كتاباً في الجغرافية[٢]، ليعرف كيفيَّات بلاده حقيقة، ويعلم حدودها ومسالكها برّاً وبحراً، فألَّف له كتاباً سمَّاه" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" ويُسمَّى أيضاً كتاب" رجار" أو الكتاب" الرجاري"[٣]. وتتبع قيمة هذا الكتاب من الخرائط التي بلغ عددها السبعين، غطّت العالم أجمعه، رسمها على أساس أنَّ الأرض كرويّة[٤] في وقت ساد خلاله الاعتقاد الجازم بأنَّها مسطحة. وكان وصفه لأوربَّة فيها أدقُّ وأشملُ، وكان هذا الهدف الثاني من أهداف رُوجر[٥].

قسَّم الإدريسيّ العالم إلى **سبعة أقاليم**[٦]، وقسَّم كلُّ إقليم إلى عشرة أقسام، فصنع بذلك سبعين خريطة[٧]. وقد قدَّر الباحثون مساحة هذه الخرائط في مجموعها مترين وعرضها متر. ولم يعتمد الإدريسي في مصادره لتأليف كتابه على الآراء النظرية، بل على تجاربه الشخصيّة ورحلاته في أنحاء العالم أولاً، وما لم يُشاهده بنفسه اعتمد فيه على الرحَّالة العرب المسلمين والمشاهدين الثُّقاة[٨]، وكان يختبر المسافات على خرائطه ويطبّقها بنفسه، فألَّف كتاباً مطابقاً لما في أشكالها وصورها، غير أنَّه زادَ عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها وغلاتها وأجناس بنائها وخواصِها والاستعمالات التي تُستعمل بها، والصناعات التي تُنفق بها، والتجارات التي تُجلب إليها وتُحمل منها والعجائب التي تُذكر عنها[٩]، وتُنسب إليها وحيثُ هي من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال

١٩٨٢م، ص٤١٩؛ النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٦٦؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٣١٦.

[١] حميدة: أعلام الجغرافيين، ص٣٨٨؛ حسن: الرحالة المسلمون، ص٥١–٥٣.

[٢] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٨٠؛ النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٦٦.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٨٥.

[٤] مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيون، ص٢١٧.

[٥] الجوهري: الفكر الجغرافي، ١٩٧٤م، ص٧٥.

[٦] النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٦٧؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص١٦٢.

[٧] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٥٤.

[٨] مظهر: حضارة الإسلام، ص٤٠٢؛ وهيبة(عبد الفتاح): حضارة العرب في العصور الوسطى، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٧؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٩١.

[٩] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٥٤، ١٥٥.

أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيّهم وملابسهم ولغاتهم، وكان ذلك في شهر شوال من سنة(٥٤٨هـ/١١٥٣م) فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم، وأوَّل ما ابتدأ به من ذلك الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافية، كما سمَّاها بطليموس ووصفها به[١].

*** عمل مُجسَّم للكُرة الأرضيَّة من الفضَّة:**

أعدَّ الإدريسي لروجر كرة من الفضّة الخالصة، تُمثِّل الجزء المعمور من العالم آنذاك ووضعها في قصر باليرمو عاصمة صقلية في ذلك الوقت، وانحصرَ هذا الجزء المعمور بين خطي عرض ٦٣° شمالاً و١٦° جنوباً، حيثُ منابع النيل والبحيرات الاستوائيّة التي يُظنُّ أنَّ الأوربيين اكتشفوها خلال القرن التاسع عشر[٢].

وقال الإدريسيّ عن هذه الخريطة: « إنَّ روجر أحضرَ كرة من الفضّة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعمئة رطل بالروميّ، في كلِّ رطل منها مئة درهم واثنا عشر درهماً، فلمَّا كملت أمر أن تُنقش عليها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وريفها، وخلجانها وبحارها ومجاري مياهها، ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها، وما بينَ كلِّ بلدين فيها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة، والمسافات المشهورة، و المراسي المعروفة، على نصِّ ما يخرج إليهم مثلاً في لوح الترسيم، ولا يغادروا منه شيئاً ويأتوا به على هيئته وشكله»[٣]، وبعد أن تمَّ الرسم التفصيليّ لكلِّ إقليم جمع العالم كلَّه في **خريطتين:**

الأولى: على كرة كبيرة من الفضّة، وهذه أوَّل مرَّة في التاريخ تظهر خريطة العالم على شكل كرة مُجسَّمة[٤]، و**الثانية:** رسمة بالألوان في كتابه تُبيّن الأرض أيضاً كروية وخطوط العرض والطول فيها مقوسة.

وعن صناعة الكرة الأرضيّة قال الإدريسيّ: « وأحضرَ روجر مجموعة من نُقاش الفضة من صُناع الأندلس، وأمرهم أنْ يحفروا الخريطة على الكرة الفضية، فظهر فيها البلدان بأقطارها ومدنها وريفها، وخُلجانها ومجاري مياهها ومواقع أنهارها و بحارها، وما بين كلُّ بلد منها من الطرقات المطروقة، والأميال الممدودة، والمسافات المشهودة، وكان نقشُ الخريطةَ بالألوان، وقد طُعِّمت بالعاج على تفصيل ما يخرجه لهم مُمثلّاً في لوح الترسيم، فلم يُغادروا شيئاً إلّا سجَّلوه كما رسمه لهم»[٥].

---

[١] الإدريسي: نزهة المُشتاق، مج١، ص٦، ٧.

[٢] النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٦٧.

[٣] الإدريسي: نزهة المُشتاق، مج١، ص٦، ٧.

[٤] تعرضت هذه الكرة للضياع، وقد تصوَّر بعضهم أنَّها كانت قرصاً دائرياً مسطحاً، والواقع أنَّها كُرة. سوسة(أحمد): الشريف الإدريسي، مكتبة صبري، بغداد، د. م، ص٣١٦- ٣٢١.

[٥] الإدريسي: نزهة المُشتاق، مج١، ص٦، ٧.

وكان الملك وهو على فراش الموت يتعجَّل رؤيتها كلّ يوم قبل وفاته، وعندما تمَّت الرسمة احتاجَ الإدريسي إلى عُمَّال عدَّة لكي يحملوها إلى الملك الذي فرح بها كثيراً، وأمرَ بوضعها في قاعة العرش.
بقي الإدريسي في بلاط روجر إلى أن توفي روجر سنة(٥٤٩هـ/١٠٥٤م)، واستمرَّ يعمل في بلاد النورمانديين، فصنَّف كتابه" روض الأُنس ونزهة النفس" الذي اشتهر فيما بعد باسم كتاب" المسالك والممالك"، وقد ألَّفه بطلب من الملك غليوم الأول الذي خلف روجر، وفي عهده حطَّم الثوار كرة الفضة ونهبوها سنة(٥٥٥هـ/١١٦٠م). و بالإضافة إلى الكتابين المذكورين كانت للإدريسيّ انجازات أخرى في الجغرافية منها مصوَّر لأشكال الكرة الأرضيَّة، وخرائط تُعدُّ أولى الخرائط الصحيحة في العالم.
ومن آرائه أنَّ الأرض كرويَّة، لكنَّها ليست دائريَّة تماماً، فهي كالبيضة يقسمها خط الاستواء إلى قسمين متساويين، شمالي وجنوبي، وهو أوَّلُ من قاسَ بنجاحٍ خطوط العرض، والتزمت خرائطه بمقياس الرسم وتحديد خطوط الطول والعرض تحديداً دقيقاً مُستخدماً الألوان[١].

6ً- ياقوت الحمويّ (ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م):

شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحمويّ، وُلد في بلاد الروم سنة(٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)، و كان في الأصل رقيقاً لتاجر حمويّ المولِد سكن بغداد ورافقه الحموي في رحلاته، فنُسب إليه. استفاد ياقوت من رحلاته التجارية وألَّف كتاباً جُغرافياً هو" معجم البلدان" الذي يعدُّ من أكثر كتب الجغرافية أهمّية[٢].
يُعدُّ معجم البلدان من أفضل النماذج للمعاجم الجغرافيّة، واعتمدَ في مصادره على مؤلّفات من تقدَّمه من الجغرافيين واللغويين والفلاسفة والحكماء من العرب المسلمين و غيرهم[٣]. وبدأ معجمه **بمقدَّمة** تكلَّم فيها عن موضوعات مختلفة وعلى رأسها الجغرافية ذاكراً فيها أسماء وبعض أعمال الجغرافيين الَّذين سبقوه، وأوردَ في المقدمة بعض المصطلحات التي يتكرر ذكرها في المعجم كالفرسخ والميل والكورة[٤]. وفي نهاية

---

١ الحريري(محمد مرسي): الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته، دار المعارف، الإسكندرية ، ١٩٨٥م، ص٨.

٢ القفطي: إنباه الرواة، ج٤، ص٧٤-٩٢؛ المنذري(عبد العظيم بن عبد القوي): التكملة لوفيات النقلة، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م، ج٣، ص٢٤٩، ٢٥٠؛ ابن المستوفي(المبارك بن أحمد): نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل، تح: سامي بن السيد خمّاس الصقّار، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط١، ١٩٨٠م، ج١، ص٣١٩-٣٢٤؛ ؛ ابن الدمياطي(أحمد بن أيبك): المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، تح: أبو فرح دي – فل برنسق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٩٧٩م، ص٢٥٣، ٢٥٤؛ الغساني(إسماعيل بن عباس): العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تح: شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٧٥م، ج٢، ص٤٣٩؛ الدلجي(أحمد بن علي): الفلاكة و المفلوكون، مطبعة الشعب، مصر، ١٩٠٤م، ص٩٢.

٣ ديورانت(ول): قصة الحضارة ، تر: محمد بدران، مطبعة الرجوي، القاهرة، ١٩٧٤م، ج ١٣، ص٣٥٩.

٤ الشامي (صلاح الدين علي): جغرافية العالم الإسلامي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٤م، ص١٢٥.

مقدَّمته أعطى تحليلاً وشرحاً كافياً لمعجمه، ووضَّح منهجه في التأليف وعارض فكرة الإيجاز في الكتابة[١]. وجاء بعد المقدمة بخمسة **أبواب** يُمكن عدَّها مدخلاً إلى علم الجغرافية، **تكلَّم فيها عن:**

- النظريات الجُغرافيَّة التي عالجت شكل الأرض، مُعتبراً الأرض كرويَّة في شكلها، وتجاذبها أطراف الفلك من كل النواحي كالمغناطيس.
- تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم على أساس البروج الاثني عشر، والأقطار الواقعة تحت تأثيرها، كما قسَّم النصف الشمالي من الكرة الأرضيّة إلى سبعة أقاليم وفقاً لدوائر العرض.
- خطوط الطول ودوائر العرض، وبعض مصطلحات الجغرافية الفلكيّة.
- وصْف وتصنيف للبلدان التي فتحها المسلمين، بالإضافةِ إلى أخبارِ البلدان الأخرى[٢]، وكيفيّة توزيع الممالك المختلفة. ثمَّ ختم المقدمة بمعارف تاريخيَّة عامَّة تتعلق بديار الإسلام وغيرها[٣]. وبعد هذا بدأ ياقوت في سرد مادَّة معجمه مُرتِّباً البلدان حسب ترتيبها الأبجدي بطريقة منظمة[٤].

يلي ذلك **متن المعجم**، ذكر فيه أسماء الأماكن مرتَّبة ترتيباً ألفبائياً، وحدَّد أطوال هذه الأماكن وعروضها ونشأتها ودورها التاريخيّ، وحرص على ردِّ كلِّ اسم في هذا المعجم إلى أصل عربيّ، إلَّا فيما ندر، واستشهد على هذا الاشتقاق بأشعار العرب. وتحظى الأماكن الكبيرة أو المشهورة لديه بعناية خاصة، إذ وصفَ كلَّاً منها وصفاً مفصَّلاً دقيقاً، ذكر فيه أهمّ المعالم كالمساجد والقلاع، وإذا اشتهر المكان بحادثة تاريخيّة، توقّف عندها وسردها ووصفها، كما أوردَ أسماء أهمِّ العُلماء والأُدباء الَّذين نشؤوا في ذلك المكان أو عملوا فيه، ووصفَ أحياناً الأحوال الاجتماعيّة للقاطنين بهذا المكان، وأورد في أثناء ذلك عدداً من القصصِ، والأحداث الطريفة[٥].

ب- إنجازات علماء العرب المسلمين في الجُغرافية الإقليميّة:

أسهمَ جغرافيُّو العرب المسلمين بشكلٍ كبير في تطوّر علم الجغرافية، وقدَّموا في مجال الجغرافية الإقليميَّة كثيراً من الإنجازات، **لعلَّ أبرزها:**

1ً- رسم الخرائط:

---

[١] غليونجي(بول): موسوعة العلوم الإسلامية والمسلمين، مؤسسة المعارف، بيروت، د. ت، ص١٧٧؛ المنجد (صلاح الدين): أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٨م، ج١، ص٦١.

[٢] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص١٥.

[٣] حسن: الرحالة المسلمون، ص٧٩- ٨١..

[٤] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٥٠.

[٥] أحمد: الرحلة والرحالة، ص١٧٩؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص٤٧، ٤٨.

أطلق العرب المسلمين على الخريطة اسم الصورة أو المصوّر الجغرافيّ أو لوح الرسم. وجاءت كلمة خريطة متأخِّرة وهي اشتقاقٌ من أصل إغريقي[١]، وقد ضمَّن أغلب الجغرافيين العرب المسلمين في كتبهم خرائط لمناطق كانوا قد زاروها وتحدَّثوا عنها في مُصنَّفاتهم ، وعلى هذا فقد برعَ كثيرٌ منهم في رسم خرائط ومصوّرات.

وقد امتازت خرائط العرب المسلمين الأوائل بوضع الجنوب في أعلى الخريطة، وهذا ما أثارَ استغراب الباحثين، وقد علَّلَ بعضهم سبب وضع الجنوب في أعلى الخريطة، أنَّ معظم المدن الإسلامية في ذلك الوقت المدينة – دمشق – القاهرة – بغداد – الكوفة كانت شمال مكة المكرمة، لذا كانوا يتَّجهون جهة الجنوب في أثناء الصلاة و عدّوه يشير إلى أشرف بقُع المسلمين، ومن هنا كان لا بدَّ من وضع الجنوب في أعلى الخريطة[٢].

وقد اتَّبع العرب المسلمين منهجاً مميزاً في رسم خرائطهم، فمن ذلك ظهور العلامات الأرضيَّة التي تُمثّل الجبال والغابات وغيرها من مظاهر سطح الأرض، إضافةً إلى تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم شمال خطّ وسط الأرض آخذة كل واحدة منها من الغرب إلى الشرق على طوله[٣]. وكذلك تميَّزت بعض خرائط العرب المسلمين باستخدام الخطوط المستقيمة والأشكال الهندسيّة من دوائر ومربَّعات ومستطيلات، لكنَّها لم تستخدم مقياس رسم، إضافةً إلى عدمِ احتوائها صور الحيوانات و الملائكة[٤].

وساد **نوعان** من الخرائط عند العرب المسلمين **الأوَّل:** صورة الأرض، وهي خريطة العالم. **والثاني:** أقاليم العالم الإسلاميّ، وهي خرائط فقط للعالم العربيّ والإسلاميّ، فقد رسم العرب المسلمين خرائط للمسجد الحرام والكعبة تُحدّد القبلة للأقاليم المختلفة، هذا عدا عن الخرائط البحريَّة التي اشتهروا بها كثيراً. وأُجريت إحصائية مُهمّة للخرائط في العالم العربيّ الإسلاميّ، فتبيَّن بأنَّ عددها للعالم الإسلاميّ وأقاليمه بلغت سبع صور، ولبحر فارس ثلاث صور، وللمغرب سبع صور، ولبحر الروم ستّ صور، ولمصر خمس صور، وللشام صورة واحدة، ولبلاد العرب صورة واحدة، وللبلاد الإسلامية الشرقية صورتين[٥].

ويمكن القول:

إنَّ أوّل خريطة عُرفت عند العرب المسلمين تلك التي أمرَ الحَجَّاج بن يوسف الثقفي سنة(٨٩هـ/٧٠٧م) القائد قتيبة بن مسلم الباهليّ (ت ٩٦هـ/ ٧١٥م) أن يُرسلها له كمصوَّر أو خريطة للمنطقة التي طال

---

١ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٢٠١.

٢ النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٩٥.

٣ ماجد(عبد المنعم): تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٨٦م، ص٢٤٧.

٤ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٢١٣.

٥ النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٩٥– ٢٩٨.

حصارها خلال فتوحاته لبلاد ما وراء النهر، وهي منطقة بلاد الديلم، فقام القائد قتيبة بتصويرها بجميع مظاهرها الطبوغرافيّة[١]. ويُذكر أنَّ الحَجّاج طلب من القائد قتيبة الباهليّ أنْ يُصوّر له بخارى عندما فشل في غزوها سنة(٨٩هـ/ ٧٠٧م)[٢].

كذلك ورد ذكر تصوير البطائح في البصرة بالعراق، إذْ عرض المهندسون صورتها على الخليفة العباسيّ أبو جعفر المنصور، وكان السبب في ذلك تقسيم الأراضي فاستحسنها[٣]. أمَّا المحاولاتَ الأولى الجادَّة لرسم الخرائط الجغرافيّة، فكانت في بداية العصر العباسيّ عندما بدأ الاهتمام يزداد بصناعة الخرائط الدقيقة نسبيّاً، وتُمثل سطح المعمورة و تتضمّن الظواهر الجغرافيّة بمواقعها الحقيقيّة تِبعاً لخط طول و عرض كلّ مكان، وعمل جداول لمختلف المواقع في العالم آنذاك، وكان يُطلق على هذه الجداول" الزيجات"، و كان الخوارزميّ من أشهر المهتمّين بوضعها. وصُنعت بأمر من الخليفة المأمون جداول سمِّيت بالزيج المأمونيّ، وهي ما سُمِّيَ بالصورة أو الخريطة المأمونيّة[٤] التي اجتمع على صُنعها عددٌ من حُكماء أهل عصره وصُنعت مربَّعة الشكل عرضها مثل نصف طولها وعرضها تربيعاً صحيحاً[٥]، وصوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبرّه وبحره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك[٦].

وقد رُسمت هذه الخريطة على القماش الثقيل المسمَّى بالديبقيّ، وذلك بالأصباغ المشمّعة[٧]، واستُخدمت فيها الأصباغ والألوان لتمثيل مختلف الظواهر مُدعَمة بعمليات رصد فلكي أُجريت في كل من بغداد و دمشق، وتمَّ قياس طول الدرجة الواحدة من درجات العرض فكانت تَقِلَ كيلو متراً واحداً فقط عن تلك التي أُجريت في القرن التاسع عشر، وقاس الفلكيون كذلك درجة عرض محلّة باب الطاق في بغداد فكانت ٣٣ درجة و ٢٠ دقيقة شمالاً وهي مُطابقة للحقيقة و الواقع[٨].

---

[١] ابن الفقيه الهمداني: مختصر كتاب البلدان، ص٢٨٣.

[٢] النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٩٢.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٠٦.

[٤] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٢٠٥.

[٥] سبهري(سهراب): عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة، تح: هانس فون مزيك، مطبعة أدولف هولزهوزن، فيننا، ١٩٢٩م، ص٥، ٦.

[٦] المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٣٣.

[٧] ابن النديم: الفهرست، ص٢٨٥.

[٨] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٢٠٦.

وذُكر أنَّ الفلكيّ ثابت بن قرَّة نسبَ لنفسه رسماً للأرض[١]، وتمكَّن الجُغرافيّ أحمد بن سهل أبو زيد البلخيّ(ت ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م) سنة(٣٠٩هـ/ ٩٢١م) من جمع معلومات مناخيّة عن الأقطار التي زارها، وكان ذلك عن طريق الرحَّالة العرب المسلمين في كتاب" الأشكال" الذي يُعدُّ أول أطلس مناخيّ[٢].

كذلك أسهمَ الجغرافيّ الاصطخريّ الذي طاف في البلاد الإسلاميّة، ودوَّن أخبار رحلاته في كتابه المعروف" المسالك والممالك" في رسم أطلس للبلدان التي زراها، إذْ قسَّم هذه البلاد إلى عشرين إقليماً، وكلُّ إقليم شمل منطقة جغرافيّة واسعة[٣].

وتُعدُّ خريطة المسعوديّ أدقّ الخرائط التي ظهرت لتحديد العالم المعروف في ذلك الوقت، إذ اعتقد باستدارة الأرض ورسم خريطة للعالم، ثمَّ رسم بعد بحر الظلمات أرضاً سمَّاها" الأرض المجهولة"، ولم يُستدلّ على هذه الخريطة من مكان موثوق[٤]. وحينما نُهبت خزينة الخليفة المستنصر الفاطميّ، وجدت خريطة كانت قد طُرّزت على حرير سنة(٣٥٣هـ/ ٩٦٤م) للمعزّ لدين الله الفاطميّ، وكان مُوضِّحاً عليها أسماء مختلف البلدان والجبال والبحار والأنهار والمدن والطرق وطُرِّزت أسماؤها بالذهب والفضة، وقُدِّرت قيمتها بنحو اثنين وعشرين ألف دينار[٥].

ودوَّن الرحَّالة الجُغرافي المقدسيّ أخبار مشاهداته و رحلاته في كتابه المعروف" أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، و يُعدُّ أول من استخدم الألوان في الخرائط، فقام برسم خريطة ملوّنة للبلاد التي زارها، ورسم حدودها وخطّطها، وحرّر طرقها بالحُمرة، وجعل رمالها الذهبيّة بالصُفرة، والبحار المالحة بالخُضرة، والأنهار المعروفة بالزُرقة، وجبالها المشهورة بالغُبرة، وكل ذلك ليقرِّبَ الوصف إلى الأذهان[٦].

ورسم ابن حوقل خرائطه بطريقة هندسية تخطيطية[٧]، وذكرَ ذلك بقوله: « وقد حرّرت ذكر المسافات، واستوفيت صور المدن وسائر ما وجب ذكره وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة والعمل، وموقع كل مدينة من مدينة تجاورها وموضعها من شمالها وجنوبها، وكونها بالمرتبة من شرقها وغربها ليكتفي الناظر

---

[١] ابن الجوزي(عبد الرحمن بن علي): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج٦، ص٢٩؛ ابن قنفذ القسطنطيني(أحمد بن حسن): الوفيات، تح: عادل النويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م، ص١٩٣.

[٢] أبو زيد البلخي(أحمد بن سهل): مصالح الأبدان والأنفس، تقديم: مالك البدري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ٢٠٠٢م، ص٩، ١٠؛ الحموي(ياقوت): معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص٢٧٤-٢٨١.

[٣] يسرى(الجوهري): الخرائط الجغرافية، مكتبة الإشعاع، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص٦٧.

[٤] الجوهري: الخرائط الجغرافية، ص٦٩، ٧١.

[٥] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٠٦.

[٦] النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٩٣.

[٧] الجوهري: الخرائط الجغرافية، ص٧١، ٧٢.

ببيان موقع كل إقليم وموضعه ومكانه، وما توخَّيتهُ من ترتيبه وأشكاله وقصصه من أحواله وأخباره ... مشهوراً»[١].

ويُمكن عدُّ خريطة الإدريسي الخطوة الثالثة في تقدُّم صناعة الخرائط العربيّة، فقد ضمّن كتابه" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"[٢] على مجموعةٍ من الخرائط بلغ عددها سبعين خريطة، وفي مُقدِّمتها خريطة مستديرة للعالم تمتاز بدقّة الرسم[٣]، و قسَّم الأرض كما تصوّرها إلى **سبعة أقاليم**، وقسَّم كل إقليم إلى عشرة **أقسام** متساوية[٤]، ورسمَ لكلِّ قسم خريطة، وقد أثارت هذه الخرائط إعجاب المُحدَثين والباحثين[٥] .

.

وعلى هذا يمكن القول: إنَّ العرب المسلمين بلغوا في رسم الخرائط الجغرافية درجة عالية من التطوّر، وشملت رسومهم الجغرافيّة وخرائطهم صوراً لأقاليم واسعة من العالم العربي والإسلامي.

2- ابتكار البوصلة الملاحيّة "بيت الإبرة":

تُعدُّ البوصلة الملاحيَّة ابتكاراً عربياً إسلامياً رُغم الاعتقاد السائد في أوربة أنَّ الأوربيين هم الَّذين ابتكروها[٦]. وتعدُّ البوصلة أحَّد الاختراعات الحاسمة في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميَّة، وسُمِّيت في المراجع الأجنبية (Boussola)[٧]. وفيما يتعلَّق بعلم البحار، فقد انتقل كثير من المصطلحات العربيّة إلى اللغات الأوربيّة مثل أدميرال(Admiral) التي تعني أمير البحر، وأيضاً أرسنال(Arsenal) التي تعني دار الصناعة أي صناعة السفن[٨].

ورغم أنَّ العرب لم يكونوا هم أوّل من عرف الخاصيّة المغناطيسيّة، إذ عرفها الإغريق والصينيين قبلهم، لكنَّ العرب المسلمين كانوا أول من استفاد من هذه الخاصيّة في صنع أول بوصلة، وذلك بحكِّ الإبرة على المغناطيس، ثمَّ وضعها فوق إناء فيه ماء بحيث تطفو على عودين صغيرين من الخشب فتتّجه الإبرة نحو الشمال.

والقول: بأنَّ الصينيين قد عرفوا الإبرة أولاً وعرفها عنهم العرب، جاء الردُّ عليه من علماء الدراسات الصينيّة أنفسهم إذْ أوضحوا أنَّهم لم يجدوا في المخطوطات الصينيَّة القديمة أي ذكر للإبرة المغناطيسيّة،

---

[١] ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥، ١٦.

[٢] الجوهري: الخرائط الجغرافية، ص٧٢.

[٣] ديورانت: قصة الحضارة، ج١٣، ص٣٥٨.

[٤] الجوهري: الخرائط الجغرافية، ص٧٢.

[٥] الخروصي(خالد بن سليمان): الطبوغرافيا وتطور علم الخرائط، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٦م، ص٢٣.

[6] Klaproth Lettera J . M; Le Paron De Humoeldt Sur l'invention De La Boussole, Paris, 1834, p133.

[٧] النهار: سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٨٧.

[٨] أباظة و أبو خليل(نزار و شوقي): موسوعة الأوائل والمبدعين، دار المنبر، دمشق، ٢٠٠٣م، ج٥، ص٨١٧.

بل أنَّ خاصيّة جذب المغناطيس نفسها كانت غامضة عند الصينيين ومُرتبطة بالسحر وليس العلم، وكانوا يسمُّون حجر المغناطيس الحجر المحب[١]، يُضاف إلى أنّ الكثير من النصوص التي وردت في كتب الجغرافيين العرب تُشير إلى معرفتهم المغناطيس قبل الصينيين، وممّا يُؤيّد ذلك قول ابن الفقيه الهمذاني: « قالوا ومن عجائب الجبل الذي بآمد يراه جميع أهل البلدة، أنَّه متى يحكّ بذلك الجبل سكّين أو حديد أو سيف، حمل ذلك السيف أو السكين الحديد وجذب الإبر والمسال بأكثر من جذب المغناطيس»[٢].

وقد ظلَّ هذا النوع من البوصلة مُستعملاً في السفن العربيّة التي تمخر عباب المحيط الهندي من موانئ اليمن وفارس إلى كانتون في الصين، وتلك التي تعبُر البحر المتوسّط[٣] قبل أن يعرف الأوربيّون أيّ شيء عن هذه الخاصيّة، وكان ذلك منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي[٤].

وتمَّ التطوير المُهمّ للبوصلة على يد شهاب الدين أحمد بن ماجد (ت ٩٠٦هـ/ ١٥٠١م)، وكان ذلك في المحيط الهنديّ بتجليس الإبرة المُمغنطة على محور لتدور أفقيّاً فوق قرص دائرة الرياح، ويُثبّت الجميع في حقّة أو صندوق. وقد انتقلت فكرة الإبرة المُمغنطة التي تطفو فوق الماء إلى أوربَّة عن طريق العرب المسلمين خلال الحروب الصليبيّة، كما وصلت حقَّةُ ابن ماجد إلى الإيطاليين في أوائل القرن السادس عشر الميلاديّ وسمُّوها البوصلة، وهي الترجمة الحرفيّة لكلمة الحقَّة[٥].

3ً- استكشاف القارات:

- قارة آسيا:

سجَّل الجغرافيون العرب المسلمين، معلومات دقيقة ومفصّلة عن بحر الخزر وحوض الفولغا و الشعوب التي تقطن حوضه الأدنى، وكانت معلوماتهم غزيرة عن أقاليم آسيا الوسطى، وتركستان التي كان يُطلق عليها اسم بلاد ما وراء النهر، إضافةً إلى شمال آسيا. كما كان للجغرافيين العرب المسلمين معلومات عن جزر المحيط الهنديّ، ولا سيَّما جزيرة سيلان. و اكتشف العرب المسلمين أنَّ بحر الصين يتّصل بالمحيط الهنديّ، وذلك عن طريق أساطيلهم التجاريَّة التي كانت تُبحر من ميناء عدن إلى ميناء كانتون بالصين، كما اكتشفوا بحيرة أرال فوُضعت لأوّل مرّة على الخرائط المأمونيّة في عهد المأمون تحت اسم بحيرة خوارزم[٦].

---

[١] عبد العليم (أنور): الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م، ص١٦٤.

[٢] ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص١٨١.

[٣] ريسلر (جاك): الحضارة العربية، تر: غنيم عبدون، الدار المصرية للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٩١.

[٤] عاشور (سعيد): أوربَّة في العصور الوسطى، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط١٠، ١٩٨٦م، ج٢، ص٥١١.

[٥] عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار، ص١٦٦، ١٧١.

[٦] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٧٩.

وقد زار البيرونيّ سيبيريا الشرقية، وكان أوّل من سمَّى نهر أنجارا، كما أنَّه عاش في الهند قرابة العشرين عاماً، ووصفها وصفاً لم يسبقه إليه أحد في كتابه" ما للهند من مقولة". وأولى العرب المسلمين اهتماماً خاصَّاً بالهند بعدِّها أحَّد أجزاء العالم الإسلاميّ، ومنذُ عهدٍ مُبكِّر بدأت المعلومات تتجمَّع عن الهند، وخصوصاً ما يتعلق بالجوانب الاقتصاديّة و البشريّة، كما أثارت المظاهر الطبيعيّة البارزة اهتمام الجغرافيين كنهر السند والكنج وجبال الهيملايا. كذلك أثارت المدن الهنديّة الرئيسيّة اهتماماً لدى عدد من الجغرافيين الأوائل أمثال الإصطخري وابن حوقل وغيرهم[1]، وقد استطاع الملَّاحون العرب المسلمين أنْ يتوغّلوا على امتداد الساحل الصينيّ نحو الشمال لغاية شبه الجزيرة الكوريّة، وأطلقوا على بحر الصين الشماليّ اسم" بحر سنخي"[2].

- قارة أوربَّة:

كان لدى الجُغرافيين العرب المسلمين تصوّر واضح عن جهات شمال أوربَّة، وتنعكس معرفتهم بجهات شمال أوربة في أقاليم الإدريسيّ، حيثُ مَدّد الأرض المعمورة في شمالي أوربَّة حتَّى فنلندا وشمال روسيا وبلاد اللاب، و وضع ذلك كلَّه في الإقليم السابع الذي يمتدُّ عمليّاً في خرائطه لغاية درجة ٧٢ درجة شمالاً، وإنْ ذكر في المتن بأنَّ أقصى المعمورة في أوربة يصل إلى درجة ٦٨ درجة شمالًا[3]. و فيما يخصُّ شرق أوربة فإنَّ الكتابات عن بلاد الصقالبة وشعوبها التي كان يقصد بها منطقة الشعوب السلافيَّة عموماً، تكررت لدى عدد من الجغرافيين أمثال المسعوديّ، والإدريسيّ والبيرونيّ[4].

وفي سنة(٣١٠هـ/ ٩٢٢م) ذهب أحمد بن حماد بن فضلان رسولاً من قبل الخليفة في بغداد إلى بلاد البلغار في الفولجا. وكانت هذه التسمية تُطلق عند العرب المسلمين على بلاد الصقالبة الروس، وعلى عاصمتهم التي تقع شرق نهر الفولجا[5]. كما وصف البيروني بلاد الفرنج وهم النرويج والإسكندنافيين، ووصف بحر الثلج وهو القطب الشماليّ، وعرفَ العرب المسلمين بلاد الغال وهي فرنسا، وقد عُثر حديثاً على عملاتٍ إسلاميَّة في كلٍّ من روسيا واسكندنافيا تعود إلى العصر العباسيّ[6].

- قارة إفريقيَّة:

---

[1] أحمد: جهود المسلمين في الجغرافية، ص٣٣، ٢٧٠، ٢٧١.

[2] خصباك(شاكر): في الجغرافية العربية(دراسة للتراث الجغرافي العربي)، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٥م، ص١٠٢، ١٠٣.

[3] مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص٢٠٨.

[4] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٧٧.

[5] ابن فضلان(أحمد بن العباس): رحلة ابن فضلان، تح: سامي الدهان، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٦٠م، ص٢٢-٢٥.

[6] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٧٦، ٧٧.

وصل العرب المسلمين إلى إفريقية تُجّاراً أو رحَّالة أو سُفراء، فاستكشفوا القارة الغامضة ونشروا فيها الإسلام في السودان والسنغال والنيجر، كما وصلت مراكبهم من الأندلس والجزائر إلى الصومال وزنجبار وموزمبيق وجزائر الكومو[١]. واكتشفوا منابع نهر النيل العظيمة[٢].

فقد توغّلت معلوماتهم جنوباً إلى غاية خط عرض ٢٠ درجة جنوباً، وانتشرت مراكز استيطانهم في مدن متعدّدة من أمثال ممبسة وزنجبار وملندة وكلوا، وجزيرة مدغشقر التي أطلقوا عليها اسم جزيرة " قمار" أو" قمر". وإذا كان التصوّر السائد لدى الجغرافيين الإغريق، والرومان بأنَّ القارة الإفريقيَّة تنتهي بأرض يابسة، فقد آمن العديد من الجغرافيّين العرب المسلمين بأنَّها محاطة بالبحار، وكان على رأس من أيَّد هذا الرأي أبو الريحان البيرونيّ[٣]، فقال بهذا الصدد: « و أكثر ما يبلغ سالكو البحر الأعظم من جانب المغرب سفالة الزنج ولا يتجاوزونها، وسببه أنَّ هذا البحر طاعن في البرِّ الشماليّ في ناحية المشرق... بذلك صار برُّ المعمورةَ وسط ما أحاط به اتصال»[٤].

- قارة أمريكا:

منذُ أنْ أعلنَ العرب المسلمين أنَّ الأرض كرويّة، وأثبتوا ذلك بالبراهين العلميّة والفلكيّة والحسابيّة، ابتدأت الإشارات في كتبهم إلى أنَّه لا بدَّ من وجود جزر معمورة في الوجه الآخر من الكرة الأرضية لم تُستكشف بعد، وقد بُنيت هذه النظرية على أنَّه ليس من المعقول أنْ يكونَ أحد سطحي الكرة الأرضيّة كلَّه أرضٌ جبليَّة، بينما الجانب الآخر كلّه ماء، إذْ كان من غير الممكنِ أنْ تُحافظ بذلك على توازنها وانتظام دورانها[٥]. وكان البيروني أوَّل من أشار إلى هذه الحقيقة وبشَّر بها في كتبه[٦].

وهناك إشارات عدَّة تدلُّ على أنّ العرب المسلمين كانوا أوَّل من وصل إلى القارة الأمريكيَّة، وهذه الإشارات هي:

الإشارة الأولى:

---

[١] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٩٢.

[2] Kimble. G. H. T; Geography In the Middle Ages, London, 1938, p 59.

وأيضاً مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص٢٠٩.

[٣] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٩٢.

[٤] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٣٥٠، ٣٥١.

[٥] مظهر: حضارة الإسلام، ص٣٩٦، ٣٩٧.

[٦] السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، ص٢٩٠.

وتقول: إنَّ بحَّاراً عربيّاً أندلسيّاً اسمه" خشخاش البحريّ" أبحرَ بسفينته من لشبونة إلى الغرب في بحر الظلمات سنة(٢٣٦هـ/ ٨٥٠ م)، وإنَّه اكتشف في هذا البحر جزيرة مأهولة بالسكان، وأحضر منها الهدايا إلى حاكم الأندلس الأمير عبد الرحمن الثاني(٢٠٦- ٢٣٨هـ/٨٢٢- ٨٥٢م)[١].

الإشارة الثانية:

وتقول: إنَّ جماعة من عرب المغرب الإفريقيّ قد خرجوا إلى بحر الظُلمات نحو هذه الجزيرة، وكان ذلكَ في القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ، ولم يعُد أحدٌ منهم، ولم يُسمع عنهم أي خبر.

الإشارة الثالثة- قصة الفتية المغررين:

وتقول هذه القصة: إنَّ ثمانية من الشباب العرب، في مدينة لشبونة، من عائلة واحدة من البحارة، قرَّروا المغامرة في بحر الظلمات بحثاً عن هذه الجزر التي هلك من سبقوهم دونَ خبر عنها، وأنَّ أهل المدينة أطلقوا عليهم لقب الفتية المغررين نسبة إلى الغرة أيّ المقدمة[٢].

وقد تحدَّث الإدريسيّ في كتابه" نزهة المشتاق" عن هذه القصّة، فقال عنهم: « وصلوا من لشبونة بعد اثني عشر يوماً إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير القروش قليل الضوء فأيقنوا بالتلف، ثمَّ فردوا قلاعهم في ناحية الجنوب اثنى عشر يوماً أخرى، فخرجوا إلى جزيرة الغنم وفيها من الغنم ما لا يأخذه عدّ ولا تحصيل وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر إليها، فقصدوا الجزيرة، فنزلوا بها، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برّي، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا لحومها مرَّة لا يقدر أحد على أكلها». ثمَّ تستطرد الرواية فتصف من قابلوهم من سكَّان تلك البلاد ولغتهم وكانت المفاجأة أن جاؤوا لهم برجل يعرف اللسان العربي، وقد حكى لهم قصته أنَّه من بقايا الفريق السابق من عرب المغرب الَّذين هلكوا جميعاً في البحر وأنَّه الوحيد الذي نجا ووصل إلى الجزيرة وعاش فيها حتَّى ذلك الوقت.

وتقول رواية الإدريسي: إنَّ هؤلاء الفتية الثمانية عندما عادوا إلى الأندلس قد احتفى بهم أهل لشبونة واستقبلوهم بالزينات والأفراح، وأطلقوا على الشارع الذي يسكنون فيه اسم شارع الفتية المغررين، وكان ذلك في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[٣].

وذكرَ المؤرخ الأب أنستاس الكرمليّ أنَّ العرب المسلمين، وصلوا أمريكا من لشبونة قبل كولومبوس بفضل معرفتهم لتيار الخليج الحارّ في الأطلسيّ[٤]. فأورد الكرمليّ: « إنَّ العرب سبقوا سائر الأمم إلى معرفة

---

[١] المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص١٣٨.

[٢] العقاد(عباس محمود): أثر العرب في الحضارة الأوربية، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، القاهرة، د. م، ص٤٧.

[٣] الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، ص٥٤٨.

[٤] العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص٤٧.

هذا التيّار وخواصه وإلى حركته من المكسيك إلى إيرلندا وبالعكس فكانوا يركبونه، فإن ظعنوا إلى أنحاء المكسيك مكث بعضهم فيها وعاد القليلون منهم إلى بلادهم راكبين متن ذلك التيار المُبارك ونعرف أنَّهم أقاموا في الديار، التي عرفت بعد ذلك بالمكسيك، من دخول بعض الكلمات العربية في لغة تلك البلاد ومن تلك الكلمات" موون سون" (Monsoon) وأصلها الرياح الموسميّة، وكلمة" تيفون (Typhoon) وأصلها الطوفان »[١].

الإشارة الرابعة:

إنَّ أولَ خريطةٌ لأمريكا كانت عربيَّة إسلاميَّة. إذْ من عجائب الصدف أن تكون أوّل خرائط عرفتها الدنيا لأمريكا، عربيّة إسلاميّة وليست إسبانيّة ولا برتغاليّة. وقد اكتشفت سنة(١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢) في مكتبة الاسكوريال بمدريد، وهي من صنع الجغرافيّ الإسلاميّ ابن الزيّات(ت ٥٩٥ هـ/١١٩٨م)، وفيها رسْمٌ لمنطقة بحر الظُلمات أيّ المحيط الأطلسيّ، ويشمل رسم الجزر المأهولة وهي أمريكا[٢].

الإشارة الأخيرة:

أتت من أقوال كولومبوس وبحَّارته التي ذكروا فيها أنَّه كان يُعتقد أوّل الأمر أنَّ الهنود الحمر الَّذين رآهم في تلك الجزر لا بدَّ أن يكونوا من سلالة العرب الَّذين سبقوه، وهي تبيّن أنَّ كولومبوس قد اختار أحَّد رجاله من الَّذين يعرفون اللغة العربيّة، وهو من أصل عربي، وبعث معه برسالة إلى ملك الهنود الحمر كتبت باللغة العربيَّة، وإنَّ الذي دعا كولومبوس إلى هذا الظنّ أيضاً أنَّه سمع بعض الكلمات العربيّة المُحرفّة، وإنَّه عاد من أمريكا بذهبٍ مخلوط بالنحاس بنفس الطريقة والنسبة التي يُحضّر بها العرب الذهب، وإنَّه عثرَ هناك على عملات ذهبيَّة إسلاميَّة عليها نقوش عربيَّة[٣].

سابعاً- الإقرار الغربيّ بالإسهامات الجُغرافية للعرب المسلمين:

يعترف الأوربيُّون بإسهامات العرب المُسلمين المُهمّة في مجال الأدب الجغرافيّ و مدى تأثر الفكر الجغرافيّ الأوربيّ بالإنجازات الجغرافيّة للعرب المسلمين. ومن أهمّ ما قيلَ في ذلك:

قال جوستاف لوبون: « إنّ كُتُبُ العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافية مهمَّة للغاية، وكان بعضها أساساً لدراسة هذا العلم في أوربَّة قروناً، ويكفي ما أتى به العرب من عملٍ كبير لإثبات قيمتهم، فالعرب هم الَّذين انتهوا إلى معارفَ فلكيّة مضبوطة عُدَّت أوَّل أساس للخرائط »[٤].

---

[١] الكرملي(أنستاس): عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها الغرب، بحث في مجلة المقتطف، مصر، ١٩٠٦م، العدد ١٠٦، ص٢١٣.

[٢] السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، ص٢٩٢.

[٣] العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص٤٨.

[٤] لوبون: حضارة العرب، ص٤٦٩، ٤٧١.

وتحدَّث مارتن بلسنر(Martin Plessner)عن الخرائط العربية قائلاً: « وكان للخرائط العربيَّة الإسلاميَّة، وما كتبه العرب المسلمين في علوم البحار أثرٌ بالغ في تقدُّم الملاحة الغربيّة»[١].

ووصف المُستشرق الإيطاليّ نللينو(Nallino) كتاب الخوارزميّ" صورة الأرض" بقوله:« لا يُوجد شعب أوربي واحد يستطيع أن يفخر بمُصنَّفٍ يُمكن مُقارنته بهذا الكتاب»[٢].

وقال المستشرق الفرنسي جاك ريسلر(Jacques Risler) واصفاً الإدريسيّ: « لم يكن بطليموس الأستاذ الحقيقيّ في جغرافيّة أوربَّة، لكنَّه الإدريسيّ ومصوَّراته التي تعترف بكرويّة الأرض، والتي كانت تتويجاً لعلم المصوّرات الجغرافيّة في العصر الوسيط بوفرتها وصحَّتها واتِّساعها»[٣].

أمَّا ألدو ميلي(Miele Aldo) فعبَّر عن تفوّق العرب في مجال الجغرافية بقوله: « لقد عرف العرب المسلمين وضع الخرائط وضعاً علمياً مَبنياً على تعيين الطول و العرض في العناصر الجُغرافيّة المختلفة، حيثُ وصلوا بذلك على يد الإدريسي إلى تحقيق خطوة جديرة بالإعجاب حقّاً في هذا الفنُّ الذي هو فرع عظيم الأهمِّية من الجغرافية العلميّة»[٤].

وبدوره وصف الأستاذ سارتون(Sarton) فضل معارف العرب الجغرافية على تطوّر أوربَّة العلميّ، فقال: « إنَّ أبحاث هؤلاء الجغرافيّين الفلكيّين في السابع الهجريّ/ القرن الثالث عشر الميلاديّ لم تذهب سُدىً، بل كانت أحّد العوامل التي أثَّرت في أبحاث كوبرنيكوس في نظريته التي أعلنها سنة(٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)»"[٥].

وقال الأستاذ ليفيل(Level): « إنَّ الغرب ليسوا أكثر من مجرّد ناقلين من العرب، وخاصة عن الإدريسيّ، وإنَّنا لا نملك الحقّ في إضفاء لقب مؤلّفين على أولئك الَّذين لا يدَّعون هم أنفسهم ذلك»[٦].

و جاء مدح الأستاذ ول ديورانت لمعجم البلدان بقوله : « موسوعة جغرافيّة ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافيّة المعروفة في العصور الوسطى، ولم يكد يترك شيئاً من هذه المعلومات إلَّا أدخله في هذه الموسوعة؛ من فلكٍ، وطبيعة، وعلوم آثار، والجغرافية البشريّة، والتاريخ، هذا إلى ما أثبته فيها من

---

[١] بلسنر(مارتن): مبحث العلوم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م، ج٢، ص١٥٤.

[٢] نالينو: علم الفلك، ص٢٧٩.

[٣] عفيفي(محمد الصادق): تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢٧١، ٢٨١.

[٤] ميلي(ألدو): العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، تر: عبد الحليم النجار، دار القلم بيروت، ١٩٦٢م، ص١٤٥.

[٥] سارتون: تاريخ العلم، ج١، ص٤٦.

[٦] عفيفي: تطور الفكر العلمي، ٢٨١.

أبعاد المدن بعضها عن بعضٍ، وأهمّيتها، وحياة مشهوريّ أهلها وأعمالهم، ولسنا نعلم أنَّ أحداً أحبَّ الأرض كما أحبَّها هذا العالم العظيم»[1].

ثامناً– نقد الأدب الجُغرافيّ عند العرب المسلمين:

يُمكن بوجه عام تمييز **اتِّجاهين** أساسيين في الأدب الجُغرافي العربيّ الإسلاميّ:

الأوَّل: يُولي وجهه شطر العلوم الدقيقة بالمعنى الذي نفهمه حالياً، و**الثاني:** يُولي وجهه شطر الأدب الفني بالغاً ببعض آثاره ذروة الإبداع في هذا المجال، وهذا طابعٌ مزدوجٌ للعلم الجغرافيّ، تميَّز به الأدب الجغرافيّ العربيّ، وقد بيّنوه بدقّة في تصنيفهم للعلوم، وكان ذلك قبل معرفتهم بنظام التصنيف الثلاثيّ(النحو والبيان والجدل)، والنظام الرباعيّ(الحساب والهندسة والفلك والموسيقى).

وبعد ذلك وُجد اتِّجاه جُغرافيّ آخر موازٍ للأوّل، وهو منهج الجغرافية الوصفيّة التي ترتبط بها قصص الرحلات ارتباطاً وثيقاً، وكان في بداية ظهوره يرتبط بعلوم الشريعة واللغة والأدب الفنيّ الأمر الذي لم يحُل دونَ تشبّعه بين آونة وأُخرى بالجغرافية العلميّة[2].

وعلى هذا يُمكن توجيه نقدين للأدب الجغرافيّ عند العرب المسلمين **الأوّل** نقد سلبيّ، و**الثاني** نقد إيجابيّ:

١ – النقد السلبيّ:

احتوت كتب العرب المسلمين مادَّة غزيرة من المعلومات الجُغرافيّة، وهي وإنْ تُعدُّ تراثاً كبيراً للحضارة العربيّة الإسلاميّة وللعالم أجمع، إلَّا أنَّها جاءت مصحوبة بانتقاداتٍ و مآخذٍ عدَّة، من أهمِّها:

أ– خضوع الأدب الجغرافيّ العربيّ للنظريات العلميّة الموروثة عن الأوائل(يونان، و رومان، وإغريق، وفرس، وهنود)، والأخذ بها دونَ تمحيصها ونقدها في كثير من الأحيان، رغم أنَّ تجاربهم كثيراً ما أدَّت إلى استكمال تلك النظريات، وتعديلها لكنْ ليس بشكل كامل، فقد بقيت هناك الكثير من الهفوات والأخطاء التي لم يتطرّقوا إليها، وخاصّة إذا عُلم أنَّ نظرياتهم العلميّة لم ترقَ إلى مستوى تجربتهم العلميّة، فقد ظنُّوا أنَّ المعمور من الأرض هو رُبعها، وذلك في النصف الشماليّ منها، وهو ما عُرف باسم الربع المعمور.

وكان اليونان قد سبقوهم في ذكر هذه النظرية، فلم يَقُم العرب بأدنى جهد للتحقق من ذلك[3]. وكذلك جعلهم مكَّة تتوسط خريطة العالم، وجعل الجنوب مكان الشمال، وبالعكس وذلك لجعل الأماكن المقدسة تحتلُّ أعلى الخريطة، فكانَ هذا الأمر يشوبه الكثير من النقد الذي وُجِّه للأدب الجغرافيّ العربيّ الإسلاميّ وعُدُّ أنَّ هناك تحيُّزاً فيما وصفه الجغرافيُّون والرحّالة العرب المسلمين في حلِّهم وترحالهم[4].

---

[1] ديورانت: قصة الحضارة، ج١٣، ص٣٥٩.

[2] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص ١٨.

[3] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٣؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦١.

[4] أبو العلا: الفكر الجغرافي، ص١٨.

ب- أخذهم بالنظرية القائلة بتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم، وهي أحزمة عريضة مرتّبة من الجنوب إلى الشمال في موازاة خط الاستواء، ومُبتدئة منه على وجه التقريب ولاسيَّما أنَّ هذا التقسيم كان تقسيماً يونانيّاً وُضع على أساس نسبيّ للنهار والليل وميل الشمس على خط الاستواء(klima)، مع العلم أنَّ عروض الأقاليم تتفاوت عندهم بحيث يختلف أطول أيام السنة بمقدار نصف ساعة من إقليم لآخر، فقام العرب بالأخذ بهذه النظريات دونَ أدنى تعليل ونقد، ويبدو النقد المُوجَّه لهم في هذا المضمار أنَّهم رغم أخذهم بنظريّة الأقاليم إلَّا أنَّ الوحدة التامة في التقسيم لم تُراعَ.

كما أنَّ التباين في عروض الأقاليم بلغَ حدّاً واضحاً، والسبب الرئيس هو الاختلاف في درجات العرض الفاصلة بين كل إقليم والذي يليه، ومن هنا فإنَّ الفرق الواسع بين النظرية وتطبيقها وتفسيرها قد ترك أثره في الكارتوغرافيا العربيّة، إذ تركت عجزاً واضحاً في إيجاد مصوّرات جغرافيّة منفردة تختصُّ بهم، ومن ثَمَّ جاءت أغلب المصوّرات الجُغرافيّة المتأخّرة تقليداً لما سبقها، وأحياناً تكراراً حرفيّاً لها مع بعض التعديلات التي لم تكن تُؤثّر في السبيل لإيجاد خرائط جغرافيّة جديدة مختلفة نوعاً وفكراً عمَّا سبقها[١].

ج- آمن الجُغرافيون العرب المسلمين بالنظرية القائلة باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة والشديدة البرودة، وهذا الأمر يُفسّره عدم وجود معلومات كافية عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء، لكنْ من جهة أخرى إنَّ العرب المسلمين كانوا قد وصلوا إلى جهات إفريقية مثل زنجبار ومدغشقر وغيرها، وقد لاحظوا أنَّ هذه المناطق مأهولة بالسكان، فهنا تناقض بين ما آمنوا به وبينما وصفوه. ورغم هذا التناقض فقد استمرت هذه النظرية موجودة في فكرهم دونَ نقد أو تعديل[٢].

د- تمسَّكهم بفكرة وجود سلسلة جبليَّة تنتظم الأرض من الغرب إلى الشرق، وهذه الفكرة تتعارض بشكلٍ تامٍّ مع ما شاهدوه من واقع الأحوال[٣].

هـ- الاعتماد على الروايات التي تشوبها أحياناً الأساطير والخرافات بدلاً من ذكر الحقائق الجغرافيّة المرئيّة بالعين والاكتفاء بها[٤]، وأخذهم ببعض النظريات التي قالت بها أوربَّة في العصور الوسطى، لاسيَّما قولهم بأنَّ الأنهار الكبرى تنبع من الفردوس رغم معرفتهم التامة بمنبع ومصبّ هذه الأنهار[٥]. واللجوء للتفسير الديني لظاهرات معينة، فمثلاً يشير بعض الكتاب إلى أنَّ نهر النيل ينبع من الجنّة، وإنَّ الزلازل والبراكين سخط من الله على سُكَّان أقاليم محدَّدة[٦].

---

[١] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٣، ٢٤.

[٢] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦١، ٦٢.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٣؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦٢.

[٤] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٦، ٧٧.

[٥] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١،ص٢٣؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦٢.

[٦] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٦، ٧٧.

و– النزعة إلى الوصف الشامل بدلاً من الوصف المُفصَّل العميق للمناطق المعروفة على أساس الملاحظة المباشرة.

ز– لم يُطبَّقْ المنهج النقدي دائماً على المصادر المكتوبة التي أفاد منها جغرافيو العرب المسلمين، ومثال ذلك النقد الذي وجّهه الجغرافي المقدسي عندما قال: « إنَّ كتاب الجيهانيّ يضمُّ بين دفَّتيه كتاب ابن خرداذبه، وإنَّ ابن الفقيه الهمداني لا يختلفُ في شيءٍ عن الجاحظ» وهذا ما عدُّوه تضميناً لمُصنَّفات غيرهم، أو تضمين قطع منها في صلب المصنَّف، قاعدة عامَّة مع العلم أنَّ الجغرافيّ كان يُورد في بعض الأحيان المصادر التي استقى منها معلوماته، وإنْ كان عُدَّ ذلك إيجابية لأنَّه قد حفظ لنا شذرات ومقتطفات من مصنّفات غيره كانت قد فقدت، ومثال ذلك ما حفظه ياقوت الحموي في معجم البلدان من شذرات لرحلة ابن فضلان كانت قد ضاعت، لكنَّ العيبَ في ذلك يكمُن بذكر هذه النصوص دون نسبها إلى صاحبها الحقيقيّ.

ح– التحيز لموضوع دراستهم[١]، فقد تحيَّز بعض الجغرافيين والرحّالة عند الوصف متأثرين أحياناً بما لقوه من متاعب أو صعاب، أو بما حُظوا به من ترحابٍ في البلاد التي تجوّلوا فيها، فانحازوا عندها عن جادة الصواب وأصول الوصف العلمي المُجرَّد من كُلِّ ما هو شخصيٌّ.

ط– قلّة الدقَّة في وصفِ الأبعاد والمسافات، إمَّا في المبالغة أو التهوين أو التقدير على أُسس يصعبُ الجزم بمقدار النتائج المترتبة عليها، ومثاله قوله: « والمسافة بينها مسيرة يومين بالإبل، وعدد معين من الفراسخ». وهذه وحدات غير ثابتةٍ بل تخضع للاختلاف في عالم المشرق الإسلامي عن غربه.

ي– عدم الحرص على التدقيق في تعيين مواقع المدن والبلاد، بل السهو أحياناً في ذكر أسمائها.

ك– عدم الالتزام بمنهج مُعيَّن في الكتابة واللجوء للاستطراد، والتكرار المستمرّ لحقائق سبقَ ورودها من قبل، والإطناب في الوصف، والاستشهاد بالشعر، والأقاصيص والأراجيز، والتركيز على التصنُّع في استخدام اللغة في كتاباتهم بدلاً من ذكر الحقائق بأيسر الطُرق[٢].

٢– النقد الإيجابيّ:

أ– جاء منهج الجغرافية الوصفيّة غزير بمادته ، ومن ثَمَّ من الصعب وجود مثيله في الآداب الأخرى، وهذا ما يُمكن أن يُسمَّى التلوُّن في الأدب الجغرافيّ العربيّ الإسلامي[٣].

ب– اعتماد جميع المؤلفات الجُغرافية السريانيَّة المتأخّرة على موروث العرب المسلمين الجغرافيّ مما يدلُّ على أهمِّية وغزارة مادته العلميَّة.

---

[١] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢١، ٢٤.

[٢] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٧٦، ٧٧.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص١٨.

ج– يُمكن الملاحظة أنَّ هُناك كمَّاً هائلاً من المعلومات الجغرافيّة عند العرب المسلمين عند المقارنة بالمعرفة الجغرافيّة عند شعوب العصور التي سبقتهم، فقد عرف العرب أوربة باستثناء أقصى شمالها، وكذلك النصف الجنوبيّ من آسيا وإفريقية إلى رأس جرينتش قرب مدار الجدي[١]، والهند والصين واليابان، وغيرها لكن لم يبلغوها عن طريق البحر.

وتركوا وصفاً من إسبانيا غرباً إلى تركستان ومصبّ السند شرقاً مع وصف المأهول منها ونباتاتها ومعادنها وصحاريها، وعرفوا سواحل آسيا إلى كوريا شمالاً، كذلك عرفوا أحوال هذه الأقاليم الجغرافيّة وأوضاعها البشريَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، ودرسوا عادات وتقاليد شعوبها ولغتهم وأديانهم وقد استمرّت هذه المعلومات تُمثّل القول الفصل في أوضاع ووصف هذه المناطق إلى حين ظهور المستكشفين الجغرافيين الأوربيِّين في القرن التاسع عشر[٢]، وهذا ما أثبتوه بأهمِّية المعلومات التي جمعوها حتَّى عن بلاد نائية مثل أرخبيل الملايو وجنوب شرق أوربة.

د– الأهمِّية العلميّة للتراث الجغرافيّ العربيّ الإسلامي، وتجلَّت هذه الأهمَّية بالتنوّع الكبير في أنماطه وفنونه، ففيه الرسالة العلمية في الفلك والرياضيات، وفيه الكتب التي تخصُّ عمّال الدواوين وجمهرة المسافرين، وهو يُقدِّم متعة ذهنيّة كبرى، إذ يُستفاد من النماذج الأدبيّة والفنيّة الرائعة التي صِيغت بالسجع والمصنّفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء، والتي يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة والإمتاع والحيويّة من جهة أخرى، وهنا تبدو مقدرة علماء الجغرافيين العرب المسلمين وبراعتهم في فنّ القصص.

هـ– أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوّعه وغنى مادَّته، فهو تارةً علميّ وتارةً شعبيّ، وتارةً جمع بين الواقعيّة والأسطورة. فضمَّ المتعة كما الفائدة. لذلك فهو يُقدِّم مادَّة غنيَّة متعدِّدة الجوانب لا مثيل لها في أدبٍ جُغرافيٍّ عالميٍّ آخر، وهذا ما أشادت به الدراسات المُتأخِّرة بأنَّ مادة الأدب الجغرافيّ العربيّ الإسلاميّ أبعدُ من أن تكون قد استوفت حقَّها من الدراسة والاستقصاء[٣].

---

[١] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٢.

[٢] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦٠، ٦١.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٢، ٢٣، ٢٥.

الفصل الثاني

علم الجُغرافية في عصر دولة المماليك البحريّة

علم الجغرافية في عصر دولة المماليك البحريَّة

أولاً- عوامل ازدهار الحركة الفكريَّة والتأليف الجُغرافيّ خلال عصر دولة المماليك البحريَّة:

شهدت دولة المماليك البحريّة(٦٤٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠- ١٣٨٢م) نهضة علميَّة واسعة، خاصَّة في مجال التأليف الجُغرافيّ، إذ شهد هذا العلم تطوراً كبيراً، فصُنِّفت الكتب في مجال فنِّ التقاويم، والخطط، والرحلات، واشتهر عدد من عُلماء الجغرافية في مجال الجُغرافية الوصفيَّة التي تشتمل على أوصاف البلدان والأقاليم، ووصف الجزر والبحار، وتخصَّص البعض الآخر في مجال الجغرافية الرياضيَّة الفلكيَّة، في حين عُرِف عند البعضِ حُبُّ الرحلات، فزاروا عدداً من البلدان، ودوَّنوا ما شاهدوه في مُصنَّفات على شكلِ قصصٍ وأسفار. وكان لنشاط الحركة العلميَّة بشكل عام والازدهار الجغرافي بشكلٍ خاص في هذا العصر عوامل عدَّة أبرزها:

١- العوامل الخارجيّة:

أ- الغزو المغولي للبلاد العربيَّة الإسلاميَّة:

بدأ الاجتياح المغولي للبلاد الإسلامية منذُ سنة(٦١٧هـ/١٢٢٠م)، فسقطت بيدهم مُدن العالم العربيّ والإسلاميّ الواحدة تلو الأخرى، ودمَّروا خُراسان[١]، ثمَّ واصلوا زحفهم نحو العراق، وكانت الطامَّة الكبرى بالاجتياح المغولي لبغداد سنة(٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) بقيادة هولاكو، إذْ زحف الأخير بجيوشه على بغداد، عاصمة الخلافة الإسلاميّة، فوصلها في جيش ضخمٍ جدّاً[٢]، وحاصرها مُدَّة ثمَّ بدأ باجتياحها.

وكان استيلاء المغول على بغداد في يوم الأربعاء عاشر ﷺ، فأحرقوها وقتلوا خليفتها المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين فيها[٣]، وفعلوا في العراق ما فعلوا من القتل، والسفك، والتخريب، والتدمير، والسبي

---

[١] مان(جون): جنكيز خان الحياة والموت والانبعاث، تر: حسن عبد العزيز عويضة، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٣م، ص١٧٢.

[٢] قيل: إنَّ عدد جنوده بلغ مئتي ألف. ابن أيبك الدواداري(أبو بكر بن عبد الله): الدُرّة الزكيّة في أخبار الدولة التركيّة، تح: أولرخ هارمان، المعهد الألمانيّ للآثار، القاهرة، ١٩٧١م، ج٨، ص٣٤؛ العيني(محمود): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، دار الكتب والوثائق القوميَّة، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م، ج١، ص١٧١.

[٣] ابن العميد(جرجس): أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينيَّة، القاهرة، د. ت، ص٤٤، ٤٥؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٤٥، ٤٧١، ٤٧٥، ٤٧٨؛ ابن الكازروني(علي بن محمد): مُختصر التاريخ، تح: مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد،١٩٧٠م، ص٢٧٣؛ القلقشنديّ(أحمد بن علي): مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار عالم الكتب، بيروت، د. ت، ج٢، ص٩٠-٩٢.

والإحراق[١]، وهاجموا دار الخلافة، وجمعوا الفقهاء والأماثل وجميع ساداتِ بغداد ومُدرِّسيها وقتلوهم عن آخرهم[٢]، وأحرقوا الكتب وأغرقوها[٣]، ودامَ القتل والنهب أربعين يوماً[٤]. وقيل: إنَّ عدد القتلى ببغداد زاد على ألف وثمانمئة ألف قتيل عدا من أُلقيَ من الأطفال في الوحول، ومن هُلكَ في القني والآبار، وسراديب الموتى جوعاً وعطشاً[٥].

وبعد بغداد توجه المغول بجيوشهم إلى الحِلَّة[٦] والكوفة فدخلوها صُلحاً، ثمَّ توجهوا إلى واسط ودخلوها بالسيف[٧]، ثمَّ توجهوا نحو بلاد الشام، فسقطت بأيديهم حلب سنة(٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، واستسلمت لهم دمشق أواخر سنة(٦٥٨هـ /١٢٦٠م)[٨]. ونتيجةً ذلك كان لابدَّ للمسلمين من أن يلتفّوا حول المُدافعين عنهم من سلاطين المماليك مُلتمسين فيهم الزعامة التي تُدافع عنهم، ولاسيَّما أنَّ إحياء العلوم والمعارف كان يُعدُّ من أهمِّ وسائل تدعيم المُلك عند سلاطينِ المماليك، فعمل هؤلاء جاهدين على استقطاب من فرَّ من الغزو المغولي، أمثال الجُغرافي ابن العديم الحلبيّ، الذي فرَّ من الاجتياح المغولي الذي دمَّر موطنه الأصليّ حلب[٩].

ب- إحراق الكتب و قتل العُلماء:

---

[١] الهمداني(رشيد الدين بن فضل الله): جامع التواريخ، نقله إلى العربية: محمد صادق وآخرون، دار احياء الكتب العربيّة، القاهرة، د. ت، مج٢/ ج١، ص٢٩٤.

[٢] العطاري(جلال يوسف): حركة التأليف العلميّ في مصر والشام في العصر المملوكيّ الأول، دار الفكر، عمان، ٢٠١١م، ص٣٩.

[٣] الذهبي(محمد بن أحمد): تاريخ الإسلام ووفيَّات المشاهير والأعلام، تح: عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٤٨، ص٣٦؛ الغساني: العسجد المسبوك، ج٢، ص٦٣١.

[٤] ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٧٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨، ص٣٦.

[٥] ابن الفوطي(عبد الرزاق بن أحمد الشيباني): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تح: مهدي النجم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٣٦، ٢٣٧؛ ابن كثير(إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، تح: عبد الله المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ج١٧، ص٣٥٨-٣٦٢.

[٦] قرية مشهورة في طرف دجيل بغداد من ناحية البرية، بينها وبين بغداد ثلاث فراسخ، والحِلَّة بكسر الحاء: علم لمواضع عدَّة في العراق. الحموي(ياقوت): المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، دار عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ص١٤٣؛ أبو الفداء(إسماعيل بن علي): تقويم البلدان، اعتناء: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانيّة، باريس، ١٨٤٠م، ص٢٩٩؛ القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٣٥٥.

[٧] الهمذاني(رشيد الدِّين بن فضل الله): جامع التواريخ، تح: فؤاد عبد المعطي الصيّاد، الدار الثقافية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م ، مج٢/ ج١، ص٢٩٦.

[٨] الهمداني: جامع التواريخ، مج٢/ ج١، ص٣٠٧، ٣٠٨.

[٩] سليم(محمود رزق): عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلميّ والأدبيّ، المطبعة النموذجيّة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢م، مج٣، ص١٧.

أمر هولاكو بعد غزو بغداد بإلقاء كلِّ موروثها العلميّ والحضاريّ في نهر دجلة، فجُمعت الكتب من دور الخلفاء، و أُلقيت في النهر حتَّى قِيل: إنَّ ماء نهر دجلة تغيَّر لونه؛ لكثرة ما ألقَى فيه المغول من كُتب العلم، لا بل قيل: إنَّ هولاكو عمل من هذه الكتب ثلاثة جسور على دجلة[١]، فأضاعَ بذلك على الدِّين واللغة ذخائر لا تُعوّض[٢].

وفي هذا المجال قال المقريزي : « ذهب جلَّ الكتب في الفتن الكائنة بين المغول وغيرهم» [٣]. كذلك أمر أمر هولاكو بقتل الكثير من العلماء في بغداد[٤] فمن الَّذين قُتلوا على يد المغول، عبد القاهر بن محمد الفوطي عالم العربية، قُتل صبراً في الواقعة ببغداد[٥]، وتاج الدين بن صلايا الهاشميّ صاحب النظم والشعر الجيّد[٦]، والشيخ العلامة يحيى بن يوسف الصرصريّ البغداديّ عالم اللغة العربيّة و صاحب المدائح النبويّة[٧]، قُتل شهيداً بسيوف المغول[٨]، والعلامة محيي الدِّين بن الجوزيّ[٩]، سفير الخلافة وكان

---

[١] علي(محمد كرد): الاسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م، ص٣٢٣.

[٢] سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص١٧.

[٣] المقريزي(أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٤٩٩.

[٤] زيدان(جرجي): تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، القاهرة، ١٩٨٣م، ج٣، ص١٢٢.

[٥] ابن مفلح العليمي(إبراهيم بن محمد): المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تح: عبد الرحمن العثيمين، مكتبة الرد، الرياض، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، ص١٨٧.

[٦] ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٤١؛ الذهبي(محمد بن أحمد): العبر في خبر من غبر، تح: محمد السعيد زغلول، زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ج٣، ص٢٨٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٥، ص١٢٨، ١٢٩.

[٧] بلغت مدائحه النبوية عشرين مجلداً. البابانى(إسماعيل باشا): إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، اعتناء: رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت، مج٢، ص٢٣١؛ البغدادي(إسماعيل باشا): هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مطبعة وكالة المعارف، إستانبول، ١٩٥١م، مج٢، ص٥٢٣.

[٨] الصفدي(خليل بن أيبك): نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية، مصر، ١٩١١م ، ص٣٠٨، ٣٠٩؛ ابن رجب(عبد الرحمن بن أحمد): الذيل على طبقات الحنابلة، تح: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٥م، ج٤، ص٣١-٣٧.

[٩] ابن الجوزي(يوسف): الإيضاح لقوانين الإصلاح في الجدل والمناظرة، تح: محمد السيد دغيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، المقدمة ص١١-٣٣، ابن الشعار الموصلي(المبارك بن أبي البركات): عقود الجمان في شعراء هذا الزمان، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م ، ج١٠، ص ٢٦٦-٢٧٠؛ ابن ناصر الدِّين الدمشقي(محمد بن عبد الله): توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكتابهم، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م ، ج٢، ص٥٢٠؛ أبو الوفاء القرشي(عبد القادر بن محمد): الجواهر =

وكان إماماً، عالماً، وقُتل معه ولداه جمال الدِّين عبد الرحمن[١]، وتاج الدِّين عبد الكريم[٢]، وقُتل العالم شمس الدِّين علي بن النقيب المختار العلويّ[٣]، والعالم شرف الدِّين أبو الفضل محمد بن طاووس العلويّ[٤]، كما قُتل العالم الفقيه الأديب موفَّق الدِّين بن هبة الله بن أبي الحديد، المدائنيّ[٥].

وأمام هذه المصائب كان لابدَّ من مكان آمنٍ يأوي إليه العلماء، ووجدوا ذلك في مصر والشام حيثُ أقام المماليك لأنفسهم فيها مُلكاً وسلطاناً، ففرَّ إليها الكثير من العُلماء وكان ذلك سبباً لازدهار الحركة العلميَّة عامَّة، والتأليف الجُغرافيّ في مصر والشام في العصر المملوكيّ الأوَّل خاصَّة، إذ أشعرَ الغزو المغولي العُلماء بأنَّهم مسؤولين عن تدوين العلم من جديد، فأسهموا في التأليف والتعليم، لا سيَّما في علم الجغرافية، وبذلك انتقل العلم والتعليم بعد سقوط عاصمة الخلافة بغداد إلى مصر والشام تحت رعاية المماليك[٦].

ج- هجرة العلماء والأُدباء إلى مصر والشام:

ساءت أوضاع العالَم الإسلاميّ، مشرقه ومغربه، في منتصف القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، فقدمَ إلى الشام ومصر كثيراً من العلماء، وخاصَّة ممّن اشتهروا في مجال الجغرافية، وذلك فراراً من الظلم والطغيان الذي ألحقه المغول بعاصمة الخلافة بغداد، أو نتيجة سقوط الممالك الإسلامية في الأندلس، وانقسامها إلى دويلات متنافسة فيما بينها، ممَّا أدَّى إلى سقوط هذه الممالك بيد الإسبان[٧]،

= المضية في طبقات الحنفية، تح: عبد الفتاح الحلو، دار هجر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م، ج٤، ص٥٩٤؛ الداوودي(محمد بن علي): طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج٢، ص٣٨٠-٣٨٢؛ معروف(ناجي): تاريخ علماء المستنصرية، بغداد، ط٢، ١٩٦٥م، ص٤٢١.

[١] جمال الدِّين أبو الفرج عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي، وُلِّيَ حسبة بغداد ودرَّس بالمدرسة المستنصرية، وترسل به عن الديوان إلى مصر، وحدَّث ببغداد ومصر، توفِّي بهذه السنة، وقد جاوز الخمسين سنة. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٨، ص٣١٠؛ ابن رجب: الذيل طبقات الحنابلة، ج٤، ص٢٦-٣٠.

[٢] تاج الدين عبد الكريم بن محيي الدِّين يوسف بن الجوزي، ولِّيَ الحسبة، ودرَّس بالمدرسة الشاطئية، قتله المغول، وعمره عشرون سنة. ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، ج٤، ص٣٠؛ الغساني: العسجد المسبوك، ج٢، ص٦٣٦.

[٣] ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨، ص٣٠٩؛ الغساني: العسجد المسبوك، ج٢، ص٦٣٨.

[٤] الكتبي(محمد بن شاكر): عيون التواريخ، تح: نبيلة عبد المنعم داوود، فيصل السامر، دار الحرية، بغداد، ط١، ١٩٨٤م، ج٢٠، ص١٣٥؛ الغساني: العسجد المسبوك، ج٢، ص٦٣٩.

[٥] الإربلي(علي بن عيسى): التذكرة الفخرية، تح: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٠٣؛ ابن فضل الله العمري(أحمد بن يحيى): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٢م، ج١٢، ص٣٢٣-٣٢٥.

[٦] سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص١٧، ١٨.

[٧] العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٣٩.

وأدى الغزو الإسبانيّ إلى اندثار المعاهد العربيةّ الإسلاميَّة العلميَّة، وقد كان لكلِّ هذا آثاره السلبيَّة في الأندلسيين، فساءت الأحوال الاقتصادية، وانتشرت الأوبئة والأمراض، وأدَّى كلَّ ذلك إلى هجرة كثيرٍ من عُلماء الأندلس إلى مصر والشام[1].

وكان ابن خلدون ممَّن شهد على سوء الأحوال الفكريَّة في المغرب والأندلس، فقال عن ذلك: « أنَّ القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس، فلمَّا خُرِّبتا انقطع التعليم في المغرب إلَّا قليلاً كان في دولة الموحدين، وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب العربيّ خلواً من حسن التعليم من لُدن انقراض تعليم قُرطبة والقيروان»[2].

لقد جعل اضطراب أحوال الأراضي العربيَّة والإسلاميّة، مشرقها ومغربها، من مصر والشام وريثتين شرعيتين لبغداد والقيروان وقرطبة، والملجأ الوحيد الآمن، فربحت مصر والشام بفعل هذه الظروف العشرات من أشهر عُلماء الأمصار لاسيّما في مجال الجُغرافية، الَّذين كونوا تياراً فكرياً واضحاً ومتميّزاً[3].

ومتميّزاً[3].

ومن العلماء الفارّين من وجه المغول كان الجُغرافيّ كمال الدِّين عمر بن أحمد بن العديم(ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) الذي هرب من حلب إلى مصر بعد ما شاهد ما أصاب حلب من تدمير المغول[4]، و ذكر قصيدة تُعبِّر عن اعتصار ألمه يقول فيها:

وعـن حلـبٍ مـا شـئت قـلْ: مـن عجائـبٍ أحـلَّ بهـا يـا صـاحِ إن كنـت تعلـمُ

أحـاطوا كأسـرب القطـا بربوعهـا تُقـلُّ بهـم جُـردٌ مـن الخيـل طُهَّـمُ[5]

ومثله فعل قاضي القضاة بحلب كمال الدِّين أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الأسديّ الحلبيّ الشافعيّ المعروف بابن الأستاذ(ت ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م)[1]، وأحمد بن محمد بن خلَّكان قاضي القضاة(ت ٦٨١هـ/

---

[1] سلام(محمد زغلول): الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م، ص١٠٦، ١٠٧.

[2] ابن خلدون(عبد الرحمن): تاريخ ابن خلدون مع المقدمة، مر: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ، ط٢، ١٩٨٨م، ج٧، ص٤٥٠.

[3] باشا(عمر موسى): الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، دمشق، ط٢، ١٩٦٣م، ص١٠٧.

[4] ابن قطلوبغا(قاسم السودوني): تاج التراجم، تح: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق ، ط١، ١٩٩٢م، ص٢٢٢، ٢٢٣؛ اللكنوي(محمد عبد الحي): الفوائد البهية في تراجم الحنفية، تعليق: محمد بدر الدِّين النعساني، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص١٤٧، ١٤٨؛ الطباخ(محمد راغب): أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تعليق: محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، ط٢، ١٩٨٩م، ج٤، ص٤٤٤-٤٧٢.

[5] ابن العديم(عمر بن أحمد): زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، دمشق، ١٩٥٤م، ج١، ص ٣٨.

٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) الذي خرج من دمشق مُتوجِّهاً إلى الديار المصريّة، فسكنها وتأهَّل فيها واشتغل فيها بالعلوم، وبعد زمن عاد إلى الشام، وصنَّف بها تصانيف عدَّة ، أشهرها" وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" الذي حمل في ثناياه معلومات جُغرافيَّة قيّمة، تُوثِّق علاقة الجُغرافية بالتاريخ، ومدى تأثُّر الأحداث التاريخيَّة بالموقع المكانيّ[٢].

وفرَّ من المغول أيضاً الجُغرافيّ المُؤرِّخ عز الدِّين محمد بن علي بن شدّاد(ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) الذي برع في مجال فنّ الخطط الجُغرافيَّة، فصنَّف فيها كتاباً سمَّاه " الأعلاق الخطيرة بذكر أُمراء الشام والجزيرة"[٣].

ومن المشارقة الَّذين وفدوا إلى مصر واشتهروا في مجال الجغرافية كان القاضي أحمد بن حمدان بن شبيب النميريّ الحرانيّ(ت ٦٩٥هـ/١٢٩٦م) الذي رحل إلى مصر وتولَّى التدريس فيها، وتوفِّي فيها[٤].

ومن الأندلسيين الَّذين اشتهروا في مجال الجُغرافية أبو عبد الله محمد بن سراقة الشاطبيّ(ت ٦٦٢هـ/١٢٦٣م) الذي رحل في طلب العلم فقدِم مصر، وظلَّ فيها حتَّى وفاته[٥]، ورحل إلى مصر كذلك عالِم النحو وإمام القراءات محمد بن عبد الله بن مالك (ت ٦٧٢هـ /١٢٧٣م) صاحب الألفية المشهورة، التي احتوت في ثنايا أبياتها الشعريّة على معلومات جغرافيّة قيّمة لكثير من المناطق[٦]. وتبعه الجُغرافيّ الأديب علي بن موسى بن سعيد الغرناطيّ(ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م) الذي كتب عن رحلته المصريَّة أشعاراً

---

[١] السبكي(عبد الوهاب بن علي): طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧١م، ج٨، ص١٧، ١٨؛ المقريزي(أحمد بن علي): المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ج١، ص٥١٣.

[٢] ابن كثير(إسماعيل بن عمر): طبقات الشافعية، تح: عبد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م ، ص٨٢٩– ٨٣١؛ ابن حجر العسقلاني(أحمد بن علي): تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تح: محمد علي النجار وآخرون، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٦٤م، ج٤، ص١٤٠٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ١٩٦٧م، ج١، ص٣٢٠؛ ابن الغزي(محمد بن عبد الرحمن): ديوان الاسلام، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، ص٢٤٢.

[٣] ابن الفرات(محمد بن عبد الرحيم): تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق و نجلاء عز الدِّين، المطبعة الأميركانية، ١٩٣٩م، ج٨، ص٣٣؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٦، ص٢٣٣، ٢٣٤.

[٤] ابن الجزري(محمد بن إبراهيم): تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تح: عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص٢٢٣، ٢٢٤؛ الذهبي(محمد بن أحمد): الإعلام بوفيات الأعلام، تح: مصطفى بن علي عوض، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص٢٩٠.

[٥] ابن سعيد المغربي: المُغرِب في حِلى المغرب، ج٢، ص٣٨٨؛ المقري: نفح الطيب، مج٢، ص٦٣–٦٥.

[٦] أبو الفداء(إسماعيل بن علي): المختصر في أخبار البشر، تح: محمد زينهم، محمد عزب، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ج٣، ص٣٣٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٣٥٩.

كثيرة، وصنَّف كتاب" المُغرب في أخبار المغرب"، وكتاب " المشرق في أخبار المشرق" وغيرهما، وهما كتابان في الجُغرافية الوصفيَّة، دوَّن فيهما مشاهدته خلال رحلته إلى مصر [١].

كما وصل إلى مصر أثير الدِّين أبو حيان الغرناطيّ وبقي فيها حتَّى وفاته بالقاهرة سنة(٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م)[٢]، و في مصر صنَّف كتابه الذي أسماه" مجاني الهصر في شعراء العصر"، والذي ضمَّ في ثناياه معلومات جغرافيّة قيّمة عند ذكرِهِ لتراجم الشعراء[٣].

كذلك وجدت طائفة من العلماء قد هاجروا إلى مصر والشام طامعين في كرم مصر والشام وحسن وفادتهما[٤] فقدِم إلى الشام من الهند الشيخ صفي الدِّين محمد بن عبد الرحمن الأرموي الهنديّ(ت ٧١٥هـ/ ١٣١٥م) الذي أقرأ الأصول بدمشق، واشتهر بمعرفته الجُغرافيَّة القيِّمة[٥].

وقدِم مصر والشام عُلماء من اليمن منهم تاج الدِّين عبد الباقي اليمنيّ المخزوميّ(ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) والذي تردد بين حلب ودمشق والقاهرة[٦]، وصنَّف فيها مؤلَّفات عدَّة في الجغرافية التاريخيَّة أشهرها" بهجة الزمن في تاريخ اليمن" الذي احتوى في طيَّاته معلومات جُغرافيَّة قيِّمة[٧].

لقد بذل هؤلاء العُلماء جهوداً عظيمة لإعادة جمع أكبر قدر ممكن من العلوم خوفاً من نسيان العلم أو ضياعه، فظهرت مئات من المؤلَّفات في كلِّ العلومِ والفنون بشكل عام، وفي مجال الجُغرافية بشكلٍ خاص، وتمثَّل جزء من هذه الجهود في كتابة الموسوعات الجغرافية، فاستُدرك بها وبغيرها ما فُقد من العلم[٨].

وقد استمر توافد العلماء إلى مصر والشام طوال العصر المملوكيّ وأصبح الترحيب بهم صِفة متّبعة، وفتحت مصر والشام للعلماء آفاقاً جديدة للظهور مادامت قدراتهم العلميّة تؤهلهم لذلك، فأسهم هؤلاء

---

[١] الكتبي(محمد بن شاكر): فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٣م، ج٣، ص١٠٣.

[٢] ابن قنفذ القسطنطيني: الوفيات، ص٣٤٩؛ ابن شاهين(عبد الباسط بن خليل): نيل الأمل في ذيل الدول، تح: عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج١/ ق١، ص٩٥، ٩٦.

[٣] ابن حيَّان الغرناطي(محمد بن يوسف): مجاني العصر في شعراء العصر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

[٤] سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص١٨.

[٥] ابن حَجَر العسقلاني(أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م، ج٤، ص١٤.

[٦] الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص٢٤٦.

[٧] اليماني(عبد الباقي بن عبد المجيد): بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تح: عبد الله الحبشي وآخرون، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط١، ١٩٨٨م.

[٨] العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٣٩.

العلماء في إنعاش الروح الفكريَّة، وساعدوا مصر والشام كي تتبوَّأاه مكان الصدارة بين بلدان العالم الإسلامي آنذاك[١].

وفي هذا الصدد قال العلامة عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي: « واختصَّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة، ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أُمّ العالم، وإيوان الإسلام، و ينبوع العلم والصنائع»[٢].

د- زوال الخلافة العباسيَّة في بغداد وإحياؤها في القاهرة:

قَتَل المغول الخليفة العباسيّ المستعصم بالله في بغداد، وأزالوا الخلافة العباسيَّة التي كانت رمزاً لتآلف المسلمين وتآزرهم، وعَلَماً روحيَّاً يستظلُّون به، فلما زالت دولتها كبرت المسألة في نفوس المسلمين، وأخذوا يتطلَّعون إلى خلافة جديدة تُعيد السيرة في جميع القلوبِ وتُوحّد كلمتهم، فلم يجدوا دولة أقوى من مصر لذلك تطلّعت نفوس المسلمين إليها[٣]، وعملوا إلى إحياء الخلافة العباسيّة في القاهرة، وبالفعل تحقَّق ذلك على يد الظاهر بيبرس.

وكان لتجديد الخلافة العباسيّة بمصر دور كبير في نشاط الحركة العلمية[٤]، و لا أدلَّ على ذلك الدور من قول السيوطي: « واعلم أنَّ مصر من حين دار الخلافة عظمَ أمرها، وكثُرت شعائر الإسلام فيها، وعَلَت فيها السُّنة، فصارت مصر محلّ سكن العلماء ومحطّ الرجال الفُضلاء»[٥].

٢- العوامل الداخليَّة:

أ- غيرة سلاطين وأُمراء المماليك وتعظيمهم للعلم والعُلماء:

أبدى سلاطين المماليك غيرة دينيَّة بارزة، وكان المماليك البحريَّة مُخلصين إلى حدٍّ ما للأرض التي جاؤوا إليها ونشأوا فيها، لذلك دافعوا عنها وصدّوا كلَّ من اقترب منها[٦]، فحقّقوا للبلاد الأمن والاستقرار بعد تصدِّيهم للمغول وطردهم للصليبيين، وعلى أيديهم توحَّدت مصر والشام من جديد، وعلى الرغم من

[١] العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٤٤.

[٢] ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٢٤٥، ٢٤٦.

[٣] سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص١٩، ٢٠.

[٤] عاشور(سعيد عبد الفتاح): العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٣٤١.

[٥] السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٨٦.

[٦] سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٢٠.

تمركزهم في مصر، إلَّا أنّهم لم يهملوا الشام[١]، وكذلك بذلوا رعاية للبيت الحرام، ولغيره من أهل البلاد الإسلاميّة. وكان لابدَّ لهذه النزعة أن تُوقظ أمثالها في نفوس العلماء وتحفِّز أهل الدِّين على حياطته ورعايته وتدفعهم إلى تجديد شبابه، وبعث روحه، ونشر رايته، وأداتهم على ذلك التعليم والتأليف ومواصلة البحث والاطِّلاع[٢].

وجعلهم هذا النجاح السياسي والإداري قادرين على توجيه اهتمامهم إلى نواحي الحياة الفكرية والاعتناء بها، فحرص سلاطين المماليك على تشجيع العُلماء وتقريبهم من مجالسهم وساروا على نهج أسلافهم الأيوبيين في تشجيعهم للعلم والعلماء[٣]، وأقاموا لهم وزناً كبيراً وبجَّلوهم وقدَّموهم في مسائل كثيرة واستشاروهم مراراً في أمور الدولة، وسمعوا شكاياتهم إذا تقدموا إليهم بها، وأجابوا ملتمساتهم، بل توجّسوا من بعضهم خيفةً؛ وذلك لما كان لهؤلاء العلماء من سلطان على العامّة.

وكان على رأس العُلماء القضاة الَّذين كان يستشيرهم السلطان في أمورِ فرض ضريبة و أمور الحرب[٤] ومثال ذلك أنَّ السلطان المظفر سيف الدِّين قطز[٥] لمَّا عزم على الخروج لمواجهة المغول عقدَ مجلس جمع القضاة والعلماء وشيخ الإسلام عز الدِّين بن عبد السلام[٦] فحادثه في الخروج إلى لقاء المغول فأشار عليه بالخروج وقال: « اخرج وأنا أضمن لك على الله النصر، فقالَ قطز: إنَّ المال في خزانتي قليل وأريد الاقتراض من التجار، فقال العز بن عبد السلام: إذا أحضرت أنت وجميع العسكرِ كلّ ما في

---

١ الحجي(حياة ناصر): صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٩٢م، ص١٣٥.

٢ سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٢١.

٣ العطاري: حركة التأليف العلمي، ص١١.

٤ سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٢٢، ٢٣.

٥ قطز بن عبد الله الملك المظفر سيف الدِّين، كان استيلاؤه على السلطنة سنة(٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م)، فملك سنة واحدة، وكسر المغول، في موقعة عين جالوت، توفِّي سنة(٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م). أبو الفداء(إسماعيل بن علي): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم، محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٨٠؛ الذهبي(محمد بن أحمد): سير أعلام النبلاء، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ج٢٣، ص٢٠٠، ٢٠١؛ الشرقاوي(عبد الله بن حجازي): تحفة الناظرين فيمن وليَّ مصر من الملوك والسلاطين، تح: رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٩٨.

٦ الشيخ عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الشافعي، درَّس بمدارس عدَّة بالشام، ومصر، وصنَّف التصانيف المفيدة النافعة، وتولَّى الحكم بمصر والوجه القبلي مُدَّة مع الخطابة، توفِّي سنة(٦٦٠هـ/ ١٢٦١م). ابن حجَّة الحموي(أبو بكر بن علي): ثمرات الأوراق، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص ٢٩٨؛ الفاسي(محمد بن أحمد): ذيل التقييد في رواة السنن و الأسانيد، تح: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، ص١٢٨؛ الحسيني(أبو بكر بن هداية الله): طبقات الشافعيّة، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م، ص٢٢٢، ٢٢٣.

بيوتكم، وما على نسائكم من الحلي الحرام وضربته على السكة وأنفقته في الجيش فأنا أسال الله تعالى لكم في إظهار كنز من كنوز الأرض يكفيكم ويفضل عنكم، وأمَّا أنَّكم تأخذون أموال المسلمين وتخرجون للقاء العدو، عليكم المحرمات أو المناطق المحرمة وتطلبون من الله النصر، فهذا لا سبيل إليه فأخرجوا ما عندهم وكفى، وخرجوا وانتصروا»[١].

ومثال ذلك أيضاً ما فعله الظاهر بيبرس سنة(٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) حينما جاءت الأخبار بأنَّ المغول خرجوا إلى بلاد الشام، ووصلت أوائلهم إلى حلب، وعندها خرج السلطان من مصر على الجرائد[٢] ودخل الشام وعقد مجلساً برئاسة الشيخ محيي الدِّين النوويّ[٣] رأس عُلماء الشافعية وسأله في جمع المال لسدِّ نفقات الحرب، فأشار عليه النووي بجمعِ حليّ الجواري، وذهبهم خيراً من جمع أموال الرعية، فلمَّا سمع الظاهر بيبرس ذلك غضب منه ورسم بأنْ يخرجَ من الشام ولا يُقيم بها، فوقف العلماء وقالوا: إنَّ هذا من كبار عُلمائنا وصلحائنا وممَّن يُقتدى به، فرسم السلطان برجوعه إلى دمشق[٤].

ومن ذلك ما ذكره ابن حجر العسقلاني بشأن دخول نور الدِّين علي بن يعقوب البكري الشافعيّ(ت ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م) على الناصر محمد بن قلاوون، إذ أنَّ البكري بلغه أنَّ الأقباط استعاروا عدداً من قناديل جامع عمرو بن العاص، وعلَّقوها في مجمع كان معقوداً بالكنيسة، فثار البكري لهذا الحادث، وجمع طائفة من الناس ودهموا الكنيسة ومن فيها ونكَّلوا بهم، فبلغت الحادثة مسمع السلطان فأمر بإحضار البكري في مجلس قضاء، فلما دخل البكري تكلَّم وتلا آيات من القرآن الكريم، وجُملة من الأحاديث النبوية، وأغلظ في عباراته للسلطان قائلاً: أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطانٍ جائرٍ، فاشتدَّ غضب السلطان وقال له: أنا جائر؟، قال: نعم. أنت سلَّطت الأقباط على المسلمين، وقوّيت دينهم، فلم يتمالك السلطان نفسه وتناول سيفه وهمَّ بضربه لولا أنْ بادرَ أحَّد الأمراء، وأمسك يده، ثمَّ أمر السلطان

---

[١] السبكي(عبد الوهاب): معيد النعم ومبيد النقم، تح: محمد علي النجار وآخرون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م، ص٥١؛ ابن تغري بردي(يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك في مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج٧، ص٧٢.

[٢] جرائد: جمع جريدة، وهي الحملة من الفرسان الَّذين يتجرَّدون للغزو بدون أثقال. السامرائي(إبراهيم): المجموع اللفيف، دار عمار، عمان، ١٩٨٧م، ص٤٥.

[٣] محيي الدِّين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، تفقَّه على المذهب الشافعي واختصر فيه" كتاب المحرر في فروع الشافعية"، توفِّي سنة(٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م). ابن العماد الحنبلي(عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ج٥، ص٣٥٥؛ أحمد(سالم عبد الرزاق): فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامَّة في الموصل، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ط٢، ١٩٨٢م، ج٤، ص٢٠٢، ٢٠٣.

[٤] ابن إياس(محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، مكتبة دار الباز، مكة، ط١، ١٩٦١م، ١٩٦١م، ج١، ص٣٣٧.

بطرد البكري وقطع لسانه، فصرخ البكري وارتاع لصرخته الأمراء، وتوسّطوا له عند السلطانِ قائلين: إنَّ البكري عالم صالح، ولكنَّه ناشف الدماغ، فسكنَ غضب السلطان وأمر بإخراجه[١].

هذه الروايات تُبيِّن حرص سلاطين المماليك على مشورة العُلماء في كلِّ ما يُعرض لهم، وتشير إلى إذعان السلطان لمشورةِ العلماء برجوعه عن قراره بالإضافة إلى حرص العلماء على قول كلمة الحقّ والجهر بها ولو كان ذلك أمام السلطان، وهذا ما كان يثير خشية سلاطين المماليك من العلماء، ومثال ذلك ما نُقِلَ عن الظاهر بيبرس قوله عند وفاةِ الشيخ عز الدِّين بن عبد السلام : ما استقرَّ ملكي إلَّا الآن[٢]، وقول الناصر محمد بن قلاوون(ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) لجُلسائه: إنِّي لا أخافَ من أحَّد إلَّا من شمس الدِّين الحريريّ، وهو قاض قُضاة الحنفيَّة في عهده[٣].

وبجانبٍ آخر لم يبخل المماليك برعاية العلماء وتشجيعهم واحترامهم، وأقاموا لهم وزناً كبيراً، ولم تأتِ هذه المكانة الرفيعة إلَّا لأنَّ علماء ذلك العصر كانوا يتمتّعون بصفات إيجابيّة كتنوّع علومهم ومعارفهم، فكسبوا ثقة السلاطين والأمراء ومحبّتهم، فعمد هؤلاء إلى تصديرهم في المناصب المهمّة في الدولة[٤]. ومن مظاهر تعظيم واحترام سلاطين المماليك للعلماء ما رواه السيوطي عن الظاهر بيبرس أنَّ الأخير حضر مرَّة إلى دار العدل في قضيَّة بينه وبين أحَّد الأُمراء أمام القاضي ابن بنت الأعز[٥]، فقام الناس له تعظيماً إلَّا القاضي فقد أشار السلطان عليه بعدم القيام[٦]. وإنَّ الشيخ تقي الدِّين بن دقيق العيد[٧] حضر

---

[١] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص١٣٩، ١٤٠.

[٢] ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٣١٨.

[٣] العطاري: حركة التأليف العلمي، ص١٢.

[٤] عاشور: العصر المماليكي، ص٣٤١؛ العطاري: حركة التأليف العلمي، ص١٢.

[٥] عبد الوهاب بن خليفة بن بدر، تاج الدِّين أبو محمد بن بنت الأعز، قاضي القضاة، ولِّيَ نظر الدواوين والوزارة، توفِّي سنة(٦٦٥هـ/١٢٦٦م). اليونيني(موسى بن محمد): ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٩٥٥م، ج٢، ص٣٦٩-٣٧١؛ الصقاعي(فضل الله بن أبي الفخر): تالي وفيات الأعيان، تح: جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٤م، ص١٢٤، ١٢٥؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص٣١٨-٣٢٣.

[٦] السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٧٤.

[٧] أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، قاضيٌ من أكابر العلماء بالأصول، ولِّيَ قضاء الديار المصرية سنة(٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م)، فاستمرَّ بها إلى أن توفِّي بالقاهرة سنة(٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢م). التجيبي(القاسم بن يوسف): مستفاد الرحلة والاغتراب، تح: عبد الحفيظ منصور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٥م، ص١٦؛ الذهبي(محمد بن أحمد): المعين في طبقات المحدثين، وضع حواشيه: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٢٥؛ الصفدي(خليل بن أيبك): أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٨م، ج٤، ص٥٧٦- ٦٠٣؛ ابن الملقن(عمر بن علي): العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ص١٧٥- ١٧٧؛ ابن القاضي المكناسي(أحمد بن محمد): درة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، ط١، القاهرة، ١٩٧١م، ج٢، ص١٥.

حضر مرَّة عند السلطانِ حسام الدِّين لاجين[1]، فقام عليه السلطان وقبَّلَ يده، فلم يزد على قوله: « أرجوها لك بين يدي الله»[2].

كذلك عمل سلاطين المماليك على الاهتمام بالثقافة، وحضروا جلسات العلماء، ومن ذلك ما ذُكر عن ولع بعضهم بالعلم مثل الظاهر بيبرس الذي ولع بسماع التاريخ، وقال عنه ابن تغري بردي: « وكان يُقرّب أرباب الكمالات في كلِّ فنٍّ وعلمٍ، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً، ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب»[3]. وكان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون(ت ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) يُطارح الأُدباء، و يجلس بالميدان والقُرَّاء بين يديه يقرؤون القرآن الكريم، و قال عنه المقريزي: « حسن النادرة، يُطارح الأدباء بذهن رائق، وذكاء مفرط»[4]. وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون مُطاعاً مهيباً عارفاً بالأمور، يُعظِّم أهل العلم، ولا يُقرِّر في المناصب الشرعيّة إلَّا من يكون أهلاً لها ويتحرّى لذلك ويبحث عنه[5]، ويحضر مجالس العلم ويخلع على العلماء وعندما افتتحَ الخانقاه[6] التي بجوار القصر بسرياقوس حضره الصوفية والعلماء، فخلع عليهم خلعاً سنيَّة و أكرمهم وعملَ لهم وليمة عظيمة[7].

ولم ينسَ سلاطين المماليك ضمان الحياة الكريمة والدخل الذي يكفلَ لهؤلاء العلماء مستوى مرموقاً من العيش، إذ رتَّب الظاهر بيبرس في تربته مُدرِّسَين شافعي وآخر حنفي، ورتَّب لكلِّ مدرِّس مئة وخمسين درهماً في الشهر[8]، وجعل الملك المنصور قلاوون راتب المُدرِّس في مدرسته مئتي درهم[9].

---

[1] الملك المنصور حسام الدِّين لاجين بن عبد الله المنصورى، لُقِّبَ أبو الفتوح، ونُصِّبَ سلطاناً سنة(٦٩٥هـ/١٢٩٦م)، وبقيَ على تخت السلطنة حتَّى وفاته سنة(٦٩٨هـ/١٢٩٩م). المنصوري(بيبرس بن عبد الله): التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره عبد الحميد حمدان، الدار المصرية- اللبنانية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص١٥٣؛ الذهبي(محمد بن أحمد): الإشارة إلى وفيات الأعيان، تح: إبراهيم صالح، دار ابن الأثير، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٣٨٤؛ ابن دقماق(إبراهيم بن آيدمر): الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تح: محمد كمال الدين علي، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ج٢، ص١٢٥.

[2] السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١١٣.

[3] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨٢.

[4] المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢٤٧.

[5] الشوكاني(محمد بن علي): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، د. ت، ج٢، ص٢٣٨.

[6] لفظ فارسي معناه بيت، أُطلقت على الأماكن المُعدَّة للزهَّاد، وأتباع الطرق الصوفية. السامرائي: المجموع اللفيف، ص٥٢. ص٥٢.

[7] ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢٧٨.

[8] ابن شداد(محمد بن علي): تاريخ الملك الظاهر، اعتناء: أحمد حطيط، دار فرانز شتايز، فيسبادن ،١٩٨٣م ، ص٢٦٦. ص٢٦٦.

[9] المقريزي: السلوك، ج١، ص١٠٤٩.

وكان أُمراء المماليك أوفر حظاً من السلاطين من حيثُ اطِّلاعهم على العلم وتخصّصهم في ميادين العلوم المختلفة، فمثلاً كان الأمير ركن الدِّين بيبرس الدوادار المنصوري(ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) عالماً نحويَّاً ينظم الشعر وبرع إضافةً إلى ذلك بفنِّ الجُغرافية التاريخيَّة، فألَّف فيها كتاباً سمَّاه" زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة"[١]. وكان خليل بن كليكلدي العلائي[٢] ممَّن سمعوا الحديث، إذ بلغت مشيخته قريباً من سبعمائة شيخ واشتغل بالفقه والعربية، وصنَّف التصانيف في الجُغرافية، والفقه، و الأصول، والحديث[٣]، وغيرهم الكثير من الأُمراء.

وقد اتَّضح الأثر الأبرز لاهتمام سلاطين وأُمراء المماليك بالحياة الفكريَّة بتصدِّيهم لبناء العمائر الدينيَّة والعلميَّة، التي أُقيمت فيها الفعاليات الدينيَّة والعلميَّة، ودرَّس فيها العُلماء، وتخرَّج فيها العُلماء الأعيان، الَّذين كان لهم الدور الفعَّال في النهضة الفكريَّة، فأشاد المماليك المساجد، والمدارس، والربط، والخوانق، والزوايا، و البيمارستانات، والمكتبات، ووقفوا عليها الأوقاف لضمان استمراريتها[٤].

ب- شعور العلماء بواجبهم وتنافسهم في أدائه:

لمَّا زالت دولة العلم في بغداد، وبِيدَتْ كتبها ومؤلفاتها، وامتلك المغول هذه البلاد والتي عاشت زمناً طويلاً مناراً للإسلام واستشرى خطر الوثنيّة من ناحية والنصرانيّة من ناحية أخرى، شَعر العلماء بأنّهم مسؤولون عن تدوين العلم من جديد، فانطلقوا نحو تحقيق هذا الهدف، بواجب نشر الدِّين وتجديد العلم، وجمع شتات المعارف وتضمينها كتباً تكون عوضاً عمَّا أُبيدَ وصدى لما فُقد، ورأوا أنَّهم إذا لم يحثُّوا السير في ميدان التدوين، ولم يُثبتوا بالتصنيف ما تعيه قرائحهم أثموا بحقِّ الدِّين، فامتلأت قلوبهم حماسة وفاضت نفوسهم تحفُّزاً على القيام بالواجب الذي هيأته لهم الأقدار، فقاموا بذلك وأشاعوا حركة إحياء علميَّة جليلة وكان التنافس فيما بينهم ذا أثر إيجابي في هذه النهضة العلميَّة الشاملة في مناحي فنون العلوم، لا سيَّما في مجال الجُغرافية[٥].

---

[١] المنصوري(بيبرس بن عبد الله): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح: دونالد. س. ريتشاردز، الشركة المتحدة، بيروت، ط١، ط١، ١٩٩٨م، ص١.

[٢] صلاح الدِّين، خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي، مُفسِّر ومحدِّث وفقيه، ولد في دمشق وتعلم فيها، وتوفِّي في القدس سنة(٧٦١هـ/ ١٣٥٩م). ابن رافع السلامي(محمد): الوفيات، تح: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ج٢، ص٢٢٦- ٢٢٨؛ العُليمي(عبد الرحمن بن محمد): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المطبعة الحيدرية، النجف، ط١، ١٩٦٦م، ج٢، ص١٠٦، ١٠٧.

[٣] ابن حبيب الناصرية(الحسن بن عمر): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م، ج١، ص٢٤٥.

[٤] الحجي: صور من الحضارة العربية، ص١٣٥.

[٥] سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص١٧، ١٨، ٢٥، ٢٦.

فظهرت مئات من المؤلَّفات في علم الجُغرافية، ومُختلف العلوم والفنون الأخرى، وتَمثَّل جزء من هذه الجهود في كتابة الموسوعات التي كانت ميّزة من ميزات ذلك العصر، فحُفظ من خلالها الكثير من العلوم، إذْ ضمّت مواد جُغرافيَّة، وبيوغرافيَّة، وتاريخيَّة، واجتماعيَّة، واقتصاديَّة، وفكريَّة، ودينيَّة، فاستُدرك بها وبغيرها ما فُقد من العلم[١].

وعلى هذا فقد ازدان عصر المماليك في مصر وبلاد الشام بنخبةٍ من العُلماء في مختلف الميادين، ولا سيَّما في مجال التأليف الجغرافيّ[٢] والَّذين كانوا متداخلين مع الفئات الاجتماعيَّة الأخرى[٣] وهذا الأمر مكَّنهم من الكتابة في علم الجُغرافية، وشتَّى العلوم الأخرى[٤] بحيث يصعب وجود عصراً يشابهه. كما سعى هؤلاء العلماء جاهدين إلى إحراز تفوّق ونُضج في شتَّى ميادين الثقافة والفكر[٥]، فكان هذا النشاط عظيماً وايجابيَّاً في كلِّ من مصرَ والشام، التي احتوت نخبةً كبيرةً من العُلماء[٦].

ج- الاعتناء باللُغة العربيَّة:

كان اهتمام المماليك باللغة العربية عظيماً جداً على أنَّها لغة السياسة والإدارة والعلم، وساعد على ذلك وجود مؤسَّستين كبيرتين حافظتا على استمرار اللغة العربية وعاءً للثقافة والعلوم[٧]، **وهما:** مُؤسسة ديوان الإنشاء، ومؤسسة القضاء، فكان **ديوان الإنشاء** السجل الذي يمرَّ فيه كلِّ ما يصدر عن الدولة إلى داخل البلاد أو خارجها وكلّ ما يرد إليها، فضلاً عن أنَّ الأمور السلطانيَّة من مكاتبات وولايات تنشأ عنه وتبدأ منه[٨]، ولم يُسمح بالعمل في هذا الديوان إلَّا لمن تأكَّد تمكُّنَه للغة العربيَّة وعلومها ودقائقها وتفاصيلها.

ومن الجُغرافيين الَّذين تولُّوا العمل في ديوان الإنشاء ابن فضل الله العمري(ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) الذي صنَّف موسوعته الجغرافية الشهيرة" مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، ومحيي الدِّين عبد الله بن عبد الظاهر(ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)، الذي وضعَ أهمَّ كتب الجُغرافية في مجالِ فنِّ الخُطط، وسمّاه" الروضة

---

[١] العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٣٩.

[٢] شلبي(أحمد): موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٨٦م، ج٥، ص٢٧٤.

[٣] لابيدوس(إيرامارافين): مدن إسلامية في عهد المماليك، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٨٢.

[٤] العلبي(أكرم حسن): دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ص١٦٠.

[٥] شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٥، ص٢٧٤.

[٦] زيادة(نقولا): دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٦م، ص٢٠١.

[٧] سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٢٦، ٢٧.

[٨] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١، ص٧.

البهيَّة الزاهرة في خطط المعزيّة القاهرة"[١]. وبذلك يتّضح عروبة هذا الديوان، ودوره المُهمّ في صون اللغة العربية.

أمَّا **مؤسَّسة القضاء** فكان يتولَّاها، منذُ أيامِ الظاهر بيبرس، قضاة يُمثلون المذاهب الأربعة، فتولُّوا النظر في قضايا كثيرة، وعُدَّ القاضي في مدن الأقاليم نائباً لقاضي القضاة في القاهرة، وكانت جلسات المحاكم تُعقد في المساجد، وفي دور القضاة أحياناً، فكان لها بكلِّ أعمالها دور كبير في الحفاظ على اللغة العربية[٢].

ومن ناحية ثانية، يُلاحظ تأثُّر كبير لبعضِ المماليكِ باللغة العربية، فمنهم من تعلّمها، ومنهم من درسَ علوم الدِّين، وتعدَّى ذلك إلى ظهور من برع في تأليف الكتب بالعربيّة، فبيبرس المنصوري مثلاً أتقن العربيَّة إذ تولى منصبين مُهمِّين في الدولة هما: ديوان الإنشاء، ونائب سلطنة مصر، وألَّف بالعربية مؤلَّفات عدَّة، منها تاريخه الضخم المؤلف من خمسة وعشرين مُجلَّداً والمُسمَّى" زبدة الفكرة" ، و كتابه" التحفة الملوكيَّة في الدولة التركيَّة" وهما كتابان في الجُغرافية التاريخيَّة. وأمام هذا الإبداع باللغة العربية وصلَ بيبرس إلى مرتبة أُجيز له فيها بالتدريس والإفتاء[٣].

ويعكس شغف المماليك في تعلُّمِ العلوم الدينية، اهتمامهم باللغة العربية لارتباط العلمين بعضهما ببعضِ ارتباطاً وثيقاً، فدانيال بن منكلي بن صرفا التركماني(ت ٦٩٦هـ/١٢٩٧م) قرأ القراءات، وتعلَّم على العُلماء حتَّى أصبح من الفقهاء[٤]. والأمير علم الدِّين سنجر الدواداري الصالحي(ت ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م) حفظ القرآن الكريم وسمع الحديث النبويّ[٥].

د- إنشاء دور العلم:

---

[١] عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان، محيي الدِّين الجذامي المصري سمعَ من جماعة، وكان بارعاً في الكتابة والإنشاء له النظم والنثر، صنَّف تصانيف عدَّة أشهرها" الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، و" الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة"، توفِّي سنة(٦٩٢هـ /١٢٩٢م). ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص١٧٥-١٨٣؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٤، ص٥٧٩-٥٨١.

[٢] ابن تغري: بردي: النجوم الزاهرة، ج١، ص٧.

[٣] المنصوري: زبدة الفكرة، ص١؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٣٥٢.

[٤] الذهبي(محمد بن أحمد): معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تح: طيار آلتي قولاج، إستانبول، ط١، ١٩٩٥م، ١٩٩٥م، مج٢، ص٧١٣، ٧١٤؛ ابن الجزري(محمد بن محمد): غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ج١، ص٢٧٨؛ ابن رافع السلامي(محمد): تاريخ علماء بغداد، تعليق: عباس العزاوي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٥١-٥٤.

[٥] الذهبي(محمد بن أحمد): معجم شيوخ الذهبي، تح: روحية عبد الرحمن السيوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص٢١٩، ٢٢٠؛ الصفدي: أعيان العصر،ج٢، ص٤٦٠-٤٦٤.

يُعدُّ إنشاء دور التعليم، سبباً أساسياً لنشاط الحركة العلميَّة، والتقدُّم في مجال التأليف الجُغرافيّ، لِما تضمَّنته من مُدرسين وطلاب، ولِما يُقرَّر فيها من دروس، وهي البيئات الطبيعيَّة التي ينمو فيها العلم ويزدهر. وتتمثّل دور التعليم في العصر المملوكيّ، فيما أُنشِئ من مدارس، ومساجد للمذاهب الأربعة، وما شُيّد من خوانق وأربطة وزوايا، إضافةً إلى لمكاتب التي تُعنى بتعليم الصِبية مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن، وهذه بدورها تُمهِّد للالتحاق بالمدارس الجامعة[1] التي انتشرت في أنحاء مصر[2]، وكذلك في نيابة دمشق، والتي بلغَ عدد جوامعها أكثر من تسعمائة مسجد[3]، إضافةً إلى حلب التي انتشرت فيها الكثير من المدارس التي كانت بمنزلة مراكز علميّة لتخريج العلماء[4].

وبُنيَ في بيت المقدس عدداً كبيراً من المدارس شارك في بنائها فئات من السلاطين و الأُمراء وأهل الخير من التجَّار، فقد أُنشِئ في بيت المقدس خلال هذا العصر ما يُقارب الأربعين مدرسة[5]، وبُنيت في حماه سبع مدارس، وفي طرابلس عدد آخر من المدارس[6]. إضافةً إلى ذلك كان للعلماء مُشاركتهم في بناءِ صروح الحركة العلميَّة، كما أسهم التُجَّار في هذه الحركة، فبُنيت دور القرآن ودور الحديث[7]، وهذا ما سيتمُّ تناوله في فقرة المراكز العلميَّة.

هـ- رصد الأوقاف على المدارس والإحسان لأهلها:

كان للأوقاف في عصر المماليك أثر كبير في استمرار الحياة العلميَّة وانتعاشها وسيرها في الطريق الصحيح، والازدهار الجُغرافيّ وظهور المصنَّفات في هذا المجال، ولعلَّ السر الكامن وراء النهضة الفكريَّة يعود إليها، إذْ كانت المورد الأوَّل لكلِّ المؤسّسات العلميّة، فعرفت الأوقاف في عصر المماليك أنواع **ثلاثة** من الوقف، **النوع الأول:** يُعرف بالأحباس[8]، **والنوع الثاني:** بالأوقاف الحكميّة بمصر والقاهرة، ويترأسها قاضي القضاة الشافعي، ويُقال: لمن يلي هذا النوع ناظر الأوقاف، ويشتمل على الأوقاف المحبوسة على الحرمين، وعلى الصدقات والأسرى وأنواع القرب، وأمَّا **النوع الثالث:** فيُعرف بالأوقاف

---

[1] سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٢٧.

[2] ابن شاهين الظاهري(خليل): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتناء: بولس راوس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤م ، ص٢٩، ٣٦.

[3] البصروي(علي بن يوسف): تاريخ البصروي، تح: أكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٨م، ص١٧.

[4] ابن الشحنة(محمد): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تح: يوسف بن الياس سركيس الدمشقي، بيروت، ١٩٠٩م، ص١٦٤.

[5] عبد المهدي(عبد الجليل): الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصر الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٠م، ص٦٧.

[6] كرد علي(محمد): خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧١م، ج٦، ص١٢٥- ١٢٧.

[7] كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص٧٠-٧٣.

[8] القلقشندي(أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤م، ج١١، ص٢٤٨.

الأهليَّة، ولها ناظر خاص، وهو من أولاد الواقف، أو من ولاة السلطان، أو القاضي، ويشتمل هذا النوع على أراضٍ من أعمال مصر والشام وبلاد أُخرى مقرَّرة، وهي موقوفة لصالح الخوانق، والمدارس، والجوامع والترب[١]. وقد خُصِّص النوعان الأوَّل والثالث من الأوقاف لبناء المؤسسات العلميَّة والدينيَّة، ولذلك نالت هذه الأماكن حصَّة من الأوقاف.

ومن ناحية ثانية كان للأوقاف عامَّة أثرها الاقتصادي المُؤثِّر في شتَّى مجالات حياة الدولة، فمن عائداتها أُنفق على المؤسسات التعليميَّة ودور الثقافة والمشافي و المصحَّات[٢]، فريع الأوقاف هو المصدرُ الماليّ الأساسيّ لغالبيَّة المؤسَّساتِ العلميّة في العصر المملوكي[٣].

ويُفهم من هذا سبب الحركة العلميَّة الواسعة التي شهدها هذا العصر، وسبب الإقبال على إنشاء المدارسِ واستمرار التعليم فيه، فقد كان للأوقاف الفضل الأوَّل في احتفاظ المساجد الكبرى بشهرتها العلميَّة من ناحية، واستمرارها مراكز للحركة العلميَّة من ناحية ثانية[٤].

فمن الملاحظ أنَّه لم يُشيَّد مسجداً إلَّا و قُرِّر له وقفه الذي سيُصرف منه عليه، وعلى القائمين ببنائه والعاملين به من الأئمة والخدم والمؤذّنين والمدُرّسين ونحو ذلك[٥]. ومن أمثلة ما أُوقِفَ على المساجد ما قام به الأمير عز الدِّين أيدمر الحليّ[٦] عندما جدَّد بناء الجامع الأزهر سنة(٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) إذْ رتَّب به الدروس، ووقف عليه الأوقاف الدائرة.

وكذلك عندما جدّده الأمير سعد الدِّين بشير المجدار سنة(٧٦١هـ /١٣٦٠م) فإنّه أنشأ فوقه مكتباً للسبيل، ورتَّب للفُقراء طعاماً يُطبخ كلَّ يومٍ. وقد زاد الملك الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون سنة(٧٦٠هـ/١٣٥٩م) في مُخصَّصات هذا الجامع وفي أوقافه، ويُقال: إنَّه أوقف عليه نحو ٥٦٠ فداناً. وأوقفَ السلطان الناصر محمد بن قلاوون على مدرسته الناصريَّة التي أنشأها سنة(٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) قيساريَّة

---

[١] المقريزي(أحمد بن علي): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ج٢، ص٢٩٥، ٢٩٦.

[2] Degiulhem. R; Le Waqf Dans Lespace Islamique, Damas, 1995, p 29.

[٣] محمد أمين(محمد): الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة القاهرة، ط١، ١٩٨٠م، ص٢٤٢.

[٤] محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص٢٦٠.

[٥] النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٣٢٢.

[٦] أيدمر الحلي، الأمير عز الدِّين، الصالحي النجمي، أكبر أمراء مصر وأعظمهم محلَّة عند الظاهرِ بيبرس، فكان ينوب عنه في غيبته رغم قلّة خبرته، توفِّي سنة(٦٧٢هـ/١٢٧٣م). الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١٦؛ ابن تغري بردي(يوسف): الدليل الشافي على المنهل الصافي، تح: فهيم محمد شلتوت، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م، ج٣، ص١٧٠، ١٧١.

بخط الشرابيين بالقاهرة، وأوقفَ عليها حوانيت ودار الطعم[١] خارج دمشق[٢]. وينطبق حال الأوقاف في المساجد والمدارس على مدارس الصوفيَّة من الخوانق، والزوايا، والربط، فكانَ أثر الأوقاف فيها كبيراً[٣].

و- إنشاء دور الكتب:

ازدهرت المكتبات في العصر المملوكيّ نتيجة لبذل السلاطين والأُمراء وحُبّ العلم والمعرفة، وسعي طلبة العلم لاقتناء الكتب بنسخها أو استعارتها من المكتبات أو بشرائها. وبرز في العصر المملوكيّ توجُّه نحو الاعتناء بالكتب فنّياً من حيثُ النسخ والتجليد، والتذهيب والحفظ، وانتشرت الأسواق المُتخصِّصة بتجارتها. وممَّا ساعد على توافر الكتب وجود معامل لصناعة الورق في مصر، والذي عُرِفَ منه القطع المنصوري، وهو الأكبر قطعاً غير مصقولِ الوجه، وقطع العادة ذي الوجهين المصقولين ويُعرف بالورق المصلوح[٤]، وعُرِفَ عندهم ورق الكاغد ذو اللون الأسمر وغير المُسطَّرِ[٥]، وقد أُطلق على من عملَ بهذه المهنة اسم الورَّاقين أو القرطاسين، ولُقِّبَ بعضهم بالكراريسي نسبةً إلى الكراريس، وعُرِفَ بعضهم باسم المصحفي، وهم الَّذين اشتهروا بكتابة المصاحف[٦].

وقد ذاعت شهرة الكثير ممَّن عملَ في هذا المجال، فاشتهر الجُغرافي محمد بن إبراهيم بن يحيى الوراق(ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م) بعمله بصناعة الورق، و كان من كبار الأدباء الَّذين كانت لهم معرفة بالكتب وقيمتها[٧]، وعملَ الحسن بن عمر بن حبيب الناصرية(ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) بنسخ الكتب[٨]، واشتهرَ شهاب الدِّين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب النويريّ(ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) بنسخ الكتب وكتابة الكراريس[٩].

---

١ خارج باب توما وباب السلامة بمنطقة العقيبة. النعيمي(عبد القادر): الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٠م، ج١، ص٨٧، ٤٠٤، ج٢، ص١٨١؛ ابن كنان(محمد بن عيسى): حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تح: عباس صباغ، دار النفائس، ط١، بيروت، ١٩٩١م، ص١٤٧.

٢ سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٦٤، ٦٥.

٣ ابن دقماق(إبراهيم بن محمد): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت، د. ت، ق١، ص١٠٢.

٤ كحالة(عمر رضا): العلوم العملية في العصور الإسلامية، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٧٢م، ق١، ص٢٨٥.

٥ الحسين(خليل): تاريخ المماليك، منشورات جامعة البعث، حمص، ٢٠١٦م، ص٢٦٢.

٦ كحالة: العلوم العملية، ق١، ص٢٧٦.

٧ الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٢٠١-٢٠٨؛ الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٢٩٧.

٨ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص١٨٦، ١٨٧.

٩ الأدفوي(جعفر بن ثعلب): الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تح: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط١، ١٩٦٦م، ص٩٦،٩٧؛ فنديك(إدوارد): اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، مطبعة الهلال، القاهرة،

وفي هذا العصر تعدَّدت أنواع **المكتبات**، فوُجدت المكتبات المُلحقة بالمساجد، والمكتبات المُلحقة بالمدارس، والمكتبات الشخصيَّة الخاصَّة، واشتملت هذه المكتبات على عددٍ كبير من الكُتب في شتَّى أنواع العلوم والمعارف، ووضعت تحت تصرُّف طلبة العلم وقفاً يطَّلعون على ما فيها وينهلون منها[١]، فوجدَ في قلعة الجبل خزانة كتب ضمَّت كتباً في الجُغرافية، والتاريخ وعامَّة العلوم، لكنَّها احترقت سنة(٦٩١هـ/١٢٩٢م) فضاعت كتبها[٢].

واقترنت المكتبة بالمدرسة في عصر المماليك، لذلك كان من النادر وجود مدرسة ليس فيها مكتبة، فقد اشتملت المدرسة المنكوتمرية المُنشأة سنة(٦٩٨هـ/١٢٩٩م) على خزانةٍ كبيرة شملت أصناف شتَّى من العلوم، وخاصَّة الجغرافية منها[٣]، واشتملت مكتبة المدرسة الظاهريَّة التي أنشأها الظاهر بيبرس على خزانة كتب شملت مجموعة ضخمة من المراجع الجغرافية[٤].

ووُجِدَ في مكتبة المدرسة والقبَّة المنصوريَّة كتب الجغرافية، و الختمات الشريفة، وكتب التفسير، و الحديث، والفقه، واللغة، والطب، والأدبيّات، ودواوين الشعر[٥]. وكذلك المكتبة الناصريَّة التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون سنة(٧٠٣هـ/١٣٠٣م) والتي أنشأ بها خزانة للكتب النفيسة ولا سيَّما المؤلَّفات الجغرافيّة[٦].

ووُجِدتْ بالمدرسة الحجازيَّة المُنشأة سنة(٧٦١هـ/ ١٣٦٠م) خزانة كبيرة للكُتب الجغرافية[٧]، واحتوت المدرسة السابقيَّة التي أنشأها الأمير سابق الدِّين مثقال الأشرفيّ(ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) على خزانة كتب لجميعِ العلومِ وخاصَّة الجُغرافية [٨]. وفي الشام كانت المدرسة البادرائيَّة داخل باب الفراديس والتي أنشأها

١٨٩٦م، ص٧٤؛ سركيس الدمشقي(يوسف إليان): معجم سركيس، دار إحياء الكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٣١م، ص١٨٨٤.

[١] سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٦٧.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٧٠؛ رمضان(عبد العظيم): تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٢١١.

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٩٨.

[٤] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٧٩؛ علي (عبد اللطيف إبراهيم): المكتبة المملوكية، دار الشعب، القاهرة ، ١٩٦٢م، ص١٦.

[٥] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٨٢.

[٦] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٨٦؛ عاشور(سعيد عبد الفتاح): العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦م، ص٣٤٦.

[٧] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٨٧.

[٨] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٥١٥.

نجم الدِّين البادرائيّ سنة(٦٥٤هـ /١٢٥٦م)، وأوقف عليها أوقافاً حسنة وجعلَ بها خزانة كتب ضمَّت كثيراً من المؤلَّفات الجغرافيّة[١].

وقد سارت أمور **المكتبات** وفقَ نظام مُحدَّد تبعاً لشروط الواقف، فكانت خزانة الكتب تُقسَّم إلى رفوفٍ مُقطّعة بحواجز، وعلى كلِّ حاجز باب مُقفل بمفصلات وقفل و فيها إطارات كبيرة وصغيرة مصنوعة من الخشب، واحتوت كلَّ خزانة مجموعة من الكتب لُصِقَ عليها ورقة مُترجمة مُلصقة على كلِّ بابٍ منها. وكانت المصاحف الكبيرة توضع في خزانة خاصَّة جانب المحراب في المدرسة، وأُثبتت الكتب في سجلٍّ على هيئة كتاب يتضمَّن قوائم الكتب مُرتَّبة حسب الموضوعات أو أسماء المؤلفين[٢].

وتتمُّ عملية تغذية **المكتبات** بالكتب إمَّا عن طريق الشراء أو الهدايا أو الهبات أو النسخ[٣]، ويُشرف على المكتبة موظَّف خاص يُسمَّى" خازن الكتب" [٤]، وقد حدَّد السبكي عمل هذا الخازن بقوله: « وحقَّ عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجِهَا للحبك، والظنّة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يُقدَّم في الإعارة الفقراء الَّذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء، وكثيراً ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلَّا برهن يحرز قيمته فليس للخازن أن يُعير إلَّا برهن» [٥]. وفي حال سُمح بإخراج الكتاب فكثيراً ما كان يشترط الواقف ألَّا يتمَّ ذلك إلَّا برهن، والأفضليَّة في الإعارة كانت للمُحتاجين إليها، والعارفين لقيمتها[٦].

كذلك زُوِّدت **الجوامع** بالمكتبات، فقد زوّد الأمير بيبرس الجاشنكير سنة(٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) جامع الحاكم بأمر الله بخزانة كبيرة للكتب من ضمنها كُتب في مجال الجُغرافية[٧]. و أُلحِقت بالجامع الخطيريّ الذي أنشأه عز الدِّين أيدمر الخطيريّ(ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) خزانة كتب شملت على مؤلَّفات جغرافية قيّمة[٨]. والأمر نفسه في جوامع بلاد الشام التي احتوت كثيراً من الكتب النفيسة.

---

[١] النعيمي: الدارس، ج١، ص١٥٤؛ ابن كنان(محمد بن عيسى): المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تح: حكمت إسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،١٩٩٢م، ج١، ص٣٣٥.

[٢] رمضان: تاريخ المدارس، ص ٢٠٣.

[٣] علي: المكتبة المملوكية، ص٤٩.

[٤] عاشور(سعيد عبد الفتاح): المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١٤٦؛ حمادة(محمد ماهر): المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٦، ١٩٩٤م، ص١٥٠.

[٥] السبكي: معيد النعم، ص٨٧، ٨٨.

[٦] ابن جماعة(محمد بن إبراهيم): تذكرة السامع والمتكلم، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٩٥٣م، ص١٦٧.

[٧] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٢٤.

[٨] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٣١٠.

إضافةً إلى ذلك كان هنالك المكتبات **الخاصَّة** والتي اقتناها العلماء والأمراء والتي ساهمت بشكلٍ فعّال في الحركة الفكريَّة، والازدهار الجُغرافيّ، ومن تلك المكتبات مكتبة الطبيب المشهور ابن النفيس(ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) التي أوقفها فيما بعد على البيمارستان المنصوري[١]. ومكتبة الفقيه النحويّ يحيى بن عبد الوهاب الدمنهوريّ(ت ٧٢١هـ/١٣٢١م) التي أوقفها عند مرضهِ على جامع الظاهر بيبرس[٢]. ومكتبة شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل العسقلانيّ(ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) الذي خلَّف ثماني عشرة خزانة كتب[٣].

واشتهر الملك المؤيد عماد الدِّين إسماعيل بن أيوب صاحب حماه(ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) بحُبّه للعلم، فاقتنى كثيراً من الكتب النفيسة وخاصَّة الجغرافيّة منها، والتي فُرِّقت بعد مرضه[٤]. كذلك اشتهر الأمير أرغون الدوادار(ت ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) بحُبّه للعلم وجمع الكتب[٥]. وذاعت شهرة إبراهيم بن عبد الرحيم بن بن جماعة(ت ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) الذي اقتنى من الكتب النفيسة بخطوطِ مُصنِّفيها مالم يتهيأ لغيره[٦].

وبالنسبة **لأسواقِ الكتب**، فقد أُنشِئ سوقاً للكتب في القاهرة بعد سنة(٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) فيما بين سوق الصاغة والمدرسة الصالحية[٧]، وفي دمشقَ أُنشِئ سوقاً للكتب بقرب باب البريد، وسُمِّي بسوق الكتبيين، إضافةً إلى السوق الموجود بمنطقة الكلَّاسة قرب الجامع الأمويّ[٨].

ثانياً- المراكز العلميَّة في مصر وبلاد الشام:

انتشرت مراكز الحركة العلميَّة في بلاد الشام ومصر خلال العصر المملوكيّ انتشاراً واسعاً، وكان لكُثرة هذه المراكز دوراً كبيراً في نشاط الحركة العلمية في هذا العصر، ولعلَّ بعض هذه المراكز كان موجوداً قبل العصر المملوكيّ، خاصَّة المساجد، ولكنَّ المماليك اهتمُّوا بها، وألحقوا بها المكتبات، وخصَّصوا أجزاءً منها للعلم والتدريس.

وفيما عدا ذلك فقد اشتهرَ العصر المملوكي بكثرة بناء دور التعليم، فقد أُنشئت المدارس وخُصِّصت لتدريس المذاهب الأربعة. كما اهتمَّ المماليك بتشييد الأربطة، والخوانق، والزوايا، والمدارس الطبيَّة، وغيرها

---

١ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص٣٠٦.

٢ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٥، ص ١٩٧.

٣ الصفدي: أعيان العصر، ج ٢، ص ٥٠٣.

٤ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٤٤٢- ٤٤٤.

٥ الصفدي: أعيان العصر، ج ١، ص٤٥٢، ٤٥٣.

٦ ابن قاضي شهبة(أبو بكر بن أحمد): طبقات الشافعية، اعتناء: الحافظ عبد العليم خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط١، ١٩٧٨م، مج٢، ص٢٩١؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨، ص٥٣٤.

٧ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٨٥.

٨ الحسين: تاريخ المماليك، ص٢٦٧؛ كحالة: العلوم العملية، ق١، ص٢٨٠.

من المنشآت التي نمت وازدهرت وأسهمت في تخريج كثيرٍ من العُلماء خلال هذا العصر؛ ولكُثْرة تلك المراكز العلميَّة لا يتّسعَ المقام هنا لدراستها جميعاً، لذلك سيتمُّ دراسة أهمّها. وكان في مُقدّمة دور العلم ومراكزه ما يلي:

١- الجوامع والمساجد:

المَسجِد، بفتح الميم، يُعرَّف في اللغة أنَّه مكان السجود، والمسجد شرعاً: هو كلُّ موضع من الأرض لقوله ﷺ: « جعلت لي الأرض مسجداً»[١]. ولمَّا كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربّه، فقد اشتُقَّ اسم المكان منه، فقيلَ: مسجد، ولم يقولوا مركع. و خُصِّصَ المسجد للصلوات الخمس، وصلاة الأعياد ونحوها[٢]، و وُجِدَ في بلاد الشام، ومصر عدداً كبيراً من المساجد والجوامع التي كانت بمنزلةِ دورٍ دورٍ للعلم، ولعلَّ من أشهرِهَا:

أ- جوامع مصر و مساجدها:

1ً- جامع عمرو بن العاص:

أوَّلُ مسجدٌ أُسِّسَ في إفريقية، أنشأه عمرو بن العاص وسط مدينة الفسطاط، و أُطلق عليه اسم الجامع العتيق[٣]، ويُعدُّ أقدم المعاهد العلميَّة في مصر، وخُرِّب عند حريقِ الفسطاط سنة(٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) في أواخر أيَّام الدولة الفاطمية، فلما آل الحُكم إلى صلاح الدِّين الأيوبيّ قام بإصلاح المسجد وتجديده سنة(٥٦٨هـ/١١٧٢م)، ثمَّ توالت عليه يد الإصلاح والتعمير والتجديد طوال العصر المملوكي، فعُني به السلطان الظاهر بيبرس وجدّده سنة(٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)[٤]، ثمَّ تأثر هذا المسجد بالزلزال الذي وقع في مصر سنة(٧٠٢هـ/١٣٠٢م) وتهدمت بعض جدرانِهِ وسقفه فأصلحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون[٥].

---

١ ابن حجر العسقلانيّ (أحمد بن علي): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تعليق: عبد السلام بن علوش، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٤م، ج ١، ص٧٥٨، ٧٥٩.

٢ الزركشي(بدر الدِّين محمد بن بهاء): إعلام الساجد بأحكام المساجد، تقديم: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٣، ١٤.

٣ ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص٥٩-٦٢؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص١٤٤.

٤ ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص٧٠.

٥ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص١٦١.

وظلَّ موضع عناية سلاطين المماليك حتَّى أصبح أهمُّ المراكز العلمية التي يرتادها المُدرّسون والطلبة[١]. فقال فيه ابن سعيد المغربي الذي زار مصر: « واستحسنت ما أبصرته فيه من خلق المتصدرين، لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدِّة أماكن منه»[٢].

وذكر المقريزي أنّه كان بجامع عمرو بن العاص قبل الوباء الكائن سنة(٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م) بضعٌ وأربعون حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه، و تمثَّل النشاط العلمي بجامع عمرو بعددٍ كبيرٍ من الزوايا أهمها الزاوية الخشابيَّة التي عُرفت بزاوية الإمام الشافعي لأنّه درَّس بها، والزاوية المُجدِّيَّة بصدرِ الجامع بجوارِ المحراب الكبير، وكان التدريس بها يُعدُّ من المناصب الجليلة، والزاوية الصاحبيَّة التاجيَّة أمام محراب الخشب، إلى جانب خمسِ زوايا أُخرى هي: الزاوية المعينيَّة، والعلائيَّة والكماليَّة، والصاحبيَّة الزينيَّة، والتاجيَّة[٣].

2ً- جامع أحمد بن طولون:

أحَّدُ أهمُّ المساجد الجامعة، أقامه أحمد بن طولون، وانتهى من بنائه سنة(٢٦٥هـ/٨٧٩م)[٤]، بدأت فيه حركة علمية كبيرة لكنَّها خفَّت بعد بناء الجامع الأزهر في العصر الفاطميّ، وتعرَّض للتخريب. وتمَّ إصلاحه في العصر المملوكي من قِبل السلطان المنصور حسام الدين لاجين سنة(٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م)، وأزالَ ما فيه من خرابٍ، وقام بتبليطه، ورتَّب فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودروساً لتفسير القرآن والحديث، والطب، والجُغرافية، وجعلَ لهذه الدروس مُدرِّساً لكلِّ فئة، ومعيدين، وطلبة، ووفَّر لهم مُرتَّبات سخيَّة.

ثمَّ قام الأمير يلبغا العامري الخاصكيّ[٥] بإقامة درس بالجامع سنة(٧٦٧هـ /١٣٦٥م) فيه سبعة مدرسين مدرسين للحنفية، وقرَّر لكلِّ فقيه من الطلبة أربعين درهماً في الشهر حتَّى صار هذا الجامع من أهمِّ المراكز العلميَّة في العصر المملوكي[٦].

3ً- الجامع الأزهر:

---

١ ماهر(سعاد): مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٩م، ج١، ص٧٢.

٢ ابن سعيد المغربي(علي بن موسى): الجغرافية، تح: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٠م ، ص١٢٩.

٣ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص١٦٩، ١٧٠.

٤ ابن عبد الظاهر(عبد الله): الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزيّة القاهرة، تح: أيمن فؤاد السيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص٧٦؛ سيدة(إسماعيل الكاشف): أحمد بن طولون، المؤسسة المصرية للتأليف، القاهرة، د. ت، ص١٣٣.

٥ يلبغا الخاصكي العامري، من مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حاجب حجَّاب الديار المصرية، توفِّي سنة(٦٧٦هـ/١٣٧٥م). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٣٤.

٦ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٠١، ٢٠٢.

بناه جوهر الصقلي سنة(٣٦١هـ/٩٧١م) في مدينة القاهرة، ولم يَمضِ عليه ثلاث سنوات حتَّى أُقِيمَ فيه أوَّل درس علميّ في سنة(٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)[١]، ولم ينقطع ذكر الله تعالى عن الأزهر طرفة في ليلٍ ولا نهار، وفيه أروقة لأصناف خلق يشتغلون بالعلوم وتلاوة القرآن[٢]. وفي عهد صلاح الدين الأيوبيّ توقَّفت فيه صلاة الجمعة ولم يَعدْ له أيّ دورٍ علميّ[٣]، وبقي كذلك إلى سنة(٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، إذ سعى الأمير عز الدِّين أيدمر الحليّ نائب السلطنة في إعادة صلاة الجمعة إلى المسجد، وأقنع السُلطان الظاهر بيبرس في تجديده وتجميله واستعادَ له من أوقافه، ورتَّب فيه جماعة من الفُقهاء لقراءة الفقه على المذهب الشافعيّ ومُدرِّساً للحديث[٤].

وفي سنة(٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) جُدِّد الجامع بعدما تعرَّضت مصر لزلزالٍ، وقام الأمير علاء الدين طيبرس الوزيريّ ببناء مدرسة عُرِفَت بالمدرسة الطيبرسيّة[٥]، وألحقها بالأزهر سنة(٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، وقرَّر بها دروساً للفقهاء الشافعية[٦]. كما أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا مدرسته المعروفة بالأقبغاويّة[٧] سنة(٧٤١هـ/١٣٤٠م) وألحقها بالجامع الأزهر، ورتَّب بها دروساً للفقهاء الشافعيّة والحنفيَّة، وعيَّن بها إماماً ومؤذِّناً، فعاد للجامع الأزهر نشاطه العلميّ، وبدأ يتبوَّأ مكانةً رفيعةً في العالم الإسلاميّ ويجتذب إليه كبار العُلماء للتدريس به حتَّى غدا من أهمِّ المراكز العلميّة في العصر المملوكيّ[٨].

وعبَّر المقريزي عن النشاط العلميّ في الأزهر بقوله: « حتَّى سنة(٨١٨هـ/ ١٤١٥م) كان به عدداً كبيراً من الفُقراء المُنقطعين لطلبِ العلم بلغ عددهم سبعمائة وخمسين رجلاً، وهم ما بين عجم و زيالعة من أهل ريف مصر ومغاربة، ولكلِّ طائفة رواق يُعرف بهم، و كان عامراً بتلاوة القرآن ومجالس الوعظ وحلقات الذكر، و الداخل إليه يجد من الأنس بالله والارتياح وترويح للنفس مالا يجده غيره، وأرباب الأموال صاروا

---

[١] عنان(محمد عبد الله): تاريخ الجامع الأزهر، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م، ص٣٥.

[٢] ابن ظهيرة(برهان الدِّين إبراهيم بن علي): الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تح: مصطفى السقا، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٦٩م، ص١٩٠.

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢١٨.

[٤] النباهين(سالم): نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٢٤٢؛ عنان: عنان: تاريخ الجامع الأزهر، ص١١٣.

[٥] على باب الجامع الأزهر وفيها جزء من المكتبة الأزهرية على يمين الداخل من الباب الغربي للأزهر. الزكي(عبد الرحمن): موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٥٥.

[٦] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣،ص٢١٩.

[٧] بجوار الجامع الأزهر، واتِّجاه المدرسة الطيبرسية. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٩٠.

[٨] ماهر: مساجد مصر، ج١، ص٢٩.

يقصدون هذا الجامع بأنواعِ البرِّ من الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى، وكانت تُحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لاسيَّما في المواسم»[١].

4ً- جامع الحاكم:

أنشأه العزيز بالله الفاطمي، وأكملَ عمارته الحاكم بأمر الله سنة(٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م). كان لهذا الجامع نشاط علميّ في العصر المملوكيّ فبعدَ تهدُّمه بزلزالِ سنة(٧٠٢هـ/١٣٠٢م) جدَّده الأمير بيبرس الجاشكنير، ورتَّبَ به دروساً على المذاهب الأربعة، ودرساً في الحديث ودرساً في النحو وفي القراءات، وكان بجانبه مكتب لتعليمِ الأيتام وتحفيظهم القرآن الكريم[٢].

5ً- الجامع الخطيري:

أنشأه عز الدِّين أيدمر الخطيري(ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)، ورتَّبَ فيه مُدرِّسين وفقهاء للمذاهب الأربعة، وأُلحقت به خزانة كتب شملت مختلف العلوم لا سيَّما الجُغرافية[٣].

ب- جوامع بلاد الشام ومساجدها:

1ً- الجامع الأموي:

جامع بني أمية، أو جامع دمشق، أو الجامع المعمور، بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك(ت ٨٦هـ/ ٧٠٥م) في مدينة دمشق[٤]، وكان لهذا المسجد دوراً بارزاً في حركة التربية والتعليم في العصر المملوكيّ، ويتَّضح ذلك من حديث الرحَّالة ابن جبير(ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) عن الحلقات العلميَّة التي كانت تُعقد للتدريس فيه، وبخاصَّة من قبل المالكيَّة، الَّذين كان لهم زاوية للتدريس في الجانب الغربي منه[٥].

وهو ما يتَّضح كذلك من وصف الجُغرافي ابن فضل الله العمري له بأنَّه معمور بالناس نهاراً وطرفي الليل، وفيه ما ليس في غيره من الأئمّة والقُرَّاء، ومشايخ العلم، والإفتاء ووظائف الحديث وقُرَّاء الأسباع، والمُجاورين من ذوي الصلاح[٦].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٢١.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٢٢٢- ٢٢٥؛ سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٣٧.

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٣١٠.

[٤] النعيمي: الدارس، ج٢، ص٢٨٥، ٢٨٦.

[٥] ابن جبير(محمد بن أحمد): الرحلة، دار الهلال، بيروت، ١٩٨١م، ص٢١١، ٢١٢.

[٦] ابن فضل الله العمري(أحمد بن يحيى): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تح: دوروثيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص٩٥.

ويُمكن إدراك الدور العلمي والتعليمي للمسجد الأمويّ في عهد دولة المماليك البحريَّة من تعدُّد مظاهر نشاطاته في هذا المجال[١] التي كان من أهمِّها وجود مقصورات لتلاوة القرآن الكريم وللنسخ والدرس. ومن أبرز المقصورات التي وُجدت فيه مقصورة الصحابة، ومقصورة الحنفيّة، ومقصورة الشافعيّة[٢].
كذلك وُجدت المشاهد، وهي مساجد مُستقلّة يلتحق فيها طلبة العلم، ومن أبرزها مشهد أبو بكر الصديق رضي الله عنه[٣]، ومشهد عائشة رضي الله عنها[٤]، ومشهد عُثمان رضي الله عنه ومشهد الحسين بن علي عليه السلام[٥]. كذلك اُلحِقَ بالجامع زوايا، يقصدُها الطلبة لمُمارسة نشاطهم الدينيّ والعلميّ، فكان لهذا الجامع دوراً كبيراً في الحياة الدينيّة ونشاط الحركة العلميّة في بلاد الشام في العصر المملوكي، وذلك بما احتضنه من تدريس العلوم الدينية، والعلوم الأخرى كعلم الجُغرافية، وكذلك احتضانه لطلبة العلم بمختلفِ الأعمار لدراسة القُرآن الكريم والحديث والتفسير والفقه وغيرها من العلوم الشرعية. وكان الشيخ عز الدِّين بن عبد السلام من أبرز من درَّس فيه[٦].

2ً- اشتهرت جوامع عدَّة أُخرى في دمشق كانت مركزاً لإيواء الطلبة وتعليمهم ولعلَّ أبرزها جامع الكريميّ الذي بناه القاضي الدين عبد الكريم بن المعلم سنة(٧١٨هـ/ ١٣١٨م)، وجامع الملّاح الذي بناه الصاحب شمس الدِّين غبريال ناظر الدواوين سنة(٧٠١هـ/١٣٠١م)، وجامع يلبغا الذي أنشأه الأمير سيف الدِّين يلبغا، وكان قبل ذلك تلَّة يُشنق عليه المجرمون، وشرع في بنائه سنة(٧٤٧هـ/١٣٤٦م)، وجامع تنكز الذي بناه الأمير سيف الدِّين تنكز سنة(٧١٧هـ/ ١٣١٧م)، وتُعدُّ منارتَه أقدم منارة مملوكيَّة في دمشق، كما اشتهر جامع الأفرم الذي بناه الأمير جمال الدِّين الأفرم نائب السلطنة بدمشق سنة(٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م)[٧].

3ً- **جوامع حلب:**

---

[١] الحجاج(صالح حمد): التعليم في مدينة دمشق في العصر المملوكي الأول، جامعة مؤتة، ١٩٩٧م، ص١٢، ١٣.

[٢] ابن جبير: الرحلة، ص٢١٤.

[٣] الوشلي(عبد الله قاسم): المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٤٦.

[٤] النعيمي: الدارس، ج٢، ص٣٠٦.

[٥] ابن جبير: الرحلة، ص٢١٦- ٢٣٧.

[٦] العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٢٨، ٢٩.

[٧] العلموي(عبد الباسط بن موسى): مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس، تح: عارف أحمد عبد الغني، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ٢٠١٣م، ص٢٢٥-٢٣٢؛ العلبي(أكرم حسن): خطط دمشق، دار الطباع، دمشق، ط١، ١٩٨٩م، ص٣١٦.

بنى الخليفة سليمان بن عبد الملك الجامع الأمويّ بحلب[١]، وكان مركزاً مُهمَّاً من مراكز العلم منذُ قيامهِ، ورغم تعرُّضه للعديدِ من الهجمات من قبل الصليبيين، وهجوم المغول فيما بعد[٢]، إلَّا أنَّه عاد لمزاولة نشاطه الثقافيّ والعلميّ بمجيء المماليك، فدُرِّس فيه علوم الفقه على المذاهب الأربعة[٣] وحدَّث به المُحدِّثون وأرباب الفتاوى[٤].

كذلك كان لجامع الزكيّ الذي بناه الشيخ محمد بن أحمد بن خليفة الزكيّ شيخ الطائفة السعديَّة بحلب سنة(٧٠٠هـ/١٣٠٠م) دوراً كبيراً في نشاط الحركة الفكريَّة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي[٥].

4ً- جوامع حماة:

بنى الملك المؤيد إسماعيل بن علي، أبو الفداء جامع الحيَّات، وقد ضمَّنه كلَّ ما تبقَّى من تُراثِ الأيوبيين، وبنَى شقيقه السُلطان بدر الدِّين حسن(ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م) جامع السلطان الذي كان من أهمِّ مراكز العلم في العصر المملوكي[٦].

5ً- المسجد الأقصى:

دفعت المكانة الكبيرة التي يحتلُّها المسجد الأقصى عند المُسلمين، سلاطين المماليك للعناية به، فعملوا على تنشيط الحركة العلميَّة فيه وإبراز دوره[٧]، وقد ضمَّ المسجد عدداً كبيراً من المدارس كالمعظميَّة، والأمجديَّة، والجاوليَّة، والتنكزيَّة، والخاتونيَّة، والأرغونيَّة، والعثمانيَّة، والأشرفيَّة[٨]، إضافةً إلى بعض الزوايا، والخوانق، وغير ذلك من المراكز العلمية[٩]، كما أُضيفَ إلى المسجد الأقصى مصاطب لجلوس الطلبة للاستماع إلى الدروس، ومنها مصطبة قُبَّة موسى عليه السلام التي أُنشِئت سنة(٦٧٤هـ /١٢٧٥م) بين

---

١ الحمصي(فايز): حلب القديمة، منشورات المديرية العامَّة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٨٣م، ص٣٤.

٢ سبط ابن العجمي(أحمد بن إبراهيم): كنوز الذهب في تاريخ حلب، تح: شوقي شعث، فالح البكور، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٩٩٦م، ج١، ص٢٠٧، ٢٠٨.

٣ الحسين: تاريخ المماليك، ص٢٧٠.

٤ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٢٣٣.

٥ العرضي(أبو الوفا بن عمر): معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، تح: عيسى سليمان أبو سليم، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م، ص ١٢٦.

٦ الصابوني (أحمد بن إبراهيم): تاريخ حماه، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص٧٦.

٧ عبد المهدي: الحركة الفكرية، ص ١١١.

٨ سيتمُّ ذكرها بالتفصيل في فقرة المدارس.

٩ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٤-٤٠.

باب السلسلة، والزاوية الجنوبيَّة الغربيَّة من الحرم[١]، وقد دُرِّست فيها علوم الجُغرافية، واللغة العربيَّة وعلم وعلم المنطق، والعلوم الرياضيَّة، والتاريخ[٢].

6ً- جوامع طرابلس وصفد:

بُنيت فيها جوامع كثيرة كان لها دوراً في نشاط الحركة الفكريَّة والازدهار الجُغرافيّ خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، وبلغ عددها اثنى عشر جامعاً تُقام فيها صلاة الجمعة[٣]. وفي صفد شيَّد الظاهر ببيبرس بيبرس سنة(٦٦٤هـ/١٢٦٥م) جامع قلعة صفد الذي كان مركزاً للنهضة العلميَّة[٤].

٢ – المدارس:

اهتمَّ سلاطين المماليك ببناءِ المدارس التي انتشرت بكثرة في كلٍّ من بلاد الشام ومصر[٥]، فكانت المدارس في ذلك العصر أشبه بالجامعات ومعاهد التعليم العالي[٦]، وغدت مراكز لتدريس النحو والفلسفة والفلسفة و العلوم الطبيعيَّة كعلم الجُغرافية، فضلاً عن العلوم الدينية[٧]، وكان سلاطين المماليك يُعيّنون لتلك المدارس مُدرِّسين وشيوخاً، ويوقفون عليها الأوقاف الكثيرة، ويرتِّبون الرواتب الشهرية للفقراء والعلماء[٨].

وقد عبَّر بعض من أهل ذلك الزمان عن دهشتهم من كثرتها في ذلك العصر من ذلك قول ابن بطوطة« لا يُحيط أحَّد بحصرها لكثرتها»[٩]. وقول القلقشندي: « إنَّ هؤلاء المماليك بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها» [١٠]. وتغنَّى الشاعر البوصيري(ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م) بالمدارس التي بناها السلطان

---

[١] العسلي(كامل جميل): معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م، ص٣٤- ٤٠.

[٢] عبد المهدي: الحركة الفكرية، ص٩٢.

[٣] سبانو(أحمد غسان): نظام الحكم والإدارة في بلاد الشام في العصر المملوكيّ(رسالة دكتوراه)، كلية الآداب- جامعة دمشق، ٢٠١٠م، ص٤٢٠.

[٤] العثماني(محمد بن عبد الرحمن): تاريخ صفد، تح: سهيل زكار، دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٩م، ص١٢٨.

[٥] الرافعي وعاشور(عبد الرحمن و سعيد): مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتَّى الغزو العثماني، دار النهضة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٣٩٣-٣٩٤.

[٦] الرافعي وعاشور: مصر في العصور الوسطى، ص٣٩٣-٣٩٤.

[٧] شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٥، ص١٢.

[٨] زيتون: تاريخ المماليك، ص١٧٥، ١٧٦.

[٩] ابن بطوطة(محمد بن عبد الله): الرحلة(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تح: عبد الهادي التازي، التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م، ص٧٠.

[١٠] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٦٧.

المنصور قلاوون سنة(٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، وعبَّر بشعره عن أهمِّية هذه المدارس، و دورها في تنشيط الحركة الفكريَّة وما نالته من الشُهرة وجمال بنائها[١]، بقوله:

أنشـــــــأت مدرســـــــــة ومارســــــــتاناً لتصــــــــحيح الأديــــــان والأبـــــــدانا[٢].

أ- مدارس مصر:

1ً- المدرسة المُعزيَّة:

أنشأها الملك المُعز أيبك سنة(٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وتولَّى عمارتها الصاحب شرف الدِّين الفائزيّ. تقع برحبةِ دار الملك المعروفة برحبة الخروب على النيل بمصر القديمة. وأُوقِفَ عليها الحمَّامين المتجاورَين، وهما: حمَّام السلطان وربع الطاوس[٣].

2ً- المدرسة الظاهريَّة:

أنشأها الظاهر بيبرس فابتدأ عمارتها سنة(٦٦٠هـ/١٢٦١م)، وانتهى من بنائها سنة(٦٦٢هـ /١٢٦٣م)[٤]. تقعُ هذه المدرسة بالقاهرة من جملة خط بين القصرين، وكان موضعها من القصر الكبير يُعرف بقاعةِ الخيم، وأُضِيفَ إليها باب الذهب أحَّد أبواب القصر الكبير. وتخصصت بتدريس الفقه الشافعيّ و الحنفيّ وعُيّن بها شيخ لتدريس الحديث وآخر للقراءات السبع، وجعلَ بها خزانة كتب فيها العديد من المؤلفات الجُغرافيَّة، وبُنيَ بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين.

وأُوقِفَ عليها ربع السلطان خارج باب زويلة[٥]. ولم تقتصر هذه المدرسة على أداء وظيفتها التعليميَّة، بل بل أُقيمت فيها الشعائر الدينية، واتُّخِذت مسجداً تُقام فيه الصلوات المفروضة، وبذلك أصبحت مكانَ درساً وعبادة[٦].

3ً- المدرسة المنصوريَّة:

---

[١] أبو علي(نبيل): البوصيري شاهد على العصر المملوكي، دار المقداد للطباعة، غزة، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٦٥.

[٢] البوصيري(محمد بن سعيد الصنهاجي): الديوان، تح: محمد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م، ص٦٠.

[٣] ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج١، ص٩٢، ٩٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٣٤.

[٤] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٣٤٤؛ فرغلي(إبراهيم): الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص٦٤.

[٥] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٧٦-٤٧٩؛ مبارك(علي باشا): الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الأميرية، بولاق – مصر، ط١، ١٨٨٧م، ج٦، ص٩.

[٦] عاشور: المجتمع المصري، ص١٤٥.

أنشأها الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة(٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م)، وتقع هذه المدرسة من داخل باب البيمارستان المنصوري بخط بين القصرين بالقاهرة[١]، ورتَّب بها دروساً أربعة لأصحاب المذاهب الأربعة، وعيّن لكلِّ مذهبٍ مُدرّساً وخصَّص له في كلِّ شهر مئتي درهم.

وعيَّن ثلاثة مُعيدين لكلِّ منهم خمس وسبعون درهماً[٢]، وقرَّر بها درساً للطبِّ ورتَّب بالقبَّة المجاورة لها[٣] درساً للحديث النبوي، ودرساً لتفسير القُرآن الكريم[٤].

4ً- المدرسة الناصريَّة:

بناها الملك الناصر محمد سنة(٦٩٨- ٧٠٣هـ/١٢٩٩-١٣٠٣م) بجوار القبَّة المنصوريَّة من شرقيها، بخط بين القصرين بالقاهرة، وأوقفَ عليها الأوقاف، ورتَّب فيها مُدرِّسين لتدريس الفقه بالمذاهب الأربعة، إضافةً لمؤذِّنٍ وإمامٍ يؤُمُّ بالناس في الصلوات الخمس.

وجعلَ بها خزانة للكتب، وفرَّق على طلبتها، وقُرائها، وأرباب الوظائف السُكَّر في كلِّ شهرٍ لكلٍّ منهم نصيب إضافةً للحوم الأضاحي[٥].

5ً- المدرسة الطيبرسيَّة:

أنشأها الأمير علاء الدِّين طيبرس الوزيريّ عند بابِ الجامع الأزهر[٦]، وفيها جزءٍ من المكتبة الأزهريَّة على يمين الداخل من الباب الغربي للأزهر، وقرَّر بها درساً للفُقهاء الشافعيَّة، وجعل لها خزانة كُتباً[٧].

ب- مدارس بلاد الشام:

بُنيت في بلاد الشام كثيراً من المدارس التي قامت بتدريس فقه المذاهب الأربعة، فبلغَ عددها في دمشق وخارجها سبعاً وثمانين مدرسة، أربع وثلاثون مدرسة على المذهب الحنفيّ، وأربعون على المذهب لشافعيّ، وعشر مدارس على المذهب الحنبليّ، وثلاث مدارس على المذهب المالكي، وهناك سبع منها في دمشق مُشتركة بتدريس المذهبين الشافعيّ والحنفيّ[٨]، وكانت دمشق أسبق المدن التي تأسست فيها

---

[١] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٨٠.

[٢] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٨.

[٣] ماهر(سعاد): قباب مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧١م، ص٧٠.

[٤] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٨٠.

[٥] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ٤٨٥، ٤٩٥.

[٦] الزكي: موسوعة مدينة القاهرة، ص١٥٥.

[٧] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٨٨.

[٨] ابن شداد(محمد بن علي): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م، ج١/ ق٢، ص١٩٩-٢٥٩.

مدارس خاصَّة بالعلوم و لتَلقّي علم واحد على أيدي شيوخ موقوفين عليه، مُتميِّزة بذلك عن حلقات المدارس[١] **ولعلَّ من أبرزها:**

1ً- المدرسة البادرائيَّة:

داخل باب الفراديس وشمال جيرون بدمشق، أنشأها عبد الله بن محمد البادرائي أواخر سنة(٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وأوقفَ عليها أوقافاً حسنة، وجعلَ بها خزانة كتب ضمَّت عديداً من الكتب الجُغرافيَّة[٢]. الجُغرافيَّة[٢].

2ً- المدرسة الناصريَّة الجوانيَّة:

أنشأها الملك الناصر يوسف سنة(٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م) داخل باب الفراديس، وشمال الجامع الأموي، وكانت تُعرف بدار الزكي المُعظَّم، ورتَّب فيها دروساً للفقه[٣].

3ً- المدرسة الظاهريَّة الجوانيَّة:

أنشاها الظاهر بيبرس سنة(٦٧٠هـ/ ١٢٧١م)[٤]، وجعلها دار حديث وتربة، تقع داخل بابي الفرج والفراديس، شمال باب البريد وشرق العادليَّة الكُبرى[٥]، واستغرق بناؤها سبع سنين، وقد رتَّبَ بها مُدرِّسين لتدريس الفقيهن الشافعيّ والحنفيّ[٦].

4ً- وفي حلب اشتهرت المدرسة الناصريَّة التي أسَّسها القاضي ابن الزملكاني(ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، و المدرسة الصاحبيَّة التي بناها الأمير أحمد بن يعقوب بن أبي المعالي الحلبي المعروف بابن الصاحب، و المدرسة القرناصيَّة التي أنشأها الأمير بكتمر القرناصي(ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م)، وغيرها[٧].

5ً- وبلغت الحياة الفكرية في بيت المقدس في عصر المماليك أزهى أدوارها فاستقطبت العُلماء والفقهاء من المغرب والمشرق، وأصبحت المدينة المُقدَّسة من مراكز الإشعاع الفكريّ خصوصاً بعد سقوط بغداد[٨]، فأُنشئت في القُدس مدارس عدَّة **لعلَّ أشهرها:** المدرسة الدويداريَّة التي أنشأها الأمير علم الدِّين

---

[١] النعيمي(عبد القادر): دور القرآن في دمشق، تعليق: صلاح الدِّين المنجد، دمشق، ١٩٤٦م، ص٦-٨.

[٢] ابن طولون الصالحي(محمد): إعلام الورى بمن وليّ نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٤م، ص٢؛ الحصني(محمد أديب): منتخبات التواريخ لدمشق، المطبعة الحديثة، دمشق، ط١، ١٩٢٧م، ص٩٤٤.

[٣] النعيمي: الدارس، ج١، ص٣٥٠، ٣٥١؛ ابن كنان: حدائق الياسمين، ص١٥١.

[٤] ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٣٨.

[٥] ابن عبد الهادي(يوسف): ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تح: محمد أسعد طلس، منشورات المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٥م، ص٩١؛ بدران(عبد القادر): منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، مطبعة الروضة، دمشق،١٩٦٠م، ص١١٦.

[٦] باشا: الأدب في بلاد الشام، ص١٣٠.

[٧] ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٠٩-١٢٤.

[٨] غوانمة(يوسف درويش): تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢م، ص١٤٥.

سنجر بن عبد الله الدوادار(ت ٦٩٥هـ/١٢٩٦م) [١]، والمدرسة التنكزيَّة التي أنشأها الأمير تنكز الناصري نائب الشام سنة(٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، والمدرسة الأمينيَّة التي أنشاها الصاحب أمين الدِّين عبد الله سنة(٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، و المدرسة الأرغونيَّة التي أنشأها الأمير أرغون الكاملي سنة(٧٥٨هـ/١٣٥٧م)، وأتمَّها الأمير ركن الدِّين بيبرس بعد سنة وغيرها[٢].

6ً- وفي الأردن أُقيمت مدارس أشهرها مدرسة صرغتمش في عمَّان التي أنشأها الأمير صرغتمش الناصري سنة(٧٥٩هـ/١٣٥٨م)، و المدرسة السيفيَّة في السلط التي أنشأها الأمير سيف الدِّين بكتمر الحسامي، وغيرها الكثير من المدارس التي كانت من أهمِّ مراكز الحركة العلميَّة في العصر المملوكي[٣].

كذلك وجِد في بلاد الشام دور القُرآن و الحديث التي عُدَّت من أهمِّ المراكز العلميَّة وبُنِيَ أغلبها قبل العصر المملوكي، واستمَّرت في دورها العلمي خلال هذا العصر، وأشهرها: دار الحديث القوصيَّة قُرب الرحبة داخل باب شرق الشاغور بدمشق[٤].

٣- البيمارستانات والمدارس الطبِّيَّة:

كانت دراسة الطبّ تتمُّ في المدارس قبل ظهور البيمارستان، وكان هناك مراكز لتدريس العلوم الطبِّيَّة إلى جانب تقديم الرعاية الصحيَّة للمرضى[٥].

والبيمارستان: كلمة فارسيَّة الأصل، مُركَّبة من لفظين بيمار: وتعني المريض أو العليل المصاب، وستان: وتعني دار أو مكان، وتعني الكلمة بذلك دار المرضى[٦]، ولم تقتصرْ وظيفة البيمارستانات على مُعالجة المرضى فقط، بل خُصِّصت لتعليمِ الطبِّ أيضاً. وقد وجِدت في العصر المملوكي بيمارستانات عدَّة ذاعت شهرتها إلى جانب مدارس الطبِّ، **ولعلَّ أبرزها:**

أ- البيمارستان المنصوري:

بناه الملك المنصور قلاوون سنة(٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م) بخط بين القصرين من القاهرة، وقد احتوى على مستشفى للمرضى ومدرسة للطبِّ، وقد قُسِّم إلى أقسام عدَّة: قسم الحميات، وآخر للرمد، وآخر للجراحة،

---

[١] العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٣-٤٨.

[٢] العارف (عارف باشا): المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، ط٥، ١٩٩٩م، ص٢٤١- ٢٥٤؛ العارف (عارف باشا): تاريخ القدس من أقدم الأزمنة إلى اليوم، دار ومكتبة بيبليون، جبيل- لبنان، ٢٠٠٥م، ص٧٦- ٨٠.

[٣] غوانمه(يوسف درويش): التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، د. ت، ص١٦٤، ١٦٥.

[٤] النعيمي: الدارس،ج١، ص٣٣٣،٧٢؛ الحافظ (محمد مطيع): دور الحديث الشريف بدمشق، دار المكتبي، دمشق، ط١، ط١، ٢٠١٠م، ص١٥٦.

[٥] البدري(عبد اللطيف): التعليم الطبي في الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، ٢٠٠١م، مج٤٨/ج١، ص٥.

[٦] عيسى(أحمد): تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار القرآن العربي، بيروت، ١٩٨١م، ص٤.

وآخر للأمراض النسويّة، وآخر للإسهال. وجُهِّز هذا البيمارستان بصيدليَّة تحتوي على أنواع الأدوية والعلاج، وزُوِّد بما يحتاجه من أدوات وأسرَّة وموظَّفين، وهُيِّئت به قاعات تُلقى بها دروس الطب على الطلاب، إضافةً إلى خزانةِ كُتبٍ[1].

ب- مدارس الطب: شغلت مدارس الطب دوراً مُهمَّاً في تعليم الطلبة، ولعلَّ أبرزها:

1ً- المدرسة الدخواريَّة:

تقع بسوق الصاغة العتيقة بدرب ابن العميد جنوب الجامع الأموي، أنشأها مهذَّب الدِّين عبد الرحيم المعروف بالدخوار سنة(٦٢١هـ/١٢٢٤م)، و أوقفها على الأطبَّاء لتدريسِ الطبِّ، وأوقف عليها ضياعاً[2].

2ً- المدرسة الدنيسريَّة:

أنشأها الحكيم عماد الدِّين الدينسريّ(ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، وتقع غربي البيمارستان النوريّ[3].

3ً- المدرسة اللبوديَّة النجميَّة:

أنشأها نجم الدِّين يحيى بن اللبوديّ سنة(٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، تقع شرقي بستان اللُّبودي، في أراضي باب السريجة عند حمَّامِ الفلك[4].

٤- المؤسسات الصوفيَّة التعليميَّة(الزوايا والأربطة الخوانق):

نتيجة لانتشار الصوفية ازدادت البيوت التي خُصِّصت لإقامتهم وانقطاعهم فيها، وقد سُمّيت هذه البيوت بالخوانق، والربط، والزوايا، وقد اهتمَّ سلاطين المماليك وأمراؤهم بإنشاء الكثير منها وحبس الأوقاف عليها، وأسهمت هذه المؤسسات بشكلٍ فعَّال في دفع الحركة العلميَّة في بلاد الشام ومصر خلال هذا العصر[5].

أ- الخانقاه:

لفظٌ فارسيٌّ معناه بيت، أُطلقت على الأماكن المُعدَّة للزُّهَّاد وأتباع الطرق الصوفيَّة[6]، وقد كانت الخوانق مكتبات عامرة بالكتب القيِّمة، ولها خازن يقوم بخدمة من يرد إليها من الطلبة، وكان يُلحق بها مكتب لتعليمِ الأيتام، وأبناء الفقراء القرآن الكريم، ومبادئ القراءة والحساب[7].

---

[1] النويري: نهاية الأرب، مج٣١، ص١٠٨؛ سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٤٤، ٤٥.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص٢٦٥؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٠١؛ بدران: منادمة الأطلال، ص٢٥٢.

[3] الحصني: منتخبات التواريخ، ص٩٦١؛ كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص١٠١.

[4] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص٢٦٦؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٠٦، ١٠٧.

[5] العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٢٢.

[6] السامرائي: المجموع اللفيف، ص٥٢؛ فرغلي(أبو الحمد محمود): الدليل الموجز لأهمِّ الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص٣٨.

[7] النباهين: نظام التربية الإسلامية، ص٢٦٧.

1ً- خانقاوات مصر:

***- الخانقاه البيسريَّة:**

أنشأها الأمير بيبرس الجاشنكير سنة(٧٠٧هـ/١٣٠٧م) في موضع دار الوزارة، وكانت من أجلِّ الخوانق، وقد أوقفَ عليها ضياعاً بدمشق وصعيد مصر، ورتَّب بها دروساً للحديث النبويّ، وكان يُقيم بها أربعمئة صوفيّ[١].

***- خانقاه سرياقوس:**

بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة(٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م)، وبنى بجانبها حمَّاماً ومطبخاً، ورتَّب بها الدروس[٢].

***- خانقاه شيخو:**

أنشأها الأمير سيف الدِّين شيخو العمريّ[٣] في حي الصليبيَّة بالقاهرة سنة(٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، ورتَّب بها دروساً للفقه على المذاهب الأربعة ودرساً في الحديث، وجعلَ لكلِّ درسٍ من هذه الدروس مُدرِّساً[٤]، فسلك فسلك فيها بجمع الأئمة الأربعة أحسن المذاهب، فأزاح بتعاليلهم العلل، ومزجَ الفُقهاء بالصوفيَّة، فجمعَ بين العلم والعلم[٥].

2ً- خانقاوات بلاد الشام:

لعبت خوانق في بلاد الشام دوراً مهمَّاً في الحركة الفكريَّة، ولعلَّ أبرزها:

***- الخانقاه السمسياطيَّة:**

شمال الجامع الأمويّ بدمشق لصيقة به، وقفها أبو القاسم علي السميساطي(ت ٤٥٣هـ /١٠٦٠م)، وكان لها دوراً كبيراً في العصر المملوكيّ من خلال استقطابها لعددٍ كبيرٍ من الطلبة[٦].

***- الخانقاه الشهابيَّة:**

أنشأها الأمير علاء الدِّين الشهابيّ سنة(٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، تقع غربي المدرسة العادليَّة داخل باب الفرج بدمشق، وكانت مركزاً لاستقطاب العلماء [١].

---

١ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٥٧٤؛ سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص٦١، ٦٢.

٢ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٥٨٧؛ العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٢٢، ٢٣.

٣ شيخو بن عبد الله الناصري، من مماليك الناصر محمد، تسلم أتابك العسكر أيام السلطان الناصر حسن، توفِّي سنة(٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٢١١، ابن تغري بردي(يوسف): المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تح: محمد أمين، دار الهيئة العامَّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ج٦، ص٢٥٧.

٤ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٥٨٤، ٥٨٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص١٦١.

٥ ابن أبي حجلة(أحمد): سكردان السلطان، تح: علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص٥٨.

٦ النعيمي: دور القرآن في دمشق، ص٧٨.

ب- الربط:

الرباط في الأصل البناء المُحصَّن الذي يُقام قرب الحدود ويُرابط به المجاهدون[٢]، وأصبحَ فيما بعد يُطلق على المكان الذي ينزل به الصوفيَّة، فأصبح يؤدِّي وظيفة دينيَّة إلى جانبِ أنَّه مركزٌ للعلم[٣]. ولعلَّ من أشهر هذه الرُبط رباط الآثار الذي رُتِّب فيه دروساً للفقهاء الشافعيَّة[٤]، ورباط الأفرم المنسوب للأمير عز الدِّين أيبك الأفرم، وقد قرَّر فيه دروساً، ورتَّب به مُدرِّساً وإماماً، وقرَّر له معاليم من أوقاف رصدها عليه[٥].

واقتصرت بعض الأربطةِ على تعليم النساء وخدمتهنَّ و إيوائهنَّ، ومثالها رباط البغداديَّة الذي أسَّستَهُ تذكار باي خاتون ابنة السلطان الظاهر بيبرس سنة(٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)[٦].

ج- الزوايا:

يُقصد بها المسجد الصغير الذي يجلس فيه رجال الصلاح والوعظ، وقد أدَّت الزوايا في العصر المملوكي دوراً مُهمَّاً فقد كانت مركزاً للعبادة، وتعليم القرآن الكريم والحديث في آنٍ واحد[٧] إذ كان يُحسن فيها للطلبة، ويُجمعون على التفقُّه، ويُرتِّب لهم ما يأكلون، ويسعى لهم في الرزق وخصوصاً الواردين من الضواحي. ومثالها زاوية الأبناسي في القاهرة التي صار أغلبُ تلامذةَ القاهرة من طلابها[٨]. و اشتهرت الزاوية الظاهريَّة المنسوبة للشيخ أحمد بن محمد الظاهري(ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م)، وتقع هذه الزاوية بظاهر القاهرة، وقد استقطبت كثيراً من طلبة العلم لتدريسهم الفقه[٩].

---

[١] النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٢٦.

[٢] الحسين: تاريخ المماليك، ص٢٧٢.

[٣] العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٢٤؛ عبد الله(دولت): معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي، مطبعة حسان، القاهرة، ١٩٨٠م ، ص٤٨.

[٤] ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق١، ص١٠٢، ١٠٣.

[٥] الحجي: صور من الحضارة العربية، ص١٦٤.

[٦] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٢٧، ٤٢٨؛ العاملي (زينب فواز): الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص١٨٠، ١٨١.

[٧] العسلي: معاهد العلم، ص٧٥؛ الحجي: صور من الحضارة العربية، ص١٦٣.

[٨] المناوي(عبد الرؤوف): الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفي، تح: عبد الحميد حمدان، المكتبة الأزهرية، القاهرة، ١٩٩٩م، ج٢، ص١٦.

[٩] ابن الجزري: غاية النهاية، ج٢، ص٣٣٥.

واشتهرت زوايا بلاد الشام التي احتوت كثيراً من الطلبة، وقامت بتدريسهم أُصول الدِّين، فقد أسَّس الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى بن مهران العدويّ(ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) زوايا عدَّة في كلٍّ من دمشق، وحماه، وبعلبك، وحمص، وغيرها[١].

٥- التُرب والقباب والمشاهد:

لابدَّ من الإشارة إلى **التُرب** التي أنشأها سلاطين المماليك لتكون مقابر لهم، فقد كانت هذه التُرب بمنزلة المراكز العلميَّة لاسيَّما أنَّه كان يتمُّ قراءة كتاب الله فيها ليلاً نهاراً، إضافةً للدروس التي كانت تلقى فيها[٢]. ومثالها التربة التي أنشأها السلطان الظاهر بيبرس، و رتَّب بها مدرِّستين شافعيَّة وحنفيَّة، ورتَّب لكلِّ مدرسة مُدرِّساً[٣].

كذلك كان التعليم يتمُّ أحياناً في **القباب والمشاهد** التي شهدت نشاطاً علميَّاً كبيراً، فقد كانت قُبَّة السلطان المنصور سيف الدِّين قلاوون المعروفة بالقبَّة المنصوريَّة التي اُلحِقت بالمدرسة المنصوريَّة يقام فيها دروساً للفقه على المذاهب الأربعة، ورُتِّب بها مجموعة من القُرَّاء المتناوبين على القراءة ليلاً نهاراً، وكانت هذه القبة تحتوي على خزانة لكتبٍ من شتَّى العلوم لا سيَّما الجغرافية[٤].

أمَّا بالنسبة **للمشاهد والمزارات** فوُجد كثيراً منها هي الأُخرى، في بلاد الشام و مصر. وقامت بدورٍ مُهمٍّ بوصفها مركزاً لنشاط الحركة الفكريَّة، ولعلَّ أبرزها مشهد السيدة نفيسة الواقع بخطِّ درب السباع بالقرَّافة قبلي شارع الزرايب، وشرق الشارع الموصول للسيدة جوهرة على يسار الداخل إلى المنطقة المسلوكة إلى القرَّافة من الجهة البحريَّة والذي كان أَحَّدُ أهمَّ مراكز النشاط العلميّ في مصر على زمن المماليك[٥].

٦- دور العُلماء و مكاتب التعليم:

[١] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٢٧٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص١٩٩.

[٢] العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٢٤.

[٣] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٢٦٦.

[٤] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٨٠-٤٨٢.

[٥] ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة، ص١٠٤؛ السخاوي(علي بن أحمد): تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، تعليق: محمود ربيع وحسن قاسم، مطبعة العلوم والآداب، القاهرة، ط١، ١٩٣٧م، ص١٢٥؛ سراج(النبوي جبر): السيدة نفيسة كريمة الدارين، المكتبة التوفيقية، القاهرة ، د. ت، ص٥٠؛ أبو علم(توفيق): السيدة نفيسة، منشورات وزارة الاوقاف، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١٣٤.

شكَّلت منازل العُلماء مراكز علميَّة مُهمَّة ساوت بأهمِّيتها منزلة الجامعات، فقصدها الطلاب لتعلُّم الجغرافية، والفلسفة، والمنطق، والرياضيات[١]، وهي بهذا الشكل تُتيح للطلاب اختيار ما يريدون تعلَّمه واختيار المُدرِّس الذي يرغبون به[٢].

أمَّا بالنسبة لمكاتب التعليم التي سُمِّيت بـ" المكاتب والكتاتيب"، فقد كانت أماكن لتعليم الصبيان القراءة والقرآن الكريم، ومبادئ العلم الأوليَّة، و ظهر هذا النوع من التعليم منذُ زمنِ الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ(١٣- ٢٤هـ/٦٣٤- ٦٤٤م)[٣]. وكانت هذه المكاتب في العصر المملوكيّ على **نوعين، الأوَّل:** هو مكاتب الأيتام التي تُقام بالقرب من سبل المياه الموقوفة، ومثالها مكتب الأيتام الذي أنشأه السلطان حسن بن محمد بن قلاوون بجانب جامعه ومكتب الأيتام الذي شيَّده الظاهر بيبرس بجانبِ مدرسته[٤].

أمَّا **النوع الثاني من المكاتب:** فهي المكاتب الخاصَّة التي يُشيّدها المُؤدّبون لتعليم الصبيان، إذ ينبغي على المُؤدِّب أن يتجنَّب ما يفعلهُ بعض عوامِ المُؤدِّبين من أنَّه إذا قلَّ عنده الصبيان أو فتح مكتباً، وليس به أحَّد فإنِّه يكتب أوراقاً ويُعلِّقها على باب المكتب ليكثر مجيء الصبيان إليه[٥]، وقد سُمِّيَ المسؤول عن التعليم في المكاتب بالمُؤدِّب المُعلِّم. وعلَّمت هذه المكاتب الصبيان علوم وآداب القرآن الكريم وقراءته، والخطّ والحساب. ويُشترط فيمن يلتحق بها من الصبيان أنْ يكونَ قد أتمَّ السابعة من عمره، وهو السنُّ الذي يُكلَّف به بالصلاة والآداب الشرعيَّة وفقاً للسنة النبويَّة الشريفة[٦].

ثالثاً- نظام التعليم خلال عصر دولة المماليك البحريَّة:

اختلفت طُرق التدريس في هذا العصر تبعاً لاختلاف العلوم، واختلاف المستوى في مراحل التعليم، فاختصَّ بعض الأساتذةِ لتعليم علمٍ واحدٍ، فيما شُهِدَ لبعضِ المُدرِّسين تعليم الطلبة علوم مُختلفة، ولعلَّ الَّذين قاموا بهذه المُهمَّة مجموعة من العُلماء اختلفت وظائفهم[٧] وأبرزهم:

---

[١] جيدة(أحمد): المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٧٧، ٧٨.

[٢] ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص٢٢٠.

[٣] البلاذري (أحمد بن يحيى): فتوح البلدان، تح: عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م ص٦٦٣؛ الكتاني(محمد عبد الحي): نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية)، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ط٢، د. ت، ج٢، ص١٩٩.

[٤] النهار(عمار محمد): تاريخ المماليك، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠١٤م، ص٤١٦، ٤١٧.

[٥] ابن الحاج الفاسي(محمد بن محمد): المدخل، دار الفكر، بيروت، ١٩٩١م، ج٢، ص٣١٥، ٣١٦.

[٦] ابن الأخوة(محمد بن محمد): معالم القرابة في أحكام الحسبة، تصحيح: روبن ليوي، مكتبة المتنبي، القاهرة، ٢٠٠١م، ص١٧٠.

[٧] جيدة: المدارس ونظام التعليم، ص٣٣٢.

١ – المُدرِّس:

يُلقي الدروس على الطلبة، وحُقَّ عليه أن يُفهِّمَهم ما يُلقيه ، ويدرِّبَهم على حفظه[١].

٢ – المُعيد:

الأستاذ الثاني للطالب، وقد يكون أعلم من المُدرِّس لكن لمْ يسعفْه الحظ ليصبحَ مُدرِّساً، وعمله أن يُعيدَ الدرس للطلبة، ويُفهِّمَهم ما قرَّره الأستاذ، وعليه أنْ يحضرَ درس الأستاذ، ويكون تقريره للدرس موافقاً لتقرير الأستاذ[٢].

٣– كاتب الغيبة:

يضبط أسماء الحاضرين والسامعين، وعليه اعتماد الحقّ في ذلك[٣].

٤ – المُفيد:

يعتمد ما يحصل في الدرسِ من الإفادة وتقريره للطلبة[٤].

٥ – المُحدِّث:

يتولَّى تعليم الطلبة الأحاديث وعليه أنْ يكونَ عارفاً بشيوخ عصره و مواليدهم ووفياتهم، ومرويَّاتهم، ومُقتدر على تلخيص ما يقف عليه من الطباق والأسانيد مُحرِّراً ، وأنْ يعرفَ ضبط الغريب من ألفاظ الأحاديث[٥].

٦– شيخ الرواية:

وعليه يسمعُ المُحدِّثين ويستمعُ لما يقرؤونه بحيث يُصحِّح سماعهم[٦].

وقد كان **العالم أو المُدرِّس** حريصاً على تعليم طلبته، باذلاً جهداً في حضِّهم على إعادة محفوظاتهم، وعدم التمييز بينهم وتفضيلُ أحَّد على آخر، كما كان عليه ترغيب الطلبة بالعلم، وأنْ يوقِّر طلبته

---

[١] السبكي: معيد النعم، ص١٠٥؛ ابن طولون الصالحي(محمد): نقد الطالب لزغل المناصب، تح: محمد وخالد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص١٥٢.

[٢] العبي: عصر المماليك والعثمانيين، ص١٨٠.

[٣] السبكي: معيد النعم، ص١١٠؛ ابن طولون: نقد الطالب، ص١٥٦.

[٤] السبكي: معيد النعم، ص١٠٨؛ ابن طولون: نقد الطالب، ص١٥٤.

[٥] السبكي: معيد النعم، ص٨٢؛ ابن طولون: نقد الطالب، ص٩٢.

[٦] السبكي: معيد النعم، ص١١١؛ ابن طولون: نقد الطالب، ص١٥٨.

ويُعظِّمهم ويُحسِن إليهم، ويستعلم أسماء طلبته وحاضري مجلسه، ويفهم كلٌّ واحداً حسبَ فهمه وحفظه، وأن يُحرِّضهم على الاشتغال في كلِّ وقتٍ[1].

أمَّا **الطلبة** فكانوا يُقسَّمون حسب قِدمهم في الدراسة، فمنهم: الطالب المُفيد: وعليه إفادة الطلبة وتذكيرهم بنقاط الدرس المفيدة، ومنهم الطالب المُنتهي: وعليه من البحث والمناظرة فوق ما على دونه[2]. ويتمتَّع الطالب باختيار المواد التي يرغب دراستها، وربَّما هذا الأمر يتعلَّق في بعضِ الأحيان بمكانة المُدرِّس وشهرته العلميَّة[3].

أمَّا بالنسبة **لمواعيد الدراسة** فكانت في غالب الأحيان تتمُّ من طلوع الفجر إلى آذان العصر، و يختار المُدرِّس الوقت الذي يناسبه حسب ظروف الدراسين شرط ألَّا تقلَّ عن ثلاثِ ساعاتٍ.

وبالنسبة للعطل الدراسية، فهي تختلف من مدرسة لأخرى، فبعضها في شهر شعبان والبعض الآخر في عشر شوال، وعشر ذي الحجة وأيام التشريق، والأعياد، وغيرها[4].

وفيما يخصُّ **الشهادات الدراسيَّة أو الإجازات العلميَّة**، فيتمُّ منحها من قِبل أحَّد العلماء لطلبته، ومن هذه **الإجازات**: إجازة الفتية، إذ يتمُّ الطالب دراسته حتَّى يصبح فقيهاً مُنتهياً وبعدها يُأذنَ له في أن يُفتي ويُدرِّس. ومن الإجازات أيضاً الإجازة بعراضة الكتب، وهو أن يحفظ الطالب كتاباً في الفقه أو النحو أو التاريخ وغيره، فيتمُّ اختباره بما حفظ، وعندما يتأكَّد شيخه من صحَّة حفظه يكتب له إجازة بذلك[5]. ومن الإجازات إجازة السماعات، وتُعدُّ مُهمَّة لرواية الحديث والعلوم، وهي وثائق مُهمَّة لدراسة التراجم، والتعريف بأحوال أصحابها، لذلك حرصَ الطلبة على الحصول على الإجازة من العُلماء المُسندين[6]، وللسماعات دور في دراسة المخطوطات القديمة، ويستوجب ذلك نشر السماعات بنصِّهَا عند نشرِ الكُتب الخطيَّة[7].

رابعاً- أوجه النتاج الفكري خلال عصر دولة المماليك البحريَّة(العلوم المساعدة لعلم الجغرافية):

١- العلوم النظريَّة:

---

[1] الغزي(محمد بن محمد): الدر النضيد في آداب المفيد والمستفيد، تعليق: عبد الله محمد الكندري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص١١٦.

[2] السبكي: معيد النعم، ص٨٥؛ ابن طولون: نقد الطالب، ص١٥٤.

[3] عاشور: المجتمع المصري، ص١٤٥.

[4] النباهين: نظام التربية والتعليم، ص٤٠٦، ٤٠٧.

[5] القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٦٤، ٣٦٩.

[6] ابن طولون(محمد بن علي): نوادر الإجازات والسماعات، تح: مطيع الحافظ، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٧. ص٧.

[7] المنجد(صلاح الدين): إجازات السماع في المخطوطات القديمة، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٥م، مج٢، ج١، ص٢٤٠، ٢٤١.

أ- علم التعمية:

التعمية في اللغة الخفاء والالتباس، واصطلاحاً تحويل نص واضح إلى آخرٍ غير مفهومٍ باستعمالِ طريقة مُحدَّدة يستطيع من يعرفها أنْ يفهمَ النص، واستخراجها يكون بتحويلِ النص المُعمَّى إلى نصٍ واضحٍ لمن لا يعرف طرق التعمية المُستعملة[1]، وعلى هذا فإنَّ علم التعمية(السريَّة، التشفير، الشيفرة) يكون علم دارسة الكتابة المُعمَّاة وتُدعى عملية تحويل النصّ المُعمَّى إلى نصٍّ صريح بـ" عملية الإظهار"، أمَّا عملية تحويل النص الصريح إلى نصٍّ مُعمًّى فُتدعى " عملية التعمية". ويتمُّ التحكم بهاتين الطريقتين بمفاتيح التعمية.

وقد عرفَ العرب المسلمين هذا العلم منذُ القدمِ لكنَّه لم يتطوّرْ ويبلغَ ذروته إلَّا في العصر المملوكيّ، فقد كان رواد هذا العلم مجموعة من العُلماء أضفوا الشيء الكثير من الجُهد لتطويره[2]. ويعدُّ هذا العلم من أهمِّ العلوم المساعدة علم الجغرافية، فقد استخدمَ كثيراً من الجُغرافيين طريقة التعمية في كتبهم الجُغرافيَّة، لا سيَّما الوصفيّة الرياضيَّة، والفلكيَّة.

ولعلَّ أبرزَ من استخدم علم التعمية كان الجُغرافي أبو الفداء في كتابه" تقويم البلدان"، الذي رمز لطولِ وعرض درجات المدن برموز مُعمَّاة عبَّرَ عنها بأحرفٍ عربيَّة تُشير في حقيقتها لأرقامٍ حسابيَّة بيانيَّة، يتمُّ حسابها بعد معرفة ما يُعادل الحرف من رقمٍ رياضيٍّ مثل ذكره لطول وعرض مدينة، ورمزه لها مثلاً بأنَّ طولها(نو – ل) وعرضها (لب – نه) فعندَ حساب طول المدينة بالدرجات طولها بالدرجات هو(نو) وحرف النون = ٥٠، وحرف الواو = ٦ وبالتالي يكون طولها بالدرجات٥٠+ ٦ = ٥٦ درجة.

وقد اشتهرَ بدراسة التعمية عدداً من الجُغرافيين والفلكيين والرياضيين، أبرزهم علي بن عدلان بن حماد الموصليّ النحويّ المترجم(ت ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)، وله مؤلَّفاتٌ عدَّة في علم التعمية، ذاع صيتها من أهمِّها" المعلم والمؤلف للملك الأشرف في حلِّ التراجم"، وكتاب" عقلة المجتاز في حل الألغاز"[3]، و" الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب"[4].

ولعلَّ أهمَّ الكتب السابقة مؤلفه للملك الأشرف الذي قسَّمه إلى فاتحة وعشرين قاعدة وخاتمة، وضمَّت الفاتحة ثلاثة مواضيع، هي عدَّة المترجم، أمَّا القاعدة فحوت تسعة مواضيع هي الطريقة التحليليَّة لحلِّ

---

[1] مراياتي وأخرون(محمد): علم التعمية واستخراج المعمى عند العربِ، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٩؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٤٣٣.

[2] النهار: تاريخ المماليك، ص٤٣٣ – ٤٣٥.

[3] الزركشي(محمد بن بهادر): عقود الجمان على وفيات الأعيان، مخطوط مكتبة الفاتح، السليمانية، إستانبول، رقم٤٤٣٤ ؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج٢، ص١٧٩؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٣٧؛ البابانى: إيضاح المكنون، مج٢، ص١٢٢.

[4] ابن عدلان الموصلي(علي بن عدلان بن حماد): الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب، تح: حاتم صالح الضامن، الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

المترجم واستخراج الفصل واستخراج حرف(الـ) وما حولها من حروفٍ، واستخراج حروف أوائل الكلمات وأواخرها، وحلّ المُدمج، وحلّ المُعمَّى من الشعر، والكلمة المُحتملة، وأخيراً خلاصة وفوائد، وفي الخاتمة احتواها بموضوعِ التدريب والتمرُّن من خلال مثال علمي[1]. ومِنْ ثمَّ يكون ابن عدلان قد وضعَ قواعد وخطوات لتحليل المُعمَّى بشكلٍ دقيقٍ، بحيث يُمكن عدُّها خوارزميَّة مُتكاملة لتحليل المُعمَّى، ومعالجته المُستفيضة للفاصل بين كلمتين[2].

كذلك برعَ في هذا العلم عالمٌ آخر هو علي بن محمد بن إبراهيم الثعلبيّ الشافعيّ، المعروف بابن الدريهم الموصليّ(ت ٧١٢هـ/ ١٣١٢م)[3]، فقد كان ماهراً في الأحاجي والألغاز، وحلّ المترجم، والأوفاق، والكلام على الحروف وخواصها[4]. وقد صنَّف ابن الدريهم كتباً عدَّة في علم التعمية أشهرها" غاية الإيجاز في الأحاجي والألغاز"، و" إقناع الحذاق في أنواع الأوقاف" ، و" بوادر الحلوم في نوادر العلوم" ، و" تصاريف الدهر في تعاريف الزجر". لكنَّ أشهر ما صنَّفه في هذا العلم هو مؤلفه " مفتاح الكنوز في إيضاح الرموز". وضمَّن كتابه خمس قضايا، **الأولى:** ما لابدَّ منه لمن يعاني علم حلّ الترجمة، **الثانية:** ضروب التعمية، **الثالثة:** مُقدِّمة صرفيَّة، **الرابعة:** منهجيَّة حلّ الترجمة، **الخامسة:** مثالان عمليان في حل الترجمة[5]. ويُعدُّ هذا الكتاب أوَّل رسالة شاملة في التعمية ذُكرت فيها طرائق التعمية، وأنواعها المُختلفة دون تداخل[6]، وقد أوردَ القلقشندي كثيراً مما ذُكِرَ بهذا الكتاب في موسوعته" صبح الأعشى في صناعة الإنشا" وعنونها بـ " إخفاء ما في الكتب من السر"[7].

كذلك صنَّف العالِم علي بن محمد بن آيدمر الجلدكيّ(ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) كتاباً في هذا العلم سمَّاه" كنز الإختصاص ودرّة الغواص في معرفة أسرار علم الخواص"، وقد ضمَّنه كشف المرغم وحلّ كلّ مُبهم ممَّا أُدغِمَ بكلِّ لسان وما أُبهِمَ في كلِّ زمانٍ وما ستره الأوَّلُون بالأقلام وسائر الأعوان[8].

ب- العلوم الدينيَّة:

---

[1] مراياتي وآخرون: علم التعمية، ج١، ص١٣٩-١٥٥؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٤٣٨.

[2] يعقوب(نضال): تطور المفتاح في منظومة التعمية عند العربِ، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، ١٩٩٧م، ص٨١- ٩٧؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٤٣٨، ٤٣٩.

[3] الصفدي: أعيان العصر، ج، ص٥٢١- ٥٢٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص١٨١-١٨٣.

[4] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص١٨٢.

[5] مراياتي وآخرون: علم التعمية، ج١، ص١٥٦- ١٩٥؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٤٤٢.

يعقوب: تطور المفتاح، ص٩٨- ١٤١.

[6] النهار: تاريخ المماليك، ص٤٤٢.

[7] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٩، ص٢٣٠-٢٣٧.

[8] النهار: تاريخ المماليك، ص٤٣٧.

تُعدُّ العلوم الدينيَّة من أهمِّ العلوم المُساعدة لعلم الجُغرافية، وذلك لما اشتمل عليه القُرآن الكريم من إشاراتٍ جُغرافيَّة واضحة عن حقائق الكواكب، والنجوم، والشمس، والأرض وكرويتها، وظاهرة الليل والنهار، وتوزُّع اليابسة والماء، وقد وضِعَت تفسيرات عدَّة للقُرآن الكريم، حملت هذا التفسيرات في طيَّاتها كثيرٍ من المعلومات الجُغرافيَّة.

وبجانبٍ آخر فقد شملت الأحاديث النبويَّة الشريفة، وكُتب الأصول، والفروع على معلوماتٍ جُغرافيَّة ذاتُ قيمةٍ كبيرةٍ، إذ ارتبطت الكثير من فروض العبادة بالظواهر الجُغرافيَّة، وهي فروض معروفة في أحاديثٍ عن النبي ﷺ، لا سيَّما فريضة الحجّ التي ارتبطت بمواقيت مكانيَّة للإحرام، وهي مناطق مُختلفة في أبعادها من مكَّة المُكرَّمة حسب الجهات التي يأتي منها المسلمون لأداء الفريضة[١]، وأيضاً فريضة الصيام التي حُدِّدت بحدودٍ شهريَّة ويوميَّة. وأسهمت بعض النصوصِ الشرعيَّة التي وردت في السُنَّة في تنشيط المعرفة الجُغرافيَّة في محاولةٍ لتفسيرِ تلك النصوص[٢].

وبذلك تُعدُّ العلوم الدينيّة أحَّد أهمّ العلوم المساعدة لعلم الجُغرافية، فلقيت اهتماماً كبيراً في العصر المملوكيّ، وشَهِد هذا العصر حركة نشطة تناولت إحياء علوم الدِّين في الأُصول والفروع، وظهر أثر ذلك في حركة التأليف التي شملت القُرآن الكريم، والحديث الشريف، والفِقه[٣].

1ً- علوم القرآن الكريم:

شملت علوم القُرآن الكريم أموراً تتعلَّق بنزول وجمع وكتابة القرآن الكريم، وقراءته، وتفسيره، ونسخه، وإعجازه، وإعرابه، وتجويده[٤]. وبرز الاهتمام بالتفسير في دولة المماليك البحريَّة من المُصنَّفات التي وُضعت في هذا المجال والتي احتوت في طيَّاتها على كثيرٍ من المعلومات الجغرافية التي وردت على شكل إشاراتٍ في القرآن الكريم، وفُسِّرت ضمن هذه المؤلَّفات، فقد وضعَ يوسف بن قيزأوغلي المعروف بسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) تفسيراً للقرآن الكريم سمَّاه" معادن الإبريز" يقع في تسع وعشرين مجلداً، تضمَّن تفسيراً لكثيرٍ من الإشارات الجُغرافيَّة الواردة في القرآن الكريم[٥].

ويُعدُّ عز الدِّين بن عبد السلام بن مُهذَّب السلميّ الدمشقيّ(ت ٦٦٠ هـ/١٢٦١م) أحَّد الأئمّة البارزين، إذْ وضع كتاب" التفسير" [٦] وكتاب" الإمام في بيان أدلّة الأحكام"، وهما كتابان يحملان في طيّاتهما على

---

[١] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص٤٦، ٥٩، ٦٠، ٦١.

[٢] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٥.

[٣] باشا: الأدب في بلاد الشام، ص١٢١.

[٤] الذهبي(محمد بن أحمد): زغل العلم، تح: ناصر بن محمد العجمي، مكتبة الصحوة الإسلامية، د. م، ١٩٨٤م، ص٧.

[٥] السيوطي(عبد الرحمن): طبقات المفسرين، تح: علي محمد عُمر، مكتبة وهبة للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٧٦م، ص٢٣٩. ص٢٣٩.

[٦] العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٣٨، ٣٣٩.

إشاراتٍ جُغرافيَّة وردت في القرآن الكريم وفُسِّرت في الكتابين[1]. وذاعت شُهرة أحمد بن محمد بن منصور ابن المنير (ت ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م) الذي برع في التفسير وصنَّف به كتاباً سمَّاه" التفسير العجيب في تفسير الغريب" تضمَّن تفسيراً لكلِّ الألفاظ الغربية الواردة في القرآن الكريم، ومنها الألفاظ الجُغرافيَّة[2]. كما وضعَ جمال الدِّين محمد بن سليمان بن الحسن البلخيّ المقدسيّ الحنفيّ المعروف بابن النقيب(ت ٦٨٧ هـ/١٢٨٨م) مُصنفًا في التفسير[3].

وصنَّف العالم جمال الدِّين العسقلانيّ الدمشقيّ(ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) تفسيراً للقرآن ضمَّنه العديد من الإشارات الجُغرافيَّة المُتعلِّقة بالنجوم والسماء[4]. ووضع شرف الدِّين هبة الله البارزيّ(ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) تفاسيراً عدَّة للقُرآن منها" البستان" في ستّة مجلدات و" الناسخ والمنسُوخ" و" بدائع القرآن"[5]. و ألَّف إسماعيل بن عُمر بن كثير(ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢ م) تفسيراً للقُرآن الكريم عُرِفَ بـ" تفسير ابن كثير"[6].

وفيما يخصُّ علم القراءات، فهو يبحث عن صور نظم كلام الله سبحانه وتعالى، والألفاظ، وعلامات الوقف، وعلل القراءات، ورسم كتاب القرآن في المصاحف[7] فهي مذهب يذهب إليه إمام من أئمَّة القُرَّاء مُخالفاً به غيره في النُطق بالقرآن، مع اتفاق الروايات والطُرق عنه سواء كانت هذه مُخالفة في نطق الحروف أمْ في نُطق هيئاتها[8]. ونال علم القراءات اهتماماً كبيراً بوصفه أشرف العلوم لأنَّه يختصُّ

---

[1] ابن عبد السلام(عز الدين): الإمام في بيان أدلة الأحكام، تح: رضوان غريبة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص٧٥.

[2] ابن المنير الإسكندراني(أحمد بن محمد): التفسير العجيب في تفسير الغريب، تح: سليمان أوغلو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص٦.

[3] العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٢١٧.

[4] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٥، ص٣١٣.

[5] باشا: الأدب في بلاد الشام، ص١٢٢.

[6] ابن حَجَر العسقلاني(أحمد بن علي): إنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة القاهرة ،١٩٧٢م، ج١، ص٤٥، ٤٦؛ السيوطي: طبقات المفسرين، ص٢٦٠.

[7] أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تقديم وتعليق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٨؛ القسطلاني(أحمد بن محمد): لطائف الإشارات لفنون القراءات، تح: عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ط١، ١٩٧٢م، ج١، ص٦٦-٨٦؛ النباهين: نظام التربية، ص٣٣٣.

[8] ابن الجزري(محمد بن محمد): منجد المقرئين ومرشد الطالبين، اعتناء: محمد بن علي العمران، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص٣؛ الزرقالي(محمد عبد العظيم): مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ج١، ص٣٣٦؛ الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٣١٨.

بالقرآن الكريم، فقد برز العديد من العلماء الَّذين قرؤوا القُرآن بقراءاته العشر والسبع وولَّوا اهتمامهم بتقليدِ نهج كتابين في هذا المجال وهما: كتاب" التيسير" لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني(ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٣م)[١]، والقصيدة الشاطبيّة المعروفة بـ "حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع"[٢] للشيخ أبو أبو محمد القاسم بن فيرّة الشاطبيّ الضرير(ت ٥٩٠هـ/١١٩٣م)[٣].

ومن أبرز العلماء الَّذين برزوا في مجال القراءات وحاولوا تقليد القصيدة الشاطبيّة الشيخ محمد بن إسرائيل السلميّ الدمشقيّ القصّاع(ت ٦١٨هـ/١٢٢١م) فقد صنَّف كتاب" الاستبصار والمعنى في القراءات"، وكتاب" التذكرة المختصرة في القراءات العشر"[٤]. وكذلك الشيخ جمال الدِّين بن مالك(ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، الذي صنَّف مُختصراً للشاطبيّة سمَّاه" حرز المعاني في اختصار حرز الأماني" [٥]. وصنَّف أحمد بن علي الهمدانيّ، المعروف بابن الفصيح (ت ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م)،" السراجيَّة على وزن الشاطبيّة[٦].

ومن أبرز المؤلَّفات التي تناولت علم القراءات وجاءت شروحاً للقصيدة الرائيَّة في القراءات، شرح علم الدِّين القاسم اللورقيّ(ت ٦٦١ هـ/١٢٦٢م) [٧]. و شرح شمس الدِّين محمد بن أحمد بن بصخان(ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) للشاطبيّة[٨]. ولم تقتصر كتب القراءات في هذا العصر على شروح التيسير و الشاطبيَّة الشاطبيَّة أو التأليف على نمطها، إنَّما أُلِّفت كتباً مُهمَّة في هذا المجال منها: " مفردات القُرّاء" لأبي شامة المقدسيّ[٩]، و" الشرعة في القراءات السبعة"[١٠]، و" عقود الجمان في تجويد القرآن" و " حدود الإتقان في في تجويد القرآن"[١١]، و" نزهة البررة في القراءات العشرة" لبرهان الدين الجُعبريّ[١٢].

---

[١] ابن الجزري: غاية النهاية، ج١، ص٥٠٣.

[٢] الشاطبي(القاسم بن فيّرة): حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، تح: محمد تميم الزعبي، دار الهدى، المدينة المنورة، ط٤، ٢٠٠٥م، ص١.

[٣] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٦٤٦، ٦٤٧.

[٤] ابن الجزري، غاية النهاية، ج ٢، ص١٠.

[٥] الذهبي: معرفة القراء الكبار، مج٢، ص١٠.

[٦] ابن الجزري، غاية النهاية، ج١، ص٣٤؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٢١٨.

[٧] ابن الجزري: غاية النهاية، ج٢، ص١٦؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج٢، ص٢٥٠.

[٨] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٩٨.

[٩] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٨، ص١١٣.

[١٠] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٦، ص٧٣.

[١١] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٣٩.

[١٢] العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٥٣.

وللشيخ أثير الدين بن حيان الغرناطيّ مُؤلَّف في كلِّ قراءة من القراءات المعروفة مثل" النافع في قراءة نافع" [١]، و" الأثير في قراءة ابن كثير"، و" المورد الغمر في قراءة أبي عمر"، و" الحلل الحاليَّة في أسانيد القراءة الحاليَّة"[٢]، ولابدَّ من الإشارة أنَّ هذه المؤلَّفات التي احتوت على كلام من القُرآن الكريم، حملت في غالبها على معلوماتٍ جُغرافيَّة قيّمة جعلت من هذا العلم علماً مساعداً لعلم الجغرافية في تفسير كثير من الأمور الجُغرافيَّة المُتعلِّقة بفروض العبادة.

2ً- الحديث الشريف:

ليس من المُبالغة القول: إنَّ هذا العصر هو العصر الذهبي للحديث النبويّ، إذْ كثُرت دراسات الحديث في هذا المجال، وتمثَّلت بثلاثةِ **اتِّجاهات، هي:**

الاتِّجاه الأوَّل:

يتعلَّق بعلوم الحديث ومصطلحه، وهي نوعان: **الأوَّل:** يركِّز حول دراسات قديمة في هذا المجال شرحاً وتنظيماً ونظماً، و**الثاني:** هو مؤلَّفات جديدة في هذا المجال.

الاتِّجاه الثاني:

يبحث في متن الحديث، ويتضمَّن شرح الأحاديث السابقة، واختصار كُتب الحديث السابقة، و تخريج الأحاديث، وجمعها وإعادة ترتيبها.

الاتِّجاه الثالث:

يبحث في سند الحديث، وقد تعدَّدت مناهجه، فمنهم من خرَّج لنفسه مُعجمات لمشايخه، ومنهم من جمعَ تراجم عن أبيه عن جدِّه عن النبي ﷺ، ومنهم من جمع تراجم تختصُّ بكُتبٍ مُعيّنة من كتبِ الحديث، ومنهم من كتبَ في سيرة الرجال حسب تعديلهم أو تجريحهم، وصنِفْ منهم في سيرة الحُفاظ الَّذين حفظوا الأحاديث ورووها، وصنِف من يشتبه باسمه[٣].

ولعلَّ أبرز من اشتهر في هذه الاتِّجاهات محيي الدين بن شرف النوويّ(ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) فقد شرحَ السنَّة للبغوي، وشرح صحيح البخاريّ وسمَّاه" تحفة الباري في شرح صحيح البخاريّ"، وشرح صحيح مسلم، وسمَّاه" المنهاج في شرح صحيح مسلم"، وله" رياض الصالحين"، وهذه الشروحات لأحاديث النبي ﷺ احتوت في طيَّاتها على إشاراتٍ جُغرافيَّة تعلَّقت بفروض العبادة التي وردَ ذكرها في هذه الأحاديث[٤].

---

[١] ابن حيان الغرناطي(محمد بن يوسف): النافع في قراءة نافع، دار المنار، بيروت، ١٩٩٥م، ص١١.

[٢] ابن رافع السلامي: الوفيات، ج١، ص٤٨٢-٤٨٤؛ ابن قنفذ: الوفيات، ص٣٤٩؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج١/ ق١، ص٩٥، ٩٦.

[٣] ابن طولون: نقد الطالب، ص٩٧، ٩٨؛ العطاري: حركة التأليف العلمي، ص٦٠- ٦٢.

[٤] الذهبي(محمد بن أحمد): تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٤، ص١٧٠-١٧٤؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢، ص١٥٣- ١٥٦.

وصنَّف محمد ابن دقيق العيد(ت ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) كتاباً في هذا المجال سمَّاه " إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام"[١]. وخرَّج علم الدِّين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) لنفسه أربعين بلدانية، ورتَّب المُعجم الكبير، وعدد شيوخه ثلاثة آلاف رتبهم على حروف المعجم[٢]. وصنَّف محمد بن أحمد الذهبي(ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ميزان الاعتدال في نقد الرجال[٣]، وخرَّج" المعجم الكبير" و" الصغير" و" المعجم المُختصّ بالمُحدِّثين"[٤]، و صنَّف" المغني في الضعفاء"[٥].

أمَّا محمد بن بهادر الزركشيّ فاشتغلَ بعلم الحديث وصنَّف فيه كتاباً فريداً سمَّاه " اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة"، واحتوت مُقدّمته ذكر الأحاديث المُشتهرة على ألسنة العوام، وكثير من الفقهاء وبيَّنَ ما فيها من مكذوب ومختلفٍ لا أصل له، وتضمَّن تفسيره على العديد من الإشارات الجُغرافيَّة الواردة في الأحاديث النبويَّة[٦].

تبع هؤلاء أبو المحاسن محمد بن علي العلوي الحسيني(ت ٧٦٥هـ/١٣٦٤م) الذي ألَّف كتابه" التذكرة لمعرفة رجال الكتب العشرة"، وهو ذيل لكتاب" تهذيب الكمال"[٧] في أسماء الرجال لأبي الحجاج يوسف المزي(ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م)، إذ أضاف فيه أسماء رجال الكتب الأربعة، ورتَّبه، وذكر فيه أسماء الرجال، وأسماء آبائهم، والكنى، والأنساب، والألقاب دون ذكر الأجداد الآخرين مع ذكر أهمِّ شيوخ الراوي، وذكر فيها أماكن إقامة هؤلاء الرجال، وهي إشاراتٍ جُغرافيَّة قيّمة جعلت من علم الحديث علماً مُساعداً لعلم الجغرافية في أحد جوانبهِ[٨].

3ً- الفقه وأصوله:

---

[١] ابن دقيق العيد(محمد بن علي): إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تح: أحمد شاكر، دار عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ج١، ص٧.

[٢] ابن حبيب الناصرية: تذكرة النبيه، ج٢، ص٣٠١، ٣٠٢.

[٣] الذهبي(محمد بن أحمد): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح: علي محمد البجّاوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٣م.

[٤] الذهبي(محمد بن أحمد): المعجم المختص بالمحدثين تح: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط١، ١٩٨٨، ص١.

[٥] الذهبي(محمد بن أحمد): المغني في الضعفاء، تح: نور الدِّين عتر، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، ط١، ١٩٦٩م، ج١، ص٤.

[٦] الزركشي(محمد بن عبد الله): اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص١٠-١٢.

[٧] المزي(يوسف بن عبد الرحمن): تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ج١، ص٧.

[٨] الحسيني(محمد بن علي): التذكرة لمعرفة رجال الكتب العشرة، تح: رفعت فوزي عبد المطلب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ج١، ص٥، ٦.

علم الفقه: علم تُستنبط من خلاله الأحكام الشرعية من مصادرها الأوليَّة امتثالاً لأوامر الله تعالى واجتناباً لنواهيه[١]. ويرتبط بعلم الفقه، علم أصول الفقه، وهو استنباط الأحكام الشرعيَّة الفرعيَّة من أدلَّتِها، وهي الكتاب، والسُنَّة، والإجماع، والقياس[٢]. كما يرتبط به أيضاً علم الفرائض، وهو علم يبحث عن أحوال قِسمة التركة على مُستحقِّيها على فروضٍ مُقدَّرة في كتاب الله، والسنَّة النبويَّة، و إجماع الأُمَّة[٣].

وقد نالت دراسة الفقه وأصوله اهتمام العلماء في العصر المملوكيّ الأوَّل، واحتوت العديد من كتب الفقه على ذكرٍ للفتاوى الدينيَّة المُتعلِّقة بفروض العبادة، وهي في غالبها تحمل إشاراتٍ جُغرافيَّة قيّمة تتعلَّق بتلك الفروض، وتحديد زمانها، معتمدة في ذكرها على ما جاء في القرآن الكريم، والأحاديث النبويَّة الشريفة، ففي الفقه الشافعي برع عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن(ت٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)[٤] الذي صنَّف فيه كتابين هما" الفتاوى الموصليَّة في الفقه الشافعي"[٥] و" القواعد الكبرى" الذي الذي أبدع فيه باباً جديداً في الفقه سمَّاه" باب المقاصد" [٦] وأرجع فيه الفقه إلى عدِّ المصالح ودرء المفاسد[٧].

كذلك اشتهر الفقيه العلَّامة تقي الدِّين علي بن عبد الكافي بن تمَّام السبكيّ الشافعيّ(ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، ومن أشهر مُصنّفاته في الفقه الشافعي" الانتهاج في شرح المنهاج" و" تكملة شرح المُهذَّب"[٨].

وفي الفقه الحنفي اشتهر إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبد الصمد الحنفيّ(ت ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م) وصنَّف فيه كتابه الشهير" الفوائد الفقهيَّة البدريّة"[١]. وممَّن اعتنى بالفقه الحنفيّ أيضاً الفقيه عبد القادر بن محمد بن أبي الوفاء القرشيّ (ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)، وصنَّف فيه كتاب" طبقات الحنفيّة"[٢].

---

١ العاملي(زين الدِّين بن علي بن أحمد): منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، تحقيق عبد الأمير شمس الدين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٩٤.

٢ طاش كبرى: مفتاح السعادة، ج٢، ص ١٦٣.

٣ طاش كبرى: مفتاح السعادة، ج٢، ص ٥٦٦؛ الزحيلي(محمد مصطفى): مرجع العلوم الإسلامية، دار المعرفة، دمشق، ط٢، ١٩٩٢م، ص ٤٢٥.

٤ عن هذه المدارس: اليافعي(عبد الله بن أسعد): مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ١٩٩٧م، ج٤، ص١١٩.

٥ السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص٢٠٩-٢٥٥؛ ابن قنفذ القسطنطيني: الوفيات، ص٣٢٧؛ الداوودي: طبقات المفسرين، ج١، ص٣١٥-٣٢٨.

٦ ابن عبد السلام(عز الدين): القواعد الكبرى، تح: نزيه حماد و عثمان ضميرية، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٤.

٧ السيوطي(عبد الرحمن بن أبي بكر): الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، دار الكتاب العلمية، بيروت،١٩٨٣م، ص٦.

٨ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣، ص٣٧؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص٧٤.

ومن أعلام الفقه المالكيّ عبد الله بن عبد الرحمن بن عمر الشار مساحي(ت ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م) وله فيه مؤلَّفات أشهرها" الفوائد في الفقه" [٣]. واشتهر في الفقه المالكيّ الفقيه عيسى بن مسعود بن منصور الزواوي(ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) ومن مؤلفاته فيه" إكمال الإكمال"، و" شرح مُختصر ابن الحاجب"[٤].

وبرعَ عدداً من الفقهاء في الفقه الحنبليّ، يأتي في مُقدِّمتهم تقي الدِّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم النميريّ الحرانيّ(ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) الذي أتقن عدداً من العلوم منها التفسير، والحديث، والفقه، والعربيّة، وغيرها من العلوم، ودَرَّس بالمدرسة الحنبليَّة، وصنَّف في الفقه الحنبلي مؤلَّفات عدَّة منها" فتاوى النساء"، و" نواقض الوضوء"، و" الجمع بين الصلاتين في السفر"[٥]، وصنَّف محمد بن مفلح بن محمد المقدسيّ الراميني(ت ٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م) كتاب" الفروع في الفقه الحنبليّ"[٦].

ج- علوم اللغة العربية وآدابها:

تُعدُّ علوم اللغة العربية وآدابها من العلوم المُساعدة والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعلم الجغرافية، فالأدب العربيّ بكافَّة فروعهِ من النحو، والشعر، والنثر، غنيٌّ بأسماءِ الأعلام والأماكن الجُغرافيَّة، فقد احتوت كتب النحو والصرف على تراجمٍ لأعلام النحويّين مرتبطة بمناطقهم الجُغرافيّة.

واحتوت أشعار العرب على كثير من الحقائق الجُغرافيَّة الخاصَّة بوصفهم بيئتهم الطبيعيَّة بسهولها وجبالها، وبذلك تُعدُّ علوم اللغة العربية علماً مُساعداً لعلم الجغرافية، لما تحتويه مُصنَّفاتها من أعلامٍ جُغرافيَّة، وذكرٍ للأودية، والآبار، والجبال، والتلال، والبحار، والأنهار، وغيرها من الأوصاف الجُغرافيَّة[٧].

وقد نبغَ في علوم اللغة العربيّة عدداً من العلماء الَّذين ضمَّت مؤلَّفاتهم على مُقدِّمات وأوصاف جُغرافيَّة قيّمة، وعُدُّوا أئمَّة في فنونهم التي أبدعوا فيها في مجالات اللغة العربيَّة المُرتبطة بكثير من الأحيان بعلم الجُغرافية. و يأتي في مقدمة هذه الفنون:

1ً- النحو والصرف:

---

[١] الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص١٠٠-١٠٢.

[٢] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ، ج٣، ص١٩١، ١٩٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٤٠٩، ٤١٠.

[٣] ابن فرحون(إبراهيم بن علي): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢م، ج١، ص٤٤٨، ٤٤٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣٨٠.

[٤] ابن فرحون: الديباج المذهب، ج٢، ص٧١، ٧٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٨٩- ٢٩١.

[٥] البرزالي(القاسم بن محمد الإشبيلي): المقتفي على كتاب الروضتين، تح: عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م ، ج٤، ص٧٩، ٨٠؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٩.

[٦] ابن مفلح الراميني(محمد): الفروع، تح: عبد الستار فرّاج، دار عالم الكتب، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م ، ج١، ص٢٢.

[٧] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٣٥، ١٣٦.

الأدب الجغرافي و الرحلات في بلاد الشام

شغلت مسألة تدوين أحكام اللغة العربيَّة، ووضع مقاييسها، واستنباط قوانينها، ومعرفة مفردات اللغة العربيَّة اهتمام الكثير من علماء النحو و الصرف[١].

ويأتي في مقدمة عُلماء النحو والصرف النحوي محمد بن عبد الله بن عبد الله الطائيّ الذي جمع أكثر من ألف بيت شعر في الرجز ضمَّنها في ألفيَّته المشهورة باسم" ألفية ابن مالك" التي احتوت على ذكر لكثيرٍ من الأماكن الجُغرافيَّة[٢]، ثمَّ صنَّف كتابه المشهور في النحو" تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد"، وذكر فيه أعلام النحو مع ذكرِ مناطقهم الجُغرافيَّة[٣]، و ضمَّن موضوعات النحو والصرف في ثمانين باباً وتضمَّنت وتضمَّنت مئتين وأحَّد عشر فصلاً، ثمَّ أتبعه بشرحٍ له سمَّاه" شرح التسهيل"[٤].

كما نال أثير الدِّين بن حيّان الغرناطيّ شهرة كبيرة لدرجة عُدّ شيخ النحاة في عصره، إذْ صنَّف في النحو مُصنَّفات عدَّة[٥] كان أشهرها" التذييل والتكميل في شرح التسهيل"[٦]، و" تذكرة النُحاة"[٧]، و" التجريد لأحكام سيبويه"[٨]، وهي مؤلَّفات في غالبها تحتوي على معلوماتٍ جُغرافيَّة قيّمة.

وفي الصرف وُضعت كتب قيّمة حملت كثيراً من الإشارات الجغرافيّة في طيَّاتها، إذ وضع الغرناطّي كتابه الشهير" المبدع"، وهو كتاب تلخيص عن كتاب" الممتع في التصريف" لابن عصفور الإشبيلي(ت ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م)[٩].

---

١ سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص١٥٢.

٢ ابن كثير: البداية النهاية، ج١٣، ص٢٦٧؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٧٠٦؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص١٥١.

٣ ابن مالك الطائي(محمد بن عبد الله): تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي، د. م، ١٩٦٧م، ص١.

٤ ابن مالك الطائي(محمد بن عبد الله): شرح التسهيل، تح: عبد الرحمن السيد و محمد المختون، دار هجر، القاهرة، ١٩٩٠م، مج١، ص٣.

٥ الصفدي: نكت الهميان، ص٢٨٠-٢٨٦؛ ابن رافع السلامي: الوفيات، ج١، ص٤٨٢-٤٨٤.

٦ ابن حيان الغرناطي(محمد بن يوسف): التذييل والتكميل في شرح التسهيل، تح: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م، ج١، ص٦.

٧ ابن حيان الغرناطي(محمد بن يوسف): تذكرة النحاة، تح: عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢١.

٨ ابن حيان الغرناطي(محمد بن يوسف): ارتشاف الضرب من لسان العرب، تح: رجب عثمان محمد – رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م، مج١، ص٤.

٩ ابن حيان الغرناطي(محمد بن يوسف): المبدع في التصريف، تح: عبد الحميد السيد طلب، دار العروبة، د. م، ط١، ١٩٨٢م، ص٤٦.

واشتهر من النحاة عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاريّ(ت ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)، الذي ألَّف كتباً عدَّة في النحو[١] أشهرها" قطر الندى وبلّ الصدى"[٢]، و" الإعراب عن قواعد الإعراب"[٣]، و" مغني مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"[٤]، و" شرح شذور الذهب"[٥]، و" تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد"[٦]، الفوائد"[٦]، وهي مؤلَّفات غنيَّة في كثيرٍ من جوانبها بالمعلومات الجُغرافيَّة التي جعلت من علمي النحو والصرف أهمّ العلوم المساعدة لعلم الجغرافية.

2ً- البلاغة والعروض:

ضمَّت كُتب البلاغة والعروض في طيَّاتها إشاراتٍ جُغرافيَّة مُهمَّة سواء بذكرها لبعض أعلامِ الأماكن، أو التضاريس والظواهر الطبيعيَّة. ويُعدُّ محمد بن عبد الرحمن القزويني(ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) أشهر من صنَّف في البلاغة، فقد وضع كتابين في علم البلاغة[٧] هما" تلخيص المفتاح"، وهو تلخيص لكتاب" مفتاح العلوم" ليوسف بن أبي بكر السكاكيّ(ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٧م)[٨] والكتاب الثاني هو كتاب" الإيضاح"[٩].

---

[١] الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٥، ٦؛ ابن رافع السلامي: الوفيات، ج٢، ص٢٣٤، ٢٣٥؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج٢، ص٦٨، ٦٩.

[٢] ابن هشام الأنصاري(عبد الله بن يوسف): قطر الندى وبل الصدى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠٠٤م، ص١٥.

[٣] ابن هشام الأنصاري(عبد الله بن يوسف): الإعراب عن قواعد الإعراب، تح: علي فودة نيل، جامعة الرياض، د. ت، ص١.

[٤] ابن هشام الأنصاري(عبد الله بن يوسف): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك و حمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٤م، ص١.

[٥] ابن هشام الأنصاري(عبد الله بن يوسف): شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٥.

[٦] ابن هشام الأنصاري(عبد الله بن يوسف): تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد، تح: عباس مصطفى الصالحي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص٥.

[٧] الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٤٩٢-٤٩٥؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج١، ص١٥٦، ١٥٧.

[٨] القزويني(محمد بن عبد الرحمن): التلخيص في علوم البلاغة، تح: عبد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٣.

[٩] القزويني(محمد بن عبد الرحمن): الإيضاح في علوم البلاغة، تح: إبراهيم شمس الدِّين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص٦.

وبرعَ في علم البلاغة أيضاً عبد الرحيم الإسنويّ(ت ٧٧٢هـ/١٣٧٠م) صاحب كتاب " نهاية الراغب في شروح عروض ابن الحاجب"[١]. وتبعه أحمد بن علي السبكي(ت ٧٧٣هـ/١٣٧١م)[٢] صاحب كتاب" عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"[٣]. ومن الَّذين صنفوا في علم العروض العالم شمس الدِّين محمد بن أحمد المعروف بابن الصائغ (ت ٧٢٠هـ/١٣٢٠ م)[٤] الذي شرح مقصورة ابن دريد[٥].

3ً- المعاجم اللغوية:

لمعت أسماء لغويين عدَّة كان لهم دوراً كبيراً في تنشيط حركة التأليف اللغويّ في المفردات، وهذا ما عرف باسم" المعاجم اللغوية"، التي احتوت في طيّاتها كثيراً من المفردات الجُغرافيَّة سواء ما يخصُّ ذكر بعض أعلامِ الأماكن، أو النباتات، والأشجار، والكواكب، والأنهار، والبحار وغير ذلك من المعلومات الجُغرافيَّة القيمّة. ويتصدَّر هؤلاء اللغوي النحوي ابن مالك الطائي[٦] الذي وضع مُعجماً لغوياً احتوى أكثر من ألفين ألفين وثلاثمائة كلمة من الكلمات المُثلَّثة أي المُكوَّنة من ثلاثة أحرف، و سمَّاه" إكمال الإعلام بتثليث الكلام" [٧].

وصنَّف محمد بن مكرم بن منظور(ت ٧١١هـ/ ١٣١١م) معجمه الشهير" لسان العرب"، وضمَّن معجمه مادَّة علمية كبيرة لكثير من المفردات المُرتّبة بحسب أواخر أصول الكلمات، وهو كتاب لغويّ ونحويّ، وكتاب صرف، وفقه، وآداب، وشروح للحديث الشريف، وتفسير القرآن الكريم، ويحتوي بجانبٍ آخر على إشاراتٍ جُغرافيَّة مُهمَّة[٨].

---

[١] الإسنوي(عبد الرحيم بن علي): نهاية الراغب في شروح عروض ابن الحاجب، تح: شعبان صلاح، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص٤.

[٢] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٧، ص٢٤٦، ٢٤٧؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص٤٠٨- ٤١٣.

[٣] السبكي(أحمد بن علي): عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ج١، ص٤.

[٤] ابن تغردي بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٧٧.

[٥] ابن الصائغ(محمد ابن أحمد): شرح مقصورة ابن دريد، تح: فخر الدِّين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص٥.

[٦] ابن كثير: البداية النهاية، ج١٣، ص٢٦٧؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٧٠٦؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص١٥١.

[٧] ابن مالك الطائي(محمد بن عبد الله): إكمال الإعلام بتثليث الكلام، تح: سعد بن حمدان الغامدي، مكتبة المدني، مكة المكرمة، ١٩٨٤م، ص٥، ٦.

[٨] الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٢٧٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٥، ص٣٢.

ولخليل بن أيبك الصفديّ(ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) معجماً لغوياً ضمَّنه غريب الكلمات مُعتمداً في ترتيبها على اشتقاق الكلمة من جذرها الرئيس وقد سمَّاه" غوامض الصحاح"[١].

وتضمَّن معجم" المصباح المنير في غريب الشرح الكبير" لمؤلِفه أحمد بن علي المُقرئ الفيوميّ(ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) جميعِ الألفاظِ الواردة في كتب الفقه، ورتّبه وفقاً لحروف الأصول على الألف باء مُبتدئاً من حرفها الأوَّل، فالثاني حتَّى الحرف الأخير، وتضمَّن هذا المعجم على كثيرٍ من الألفاظ الجُغرافيَّة التي تدلُّ على ارتباط المعاجم اللغويَّة بعلم الجُغرافية ارتباطاً وثيقاً[٢].

4ً- الأدب:

ازدهرت الحركة الأدبيّة في العصر المملوكيّ ازدهاراً كبيراً، لاسيَّما النثر الفنيّ والشعر اللذان احتويا في مضمونهما كثيراً من الإشارات الجُغرافيَّة لبعض أعلامِ الأماكن. ويعكس شعر العصر المملوكيّ كافَّة جوانبِ المجتمع المملوكيّ السياسيَّة، والثقافيَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة كافَّة.

وازدهرت المُناظرات الأدبيَّة والشعريَّة المُختلفة، وشاعَ في شعر العصر المملوكيّ السهولة والوضوح، وامتزاج العامِّية بالفصحى، وانتشرت الصنعة والمبالغةُ والتكلُّفُ، واستخدمَ الشعراء المحسنات البديعيَّة والصنعة البيانيَّة، وصارت الألفاظ قريبة من العامَّة، واستمرَّت الأغراض الشعريَّة السابقة كالغزل، والمدح، والرثاء وغيْر ذلك.

ولعلَّ أشهر الشعراء الَّذين ذاع صيتهم في العصر المملوكي واحتوت أشعارهم على دلالات جُغرافيَّة في مضامين شعرهم: الشاعر أحمد بن محمد، أبو الطيّب شرف الدِّين الربعيّ المعروف بابن الحلاويّ الموصليّ(ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) الذي كان شعره في قمّة الجزالة والرِّقة وجودة المعاني[٣].

ومن الأمثلة على الأشعار التي نظمها الموصليّ الأبيات التالية:

فــــي خـــــدَّها روضـــــة إذا رعيـــــت بـــــاللحظ راحـــــت بطرفهــــا تحمـــــىْ

بقامـــــــــةٍ تلتـــــــــويْ وناظرهـــــــا يـــــدمي البرايــــا ووجنـــــةٍ تـــــدمىْ

كأنّمـــــا الـــــــرَّدف خلفهـــــا أجـــــأ كيــــف اســـتقلّت بحملــــه ســــلمىْ[٤].

---

[١] الصفدي(خليل بن أيبك): غوامض الصحاح، تح: عبد الإله نبهان، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٧.

[٢] الفيومي(أحمد بن علي): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م، ص١.

[٣] الحسيني(أحمد بن محمد): صلة التكملة لوفيات النقلة، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ص٤٠٧؛ ابن الشعار الموصلي: عقود الجمان، ج١، ص٣٠٣-٣٢٣؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٩٦، ١٠٤.

[٤] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص١٠٦؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص١٧١.

والمُلاحظ أنَّ الأبيات السابقة احتوت في طيَّاتها على دلالاتٍ جغرافيَّة هي منطقة أجأ، وسلمى وهما جبلان في أراضي الجزيرة العربيَّة.

واشتهر الصاحب بهاء الدِّين زهير بن المُهلَّبي(ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) الشاعر المجيد وله النظم الفائق الرائق[١]، ولعلَّ أبرز شعره قصيدة مطلعها:

أ أرحـــل مـــن مصـــر وطيـــب نعيمـــه فـــأيَّ مكـــان بعـــدها لـــي شـــائقاً[٢].

وبرع الأديب نور الدِّين محمد الإسعرديّ(ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) الشاعر المشهور[٣]، ولعلَّ أبرز شعره ما ما قاله في دمشق ومُدنها:

وريـــمٍ جلـــى لـــي خمـــرةً مـــزّةً جلـــتْ همـــومي وقـــد عاينـــتُ فـــي خـــدّهِ ســـطرَا

وربوتـــــه الشّـــــقراءُ ناعمـــــةً غـــــدتْ ويـــا حســـنها مـــن بـــرزةٍ ليتهـــا عـــدرَا[٤].

وتضمّنت الأبيات السابقة للإسعردي دلالاتٍ جُغرافيَّة واضحة، إذْ أشار إلى أسماء ستّة أماكن بدمشق وهي: المزة، وسطراء[٥]، والربوة، والشقراء[٦]، وبرزة[١]، وعدرا[٢].

---

[١] الذهبي(محمد بن أحمد): المختار من تاريخ ابن الجزري، تح: خضير عباس المنشداوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٢٥١-٢٥٣. أمَّا نسبته بالمهلبي قال ابن خلكان: « أخبرني بهاء الدِّين أنّ نسبته إلى المهلب بن أبي صفرة بن صبح بن كندي أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة المتوفى سنة ٨٢هـ /٧٠١م». ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٣٧، ٣٣٨، ج٥، ص٣٥٠.

[٢] المهلّبي(زهير): الديوان، تح: محمد طاهر الجبلاوي وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م، ص١٨٠.

[٣] الصفدي: نكت الهيمان، ص٢٥٥-٢٥٧؛ الغساني: العسجد المسبوك، ج٢، ص٦٤٣؛ الغزولي(علي بن عبد الله): مطالع البدور في منازل السرور، مطبعة إدارة الوطن، د. م، ١٨٨١م، ج١، ص٥٥.

[٤] الصفدي: نكت الهميان، ص٢٥٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص١٩٢.

[٥] من قرى غوطة دمشق قرب بيت لهيا في طريق جامع القصب، وغربي القصاع، أُطلق عليها قديماً سطرا العرب. الحموي: معجم البلدان، مج٣، ص٢٢٠؛ المنجد(صلاح الدين): منازل قبائل العرب حول دمشق، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٥٥م، ص٦٥.

[٦] منتزه مطلٌّ على المرج الأخضر بدمشق من جهة الغرب. أبو البقاء البدري(عبد الله بن محمد): نزهة الأنام في محاسن محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٣م، ص٧٤؛ كرد علي(محمد): غوطة دمشق، مطبعة الترقي، دمشق،١٩٤٩م، ص٥٠.

كما اشتهرَ الشاعر محمد بن سعيد البوصيري(ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م)، وقد برع في النظم، وجاء شعره غاية في الحُسن واللطافة وعذوبة الألفاظ، واشتهر بقصيدته " البردة" التي امتدحَ بها الرسول الكريم ﷺوتقع في ١٦٢ بيتاً[٣] ومطلعها:

أمـــــن تـــــذكر جيـــــران بـــــذي ســـــلم مزجــت دمعــاً جــرى مــن مقلــةٍ بــدمِ[٤].

وممن برع بالشعر محمد بن نباتة المصريّ(ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)[٥]، فقد اشتغل بفنيّ النظم والنثر، وله ديوان شعر مطلعهُ:

تحكـــــم فـــــي النـــــاس عُنســـــهُ ورداً حكــم ابــن أيــوب فــي ســطاً ونــداً[٦].

إضافةَ إلى ذلك كان هناك حاجةً في هذا العصر إلى الكتابة في الإنشاء، فبرعَ عديداً من كُتَّاب الأدب، ولعلَّ أبرزهم الأديب ابن عبد الظاهر الذي صنَّف في الأدب كتابه الشهير" تمائم الحمائم"[٧]، ومن كُتّاب هذا العصر شهاب الدِّين محمود بن سليمان الحلبيّ الذي برع في النثر والنظم وصنَّف فيها تصانيف عدَّة[٨] أشهرها" حُسن التوسّل إلى صناعة الترسّل"[٩]، و" منازل الأحباب ومنازة الألباب"[١٠].

---

١ قرية من غوطة دمشق، تقع شمال دمشق على سفح جبل قاسيون الأسفل من جهة الشرق. أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٣٢؛ قدامة(أحمد): معالم وأعلام في بلاد العرب، مطبعة ألف باء الأديب، دمشق، ١٩٦٥م، ج١/ ق١، ص١٢١.

٢ قرية بغوطة دمشق من إقليم خولان معروفة ينسب إليها مرج عذراء. البغدادي(عبد المؤمن بن عبد الحق): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح: علي البجاوي، دار الجيل، بيروت ، ط١، ١٩٩٢م، مج٢، ص٩٢٥.

٣ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٠٥– ١١٢؛ الكتبي: فوات الوفيات، مج٣، ص٣٦٢.

٤ البوصيري(محمد بن سعيد): الديوان، دار الأرقم، مكة المكرمة، ٢٠٠٤م، ص٤.

٥ الذهبي: معجم شيوخ الذهبي، ص٥٧٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص٣١١.

٦ ابن نباتة المصري(محمد بن محمد): الديوان، المطبعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٣م، ص٤٥.

٧ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١١٨–١٢١؛ ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص١٧٥–١٨٣؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٤، ص٥٧٩–٥٨١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣٦٨؛ البغدادي: هدية العارفين، مج١، ص٤٦٣

٨ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٢٤–٣٢٦؛ ابن حجر العسقلاني(أحمد بن علي): المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، تح: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ص٩٠.

٩ الحلبي(شهاب الدِّين محمود): حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تح: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م، ص٥.

١٠ الحلبي(شهاب الدِّين محمود): منازل الأحباب ومنازة الألباب، تح: محمد الديباجي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٣.

ولعلَّ أشهر كُتَّاب هذا العصر أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمريّ الذي عمل في ديوان الإنشاء وعمل كاتباً للسرِّ[١]، وصنَّف كتاباً في مصطلح الكتابة الديوانيّة والقوانين التي تُراعى عند المكاتباتِ الصادرة عن ديوان الإنشاء سمَّاه" التعريف بالمصطلح الشريف"، حمل في طيَّاته كثيراً من المعلومات الجغرافية القيّمة التي توضح علاقة الجغرافية بالأدب[٢].

كما برع صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصفديّ في الرسائل والنظم والنثر، فصنَّف في الأدب تصانيف عدَّة، أهمها" لوعة الشاكي ودمعة الباكي"[٣]، و" تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون"[٤]. ولعلَّ أهمَّ كتبه في النقد الأدبي مُؤلّفه الشهير" نُصرة الثائر على المثل السائر"[٥]. وقد حملت هذ المُؤلَّفات في طيّاتها معلوماتٍ وإشاراتٍ جُغرافيَّة قيّمة، جعلت من الأدب العربيّ بشكلٍ عام، والشعر بشكلٍ خاصّ علماً مُساعداً لعلم الجغرافية في العصر المملوكيّ.

د- علم التاريخ:

بدأت حركة التأليف في الجُغرافية في الوقت نفسه الذي بدأت فيه الكتابة التاريخية، فكانَ أوَّل من كتب التاريخ العربي هم أنفسهم الَّذين كتبوا في الجغرافية العربية، ذلك أنَّ التاريخ والجُغرافية كانا في نظر العرب المسلمين فرعين متلازمين[٦]، ولعلَّ أهمِّيةَ ارتباط علم التاريخ بالجُغرافية، وعلم الجُغرافية بالتاريخ جعل الدراسة التاريخيَّة تستند دائماً إلى خلفية جُغرافيَّة، فمن الواضح أنَّه لا بُدَّ لكلِّ دراسة جُغرافيَّة من خلفية تاريخيَّة فلا مناصَ مثلاً عند دراسة المُدن في الجغرافية من مُقدِّمة تاريخيَّة لها، فالتاريخ وحده هو القادر على تفسير أمورٍ عديدة في بُنية المدن، مثل كيفية اتساع المدينة، ووسائل امتدادها بالطرق، والتجارة، والصناعة، وكيف تحولت مثلاً إلى مدينة كبيرة أو صناعية، أو...إلخ[٧].

---

[١] ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٥٠٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٦٨.

[٢] ابن فضل الله العمري(أحمد بن يحيى): التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٩.

[٣] الصفدي(خليل بن أيبك): لوعة الشاكي ودمعة الباكي، تح: محمد أبو الفضل محمد هارون، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٢م، ص٢.

[٤] الصفدي(خليل بن أيبك): تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٩٦٩م، ص٧.

[٥] الصفدي(خليل بن أيبك): نصرة الثائر على المثل السائر، تح: محمد علي سلطاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٧١م، ص٥.

[٦] مؤنس: الجغرافية والجغرافيون، مج٩، ص١٩٩، ٢٠٠ .

[٧] الصباغ(ليلى): دراسة في منهجية البحث التاريخي، منشورات جامعة حلب، ط١٠، ٢٠٠٣– ٢٠٠٤م، ص١٤٢، ١٤٣. ١٤٣.

وفي العصر المملوكي أدرك عُلماء العصر قوة وتأثير الجُغرافية في المسيرة التاريخيَّة، مُعلِّلين بأثر المكان كثيراً من الظواهر التاريخيَّة، وارتبطت الجُغرافية بالمؤلفات التاريخيَّة، فمن النادر أن يخلو مُؤَلَفْ تاريخي من معلومات جُغرافيَّة، فيُمهد صاحبه بمقدِّمة جُغرافيَّة، وظهر هذا الجانب أكثر ما ظهر في التواريخ المحلية، وحتَّى الجغرافيين والرحَّالة أنفسهم قدموا خدمات جليلة لعلم التاريخ، من خلال تدوين أخبار الرحلات، ووصف البلاد والعباد.

فاتَّجهت جهود هؤلاء المؤرِّخين للكتابة عن البلدان سواء ما يتعلَّق بجغرافيتها، وامتدادها، ورقعتها، وآثارها، وخططها، والنظام الذي أُقيمت عليه تلك الدول والمدن سواء كان الإداري أو السياسي، فالكثير من المؤرِّخين كتب تواريخ عن مصر ومدنها، وكان عددها لا يُحصى، واتَّجه بعضهم الآخر إلى الكتابة عن مُدن الشام وحلب، ودمشق، وغيرها، وتعدَّى آخرون هذا النطاق، فكتب بعضهم عن مُدن العراق والشرق، كما نالت الأماكن المقدسة حظّاً وافراً من هذه التواريخ، وأرَّخ آخرون لدول الأمويين، والعباسيين، والأيوبيين انتقالاً إلى دولة المماليك، و حقيقة الأمر امتاز العصر المملوكي بسعة معارف مُؤلِّفيه، فيُلاحظ أنَّ أغلب المؤرِّخين كتبوا في مجال الجُغرافية، أو احتوت مؤلفاتهم التاريخيَّة على معلومات جُغرافية قيّمة، و كذلك كتب عدداً من الجغرافيين في مجال التاريخ، وفيما يلي دراسة لأهمِّ المؤلفات التاريخيَّة التي احتوت على معلومات جُغرافيَّة تبرهن على أنَّ التاريخ من أهمِّ العلوم المساعدة لعلم الجغرافية.

1- كتب التاريخ العام وتواريخ المدن والدول:

يأتي في مُقدِّمة مؤرخي العصر المملوكي الَّذين جمعوا بين الزمان والمكان، المؤرِّخ الشهير إسماعيل بن هبة الله ابن باطيش الموصلي(ت ٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، فقد ألَّف كتاباً جمع فيه بين الزمان والمكان، وخصَّه بتاريخ مدينة الموصل وسمَّاه" تاريخ الموصل" وقدَّم له جُغرافياً مع مزامنة كلِّ حدثٍ أوردَهُ عنها بمعلوماتٍ جُغرافيَّة[١].

ولعلَّ شهرةَ المؤرِّخ الحلبي كمال الدِّين عُمر ابن العديم(ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) أتت من تاريخه المشهور" بُغية الطلب في تاريخ حلب"[٢] الذي انتزع منه مُجلدين ووضعهما في كتاب سمَّاه" زبدة الحلب في تاريخ حلب"[٣]، وتناولَ فيه حلب زمانياً ومكانياً جامعاً بين التاريخ والجُغرافية، فأصبحت مُقدمته فصلاً ضخماً من جُغرافيَّة شمالي بلاد الشام، كما قدَّم فيه معلومات جُغرافيَّة ثابتة المعالم عن البحيرات، والأنهار، والجبال، والخطط، والمزارات، والمعادن والمحاصيل[٤].

---

١ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨، ص١٩١، ١٩٢؛ ؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٣٠٧.

٢ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٢، ص٤٢١، ٤٢٢؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص١٢٦، ١٢٧.

٣ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص٩٥٢.

٤ كحالة(عمر رضا): التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٢م، ص٨٨ .

ولا يقلُّ عنه أهمِّية كتاب عبد الرحمن إسماعيل أبي شامة المقدسيّ(ت ٦٦٥هـ /١٢٦٦م) الموسوم بعنوان" الروضتين في أخبار الدولتين النوريَّة والصلاحيَّة"، وهو في مُجلَّدات عدَّة ، ثمَّ اختصره بكتاب آخر سمَّاه" عيون الروضتين في أخبار الدولتين النوريَّة والصلاحيَّة"، وتضمَّن الفترة من سنة(٥٢١هـ/١١٢٧م) حتَّى سنة(٥٩٠هـ/١١٩٤م)[١]، وهو من أهمِّ الكتب التاريخيَّة التي احتوت في طيَّاتها على معلوماتٍ جُغرافيَّة قيّمة، إذ قدَّمَ المؤلِّف لكتابهِ بُمقدِّمات جُغرافيَّة، ثمَّ تناول فيه الدولتين النوريَّة والصلاحيَّة تاريخياً وجغرافياً رابطاً بذلك بين عاملي الزمان والمكان، فُعدَّ كتابه من أشهر كُتب التاريخ الجُغرافيّ.

ومن الَّذين نبغوا في هذا المجال كان المؤرخ ابن العميد المعروف بالمكِّين جرجس بن أبي اليسر(ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، وله كتاب" المجموع المبارك" الذي يُعدُّ من أشهر كتب التاريخ العام، والذي حملَ في طيَّاته على معلوماتٍ جُغرافيَّة ذاتُ أهمِّيةٍ قيّمة جعلت من التاريخ علماً مُساعداً لعلم الجُغرافية[٢].

ولا يقلُّ عمَّا سبق أهمِّية كتاب المؤرِّخ نصر الله بن عبد المنعم التنوخي، المعروف بابن شقير الدمشقي(ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م)، الذي ألَّف كتاب" إيقاظ الوسنان في تفضيل دمشق على سائر البلدان"، وهو كتاب تضمَّنه الحديث عن تاريخ مدينة دمشق، مع شرحٍ مُسهب لجُغرافيّتها وعمارتها، جامعاً في كتابه بين التاريخ والجُغرافية في كثيرٍ من فصولِ الكتاب[٣].

و جاء التطوّر المهمُّ في هذا المجال على يد المؤرخ الجُغرافيّ القزويني، زكريا بن محمد(ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) الذي ربط بين عاملي الزمان والمكان في كتابه الشهير" آثار البلاد وأخبار العباد"، وأدركَ مدى تأثير البيئة على المسيرة التاريخيَّة للشعوب، حينما قال: « ثمَّ اختصَّت كلَّ مدينةٍ لاختلاف تربتها وهوائها بخاصِّية عجيبة، وأوجد الحُكماء فيها طلسمات غريبة، ونشأ بها صنف من المعادن والنبات والحيوان، لم يوجد في غيرها، وأحدثَ بها أهلها عمارات عجيبة، ونشأ بها أُناسٌ فاقوا أمثالهم في العلومِ والأخلاقِ والصناعاتِ»[٤]، ولعلَّ كتاب القزويني من الكتب القلائل التي زُوِّدَت بالتصاوير(المنمنمات) إضافةً إلى جداولٍ فلكية وأشكالٍ، ساعدت على تفسير مسائل في غاية الأهمِّية كتاريخ تصوير الكواكب مثلاً، وبعض مسائل التاريخ الطبيعي[٥].

---

[١] أبو شامة(عبد الرحمن بن إسماعيل): عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩١م، ج١، ص١١٦، ١١٧.

[٢] بروكلمان(كارل): تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٥٩م، ج٦، ص١٤٤.

[٣] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٢١٥.

[٤] القزويني(زكريا بن محمد): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادق، بيروت، ١٩٦٠م، ص٨ .

[٥] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٦٤.

وفي هذا العصر صنَّف بعض المؤرِّخين كُتباً جمعت بين الجُغرافية والتاريخ، و تضمَّنت الحديث عن المدن والمقاطعات المختلفة في بلاد الشام، وأشهر هذه الكتب كتاب" الأعلاق الخطيرة في ذكر أُمراء الشام والجزيرة" لمؤلِّفه عز الدِّين محمد بن علي ابن شداد الحلبي(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)[١]، وتأتي أهمية هذا الكتاب كونَ صاحبه جمع فيه بين التاريخ والجُغرافية، فتناولَ جُغرافيَّة بلاد الشام وخططها، وذلك بذكرِهِ لخطط مدينة حلب، ودمشق، والجزيرة الفراتيَّة، ثمَّ تناول تاريخيَّاً الدول التي تعاقبت على حُكم هذه المناطق، مُفصِّلاً في ذكر ملوكها وحكَّامها، مع أهمِّ الأحداث والوقائع التاريخيَّة التي جرت في كلِّ مدينةٍ ذكرها، جامعاً بذلك بين عاملي الزمان والمكان.

واشتهر أيضاً المؤرِّخ غريغوريوس بن هارون الملطي المعروف بابن العبريّ(ت ٦٨٥هـ /١٢٨٦م) صاحب كتاب" تاريخ مختصر الدول"[٢]، الذي عُدَّ أهمَّ ما صُنِّف في مجال التاريخ الجُغرافيّ، إذ تناولَ فيه تاريخ الدول الإسلاميَّة منذُ عهدِ الرسولﷺ حتَّى زمنه، مُقدِّماً لكلِّ دولةٍ تناولها بُمقدِّمةٍ جُغرافيَّة.

ولا يخلو كتاب" الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميَّة" لمؤلِّفه الشهير محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي(ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، من الإشارات الجُغرافيَّة، فهو كتابٌ في التاريخ العام تناول في الفصل الثاني منه ذكر الدول الإسلاميَّة، لا سيَّما الدول الأمويَّة والعباسيَّة، ودولة السلاجقة والفاطميين، مُقدِّماً لكلٍّ منها بُمقدِّماتٍ جُغرافيَّة، جعلت من كتابه مؤلَّفاً حافلاً في التاريخ الجُغرافيّ[٣].

وكتب عبد الكريم بن عبد النور الحلبيّ (ت ٧٣٥هـ/١٣٣٤م) كتاباً حافلاً تحدَّث فيه عن مصر سمَّاه" تاريخ مصر"، وهو بضعة عشر مُجلَّداً، وهو كتاب في التاريخ العام لا يخلو من بعض الإشارات الجُغرافيَّة التي تخصُّ مصرَ ومُدنها[٤].

وتبعه جعفر بن ثعلب الأدفوي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) الذي ألَّف كتاباً سمَّاه" الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد"، وهو كتابٌ يتحدَّث عن أشهر أعلام الفكر في صعيد مصر، وقد رتَّبه على حروف المعجم ويقع في مجلَّدٍ واحدٍ[٥]، ترجمَ فيه لكلٍّ من علماء الصعيد في مصر، مُتناولاً ذكرَ مناطقهم الجُغرافيَّة، وكلّ مدينةٍ حلُّوا بها، فجمعَ بذلك في كتابه بين التاريخ والجُغرافية، وجمعَ المؤرِّخ الشهير أحمد

---

[١] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص١٢٥.

[٢] كحالة(عمر رضا): معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج٢، ص٦٠٣

[٣] ابن الطقطقي(محمد بن علي): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ص١٣-١٤.

[٤] الذهبي(محمد بن أحمد): ذيول العبر في خبر من غبر، تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ج٤، ص١٠١-١٠٢.

[٥] السخاوي(محمد بن عبد الرحمن): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تح: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٥٣-٢٥٣.

بن محمد المقدسي(ت ٧٦٥هـ/١٣٦٤م) كتاباً تحدَّث فيه عن فضائل الشام والمسجد الأقصى وسمَّاه" مُثير الغرام إلى زيارة القُدس والشام" وعدَّ بعضهم هذا الكتاب في الجُغرافية التاريخيَّة المعروفة بجُغرافيَّة الفضائل[١].

ومن المؤرِّخين أيضاً إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقيّ(ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) صاحب كتاب" البداية والنهاية"[٢]، وهو كتابٌ في التاريخ العام بدأه منذُ خلقِ السموات والأرض، وتناولَ فيه قصص الأنبياء، ثمَّ أوردَ فيه الأحداث التاريخيَّة حتَّى زمانه، وقدَّم له بُمقدِّماتٍ جُغرافيَّة، شملت الحديث عن خلق السموات والارض، والبحار والأنهار، وما خُلِقَ في الأرض من الجبال، والأنهار، والسهول، والثمار، والأشجار، وما خُلِقَ في السموات، وذَكَرَ قوسَ قُزح.

وإذا كان هؤلاء المؤرِّخون قد قدَّموا لكتبهم التاريخيَّة بُمقدِّمات جُغرافيَّة أو تخصَّص بضعهم الآخر في التأليف الجُغرافيّ إلى جانب التاريخ ، فإنَّ عالم الاجتماع ومُفسِّر فلسفة التاريخ العلَّامة عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي، قدَّم في تاريخه المعروف بـ" تاريخ ابن خلدون" معلوماتً جُغرافيَّةً مُهمة عن شكلِ الأرض، إذ قال: « اعلمْ أنَّه قد تبيَّن في كتب الحُكماء الناظرين في أحوال العالم، أنَّ شكل الأرض كروي، وأنَّها محفوفة بعنصر الماء، فانحسر الماء عن بعض جوانبها، وقد يتوهَّم من ذلك أنَّ الماء تحت الأرض وليس بصحيح، وإنَّما التحت الطبيعي قلب الأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها، ثمَّ إنَّ هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانه، والخالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال، وإنَّما المعمور منه أميل إلى الجانب الشمالي على شكل مُسطَّحٍ كرويٍّ ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء .... ، وهذا المنكشف من الأرض قالوا: هو مقدار النصف من الكرة أو أقل، والمعمور منه مقدار ربعه، وهو المنقسم بالأقاليم السبعة، وخط الاستواء يقسمُ الأرض بنصفين من المغرب إلى المشرق وهو طول الأرض»[٣].

إضافةً إلى ذلك فقد تناول ابن خلدون التاريخ بمفهومٍ آخر، فدرسَ سُكَّان البلاد تاريخيَّاً ودرس عاداتهم وطباعَهم لكنَّه أضفى العامل الجغرافي على دراسته ليبيِّن من خلاله مدى تأثير الجُغرافية على التاريخ، فبدراسته للعُمران البشري لمْ يُغفل تأثير البيئة على الإنسان[٤]، إذ حملت المُقدِّمة الثالثة من مُقدِّمته عنواناً في" المعتدل من الأقاليم، وتأثير الهواء في ألوان البشر"، وعالج ضمنها أثر البيئة، والتضاريس، و درجة الحرارة على ألوان البشر، وأخلاقهم وطباعهم، وانتحالهم للعلوم، والشرائع والصنائع، فقال: « أمَّا الأقاليم

---

١ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٣٠٠.

٢ الروداني(محمد بن سليمان): صلة الخلف بموصول السلف، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص١٥٦؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٢٢٨.

٣ ابن خلدون: المقدمة، مج١، ص٣٧.

٤ العزاوي(عبد الرحمن حسين): التاريخ والمؤرخون، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٩٣م، ص٤٣.

البعيدة من الاعتدال، فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم، يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، و يبعدون عن الإنسانيَّة بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً، فلا يعرفون نبوءة، ولا يدينون بشريعة إلَّا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو في الأقل النادر، مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام، ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً، فالدينُ مجهول عندهم، والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي، قريبة من أحوال البهائم»[1].

ولم يتوقَّف ابن خلدون عند ذلك فقد حلَّل أثر الهواء في أمزجة البشر، وعلَّل أنَّ لشدة الحرارة في بعض المناطق تأثيراً على خفّة سكّانها وطيشهم، في حين أورد أنَّ سكان المناطق الباردة لهم طبائع مختلفة، تمتاز في غالبها بالتيقظ والتفكير، فقال: « قد رأينا من خلق السودان على العموم، الخفَّة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كلِّ توقيع، موصوفين بالحمق في كلِّ قطرٍ، والسبب في ذلك أنَّ أهل السودان ساكنون في الإقليم الحار، واستولى الحرُّ على أمزجتهم، وفي أصل تكوينهم». مُقارناً بذلك بينهم وبين سكان فاس من بلاد المغرب بقوله: « ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة، كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب»[2].

وكما ذُكر سابقاً فإنَّ هناك بعض المؤرِّخين اختصَّ بالتأليف لجُغرافيَّة مدينة مُعينة و مثال ذلك ما ألَّفه محي الدين ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) في تاريخ القاهرة، وهو كتاب" الروضة البهيَّة الزاهرة في خطط المُعزِّية القاهرة"، الذي تحدَّث فيه عن خُطط القاهرة، وجوامعها ومساجدها، وأبوابها، ودروبها، ومسالكها، و مدارسها، وشوارعها، ومشاهدها إلى غير ذلك من الآثار[3].

كذلك ألَّف المؤرِّخ إبراهيم بن عبد الرحمن المصري الفزاري(ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م) كتاباً تحدَّث فيه عن الشام سمَّاه" الإعلام بفضائل الشام"، وهو كتاب في التاريخ الجُغرافي، تناول فيه بلاد الشام تاريخيَّاً، مع ذكر بعض فضائلها الجُغرافيَّة التي أُطلق عليها جُغرافيَّة الفضائل[4].

ونحا نحوه المؤرِّخ محمد بن عبد الوهاب ابن المتوَّج(ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م) الذي كتب في خطط القاهرة، وحملَ مُؤلَفه عنوان" إيقاظ المُتغفِّل واتعاظ المتأمل"، وقد بيَّن فيه جُملاً من أحوال مصر وخططها إلى سنة(٧٢٥هـ/١٣٢٥م)[5].

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، مج١، ص٨٨ ، ٨٩.

[2] ابن خلدون: المقدمة، مج١، ص٩٣، ٩٤.

[3] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٩٢٥.

[4] الذهبي: ذيول العبر، ج٤، ص٨٦؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج١، ص٣٤ .

[5] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٦؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٣، ص٤٧٤.

ويُعدُّ المؤرِّخ المؤيد إسماعيل أبو الفداء(ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) أشهر مؤرخي بلاد الشام الَّذين برعوا في التاريخ والجُغرافية، فشهرته قائمة على كتابه" تقويم البلدان"[١]، وهو كتاب في التقاويم الجُغرافيَّة، ذكر فيه المدن ضمن جداول فلكيَّة، مُرفقة بأهمِّ الأحداث التاريخيَّة التي جرت في كلِّ مكانٍ تناوله جامعاً بذلك بين علمي المكان والزمان، ولا يقلُّ عنه أهمِّية مُصنَّفه الآخر الذي خصَّصه لمدينة حلب مُتناولاً فيه جُغرافيَّتها مع أبرز الأحداث التاريخيَّة فيها، وسمَّاه" اليواقيت والضرب في تاريخ حلب"، وهو أيضاً كتاب في الجُغرافية التاريخيَّة"[٢].

كذلك كتب عبد الكريم بن عبد النور ابن منير الحلبي(ت ٧٣٥هـ/١٣٣٤م) كتاباً حافلاً تحدَّث فيه عن مصر وسمَّاهُ" تاريخ مصر" في بضعة عشر مجلداً[٣].

أمَّا الحافظ شيخ الإسلام محمد بن أحمد الذهبي(ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) فهو سيد من برعَ في التأليف التاريخي إلى جانب معرفته الجُغرافيَّة التي كتب فيها تصانيف عدَّة أشهرها" مُختصر تاريخ نيسابور"، وكتاب" الأمصار ذوات الآثار" تحدَّث فيه عن عدد كبير من المدن مثل المدينة المنورة، ومكة، ودمشق، والقاهرة، وبغداد، وجرجان، ونيسابور، وغيرها[٤].

ويُعدُّ كتاب" تاريخ القدس" للمؤرخ محمد بن محمود المقدسي(ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، ذا شهرةً واسعةً، وتأتي شهرته من قيمة معلوماته التاريخيَّة التي أرَّخ فيها المؤلف لمدينة القدس من بداية الخلق حتَّى وفاته، مُضمِّناً كتابه مُقدمةً جغرافيةً عن المدينة مع ذكر بعض آثارها وخططها الشهيرة[٥].

ويُمكن الملاحظة أنَّ أغلب مؤرخي هذا العصر الَّذين كتبوا في مجال الجُغرافية تناولوا في مؤلفاتهم الجُغرافيَّة التاريخَ الجغرافي لمدينةٍ معينة، وهذا ما يُرى إضافةً لما سبقَ عند المؤرِّخ محمد بن علي ابن عشائر الحلبي(ت ٧٨٩هـ/١٣٨٧م) الذي صنَّف في هذا المجال كتابين **الأول** سمَّاه" تاريخ حلب"[٦]، **والثاني**" تاج النسرين في تاريخ قنّسرين"[٧].

---

١ الذهبي: ذيول العبر، ج٤، ص٩٢؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٧٢.

٢ أبو الفداء(إسماعيل بن علي): اليواقيت والضرب في تاريخ حلب، تح: محمد كال الدين، فالح البكور، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٩٨٩م، ص٢١.

٣ الذهبي: ذيول العبر، ج٤، ص١٠١-١٠٢.

٤ الذهبي(محمد بن أحمد بن عثمان): الأمصار ذوات الآثار، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٥م، ص٥؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص٣١٦.

٥ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٣٠٠.

٦ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج٥، ص٢٧٤.

٧ الطباخ: أعلام النبلاء، ج١، ص٦٨.

وكتب إبراهيم بن محمد ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) كتاب" الانتصار لواسطة عقد الأمصار"، وهو كتابٌ في فنِّ الخطط الجغرافيَّة، تحدَّث فيه عن المدارس، و الحمَّامات، والقباب، والخانات، والجوامع، والترب، والخوانق، والأديرة، والكنائس في مصر [١].

وصنَّف تقي الدِّين أحمد بن علي المقريزي(ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢م) كتاب" المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، تناولَ فيه المدن والآثار المصريَّة القديمة والوسيطة، ووصفها وصفاً دقيقاً[٢].

2ً- الموسوعات التاريخيَّة الجغرافيَّة:

يُعدُّ العصر المملوكي عصر الموسوعات، إذ صنِّفت فيه موسوعات عدَّة ذاتُ أهمِّيةٍ كُبرى. وشغلت الجوانب الجُغرافيَّة أجزاء عدَّة من هذه الموسوعات، فكانت عاملاً مُساعداً في دراسة الجُغرافية في هذا العصر، لذلك كان لزاماً على الباحث أخذها في عين الاعتبار عند دراسةِ عوامل ازهار علم الجغرافية بشكل خاصّ والحياة الفكريَّة بشكلٍ عامّ.

والموسوعة في تعريفها:

هي كلُّ كتابٍ جامع أُعدَّ خلال العصور العربيَّة الإسلاميّة وضمَّ معلومات شاملة أو مختصَّة أو اختصارات للمعارف والفنون، واعتُمِد في ترتيبه شكلاً مُحدَّداً[٣]، وقد شهد العصر المملوكيّ ظهور عدداً من العُلماء الموسوعيين الَّذين ألَّفوا العديد من الموسوعات ذاعَ صيتها وشهرتها. وتميَّزت تلك الموسوعات بضخامتها، وكان مؤلّفوها كُتَّاباً، وأُدباء، ومؤرِّخين عُرفوا باسم العُلماء الموسوعيين، وقد تمكَّن هؤلاء من أنْ يجعلوا هذا النوع من الكتابة فنَّاً خاصَّاً لا يستطيع أنْ يضطَّلعَ به سوى القليلِ من العلماء[٤].

ولعلَّ من أهمِّ الدوافع وراء ظهور الموسوعات الكُبرى في العصر المملوكي كان مهاجمة المغول لدار الخلافة في بغداد، وقتلهم العلماء والفقهاء والمدرِّسين الأمر أدَّى إلى هجرة العُلماء، ففتحت مصر أبوابها لهؤلاء الوافدين من العُلماء والأُدباء، فعمل هؤلاء على إنقاذ الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة، وذلك بجمع المواد التي تتألَّف منها هذه الثقافة في كتبٍ كبيرة على شكلِ موسوعاتٍ. ولعبت العوامل السياسيَّة، والاجتماعيَّة، والتاريخيَّة، والنفسيَّة، والعلميَّة، دوراً مُهمَّاً في اكتمال الهدف الذي سعى إليه هؤلاء من تصنيفهم لتلك الموسوعات[٥].

---

[١] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص١٧٤.

[٢] السخاوي(محمد بن عبد الرحمن): التبر المسبوك في ذيل السلوك، تح: لبيبة إبراهيم مصطفى وآخرين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١،٢٠٠٣م، ج١، ص٧٠-٧٨.

[٣] الخزيمي(مسعود بن عبد الله): المراجع العربية، دار عالم الكتب، الرياض، ط٢، ١٩٩٧م، ص٦١.

[٤] عنان(محمد عبد الله): مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٧٦، ٧٧.

[٥] حمزة(عبد اللطيف): الحركة الفكريّة في مصر، الهيئة المصريّة العامَّة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٣١٥.

وكان أقطاب هذه الحركة عدد من أكابر العُلماء والكُتَّاب الَّذين صنَّفوا موسوعات علميَّة ضخمة ذاع صيتها في العالم العربي الإسلاميّ، **وأبرز هؤلاء:**

***- جمال الدِّين محمد بن مكرم الأنصاري المعروف بابن منظور(ت ٧١١هـ /١٣١١م):**

ألَّف موسوعته الشهيرة " لسان العرب"، وهي معجمٌ واسعٌ يشمل الجُغرافية، واللغة، والنحو، والصرف، والفقه، والأدب، وشرح الحديث الشريف، وتفسير القرآن الكريم[١]، واحتوت هذه الموسوعة على ثمانين ألَّف مادَّة بدأها بتفسير الحروف المُقطّعة، ثمَّ أفرد باباً في ألقاب الحروف، وبعدها بدأ بذكر الهمزة وترتيب الألفاظ هجائيَّاً مُعتمداً في ذلك ترتيب المعاني الكثيرة للمادَّة الواحدة، والفصل بين المعنى الحسِّي والمعنى المادِّي[٢].

***- محمد بن إبراهيم بن يحيى بن الورّاق المعروف بالوطواط(ت ٧١٨هـ/١٣١٨):**

كان من كبار الأُدباء، فجمع مجاميع أدبيَّة عدَّة، وصيَّر كتاباً عُرف بموسوعة" فتوى الفتوّة ومرآة المروّة"[٣]، كذلك ألَّف موسوعته الشهيرة المعروفة باسم" مباهج الفكر ومناهج العبر"[٤]، وهي موسوعة في الجُغرافية في أكثر جوانبها وسيتمُّ تناولها في الفصل الثالث، ضمن موسوعات التقاويم الجُغرافيَّة.

***- شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم النويري(ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م):**

تعدُّ موسوعته" نهاية الأرب في فنون الأدب" أشهر موسوعات العصر المملوكي[٥]، فقد شملت حياة أدبيَّة حافلة بأسرها، وقد أعطى النويري لموسوعته طابعاً أدبيَّاً، فهو لم يعالج فيها إلَّا ما كان الأدب يُسيغه، ولكن بأوسع المعاني، فتحدَّث فيها عن الأدب، والسياسة الملكيَّة، والبيان، والبديع، والأمثال، والأوصاف، ولكنَّه لم يتناول الطب، والرياضة، والكيمياء، وغيرها[٦].

وشغل الجانب الجُغرافي حيّزاً مُهمَّاً فيها، وإنْ كان ضئيلاً، لكن مُؤلِّفُها اعتمدَ في ذكر معلوماته الجُغرافيَّة على مؤلَّفات الجُغرافيّين السابقين مع إضافاتٍ نقديَّة اجتهد فيها المؤلِّف، فجاءت معلوماته الجُغرافيَّة دقيقة، لا سيَّما في ذكر الأنهار والجبال وغير ذلك[٧]، وجاءت هذه الموسوعة في واحد وثلاثين مُجلَّداً

---

[١] الذهبي: معجم الشيوخ، ٥٧٥، ٥٧٦؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٢٦٩-٢٧٥.

[٢] الذهبي: معجم الشيوخ، ص٥٧٦،٥٧٥؛ حمزة: الحركة الفكرية، ص٢٤٤.

[٣] الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٢٠١-٢٠٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٩٨، ٢٩٩.

[٤] الوطواط(محمد بن إبراهيم): مباهج الفكر ومناهج العبر، تح: عبد الرزاق الحربي، الدار العربية للموسوعات، د. م، ط١، ٢٠٠٠م، ص٨٢-٨٣؛ الزركلي الأعلام، ج٥، ص٢٩٧.

[٥] الأدفوي: الطالع السعيد، ص٩٦-٩٧، فنديك: اكتفاء القنوع، ص٧٤.

[٦] الندوي (عبد الحليم): منهج النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م، ص١٧-١٨، عنان: مؤرخو مصر، ص٦٤.

[٧] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٤٤

وكلّ مُجلَّدٍ عبارة عن جزأين، وقد وضع لها النويري تصميماً روائيَّاً مُدهشاً يقوم على **خمسة** فنون، وكُلّ منها ينقسم إلى خمسةِ **أقسام**، وكُلّ قسمٍ إلى عددٍ من **الأبواب**. وهذه الفنون **هي:**

الأوَّل:

في السماء والآثار العلويّة، والأرض، والمعالم السفليّة، فهو يتناول في هذا القسم الكلام على خلق السماء، والملائكة، والكواكب، والظواهر الطبيعيَّة، والأرض والجبال، والبحار، والأنهار، وكذلك طبائع البلاد، والسكَّان، والمباني، والآثار وغيرها.

الثاني:

يتناول فيه الحديث عن الإنسان وخلقته، وأعضائه، وكذلك النساء، والصور الوصفيَّة والهجاء، والنوادر، والملح، والغناء، والسياسة، والإمامة، والقضاء، والحسبة والكتابة، وشروطها، وكذلك البيان والبديع.

الثالث:

وعنوانه الحيوان الصامت، ويتناول الحديث عن الحيوانات الضارية، والأنيسة، وأوصافها، وعاداتها، ثمَّ الحديث عن الطيور، وأنواعها والحشرات وصنوفها.

الرابع:

يتحدَّث فيه عن الشجر، والنبات وأنواعه، وثمارها والفواكه، والأزهار، والطيب، والعطور.

الخامس:

وهو في فنّ التاريخ، ويشتمل على واحداً وعشرين مُجلَّداً، إذ ينقلب فيه النويري إلى مؤرِّخ عظيم. وقد بدأ في هذا الفنّ الحديث عن الأنبياء في مُجلَّدين، ثمَّ الكلام عن تاريخ اليهود وأنبائهم، وتاريخ المسيح ونشأة المسيحيَّة، ثمَّ الحديث عن التاريخ القديم كتاريخ فارس والإسكندر المقدوني، ثمَّ بدأ بتاريخ العرب قبل الإسلام وأيّام العرب ووقائعها، ثمَّ تاريخ الإسلام، ويشتمل هذا القسم على ثلاثة مُجلَّدات، ثمَّ بعدها يأتي الكلام عن تاريخ الخُلفاء الراشدين، وأخبار الدول الإسلاميَّة بدءاً من الدولة الأمويَّة، ثمَّ العباسيَّة، والأمويَّة في الأندلس، والأغالبة، والدول البربريَّة، و الموحِّدين، والمرابطين، والقرامطة، والسلاجقة، ثمَّ الحديث عن الدولة الفاطميَّة والأيوبيَّة، ثمَّ تاريخ الشام والصليبيّين، وينتهي به إلى سنة(٧٣١هـ /١٣٣٠م)[1].

***- شهاب الدين أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمري(ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م):**

يعدُّ الموسوعي التاريخي ابن فضل الله العمري خير من جمع في موسوعته الشهيرة " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، بينَ الجغرافية والتاريخ حتَّى عدَّها بعضهم أحّد أهمّ المصادر الجُغرافية التاريخيَّة في

---

[1] عنان: مؤرخو مصر، ص٦٤-٦٦.

العصر المملوكي[1]، وسيتمُّ تناول هذه الموسوعة بدراسة مُفصّلة ضمن فصل الأدب الجغرافيّ (فن التقاويم).

3- كتب السير:

تعدُّ كتب السير من أهمِّ المؤلَّفات التاريخيَّة التي احتوت في طيَّاتها على إشاراتٍ جُغرافية قيّمة، جعلت من علم التاريخ علماً مُساعداً لعلم الجُغرافية، وشملت الكتب في هذا الفنّ **اتِّجاهين: الأوَّل:** اختصَّ بسيرة الرسول ﷺ، **والآخر** اختصَّ بالسير الشخصيَّة التي تخصُّ سلطان، أو ملك، أو عالم، أو صاحب مذهب، وغير ذلك. وحقيقة الأمر لا تخلو هذه الكتب من بعض المعلوماتِ الجُغرافيَّة التي تتناول هجرة الرسول ﷺ وغزواته، أو حكم ملك وحدود بلده، وأملاكه، وفتوحاته وحروبه، وهي معلوماتٌ تجعلُ من كتبِ السِير مُرتبطة بالجُغرافية بشكل أمْ بآخر.

وفيما يخصُّ **الاتِّجاه الأوَّل** من الكتب التي تحدثت عن سيرة الرسول ﷺ ، فقد اشتهر في هذا المجال كتاب عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقيّ(ت ٦٦٠هـ /١٢٦١م)[2] الموسوم بعنوان" بداية السول في تفضيل الرسول ومناقب المصطفى وشمائله"[3]. ولفتح الدِّين محمد بن محمد المعروف بابن سيّد الناس(ت ٧٣٤هـ /١٣٣٣م) كتاب" عيون الأثر في فنون المغازي و الشمائل والسِّير"[4]، ويُعدُّ هذا الكتاب من أُمّهات كُتب السيرة النبويَّة، إذْ تضمَّن بحثاً دقيقاً وشاملاً لسيرة الرسول ﷺ منذُ ولادتهِ حتَّى وفاته، وجاء في مُجلَّدين. وله أيضاً كتب" السيرة الكبرى"، و" السيرة الصغرى"، و" نور العيون "[5]، و" بشرى اللبيب بذكرى الحبيب"[6].

---

[1] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٥٧-١٦١؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣، ص١٨ -٢٠؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٣١-٣٣٣؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٤٨.

[2] السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص٢٤٨.

[3] السلمي(عبد العزيز بن عبد السلام): بداية السول في تفضيل الرسول ومناقب المصطفى وشمائله، تح: محمد ناصر الدِّين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص٣.

[4] ابن سيد الناس(محمد بن محمد) : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تح محمد العيد الخطراوي و محي الدِّين مستو، دار ابن كثير ، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، ص٥١، ٥٢ .

[5] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٩٠، ٢٨٩؛ الإسنوي(عبد الرحيم): طبقات الشافعية، تح: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٧م، ج٢، ص٢٨٧.

[6] ابن سيد الناس اليعمري(محمد بن محمد): بشرى اللبيب بذكرى الحبيب، مخطوط بالمكتبة التيمورية، رقم ١١٥٦٨، ورقة ٢.

ومن أشهر من كتب في هذا المجال كان المؤرِّخ ابن القيّم الجوزيّة(ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) الذي وضع كتاباً يُعدُّ من أُمَّهات كتب السيرة[١] سمَّاه" زاد المعاد في هدي العباد"، وتحدَّث فيه عن هدي الرسول ﷺ في الشؤون العامَّة والخاصَّة، وتحدَّث فيه عن أضواء حياته وما رافقها من أحداث[٢].

أمَّا المؤرِّخ مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكلجري(ت ٧٦٢هـ/١٣٦١م)[٣] فألَّف كتاب" الزهر الباسم في السيرة النبويَّة"[٤]. و وضع عبد العزيز بن جماعة الكنانيّ(ت ٧٦٧هـ/١٣٦٦م) كتاب" المُختصر النديّ في سيرة النبيّ"، وهو كتابٌ مُختصر يسير في سيرة النبي ﷺ من الولادة حتَّى الوفاة[٥].

ولا يقلّ عن هؤلاء أهمِّيّة المُؤرِّخ الحسن بن عمر بن حبيب الناصريّة(ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) الذي وضع كتباً عدَّة تتحدَّث عن سيرة الرسول ﷺ أهمها: " المُقتفى من سيرة المُصطفى"[٦]، وكتاب" النجم الثاقب في أشهر المناقب"[٧].

أمَّا **الاتِّجاه الآخر**، وهو كُتب السير الشخصيَّة التي تتحدَّث عن حياة شخص بعينه، فكثُر التأليف فيه، و من أشهر هذه المؤلَّفات كتاب محي الدِّين عبد الله بن عبد الظاهر الموسوم بعنوان" الألطاف الحنفيّة من السيرة الشريفة السلطانيَّة الأشرفيَّة"، و كتاب" تشريف الأيَّام والعصور في سيرة الملك المنصور "[٨].

وصنَّف هبة الله بن عبد الله بن سيّد الكل القفطي (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) كتابه الشهير" الأنباء المُستطابة في مناقب الصحابة والقرابة"[١]. وتبعه أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندريّ

---

[١] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص٢٧١، ٢٧٢.

[٢] ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر بن أيوب): زاد المعاد في هدي خير العباد، تح: شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

[٣] ابن العراقي(أحمد بن عبد الرحيم): الذيل على العبر في خبر من غبر، تح: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ج١، ص٧٠-٧٣.

[٤] البكلجري(مغلطاي بن قليج بن عبد الله): الزهر الباسم في السيرة النبوية، تح: أحسن أحمد عبد الشكور، دار السلام، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م، ص٣.

[٥] ابن جماعة(عبد العزيز بن محمد) : المختصر الندي في سيرة النبي، تح مسعد السعدني، مكتبة القرآن، القاهرة، د.ت، مقدمة الكتاب، ص٦

[٦] ابن حبيب الناصرية(الحسن بن عمر): المقتفى من سيرة المصطفى، تح: مصطفى محمد الذهبي، دار الحديث، القاهرة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص٩.

[٧] ابن حبيب الناصرية(الحسن بن عمر): النجم الثاقب في أشهر المناقب، تح: بلعمري محمد فيصل الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٠م، ص٥.

[٨] ابن عبد الظاهر(محيي الدِّين عبد الله): تشريف الأيام و العصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، مصر، ط١، ١٩٦١م؛ عبد الله(يسري عبد الغني): معجم المؤرخين المسلمين حتَّى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص١١٩، ١٢٠.

الشاذليّ(ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) الذي صنَّف كتاب" لطائف المنن"[٢]. وصنَّف موسى بن محمد اليوسفيّ (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٨م) كتابه الشهير" نزهة الناظر في سيرة الناصر"[٣].

4ً- تراجم الأعلام والطبقات:

تُعدُّ دراسة فنّ التراجم من أهمِّ الدراسات التاريخيّة، فقد أسهم هذا الفن بكتابة التاريخ العربي الإسلاميّ. ويُعنى هذا الفنُّ بحياة، وأعمال، وأفكار الأعلام سواءً أكانوا رجالاً أمْ نساءً، مُسطّرين أسماءهم، وأعمالهم تحت راية خصالهم.

ولم يكن هذا الفنّ ليمرَّ دونَ تأثيره في علم الجغرافية، فضمَّت المُؤلَّفات التي صُنِّفت في هذا المجال معلومات جُغرافيَّة لابدَّ من أخذها بعين الاعتبار عند دراسةِ أهمِّية علم التاريخ و المُؤرِّخين في دراسة الجُغرافية، والعلوم المساعدة لها في العصر المملوكيّ.

على أنَّ أهمَّ كتب التراجم في العصر المملوكيّ كانت من تأليف مؤرِّخ الإسلام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ الذي وضع كتابه الشهير" المستملح من كتاب التكملة[٤]، وهو سلسلة للتراجم الأندلسيّة اختصره الذهبي من كتاب" التكملة لكتاب الصلة" لأبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الآبار (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)[٥].

كذلك صُنّفت العديد من كتب التراجم التي تحدثت عن أشخاص ذوي صفات خاصّة، وأشهر ما كُتب في هذا المجال ما صنَّفه صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصفديّ الذي أَلَّف كتاب" الشعور بالعور" ترجم فيه لأخبار العور[٦].

أمَّا من أشهر الكتب التي صُنِّفت في الطبقات، واحتوت على معلوماتٍ جُغرافيَّة قيمة كان كتاب الإمام محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقيّ(ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣م) والموسوم بعنوان " طبقات علماء الحديث"[٧].

---

١ ابن سيد الكل القفطي(هبة الله بن عبد الله): الأنباء المستطابة في مناقب الصحابة والقرابة، تح: علي أحمد و عبد الجبار زكار، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، ص١٢.

٢ ابن عطاء الإسكندري(أحمد بن محمد): لطائف المنن، المطبعة الفخرية، القاهرة، ط١، ١٩٧٢م، ص٢.

٣ اليوسفي(محمد بن موسى): نزهة الناظر في سيرة الناصر، تح: أحمد حطيط، دار علم الكتب، ط١، بيروت، ١٩٨٦م، ص٥٢.

٤ الذهبي(محمد بن أحمد): المستملح من كتاب التكملة، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠٠٨م، ص٥.

٥ ابن الآبار القضاعي(محمد): التكملة لكتاب الصلة، تح: عبد السلام الهرّاس، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٦ الصفدي(خليل بن أيبك): الشعور بالعور، تح: عبد الرزاق حسين، دار عمار، د. م، ط١، ١٩٨٨م، ص٧.

٧ ابن عبد الهادي(محمد بن أحمد): طبقات علماء الحديث، تح: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م، ج١، ص٥٧.

ولعلَّ من أشهر الكتب التي تحدَّثت عن القرَّاء والمفسِّرين، ما ألَّفه المؤرِّخ الذهبيّ فمن كتبه" طبقات القُرَّاء"[1]، كما ذاع صيت المؤرِّخ الذهبيّ في التصنيف لطبقات الحفَّاظ، فمن أشهر ما صنَّفه في هذا المجال كان كتاب" الثُقاة"، و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال"[2]، و" طبقات الحفّاظ أسماء المدلّسين[3]، و" العقد الثمين في تراجم النحويّين "[4]. كما صنَّف محمد بن يعقوب الفيروز أبادي(ت ٨١٧هـ/ ١٤١٤م) كتاب" البلغة في ترجمة أئمّة النحو واللغة"[5].

ومن أهمِّ ما صنِّف في طبقات الفقهاء ما كتبه عبد الوهّاب بن علي السبكيّ(ت ٧٧١هـ /١٣٧٠م)، إذ دوَّن ثلاثة تصانيف في طبقات الشافعية هي" طبقات الشافعيّة الكبرى" و" الطبقات الوسطى" و" الطبقات الصغرى"[6].

إضافةً لما سبق صُنِّفت كتباً تخصَّصت بالحديث عن العلوم العسكريَّة منها كتاب محمد الأقسراني(ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م) الموسوم بـ" نهاية السؤل والأمنية في تعليم أعمال الفروسية"[7]. ولمحمد بن منكلي (ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م) كتباً مشهورة تحدَّث فيها عن تقنيات الحروب عند المماليك، منها:" الأدلة الرسميَّة في التقاني الحربيَّة[8]، وكتاب" الحيل في الحروب"[9]، وكتاب" الأحكام الملوكيَّة والضوابط النموسيَّة في فنِّ القتال في البحر"[10].

---

[1] الذهبي(محمد بن أحمد): طبقات القراء، تح: أحمد خان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٣.

[2] الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص٣١٦.

[3] الذهبي(محمد بن أحمد): طبقات الحفاظ وأسماء المدلسين، اعتناء: محمد زياد التكلة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص٦-٨.

[4] الذهبي(محمد بن أحمد): العقد الثمين في تراجم النحويين، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٧٠م؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص٣١٦.

[5] الفيروز أبادي(محمد بن يعقوب): البُلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تح: محمد المصري، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ط١، ٢٠٠٠م؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٢٥٢، ٢٥٣.

[6] الصادق(حسين محمد): البيت السبكي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٨م، ص١٤-٤٥.

[7] ابن الأقسراني(محمد بن عيسى): نهاية السؤل والأمنية في تعليم أعمال الفروسية، تح: خالد أحمد الملا السويدي، دار كنان، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص١٩٨٨.

[8] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٥٠.

[9] ابن منكلي(محمد الناصري): الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، تح: نبيل أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٧.

[10] ابن منكلي(محمد الناصري): الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر، جامعة الإسكندرية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٨م، ص٣.

ومن هنا يُرى أنَّ علميْ الزمان والمكان لا يُمكن فصل أحدهما عن الآخر، فكلّ منهما يستعين بالآخر في تفسير الظاهرات البشرية، سواءٌ كانت جغرافيَّة أم تاريخيَّة، وما الجُغرافية التاريخيَّة، وجُغرافيّة التاريخ، إلَّا النموذج الأمثل من خلالِ مَيدَانِيهمَا العلميين الذي يشهد على الصلةِ الوثيقة بين الجُغرافية والتاريخ[١].

٢- العلوم التطبيقيّة(العمليّة):

أ- علوم الهندسة:

1ً- هندسة العمارة:

مما لاشكَّ فيه أنَّ الهندسة المعماريَّة تُعدُّ في أحَّد جوانبها من العلوم المساعدة لعلم الجغرافية، إذ إنَّ العمران والبناء والزخرفة، وما يلحق بها من فنون العمارة، من أهمِّ ما تطرَّق إليه الجُغرافيين والرحَّالة في كتبهم الوصفيَّة ورحلاتهم. والمُتتبِّع لكتبِ الجُغرافية الوصفيَّة والرحلات يُلاحظ فيها اعتناء الجُغرافيين والرحَّالة بتقديم أوصافٍ عن المدنِ وفنِّ زخرفتها، وكذلك عن البيوت، والمساجد، والأديرة والكنائس، وكلّ ما يخصُّ فنون العمارة، مما يجعل الجُغرافية علماً ذي صلة وثيقة بهندسة العمارة في العصر المملوكيّ.

وقد أولى المماليك عناية كبيرة لعلوم هندسة العمارة، تلك العناية جاءت نتيجةً لحاجة العصر المملوكيّ إلى فنِّ البناء، واهتمام سلاطينه بتشييدِ العمائر من مدارسٍ، ومساجدٍ، وقباب، وغيرها من منشآت[٢]، ويُعدُّ هذا العصر بحقِّ العصر الذهبيّ للعمارة الإسلامية[٣]، إذْ تميَّزت عمائره بجمالها، فوُجدت العقود المختلفة مثل العقد النصف دائري والمدبَّب، والمفصَّص، والعقد المديني ذي الفصوص الثلاثة، والأعمدة ذاتُ البدنةِ المثمَّنة[٤]، كما ظهر التنوّع والإتقان والأناقة في شتَّى العناصر المعماريَّة من واجهاتٍ، ومناراتٍ، وزخارفٍ جصِّيَّة ورُخاميَّة[٥].

ويمكن أنْ يُعزى التقدُّم في هذا المجال إلى وجود مجموعة من المهندسين البارعين في فنّ الهندسة وعمارتها، ولعلَّ أشهرهم المهندس جمال الدِّين محمد بن نهار الصالحيّ النجميّ(ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨م) الذي ندبَه الظاهر بيبرس لعمارة الأوقاف في القدس، ثمَّ لعمارة جسرٍ على نهر الشريعة، وفوَّضه ببناءِ خان في القدس لابن السبيل[٦].

واشتهر أيضاً المهندس إبراهيم بن غنائم بن سعيد، وهو من مُهندسي الظاهر بيبرس، ويُنسب لابن سعيد تشييده لبيبرس القصر الأبلق، وضريحه المعروف بدمشق. وبرعَ أولاد ابن سعيد أيضاً في هذا المجال

---

١ جباوي(علي): الجغرافية التاريخية، مطبعة طربين، دمشق، ١٩٨٢م، ص٦١ .

٢ سليم: عصر سلاطين المماليك، مج٣، ص١٥٩.

٣ حسن(زكي): فنون الإسلام، دار الرائد، بيروت، ١٩٩١م، ج٣، ص٧١.

٤ إسماعيل(شفيق): حقيقة المماليك، دمشق، ط١، ٢٠٠١م، ص١٦٦، ١٦٧.

٥ الحسين: تاريخ المماليك، ص٣٣٠.

٦ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١٨، ١٩.

لاسيَّما ولده محمد بن إبراهيم بن غنائم(ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، وولده الآخر أحمد بن إبراهيم بن غنائم(ت ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م) وقد عُرفوا بأولاد المهندس[١]. كما اشتهر المُهندس محمد بن بيليك المُحسنيّ، وهو المهندس الذي يُنسب إليه بناء مدرسة السُلطان الناصر حسن ، وبناء جامع ألطنبغا الماردانيّ خارج باب زويلة[٢].

2ً- هندسة الميكانيك:

لابدَّ أنَّ اختراع الساعات وتحديد المواقيت، وعمل الطواحين، وربط نشاطها بأحّد عوامل الجغرافية، أي مياهِ الأنهار، كلّ ذلك يجعل من هندسة الميكانيك علماً مساعداً لعلم الجغرافية في العصر المملوكيّ.
وقد ظهر اهتمامٌ كبيرٌ في العصر المملوكيّ بعلمِ الحيل والآلات، وهو ما يعرف باسم الهندسة الميكانيكيّة، ولعلَّ أبرز مهندسي علم الآلات المهندس قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغنيّ بن مسافر الأسفونيّ(ت ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، الذي نصبَ طاحوناً على نهر العاصي، وبنى له أبراجاً، وتحيَّل فيها بحيلٍ هندسيَّة، ونقشَ عليه صورة أسد بارز القسمات، وحجزَ المياه بحواجزٍ كي يُعلِم أصحاب الطواحين كيفيَّة تدوير طواحينهم في حالة فيضان النهر، فعندما تغمر مياه العاصي في وقت الفيضان صورة الأسد يجب إيقاف دوران الطواحين، وعندما تنحسر المياه عن صورة الأسد تكون الطواحين في حالة تستطيع فيها الدوران[٣].
كما عُرف المهندس بيليك بن عبد الله القبجاقيّ الذي كان حيَّاً سنة(٦٥٨هـ /١٢٦٠م)، وكان بارعاً في علمِ آلات الساعات[٤]. وبرع المُهندس أحمد بن إدريس البهنسيّ القرافيّ المصريّ(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) في صنعِ الساعاتِ والتماثيل المُتحرّكة والآلات الفلكيَّة، إذْ ابتكر آلات فلكيَّة على صورة شمعدان، يتغيَّر فيه لون الشمعة في كلِّ ساعة، وصوَّر به تمثال أسد تتغيَّر عيناه كلَّ ساعة إلى لون[٥].
وأبدع المُهندس علي بن إبراهيم بن محمد بن الهمام الأنصاريّ المعروف بابن الشاطر[٦](ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) أوَّل ساعة ميكانيكيَّة، وأخرجها من دائرة الماء إلى دائرة الميكانيك، ومن دائرة الخشب إلى دائرة

---

[١] النهار: تاريخ المماليك، ص٥٢٦.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٣٠٠؛ زكي(عبد الرحمن): تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٩٩.

[٣] الأدفوي: الطالع السعيد، ص٤٦٩- ٤٧٠؛ حميدان(زهير): أعلام الحضارة العربية الإسلاميّة في العلوم الأساسية والتطبيقية، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦م ، مج٤، ص١٧٨، ١٧٩؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٥٢٩، ٥٣٠.

[٤] ابن الساعاتي(محمد رضوان): علم الساعات والعمل بها، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٨١م، ص٢٩٠.

[٥] ابن الساعاتي: علم الساعات، ص٦٥؛ حميدان: أعلام الحضارة العربية، مج٣، ص٢٩؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٥٣٠ ، ٥٣١.

[٦] علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري، المعروف بابن الشاطر، برع في علم فلك والهندسة والحساب ، توفِّي بدمشق سنة(٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م). ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٥٢.

المعدن، وجعلها صغيرة بعد أن كانت تبلغ أمتاراً عدَّة، فصارت بمقدار ثلاثين سنتيمتراً، وأدخلَ فيها الآلات المعدنيَّة، مُستغنياً عن الماء وآلاته الخشبيَّة الطويلة العريضة[١].

ب- علوم الطب والصيدلة:

يُعدُّ علميّ الطبّ والصيدلة من أهمِّ العلوم التي ارتبطت بعلم الجغرافية في العصر المملوكيّ، لاسيَّما أنَّ كُتب الطبّ والصيدلة في العصر المملوكيّ قد احتوت في كثير من جوانبها، على معلوماتٍ جغرافيّة تتعلّق بالنباتات والأعشاب التي يُتداوى بها، وهي معلومات تُعدُّ فرعاً من الجُغرافية النباتيَّة(الزراعيَّة)، وهذا ما جعل من علميّ الطبّ والصيدلة أحَّد أهمّ العلوم المساعدة للجُغرافية في العصر المملوكيّ، وخاصَّة إذا عُلِمَ أنَّ الكثيرَ من الصيادلة والأطبَّاء في هذا العصر قد برعوا في علم الجُغرافية أيضاً.

وقد تطوَّر الطبّ في العصر المملوكيّ كسائر العلوم الأخرى، ويتَّضح ذلك جليَّاً من كثرة عدد الأطبَّاء الَّذين قدَّموا خدمات جليلة في هذا الميدان، ولعلَّ أبرزهم يحيى بن عبدان الدمشقيّ المعروف بابن اللبّودي(ت ٦٧٠هـ/١٢٧١م) صاحب كتاب" تدقيق المباحث الطبيَّة في تحقيق المسائل الخلافيَّة"، وكتاب" مُختصر الكلِّيات من كتاب القانون لابن سينا"[٢].

كما برعَ أبو الفرج أمين الدولة يعقوب بن إسحاق المعروف بابن القفّ الكركيّ(ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) بالطبِّ والجراحة، ومن أشهر آثاره في الطبِّ كان كتاب" عمدة الإصلاح في صناعة الجراح"، و" الشافي في الطبّ" [٣]، و" جامع الغرض في حفظ الصحَّة ودفع المرض"[٤]. وتبعه الطبيب محمد بن عبَّاس الربعيّ الدنيسريّ (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م) الذي اشتُهر بكتابه" المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة"[٥].

أمَّا أشهر أطبّاء العصر المملوكيّ، فكان علاء الدِّين علي بن أبي الحزم، المعروف بأبي الحسن ابن النفيس(ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨ م). درسَ ابن النفيس الطبّ في دمشق على مشاهير العلماء، ثمَّ نزل مصر ومارس الطبّ في المستشفى الناصريّ ثمَّ في المنصوريّ، وترك ابن النفيس بصمته الأبديَّة في علم الطبِّ، فيُنسب إليه اكتشافهِ لفيزيولوجيا الدوران الرئويّ- القلبيّ أو ما يُعرف بالدورة الدمويّة الصغرى. كما

---

١ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج١، ص١٧٢، ١٧٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، مج٨، ص٤٣٥؛ الحسين: تاريخ المماليك، ص٣٣١.

٢ ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء، ج٢، ص١٨٥؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٤٩، ٥٠؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١٧٠؛ الكتبي: عيون التواريخ، ج٢٠، ص٤٢٩.

٣ ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء، ج٢، ص٢٧٣، ٢٧٤؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٤٣، ٤٤؛ ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء،ج٢ ، ص٢٧٣، ٢٧٤.

٤ ابن القف(يعقوب بن إسحاق): جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض، تح: سامي خلف العمارنة، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩م، ص٣.

٥ ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء، ج٢، ص٢٦٧- ٢٧٢؛ الذهبي: المختار من تاريخ ابن الجزري، ص٣٢٣؛ الكتبي: عيون التواريخ، ج، ص٢١، ص٣٩٧-٤٠١.

اهتمَّ بتشريح الجهاز التنفسيّ والشرايين ووظائفها، وتوصَّل إلى أنَّ عضلات القلب تتغذّى من الأوعية الدمويَّة المبثوثة في داخلها، وهي الأوعية الإكليليَّة (أو التاجيَّة) وليس من الدمّ الموجود في أجوافهِ، وجزمَ بعدم وجود ممرات بين البُطينين يتمُّ فيها اختلاط الدم بالهواء. ولابن النفيس مؤلَّفات عدَّة في الطب أشهرها" شرح تشريح القانون"، و" مقدّمة شرح تشريح القانون"، و" المُوجز في الطبّ"[١] ، و" شرح الهداية في الطب لابن سينا"، و" الشامل في صناعة الطبّ"، و" شرح فصول أبقراط"[٢]، و" المُختار من الأغذية"[٣]، و" المُهذّب في الكحل المجرّب أو حكمة العين"[٤].

واشتهر الطبيب إبراهيم بن محمد الأنصاريّ السويديّ(ت ٦٩٠هـ/١٢٩١م)، ولِّيَ رئاسة الطبّ بدمشق، وله في الطبِّ كتاب" التذكرة الهادية والذخيرة الكافية في الطبّ" ، و" قلائد المرجان في طبِّ الأبدان"[٥].

ولا تقلّ إسهامات الطبيب محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري، المعروف بابن الأكفاني(ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) عمَّا قدَّمه غيره من الأطباء، فقد صنَّف تصانيفه المشهورة التي كانت ثورة بحدٍّ ذاتها في عالَم الطب فوضع كتاب" روضة الألباب في أخبار الأطبَّاء"[٦]، و كتاب" كشف الرين في أحوال العين"، وهو مُختصرٌ في طبِّ العين، ويتألَّف من ثلاث مقالات: في كلّيات العين، وفي أمراض العين، وفي أدوية العين المفردة والمركّبة[٧]، و كتاب"غنية اللبيب في غيبة الطبيب"[٨].

---

[١] ابن النفيس(علي بن أبي الحزم): الموجز في الطب، تح: يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٧.

[٢] ابن النفيس(علي بن أبي الحزم): شرح فصول أبقراط، تح: يوسف زيدان، دار النهضة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٣.

[٣] ابن الفوطي(عبد الرزاق بن أحمد): مجمع الآداب في معجم الألقاب، تح: محمد الكاظم، وزارة الثقافة والارشاد الإسلامي، طهران، ط١، ١٩٩٥م، مج٢، ص٤٤؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٠٧؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣، ص٤٢، ٤٣؛ الدفاع(علي عبد الله): أعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٢٠١-٢١٣؛ غاليونجي(بول): ابن النفيس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٠٠-١٠٤.

[٤] ابن النفيس(علي بن أبي الحزم): المهذّب في الكحل المجرب، تح: محمد ظافر الوفائي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ط٢، ١٩٩٤م، ص٧.

[٥] ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء،ج٢، ص٢٦٦.

[٦] الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٢٢٥-٢٣١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ص٥٩٨.

[٧] ابن الأكفاني(محمد بن إبراهيم): كشف الرين في أحوال العين، تح: محمد ظافر وفائي، محمد رواس قلعجي، مركز الملك فيصل، الرياض، ط١، ١٩٩٣م، ص٣.

[٨] ابن الأكفاني(محمد بن إبراهيم): غنية اللبيب في غيبة الطبيب، تح: صالح مهدي عباس، مركز إحياء التراث العلمي، بغداد، د. ت، ص٨.

وفي هذا العصر حصلَ التطوّر المهمّ في الطبِّ، فتمَّت دراسة علم تطوّر الجنين والوراثة بشكل موضوعيّ، وتمَّ ذلك على يد العالم الطبيب محمد بن أبي بكر الزرعيّ الدمشقيّ، المعروف بابن القيّم الجوزية(ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) الذي برع في علم الطبّ وعلى وجه الخصوص ما يتعلّق بالجنين والمولود، ووضع في تطوّر الأجنَّة تصانيفه المشهورة[١]" تحفة الموجود بأحكام المولود"[٢]، و كتاب" الداء والدواء"[٣]، وله كتاب" الطب النبويّ" [٤].

كما اشتهر الطبيب يوسف بن محمد العبادي السرُّمريّ(ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)[٥]، ومن تصانيفه في الطب" شفاء الآلام في طبّ أهل الإسلام"[٦]، وهو في الطبِّ الإلهي، والنبويّ، والأبقراطيّ، والجالينوسيّ، مع ذكر للأدويةِ والأمراض، ومداواتها حسب ما وردَ في كتب الطبِّ الدينيَّة والتقليديَّة.

واشتهرت عائلة ابن صغير بأنَّها أنجبت العديد من الأطباء الَّذين ترأسوا الطبّ في بيمارستان القاهرة. ورغم قلّة المؤلَّفات الطبّيَّة لأطبَّاء بني صغير إلَّا أنَّ شهرة هذه العائلة تكمن في أنَّها قدَّمت أطبَّاء عالجوا سلاطين المماليك وأُمرائهم، ومن أطبَّاء **هذه العائلة:**

1ً- ناصر الدِّين محمد بن محمد ابن صغير(ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م):

وقد اشتُهر بعلاجه للأمير المملوكيّ ألطنبغا المارداني في حلب سنة(٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)[٧].

2ً- علاء الدِّين علي بن عبد الواحد بن صغير(ت ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م):

وهو أشهر أطبَّاء بني صغير، إذ وُلِّي رئاسة الأطباء بالديار المصريّة، ثمَّ توجه إلى حلب ليكون في خدمة الملك الظاهر برقوق الذي أرسله بدوره إلى بلاد الروم. وصفه السيوطي بقوله: « ابن صغير، الرئيس علاء الدين، كان أعجوبة الدهر في الفنّ. وُلّي رئاسة الطب دهراً طويلاً، وله فيه المعرفة التامّة،

---

[١] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص٢٧١، ٢٧٢؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج١، ص٦٢؛ الحسيني(محمد بن علي): ذيول العبر في خبر من غبر، تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ج٤، ص١٥٥.

[٢] ابن قيم الجوزية(محمد بن أبي بكر بن أيوب): تحفة المودود بأحكام المولود، تح: عثمان بن جمعة ضميرية، دار عالم الفوائد، جدة، ٢٠١٠م، ص٦.

[٣] ابن قيم الجوزية(محمد بن أبي بكر بن أيوب): الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)، تح: محمد أجمل الإصلاحي – زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، جدة، ٢٠٠٨م، ص٢.

[٤] الذهبي(محمد بن أحمد): الطب النبوي، تح: أحمد رفعت البدراوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م، ص٦.

[٥] الزركلي: الأعلام، ج ٨، ص٢٥٠؛ حميدان: أعلام الحضارة العربية، ج٤، ص٥٢٣.

[٦] السرمرى(يوسف بن محمد بن مسعود): شفاء الآلام في طب أهل الإسلام، مخطوطة مكتبة الفاتح، رقم ٣٥٨٤، ورقة ٤و.

[٧] عيسى بك(أحمد): معجم الأطباء، مطبعة فتح الله إلياس نوري، مصر، ط١، ١٩٤٢م، ص٤٣٩، ٤٤٠.

بحيث كان يصف الدواء الواحد للمريض الواحد بما يساوي ألفاً وبما يساوي درهماً» [١]. وقال عنه المقريزي: « وفي سنة سبع وتسعين وسبعمئة مات الرئيس علاء الدِّين علي بن صغير رئيس الأطباء، وهو بحلب، وكان من محاسن الدنيا»[٢].

أمَّا في ميدان الصيدلة فقد اشتهرَ أبو المُنى داود بن أبي النصر كوهين العطَّار[٣] وصنَّف فيها كتابه الموسوم بـ" منهاج الدُكَّان ودستور الأعيان في أعمالِ وتركيب الأدوية النافعة للأبدان" وضمَّن فيه طرائق تركيب الأدوية، وخزنها وأعمارها وأوزانها[٤].

ج- علم الفلك:

يُعدُّ علم الفلك علماً مساعداً لعلم الجغرافية، لاسيَّما أنَّ الجغرافية في إحدى أقسامها تُسمَّى الجُغرافية الفلكيَّة، والتي هي فرعٌ من فروعِ الجُغرافية الطبيعيَّة، التي تدرس الأرض على أنَّها كوكبٌ من كواكب المجموعة الشمسيَّة، وتدرس كذلك خصائصها الفلكيَّة من حيث البُعد عن الشمس وعلاقتها بها، كما تدرسُ دورانِ الأرض حول نفسها وحول الشمس.

وحقيقة الأمر أنَّ أغلب فلكيّي العصر المملوكيّ كانوا من مُصنِّفي الجُغرافية، وقد شهد علم الفلك ازدهاراً كبيراً في العصر المملوكيّ، وارتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الجُغرافية، وبرع فيه عدداً من العلماء الَّذين كان من أشهرهم العالم الجُغرافيّ الفلكيّ أحمد بن إدريس البهنسيّ القرافيّ(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) الذي برع في صناعة الآلات الفلكيَّة[٥].

إلَّا أنَّ أشهر عُلماء الجُغرافية الفلكيَّة كان العالم علي بن إبراهيم بن محمد الدمشقيّ المعروف بابن الشاطر[٦] صاحب التصانيف الجُغرافيّة الفلكيَّة المشهورة، الذي أبدع آلةً لضبطِ مواقيت الصلاة سمَّاها" البسيط"، ودرسَ ابن الشاطر حركة الأجرام السماويَّة ، واستطاع معرفة سبب ارتفاع درجة الحرارة في النصف الجنوبيّ من الكرة الأرضيَّة أكثر من نصفها الشماليّ، وأرجعه إلى حركة الأرض حول الشمس

---

[١] السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص١٨٤.

[٢] المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٦٤.

[٣] الدفاع(علي عبد الله): إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص٤١٠؛ الطائي(فاضل): موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، مج١، ص٩٢.

[٤] كوهين العطار(داود بن أبي النصر): منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان، تح: حسن عاصي، دار المناهل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٥.

[٥] حميدان: أعلام الحضارة العربية، مج٣، ص٢٩؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٥٣٠، ٥٣١.

[٦] ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج١، ص١٧٢، ١٧٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٤٣٥.

في مدارها، إذ يكون الجزء الجنوبيّ منها خلال فترة الحضيض باتِّجاه الشمس فيتلقَّى كمِّية إشعاعات أكثر من نصفها الشماليّ، كما استطاع حساب تبدُّل الزمن وطول النهار مع تبدُّل العروض الجغرافيّة[١].

ولعلَّ ما يدلُّ على إبداعاته الجُغرافيَّة الفلكيَّة كثرة التصانيف التي صنَّفها في هذا المجال ومن أبرزها:" الروضات المُزهرات في العمل برُبع المُقنطرات"[٢]، و" تسهيل المواقيت في العمل بصندوق اليواقيت"، و" رسالة في العمل بدقائق اختلاف الآفاق المرئيّة"[٣]، و" نزهة السامع في العمل بالرُبع الجامع"[٤]، و" الأشعّة اللّامعة في العمل بالجامعة"[٥]، و" الرُبع التام لمواقيت الإسلام"[٦]، و" رسالة في الإسطرلاب"[٧]، الإسطرلاب"[٧]، و" نهاية السؤل في تصحيح الأصول"[٨] وهو كتاب عن هيئة الأفلاك. كما قدَّم كتاباً عن عن ميل الشمس وكوكب الأرض، سمَّاه " جدول ميل الشمس لكلِّ عرض وجدول طول البلاد وعرضها"[٩]. إضافةً إلى كتاب " رُبع الأوتار"[١٠]، وهو كتاب في فنِّ أدوات علم الفلك، وكتاب" الربع الكامل"[١١]، و" رسالة في العمل بالربع المُجيب"[١٢].

د- علم الرياضيّات:

---

[١] النهار(عمار محمد): دور علماء الحضارة العربية والإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة(الأصول الكيميائية والفلكية)، دار البركة، دمشق، ط١، ٢٠١١م، ص١٣١-١٥٠.

[٢] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ١٤٤٩٧.

[٣] بدران: منادمة الأطلال، ص٣٦٥، ٣٦٦؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٥١٤، ٥١٥.

[٤] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): نزهة السامع في العمل بالربع الجامع، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م م ٣٢٦٤.

[٥] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ١١٠٥٣.

[٦] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): الربع التام لمواقيت الإسلام، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ٣٢٦٤.

[٧] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): رسالة في الإسطرلاب، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ٥٨١٦.

[٨] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): نهاية السؤل في تصحيح الأصول، ميكروفلم، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ف م / ٦٨٠ ت أ.

[٩] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): جدول ميل الشمس لكلِّ عرض وجدول طول البلاد وعرضها، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ١٥٥٦٦.

[١٠] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): ربع الأوتار، ميكروفلم، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ف م ٩٧ ت ١٧.

[١١] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): الربع الكامل، ميكروفلم، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم أ ف م ٩٧ ت ١٩.

[١٢] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): رسالة في العمل بالربع المجيب، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ٩٣٦٧.

يُعدُّ علم الرياضيات من أهمِّ العلوم المُساعدة لعلم الجغرافية، إذْ استعانَ به الجغرافيّون في تحديد المسافات والطول والعرض، وفي العديد من العمليَّات التي كان للحساب دوراً كبيراً فيها، لا بل أنَّ الجغرافية نفسها ضمَّت فرعاً عُرف باسم" الجغرافية الإحصائيَّة" التي شكَّلت فرعاً من فروع الجُغرافية البشريَّة التي تهتمُّ بذكرِ وحساب أعداد السكان.

ويضمُّ هذا الصنف من الجُغرافية الاحصائيَّة ما يُعرف باسم جُغرافيَّة الأبعاد وحسابها، أيّ ما يتعلَّق بخطوط الطول والعرض، وحساب مقاييس المدن بالدرجات والدقائق، وهي جُغرافية رياضيَّة فلكيَّة في آنٍ واحد. وعُرِفَ هذا الصنف من الجُغرافية الإحصائيَّة(الرياضيات) في العصر المملوكي بدليل أنَّ أغلب الكُتب الجغرافيَّة تضمَّنت عمليات حسابيَّة لذكر أطوال وعروض البلدان، ومقاييس خط الاستواء.

وقد ظهر الإبداع في الجُغرافيَّة الرياضيَّة خلال العصر المملوكيّ على يد جمهرة من العلماء الَّذين تركوا مُصنَّفات في علم الجبر والمقابلة(الرياضيات) كان لها أثر حاسم في تطور العلوم الرياضيَّة، فاستفاد منها من جاء بعدهم من العلماء، ومن أبرز أعلام الجُغرافية الرياضيَّة، العالم الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي(ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) الذي صنَّف كتاباً في الرياضيات سمَّاه" مُقدِّمة في علم الحساب" ضمَّنه حساب القيمة، والنسبة، والضرب، والقسمة، والتناسب، والهندسة، والجذر[1].

كما اشتهر عبد الرحمن بن يوسف الأصفونيّ (ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) صاحب كتاب " المسائل الجبريَّة في إيضاح المسائل الدوريَّة في الجبر والمقابلة"[2]، وهو من أهمِّ كُتب الجبر والمقابلة التي صُنّفت خلال العصر المملوكيّ[3].

هـ- العلوم الطبيعية(الكيمياء – الحياة):

تُشكِّل العلوم الطبيعيّة(الكيمياء و علم الحياة) رديفاً قويَّاً لدراسة علم الجُغرافية، إذْ لابدَّ للباحث من التعرُّف على هذه العلوم وروَّداها على اعتبار أنَّ العديد من الجُغرافيين في العصر المملوكيّ، قد تطرَّقوا لهذه العلوم، ولعناصرها، وموادها كالقطران والإسفلت، وهو ما سيتمُّ تناوله بالبحث في الفصل الخامس من الأُطروحة. و من جهة أُخرى فإنَّ علم الحياة يشتمل على ذكر النباتات، والماء، والحيوانات والعجائب والغرائب، والتي تُعدُّ بدورها فرعاً من فروع الجُغرافية وجَبَ دراسته، لذلك لابدَّ من أخذ هذين العِلمين بعين الاعتبار عند تصنيفِ ودراسة العلوم المُساعدة لعلم الجُغرافية.

---

[1] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص٦٨، ٦٩؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٥٢٢؛ كحالة(عمر رضا): العلوم البحتة في العصور الإسلامية، المكتبة العربية، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ص١٠٦، ١٠٧.

[2] الأصفوني(عبد الرحمن بن يوسف): المسائل الجبرية في إيضاح المسائل الدورية في الجبر والمقابلة، مكتبة الأوقاف العامة، بغداد، ١٨٠٣م، ص٩.

[3] ابن رافع السلامي: الوفيات، ج٢، ص١٢٩؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤٩.

وقد غدا **علم الكيمياء** عِلماً أساسيَّاً يعتمدُ عليها المماليك لاسيَّما في الحروب، فالمماليك استخدموا البارود على يد العالم حسن الرماح (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م) الذي وضع مُفصَّلاً للصواريخ الناريَّة واستخداماتها، وكذلك ترسيم الرماح، والأسهم بالقذائف الناريَّة، وكيفيَّة الرمي بالمنجنيق(كرات اللهب المقذوفة)، واستطاع استخدام البارود القاذف كمادَّة قاذفة للصواريخ[١].

وتبلورت معالم علم الكيمياء في هذا العصر على يد مجموعة من العلماء يأتي في مُقدِّمتهم عز الدِّين أيدمر بن علي الجلدكيّ(ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) الذي يُعدُّ أوَّل من توصَّل إلى قانون النسب الثابتة في الاتِّحاد الكيميائيّ، وأثبتَ أنَّ المواد لا تتفاعل إلَّا بأوزان مُحدَّدة، كذلك فصلَ الذهب عن الفضّة عن طريق استخدامه حمض النتريك الذي يُذيب الفضَّة تاركاً الذهب الخالص، وأبدعَ فكرة استخدام الكمَّامات في مخابر الكيمياء لاتِّقاء خطر استنشاق الغازات الناتجة عن التفاعلات الكيميائيَّة، ولعلَّ أبرز ما صنَّفه الجلدكي في مجال الكيمياء كان كتاب" الرحمة في الكيمياء"[٢]، وكتاب" نهاية الطلب في شرح المُكتسب في زراعة الذهب"[٣]، و كتاب" المِصباح في أسرار المفتاح"[٤]، كذلك اشتهر في مجال الكيمياء الأمير بكتوت بدر الدِّين القرماني (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) الذي كان مُغرماً في الكيمياء مع شهرته بمعالجة صنعتها[٥].

أمَّا في مجال **علم الحياة**، فاشتهر زكريا بن محمد بن محمود القزويني(ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)[٦] الذي صنَّف كتاب" عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" وضمَّنه معلومات عن النباتات، والحيوانات، والمياه، والينابيع، وغيرها[٧]. ويُعدُّ هذا الكتاب، بأحَّد جوانبه، كتاباً في جُغرافيَّة العجائب التي تندرج ضمن ضمن كتب التقاويم الجُغرافيَّة التي اشتهرت في العصر المملوكيّ، وذات شُهرة الجُغرافي البارع في علم

---

١ حميدان: أعلام الحضارة العربية، مج٣، ص٢٠٣؛ الحسين: تاريخ المماليك، ص٣٣٤.

٢ الدفاع(علي عبد الله): إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢٨٠-٢٩٤؛ الشكيل(علي جمعان): الكيمياء في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ص٩٠-٩٢؛ النهار: تاريخ المماليك، ص٥٣٣- ٥٣٥.

٣ الجلدكي(أيدمر بن علي): نهاية الطلب في شرح المكتسب في زراعة الذهب، مخطوط مكتبة الملك عبد العزير العامة، المدينة المنورة، رقم ١٦١٨، ورقة ٢.

٤ الجلدكي (أيدمر بن علي): المصباح في أسرار المفتاح، مخطوط مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، رقم ١٤٦٧٠، ورقة٣.

٥ الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٧١٦، ٧١٧؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٤٨٠، ٤٩٠.

٦ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٠٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص١٠١؛ ابن طولون الصالحي(محمد بن علي): تاريخ المزة وآثارها، تح: محمد عمر حماده ومحمد علي سلطاني، دار قتيبة للطباعة، دمشق، ١٩٨٣م، ص١٥.

٧ القزويني(زكريا بن محمد): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٠م، ص١٠.

الحياة سراج الدِّين ابن الوردي الذي صنَّف كتاباً في علم الحياة وسمَّاه" خريدة العجائب وفريدة الغرائب"، وهو بدوره كتاب يتناول الجُغرافية بأحد فروعها، ذاكراً فيه ما في الأقاليم من الغرائب والعجائب، والنباتات، والحيوانات، والبحار، والأنهار وما فيها من نباتٍ وحيوانٍ[1]، ويعدُّ هذا الكتاب من أهمِّ ما صنِّف في مجال فن التقاويم الجُغرافية.

خامساً- الأدب الجُغرافيّ خلال عصر دولة المماليك البحريَّة:

شَهِدَ عصر المماليك نهضة فكريَّة شاملة في المجال الجُغرافيّ، إذ اهتمَّ المماليك بالجُغرافية اهتماماً بالغاً، فظهرت المؤلَّفات الضخمة في هذا المجال. كما أبدع المماليك في مجال الجغرافية العمليَّة، لاسيّما رسم الخرائط، واستخدام البوصلة والاسطرلاب وغيرها، يُضاف إليها الاكتشافات الجُغرافية التي كان لها تأثيراً كبيراً على الحياة الاقتصاديّة في العصر المملوكيّ.

يُضاف إلى ما كتبه الجُغرافيون في بلاد الشام من مؤلَّفات وموسوعات جُغرافيَّة ضخمة، والتي تمثَّلت عن كتب خطط، وتقاويم جغرافيّة اشتملَ بعضها على الجُغرافية الأدبيَّة والرياضيَّة، فقد زار عدداً من الرحَّالة الغُرباء بلاد الشام خلال هذا العصر، وكتبوا عنها وعن مُدنها، فوصف بعضهم الوضع الاقتصادي، والاجتماعي، والعمرانيّ والحديث عن بعض المُدنِ الداثرة والعامرة في بلاد الشام. يُضاف إليها مؤلَّفات الرحَّالة من بلاد الشام الَّذين قاموا بزيارة بعض المناطقِ في شرق البلاد وغربها لاسيَّما الأماكن المقدسة فأفردوا لها مُؤلَّفات مُهمَّة، تحدَّثت عن مكَّة المُكرَّمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس.

وفيما يلي أبرز إنجازات عصر المماليك في مجال الجُغرافية:

١- الاكتشافات الجغرافيَّة(اكتشاف أمريكا):

تمّت الإشارة في الفصل الأوَّل إلى وصول جماعات من الفينيقيين إلى أمريكا الجنوبيَّة، كما جرت الإشارة إلى قصَّةِ الشاب الأندلسيّ خشَّاش بن أسود، ومغامراته مع مجموعة من شُبَّان قرطبة، ووصولهم إلى شواطئ أمريكا، وعودتهم سالمين إلى الأندلس، كما تمَّ مُعالجة قضيَّة الفتية المغرورين.

أمَّا في العصر المملوكي، فبرزت حقائق عدَّة تشير إلى دور المماليك في اكتشاف أمريكا قبل أنْ يصلَ إليها كولومبوس، وأهمّ هذه الحقائق:

أ- الحقيقة الأولى:

تقصَّى المؤرِّخ شهاب الدِّين أحمد بن فضل الله العمري في كتابه" مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" الرحلات الاستكشافيَّة الجُغرافيَّة في بحر الظُلمات(المحيط الأطلسي) التي قام بها ملوك مالي، ومنهم

---

[1] ابن الوردي(عمر بن المظفر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح: أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م

موسى منسى[١]، وأشارَ إلى أنَّ أحَّد سلاطين مملكة التكرور[٢] في مالي روى لبعض خُلصائِه أنَّ السلطان الذي كان قبله وهو" محمد بن قو" جهَّز مئتين من السفن وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، وأمرَ من فيها ألَّا يرجعوا حتَّى يبلغوا نهاية بحر الظلمات، فغابوا أمداً طويلاً، ثمَّ رجعت منهم سفينة، وحضر مُقدِّم ربابنتها فسأله الملك عن أمرهم فقال: سارت السُفن زماناً طويلاً حتَّى عرض لها في البحر وسط اللجَّة وادٍ له جرية عظيمة، فابتلعَ تلك المراكب، وكنت آخر القوم، فرجعت بسفينتي، فلم يُصدِّقَه السُلطان محمد بن قو، وجهَّز ألفيّ سفينة، ألفاً للرجال، وألفاً للأزواد واستخلفني على الملك وسارَ بنفسه ليعلم الحقيقة فكان آخر العهد به وبِمَن معه[٣]. وهذا ما أكَّده القلقشنديّ في موسوعته" صبح الأعشى" فتحدَّث عن الحقيقة نفسها، وذلك عند ذكرِهِ لملوك مالي[٤].

ولابدَّ هنا من إجراء مناقشة سريعة للمعلومات التي أوردها كُلَّاً من ابن فضل الله العمريّ، والقلقشنديّ في كتابيهما، وإشارتهما إلى الواديّ الذي تسبَّب بفقدان السفن التي أرسلها السلطان محمد بن قو ملك التكرور. ذلك أنَّه وبالاستعانة بالعلم الحديث يُمكن للباحث أنْ يستخلصَ جُملةً من الاستنتاجات في هذا الخصوصُ، **أهمُّها:**

إنَّ التيَّار الاستوائي ينشأ في خليج غانة غربي إفريقية الوسطى، ويسير من الشرق إلى الغرب، حتَّى يصل إلى شرقي أمريكا الجنوبيَّة، فيصطدمَ برأس سان روك(الصخرة المقدسة) الواقع شرقيّ البرازيل، وبعدها ينقسمُ التيَّار إلى **قسمين:**

القسم الأوَّل:

يجتازُ خط الاستواء صاعداً نحو الشمال(المكسيك) حتَّى يختلط بالتيار الاستوائي الشماليّ المعروف بتيار الخليج(غولف ستريم).

القسم الثاني:

---

[١] السلطان منسى موسى بن أبي بكر بن سليمان التكروري، مَلَكَ مالي، ثمَّ ذهبَ لأداء فريضة الحج سنة(٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م)، ودخل الديار المصرية في عهد الناصر محمد بن قلاوون، ولمْ يَعُدْ وكان ذلك سنة(٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م). ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٥، ص١٥٤، ١٥٥؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٣١٤.

[٢] نسبة إلى ملكها سليمان التكروري، مَلَكَ مالي بعد وفاة ابن أخيه منسى مغا، وكان ذلك سنة (٧٣٠هـ/١٣٣٠م)، واستمر يحكمها حتَّى سنة(٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م). ابن الساعي البغدادي(علي بن أنجب): مختصر أخبار الخلفاء، المطبعة الأميرية، بولاق- مصر، ١٨٩١م، ص١٣١؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص٢٠٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٨٥.

[٣] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٠٥، ١٢١.

[٤] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٨٣؛ وللمزيد ينظر: مقبل: دور العرب، ص٥٨؛ شاكر(محمود): الكشوف الجغرافية داوفعها حقيقتها، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٥٢؛ العربي(إسماعيل): تاريخ الرحلة والاستكشاف، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م، ص٨٣.

يتَّجه نحو الجنوب، فيسير على سواحل البرازيل(بالتحديد على مقاطعة باهيه) ويُسمَّى تيَّار البرازيل، حتَّى يصلَ إلى أقصى أمريكا الجنوبيَّة، فيلتقي بتيَّارٍ باردٍ آتٍ من القُطب الجنوبيّ، ثمَّ يسير التيَّار مُجدَّداً نحو الشرق، فيصعد الساحل الغربيّ لإفريقية الجنوبيَّة، ويُسمَّى تيَّار(بانغولا).

وحقيقة الأمر أنَّه في المحيط الأطلسي يصطدم التيَّار الاستوائي بساحل أمريكا الجنوبيَّة، ومن ثمَّ يتشعَّب إلى **فرعين:**

الأوّل:

التيَّار البرازيليّ، وهو الذي يسير إلى الجنوب، وتسوقه الرياح التجاريَّة المُضادَّة من تلك الجهة، وتحمله إلى الجنوب الشرقيّ.

الثاني:

يمرُّ ببحر كاريبيان، ويسيرُ حول خليج مكسيكو، ثمَّ يمرَّ بمضيق فلوريدا، ويُلاحظ أَثَر التيَّار في الأسفار، وتوجيه السفن في البحار، و بُعد النظر بالعين المُجرَّدة إلى المصوَّرات الجُغرافيَّة الحاليَّة، وخاصَّة إلى خارطة خليج غينيا غربي القارَّة الإفريقية على الشاطئ الشرقي للمحيط الأطلسيّ، وبتتبُّع رحلة قافلة من السفن قامت من غانة مُتجهة إلى الغرب عبر المحيط الأطلسيّ، ولذلك كان التيَّار آتياً بشدِّة جريانه، فمن الطبيعي أن يُرى سفن ذلك الزمان(سفن ملك التكرور) لا تسطيع مقاومته، ولا بدَّ أن يذهبَ بها نحو الغرب.

ولمَّا كانت عدد سفن البعثة الثانية ألفين(٢٠٠٠) سفينة، فإنَّ التيَّار مهما ابتلعَ منها، فلا بدَّ أنْ يسلمَ أكثرها، فإذا ذهب بها التيَّار غرباً– على خطٍّ مُستقيمٍ– كان مرساها بعد أيام، لا يعلمها إلَّا الله، مع أهوال لا يقدرها العقل في رأسِ سان روك في البرازيل، وإذا انحرفت قليلاً إلى الغرب الشمالي كان مرساها في خليج المكسيك، ومن المُحتمل أنْ يكونَ هذا التيَّار نفسه هو الذي حملَ السفن التي لم تستطع الرسو في رأس سان روك إلى الشمال– حسب سيره– حتَّى حطَّ بهم على خليج مكسيكو[١].

ب– الحقيقة الثانية:

قال الشيخ أبو الثناء محمود بن أبي القاسم عبد الرحمن الأصفهاني(ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)[٢]: « لا أمنعَ أنْ يكونَ ما انكشفَ عنه الماء من الأرض من جهتنا مُنكشفاً من الجهة الأُخرى، وإذا لم أمنعْ أنْ يكونَ

[١] البديوي(صبري فريد): اكتشاف العرب أمريكا قبل كريستوف كولومبوس، دار الآثار للطباعة، بيروت، ط١، ١٩٦٧م، ص٢٥، ٢٦.

[٢] محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الأصفهاني، عالم في العلوم العقلية، ومُفسِّر، قَدِمَ دمشق وتعلَّم بها، ثمَّ انتقل ليتلقَّى تعليمه في القاهرة، وبقي فيها إلى أن توفِّي سنة(٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م). الأصفهاني(محمود بن عبد الرحمن): بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب، تح: محمد مظهر بقا، دار المدني، جدة، ط١، ١٩٨٦م، ج١، ص١٥–٢٣؛ السبكي: طبقات

مُنكشفاً من تلك الجهة لا أمنعَ أنْ يكونَ به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى».

وبذلك يكون الأصفهاني قد قالَ بنظريَّة اكتشاف أمريكا مُعتمداً على الاستدلال قبل كولومبوس بقرنٍ ونصف والذي تخيَّل وجود طريق جديد يُوصل للهند من جهة الغرب[١]، ويؤكد العمري ذلك بقول: « و وجدنا ما وراء خطّ الإقليم السابع ما أمكنَ عمارته بالنبات والحيوان بكيفيَّة طبعه، لا بسبب آخر من خارج، فظهرَ حينئذ أنَّ الشمال أوفقَ لمزاج الحيوان، فكانَ أعمر من الجنوب، لشدِّة حرِّ الجنوب على ما بيَّناه » [٢].

ج- الحقيقة الثالثة:

يُعدُّ الرحَّالة والجُغرافّي عُمر بن المظفر المعروف بابن الوردي (ت ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م) من أكثر الجغرافيين إسهاباً في حديثه عن بحر الظُّلمات والعالم الجديد، فذكر في كتابه المُعنون" خريدة العجائب وفريدة الغرائب " فصلاً كاملاً تحت عنوان" في بحر الظلمات"، ووصف فيه الجزر الخالدات[٣] الكناري، وجزيرة العوس[٤]، ثمَّ تحدَّث عن جُزرٍ أُخرى أكثر بُعداً، ثمَّ عن جزيرة ضخمة وصف أهلها بأنّهم ذوي بشرة حمراء. ومن الجزر البعيدة التي تحدَّث عنها ابن الوردي جزيرة كبيرة أطلق عليها اسم" جزيرة السعالي" [٥]، وقال عنها بلفظه: « هي جزيرةٌ عظيمةٌ بها خلق كالنساء، إلَّا أنَّ لهم أنياباً طويلة بادية، وعيونهم كالبرق الخاطف، و وجوههم كالأخشاب المُحترقة يتكلَّمون بكلامٍ لا يُفهم، ولا فرق بين النساء والرجال عندهم إلَّا بالذكر والفرج، لباسهم ورق الشجر، ويحاربون الدواب البحريَّة ويأكلونها»[٦].

الشافعية، ج١، ص٣٨٣، ٣٨٤؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٥، ص٩٥، ٩٦؛ الداودي: طبقات المفسرين، ج٢، ص٣١٣.

[١] ابن فضل الله العمري(أحمد بن يحيى): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: عبد الله بن يحيى السريجي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ٢٠٠٣م، ج١، ص٦١.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٥٩.

[٣] قال ابن الوردي: « وهما جزيرتان فيهما صنمان مبنيان من الحجر الصلد، طول كلّ صنمٍ مائة ذراع». ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٩٥.

[٤] جزيرة فيها دواب هائلة تنكرها المسامع، وفيها صنم بناه ذو القرنيين المذكور في القرآن(ذو المنار الحميري) من التبابعة. ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٩٥.

[٥] مفردها سعلاة، وهي سحرة الجن، وقيل: إنَّ الغيلان جنس منها، وهي إناث الشياطين، وإنَّ السعالي أخبث الغيلان، وأكثرها وجوداً في الغابات(الغياض)، وأنَّها إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به، والذئب يأكل السعلاة، والسعلاة واحدة من إناث الجن.

[٦] ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٩٥، ١٩٦.

ويُستنتج من وصف ابن الوردي لسكّان هذه الجزيرة بأنَّ" وجوههم كالأخشاب المُحترقة " أنَّهم كانوا من سُكّان العالم الجديد الَّذين أطلق عليهم كولومبس فيما بعد اسم" الهنود الحُمر". و عندما قال: بأنَّ لهم أنياباً طويلة، فهذا يرجع إلى أنَّ الهنود الحمر كانوا يصبغونَ وجوههم، ويرسمونَ حول أفواههم خطوطاً بيضاء تُرى وكأنَّها أنيابٌ، وعندما ذكر أنَّ وجوه أهل قلهات كوجوه الدواب، فمردُّ ذلك إلى تلك الأقنعة التي تُحاكي وجوه بعض الحيواناتِ التي كان الهنود الحُمر يضعونها لتخويف الغُرباء.

وفي حديثه عن جزيرةٍ بعيدة أُخرى أسماها" جزيرة الطيور" ذكرَ ابن الوردي أنَّ فيها جنساً من الطيور في هيئة العُقبان ذوات مخالب تصيد دواب البحر، وبهذه الجزيرة ثمرٌ يُشبه التين أكله ينفع من جميع السمومِ[١]، و ربَّما يكون هذا النوع من الطيور هو العقاب الأمريكيّ الذي كان ينتشر في العالم الجديد، وهو يسكن بالقرب من السواحل ويتغذَّى بالأسماك وطيور البحر. أمَّا بالنسبة لتشبيه الثمر بالتين فربَّما المقصود أنَّ ثمار البندورة أصابها الذبول فبدت أكثر شبهاً بالتين، ولا يُخفى أنَّ العالم الجديد، هو الموطنُ الأصلي للبندورة.

أمَّا فيما يتعلَّق بأهمِّ إنجازات المماليك في مجال علم الجغرافية والتي يأتي في مُقدِّمتها البوصلة والاسطرلاب التي تمَّت على يد الجُغرافي أحمد بن ماجد السعدي(ت ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، فقد تمَّت هذه الإنجازات خلال عصر دولة المماليك البُرجيَّة(٧٨٤- ٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)، لذلك فإنَّها تخرجُ عن النطاق الزمانيّ لهذا البحث المُكرّس لعصر دولة المماليك البحرية(٦٤٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م).

٢- إنجازات عُلماء الجُغرافية الفلكيَّة الوصفيَّة والإقليميَّة خلال عصر دولة المماليك البحريَّة:

أ- كروية الأرض:

شغلَ الحديث عن كرويَّةِ الأرض عُلماء العرب المسلمين منذُ القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلادي، وقد تناولَ هؤلاء الجغرافيّون هذا الموضوع، وأثبتوا كرويَّة الأرض في كتبهم، وبرهنوا عليها بدلائلٍ وأقوالٍ تُشير لذلك.

واحتلَّت قضيَّة كرويَّة الأرض حيزاً كبيراً من كتاباتِ واهتمامات جُغرافييّ العصر المملوكيّ، فقد أشارَ عدداً منهم جغرافيي إلى كرويَّة الأرض بكتبهم، وبرهنوا ذلك ببراهينٍ وحُججٍ، احتوت عليها أقوالهم في مُصنَّفات الجُغرافية الفلكيَّة، فقد عبَّر القزويني عن كرويَّة الأرض بقوله: « الأرض كُرة، والدليل على ذلك أنَّ خسوف القمر إذا كان يُرى من بُلدانٍ مُختلفة فإنَّه لا يُرى فيها كلِّها في وقتٍ واحدٍ، بل في أوقاتٍ

[١] ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٩٧.

مُتعاقبة؛ لأنَّ طلوع القمر وغروبه يكونان في أوقاتٍ مُختلفة في الأماكنِ المختلفة، والأرض واقفة في وسط الأفلاك كلَّها بإذن اللَّهِ»[1].

ولشيخ الرَّبوة الدمشقي(ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) نصّ مضمونه: « والدليل على أنَّ الأرض كرويَّة الشكل مُستديرة، أنَّ الشمسَ والقمرَ وسائر الكواكب لا يُوجد طلوعها، ولا غروبها على جميع النواحي في وقتٍ واحدٍ، بل يُرى طلوعها في النواحي المشرقيَّة من الأرض قبل طلوعها على النواحي المغربيَّة، وغيبوبتها عن المشرقيَّة قبل غيبوبتها عن المغربيَّة، وكذلك خسوف القمر » [2].

وبرهن الجُغرافيّ أبو الفداء على كرويَّة الأرض من خلال بعض الأدلَّةِ المنطقيّة عليها مثل تغيُّر وقت شروق الكواكب، وغروبها كلَّما تحرَّك الشخص من الشرق إلى الغرب، وتزايدَ ارتفاع النجم القطبيّ، والكواكب الشماليَّة كلَّما تقدَّم الشخص نحو الشمال، فقال في ذلك: « أمَّا جملة الأرض فكرويَّة الشكل حسبما ثَبُتَ في علم الهيئة بعدَّة أدلَّة، منها أن تقدَّم طلوع الكواكب للمشرقين، وتقدَّم غروبها للمغربين يدلُّ على استدارتها شرقاً وغرباً، وارتفاع القطب والكواكب الشماليّة، وانحطاط الجنوبيَّة للواغلين في الشمال، وارتفاع القطب والكواكب الجنوبيَّة، وانحطاط الشماليَّة للواغلين في الجنوب بحسب وغولهما، وتركب الاختلافين للسائرين على سمتٍ بين السمتين، وغير ذلك؛ دليلٌ استدارةِ جُملة باقي الأرض، أمَّا تضاريسها التي تلزمها من جهة الجبال والأغوار فإنَّه لا يخرجها عن أصلِ الاستدارة، ولا نسبة لها محسوسة إلى جُملة الأرض»[3].

ويُعدُّ الجُغرافي أبو العباس شهاب الدِّين أحمد بن فضل الله العمري من أشهر الَّذين تحدَّثوا عن كرويَّة الأرض، إذ تناولَ هذا الموضوع في كتابه" مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، وخصَّص للحديث عن الأرضِ وكرويَّتها وشكلها، وما يُحيط بها فصلاً كاملاً من كتابه المذكور، وعبَّر عن كرويَّتها بقوله: « إنَّ العالم كُرِيٌّ، ويدلُّ عليه المشاهدة بالعيان، لِمَن رعى الشمس من مطلعها إلى مغيبها؛ وكذلك النجوم من مشارقها إلى مغاربها، لأنّها تطلع حتَّى تتوسَّط تقويساً، فعُلم بالضرورة أنَّها تقطع في الغيبوبة نصف دائرة، نظير ما قُطعت في الظهور، ليُكملَ تمام الدائرة، والذي تلخَّص من أقوال أهل العلم والنظر في الهيأة: إنَّ العالم كُرة والأرض مركزها، والماء محيطٌ بها لا يفارقها، إلَّا ما انكشفَ، فالأرض في جوفِ الماء، والماء في جوفِ الهواء، والهواء في جوفِ الفَلك، كالمُحَّة في جوفِ البيضة في القشرِ»[4].

ب- تحديد مساحات الأرض:

---

[1] القزويني: عجائب المخلوقات، ص٢٢، ٣٥، ١٣٥.

[2] شيخ الربوة(محمد بن أبي طالب الأنصاري): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطرسبورغ- روسيا، ١٨٦٥م، ص٨، ٩.

[3] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣.

[4] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٢١.

رُغمَ أنَّ هذا الموضوع تمَّ تناوله من قبل عُلماء الجغرافية قبل العصر المملوكيّ، إلَّا أنَّ الدلائل التي أتى بها عُلماء الجُغرافية في العصر المملوكيّ، تدلُّ على تطوّر علم الجغرافية في عصرهم، وتُثْبِت أنَّ التقديرات الصحيحة لتحديد مساحة الأرض جاءت على يد علماء هذا العصر، فقد شغل الحديث عن مساحة الأرض حيّزاً كبيراً من مؤلَّفات عُلماء الجُغرافية في هذا العصر، إذ تناول الجُغرافي شيخ الربوة الدمشقيّ في كتابه" نخبة الدهر في عجائب البرِّ والبحر" الحديث عن مساحة الأرض وخلُص للقول: إنَّ مساحتها أربعة عشر ألف ألف فرسخ، وسبعمائة ألف فرسخ، وأربعة وأربعون ألف فرسخ، ومائتان واثنان وأربعون وخمسة فراسخ[١].

ولم يُغفِلْ الجُغرافيّ ابن فضل الله العمري الإشارة لتحديد مساحة الأرض، فذكرَ أنَّ دَورَ كُرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل وثلاثون ميلاً، وأنَّ قُطرها وعُمقها سبعة آلاف وستمائة وثلاثون ميلاً، وعلى هذا فإنَّ قطرها ستة آلاف وأربعمائة وأربعة وعشرون ميلاً، ونصف ميل[٢].

ولعلَّ أنَّ هذه التقديرات الصحيحة التي أُثبِتت في العصر المملوكي دفعت المُستشرق نلليَنو للقول في كتابه" علم الفلك عند العربِ"[٣]: « إنَّ قياس العرب للكرة الأرضيَّة، هو أوَّل قياسٌ حقيقيٌّ أُجريَ كلَّه مباشرة مع كلِّ ما تفتضيه تلك المسافة الطويلة، وهذا الفريق الكبير من العلماء والمسَّاحين العرب، فهو يُعدُّ من أعمال العرب المأثورة وأمجادهم العلميَّة»[٤].

ج- وضع خطوط الطول والعرض:

اهتمَّ عُلماء العرب المسلمين بتحديد خطوط طول المكان وعرضه، بهدف تعيين المواقع الجُغرافيَّة للمدن مُعتمدينَ على تجاربِ اليونان. وفي العصر المملوكيّ تطوَّر البحث في هذا الموضوع، إذ عُدَّ عُلماء الجُغرافية في هذا العصر أوَّل من وضع خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكُرة الأرضيَّة، ويُنسبُ إلى العالم أبو علي المراكشي(ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) وضع تلك الخطوط لكي يستدلَّ المسلمون على الساعات المتساوية في بقاع الأرض المُختلفة للصلاة[٥].

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٣.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٢٥، ١٢٧.

[٣] نالينو: علم الفلك، ص٤٢، ٤٣.

[٤] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٣٩.

[٥] المراكشي(الحسن بن علي بن عمر): جامع المبادئ والغايات في علم الميقات، منشورات المكتبة الوطنية، باريس، ١٨٣٤م، ص١٤٠.

وذكرَ الجُغرافي ابن فضل الله العمريّ أنَّ طول الأرض ظاهراً وباطناً، براً وبحراً، معموراً وغير معمورٍ، وما بينَ خطّ الاستواء وبين كلِّ واحدٍ من القطبين، الجنوبيّ والشماليّ، تسعين درجة، واستدارتُها تسعين درجة أيضاً[1].

د- دوران الأرض حول نفسها:

برزت محاولة مُناقشة مسألة دوران الكُرة الأرضيَّة حول نفسها الأرض في القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ. واضَّطلع بهذه المُهمَّة ثلاثةٌ من عُلماء العرب المسلمين في العصر المملوكي، فكان لهم قصبُ السبق في مناقشة فكرة دوران، وهُم: علي بن عمر الكاتبي [2]، و قُطب الدِّين الشيرازي[3]، وأبو الفرج علي من الشام. فكانَ هؤلاء الثلاثة أوَّل من أشارَ في التاريخ الإنسانيّ إلى احتمالِ دوران الأرض حولَ نفسها أمام الشمس مرَّة كلّ يومٍ وليلة، وربَّما أنَّ النظرياتَ الصحيحةُ التي أتوا بها، دفعت سارتون للقول في كتابه" مُقدِّمة في تاريخ العلم: « إنَّ أبحاث هؤلاء العُلماء الثلاثة في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لمْ تذهبْ سُدَى بل كانت إحدى العوامل التي أثَّرت على أبحاث كوبرنيكوس في نظريَّته التي أعلنها سنة ١٥٤٣م » [4].

وكان الجُغرافي أبو الفداء أوَّل من لاحظَ أنَّ الدوران حول الأرض يزيد أو ينقص يوماً في كلِّ أسبوعٍ، إذ قال: « لو كانَ السير إلى جميع الأرضِ مُمكناً، ثمَّ فرض تفرُّق ثلاثة أشخاص من موضعٍ بعينه، فسارَ أحدهم نحوَ المغرب، والثاني نحوَ المشرق، وأقامَ الثالث حتَّى دار السائران دوراً من الأرض، ورجعَ السائر في الغرب إليه من جهةِ الشرقِ، والسائر في الشرقِ من جهةِ الغربِ، نقصَ من الأيام التي عدُّوها جميعاً للمغربيّ واحدٍ، وزاد للمشرقيّ واحدٌ، من الذي سار إلى الغرب، ولنفرضَ أنَّه دارَ الأرض في سبعة أيامٍ، سارَ موافقاً لمسير الشمس، فيتأخَّر غروبها عنه بقدر سبع الدور بالتقريب، وهو ما يسيرُ في كلِّ نهارٍ، ففي سبعةِ أيامٍ حصل له دورٌ كاملٌ، وهو يوم بكماله، والذي سار إلى الشرق كان سيره مُخالفاً لمسير الشمس فتغربُ الشمس عنه قبل أنْ يصلَ إلى سبع الدور، فيجتمعَ في ذلك مقدار يوم، فتزيدُ أيَّامه يوماً كاملاً، فلو كان افتراقهما يوم الجمعة، ثمَّ حضرا إلى المقيم ثالثهم يوم الجُمعة الأُخرى، فإنَّه يكون بالنسبة

---

[1] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٢٩.

[2] نجم الدِّين علي بن عمر بن علي الكاتبي القزويني، حكيم منطقي، من تلاميذ نصير الدِّين الطوسي، له تصانيف كثيرة منها" الشمسية" و" حكمة العين"، توفي(٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢١، ص٢٤٤.

[3] الشيرازي(محمود بن مسعود): نهاية الإدراك في دراية الأفلاك، مخطوط بالمكتبة البريطانية(مخطوطات شرقية- قسم الفلك)، رقم ١٠٣٣، ورقة ١٠٢ ظ. وهو محمود بن مسعود، قطب الدِّين الشيرازي، عالم بالعقليات والفلك، توفِّي في تبريز سنة(٧١٠هـ/ ١٣١١م). ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢٥٩؛ الدلجي: الفلاكة والمفلوكون، ص٧٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٢٩.

[4] سارتون: تاريخ العلم، ج١، ص٤٦.

إلى مُقيم يوم الجمعة، وبالنسبة للمغربيّ الذي حضرَ من المشرق يوم الخميس، وبالنسبة للمشرقيّ الذي حضر من المغرب يوم السبت، وكذلك الحال لو فرضت هذه الصورة في الشهور أو السنين» [1].

كما تناولَ الفلكيّ ابن الشاطر موضوع دوران الأرض حول نفسها وصحَّح نظرية بطليموس، التي تنصُّ على أنَّ الأرضَ هي مركز الكون، والشمس هي التي تدور حولها، وإنَّ الأجرام السماويَّة كلَّها تدور حول الأرض مرَّة كلّ أربعٍ وعشرين ساعة، وكان العالم كله في عهد ابن الشاطر يعتقدُ بصحَّةِ هذه النظرية التي لا تحتمل جدالاً، فقال ابن الشاطر في ذلك« إذا كانت الأجرام السماويَّة تسيرُ من الشرق إلى الغرب، فالشمس إحدى هذه الكواكب تسير، ولكن لماذا يتغيَّر طلوعها وغروبها؟. وأشدُّ من ذلك أنَّ هُناك كواكب تختفي، وتظهر سمُّوها الكواكب المُتحيّرة؛ لذا الأرض والكواكب المُتحيّرة تدورُ حولَ الشمس بانتظامٍ، والقمر يدورُ حولَ الأرض»[2].

---

[1] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣، ٤.

[2] ابن الشاطر(علي بن إبراهيم): الزيج الجديد، مخطوط مكتبة المخطوطات، الكويت، رقم ٢٥٧٣، ورقة ٦٩.

الفصل الثالث

الأدب الجغرافي- فن التقاويم الجغرافيّة

أولاً- تعريف فن التَقاوِيم الجُغرافيَّة:

عُرِفَ فن تقاويم البُلدان بتسمياتٍ عدَّة، فقد أُطلِقَ عليهِ علمُ مسالك البُلدان و الأمصار، وكذلك علم أدب المسالك، وعُرِفَ باسمِ علم الأطوال والعُروض، وعلم المصوَّرات الَّذي يُعنَى بذكرِ البُلدان وخصائصها، ولعلَّ هذا العلمُ صنفٌ من الجُغرافيَة الفلكيَّة وما يتعلَّقُ بها من أمور الزيجات ومقاييس الطول والعرض، وذِكرْ خصائص البُلدان ومنافعها وغرائبها، وما فيها من نباتاتٍ وحيواناتٍ ومعادنٍ وغيرَ ذلك، وعلى هذا فأنَّه يرتبطُ ارتباطاً وثيقاً بعلم الهيئة والفلك مع وصفهِ الكامل لما يَردُ ذكرهُ من البُلدان، منْ ثَمَّ يتداخلُ في هذا المجالُ مع ما يُمكن تسميتهُ بالجُغرافية الوصفيَّة العامَّة.

وعندَ النظر في كتب تقاويم البُلدان لاسيَّما كتاب" نُخبة الدهر في عجائب البرِّ والبحر" لشيخ الرَّبوة الدمشقي، وكتاب" مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمري، يُلاحظ إتِّباعُهَا الأسلوب الأدبي في وصفها الجُغرافي للأماكن و هذا ما يُسمَّى بالجُغرافية الأدبيَّة الوصفيَّة(جُغرافيَّة التقاويم) التي تهتمُّ بأطوالِ وعروضِ البُلدان مع إدراجها جداول يُمكنُ تسميتُهَا بالجداول الفلكيَّة المُتَّبعة في الزيج الفلكي وتقسيماتهُ، وتبعاً لذلك يُمكن صياغة تعاريف عدَّة لعلم تقاويم البُلدان، منها:

التقويم الجغرافي:

هو خريطةٌ للأقطار يُعنَى فيها خاصةً بذكر طول البُلدان وعرضها وخصائصها الجُغرافيَّة[1]، وتعيين مواقعهَا وتبيان ظواهرها - و طولها وعرضها[2]، و قد ضمَّنَ أبو الفداء في كتابه" تقويم البلدان" عند حديثه عن مُقدِّمته تعريفاً لعلمِ تقويم البُلدان، فذكرَ أنَّ ما يتضمَّنهُ تقويم البلدان هو ذكرٌ للأرض والأقاليم السبعة والبحار، ومعرفةُ صفات البلاد وأطوالها وعروضها مع ذكرَ البلادَ في جداولٍ و ذكر أطوالها وعروضها بالدرجِ والدقائق، وذكر إقليمها الحقيقي والعرفي وضبط أسمائها[3].

ومن ثَمَّ هو علمٌ يتعرَّفُ منه على أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الرُّبعِ المَسكون من الكُرة الأرضيَّة، و ما في كلِّ إقليمٍ من المنافعِ والمضارِ والغرائب[4]، وعروض البلدان فيها، وأطوالها، وعدد مُدنهَا، وجبالها، وبراريها، وبحارها، وأنهارها، إلى غير ذلك من أحوالِ الرُّبع المعمور[5]، وكونَهُ سُمِّيَ بعلمِ مسالك البُلدان والأمصار فهو يبحثُ عن أحوالِ الطُرق الواقعة بين البلاد، وأنَّها بريَّة أمْ بحريَّة عَامرة أمْ غَامرة، سهليَّة أمْ

---

[1] أبو طالب(عبد الهادي): معجم تصحيح لغة الإعلام العربي، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ج١، ص٧٠.

[2] البستاني(بطرس): مُحيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م، ص٧٢؛ مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط٤، ٢٠٠٤م، ص٨٦.

[3] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١-٣.

[4] القنوجي: أبجد العلوم، ج٢، ص٢٧٩؛ طاش كبرى: مفتاح السعادة، ج١، ص٣٦٢.

[5] القنوجي: أبجد العلوم، ج٢، ص٢١٣؛ طاش كبرى: مفتاح السعادة، ج١، ص٣٦١.

جبليَّة، مُستقيمة أم مُنحرفة، مع ذكر العلامات المنصوبة لتلكَ الطُرق من الجبالِ والتلالِ، ومَعرفة ما في تلكَ المسالك من المَخاوف الحيوانيَّة والنباتيَّة وأمثالُ ذلك[١].

ولعلَّ تداخُل فن تقاويم البُلدان مع علم الفلك تجعله علماً يُتعرَّف منهُ على الأعمال الفلكيَّة، ومعرفة ارتفاع الشمس، والمَطالع والطَوالِع، وأوقاتِ الصلاة، وطول الأشياء بالذراعِ وعرضِهَا[٢]، ومعرفة كميَّة مسالك الأمصار فراسخاً وأميالاً، وأنَّ المسافة بينَ المناطق شهريَّة أم أقلّ أم أكثر، وهذه المباحث جُغرافيَّة رُغمَ علاقتها بعلم الهيئة[٣]، مع تضمينهُ معرفة نسبة الخُطوط والأشكال، ويتمُّ ذلكَ بمعرفة صفة الأفلاك والأرض والبناء، وقسمة الأرض، ونحوَ ذلك[٤].

في حين رأى بعضَهُم أنَّ علمَ تقويمُ البلدان، هو أقربُ ما يكونَ للجُغرافية الوصفيَّة Geographie (Descriptiv)؛ لأنَّه لا يقتصر على ذكرِ الطُرق والمسالك، و المراحل، بل يتضمَّنَ وصفَ البُلدان والمُدن، إدارةً وتاريخاً واقتصاداً، و أوصافاً تقلُّ أو تزيدُ باختلافِ العصر والمؤلف، مع بحثِهِ في وصفِ البيئات، والبُلدان، والحيوان، والنبات، والطُرق والمواصلات، وفن الخرائط ورسمها، وهذا ما سُمِّيَ عندهم بتقاويم البُلدان والمسالك والممالك[٥]، وبذلك فإنَّ علمي الأطوال والأعراض، والمسالك والممالك(تقويم البلدان)، يُركِّزان على الحركات الفلكيَّة للأرض والكون، وعلى إلقاءِ نظرةٍ عن الأرضِ والعالم، بعيداً عن جفاف الجُغرافية الرياضيَّة، ويُطلقُ على هذا الفنُّ اسم الجُغرافية الأدبيَّة و الوصفية، وهذا الفنُّ غزيرٌ في مادَّتِهِ ومتنوعٌ في موضوعاتِهِ[٦]

وعلى هذا الأساسُ يُمكنُ عدُّ علم تقويم البُلدان فرعاً من فروعِ الكُوزموغرافيا، و الجُغرافية العالميَّة التي تبحثُ في الأرضِ والبلدانِ، والنباتِ، والحيوانِ، والتعدينِ، و الأجناسِ[٧]، ويُعرف هذا باسم الجُغرافية الإقليميَّة[٨]، وبناءً عليه قيلَ في علم تقويمِ البُلدان: ليُعدَّ الداعي لكلِّ بلادٍ عدَّتها إذا أرادَ السفرُ إليها، وقد كانَ الصحابةُ رضوانَ الله عليهم لأعلمَ أهل زمانهم بالتاريخ، و ما يُسمَّى الآن بتقويم البلدان، ولذلك أقدموا

---

[١] القنوجي: أبجد العلوم، ج٢، ص٤٨٤؛ طاش كبرى: مفتاح السعادة، ج١، ص٣٦١، ٣٦٢.

[٢] القنوجي: أبجد العلوم، ج٢، ص٣٨٥.

[٣] طاش كبرى: مفتاح السعادة، ج١،ص٣٦٢؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٢٣٨.

[٤] ابن حزم الأندلسي(علي بن أحمد): رسائل ابن حزم، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ج٣، ص١٣٢.

[٥] الورقي(السعيد): في مصادر التراث العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٥٧.

[٦] التهانوي(محمد علي): كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: رفيق العجم و علي دحروج، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م، ١٩٩٦م، مج١، ص٦٣.

[٧] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٨٣.

[٨] الفندي: الجغرافية عند المسلمين، ص١٦٣.

على الفتوحاتِ ومُحاربة الأمم، فانتصروا عليهُم بالعلمِ لا بالجهلِ، فلو كانوا يجهلونَ مسالكَ بلادهم، ومواقعها، وطرقها، ومواقع المياه لهلكوا[١].

ثانياً: المُصطلحات التي تضمَّنتها كُتب التقاويم الجُغرافيَّة في العصر المملوكي:

ضُمِّنت كُتب الجُغرافية الخاصَّة بالتقاويمِ عدداً من الاصطلاحات المُتكررة عند وصفها للمُدن والبحار والأقاليم، وقياساتها وأطوالها وعروضها، ولا بدَّ من ذكرها هُنا ليُفهمَ وحداتَ المَقاسَ التي اعتُمِدَ عليها في جُغرافيَّةِ التقاويم، وما تعنيهُ:

١- الفرسخ:

لفظٌ فارسيٌّ مُعرَّب، وأصلهُ فرسنك، يُقالُ: انتظرتُكَ فرسخاً من النهارَ أي طويلاً، ورويَ أنَّ الفرسخَ سُمِّيَ فرسخاً، لأنَّه إذا مشَى صاحبَهُ استراحَ وجلسَ، وقيلَ: فراسخُ الليلَ والنهارَ تعني ساعاتَهُما وأوقاتَهُما، فالفرسخُ يُرادُ بهِ سيرَ ساعةً أو ساعات، و قد ذكرت الحُكماء أنَّ استدارةَ الأرضُ في موضعِ خطِّ الاستواء ثلاثمئة وستونَ درجة، و الدرجةُ خمسةٌ وعشرونَ فرسخاً[٢]، والفرسخُ ثلاثةُ أميال[٣]، والميلُ أربعةُ آلاف ذراع[٤]، فالفرسخُ اثنا عشر ألفَ ذراعاً[٥]، والذراعُ أربعٌ وعشرونَ إصبعاً[٦]، والإصبعُ ستُّ حبَّات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض[٧].

وقيلَ: إنَّ الفرسخَ اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المُرسلة، وتكون بذراعِ المساحة، وهي الذراعُ الهاشمية[٨]، وهي ذراعٌ وربعٌ بالمرسلِ تسعة آلاف ذراع وستمئة ذراع[٩]، وذكرَ بعضَهُم أنَّ الفرسخَ سبعةُ آلاف خُطوة، والخُطوةُ ثلاثةُ أقدام أي بمقاس قدم البعير، فالفرسخُ ثلاثةُ أميالٌ[١٠].

---

١ محفوظ(علي): هدية المُرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، دار الاعتصام، مصر، ط٩، ١٩٧٩م، ص١٠١.

٢ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٥، ٣٦؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص٤٨، ٤٩.

٣ الساعاتي(أحمد عبد الرحمن البنا): الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار بيت الأفكار الدولية، عمان، ٢٠٠٩م، ج١، ص٤١٨.

٤ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٥.

٥ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٥، ٣٦؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص٤٨، ٤٩.

٦ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٥.

٧ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٤.

٨ أبو يعلى الفراء(محمد بن الحسين): الأحكام السلطانية، تعليق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٧٤.

٩ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٥، ٣٦؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص٤٨، ٤٩.

١٠ المدخل(زيد بن محمد): الأفناد الندية، دار علماء السلف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٣م، ج٢، ص١٧٢.

٢ – الميل:

ذُكِرَ أنَّ الميلَ ثلاثةُ آلاف ذراع بذراعِ المُلك[١]، والذراع ثلاثة أشبار، والشبر ستة وثلاثون إصبعاً[٢]، والإصبع ستَ شعيرات مضمُومات بطون بعضها إلى بعضٍ[٣]، وقيلَ: الميلُ جزءٌ من ثلاثةِ أجزاء من الفرسخ، كما قيلَ: إنَّ الميلَ ألفا وثلاثمئة و ثلاث وثلاثون خطوة[٤]، وأمَّا أهل اللغة فالميلُ عندهم مَدى البصر ومُنتهاه، فذكرَ بعضهم أنَّه قيل: للأعلام المبنيَّة في طريقِ مكة أميالٍ، لأنَّها بُنيت على مقاديرِ مَدى البصر من الميلِ إلى الميلِ، ولا يُعنَى بمدَى البصر كلُّ مرئيٍّ فإنْ يُرى الجبل من مسيرةِ أيامٍ، إنَّما يعني أنْ ينظرَ الصحيح البصر ما مقداره ميل، وهي بنيةٌ ارتفاعها عشرة أذرع أو قريباً من ذلك، وغلظها مُناسب لطولها[٥].

٣ – الإقليم:

عرَّف ابن حوقل الإقليم بقوله: « وقد عملتُ لهُ كتابيَ هذا بصفةِ أشكالِ الأرض ومقدارُها في الطول والعرض، وأقاليم البلدان، ومحلَ الغمر منها والعُمران، من جميعِ بلاد الإسلام بتفصيل مُدنها»[٦]، وذكرَ ياقوت الحموي أنَّ الإقليم هو كلُّ ناحية مُشتملة على مُدنٍ وقُرى عدَّة، وسمَّى كلٌّ من الصين، وخراسان، والعراق، والشام، و مصر، وإفريقية أقاليماً[٧].

٤ – الكورة:

الكورةُ اسمٌ فارسيٌّ بحت، يُطلقُ على قسمٍ من أقسامِ الأستان[٨]، وقد استعارها العرب وجعلوها اسماً للأستان، فالكورة والأستان واحد، و الكورةُ كلُّ صقعٌ، ولا بدَّ لكلِّ منطقة من قصبة أو مدينة أو نهر يجمعُ اسمها يُسمَّى بالكورة، ومثالها قولهم: دارا بجرد، وهي مدينةٌ بفارس لها عملٌ واسعٌ ويُسمَّى ذلك العمل

---

[١] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٥.

[٢] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٦؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص٤٩.

[٣] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٤.

[٤] التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، مج١، ص١٦٧٣.

[٥] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٦؛ ابن منظور(محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦م، مج١١، ص٦٣٩.

[٦] ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠.

[٧] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٢٦.

[٨] إنَّ الأستانَ والكورةَ واحدٌ: فشهرستان وطبرستان وخوزستان مأخوذ من الأستان، فخُفِّفَ بحذفِ الألف، ومثالُ ذلك أنَّ رقعة رقعة فارس خمسة أساتين، أحدها أستان دارا بجردِ، ثمَّ ينقسم الأستان إلى الرساتيق، وينقسم الرستاق إلى الطساسيج، وينقسمُ كلَّ طسوجٍ إلى قرى عدَّة، مثال ذلك: اصطخراستان من أساتين فارس. الحموي: معج البلدان، مج١، ص٣٧.

بجملته كورة دارا بجرد، ومثالها أيضاً نهر المُلك، وهو نهرٌ عظيمٌ مخرجهُ من الفُرات ويصبُّ في دجلة، و عليه نحوَ ثلاثمئة قرية، ويقال لذلك جميعه: كورة نهر الملك[١].

٥- الجند:

اختُلِفَ في تفسير معنى الأجناد، فذكرَ بعضَهم أنَّ المُسلمين سمُّوا كلَّ واحدٍ من أصقاع الشام جنداً، لأنَّه جمع كورة، و التجنُّد على هذا يعني التجمُّع، فيُقال مثلاً: جنَّدتُ جُنداً أي جمعتُ جمعاً، وقيل: سمَّى المُسلمون لكلِّ صقعٍ بجندٍ عُيّنوا له و يقبضونَ أُعطياتهم منهُ، فيقولون: هؤلاء جندُ كذا حتَّى غلبَ عليهم وعلى الناحية اسم الجُند، وقيل: إنَّ المسلمين قسَّمُوا بلاد الشام إلى عددٍ من الأجناد عدُدها خمسة، و هي جُند قنِّسرين، وفلسطين، وحمص، ودمشق، والأردن[٢].

٦- الطول:

إنَّ القولَ في طولِ البلدِ كذا، هو من ألفاظِ المُنجِّمين، وقد فسَّروهُ بأنَّ طولَهُ يعني بُعده عن أقصَى العمارة، فطولُ البلد على هذا يعني بُعده عن المغرب، إلَّا أنَّ في هذه النهايةُ اختلافٌ، فذكرَ بعضَهُم أنَّها تبتدئُ بالطول من ساحل بحر أوقيا نوس الغربي وهو البحرُ المحيط، في حين ذكرَ آخرون أنَّها تبتدئُ من سمتِ الجزائر الوغلة في البحرِ المحيط أي جُزر السعادات والخالدات، وهي بمحاذاةُ بلاد المغرب، ولهذا ربَّما يوجدُ للبلد الواحد في الكتبِ نوعين من الطولِ بينهما عشر درجات[٣].

٧- العرض:

إنَّ عرضَ البلدُ مقابلٌ لطولهِ الَّذي ذُكِرَ سابقاً، ومعناهُ عند المُنجِّمينَ بعده الأقصى عن خطِّ الاستواءِ نحوَ الشمال[٤]، لأنَّ البلدَ والعمارة في هذه الناحية، وتُحاذيهُ من السماء قوساً عظيمةً شبيهةً بهِ واقفةً بين سمتَ سمتَ الرأس ومُعدَّل النهار، ويساويهُ ارتفاع القُطب الشمالي، فلذلك يُعبِّرُ عنه به، وإنَّ انحطاط القطب الجنوبي وإنْ ساواه أيضاً فأنَّه خفيٌّ لا يشعرُ بهِ[٥].

---

[١] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٦، ٣٧؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص٤٩.

[٢] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٨؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص٥١.

[٣] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٩؛ البيروني(محمد بن أحمد): تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض، مخطوط ، جامعة الملك سعود، رقم ٥٦٥٧، ورقة ٣٤و.

[٤] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٩؛ البيروني: تصحيح الطول والعرض، ورقة ٣٤و.

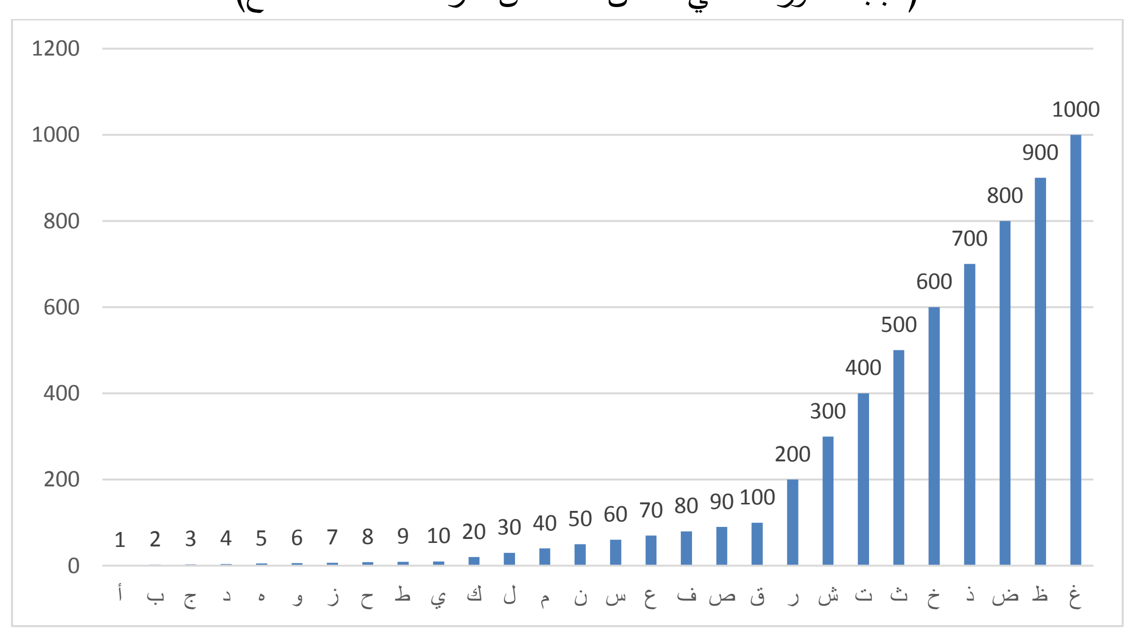
[٥] البيروني(محمد بن أحمد): التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، تح: محمد باسل الطائي وآخرون، دار عالم الكتاب الحديث، إربد- الأردن، ط١، ٢٠٠٤م، مج١، ص١٣٢.

٨- الدرجة والدقيقة:

فهُما أيضاً من نصيبِ المُنجِّمين، وقد قيلَ: إنَّ الدرجةَ قدرُ ما تقطعهُ الشمس في يومٍ وليلة من الفلكِ، وفي مساحةِ الأرضِ خمسة وعشرون فرسخاً[١]، وتنقسمُ الدرجة إلى ستينَ دقيقة، والدقيقة إلى ستينَ ثانية، والثانية إلى ستينَ ثالثة[٢].

حساب درجات الطول والعرض والمقاييس عند الجغرافيين

(أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ).



يقوم الجغرافيُّون الفلكيُّون بذكرِ طول مدينة وعرضها بالدرجاتِ والدقائق مُعتمدينَ على رموزِ أبجديَّة اللُّغة العربية، فكلّ حرف يُساوي عدداً، ولمعرفة حساب طول مدينة وعرضها يُطرح أمثلة على ذلك.

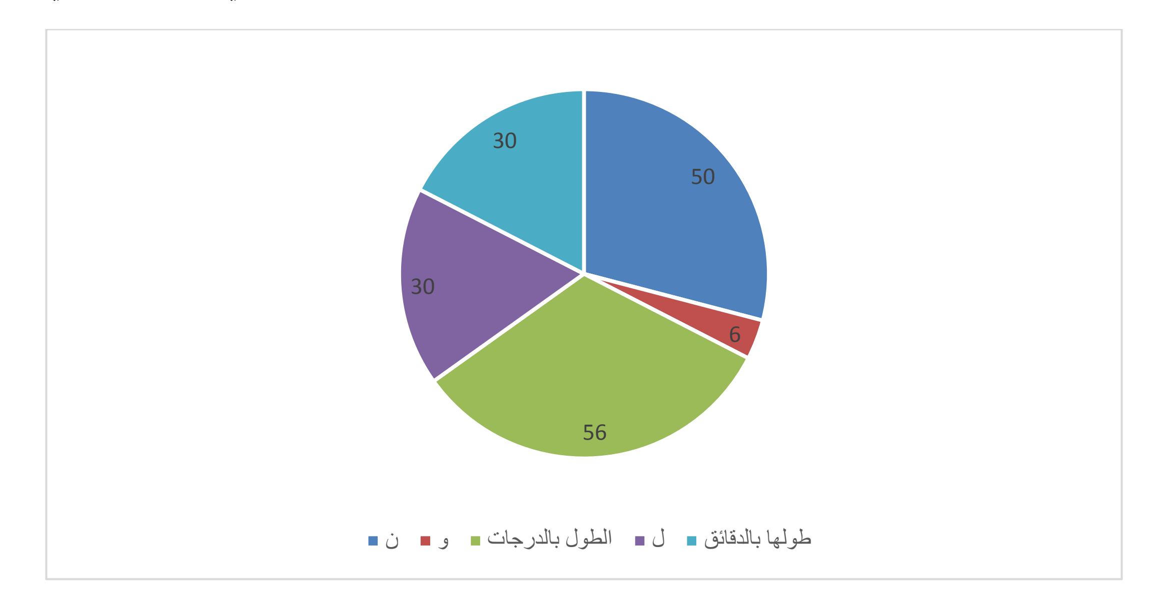
مدينة عسقلان: طولها(نو – ل) وعرضها (لب – نه):

فعندَ حساب طول مدينة عسقلان بالدرجاتِ والدقائقِ: طولها بالدرجاتِ هو(نو) وحرف النون = ٥٠، وحرف الواو = ٦، فيكون طولها بالدرجات٥٠+ ٦ =٥٦ درجة، أمَّا طولها بالدقائق فهو(ل) وحرف اللام= ٣٠، فيكونَ طولها بالدقائقِ ٣٠ دقيقة.

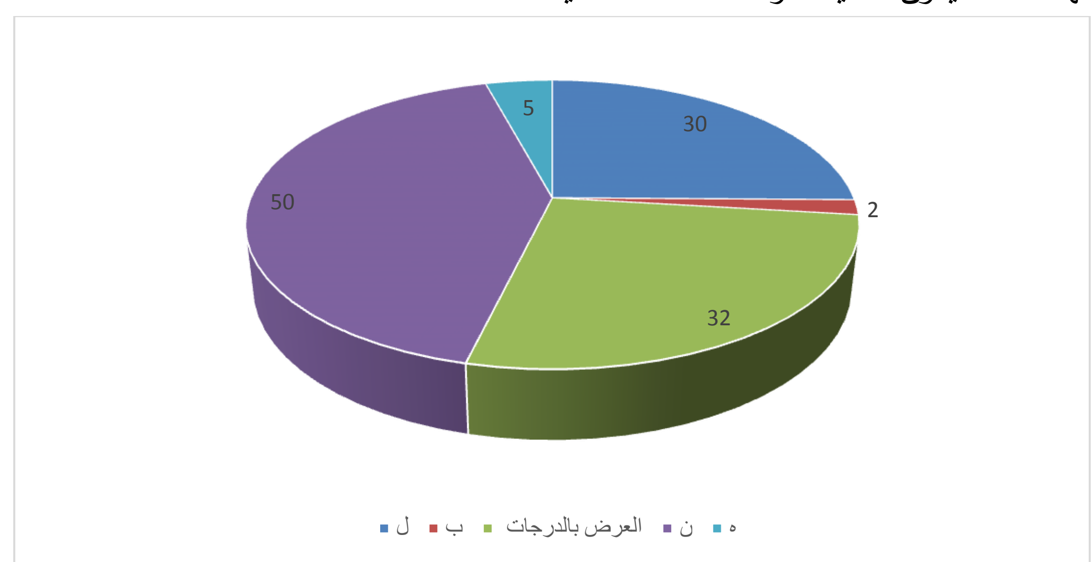
---

[١] ابن شهاب الرملي(محمد بن أحمد): نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م، مج٢، ص٢٥٧.

[٢] الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٩؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص٥١.



ولحساب عرضها: فإنَّ عرضَ عسقلان بالدرجات هو(لب) وحرف اللام =٣٠، وحرف الباء= ٢ فيكون عرضها بالدرجاتِ هو ٣٠+٢= ٣٢ درجة، أمَّا عرضها بالدقائق فهو(نه)، وحرف النون= ٥٠، وحرف الهاء= ٥، فيكون المدينة هو ٥٠+٥= ٥٥ دقيقة.



ثالثاً: لمحة عن نشأة علم تقاويم البُلدان وتطوّرهُ في العصر المملوكي:

ظهرَ الاهتمام في علمِ تقويمِ البُلدان على شكلِ مُؤلفاتٍ عُرفت بالجُغرافية الفلكيَّة وعلم الأطوال والعروض[١]، ونشأت الجُغرافية الأدبيَّة الرياضيَّة التي ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بتقويم البُلدان، نتيجةً لتعرُّف العرب المسلمين على معارف الشُعوب الأخرى[٢]، ثمَّ تطوَّر علمَ تقويم البلدان بشكلٍ كبيرٍ، على يد عدد

---

١ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٨.

٢ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص١٨.

من المُصنِّفين وكُتَّاب الدواوين، الَّذينَ اجتمعت بين أيدهم مُعطيات كثيرة عن الطرق، والمسالك، والخراج، والواردات، و النفقات، وأسماء المواضع[١].

وفي العصر المملوكي انبثقَ التطوُّر المُهم للجُغرافية الأدبيَّة الرياضيَّة(التقاويم)، و تطورت شيئاً فشيئاً[٢]، فظهرَ بين العرب المسلمين لفيف من الكُتَّاب أولوا اهتمامهم بما سمُّوه تقويم البُلدان، وكثرت الكتابات في هذا العلم، الذي يُعنى بوصف الدروب، والمسالك، والمدن، والأقاليم، والبحار، والأنهار، وغيرها، مع إرفاق جداول فلكية تُحدِّدُ أطوال، وعروض الأماكن في أغلبِ الأحيان[٣] ، واتَّبعَ جُغرافيُّو هذا العصرُ في مؤلفاتهم التقسيم الجُغرافي للمناطق بدلاً من التقسيم الفلكي كما فعلَ الإدريسي[٤].

ولعلَّ أبرز من صنَّفَ في هذا المجال الجُغرافي شيخ الربوة الدمشقي، محمد بن أبي طالب الأنصاري فصنَّف كتاباً سمَّاهُ" نُخبة الدهر في عجائب البر والبحر"، و بناهُ على تسعةِ أبواب في وصفِ الأقاليم السبعة، وفصول السنة، وممالك الشرق والغرب، والأنهار والآبار والبحار، وسيتمُّ دراسته خلال هذا الفصل[٥].

وتبعهُ الجغرافي المؤرخ أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود الأيوبي الَّذي وضعَ كتاباً في التقاويم الجُغرافيَّة في غاية الأهمِّية وسمَّاه" تقويم البلدان" وسيتمُّ دراستهُ في هذا الفصل أيضاً، ووضعَ إبراهيم بن عبد الرحمن الفزَّاري المصري الصعيدي(ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م) كتاباً في تقاويم البلدان تحدَّث فيه عن الشام وسمَّاه" الإعلام بفضائل الشام"[٦].

وفيما بعد تطوَّرت مُؤلفات فن التقاويم الجُغرافيَّة خلال العصر المملوكي، فأصبحت على شكلِ موسوعاتٍ كوزموغرافيَّة[٧]، أُفرد فيها للجُغرافية مكانة مرموقة، وكانت هذه الموسوعاتُ ذاتُ طابعٍ أدبيٍّ في أغلبِ الأحيان كتبَها موظَّفو ديوان الإنشاء[٨]، الَّذي يُعدُّ مدرسةٌ أدبيةٌ تولَّى رئاستَهُ مجموعة من العلماء، وقد ساعدَهُم هذا المنصب في القيام بحركة التأليف الموسوعي[٩]، ولعلَّ أبرزَ مَنْ اشتهرَ في هذا المجال:

---

١ العزيزي(الحسن بن أحمد): المسالك والممالك، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٦م، ج١، ص٥، ٦.

٢ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٢٠، ٢١.

٣ عفيفي: تطور الفكر العلمي، ص٢٥٦؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٣.

٤ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٢.

٥ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٥٨؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص١٩٣٦.

٦ الذهبي: ذيول العبر، ج٤، ص٨٦؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج١، ص٣٤.

٧ العزيزي: المسالك والممالك، ج١، ص٥، ٦؛ عفيفي: تطور الفكر العلمي، ص٢٥٦؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٣؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٠٥؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦٠.

٨ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٠٥؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٦٠.

٩ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص٦، ٧.

١- العالم الموسوعي مُحمَّد بن إبراهيم بن الورَّاق، المعروف بالوطواط[1]:

أَلَّفَ موسوعتهُ الشهيرة المعروفة باسم" مَباهج الفكر ومناهج العبر"، وهي موسوعةٌ في أربعةِ مُجلَّداتٍ، تحدَّثَ في المُجلَّد الأولى عن الكيمياء، وفي المُجلَّد الثاني عن الطبيعة وهو موضوع جُغرافيَّة التقاويم في كتابه، وقد ضمَّنهُ أبواب عدَّة في البحارِ والمعادنِ وخلق الأرض، والآبار، والمباني، وطبائع البلاد، وأخلاق أهلها وسكن المعمور، وتحدَّثَ في المُجلَّد الثالث عن الحيوانات، بينما خصَّص المُجلَّد الرابع للحديث عن النباتات[2]، وتكمنُ أهمِّيَّة هذه الموسوعةُ بأنَّها تسوق إلى التاريخ المُبكِّر للموسوعات التي تربطُ الصلة بين الكوزموغرافيا والمُصنَّفات الأدبيَّة[3].

٢- الجُغرافي الموسوعي ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى:

صنَّفَ هذا الجُغرافي أشهر موسوعات التقاويم الجُغرافيَّة على الإطلاق، وسمَّاها" مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "[4]، وستتمُّ دراستها ضمنَ هذا الفصل.

٣- الموسوعي شهاب الدِّين أحمد بن علي القلقشندي(ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

يُعدُّ القلقشندي من أشهر موسُوعيِّ العصر المملوكي، فقد صنَّف موسوعته الشهيرة والضخمة" صُبح الأعشى في صناعة الإنشا"، وقد ساعدهُ عمله في ديوان الإنشاء على تأليفها[5]، وضمَّنَ المؤلف موسوعتَهُ على مُقدِّمة، وعشر مقالات، وخاتمة، فتحدَّث في المُقدِّمة عن فضلِ القلمِ والكتابةِ، فيما تناولت المقالات الحديث عمَّا يحتاجهُ كاتب ديوان الإنشاء، وأنواع المُكاتبات، وألقاب الملوك، وأرباب السيوف، والعُلماء، والكُتَّاب، ومسألة الولايات، والخلافة، والسلطنة، والوصايا الدينية، والمُسامحات، والإقطاعات، وعهود الإيمان، وفنون الكتابة، وغيرها، أمَّا الخاتمة فذكرَ فيها أموراً تتعلَّقُ بديوان الإنشاء كالبريد وتاريخه، والحمام الزاجل وأبراجه، والمناورات والمُحرِقَات التي تُستخدمُ في معرفة تحرُّكَات العدو[6].

---

[1] الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٢٠١-٢٠٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٩٨، ٢٩٩.

[2] الوطواط(محمد بن إبراهيم): مباهج الفكر ومناهج العبر، تح: عبد الرزاق الحربي، الدار العربية للموسوعات، د. م، ط١، ط١، ٢٠٠٠م، ص٨٢-٨٣؛ الزركلي الأعلام، ج٥، ص٢٩٧.

[3] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٠٧.

[4] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٥٧-١٦١؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣، ص١٨ -٢٠.

٥ حمزة (عبد اللطيف): القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م، ص٤١-٤٣.

٦ عنان: مؤرخو مصر، ص٧٨-٨٣.

وما يُعنينَا هُنا المقالة الثانية من الموسوعة التي حملتْ عنوان" المَسالك والممالك" فذكرَ فيها الأرض، والخلافة، وديار مصر والشام، والبُلدان المحيطة بها، وهي مقالةٌ في جُغرافيَّة التقاويم[١]، تناولَ فيها المؤلف وصف شكل الأرض، ثمَّ بدأ بوصف ديار مصر، لا سيَّما مصر الفاطمية، والأيوبيَّة، والمملوكية، وكانت بلاد الشام ونياباتها ومدنها من أهمِّ الأمور التي اعتنى المؤلف بوصفها[٢].

وفيما بعد أولَى القلقشندي عنايةً بالممالكِ التي لا تخضعُ إلى سلطان المماليك مثل ممالك جنكيز خان، أي أراضي إمبراطورية المغول التي قسَّمها إلى مملكتين كبيرتين هُما إيران وتوران، ثمَّ تحدَّثَ في هذا القسم عن اليمن والساحل الشرقي وعُمان، ثمَّ تناولَ وصف الهند بشكلٍ مُفصَّلٍ، وبعدها جاء بوصفٍ مُنظَّم للبُلدان الواقعة إلى الغرب من مصر، وهي تونس، و المغرب الأوسط وقصبتهُ تلمسان، و المغرب الأقصى المُسمَّى ببرِّ العدوة التي تمثِّلهُ مُراكش، وتكلَّم عن جبالِ البربر بالأندلس، وبعدها تناول بالوصف البلدان الواقعة إلى الجنوبِ من مصرَ، فتناولَ بالذكر كلّاً من السودان وممالكها لاسيَّما الحبشة، وبعدها أتَى على وصفِ البُلدان الواقعة شمال مصر لا سيَّما بلاد الروم(آسيا الصغرى).

وقد استعانَ القلقشندي في تصنيفِ هذه المقالةُ بمصادر من سبقهُ من كُتَّاب الإنشاء لا سيَّما ابن فضل الله العُمري، والوطواط، كما ضمَّن كتابهُ معلومات جُغرافيَّة من مؤلفات من سبقهُ من الجُغرافيين الَّذين مثَّلوا اتجاهات الجغرافية الوصفيَّة، كابن خُرداذبه، وابن حوقل، والمسعودي، والهمذاني، والبكري، والإدريسي، وابن سعيد المغربي، وأبو الفداء، إضافةً إلى ذلك استعان بمؤلفاتِ الجُغرافية الرياضيَّة، لا سيَّما التي تتعلق بالزيجات، فأخذَ عن كتاب" المجسطي" لبطليموس القلوذي، وعن كتاب " القانون المسعودي" للبيروني، كما ضمَّنَ مادته الجُغرافيَّة معلوماته الخاصة عن البُلدان التي عرفها، ولاسيَّما مصر وبلاد الشام.

وختمَ مُصنَّفُ القلقشندي أهمِّيةَ عصرٍ ذاعَ صيتهُ في مجالِ تطوُّر الأدب الجغرافي، إذ إنَّ نمط الكتابة الجُغرافيَّة المعروفة بالموسوعات التي ضمَّت في طياتِهَا تقاويمٌ للبلدان، قد انتهَى لتحلَّ محلَّهُ مُصنَّفاتٌ جُغرافيَّةٌ باللُغتين الفارسية والتُركية[٣].

---

١ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٠٥، ١٠٦.

٢ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٢١.

٣ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١٨-٤٢١.

رابعاً: دراسة نماذج من جغرافيين فن التقاويم في بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة:

١- شيخ الربوة الدمشقي، محمد بن أبي طالب الأنصاري(ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م):

أ- التعريف بالمؤلف:

شيخ الرَّبوة، شمس الدِّين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي الصُوفي، المُكنَّى أبا عبد الله[1]، ولدَ سنة(٦٥٤هـ/١٢٥٦م) بزاوية جدِّه الشيخ أبي طالب في قصرِ حجاج بدمشق[2]، شَهِدَ شيخ الرَّبوة منذُ نعومةِ أظفارهِ حوادثاً كثيرة اجتاحتْ العالم العربي والإسلامي منها اجتياح المغول لدار السلام بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وسيطرة المسيحيين على الأندلس، وتربَّى شيخ الربوة في دمشق، ثمَّ عُيّنَ إماماً بمسجد الربوة[3]، وعُرِفَ بلقب شيخ الرَّبوة في بدايةِ حياته، لأنَّه كان يدَّعي معرفة الكيمياء فطلبه عز الدِّين الأفرم[4] نائب دمشق ونفقَ عليهِ ودخل معهُ في أشياءٍ، وأوهمهُ منها أموراً، فوّلاه مَشيخة الرَّبوة من ضواحي مدينة دمشق[5].

وبعدَ ذلك بدأ شيخ الرَّبوة بتعلُّمهِ فنشأ وأخذ يَدرسُ العلوم المُختلفة، فمهرَ في علمِ الرَّمل[6] ونظمَ الشعر، وصنَّف في كلِّ علمٍ سواء عرفهُ أم لمْ يعرفهُ لفرط ذكائهِ[7]، و برعَ في الجُغرافية و الكوزموغرافيا رغمَ

---

[1] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٦٣- ١٦٥؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٤٧٥-٤٨٠؛ الصفدي: الشعور بالعور، ص٢٠٩-٢١١؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٥٨، ٤٥٩؛ الدومسكي(مرمرجي): بلدانية فلسطين العربية، منشورات المجمع العلمي الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٩٩٧م، ص١٣؛ الزركلي: الأعلام، ج٦، ص١٧٠.

[2] الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٤٧٧؛ فنديك: اكتفاء القنوع، ص٥٣؛ خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٩٤.

[3] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٤؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٨٦.

[4] أيبك الأفرم، الأمير الكبير عز الدين الصالحي كان من كبار أمراء الدولة المصرية، وصاحب أموال وأملاك وكان ذو خبرةً، سمع وحدث، توفي بالقاهرة سنة(٦٩٥هـ/١٢٩٥م). البرزالي: المقتفي على الروضتين، ج١/ ق٢، ص٤٢٩؛ ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص٢٩٦،٢٩٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص٤٧٨؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٢، ص٣٢٨.

[5] السيد(فؤاد صالح): معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص١٨٧.

[6] علمٌ يُعرف به الاستدلال على أحوالِ المسألة حينَ السؤال بأشكالِ الرمل، وأموره تخمينيَّة تعتمدُ على البروج والفلك. القنوجي: أبجد العلوم، ج٢، ص٣٠٤؛ طاش كبرى: مفتاح السعادة، ج٢، ص٣٣٦.

[7] السيد: معجم الألقاب والأسماء، ص١٨٧؛ سركيس(يوسف إليان): معجم المطبوعات العربية والمعربة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، ج٢، ص٨٨١.

انشغاله بالدعوة وطُلَّاب العلم الَّذين قدموا إلى أراضي بلاد الشام من كلِّ فجٍّ ليتتلمذوا على يدهِ، ليسَ فقط في علمي الجُغرافية والكوزموغرافيا ولكنْ في العلومِ الشرعية أيضاً[١].

وخلَّف شيخ الرَّبوة وراءه عدداً كبيراً من المؤلفاتِ يكشفُ بعضها عن اهتمامٍ ومعرفة جيّدة بالعلوم الدنيوية[٢] التي تنمُّ عن سعةِ اطلاعهِ وتضلُّعهِ بالعلومِ العصريَّة المعهودة في زمانهِ[٣]، إضافةً إلى براعتهِ بالتأليف في الأطعمةِ والفَراسةِ والسياسةِ والفلاحةِ، ولعلَّ أشهرَ ما ألَّفه في هذه المجالات كتاب" الدُّر المُلتقط من علم فلاحيِّي الروم والنبط"[٤]، وكتاب" السياسة في علم الفراسة" فجمعَ فيه كلام الإمام الشافعي، وابن عربي، و أفلاطون و أرسطو[٥]، ثمَّ صنَّفَ كتاب" المقامات الفلسفيَّة والترجمات الصوفيَّة"، ويقع في خمسين مقامة موسوعة في الفيزياءِ، والرياضيات، والفقه، وتركَ رسالةً عنوانها" جواب رسالة أهل قبرص" وذكرَ أنَّه صنَّفَها دفاعاً عن الإسلام[٦]، وصنَّف كتاباً سمَّاه" نهاية الكياسة"[٧].

وبعد مُدَّة غادرَ شيخ الرَّبوة مسقط رأسه دمشق بحثاً عن عملٍ يرتزقُ منه، فارتحلَ إلى فلسطينَ، وهناك استقرَّ بهِ المقام في قريةِ حطين من أعمال صفد، وتولَّى مشيختِهَا، وعلى أثرها لقِّبَ بشيخ حطين، وذكر المؤرخ الصفدي أنَّه لقيه بصفد مرات عدَّة، فقال: « رأيتَهُ بصفدٍ مرَّات، واجتمعتُ به مدَّة مديدة، وكانَ من أذكياءِ العالم، لهُ قُدرة على الدخول في كلِّ علمٍ، وجُرأة على التصنيفِ في كلِّ فنٍّ، رأيتُ تصانيفَهُ حتَّى في الأطعمة وفي أصولِ الدِّين، على غير طريق اعتزال ولا أشاعرة ولا حشوية؛ لأنَّه لمْ يكنْ لهُ علمٌ وإنَّما كانَ ذكيٌّ، فيوماً أجدهُ وهو يرَى رأيَ الحُكماء، ويوماً رأيَ الأشاعرة، ويوماً رأيَ الاعتزال، ويوماً رأيَ ابن سبعين وينحُوَ طريقه»[٨]، ويبدو أنَّ شيخَ الرَّبوة كانَ يتكلم عن أسرارِ الحروف ويعرفُ الرَّمل جيداً، وله في كلِّ

---

[١] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٧.

[٢] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٨٦.

[٣] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٣.

[٤] الزركلي: الأعلام، ج٦، ص١٧٠.

[٥] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص١٠١١؛ زيدان: آداب اللغة العربية، ج٣، ص٢٣٤.

[٦] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٥.

[٧] السيد: معجم الألقاب والأسماء، ص١٨٧.

[٨] عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر، فيلسوفٌ متصوِّفٌ أندلسيٌّ، اشتهرَ برسالته" المسائل الصقلية"، وقد لُقِّبَ بشيخِ السبعينيَّة نسبة إلى الطريقة الصوفية التي يُسمَّى أتباعها بالسبعينية، توفي سنة(٦٦٩هـ/١٢٧٠م). الغبريني(أحمد بن أحمد): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، دار الآفاق، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ص١٣٩، ١٤٠؛ ابن الخطيب(محمد بن عبد الله): الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م، ج٤، ص٣١- ٣٨.

شيْءٍ يتكلمُ فيه تصنيف، والظاهرُ أنَّه كانَ يعرفُ ما يُخدِعُ بهِ العقول، ويلعبُ بألباب الأغمار[1]؛ ولذلك قال عنه ابن حجر العسقلاني: « كان فكهُ المُحاضرة حلو المُناذرة يتوقَّدُ ذكاءً»[2].

وبقيَ شيخ الرَّبوة في صفد يتناولُ العلوم ويُلقِيَ بعلمه على كلِّ مَنْ طرقَ بابه وخلالَ هذه المُدَّة تجوَّل في أرجاء فلسطين، واطَّلعَ على جُغرافيَّتها، وخاصةً أنَّه كان جُغرافيٌّ ذا اطلاع واسع، وبناء عليه وضعَ كتاباً في الجُغرافية يُعدُّ من أهمِّ ما صُنِّف في جُغرافيَّة التقاويم، وكان ذلك في أواخر حياتهِ، وسمَّاه" نُخبة الدهر في عجائبِ البرِّ والبحر"، وانتهى من تأليفه سنة(٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)[3].

وفي السنوات الأخيرة من حياته مالَ إلى حياةِ الاعتزال، وبقيَ في صفد يعيشُ عيشةَ الزُهَّاد، وربَّما كان سببُ ذلكَ ميولَهُ الصوفيَّة، فعاشَ مُتقشِّفاً صبوراً على الفُقر و الوحدة[4]، وخلال هذه المُدَّة أصابهُ صممٌ شديدٌ وعانَى آلاماً في عينه الواحدة[5]، و أصبحَ كثيرُ الآلام والأوجاع، وأصابَهُ انفتاق في أنثييهِ، وأضحَى وأضحَى يثورُ بهِ كلَّ قليل، ويُقاسي منهُ شدَّة، و كانَ قد كبِرَ سنَّهُ وأنقَى شيبَهُ وبقيَ كذلك إلى أنْ وافتهُ المنيَّة سنة(٧٢٧هـ/١٣٢٦م) ببيمارستان الأمير سيف الدِّين تنكز بمدينة صفد شمال فلسطين عن عُمرٍ ناهزَ السبعينَ عاماً[6].

ب- ظُروف عصر شيخ الرَّبوة الدمشقي:

عاشَ شيخُ الرَّبوة الدمشقي في زمنٍ أخذَ فيه بريق دولة الإسلام بالشُحوب، إذ ظهرت بوادر الانحلال السياسي في المشرق والمغرب، ففي المغرب سقطت بلنسيَّة بيدِ الإسبان سنة(٧٢١هـ/١٣٢١م)، وكانت قد سقطت إشبيلية بأيديهم سنة(٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) وتركزت بقايا حُكم العرب في غرناطة، فانطفأت آخر شُعلة للحضارة العربية في الأندلس تاركةً بقايا لا تزالُ مائلة في أدبِ شعوب جنوب أوربَّة[7]، ولهذا يُجد شيخ الرَّبوة عندَ كلامه عن مدينة البيرة يقول: « وسُمِّيت دمشقَ لشبهها بُكثرةِ الأشجار والأنهار، وكانت قصبتُها في صدر الإسلام، ثمَّ صارت القصبة غرناطة من بعدها، ولما استولى الفرنج على معظمِ الجزيرةِ

---

[1] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٦٣- ١٦٥؛ الصفدي: الشعور بالعور، ص٢٠٩-٢١١.

[2] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص ٤٥٩.

[3] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص١٩٣٦؛ البغدادي: هدية العارفين، مج٢، ص١٤٥؛ سركيس: معجم المطبوعات، ج٢، ص٨٨١؛ بريل(جى): دائرة المعارف الإسلامية، تر: زكي خورشيد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفني، الإمارات، ط١، ١٩٩٨م، ج١٦، ص٤٩٤٧.

[4] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٣.

[5] الصفدي: أعيان العصر ،ج٤، ص٤٧٩؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٣.

[6] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٦٥؛ الصفدي: الشعور بالعور، ص٢١١؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٥٩.

[7] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٨٦؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٥، ٥١٦.

انتقلَ أهلها إليها وصارت المصرَ المقصود»[١]، ثمَّ تحدَّث عن المرية فقال: « لمَّا خُرِّبت بجَّانة انتقلَ أهلها إلى المريَّة، وقصدها التُجَّار لشراء الحرير، وما يُعملُ فيها من الستور، ثمَّ انتقلَ الناس إلى غرناطة في زمن بني مناذ الصناهجة لما ملكوها وعمَّروها وهي اليوم دار ملوك الأندلس»[٢].

أمَّا في المشرق فقد اجتاحَ المغول بغداد سنة(٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وقتلوا خليفتُها المُستعصم العباسي، ثمَّ تقدَّموا نحوَ بلاد الشام، وهُنا برزت دولة المماليك البحريَّة التي وقفت في وجهِ المغول، وكسرتَهُم في معركة عين جالوت سنة(٦٥٨هـ /١٢٦٠م)[٣]، وقالَ شيخ الرَّبوة في ذلك: « وأنقذَ الله جيشاً من الدِّيار المصرية من التُرك الِّذين قدَّمنا ذكرهم أيَّدَهُم الله بنصرهِ، فردُّوهم على أعقابِهم، وأغمدوا السيوفَ في رقابِهم، وتبعوهُم إلى بلادِ الشام، واستخلصوا ما صارَ في أيديهم منها، وغلُّوا أوضارَ آثارهم عنهم، وهذا الجيش هُم العصابة المُحمديَّة الظاهرون بالحقِّ المُؤَيَدُونَ إلى يوم القيامة»[٤]، وحكمَ بعدَ المُظفَّر سيف الدِّين قُطز السُلطان الظاهر بيبرس، فعاشَ شيخ الرَّبوة في كنفه، وكانَ مُقرَّبٌ إليه[٥]، كما عاصرَ خُلفاء بيبرس لا سيَّما ولده الملك السعيد، والملك المنصور سيف الدين قلاوون، وولده الأشرف خليل، و الناصر مُحمد وغيره، ولعلَّ أواخر ما أرَّخ له شيخ الرَّبوة من حُكمِ المماليك هو سنوات(٧١٩ و٧٢٣هـ/ ١٣١٩ و ١٣٢٣م) أي قبلَ وفاتهِ بثلاثِ سنوات، بعد أنْ تكلَّم عن أُسرة المماليك في الفصلِ الحادي عشر من الباب الثاني[٦]، وفي الفصلِ الرابع من البابِ التاسع تحتَ عنوان التتار[٧].

ج- دراسة كتاب نُخبة الدهر في عجائب البر والبحر[٨]:

ذاعَ صيتُ شيخ الرَّبوة بين مُعاصريه واللاحقين له من خلالِ شُهرة كتابه" نخبة الدهر في عجائب البرِّ والبحر" الَّذي يُعدّ أهمَّ المصادر العلمية في مجالِ الجُغرافية، ويقعُ هذا الكتاب في مُجلَّدةٍ واحدةٍ انتهى من تأليفها سنة(٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، ويُعدُّ كتاباً فريداً في علمي الجُغرافية والكوزموغرافيا، إذ قدَّمَ فيه للقُرَّاء وصفاً جميلاً لنظام الكون إضافةً إلى معلوماتٍ جُغرافية أصيلة[٩]، وأوردَ فيهِ نُخبةُ المعارف الجغرافية والطرائف البُلدانية، وهو كتابٌ في علمِ هيئة الأرض، وأقاليمها، وتقاسيمها، والجزائر، و الأنهار، والحرَّات،

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٤٢.

[٢] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٤٣.

[٣] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٦، ٥١٨.

[٤] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٦٥.

[٥] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٦، ٥١٨.

[٦] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٨٦- ٨٨.

[٧] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٦٥.

[٨] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص١٩٣٦؛ البغدادي: هدية العارفين، مج٢، ص١٤٥؛ سركيس: معجم المطبوعات، ج٢، ص٨٨١؛ بريل: دائرة المعارف الإسلامية، ج١٦، ص٤٩٤٧.

[٩] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٥، ١٩٧.

والممالك والمسالك، والآثار، والآبار والينابيع، والحيوان والنبات، و المعادن والأحجار الكريمة، ومساحة الأرض، ومسافات أقسامها بالساعاتِ والأميال والبُرد والفراسخ والدُرج الفلكيَّة وأطوال الجبال، مع ذكرَ خصائصَ البلاد وكلَّ ما يخصُّ أهلها، و قد زوَّدهُ بالرسوم لتمثيلَ صورة حيواناً أو تصميم آلة، أو بناء، أو تصوير جُغرافي[1].

وعُرِفَ عن شيخ الرَّبوة بأنَّه من الرَّعيل الأوَّل في رسمِ الخرائط، فقد نوَّهَ إلى ذلك في مُستهلِّ كتابه بأنَّه ختمهُ بصورةٍ جُغرافيَّة[2]، فقال: « وختمتَهُ بصورةٍ جُغرافيَّة دهاناً بالأصباغ وتخطيطاً مُحرَّراً على مثلِ مواقع الأطوال والعروض...، وتفصيلُ حجارة بالتخطيط، فهو مثالُ سور أو برج أو مدينة أو هيكل مشهور في الأرضِ»[3]، ورُغمَ ذكر المؤلف لاحتواءِ كتابهُ على هذهِ الخارطةُ إلَّا أنَّ الباحثين لمْ يعثُروا عليها حتَّى الآن في أيٍّ من المخطوطاتِ الموجودة[4].

أ- ج- محتويات الكتاب:

بدأ شيخ الرَّبوة كتابه بمقدِّمة تحدَّث فيها عن تسمية الكتاب، وما اشتملَ عليه، وما ضمَّنهُ من العلوم، ثمَّ تحدَّث عن الخارطة الجُغرافية التي زوَّدهُ بها، وبعدَ ذلك قسَّمَ كتابهُ إلى تسعة أبواب، ضَمَّنَ كلَّ بابٍ منها فصول **عدَّة هي:**

الباب الأول:

يشتملُ عشرةِ فصول في الكلام على كُرة الأرض وما قالهُ القُدماء في صفتِها وماهيتِها، وطِباعها، ومساحتِها، وذكر خطِّ الاستواء، و الطُول، والعرض، و الأقاليم السبعة وقسمَتِها، و اختلاف المطالع والعروض، والفصُول والأزمنة، ووصف المباني والآثار، وهياكلُ الصابئة، وبيوتُ النار للمجوس[5].

الباب الثاني:

ضمَّنَهُ أحَّد عشر فصلاً في ذكرِ المعادن السبعة الذائبة وذكر طبائعها وخصائصها و فعائلها، وذكر الجواهر والأحجار الشريفة الثمينة[6].

الباب الثالث:

يشتملُ ستةَ فصول في ذكر الأنهار والعيون والآبار وينابيعها[7].

---

[1] الزناتي(أنور محمود): دراسات تحليلية في مصادر التراث العربي، دار زهران، الأردن، ط١، ٢٠١١م، ص٣٢٩.

[2] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٥.

[3] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٣.

[4] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٨٧؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٤.

[5] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٩- ٤٧.

[6] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٤٨- ٨٨.

[7] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٨٨- ١٢٦.

الباب الرابع:

يشتملُ ستةَ فصول في الكلامِ على البحارِ، وعلى كُثرة المياه، و طباعه وهيئته، و ما قالتهُ القُدماء وفي إحاطتهِ بالأرضِ إلَّا البارز منها عنه، وسببُ ملوحتِه وعذوبتِه، وذكر الجزائر المشهورة[١].

الباب الخامس:

يشتملُ ستةَ فصول في ذكر بحر الروم(المتوسط)، ومخرجهُ مع وصف لميناء الإسكندرية، ووصف حدوده، ونواحيه، وجزائره، وعجائبه[٢].

الباب السادس:

يشتملُ ثمانية فصول في ذكرِ بحرِ الجنوب(المحيط الهندي)، و الخليج الأكبر الخارج منهُ المُسمَّى بأسماء نواحيه، ووصفُ مدِّه وجَزره وجَزَائِرهُ ووصف حيوانه العجيب، ونباته الغريب[٣].

الباب السابع:

يشتمل ثلاثة عشر فصلاً في ذكرِ الممالك الشرقية الكبار من الصين، والهند، وفارس، والسند، وعراق العجم، وأذربيجان، وأرمينية، وبلاد الشام، وجزيرة العرب، واليمن، وخراسان، والبلاد الواقعة إلى آخر حدود الروم، والأصقاع، والكور التي ملكَها المسلمون، وذكرُ أمصارها، ووصفُ ما فيها[٤].

الباب الثامن:

يشتملُ ستةَ فصول في وصفِ الممالك المغربية، وذكر البلاد المصرية والأصقاع، والكور، والمخاليف مملكة بعد مملكة إلى سواحل البحر المحيط المغربي، وذكر السودان، وبلاد الأندلس[٥].

الباب التاسع:

يشتملُ تسعةَ فصول في وصفِ انتساب الأُمم إلى سام وحام ويافث أولاد نوح النبي عليهم السلام، وذكرُ نُبَذاً ممَّا امتازوا به، وأسماء شهورهم وأيَّامهم، وأعيادهم، وخصائص البلاد وخصائص الإنسان[٦].
واختتمَ شيخ الرَّبوة كتابهُ بعبارة: « نَجَزَ الكتابُ بحمدِ الله وعونَهُ وحُسنَ توفيقَهُ»[٧].

---

١ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٢٧– ١٣٦.

٢ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٣٦– ١٤٨.

٣ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٤٨– ١٦٧.

٤ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٦٧– ٢٢٨.

٥ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٢٩– ٢٤٦.

٦ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٤٦– ٢٨٥

٧ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٨٥.

ب–ج– موارد المؤلف:

اختلفَ شيخ الرَّبوة عن الجُغرافيين المعاصرين والسابقين له، بأنَّه استندَ في نتاجهِ العلمي على المصادرِ المكتوبة، في حين اعتمدَ أغلب مُعاصريه من الجُغرافيين على الرِّحلات الشخصيَّة التي يشوبُهَا كثيرٌ من الانتقادات، ومن خلال تتبُّع كتاب نُخبة الدهر يُلاحظ أنَّ أهمَّ ما اعتمدَ عليه المؤلف في تصنيفِ كتابهِ هو كُتب من سبقهُ من الجُغرافيين أمثال ابن حوقل، والإدريسي، وياقوت الحموي، رغم عدمَ تصريحهُ بذلك[١]، وعلى هذا فإنَّ شيخ الرَّبوة الدمشقي نادراً ما أشارَ إلى مصادرهِ، لكنْ أهمّ ما يُمكن أنْ يُستنتجْ:

1ً– أرسطو طاليس:

فينيقي الأصل تعلَّمَ الهندسة بمصر[٢]، واشتهر كتابه" الأحجار" الَّذي استقى منه شيخ الرَّبوة كثيرٌ من المعلومات عند حديثهِ عن الأحجارِ الكريمة و اللؤلؤ، وكيفيَّة توليدها[٣].

2ً– الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن موسى:

أحَّد مشاهير عُلماء المسلمين في الجغرافية والفلك[٤]، اشتهرَ كتابه "صورة الأرض" الَّذي يُعدُّ أشهر مؤلفات الجُغرافية الفلكية التي استقى منها شيخ الرَّبوة مادَّة علمية عند حديثه عن الأنهار الكُبرى، لا سيَّما نهر النيل، وتسمياته، والحديث عنهُ من منبعهِ حتَّى مصبِّه[٥].

3ً– الزنجاني، أبو الحسن علي بن هارون(ت ق٣هـ/ ٩م):

وهو أحَّد المؤلِّفين للرسائل المشهورة باسم" رسائل إخوان الصفا وخلَّان الوفا"، اعتمدَ شيخ الرَّبوة على هذه الرسائل عند حديثه عن الأقاليم السبعة، وما فيها من المدن، وكذلك عند حديثهِ عن الأزياج زمن الخليفة العباسي المأمون[٦].

4ً– ابن وحشية النبطي، أبو بكر أحمد بن علي الكزداني(ت ٣١٨هـ/٩٣٠م):

عالمٌ كيميائيٌ ولغويٌ نبطي مُسلم من العراق، لهُ العديد من المؤلفات في الكيمياء و السحر ، لعلَّ أهمِّها كتابه" أسرار الشمس والقمر في الزئبق المعروف باسم التعافين"، وقد أوردَ منه شيخ الرَّبوة معلومات عند حديثه عن توليد المعادن عن الزئبق والكبريت، و عند حديثه عن كيفية الأحجار والأشياء الممتازة من التراب بوصفها المعدني[٧].

---

[١] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٦.

[٢] إبراهيم: الفكر الجغرافي، ص٣٠؛ محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص٨٧.

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٧٧.

[٤] القفطي: أخبار العلماء، ص١٨٧، ١٨٨؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ١٣٨.

[٥] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٩٠.

[٦] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٤.

[٧] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٥٦، ٧٨.

5ً- أبو زيد البلخي، أحمد بن سهل:

جُغرافي وفلكي ومُفكِّر، برعَ في الجغرافية وصنَّف فيها كتاباً سمَّاه" صورة الأقاليم"، ويعرف باسم" تقويم البلدان أو أشكال الأرض"، وقد اعتمدَ عليه شيخ الرَّبوة عند حديثه عن مسافة طول الأرض، وعرضها، وطبقاتها، و ذكر الطول والعرض، والمعمور من الأرض[١].

6ً- أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي(ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م):

اشتهر قُدامة بن جعفر من خلال كتابه" الخراج وصنعة الكتابة"، الَّذي ضمَّنهُ معلومات أساسية عن الولايات، والخراج، والطرق، وأنظمة البريد، والفتوحات زمن العباسيين، وأيضاً له كتاب" البلدان" وقد اعتمدَ عليهما شيخ الرَّبوة عند حديثه عن أنهارِ المعمورة وعددها وتوزيعها على الأقاليم[٢].

7ً- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي:

جغرافيٌّ كثيرُ الأسفار، زارَ بلاداً عدَّة، وصنَّف في مجال الجُغرافية كتابين مُهمِّين هُما" التنبيه والإشراف"،" ومروج الذهب ومعادن الجواهر" اللذان كانا من أهمِّ المصادرِ التي اعتمدَ عليها شيخ الربوة في مادَّتِه العلمية، لاسيَّما عند كلامه عن الأنهار، وبطائح العراق، وما جاورها حتَّى بلاد فارس[٣].

8ً- صاعد الأندلسي، أبو القاسم بن أحمد القرطبي(ت ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠م):

صاحب كتاب" طبقات الأمم"، الَّذي تناولَ فيه مواضيع مُختلفة، كعلمِ الرَّصد وعلم المِلل والنِحل وعلم التاريخ، وهو أحَّدُ المصادر الأصلية التي اعتمدَ عليها شيخ الرَّبوة عند حديثِهِ عن السودان، وأمم البربر، والهنود، والفرنج، والزنج، والعجم، والعراق، والصين واليونان، وعُلماء الطب كأرسطو وأفلاطون، والرياضيات كإقليدس وفيثاغورث[٤].

9ً- البكري، أبو عبيد عبد الله:

يُعَدُّ البكري أعظمُ جُغرافي أخرجتهُ بلاد الأندلس قاطبة، وقد أضافَ إلى المُصنَّفات العربية الإسلامية كتاباً مُهمَّاً هو" المسالك والممالك" الَّذي تناول فيه وصف طرق المواصلات، و وصفاً مفصلاً لشمال إفريقية ومنطقة بحر قزوين[٥]، وقد اعتمدَ عليه شيخ الرَّبوة عند حديثه عن بُلدان إفريقية الساحلية وما جاورها إلى إلى حدِّ المُحيط المغربي، وذكر بلاد الفرس، والروم من بني سام[٦].

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٢، ١٥.

[٢] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٣.

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٩٦، ٩٧.

[٤] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٥.

[٥] ابن خاقان الإشبيلي: قلائد العقيان، ص٦١، ٦١٥، ٧٦٨؛ ابن سعيد المغربي: المُغرِب في حِلى المغرب، ج١، ص٣٤٧- ٣٤٩.

[٦] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٣٤، ٢٥٥.

10ً- ابن الأثير الجزري، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد(ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

مؤرخٌ إسلاميٌّ كبير عاصرَ دولة صلاح الدِّين الأيوبي، ورصدَ أحداثها، ويُعدُّ كتابهُ " الكامل في التاريخ" مصدراً لتلك الفترة المهمَّة من التاريخ الإسلامي[١]، وهو أحَّد المصادر الأصلية التي اعتمدَ عليها شيخ الرَّبوة عند حديثه عن انتساب الأمم إلى سام وحام ويافث أولاد نُوح عليهم السلام، مع ذكرِ شهورهم وأسمائها، وأعيادهم وخصائص البلاد، واستعانَ به أيضاً عند حديثهِ عن قبائل البربر، والقبط، والسودان وسببُ دخولها إلى المغرب، وعن عاداتهمم وتقاليدهم وغيرها[٢].

11ً- نجم الدِّين بن إسرائيل، محمد بن سوار(ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م):

أديبٌ وشاعرٌ، نظمَ الشعرَ الجيّد، ولهُ ديوانُ شعر[٣]، استقَى منها شيخ الرَّبوة أبياتاً عدَّة عند حديثهِ عن أقسام الصابئة[٤].

إضافةً لما سبق اعتمدَ شيخ الرَّبوة على كتاب" مباهج الفكر ومناهج العبر" للجُغرافي أبو إسحاق محمد بن إبراهيم الوراق، لاسيَّما فيما يخصُّ قسم جُغرافيَّة مصر[٥]، كذلك وصفَ شيخ الرَّبوة الدمشقي البلاد التي عاشَ فيها لا سيَّما دمشق، وفلسطين، وقدَّمَ وصفاً لكلِّ المناطق التي زارها في بلادِ الشام[٦]، أمَّا في بحثه بحثه عن الآثار، فإنَّه كان يتلقَّى معلوماته في الغالبِ من أفواهِ الناس، أو ممَّن ألَّفوا في القُصص، والحكايات، و الغرائب[٧].

ج- ج- أهمِّيَّة الكتاب:

يعدُّ كتاب" نُخبة الدهر" من أهمِّ المُصنَّفات الجُغرافيَّة في مجالِ فنِّ التقاويم، وتكمُن أهميتهُ بأنَّه ذو قيمةٌ من وجهةِ نظر التاريخ الطبيعي، لأنَّه يحفلَ بُمعطياتٍ وافرة عن النبات، والحيوان، والمعادن، وطبقات الأرض، وكونَهُ يحتوي على أكبرِ قائمةٍ من أسماءِ الأماكنِ التي لمْ تُذكرْ في كُتب من سبقه من الجُغرافيين، وخاصةً في مجالِ معرفة العرب المسلمين بالهند الجنوبية على طول سواحل مليبار

---

[١] المنذري: التكملة لوفيات النقلة، ج٣، ص٣٤٧، ٣٤٨؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٥٤؛ الكتّاني(محمد بن جعفر): الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُنة المشرّفة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٥، ١٩٩٣م، ص١٢٥؛ الدويهي(إسطفان): تاريخ الأزمنة، تح: بطرس فهد، دار لحد خاطر، لبنان، ط١، ١٩٠٠م، ص٢١٦.

[٢] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٥٠، ٢٦٧.

[٣] التبريزي(محمد علي بن المدرس): ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب، دائرة المعارف الإسلامية، طهران، ط٢، ١٩٥٠م، ج٧، ص٣٨٢؛ الأعلمي(محمد حسين): دائرة معارف الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، كربلاء، ط١، ١٩٩٣م، ج٢٦، ص٢٨٢؛ ابن الغزي: ديوان الإسلام، ج١، ص١٨٦.

[٤] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٤٤.

[٥] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٨٧؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٤.

[٦] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٥، ١٩٩، ٢١٣، ٢١٤.

[٧] كرد علي(محمد): كنوز الأجداد، دار أضواء السلف، دمشق، ٢٠١٠م، ص٣٥٣.

وكرومول، وكونَ مؤلفهُ كاتباً أصليَّاً تعمَّقَ بكتابةِ مؤلفه، وعرف كيف ينتقي معلوماتَهُ من مصادرها الأصليَّة المُتنوعة، فهو يشملُ معارف أصلية لم يسبقهُ إليها أحد[١].

كما تكمنُ أهميتهُ باحتوائهِ على كميَّةٍ من النُبِيذَات المُنفصلة التي تختصُّ بُمختلف فروع العلوم، وتردُ غالباً في أماكنها المناسبة، وليسَ على شكلِ استطراد، فهو يُقدِّم التاريخ، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلم المعادن، وطبقات الأرض، ومختلف المعلومات عن مُنتجات الصناعة الشرقية، وهي مواضيعٌ مُتنوعة تؤلِّف بمُجملها نوعاً من مزيج يحملُ سعةَ الاطلاع فمثلاً الفصل الخاص بالمعادن هو فصلٌ مُهمٌّ في الجُغرافية وهذا الأمر لا يُرى عند أيَّ جُغرافيٍّ عربيٍّ آخر[٢].

وبجانبٍ آخر فإنَّ الكتاب يحتوي معلومات عن علم خصائص الشعوبِ، وعلم الإنسان، وعلم الأنساب، والتاريخ، والآثار وغير ذلك[٣]، إضافةً إلى وصفه الدقيق الذي قدَّمهُ لجُغرافيَّة البحار والخُلجان، ويدلُّ ذلك ذلك على مُستوى عالٍ من المعرفة بالمُحيط الطبيعي لدى البدو والسُكَّان القاطنين بسواحلِ البحر الأحمر[٤].

وزاد أهميته كونَه جُغرافيَّاً شاميَّاً قدَّم وصفاً جُغرافيَّاً دقيقاً للمنطقة التي عاشَ فيها فيُعدُّ كتابهُ بحقٍّ مصدراً أساسيَّاً لجُغرافيَّة بلاد الشام خلال عصر المماليك البحرية لا سيَّما أنَّه اعتمد في كتابة هذا القسم على مُشاهداته الشخصية، فجاء الوصف دقيقاً لكلِّ ما شاهده، و أيضاً في وصفه لجُغرافيَّة بلاد السودان، والزنج، والبربر، وأواسط إفريقية، فقد ضمَنَها معلوماتً لمْ يطَّلِع عليها عُلماء الجُغرافية إلَّا في العهد الأخير، وكذلك وصفهُ أُمم جزائر المحيط الهندي، وما والاهُ من الأُمم فأورد أسماءهم ممَّا لا يُعرف الآن.

وتكمنُ الأهمِّية أيضاً كونَهُ أجادَ في الكلامِ على بحر الظُلمات والأقيانوس الأطلنطي وما فيه من الجزر، وعلى سواحله من المدن، فهذا بحدِّ ذاتُه يحملُ أهمِّيةً لجُغرافيَّة شيخ الرَّبوة، وخاصة إذا علمنا أنَّه تحدَّثَ في هذا النطاقُ على اكتشافِ أمريكا قبلَ أنْ يصلَ إليها كولومبوس، وهذا يدفعُ إلى القول: مِنَ الممكن أنْ يكونَ كولومبوس قد اعتمدَ على ما وردَ في هذا الكتابُ من معلوماتٍ عندَ قيامه بكشوفاته في سواحل أمريكا[٥].

د- ج- معرفته في الأوساط:

---

[١] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٨٧؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٦.

[٢] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٣، ٥١٤.

[٣] كرد علي: كنوز الأجداد، ص٣٥٢، ٣٥٣.

[4] Philippe. P; Marine Biological Report in the Nuẖbat Al-Dahr Fī ʿaǧāʾib Al-Barr Wa-Al-Baḥ Arabic Arabic Sciences and Philosophy, No. 24, (1), 2014, pp. 169- 180.

[٥] كرد علي: كنوز الأجداد، ص٣٥٣.

إنَّ تقديرَ العُلماءُ الأوربيين لشيخ الرَّبوة الدمشقي لا يخلو من بعض التحفُّظَات، فهم يعدُّونه دونَ الكوزموغرافيين الآخرين من وجهةِ النظر العلمية، فمثلاً دفيك(Devic) يراه دونَ القزويني من حيثُ المعرفة أو روح النقد[١]، لكن رغمَ ذلك فبفضلِ انتشار مخطوطات الكتاب بين المجموعات المُختلفة بدأ الاهتمام بهِ مُبكَّراً، إذ نشرَ المستشرق السويدي نوربرج(Norberg) مُقتطفات صغيرة منه في عام(١٧٩٨- ١٧٩٩م)[٢].

ثمَّ عُرفت كرزموغرافية الدمشقي في طبعة وترجمة فرنسية جيدة من عمل المستشرق الدنماركي مهرن(Mehrer) وأضاف إليه مُقدِّمة جديدة[٣] نُشرت سنة(١٩٢٣م)[٤].

وفي عام(١٨١٩م) وصلت إلى المتحف الآسيوي ببطرسبورغ مخطوطة من هذا الكتاب فاهتمَّ بها المستشرق فرين(Frahn) الَّذي أخرجَ طبعة كاملة للكتاب، قامت بنشرها كلية العلوم الروسية[٥]، ثمَّ قدَّم مقترحاً للأكاديمية الروسية في العامِ التالي بإعادة طبعهُ، وعندما بدأت الأكاديمية بطبعِ الكتاب ووصلت إلى الصفحة ثلاثمئة واثنتا عشر أتَى حريقٌ على بقية الصفحات المُعدَّة للتصحيح، وفي عام(١٨٦٦م) جُمعت الصفحات التي لمْ يمتدُّ إليها الحريق وجُلِّدَتْ وصدَرت بوصفها مخطوطة، ولمْ يتجاوزْ المطبوع منها مئةَ نسخة يُضافُ إليها صفحة تحمل العنوان باللغة الفرنسية ولا تحملُ أيُّ توضيحٍ آخر، وبلغَ المتن بالتقريب إلى وصف فلسطين، وهو يضم ثُلثي الكتاب، وفي ذلك العام نفسه نُشِرت و لعلَّ آخر من اهتمَّ بجغرافية الدمشقي هو دهيران(Deherain) الَّذي نشر منهُ القسم الخاص عن إفريقية وظهرَ هذا القسم عام(١٨٩٨م)[٦].

د- وصفُ نماذج من أماكنِ بلاد الشام من خلال كتاب نُخبة الدهر(دراسة مُقارنة نقدية):

ضمَّنَ شيخُ الرَّبوة الدمشقي حديثهُ عن بلادِ الشام ومناطقها، وما اشتهرَتْ بهِ من الزراعات والصناعات في الفصلِ التاسع من الباب السابع من كتابهِ، وهي تشملُ الصفحات(١٩٢ حتَّى الصفحة ٢١٤)، وبدأ المؤلف هذا القسمُ بالحديث عن سببِ تسميَة الشام وحدوده فقال: « وسمَّوا الشامَ شاماً لشاماتٍ في أرضهِ بيضٍ وسودٍ، ولأنَّه في جهةِ الشمال من جزيرةِ العرب، أو لأنَّ سام بن نوح نزلَ فيه، وإنَّما أُبدِلت السينَ

---

[١] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٨٧.
[٢] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٥؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٥.
[٣] الدومسكي: بلدانية فلسطين العربية، ص١٣.
[٤] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٥؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٥.
[٥] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٥.
[٦] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٨٨؛ زيدان: آداب اللغة العربية، ج٣، ص٢٣٤.

شيناً، وحدَّهُ الأوَّل من ملطية إلى العريشِ ومسافتهُ سبعة وعشرون يوماً وعرضهُ من منبجٍ إلى طرسوس»[١].

ثمَّ قسَّمَ المؤلف بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة إلى تسعةِ أقسامٍ، منها قسمٌ ملكَه المغول والأرمن والروم، وانفصلَ عن الشام وسُمِّيَ روما، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ حديثَ شيخُ الرَّبوة عن هذهِ الأقسام اقتصرَ في غالب الأحيان على ذكر ما اشتملَ عليه كلُّ قسمٍ من المُدن والقُرى، دونَ تقديم أيِّ شرحٍ ومعلومات جُغرافيَّة لهذه المناطق، وإنَّما اقتصرَ وصفه المُفصَّل على المُدنِ الكُبرى فقط، وفيما يلي دراسة وصفية مُقارنة لأهمِّ ما أوردهُ المؤلف:

أ- د- القسم الأوَّل- دمشق:

قدَّمَ شيخ الرَّبوة وصفاً جميلاً لمدينة دمشق، فتناولَ بالذكر تسميتها، وجامعها الكبير، وأقسامها، ثمَّ أتَى على ذكر أهمِّ أنهارها وزراعتها، وصناعاتها، فذكرَ أنَّها تُعرفُ بِجُلَّق الخضراء والغوطة وذاتُ العمادِ، وهي مدينةٌ عاديةٌ أزليةٌ جبليةٌ سهليةٌ، ومن أنزه بلاد الأرض وأطيبها وأحسنها وأبهجها، وفيها الجامع الأموي الموصوف بالرونقِ والابداع، وحيطانه من الرُّخام، وشبابيكَهُ من الزُّجاج المُذهَّب والمصبوغ، و عروقُ اللؤلؤ داخلة في حيطانهِ بالإضافة إلى النقُوش المصبُوغَة على شكل صوَّر الأشجار والمدن والحُصون والبحار، وسطحه من ألواح الرصاص بدلاً من الطين، ومن خصائصه أنَّه لا يوجد في حيطانهِ وسقوفهِ عنكبوت، ولا يفرغُ فيه عصفورٌ[٢].

وبعد ذلك قسَّمَ شيخ الرَّبوة دمشقُ إلى ثلاثة أقسام، وذكرَ خصائصُ كلَّ قسمٍ وما فيهِ من العمارات، **وهذه الأقسام هي:**

الأوَّل:

غوطة دمشق، وهو مبثوثُ العمارة، وفيهِ جواسقٌ، وقصورٌ، وقاعات، وإسطبلات، وطواحين، وحمَّامات، وأسواق، ومدارس، وتُرب، وجوامع ومساجد، ومشاهد غيرَ القُرى والضياع الأُمَّهات.

الثاني:

يقعُ تحتَ الأرض، وهو مدينة أُخرى من مُتصرفاتِ المياه، والقُنى، والجداول، والمسارب، و المخازن، والقنوات وذكر المؤلف أنَّ الإنسانَ أينَما حفرَ من أرضها وجدَ مجاري الماء.

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٢.

[٢] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٣، وبالمُقارنة قدَّمَ الجُغرافي ابن فضل الله العمري وصفاً جميلاً للجامعِ الأموي، فتناولَ زمنُ بناءَهُ، وما كانَ عليه، ووصفَ عمارتَهُ، وما فيه من الزوايا والربط، والمدارس، ثمَّ أتَى على ذكرِ ما جُدِّد فيه. للمزيد: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٢٣٩- ٢٥٩، وللمزيدِ عن الجامعِ الأموي. القزويني: آثار البلاد، ص١٨٩، ١٩٠؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص٩٩.

الثالث:

هو سورُهَا وما فيه و ما حوله من المعمور، ومن خصائصهَا أنَّ الحيَّات لا تلدغُ داخل سورها أبداً[١].

وبعد ذلك قدَّم شيخ الرَّبوة وصفاً لأهمِّ أنهار مدينة دمشق، وما اشتهرت بهِ من الزراعاتِ، فذكرَ أنَّ عددَ بساتينُهَا مئة وواحد وعشرين ألف بُستاناً، وهي تُسقى بماءٍ واحد، يأتي إليها من أرضِ الزبداني، ومن وادي بردى عينٌ تنحدرُ من أوَّلِ الوادي ومن عين الفيجة، وتنبعثُ كلَّها نهراً واحداً يُسمَّى نهر بردى[٢]، ثمَّ ينفرقُ سبعَ فرقات كلُّ فرقة تُشكِّلُ نهرٌ، **و هي:**

***- نهر يزيد:**

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّه سُمِّي بذلك نسبةً إلى يزيد بن معاوية الَّذي أمرَ بإنشائهِ[٣].

***- نهر ثورا:**

أشار شيخ الرَّبوة أنَّه سُمِّيَ بذلك نسبةً إلى أحَّد ملوك الروم(ثورا)، إذ أُنشئ في عهدهِ فسُمِّي باسمه[٤] ، وبالمُقارنة قال عنه ابن فضل الله العمري: « وهو نيلُ دمشق عليه أجلَّ مبانيهم، وبه مُنتزهاتهم وإليه أكثر تسيارهم وتوجهاتهم، يخالهُ من يراهُ زمرَّدةً خضراء، لتراكم الأفياء عليه، والتفافَ الدوح من جانبيهِ»[٥].

***- نهر القنوات:**

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٣، وبالمُقارنة قدَّم عددٌ من جغرافيين العصر المملوكي وصفاً جميلاً لأقسامِ مدينة دمشق، وما في كلِّ قسمٍ من الخصائصِ والعمارات. للمزيد: القزويني: آثار البلاد، ص١٨٩؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٥٦؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص٩٨، ٩٩.

[٢] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٤، وبالمُقارنة ذكرَ ابن فضل الله العمري أنَّ مجراه من عينين البعيدة منهما دونَ قرية الزبداني، ودونَها عينٌ بقريةِ الفيجة، ثمَّ ترفدَهُ منابعاً في مجرى النهر، و يُقسمُ إلى أربعةِ أنهارٍ اثنان عن اليمين، واثنان عن الشمال مرفوعين على مجرى النهر في قرارة الوادي. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٥٨- ٣٦٠، وذكر ابن الوردي أنَّ مياه الغوطة كلُّها تأتي من نهر الزبداني وعين الفيجة، وهي عينٌ تخرجُ من أعلى الجبل، وتتفرَّقُ فيمَا بعد إلى سبعةِ أنهارٍ، تُسمَّى مُجتمعة بنهرِ بردى، وعلى هذا النهر قنطرة داخل مدينة دمشق، وفروعه تجري داخل شوارعِ المدينة، وأزقَّتها، ودورها، وحماماتها، ثمَّ تخرجُ إلى البساتينِ، لكنْ لا يُمكنَ استعمال مياهها للشرب، لأنَّ مصبَّ أوساخ المدينة على النهر. ابن الوردي: خريدة العجائب، ص٩٩.

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٤. أحَّد فروع نهر بردى يعودُ فائضه بعد أنْ يتفرَّعَ من بردى عندَ جسرِ الخشب إلى مجراه الرئيسي بردى. الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٨٦؛ خير(صفوح): غوطة دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٦م، ص٧٢؛ القسطالي(نعمان): الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ص١١٤. وذكرَ العمري أنَّه على يسار بردى في الجانبِ الشرقي الآخذ شمالاً، ويجري في ذيلِ الصالحية ليشقَّ خيطاً في عمارتها. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٥٩، ٣٦٠.

[٤] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٤. يتفرَّعُ من الجهةِ اليُسرى عند جسر الخشب الواقع بعد قرية دُمَّر، ويشتركُ مع نهر يزيد ليعودَ فائضهما من الريِّ إلى بردى. الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٨٦.

[٥] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٠.

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّه يُسمَّى بذلك لكثُرةِ القنوات التي تتفرع عنه، لتغذية مدينة دمشق بالمياه[١].

***- نهر المزة:**

أوردَ شيخ الرَّبوة أنَّه منسوبٌ إلى قريةِ المزَّة، وكان اسمهُ المنزه، لما بها من صحَّةِ الهواء، وصفاء الماء، وحُسن القصور، وكثرة الزهور والورود[٢] .

***- داريَّا:**

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّه يُنسبُ إلى قريةِ داريَّا[٣].

***- نهرا بلنياس والقنوات:**

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّهما يدخلان مدينة دمشق ويتفرَّقان في المصارفِ والبركِ والقنى والحمَّامات والطهارات، وبالمُقارنة ذكرَ ابن فضل الله العمري أنَّهما نهرا المدينة، فيدخلُ نهر بليناس قلعة دمشق، والجامع الأموي ثمَّ ينقسمُ إلى أقسامٍ عديدة داخل المدينة، أمَّا نهرَ القنوات فيدخل ماؤه في أحياءِ دمشق من خلالِ قنوات مدفُونة تحتَ الأرض[٤].

وقدَّمَ شيخُ الرَّبوة وصفاً لأهمِّيَّة هذه الأنهارُ بقوله: « وسابع النهور نهر البردى الجاري في قرارةِ الوادي، ولا يقبل إلَّا الارتفاع من مجراهْ، منهُ تقسَّمت الأنهار المذكورة، ثمَّ ينقسم من هذه الأنهار فرقاً وجداولاً تتفرَّقُ مُتشعِّبة في أراضي الغُوطة، حتَّى لا يبقى فيها بُقعةً يُمكنُ وصول الماء إليها إلَّا ويصلُ»[٥].

أمَّا بالنسبةِ إلى الزراعة في دمشقَ وغوطتِهَا، فأشارَ شيخ الرَّبوة أنَّها تشتهرُ بزراعة الزيتون وذكرَ أنَّه في ليلةِ النصفِ من شَعْبان كانَ يُستخدمُ خمسينَ قنطاراً دمشقياً من زيتِ الزيتون لإضاءة المسجد الأموي، بالإضافة إلى استخدام الزيت كذلك في إضاءة باقي المساجد والتُرب والخوانق والربط، وهذه الإشارةُ تدلُّ على شُهرةِ دمشقَ بكُثرة أشجارها من الزيتون، وبالمُقارنة أشارَ أبو البقاء البدري إلى ذلك بقوله: « وهي

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٤، وللمزيد: أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٩٣؛ كرد علي: غوطة دمشق، ص٨٦.

[٢] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٤، ١٩٥، وذكرَ ابن فضل الله العمري أنَّه يمتدُّ ظاهر المزَّة كأنَّه قطعة بيداء مقفرة، و ينبت على أطرافه الشيح والقيصوم. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٥٩

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٨، وأشارَ أبو البقاء البدري إلى أنَّ داريا تقعُ بذيلِ الجبل الغربي، وهي قريةٌ مشهورةٌ بزراعةِ البطِّيخِ الأصفر. أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٩٣.

[٤] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٤؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٥٩.

[٥] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٨، وقيل: إنَّ ماءَ النهرُ العذب الصافي يصلحُ لسقي جميع النبات على الإطلاق ولا سيَّما الخضروات. النابلسي(عبد الغني): الملاحة في علم الفلاحة، تح: عادل محمد الشيخ، عمَّان، ط١، ٢٠٠١م، ج١، ص٣٦؛ مؤلف مجهول: مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، تح: محمد عيسى صالحية و إحسان العمد، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ط١، ١٩٨٤م، ص١٢٠، ووصف ابن بطوطة تلك الأنهار بقوله: « ينقسمُ الماءُ الخارجَ منها سبعة أنهار... وتلكَ الأنهار تذهبُ في طُرقٍ شتَّى، فتُحَارُ الأعينَ في حسنِ اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها». ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٢٩.

تشتهرُ بزراعةِ الزيتون، إذ تتوصَّلَ إلى كفرسوسة، ففيها معصرةُ زيت وأشجار زيتون من زمن عيسى عليه السلام»[١].

وتشتهرُ دمشق على حدِّ قول شيخ الربوة بزراعة التين[٢]، وزراعة اللوز المُرَّ والحلو والأبهل، و بالمُقارنة أشارَ أبو البقاء البدري إلى أنَّ لوزَ دمشقَ ليسَ لهُ نظيرٌ في أيامِ تنويرها، وهو أبيضٌ وأحمرٌ، والأحمرُ منهُ ثمرتَهُ مُرَّة[٣].

وذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّ بعضَ مناطقُ دمشقَ تشتهرُ بزراعة قصب السُكَّر لاسيَّما قرية عذرا، وفي مناطق الأغوار، وشرق دمشق[٤]، وأنَّ قرية يلدا تشتهرُ بزراعةِ الكروم التي يتجاوزُ عددَ أنواعها الواحد والخمسين نوعاً[٥]، وأضاف المؤلف أنَّه يُكثَرُ في منطقة جبل لبنان من إقليم دمشق شجر الزرواند[٦].

ولم يُغفلْ شيخ الرَّبوة الإشارة إلى زراعة الورود والرياحين في دمشق، وحدَّدها في قرية المزَّة، لكنَّهُ لمْ يُعطِ تفصيلاً لأنواعها، إذ قال: « كانَ اسمُهَا المزَّة لِما بِها من صحَّة الهواء، وصفاء الماء، و حُسن القصور، وطيبة الثمار، وكذلك الزُّهور والورود واستخراج الماء منه حتَّى أنَّ حرَّاقتَهُ تُلقَى على الطُرقات وفي درُوبها، وأزقَّتِهَا كالمزابل، فلا يكونَ لرائحتهِ نظيراً، ويكونُ ألذَّ من المسكِ، إلى مُدِّة انقضاء الورد»، و أشارَ شيخ الرَّبوة إلى طُرقِ استخراج ماء الورد وحدَّدها بأربعِ طُرقٍ، وذكرَ تقنيات تصنيعَهُ، وزوَّد شرحه لهذهِ الطُرق برسومٍ توضيحيَّة تُبيِّن ذلك.

وفي الوقت الَّذي أغفلَ فيه شيخ الرَّبوة الحديث عن أنواعِ الورودِ والرياحينِ وتعريفُها، يُلاحظ أنَّ ابن فضل الله العمري قدَّم تفصيلاً عن هذا الموضوع فذكرَ أنَّ بدمشقَ كلَّ أنواعُ الورود والرياحين مثل الآس، والورد، والبنفسج، والخلاف والنرجس، والمنثور، والياسمين، والنمام[١].

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١١؛ أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢١٢، للمزيد: كرد علي: غوطة دمشق، ص٨٢.

[٢] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠، وذكرَ أبو البقاء البدري أنَّ أجودَ أنواعُ التين تُزرع في قرى دمشق، وخاصة برزة التي ينسب إليها التين المُسمَّى باسمها ذي الأنواعِ المختلفةِ. أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٦١، وقد حدَّد قسطا بن لوقا أوقات زراعة هذه الأصنافُ من التينِ في قرى دمشق. البعلبكي(قسطا بن لوقا): الفلاحة الرومية، تح: وائل عبد الرحيم عبيد، الجامعة الأردنية، الأردن، ط١، ١٩٩١م، ص٩٩.

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠؛ أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٣٥.

[٤] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٨، وهو عدّة أنواع الأبيض والأسود والأصفر. أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٥٤. والوقت المناسب لزراعته في شهر آذار وهو يُعمِّر ثلاثة أعوام. النابلسي: الملاحة في علم الفلاحة، ص٦٥.

[٥] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٩، وللمزيد: أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٢٣-٢٣٤.

[٦] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٩. هي شجرةٌ لها أوراقٌ طيبة الرائحة مع شيءٍ من الحِدَّةِ، وأغصانٌ طوال، وزهرٌ أبيضٌ، وهو أنواع عدَّة. ابن البيطار(عبد الله بن أحمد المالقي): الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٢، ص٢٦٣، ٢٦٤.

وبالعودة إلى وصفِ أشهر مُدن دمشق وأعمالها، فقد ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّ في إقليم دمشق ما يزيدُ على تسعين مدينة وقرية فمنها: بيت لهيا[٢]، و المزَّة[٣]، و برزة[٤]، والمرج[٥]، و دير مُرَّان[٦]، **ومنها:**

1ً- مدينة بعلبك[٧]:

ذكر شيخ الرَّبوة أنَّها مدينةٌ قديمةٌ، وفيها آثارٌ إبراهيميَّة ومُوسويَّة و سُليمانيَّة ويُونانيَّة، وبِها عمد، وفي قلعتها بُرجَين، وفيها بئرُ ماء يُقال له: بئر الرحمة لا ماءَ فيه ما دامَ الأمن موجود، وفي حال الخوف والحصار يمتلئُ ماءً ويبقَى ملآنَ يسقِيَ الناس منه إلى أنْ يأمنوا، فيذهبَ ماؤه، وهي تشتهرُ بزراعة شجر الخروب و البطم، وبالمُقارنة وصفَها ابن الوردي بالمدينة الحسنة الحَصينة، وذكر أنَّها تقعُ على رأس جبلٍ مُسفحٍ، والماءُ يشقُّها ويدخلُ كثيراً في دورهَا، وعلى نهرِها أرحيةٍ كثيرةٍ، وبِهَا أنواعُ الفاكهة ووجوهُ الخصب والرَّخاء، وفيها قلعةٌ من ثلاثِ أحجار، وهي أُعجوبةُ الزمان[٨].

2ً- كامد:

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٤، ١٩٥، ١٩٧؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٢٨٥، ٢٨٦. وقدَّم أبو البقاء البدري وصفاً لأنواعِ الورودِ والرياحين، وذكر أنَّ أبرزها: الجوري، وهو ست أنواع، والنرجس، والبنفسج، والياسمين، والمنثور، والسَوسن، والأقحَوان والآس، والرَّيحَان، وشقائق النعمان، والنيلوفر، وله ثمانية أنواع، والبان. أبو البقاء البدري: نزهة الأنام في محاسن الشام، ص١٠٤- ١٧٩. وحولَ كيفية غرس هذه الرياحينُ والورودُ. النابلسي: الملاحة في علم الفلاحة، ص٦٢- ٦٤، ١٦٢-١٦٥.

[٢] قرية مشهورة بغوطة دمشق. البغدادي: مراصد الاطلاع، مج١، ص٢٣٨؛ القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٣٢٠.

[٣] قرية كبيرة غناء في وسطِ بساتين دمشق. البغدادي: مراصد الاطلاع، مج٣، ص١٢٦٦؛ السخاوي(محمد بن عبد الرحمن): البلدانيات، تح: حسام بن محمد القطان، دار العطاء، الرياض، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٥٨.

[٤] قرية من غوطة دمشق، تقع شمال دمشق على سفحِ جبلِ قاسيون الأسفل من جهة الشرق. الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٨٢؛ قدامة: معالم وأعلام، ج١/ ق١، ص١٢١.

[٥] منطقة بغوطة دمشق. الحموي: معجم البلدان، مج٥، ص١٠١؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، مج٣، ص١٢٥٥.

[٦] تقع بالقربِ من دمشقَ على تلٍ مشرفٍ على مزارعِ الزعفران. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٤٤٣؛ ابن محمد الدمشقي(محمد بن علي): البدور المسفرة في نعت الأديرة، تح: هلال ناجي، مطبعة الحرية، بغداد، ١٩٧٥م ص٣٤-٤٧؛ ابن فضل الله المحبي(محمد أمين): نفحة الريحانة ورشة طلاء الحانة، تح: عبد الفتاح الحلو، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م، ج٢، ص٩٦-٩٨.

[٧] مدينة قديمة بينها وبين دمشق اثنا عشر فرسخاً من جهةِ الساحل، وطولُها اثنان وستون درجة وثلث، وعرضها سبع وثلاثون درجة وثلث. الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٤٥٣.

[٨] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٩؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٠٦، وقد أشار أبو البقاء البدري أنَّ في بعلبك ينبتُ شجر الصنوبر، وهو ينفعُ في الشفاء من الصداغ البلغمي. أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٣٥١.

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّها قريةٌ من أعمالِ بعلبك، وفيها نحوَ تسعين عقاراً ونباتاً نافعاً، ولهُ قيمةٌ جيدة ومن ذلكَ الكثيرَاء[1]، والريبَاس[2]، و القيقب الَّذي يعملونَ منهُ المرامل والملاعق والآلات المموَّهة بالذَّهبِ والفضَّة[3].

3ً- بانياس[4]:

وصفها شيخ الرَّبوة بأنَّها قديمةٌ حصينةٌ، يُكثرُ فيها أشجار الحمضيَّات، وترابها وهواؤُها وبيَّة، وفيها ينابيعٌ غزيرة، وبها آثارٌ قديمة لليونان، ويُقال: من بناها يوناني، وبالمُقارنة ذكرَ أبو الفداء أنَّ بانياس على مرحلةٍ ونصف من دمشق في جهةِ الغرب، في لحفِ جبلِ الثلج، وهي ذاتُ أنهارٍ وعيونٍ، وقلعتُهَا من الحصون المنيعة[5].

4ً- نابلس[6]:

أشارَ شيخ الرَّبوة إلى أنَّ نابلسَ عاصمةُ إقليم السامرة، وهي مدينةٌ واسعةٌ بين جبلين تكثرُ بها الينابيع والمياه الجارية، وتتَّصفُ بكُثرة حمَّاماتها الجميلة والمُريحة، ويميلُ أهلها إلى التدِّيُن والاشتغال بقراءة القُرآن الكريم ليلاً ونهاراً، وتُكثَرُ فيها حلقات العلم، وتتميَّزُ بخصوبة أرضهَا وكُثرة أشجارها وخُضرتها، وقد خصَّها الله بالشجرة المُباركة وهي الزيتون، لذا فهي تُصدِّرُ الزَّيت إلى الديار المصريَّة والشاميَّة والحجاز، وتعدُّ ثمارها ومنها البطيخ من أحلَى ثمار بقاع الأرض، كما تشتهرُ بصناعة الصابون، وبالمقارنة ذكرَ ابن الوردي أنَّ في المدينة بئر ماءٍ حفَرَهُ يعقوب عليه السلام، وعليهِ كنيسةٍ معهودةٍ، وهي مدينةٌ حسنةٌ ذاتُ بساتينٍ وثمارٍ، وبها من الزيتونِ والكرومِ واللوزِ شيءٌ كثيرٌ[7].

---

[1] شجرة لها أغصان صلبة ذاتُ أشواكٍ. ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، ج٤، ص٣٠٨.

[2] بقلة ذاتُ أضلعٍ غضة حمراء تميلُ للخضارِ، أوراقُها عريضةٌ مُدوَّرة، وطعمُها حلوٌ مائلٌ للحموضةِ. ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، ج٢، ص٤٤٦.

[3] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٩.

[4] اسم لبلدةٍ صغيرة على مرحلةٍ ونصف من دمشقَ من جهة الغرب. البغدادي: مراصد الاطلاع، مج١، ص١٥٨؛ القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٣٢٠.

[5] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٩.

[6] مدينة مشهورة بأرضِ فلسطينَ بينَ جبلين، بينها وبينَ بيت المقدس عشرة فراسخ. الحموي: معجم البلدان، مج٥، ص٢٤٨؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٧٧؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٠.

[7] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠-٢٠١؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٠١، ووصفها اليعقوبي بقوله: « نابلسُ مدينةٌ قديمةٌ فيها الجبلان المُقدَّسان، وتحتَ المدينةِ مدينة منقورة في حجر». اليعقوبي(أحمد بن إسحاق بن جعفر): البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ط١، ١٨٦٠م، ص١١٦. وقدَّم المقدسي وصفاً جميلاً لنابلس، فقال: « نابلس في الجبالِ كثيرةُ الزيتون، يسمُّونَها دمشق الصغرى، لها نهرٍ جارٍ، وبنائها من الحجارة، ولها دواميس عجيبة». المقدسي: أحسن التقاسم، ص١٧٤، أمَّا أسامة بن منقذ(ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)، فركَّز على وصفِ شجاعة أهلها المسلمين، فقال: « وشهدتُ يوماً

ب- د- القسم الثاني- جند حمص:

ذكر شيخ الرَّبوة أنَّ قاعدتَهُ مدينةُ حمصَ، وهي أصغرُ ممالك الشام المملوكيَّة، وبها كُرسي الملك، ودار الإمارة، ونيابة السَّلطنة، وهي مدينةٌ قديمةٌ، ماؤهَا وهواؤُهَا صحيحان، ولا يُوجد بأرضها عَقربٍ، وفيها طلسمٌ للعقربِ عليه قُبَّة مبنِيَّة بغيرِ باب، فَمنْ جَبَلَ من تُرابِ حمصَ طيناً وألصقهُ إلى حائطِ القُبَّة وتركهُ حتَّى يجفَّ، ثمَّ حملهُ إلى أيِّ بلدٍ شاءْ وألقَى منهُ على عقربٍ ماتَتْ، ومن حُسنِ عمارتهَا أنَّه لا يوجد فيها دارٌ إلَّا وتحتها مَغارة أو مغارتَان وماء ينبعُ للشُرب، وأهلها حمص عامَّتَهُم قليلي العقل وسوقتَهم ذاتُ حكاياتٍ شبيهة بالخُرافات، وفيها يَجري نهرُ العاصي الَّذي ينبعُ من اللبوة في البقاع اللبناني، وينضمُّ إليه نبع الهرمل ليدخُلَ بُحيرتها المَحقون ببنائِهَا الجصِّ، وفيها أسماكٌ كثيرةٌ ذاتُ أنواعٍ عدَّة، ويخرجُ منها الماءُ عكراً مثل النيل، ولا يصفوَ إلَّا بعدَ أنْ يدخلَ أرض السروج.

وبالمُقارنة قدَّم ابن الوردي وصفاً لمدينة حمصَ وأهلَهَا، فذكرَ أنَّ المدينة حَسنة في مستوٍ من الأرض وهي حصينةٌ، ومقصودةٌ من سائرِ النواحي، وهي مُطلسمةٌ لا تدخلُهَا حيَّة ولا عقرب ومتَى وصلتْ إلى باب المدينة هلكَتْ وماتَتْ، وفي المدينة قُبَّة عالية في وسطهَا صنمٍ من نُحاسٍ على صورة إنسان راكب على فرسٍ تدورُ مع دوران الرياح، وجميع شوارع المدينة وأزقَّتِها مفروشة بالحجرِ الصَلدِ، وفيها جامعٌ كبيرٌ، وأهلُهَا يعيشونَ في خصبٍ ورغدِ عيشٍ، لكنَّهم موصوفونَ بالرقاعة وخفَّة العقل، وأشار أبو الفداء أنَّ المدينةَ ذاتُ بساتينٍ وشربُها من العاصي[1].

وأضافَ شيخ الربوة أنَّ لحمصَ عدد من **الأعمالِ** التابعة لها، وأهمُّها مدينة سلمية[2].

نابلس، وقد احضروا اثنين للمبارزةِ، وكان سببُ ذلك أنَّ حراميَّةً من المُسلمين كبسوا ضيعة من ضياعِ نابلس، فاتَّهموا بها رجلاً من الفلاحين، وقالوا: هو من دلَّ الحراميَّة على الضيعةِ». ابن منقذ (أسامة بن مرشد): الاعتبار، تح: قاسم السامرائي، دار الأصالة للثقافة ، الرياض، د. ت، ص١٥٧.

[1] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٢، ٢٠٧؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٠٥، ١٠٦؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٠، ٢٦١. وقدَّمَ ابن جبير وصفاً عن مدينةِ حمص يخالفُ ما ذكره شيخ الربوة، فقال: « حمصٌ فسيحةُ الساحة، مُستطيلةُ المساحة، نزهةٌ لعينِ مُبصرهَا من النظافةِ والملاحة، موضوعةٌ في بسيطٍ من الأرضِ عريض مداه لا يخترقَهُ النسيمَ بمسراه يكادُ البصرُ يقفَ دونَ مُنتهاه أفيحٌ أغبرٌ، لا ماءَ فيها ولا شجرَ ولا ظلَّ ولا ثمرَ، فهي تشتكي ظمأها وتُستَقى على بعدِ مائِها، فيُجلبُ لها من نهيرها العاصي، وهو منها بنحوِ مسافة الميل، وعليه طرَّة بساتين تجتلي العينُ خضرتَهَا، وتستغربُ نظرتُها، وأهلُها موصوفون بالنجدةِ والتمرِّسِ، وفي قبليها قلعةٍ حصينةٍ، وبشرقيها جبَّانة»، وبعد ذلك عاد ابن جبير ليؤكِّد ما ذكرَهُ شيخ الربوة عن قلَّة عقلِ أهلِ حمصَ، فقال: « وسألتُ أحَّدَ الأشياخ هل فيها مارستاناً، فقال: إنَّ حمصَ كلُّها مارستاناً، فكفاكَ بأهلِ حمص شهادتهم بنفسهم». ابن جبير: الرحلة، ص٢٣١، ٢٣٢.

[2] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٢، وذكرَ ياقوت الحموي أنَّها بلدةٌ في أطرافِ البريَّة من أعمالِ حماة، بينهما مسيرة يومين، طولُها ثمانٌ وستون درجة وعشرون درجة، وعرضُها سبعٌ وثلاثونَ درجة وخمسُ دقائق. الحموي: معجم البلدان، مج٣، ص٢٤٠.

ج- د- القسم الثالث- المملكة الحلبية:

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّ جندهَا وعملها مدينةَ حلب التي استولَى عليها الخراب بعدَ أنْ دخلَها المغول، وأضافَ أنَّ للمدينةَ قلعةٌ حصينةٌ تُسمَّى الشهباء لبياضِ حجرِهَا، وأنَّ أهلها يتنافسونَ في الملابسِ والهيئاتِ، والمراكب، والمنازل، ويمرُّ فيها نهرُ قويق، ويُسمِّيه أهلَ الخُلاعة أبا الحسن، وهو ينبعُ من دابق، ثمَّ يجري إلى حلبَ ثمانية عشر ميلاً، ويصبُّ في بُحيرة المطخ، و تشتهرُ حلب بزراعة الزيتون، و زراعة التين والفستق والرُمَّان.

وبالمُقارنة وصفَ القزويني مدينة حلب وأهلها، فذكرَ أنَّ المدينةَ عظيمةٌ وكبيرةٌ، وكثيرةُ الخيرات، طيبةُ الهواء، صحيحةُ التُربة، ولها سورٌ من الحجارة السوداء، وفي وسطهَا قلعتها المبنِيَّة على جبلٍ في وسط المدينة، ولها خندقٌ عظيمٌ، وفيها جامعٌ كبيرٌ، وبساتينٌ، ومدارسٌ، ومشاهدٌ، ومقامان لإبراهيم الخليل ﷺ، بينما ذكرَ ابن الوردي أنَّ نهرَ قويقُ يأتيَ إلى المدينة من الشمال، فيخترق أرضها، وفيها قناة تخترقُ شوارعُها ودورُهَا وحمَّاماتُهَا وماؤها عذب[١].

وذكرَ شيخُ الرَّبوة أنَّ في حلبَ ما يزيدُ عن ستينَ عملٍ، وكلَّ عملٍ يحوي كورٌ وأصقاعٌ وضياعٌ عامرةٌ، ورساتيقٌ، **ولعلَّ من أشهرها:**

1ً- سرمين:

ذكرَ شيخُ الرَّبوة أنَّها تقعُ في طرف جبل السمَّاق، وهي من أعمرِ الأراضي وأعملهَا فلاحاً، وتشتهرُ بزراعة أشجار الفواكه[٢].

2ً- معرة النعمان:

أشار شيخُ الرَّبوة أنَّ المدينة تُسمَّى ذاتُ القصرين، ولها عملٌ يُسمَّى شعراء، وأهلها يشربونَ من ماء السماء، وأشجارُهَا التين، والفستق، واللوز، والمشمش، والزيتون، والرمان، والتفاح، و بالمُقارنة ذكرَ القزويني أنَّها بُليدة بينَ حلب وحماة، وتشتهرُ بزراعة التين والزيتون، بينما أشارَ ابن سعيد المغربي أنَّ المدينة مشهورة بزراعة الفستق، وفيها عمودٌ يُحرِّكَهُ الصغير، فيميل وذلكَ بهندسةٍ تحتَهُ، وفيها قبرُ يُوشع

---

[١] شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٠٢، ٢٠٣ ؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٨٣؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٠٨، وللمزيد المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥

[٢] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٢، ٢٠٣، ولا يوجدُ في المدينةِ ماءٌ إلَّا ما يجتمعُ في الصهاريج من مياهِ الأمطار، و للمدينةِ ولايةٍ وعملٍ متَّسعٍ، وهي ذاتُ أسواقٍ ومسجدٍ جامعٍ، وليسَ لها سور. سباهي زاده(محمد بن علي): أوضح المسالك إلى معرفة البلدان و الممالك، تح: المهدي عيد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص٣٨٢.

عليه السلام، وبالقُرب منها قبرُ الخليفة الأموي عُمر بن عبد العزيز، بينما ذكرَ أبو الفداء أنَّ شُربَ أهلُهَا من الآبارِ[1].

3ً- مدينة وبحيرة فامية[2]:

وصفها شيخ الرَّبوة بالحُصنِ المنيع، يُضربُ به المثل، وبها بُحيرة كبيرة يدخلُهَا العاصي ويخرجُ منها، ولها سكرٌ، ويُصادُ منها نوع من السمك شبيه بالحيَّات يُسمَّى أنقليس، إضافةً إلى السلُّور والناصري الذي ضمانهُ في السنةِ ثلاثون ألف درهم، وبالمُقارنة ذكرَ أبو الفداء أنَّ المدينة قديمة، وهي من أعمال شيزر، وتقعُ على نشزٍ من الأرضِ، ولها بُحيرة حلوة يشقُّها النهر المقلوب[3].

4ً- أنطاكية:

وصفها شيخُ الرَّبوة بالمدينةِ الحصينة، إذ يحيطُ بها سور على أربعِ جبال، و لها بساتينٌ وفرضةٌ تُسمَّى السويديَّة على الساحل عندَ مصبِّ نهر العاصي في البحرِ[4].

د- د- القسم الرابع- مملكة حماة:

وصفَهَا شيخُ الرَّبوة بأنَّها مدينةٌ حسنةٌ خصبةٌ كثيرةُ الخير والأرزاق، ويَحُوطها نهر العاصي، ويأتيها جارياً من بين جانبيها ويجمع بين الجانبين قَنطرة، وعلى العَاصي النواعير الكبيرة التي تحمل الماء لتسقيَ البساتين والأماكن، وهي كثيرةُ الثمار وبهَا المُشمُش الكافوري اللوزي الَّذي لا مثيلَ لهُ.

وبالمُقارنة قدَّم النويري وصفاً لمدينة حماة فذكر أنَّها مدينةٌ حسنةٌ فيها النواعير التي تدورُ بالماء، ويُزرعُ عليها أصناف شتَّى من المزروعاتِ، بينما ذكرَ ابن فضل الله العمري بأنَّها مدينةٌ قديمةٌ على ضفَّةِ العاصي، و لها قلعة ملوَّنة الأحجار، وبها سُورٌ، وقصورٌ ملوكيَّة، و مساجدٌ، ومدارس، وُربط، وزوايا، وأسواق، وفي بساتينِهَا الفواكه الكثيرة، وهي ذاتُ وغرٍ في الصيفِ لحجبَ الهواء عن اختراقِهَا، ولا يبقَى إليها الثلج كما يبقَى في بقيَّة الشام مُدَّخراً إلى الصيفِ، وحولَها مروج مُمتدَّة، وبرّ فسيح يُكثَرُ بهِ مصائد الطير والوحش[5].

---

[1] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٥؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٧٢؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٥؛ وذكر الإدريسي أنَّ المدينة عامرة بالمباني والأسواق، وليسَ بها ماءٍ جارٍ، وشربُ أهلُها من ماءِ السماءِ. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٥٢.

[2] مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حمص. الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٢٢٧.

[3] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٥؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٣.

[4] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٦؛ وأشارَ ابن حوقل إلى أنَّها أنزَهُ بلدةٌ بالشام بعدَ دمشقَ، وعليها سورٌ من صخرٍ يُحيطُ بها، وتجري مياهُهَا في دورِهَا وسككها ومسجدها الجامع. ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٧٩.

[5] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٧؛ النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص١٨٥؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٦، ٣٦٧.

ومن **أعمالها** الكبار بَعرِين، وتُسمَّى بارين، وهي قلعةٌ حصينةٌ[١].

هـ- د- القسم الخامس- مملكة الساحل:

ذكرَ شيخُ الربوة أنَّ كُرسيهَا مدينة طرابلس المُسَتجَدَّة التي بُنيت في ذيل جبل لبنان وذلكَ بعدَ أنْ فتحَ جيش المُسلمين طرابلس الشام(القديمة) في عهد الملك المنصور سيف الدِّين قَلَاُوون الصالحي، ووصفَهَا بأنَّها مدينةٌ جبليَّةٌ بحريَّةٌ بريَّةٌ يتخلَّلُها الماء، وفيها قنطرةٌ على وادٍ بينَ جبلين، يمرُّ عليها الماء إليها من منبعها في ارتفاع سبعين ذراعاً، وطول هذه القنطرةُ نحوَ مئتي ذراع، والنهر يجري من تحتها ليسقيَ الأراضي، ويصبُّ في البحر الرومي، وفي بساتينها من الفواكه ما لا يوجدُ في سائر الأقاليم من قصب السُكَّر والجميز[٢]، والحمضيَّات والقِلقَاس، إضافةً إلى كُثرة سمك البحر الطريّ والطير الكثير بها[٣].ومن أهمِّ **أعمالِهَا** التي ذَكرَهَا شيخُ الرَّبوة:

1ً- حُصن الأكراد[٤]:

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّه حصنٌ منيعٌ فارقٌ مشرفٌ بينَ الشام والسواحل، و ينظرُ الناظرُ منه إلى الشام وقارة والنبك وبعلبك[٥].

2ً- حُصون الدَعوة:

أشارَ شيخ الرَّبوة أنَّها حصونٌ للإسماعيلية، وهي سبعةُ حصونٌ منها الكهف[٦]، وبهِ الغار الَّذي دُفِنَ به راشد الدِّين بن مُحمَّد صاحب قلعة ألموت[١]، و حُصن القدموس[٢] وفيه في شهري آب وتموز تخلقُ الحيَّات به توليداً، وحُصن المنيقة[٣] وغيرها[٤].

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٧، وهي مدينةٌ حسنةٌ بينَ حماة وحلب من جهةِ الغربِ. الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٢١.

[٢] أشارَ المقدسي إلى حقيقةٍ مُخالفةٍ لذلك، فذكرَ أنَّ عسقلان هي معدن الجميز ولا يزرعُ بسِوَاها. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٤، والجميز: هو ضربٌ من ضروبِ التين، أحمرُ اللون حلوَ المذاق. دياب(كوكب): المعجم المفصل في الأشجار والنباتات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٦٠.

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٧، لكنْ الغريبُ في الأمرِ أنَّ جغرافيي العصر المملوكي لم يُقدِّموا وصفاً لطرابلس المُستجدة، وخاصَّةً ابن الوردي الَّذي عاش بعد بناءها، وبعدَ فتحِ طرابلس القديمة، في حين يُلاحظ أنَّ الرحَّالة ابن بطوطة وصفَهَا بأنَّها مدينةٌ بلدانُهَا ضخامٌ، وتخترقُها الأنهار وتحفُّهَا البساتينَ والأشجارَ، ويكنفُها البحرَ بمرافقهِ العميقة، والبرُّ بخيراتِهِ المُقيمة، ولها الأسواق العجيبة والمسارح. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٥.

[٤] قلعة حصينة مُقابل حمصَ على جبلِ الجليل المُتَّصل بجبلِ لبنان، يقع بينَ حمصَ وطرابلس على بعدِ مرحلةٍ واحدةٍ عنهما. الحموي: المشترك وضعاً، ص١٣٦؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٩.

[٥] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٨.

[٦] حُصنٌ بالقربِ من قلعة المنيقَة و القدموس، على بعدِ ساعةٍ، ويقعُ على نشزِ جبلٍ عالٍ من أعمالِ صهيون بسواحلِ بحر بحر الشام، بالقُرب من طرابلس. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٤٦.

3ً- اللاذقيَّة:

أشارَ شخ الرَّبوة أنَّها مُحاطةٌ بالبحر من جهاتِها الثلاث، وهي أشبهُ بالإسكندرية في بنائها، وليسَ بها ماء جارٍ يسقيَ أرضَها، وهي قليلةُ الشجرُ قديمةُ البناء، وبأرضها معدن الرُّخام الأبيض الأخضر المُوشَّى، وبها دير من أعجب البناءِ في الأديرة يجتمع فيه المسيحيين يوماً واحداً بالسنة، ولها ميناءٌ من أعجبِ الموانئ في البحر وأوسعها، وعليه سلسلة من حديدٍ حاصرةٍ لمراكبهِ مانعةٍ من مراكب العدو.

وبالمُقارنة ذكرَ القزويني أنَّ المدينةَ من سواحل بحر الشام، وهي مدينةٌ عتيقةٌ سُمِّيَتْ باسمِ بانيها روميَّة، وفيها أبنيةٌ قديمةٌ، ولها مُرقاة جيّدَة، وقلعتان مُتَّصلتَان على تلٍ مُشرفٍ على ربضِهَا.

وأشارَ ابن سعيد المغربي أنَّ طولَ المدينةُ إحدى وستونَ درجة وإحدى وثلاثونَ دقيقة، وعرضها أربعُ وثلاثونَ درجة وإحدى وثلاثونَ دقيقة، وذكرَ أبو الفداء أنَّ ديرَهَا مسكونٌ، ويُعرفُ بالفاروس(٥).

و- د- القسم السادس- مملكة صفد(٦):

أشارَ شيخ الرَّبوة أنَّها حصنٌ بقبَّةِ جبل لبنان، سُميَّت صفتْ ثمَّ قيلَ: صفد و كان بها طائفةٌ من الفرنج يُقالُ لهم: الداويَّة(٧)، فحصرَهُم فيها الملك الظاهر بيبرس وقتلَ كلُّ من فيهِ(٨)، وبَنى فيها بُرجاً سمَّاه القلَّة، وفيه بئر ماء يشربُ منه أهلها يُسمَّى الساتورة يكفي أهلُ الحصنَ من السنة إلى السنة وعمقهُ مئة

---

١ قلعةٌ حصينةٌ من ناحيةِ روزبار بينَ قزوين وبحر الخزر على جبلٍ، وهي كرسيُّ مُلك الإسماعيلية. القزويني: آثار البلاد، ص٣٠١؛ لسترنج(لكي): بلدان الخلافة الشرقية، تر: بشير فرنسيس و كوركوويس عوّاد، بغداد، ١٩٤٥م، ص ٢٥٥ ،٢٥٦.

٢ بليدةٌ وحصنٌ من أعمالِ صهيون بسواحل بحر الشام بالقُرب من طرابلس. القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٤٤٣.

٣ قلعةٌ بالقربِ من حصنِ الكهف و القدموس، من أعمال صهيون بسواحل بحر الشام، بالقربِ من طرابلس. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٤٦.

٤ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٨.

٥ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٨؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٥٨؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٧؛ بينما وصفَها الإدريسي بالمدينةِ الآهلةِ العامرةِ، الكثيرةُ الخصب والخيرات. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٤٥.

٦ مدينة في جبال عاملة المُطلَّة على حمصَ بالشام، وهي من جبالِ لبنان. الحموي: معجم البلدان، مج٣، ص٤١٢؛ القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٤٠٣.

٧ جمعيةُ فرسَان المعبد، وهي جمعيةٌ دينيةٌ أُنشئت أوَّل الأمر لحمايةِ طريق الحُجَّاج المسيحيين بينَ يافا وبيت المقدس، ثمَّ تحوَّلتْ إلى هيئةٍ حربيَّةٍ. الصوري(وليم): تاريخ الحروب الصليبية والأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تر: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م، ج١، ص٥٧٦، ٥٧٧؛ الفيتري(يعقوب): تاريخ بيت المقدس، تر: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٨م، ص٩٠، ٩١؛ السامرائي: المجموع اللفيف، ص٩٨؛ دهمان(محمد أحمد): معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠م، ص٧٣.

٨ خبر فتح صفد عند: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥٤- ٢٦٣؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٩، ص٢٤.

وعشرونَ ذراعاً في ستة أذرع بذراع النَجّار، والدلاء التي لها بَتاتِي من الخشب تسعُ البتيَّة نحوَ قلَّة من الماء، وهما بتيتان في حبلٍ واحدٍ يُسمَّى سرباق، كغلظِ زندِ الإنسان، وكلَّما وصلت بتيةً إلى الماء، وصلت الأُخرى إلى رأس البئر، وكلما وصلتْ واحدةٌ من رأس البئر، وصلت الأُخرى إلى الماء.

وصفد يمرُّ بها نهر ليطة، وينبع من أرض كرك نوح، ثمَّ يصبّ إليه أعينٌ وأنهارٌ، وهو يمتدُّ في ذيل جبل لبنان حتَّى بالشقيف، وهي قلعةٌ عظيمةٌ حصينةٌ، ثمَّ يصبّ في البحر، وتشتهرُ صفد بزراعة الزيتون، والكروم[١].

ومن أعمالها:

1ً- عكَّا:

أوردَ شيخ الرَّبوة أنَّ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بناها، وغلبتْ عليها المسيحيين، ثمَّ فتحها الملك صلاح الدِّين يوسف بن أيوب وهو الملك الناصر((لكنْ الغريب أنَّ شيخ الرَّبوة وهو جغرافيٌّ مملوكي لمْ يذكرْ أنَّ الفرنجَ عادتْ وغلبتْ على عكَّا ، ثمَّ تَمَّ تحريرها سنة(٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) في عهد الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، وخاصةً إذا علمنا أنَّه عاصرَ فتحها، وصنَّف كتابه سنة(٧٢٥هـ/ ١٢٢٤م) أي بعدَ تحريرها)).

وبالمُقارنة ذكرَ القزويني أنَّ عكَّا تقعُ على ساحلِ بحرِ الشام من عمل الأُردن، وهي من أحسن بلادِ الساحل في العصر المملوكي، وأشار ابن سعيد المغربي أنَّها كانت في زمنه ركابُ الفرنجَ، ومَجمعُ تجَّارهم وحجَّاجهم(توفي ابن سعيد المغربي قبل تحرير عكَّا بخمس سنوات)[٢].

2ً- القرينْ:

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّهُ قلعةٌ منيعةٌ بين جبلين، وكان ثغراً للفرنج فتحهُ الملك الظاهر بيبرس[٣]، وبه وادٍ من أنزهِ البقاع، فيهُ الكمثرى[٤] المسكي المُعطَّر الرائحة الطيب الطعم، ومن الأترجِ[١] ما تكونُ الثمرة الواحدة ستةَ أرطال[٢] دمشقية[٣].

---

١ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٠، ٢١١، وللمزيد: مؤلف مجهول: مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، ص٢٠٧-٢١٠.

٢ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٢، ٢١٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٢٣؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٠، ووصفَها المقدسي بأنَّها مدينةٌ حصينةٌ على البحرِ، وفيها جامعٌ كبيرٌ، وهي تشتهرُ بزراعةِ الزيتون، ففيها غابةٌ للزيتونِ. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٦٢. وقيلَ: إنَّها تشبهُ القسطنطينية، وبشرقها عين ماء تُسمَّى بعينِ البقرة، يُقال: إنَّ الله تعالى أخرجَ منها البقرة لآدمعليه السلام. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٨.

٣ خبر فتح القرين عند: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٥٨؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٦.

٤ نوع من الثمار منهُ البستاني، ومنهُ الرومي، ومنه بريٌّ، وهو أحمرٌ وأبيسٌ، يبقَى مزروعاً في الأرض لمدَّةِ عامٍ أو خمسةَ عشرَ شهراً، ثمَّ يُقلع ويُزرَعُ في الأرضِ الرمليَّة. النابلسي: الملاحة في علم الفلاحة، ص١٣٦. وهذا النوع من الأشجار يُزرعُ

3ً- البقيعة:

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّها تقع في لحفِ جبل البقيعة، ولها مياهٌ جارية، وأهلُها دروزٌ، وهي تشتهرُ بزراعةِ السفرجل[٤].

4ً- طبريَّة:

ذكرَ شيخ الرَّبوة أنَّها قصبة الأُردن، وهي مدينةٌ مستطيلةٌ على شاطئ بحيرتِهَا التي يخرج منها نهر الشريعة[٥]، وطول البحيرة اثنا عشرَ ميلاً، وعرضُها ستة أميال، و على شاطئ البُحيرة منابع حارَّة، تُسمَّى الحمَّامات، وماؤهَا ملحيٌّ كبريتيٌّ نافعٌ من ترهُّل البدن، وبالمُقارنة ذكرَ القزويني أنَّها على مقربة من دمشقَ، مُطلَّة على بحيرة طبرية وجبل الطور، ووصفها ابن الوردي بأنَّها مدينةٌ جليلةٌ على جبلٍ مُطلٍّ، وأسفلُها بُحيرة عذبة، وبها مراكبٌ سابحة، ولها سورٌ حصينٌ، ويعملُ بها من الحُصرِ السامان كلّ حسنٍ

من كانون الآخر إلى آخر شهر شباط. البعلبكي: الفلاحة الرومية، ص٢٩٧. و الكمثرى هو الأجاص. كرد علي: غوطة دمشق، ص ٨٤، ٨٥.

[١] شجرةٌ تُغرسُ غرساً ولا تكونُ بريَّةً، وتستمرُ في إنتاجِ الثمارِ لما يزيدُ عن عشرين سنة، ولها ورقٌ يشبهُ ورقَ الجوزِ لهُ رائحةٌ عطرة، ولونُ ثمرها يشبهُ لونَ الذهب، وهو ذو رائحةٌ طيّبةٌ، له بذرٌ يشبهٌ بذرَ الكمثرى. ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، ج١، ص١٣، ١٤.

[٢] الرطل: وحدة وزن تُعادل(١.٨٥٠) كغم . هنتس(فالتر): المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ط١، ١٩٧٠م، ص٣٣؛ وهو ما يعادلُ اثنا عشر أوقية. المقريزي(أحمد بن علي): الأوزان والأكيال الشرعية، تح: سلطان بن عيد المسمار، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ص٦٦؛ والأوقية هي أربعونَ درهماً. المقريزي(أحمد بن علي): شذور العقود في ذكر النقود، مخطوط جامعة الملك سعود، = الرياض، رقم ٢١٧٠، نشر بتاريخ ١٩٧٥م، ورقة٦٧؛ ابن أبي عزفة(أحمد بن محمد): إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تح: محمد الشريف، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م، ص٨٦.

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١١. حقيقةٌ أنَّ القدسَ هي من اشتهرتْ بزراعةِ الأترج، وهي حقيقةٌ لمْ يَشرْ إليها شيخ الربوة، بينما أشارَ إليها المقدسي، فقال: « فقد جمعَ الله فيها فواكَه الأغوارِ والسهلِ والجبلِ، كالأترج وغيرها». المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٦٦.

[٤] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١١. وهو عدّة أنواع منه(برزي، قصبي، عباسي). أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٥١-٣٥٣.

[٥] نهر غزير الماء، ينبعُ من بانياس، ثمَّ يصبُّ في بحيرةِ طبريَّة ويمتدُّ إلى الحولة، فيعملُ بحيرةً تُسمَّى بحيرة قُدس، ثمَّ يمرُّ بوسط الغور، ثمَّ يخرجُ منه حتَّى يصبَّ في بحيرةِ لوط(البحر الميت) بأسفل الغور، و لا يخرجَ منها فكأنَّ نهرَ الأردنُ فلك دائرةٌ يطلعُ من أوَّلِ الغور من بُحيرة قدس، ويتوسَّط ببحيرةِ طبرية ويغورُ في بحيرة زغر. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠١؛ حسين(فالح): الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، مطابع دار الشعب، الأردن، ط١، ١٩٧٨م، ص٣١.

وبديعٍ، وبها حمَّامات حامية من غير نارٍ، أشهرها حمَّام الدماقر، وهو مالحٌ ومن شدِّة حرَّهُ يسلقُ البيض، وهو أصغرُ حمَّاماتُهَا[١].

ز- د- القسم السابع- مملكة الكرك[٢]:

وصفه شيخ الرَّبوة بأنَّهُ حصنٌ منيعٌ على قُبَّة جبلٍ خندقهُ أودية بعيدة السفل[٣]، **ومن أعمالها:**

1ً- الشوبك[٤]:

أشار شيخ الرَّبوة إلى أنَّها مدينةٌ خصبةٌ، ولها فواكه، وعيون كثيرة، و بالمُقارنة أشارَ أبو الفداء أنَّها تشتهرُ بزراعة المُشمُش الَّذي يُصدَّر إلى مصر وذكرَ ابن شاهين الظاهري أنَّ الشوبكَ بلادٌ عديَّةٌ، وبها قُرى عديَّة، ومعاملات و المسلكُ إليها صعبٌ في مُنقطعاتٍ قليلة الماءِ[٥].

2ً- زُغَر:

أشارَ شيخُ الرَّبوة إلى أنَّها مدينةٌ بالغورِ، تشتهرُ بزراعة أشجار النخيل، إذ بها رطبٌ شبيهٌ بالبرنِي الموجود في العراق، وهي مشرفةٌ على بُحيرتهَا، ومن عجيب مياهها الجارية أنَّ بأعلاه بُحيرة قدس يفيضُ الماء منها، ويسيحُ نهراً هو نهر الأردن، ثمَّ يمرّ ويصبّ في بحيرة طبرية بوسطِ الغور، ثمَّ يخرج ويمرّ بالغور في وسطه حتَّى يصبَّ في بحيرة لوط ﵇، وحدَّدها أبو الفداء جنوب أريحا، وذكر أنَّ بحيرتها المعروفة باسمها لا حيوان ولا سمك بها[٦].

ح- د- القسم الثامن- مملكة غزَّة[٧]:

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١١؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢١٧؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٠٤، ١٠٥، وذكرَ المقدسي أنَّها قصبة الأردن، وهي موضوعةٌ بين الجبل والبحيرة، كثيرةُ الأسواق والجوامع، وتكثُرُ فيها البراغيثُ والحشراتُ. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٦١.

[٢] قلعة شهيرة في طرف الشام إلى الجنوبِ من البحرِ الميت، بينَ آيلة والبحر الأحمر وبيت المقدس، وهي حصينةٌ تقعُ على سنِّ جبلٍ عالٍ تُحيط بها الأودية. الحموي: المشترك وضعاً، ص٣٧١.

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٣.

[٤] قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وآيلة والقلزم قرب الكرك. القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٣٩٣، ٣٩٤.

[٥] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٧؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٤٣.

[٦] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠١، ٢١٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٢٨؛ وذكرَ سبَاهي زَادَه أنَّ بالقربِ من البحيرة ديار قوم لوط، وهي ديار تُسمَّى الأرضَ المقلوبة، وليسَ بها زرعٌ، ولا حشيشٌ. سبَاهي زاده: أوضح المسالك، ص٣٦٥.

[٧] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٩؛ البكري(عبد الله بن عبد العزيز): معجم ما استعجم، تح: مصطفى السقا، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٥م، ج٢، ص٩٩٧.

قال عنها شيخ الرَّبوة: « عُرِفتْ قديماً بغزَّة هاشم، وهي مدينةٌ كثيرةُ الأشجار كسماطٍ ممدودٍ لجيشِ الإسلام في أبواب الرمل، و لكلِّ صادرٍ ووارِدٍ إلى الديار المصريَّة والشاميَّة»، وبالمُقارنة ذكرَ أبو الفداء أنَّها مدينةٌ على ساحلِ البحر ذاتُ بساتينٍ وأشجار نخيل، ولها قلعةٌ صغيرةٌ[١]، **ومن مدنها الساحلية:**

1ً- عسقلان[٢]:

ذكر شيخ الرَّبوة أنَّها مدينةٌ عظيمةٌ كانت للفرنج، ثمَّ أخربها المسلمون، وبالمقارنة ذكرَ ابن الوردي أنَّ عسقلانَ مدينةٌ حسنةٌ، ولها سوران، وهي ذاتُ بساتينٍ وثمارٍ، وبها من الزيتونِ والكرومِ واللوزِ شيءٌ كثيرٌ، وهي في غاية الخصبِ[٣].

2ً- يافا[٤]:

ذكَر شيخ الرَّبوة أنَّها مدينةٌ ساحليةٌ، فيها حجرٌ قديمٌ في البحرِ قريب من الساحلِ، لهُ أوانٍ يجتمعُ فيه كلِّ أصنافِ الأسماك، إذ إنَّه لا يبقَى صنفٌ إلَّا ويأتِيَ إلى هذا الحجرُ[٥]، أمَّا من أهمِّ أعمال غزَّة البريَّة تيه بني إسرائيل[٦].

ط- د- ذكرُ أهمّ ثغور بلاد الشام:

قدَّمَ شيخ الرَّبوة ذكراً لأهمِّ ثغور بلاد الشام، وقسَّمَها إلى **قسمين:**

1ً- ثغور جزريَّة:

وأشهرُهَا شمشاط(سمسياط) على غربِ الفُرات[٧]، والبيرةِ تقعُ شرق الفُرات[١].

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٨، ٢٣٩؛ بينما وصفَها ابن حوقل بالمدينةِ المُقدَّسة، إذ يوجدُ فيها قبر هاشم بن عبد مناف جدَّ النبي ﷺ. ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٧٢.

[٢] مدينة من أعمال فلسطين على ساحل البحر بالقرب من غزة. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٩؛ البكري: معجم ما استعجم، ج٢، ص٩٤٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٢٢، القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٤٢١

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٣؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٠١، وأشار الإدريسي إلى أنَّها مدينةٌ حسنةٌ ذاتُ سورٍ، وبها أسواقٌ وليسَ بخارجِهَا بساتينٍ أو شجرٍ. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٥٧.

[٤] المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٤؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٦٤؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٤٩.

[٥] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٣، ويقول فيها الإدريسي إنها فرضة بيت المقدس على البحر. الإدريسي: نزهة المشتاق، المشتاق، ج١، ص٣٦٤.

[٦] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٣. وتيه بني إسرائيل أرض بين مصر وآيلة، وبحر القلزم وجبال السراة من أرض الشام، الشام، فله حدٌّ بأرضِ بيت المقدس إلى القلزم بريفِ مصر. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٠٩، ٢٣٨، ٢٣٩؛ القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٣٣٩.

[٧] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٤. مدينة غربي الفرات على طرف بلاد الروم. الحموي: معجم البلدان، مج٣، ص٢٥٨. ص٢٥٨.

2ً- ثغور شامية:

منها طرسوس التي بُنيَتْ ومُصِّرتْ زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد سنة(١٧٢هـ/ ٧٨٩م)، ويشقُّها نهر البردان الَّذي يصبّ بالبحر[٢]، والمصيصة، وهي جَانبَان على طرفِي نهرِ جيحان، وعليهِ قنطرة، وأحَّدُ الجَانبَان يُسمَّى كفربيا والآخر سيس[٣].

هـ- المآخذ على الكتاب:

على الرُغْمِ من وجود معلوماتٍ جُغرافيَّة مُهمَّة في كتاب" نُخبة الدهر"، إلَّا أنَّ هُناك انتقاداتٌ عدَّة توجَّه للمؤلف، فقدْ وقعَ شيخُ الرَّبوة بأخطاءٍ عدَّة لافتقارهِ للمنهج والملكة النقديَّة، فمن جهة يُرى أنَّ كتابهُ في الجُغرافية الوصفيَّة، لكنَّه أقلُّ قيمةً من كتابِ مُعاصره أبي الفداء، لاسيَّما أنَّه أهملَ إحداثيات الجُغرافية الرياضيَّة، ولم يُقدِّم لنا الموجز الوصفي الَّذي يسبقُ تعداد المدن كما هو الأمرُ عندَ أبي الفداء، كذلك أهملَ الجُغرافية الرياضيَّة من حيث تبويبُ مادَّته، ولو أنَّه فعلَ ذلك ملاءمةً لروح عصره.

ويغلبُ على طابعِ الكتاب الميل إلى الروحيَّات، ومن جهة أُخرى أنَّ شيخ الرَّبوة قد اقتفَى في تأليفهِ للكتابِ أثرَ ابن العربي الَّذي لا ينتمي إلى مدرسة المُتصوِّفين القديمة المُعادية لكلِّ فكرٍ فلسفي، بل يجيزُ المنهج التشكُّكي في حدودٍ مُعينة، وعن مواضيعٍ مُعينة كان قد تحدَّث عنها أيضاً، و من جهة أُخرى فإنَّه اعتمدَ في مصادرهِ على قُصصٍ وحكاياتٍ فيها كثيرٌ من الغرائبِ والعجائبِ التي لا يُمكن أنْ يقبلَهَا العقل، فمنها ما أورده أنَّ في مدينة تفليس عين تنبعُ ماءً إذا أخرجتَهُ صارَ حبَّات[٤]، وإنَّ في جزيرةِ العقل ببحرِ الهند عين ماء من يشرب منها زادَ عقلَهُ[٥]، وكذلك حديثهُ عن التنِّين في البحرِ الرومي وقولهُ: « إنَّ التنانين دوابٌ تكونُ في قعرِ البحرِ، فتعظم وتؤذي ما فيهِ من دابَّةٍ، فيبعثُ الله السحاب والملائكة، فتُخرجها من البحرِ أي تُخرجهَا طائرةً وتُلقيَهَا في أرض يأجوج ومأجوج فيأكلونَها»[٦].

وبجانبٍ آخر اهتمَّ شيخ الربوة في كتابهِ بوصفِ مناطق بلاد الشام، وأهملَ البلاد الواقعة إلى الشرقِ من البلادِ العربية خاصَّة المُحيط الهندي، وفيما يخصُّ أوربَّة فقد ألمَّ إلماماً خفيفاً ببعضِ مُدن جنوبِها فجاءَ

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٤. بلد قرب سمسياط بين حلب والثغور الإسلامية، وهي قلعةٌ حصينةٌ لها رستاقٌ واسعٌ. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٩.

[٢] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٤. مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. البغدادي: مراصد الاطلاع، مج٢، ص٨٨٣.

[٣] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٤. مدينة على شاطئ نهر جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم وبقرب طرسوس. الحموي: معجم البلدان، مج٥، ص١٤٥.

[٤] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١١٦.

[٥] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٣٠.

[٦] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٤٦.

الكتاب ضعيفاً في وصفِ جُغرافية أوربَّة ولاسيَّما إذا لُوحِظَ أنَّ القسمَ الشماليُ لها لمْ يتطرَّق إليه أبداً إلَّا بذكرِ من كانَ يسكنهُ من أقوامِ الفرنج، وهذه الأمورُ أفقدتْ الكتابَ كثيراً من قيمتهِ.
ومن الأخطاءِ التي وقعَ بها وضعَ جزيرتي الرِّجال والنساء في المُحيط الأطلنطي الَّذي سمَّاه بالبحر الأخضر حيثُ توجد جزائر السعادات[١]، مع العلم أنَّ هاتين الجزيرتين مُختلفٌ في وجودِهُما بينَ البحر الأسود، و المُحيط الهندي بالقُرب من سواحل الصين، ففي المصادر اليونانية تحدَّثت ملحمة الأُوديسة عن جُزر الحُوريَّات السيرينيات في البحرِ الأسود[٢]، كما ذكرَ هيرودوت(القرن الخامس ق. م) وجودها في البحر الأسود[٣]، وينسبُ المروزي كلاماً لجالينوس وأبقراط حولَ هذا الموضوعُ بوجود الجزيرتين في البحرِ الأسود[٤]، وهذا ما أكَّدهُ أبو عبيد البكري[٥] والإدريسي إبَّانَ حديثَهُ عن الإقليم السابع من البلاد الروسية، و سمَّى الجزيرتين أمزينوس المجوس[٦] .
وذكرَ بعضهم أنَّهما في المُحيطِ الهندي لا سيَّما الرحَّالة بزرك بن شهريار[٧]، و يُخبرُ البيروني أنَّ مملكة النساء تقع داخل الصين، وأنَّها تشتهر بوجود خشب الأبنوس بها[٨]، وهذا ما أكَّدهُ القزويني[٩]، وأشارَ ابن ابن الوردي إلى وجود جزيرة النساء في المُحيط الهندي، وذكرَ أنَّها جزيرةٌ عظيمةٌ وسمَّاها جزيرة البنات[١٠]، كما أدلَى الرحَّالة الأوربيون في العصورِ الوسطى بِدلوَهم في مسألة جزيرة النساء، ووجودها في المُحيط الهندي، لا سيَّما ماركو بولو[١١]، وهذا يؤكدُ عدمَ نقد شيخ الرَّبوة للمعلوماتِ التي أوردَها، ووقوعهُ في الخطأ عندَ نقلهُ عن مصادرهِ المكتوبة، لاسيَّما إذا عُلِم أنَّ البكري والإدريسي من أهمِّ المصادرِ التي

---

[١] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٢٥.

[٢] هوميروس: الأوديسة، تر: دريني خشبة، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٣م، ص١٣٧.

[٣] هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص٣٦١، ٣٦٥.

[٤] المروزي (شرف الزمان طاهر): طبائع الحيوان، تح: فلاديمير مينورسكي، لندن،١٩٤٢م، ص١٩١.

[٥] أبو عبيد البكري(عبد الله بن عبد العزيز): المسالك والممالك، تح: أدريان فان لوفن و أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٢م، مج٢، ص٤٩٠.

[٦] الإدريسي: نزهة المشتاق، ص٩٥٥.

[٧] الناخذاه الرامهرمزي(بزرك بن شهريار): عجائب الهند بره وبحره، تح: فان درليت، مكتبة بيبليون، جبيل- لبنان، د. ت، ص٢٧، ٢٨.

[٨] البيروني(محمد بن أحمد): الصيدنة في الطب، تح: عباس زرياب، مركز نشر دانشكاهي، طهران، ١٩٩١م، ص١٧٨، ص١٧٨، ١٧٩.

[٩] القزويني: آثار البلاد، ص٣٣.

[١٠] ابن الوردي: خريدة العجائب، ص٢٠٤.

[١١] بولو(ماركو): رحلات ماركو بولو، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م، ج٢، ص١٥٤.

استقى منهما معلوماته، ومع هذا فإنَّه لمْ ينقلُ بأمانة، فدوَّن معلومات ونسبَهَا للإدريسي والبكري وهما لمْ يوردا هذه المعلوماتُ، إنّما ذكرا ما هو مُخالفٌ لها، ومثالُ ذلك ما ذُكِرَ عن جزيرةِ الرجال والنساء.

ومن الأخطاء التي وقعَ بها أنَّه جعلَ أوَّل تكوير للعراق على أربعةِ رساتيق في أيامِ الخليفة العباسي المُعتصم، مع العلمْ أنَّ هذا الأمر تمَّ منذُ زمنِ الخليفة علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه[1]، وأيضاً تحدَّث تحدَّث عن زراعةِ البندُقِ والأرزِ في جبلِ اللكام[2]، وعاد وذكرَ أنَّ في أعلاه منفساً للنار، فكيفَ هذا التناقض؟، وهذا خطأٌ فاللُكام قاحل لا يصلحُ للزراعة[3].

كذلك وقعَ شيخ الرَّبوة بأخطاء تسميات بعض المدن مثل معرة مصرين في إدلب التي سمَّاها معرة صرمين[4]، وتسميةُ بعض النباتات مثل الأترج التي سمَّاها الأترنج[5]، عدا بعض الأخطاء اللغوية مثل(المجسطي/ المجصطي، هرمز/ هرمس، ساوت خط الاستواء/ سامت خط الاستواء، وغيرها الكثير)، ومما يوجَّهُ لهُ من نقدٍ عدم التزامه بالحديث عن المناطقِ الجُغرافيَّة، فيُرى أنَّه تحدَّثُ عن الهند ثمَّ بلاد فارس، ثمَّ يعود للحديث عن بلاد الهند مجدداً، وأيضاً اقتصرَ بذكر الكثير من مناطقِ الشام على الذكر دونَ تحديد مكانها أو حتَّى ذكر أيُّ صفةٍ لها، فجاءت معلوماته عن هذه المناطقُ بشكلِ تعدادٍ لا يستحقُّ الذكر، وهذه نقطةٌ توضعُ على مؤلفهِ وخاصَّة أنَّه جُغرافيٌّ شاميٌّ.

أيضاً وقعَ في التناقض عندَ ذكرَه كثير من المعلوماتِ، فمثلاً كانَ يذكرُ بلدة أنَّها من أعمال مكان مُعيَّن ثمَّ يعود ويذكرُهَا من أعمالِ مكانٍ آخر، كما حصلَ بذكرهِ للسلمية ، فمرَّةً ذكرَها أنَّها من أعمال حمص[6] ومرَّة أُخرى من أعمال حماة[7]، ومن أهمِّ ما يوجَّهُ له من نقدٍ أنَّه لمْ يلتزمْ بما قالَهُ، فعندَ حديثَهُ عن منطقة منطقة مثل مغارة العجب[8] وتدمر[9] ونهر الأردن[10]، وغيرها كان يُردِّدَ عبارة سنذكر خصائصها إنشاء الله في فصل عجائبِ وغرائب البلاد، ولكنْ عندما بدأ الحديث في الفصل السابع من الباب التاسع عن

[1] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٨٣.

[2] للمزيد عن الجبل: الإدريسي: نزهة المشتاق، ص٣٥٣.

[3] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٤١، وذكرَ ابن العديم أنَّ الثلوج تُغطِّيَ جبل اللكام في الصيف والشتاء. ابن العديم(عمر بن أحمد): بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص٤٣٩، ومن المعروف أنَّ من شروطِ زراعة الأرز أن تكونَ المنطقةُ حارةً دافئةً، وهذا عكس ما ذكره شيخ الربوة.

[4] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٥.

[5] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١١.

[6] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٢.

[7] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٧.

[8] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٢.

[9] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٢.

[10] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠١.

غرائب البلاد، لمْ يوردْ إلَّا ما في دمشقَ من غرائبٍ، واقتصرَ على القول: « لا نريد هُنا أنْ نذكرَ ما اختصَّت به من العجائب والغرائبِ، فقد ذكرنَاهَا في مواضعِهَا، ولا نُريد أنْ نُكررَهَا خوفاً من التطويل والملل، فإنَّ الشيءَ إذا كثُرَ يُملُّ والله أعلم»[1]، علماً أنَّه لمْ يذكرَهَا ومِنْ ثَمَّ ناقضَ ما بدأ بهِ.

٢- أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود الأيوبي(ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):

أ- التعريف بالمؤلف:

أبو الفداء، المَلك المُؤيَّد عمادُ الدِّين إسماعيل بن المَلك الأفضَل علي بن المَلك المُظفَّر مَحمود بن مُحمَّد بن عُمر بن شَاهنْشَاهْ الأيوبي[2]، يُنتسبُ إلى فرع دوحة عريقةٍ هي أُسرة الأيوبيين التي تولَّت زمامَ الحُكم في المشرق العربي، وكانَ أجدادُهُ أُمراء حماة، ولكنَّ والده اضطرَّ إلى التخلِّي عن إمارتِه أمام غزْو المغول والتجأ إلى دمشقَ، وفيها ولِدَ أبو الفداء سنة(٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، وسارتْ مُهمِّة تثقيفهُ بالأدب جنباً إلى جنبْ مع تدريبَهُ على فنون القتال، إذ انخرَطَ في السلك العسكري منذُ نعومةِ أظفارِهِ، وصَحِبَ أباهُ وهو لمْ يُناهزْ الثانية عشرة مِنْ عُمره في الكفاح ضدَّ الصليبيين وبذلك أسهمَ في الحملة التي انتزعَتْ من أيديهُم قلعة المرقب، كما اشتركَ وهو في سنِّ الثامنة عشرة في طرد الصليبيين من طرابلس، وبعدَها دخلَ في خدمة السُلطان المنصور حسام الدِّين لاجين، وبقيَ كذلك طوال حياته، وفي أيام الناصر مُحمد بن قلاوون زارَ القاهرة، وكان يحملُ إلى السُلطان في كلِّ عامٍ أفخرَ الهدايا من الخيلِ والرقيق والجواهر[3]، ثمَّ

---

[1] شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٧٦.

[2] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣- ١٨٨؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٩، ص٤٠٣- ٤٠٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٥٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٧١- ٣٧٣؛ الحنبلي(أحمد بن إبراهيم): شفاء القلوب في ذكر مناقب بني أيوب، تح: ناظم رشيد، المكتبة الوطنية، بغداد، ط١، ١٩٧٨م، ص٤٥٨؛ الزبيدي(المرتضى): ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص٤٧.

[3] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣؛ الزيات(أحمد): تاريخ الأدب العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ت، ص٤٠٨.

ثمَّ أعادهُ الناصر نائباً عنهُ في حماة سنة(٧١٠هـ/١٣١٠م)[١] ورسمَ له أنْ يخطبَ على منابرِ حماة وأعمالها[٢]، وبعدَها أدَّى أبو الفداء فريضة الحجَّ مرَّات عدَّة، وصحبهُ معه السُلطان المملوكي الناصر محمد الَّذي كانَ يأنسُ بصحبتِهِ، واشتركَ في عام(٧١٥هـ/١٣١٥م) بحملةٍ جديدةٍ على آسيا الصُغرى[٣]، فساعدهُ الاشتراك في مُحاربةِ الصليبيين على التمرُّسِ في فنونِ القتالِ[٤].

وفي سنةِ(٧٢٠هـ/١٣٢٠م) أقرَّهُ الناصر نائباً عنهُ في حماةَ للمرَّة الثانية، وجعلَ المنصب وراثياً لأفراد أُسرته، ولقبَّه الملك المُؤيَّد، ولمْ يكنْ أبو الفداء رحَّالة إنَّما زارَ كُلَّاً من مصر مراراً وطافَ أغلب بلاد الشام، والجزء الشرقي من آسيا الصُغرى وبلاد الجزيرة العُليا[٥]، وفي ذلك قال جورج سارتون: « إنَّ أبا الفداء يُعدُّ أكبرُ عالمٌ جُغرافيٌّ بينَ عُلماء الجُغرافية أجمع، فكانَ يحبُّ الرِّحلات إلى مُختلف الأقطارِ لدراسةِ مناخِها وحالتِهَا السياسيَّة»[٦]، ففي إحدَى رحله إلى مصر زارَ الإسكندرية، وصَحِبَ السُلطان، وبلغَ دندرة، وكان يخرج معه في رحلات الصيد والقنص، إذ خرجَ معهُ مرَّتين مُرافقهُ في تلكَ الرياضة[٧]، ثمَّ نالَ نالَ شرف حضور استقبال سُفراء نادرين مثل سفير خايمه يعقوب الثاني ملك أرغون وسفير إيلخان فارس[٨].

لكنَّ اشتراكَ أبو الفداء في الحروبِ ضدَّ الصليبيين، وفي الحُكم، لمْ يحُولَا دونَ اشتغاله بالتأليف، لاسيَّما في مجالي التاريخ والجُغرافيَة[٩]، إذ قسَّمَ وقته الثمين بينَ الحُكم والبحث والتأليف[١٠] فكانَ أديباً مُؤرِّخاً[١١]، مُؤرِّخاً[١١]، جامعاً للفضائلِ، حفظَ القُرآن، وكتباً عدَّة، وكانَ عالماً فقيهاً مؤرِّخاً وجُغرافيَّاً فلكيَّاً، وعارفاً بالفلسفة والفقه، ولهُ يدٌ في علم الهيئةِ والميقاتِ والمنطقِ، مع الاعتقاد الصحيح، وكانَ يحبُّ أهل العلم ويؤويهُم، مُحبٌّ للفضيلة وأهلها، ولهُ محاسنٌ كثيرةٌ[١٢]، وكان أُعجوبةٌ من أعاجيب الدُّنيا، ماهراً بالأصلين

---

١ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٧، ١٩٨؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٨٧.

٢ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢، ص٣٣٦، ٣٣٧.

٣ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣؛ رمضان أحمد: الرحلة والرحالة، ص١٩٨.

٤ أحمد(أحمد عبد الرزاق): دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، مكتبة سعيد رأفت، د. م، ١٩٧٤م، ص٥٥.

٥ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩١، ٣٩٢؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٨٩.

٦ سارتون: تاريخ العلم، ج١، ص٣٠٨.

٧ أحمد: الرحلة والرحالة، ص١٩٨.

٨ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩١.

٩ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٨٧.

١٠ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٨.

١١ فروخ(عمر): تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م، ص٥٦٣.

١٢ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٥٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٧٢.

والنحو[١]، واشتغلَ بكثير من العلوم والأدب، مثل الشعر و النبات[٢]، و الطبِّ، ومما يدلُّ على براعتِهُ في براعتِهُ في الطبِ أنَّه عندما توجَّه إلى مصرَ ذهبَ معهُ ابنه المَلك الأفضل علي ومرضَ هناك، فاستدعَى لهُ السُلطان الطبيب جمال الدِّين ابن المغربي رئيس الأطباء، فكانَ أبو الفداء يُحضِّر الأدوية، ويصنعهَا في دستٍ من الفضَّة، فقالَ لهُ رئيس الأطباء: « يا خوندْ أنتَ واللهِ ما تَحتاج إليَّ وما أجيَ إلَّا امتثالاً لأمرِ السُلطان»[٣].

تركَ أبو الفداء بصفتِهُ مؤرِّخاً، وجيزاً في التاريخِ العام منذُ خليقةِ الكون حتَّى(٧٢٩هـ /١٣٢٨م) سمَّاه" المُختصر في أخبار البشر"[٤] وجاء تكملةً لتاريخِ ابن الأثير، فقد أخذَ كتابه" الكامل في التاريخ" ، ولخَّصه ولخَّصه وأدخلَ عليه كثير من تاريخِ العُلماء والأُدباء، وتوسَّعَ في أخبار عرب الجاهلية، وأبقاهُ على السنين، فجاءَ في ثلاثةِ مُجلَّدات[٥]، وضمَّنهُ قسماً كبيراً في الحديثِ عن بلادِ الشام، وما تُعانيه من ويلاتِ ويلاتِ الصليبيين، مع حديثهُ عن حياتِها الاجتماعية، وولع أهلهَا بالموسيقى والغناء[٦]، ويُعرف بتاريخِ أبي أبي الفداء، ونُشرَ في القسطنطينية عام(١٨٦٩م)، و تُرجِمت أجزاءً عديدة منهُ إلى مُختلف اللُغات الأوربيَّة، وهو مُهمٌّ في ميداني التاريخ والجغرافية، ففيهِ معلوماتٌ نادرةٌ وفريدةٌ لا يُمكن الحصول عليها إلَّا عن طريقه.

ولهُ كتابٌ في الفقهِ اسمه" الحاوي"[٧]، وكتاب في الطبِّ عنوانه" الكناش"، و كتاب" الموازين"[٨]، و" تاريخ و" تاريخ الدولة الخوارزمية" و" نوادر العلم"، بالإضافة إلى العديدِ من الموشَّحات[٩] وله كتاب" رسم الرُبع

---

[١] ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٢، ص٣٣٧.

[٢] المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٦١؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٨٨.

[٣] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٧٥؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٥.

[٤] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٠.

[٥] رمضان(أحمد): المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مؤسسة روز، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٩٦، ٩٧.

[٦] أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢٠٢.

[٧] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٧٢؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣٧؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٩.

[٨] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٩٨، ٩٩.

[٩] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٩.

الرُّبع المعمور"[١]، وكتاب" الطول والعرض"[٢]، وبذلك يُعدُّ أبو الفداء بحقٍّ مِمَنْ أفادَ الجُغرافية، والتاريخ، والأدب، والعلوم الشرعية، ببحوثهِ المُبتَكرة[٣].

ختمَ أبو الفداء آخرَ أيام حياته بسلامٍ في حماة، وذلك في الثالثِ والعشرين من مُحَرَّم سنة(٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، ودُفنَ بمقبرته[٤] الموجودة بجانب مسجد الدهشة أو الحيَّات الَّذي بناهُ بحماةَ سنة(٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، وبنَى بجانبه تُربة أعدَّهَا لنفسهِ، زوَّدَها بكفنٍ، ويُستدَلُّ من نقشٍ موجود في المسجدِ يعودُ تاريخه إلى عام بناء المسجد أنَّ أبا الفداء قد أعدَّ العدَّة لوفاتهِ قبلَ أربعةِ أعوامٍ من حدوثِ ذلك[٥]، بعد أنْ تنبَّأَ كما تزعُم الرواية بأنَّه لنْ يتجاوزَ الستينَ شأنهُ في هذا شأنُ أفرادُ أُسرته[٦]، وربَّما يُفهمُ ذلكَ من قولهِ: « ما ما أظنُّ أنِّي أستكملَ من العُمرِ ستينَ سنةً، فمَا في أهلِي من استكملها»[٧]، ولمَّا توفِّيَ رثاهُ أحَّد طلبتهُ، بقوله:

لفقـــــدك طــــــلاب العلــــــوم تأســــــفوا   وجـــــادوا بـــــدمع لا يبيـــــد غزيـــــر[٨].

ووَلِّيَ بعدَ وفاته ولدهُ الأفضل علي نائباً للسُلطان على حماة[٩].

ب- دراسة كتاب تقويم البلدان[١٠]:

---

[١] الدفاع(علي عبد الله): الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، نيويورك، ط١، ١٩٧٩م، ص٤٥.

[٢] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٩٨، ٩٩؛ مقبل: مآثر العرب المسلمين، ص٦٤.

[٣] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٠.

[٤] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٩، ص٤٠٤.

[٥] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٠؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣٦.

[٦] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩١.

[٧] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٧٨؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٧.

[٨] حسن(علي إبراهيم): استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام وفي التاريخ المصري الوسيط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٨٠م، ص١٦٠.

[٩] ابن أيبك الدواداري(أبو بكر بن عبد الله): الدُّر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تح: هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٠م، ج٩، ص٣٦٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٥٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٧٣.

[١٠] الذهبي: ذيول العبر، ج٤، ص٩٢؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٧٢؛ السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص٢٧٧؛ الطرابلسي(نوفل): صنَّاجة الطرب في تقدمات العرب، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ص٤٢٣.

يُعدُّ كتاب تقويم البُلدان من أهمِّ الكُتب التي صُنِّفَت في مجال فنِّ التقاويم الجُغرافيَّة، وهو كتابٌ مُختصرٌ شاملٌ، جمعَ فيه خُلاصة كُتب الأقدمين في الجُغرافية والفلك[١]، وقد أتمَّ مسوَّدة هذا الكتاب في أيلول سنة(٧٢٠هـ/١٣٢٠م)، وبقيَ يزيد عليه حتَّى لحظة وفاتهُ[٢].

أ- ب- مُحتويات الكتاب:

بدأ أبو الفداء كتابَهُ بمدخلٍ كُوزموغرافي بعد أنْ مهَّد له بُمقدِّمة بيَّنَ فيها دوافع تأليفه، إذ قال: « لما طالعت الكتب المُؤلَّفة في البلاد ونواحي الأرض من الجبال والبحار وغيرهَا لمْ أجدَ فيها كتاباً موفياً بغرضِي»، ثمَّ ذكرَ هذه المصنَّفاتُ وانتقدَ إغفالها ذكرَ إحداثياتَ الجُغرافية من طولٍ وعرضٍ، وإهمال ضبط الأسماء، وقسَّمها إلى كُتبٍ مُطوَّلة لمْ تضبُط الأسماء، ولمْ تَذكُرْ الأطوال والعروض، مثلَ كُتب ابن حوقل، و الإدريسي، وابن خرداذبه، و كُتب الزِّيجات والأطوال والعروض، التي لمْ تُحقِّقْ الأسماء، ولمْ تذكُرْ صفاتَ المُدن، والكتب المؤلَّفة في تصحيح الأسماء وضبطها، و التي ضَبَطَتْ الأسماءَ، وحقَّقَتهَا، لكنَّها لمْ تَذكُرْ الأطوال والعروض، مثل" الأنساب" للسمعاني، و" المُشترك وضعاً" لياقوت الحموي.

ومِنْ ثَمَّ جَهلَتْ مَعرفة سِمَة البُلدان وموقعها، ومعرفة الشرقي منها، والغربي، والشمالي، والجنوبي، وذَكَرَ أبو الفداء أنَّ هذه الكتبُ أهمَلتْ الحديثَ عن كثيرٍ مِنَ المُدن، و لمْ تحصِ بلاد الإسلام عن آخرِهَا، وأهمَلتْ بلاد الصين، وبلاد البلغار، والجركس و الروس، والزنج، والسودان، والتكرور، والنوبة، والزيلع، وغيرها، ثمَّ أتَى أبو الفداء على جمعِ مُتفرِّقَات هذه الكتبُ في كتابِهِ" تقويم البلدان"[٣].

وقد قسَّمَ أبي الفداء كتابَهُ إلى **قسمين** غير متساويين:

القسم الأول:

ضمَّنهُ الحديث عن الجُغرافية الفلكيَّة، وهو أقلُّ طولاً من الثاني، وهو على هيئةِ مُقدِّمة في الكوزموغرافيا العامَّة، تضمُّ المعلومات المعهودة عن تقسيمِ الأرض، وخطِّ الاستواء، والأقاليم السبعة، والمعمُور من الأرض ومساحتهَا، و المُصطلحات المُستعملة في الجُغرافية، ووصف قصير للبحار والبُحيرات، والأنهَار، والجبال، كما وضَّحَ فيه الكلام على ترتيبِ كتابِهِ[٤].

القسم الثاني:

ضمَّنهُ الحديثَ بالتَعَاقُبِ عن جزيرةِ العرب، وديار مصر، وبلاد المغرب، وبلاد السُّودان، وجزيرة الأندلس، وجزائر بحر الروم، والمُحيط الغربي، و الجانب الشمالي من الأرضِ، وبلاد الشام، والجَزيرة بين دجلة والفُرات، وبلاد ما بينَ النهرين، وخُوزِسَتان، وفَارس، وكَرَمَان، وسَجِستَان، والسِّند، والهِند، والصِين، وجزائر

---

[١] الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص٤٠٩.

[٢] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص ٣٩٢؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٨٨.

[٣] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١، ٢.

[٤] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣- ٧٥.

بحر الشرق، وبلاد الرُّوم، وأرمينية، وأرَّان، وأذربيجَان، وبلاد الجبل وهي عراقُ العجم ، وبلاد الدَّيلم، وطَبَرِستَان، ومَازِنْدَرَانْ، وقُومَسْ، وخراسَانْ، وزَابِلستَانْ، والغُور، و طَخَارِستَانْ، وبَذَخشَانْ، وبلاد خوارزم، وبلاد ما وراء النهر[1]، ويختلف هذا الترتيبُ اختلافاً طفيفاً بالنسبةِ لاختلافِ نسخ المخطُوطات.

ب- ب- منهج الكتاب:

يُعدُّ كتاب" تقويم البلدان" من الكُتبِ الإقليميَّة التي التزمَتْ المفهوم الإقليمي بالحديثِ عن العالم العربي والإسلامي بصُورةٍ خاصَّة و الربع المعمور بصُورةٍ عامَّة[2]، و جمعَ مُؤلِفَهُ في منهجهِ بينَ منهج الإدريسي المُتأثِّر بالتقسيم البطليموسي للأرضِ المَأهولة، ومنهج ابن حوقل في تقسيماته الإقليميَّة لديار الإسلام التي أُطلق عليها اسم الأقاليم العرفية، ولعلَّهُ الكتابُ الوحيد الَّذي جمعَ بينَ الجُغرافية الرياضيَّة والوصفيَّة[3].

وقد قسَّمهُ إلى الأقاليم الجُغرافيَّة المُتعارف عليها، ولمْ يُهملْ انتسابَ هذه المناطقُ إلى أقاليمها الفلكيَّة، وحدَّدَ الإقليم الفلكي تحت عنوان الإقليم الحقيقي[4]، وهنا يُوجَّه النقد لكراتشكوفسكي الَّذي قال:« أنَّ أبا الفداء قد طرَحَ التقسيمُ الفلكي جانباً»[5]، وبجانبٍ آخر لمْ يُهملْ أبو الفداء الجُغرافية الرياضيَّة التي اعتمدَ فيها على كتاب" القانون المسعودي" للبيروني[6]، وجمعَ فيه التحقيق بين الأسماء والأطوال[7].

وبرَّرَ اتِّباعَهُ هذا المنهج بقوله: « أمَّا ترتيبهُ فإنَّه مجدولٌ على وضع التقاويم، وقد ذكَرنا فيهِ الاقليم الحَقيقي والعُرفِي في بيتين" جدولين" والمُراد بالإقليم الحقيقي أحَّدَ الأقاليم السبعة المُقدَّم ذكرَها، والعرفِي كلّ ناحيةٍ ومملكةٍ تشتملُ على عددٍ كثيرٍ من الأماكنِ والبلادِ، مثلَ الشام والعراق، وغيرها، وقد يكون الإقليم العُرفي بعضاً من الإقليم الحقيقي، وقد يكون بعضاً من إقليمين مثل الشام، فإنَّ بعضَهُ من الإقليم الثالث وبعضَهُ من الرَّابع، وقد يشتمل الإقليم العُرفِي على أبعاضِ الأقاليم السبعة، كما يُحكى عن الصين، فإنَّه يُقال: إنَّ عرضَهُ أكثرُ من طولِه، وأنَّه يشتملُ على رؤوسِ الأقاليم الشرقيَّة، حتَّى يستوعبَ أطراف الأقاليمَ السبعة، وأمَّا ترتيبَ الأماكن وتقديم بعضهَا على بعضٍ في الذكر، فإنَّه أمرٌ لمْ يتهيَّأ لنا فيه ترتيب يُرضينَا، فتبعنَا فيه ابن حوقل... »[8].

---

[1] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٧٧- ٥٠٥.

[2] خصباك: الجغرافية عند العرب، ص٦٣، ٦٤.

[3] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٧٠.

[4] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٩١.

[5] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٢.

[6] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٩٢.

[7] زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٤.

[8] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٧٢، ٧٣.

ولعلَّ تنظيمَهُ لكتابهِ على شكل جداولٍ هو الأوَّل من نوعهِ في الجُغرافية الإسلاميَّة، على وجه الخصُوص[١]، واستعارَها من كُتبِ الزيجات من الطبيبِ العربيِّ يحيى ابن جزله(ت ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م)[٢] من كتابه" تقويم الأبدان"، الَّذي صنَّفَ الأمراض على هيئةِ جداولٍ وفقاً للنماذجِ الفلكيَّة، وطبقَّه أبو الفداء على الجُغرافية، فكانَ مُبدِعاً ذا أصالةً، واعترفَ أبو الفداء أنَّه أخذَ اسم الكتاب منهُ[٣]، فقال: « وحذُونَا حدوَ ابن جزله في كتابهِ تقويم الأبدان في الطبِّ»[٤].

واعتمدَ أبو الفداء منهجاً يقومُ على تقسيم الأرض المأهولَة إلى ثمانيةٍ وعشرينَ إقليماً عرفياً[٥]، و كلُّ واحدةٍ من المناطقِ الثمانيةِ والعشرين مُنسَّقَة وفقَ نظاماً موحداً، وينقسمُ كلٌّ منها إلى جزأين، يحتوي **الأوَّل** على عرض عام للمنطقة، وأخلاق سُكَّانها، وعاداتهم، وآثارهم القديمة، وطرقها، وتتفاوت هذه الأجزاءُ الأولى من حيثُ الحجم وفقاً لمساحة كلِّ منطقةٍ وأهمِّيتُها الجُغرافيَّة، وتبعاً للمادَّة العلميَّة التي توفَّرتْ لهُ.

أمَّا الجزء **الثاني** فقدَّم فيه رُسوماً بيانيَّة مُتتالية[٦]، ضمَّنَهَا سطر العدد، والأسماء أي اسم المدينة، وأسماء المنقول عنهم مصدر معلوماته، ثمَّ تحديد الطُول والعرض بالدرجِ والدقائق، واعتمدَ فيه على استخدام حروفِ الجُمل، ثمَّ حدَّدَ العرض بالدرجةِ والدقائقِ، وذكرَ الإقليم الحقيقي أي موضعِ المدينة من الأقاليمِ السبعة، ثمَّ الإقليم العرفي، أي ما تعارفَ عليه الناس، ثمَّ ضبطَ الأسماء بالحركاتِ، كأنْ يقول في(قفط) بكسرِ القاف وسكُون الفاء وفي الآخرِ طاء مُهملة، و مِنْ ثَمَّ تناولَ الأوصاف العامَّة لكلِّ اسم مع تحديدَ موقعهُ الجُغرافي[٧].

وتناولَ في هذا القسمُ بعض المُدن بشيءٍ من التفصيلِ، وبعضها بشكلٍ موجزٍ، وهذا الأمرُ عائدٌ إلى توفُّر مادَّتَهُ العلميَّة؛ ولأهمِّيَّة المدينة التي تحدَّثُ عنها، وخاصَّة من الجانب التجاري، و الاقتصادي، كما أنَّه

---

[١] الميداني(محمود عاصم): المعجمات الجغرافية العربية ودورها الثقافي، مجلة التوباد، الرياض، ١٩٩١م، العدد ١٣، ص١١٥.

[٢] ابن جزله، يحيى بن عيسى، طيبٌ من نصارى العراق، اشتهرَ في الطبِّ وصنَّف فيه تصانيف عدَّة، أشهرها" تقويم الأبدان"، و" تدبير الصحة وحفظ البدن"، توفي سنة(٤٩٣هـ/ ١١٠٠م). ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء، ص٣٤٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٦٧، ٢٦٨؛ السامرائي(كمال): مختصر تاريخ الطبّ العربي، بغداد، ط١، ١٩٨٤م، ج١، ص٢٧٨؛ الزبيدي(محمد حسين): ملامح من النهضة العلمية في العراق في القرنيين الرابع والخامس الهجريين، بغداد، ط١، ١٩٨٠م، ص٩١، ٩٢؛ قاسم(محمود الحاج): تاريخ طب الأطفال عند العرب، جدة، ط٢، ١٩٨٣م، ص٦٤٠.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٣؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣٨.

[٤] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣.

[٥] محمدين: الجغرافية والجغرافيون، ص١٧٠.

[٦] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٢، ٣٩٣.

[٧] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٩١.

عائدٌ إلى وضعِ المدينة الرَّاهن في زمن أبي الفداء، لاسيَّما مُدن الشام التي كان بعضُهَا تحتَ سيطرة الصليبيين[1].

ج- ب- موارد المؤلف:

ضمَّ كتاب" تقويم البلدان" معلومات مُهمَّة عن الأماكن التي ذكرَهَا المؤلف، ولعلَّهُ استقَى معلوماته من ثلاثة مواردٍ رئيسة **هي:**

الأولى:

اعتمدَ أبو الفداء في تدوين قسمٍ من معلوماته على مُشاهداته الشخصيَّة، ومنها القسم الخاص ببلادِ الشام كونَه شاميَّاً، إذ سجلَ فيهِ بدقَّة ما شاهدَهُ في رحلاته[2]، وأضافَ إليهِ مُشاهدات مَنْ سبقَهُ من الرحَّالة الجُغرافيين[3]، لا سيَّما أنَّ المُشاهدة تُدِينُهَا معرفتهِ للأمكنة[4]، واستفادَ المؤلِّفُ من منصبه القيادي في حماة فمكَّنَهُ ذلك من الحصول على معلوماتٍ دقيقة عن طريق الوثائق الحكوميَّة، والكتب النادرة التي أضافَ إليها مادَّة جديدة وأصليَّة[5].

الثانية:

استقى كثيراً من معلوماتِهِ من المصادر الشفويَّة، مثل قصص التُجَّار و الرحَّالة التي سمعَهَا بالشام عن البلدان التي زاروها[6]، لا سيَّما حديثَهُ عن مصبِّ نهر الفولجا التي نقلها من أحَدِ التُجَّار، وإشارته عند كلامه عن الهندِ إلى رحَّالة زار تلك البلاد[7].

الثالثة:

يُعدُّ أبو الفداء جُغرافيَّاً نقَّالة جمَّاعاً، استقَى كثيراً من معلوماتِهِ من الآثار المعروفة، التي أشارَ إليها بدقَّة في كتابه، فجمعَ معلوماتَهُ من مُتفرِّقَات مؤلفات من سبقَهُ، ففي الجُغرافية الرياضيَّة اعتمدَ على كتاب" القانون المسعودي" للبيروني وكتاب" الأطوال" وربَّما يقصدُ به كتاب بطليموس[8].

---

[1] عوض: الرحلة والرحالة، ص١٩٨.

[2] المنجد: أعلام التاريخ والجغرافية، ج٣، ص٤١.

[3] أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢٠٥.

[4] الرازي(محمد بن أبي بكر): حدائق الحقائق، تح: سعيد عبد الفتاح، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص٣١٦.

[5] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٩، ٢٠٠.

[6] المنجد: أعلام التاريخ والجغرافية، ج٣، ص٤٣.

[7] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٣؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢٠٠.

[8] أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢٠٠؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٨٩.

واستقى كثيراً من مُعلوماتِهِ من كتاب" صورة الأرض"، لابن حوقل، وكتاب" فتوح البلدان" للبلاذري(ت٢٧٩هـ/٨٩٢ م)[١]، و" اللُباب في تهذيبِ الأنساب" لابن الأثير، وأضافَ إليها معلومات غيرَ قليلة عن البُلدانِ غير الإسلامية[٢]، ومن أهمِّ المصادر التي اعتمدَ عليها كتاب المُهلبي العزيزي(ق٤هـ/١٠م) الموسوم بـ" المسالك والممالك" الَّذي ألَّفَهُ للخليفة الفاطمي العزيز بالله(ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م)[٣]، وكتاب" المسالك والممالك" لابن خرداذبة[٤].

ونقلَ أيضاً عن كُتَّاب الأدبِ الكلاسيكي من روَّادِ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مثل الإصطخري الَّذي اعتمدَ على كتابه" مسالك الممالك"، واعتمدَ من المُتأخرين على كتابِ" نزهة المشتاق" للإدريسي، و" معجم البلدان"، و" المُشترك وضعاً والمفترق صقعاً" لياقوت الحموي، و" الجُغرافية" لابن سعيد المغربي(ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)[٥]، وكتابَيّ" مُزيل الارتياب عن مُشتبَهِ الأنساب"، و" الفيصل"، لأبي لأبي المجدِ إسماعيل بن هبة الله الموصلي، المعروف بابن باطيش(ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)[٦].

د- ب- أهمِّيَّة الكتب:

تكمُنُ أهمِّيَّة كتاب" تقويم البلدان" كونه يُشكِّلُ حلقةَ وصل بينَ الجُغرافية الأدبيَّة و الجُغرافية الرياضيَّة[٧]، إلى جانب دقَّةِ المؤلف في التعبير عن الحقائقِ العلميَّة المعروفة في عهدِهِ، إضافةً إلى ما أوردَهُ من نظرياتٍ لا يزالَ عددٌ كبيراً منها صحيحاً، ككرويَّة الأرض، والحديثُ عن خطِّ الاستواء، والجهات المَعمورة في أيامهِ، ويُعدُّ كتابَهُ مفخرة من المفاخرِ العلمية للعصر المملوكي، وهو من الكتب الجُغرافيَّة الجليلة التي خلَّفَها عُلماء العرب المسلمين[٨]، و يصحُّ أنْ يُعدَّ تاريخاً انتقادياً للكتابة الجُغرافيَّة العربيَّة إلى عصره القرن القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[٩].

ولهُ قيمةٌ كبيرةٌ كونه يتميَّز بالوضوح والاكتمال والإسهام الأصيل في تنظيم التبويب الجُغرافي الجَدولي الوصفي للمُدن والأقاليم[١٠]، فجاءَ مُختصراً شاملاً للمعلومات الضرورية عن الحدود السياسيَّة، والتضاريس، والحياة الاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة و العمرانيَّة، مع معلومات أصليَّة عن البحار والأنهار

---

[١] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٣، ٢٤٨.

[٢] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٢؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣٧.

[٣] متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص١٦.

[٤] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١.

[٥] أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢٠٠؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٨٩.

[٦] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢.

[٧] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣٧؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٩.

[٨] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣٨.

[٩] زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٤.

[١٠] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٩٣.

والجبال، ووصف طبيعة الأرض ، إضافةً إلى ذلك هو أوَّلُ من استخلصَ أنَّ خط الاستواء هو دائرةٌ عظماء وهميَّة تمرُّ بمنطقتي الاعتدالين الربيعي والخريفي، ولاحظَ أنَّ السفرَ حولَ الأرض يؤدِّي إلى زيادةِ يوم أو نقصانه[١]، ولأهمِّيتَهُ فإنَّهُ لاقَى رواجاً بينَ الأجيال القريبة من المؤلف، لا سيَّما المؤرِّخ الذهبي الذي الذي قام بتلخيصِهِ[٢].

ويُعدُّ القسم المُتعلِّقَ ببلاد الشام ذا أهميَّةً خاصَّة[٣]، إذ قدَّمَ فيه معلوماتٌ مُهمَّة عنها خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، وتناولَ المُدن الساحليَّة والداخلية منها، وجوانبها الاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والسياسيَّة الحربيَّة[٤].

هـ- ب- معرفته في الأوساط:

اعترفَ عُلماء أوربَّة أنَّ أبا الفداء يأتي في مُقدِّمة روَّاد عُلماء العرب المسلمين الَّذين تدينُ لهم الإنسانية باختراع خطوط الطول والعرض، وأنَّه من أوائل مَنْ قدَّم إثباتاً فلكيَّاً صحيحاً لكرويَّة الأرض في كتابه[٥]، ولأهمِّيته وردَ ذكره لدى المُستشرق الفرنسي بوستل(postell)[٦]، وفي عام(١٦٥٠م) قامَ المُستشرق والفلكي الإنجليزي غريفز(Grevaves) بدراسةٍ نقديَّة لجزءٍ من الكتاب، وفي عام(١٧٧١م) قامَ المُستشرق رايزكه بترجمته[٧].

ووصفَهُ الفرنسي رينود دوسلان(Reinaud.D) بأنَّه يمثِّلُ إلى جانبِ مؤلَّف الإدريسي مُؤلَّفاً ضخماً في مجاله، وإنَّ العصور الوسطى الأوربيَّة لمْ تعرفْ كتاباً يُمكن مُقارنته بهِ[٨]، وتوجدُ في مكتبة ليدن مخطوطة للكتاب، راجعَها أبو الفداء شخصيَّاً[٩]، وقد نُشِرت جُغرافيَّة أبو الفداء وطُبِعت لأوَّل مرَّة في باريس عام(١٨٥٠م)، على يد المُستشرقين رينود والبارون ماك كوكين دوسلان[١٠]، و كُتِبَ اسمه على

---

[١] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٨- ٢٠٠.

[٢] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٣، ٣٩٤.

[٣] زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٦.

[٤] عوض(محمد مؤنس): الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٠٧.

[٥] مقبل: مآثر العرب المسلمين، ص٦٤.

[٦] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٨٨.

[٧] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٤، ٣٩٥؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢٠٠.

[8] De Slan. R; Geographie De Aboulfeda, Paris, 1848, pp 11-
55.

[٩] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٢؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣٧.

[10] De Slane. R; Autobiographie De Aboul Feda, Extradite De Sa Chronique, pp169- 186.

جدار قاعةِ الجمعيَّة الجُغرافيَّة في باريس إلى جانبِ كبارِ الجُغرافيين العالميين[١]، ثمَّ قام الفرنسيان دي سلان، ورينود بترجمةٍ للكتابِ مصحوبة بمقالة عن حياة أبي الفداء، لكنْ ترجمته لمْ تكتملْ فأتمَّها المُستشرق غيارد(Guyard) وظهرت كاملةً عام(١٨٨٣م)[٢]، كذلك وجِدَت نسخ مخطوطة للكتاب في معهد الدراسات بلينغراد، درَسَها المستشرق دورن (Dorn)، ويُعدُّ كتاب" تقويم البلدان" أوَّلُ كتاب تُرجِمَ من العربية في هذا الفنُّ[٣].

ونالَ مُؤَلَّفْ أبي الفداء حُظوةً عندَ الأتراك، فقد رتَّبه سباهي زاده(ت ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م) على حروف المعجم باللُغة العربية، وزادَ عليهِ، وأخرجه بعنوان" أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك"، ثمَّ ترجمَ أجزاءً منهُ إلى التُركية[٤]، وفي إيران خضعَ لتأثيرهِ محمد صادق الأصفهاني من مؤلفي القرن السابع عشر، ونسجَ على منوالِهِ[٥].

ج- دراسة نماذج من أمكنة بلاد الشام من خلال كتاب تقويم البُلدان:

ضمَّنَ أبو الفداء حديثَهُ عن بلادِ الشام في فصلٍ سمَّاهُ" ذكر الشام"، في الصفحات ٢٢٥ حتَّى الصفحة ٢٧٢، وبدأ الحديث عن هذا القسمُ بذكر حدود الشام، وذكرَ أنَّ حدَّهَا من الغرب بحر الروم ويمتدُّ من طرسوس التي في بلاد الأرمن إلى رفح بين الشام ومصر، ومن جهة الجنوب حدٌّ يمتدُّ من رفح إلى تيه بني إسرائيل إلى البلقاء في الأُردن، ومن جهة الشرق حدٌّ يمتدُّ من البلقاء إلى مشارق حلب، ومن الشمال من بالس على الفرات إلى بحرِ الروم، وبعدَها ذكرَ سبب تسميتَها بالشام، فقال: « وإنَّما سُمِّيَ شاماً؛ لأنَّ قوماً من بني كنعان تشأموا إليه أي تياسروا إليه، لأنَّه عن يسارِ الكعبة، وقيل: سُمِّي شاماً بسام بن نوح واسمه بالسريانية شام، وقيل: سُمِّي شاماً لشامات في أرضه بيضٍ وحمرٍ وسودٍ أي إنَّ بهِ أراضي على هذه الألوان».

ثمَّ قامَ بتقسيم الشام إلى **خمسةِ أجنادٍ هي:** جُند قنسرين، وحمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين[٦]، وبدأ بذكر أهمِّ أماكنها المشهورة، وخلال هذا القسم حرص أبو الفداء على تناول العديد من الجوانب المتَّصلة ببلاد الشام، وأفردَ لها قسماً خاصَّاً، وأعطى أهمِّيَّة كبيرة للساحل الشامي، وما لحقَهُ من خرابٍ ودمارٍ على أيدي الصليبيين، وقدَّمَ وصفاً لأهمِّ العمائر الحربيَّة العربيَّة الإسلاميَّة والصليبيَّة، مع الاهتمام بالجانبِ الاقتصادي، لا سيَّما الثروة المائية، والنشاط الصناعي والتجاري، ثمَّ تناولَ بالذكر العمائر والمزارات

---

[١] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٢؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٣٧.

[٢] أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢٠٠.

[٣] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٠.

[٤] سباهي زاده: أوضح المسالك، ص١٤.

[٥] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٤، ٣٩٥.

[٦] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٢٥، ٢٢٦.

الدينيَّة الإسلاميَّة والمسيحيَّة، بالإضافة إلى الخارطة العقائديَّة لعددٍ منْ مُدن بلاد الشام، وبناءً عليه ستتمُّ دراسة نماذجاً من الأماكن المشهُورة في بلادِ الشام **وفقاً لما يأتي:**

أ- ج- نماذجٌ من مُدن الساحل والداخل الشامي وما لَحِقَها من خرابٍ:

تطرَّقَ أبو الفداء إلى ذكرِ عددٍ من مُدنِ الساحل الشامي، وتحدَّث عن ازدهارها تارةً، وعن أُفولِ ازدهارها، وتعرُّضَها للخرابِ والدمار تارةً أُخرى، **ولعلَّ أشهرَهَا:**

1ً- عَسْقَلَانْ:

بفتحِ العين وسُكون السِّين المُهملتين، وفتح القاف، ولام وألف ونون في الآخر، طولُها(نو – ل)، وعرضُها (لبْ – نه)[١]، ذكرَ أبو الفداء أنَّها بلدةٌ من الإقليم الثالث بفلسطين، وفيها آثارٌ قديمةٌ على جانب البحر، بينَها وبينَ غزَّة ثلاثة فراسخ، وهي منْ جُملة الثغور الشاميَّة، وأجلُّ مُدن الشام، وليس بها ميناء، وأهلُها يشربونَ من الآبار الحلوة، وهي في هذا الزمنُ خرابٌ لا ساكنَ بِها[٢]، و ربَّما وصفها أبو الفداء بأنَّها خرابٌ، بسبب التدمير الَّذي حلَّ بها بعدَ الحملة الصليبيَّة الثالثة(٥٨٥- ٥٨٨هـ/ ١١٨٩- ١١٩٢م)، وعدم تعميرُهَا من جديد[٣].

وبالمُقارنة ذكَرَ الحميري الَّذي عاشَ بعد عصر أبو الفداء، بأنَّها مدينة بالشام على ساحلِ البحر، وأشارَ إلى أنَّها عامرة بأيدي الروم في زمنه، وأسواقُهَا مفروشةٌ بالرُّخامِ، وفيها عينُ ماءٌ لإبراهيم عليه السلام، ولها سُوران، وليسَ لها من خارجِهَا بساتينٍ ولا شجرٍ(ربَّما اقتبسَ الحميري وصفَ المدينة من الإدريسي، بدليلِ أنَّه لمْ يشرْ إلى ما فيها من خرابٍ)[٤].

2ً- أَنْطَرْطُوس[٥]:

---

١ وحدَّد ابن سعيد (طولها نو- ـه ، وعرضها لب- نه). ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٤٩، في حين حدَّدَ البيروني(طولها نه- ك ، وعرضها لج). البيروني: القانون المسعودي، ج٢، ص٥٥٦.

٢ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٨، ٢٣٩. في حين وصفت من قبله بأنَّها فريدة بين مدن الشام وعروس الشام أحياناً أُخرى، فقال عنها المقدسي: « مدينةٌ جليلةٌ على البحرِ كثيرة المحارس والفواكه، وهي معدنُ الجميز». المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٤. ووصفَها ابن سعيد المغربي بأنَّها في دخلة من البحر. ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٤٩. وقيل: إنَّه لا يوجدَ بلدٌ يجمعُ من المحاسن ما جمعته عسقلان، إتقاناً وحسنَ وضعةً وأصالةً وجمعاً بين المرافق البريَّة والبحريَّة. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٢.

٣ خبر تدمير عسقلان عند الأصفهاني(محمد بن محمد بن حامد): الفتح القُسِّيّ في الفتحِ القُدسيّ(حروب صلاح الدين)، دار المنار، د. م، ٢٠٠٤م، ص٢٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٦٩، ٣٧٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص٧٣.

٤ الحميري(محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م ، ص٤٢٠، ليقُارن مع وصف الإدريسي الَّذي ذكرَ أنَّها عامرة بأيدي الروم. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٥٦.

٥ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٢٧٠؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٥١.

بفتحِ الهمزةِ وسكُون النون وفتح الطَاء وسكُون الرَّاء المُهملتين وضمّ الطَاء الثانية، ثمَّ واو وسين مهملة[1]، طولها(س)، وعرضها(لد- ي)[2]، أشارَ أبو الفداء أنَّها حصنٌ على بحر الروم، و ثغر لأهلِ حمصَ، وبذلك عمَّقَ فكرة أنَّ المُدن الساحلية الشامية كانت منفذٌ للمُدن الداخلية الحبيسة، وأنَّها أدَّت دوراً مُهمَّاً في تصريف المُنتجات المُتعدِّدة، وبالمُقارنة أكَّد القزويني ذلك، فأشارَ إلى أنَّها حصنٌ على بحرِ الروم، وثغر لأهلِ حمصَ، وذكرَ أنَّ بها مصحف عُثمان بن عفَّان ﷺ، يذهب الناس إليه تبرُّكاً بهِ[3].

3ً- عَكَّا[4]:

بفتحِ العين المُهملة وتشديد الكاف وفتحها، وفي أخرِهَا ألف، طولها(نو- ن) ، وعرضها (لب- ل)[5]، ذكرَ أبو الفداء أنَّها من الإقليم الثالث من سواحل الشام، وأنَّ بداخلِهَا عيناً تُعرفُ بعين البقر، وبها مسجدٌ يُنسبُ إلى النبي صالح ﷺ، وهي الآن خرابٌ بعدما استرجعَها المُسلمون من الصليبيين سنة(٦٩٠هـ/١٢٩١م)[6]، وحديثُهُ عن عكَّا لهُ أهميتهُ لاسيَّما أنَّه شاركَ في تحريرِهَا من أيدي الصليبيين، وكان شاهدُ عياناً على ما أبدَتْهُ الداويَّة والاسبتاريَّة[7] من مقاومةٍ، وقال فيها: « وحضرتُ فتوحَهَا، وحصلَ وحصلَ لي فيها الغزاة»[8].

ورُغمَ معرفة أبو الفداء بعكَّا لكنَّه لمْ يُقدِّمْ وصفاً لدورهَا التجاري والزراعي وكَثَافات السكَّان بها، وبالمُقارنة كانَ المقدسي قد تطرَّق لهذه الناحية فذكرَ أنَّ المدينةَ حصينةٌ و كبيرة الجامع، وعامرة بالسُكَّان، وفيها

---

[1] ابن الأثير(علي بن محمد): اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت، ج١، ص٩٠.

[2] حدَّدَ البيروني(طولها س – ل، وعرضها لج – ن). البيروني: القانون المسعودي، ج٢، ص٥٦٥.

[3] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٢٩؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٥١، وهذا ما أوردَهُ الإدريسي، إذ ذكرَ أنَّها مدينةٌ حصينةٌ على ضفَّةِ البحر، وبها أسواقٌ عامرةٌ وتجاراتٌ دائرة. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٥، مج٢، ٦٤٤.

[4] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٧؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، مج٢، ص٩٥٤؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٢٣.

[5] حدَّدَ ابن سعيد (طولها نح، وعرضها لج- ك). ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٠، وحدَّدَها البيروني(طولها يح- ك، وعرضها لج- ك). البيروني: القانون المسعودي، ج٢، ص٥٥٧.

[6] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٢، ٢٤٣، وخبر فتح عكا عند العسقلاني(شافع بن علي): الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تح: عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ص١٧٧، ١٧٨؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٢٤، ٢٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص٤٧.

[7] عُرفت باسمِ طائفة رهبان القدِّيس يُوحنا، والإسبتار هُم طائفةٌ دينيةٌ أُطلق عليها أيضاً(جمعية الهسبتاليين) شاركت في الأعمال الحربيَّة والأعمال الطبيَّة. الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٨٣٠، ٨٣١؛ الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٨٦، ٨٧؛ لويس(أرشيبالد): القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، تر: أحمد عيسى، القاهرة، ط١، ١٩٦٠م، ص٣٢٩؛ توفيق(عمر كمال): مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ط١، ١٩٥٨م، ص١٩٣؛ سميث(جوناثان رايلي): ماهي الحروب الصليبية، تر: محمد فتحي الشاعر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٧٤.

[8] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٣؛ المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٢٦.

غابةُ زيتون يكفيهَا ويزيدُ عنها، بينما قدَّم الحميري وصفاً للمدينة عندما كانَتْ بأيدِي الصليبيين فذكرَ أنَّها قاعدة مُدن الإفرنج بالشام، ومحطُّ الجواري المُنشآت في البحر كالأعلام، وتشبهُ في عظمتهَا القسطنطينية، وهي مُلتقَى تُجَّار المُسلمين والمسيحيين من كلِّ الأفاقِ، وسِكَكَهَا وشوارعها تغصُّ بالرُّخامِ، وتضيقُ فيها مواطِئ الأقدام، وتسعرُ كُفراً وطُغيانَاً، وتفورُ خنازيراً وُصلباناً، بعدمَا انتزعَها الفَرنج من أيدي المُسلمين، فعادَتْ مساجدهَا كنائساً، وصَوامعها مَضارب للنَواقيسِ، وفي شَرقيها عين البقر التي أخرَجَ اللهُ منها البقرة لآدم عليه السلام، وفيها مسجدُهَا الكبير[١].

4ً- صُوْر[٢]:

بضمِّ الصاد وسُكون الواو، وراء مُهملة في الآخرِ، طولها(نح- له)، و عرضها(لب- م)[٣]، ذكرَ أبو الفداء أنَّها بلدٌ من الإقليم الثالث من سواحلِ الشام، وهي من أحصن الحُصون ويُقال: إنَّها أقدمُ بلدٌ بالساحل، وفيها مَرسَى للسُفن يدخل إليهِ من تحت القنطرة، وعليه سلسلة لمنعِ دخول السُفن، وفُتحت صور سنة(٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)[٤]، ولحقَهَا الخرابُ[٥]، وربَّما أنَّ الخرابَ الَّذي تعرَّضَتْ لهُ مُدن بلاد الشام مَردَّهُ أيضاً الهزَّات والزلازل التي تعرضت لها، وهذا أمرٌ لمْ يَشرْ إليه أبو الفداء[٦].

وبالمُقارنة أشارَ الحميري إلى أنَّ صورَ مدينةٌ بحريَّةٌ، وبِها دارُ الصنعَة، ويُضرَبُ المثلُ بِحصانتِهَا، ولها **بابان:** أحدَهُما في البرِّ والآخر في البحر، ويُحيطُ بها البحر من ثلاث جهاتٍ، ولها ربضٌ يُعمل فيه الزُّجاج والفخَّار، والثيابُ القُمص التي تُصدَّر إلى كلِّ الآفاقِ، وليسَ حولَهَا بساتين، وتجلبُ الفواكه إليها من رساتيقهَا التي حولَها، وكان قد ملكها الفرنج سنة(٥١٨هـ/ ١١٢٤م) في أيام الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله[٧].

---

[١] المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٦٢؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤١٠، ووصفَها الإدريسي بأنَّها مدينةٌ كبيرةٌ واسعة الأرجاء، كثيرةُ الضياع، ميناءها في وسطِ المدينة، وفيها مرسى للسفن يوضعُ له سلسلة لمنعِ دخول السفن وخروجها إلَّا بإذنٍ. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٦٥.

[٢] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٨؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٦٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢١٧.

[٣] حدَّد البيروني(طولها نط- يه، وعرضها لج- م). البيروني: القانون المسعودي، ج٢، ص٥٦٥.

[٤] ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص٤٥، ٤٦؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص١١٣.

[٥] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٢، ٢٤٣.

[٦] ابن القلانسي(حمزة): ذيل تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٣م، ص٥١٥؛ الأصفهاني(محمد بن محمد): البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٢٨؛ البغدادي(عبد اللطيف): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تح: غسان سبانو، دمشق، ١٩٨٣م، ص٩٩؛ ابن الراهب القبطي(بطرس بن أبي الكرم): تاريخه، تح: سركيس، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٧م، ص٧٤.

[٧] الحميري: الروض المعطار، ص٣٦٩.

ب- ج- ذكر الحُصون والقلاع:

اهتمَّ أبو الفداء بإيرادِ مَعلومات مُهمَّة عن الحصون والقلاع التي كان جزءاً مُهمّاً وكبيراً منها تابع للسيادة الصليبية، واستردها المماليك، **ومنها:**

1ً- حُصن الكَرك[1]:

بفتحِ الكاف والراء المُهملة، ثمَّ كاف ثانية في الآخرِ، طولُه(نو- ن)، وعرضه(لا- ل)، ذكرَ أبو الفداء أنَّه من الإقليم الثالثِ في البلقاء، وهو حصنٌ عالي المكان، وأحَّد المعاقل القويَّة التي لا تُرام، ولهُ وادٍ فيه بساتين كثيرة، يُزرعُ فيها المُشمُش والكمثرى والرُّمَّان.

وبالمُقارنة وصفَهُ الحميري بأنَّه من أعظم حُصون المسيحيين، وله نظرٌ عظيمُ الاتساع، مُتَّصل العمارة، ينتهي إلى أربعمئةِ قريةٍ، وتمرُّ بهِ القوافلُ القادمة من مصرَ إلى الشام للتجارةِ[2].

2ً- حصن الأَكْرَاد[3]:

[1] عندما أسَّسَ الصليبيون مملكةَ بيت المقدس اللاتينية سنة (٤٩٢هـ /١٠٩٩م) احتلُّوا منطقة جنوب الأردن في سنتي (٥٠٩ و٥١٠هـ /١١١٥ و١١١٦م) وأسَّسوا بارونية الكرك، وفي سنة(٥٣٧هـ/ ١١٤٢م) استولَّى الصليبيون على حصنِ الكرك، وبقي في أيديهم إلى أنْ حرَّرَهُ صلاح الدين الأيوبي سنة(٥٨٤هـ/ ١١٧٩م). وخبر فتح الكرك عند. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٠، ٢١؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧١، ٢٧٢.

وبقي حصن الكرك بيد الأيوبيين وبعد أنْ آلت السطلة للمماليك صارَ الكرك ملجأ أُمراء البيت الأيوبي، وبقي كذلك إلى أنْ تسلَّمهُ الملك الظاهر بيبرس سنة(٦٦١هـ/ ١٢٦٢م) من صاحبه الملك المغيث عمر بن العادل الأيوبي. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٥٣٣؛ ابن أيبك الدواداري: الدرة الزكية، ج٨، ص٩٦؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٨٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٩، ص٧، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٤٤٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٥٦، ٥٥٧؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ٣٥٧، ٣٥٨.

[2] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٦، ٢٤٧؛ الحميري: الروض المعطار، ص٢٠٢، ٢٠٣.

[3] سار الملك الظاهر بيبرس سنة(٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م) على رأسِ جيشٍ مُتَّجهاً نحوَ حصن الأكراد، ونزلَ عليه ونصبَ المجانيق والستائر، وأخذت الجيوش بدكِّ الحصن إلى أن تسلَّمَه في السنة نفسها. الخبر عند ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ٣٧٥، ٣٨٦؛ العباسي(الحسن بن عبد الله الصفدي): نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من وليَّ مصر من الملوك، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا_ بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٥٤؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٦.

بفتح الهمزة وسُكون الكاف وفتح الرَّاء، وألف ودال مُهملة في الآخرِ، طوله(س– ل)، وعرضها(لد)، ذكرَ أبو الفداء أنَّه قلعةٌ من الإقليمِ الرابع من أعمال حمصَ في غربيهَا على الجبل المُتَّصل بجبل لبنان، ولها ربضٌ، وكانت مقرُّ ولايةَ السلطنة قبلَ فتح طرابلس[١].

3ً- حُصن بُرْزَيْة[٢]:

بضمِ البَاء وسُكون الرَّاء وفَتح الزَّاي المُعجمة وسُكون اليَاء المُثنَّاة، ثمَّ هاء، طولُها (سا)، وعرضها (له-ي)، ذَكَرَ أبو الفداء أنَّهُ قلعةٌ صغيرةٌ مُستطيلةٌ من الإقليم الرابع من جُندِ قنسرين، تقعُ في ذيل الجبل المعروف بالخيط في شرقيها، و تطلُّ على بُحيرة فامية، ويصل إليها مياه البُحيرات والأقصاب، وهي عن فَامية من جِهة الشَمال والغَرب على نحو مرحلة، وليسَ بهَا سُكَّان إلَّا المُرتَّبون على قلعتهَا، ويجتمعُ بها أهلُها أيامَ الجَفل.

وبالمُقارنة وصفَه أبو شَامة المقدسي بأنَّهُ قلعةٌ حصينةٌ في غَاية القُوَّة والمنعة على متن جبلٍ شاهقٍ يُضربُ بها المثل في جَميع بلاد الفَرنج والمُسلمين، ويُحيطُ بها أوديةٌ من سَائرِ جُوانبهَا[٣].

4ً- حُصن كَيْفَا[٤]:

بفتح الكاف وياء مثناة ساكنة، وفاء وألف في آخرِه[٥]، طوله(سد-له) وعرضه(لز- له)، ذكرَ أبو الفداء أنَّه من الإقليم الرَّابع في الجزيرة، و يقع على دَجلة بينَ جزيرة ابن عُمر وميَّا فَارقِين[٦].

5ً- حُصن منصور[٧]:

أشارَ أبو الفداء أنَّه من الإقليم الرابع من جُند قنسرين، طوله(سب- له)، عرضه(لز)، ويقعُ بالقُرب من سميساط جنوب الفرات، وفي غَربيه جبلٍ بينه وبينَ ملطية، وفيه الدربَند إلى ملطية، وبالمُقارنة وصفَهُ الحميري بأنَّه مدينةٌ روميَّةٌ في الثغور الجزريَّة قُربَ سميساط، وله سورٌ من الحجارةِ[١].

---

١ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٨، ٢٥٩.

٢ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٢٩٥، وخبر فتح برزيه عند: ابن شداد(يوسف بن رافع): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م، ص٩٢؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٦٥- ٢٦٧.

٣ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٠، ٢٦١؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ص٣٢.

٤ بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٢٦٥؛ القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٣٥٤.

٥ ابن الأثير: اللباب، ج١، ص٣٦٩.

٦ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨٠، ٢٨١؛ ووصفَ بأنَّه حصنٌ منيعٌ بين آمد وجزيرة ابن عمر. الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص١١٠١.

٧ الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٢٦٥؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٢٩٥، ٢٩٦.

6ً- قلعة حلب:

وصفها أبو الفداء بأنَّها قلعةٌ مرتفعةٌ حصينةٌ، وتشييدهَا على تلٍ على نحوَ صارتْ معهُ لا تُرام من جانب أعدائه.

وبالمُقارنة ذكرَ ابن جبير أنَّها تُسمَّى الشهباء، وهي بائنةُ الارتفاع على مائدةٍ من الأرضِ مُستديرةٍ منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبةِ اعتدال واستواء، عتيقة في الأزلِ حديثة، وإنْ لمْ تزل، ولها خندقٌ عظيمٌ ينبعُ منهُ الماء، ولها سورٌ كبيرٌ من الحجارةِ البيضاء، كلَّه أبراجٍ مُنتظمة فيها العلالي المُنيفة والقصاب المُشرفة، تفتَّحت كلُّها طيقاناً، وكلَّ برجٍ منها مَسكون، وداخلُها المساكن السُلطانية، والمنازلُ الرَّفيعة الملُوكيَّة.

وأشارَ ابن الوردي إلى أنَّ في أساسِها ثمانية آلاف عمود، وهي ظاهرةُ الرؤوس بسفحِهَا، وذكرَ الحميري أنَّها شهيرةُ الامتناع، معدومةُ الشبيه والنظير في القلاع، ويقالُ: إنَّ القلعةَ كانتْ في قديم الزَّمان رَبُوة يأويْ إليها إبراهيم الخليل عليه السلام بغُنيماتٍ يحلبُها هُناك، ويتصدَّق بحليبهَا ولذلك سُمِّيتْ مدينتُها حلبَ[٢].

7ً- قلعة شَيْزَر[٣]:

بفتح الشِين المُعجمة وسُكون اليَاء وفتح الزَّاي، وفي آخرِهَا راء مُهملة[٤] طولها(سا- ي)، وعرضها(لد- ن)، ذكرَ أبو الفداء أنَّها من الإقليم الرابع من جُند حمص، وهي قلعةٌ حصينةٌ يمرُّ من شماليهَا نهر العاصي، ومدينتها ذاتُ أشجارٍ وبساتينٍ وفواكه، وحقيقة الأمر أنَّ أبا الفداء لمْ يَذكُرْ أنَّها تعرَّضت لزلزالٍ دمَّرها سنة(٥٥٢هـ/١١٥٧م)[٥]، وبالمقارنة وصِفَت بأنَّها قلعةٌ لا تُرام، و يمرُّ بجنبِهَا نهر العاصي الَّذي يسقيَ الأراضي عن طريق سكرٍ ارتفاعهِ عشرة أذرُع، و يُكثَرُ حولُهَا الفواكه[٦].

---

[١] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٨، ٢٦٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص٢٠٣. ووصفَهُ ابن حوقل بأنَّه حصنٌ صغيرٌ فيهِ منبرٌ وزرعةٌ عدي، وبهِ مُزدرعٌ، وهو في مستوٍ من الأرضِ شمال النهر الأزرق، وهو خرابُ الآن. ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٨١.

[٢] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٧؛ ابن جبير: الرحلة، ص٢٢٥، ٢٢٦؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٠٨؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٩٧، وقدَّمَ الحازمي وصفاً جميلاً لحلب وقلعتها للمزيد. الحازمي(محمد بن موسى): ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، تح: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٩٥م، ج١، ص٣٧٥.

[٣] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٥؛ البكري: معجم ما استعجم، ج٢، ص٨١٨؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٤٥.

[٤] ابن الأثير: اللباب، ج٢، ص٢٢٥.

[٥] السيوطي(عبد الرحمن): كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تح: محمد كمال الدين عز الدين، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٨٨؛ ابن قاضي شهبة(أبو بكر بن أحمد): الكواكب الدرية في السيرة النورية، تح: محمود زايد، بيروت، ١٩٧١م، ص١٥٣.

[٦] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٢، ٢٦٣؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٤٢٩.

ج- ج- النشاط الاقتصادي في مدن بلاد الشام:

حقيقةُ الأمر أنَّ أبا الفداء لمْ يُقدِّم مادَّة ثريَّة عن النشاط الحرفي، والصناعي، و التجاري، والزراعي لِمُدُن بلاد الشام، وكلّ ما أوردَهُ كانَ عبارةٌ عن إشاراتٍ بسيطة لبعض المُدُنِ.

ولعلَّ أهمَّ **ما ذَكَرَهُ:**

1ً- مدينة كَفَرْ طَاب[1]:

بفتحِ الكَاف والفَاء وسُكُون الرَّاء وفتحُ الطَاء المُهمَلتين، ثمَّ ألف وباء مُوحَّدة، طولها(سا- ل)، وعرضها(لد- مه)، ذكرَ أبو الفداء أنَّها بلدةٌ صغيرةٌ، قليلةُ الماء من الإقليمِ الرابع من جُند حمصَ على الطريق بين شيزر ومعرَّة النُّعمَان، تشتهرُ بصناعة القُدُور الخزفِيَّة، ويُجلب إلى غيرهَا.

و بالمُقارنة ذكَرَ الحميري أنَّها سُمِّيت كَفَرْ طَابْ؛ لأنَّ حولها أرضاً كريمةً، وثمار كثيرة من الزيتونِ والرُّمَّان والكروم ، وهي صحيحةُ الهواء ومَن يسكنُها لا يكادُ يمرض، وليسَ لها ماء إلَّا الأمطار، ومن قلَّةِ مائهَا يَتَبَايَعُ فيها الماء ثلاثَ مرَّات، لأنَّ أصحابَ الحمَّاماتُ يبتاعونَهُ من السَقَّائين ويجمعونَ فضلاتَ ما يخرج منه من الحمَّامات في صهاريجٍ، فيشتريَه منهُم الدبَّاغُون، ثمَّ يجمع الدبَّاغُون فضلاتَه، فيبيعونَه لَّلذينَ يصنعونَ اللُبن للبُنيانِ[2].

2ً- الباب[3]:

ذكرَ أبو الفداء أنَّها من الإقليم الرابع من جُندِ قنّْسرِين، طولها(سب- به)، وعرضها(لو)، وهي بلدةٌ صغيرةٌ ذاتُ أسواقٍ، وفيها حمَّامٌ، وجامعٌ، وبَساتينٌ[4].

3ً- سَرْمِيّن[5]:

بفتحِ السِين وسُكُون الرَّاء المُهمَلتين وكسر الميم، ثمَّ ياء مُثنَّاة ونون في آخرِهَا، طولها(سا- ن)، وعرضها(له- به)، أشارَ أبو الفداء أنَّها من الإقليم الرابع من أعمال حلبَ على مُنتَصفِ الطريق بينَها

---

[1] البكري: معجم ما استعجم، ج٢، ص١١٣١؛ الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٤٧٠؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٥٥٢، ٥٥٣.

[2] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٢، ٢٦٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص٥٠٠.

[3] الحموي: معجم البلدان، مج١،ص٣٠٣؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص١٨٥.

[4] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٦، ٢٦٧. ووصفَها ابن جبير بأنَّها قريةٌ كبيرةٌ بين بزاغة وحلب ذاتُ أسواقٍ وبساتينٍ. ابن جبير: الرحلة، ص٢٢٤.

[5] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٥؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، مج٢، ص٧١٠؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٣٨٢.

وبينَ معرّة النُّعمَان، وهي بلدةٌ ذاتُ أشجارٍ كثيرةٍ وزيتونٍ، وعمل مُتَّسع ليسَ فيها ماء إلَّا ماء الأمطار، وهي ذاتُ خصبٍ ومسجدٍ جامعٍ، وسوقٍ يبتاعُ فيه وليس لها سورٌ [١].

4ً- البِيْرَه[٢]:

بكسرِ الباء وسُكُون الياء ثمَّ راء مُهملة وفي آخرِهَا هاء، طولهَا(سب- ل) ، وعرضهَا(لو- ن)، حدَّدَهَا أبو الفداء بأنَّها من الإقليم الرابع مِن جُندِ قنّسرين، وهي قلعةٌ حصينةٌ على حافَّةِ نهر الفُرات على البرِّ الشَرقِي، لا تُرامْ شرق قلعة الرُّوم، ولها وادٍ يُعرفُ بوادي الزيتون، وهي بلدةٌ ذاتُ أسواقٍ[٣].

5ً- يَافا:

بفتح المُثنَّاة من تحت، وألف وفاء وألف في آخرِهَا، طولها(نو- م)، وعرضها(لب- ك)[٤]، ذكرَ أبو الفداء أنَّهَا من الإقليم الثالث من فلسطينَ غرب الرَّملة على بُعدِ ستَّةِ أميالٍ منها، وهي مدينةٌ ساحليةٌ كثيرةُ الرَّخاء، ومِنَ الفُرض المشهُورة، عامرةٌ بالأسواقِ، وفيها وكلَاء للتجارة، ولها ميناءٌ ترسي فيه السُفن القادمة إلى فلسطين[٥].

ويُستنتَج أنَّ يافا كانتْ على مدى الحُروب الصليبيَّة ميناء بيت المَقدِس، ويَقدِمُ الحُجَّاج إلى ذلك الميناء للوصول إلى المدينة المُقدَّسَة[٦].

د- ج- مصادر المياه:

تناولَ أبو الفداء في كتابهِ الحديث عن أهمَّ مصادرِ المياه في مُدنِ بلاد الشام، فأشَارَ إلى أنَّ بعضَ المُدنُ تعتمد على مياه الأمطار في ريِّ الأراضي الزراعيَّة، وفي شُربِهَا، ومثالها ما ذكرَه عن مدينة سرمين التي

---

١ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٤، ٢٦٥.

٢ هُناك مناطق عدَّة حملتْ اسم البيرة، منها البيرة شمال القُدس، والبيرة بين حلب والثغور البيزنطية ، والبيرة في الأندلس، ابن حزم الأندلسي(علي بن أحمد): طوق الحمامة في الألفة والألاف، تح: الطاهر المكي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص١٦٢؛ ابن ناظر الجيش(محمد بن يوسف): تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تح: رودلف فسلى، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٩٩-١٠١؛ ذنون طه(عبد الواحد): الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقية والأندلس، بغداد، ١٩٨٢م، ص٢١٧-٢٢٠؛ أرسلان(شكيب): الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، بيروت، د. ت، ج١، ص١٨٠.

٣ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٨، ٢٦٩. وقال عنها ابن سعيد المغربي: « وقلعتها على صخرة، وهي الآن ثغرُ الإسلام في وجهِ المغول، وهي فرضة على الفرات». ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٥.

٤ حدَّد البيروني(طولها نو- ك، وعرضها لج). البيروني: القانون المسعودي، ج٢، ص٥٥٦.

٥ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٨، ٢٣٩، وللمزيد: الحميري: الروض المعطار، ص٦١٥.

٦ للمزيد: سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٦٥١، ٦٥٢.

تمَّ تناولها، وكذلك مدينة القُدس التي لا يوجدْ فيها مياهٌ جاريةً سوَى بعضِ العيون، وهي لا تتَّسعْ لأمرِ المَزروعات وريْهَا، فقرَّرَ أنَّ كلَّ فلسطينُ تعتمد على مياه الأمطار في ريِّ أراضِيهَا[١]
ومن جهةٍ أُخرى أوردَ أبو الفداء ذكراً لعددٍ من المُدن التي تعتمد على مياه الأنهار في ريِّ الأراضي الزراعيَّة، **ولعلَّ من أهمِّهَا:**

1ً- صَيْدَا[٢]**:**

بفتحِ الصَاد وسُكُون الياء وفتح الدَّال، وألف في آخرِهَا، طولها(نح- به)، وعرضها(لح)[٣]، ذكرَ أبو الفداء أنَّها بلدةٌ من الإقليم الثالث من سواحل الشام، وهي بلدةٌ صغيرةٌ ذاتُ حصنٍ، في نهايةِ الحُسنِ من الأشجارِ والأنهارِ، وبالمقارنة ذكرَ الحميري أنَّها مُحدقةٌ بالبساتينِ والأشجارِ، وغزيرةُ المياه[٤].

2ً- مدينة حَماة[٥]**:**

بفتح الحَاء المُهملة، وميم وألف وهاء في آخرِهَا، طولها مُحقَّق(سا- نه) وعرضها(لد- مه)، وقد قدَّم أبو الفداء وصفاً جميلاً لموطنه الحبيب حَماة، فذكرَ أنَّها من الإقليم الرابع من الشام بينَ حمصَ وقنْسرين، وهي مدينةٌ أوليَّةٌ، وبلدةٌ قديمةٌ من أنزَهِ البلاد الشاميَّة، ويستديرُ نهر العاصي على غالبهَا من شرقيها وشماليهَا، ولها قلعةٌ حسنةُ البناء مُرتفعة، وفي داخلِهَا الأرحِية على الماء، وبِهَا نواعيرٌ على العاصي تسقي أكبرُ بساتينها، ويدخل منها الماء إلى كثيرٍ من دورهَا وبالمُقارنَة وصفهَا الهروي بأنَّها بلدةٌ قديمةٌ لها ذكر في التوراة، وهي مخصوصةٌ بكُثرَةِ النواعير، و أشارَ ابن الوردي إلى أنَّ المدينةَ قديمةٌ على عهد سُليمان بن داود عليهما السلام، واسمُها باليونانيَّة حاموثا، بينما ذكرَ الحميري أنَّها مدينةٌ طيّبةٌ في وسطِها نهر العاصي وعليه جسور ونواعير، وخارجُها فسيح عريض فيهِ شجر الأعناب، والمزارع والمحارث والبساتين على شطَّيِّ النهر[٦].

---

[١] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤١.

[٢] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٧؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٦٠.

[٣] حدَّد البيروني (طولها نط – ك، وعرضها لج – مه). البيروني: القانون المسعودي، ج٢، ص٥٦١.

[٤] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٨، ٢٤٩. الحميري: الروض المعطار، ص٣٧٣. ووصفَها الإدريسي بأنَّها مدينةٌ على ساحل البحر، وعليها سور حجارة، وهي مدينةٌ كبيرةٌ عامرةٌ بالأسواقِ، رخيصةُ الأسعار، مُحدَقة بالبساتينِ والأشجار، وكثيرةُ الينابيع وغزيرة المياه، تتَّصلُ بجبلِ لبنان، ليمرَّ إليها مجرى وادي الحرِّ المشهور بالخصبِ وكثرة الفواكه. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٠، وقيل: إنَّها تشتهر بزراعة الكروم والأترج. شيخو(لويس): مجاني الأدب في حدائق العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٨٨٢م، ج١، ص١٨٩.

[٥] ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٧٧؛ البكري: معجم ما استعجم، ج٢، ص٤٦٦.

[٦] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٢، ٢٦٣؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٧؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٠٨؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٩٩، وللمزيد عن نواعير حماه: الكيلاني(أحمد): حماه مدينة النواعير، حماه،

هـ- ج- الخارطة المذهبيَّة والعقائديَّة في بلادِ الشام:

لمْ يُقدِّمْ أبو الفداء سوى إشاراتٍ بسيطة عن الخارطةِ المذهبيَّة و العقائديَّة في مُدُنِ بلادِ الشام، فأغفلَ ذكرُ أماكنَ وجود المُسلمين والمسيحيين، وركَّز في حديثِهِ على كُلٍّ من:

1ً- السامرة في نَابُلُس:

بفتحِ النون وألف، وضمّ الباء واللَام، وسين مُهملة في الآخرِ[١] طولها(نز- ل)، وعرضها(لب- ي)، ذكرَ أبو الفداء أنَّها مدينةٌ من الإقليمِ الثالثِ من الأُردُن، ارتبطَ بها السَّامرة، ولهم بظاهرِهَا جبلٍ يحْجُّونَ إليه، وأكَّد أنَّ ارتباطَهُم بها حتَّى بعدَ انصرام الحُروب الصليبيَّة، وبالمُقارنة أشارَ شيخ الرَّبوة إلى أنَّ نابلسَ عاصمةُ إقليم السَّامرة، وهذا ما ذكرهُ ابن الوردي[٢].

2ً- الصَابِئَة في بَعلَبَك:

بفتحِ الباء المُوحَّدة وسُكُون العين، وفتح اللام والباء، ثمَّ كاف في الآخرِ، طولها(س)، وعرضُها(لح- ن)، حدَّدها أبو الفداء في الإقليم الرابع من أعمال دمشقَ، وأشارَ إلى وجود عناصر الصَابِئَة فيها، و لهُم فيها مذبحٌ يقولونَ: إنَّه من بيوتِهُم، وهو معظَّمٌ لديهُم بدرجةٍ كبيرةٍ، ووجودهم يدلُّ على تسامُحِ المسلمين حيالَهُم، وإنَّ وجودَهُم كان منذُ زمنٍ طويلٍ، وهذا الأمرُ لمْ يَشِرْ إليهِ غَيرَهُ[٣].

- و أورد أبو الفداء ذكراً للمزاراتِ الدينيَّة، فَمن مزارات المُسلمين قبرُ هاشم بن عبد المناف في غزَّة، وقبرُ عُقيل بن أبي طالب في بَزَاغة شمال شرق حلب، كما أشارَ إلى وجود قبر إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب عليهم السلام في بيت حبرون، وفيما يخصُّ المسيحيّينَ أشارَ إلى وجودِ كنيسة القيامة ببيتِ المقدس،

د. ت، ص٣-٦؛ زقزوق(عبد الرزاق): النواعير أهم وسائل الري القديمة، دمشق، ١٩٩٢م، ص٦٥؛ عدرة(هشام): النواعير في مدينة حماه، مجلة المنهل، ١٩٩٤م، العدد ٥١٢، ص٩٦-١٠٣.

[١] السمعاني(عبد الكريم بن محمد): الأنساب، تح: عبد الرحمن بن المعلمي اليماني، دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد، ١٩٧٧م ، ج١٣، ص٣.

[٢] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤١. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٠١، بينما يَرى الإدريسي ذلك أنَّه مُجردُ زعمُ، إذ قال عنها: « إنَّها مدينةُ السامرية، وبزعمِ أهل بيت المقدس أنَّ السامرة موجودون فيها فقط، وهذا مجرَّدُ ادعاءٌ». الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٣٥٦. في حين وصفَها ابن حوقل بقوله: « نابلسُ مدينةُ السامرية». ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥٩. وأكَّدَ البكري ذلك بقوله: « نابلس كثيرة اليهود، وهُم سامرية، وهي بلد السامرية». البكري: المسالك والممالك، ج١، ص٤٦٥. ويُرى أنَّ اليعقوبي خالفهم في ذلك فقال: « نابلسُ مدينةٌ قديمةٌ، و بها اختلاط من العرب والسامرة». اليعقوبي: البلدان، ص١١٦ .

[٣] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٤، ٢٥٥؛ وذكر الحميري أنَّ تسميتها جاءت من اسم الصنم الَّذي كان يعبدَهُ أهلُهَا، وهو بعلا، والبعل بلغةِ اليمن يعني الربّ، فسمِّيت بعبادةِ أهلِها بعلا، واسمُ الموضع بك. الحميري: الروض المعطار، ص١٠٩؛ وللمزيد: القزويني: آثار البلاد، ص١٥٦؛ رفاعي(قاسم): بعلبك في التاريخ دراسة شاملة لتاريخها ومساجدها ومدارسها وعلمائها، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م، ص٢٧.

وذكرَ تعظيمهم لها، كذلك أوردَ ذكراً للمزارات الاستشفائية التي قَدِمَ إليها المُعاصرون للعلاج، لا سيَّما مزارات طبريَّة التي يوجد فيها ماءٌ حارٌ يُستَشفَى بهِ[١].

د- المآخذ على الكتاب:

على الرغْمِ من أهمِّيَّة المعلومات التي قدَّمها أبو الفداء في كتابِهِ" تقويم البلدان"، إلَّا أنَّ هُناكَ مآخذ عدَّة يُمكنُ مُلاحظتها من خلال تتبُّع الكتاب، **فمنها:**

لعلَّ أكبرَ خطأٌ وقعَ به أبو الفداء أنَّه ضمَّنَ مدينة تدمر الواقعة في البادية السورية وجَدوَلَهَا ضمنَ الحديث عن إقليم جزيرة العرب(إقليم الحجاز)، وهذا مِنْ الأخطاء الكُبرى، خاصَّة أنَّه جُغرافيٌّ شاميٌّ[٢]، و ظهرَ أبو الفداء بأنَّهُ جُغرافيٌّ ناقلٌ جمَّاعٌ لمؤلفاتِ من سبقَه من الجُغرافيين، اقتصرَ في عمله على جمعِ وترتيبِ مُتفرِّقات كُتب من سبقَهُ، حتَّى فكرة تنظيم الأماكن الجُغرافية وتبويبِهَا في جداولٍ فلكيَّة لمْ تكُن من إبداعه، إنَّما استَقَاهَا من الطبيب ابن جزله، فهو لمْ يأتِ بشيءٍ جديد يُنسب إليه دونَ سواه[٣].

ورُغمَ نقده لِمَن تقدَّمَه منَ الجُغرافيين إلَّا أنَّه لمْ يُقدِّم رؤية تفوقَهم من الناحية العلمية ولمْ يكنْ من المُجدِّدين، وخاصَّة إذا لُوحظَ أنَّ روحَ النقد لا تتجلَّى إلَّا في صدر الكتاب، ولمْ تتوفرْ في داخلِهِ، فهو لمْ يسلم من الأخطاء التي انتقدَ فيهَا سابقِيه، لا سيَّما نقدَهُ لكتاب" المسالك والممالك"، وهُنا يوجَّهُ لهُ النقد ذاته، فلمْ يُعطِ أقطارَ أوربَّة – خاصةً الشَماليَّة والغربيَّة – اهتماماً ولمْ يوردْ عنها إلَّا القليلُ النادرُ؛ لعدمِ توفُّر مادَّتَهُ العلمية والوصفيَّة الكاملة، إضافةً إلى وجود أخطاءٍ في مادَّته عندَ حديثه عن بعضِ الأقطار، لا سيَّما وصفَهُ لأفريقية الجنوبيَّة، فهو يمثِّل تقهقراً علميَّاً مُقارنَةً مع البيروني.

إضافةً إلى الخلطِ في معلوماتِهِ، لاسيَّما القسم الخاص بالهند، ومنها الروايَة التي نقلَهَا عن ابن سعيد المغربي و زَعمَ فيها خطأً أنَّ البيروني من مدينة هنديَّة، وأيضاً تخبَّط في معلوماتِهِ التي أوردَها عن الصين في بداية كتابه وجاءتْ مُختصرة ومقتضبة لا تَتعدَّى ما ذكره غيره من الجُغرافيين، وعلَّلَ ذلك بعدم وصول رحَّالة من جهاتِهَا يخبرونَهُ بمَا فيها من الأماكنِ[٤]، مع العلمِ أنَّ أبا الفداء ناقض ما بدأ الحديثَ عنهُ بأنَّ دافعَهُ لتأليفِ الكتاب هو أنَّ كتبَ من سبقَهُ من الجغرافيين لمْ تُحصِ بلاد الإسلام عن آخرِهَا، ولمْ تتحدَّث عن الصين، وبلاد البَلغَار، و الجَركس، والرُّوس، ومع تصريحِه بذلك يُرى أنَّه أهملَ هذا الجانبُ، وما تحدَّث عنهُ تخبَّطَ بهِ علميَّاً، ومن هُنا يُفسَّر اهتمامُهُ كثيراً ببلادِ الشام، والبلاد المُجاورة التي زارها إذ توفَّرت لهُ المادَّة العلمية مع مُشاهداته[٥].

---

[١] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٦٧.

[٢] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٨٨، ٨٩.

[٣] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣.

[٤] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٦٣.

[٥] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢.

وإنَّ اتِّباعَهُ أسلوبُ الاختصار أفقدَ الكتابُ كثيراً من أهميَّتِهِ لا سيَّما اختصارَهُ في الحديثِ عن مُدن بلاد الشام الكُبرى مثل القُدس، وحَلَب، ودمشق، وحمص، و غيرها، ورُغمَ تأخُّره الزمني لكنَّه لم يَفُقْ بعمل تقويم البُلدان من سبَقَهُ، وإذا ما قُرِنَ بياقوت الحموي، يُلاحظ أنَّ كتاب أبو الفداء مُختصرٌ، بينمَا قدَّمَ الحموي مادَّة علميَّة تَنمُّ عن ثراء مادَّته الجُغرافيَّة، و التاريخيَّة، والأدبيَّة، والفلكلوريَّة، وهذا الشيءُ من النادر رؤيته عند أبي الفداء[١].

٣- ابن فضلُ الله العُمري، أحمد بن يحيى الدمشقي(ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

أ- التعريف بالمؤلف:

شهاب الدِّين أبو العباس، أحمد بن يحيى بن محمَّد بن فضل الله العُمري الشافعي، المعروف بابن فضل الله الكاتب الدمشقي، ينتَسب العُمري لأُسرة سوريَّة تنحدرُ من سُلالة الخليفة عُمر بن الخطَّاب ﷺ، ومن ذلك نسبتَهُم آل العُمري، أمَّا أجداده الأقربون فاستقرُّوا مدَّة في منطقة البرلس بمصر السُفلى، لكنَّهم كانوا يشعرونَ أنَّهم أكثر ارتباطاً بدمشق من مصر، فاحتفظوا بِكنية الدمشقي نسبة أصليَّة لهم[٢].

ولِدَ العُمري في دمشق سنة(٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، ونشأ في بيئةٍ علميةٍ وأُسرة ذاتُ مكانةٍ رفيعةٍ تشتغلُ بالعلم، فقد كانَ والده أديباً وكاتباً للسرِّ[٣]، وعملَ أخوهُ بدر الدِّين مُحمَّد(ت ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م) بكتابة السرِّ[٤]، أمَّا أخيه علاء الدِّين علي(ت ٧٦٩هـ/ ١٣٦٨م) فقد تولَّى ديوان الإنشاء بمصرَ[٥]، ترعرع العُمري وأتمَّ دراستَهُ في دمشق وتلقَّى علومه الدينيَّة والعربيَّة على شيوخها[٦]، وتتلمذَ على أساتذةٍ بارزين في مُختلف فروع المعرفة، فقرأ الأدبُ على والدَه يحيى(ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)[٧]، وعلى بُرهان الدِّين بن الفُركَاح الَّذي تتلمَذَ عليه حتَّى في الجُغرافية، وتتلمذَ في البلاغة على شهاب الدِّين محمود الحلبي[٨]،

---

١ مثالها ما أوردَهُ من معلوماتٍ بسيطةٍ عن حلب، وحمص، وغيرها. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦١، ٢٦٦.

٢ الذهبي: المعجم المختص، ص٤٥، ٤٦؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٥٧- ١٦١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٢٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٨٥؛ السخاوي(محمد بن عبد الرحمن): الذيل التام على دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار العروبة، الكويت، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص١٠٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٥٣٣؛ ابن القاضي المكناسي: درة الحجال، ج١، ص١٨، ١٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٦٠.

٣ الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٥٧١- ٥٧٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٢٩.

٤ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٥، ص٢١١، ٢١٢؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٥، ص٥٣.

٥ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج١، ص١٦١.

٦ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢٠٩.

٧ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، مج٣، ص١٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٦٠.

٨ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٥٤، ٢٥٥؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، مج٣، ص١٨، ١٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٢٦٣.

وتعلَّم الفقه على محمَّد بن المجد الإربلي(ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)[١]، وتلقَّى العروض وعلوم البلاغة على يد الشيخ شمس الدِّين محمَّد بن الصائغ(ت ٧٢٢هـ/ ١٣٢١م)[٢].

وفي سنة(٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) انتقلَ العُمري مع والده من دمشق إلى مصر وفيها وُلِّيَ والده كاتبة السرِّ، وأصبحَ العُمري يقرأُ البريدَ على السُلطان الناصر محمد بن قلاوون، ثمَّ ولاهُ ديوان الإنشاء[٣]، وفي عام(٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) كانَ عضواً في بعثة الحجِّ المصريَّة ولكنْ حِدَّة طباعه ساقتْهُ لخلافٍ مع السُلطان وفُقدان منصبَه سنة(٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)[٤]، فقامَ السُلطان الناصر بعزلِهِ لا سيَّما بعدما أظهرَ العُمري انزعاجَهُ من قيام الناصر بتعيين رجلٍ قُبطي في كتابة السرِّ وقال للسُلطان: خدمتُكَ عليَّ حرامٌ، وبرر بعضَهُم أسباب عزلَهُ بأنَّه فاجأ السُلطان بكلامٍ غليظٍ، فإنَّه كان قويُّ النفسَ، وأخلاقهُ شرِسة، فأبْعَدَهُ السُلطان، وصادَره وسجنَه بالقلعةِ[٥]، ومنهُم من قالَ: إنَّ سببَ ذلك ما ذُكِرَ من موقفه الإيجابي من الفاطميين ومديحه لهُم في قصيدةٍ ما يدعو للتأمُّل، كما أنَّ انصرافَهُ عن ديوان الإنشاء كان في السنة نفسِهَا التي توفِّي فيها والده أي سنة(٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)، ولعلَّ مكانة والده المميَّزة لدَى السُلطان، كانتْ تحولَ دونَ إصابته بغضب السُلطان[٦]، فأُجبر على التزام بيته وعُيِّنَ مكانَهُ أخوه، وبعدَ مدَّة رفعَ العُمري كتاباً إلى السُلطان يطلبُ منه أنْ يُغادرَ إلى الشامَ لكنْ السُلطان أمرَ باعتقاله سنة(٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) وزادَ أمره سوءاً عندما اتُّهِمَ بتزويرِهِ توقيعٍ، فأمرَ السُلطان بقطع يده[٧].

وخلالَ المُدَّة السابقة مالَ العُمري للتخصُّص في علوم الفقه وأُذِن له بالإفتاء على المذهب الشافعي[٨] وتعلَّم اللغة وبرع في الكتابة والإنشاء، فشهدَ له ابن الوردي بذلك وقال عنهُ: « ومعرفتُهُ في الإنشاءِ معروفة»[٩]، و لبثَ العُمري رجُلَ البحث والدرس، وعُنِيَ عنايةً خاصَّة بدرس الجُغرافية الطبيعيَّة والسياسيَّة، والممالك وطبائعها و خواصها، ودرسَ تواريخ الأمُم وأحوالها وعجائبها، ودرسَ الفلك[١٠] ومما

---

[١] ابن رافع السلامي: الوفيات، مج١، ص٢٠٦، ٢٠٧.

[٢] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٥٤، ٢٥٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٢٦٣.

[٣] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٣٣.

[٤] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٦٠.

[٥] ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، مج٣، ص١٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٦٠.

[٦] ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٥.

[٧] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٣٢، ٣٣٣.

Salibi. K; Lists Chronologiques Des Groends Cadis De Le Egypte Sous Les Mamellouk RETI XXV, , Fadl Allah El Emri, II, Paris, 1957, pp 732, 733.

[٨] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٥٤.

[٩] ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٥٠٣.

[١٠] عنان: مؤرخو مصر، ص٦٩.

يدلُّ على ذلك قوله الصفدي فيه: « وأمَّا معرفته بالمسالك والممالكِ، وخطوطِ الأقاليم، ومواقع البلدان وخواصها، فإنَّه فيها إمامَ وقتُهُ، وكذلك معرفة الإسطرلاب وحلِّ التقويم، و صوَّر الكواكب»[١]، و فوقَ هذا كان العُمري مُحبَّاً للرِّحلة والارتحال والانتقَال من مكانٍ إلى مكانٍ رغبة في رُؤية كلِّ غريبٍ، والاطلاع على العجائب والسياحة[٢] و يدلُّ على ذلك قوله في مقدِّمة كتابه: « فلمَّا كانت النفوسَ لا يصلحها إلَّا التنقُّل من حالٍ إلى حالٍ والتوقُّلِ على شُرفاتِ الشدِّ، والارتحَال للاطلاعِ على الغرائب، والاستطلاع للعجائبِ»[٣].

ولمْ يتوقَّفْ العُمري عند هذه العلومُ، بل برعَ في الأدب، فقال فيه ابن رافع السلامي: « الإمامُ الأديبُ البارعُ»[٤]، وتعلَّم الشعر ونال منه علماً وافراً، وعن شهرته به قال ابن تُغرِي بُردِي: « كان إماماً بارعاً ناظماً ناثراً»[٥]، وقال فيه ابن حَجَرَ العسقلاني: « ولهُ اقتدارٌ على النُظُم والنثر»[٦]، وقال فيه السخَّاوي: « الإمامُ الفائقُ في النُظُم والنثر»[٧]، وتعلَّم العُمري البلاغة على عدد من الأساتذة، وكان بارعاً فيها، وشهِد بذلك القلقشندي، فقال: « مَلِكُ الكتابة، وإمامها، وسُلطان البلاغة ومالك زِمامها»[٨].

يُعدُّ العُمري عالماً تبحَّر في علوم الأدبِ، واعتمدَ على مُطالعاته الخاصَّة، فجاء منه مؤرِّخٌ، وجُغرافيٌّ، وفلكيٌّ، وسياسيٌّ، ومُهندسٌ[٩]، إذ كانَ ذو شخصيةً فذَّة فريدة في التاريخِ، فهو لمْ يعشَ أكثر من تسع وأربعين سنة، فإذا أُسقطَ من عمره سنوات طفولته ومدَّة تحصيله العلمي في سنوات يفَاعِه التي تتلمذَ فيها على صَفوةِ عُلماء العصر، وسنوات المِحنة التي تعرَّضَ لها، لمْ يُستَطَعْ أن يُخفِ دهشةً ليس إلى تجاهلها من سبيل، لأنَّ الآثار العلميَّة لابنُ فضل الله العمري تكون قد كُتبت في أقلِّ من خمسٍ وعشرين سنة مُزدَحمة إلى جانب ذلك بهموم الوزارة، ورئاسة ديوان الإنشاء[١٠]، وزادَتْ مُصنَّفَاته على أحَّد عشر مُصنَّفَاً اشتملَتْ على مُجلَّد لخدمة كاتب الدولة اسمهُ" التعريف بالمُصطلحِ الشريف"[١١] نُشِرَ بالقاهرة سنة(١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م) ويُعدُّ مصدراً مُهمَّاً في التاريخ والجُغرافية التاريخيَّة.

---

١ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص ٢٥٤.

٢ رمضان: الرحلة والرحالة، ص٢١٢.

٣ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٧.

٤ ابن رافع السلامي: الوفيات، مج٢، ص١١٢.

٥ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٢٦٥.

٦ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٣٣.

٧ السخاوي: الذيل التام، ص١٠٥.

٨ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص٣٢.

٩ كرد علي: كنوز الأجداد، ص٣٧٥، ٣٧٦.

١٠ الشكعة(مصطفى): مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٩١م، ص٧٤٢.

١١ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، مج٣، ص١٩.

ويرجع تأليفه إلى سنة(٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)[1] وهو على سبعة أقسامٍ، ولعلَّ القسمَ الخامسُ منهُ في الجُغرافية التاريخيَّة يبحثُ في نطاق كلِّ مملكةٍ، وما هو مضافٌ إليها من القلاع، والأماكن، والمُدن، و الرساتيق، ولهذا الكتابُ أهمِّيَّةٌ كبرى من الناحية العلمية، فهو مصدرٌ حافلٌ لكثيرٍ من الموضوعات التي استندَ في كتابتها على الوثائق الرسميَّة للدولة[2].

وللعُمري مُصنَّفات مُهمَّة في التاريخ والجُغرافية منها:" ممالك عُبَّاد الصليب"، و" الدائرة بينَ مكَّة والبلاد"[3]، ومن كتبه ما يتَّصل بالإنشاء، مثل كتاب" النُبذة الكافيَة في معرفة الكتابة و القافية"[4]، ومنها ومنها في الأدب، مثل كتاب" نَفحَةُ الرَّوضة" [5] و" سَفرَة السافر ويقظةُ المُسافر"[6]، ومجموعة" رسائل الشَتويَّات" وتشملُ على رسائلٍ أرسلَهَا في شتاء(٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) من دمشق إلى عددٍ من المُتعلِّمين[7].

إضافةً إلى عددٍ من المُصنَّفات في مجالاتٍ عدَّة منها، رسالة تشتملُ على كلامٍ إجماليٍّ في مشاهير الممالك[8]، و"صبابة المُشتَاق في المَدحِ النبويّ"[9]، وله" تذكِرةُ الخَاطِر"[10]، و" حُسنُ الوفَاء لمشَاهيرُ الخُلفاء"[11]، و" الدعوة المُستَجَابة"[12]، و" دمعَةُ البَاكِي ويقظةُ الشَّاكِي"[13]، و" ذهبيَّةُ العَصر"، ترجمَ فيه لمشاهيرِ المئة الثامنة من مُعاصريه وذكَرَ أشعارَهُم وأخبارَهُم[14]، و" فواضل السَّمر في فضَائلِ آل عُمر" في أربع مُجلَّداتٍ[15]، و" الجواهر المُلتقَطَة"[1].

---

[1] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١٠؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٤٨؛ سركيس: معجم المطبوعات، ج١، ص٢٠٤؛ الزناتي: دراسات تحليلية، ص٣٣٠؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٣، ٢٠٤؛ فروخ(عمر): تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٤م، ج٣، ص٧٦٣.

[2] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١١.

[3] الزركلي: الأعلام، ج١، ص٢٦٨.

[4] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٦٠؛ الزناتي: دراسات تحليلية، ص٣٣٠؛ عنان: مؤرخو مصر، ص٧١.

[5] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٥٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٢٦٥.

[6] الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج٨، ص٢٥٥؛ الكتبي: فوات الوفيات ، ج١، ص١٦٠.

[7] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٦٠؛ الشكعة: مناهج التأليف، ص٧٤٣.

[8] سركيس: معجم المطبوعات، ج١، ص٢٠٥.

[9] ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٢٦٥؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص١٠٧٠.

[10] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٥٥؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٦٠؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٥٤.

[11] حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٣٥٨.

[12] المقريزي: المقفى الكبير، ج١، ص٧٣٣؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٧٥٦.

[13] المقريزي: المقفى الكبير، ج١، ص٧٣٣؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٢٦٥.

[14] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٧.

[15] المقريزي: المقفى الكبير، ج١، ص٧٣٣؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٢٦٥.

تجهَّمَ الزَّمانُ للعُمري بعدَ تاريخٍ حافلٍ بالإنجازات، ففي سنة(٧٤٠هـ/١٣٣٩م)، أفْرَجَ عنه السُلطان، وولَّاهُ كتابة السرِّ بدمشقَ سنة(٧٤١هـ/١٣٤٠م) لكنَّه قامَ بعزلِهِ من جديد سنة(٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م)، وطلبَهُ إلى مصرَ للبتِّ في أمره، وفي هذه المرَّةُ قَبِلَ شفاعتَه بوساطة أخيه وأرسلَه إلى دمشق وبقي فيها بِطالاً[٢]، حتَّى كانت سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م) إذ حلَّ الطاعون الجارف في البلاد، فقَلِقَ العُمري من ذلك واعتزلَ الناس، ثمَّ عَزمَ على الحجِّ وزيارة الأماكن المُقدَّسة، وعندما وصلَ إلى القُدس توفِّيت زوجتَهُ فدفنَهَا هُناك، وعادَ إلى دمشقَ، ومكثَ بها وخلال هذه المُدَّة أصابتَهُ حُمَّى أدَّت إلى صرعهِ، فماتَ منها يوم السبت تاسع ذي الحجة يوم عرفة بداره داخل باب الفراديس، وبعد أنْ صُلِّيَّ عليه بالجامع الأموي[٣]، نُقِلَ ليُدفَنَ بتربة آل العُمري في الصالحية[٤] قُبالة البيقونيَّة مع أبيه وأخيه[٥].

ب- دراسة موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار[٦]:

تُعدُّ موسوعة" مَسَالك الأبْصار في ممالك الأمصار" موسوعةٌ شاملةٌ ضمَّنَتْ الحديثَ عن البُلدانِ، والتاريخ، والأدب، والسياسة، والرجال، والاجتماع، والهندسة، والفلك، والنقش، والتصوير، و البناءِ[٧]، رُغم أنَّ صاحبَهَا قصد منها الجُغرافية[٨]، و تتميَّزُ الموسوعة بروح النقد، فلمْ يقبلْ صاحبها إلَّا بالنظريات التي لم يكُن هُناك ما يُناقِضها في عصره، فكان لديه حسِّ التعرُّف على الحاجات، والاتجاهات الأدبيَّة، حتَّى يُمكن عدُّ موسوعته جُغرافيَّة تاريخيَّة أدبيَّة تحدَّثَتْ عن أسماء الأمكنة الشهيرة[٩]، ولذلك قال عنها الصفدي : « كتابٌ حافلٌ، ما أعلمُ أنَّ لأحَّدٍ مثلَهُ»[١٠].

---

[١] العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٨.

[٢] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٣٢، ٣٣٣.

[٣] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٦٨؛ ابن كثير: البادية والنهاية، ج١٤، ص٢٢٩؛ ابن ناصر الدين الدمشقي(محمد بن أبي بكر): الرد الوافر، تح: زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ص١٣٩.

[٤] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٦٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص ٢٢٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٨٥؛ السخاوي: الذيل التام، ج١، ص١٠٥؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢١١، ٢١٢.

[٥] ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، مج٣، ص٢٠؛ سركيس: معجم المطبوعات، ج١، ص٢٠٥.

[٦] الحسيني: ذيل العبر، ج٤، ص١٥٢؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، مج٣، ص١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٨٥؛ الورقي: في مصادر التراث العربي، ص١٥٩؛ عباس(إحسان): مقدمات في التعريف بمناهج التراث، دار الفارس، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٢٧.

[٧] كرد علي: كنوز الأجداد، ص٣٧٧.

[٨] فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص٥٦٣.

[٩] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٤٩.

[١٠] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٥٥.

والموسوعةُ عبارةٌ عن سبعةٍ وعشرين جزءاً موزَّعة بينَ دُور المخطُوطات، واستطاعَ أحمد زكي باشا أنْ يجمعَ نسخاً كاملة منها في القاهرة، مُعتمداً على مخطوطات إستانبول، وأثبت أنَّها كانت تتألف من اثنين وثلاثين جزءاً، وهي ستة عشر جزءاً مُزدوجاً، وتقعُ في تسعة آلاف وثمانمئة وإحدى وثمانين صفحة خطيَّة، ورغْمَ ضخامة هذا الحجمُ، إلَّا أنَّ مضمونَهَا أضيقُ بكثير من موسوعة النُّويري، فحمَلتْ الموسوعة أحياناً اسماً مُختصراً، وهو" أخبارُ الملوك" لكنَّ هذا الاسمُ يفتقرُ إلى الدقَّة[1].

أ- ب- مُحتويَات المُوسُوعة:

بدأ العُمري موسوعتَهُ بِذكرِ الأسبابِ التي دفَعته لتأليفها، فقال: « ولقد طَالعتُ الكُتبَ الموضوعة في أحوالِ الأقاليمِ وما فيها، فلمْ أجدْ من بيَّن أحوالها ومثَّلَ في الأفهامِ صُوُّرِها، لأنَّ غالبَ تلك الكُتب لا تتضمَّن سوى الأخبار القَديمة...، ليبصُرَ أهلُ كلَّ قُطرٍ القُطر الآخر»[2]، ثمَّ تناول العُمري في مُقدِّمته الحديث عن منهج موسُوعته وذكر أنَّه لمْ ينقُل مَعلوماته إلَّا من أعيانِ الثُّقات، ثمَّ أوردَ أنَّه استغرقَ في تأليفِهَا (تأليفه) وقتاً طويلاً، فقال: « وقطعتُ فيه الأيَّام والليالي، وأثبتُّ فيه بالأقلامِ أخبارِ العوالي...، وخلَصْتُ إليه بعدَ أنْ أجرَيتَ ورائِي السنينَ»[3].

ولعلَّ العُمرِي قد شرع في وضعِ موسوعته أيام التحاقه بخدمة الملك الناصر، وقد يكونُ ذلك نحوَ سنة(٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)، ويبدُو مِن مُقدِّمته ومن دُعَائه للملك النَاصِر بِدَوامِ أيامه، أنَّه أنجز نسختها الأولى قبل سنة(٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) أي قبل وفاة الناصر، ويدلُّ على ذلك قوله: « وشَرعتُ في أيامِ من مَانَنَا[4] بإحسَانه وأُمتنَا في سُلطَانه، سيدُنَا ومولانَا...، سيدُ ملوك الأرض على الإجماعِ، المخصوص بمُلكِ أشرفِ البقاعِ، فأدامَ اللهُ أيامَهُ وأدارَ على مغارقِ النجومِ أعلامَهُ»[5]، ويبدُو أنَّ العُمري زادَ عليها بعد وفاة الملك الناصر مُحمَّد بن قلاوون، ودليلُ ذلك أنَّه وصَلَ في رواية الأحداث حتَّى سنة(٧٤٣هـ/١٣٤٢م)[6]، وقالَ وقالَ عن تسميتها ومضمونها: « وسمَّيتهُ مسالِك الأبصار في ممالك الأمصار، وفهرَستُ ما تَضَمَّنَهُ، وجُملَتَهُ قِسْمين»:

القسم الأوَّل- في ذكر الأرض وما اشتمَلَتْ عليه بَرَّاً وبَحراً:

تضمَّنَ هذا القسمُ بدورِهِ **قسمين،** أطلقَ العُمرِي على الواحدِ منْهُمَا **النَّوع**، وهُمَا:

النوع الأوَّل في ذكر المسالك:

---

[1] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١١، ٤١٢؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٤، ٢٠٥.

[2] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٨.

[3] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١١١.

[4] بمعنى كفَانَا، وأنفقَ علينا.

[5] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١١١، ١١٢.

[6] عنان: مؤرخو مصر، ص٧٢؛ كرد علي: كنوز الأجداد، ص٣٧٧.

يشملُ الجُغرافية العامَّة، وهو **أبوابٌ** عدَّة، وكلّ بابٍ **فصولٍ** عدَّة، فالبابُ **الأوَّل:** في أبعاد الأرض وحَالِهَا، **والثاني:** في الأقاليمِ السبعة، **والثالث:** في البحارِ وكلِّ ما يتعلَّقُ بها، **والرابع:** في القبلة والأدلِّة عليها، و**الخامس:** في ذكرِ الطُرُقِ[١].

النوع الثاني في ذكرِ الممالِك:

ينقسمُ إلى **خمسة عشرَ** باباً، وبعضُها ينقسمُ إلى **فصولٍ** عدَّة تصفُ الدوَّل والبلاد من الشرق باتِّجاه الغربِ على التوالي، وقال العُمرِي في هذا: « وأوَّلُ ما أبدأُ بالمشرقِ، لأنَّ منهُ يتفتَّحُ نُوَّار الأنوار، وتجري أنهارُ الأنهار إلى أنْ أختمَهُ بنهاية المغرب، إلى البحر المحيط لأنَّه الغاية»[٢]، وهذه الممالكُ هي: مملكة الهِند والسِند، وممالك بيت جنكيز خَان، ومملكة الجيل(كِيلان)، ومملكة الحبال، ومملكة الأتَراك بالرومِ، وممالك مصرَ و الشام والحجاز، ومملكة اليمن، وممالك المُسلمين بالحبشَة، ومملكة السُّودان، ومملكة مَالي، ومملكة جبال البَربَر، ومملكة إفريقية، ومملكة برِّ العَدوة(مراكش)، ومملكة الأندلُس، والعرب البدو المُعاصرين وأماكن سكنهم وأخبيتهم، وهو فصلٌ له أهميَّتُهُ بالتعرُّف على الأنسابِ والأصول، وفيه معلوماتٌ إضافيَّة عن أحوال البلاد، وحيوانها، ونباتها، وخواصها، و محصولها، وبدأ العُمري في هذا النوعُ بالتحرِّي بدقَّةٍ، فلمْ يذكرْ غريبةً إلَّا وذكَرَ مصدَرهَا.

القسم الثاني:

يبحثُ في سُكَّان الأرض من طَوائف الأُمم، وينقسمُ إلى أربعة **أنواع: الأوَّل:** في الإنصاف بينَ المشرق والمغرب، والحديث عن الطبيعة والحيوان، و طوائف العلماء، **والثاني:** في الديانات المُختلفة، **والثالث:** في طوائف المُتديِّنِين، **والرابع:** مُكرسٌ للتاريخِ ويتضمَّنَ بابين: أحدُهُمَا في ذكر الدوَّل التي وجِدَتْ قبلَ الإسلام، والثاني في ذكر الدوَّل الكائنة في الإسلام[٣].

ب- ب- منهج المؤلف:

إنَّ المنهج الجُغرافيُّ للعُمري لم يمنعَه أنْ يستطردَ في حدُود المنطق إلى التاريخِ والأدب، والعمارة، إضافةً إلى العلوم التطبيقية من علوم النبات، والحيوان، والمعادن، ومنهجهُ قائمٌ على الاختصارِ تارةً وعلى إعطاء معلوماتٍ وافية ومُفصَّلة تارةً أُخرى، فينتقلُ بقارئه في غير ما مَلَلَ ولا سَأمَ من واحةٍ أدبيِّةٍ إلى فكريِّة إلى معلومات تاريخيَّة وعمائرٍ أثريَّة، وهو بذلك كلُّه أدبيُّ السردُ جُغرافيُّ المنهج[٤].

---

[١] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١١٢- ١١٤.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١١٠.

[٣] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١١٤- ١١٧.

[٤] الشكعة: مناهج التأليف، ص٧٤٣، ٧٤٤.

وشرح العُمري بنفسه منهجه في مُقدِّمته رابطاً بينَ المنهج والعنوان، فقال: « إنَّه قسمان أولُّهما في الأرض، وثانِيَهُما في سُكَّانِ الأرضِ»[١]، وارتكزَ بذلك على المنهج الوصفي، ووصفَ في القسم الأوَّل الأرض، وسُكَّانها من مُختلف الشعوب في قسمِها الثاني، ثمَّ مضَى العُمرِي وقدَّم موسوعته القيّمة في تفصيلٍ منطقيٍّ وتقسيمٍ منهجيٍّ وبيَّنَ المنهج والخطَّة التي سارَ عليها في تأليفها، فقال: « فاستخرتُ الله تَعَالى في إثباتِ نُبذَةٍ دالَّةٍ على المقصود في ذكر الأرض...، ممَّا رآهُ بعينِه أو سمعه من الثُقات بإذنه»[٢]، فاقتصرَ في أبحاثه على ممالك الإسلام، فقال: « ولمْ أقصدْ في المعمورة سوى الممالك العظيمة....، لأُذِيلَنَّ بممالك الكُفَّار هذا التصنيفُ وأُجيءُ بفارسِهِ المُعلم وخلفه من سيبِهُم رديفٍ»[٣].

وحتَّى يُدخلَ المُؤلف الاطمئنان إلى قلب القرَّاء من العُلماء المُدققين[٤]، قامَ بالفحص عن كلِّ مصدرٍ نقلَ عنه، وتأكَّد من صحَّة أخبارِه، وقال في ذلك: « ولمْ أذكرْ عجيبةً حتَّى فحَصْتُ عنها، ولا غريبة حتَّى ذكرت الناقلَ عنه، لتكونَ عهدتُهَا عليه». وأضافَ قائلاً: « ولمْ أنقلْ إلَّا عن الأعيان الثُقات من ذوي التدقيق في النظرِ والتحقيق في الروايةِ»[٥]، كما اعتمدَ في نقل الأخبار طريقة التحقيق لأكثرِ ما يُعرف بتكرارِ السؤال واحداً بعدَ واحدٍ، عمَّا علِمَهُ من أحوال بلادِه وما فيها، وما اشتملتْ عليه في الغالب[٦]، ويدلُّ على ذلك قولَهُ: « واستكثرتُ ما أمْكَنَنِي من السؤالِ عن كلِّ مملكةٍ، لآمنَ من تغفُّلِ الغُفلاء، و تخيُّل الجَهالَات الضَالَّة، وتحريف الأفَهام الفاسِدة»[٧].

وتوثيقُ رواياته قائمٌ على منهج علميٍّ دقيقٍ، ميَّزَهُ نقدَ مصادرَهُ الَّذي لازمَهُ طيلةَ مراحلَ تأليف الموسوعة، فاقتصرَ على تصحيح المعرفة النقليَّة بنقدِها، سواء بالشكِّ في صحِّة ناقل هذه المعرفَةُ أمْ بالأحرَى في صلاحيتِه للنقلِ، ثمَّ في المعرفَة ذاتُها ودليل ذلك قولَهُ: « ونأخذُ في هذا البابِ على التحريرِ في أكثر ما عَرِفنَا...، كلَّ هذا لأتروَّى في الرواية، وأتوثَّقَ في التصحيحِ»[٨].

وممَّا يُذْكَرُ عن منهجه أنَّه جمع الموضوعات المُتشَابهة والمُنتشرة في جميع أنحاءِ العالم في فصلٍ واحدٍ، ورتَّبَها حسب التسلسُل التاريخي[٩] ، ومن ذلك حديثه عن البيوتِ المُعظَّمَة عند الأُممِ[١٠].

---

[١] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١١٢.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٨.

[٣] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١١٠.

[٤] الشكعة: مناهج التأليف، ص٧٤٣، ٧٤٤.

[٥] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٩، ١١٠.

[٦] كرد علي: كنوز الأجداد، ص٣٧٧.

[٧] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٩.

[٨] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٠.

[٩] أحمد: الرحلة والرحالة، ص٢١٨.

[١٠] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٢٧٥.

واتَّبعَ في تدوين أحداثه طريقة الحوليَّات، إلَّا أنَّه خرجَ عنها في مواضعِ كثيرةٍ حينَ تحدَّثَ عن الدوَّل التي ظهرتْ في أطرافِ الدولة الإسلامية، فاسترسلَ بسرد الأحداث، ولمْ يقفْ عندَ أحداث سنةٍ بعينِهَا[١].

ويقومُ منهج تراجمَه على التعريف بالمُتَرَجَم لَهُ بأسلوبٍ أدبيٍّ جَميلٍ مُسجِعٍ مُتكلِّفٍ في بعض الأحيان، ثمَّ يوردُ مُختارات ممَّا اشتهرَ بهِ مِنْ نثرٍ وشعرٍ ومؤلَّفَاتٍ وغيرها، تَكثُرُ أو تقلُّ حسبَ أهميَّتَهُ[٢].

ج- ب- موارد المؤلف:

تتميَّزُ موسوعة مسالك الأبصار بمصادرها الأصليَّة التي اعتمدَ عليها المُؤلِّف، فلمْ ينقلْ إلَّا عن كبار المُفكِّرين أصحاب الثقافات العالية المشهود لهم بالسبق في مجالي الجُغرافية والتاريخ، وسمحتْ لهُ مناصبَهُ الإداريَّة أنْ يطلَّعَ على أرشيف الدولة، فاستَفادَ من الوثائق الرسميَّة التي كانت تحت يديه بحكم عمله، وبفضل كلِّ ما توفَّرَ لديه جَهدَ في رسم لوحةٍ كاملةٍ، ومفصَّلةٍ عن حالة العالم في عصره[٣].

و يُعدُّ العُمري باحثاً مُستقصياً لمعالم الحضارة العربيَّة والإسلاميَّة، مما جَعلَهُ واسعُ الاطلاع في العلومِ المُختلفة، فكانَ ناقداً مُخضرماً لمْ يقبل سوى الآراء والنظريات التي لمْ يكُنْ حولَها شُبُهَات[٤]، والموسوعةُ شاملةٌ لكلِّ أصنافِ العلُوم استقَى مؤلِّفَها مادَّتَها ممَّنْ تخصَّصَ بالعلوم التي تحدَّث عنْها، فاتَّبَع في استقاء معلوماته على ثلاثة مناهج، **هي:**

الأوَّل- منهجُ الرواية بالمُشاهدة:

فقد قرنَ العُمري الدرس النظري بنوعٍ من الدِّراسة العمليَّة، فتجولَ في أنحاء الشام ومصرَ والحجاز، وبعض الممالك الإسلاميَّة، وسجَّل مشاهداتهُ للمناطق التي زارَها، ويبدُو ذلك في مواضعٍ عدَّة من سياق موسوعته[٥]، ويدلُّ على ذلك قولَهُ: « واعتمدتُ في ذلك على تحقيق معرفَتِي لهُ، فيمَا رأيتَهُ بالمُشاهدةِ»[٦].

بالمُشاهدةِ»[٦].

الثاني- منهجُ الرواية بالسَّماع:

وهذا قائمٌ على سماع روايات التُجَّار، الَّذين شاهدوا البلاد، واطَّلعوا على أخبارِها، قال العمري: « وحدثني خلق من التجار»[٧]، وقائمٌ أيضاً على سماعه من الزوَّار، وأهل البلادُ الَّذين التقَى بِهُم في مصرَ أثناءَ

---

١ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٦، ص٣.

٢ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١٢، ص٣.

٣ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٤؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١٣؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٤٩.

٤ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٥.

٥ عنان: مؤرخو مصر، ص٧٠.

٦ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٨.

٧ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٢٣، ٢٧، ٧١، ٩٩ وغيرها.

موسم الحجِّ، إذ كانت القاهرة محطَّة استراحة للحُجَّاج، فحكُوا لهُ عن أحوال بلادهم و مزروعاتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وغير ذلك، وكذلك سمع من العُلماءِ والفُقهاءِ[1]، لا سيَّما في القسمِ الخاصِّ بالصين، وهُم أُناسٌ ساقتَهُم إلى تلك الجهات في أغلبِ الظنِّ حاجة الأقليَّات المُسلمة المُهاجرة إلى أئمةٍ وقُضاةٍ، ومن هؤلاء الرحَّالةُ أُناسٌ من العراق وإيران وما وراء النهر، وتؤكِّد جميع قصصهم أنَّ الصين فتحتْ أبوابَها في عهد المغول للتُجَّار، ولمن دفع بهم حبُّ الاستطلاع إلى الضرب في الأرضِ[2].

وورد ذلك أيضاً في أحداث و وقائع ممالك الهند، وممالك قانَات المغول، ودليلُ ذلك ما قالَهُ العُمري في منهجه عن ممالك الهند: « كنتُ أسمع الأخبار الطَّائِحة، والكُتب المُصنَّفة، ما يَملأُ العين والسمع، وكنت لا أَقِفْ على حقيقة أخبارها، لبُعدها منَّا، وتنائِي ديارها عنَّا، فلمَا شرعت في تأليفِي هذا الكتابُ، تتبَّعت ثُقاتَ الرواة، ووجدت أكثر ممَّا كنتُ أسمع وأجلُّ ممَّا كنتُ أظنُّ»[3]، ولعلَّ أهمَّ مصادر سماعه عن شعوب وبلاد أوربَّة ما سمعَهُ عن شخصٍ يُدعَى دُومِينِيك دوريا(بلبان الجنوي)، وهو من مماليكِ الأمير بهادر المُعزِّي(ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، وقد ألقَتْ به الأقدار في ظروفٍ مُعيَّنة إلى أسيا الصغرى، ولمعلوماته عن أوربَّة وعلى وجَه الخصوص إيطاليا أهمِّيَّة لاسيَّما أنَّه تحدَّث عن تجارتها مع المماليك[4]، المماليك[4]، ويُعدُّ وصفه لها من أكثر فُصول موسوعة العُمري قيمةً خاصَّةَ التفصيلات التي أوردهَا عن بلاد القَرَمَان وطَرَبِيزُون[5]، وبذلك استعانَ العُمري في تَعرُّف أحوال الأُمم والممالك التي لمْ تُتَاحْ لهُ زيارتها، بأقوال العارفين والثُقات، ممَّن زاروها أو دَرسُوا أحوالها دراسةً خاصَّةً، فاجتمعَتْ له مادَّةً غزيرةً تتميَّزُ في كثيرٍ من الأحيان بدقَّتِها وطرافتِهَا[6].

الثالث- منهجُ النَّقلُ عن متُونِ الكُتُب:

اعتمدَ العُمري في تدوين معلوماته على مؤلَّفات سَابقَيه ومُعاصريه مِنَ المؤلِّفين، و نقلَ أحياناً عن الكتب صفحاتٍ بأكملها، وأحياناً أُخرى ما هو مختصرٌ و مفيدٌ، وقال في ذلك: « ولقد طالعتُ الكُتب الموضوعة في أحوالِ الأقاليم وما فيها...، فإنْ نقلتُ عن بعض الكتب المُصنَّفَة في هذا الشأنُ فهو من المَوثوق به فما لا بُدَّ مِنهُ»[7]، ولعلَّ من أهمِّ الكُتب التي **استعانَ بها:**

***- الموارد الجُغرافيَّة:**

---

[1] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٨ وغيرها.

[2] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١٥.

[3] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣١.

[4] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢، ص١٤٨، وغيرها.

[5] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١٤.

[6] عنان: مؤرخو مصر، ص٧٠.

[7] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٨، ١٠٩.

استقَى معلوماته الجغرافيَّة من مصادرٍ عدَّة أشهرُهَا كتاب" المجسطي" لبطليموس القلوذي[١]، و" أخبارُ مكَّة وما جاءَ فيها من آثار" لأبي الوليد الأزرقي(ت ٢٥٠هـ/ ٨٦٤ م)[٢]، و" أخبار مكَّة" لابن العبَّاس الفاكهي(ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨ م)[٣]، وكتابَيّ" الصحيح من أخبارِ البلاد وعجائبها"، و" عجائب الهند" لأبو عمران موسى السيرافي(ت ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)[٤]، و" الديارات" للشابشتي(ت ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م)[٥]، و" المسالك والممالك" للبكري[٦]، و" صُورة الأرض" لابن حوقل[٧]، و" الكمائم" لأبي بكر البيهقي(ت ٤٥٨هـ/ ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)[٨]، و" نزهة المُشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي الَّذي استقَى منهُ معلوماتٍ مُهمَّة عن عن جزيرةٍ صقلية[٩]، و" تُحفة الأذهان في عجائب البلدان" لأبي حامد الغرناطي الإقليشي(ت ٥٦٥هـ /١١٧٠ م)[١٠]، و" المُغرب في أخبار المَغرب" لابن سعيد المغربي[١١]، وكتاب " العجائب" لماركو باولو(ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)[١٢]، وغيرها الكثير.

***- الموارد التاريخيَّة:**

استقَى العُمري معلوماتَهُ التاريخيَّة من مصادرٍ عدَّة أشهرها" مروج الذهب" للمسعودي[١٣]، و" تجارب الأُمم" لابن مسكويه(ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م)[١٤]، و" الاعتبار" لأُسامة بن مُنقذ الشيزري[١٥]، و" الفاشوش في أخبارِ قراقوش" لابن مماتي (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)[١٦]، و" الكامل في التاريخ" لابن الأثير[١٧]، و"

---

١ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٢٥ وغيرها.

٢ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٧٧ وغيرها.

٣ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٥٣ وغيرها.

٤ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢، ص١٩٩، ٢٠١ وغيرها.

٥ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٧١ وغيرها.

٦ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٢٦ وغيرها.

٧ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٧٤ وغيرها.

٨ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٢٦ وغيرها.

٩ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٢٣ وغيرها.

١٠ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٢٨٥ وغيرها.

١١ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢، ص٢٩٨ وغيرها.

١٢ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢، ص١٤٢ وغيرها.

١٣ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٥، ص٤١ وغيرها.

١٤ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٥، ص٣١ وغيرها.

١٥ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٤، ص٢٢٢ وغيرها.

١٦ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٤، ص١٠٥ وغيرها.

١٧ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٥، ص٣٨ وغيرها.

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" لأبي شامة المقدسي[١]، و" المُختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء[٢]، و" ذيل مرآة الزمان" لليونيني[٣]، وغيرها.

***- تراجم الشُّعراء والأطبَّاء:**

فقد أخذَ تراجم الشُّعراء عن" الرسالة القُشيرية" للقشيري(ت ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)[٤]، و" خريدة القصر وجريدة وجريدة العصر" لعماد الدِّين الأصبهاني(ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)[٥]، و" المرقص والمطرب" لابن سعيد المغربي[٦]، و" ذهبية العصر" للشاعر شهاب الدِّين محمود الحلبي[٧]، أمَّا تراجمَ الأطباء فاستقَى أكثرَهَا من كتاب" عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أُصيبعة[٨] .

***- الأنساب:**

استقَى مادَّته من" أنساب الأشراف" للبلاذري[٩]، وعن أنسابِ المغاربة أخذَ عن" قلائد العقيان" للفتح بن خاقان(ت ٥٢٨هـ/١١٣٣م)[١٠]، و" الذخيرة في محاسنِ أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني(ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)[١١].

***- قسم المَعادن والأحجَار والأعشاب والنُّجوم والحَيوان والنَّبات:**

اعتمدَ فيهِ على كتابِ " الحيوان" للجاحظ(ت ٢٥٥هـ/٨٦٩ م)[١٢]، و" الجامع لمُفردات الأدوية والأغذية" لابن البيطار المالقي، إذ قال: « واعتمدنَا فيهِ على الجامعِ لأبي محمد أحمد بن عبد الله البيطار المالقي العشَّاب(ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)»[١٣]، و" عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" للقزويني[١٤].

***- قسم المذاهب والأديان والسيرة النبويَّة:**

---

١ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٨، ص١٣١ وغيرها.
٢ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٦، ص٣ وغيرها.
٣ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٨، ص١٥٧ وغيرها.
٤ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٨، ص٢٩ وغيرها.
٥ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١٨، ص٧١ وغيرها.
٦ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١٧، ص١١٠ وغيرها.
٧ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٦٠ وغيرها.
٨ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٩، ص٣، ٤٤ وغيرها.
٩ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٤، ص٢٨٧ وغيرها.
١٠ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١٣، ص٤٤ وغيرها.
١١ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١٣، ص٥٨ وغيرها.
١٢ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٠، ص٥٥ وغيرها.
١٣ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٠، ص٢٣ وغيرها.
١٤ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٠، ص٦٦ وغيرها.

اعتمدَ فيه على" السيرة النبويَّة" لعبد الملك بن هشام الحميري(ت ٢١٣هـ/٨٢٨ م)، و" الفصل في الملل والنحلِ" لابن حزم الأندلسي، و" الوفا بأحوال المصطفى" لعبد الرحمن بن الجوزي، و" كنوز المطالب في فضائل آل أبي طالب" لابن سعيد المغربي[١]، وغيرها.

د – ب– أهمِّيَّة الموسوعة:

تُعدُّ موسوعة مسالك الأبصار من أهمِّ ما صُنِّف في مجال فنِّ التقاويم الجُغرافيَّة، و تكمُن أهميتها بتعدُّد مصادر معلومات وأخبار مؤلِّفها، ممَّا مكَّنَه من إخراج لوحة مُتكاملةٍ مُفصَّلة عن العالم[٢]، ركَّز فيها على على جوهر الموضوع، فلمْ يُسهبْ أو يَختصرْ اختصاراً مُخلّاً، فظهرَ فيه الترتيب المنطقي، مما جعل لها رواجاً عظيماً بين مُعاصريه[٣].

وتعدُّ الموسوعة مصدراً مُهمَّاً لدراسة عصر المماليك، خاصةً المعلومات التي وردتْ فيها عن البلاد التي تربطُها صلاتٌ دبلوماسيَّة منتظمة أو مُتقطِّعة بدولة المماليك[٤]، وتكمن أهميّتها أنَّها شملتْ الحديث عن حقبةٍ من التطورات الإدارية وبنية الدولة المملوكية في مصر والشام؛ ولذلك جعلَها القلقشندي أحَّدَ أهمَّ موارده في كتابه" صُبح الأعشى"[٥]، ونقل عنها المقريزي في خططِهِ وصف قلعة الجبل، وخِلَع المماليك وأزيائهم، حتَّى عصر الناصر محمد بن قلاوون كلمة بكلمة دونَ أنْ يُصرِّحَ بذلك[٦]، كما نقل عنها السيوطي في كتابه" حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة"، كلَّ أخبارَ مملكة مصر في زمنِ المماليك[٧].

ومن جهةٍ أُخرى طرح العُمري في موسوعته تصوُّراً علمياً مُهمَّاً حولَ وجودِ أمريكا قبلَ اكتشافِهَا بنحوَ مئة وخمسين سنة، فقال: « لا أمنعَ أنْ يكون ما انكشف عنهُ الماءُ من جهتنا منكشفاً من الجهة الأُخرى...، أو من أنواع وأجناسٍ أُخرى»[٨]، و بذلك يغلبُ عن الظنِّ أنَّ الملَّاح الإيطالي كريستوفر كولومبوس(ت ٩١٢هـ / ١٥٠٦م)، الَّذي اكتشفَ أمريكا(سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م)، كان مُطَّلعاً على نظريةِ العُمري، فقام برحلته ليثبتَ صحَّتها، فجعلتْ نظرية العُمري من كولومبوس ما هو في تاريخِ البشرية اليوم[٩].

---

[١] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٣، ص٣ وغيرها.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٧٠.

[٣] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٥، ٢٠٦.

[٤] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٧٠.

[٥] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٧١.

[6] Casanova. P; Historie Et Description De La Citadelle Du Caire, MMAF VI, 1891, p667.

[٧] السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣.

[٨] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٣٤.

[٩] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٥، ٢٠٦.

و الموسوعةُ مُهمَّةٌ بالنسبة لعُلماء الجُغرافية بمختلف فروعها، وأيضاً لعُلماء الأدب، لتوسُّع مؤلِّفُها في موضوع يتَّصل بالأدب العربي، وهو موضوع الديارات، الَّذي شكَّلَ من خلال الموسوعة كتاباً نفيساً من فروع مسالك الشُّعراء بخاصَّةٍ، و موضوعات الأدب بعامَّة[١].

وهي ذاتُ أهمِّيةٍ للباحثين في مجال التاريخ والأنساب، وغيرها، لا سيَّما الفصل الأخير من النوع الثاني من القسم الأوَّل الَّذي يُعدُّ ذا قيمةً في مجال معرفة الأنساب والأصول[٢]، وتأتي أهميّتُهَا بوصفها مصدرٍ من مصادر تاريخ قبائل الأردُو الذهبي الروسية[٣].

وقامَ العُمري بالتأسيسِ لمنهج علم التاريخ، وتصحيح الروايات التاريخيَّة وترجيحها بميزان العقل، وتفحَّص مفاهيم العُمران الحضري، والمُناخ وعلاقتُهُما بالسُكَّان، و بذلك قاربَ المنهج العلمي، واستخلصَ مبدأ أخذ العبر قبل ابن خلدون، ويتَّضح ذلك من قوله: « وإنَّ في الأرض لَعِبَرٌ، ولقد طالعتُ الأخبارَ الموضوعيَّة في الأقاليم...، ممَّا اعتمدتُ في ذلك على تحقيقِ معرفتي»[٤].

وأضافَ المؤلِّفُ إلى موسوعته مواداً ذكرَ أنَّها لا توجد عند غيره، كما جاء- على سبيل المثال- في ترجمته لعُمر بن الفارض، إذ أوردَ بعضاً من قصائده، وذكرَ أنَّها ليست موجودة في ديوانه، وصدق بذلك؛ فعندَ الرجوع إلى ديوان ابن الفارض- بطبعاته المُتعدِّدَة- لمْ يتمّْ العثُور عليها[٥]، ومثالُها أيضاً عندما أوردَ أوردَ أحَّدَ الرسائل الموجَّهة إلى ملكِ الهند، وقال: إنَّه استقاها من كتابِ" العقد الفريد" لابن عبد ربه(ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، وبعدَ الرجوع إلى الكتاب لمْ يتمّْ العثور على الرسالة، ويُفسِّرُ هذا أهمِّيَّة موسوعة مسالك الأبصار في ترميم ما فُقِدَ من تُراثِنا العربي الإسلامي[٦].

هـ- ب- معرفتها في الأوساط:

ظهرتْ موسوعة" مسالك الأبصار" في العصر المملوكي خلالَ النصف الأوَّل من القرنِ الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وفي القرنِ الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي نُقِلَ أحَّدُ أجزائَهَا من حلبَ إلى باريس، وبدأ المُستشرقون بترجمتِها، فقد أشارَ جودفري دي مومبين(Gaudefroy Demombynes)

---

١ الشكعة: مناهج التأليف، ص٧٤٤.

٢ عنان: مؤرخو مصر، ص٧٢.

٣ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١٥.

٤ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٨.

٥ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٨، ص٢٦٢.

٦ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٤.

إلى تاريخ الاهتمام بها، ونشرَ قسماً خاصَّاً بالمغرب[1]، وذكرَ أنَّ أوَّل من أشارَ إليها كانَ العالمُ دي جينيوس(Deguignes) سنة(١٧٥٨م)[2].

ثمَّ ترجمَ المُستشرق الفرنسي كاترمير(Quatremère) في سنة(١٨٣٨م) الأبواب المُتعلِّقة بآسيا من قسم الممالك، وهي الأبواب من الأوَّل إلى الخامس[3]، ونشرَ الطلياني مِيخَائل أماري فصلاً من الكتاب عنوانه" ممالك عُبَّاد الصليب" مع ترجمة إيطالية، وهو يمثِّلُ الفصل الثاني من البابِ الثاني من النوعِ الأوَّل من القسم الأول من الكتابِ[4].

ونقلَ المُستشرق الروسي تيزنهورن(Tisenhorn) نصوصاً من المسالك خاصة بقبائلِ الأردو الذهبيَّة في آسيا الصُغرى في الدراسة التي أعدَّها عن هذهِ القبائلُ باللغة الروسية[5]، وأكدَّ العالم الألماني شيفر(Schiffer) أنَّ الأقسام المُتعلِّقة بالصين ذاتُ أهمِّيةٍ خاصَّةٍ، لأنَّه ضمَّنَها معلوماتَ سَمِعَها من أهلِ البلادِ نفسها[6].

وقامَ العالم المصري أحمد زكي باشا بالكشفِ عن نسختين للموسوعة في إستانبول تُشكِّلان نسختها الكاملة، ونشرَ المجلَّد الأوَّل سنة(١٣٤٣هـ/ ١٩٢٣م)[7]، وكانَ في دارِ الكُتب المصرية حتَّى نهاية السبعينيات أجزاء منها: الأوَّل، ومن الخامسِ حتَّى العاشر، والجزء الخامس عشر[8]، ووجِدَ منها مُجلَّداتٍ

---

[1] Demombynes. G; Quelques passages des Masalik al- Relatifs au Maroc, dans Absar Memorial Henri Basset, I, paris, 1928, pp 269- 280.

[2] Gaudefroy. D; le Afrique moins le egypte, le- Masalik al- absar fimamlik al- amsar par ibn fadi Allah al- Omari, BGA II, Paris, 1927, pp 1- 6.

[3] Quatremere. M; Notice De Louvrage Qui A Pour Titre Mesalek Al- Absar Fi Memalek Al- Amsars Manuscrit, No. 583, 2325 Dans Notices Et Extraits Des Manuscrits De La Bibliotheque Du Roi Et Aurtes Bibliotheques 13, 1838 pp 151- 384.

[4] Amari. M; Al- Umari, Condizioti Dei Cristiani Dell Occidente Secon- De Una Relazione Di Domenichino Dorio Da Genova In Atti Della R. Acca Demia Deilincei, Serie III. XI ,1883, pp 67- 103.

[5] Tiesenhausen. R; De Matieres Relatives A L Histoire De La Horde Or, St. Petersbourg 1884.

[6] Schefer. Ch; Notice Sur Les Relations Des Peuples Musulmans Avec Les Chinois, Depuis L Extention De I Islamisme Jusqua La Fin Du XV Siècle, Dans Centenaire De PEOV, 1895, pp 1- 43.

[7] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، نشرة سزكين، ج١، ص٥.

[8] المنجد(صلاح الدين): معجم المؤرخين الدمشقيين، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٧٨م، ص١٧٧.

في مصرَ، والمغرب، و تونس، والسعودية، وتركيا، وبريطانيا، وفرنسا[1]، و بفضلِ ما تمَّ نشرَهُ من أقسامِها المُختلفة سواءً في المتنِ أو في ترجماتِ إفريقية الشماليَّة، وأوربَّة الغربيَّة، والأناضول، والصين، أمكنَ تكوين فكرةٍ عن هدف المؤلف، وهو أنْ يضعَ موسوعةً تاريخيَّةً جُغرافيَّةً، تقومُ على أساسٍ أدبيٍّ[2].

ج- دراسة نماذج من جُغرافيَّة بلاد الشام من خلالِ موسوعة مسالك الأبصار:

تناولَ العمري في موسوعته دراسةً عن جُغرافيَّة بلاد الشام، وسمَّاها(مملكة الشام)، ثمَّ ضمَّنها الحديث عن أهمِّ ما فيها من الآثار المشهُورة، والحانات، والديَارَات، وقدَّمَ وصفاً لأشهرِ مُدنها، وذكرَ أنَّها قواعدٌ عدَّة، هي قاعدةُ دمشق، وحلب، وصفد، وغزَّة، وكلّ قاعدةٍ منها، تشتملُ على مُدنٍ عدَّة، وفيما يأتي دراسة نماذج لذلك:

أ- ج- ذكر الآثار المشهورة:

1ً- تدمر[3]:

أشارَ العُمري إلى أنَّها تقعُ بين العراق والشام، وفيها من عجائب البناءِ، والعُمدِ الكبيرةِ شيءٌ كثيرٌ، وبالمُقارنة ذكر القزويني أنَّها مدينةٌ قديمةٌ بأرض الشام، وأبنيتُهَا من أعجب الأبنية، وهي موضوعةٌ على عُمدٍ من الرُّخام، وفيها تصاويرٌ كثيرةٌ، منها صورة جاريتين من حجارةٍ، تنمَّقَ الصانعُ في تصويرِهُما.

بينما حدَّدَها أبو الفداء شرق حمص، وذكر أنَّها بلدةٌ من بادية الشام، وأرضها سباخٌ، وبها نخيلٌ وزيتونٌ، وآثارٌ أوليَّةٌ عظيمةٌ من الأعمدة والصخورِ، ومبنيَّة بالحجارة والعُمد، وهي كثيرةُ الآثار العجيبة، ويُقال: بناها سُليمان بن داود عليهما السلام، وأوردَ الحميري أنَّها عجيبةُ الآثَار، وبها حصونٌ لا تُرام، وإليها يُقصَدُ كلُّ قاطعِ سبيلٍ وحاملِ نهبٍ، ومُتاجرةِ أهلِهَا منهُ[4].

2ً- بَعلبَك[5]:

أشارَ العُمري إلى أنَّ المدينة عظيمةٌ، ولها سورٌ من الأحجار العِظامِ والصخور الراسية كالجبال، وفيها ثلاثةُ أحجار عظيمة مُمتدَّة تحت برج وبدنتين ذوات أطوالٍ وعروضٍ وسُمكٍ مُرتفعة، وفي قلعتها عمدٍ عظيمة شاهقة وسعية الدُور ومُنيفة العلُو، وفيها بيوتٌ أيوبيَّةٌ، وآثارٌ ملوكيَّةٌ جليلة القدر، ويحفُّ بالمدينةِ

---

[1] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج٦، ص٥٩٣، ٥٩٤؛ الحجي(صالح): فهرس مخطوطات جامعة الرياض، ط١، ١٩٧٥م، ج١، ص٥٦.

[2] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤١٣.

[3] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٦؛ الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص١٧- ١٩.

[4] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٢٨٢؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٦٩، ١٧٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٨٨؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٣١.

[5] البكري: معجم ما استعجم، ج١، ص٢٦٠؛ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٤٥٣- ٤٥٥.

غوطة عظيمة أنيفة ذاتُ بساتينٍ مُشتبكة الأشجار بأنواع الثمراتِ الحسان والفواكه المُختلفة الألوان، وفي ظاهرها عين ماء سارحة مُتَّسعة الدائرة، مشهُورة بالزينة.

وبالمُقارنة ذكرَ القزويني أنَّ المدينةَ تقعُ بالقُرب من دمشقَ، وهي مدينةٌ كثيرةُ الأشَجارِ، والمياهِ، والخيراتِ، والثمارِ، ويُنقَلُ منها إلى جميع بلاد الشام، وبها أبنيةٌ وآثارٌ عجيبةٌ، وقصورٌ لا نظيرَ لها على أساطينٍ من الرُّخام.

بينما أشارَ ابن سعيد المغربي إلى أنَّ حِجارةَ آثارُهَا طويلةٌ عريضةٌ، وذكرَ الحميري أنَّها مدينةٌ حصينةٌ في سفح جبلٍ، وفيها من عجيب الآثارِ ملعبَان، أحدُهُما كبيرٌ وطول الحجرةِ الواحدة منهُ عَشرة أذرعٍ على عُمدٍ شاهقةٍ يُروِّعُ منظرُهَا، والآخر صغيرٌ[١].

3ً- جَرَشْ:

نسبَهَا العُمري إلى بلاد حُوران، وقال فيها: « إنَّه يُحكَى الهولُ عن غرائبِ آثارِهَا، وقد أضحت خاويةٌ على عروشها، خاليةٌ من أهلِهَا وسُكَّانها، لا يحسُّ بها حسيس ولا يوجدُ بها أنيس»، وبالمُقارنة وصفهَا الحموي بأنَّها مدينةٌ عظيمةٌ، ثمَّ أصبحت خراباً، وبها آثارٌ عاديةٌ وهي شرق جبل السواد من أرضِ البلقاء وحوران من عمل دمشق، وفي وسطهَا نهرٍ جارٍ[٢].

ب- ج- ذِكر الحانَات:

اقتصرَ العُمري في ذكرِ حَانَات الشام على حَانَتَين

هُمَا:

1ً- حانة عزاز:

ذكر العُمري أنَّها تقعُ بتلِ عزازٍ من أعمالِ حلب، وكانت للخليفة العباسي هارون الرشيد[٣].

2ً- حانة هُشيمَة:

---

[١] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٢٨٢، ج٣، ص٣٦٤؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٥٦؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٢؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٠٩، وذكرَ الإدريسي بأنَّها مدينة عجيبةٌ فيها من عجيبِ البناء ملعبان الصغير، والكبير منها بُني في أيام سليمان بن داود، وهو عجيبٌ المنظر فيهِ حجارة يكونُ طول الحجر منها عشرة أذرع ومنه شيءٌ مبنيٌّ على عمدٍ شاهقة يروع منظرها، وملعبها الصغير تهدَّم وذهبتْ محاسنه وبقيَ منهُ الحائط، و ليس فيه إلَّا سبعة أحجار، وفي هذه المدينةُ من البناء كلِّ شيءٍ عجيبٍ، والماءُ يشقُّ في وسطها وعلى نهرها أرحاءٍ، ومطاحنٍ، وهي كثيرةُ الغلَّات نامية الإصابات، وافرة الفواكه، غزيرة الكروم والأشجار. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٦٩، ٣٧٠.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٢٨٢؛ الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص١٢٧. ووصفها ابن خرداذبة بأنَّها مدينةٌ عظيمةُ الآثار، وبها من العمائر كلِّ غريبِ. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٨.

[٣] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٤١٢.

أوردَ العُمري أنَّها تقع في دمشقَ، وكانت للخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان(ت ١٢٦هـ/ ٧٤٣م)(١).

ج- ج- ذكر الديَارَات:

لعلَّ أهمَّ ما تضمَّنَهُ القسم الخاص ببلاد الشام من موسوعة مسالك الأبصار، هو حديثُ العُمري عن الديَارات التي شكَّلتْ مصدراً أدبيَّاً للمُهتمِّينَ بالأدب العربي الَّذي يُعدُّ فرعاً من مسالكِ الشُّعراء، **ومن أهمِّهَا:**

1ً- دير الزعفران(٢):

ذكرَ العُمري أنَّه يقع بالقرب من معَلثايا في جزيرة ابن عُمر في لحف جبلٍ تطلُّ عليه قلعةٌ، وهو كثيرُ الرُّهبان، ولرهبانِهِ يسارٍ ونعمٍ ومزارعٍ وبساتينٍ، وقد فُرِشَتْ أرضَهُ من زهر الزعفران، ولهُ سورٌ يُحيطُ به، وماؤهُ سائحٌ من ينبوعٍ في جبلهِ، وبالمُقارنة ذكَرَ الشابشتي أنَّ موقعَهُ في نصيبين، ممَّا يلي الجانب الشرقي منها، في الجبل المُشرفِ على البلدِ، وهو من الديارات الموصُوفة، وحولَه شجر وكرومٍ، وفيه عيونٌ تتدفَّقُ، وهو كثيرُ القلايَات(٣) والرهبان، وقيلَ: إنَّ الديرَ لا يخلو من أهل القصف واللعب، فهو وسائرُ بقاعه معمورة بمَن يطرقُها(٤).

2ً- دير مارمروثا:

وصفَهُ العمري بأنَّه ديرٌ صغيرٌ، بظاهرِ حلب في سفح جبل جوشن على نهر العرجان، وله بساتينٌ قليلةٌ ومباقلٌ، وفيه نرجسٌ وبنفسجٌ وزعفرانٌ، ويُعرف بدير البيعيتن، وبالمُقارنة ذكَرَ أبو الفرج الأصبهاني أنَّه ديرٌ صغيرٌ، وفيه مَسكنَان للرجال والنساءِ، ولذلك عُرِف بديرِ البيعتين(٥).

3ً- دير فيق(١):

---

١ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٤١٣؛ وللمزيد: الرفاء(السري بن أحمد): المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، تح: ماجد حسن الذهبي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٨٦م، ج٤، ص٣٤٠.

٢ يقع في جزيرة ابن عمر قرب نصيبين. الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٥١١.

٣ جمعُ قليَّه، وهو بناءٌ مرتفعٌ كالمنارة خارج الدير، يُخصَّصُ للراهب لينفردَ بهِ، وهو دونُ الصومعة. زيات(حبيب): الديارات النصرانية في الإسلام، دار المشرق العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٥.

٤ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٠٠؛ الشابستي(علي بن محمد): الديارات، تح: كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، د. ت ، ص١٩٢، ١٩٣. وللمزيد: أبو الفرج الأصبهاني(علي بن الحسين): الديارات، تح: خليل العطية، مكتبة رياض الريس، لندن، ط١، ١٩٩١م، ص٢٠؛ برصوم(مار أغناطيوس أفرام): نزهة الأذهان في تأريخ دير الزعفران، المطبعة السريانية، القاهرة، ط١، ١٩١٧م، ص١٨٦؛ برصوم(مار أغناطيوس أفرام): اللؤلؤ المنثور في تأريخ العلوم و الآداب السريانية، مكتبة بيبليون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٥١٠؛ الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٥٣١؛ زيات: الديارات النصرانية، ص٣٢.

٥ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٦٨؛ أبو الفرج الأصبهاني: الديارات، ص٢١.

حدَّدَهُ العُمري في ظهر فيق(قرب القنيطرة)، بينها وبينَ بحيرة طبريَّة في لحف جبلٍ يتَّصلُ بالعقبة، وذكرَ أنَّه منقورٌ بالحجر، وهو عامرٌ بِمَن فيه وبِمَن يردُ عليه، و يقصدَهُ المسيحيين ويعظِّمُونَهُ، وبالمُقارنة أوردَ الشابشتي أنَّه يقعُ في ظهرِ عقبة فيق، ويقصدَهُ المسيحيين لجلالةِ قَدره عندهم، ويقصدَهُ غيرهم للتنزُّهِ والشُربِ فيه، ويَزعمُ المسيحيين أنَّه أوَّلُ ديرٌ عُمِلَ للمسيحية، وإنَّ المسيحَ عليه السلام كانَ يأوي إليهِ، ومنهُ دعا الحواريينَ، وفيه حجرٌ ذكروا أنَّ المسيحَ كان يجلس عليه، فكلُّ من دخلَ الموضعُ كسر قطعةٌ من ذلك الحجر تبرَّكاً به، وعُمِلَ هذا الديرُ في الموضع على اسم المسيح عليه السلام[٢].

4ً- دير الطور:

أشارَ العُمري إلى أنَّ الطورَ جبلٌ مُستديرٌ مُتسعُ الأسفل لا يتعلَّقَ به شيءٌ من الجبال، وليس إليه إلَّا طريق واحد بين طبريَّة واللجُون، وهو مشرفٌ على الغورِ والمرج وطبرية، وإنَّ في قبلي الجبلَ ديرٌ سُمِّيَ باسمه، وهو مبنِيٌّ بالحجرِ، و حولَهُ كروم كثيرة، وبالمُقارنة سمَّاهُ الشابشتي بدير التجلِّي، لأنَّ المسيحَ تجلَّى لتلامذته عليه، وموقعِ هذا الديرُ حَسنٌ، وهو من المواضع الطيّبَة، يقصدهُ الناس من كلِّ موضعٍ فيقيمونَ به، ويشربونَ فيه[٣].

5ً- دير صلِيبا[٤]:

سمَّاه العُمري بديرِ السَّائِمَة، وذكَرَ أنَّهُ يقعُ في دمشقَ، ويطلُّ على الغوطة، وهو موضعٌ نَزِهٌ كثيرُ البساتين، وبناؤهُ حَسنٌ عجيبٌ، وذكرَ أبو الفرج الأصبهاني أنَّهُ ديرٌ جميلٌ، يُشرِفُ على غوطة دمشق، وبجانبه دير للنساءِ، فيه رهبانٌ و رواهب[٥].

6ً- دير مُرَّان:

حدَّدَهُ العُمري بالقرب من دمشق على تلٍ في سفح جبل قاسيون، وذكرَ أنَّه مبنيٌّ بالجصِّ، وإنَّ أكثرَ فرشُهُ بالبلاط الملوَّن، وفي هيكله صورةٌ عجيبةٌ دقيقةُ المعاني، وقلاليَهُ دائرة به، وأشجارُهُ مُتراكبة، وماؤهُ يتدفَّقُ، ووصِفَ بأنَّه ديرٌ جميلُ البناء، ومشرفٌ على مزارعٍ ورياضٍ نَزِهَة[٦].

---

[١] الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٥٢٥، ٥٢٦.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٧١؛ الشابشتي: الديارات، ص٢٠٤.

[٣] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٧١، ٣٧٢؛ الشابشتي: الديارات، ص٢٠٧- ٢١٣.

[٤] الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٥١٩.

[٥] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٨٠؛ أبو الفرج الأصبهاني: الديارات، ص٢١. وللمزيد: زيات: الديارات النصرانية، ص١٦٤- ١٧٠؛ عواد(كوركيس): ذيل ديارات الشابشتي، دار الهدى للثقافة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص٣٣٩، ٣٤٠.

[٦] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٨٣؛ ابن محمد الدمشقي: البدور المسفرة، ص٣٤-٤٧؛ ابن فضل الله المُحبي: نفحة الريحانة، ج٢، ص٩٦-٩٨.

7ً– دير صِيدنَايَا:

أشارَ العمري إلى أنَّهُ مُشرفٌ على غوطة دمشقَ، ولهُ بُستانٌ به مياهٌ جارية، وعليه أوقافٌ كثيرةٌ، ولهُ مغلاتٌ واسعةٌ، تأتيَهُ النذورَ الوافرةَ، ويقصدُهُ الصليبيين للزيارة[١].

د– ج– ذكر نماذج من مدن مملكة الشام:

ذكرَ العُمري أنَّ مملكةَ الشام قواعدٌ عدَّة، **هي:**

1ً–(قاعدة دمشق): وقد قسَّمَها إلى أقسامٍ عدَّة، **هي:**

***–الصفقة القبلية:**

وهي بلادُ حُوران والغُور، وتضمُّ عشرة أعمالٍ، **أشهرُهَا:**

– عَجْلُوْن:

ذكرَ العُمري أنَّها مدينةٌ قديمةٌ، تقعُ بينَ الأُردن وبلاد السراة، ولها قلعةٌ مُحدثةٌ صغيرةُ المقدار، مبنيَّةٌ على جبلٍ مُطلٍّ على الغور يُعرف بجبل عَوف، وقد بناها أُسامة بن مُنقذ الشيزري أيام الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وكانَ مكانُها ديرٌ يسكنهُ راهباً اسمهُ عجلون، فسُمِّيت باسمه، وبالمُقارنة سَمَّاها أبو الفداء الباعونة، وذكرَ أنَّها حصنٌ من الإقليمِ الثالث من الأُردن في جبل الغُور قُبالة بيسان، ولها بساتينٌ ومياهٌ جارية، بينما أشارَ شيخ الرَّبوة إلى أنَّها مدينةٌ حسنةٌ ذاتُ مياهٍ جاريةٍ، وفواكهٍ وأرزاقٍ غزيرةٍ، وفيها حُصنٌ حَسنٌ حَصِينٌ[٢].

– صرخد[٣]:

ذكرَ العُمري أنَّها مدينةُ حُوران العُليا، وهي مدينةٌ قديمةٌ، وقلعتُها مُحدثةٌ بُنيتْ قبل الشهيد نور الدِّين محمود بن زنكي، ولما جاءَ عسكرُ هولاكو بعدَ أخذ دمشق هدمُوا شُرفَاتها، فجدَّد الملك الظاهر بيبرس تحصينها وتحسينها، وبالمُقارنة ذكرَ ابن سعيد المغربي أنَّها قاعدةُ جبل بني هلال، وليس وراء عملها من جهة الجنوب وإلى الشرق إلَّا البريَّة، ويسلَكُ من شرقِيها طريق يُعرفُ بالرَّصِيف إلى العراق، بينما أوردَ أبو

---

[١] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٨٥، وللمزيد: زيات(حبيب): خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا، دار المأمون للنشر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م، ص٣٣.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦١؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٤، ٢٤٥؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠، ٢٥٦، وللمزيد: سباهي زاده : أوضح المسالك، ص٤٦٤.

[٣] البكري: معجم ما استعجم، ج٢، ص٨٣١؛ الحازمي: الأماكن، ج١، ص٦١٦؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، مج٢، ص٨٣٨.

الفداء بأنَّها بلدةٌ من الإقليم الثالث من حُوران من أعمال دمشق، وهي مدينةٌ صغيرةٌ ذاتُ قلعةٍ مُرتفعةٍ وكرومٍ كثيرةٍ، وليس لها ماء سِوى ما يُجمَع في الصهاريج والبُرك[1].

– بُصرَى:

قال فيها العُمري: « هي مدينةُ حُوران السُّفلى، بل حوران كلَّها، بل الصفقة جميعها، وهي قصبةُ حُوران، ومدينةٌ على سيفِ البريَّة»، وبالمُقارنة ذكرَ أبو الفداء أنَّها مدينةٌ من الإقليم الثالث من كُورة حُوران، تقعُ على بُعد أربعة أميالٍ عن دمشق، وهي مدينةٌ أزليَّةٌ مبنيَّةٌ بالحجارةِ السُّودِ مُسَقَّفَة بها، ولها قلعةٌ ذاتُ بناءٍ متينٍ شبيه ببناء قلعة دمشق، وحولَها بساتينٍ حَسنة، بينما أشارَ الحميري أنَّ في شرقيها بُحيرةً تجتمعُ فيها مياهُ دمشقَ، وتسيرُ منها في صحراءٍ ورمالٍ مقدار خمسة عشر فرسخاً، فتدخل دمشقَ[2].

***– الصفقة الساحلية:**

وهي أربعةُ أعمال، **أشهرُهَا:**

– بيروت[3]:

ذكرَ العُمري أنَّها ثغرٌ على ضفَّة البحر، وعليها سورٌ من حجارةٍ، وبها جبلٌ فيه مَعدنُ الحديد، ولها غيضةٌ من أشجار الصنُوبر، تكسيرُهَا اثنا عشرَ ميلاً يتَّصلُ بلبنان، وشربُ أهلُها من الآبار، وبالمُقارنة أشارَ ابن سعيد المغربي إلى أنَّها بَنْدَرُ فُرضَةُ مدينة دمشق.

وذكرَ أبو الفداء بأنَّها مدينةٌ من الإقليمِ الثالث من دمشقَ، على ساحل البحر، وهي ذاتُ بُرجين، ولها بساتينٌ خصبةٌ، ونهرٌ جارٍ، بينما ذكرَ الحميري أنَّ بينها وبين دمشقَ يومين، وفيها ثلاثُ عجائبٌ، و يشربُ أهلُها من الآبارِ[4].

***– الصفقة الشرقية الشمالية:**

وهي البلاد الحُمصيَّة، ولها **أربعةُ** أعمالٌ أشهرُها:

– السلمية[1]:

---

[1] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٢؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٢؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٨، ٢٥٩.

[2] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٢؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٠٩.

[3] الحازمي: الأماكن، ج١، ص١٤٨؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٧٥؛ ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٧.

[4] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٣؛ ابن سعيد المغربي، الجغرافية، ص١٥٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٦، ٢٤٧؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٢٢، ١٢٣، ووصفَها الإدريسي بأنَّها مدينةٌ على ضفَّةِ البحر المالح، عليها سور حجارة، كبيرة واسعة، وبمقربةٍ منها جبلٌ فيه معدنُ حديدُ طيِّب جيِّد القطع، ويُستخرَجُ منه الكثير، ويُحمل إلى بلاد الشام، ولها غيضةُ أشجارُ صنوبرٍ مما يلي جنوبها تتَّصل إلى جبلِ لبنان، و شرب أهلها من الآبار. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧١.

ذكرَ العُمري أنَّها مدينةٌ صغيرةٌ في البادية ما بين حمص وحلب، وهي ذاتُ عيونٍ جاريةٍ، وثمرات حسنة، وبالمُقارنة أشارَ أبو الفداء إلى أنَّها بلدةٌ من الإقليمِ الرابع من أعمال حمص، وهي بلدةٌ نَزِهةٌ ومياهُهَا قُنى، ولها بساتينٌ كثيرةٌ، بينما ذكرَ الحميري أنَّها بلدةٌ على طرف البرية على بُعد مرحلةٍ من حمصَ، وهي حصنٌ صغيرٌ عامرٌ آهلٌ، في حين ذكرَ سبَاهي زَادَه أنَّها من أعمالِ حماة وبينَهُما مسيرة يومين، وبينها وبين حمص قبر النُّعمَان بن البشير، ووصفهَا بالمدينة الخَصبة الرَّخيَّة، والكثيرة الأشجار[٢].

– قارا[٣]:

ذكرَ العُمري أنَّها مدينةٌ من أعمال حمص، بينما أشارَ أبو الفداء إلى أنَّها قريةٌ كبيرةٌ بينَ دمشق وحمص، وهي منزلُ القوافل بمُنتَصف الطريق بينَ حمص و دمشق، وتبعدُ عن حمصَ مرحلةٍ ونصفْ، وعن دمشقَ مرحلتين، وذكرَ سبَاهي زَادَه أنَّ أغلب أهلُها نصَارَى[٤].

2ً– (قاعدة حلب):

أشارَ العُمري إلى أنَّ أعمالَ هذه القاعدة كثيرةٌ، ومنها قلاعٌ وحصونٌ، ومنهُ ما ليسَ لهُ قلعةٌ، وعدَّة الجميع ثلاثة وعشرون عملاً، من **أشهرِها:**

***– قِنَّسرِين[٥]:**

وصفُهَا العُمري بالمدينة الكبيرة، و ذكرَ أنَّ حلب وكلّ الممالكِ لا تُنسَب إلَّا إليها، وكانَ لا يُقال: إلَّا أعمال قنِّسرين، وكان بها سورٌ عظيمٌ هُدِمَ بأمر الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، وبقيتْ لها رسومٌ هي في زمن المؤلِّف خرابٌ.

وبالمُقارنة ذكرَ ابن سعيد المغربي أنَّها كانتْ قاعدةُ جُنداً من أجناد الشامَ، ثمَّ ضَعُفَتْ بقوَّة حلبَ، وهي في زَمَنه قريةٌ صغيرةٌ، يصبُّ تحتها نهرُ قويقَ في البَطْح، بينمَا أشارَ أبو الفداء إلى أنَّها مدينةٌ من الإقليم الرابع من قَواعدِ الشامَ القديمةَ، وكان ينزلها الجندُ في ابتداء الإسلام، ولم يَكُنْ لحلب معها ذكرٌ، في حين

---

[١] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٦؛ البكري: معجم ما استعجم، ج٢، ص٧٥١.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢، ص٢٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٤؛ الحميري: الروض المعطار، ص٣٢٠؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٣٩٢. وذكرَ ابن حوقل أنَّ الغالب على سكانِها بنو هاشم. ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٨٦.

[٣] الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٢٩٥.

[٤] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٢٩، ٢٣٠؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٥٠٢.

[٥] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٤؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٥٤؛ ، ٤٧٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٧٨؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٦٤٨؛ الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٠٣.

ذكرَ الحميري أنَّ بينها وبين حلبَ اثنا عشر ميلاً، ولها حصنٌ منيعٌ، وبها أسواقٌ وفعلةٌ، وعندما يصلَ إليها نهرُ قويق يَغُوصُ في الأجمَّةِ[1].

***- مدينة شيزر:**

أشارَ العُمري إلى أنَّها كانت دارَ أمان مُفردة لبنِي مُنقذ، وهي مدينةٌ صغيرةٌ على نهر العاصي، ولها قلعةٌ، وذاتُ أرضٍ رخيَّةٍ خِصبةٍ، وبالمُقارنة ذكرَ سبَاهي زَادَه أنَّها مدينةٌ مُحصَّنَةٌ، كثيرةُ الفواكه[2].

***- مدينة مَنبِجْ:**

وصفَهَا العُمري بالمدينةِ الحَسنة، وذكرَ أنَّ بقعتَها من أطيب البقاع، وهي مدينةٌ واسعةٌ، صحيحةُ الهواء، ولها جسرٌ على نهر الفُرات، وبالمُقارنة قال فيها أبو الفداء: « مدينة كثيرة القنى السارحة والبساتين، وغالب شجرها التوت لأجل دود القز، سورها متسع كبير وغالب السور والبلد خراب»[3].

3ً-(قاعدة صفد):

ذكرَ العُمري أنَّها تقعُ في سفح جبلٍ على مسافة يومين من دمشقَ، وهي صحيحةُ الهواء، خفيفةُ الماء ويُحمل إليها على الدواب من واديها، وحمَّاماتها قليلةُ المياه سيِّئةٌ، وبعد تخريب عكَّا بقيتْ صفد قاعدةً للساحلِ، وللمدينة قلعةٌ، وصفَهَا العمري بقوله: « لا شبيهَ لها، كأنَّما عليهَا من ذهبِ الأصيل تمويهُ، لا ترومَ السُّحب إلَّا من صببٍ، ولا يطوفَ عليها سوَى الشفق لمدامِ عليه من مواقعِ النُّجوم حبَبٍ، ولا تُجَاوِزَ الأرض إلَّا وهي إذا رامتْ السمَاء لا يعوقَهَا سببٌ، ولما فتحَهَا الظاهر بيبرس عَظُمَ أمرُهَا، وهي تستحقُّ التعظيم، وتستوجبُ الرَّفعة بما رفعَ الله من بنائِهَا العظيمِ».

وبالمقارنة ذكرَ أبو الفداء أنَّها من الإقليم الثالث من الأُردن، وهي متوسطةٌ بين الكِبَر والصِغَر، ولها قلعةٌ حصينةٌ ذاتُ بناءٍ جيدٍ متين، تشرفُ على بُحيرةِ طبريَّة، ولها قناةٌ برسم الشُّرب تصلُ إلى باب قلعتِها، وبساتينُها في أسفل الوادي من جهة طبريَّة، وتنتشر عمارةُ ربضها على ثلاثة جبالٍ، ولها عملٌ مُتَّسعٌ[4].

وذكرَ العُمري أنَّ لها أعمالٌ عدَّة **أشهرُهَا:** ولاية الناصرة[1]، وولاية طبريَّة ذاتُ البحيرةِ المشهورة والحمَّة العجيبة[2]، وولاية تبنين وهونين، وغيرها.

---

[1] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢، ص٢٢؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٥؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٦، ٢٦٧؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٧٣.

[2] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢، ص٢٣؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٤٢٩، وللمزيد عن شيزر: أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص٣٥٢.

[3] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢، ص٢٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٧١.

[4] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٧٢، ٣٧٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٢، ٢٤٣، وللمزيد عن وضع مملكة صفد في عصر المماليك: الطراونة(طه ثلجي): مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

4ً-(قاعدة غزة):

حدَّدَ العُمري موقعها بين مصرَ ودمشق، وأشارَ أنَّه دُفِنَ بِها هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وبِهَا ولِدَ الإمام الشافعي، وذكرَ أنَّها مبنيَّةٌ بالحجر والكلس، ووصفها بقوله: « موثقةُ البناء على نشزٍ عالٍ على نحو ميلٍ عن البحر الشامي، وهي ذاتُ هواءٍ صحيحٍ وماءٍ مُصرف هاضم لا يُستَلَذُّ، وشرب أهلها من الآبارِ، ولها مَجمعٌ للمطر، وفيها فواكةٌ منها العنب والتين، وبها مارستانٌ، و مدارسٌ، وتُرَبٌ، وفيها طائفة من العسكر والعرب والتُركمان، وهي آخذةٌ من البرِّ والبحر بجانبيها مُتصلة بتيه بني إسرائيل، وفي قبليها زرعٍ وماشيةٍ، وهي موضعُ مَجمعُ باديةٌ وحاضرةٌ، وأهلها عشائرٌ أعداء لبعضهم، لا يستقرُّ بها ظاهرٌ ولا باطنٌ ولا يطمئنُ فيها ساكنٌ».

وبالمُقارنة ذكرَ القزويني أنَّها مدينةٌ طيّبَةٌ بين الشام ومصر على طرف رمال مصرَ، وأشارَ الحميري أنَّها بلدةٌ بديار جذامٍ من مشارف الشام على ساحل البحر[٣].

ومن قواعد بلاد الشام التي تحدَّثَ عنها العُمري: حمص، وحماة، وحلب، وطرابلس، والكرك، والشوبَك، والقُدس، وقد تمَّ استيفاء كاملَ المعلومات عنها فيمَا سَبَقْ.

د- المآخذ على الموسُوعة:

رُغمَ أهمِّيَّة موسُوعة مسالك الأبصار لكنْ من الممكن توجيه انتقاداتٍ عدَّة لها، و صراحة أكَّد العُمري ذلك بقوله: « والرغبةُ إلى مَنْ وقفَ على هذا الكتابُ، ووقعَ منهُ نظرة على خطأٍ أو صوابٍ، أنْ يصفحَ عمَّا جنحَ فيه القلمُ إلى الزَّلِلِ، وتخطَّى إليه الفكرُ من الخطلِ»[٤]، وحقيقةً لا يُعرفُ ما الأسباب التي دفعتْ العُمري للتصريح بمثلِ هذا القول؟، فهلْ سمعَ أخباراً من أُناسٍ ولمْ يتأكَّدْ من صحَّتِهَا، وهلْ استقَى معلومات من مصادر ولمْ يتحقَّقْ منها؟!. فإذا كانَ هذا السببُ فبذلك يكون العُمري قد خالف ما بدأ به عندما قال: « فإنْ نقلتُ عن بعضِ الكُتب المُصنَّفة في هذا الشأنُ، فهو من الموثوق به...، ولمْ أذكرْ عجيبةً حتَّى فحصت عنها»[٥]، ولعلَّ من أبرز الانتقادات التي توجَّه للموسوعة ذكرَهُ أنَّه نقل كثيرٌ من

---

[١] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٧٣، وللمزيد عنها: الحميري: الروض المعطار، ص٥٧١؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣، ص٢٨٤.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٧٣، وللمزيد عنها: الحميري: الروض المعطار، ص٣٨٥؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣، ص١٣٠، ١٣١.

[٣] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٧٩؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٢٧؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٢٨.

[٤] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١١٨.

[٥] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٠٩، ١١٠.

الأخبار عن مصادرٍ مجهولةٍ، وهذا مخالفٌ لما ذكرهُ في منهجه بأنَّه ذكرَ مصادره بأمانة، ومثالها ترجمتَهُ لابن النفيس عندما أوردَ عبارة: « ونقلتُ من ترجمته في مكانٍ لا أعرف من هو الَّذي وضعَهُ»[١].

ونقلَ العمري كثيراً من الأخبار عن مصادرٍ عدَّة، وتجاوزَ نقلهُ منها صفحات بأكملها دونَ أنْ يشرَ إليها، ومثالُ ذلك ما أخذهُ عن مُعجم الأُدباء لياقوت الحموي، وتنطبقُ عليه صفة الجُغرافيُّ الناقل، فقد أوردَ الأخبار دونَ أنْ يُناقشها أو يحلِّلُها وينقدُهَا، ولمْ يُرجِّحْ صحَّتُهَا أو يُضعفُهَا، ومثالها ما ذكرهُ عن قُصة وصول سفينةٍ إلى شواطئِ الصينَ تحملُ ثلاثة آلافٍ وسبعين رجُلاً مع بضاعتهم في سفرةٍ واحدةٍ[٢]، فهلْ من المعقولِ أنْ تحملَ سفينةٌ هذا العددُ في ذلك الوقت؟.

وأطلقَ العُمري تسمياتَ غير صحيحةٍ على عدد من الأماكن، فتسميتَهُ للباب الثامن عن الحبشة جاء مُخالفاً للحقيقة، وغير دقيقٍ قياساً لكلٍّ من سبقَهُ أو عاصرَهُ من الجُغرافيين الَّذين أكَّدوا أنَّ ممالكَ المسلمين في الحبشة تشملُ أكثرَ من ذلك، وأكَّدَ القلقشندي ذلك بقولهِ: « وأهملَ المُقِرُّ الشهابي ابنُ فَضِل الله في ممالكِ الأبصار بلاداً عدَّة من ممالك الحبشة، منها مقديشو وعوان ودهلك»[٣]، كما وقعَ بأخطاءٍ عدَّة عند حديثِهِ عن الحبشة، منها قولَهُ: أنَّ نهرَ سيحون يمرُّ بها، ويزوِّدُ النيل بالماء، و ماؤهُ حلوٌ غير مالحٍ[٤]، لكنْ الحقيقة أنَّ نهرَ سيحون يقعُ في بلادِ ما وراء النهر، و ينقسمُ نهرُ الفردوس إلى سيحونَ وفيشونَ ودجلةَ والفُرات[٥]، والنهر الَّذي قصدَهُ هو النيل الأزرق أو أبَّاي المعروفُ عندَ الأثيوبيين ببريجونَ أو جيحونَ[٦].

ووقع العُمري بالتناقض عند حديثه عن أطوال كثيرٍ من البُلدان وعروضها، فمثلاً حدَّد طول ممالك الحبشة بثلاثةٍ وأربعينَ يوماً، ثمَّ عاد وذكر أنَّ مملكةَ أوفاتُ طولُها خمسة عشر يوماً، ومملكة بالي[٧] عشرون، ومملكة هديَّة ثمانية، وشرحا[٨] ثلاثة، ودوارو[٩] خمسة، وأرابيني[١٠] أربعة، وداره[١] ثلاثة أيام، فيكونُ

---

[١] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٩، ص٣٥٩.

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢، ص١٩٨.

[٣] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٣١٩، ٣٢٠.

[٤] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٤٠.

[٥] الرازي(محمد بن أبي بكر): مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص١٣٦.

[٦] جوبان(محمد محفوظ): انتشار الإسلام في الحبشة، منشورات جامعة الموصل، ٢٠٠١م، ص٢٨٧.

[٧] إحدى ممالك الطراز الإسلامي تقع جنوب مملكة دارة، وهي أكثرُ الممالكُ خصوبةً، وأهلُها أحنافٌ. المقريزي(أحمد بن علي): الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة، ١٨٩٥م، ص٨.

[٨] إحدى ممالك الطراز الاسلامي، تقعُ جنوب غرب مملكة أوفات، وأهلُها أحنافٌ. صديق(عمر سلهم): الحركة الصليبية في ساحل شرق أفريقية، منشورات جامعة الموصل، ٢٠٠١م، ص٥٤.

[٩] إحدى ممالك الطراز الإسلامي، تقعُ جنوب مدينة شوا، وأهلُها أحنافٌ. المقريزي: الإلمام من بأرض الحبشة، ص٧.

[١٠] إحدى ممالك الطراز الإسلامي، تقعُ قرب بحيرة تانا، وأهلُها أحنافٌ. صديق: الحركة الصليبية، ص٥٣.

مجموعُهَا ثمانية وخمسين يوماً، ووقع أيضاً في خطأ تحديد عرضها، فحدَّدَهُ بأربعين يوماً، لكنَّه في حقيقةِ الأمر ثمانية وأربعون يوماً[٢]، وهذا مخالفٌ لما ذكرَه العُمري ووقعَ في الخطأ نفسه عندما تحدَّث عن لُغة أهلها، إذ ذكرَ أنَّ فيها ستةَ عشرَ حرفاً، ولكلِّ حرفٍ سبعة فروعٍ، وحدَّدَ عددهَا بمئةٍ واثنين وثمانينَ حرفاً، وعند ضرب الأحرف بعددِ الفروعِ، يكونَ مجموعها مئةً واثنا عشرَ حرفاً[٣].

ومن أخطاءه في ذكره للأنسابِ تحتَ باب" ذكر العرب" فذكرَ أنَّ غزيةَ قبيلةٌ مُنفردةٌ[٤]، علمٌ أنَّها فرعٌ من هوزان من قبيلة طيِّء، ولمْ يثبتْ العمري هذا الأمرُ، فنقلَهُ عن كتاب" الأنساب" للحمداني التغلبي(ت ٧٠٠هـ /١٣٠١م)، دونَ التأكد من صحَّةِ ما نقلَهُ، وينطبقُ ذلك على ترجمته لمشاهير العلماء، ومثالُها ترجمة الطبيب ابن النفيس الَّذي قال فيه: « فريدُ الدهرُ وواحده، وأخو كلُّ علمٍ ووالده، إمامُ الفضَائل وتمام الأوائل، والجبلُ الَّذي لا يرقَى عُلاه بالسلالمِ، والحبلُ الَّذي لا يعلق به إلَّا الغريق السالم»[٥]، فقد زعمَ العُمري بأنَّ ابن النفيس حلَّ مصرَ في محلِّ ملكها، غيرُ أنَّ الوقائعَ تشير إلى أنَّ ابن النفيس جاءَ مصر هرباً من الاضطرابات التي عصفتْ بالشام إبَّان الحروب الصليبيَّة وغزوات المغول، وعادَ العُمري ليقعَ بالتناقضِ عندمَا ذكرَ أنَّ في سنة(٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، سلَّم الملك الكامل القُدس الشريف لملك الفرنج، فعانَتْ الشام وسكانها اضطراب الأحوال، ومنهم قرية قُرَشْ التي خرج منها ابن النفيس، ممَّا اضطرَّ أهلها للخروج منها[٦].

كما ذكرَ العمري أنَّ ابن النفيس تتلمذَ في الطبِّ على المُهذَّب الدخوار[٧]، لكنَّ ابن النفيس أوردَ في كتابه المخطوط " شرح كُليات القانون" أنَّ بداية اشتغاله بالطبِّ كان سنة(٦٢٩هـ/١٢٣١م)[٨]، فيما كانت وفاة مُهذَّب الدِّين الدَّخُوار بإجماع المؤرخين سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)[١].

---

[١] إحدى ممالك الطراز الإسلامي، تقعُ جنوب غرب مملكة أوفات، وأهلُها أحنافٌ. صديق: الحركة الصليبية، ص٥٤

[٢] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٣٣- ٤٠.

[٣] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٤٠.

[٤] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٧٩؛ وقد أكَّد القلقشندي أنَّ غزية هي فرع من طيِّء وليسَ كما زعمَ ابن فضل الله العمري. القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص٣٢٣؛ القلقشندي(أحمد بن علي): قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٨٨. وللمزيد: العزاوي(عباس): عشائر العراق، بغداد، ١٩٣٨م، ج٤، ص٧٩- ٨٦.

[٥] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٩، ص٣٥٧.

[٦] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ص١٧٣.

[٧] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٩، ص٣٥٧.

[٨] ابن النفيس(علي بن أبي الحزم): شرح كُليات القانون، مخطوط مكتبة الإسكوريال، إسبانيا، رقم ٩٠٥، الورقة ٣ أ.

وممَّا يوجَّهُ لهُ من نقدٍ أنَّه لمْ يُبدِ رأياً فيما أجمعَ عليه المؤرخون، ومثالُها حديثه عن الدولةِ الإسلامية في عصر الأمويين والعباسيين[٢]، فمنذُ سنة(٥٤١– ٦٩٢هـ/ ١١٤٦– ١٢٩٣م) اعتمدَ على المُختصر لأبي الفداء، و نقلَ عنه بشكلٍ حرفي[٣] إلى حدِّ أنَّه لمْ يورد شيئاً غير ما أوردَهُ أبو الفداء، ولمْ يُغيّرْ ببعض الألفاظ التي تستدعي أمانة النقل، فأورد الأحداث السياسية وتراجم أعلام الدولة حتَّى(٦٩٢هـ /١٢٩٣م) كما عمل أبو الفداء فقط، وبعد هذه السنة ترجمَ لكلِّ علمٍ من الأُدباء والفقهاء وغيرهم، مما يدلُّ على ابتداء نَقلهِ من مصدرٍ آخر.

وأخطأ العُمري في نسبة بعضٍ منَ الكُتب لأصحابها، ومنها قوله: « قال التيفاشي[٤] في كتابه: سرور النفس بمداركِ الحواس الخمس»[٥]، وحقيقةٌ أنَّ كتاب التيفاشي هو" فصل الخطاب في مداركِ الحواس الخمس لأولي الألباب"[٦] ويقع في أربعٍ وعشرين مُجلَّدة مُختصَّة بأنواع العلوم والآداب، وعلى هذا فأنَّ العُمري قد خلطَ بين مُختَصر كتاب ابن منظور الموسوم بـ" سرور النفس"[٧]، وبين الكتاب الأصلي؛ مما يدلُّ أحياناً على عدمِ دقَّتِهِ في ذكر مصادرِ معلوماتِهِ.

---

[١] أبو شامة المقدسي(عبد الرحمن بن إسماعيل): الذيل على الروضتين، مراجعة: عزت الحسني، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م، ص١٥٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٦٨؛ الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٣٠؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٨، ص٣٨٣؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص٣١٥؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٦٥.

[٢] للمزيد ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٤.

[٣] منها مثلاً: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ص٣٦، ٣٧ وغيرها؛ ليقُارن مع أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٣٧.

[٤] شهاب الدِّين أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي، عالمٌ بالحجارةِ الكريمة والأدب، تعلَّم بمصرَ، وتوفي بها سنة(٦٥١هـ/ ١٢٥٣م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٨٨؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج١، ص٢٤٧؛ مخلوف(محمد بن محمد): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م، ص١٧٠.

[٥] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣١٢.

[٦] ابن منظور: نثار الأزهار، ص٢.

[٧] ابن منظور(محمد بن جلال): سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ص١.

الفصل الرابع

الأدب الجغرافي- الرحلات العربيّة إلى بلاد الشام

الأدب الجُغرافي- الرحلات العربيَّة إلى بلاد الشام

تُشكِّل الرِّحلات أكثرَ الدارسات تثقيفاً للإنسان، فالاختلاط مع الشعوب المُختلفة، والاجتهاد في دراسةِ أخلاقهم وطباعهم، والتحقيق في دياناتهم ونُظم حكمهم، تضعُ أمام الفرد تقييماً لنظم وتقاليد البلدان والمواطن، وفي الحقيقة عُرِّفَت الرحلة وأدبها بتعاريفٍ عدَّة، منها:

أولاً- تعريف الرحلة وأقسامها:

١- تعريف الرحلة وأدبها:

أ- الرحلة لُغةً:

الرِّحلة لُغةً مأخوذة من الفعل رَحَل، وهي تدلُّ على المُضي في السفر[١]، و الترحُّل والارتحال اسم للارتحال للمسير، فمثلاً يُقال: رحلَ وارتحلَ وترحَّل فُلان أي بمعنى سارَ[٢]، فالرِحال شدادُ العالم بالسفر أيّ الانتقال[٣]، وجاءت كَلمتا الترحِيل والرِحَال بمعنى الإشخاص والإزعاج، يُقال: رَحَلَ الرَّجُل إذ سار وأرحلته أنا، و رجَلٌ رحُولٌ وقومٌ رُحَّل أي يرتحِلون كثيراً، فالرِّحلة بمعنى الارتحال تعني الانتقال من مكان لآخر وهي الرِحلةُ و الرِّحلة، والرِّحلة بكسر الراء تعني اسم الارتِحال والسير، يُقال مثلاً: دَنَت رحلتُنَا، أمَّا الرُّحلة بضم الراء، فتعني المكان الذي يُريد أن يقصدهُ الرحَّالة، فيُقال مثلاً: أنتمْ رحُلتي ويُقصد بها الَّذين ارتحلَ إليهم[٤].

وبهذا تدلُّ الرحلة على معانٍ عدَّة **منها:** السير، والانتقال، والوجهة أو المقصد الذي يُراد السفر اليه، ولهذه المعاني كلَّها كان لفظ رحلة يُطلق على من انتقل من مكان لآخر، ومنه أُشتقت لفظ رحَّال[٥]، وهي بذلك كلَّها تدلُّ على الحركة التي يتحقق من خلالها أهداف معينة[٦]، وقد أشار إلى ذلك المسعودي بقوله: «

---

[١] ابن فارس(أبو الحسن أحمد): معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٧٩م، ج٢، ص٤٩٧.

[٢] ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٢٧٦.

[٣] الزبيدي(محمد مرتضى): تاج العروس من جواهر القاموس، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٠م، ج٧، ص٣٤٠.

[٤] ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٢٧٦ - ٢٧٨.

[٥] نواب(عواطف محمد): الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٦م، ص ٤٠.

[٦] الموافي(ناصر عبد الرزاق): الرحلة في الأدب العربي حتَّى نهاية القرن الرابع، مكتبة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٣

ليس من لَزِم جهة وطنه وقنع بما نُمي إليه من الأخبار عن إقليمه، كمنْ قسمَ عُمره على قطع الأقطار، ووزَّع أيامهُ بين تقاذف الأسفار، واستخراج كلِّ دقيق من معدنهِ، وإنارة كلَّ نفيس من مكمنهِ»[١].

ب- الرحلة اصطلاحاً:

وجدت تعاريف عدَّة للرحلة اصطلاحاً، وكلَّها تحمل ذات المعنى، فمنهم من قال: إنَّ الرِّحلةَ تعني الخُروج من الوطن بقصد السياحة في المناطق المعمورة لمقاصد شتى، وعُرِّفت بأنَّها انتقال واحد أو جماعة من مكان لآخر، لمقاصد مختلفة، وأسباب مُتعدِّدة[٢] سواء كانت مادية أو معنوية[٣]، وقيل: بأنَّها نوع مُخالطة مع زيادة تعب ومشقَّة، وبالتالي هي احتكاكٌ بالآخر بعد الجهد والتعب الناتجَيْن من الانتقال والحركة[٤]، وبذلك تكون إنجازاً أو فعلاً أو مباشرة لِمَا يُعنيه، أو يقضيه أمرُ اختراق حاجز المسافة، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه، والمكان الذي تنتهي إليه، وقد تكونُ إنجازاً صعباً وشاقاً على الطريق بين المكان والمكان الآخر[٥].

أمَّا أدبُ الرِّحلة فهو مجموعةُ الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مُختلفة، ويسجِّل فيها عاداتُ وسلوك وأخلاق سُكان البلاد التي زارها والمناظر الطبيعية التي شاهدها[٦]، وبالتالي هي فنٌّ من فنونِ القول العربي، يصف مجالات الحياة عند الرحَّالةِ الذي سجَّلَ رحلته، أو حكاها لغيره ثمَّ سجَّلها[٧] ولعلَّ أوَّلَ مَنْ سمَّى هذا النوع من الكتابة باسم الرحلة هو ابن جبير، وهو بذلك مؤسس فن الرحلة[٨].

٢- أقسام الرحلات:

تباينت أقسامُ الرحلات التي قام بها الرحالة من حيثُ طبيعتها وأهدافها، وعلى هذا الأساس يُمكن تقسيمها إلى الرحلات **الداخليَّة** داخل القطر الواحد، وهي الرِّحلة التي يقوم بها الرحَّالة داخل حدود بلده، ومثالها

---

١ المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٣.

٢ البستاني(بطرس): دائرة المعارف، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٨٤م، مج٨، ص٥٦٤.

٣ الصعيدي(عبد الحكيم عبد اللطيف): الرحلة في الإسلام(أنواعها وآدابها)، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ، ط١، ١٩٩٢م، ص٥.

٤ أبو حامد الغزالي(محمد بن محمد): إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م ، ص٧١٣.

٥ الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص١١.

٦ وهبة و المهندس(مجدي و كامل): معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م، ١٩٩٤م، ص١٧.

٧ أبو بكر محمد(أسماء): ابن بطوطة- الرجل والرحلة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص١١.

٨ العبدري(محمد): الرحلة المغربية، تح : أحمد بن جدو، مطبعة البعث، نشر كلية الآداب الجزائرية، قسنطينة، ط ١، د. ت، المقدمة ص – ج .

رحلة التجاني(ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) في تونس، والرحلات **الخارجيَّة** التي تبدأ في العالم الإسلامي، وتنتهي في دوَّل غير إسلاميةٍ، ومثالها رحلة ابن بطوطة الطنجي، إلى الصين والهند أو كليهما، وهي في غالبها كانت رحلاتٍ بريةً، ومن أقسام الرحلات، الرحلات **البحريَّة** في بحرِ الظلمات(المُحيط الأطلسي)[١].

في حين قسَّم بعضهم الرِّحلات إلى أقسام عدَّة منها:

الحجازيَّة: يكتبُها صاحبها بعد قضاء فريضة الحج، **السياحيَّة:** وغايةُ صاحبها السياحة، **الرسميَّة:** ويُرافق الرحَّالة فيها الملوكُ ورجال الدولة في أسفار رسمية، **العلميَّة:** ويتغرَّب فيها الرحَّالةُ من أجل طلب العلم، **الأثريَّة:** وغايتُها البحث عن الآثار، **الاستكشافيَّة:** والقصدُ منها استكشاف مناطق وبلاد جديدة والاطلاع على أحوالها، **الزياريَّة:** والهدف منها زيارة أضرحة الأنبياء والأولياء، **السياسيَّة:** ويرجع سببهَا لقضايا سياسية بين بلدين، **المقاميَّة:** و يكتبها الرحَّالة بعد انتقاله من مكان لآخر بهدف الإقامة فيه، **الدليليَّة:** ويصف كتَّابها البلاد التي دخلوها دون ذكر أحوالها الخاصة، وتاريخ ورودهم وصدروهم وشيئاً ممَّا حدثَ لهم، **الخياليَّة:** ويضعها مؤلفُوها نقلاً عن لسان شخص تخيَّل أنَّه سافر إلى أحد البلاد ووصف أحوالها، أو تخيَّلوا أنَّهم هم من ذهبوا إليها ووصفوها، فجاءت رحلاتِهم خيالية، **الفهرسيَّة:** يَقتصرُ مؤلِفُها على ذكر الشيوخ الَّذين قرأ عليهم، والكتب التي درسها معهم، **السفاريَّة:** وغايتها القيام بسفارة لدى دولة أخرى، بتكليف من حاكم الدولة[٢].

أمّا أدب الرِّحلة فيمكن تقسيمه إلى:

أ- أدب الرِّحلة الواقعيَّة:

وهي رحلةٌ قام بها الرحَّالة حقيقة، ضمن مكان وزمان مُعينين، وانتقل فيها من مكان جُغرافيّ مُحدَّد إلى مكان جُغرافيّ آخر[٣].

ب- أدب الرِّحلة الخياليَّة:

وهي من نسيج خيال الكاتب، تَحدُث ضمن مكان وزمان متخيَّلين يقوم بها الإنسان في مناطق غير حقيقِّيَّةٍ، وتصوَّر مُغامرات خارقة بقصد التسلية وإثارة الخيال، ومثالها رحلات السندباد البحري[٤].

وبذلك تتحدَّد قيمة أدب الرحلة **بفائدتين** علمية وأدبية، إذ تُقدِّم خدمة جليلة لمختلف العلوم في الجُغرافية، ومعرفة البلاد، ومناخها والمسالك والممالك[١]، وفي التاريخ وتسجيل ما حلَّ بالبلاد من عُمران وتخريب،

---

[١] نصار(حسين): أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر لوتجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص١١٣.

[٢] ابن عثمان المكناسي(محمد بن عبد الوهاب): الأكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، الرباط، ط١، ١٩٦٥م، المقدمة ص : خ. ر.

[٣] وتار(محمد رياض): توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة : دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م، ص٢٠٥.

[٤] وهبة و المهندس: معجم المصطلحات الغربية، ص ١٧٦.

وفي معرفة عادات الناس، وتقلُّبهم في حياتهم، ونظام مجتمعاتهم، كما أنَّها تزخرُ بعناصر أدبيَّة عدَّة الأمر الذي جعلها موضع اهتمام الأُدباء[٢].

ثانياً– نشأة الرحلة عند العرب المسلمين وتطورها في العصر المملوكي:

عَرِفَ العرب قبل الإسلام فوائد الرِّحلة ولاسيَّما الفائدة التجاريَّة، إذ كان كثيرٌ منهم يعمل بالتجارة، ويضطرُّ تبعاً لذلك إلى الارتحال من مكان لآخر، وكان عند العرب نوعان من الرحلة الأولى: داخل أراضي الجزيرة العربية إذ كان التُجَّارُ يرتحلون[٣] ويجتمعون في الأسواق، مثل سوق عدن وصحَّار، وهجر بالبحرين، وغيرها بهدف البيع و الشراء[٤]، والثانية كان يقوم بها التُجَّار العرب خارج حدود الجزيرة العربية إلى بلاد الشام والعراق واليمن وغيرها، فمثلاً كان لقُريش رحلتان واحدة في الصيف إلى بلاد الشام وأخرى في الشتاء إلى اليمن[٥]، قال تعالى: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ* إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾[٦]، وكانت هذه الرحلات تعتمد على معرفة ودِرَاية العرب قبل الإسلام بالبحر ومسالكه، حتَّى أنَّهم عرفوا سرَّ الرياح الموسمية، وأخذها عنهم اليونان، وكشفت مراكبهم مَجاهل المُحيط الهندي إلى الصين[٧].

وبعد ظهور الإسلام تطوَّرت الرحلات عند العرب المسلمين، إذ حثَّ الإسلام الناس على الارتحال ففي القرآن الكريم مفردات عدَّة تدلُّ على الرِّحلة منها: الإسراء، السير، الحج، الظعن، ولفظ رحلَ الذي جاء بمعنى البعير الرَاحِلة[٨] وذلك بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[٩]، وقد حثَّ النبي محمد ﷺ أصحابه على الرحلة في سبيل طلب العلم ونشر الإسلام، قال النبيﷺ: « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة»[١٠] وبذلك تكون الأسفار عاملاً لزيادة العلم بُقدرة الله وحكمته ويكسبُ الرحَّالة من خلالها التجارب ويجلبوا

---

١ حسين(حسني محمود): أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص٦، ٧.

٢ أبو بكر محمد: ابن بطوطة، ص ٣٢.

٣ حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص١٠.

٤ الألوسي(محمود شكري): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تصحيح: محمد بهجت الأثري، دار الكتاب المصري، القاهرة، د.ت، ج١، ص٢٦٤– ٢٦٦.

٥ أنساعد(سميرة): الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى للنشر، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٧.

٦ القرآن الكريم: سورة قريش، الآيتان ١، ٢.

٧ عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار، ص٢٢.

٨ أنساعد: الرحلة إلى المشرق، ص١٧.

٩ القرآن الكريم: سورة يوسف، الآية ٧٠.

١٠ النووي(محي الدين يحيى بن شرف): صحيح مسلم بشرح النووي، تح : محمد سيد عبد رب الرسول، مكتبة أبو بكر الصديق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦م ، ج١٦، ١٧، ص٢١.

مكاسب رحلاتهم[١]، واعتمدت هذه الرحلات على معرفة العرب و المسلمين بالنجوم والكواكب، ليهتدوا بها ويتَّخذوا منها أدلَّة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وبعد حركة الفتوحات الإسلامية والوصول إلى مساحات شاسعة أُتيح للعرب في العصور الوسطى التقدُّم في مجال الرحلات والاكتشافات والانجازات الجغرافية، وقد كان لازدهار الحضارة الإسلامية، وسيادة المسلمين في البر والبحر، وطبيعة الدين الإسلامي، دور في التشجيع على الأسفار والرحلات[٣]، إذ وحَّد العرب المسلمين البلدان التي فتحوها دينيَّاً وثقافيَّاً، وتطلَّبت مسألة إدارتها التعرُّف التام عليها لضبط شؤونها المالية والإدارية بتنظيم الإدارة والبريد والخراج ومن هنا تولَّى الجُغرافيون الرحَّالة الرِّحلة إلى هذه البلدان، ووصف مدنها وسكانها وأحوالها، واستقل بضعهم بوصف المدن والأقاليم، والتعريف بها وبطرقها وبخراجها، فقد ألفَّ ابن خرداذبه كتابه" المسالك والممالك" وقدم فيه تقريراً عن جباية الدولة العباسية، ثمَّ صنف قدامة بن جعفر كتاب" الخراج" وبيَّن فيه الطرق والمسافات[٤].

كذلك اقتضت الحاجة الدينية وصف طرق الحج[٥] لتعيين محطات القوافل ومنازل الحجاج بين البلاد والأماكن المقدسة في الجزيرة[٦]، ولاشكَّ أنَّ طلبَ العلمُ في مراكز البلاد كان يقتضي رحلة طُلابه من أطراف، ومدن عديدة إلى مراكز العلم، فكان ذلك أحد أسباب نشاط الرحلات، ووصف المشاهدات، وتأليف الكتب فيها، وتعدُّ روح المجازفة والمغامرة أحد أهمّ أسباب نشاط الرحلة، ومثالها قضية الفتية المغررين في بحر الظُلمات، كما أسهمت عظمة الدولة العربية الاسلامية على تهيئة الظروف للاتصال القوي مع البلدان الأخرى عن طريق السفارات والبعثات مما فتح الأبواب لمعرفة علمية جديدة أمام الرحَّالة، فتمكنوا من خلالها معرفة أخبار مجاوريهم[٧].

وكانت انطلاقة الرحلة منذ القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادي مع اليعقوبي من خلال كتابه" البلدان" وإلى جانب اليعقوبي شهد هذا القرن رحَّالين منهم سلام الترجمان، و سليمان التاجر الذي يُعدُّ رائد أدب الرحلات البحرية، وغيرهما[٨]، وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ظهرت الخرائط للبلاد

---

١ السنوسي: الرحلة الحجازية، ص٤٥.

٢ القرآن الكريم: سورة الأنعام، الآية ٩٧.

٣ حسن: الرحالة المسلمون، ص٩.

٤ النساج(سيد حامد): مشوار كتب الرحلة قديماً وحديثاً، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م، ص١٠.

٥ حسين: أدب الرحلة، ص١٠، ١١.

٦ النساج: مشوار كتب الرحلة، ص١١.

٧ حسين: أدب الرحلة، ص١٠، ١١.

٨ قنديل(فؤاد): أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٢م، ص ٩١- ١٥١.

الإسلامية، وهو ما يُسمَّى أطلس الإسلام، وظهرت المعاجم التي تضمُّ أسماء الأقطار والأماكن المختلفة، فازداد عدد الرحَّالة بشكل كبير، ووصل بعضهم إلى آفاق بعيدة ، خاصة الأصقاع الشمالية من العالم، مثل حوض نهر الفولجا وبلاد الروس والبلغار وغيرها، وبرزَ في هذا القرن اسم المسعودي في كتابه" مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وابن فضلان الذي أُوفد إلى بلاد البلغار، ثمَّ أعقبته ظهور كتب الرحلات لكلٍّ من الإصطخري وقدامة بن جعفر والمقدسي وغيرهم.

وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي برز دور الرحَّالة الجُغرافي البيروني في كتابه" تحقيق ما للهند من مقولة"، وامتاز القرن السادس الهجري بقوّة الرحَّالة وكثرتهم وأهمّية الآثار التي خلَّفوها والمناهج التي اتَّبعوها في جمع المادَّة وتدوين المشاهدات، ممَّا جعل هذا القرن بُحكم النقلة الحضارية النوعية في مجال تطور الرحلة الجغرافية عند العرب المسلمين، وفي هذا القرن عُرفت الرحلة في المغرب الإسلامي وبرز الرحالة الإدريسي[١] الذي امتاز كتابه" نزهة المشتاق" في غزارة مادته الجغرافية[٢] واشتهرت رحلة ابن جبير، والهروي السائح(ت ٦١١هـ/١٢١٤م)، وغيرهم.

وفي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لمعت أسماء العديد من الرحَّالة وعلى رأسهم القزويني صاحب كتاب" عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، وابن سعيد المغربي الذي رحل إلى الشرق، ودوَّن كلُّ مُشاهداته في كتابه" المشرق في حُلى المشرق"، و الرحَّالة العبدري صاحب" الرحلة المغربية"، وفي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي دُفعت الرِّحلة بتطوُّر كبير على يد الرحَّالة المغربي ابن بطوطة صاحب كتاب" تُحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"[٣]، وبعد القرن الثامن الهجري الهجري أخذت الرحلات عند العرب المسلمين بالانحسار، ولمْ يَعدْ لكتب الرحَّالة بعد هذا القرن الدور الكبير في مجال الجُغرافية[٤] ولا سيَّما بعد ظهور الموسوعات الجغرافية الكبرى[٥].

ومهما يكن فإنَّ مسيرةَ كلُّ رحلةٍ قد وَجَدت الترشيد على الطريق للمعرفة الجُغرافيَّة وذلك لأنَّ الاجتهاد الجغرافي قد بَصرها، ولا ينبغي أنْ تضلَّ وهو في صحبتها، ولأنَّ الحسَّ الجُغرافي الفُطري الذاتي قد بصرها ولا ينبغي أن تضلَّ وهو يرعاها، ولأنَّ التحركَ انساب وتكرَّر مع مسيرة الحركة، ولا ينبغي أن يضلَّ وهو يتعقَّبها، وبذلك كان الاجتهاد الجُغرافي أشدُّ لهفةً، وأكثرَ إلحاحاً على الرِّحلة وتراوحَ الاجتهاد الجُغرافي بين دليل مُحترف يحسنُ توظيفَ حسِّه الجُغرافي الفُطري، يجني ثمرة ترشيد الرِّحلة، وبين رحَّالة هاوٍ يُحسن توظيف حسِّه الجُغرافي ومعرفته الجُغرافيَّة يرشد الرِّحلة على الطرق إلى الغاية التي خرجت

---

[١] قنديل: أدب الرحلة، ص٧٣ – ٧٥.

[٢] حسن: الرحالة المسلمون، ص٥١.

[٣] قنديل: أدب الرحلة، ص٧٦– ٧٩.

[٤] حسين: أدب الرحلة، ص١٥.

[٥] قنديل: أدب الرحلة، ص٨٠.

من أجلها، وبين جُغرافي متخصِّص يشغله التفكير الجغرافي، والتمعن في الرؤية الجغرافية ليصل إلى هدف مُحدَّد من رحلته[١].

ثالثاً– إرهاصات الرِّحلة الجُغرافيَّة في العصر المملوكي:

إنَّ للرحلة الجُغرافية إرهاصات عدَّة، تُعدُّ ضمنَ أحَّد أهمّ المواضيع التي تتعلق بالأدب الجغرافي، وقد تباينت هذه الإرهاصات في **قسمين** من الرحلة، **الأول:** حُظِيَ بكلِّ الاهتمام والعناية وحُسن الانتباه، لأنَّه خدمَ التفتُّح الجُغرافي ونور البصيرة الجُغرافيَّة، وقد دوَّن العرب المسلمين هذا النوع من الرحلات سواء تمثلت في أدب الرحلة أو الأدب الجغرافي، وذلك لأنَّ أصحابها التزموا كثيراً بالصدق والموضوعية، **والقسم الثاني:** من حصاد الرحلات ضيَّعَ بعضهُ الإهمال، ولمْ يُطاوع الانفتاح الجُغرافي، وضيَّعَ بعضهُ الآخر الخلط والتردي في سوءات الكذب والتهويل والتخريف الأسطوري، وقد ترفَّع الجغرافيون العرب المسلمين في العصر المملوكي، وامتنعوا عن تدوين هذا الرصيد وتركوا الأمر لغيرهم[٢].

رابعاً– أغراض ودوافع الرحلات عند العرب المسلمين في العصر المملوكي:

إنَّ السفرَ قد يكون لغرض دُنيوي كالمال والجاه، أو ديني إمَّا علم أو عمل، والعلم إمَّا علم في العلوم الدينية، وأمَّا علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة، وأمَّا علم بآيات الأرض وعجائبها، والعمل إمَّا عبادة، وإمَّا زيارة، والعبادة هو الحجُّ والعُمرة والجهاد، والزيارة لمكة المكرمة، والمدينة، وبيت المقدس[٣] وعلى هذا الأساس فإنَّ جميعَ الرِّحلات التي قام بها الرحَّالة كانت دوافعها دينيَّة، أو علميَّة، أو تجاريَّة، أو للضرورة، أو تمويهيَّة، أو سياسيَّة:

١ – الدوافع الدينيَّة:

وهي من أكثر الرحلات انتشاراً و الدافع لها الحجِّ إلى بيت الله الحرام[٤]، وزيارة الأماكن المُقدَّسة كالمسجد الأقصى[٥]، وزيارة قبور وأضرحة الأنبياء والصحابة والأولياء في دمشق وبغداد والقاهرة وغيرها[٦]، إذ أتاحَ أتاحَ الحجَّ وزيارة الأماكن المُقدَّسة لكثير من الرحالة وصف مشاهداتهم وانطباعاتهم، وهم في طريقهم

---

١ الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص١٢٣، ١٢٦، ١٢٧.

٢ الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص١٣٣.

٣ الغزالي: إحياء علوم الدين، ص٧١٣، ٧١٤.

٤ حسن: الرحالة المسلمون، ص١٠.

٥ الشوابكة(نوال عبد الرحمن): أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتَّى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢٧.

٦ قنديل: أدب الرحلة، ص١٩.

لتأدية فريضة الحجِّ، ثمَّ قاموا بتدوين كل ما شاهدوه عن الأشخاص والأماكن التي مرُّوا بها ، وقد زخرت كتاباتهم بأحوال سُكان البلاد، وعاداتهم، واقتصادهم وغير ذلك[١].

ومن أشهر الرحَّالة الَّذين قاموا برحلات بهدف الحجِّ وزيارة الأماكن المُقدَّسة الرحَّالة العبدري فقد قام برحلته سنة(٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، وبعد عودته دوَّن كلَّ ما شاهده في كتاب سمَّاه" الرِّحلة المغربية"[٢]، ومثله القاسم بن يوسف التجيبي الذي رحلَ إلى الحجِّ سنة(٦٩٦هـ/١٢٩٧م)، ودوَّن التجيبي رحلته في كتابهِ" مُستفاد الرِّحلة والاغتراب"[٣]، وفي سنة(٧٢٥هـ/١٣٢٤م) رحل ابن بطوطة إلى المشرق واستغرقت رحلته خمسة وعشرين عاماً، وقد دوَّن كلُّ ما شاهده من البلاد في رحلته المعروفة رحلة ابن بطوطه التي سمَّاها" تُحفة النظَّار في غرائب الأمصار" وقد هدفَ ابن بطوطه من رحلته على حدِّ قوله الحجِّ، إذ قال: « كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله ﷻ الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام»[٤].

وما من شكٍ أنَّ رحلةَ الحجُّ في كل عام وتكرارها قد خدم الانفتاح بين العرب المسلمين، كما أيقظَ في كلِّ خارج مع الرحلة حسِّه الجُغرافي، و أتاح هذا التحرُّك الاطلاع على الرؤية الجُغرافيَّة، وما تُنبِّئ به عن كثب على كلِّ طريق في الاتِّجاه الصحيح إلى مكة المكرمة[٥]، كذلك كان من الدوافع الدينية للرحلات نشر الإسلام وتعليم فرائضه[٦]، ويندرج ضمن الدوافع الدينية الاختلافات الدينية في بعض البلاد التي أجبرت بعض الرحَّالة على الانتقال من مكان لآخر، بسبب ما تعرَّضوا له من الاضطهاد الديني[٧].

ولعلَّ زيارةَ الأولياءُ وأضرحتهم، تُعدُّ من أهم دوافع بعض الرحالة في القيام برحلاتهم و أشهر هذه الرحلات رحلة أبو الطيب الرندي، صالح بن يزيد(ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) الذي دوَّن رحلته في مُصنف سمَّاهُ" روض الأُنس ونزهة النفس"، و قدَّم فيه وصفاً لمكَّة المكرمة وبيت الله الحرام، وقبور الصالحين، والمدينة المنوَّرة، والحرم النبوي الشريف[٨].

---

[١] نصار: أدب الرحلة، ص١٩؛ العدوي(إبراهيم): ابن بطوطة في العالم الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٥٤م، ص٨.

[٢] العبدري(محمد بن محمد): رحلة العبدري، تقديم: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م، ص٧.

[٣] التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص خ.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٥٣.

[٥] الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص١١٧.

[٦] ابن فضلان: رسالة أحمد بن فضلان، ص٢٢.

[٧] نصار: أدب الرحلة، ص٢٦، ٢٧.

[٨] أبو الطيب الرندي(صالح بن يزيد): روض الأُنس ونزهة النفس، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفلم ٣٥ مم، رقم ١٢، ورقة ٣٠ أ.

٢- الدوافع العلميَّة:

يُعدُّ طلب العلم من أهم الأسباب التي دفعت بعض الرحَّالة للقيام برحلاتهم، وخاصة أنَّ هناك الكثير من العلوم الإسلامية يرتبط بالرِّحلة ارتباطاً عضوياً لا انفصام له، مثل الجُغرافية، ولذلك نجد أنَّ أغلبَ الرحَّالة كانوا من الجغرافيين العرب المسلمين[١]، وقد قطع الكثير من الرحَّالة المسافات للحصول على المعرفة أو لمحاورة عالم، لأنَّ الرِّحلة في طلب العلوم ولقاء مشيخة، مزيدُ كمالٍ في التعليم، والسبب في ذلك أنَّ البشرَ يأخذون معارفهم وأخلاقهم، وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علماً وتارةً تعليماً وإلقاء، فالرِّحلة في طلب العلم لاكتساب فوائد وكمال المشايخ ومباشرة الرجال[٢].

وما من شكٍّ أنَّ التحركَ في طلب العلم قد أتاحَ فرص الاطلاع على الرؤية الجُغرافيَّة، وما تُنبِّئ به عن كثب على كل طريق، وفي كل موقع احتوى أو ضمَّ مجلساً من مجالس العلماء[٣]، إذ يعدُّ علم الجُغرافية من العلوم ذات الصلة الوثيقة بالرِّحلة، و خرج الكثير من الجغرافيين الرحَّالة في طلب العلم وضمَّت مشاهداتهم تسجيلاً في كتبٍ صنَّفوها في هذا المجال، ومثال ذلك الجغرافي ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، الذي صنَّف كتاب" الجغرافية"، واعتمد فيه على رحلاته العلمية، ومعرفته من خلال تجواله في الآفاق الإسلامية[٤].

ويندرج ضمن الدوافع العلمية للرحلات، الاستكشاف الذي يُراد منه استكشاف شيئاً مجهولاً[٥] ومثالها رحلة رحلة ابن بطوطة الذي سافر إلى الصين وبعض جزر الهند لاستكشاف بعض الجزر، ودراسة عادات وتقاليد أهل تلك البلاد[٦].

٣- الدوافع التجاريَّة:

عرفَ العرب الرحلات التجارية منذ الجاهلية، وتطورت الحركة التجارية بعد الفتوح العربية الإسلامية[٧]، فرحلَ التُجَّار العرب المسلمين إلى الهند والصين وأواسط إفريقية وشمال شرق أوربة، وجنوب شرق آسيا وغيرها من المناطق[٨]، وكان كثيرٌ من العرب المسلمين يرحلون في طلب الرزق تطبيقاً لتعاليم القرآن

---

[١] نصار: أدب الرحلة، ص٣٢.

[٢] ابن خلدون(عبد الرحمن): مقدمة ابن خلدون، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠م، ج١، ص٥٣٩، ٥٤٠.

[٣] الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص١١٧.

[٤] ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص٧.

[٥] قنديل: أدب الرحلة، ص٢٠.

[٦] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص١٣٢، ١٣٣.

[٧] حسن: الرحالة المسلمون، ص١٠.

[٨] نصار: أدب الرحلة، ص٢٦.

الكريم في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١]، فالتجارة من أهم الدوافع التي دفعت الرحَّالة إلى تدوين رحلاتهم حتَّى يُعينوا القارئ على معرفة طرق التجارة البرية والبحرية.

ولعلَّ أوَّلَ ما ارتبطت به الرحلات، هو علمُ تقويم البلدان، والمسالك والممالك، لوصفِ الطرق، والمُناخ، والعديد من الأمور الأخرى، وذلك لتسهيل عملية التجارة في مُختلف البلدان والبقاع، وكانت التجارة في موسم الحج ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر، إذ لا بدَّ من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة، وهذه الرحلات لا تخلو من فوائد عظيمة على رأسها نشر الإسلام في البلاد التي يحلُّون بها والتي لم يصلها الفتح الإسلامي[٢]، ويندرج ضمن العوامل الاقتصادية للرحلات الهروب من الغلاء، وسعياً وراء وراء الرخص والوفرة والعمل[٣].

ولعلَّ من أهمِّ التُجَّار الرحَّالة الذين اشتغلوا بالتجارة، وسجلوا مشاهداتهم في رحلاتهم الرحَّالة التاجر القاسم بن يوسف بن محمد السبتي التجيبي(ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)، إذ رحلَ سنة(٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م) إلى الحجاز، لأداء فريضة الحج، والاشتغال بالتجارة، ودوَّن مشاهدته في كتاب سمّاه" مُستفاد الرحلة والاغتراب"[٤].

٤ – الضرورة:

وهي ما تُعرف باسم الرِّحلة القسرية[٥]، إذ اضطرَّ بعض الرحَّالة لترك بلدهم والارتحال إلى مكان آخر، لأسباب فرضتها عليهم الحياة منها البحث عن الكلأ والماء، أو الهروب من ظلم الحُكَّام أو هرباً من الحروب والنزاعات التي يُعاني منها موطنهم الأصلي أو لأسباب اجتماعية تتعلق بحياته في بلده[٦]، وخير وخير مثال على هذا النوع من الرحلات، رحلة الرحَّالة ابن عربي الإشبيلي[٧] الذي اضطر إلى ترك بلاده بلاده والانتقال إلى مكان آخر، وقام بتدوين كلَّ ما شاهده في كتاب سمَّاه" قانون التأويل" الذي ذكر فيه

---

١ القرآن الكريم: سورة الجمعة، الآية ١٠.

٢ الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، ص٤٧.

٣ قنديل: أدب الرحلة، ص٢٠.

٤ التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ج١، ص. خ.

٥ ابن الحاج النميري(إبراهيم بن عبد الله): فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب، دراسة: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص١١.

٦ الشوابكة: أدب الرحلة الأندلسية والمغربية، ص٢١.

٧ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٤٤.

في أكثر من موضع أنَّ الضرورةَ الحتمية هي التي فرضت عليه الارتحال، إذ قال: « فدعت الضرورة إلى الرحلة، فخرجنا والأعداء يشتمون بنا، فخرجنا مُكرمين أو قُلْ: مُكرهين»[١].

ويندرجُ ضمنَ الدوافع الضروريَّة للرِّحلة، الأسباب الصحيَّة التي تدفع الإنسان إلى الارتحال كالسفر للعلاج أو الاستشفاء أو إراحة النفس من ألوان العناء، وتخليصها من الكدر، كالارتحال إلى المناطق الريفيَّة ونحوها، وقد تكون هرباً من وباءٍ أو طاعون أو تلوُّث، ويلحقُ بها الرحلات التي قامَ بها أصحابها إلى عاصمةِ الحُكم للتظلم من اضطهاد تعرَّضوا له أو جورٍ وقعَ عليهم، والهروب بسبب الاضطرابات السياسية، والخوف من القتل أو الأذى، وتجلَّى ذلك في الدوافع التي ساقت ابن خلدون إلى مغادرة تونس، مُتظاهراً بنيَّة الحج[٢].

٥- الدوافع التمويهية:

ويُراد بها الرحلات التي يتخفَّى وراءها أسباب أخرى، ومثالها في العصر المملوكي رحلة التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد(ت ٧٠٨هـ/١٣٠٨م) والذي أعلن أنَّه يريد منها تفقد أحوال الدولة، وأسرَّ إلى من يثق به أنَّه كان ينوي الحج، بينما كان فيما يبدو يريد التجسس على أعدائه في مدينة جربة[٣].

٦- الدوافع السياسيَّة(الرسمية- السفارات):

عملت رحلة السفارة في الدولة المملوكية من أجل ترسيخ مكانة الدولة في مجتمع الدول، وخدمة الدولة في أنحائها، و نقل الأخبار العامة والخاصة فيما بين أمصار الدولة[٤]، ودفعت الظروف السياسية المحيطة بالدولة المملوكية والإحساس بالمسؤولية إلى إرسال وفود وسفارات إلى جيرانها، لتوطيد العلاقات ومناقشة شؤون الحرب والسلام وغيرها[٥] ومثالها سفارات عز الدين ابن شداد الحلبي إلى المغول(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، ورحلة ابن بطوطة التي كان الغرض الأساسي منها أداء مناسك الحج، إلَّا أنَّ ابن بطوطة بعد الانتهاء من قضاء الغرض الأساسي تابع سفره إلى الصين بعد أن اختاره سلطان الهند سفير له بها، إذ قال: « بعثَ إليَّ السلطان خيلاً مُسرَّجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة...، وقال لي: إنَّما بعثت إليك،

---

١ ابن العربي(محمد بن عبد الله): قانون التأويل، تح : محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢،١٩٩٠م، ص٧٥، ٧٧.

٢ قنديل: أدب الرحلة، ص٢٠.

٣ نصار: أدب الرحلة، ص٤١، ٤٧.

٤ الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص١١٥.

٥ قنديل: أدب الرحلة، ص٢٠.

لتتوجه عني رسولاً إلى ملك الصين »[١]، فالدوافع السياسية بطابعها رسمية يقومُ بها الرحَّالة بطلب من الحاكم لقضاء حاجة، قد تتعلق بشأن البلاد، كما قد تخصُّ الحاكم نفسه، بل إنَّ هذا النوع من الرحلات قد يكون بهدف التجسُّس والاستطلاع[٢].

خامساً– دوافع تَدوين الرِّحَلات في العصر المملوكي:

عمِلَ أغلبُ الرحَّالة الَّذين قاموا برحلات إلى مناطق مُختلفة على تدوين ما شاهدوه أو سمعوه، ولعلَّ من أهمِّ الأسباب التي دفعتهم لتدوين رحلاتهم:

١– تلبيةُ رغبة الآخرين من حُكَّام، وأصدقاء و أقرباء، بتدوين الرحلة، وإمتاعهم بالاطِّلاع على ما أثارَ إعجاب الرحَّالة، فمثلاً دوَّن ابن بطوطة رحلته بطلبٍ من سلطان فاس أبو عنان المريني[٣].

٢– تقديم معلوماتٌ ثريَّة للقارئ عن المعارف والعلوم، والتعريف بالأعلام وبمؤلفاتهم ، وبالبلدان والممالك التي زارها الرحَّالة، وتحديد الطُرق والمسالك، وتبيان مواقع الخطر والمشقَّة، حتَّى يستفيد منها الآخرون، ومثالها رحلة زكريا القزويني إلى بلاد الشام(ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)[٤].

٣– سرد أخبار الأمم والأقوام – ماضيها وحاضرها – من عاداتٍ وتقاليد، وطقوس و التأريخ للأحداث المتنوِّعة، وتقديم معلومات سياسيَّة واقتصاديَّة عن البلدان المقصودة في الزيارة، و رغبة بعض الرحَّالة المُشاركة في أدب الرِّحلات وتدوين أخبار رحلاتهم على منوال ما دوَّنه السابقون، ومثالها رحلة ابن بطوطة[٥]، ورحلة أبو الطيب الرندي(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)[٦].

٤– الحثُّ على الترقِّي، وتعريف الناشئين بأدبِ الرِّحلات، والدعوة إلى تغيير الجو والاحتكاك بالآخر والانفتاح عليه، ومثالها في العصر المملوكي رحلة خالد بن عيسى البلوي(ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م)[٧].

سادساً– مَناهج ومصَادر رحَّالة العصر المملوكي في تدوينِ رحلاتِهِم:

يبدو أنَّ بعضَ الرحَّالة قام بأكثر من رحلة في حياته، فقاموا بتدوين كلِّ هذه الرِّحلات ، فمثلاً محمد بن رشيد الفهري السبتي، دوَّن الرحلتين اللتان قام بهما، فسمَّى الأولى" ملء العيبة فيما جُمع بطول الغيبة في

---

١ ابن بطوطة: الرحلة، ج٣، ص٢٤٩.

٢ ضيف(شوقي): الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٥٦م، ص٩.

٣ نصار: أدب الرحلة، ص٥١، ٥٢.

٤ أنساعد: الرحلة إلى المشرق، ص٣٤؛ نصار: أدب الرحلة، ص٥٢.

٥ أنساعد: الرحلة إلى المشرق، ص٣٥؛ نصار: أدب الرحلة، ص٥٥.

٦ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٤٠.

٧ أنساعد: الرحلة إلى المشرق، ص٣٤– ٣٦؛ نصار: أدب الرحلة، ص٥٥.

الوجهة الواجهة إلى الحرمين مكة وطيبة"، بينما خصَّص رحلته الثانية للأندلس[١]، وهناك بعض الرحَّالة جمعَ كلُّ رحلاته في كتاب واحد كما فعل ابن بطوطة الذي دوَّن كل ما زاره من المناطق في كتابه" تُحفة النُظَّار "[٢]، ومن الرحَّالة من اقتصر على تدوين رحلة واحدة من جميع رحلاته كما فعل ابن جبير الذي قام بتدوين رحلته الأولى إلى الحجِّ فقط، والتي انطلق منها إلى مناطق أُخرى في بلاد الشام وغيرها[٣].

وآثرَ بعضُ الرحَّالة بذكر منطقة واحدة، أو جعل كل واحدة من رحلاته تتناول منطقة واحدة، كما فعل موفق الَّدين عبد اللطيف البغدادي الذي جعل مصر محور كتابه الذي اختصره من كتاب كبير وسمَّاه" الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"[٤]، وقد اتَّخذ التدوين أشكالاً متعدِّدة، فأغلبُ الرحَّالة دوَّنوا ملاحظاتٍ وتعليقاتٍ، وأوصافاً وأخباراً مُسهبة، وموجزة أحياناً في أثناء قيامهم برحلاتِهم، والبعض الآخر بدأ بالتدوين منذ اليومِ الأوَّل، وبضعهم بدأ بعدَ أيام عدَّة من قيامه برحلته[٥] كما كما فعل ابن جبير، و بلغت اثنين وعشرين يوماً، إذ انفصلَ عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس الثامن من ﷺ، وابتدأ في التقييد يوم الجمعة في الثلاثين منه[٦].

ويبدو أنَّ بعضَ الرحَّالةُ قنِعُوا بما دوَّنوه من مُذكَّرات، ورأوا أنَّها في غير حاجةٍ إلى تنظيمٍ وتهذيبٍ، أو أنَّ الزمنَ أخجلهم، فحالَ بينهم وبين ذلك، وبعضهم أخضعَ مُذكَّراته لكثير من التهذيب، وأجراهُ في أوقاتِ الراحة والطمأنينة في الأسفار، و بعضهم الآخر بعد الفراغ من أسفارهم والعودة إلى أوطانهم، وهناك قلَّة من الرحَّالة لم تدوِّن مُذكَّراتٌ أصلاً، ومنهم من دوَّن وضاعت أو كان ما دوَّنهُ ضئيلاً، فاضطر للاعتماد على الذاكرة عند كتابة رحلته، وينطبق هذا الأمر على رحلة ابن بطوطة[٧]، أمَّا الهروي فعندما كان في قافلة الحج، أغار الصليبيين على القافلة، و كانت مذكراته ممَّا نهبوه، ولذلك اعتذر للقارئ عما يشوب كتابه، فقال: « إنْ جرى السهوَ فيما أذكرهُ بطريق الغلط لا بطريق القصد، فأسأل الناظر فيه، والواقف عليه، الصفح في ذلك، وإصلاح الخطأ، وإيضاح الحقّ، فإنَّ كتابيَ أخذه الانكتار ملك الفرنج.... ومنها غرقَ في البحرِ»[٨].

---

١ ابن رشيد السبتي(محمد بن عمر): ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ج٥، ص١.

٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٢٠.

٣ ابن جبير: الرحلة، ص٥.

٤ البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص٧.

٥ نصار: أدب الرحلة، ص٥٩، ٦٠.

٦ ابن جبير: الرحلة، ص٧.

٧ نصار: أدب الرحلة، ص٦٠– ٦٢.

٨ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٤.

وقد اعتمد الرحَالة في تدوين رحلاتهم على مصادر عدَّة، لعلَّ أبرَزَهَا:

١– جعلَ الرحَّالة المُشاهدة العينيَّة أو المعاينة، الأساس الأوَّل لأخبارهم[١] وهذا ما صرَّح بهِ أغلبهم في مُقدِّمات رحلاتهم بأنَّهم شاهدوا ما يروون من أخباره[٢] فمثلاً الرحالة العبدري صرَّح بذلك في رحلته قائلاً: « فإنِّي قاصدٌ إلى تقييد ما أمكنَ تقييده، مما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق، حسبما أدركه الحسّ والعيان، قام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان من غير توريةٍ ولا تلويحٍ»[٣].

٢– اعتمدَ البعضُ من الرحَّالة في تدوين رحلاتِهم على ما سمعوه من أخبار من أعيان المناطق من علماء، وفقهاء، وشيوخ، وخطباء المساجد وغيرهم، فمثلاً وَصْفُ الرحَّالة ابن رشيد السبتي الفهري لبعض مناطق الأراضي المُقدَّسة التي لمْ يتمكَّن من زيارتها خلال فترة إقامته فيها، كان ثمرةُ سماعَ لا مشاهدة[٤]، مشاهدة[٤]، في حين لمْ يقنع بعضهم ما وصل إليه من أخبارٍ عن طريق السماع، وأحبَّ الزيادة، فلجأ إلى إلى السؤال والاستخبار[٥]، وهذا الأمر ينطبق على الرحالة خالد بن عيسى البلوي[٦]، لكن هذا المصدر تشوبه في كثيرٍ من الأحيان الأساطير والعجائب التي لا يُمكن تصديقها وهنا يكون الرحالة قد جمع بين ما شاهده وخلط به مع ما سمعه[٧]، ومثال ذلك ما نقله ابن بطوطة عن الهروي، فقال: « ويقع قبر يوسف بن يعقوب في بيروت»[٨].

٣– اعتمدَ البعضُ من الرحَّالة في تدوين رحلاتهم على مؤلفات من سبقهم[٩]، ومثال ذلك رحلة ابن فضلان التي كانت من أهمِّ المصادر التي اعتمد عليها القزويني في كتابه" آثار البلاد وأخبار البلاد"[١٠]، وشملت أيضاً الكتب الجُغرافيَّة السابقة التي اعتمد عليها بعضهم في رحلته، ومثالها ما أخذه التجاني عن كتاب" نزهة المُشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي[١١]، وأحياناً أُخرى، اعتمد بعضهم على الكتب التاريخية

---

[١] زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٣.

[٢] نصار: أدب الرحلة، ص٦٩.

[٣] العبدري: الرحلة، ص١٣، ٢٨، ٣٩.

[٤] مثالها: ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١٥٨، ٢٧٧، ٣٣٠، ٤١٠، وغيرها كثير.

[٥] نصار: أدب الرحلة، ص٧١، ٧٣.

[٦] مثالها: البلوي(خالد بن عيسى): تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح: الحسن السائح، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، ط١، ١٩٦٤م، ج١، ص٢٤٣.

[٧] نصار: أدب الرحلة، ص٧٥.

[٨] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٢.

[٩] نصار: أدب الرحلة، ص٧٦.

[١٠] القزويني: آثار البلاد، ص٥٢٦.

[١١] التّجَاني(عبد الله بن محم): رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط١، ١٩٨١م، ص١٢٢، ١٢٤، ١٤٣.

وكتب المعارف في وصف أخبار الشعوب، مثالها كتاب" الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان" لابن شداد والذي أخذ عنه التجاني الكثير من المعلومات[١]، يُضاف إليها كتب الفقه التي اعتمد عليها الرحَّالة الَّذين قاموا برحلات الحجِّ، ومثالها رحلة الهروي التي يستطرد فيها عن العمائر والأماكن الدينية، حتَّى وصلَ فيها إلى بعض البيانات التاريخيَّة[٢].

٤- تُعدُّ النقوش، والكتابات الأثرية من أهمِّ المصادر التي اعتمد عليها بعض الرحَّالة في كتاباتهم، ومثالها النقوش ذات القيمة التاريخيَّة[٣] التي اعتمدها الرحَّالة خالد بن عيسى البلوي، عندما قدَّم وصفاً مُطوَّلاً للمسجد الأقصى، إذ قال: « وبأعلى المحراب مكتوبٌ بالذهب، أمرَ بتجديد المحراب المُقدَّس، وعمارة المسجد الأقصى، المؤسِّس عبد الله، ووليه يوسف بن أيوب المُظفَّر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا... من المغفرة والرحمة»[٤].

وكذلك الرحَّالة التجاني الذي اعتمدَ على هذه النقوش في رحلته، إذ قال: « وقد وقفت في بعض أبواب قصر قابس على أسطر، كُتِبت نقشاً في الحجر نصِّهَا: أمرَ بعمل هذا الباب الأمير الشهم....، فأتمَّه بنو جامع الهلاليون»[٥].

سابعاً- أثر الرِّحلة على الفكر الجُغرافيّ العربيّ الإسلاميّ في العصر المملوكي:

ازدهرَ الفكر الجُغرافي في ظل الرَّحلات التي قامَ بها جُغرافيِّ المسالك، وجابوا خلالها ربوع العالم والأمصار العربية والإسلامية، ولمْ يتحيَّز الرحَّالة الأوائل إلى معرفة العالم الإسلامي دُوْنَ سواه، ولذلك أسهمت رحلات الجُغرافيين العرب المسلمين بما يلي:

١- كشف مَعالِم وأعلام العالم، فأخرجَ الجُغرافيُّون صورة الأرض بطريقة إبداعية.

٢- معرفة مسالك العالم القديم المُختلفة البريَّة والبحريَّة، ممَّا جعلَ رحَّالة العرب المسلمين سادة الطُرق البريَّة والمعابر، وسادة البحار والمحيطات.

٣- كشفَ الرحَّالة الجغرافيون العرب المسلمين عن تُراث إسلامي هائل، ممَّا أسهمَ في وحدة ترابط الشعوب.

٤- أفرزت رحَلات وكتابات الرحَّالة الجغرافيين عن ثروة معلوماتية هائلة، كانت النور والدليل إلى ما يُسمَّى بالكشف الجغرافي للهند بواسطة رحَّالة عرب مسلمين أمثال ابن بطوطة الطنجي.

---

[١] التجاني: الرحلة، ص١٤.

[٢] الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٤، ٣٨، ٤١ وغيرها.

[٣] نصار: أدب الرحلة، ص٩٢.

[٤] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤٩- ٢٥٤.

[٥] التجاني: الرحلة، ص٩٥.

٥- إنَّ التراثَ الجُغرافي العربي الإسلامي الذي أنتجَ خريطة العالم بكلِّ معالمها، و وضعَ القوانين والأُسس الجُغرافيَّة والبيئية، كان وراءها الكشف الجغرافي للعالم الجديد الذي غيَّر خريطة العالم، والتي تجلَّت بشكلٍ واضح في خريطة الأرض عند شيخِ الرَّبوة الدمشقي، وعند ابن فضل الله العمري.

٦- سادَ اتِّجاه بين أغلب النُّخب المُثقَّفة من الشعوب العربية الإسلامية يقول: أنَّ تُراثَهم القديم أصبح لا يُمثِّل إلَّا عبئاً ثقيلاً، يجب الابتعاد عنه، علماً بأنَّ التُراثَ القديمُ هو القاعدةُ التي لا يقومُ صرحٌ حضاري جديد للعالم العربي الإسلامي إلَّا عليها[١].

ثامناً_ دراسة نماذج من الرحالة الَّذين زاروا بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة:

١- الرحَّالة العبدري، محمد بن محمد(ت ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م).

أ- التعريف بالرحَّالة:

محمد بن محمد بن علي بن أحمد، أبو عبد الله العبدري[٢]، وكنيته بالعبدري نسبةً إلى جدَّه الأعلى عبد الدار بن قُصي القُرشي[٣]، يرتبط ببلنسية مِن حيثُ أصلِ أُسرته ، وبالصويرة بالقرب من مغادور في المغرب الأقصى مِن حيثُ سكن الأُسرة[٤]، ويبدوُ أنَّ عيشته في الريف الجبلي بالصويرة جعلتهُ حادَّ الطبع[٥]، ولا يُعرف شيئاً عن ولادته سوى أنَّه قام برحلته سنة(٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م)، فإذا افتُرِضَ أنَّه كان في الخامسة والأربعين بدليل قولِ ابنُ خميس التلمساني[٦] الذي لقيه في تلمسان في الثامنة والثلاثين من عمره، بأنَّه كان فتيُّ السنَّ، فتكون ولادته حوالي(٦٤٣هـ/١٢٤٥م)[١].

---

[١] الشيال(جمال): رفاعة رافع الطهطاوي(١٨٠١ – ١٨٧٣م)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٣-٥.

[٢] ابن القاضي المكناسي(أحمد بن محمد): جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ص٢٨٦- ٢٨٨؛ ابن سودة المري(عبد السلام بن عبد القادر): دليل مؤرِّخ المغرب الأقصى، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٣٢؛ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج١، ص٣١٢؛ السملالي(العباس بن إبراهيم): الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٩٩٨م، ج٤، ص٢٨٧- ٣٣٠؛ الكتاني(عبد الحي بن عبد الكبير): فهرس الفهارس والأثبات، اعتناء: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ج٢، ص٨٠٩؛ المنوني(محمد): المصادر العربية لتاريخ المغرب، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٣م، ص٧٩.

[٣] السمعاني: الأنساب، ج٨، ص٣٤٩؛ ابن الأثير: اللباب، ج٢، ص٣١٢.

[٤] زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٧٠، ١٧١؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٩٦.

[٥] قنديل: أدب الرحلة، ص٤٦٥.

[٦] أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس التلمساني، صاحب ديوان" المنتخب النفيس في شعر ابن خميس"، توفي سنة(٧٠٨هـ/ ١٣٠٩م). المقري(أحمد بن محمد): أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقا وآخرون،

انتقل العبدري إلى بلدة صغيرة تُسمَّى الحاحة[٢] في المغرب الأقصى، ونشأ وترعرع فيها[٣]، وقضى مُعظم حياته فيها لذلك عُرف بالحَاحي[٤]، وفيها عُنِي بدارسة العلوم الجُغرافيَّة والشرعيَّة واللغويَّة والأدبيَّة[٥]، وتتلمذَ على والده، وحفظ القرآن والمتون، وتعلَّمَ العمليات الحسابية، ثمَّ انتقل من حاحة إلى مراكش وتعلم فيها[٦]، وقد أفاد من كثرة مشايخه في حصوله على علوم الحديث، وكان عنده معرفة بعلوم العربية، وعرفَ النثر والشعر[٧] وأيام العرب وغزواتهم، والأسماء والألقاب والكنى، ومصطلحات البلاغة، وعلوم الأدب والعروض[٨]، ورُغم ذلك فالرجل قليل التأليف وما صنَّفه أتت عليه غوائل الدهر، ولم يصل منه سوى كتابِهِ" مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة"[٩]، ورحلته، وكتاب" شموس الأنوار وكنوز الأسرار في علم الحروف وروحانيته"[١٠]، أمَّا وفاته فهي غير معروفةٍ على وجه التحديد، وقد حدَّدها بعضهم نحو(٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م)، ودُفن في بَلدَتِهِ حَاحَة، وقبره شهير هُناك[١١].

ب- دراسة رحلة العبدري(الرحلة المغربية):

أ-ب- دوافع الرحلة:

مطبعة فضالة، المغرب، ط١، ١٩٨٠م، ج٢، ص٣٠١- ٣٤٠؛ أبو القاسم الحفناوي(محمد بن إبراهيم الغول): تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فوفتانة، الجزائر، ١٩٠٦م، ج٢، ص٣٧٥- ٣٨٠.

١ العبدري(محمد بن محمد): رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم الكردي، دار سعد الدين، دمشق، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٥٣.

٢ إقليم في المغرب الأقصى، يحدَّه من الغرب والشمال المحيط الأطلسي، ومن الجنوب جبال الأطلس، ومن الشرق نهر أسيف نوال، وهو إقليم مُتسع يحتوي على مدن عدَّة. ليون الإفريقي(الحسن بن محمد الوزان الفاسي): وصف إفريقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ج١، ص٩٥.

٣ العربي(إسماعيل): المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ص٦٢؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٢.

٤ فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج٦، ص٤٠٢؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج٢، ص٨٠٩.

٥ الشهابي (مصطفى): الجغرافيون العرب، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م، ص٨٦- ٨٨.

٦ العبدري: الرحلة، ص٣٠٢.

٧ المنجد(صلاح الدين): المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٣م، ص٧٠.

٨ العبدري: الرحلة، ص٨.

٩ العبدري(محمد بن محمد): مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة، دار التراث الإسلامي، الكويت، ط١، ١٩٩٩٠م، ج١، ص٧.

١٠ العبدري(محمد بن محمد): شموس الأنوار وكنوز الأسرار في علم الحروف وروحانيته، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص٢؛ قنديل: أدب الرحلة، ص٤٦٥.

١١ فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج٦، ص٤٠١.

إنَّ رحلة العبدري هي أقربُ إلى المؤلفات الأدبية منها إلى المُصنَّفات الجغرافية[1]، وبدأها في ٢٥ ذو القعدة سنة(٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م)، و خرجَ من موطنه الأصلي لدافعين، **هُما:**

الدافع الأول:

هدف ديني، تجلَّى في أداء فريضة الحجِّ، وزيارة الأماكن المُقدَّسة، و لقاء المتصوفين والصالحين، وقد صرَّح العبدري مراراً، أنَّه كان ينوي الإقامة بمكَّة والمجاورة بها، لولا حدوث فتنة هُناك أرغمته على الرحيل عنها[2].

الدافع الثاني:

هدف علمي تجلَّى برغبته في لقاء العُلماء والمشايخ، والأخذ عنهم، ويتَّضح ذلك من خلال اهتمامه بكلِّ ما يتعلَّق بالنواحي العلمية في البلدان التي زارها أثناء رحلته، وإظهار علومه ومعارفه وثقافته، وهذا يدلُّ عليه سؤاله عن الأحوال العلمية في البلاد التي مرَّ بها، وعن العلماء كما حدث معه في تونس[3].

ب-ب- خطُّ سير الرِّحلة:

قال العبدري: « في اليوم الخامس والعشرين من ذو القعدة سنة(٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م)، بدأنا رحلتنا من حَاحَة، واتَّجهت القافلة بنا نحوَ الجنوب[4]، ثمَّ انطلقنا من أنسا، وهي مدينةٌ جميلةٌ تتوسط سهلاً غنياً بالمراعي والماشية، واستمررنا في السير عبرَ المنطقة الوسطى، فوصلنا تلمسان، وقد طالت إقامتنا بها حتَّى ٢٥ ربيع الأول، ثمَّ وصلنا إلى الجزائر وهي مدينةٌ لا يكفُّ المرء عن الإعجاب بها، وخرجنا من الجزائر إلى بجاية[5] بجاية[5] وهي ميناءٌ كبيرٌ ومدينةٌ حصينةٌ، وجئنا قسنطينة وهي بلدةٌ جميلةٌ، ووصلنا بونة[6]، ثمَّ وصلنا تونس مَهبط الآمال ومحطَّ المسافرين، وتابعنا السفر إلى القيروان، وانتقلنا بعدها إلى قابس[7]، وسرنا إلى أنْ وصلنا طرابلس، ثمَّ وصلنا مصراتة، ثمَّ سرت، وبعدها دخلنا برقة في ليبيا وأهلها يتكلمون اللغة العربية بصفاء أهل الحجاز، ثمَّ سرنا إلى أن وصلنا الإسكندرية».

---

[1] العبدري: الرحلة، ص١١.

[2] العبدري: الرحلة، ص٣٩١؛ فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج٦، ص٤٠١؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٤٧.

[3] العبدري: الرحلة، ص١٠٨.

[4] العبدري: الرحلة، ص٤٠.

[5] مدينة على ساحل البحر المتوسط في المغرب الأوسط شرقي الجزائر، بين إفريقية والمغرب. ليون الإفريقي: وصف إفريقية، ج٢، ص٥٠؛ الغبريني: عنوان الدراية، ص٧.

[6] مدينة في الجزائر على ساحل البحر المتوسط. ليون الإفريقي: وصف إفريقية، ج٢، ص٦١.

[7] مدينة تونسية على ساحل البحر المتوسط بين صفاقس وطرابلس، بناها الرومان داخل الخليج. الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٢٨٩، ليون الإفريقي: وصف إفريقية، ج٢، ص٩١؛ التجاني: الرحلة، ص٨٦.

وفي الإسكندرية تعرَّض العبدري لتفتيش دقيق على يدِ موظَّفي الجمارك إذ قال: « ومن الأمرِ المستغرب أنَّهم يعترضون الحُجَّاج، ويجرعونهم من بحرِ الإهانة الملح الأجاج، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال، ثمَّ تابعنا سيرنا إلى قاعدة الديار المصرية القاهرة، ووصلنا إلى السويس، وبعدها إلى الوجه وأكرا بين مصر والحجاز، ومنها إلى ينبُع في الحجاز، ثمَّ سِرنا إلى بدر، وبعدها مرَّت القافلة بمناطق عدَّة إلى أنْ وصلنا إلى مكة، ثمَّ إلى المُزدلفة وعرفة، وفي الثامن والعشرين من ﷺ وصلنا إلى المدينة المنورة، ثمَّ رحلَ الرَّكبُ من المدينة يوم الأربعاء ثلاثين ﷺ إلى ينبع ومنها إلى عقبة أيلة[١]، ومنها انطلق الركب إلى الشام، ووصلنا بعد ثمانية أيام إلى الخليل، ثمَّ وصلنا بيت المقدس، وأقمنا فيها خمسةَ أيامٍ، و زرنا ثغرَ عسقلان، ثمَّ عُدنا إلى غزة، وهي آخرُ بلاد الشام مما يلي مصر، وفي طريق العودة انتقلنا من غزة إلى الصالحية[٢]، أوَّل بلاد مصر، ومنها إلى القاهرة ثمَّ إلى الإسكندرية، ومنها توجهنا إلى تونس، ثمَّ وصلنا مدينة سوسة، ثمَّ إلى بجاية، فوهران، وعدنا إلى تلمسان وبعدها سرنا إلى فاس، ثمَّ مكناس آخر محط القافلة»[٣].

يتَّضِح من خط سير الرحلة أنَّ العبدري سلك طريق البر في رحلته[٤]، و هو طريقُ أفريقية الشمالي إلى الإسكندرية، ومنها بالطريق البري إلى مكة، وأقام بعد الحجِّ مُدَّة من الزمن بفلسطين، ثمَّ قفل مُعرِّجاً على الإسكندرية[٥]، وهو بذلك خالف طريق ابن جُبير، فذهب من القاهرة برَّاً إلى العقبة، فالحجاز، ثمَّ دخل قرية الوجه على ساحل البحر الأحمر[٦] وهي جفارٌ في وادٍ يسيح ماؤه نهاراً ويشحُّ ليلاً[٧]، وبعد أن أمضى أمضى عاماً في رحلته الحجازية عاد أدراجه سنة(٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) مع الركب المصري ماراً بفلسطين إلى القاهرة برَّاً، ثمَّ اتَّجه غرباً إلى مدينة قابس، فسوسة فتونس فالمغرب الأقصى، وهناك انتهى بهِ المطاف[٨].

---

١ مدينة على شاطئ البحر بين مصر ومكة. الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٢٩٢.

٢ بلدة من أعمال مصر تقع في إقليم الشرقية بأرض السباخ على طرف الرمل. ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص٣٤؛ السخاوي: البلدانيات، ص ٢١٦.

٣ العبدري: الرحلة، ص٤٠، ٤٧، ٤٨، ٨٢، ٩٣، ١٠٤، ١٠٨، ١٥٧، ١٨٠، ١٨٤، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٦، ٢٧٤، ٣٣٥، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٨، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤١٩، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٧، ٤٦٨، ٤٧٤، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٧، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٤.

٤ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٦٧.

٥ حسن: الرحالة المسلمون، ص٩٧.

٦ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٥٢.

٧ الجزيري(عبد القادر بن محمد): الدرر الفرائد المنتظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تح: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج١، ص٦٠٤.

٨ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٥٣.

وبالتالي استمرَّت الرحلة المغربية أكثر من سنتين، لا سيَّما أنَّه زار تونس مرَّتين في طريق ذهابه إلى الحج سنة(٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، وعند رجوعه سنة (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م)[١]، وبذلك يكون العبدري قد أمضى ثلاثَ سنواتٍ في رحلته، وأكَّد البلوي هذا الأمر، عندما ذكر أبيات شعرٍ للعبدري في رحلته، وقال: أنَّه أنشدها إياها في تونس سنة(٦٩١هـ/ ١٢٩٢م)[٢].

ج-ب- منهج العبدري في تدوين رحلته:

بدأ العبدري كتابة رحلته في تلمسان، إذ قال: « وبدأت في تقييدها في تلمسان، ولمْ يُمكنُني إظهارها هناك، وأظهرتُها بعد خروجنا منها، ووقف عليها شيوخنا بمصر وغيرها»، وأوضح العبدري في مُقدِّمة رحلته منهجهُ في تدوينها، إذ قال: « وبعد فإنِّي قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييدِ ما أمكنَ تقييده، ورسم ما تيسَّرَ رسمهُ، و تسويده ممَّا سَما إليه الناظر المُطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر بعض أوصافِ البلدان، وأحوال من بِها من القطان، حسبما أدركَه الحسُّ والعيان، قام عليه بالمُشاهدة شاهد البرهان من غير توريةٍ ولا تلويحٍ ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح»، ومن خلال هذا الكلام يتَّضح أنَّ العبدري لجأ إلى تدوين أخبار رحلته مُعتمداً على مُشاهداته الشخصية، ومقدماً وصفاً لكلِّ ما شاهده، وتثبيت ما سمعه من الأحاديث الشريفة من المُحدِّثين في رحلته، مُعتنياً بالسند العالي عناية كبيرة[٣].

واعتمد في منهجه أسلوب الاستطراد في الحديث عن أي بلد ذكره، ومثال ذلك الحديث عن عجائب مصر ونِيلِهَا، وبناء المسجد الحرام والكعبة وأسمائها[٤]، و استطرد بذكر بعض الآراءِ التي تستوجبُ منهُ مناقشةً وتوضيحاً، كما صنع في مُشاركاته الفقهية ومناقشاته العلمية[٥]، وتميَّز العبدري بتقديم وصف مُتكامل للطرق والمسالك البرية التي عبرها، وتحدَّثَ عن كل مدينة حلَّ بها من حيث السكان ومعاملة الأهالي للعلماء[٦].

وعُني ببيان المواقع الجغرافية، وذكر المعالم الأثرية فضلاً عن الكلام على أعلام الفُقهاء المُسلمين في عصره[٧]، و لم يُغفل الوصف الدقيق للمشاهد التي تقع تحت نظره، أثناء اجتيازه المناطق الواقعة على طريق قافلته، إذ تميَّزَ بالاهتمام بطبائع الناس وتصرفاتهم اتِّجاه الغرباء[٨]، ومثالها قوله: « وجامع بجاية

---

[١] التجاني: الرحلة، المقدمة ص يز.

[٢] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٠٩.

[٣] العبدري: الرحلة، ص١٣، ٢٨، ٣٩.

[٤] العبدري: الرحلة، ص٣١١، ٣٨٤، ٣٧٦.

[٥] العبدري: الرحلة، ص١٥١.

[٦] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٣.

[٧] حسن: الرحالة المسلمون، ص٩٧؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٣.

[٨] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٩٩؛ العربي: المدن المغربية، ص٦٣، ٦٤.

عجيبٌ، وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية، ولهم في القيام به تهمُّم وعناية»[١] وعُنِي بمنهجه بوصف المستوى العلمي للبلدان التي مرَّ بها، ولمْ يكن مُتساهلاً في نقد ما يراه من عادات الناس وأخلاقهم وخصوصاً من الناحية العلمية ومثال ذلك وصفه لطرابلس: « وهي للجهلِ مأتم، وما للعلم فيها من عُرسٍ»[٢].

أمَّا أسلوبهُ في تدوين رحلته، فهو أسلوبٌ أدبيٌّ رشيقٌ لا يخلو من السجع الجميل و العبارة المسبوكة بحذقٍ، والدقَّة في اختيار اللفظ الدَّال على المشاعر، والمُنَاسِبة للمقام، وهي تدلُّ على حُسن تصويره وصدقه في النقل، واستعانته بالشعر في تطريز كتابه وأغلبهُ من نُظمِه[٣] ومثاله قوله في قسنطينة: « جبر الله صدعها، وكفاها من نوائب الدهر ما واصل قرعها»[٤].

ويُلاحظ في منهج العبدري الجُرأة في التعبير عن رأيهِ وشعورهِ، والنقد اللاذع[٥] ومن ذلك نقده لكتاب" المسالك والممالك" لأبو عبيد البكري، وقال عن ذلك: « و مازال أهلُ الإتقانَ في مثل هذا، ألاَ تَرى إلى أبو عبيد البكري مع تحقيقه وفرط اعتنائه، ونُبلَ تواليفه، قد أودعَ في مسالكه من الغلط في صفات البلدان، وتحديدها وترجمتها ما لا غاية وراءه، فمن ذلك قوله في إيلياء[٦]: مدينة بيت المقدس إنَّ الجبالَ الجبالَ محيطةٌ بها»[٧]، وإنَّما هي في نشزٍ من الأرضِ وليس بالقرب منها جبلٌ إلَّا رُوابٍ وتلالٍ.

واتبع العبدري منهجاً يقومُ على التحقُّق من صحِّة المعلومات التي أوردها، وكان يُحارب الخرافات التي يسمعها، ولا يؤمن إلَّا بِمَا يُطابق تعاليم القرآن الكريم، فمثلاً عند رؤيته للدرقة التي بقبة الصخرة، وقال الناس: إنَّها درقة سيدُنا حمزة، لمْ يأخذ العبدري بذلك، وأشارَ أنَّها في الأصل مرآة صَدِئَت وزالَ صقالها[٨]. صقالها[٨].

د-ب- موارد الرحلة:

---

[١] العبدري: الرحلة، ص٨٣.

[٢] العبدري: الرحلة، ص١٨٤.

[٣] قنديل: أدب الرحلة، ص٤٦٦.

[٤] العبدري: الرحلة، ص٩٤.

[٥] البوني(أحمد بن قاسم): التعريف ببونة بلد سيدي أبي مروان الشريف، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠١م، ص٢٦.

[٦] العبدري: الرحلة، ص٣٣٨.

[٧] البكري: المسالك والممالك، ص٤٦٦.

[٨] العبدري: الرحلة، ص٤٧٢.

تنوَّعت مواردُ الرحلة تنوعاً كبيراً، يدلُّ عليها غِنَى الرحلة بالمعلومات الجُغرافيَّة، والأدبيَّة، والاجتماعية، والفقهية، ولعلَّ أهمَّ هذه **المصادر**:

1ً- المُشاهدة:

ظهرَ أثرُهَا واضحاً في المعلومات الجُغرافيَّة عن المناطق والبلاد التي مرَّ بها، وقام بوصف خصائِصُها العُمرانية، وتضاريسها وأخبار أهلها[١].

2ً- الرواية الشفويَّة:

تتمثَّل بالمعلومات التي أخذها من العلماء وقيَّدها في رحلته[٢].

3ً- المصادر المكتوبة:

وتتجلَّى باستعانته بمؤلفات منْ سبقَهُ من الجغرافيين، وهي مُتعدِّدةٌ، وأهمُّها:

- المصادر الجُغرافيَّة والتاريخيَّة:

ومنها" أخبار مكة" لأبي الوليد الأزرقي[٣]، و" مروج الذهب" للمسعودي[٤]، و" طبقات الأمم" للقاضي صاعد[٥]، ومنها كتاب" المسالك والممالك" لأبي عبيد البكري[٦]، و" رحلة ابن جبير"، إذ قرأ رحلته، واستفاد منها، وتتبعَ خطواتِهَا في مسيرتِهِ من المغرب[٧]، وغيرها كثير.

- كتب الحديث:

منها" غريب الحديث"[٨] لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي(ت ٢٢٤هـ/٨٣٨ م)[٩]، و" مشارق الأنوار"[١٠] للقاضي عياض(ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م)[١١].

- كتب التصوُّف والقراءات:

---

١ العبدري: الرحلة، ص٣٣٩، ٣٤٢، ٣٤٤، وغيرها كثير.

٢ العبدري: الرحلة، ص١٨٢، ١٨٧، وغيرها كثير.

٣ العبدري: الرحلة، ص٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، وغيرها كثير.

٤ العبدري: الرحلة، ص٣١٣، ٣١٦.

٥ العبدري: الرحلة، ص٢١٢، ٣١٥، ٣٣٧، وغيرها كثير.

٦ العبدري: الرحلة، ص٦٨، ١١٢، ٢٠١، ٣٣٨، وغيرها كثير.

٧ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٤٧.

٨ الهروي(القاسم بن سلام): غريب الحديث، تح: عبد السلام هارون، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م، مج١، ص٣.

٩ العبدري: الرحلة، ص٢٠٩.

١٠ السبتي(عياض موسى عياض): مشارق الأنوار على صحاح الآثار، دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م، مج١، ص٧.

١١ العبدري: الرحلة، ص٣٣٧، ٣٥٠.

منها" التيسير"[١]، و" المقنع"[٢] لأبي عمرو الداني(ت ٤٤٤هـ/١٠٥٣م)[٣]، و كتاب" التشوف"[٤] لابن الزيات(ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م)[٥].

-كتب السيرة النبويَّة:

منها" الشمائل"[٦] للترمذي(ت ٢٧٩هـ/٨٩٢ م)، و" الروض الأنُف"[٧] لأبي القاسم السهيلي(ت ٥٨١هـ/١١٨٥م)[٨].

- الدواوين الشعرية:

أهمُّها ديوان المتنبي، والنابغة الذبياني، وديوان جرير، وديوان الإمام الشافعي، ويتيمة الدهر للثعالبي[٩].

هـ-ب- أهمِّية الرحلة:

اهتمَّ المستشرقون بالرِّحلة المغربيَّة، لا سيَّما فانسان الذي نشر عنها مقال بالجريدة الآسيوية عام ١٨٤٥م[١٠]، و نشر المستشرق الفرنسي شاربونو(Charboneou) مُقتطفات منها في المجلَّة الأسيوية الفرنسية [١١] إذ قال: « إنَّني ما رأيتُ كتاباً عربياً مُفيداً وممتعاً لدرجة رحلة العبدري، وذلك ليسَ لصحِّة تحقيقاته الجُغرافيَّة، ولكنْ أيضاً لتفاصيله عن الأثار القديمة، ولدراسته للعادات، ولتقديمه لنا جلَّ عُلماء القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي»، كذلك نالت الرحلة اهتمام المُستشرق الإسباني بونس

---

١ أبو عمر الداني(عثمان بن سعيد): التيسير في القراءات السبع، تح: أوتو برتزل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص٣.

٢ أبو عمر الداني(عثمان بن سعيد): المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، تح: نورة بنت حسن بن فهد الحميد، الدار التدمرية، الرياض، ط١، ٢٠١٠م، ص٥.

٣ العبدري: الرحلة، ص٨٤، ٨٥.

٤ ابن الزيات الشاذلي(يوسف بن يحيى): التشوف إلى رجال التصوف، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، البيضاء، ط٢، ١٩٩٧م، ص٥.

٥ العبدري: الرحلة، ص٤٠.

٦ الترمذي(محمد بن عيسى): الشمائل المحمدية، تح: عزت عبيد الدعاس، دار الحديث ، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م، ص٥.

٧ السهيلي(عبد الرحمن بن عبد الله): الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، تح: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج١، ص٧.

٨ العبدري: الرحلة، ص٣٥٧.

٩ العبدري: الرحلة، ص٥٤، ٦٤، ٦٦، ١٠٠، ٦٠، ١٠١، ٦٦، ٣٢٨.

١٠ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٩٦.

١١ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص١٩٣، ١٩٤؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٥٣.

يوبكس، ووصف عرضه بالصدق والدقَّة في الرواية والحيوية والرشاقة في الأسلوب، وقال: « إنَّ ذلك سرُّ إقبال الناس عليها، والنجاح الذي صادفته لدى هواة الأدب التاريخي العربي»[١].

وتكمن أهمِّيتها كونَ صاحبها أسهبَ في وصف إفريقية، والطريق التي سلكها، وهذا ما لمْ يُعنَ به أحداً من قبله عنايته[٢]، وتُعدُّ الرِّحلة وثيقة مُهمَّة عن الحياة الثقافية في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، إذ تعدَّدت جوانبها العلمية والمتمثلة في وصفِ الأوضاع الثقافية[٣] وتصوير الأحوال العلمية في البلدان، و الشعر والخطب، والمناقشات العلمية، و اعتمادها على وسائل البحث العلمي من خلال لقاء مُؤلفها بالعلماء، والاعتماد على المشاهدة والملاحظة، وهي مفيدةٌ لعلماء التاريخ والجغرافية في دراسة الظواهر التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وتُفيد مؤرِّخي الأدب في التأريخ الأدبي للأقطار التي مرَّ بها العبدري، وتضمُّ نصوصاً أدبية ونقدية[٤].

و تكمنُ أهمِّيتها كونَها مصدراً لعدد من التراجم المغربية من العلماء والأُدباء، والتي لا توجد عند غيره[٥] مثل ترجمته لأبو علي الحسن بن القاسم بن باديس القسنطيني الذي تباحث مع المؤلف وقيَّد اسمه[٦]، ومن جهة أخرى تُعدُّ الرحلة مصدراً للأُدباء والعلماء والمؤرِّخين، لما وردَ فيها من نصوصٍ أدبيَّة، ونقديَّة، ومناظراتٍ علمية، وإشاراتٍ تاريخيَّة، كما أنَّ المُرتحلين الَّذين جاؤوا بعد العبدري، نهلوا منها، ونقلوا عنها[٧] عنها[٧] مثل ابن بطوطة[٨]، واعتمد عليها العياشي[٩] في رحلته و الورثلاني في رحلته المعروفة بـ" نِزِهة نِزِهة الأنظار"[١٠]، ولأهمِّيتها جعلَها التُنبكتي أَحَّد أهمّ مصادر معلوماته في كتابه" نيل الابتهاج بتطريز

---

[١] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٩٦، ٤٩٧.

[٢] قنديل: أدب الرحلة، ص٤٦٧.

[٣] المنوني: المصادر العربية، ص٧٩.

[٤] العبدري: الرحلة، ص١٨.

[٥] العربي: المدن المغربية، ص٦٤.

[٦] العبدري: الرحلة، ص٩٥.

[٧] العبدري: الرحلة ، ص١٧.

[٨] فمثلاً أخذ ابن بطوطه عنه وصف منارة الإسكندرية لُيقارن: العبدري: الرحلة، ص٢١٣، ، ٢١٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٨١. ووصف المسجد الأقصى يُقارن العبدري: الرحلة، ص٣٨٥؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٦، ونقل ابن بطوطة عنه وصف قبة الصخرة وعمود السواري و مزارات قرافة مصر، وغيرها كثير.

[٩] العياشي(عبد الله بن محمد): رحلة العياشي، تح: سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٦م، ج١، ص٢٠٦، ٢٠٧.

[١٠] الورثيلاني(الحسين بن محمد): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢٢٢، ٢٣٨، ٣٩٢.

الديباج"، ونقل عنها كثير من التراجم[١] ، واعتمد عليها الوزير السراج في كتابه" الحُلل السندُسيَّة في الأخبار التونسيَّة"، إذ نقل عنها فقرات في الأوصاف والتراجم[٢]، ونظراً لأهمِّيتها قام ابن قنفذ القسطنطيني(ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، باختصارها بـ" المسافة السنيَّة في اختصار الرحلة العبدرية"[٣]، ولخَّصَها العلَّامة عباس بن إبراهيم المُراكشي السملالي في كتابه" الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات من الأعلام"[٤].

ج- بلاد الشام في رحلة العبدري دراسة مُقارنة نقديَّة:

حقيقةً لمْ يقصد العبدري في رحلته الزيارة الشاملة والكاملة لأغلب أرض الشام، وإنَّما قصد زيارة الأماكن المُقدَّسة في فلسطين والمكوث بها لفترة وجيزة، حتَّى يتهيأ للسفر إلى القاهرة، ويدلُّ على ذلك أنَّ فترةَ إقامته فيها لم تتجاوز اثني عشر يوماً، مكثَ فيها في كلٍّ من القُدس، والخليل، وعسقلان، وغزة فقط، فاهتمَّ أثناء إقامته بهذه المناطق بوصفها بشكل موجز، مع وصف مساجدها، ومزاراتها، وقبورها، وأوديتها، وبحيراتها، وآبارها:

أ-ج- وصف المُدن:

1ً- مدينة الخَليل:

أقام الرحَّالة العبدري في الخليل خمسة أيام، وخلال مُدِّة إقامته قدمَّ وصفاً جميلاً لها، فذكر أنَّها قريةٌ مليحة المنظر والمخبر، أنيقة المسموع والمبصر، مُشرقة كالصبح إذا أسفر، موضوعة ببطنِ وادٍ قليل الماء والشجر، والمُحيط بها حرار وعِرَة.

وبالمقارنة ذكر مجير الدين العليمي(ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م) أنَّ المدينة تُسمَّى حبرون، وهي اتِّجاه بيت المقدس من القبلة، وهي مُستديرةٌ حول مسجدها من الجهات الأربعة، وفيها سورٌ، والمدينة مبنيَّة من الحجارة المنحوتة، وشوارعها بعضها سهل وبعضها وعر، وفيها عدد من الأسواق، والمدارس، والزوايا،

---

[١] التنبكتي(أحمد بن بابا): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٨٩م، ص٦١٠.

[٢] الوزير السراج(محمد بن محمد): الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح: محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية، تونس، تونس، ط١، ١٩٧٠م، ج١، ص٢٤٥- ٢٤٧، ٥٠٠، ٥٦٠، ٦٦٨.

[٣] العبدري: الرحلة، ص١٧.

[٤] السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٤، ص٢٨٧- ٣٣٠.

والمشاهد، وبظاهرها مسجد الأربعين على جبلٍ، وفيها أعيُنُ ماء، وتُحيطُ بها مزارع الكروم، وفيها عمَّر السلطان قلاوون الرباط، والبيمارستان المنسوبان إليه[١].

2ً- مدينة القُدس:

انتقل العبدري من الخليل إلى القدس للإقامة بها، ووصف القدس بأنَّها مدينة كبيرة منيعة مُحكمة، من الصخر المنحوت على نشز غليظ مقطوع بجهات الأودية، وسورها مهدوم هدمه الملك الظاهر، خوفاً من استيلاء الروم عليها، والخراب فيها فاش، وليس لها نهر ولا بُستان، وحولها تلالٌ مُشرفة عليها، وبها كنيسة للمسيحيين يحجُّون إليها، و رباطان بنى أحَّدهما السلطان المنصور قلاوون، والآخر علاء الدين الأعمى[٢]، وفي شرقيها وادي جهنَّم، في بطنه كنيسة، وبها قبرُ مريم عليها السلام وفي عدوتها منارات.

وبالمقارنة ذكر المقدسي(ت ٧٦٥هـ/١٣٦٤م) أنَّ في المدينة اسطوانتان كبيرتان من الحجارة، وهما طلسمٌ للحيَّات، وفيها عين سلوان[٣] من أعذب العيون وماؤها كماءِ زمزم، وعلَّق العليمي قائلاً: « و بظاهر القدس من كلِّ جهة كروم بها أنواعُ الفواكه من العنب، والتين، والتفاح، و المشمش»[٤].

3ً- ثغر عَسقَلان:

انتقل العبدري إلى عسقلان بعد إقامته في القدس خمسة أيام، و وصفها بأنَّه خرابٌ يباب، لا أنيسَ به إلَّا أطلالاً مائلة، وآثاراً طامسة، تؤثِر في القلب تباريحَ الأسى، وتعيدُ المُشرق من أُنسه حندساً، وأضاف

---

[١] العبدري: الرحلة، ص٤٥٧؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٣٩- ١٤٤، ١٥٧؛ وذكر الهروي أنَّ بها مغارةً فيها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسارة عليهم السلام، وقيل: إنَّ قبرَ آدم ونوح وسام في هذه المغارة. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٥.

[٢] علاء الدين أيدغدي الأعمى، الركني، ناظر أوقاف القدس وباني الرباطات فيها، كان من أحسن الناس سيرة، توفي سنة(٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م). المنصوري: زبدة الفكرة، ص٣٠٣، ٣٠٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥٢، ص١٨٨؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص١٦٣، ١٦٤.

[٣] وأشار ابن عثمان المكناسي أنَّ هذه العين تجري حيناً وتحبس حيناً آخر، وهي بظاهر القدس من جهة القبلة بالوادي يُشرف عليها سور المسجد القبلي، والغريب أنَّ ماءها لا يجري إلَّا في أوقات الصلاة. ابن عثمان المكناسي(محمد بن عبد الوهاب): إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تح: محمد بوكبوط، دار السويدي، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٣م ، ص٣٠٠.

[٤] العبدري: الرحلة، ص٤٦٨، ٤٦٩؛ المقدسي(أحمد بن محمد): مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تح: أحمد الخطيمي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص١٨٣، ٢٥٠؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١١٥، ١١٦، وعلَّق الهروي واصفاً مدينة القدس بأنَّها مدينة عظيمة بها المسجد الأقصى، وقُبَّة الصخرة وللمسيحيين فيها مقامات، وفيه برج داود ومحرابه المذكور في القرآن الكريم و كنيسة اليعاقبة، وبئر يُقال: إنَّ المسيح اغتسل منه، وبظاهر القدس عين سلوان ماؤها مثل ماء زمزم، وفيها كنيسة صهيون التي يُقال: إنَّ المائدةَ نزلت على عيسى بن مريم والحواريين بها، وفيها كنسية قمامة وعمارتها من العجائب المذكورة، وللمسيحيين فيها مقبرة يسمُّونها القيامة، وفيها بستان يوسف الصديق عليه السلام. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٣، ٣٤.

العبدري، قائلاً: « وقلَّ ما رأيتُ من البلدان أنْ جمعَ مِنْ المحاسن ما جمعت عسقلان، ولها على البرِّ والبحرِ طَرف مُمتدٍّ، وحكم ماضٍ لا يرتدُّ، ترنو إليها من طرفٍ، ولها سورٌ من طرفها، تزهو بروضة جمَّة الأزهار، ومبانيها فاخرة، تُضاهي مباني بابل»، وبالمقارنة وصفها العُليمي بأنَّها من أحسن المدن، و أظرفها، وبها أماكن تُقصد للزيارة، وهي على شاطئ البحر المالح[١].

4ً- مدينة غزة:

ذكرَ العبدري أنَّها تقع آخر بلاد الشام ممَّا يلي مصر، وبينها وبين الصالحية أوَّل بلاد مصر ستة أيام، وهي مدينةٌ مُتَّسعة عامرة لا سور لها، كثيرة العمارة، وهي جسرٌ إلى مصر والشام، وبِها أسواقٌ قائمة، ومساجد معمورة، ولها جامعٌ مَليح حَسن، وبالمقارنة ذكر العُليمي أنَّ غزَّة من أعظم مدن فلسطين، وهي من الثغور، وبها كثير من الأشجار والنخل، وحولها كثير من المغارس، وفيها أنواع الفواكه، وولد فيها الإمام الشافعي[٢].

ب-ج وصف المساجد:

1ً- مسجد الخليل:

وصَفَهُ العبدري بأنَّه بُنية أنيقة، عالية مُحكمة العمل من صخور منحوتة في نهاية العظم، ومنه صخرة في الرُّكن الذي على يسارِ القبلة، وهي من الأرض على قدر القامة فيها سبعٌ وثلاثون شبراً يتعجَّب الناس منها ومن وضعها هنالك، ويقال: أنَّ البُنية كلَّها من صنعة الجنّ أمرهم سُليمان عليه السلام بتجريدها على الغار لما دُثر ما كان عليها، وفيها تحريفٌ عن الجنوب إلى الشرق، فلمَّا رُدَّت مسجداً جعل لها المحراب في الوسط كسائر المساجد تحسيناً لصورتها، ثمَّ ردَّ الرُّكن الأيمن محراباً آخر تنبيهاً على تشريفها، وفي المسجد قبور الأنبياء الخليل، وإسحاق، ويعقوب، وتُقابله من جهة اليسار ثلاث أُخرى هي قبورُ أزواجهم، وللمسجد منبر، و على يمينه بجدار القبلة نفق يُهبط إليه بدرج من رُخام، وهو ممرُّ إنسان واحد يُفضي إلى فسحة ليست كبيرة، مفروشة بالرُّخام، وفيها صورُ ثلاثة قبور مُقابلة للداخل في طول الحائط، مُصطفَّة من الشرق إلى الغرب.

---

[١] العبدري: الرحلة، ص٤٧٤، ٤٧٥؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٣٥. وذكر الرحالة ناصر خسرو أنَّ المدينةَ جميلةٌ، وفيها سوق وجامع جميل. علوي(ناصر خسرو): سفرنامة، تر: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٩١؛ وعلَّق الهروي قائلاً: « موضع شريف، وثغر قليلٌ مثله في البلاد في حسنهِ وحصانتهِ». الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٦.

[٢] العبدري: الرحلة، ص٤٧٧؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٣٦، ونعتها الهروي بالثغر الشريف والمدينة المذكورة في التوراة والداروم، وبها ولد الإمام الشافعي، وبها قبرُ هاشم بن عبد المناف جدِّ الرسول ﷺ. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٧.

وبالمقارنة قدَّم الرحَّالة العياشي وصفاً لمسجد الخليل، فقال: « فيه قبر سيّدُنا إبراهيم عليه السلام[١]، وقبرُ سيدُنا إسحاق، ويعقوب، ويوسف، وفي الجهة المقابلة قبور أزواجهم، والقبور كلُّها في مغارة تحتَ أرضِ المسجد، وفي المغارة طاقة مفتوحة مثل البئر تُعلَّق فيها مصابيحٌ، وفي أرضِ المسجد شبابيك مُغطَّاة بستور، وقبر يُوسُف عليه السلام في آخر المسجد في الركن الغربي منه»، وذكر الرحَّالة ابن عثمان المكناسي أنَّ في المسجد شبابيك على شكلِ قبور، جُعِلت في مُقابل قبور الأنبياء[٢].

2ً- المسجد الأقصى:

وَصَفَهُ العبدري بأنَّه من المساجد الرائقة العجيبة المُنشرحة الفسيحة وهو مُتَّسعٌ جداً طولاً وعرضاً، وله أبواب كثيرة من الشرق والغرب والشمال، وفي قبليه الباب الذي يدخلُ منه الإمام، والمسجدُ كلُّه فضاء غير مُسقَّفٍ، إلَّا من الغرب فهناكَ مُسقَّف في نهاية الإحكام، وإتقان العمل، وفيه تزويق كثير، وتذهيب رائع، و في شرقي المسجد مواضع مُسقَّفة مع طول الحائط، وعلى الأبواب، وهناكَ موضع مهد عيسى عليه السلام، وهو هزمةٌ في الأرضِ مُبيَّضة، وهذا الحائط الشرقي هو سورُ المدينة من ناحية الشرق[٣].

وفي وسط فناء المسجد قُبّة الصخرة، وهي من أعجبَ المباني، وهي قُبَّة مُثمَّنة على نشزٍ في وسط المسجد، ويُطلعُ إليها في درجٍ من رخامٍ، وقد أحاط بها، ولها أربعة أبواب، والدائر مفروش بالرُّخام، وداخلها كذلك والذهب مبتذلاً في هذه القبَّة، وقد ذُهِّبَ قسمُها الأعلى إلى حدِّ التسقيف وأُلبسَ سقفِها الرصاص المُحكم الالصاق، أمَّا باطنها فيكلُّ عن وصفه اللسان...، وفي وسطِ القبَّة الصخرة التي عرج عنها النبي ﷺ إلى السماء، وهي صخرةٌ صمَّاء علوَّها أقل من القامة، وتحتِها شبه مغارة على مقدار بيت صغير يعلو قدر القامة ويُنزل إليه بدرج، وهُيّء لهُ محراب، وعلى الصخرة شُبَّاكان مُحكمان يُغلقان عليها، الخارجي من الخشب، و الآخر من الحديد الأصفر، و في القُبَّة صورة درقة كبيرة من حديد، يُظَنُّ أنَّها كانت مرآة قد صَدِئَت وزال صقالها.

وبالمقارنة ذكرَ الهروي أنَّ في المسجد الأقصى محرابُ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي سقفهِ مكتوبٌ بسم الله الرُّحمن الرَّحيم: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً منَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤]، وجميعُ الكتابة والأوراق بالفَصِّ المُذهَّب، وطوله سبعمائة ذراع بذراع المُلك، وعرضه أربعمئة وخمس وخمسون ذراعاً بذراع الملك، وتحتَه اصطبل لدواب سُليمان بن

---

[١] وقال عنه السبكي: « هذا منزل أبيك إبراهيم انزل فصلِّ فيه». السبكي(علي بن عبد الكافي): شفاء السقام في زيارة خير الأنام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٠٢

[٢] العبدري: الرحلة، ص٤٥٧، ٤٥٨؛ العياشي: الرحلة، ج٢، ص٤٥٧؛ ابن عثمان المكناسي: إحراز المعلى والرقيب، ص٣٠٣؛ وذكر ابن بطوطة أنَّه مُحكمُ العمل، مبنيٌّ بالصخر المنحوت. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٣٩.

[٣] العبدري: الرحلة، ص٤٦٩، ٤٧٠.

[٤] القرآن الكريم: سورة الإسراء، الآية ١.

داوود، وأمَّا قُبَّة الصخرة فذكر أنَّ في دائرتها درابزين من الحديد كالبيت في الجانب القبلي، وعلوَّها مقدارَ ذراعين، وتحتَها مغارة الأرواح يُنزل إليها بأربعة عشر درجة، وللقُبَّة أربعة أبواب هي: باب الرحمة، وجبرئيل، والقبلة، والسلسلة، مصنوعة من الحديد، ولها رواق مبنِيٌّ على ستة عشر اسطوانةً منَ الرُّخام وعلى ثمانية أركان، والقبَّة التي داخله مبنيَّة على أربعة أركان واثني عشر عموداً، ودائرتها ستةَ عشرَ شُبَّاكاً[١].

3ً- مسجد اليقين:

حدَّده العبدري بالقرب من تُربة لوط في الخليل، وهو على تلٍ مُرتفع نزه له زيادة رونق وفرط إشراق، يُلاصقه من ناحية الشرق داراً واحدةً، وفي المسجد قريباً من الباب موضع منخفض في حجر صلد، قد هُيِّء له صورة محراب، ليعلم أنَّه مَركع ولا يتَّسع إلَّا مُصلياً واحداً، وبالمقارنة ذكرَ ابن بطوطة أنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام، سَجَدَ في ذلك الموضع شُكراً لله على هلاك قوم لوط[٢].

4ً- مسجد مزارة رأس الحُسين عليه السلام:

ذكرَ العبدري أنَّه يقع في عسقلان، وهو مسجدٌ كبيرٌ مليحٌ مرتفعٌ، والمُسقَّف منه ناحية القبلة، وفيه جُبٌّ كبير لماء المطر وبالمقارنة ذكرَ العليمي أنَّ الفاطميين بنوه في عسقلان فوق رأس الحسين على حدِّ زعمهم[٣].

5ً- مسجد عمر رضي الله عنه:

ذكرَ العبدري أنَّه يقع في عسقلان، وهو مسجدٌ كبيرٌ مليحٌ، وقد تهدَّم ولمْ يبقَ إلَّا حِيطانهُ، وفيه أساطين الرُّخام قائمة وموضوعة ما هو نهايةٌ في الحُسنِ، وبه أسطوانة حمراء مليحة جداً، يُحكى أنَّ المسيحيين

---

١ العبدري: الرحلة، ص٤٧٠- ٤٧٢؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣١- ٣٣؛ وأضاف المقدسي أنَّه ما من ماء عذب يخرجُ مثل الماء الذي يخرج من تحت قبة الصخرة. المقدسي: مثير الغرام، ص٢١٧؛ وأشار العليمي أنَّه على يسار الداخل للمسجد الأقصى بئر، يُسمَّى بئر الورقة في وسط المسجد، أمَّا قبَّتهُ على الصحن الكبير، وهي قُبَّة مرتفعة على عمدٍ من رخام وسواري، ودرابزين خشب تُحيط بها، ويحيط بالعمد والسواري الحاملة للقبَّة درابزين من حديد، وخارج القبَّة سقف مستدير من الخشب والبناء حول القبَّة على حكم التثمين وتحت الصخرة من جهة القبلة مغارة يُنزل إليها بدرج. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٤٩، ٥٣، ٥٤.

٢ العبدري: الرحلة، ص٤٦٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٣.

٣ العبدري: الرحلة، ص٤٧٦؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٣٥. في حين ذكر الهروي أنَّ رأس الحسين كان في المسجد، ونُقل إلى القاهرة بعد استيلاء الفرنج على عسقلان سنة(٥٤٩هـ/ ١١٥٤م). الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٦؛ وأضاف ابن بطوطة أنَّه مسجد عظيم، فيه جب للماء بناه العُبيدين. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٢.

حملوها إلى بلادهم، وأكَّدَ ابن بطوطة بأنَّه لم يبق إلَّا حِيطانهُ، وأساطينَ الرُّخام، وهي ما بين قائم وحصيد[١].

ج-ج- الأودية والتلال:

تطرَّق الرحَّالة العبدري لذكرِ عددٍ من الأوديةِ والتلال أهمِّها:

1ً- وادي الخليل:

ذكر العبدري أنَّه وادٍ قليل الماء والشجر، وتُحيطُ به حراتٍ وَعِرة[٢].

2ً- وادي جهنم:

حدَّده العبدري في شرقي القدس، وفي بطنه كنيسة، وبها قبرُ مريم عليها السلام، وفي عدوتِها منارات، منها قبر رابعة البدوية، وذكر العُليمي أنَّه بذيل جبل طور زيتا[٣] ظاهر القدس الشريف[٤].

3ً- وادي النمل:

أورد العبدري أنَّ موقعه بظاهر عسقلان، وفيه جبَّانة عسقلان، وكثير من قبور الأولياء والشهداء، بينما ذكرَ الهروي أنَّه في الطريق بين بيت جبرين وعسقلان، وبه خاطبت النملة سُليمان بن داود عليهما السلام[٥].

4ً- تَل الخليل:

ذكر العبدري أنَّه يقع شرقي حرم الخليل، ويُشرف منه على غور الشام[٦].

5ً- تَل حَبرُون:

أورد العبدري أنَّه تلٌ مُرتفع شرقي الخليل، وهو تلٌ نزه، له زيادة رونق وفرط اشراق[٧].

د-ج-البحيرات والآبار:

نوَّهَ العبدري إلى ذكر بعض بحيراتِ وآبار الأراضي المُقدَّسة، منها:

---

[١] العبدري: الرحلة، ص٤٧٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٢.

[٢] العبدري: الرحلة، ص٤٧٥.

[٣] هو الجبلُ الشرقي المشرف على القدس، وهو جبل عظيم مشرف على المسجد الأقصى. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٥١؛ الحنبلي: الأنس الجليل، ج٢، ص١١٧.

[٤] العبدري: الرحلة، ص٤٦٩؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١١٩.

[٥] العبدري: الرحلة، ص٤٧٦؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٦؛ وذكر ابن بطوطة أنَّه هو الوادي المذكور في الكتاب العزيز. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤؛ القرآن الكريم: سورة النمل، الآيتان ١٧، ١٨.

[٦] العبدري: الرحلة، ص٤٦٥.

[٧] العبدري: الرحلة، ص ٤٦٦.

1ً- بُحيرة لوط:

ذكر العبدري أنَّها تقع شرقي الخليل، وماؤها مُستجر أجاج، كماء البحر ، وهي مُنقطعةٌ لا تتصل بالبحر ولا هي منه، ووصفها ابن بطوطة بأنَّها أجاجٌ، وهي موضعُ ديار قوم لوط[١].

2ً- بئر إبراهيم عليه السلام:

أشار العبدري أنَّه يقع قُربَ عسقلان، وهي بئرٌ عظيمةٌ مُتقنة العمل، عجيبة الصفة، يُنزل إليها بدرجٍ مُتَّسع، وفي البئر أربع عيون واحدة في كلِّ جهة، تخرجُ من أسراب مطوية بالحجارة، يُقابل بعضُها بعضاً، وماؤها طيّب عذب، لكنَّها ليس غزيرة، وذكرَ الهروي أنَّ إبراهيم عليه السلام حفره بيده والله أعلم[٢].

هـ-ج- القبور والترب:

1ً- تُربة لوط عليه السلام:

ذكر العبدري أنَّها تقع شرقي حرم الخليل، على تلٍ مُرتفع يُشرف على غور الشام، وفي شرقيها بحيرة لوط، وعلى قبر لوط بُنية في بيتٍ منها مُبيَّض مليح، والقبر أيضاً مُبيَّض ظاهر لا ستور عليه، وحدَّدها الهروي بين القدس والخليل في قرية تُسمَّى كفر بريك[٣].

2ً- قبرُ فاطمة عليها السلام:

أورد العبدري أنَّ القبر يقع في مغارة بالقرب من تربة لوط وهو قبرُ فاطمة بنت الحسين بن علي عليهم السلام، وعندَ القبرِ لوحتين من رُخامٍ موضوعتين، ويُظنُّ أنَّهما كانت مثبتتين عند رأسِ القبر ورجليه، وعلى اللوحين نقوشٌ بخطٍّ مشرقي مليح مكتوب على أحَّدِها بسم الله الرحمن الرحيم لله العزَّة والبقاء، وله ما ذرأ وبرأ، وعلى خلقه كتبَ الفناء، وفي رسول الله أُسوةً وعزاء، ووصف ابن بطوطة القبر في مغارة بقرب تربة لوط، وبأعلاه، وأسفله لوحان من الرُّخام منقوشاً عليهما بخطٍّ بديع[٤].

3ً- قبرُ يونس عليه السلام:

حدَّده العبدري في منتصف الطريق بين الخليل وبيت المقدس، على بعد ثلاث أميال من الخليل، وعلى القبر بُنية كبيرة ومسجد، ووصفه ابن بطوطة بأنَّه تربة عليها بُنية كبيرة ومسجد[٥].

4ً- قبرُ مريم أمُّ عيسى عليها السلام:

---

[١] العبدري: الرحلة، ص٤٦٥؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٣.

[٢] العبدري: الرحلة، ص٤٧٦؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٦؛ وأشار ابن بطوطة أنَّه يُنزل إليها بدرجٍ متَّسع إلى بيوت، وتخرجُ من أساربها مياه عذبة ليست بغزيرة. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤.

[٣] العبدري: الرحلة، ص٤٦٥؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٤؛ وحدَّد ابن بطوطة التربة بأنَّها تقع على تل مرتفع، وعلى القبر أبنية حسنة بيضاء لا ستورَ عليها. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٣.

[٤] العبدري: الرحلة، ص٤٦٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٣.

[٥] العبدري: الرحلة، ص٤٦٧، ٤٦٨؛ بن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٤.

ذكر العبدري أنَّ القبر يقع في وادي جهنَّم شرقي القدس، وذكر العُليمي أنَّه في كنيسة داخل جبل طور زيتا تُسمَّى الجسمانية[1].

و–ج – لقاء العلماء:

لم يتطرَّق العبدري في رحلتهِ إلى الأماكن المُقدَّسة سوى إلى قاضي بيت المقدس مُحمَّد بن جماعة إذ قال عنه: « لمْ أرَ في هذا البلد مع شَرفه، واشتهاره من هو أهلٌ لأخذ العلم عنه ولا مُعيناً به إلَّا شيخُنا، هو قاضي البلد، ويُلقَّب بدر الدين، وهو محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة[2]، لهُ مجلسُ علمٍ يدرسُ فيهِ أوَّل النهار في المسجد عند المحرابِ، ومجلس سماع، يُروى فيه بعد صلاة العصر يوم الجمعة في قُبَّة الصخرة».

أمَّا عن ذكرِ عُلماء غزة، قال: « عُرِّيت عن عالمٍ أو مُتعلِّمٍ، وأقفرت من فقيهٍ ومُتكلِّمٍ فهي عامرةٌ، وقائمةٌ دائرة، وهذا أمرٌ شملَ في هذا الأوان المُدن والقُرى، وعمَّ بحكم القدر أصناف الورى»[3].

د– المآخذ على الرحلة:

رُغمَ أهمِّية الرِّحلة المغربيَّة، واعتماد عدد من المؤرِّخين عليها مصدراً لمعلوماتِهم إلَّا أنَّ هُناك انتقادات عدَّة يُمكن أنْ توجَّه إليها منها:

فالرحلة تُعرف بالرحلة المغربية، ولكنْ هذا الاسم لا يُطابق المُسمَّى، فليسَ فيها من أخبار المغرب، وما كانت عليه حواضره وبواديه، إلَّا النُّزر اليسير، إذ زارَ العبدري تلمسان، و وجدة، وتازة، وفاس، ومكناسة، وآزمور، وآسفي، وغيرها، وكان المُنتظر أنْ يُجرِّد قلمه لوصف هذه الحواضر، لكنَّه آثر السكوت ومرَّ عليها مرور الكرام[4]، إضافةً لذلك لجأ العبدري لاستعمال الكلمات غير المألوفةِ عند الناسِ، إذ كان

---

[1] العبدري: الرحلة، ص٤٦٩؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١١٩؛ في حين ذكر الهروي أنَّه يُنزل إليه في ست وثلاثين درجة، وبه من العُمد المانع، والرُّخام تحت القُبَّة ستة عشر عموداً من الرخام، ثمانية حمراء، ومثلها خضراء، وله أربعة أبواب، على كلِّ باب ستة عمدٍ من الرُّخام المانع. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٣.

[2] محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة، حازم بن صخر الكناني الحموي الشافعي، قاضي القضاة، تولَّى قضاء القدس والخطابة سنة(٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، ثمَّ نُقِل إلى الديار المصرية وتولَّى فيها مشيخة الشيوخ والقضاء، وعُزل بعدها بقاضي القضاة جلال الدين القزويني سنة(٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، توفي بمصر سنة(٧٣٣هـ/١٣٣٢م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٨؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص٢٩٧؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٩، ص١٣٩؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٨٠؛ العليمي: الأُنس الجليل، ج٢، ص١٣٦.

[3] العبدري: الرحلة، ص٤٧٣، ٤٧٧.

[4] العبدري: الرحلة، ص٢٢.

يُحاول أن يُخاطب مجموعة مُعينة من المتخصِّصين في ميدان علم الجُغرافية، ومثال ذلك مُخاطبة البكري، وهذا من أكبر عيوب الرِّحلة[١].

وتحمَّسَ الرحَّالة إلى وصف المدن الصغيرة، والجبال والأنهار، والمناظر الطبيعية ولم يُعِر اهتماماً للمدن الكبيرة[٢]، ومما يلفتُ النظر أحكامه القاسية على ما يلقاه من سوء الحال أو قلَّة العلم أو خلو المساجد من العُبَّاد وهي طريقةٌ غليظة لا نكاد نجدها عند أحَّد من السابقين أو اللاحقين بصورة دائمة أو مطردة[٣] ومثالها قوله في طرابلس: « وهي للجهلِ مأتم، وما للعلم بها عرس»، وقوله في مصراته: « وهو بلدٌ لم يحوِ إلَّا جُفاته وشأنهُ أحقرَ من أن يعمل فيه الواصف مقولة أو أداته»[٤]، وبذلك مدحَ مَنْ يستحقُّ الذم، وذمَّ مَنْ يستحقُّ المدح في كثير من الأحيان[٥]، ومثال ذلك وصفُه لمساجد القاهرة[٦].

ووقع العبدري في التناقض بين ما وصفُه، وبين ما دوَّنه في كثير من الأحيان، إذ كثيراً ما كان يذمُّ منطقة، ثمَّ يعود لمدحها ومثالها قوله: « أو ليسَ من الأمر الخارج عن كلِّ قياس أنَّ المُسافر عندما يخرج من أنظار مدينة فاس، لا يزال إلى الإسكندرية في خوضٍ ظلماء، وخبط عشواء، لا يأمنُ على مالهِ ولا على نفسه»[٧]، فوقع بالتناقض ودليله قوله القصائد في مدح تونس الواقعة بين فاس والإسكندرية[٨].

وابتداءً من القاهرة بدأ وصفه يفقد حيويته وتفصيله[٩]، ومثالها وصفه نيل مصر والأهرامات، والمزارات فيها، وكذلك وصف الأماكن المُقدَّسة، فلم يتطرَّق إلَّا لذكر المساجد والمزارات، و لمْ يُقدِّم وصفاً عن أهل البلاد، وحياتهم، وعاداتهم، واقتصادهم وغير ذلك[١٠].

واهتمَّ العبدري بلقاء العلماء، لكنَّه لم يقدِّم تراجم لمن التقى به[١١]، وفي لقاءاته التي تحدَّث عنها ساقَ قصائداً، وصاغ وصفاً في نثر مسجوع تغلُب عليه الصنعة، لتتحول رحلته في كثير من الأحيان إلى مُجرَّد يوميات تتدهور أحياناً بسبب محاولة المؤلف إبراز معارفه الخاصة[١٢]، فقد مالَ إلى الشعر بشكل

---

[١] العبدري: الرحلة، ص٣٣٨.

[٢] مثالها. العبدري: الرحلة، ص١٠٤، ١٠٥، ٣٥١، ٣٥٢، وغيرها كثير.

[٣] قنديل: أدب الرحلة، ص٤٦٦.

[٤] العبدري: الرحلة، ص١٨٤، ٢٠٠.

[٥] العبدري: الرحلة، ص٢٨٠.

[٦] العبدري: الرخلة، ص٢٨٠.

[٧] العبدري: الرحلة، ص٣٣.

[٨] العبدري: الرحلة، ١٠٨– ١١٠.

[٩] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٦٧؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٩٦.

[١٠] العبدري: الرحلة، ص٣١٢، ٣١٥، ٣١٩، ٤٥٧– ٤٧٧.

[١١] العبدري: الرحلة، ص٢٢٨، ٢٤٥، ٢٦٧، ٢٨٩، ٢٩٩.

[١٢] والأمثلة عليها كثيرة. العبدري: الرحلة، ص٤٦٧، ٤٧١، ٤٧١.

واضح، وضمَّن رحلته قصائداً لا علاقة لها بالرحلة[١]، وبجانبٍ آخر اعتمدَ على مصادر مكتوبة لوصف مناطق دُونَ المُشاهدة المباشرة رُغمَ مروره بهذه المناطق ومثالها أخذه عن المسعودي والبكري[٢].

ووقع العبدري في أخطاء تاريخيَّة عدَّة، منها ذِكرَه أنَّ الذي هدمَ سورُ بيت المقدس الملك الظاهر بيبرس[٣]، والصحيح أنَّ الذي هدَمَه هو الملك المُعظَّم عيسى بن الملك العادل وذلك سنة(٦١٦هـ/١٢١٦م) خوفاً من استيلاء الفرنج عليه[٤].

٢- ابن رشيد السبتي الفهري، محمد بن عمر بن محمد(ت ٧٢١هـ/١٣٢١م).

أ- التعريف بالرحَّالة:

مُحب الدِّين أبو عبد الله، مُحمَّد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، ولدَ بمدينة سبتة في المغرب الأقصى سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) خلال ولاية أبي يوسف يعقوب المريني(٦٥٦- ٦٨٥هـ/ ١٢٥٨- ١٢٨٦م)[٥]، وقد صرَّح ابن رشيد بمولده بقوله: «

[١] العبدري: الرحلة، ص٢٣٤ ، ٢٥٦، ٢٥٨، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٦٦، وغيرها كثير.

[٢] العبدري: الرخلة، ص٦٨، ١١٢، ٣١٣، ٣١٦.

[٣] العبدري: الرحلة، ص٤٦٨.

[٤] ابن واصل(محمد بن سالم): مفرِّج الكُروب في أخبار بني أيوب، تح: حسين محمد ربيع، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م، جـ٤، ص٣٢؛ ابن أيبك الدواداري: الدرّ المطلوب، ج٧، ص٢٠٢؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٠٥؛ ابن الحريري(أحمد بن علي): الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تح: سهيل زكار، دار الملاح، دمشق، ط١، ١٩٨١م، ص٩٣.

[٥] ابن الجزري: غاية النهاية، ج٢، ص١٩٣؛ الذهبي: ذيول العبر، ص٦٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص٢٨٤- ٢٨٦؛ أعيان العصر، ج٤، ص٦٧٦ - ٦٧٨؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج٢، ص٢٩٧، ٢٩٨؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص١٣٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص١١١- ١١٣؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج١، ص١٩٩، ٢٠٠؛ الداودي: طبقات المفسرين، ج٢، ص٢١٧؛ ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص٢٨٩- ٢٩١؛ ابن القاضي المكناسي: درَّة الحجال، ج٢، ص٩٦- ١٠٠؛ المقري: أزهار الرياض، ج٢، ص٣٤٧- ٣٥٦؛ السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٤، ص٣٤٢- ٣٥١.

ومولدي في عام سبع وخمسين وستمائة»[١]، ويتَّصلُ نسب ابن رشيد بالفهريين في الأندلس[٢]، وهم بطنٌ من كنانة التي يُرفع نسبها إلى مُضر القحطانية[٣]، ولم يكن ابن رشيد مُثبِّتاً من خلال تحديد أصله كشلب في الأندلس أو غيرها[٤]، وقد عاش في بلاد المغرب في أواخر دولة الموحدين[٥] التي انقرضت بوفاة أبو العلاء إدريس الواثق بالله، وقامت مكانها دولة بني مرين[٦] بقيادة أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني الذي دخل مراكش سنة(٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)[٧].

انكبَّ ابن رشيد في موطنه الأصلي على البحث والدراسة، إذ انصرفَ لدراسة العربية، والنحو[٨]، ودرسَ كتاب" الأُنف" للسُهيلي[٩]، وسمعَ الحديث[١٠]، ودرس العروض، والآداب، والتواريخ، وبرع في الخطِّ، وجمع الكتب حتَّى صارت له صحة النقل والأصالة في الضبط[١١]، ودرسَ علم القراءات واللغة، وعلم البيان، وبرع في المناقشات الفقهية، لا سيَّما مُناقشاته حول النجاسة[١٢] ومناقشته مع ابن دقيق العيد على مذهبي الإمام مالك والشافعي[١٣].

---

[١] ابن رشيد السبتي(محمد بن عمر): الرحلة، مخطوط مكتبة الإسكوريال، إسبانيا، رقم ١٧٣٩، ج٣، ورقة ١١٨، ١١٩.

[٢] القادري(محمد بن الطيب): نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، الرباط، ط١، ١٩٧٩م، ج١، ص١٢٠.

[٣] القلقشندي(أحمد بن علي): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القاهرة، ط١، ١٩٥٩م، ص٩٤، ٤٠٨.٣

[٤] ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص٣٨٠.

[٥] ابن عذاري المراكشي(أحمد بن محمد): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ج٤، ص١٩١.

[٦] أبو زرع الفاسي(علي): الأنيس المُطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار منصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٤٠٢.

[٧] الناصري(أحمد بن خالد): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى، تح: جعفر ومحمد الناصري، الدار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ج٣، ص١٣٧.

[٨] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص٢٣.

[٩] المنتوري(عبد الله بن محمد): فهرس المنتوري، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم ١٥٧٨، ورقة ٦٨.

[١٠] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص٢٨٥.

[١١] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص١٣٥.

[١٢] السيوطي(عبد الرحمن): تنوير الحوالك شرح موطأ الغمام مالك، تصحيح : محمد عبد الغني الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج١، ص٦٣.

[١٣] المرتضى(أحمد بن يحيى): البحر الزُّخار الجامع لمذاهب عُلماء الأمصار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥م، ج١، ص٦٠.

وفي سنة(٦٨٣هـ/١٢٨٤م) انطلقَ ابن رشيد لأداء فريضة الحجِّ، وزار خلالها مناطق المغرب ومصر وبلاد الشام[١]، وبقي في رحلته ما يُقارب ثلاث سنوات، إذ عاد بعد انتهاء رحلته إلى بلدته سبتة سنة(٦٨٦هـ/١٢٨٧م)[٢]، وأخذ يتردَّد عنها بين المغرب والأندلس، ثمَّ ارتحل عنها سنة(٦٩١هـ/ ١٢٩٢م).

وبعد مدَّة عاد إليها ليُدَرِّس فيها[٣]، وبدأ بتدريس تلامذته وطلابه إذ كان بينهما مكاتبات واتصالات فقهية وأدبية وخلال فترة إقامته بسبتة عمل بالتأليف والكتابة إذ ألف كتابه" المورد الأمعن في المحاكمة بين الإمامين"[٤]، وفي سنة(٧٠٦هـ/١٣٠٦م) صنَّف كتاب" وصل القوادم بالخوافي في شرح كتاب القوافي"، و" إحكام التأسيس في أحكام التجنيس"[٥]، و" إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح"، و" إيضاح المذاهب فيمن يطلق عليه اسم الصاحب"[٦].

وبعد مدَّة ترك سبتة متوجهاً إلى غرناطة للإقامة بها، وفي غرناطة دُبِّرت له مكيدة بأنَّه يسرُّ البسملة وأنَّه على مذهب أهل الحديث لا يتأوَّل، ويسكت لدعاء الاستفتاح فُجهِّز له محضر، لكن القاضي مات فجأة ولم يُمَسْ بسوء[٧]، وخلال هذه المُدَّة اضطربت العلاقة بين غرناطة وبني مرين، وأصبح هناك اضطرابات اضطرابات وأحداث جِسام فاضطر ابن رشيد لترك غرناطة وتوجه إلى المغرب[٨]، وقد عبَّر ابن رشيد السبتي عن فراره إلى المغرب بقوله: « فتخلص ولا تسأل كيف»[٩].

وفي المغرب اختار المقام في مراكش ولَقِيَ عناية كبيرة، وعُقد فيها للصلاة والخطبة بجامعها العتيق، ثمَّ استدعاه المقام السلطاني إلى فاس، وصار من خواص السلطان بها، وأقام بها إلى أنْ توفِّي في ٢٣ ﷺ سنة(٧٢١هـ/١٣٢١م)، ودُفن خارج باب الفتوح بالمكان المعروف بالجلَّة[١٠].

---

[١] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص١٣٥.

[٢] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص١١٢.

[٣] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص٢٨٥.

[٤] ابن رشيد السبتي(محمد بن عمر): السنن الأبية والمورد الأمعن في المحاكمة بين الإمامين في السند المعنعن، تح: صلاح بن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٥.

[٥] السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٤، ص٣٤٥.

[٦] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص٢٨٥؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج١، ص٢٠٠؛ المقري: أزهار الرياض، ج٢، ص٣٥٠.

[٧] حدادي(أحمد): رحلة ابن رشيد السبتي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط١، ٢٠٠٣م، ص٦٦.

[٨] عنان(محمد عبد الله): نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط٣، ١٩٦٦م، ق٤، ص١١٢- ١١٦.

[٩] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص١٤٢.

[١٠] ابن القاضي المكناسي: دُرَّة الحجال، ج٢، ص١٠٠؛ السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٤، ص٣٤٦.

لقد شهد العُلماء بعلم ابن رشيد وحُسنَ خُلقِه وتربيته لأولاده، فذكروا أنَّه حَسنُ الخُلق كثير التواضع مُتحمِّلاً كلف الخاصة والعامة[١]، وحسن العهد كريم العشرة بِّراً بأصدقائه فاضلاً في جميع أنحائه[٢].
و كان شديد العناية بأولاده، إذ كان ينام بجنب ابنه ليختبر ذهنه في الأحاجي والألغاز[٣] هو الفقيه الخطيب الحاج المُحدَّث نزيل فاس[٤]، و بحرُ المعارف وفريد الزَّمان الذي لا يأتِي بمثله[٥]، ورحلته فيها فنونٌ وضروبٍ من الفوائد العلمية، وطِرَفٌ من الأخبار والأناشيد[٦].

ب- دراسة رحلة ابن رشيد السبتي(ملء العيبة بما جُمِع بطول الغيبة):

عُرِفَت رحلة ابن رشيد السبتي باسم" ملء العيبة بما جُمِعَ بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة"، وقد وصف فيها طريقه إلى الحجِّ ومصر والشام، وتناول فيها الكلام عن أهل الحديث والفقهاء، والحياة الفكرية في البلدان التي زارها، وتمثِّل رحلته يوميات عالم، إذ اهتمَّ فيها بالأدب، والتاريخ الطبيعي، والجغرافية، و الأعلام، والفكر، والشعر، والأدب، والفقه، وغير ذلك.

أ-ب- دوافع الرحلة:

انطلق ابن رشيد في رحلته من سبتة إلى المشرق العربي ومرَّ في طريقه بشمال أفريقيا وزار مصر وبلاد الشام ويبدو هناك دافعين لرحلته:

الدافع الأوَّل:

هو دافعٌ دينيٌّ تمثَّل برغبتهِ بأداء فريضة الحج[٧]، وزيارة الأماكن المُقدَّسة في فلسطين، وتجلَّى ذلك بتقاه وورعه، وقيل: أنَّ هُناك دافعاً آخر، وهو حسرتُه على ما يَحدُث لمسلميّ الأندلس، فدفعه ذلك للارتحال إلى المشرق[٨].

---

[١] الكتاني(محمد بن جعفر بن إدريس): سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: محمد حمزة الكتاني، د. م ، د. ت ، ج٢، ص٢١٦.

[٢] المقري: أزهار الرياض، ج٢، ص٣٤٧.

[٣] ابن زيدان السجلماسي(عبد الرحمن بن محمد): اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تح: علي عمر، مكتبة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ج٥، ص٣٣٠.

[٤] ابن الأحمر(أبو الوليد إسماعيل): نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان، تح: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م، ص٢٣.

[٥] ابن الخطيب(محمد بن عبد الله): أوصاف الناس في التواريخ والصلات، تح: محمد كمال شبانة، لجنة التراث الإسلامي، الإمارات، ١٩٧٧م، ص١٠٠.

[٦] الكتَّاني: الرسالة المستطرفة، ص١٧٨.

[٧] ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص٢٨٩.

[٨] أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٤٤.

الدافع الثاني:

دافع علمي، إذ كانَ هدفُ ابن رشيد السبتي الانتقال إلى المشرق، للدرسِ على شيوخهِ، وسماعهُم، وتكميل تحصيلهُ العلمي، وتجلَّى ذلك بكثرة لقاءاته بالمشيخات في الشرق والأخذ عنهم، وهَدَفَ من ذلك أخذ المعلومات من مصادرها الأساسية، لاسيَّما فيما يتعلق بالحديث[1].

ب-ب- خط سير الرحلة:

في سنة(٦٨٣هـ/١٢٨٤م) سافر ابن رشيد من موطنهِ الأصلي سبتة، ونَزِلَ في مَرسى المريَّة مدة[2]، ثمَّ انتقل إلى تونس، وتلمسان، وبونة، ومنها إلى الإسكندرية[3] ورحلَ من الإسكندرية يوم السبت ٢٨ جمادى الثاني[4] إلى القاهرة، ونَزِلَ بها في ٧ رجب سنة(٦٨٤هـ/١٢٨٥م)[5]، ثمَّ غادر مصر في أواخر شعبان سنة(٦٨٤هـ/ ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، متوجِّهاً إلى الشام، وزار كلاً من دمشق، والقدس، والخليل، ونابلس، و بعلبك، وحقيقةً لا يُعرف الطريق التي سلكها في طريقه إلى الشام أهي الطريق البري أم البحري؟[6]، وبعد مدَّة من إقامته ببلاد الشام توجه إلى مكة وفي يوم الأحد ١٥ ذي الحجة(٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) قصد المدينة المنورة[7]، فوصلها ٢٥ ذي الحجة وبعد أداء فريضة الحج، انتقل إلى القاهرة، فالإسكندرية ليعود بنفس الطريق الذي أتى منه[8].

إذ توجَّه إلى طبرق، ثمَّ طرابلس[9]، ثمَّ إلى المهدية، ثمَّ إلى سوسة، ومنها إلى تونس التي بقي فيها حتَّى ١٤ ربيع الثاني سنة(٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، ومنها إلى عنَّابة، ثمَّ إلى مرسى برشك، ومنها إلى المريَّة، وزار بعدها مالقة، وفي ٢٢ جمادى الثاني(٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، غادر إلى بلده سبتة، لينتهي مطاف رحلته فيها[10]، ويتَّضح من خط سير الرحلة أنَّ ابن شيد السبتي استغرق في رحلته حوالي ثلاث سنوات.

ج-ب- مضمون الرحلة:

اختلفَ الباحثون في تحديد عدد أجزاء الرحلة، فقد أقرَّ الحُسيني بأنَّها ستة أجزاء[11]، في حين ذكر ابن سودة المري بأنَّها سبعة أجزاء[1]، وأجمع كلٌّ من المقري[2]، و الصفدي[3]، وابن القاضي المكناسي[4]،

---

[1] ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص٢٨٩.

[2] ابن القاضي المكناسي: درة الحجال، ج٢، ص٩٦.

[3] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص١٤٦- ١٦٣.

[4] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص٢١.

[5] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص١٢٠.

[6] الحدادي: رحلة ابن رشيد السبتي، ص٦٤.

[7] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١٨.

[8] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٦، ص١.

[9] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٦، ص٢.

[10] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص١١٢.

[11] الحسيني: ذيل تذكرة الحفاظ، ص٣٥٥.

المكناسي[٤]، بأنَّها أربعة أجزاء، و رُغمَ الاختلاف السائد بين هؤلاء الباحثين، يُمكن التوصُّل إلى رأي مفاده، أنَّ الرحلة ضمَّت الأجزاء التالية:

الجزء الأوَّل:

تضمَّن خروج ابن رشيد من سبتة إلى المريَّة، ودخوله بجاية، وهذا الجزء قسمان: **الأوَّل** مفقود، وبذلك لا يُمكن معرفة المناطق التي مرَّ بها ابن رشيد غير تونس، والجزائر، وتلمسان، وبجاية التي التقى فيها بالرحَّالة البلوي[٥]، ولا يُعرف ما إذا كان قد رسا في ثغور شمال إفريقية.

القسم الثاني من الجزء الأول:

عدَّه بعضهم جزء مُنفرد عن الأوَّل، وهو موجودٌ وضمَّنه الحديث عن تونس عند الورودِ، وترجمَ فيه لِمَن لقيه من العلماء في تونس، وبلغت تراجمهم ثلاثة عشرَ ترجمة، ويغلُب على هذا الجزء الطابع الأدبي من رواية الشعر، وأخبار الأُدباء، وفيه نظَراتٍ عن الزهد والتصوُّف.

الجزء الثالث:

تحدَّثَ فيه عن مصر، والقاهرة، والإسكندرية عند الورودِ، وترجمَ فيه لشيوخها، وبلغت تراجمه الأربعين ترجمة، كما تحدَّث فيه عن تاريخ الحركة الفكرية والعلمية بالديار المصرية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ويغلُب على هذا الجزء طابع الحديث، ولا يخلو من الروايات الأدبية، وبِما أنَّ هذا الجزء مبتور الأوَّل، والآخر فبالتالي لا تُعرف الطريق التي سلكها ابن رشيد من تونس إلى الإسكندرية، أكانت عن طريق البر أم البحر؟.

الجزء الرابع:

تضمَّن رحلته إلى بلاد الشام، وهو مفقودٌ، وبالتالي لا يُمكن تحديد المناطق التي زارها ابن رشيد، ولا يمكن ذكر سوى النزرِ اليسير من أسماء العلماء الَّذين التقى بهم في بلاد الشام، وذلك من خلالِ مصادر ترجَمَتَهُ، والمصادر التي نقلت عنهُ.

الجزء الخامس:

تحدَّث فيه عن مسيرهِ من بلاد الشام، إلى مكَّة المُكرَّمة، والمدينة المنورة ووداعها يوم الأحد ٢٨ ذالحجة إلى مصر والقاهرة والإسكندرية، وذكر فيه مراحل سفره وتنقلاته، وأطنبَ في الحديث عن مناسك الحجِّ، وترجمَ

---

[١] ابن سودة المري: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص٢٤٩.

[٢] المقري: أزهار الرياض، ج٢، ص٣٥٠.

[٣] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص٢٨٥.

[٤] ابن القاضي المكناسي: درة الحجال، ج٢، ص٩٧.

[٥] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص١٥٠.

لِمَن لقيه من العلماء في مكَّة المُكرَّمة والمدينة المنورة، وبلغت تراجمه ثمانية وعشرين شيخاً، وهذا الجزء مبتور في آخره، ويغلبُ عليه طابع الحديث النبوي مع كثير من الإنشادات الشعرية.

الجزء السادس:

ويتعلَّق بالعودة من الإسكندرية إلى تونس عن طريق طرابلس، ثمَّ المهديَّة، وذكرَ فيه مَنْ لقِيَهُ من العلماء، وهذا الجزء غَنيٌّ بالعروض، والتعاريف الاصطلاحية.

الجزء السابع:

تحدَّثَ فيه عن عودتهِ من تونس إلى سبتة عن طريق بونة(عنابة)، و مالقة، والجزيرة الخضراء، وذكر فيه لقائه للتجاني والأسرة التجانية، وهذا الجزءُ حافلٌ بالشعر والروايات الأدبية، أمَّا جانبَ الحديث فَضَئيلٌ جداً فيه، قَصَرهُ على أربعة أحاديث[1].

د-ب- منهج ابن رشيد السبتي في تدوين رحلته:

في الحقيقة كانَ ابن رشيد السبتي يُوضِّح منهجه في تدوينِ مُصنَّفاته في مُقدِّمة كلِّ مُؤَلَف من مؤلفاتهِ، وهذ ما أوضَحه في كتابه" السنن الأبية"[2]، وبِمَا أنَّ الجزء الأوَّل من رحلته مفقود، والذي يُحتمل أن يكون صرَّح في بدايته لمنهجه، بالتالي يُفتقر لتتبُّع المنهج الدقيق له.

ورُغمَ هذا فإنَّ ابن رشيد صرَّح بنصٍ في الجزء السابع يُمكن من خلاله معرفة شيئاً عن المنهج الذي اتبعه في رحلته إذ قال: « ولمَّا أنعمَ الله سُبحانه بتيسير الغرض من هذا التقييد الَّذي تسنَّى ببركة التوجيه لأداء المُفترض، فرأيتُ أنْ أُبيِّنَ كيفَ وقع الحال فيما اشتمل عليه من الحلِّ والترحال، فأقول: والله في العفو والصفح المسؤول أنَّني لمْ أكُنْ قصدتُ به مقصد التصانيف المُهذَّبة ولا التآليف المُرتَّبة، وإنَّما قيَّدتُه بحسب ما تيسَّر لي مما كُنت كتبتُه على ظهورِ الكتب، وفي بطون البطائق، مما قُيِّدَ للتذكار بتلك المعاهد اللائحة الأنوار، فقصدتُ أنْ أضُمَّ بدده و أجمعَ عَدده، وأكثره وقع على غير رويَّةٍ، بل وَفَى ما سمحت به السجيَّة، وموخِّراً من حقِّه أنْ يُؤخِّر غيره عنه، وربَّما وقعت التواريخ في قراءتِي على ما قرأتُ عليه أو سمعتُ منه أو أخذتُ عنه، وإنْ كنتُ أودعته من الفوائد ما لعلَّه لا يحصرهُ ديوان ويعزُّ وجوده على ذي البحث والتنفير والافتنان من مسائل حديثيَّة، وأدبيَّة، وبيانيَّة بعضُها منقولٌ عن أئمتنا وأشياخنا، وبعضُها مما فتحَ الله فيه من فضلِه العميم، وفيه أيضاً موضعاً من الأسانيد والمتون، وكذلك مَنْ وَصَفتُه من شُيوخنا أو أصحابنا، فلمْ أتجاوزَ في أوصافِهم بل جئتُ بحلية في إنصافهم، وكذلك وقعَ فيها من الأشعار الغزلية والأوصاف التي هي مُستعملةٌ عند أهلِ الطريقة الأدبيَّة، وقد ضمَّنتُ المجموع من

---

[1] الحدادي: رحلة ابن رشيد السبتي، ص٢٠٨- ٢٢١.

[2] ابن رشيد السبتي: السنُن الأبيَّة، ص٢٩، ٣٠.

الأحاديث النبويَّة، والغرائب الأصليَّة، والفقهيَّة، واللطائف الأدبيَّة، والنكت العروضيَّة وأشرتُ إلى ما صوَّغهُ الفُقهاء من المسالك»[1].

ويتضح من قوله: أنَّه حَرِصَ على كتابة ما جمعه في رحلتِه، واستعارَ منهج المحدِّثين وطريقتهم في الضبط، وتجلَّى ذلك في الأسانيد التي رواها عن الشيوخ، وخاصةً أنَّ من شروط ذلك، التحري، و التدقيق، والضبط في الأحاديث، وعدم التساهل في ذلك[2] وبذلك تحصَّل لهُ معرفة الحديث على طريقة أهلِ الجرحِ والتعديل، إضافةً إلى استعانته بكتبِ من سبقه من مؤلِّفِي التاريخ و المسالك، واعتماد الأسلوب الأدبي في كتابته، وتضمينَ رحلته نصوصاً أدبيَّة وشعريَّة، ونكتٌ وطرائف وحكايات، وأحاديث نبويَّة[3]، إضافةً إلى تدوينه المعلومات التي قرأها، وسمعها، وهو بذلك دوَّن أخباراً لمْ يكن معاصراً لها، ولمْ يُشاهدها بنفسه، إنَّما نقلها لهُ غيره، عن طريق السماع، فدوَّنها وقيَّدها في رحلته.

وقد أولى الناحية الجغرافية أهمِّيَّة لا بأس بها إذ وصف البلدان والمسالك التي مرَّ، و مثالها قوله: « وكانَ سفرُنا من دمشق من الموضع المعروف بميدان الحصى عصر يوم الإثنين الحادي عشر من ﷺ، ونزلنا منازلاً بالطريقِ سالكينَ إلى بُصرى وهي مدينة حوران، وضبطُ هذا الاسم بضمِّ أوَّلهُ وإسكان ثانيهْ وفتح الرَّاء المُهملة، و افتُتحت بُصرى في خلافة أبو بكر ﷺ لعام وأربعة أشهر مَضت على خلافته»[4]، ويتَّضح من قوله أنَّه اتَّبعَ منهجاً لا يقوم على مشاهدته فحسب، إنَّما على ثقافتهِ التاريخيَّة واللغويَّة، فضبط اسم المدينة، وتاريخ فتحها وأحوالها.

ومنهجهُ قائمٌ على الاهتمام بالناحية الأدبية فمثلاً قال في أحَّدِ المواضع في مُطارحته للأديب التونسي التجاني: « لا أغربُ من رسالتك البديعة المُساقَ، المُخجلة كلَّ قلادةٍ بما رزقته من حسن الانتظام والاتِّساق، فقد أغربتَ وأشرقتَ وشرَّقتَ وغرَّبتَ»[5].

أمَّا منهجَ تراجمه فقامَ على ذكرِ كنية المُتَرجم لهُ، واسمهُ، وما تميَّزَ بهِ من علمٍ وفنونٍ، وذكرَ شيوخه، وتلامذته، وإجازاته وسماعاته، وقد تطولُ ترجمتهُ أو تقصر حسب مكانة الشيخ وأهمِّيتهُ العلمية، ثمَّ يرفع ابن رشيد للمُتَرجَم لهُ نسبه إلى أنْ يصلَ به إلى الجدِّ الواحد والعشرين أو الثاني والعشرين، ومثالَ ذلك

---

[1] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٧، ص٦٤.

[2] البغدادي(أحمد بن علي): الكفاية في علم الرواية، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت، ص١٥٢؛ السيوطي(عبد الرحمن): تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ١٩٧٩م، ج٢، ٣٣٩.

[3] ابن الطواح(عبد الواحد بن محمد): سبك المقال لفك العقال، مخطوط بالخزانة الملكية برقم ١٠٥، الرباط، ورقة٩٠؛ ابن الطواح(عبد الواحد بن محمد): سبك المقال لفك العقال، تح: محمد مسعود جبران، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس– ليبيا، ط٢، ٢٠٠٨م، ص٢٠٧، ٢٠٨.

[4] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١، ٢.

[5] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٧، ص٤٦.

ترجمتُهُ لتاج الدّين الغرّافي الذي لقيه في الإسكندرية، إذ ذكرَ كنيتهُ واسمُه وما تحلَّى به من الصفات وإجازاته وسماعه[١].

وأسلوبهُ في الكتابةِ يغلبُ عليه العفويَّة والعبارات البسيطة القريبة لفهم القارئ، ومثال ذلك وصفه لمنارة الإسكندرية، إذ قال: « ومن عجائب الإسكندرية منارهُ الذي يعجزُ عنهُ الواصف، ويُحار فيه الرَّاصف، وضخامتهُ من داخله أكثرَ ممَّا هي في خارجه»[٢]، وفي بعض الأحيانِ يميلُ إلى شدِّ انتباه القارئ من خلال ذكر بعض الغرائبِ سواءً في الحديث أمْ الحكايات أمْ الأوصاف، ويحرصُ أنْ يأتي بكثير من الفوائد التي قال: أنَّه لمْ يُسبق إليها، ويظهر ذلك في كُثرة النُقُول من المصادر التي يعزُّ وجودها، والطريقة الخاصة في صُحبة العُلماء ومثالها ذكره للأثار الباقية في تبوك منذ زمنِ النبي ﷺ وذكر مُعجِزَاتِها[٣].

هـ-ب- موارد الرِّحلة:

يدلُّ غنى الرحلة بالمعلومات الأدبيَّة، والتاريخيَّة، والجُغرافيَّة، والاجتماعيَّة، والتراجم الواردة فيها على تعدُّد مواردها، **ولعلَّ من أهمِّها:**

1ً- المُشاهدة:

إذ دوَّن ابن رشيد في رحلته إلى الحجِّ كلِّ ما شاهدهُ في طريق ذهابه وإيابه، وتميزَّ وصفه بالدقَّة والعلمية، فأورد معلوماتَ تاريخيَّة وجغرافيَّة عن كلِّ منطقة مرَّ بها[٤].

2ً- إنَّ جميع أسماء شيوخه وأصحابه الواردة أسماؤهم في الرحلة، هم مصدرٌ لها؛ لأنَّهم كانوا يمدونَه بالإنشادات، والروايات، والأخبار، والفوائد[٥].

3ً- متون الكتب:

وتجلَّى ذلك فيما نقله من كتبِ سابقيه ومعاصريه، إذْ اهتدى إلى معلوماتٍ كثيرة منها، نقلهَا ودوَّنها في رحلته، وهذه المُصنَّفات كثيرة ولا يُمكن في هذا الموضع حصرِهَا بالمُجمَل.

ولكنْ من أهمِّها:

- كتب الفقه والحديث والتفسير والأصول والأحكام والزهد والتصوف والتعبير:

منها، " اختلاف قول مالك وأصحابه"[١] لابن عبد البر النمري(ت ٤٦٣هـ/١١٧١م)[٢]، و" ارتقاء الرتبة باللباس والصحبة" لأبي محمد بن أحمد القسطلاني[٣]، و" عارضة الأحوذي"[٤] لأبي بكر بن العربي(ت

---

١ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١- ٣.

٢ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص٥٣- ٩٤.

٣ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص٧.

٤ مثالها: ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١، ٨٧، ٢٢٧؛ وغيرها كثير.

٥ مثالها: ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١٥٨، ٢٢٧ وغيرها كثير.

ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م)[٥]، و" مطالع الأنوار"[٦] لابن قرقول(ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م)[٧]، وكتاب" تلبيس ابليس"[٨] لابن الجوزي(ت ٥٩٧هـ /١٢٠٠م) [٩]، وغيرها كثير.

- كتب الأدب واللغة:

وأشهرها شعر ابن الرومي[١٠]، والمتنبي[١١]، و" ضرائر الشعر"[١٢] لابن عصفور(ت ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م)[١٣]، وكتاب" المشرق في محاسن أهل المشرق" لابن سعيد المغربي[١٤]، وغيرهم الكثير.

- المعاجم:

استقى ابن رشيد السبتي الكثير من معلوماته من المعاجم سواء الجغرافية، أو اللغوية، ولعل أشهرها:" مُختصر العين"[١٥] للزبيدي(ت ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م)[١٦]، و" معجم ما استعجم" للبكري[١٧]، و" البارع في اللغة"[١] لأبي علي القالي(ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م)[٢].

---

[١] ابن عبد البر النمري(يوسف بن عبد الله): اختلاف أقوال مالك وأصحابه، تح: حميد محمد لخم، ميكلوش موراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣ م، ص٥.

[٢] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص٥٨.

[٣] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص١١٠.

[٤] ابن عربي المالكي(محمد بن عبد الله): عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج١، ص٥.

[٥] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٧، ص٦٥.

[٦] ابن قرقول(إبراهيم بن يوسف): مطالع الأنوار على صحاح الآثار، تح: أحمد عويس جنيدي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ٢٠١٢م، ص١٧.

[٧] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٧، ص٥٩.

[٨] ابن الجوزي(أبو الفرج عبد الرحمن): تلبيس إبليس، دار القلم، بيروت، د. ت، ص٣٩١.

[٩] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٧، ص٦٥.

[١٠] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص٧٥.

[١١] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٧، ص٢٥.

[١٢] ابن عصفور الإشبيلي(علي بن مؤمن): ضرائر الشعر، تح: إبراهيم محمد، دار الأندلس، القاهرة، ط١، ١٩٨٠م، ص٦.

[١٣] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٦، ص٩٢.

[١٤] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٧، ص٣.

[١٥] الزبيدي(محمد بن الحسن): مختصر العين، تقديم: علال الفاسي، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، د.ت.

[١٦] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص٦٨.

[١٧] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص٣.

- الفهارس والمشيخات:

منها" التكملة لوفيات النقلة" لعبد العظيم بن عبد القوي المُنذري(ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) [٣].

- كتب التاريخ:

وأهمُّها" تاريخ أخبار مكة" لأبي الوليد الأزرقي[٤]، و" العجالة في الأنساب"[٥] لأبي بكر الحازمي[٦]، و" تاريخ أصبهان"[٧] لأبي نعيم الأصبهاني(ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م)[٨]، و" الكامل في التاريخ" لابن الأثير[٩]، و" بغية الطلب" لابن العديم[١٠].

و-ب- أهمّية الرحلة:

يُعدُّ ابن رشيد السبتي أوَّل رحَّالة من العدوة المغربية سجَّلَ انطباعاتهِ عن رحلته في مؤلفٍ خاص، و تكمُن أهمّية هذه الرحلة بغزارة ما جمعه من المعلومات التي تتعلق بالحالة الاجتماعية للبلاد التي زارها، وخاصة مكة والمدينة، فقد عُنيَ عناية خاصة بدراسة و تسجيل عادات وتقاليد مدن الحجاز، كما خصَّ بالذكر منها اللوائح والنظم التي يجب أن يلتزم بها الدارس والمُدرِّس بمدارس، ومعاهد، وربط وخلاوي، مكَّة والمدينة ومصر والشام[١١]، كما ضمَّت رحلته الكثير من تراجم العُلماء، والفقهاء، المقيمين والمجاورين بالحرمين[١٢].

---

١ أبو علي القالي(إسماعيل بن القاسم): البارع في اللغة، تح: هاشم الطعان، دار الحضارة العربية، بيروت، ط١، ١٩٧٥م، ص٣.

٢ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١٧.

٣ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص١٠٠.

٤ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١٨.

٥ أبو بكر الحازمي(محد بن موسى): عُجالة المبتدي وفُضالة المنتهي، تح: عبد الله كنون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص هـ.

٦ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص٦.

٧ أبو نعيم الأصبهاني(أحمد بن عبد الله): تاريخ أصبهان، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص٣.

٨ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٦، ص٩٧.

٩ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٦، ص٦٥.

١٠ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٣، ص١١٢.

١١ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٤، ص٣٠٣، ج٧، ص٣٤٣، ج١، ص٩.

١٢ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٤٤، ٣٤٥.

و تعدُّ الرِّحلة مصدراً مهمّاً عن الحياة الفكرية في الحجاز ومصر وبلاد الشام في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، و أنَّ الجزء الثالث منها ذا أهمِّيَّة خاصة، فهو يُشكِّل مصدراً مُهمَّاً للحركة الأدبية والفكرية في تونس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ لأنَّه خاص بتلك المدينة العلمية المشهورة التي آوَتْ المُهاجرين العلماء من الأندلس، والَّذين التقى بكثير منهم ابن رشيد السبتي[١].

ومن جهة أخرى تكمُن أهمِّيتها بما احتوتهُ من معلوماتٍ جُغرافيَّة غزيرة، إذ عرَّف مؤلفها بكثير من المناطق التي لم يذكرها أحَّداً قبله[٢]، وهي مصدرٌ أدبيٌّ للمُهتمِّين بالأدب؛ لكثرة ما أورده ابن رشيد من الشعر والنظم[٣]، ومهمَّة للباحثين في مجال الحديث، إذ اهتمَّ ابن رشيد بذكر الأحاديث مع تخريجها وذكر وذكر سندها العالي[٤]، وبجانبٍ آخر فقد أورد ابن رشيد السبتي في رحلته تراجم لعدد من الأشخاص والتي والتي لا توجد تراجمهم عند غيره[٥].

و أهمُّ ما يُمكن ذكره في هذا المجال أنَّ الرِّحلة بحدِّ ذاتها مصدراً لعدد من الرحَّالة الَّذين أتوا بعد ابن رشيد، ونقلوا عنها معلوماتً قيّمة، إذ استقى المؤرِّخ ابن الخطيب الغرناطي(ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) منها معلوماتٍ ودوَّنها في رحلته" نُفاضة الجُراب في علالة الاغتراب"[٦]، وجعلَها ابن قنفد القسطنطيني(ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) أحَّد أهمَّ موارده في" أُنس الفقير وعز الحقير"[٧]، واهتدى بها المؤرِّخ ابن حجر العسقلاني، ونقل منها في كتابه" هُدى الساري مُقدِّمة فتح الباري"[٨]، ولا يقلُّ نقلاً عنهم ابن مريم الميلتي(ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م) في كتابه" البُستان الكثير من التراجم"[٩]، وجعلَها ابن مليح القيسي(ت ١٠٤٢هـ/١٦٣٣م) أحَّد أهمَّ موارده في كتابه" أُنس الساري والسارب"[١٠].

---

[١] الحدادي: رحلة ابن رشيد السبتي، ص٢١١، ٢١٢.

[٢] مثالها: ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص٣، ٩٩.

[٣] مثالها: ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١٦٦، ١٦٧، ونظمه كثيرة في رحلته.

[٤] مثالها: ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١٧٨، ١٧٩، والأحاديث التي ذكرها ابن رشيد في رحلته كثيرة.

[٥] مثالها ترجمته للعالم تاج الدِّين الغرافي. ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١– ٣.

[٦] ابن الخطيب(محمد بن عبد الله): نُفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تعليق: أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د. ت، ج١، ص٦٧.

[٧] ابن قنفذ القسطنطيني(أحمد بن حسن): أُنس الفقير وعزِّ الحقير، تح: محمد الفاسي و أدولف فور، الرباط، ١٩٦٥م، ص١٠١.

[٨] ابن حجر(أحمد بن علي): هُدى الساري مقدمة فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٦٠م، ج١، ص١٤.

[٩] ابن مريم التلمساني(محمد بن محمد): البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، اعتناء: محمد بن أبو شلب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٩٠٨م، ص١١٩، ٢٩٢.

[١٠] ابن مليح السراج(محمد بن أحمد): أُنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم و الأعارب، تح: محمد الفاسي، فاس، ط١، ١٩٦٨م، ص٨٤.

ج- بلاد الشام في رحلة ابن رشيد السبتي دراسة مقارنة:

حقيقةً لا يُعرف الوقت الذي حلَّ به ابن رشيد في دمشقَ أو الطريق التي سلكها، وذلك بسبب فُقدان الجزء الرابع الخاص ببلاد الشام، وكلُّ ما أقرَّ به قوله في بداية الجزء الخامس: « أهلَّ هلالُ شوال ليلة الجمعة(٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، وكان سفرُنَا من ظاهر دمشق يوم الإثنين شوال(٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، بعد مبيتُنا بالقيسارية، ثُمَّ توجهنا مع الرَّكب إلى بُصرى مُتوجهين إلى الحرمين»[١]، وبذلك يُمكن استنتاج المُدَّة التي قضاها ابن رشيد في بلاد الشام وهي شهرين، إذ أنَّ آخر لقاء له في مصر كان مجلسُهُ الأخير مع أبو العزِّ الحرَّاني[٢] وذلك في حدود غرَّة شعبان سنة(٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، وهو قد صرَّح أنَّه سافرَ من دمشق يوم يوم الإثنين شوال سنة(٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)[٣].

وبسبب فُقدان الجزء الخاص ببلاد الشام، فلا يُمكن معرفة الأماكن التي زارها في بلاد الشام سوى تلك التي صرَّح بها في بداية الجزء الخامس عند خروجِهِ من دمشقَ، إضافةً إلى بعض المعلوماتِ القليلة التي يُمكن الحصول عليها من مصادرِ ترجمتِهِ ومنْ المناطق التي صرَّح بها في الجزء **الخامس:**

أ- ج- ذكر المدن:

1ً- ميدان الحصى:

ذكرَ ابن رشيد أنَّه يقع قبلي دمشق، وهي المنطقةُ المعروفة بحيِّ الميدان، الذي يقومُ محلَّةُ مُصلَّى العيدين، وهو محلَّةٌ كبيرةٌ، بطرفِهِ مسجد الفلوس، وفيه تُرب كثيرة، مثل التُربة البدرية و القراجية[٤].

2ً- قيساريَّة:

أورد ابن رشيد أنَّ موقعها على ساحل بحر الشام، وتُعدُّ في أعمال فلسطين، بينها وبين بحيرة طبرية ثلاثة أيام، على بعد ستةٍ وثلاثين ميلاً عن عكا[٥].

---

[١] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١، ٢.

[٢] أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرَّاني، الشيخ المُحدِّث، لقيه ابن الرشيد السبتي بمصر، وقرأ عليه الحديث، توفي بمصر سنة(٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م). الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١١٣؛ ابن رشيد السبتي(محمد بن عمر) إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح، تح: محمد الحبيب بلخوجة، تونس، ١٩٩٠م، ص١٢٠؛ المقري: أزهار الرياض، ج٣، ٣٤٧.

[٣] الحدادي: رحلة ابن رشيد السبتي، ص٢١٤.

[٤] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٣٢، ٦٥، ج٢، ص٢١، ٤١، ٨٢، ١٨٢، ١٩٢، ٢٠٩، ٣٢٣، ٣٤٢؛ كاتبي صيادي(محمد عز الدِّين عربي): الروضة البهية في فضائل دمشق المحميَّة، مطبعة المقتبس، دمشق، ١٩١١م، ص٢٤؛ وذكر الهروي أنَّه يقع قبلي دمشق، وبه قبر أمُّ عاتكة أُخت عمر بن الخطاب ﷺ. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢١.

[٥] ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص١؛ الحموي: المُشترك وضعاً، ص٣٦٤ ،٣٦٥؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٨٢؛ القزويني: آثار البلاد، ص٥٥٣؛ القرماني: أخبار الدول، ج٣، ص٤٤٢ ،٤٤٣.

3ً- بُصرى:

ذكرَ ابن رشيد السبتي أنَّها هي مدينةُ حوران، وافتُتِحت في خلافة أبي بكر ﷺ، وهي بلدٌ محكمُ الأسوار، قديمُ الآثار، وأبواب دوره من منحوتِ الأحجار، و حوران بلدة من أعمال دمشق، في شرقيها بُحيرة تجتمع فيها مياهُ دمشق وتسير منها في صحراءِ، ورمال إلى أنْ تدخُل دمشقَ، وهي مدينةٌ عظيمةٌ حسنة البناء، مبنيَّة على عُمد الرُّخام مُنمَّقة بالفُسيفُسَاء(١).

4ً- وادي الأزرق:

ذكرَ ابن رشيد السبتي أنَّه وداي ماءٍ في طريق الحاج، دونَ تيماءَ في الأردن في أطراف الشام بينها وبين وادي القُرى، وهو المكان الذي يتزود منه الناس بالماء في طريق الحج من الشام إلى الحجاز(٢).

ومن مدارس دمشق التي زارَها ابن رشيد، وتمَّ الحصول عليها من مصادر ترجمته:

أورد صاحب" الفتح المُتعال في مدح النعال"، ما ذكرهُ ابن رشيد عن مثال النعال الكريمة، وما جاء بها من المُناقشات الأدبيَّة والنقديَّة، وهذه الفوائد تندرج في الجزء الرابع الخاص بالشام، وسبب ذلك أنَّ ابن رشيد لما دخل دار الحديث الأشرفية(٣) بدمشق، ورأى مثال النعال الكريمة، وأنشد في ذلك الأبيات المعروفة، قد جمع ما يتصل بذلك(٤).

ب-ج- لقاء العلماء:

لم يحظَ ابن رشيد بلقاء الشيوخ والعلماء في دمشق كما رَغِبَ، وبِمَا أنَّ الجزءِ الرابع من رحلته مفقود يُمكن من خلال مصادر ترجمتِهِ والمؤلفات التي استقت معلوماتً من رحلته، التوصُّل إلى أسماء عددٍ من العُلماء الَّذين لقيهم في بلاد الشام، **ومنهم:**

- ذكرَ ابن القاضي المكناسي في كتابيه" دُرَّة الحجال"، و" جذوة الاقتباس"(٥) أنَّه قرأ بدمشق على عز الَّدين الحرَّاني(٦)، والقاسم البرزالي(١).

---

١ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص٢، ٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٠٩؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٨٥.

٢ ابن رشيد السبتي: الرحلة، ج٥، ص٣.

٣ تقع جوار باب قلعة دمشق الشرقي، وغربي المدرسة العصرونية، وشمالي المدرسة القيمازية، وبالقرب من المدرسة الهرمية إلى الغرب منها، وبجوار الخانقاه الشريفية، بناها الأشرف مُظفر الدين موسى بن العادل سنة(٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، وانتهى من بنائها سنة(٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، وكانت قبل ذلك داراً لصارم الدين قايماز بن عبد الله النجمي واقف المدرسة القيمازية، فاشتراها المُظفَّر وخرَّبها وعمَّرها. النعيمي: الدارس، ج١، ص١٥، ج٢، ص١٢٨؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٣٠.

٤ المقري(أحمد بن محمد): فتح المُتعال في مدح النعال، تح: علي عبد الوهاب، دار القاضي عياض، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص١٦٨، ٥١٦- ٥٢٤.

٥ ابن القاضي المكناسي: دُرَّة الحجال، ج٢، ص٩٧؛ جذوة الاقتباس، ج١، ص٢٩٠.

٦ وردت ترجمته فيما سبق.

وفي نابلسَ على أبي العباس أحمد بن عبد الله الدمشقي[٢]، وجمال الدين بن صصرى[٣] ، وفي الخليل على نور الدين أبو الحسن البديع[٤].

– أورد كلٌّ من المقرِّي في كتابه" أزهار الرياض في أخبار القاضي عيَّاض"، والسملالي في كتابه" الإعلام بمن حلَّ مُراكش من الأعلام"[٥]، أنَّه قرأ في دمشق على الشيخ أبي الحسن علي المقدسي[٦]، والشيخ أبي الفرج المقدسي[٧]، وأبي الثناء الحلبي[٨].

ومنهم أبو إسحاق اللوري[١]، وتاج الدين بن الفركاح[٢]، وقرأ في القدس على المُحدِّث الأديب أبو إسحاق عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر[٣]، وفي بعلبك على شرف الدين اليونيني[٤].

---

١ أبو محمد، القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الإشبيلي الأصل، الدمشقي الشافعي، المؤرِّخ الفقيه المُحدِّث، كان فصيحاً القراءة مُلتزماً بالفرائض، درَّس بدار الحديث النورية بدمشق، وقد لقيه ابن رشيد السبتي بدمشق، وأخذ عنه الحديث والتاريخ، توفي سنة(٧٣٩/ ١٣٣٨م). الذهبي: ذيول العبر، ج٤، ص١١٤، ١١٥؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٣٠٣.

٢ جمال الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الله الدمشقي المقدسي، كان فقيهاً ذكياً مناظراً في الطبِّ، لقيه ابن رشيد في نابلس، وقرأ عليه الحديث والأصول والفقه وما يتصل بالمذهب، توفي سنة(٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م). الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٢٥؛ ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص٢٦٥، ٢٦٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٧، ص١٣٦.

٣ أبو العباس، أحمد بن العدل عماد الدين بن محمد بن العدل سالم بن الحافظ المُحدِّث بن صصرى، سمع الحديث، وكان له يدٌ في الإنشاء وحسن العبارة، درَّس بالعادلية الصغيرة سنة(٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) ، وتولَّى قضاء العساكر في دولة العادل كتبغا، ثمَّ تولَّى قضاء الشام سنة اثنتين وسبعمئة، وكان رئيساً محتشماً وقوراً كريماً جميل الأخلاق مُعظَّماً عند السلطان والدولة، لقيه ابن رشيد السبتي في دمشق، وأخذ عنه الحديث، والفقه واللغة والأدب، توفي فجأةً ببستانه بالسهمِّ ليلة الخميس سادس عشر ربيع الأول سنة(٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م). الذهبي: ذيول العبر، ج٤، ص٦٦؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٧٠؛ ابن تُغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٥٨.

٤ نور الدين أبو الحسن البديع، لقيه ابن رشيد السبتي في الخليل، وسمعَ عليه قصيدة الشاطبي، وبذلك أخذَ عنه علم القراءات، وقد أجاز ابن رشيد السبتي في الاستدعاء، توفي بعد سنة(٧٠١هـ/١٣٠١م). ابن رشيد السبتي(محمد بن عمر): الاستدعاء، مخطوط خزانة القرويين، فاس، رقم ٧، ورقة ٩.

٥ السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٤، ص٣٤٤؛ المقري: أزهار الرياض، ج٢، ص٣٤٩.

٦ أبو الحسن، علي بن أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي الدمشقي، شيخٌ صالح عابد كثير التلاوة، أخذ عنه ابن رشيد السبتي الحديث، وكانت وفاة المقدسي بعد أن عذَّبه المغول، فتوفي شهيداً سنة(٦٩٩هـ/١٣٠٠م). الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٨٥؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٢٥٤؛ الفاسي: ذيل التقييد، ج٢، ص١٧٦.

٧ أبو الفرج، عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الملك المقدسي، لقيه ابن رشيد في صالحية دمشق، وقرأ عليه الحديث سنة(٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م). السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٤، ص٣٤٤.

٨ شهاب الدين أبو الثناء، محمود بن سُليمان الحلبي، عالمٌ حافظ، وقاضٍ علَّامة، وأديبٌ بارع في الشعر والنثر، ولدَ في دمشق، وحصَّل العلم وتخرَّج بشيوخ عصره، لقيه ابن رشيد بدمشق، وسمع عليه الشعر، توفَّي سنة(٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م). ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٢٤-٣٢٦؛ ابن حجر العسقلاني: المُجمَّع المؤسس، ج١، ص٩٠.

حقيقةً هذا ما أمكنَ التوصُّل إليه لزيارةِ ابن رشيد السبتي لبلاد الشام، و تمَّ الاعتماد في ذكر ما سبقَ على مصادرِ ترجمته، والمؤلفات التي نقلت من رحلته؛ لكونَ الجزء الخاص بموضوع الدراسة مفقود، وبذلك لا يُمكن توجيه أيَّ نقداً للرحَّالة، ولا يُمكن ذِكرْ ما وقعَ بهِ من أخطاءٍ بوصفه لبلاد الشام، إنْ وُجِدَتْ.

٣- البلوي، خالد بن عيسى بن أحمد(ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م).

أ- التعريف بالرحالة:

---

[١] زكي الدين أبو إسحاق، إبراهيم بن عبد العزيز بن يحيى الرعيني اللوري، شيخ المدرسة الظاهرية بدمشق، لقيه ابن رشيد بدمشق، وقرأ عليه، وأجاز له في الاستدعاء، توفي اللوري سنة(٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م). ابن رشيد السبتي(محمد بن عمر): إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، د. ت، ص٣٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص٢٩٣، ٢٩٤؛ المقريزي: المُقفى الكبير، ج١، ص٢٢٨، ٢٢٩؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٠٤.

[٢] تاج الدين، عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري الشافعي، كان شيخُ الشافعيةَ، كثير العلم، انتهت إليه رئاسة الفتوى والأشغال، وله تصانيف حسنة، درَّس بالمدرسة البادرائية بدمشق، لقيه ابن رشيد السبتي في الجامع الأموي بدمشق، لكنه لم يقضِ منه سماع أو إجازة، توفي سنة(٦٩٠هـ /١٢٩١م). الصُقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١١٨؛ ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص٧١-٧٣؛ البرزالي: المقتفي على الروضتين، ج١/ ق٢، ص٢٣٥؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص١٦٣،١٦٤.

[٣] الإمام العلَّامة الحافظ الزاهد أمين الدين الدمشقي، عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن هبة الله ابن عبد الله بن الحسين ابن عساكر، كان قويُّ المشاركة في العلومِ لطيف الشمائل، بديع النُّظم خيراً صالحاً صاحب صدق وتوجَّه، اعتنى من صغره بالعلم خصوصاً الحديث، لقيه ابن رشيد السبتي في القدس، وأخذ عنه الحديث، توفي ابن عساكر سنة(٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م). الذهبي: المُختار من تاريخ ابن الجزري، ص٣٢٤، ٣٢٥؛ الكتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص٤٠٦-٤٠٨؛ ابن رافع السلامي: تاريخ علماء بغداد، ص٧٨، ٧٩؛ الفاسي(محمد بن أحمد): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تح: فؤاد دسسيّر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ج٥، ص٤٣٢- ٤٣٩.

[٤] الشيخ شرف الدين أبو الحسين، علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني، حدَّث بدمشق، وسمع من جماعة، وعُنِيَ بالحديث وضبطه، وقرأ البُخاري، وحدَّث بالصحيح مرات عدَّة، وكان جمُّ الفضائلَ ديناً متواضعاً، قرأ عليه ابن رشيد السبتي الحديث في بعلبك، وسبب وفاته أنَّه دخل عليه عبد يُسمَّى موسى فضربَه بالسكين على رأسه، وهو يقرأ في خزانة كتبه فتوفي على أثرها سنة(٧٠١هـ / ١٣٠١م). الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٦٦؛ البرزالي: المقتفي على الروضتين، ج٣، ص١٨٢-١٨٤؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٤٧٦، ٤٧٧؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٩٨.

خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي القتوري، أبو البقاء علم الدِّين الإمام القاضي الفاضل[١]، ينتمي البلوي إلى قبيلة البلويين المُنتشرة في بلاد المغرب والأندلس والجزيرة العربية، وهي قبيلةٌ عربيَّةٌ صميمة من قُضاعة اليمينة[٢]، ولِدَ البلوي ببلدة قتوريَّة[٣]، من حصون وادي المنصورة، التي كان والده قاضياً بها والغالب أنَّ مولده فيها نحو سنة(٧١٣هـ/١٣١٣م)، لأنَّه عندما رحل إلى بلاد المشرق سنة(٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) كان في مقتبل العمر[٤] ويدلُّ على ذلك قول ابن الخطيب الغرناطي: « وعشَى إلى نورهِ المُشرق، مع اخضرار العود، وسواد المفرق وغفلة من الزمانِ المُطرِق»[٥].

نشأ البلوي في أُسرةٍ علمية مُتديّنة، إذ تلقَّى تربية صالحة، وتلقَّى العلمَ بمسقط رأسه قتورية، فأخذَ عن والده القرآن ومبادئ العربية وأخذ عنه" لامية حرز الأماني" من نُظم أبي القاسم الشاطبي، وأسانيد حديثه، ومعلومات في اللغة العربية.

ثمَّ درس القراءات السبع عن اثني عشرَ شيخاً، وبعدها انتقل للدراسة في المسجد الأعظم في مالقة[٦]، فأخذ عن مُحمد بن جعفر الأسلمي الَّذي وليَّ القضاء في مالقة، وتوفي سنة(٧٣٦هـ /١٣٣٥م)[٧].

وبعد مُدَّة رحلَ إلى غرناطة ودرَسَ بها[٨] وقرأ فيها العربية على ابن الصائغ[٩]، وأخذ النحو عن أبي حيان حيان الغرناطي، ثمَّ انتقل إلى المغرب للدراسة فيها، وتلقَّى العلم بغرب العدوة(المغرب الأقصى)، فأخذ

---

[١] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٦، ٢٨٧؛ ابن الخطيب(محمد بن عبد الله): الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٣٤؛ ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص١٨٦– ١٩٢؛ ابن القاضي المكناسي: دُرَّة الحجال، ج١، ص٢٦٢، ٢٦٣؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٥٣٢– ٥٣٤؛ التنبكتي: نيل الابتهاج، ص١٧٣؛ مخلوف: شجرة النور، ج١، ص٣٢٩؛ الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٢٩٧

[٢] ابن حزم الأندلسي(علي بن أحمد بن سعيد): جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٢م، ص٤٤٣؛ ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج١، ص١٤٤.

[٣] بلدة صغيرة من أعمال المريَّة في الأندلس، تقع على نهر المنصورة، على مقربة من مدينة المنصورية جنوب برشانة، تُسمَّى اليوم قتورية(Kotoria) . ابن الخطيب(محمد بن عبد الله): معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٠٥.

[٤] البلوي: تاج المفرق، المقدمة ص١٥.

[٥] ابن الخطيب: الكتيبة الثامنة، ص١٣٤، ١٣٥.

[٦] البلوي: تاج المفرق، المقدمة ص١٦، ١٧.

[٧] ابن الخطيب: الكتيبة الثامنة، ص٦٥، ٦٦.

[٨] البلوي: تاج المفرق، المقدمة ص١٦

[٩] ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص١٨٧، محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الأمير، أصله من المرية، وكان طيِّبُ العشرةَ، شاعراً مُلحِّناً توفي سنة(٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م). ابن الخطيب: الكتيبة الثامنة، ص٨٨.

بفاس عن علماء عدَّة لاسيَّما علم القراءات[١]، منهم الشيخ عبد الرحمن الجزولي[٢]، وأبي العباس ابن شعيب الجزنائي[٣]، ثمَّ أخذ عن الأئمة في تونس، وبعد ذلك رحل إلى المشرق استزادة للعلم واستجازة للعلماء الكبار[٤].

وأخذ عن عُلماء القاهرة والإسكندرية، ومنهم عيسى بن مخلوف المُغيلي[٥]، وفي القدس لقيَ عدداً من علماء الحديث، وأخذ عنهم وسمع منهم، وعدا عن ذلك، فقد أُولعَ البلوي بالشعر العربي، وحفظه وبالأخصِّ الشعر الأندلسي، ويدلُّ على ذلك كتابه" تاج المفرق" الزاخر بالمحفوظات، وروى لنفسه الكثير من المقطوعات، منها ما ارتجلها لنفسه في مصلَّى تونس في عيد النحر سنة(٧٣٧هـ/١٣٣٦م) عندما اشتدَّت به الابابة[٦].

أمَّا وظائفَهُ فقد شغل منصب القضاء بقتوريَّة، ثمَّ ببرشانه، وأهَّلتهُ مواهبهُ بأنْ يُصبح كاتباً، فاستكتبه السلطان أبو يحيى بن أبي زكريا الحفصي بتونس سنة(٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)، و احترفَ التعليم كذلك، فكانَ مُدرِّساً بالإسكندرية[٧]، ويدلُّ على ذلك قول ابن الخطيب الغرناطي: « ثمَّ ارتسم في حزب القضاء، وفريقه وفريقه وأدبه على نثرٍ، ونظم ولحم عظمٍ، ولنثره على نُظمه شفوفٍ، وإلى اللحاق بذي الجادة خفوف»[٨]، وعلى ذلك فقد وليَّ ببلدتهِ قضاءها، وتقلَّد أنفاذ الأحكام وإمضاءها[٩].

لكنْ عمله بالقضاء لم يمنعه من الاشتغال بالأدب، ومخالطة شعراء الأندلس الَّذين يُقدِّرون لطفه ودالته، فبعد عودته إلى الأندلس، أصبح من رجالِ الفقه والأدب، وعُنِيَ بدراستهما في قتورية، لكن بعد مدَّة ترك

---

١ التنبكتي: نيل الابتهاج، ص١٧٣

٢ ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص١٨٦، والجزولي فقيه، وله تقاليد مشهورة، وحافظ كبير توفي سنة(٧٤١هـ/ ١٣٤٠م). التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٢٤٤، ٢٤٥.

٣ أبو العباس، أحمد بن شعيب الفاسي الجزنائي، برعَ في اللسان والأدب، والعلوم العقلية من فلسفة وطب وله شعر توفي سنة(٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م). ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص١٣٤– ١٣٨.

٤ البلوي: تاج المفرق، المقدمة ص١٦.

٥ مخلوف: شجرة النور الزكية،ج١، ص٣٢٩، وهو القاضي شرف الدِّين عيسى بن مخلوف بن يحيى المغيلي، أخذ عنه البلوي، وتوفي سنة(٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م). ابن فرحون: الديباج المذهب، ج٢، ص٧٤؛ التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٢٩٠، ٢٩١.

٦ البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص١٨ ،٣٣.

٧ البلوي: تاج المفرق، المقدمة ص٣٥؛ التنبكتي: نيل الابتهاج، ص١٧٣.

٨ ابن الخطيب(محمد بن عبد الله): ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ج١، ص١٣٤.

٩ ابن الخطيب: الكتيبة الثامنة، ص١٣٤، ١٣٥؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٦؛ ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص١٨٧.

بلده و انتقل إلى برشانة[١] التي أتمَّ فيها كتابة الرحلة الحجازية المُسمَّاة" تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، كما ألف" برنامج روايته" الذي نقل منه ابن القاضي في" جذوة الاقتباس"، وتركَ ديوان شعر، وكتاباً عن أسانيد لثُلاثيات البخاري، وتخريجاً لحديث الرحمة، وزيادة على ذلك كان حسنُ الخطّ يكتب بسرعة وإتقان، وحسن الصوت يتملَّى الناس برنين انشاده.

و وصف ابن نباته المصري خطِّه، وصوته بقوله: « يتنافس فيه البصر والسمع، و صوته يقرظ أنيناً ببيانهِ»، والبلوي حرُّ التفكير يميل إلى الاجتهاد، وزيادة على ثقافته كان يحسن السباحة، فإذا اضطر لركوب أهوال البحر اعتمد على نفسه فسبحَ، كما كان يجيد الفروسية، إذ تعلَّم النازل والضرب وأساليب الحرب[٢].

ونظرتَهُ إلى الحياة هي نظرةُ تشاؤم عبَّر عنها بقوله: « فالليالي لا تجمع شملاً إلَّا شتَّتهُ ولا تصلُ حبلاً إلَّا بتتهُ، مَنْ أطاعَها عصتهُ، ومن أدناها أقصتهُ»، وهو شديدُ الشفقة يؤلمهُ المنظرُ المحزن، ويتَّضح ذلك بقوله: « فما رضيَّ خلوعي، وما فضَّ دموعي إلَّا أطفال يضربون بالبكاء، ويستغيثون من العطش بالماء»[٣].

والبلوي بارٌ بوالديه، فقد زهد في وظيفته بتونس رغبة بالرجوع إلى وطنه ومُعاينته والدته التي تركها وحدها في الأندلس[٤] وفي ذلك قال ابن الخطيب الغرناطي: « وطارَ به الوجدُ إلى وطنه، فأسرعَ اللحاق وآثرَ على النور المحاق»[٥]، ووصفه ابن الخطيب بأنَّه عاطفيٌ ألوفٌ يصعبُ عليه أنْ يُفارق الأصدقاء والأحباب ويأنسُ إلى كلِّ من تعرَّف عليه، فإذا حانَ وقت الوداع تجرَّع من الفُراق ما ليس بالعذاب ولا بالسهل[٦].

وكان ذو فضلٍ وخُلقٍ وتواضعٍ وحسن خلق[٧]، دمث الأخلاق، جميل العشرة مُحبٌّ في الأدب[٨].

---

١ حُصن منيع على نهر المنصورة، تتبع ولاية المرية. الحميري: الروض المعطار، ص٨٨؛ ابن الخطيب: معيار الاختيار، الاختيار، ص١٠٦.

٢ البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص١٦، ١٨، ٢٧، ٣٤.

٣ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣٤.

٤ البلوي: تاج المفرق، المقدمة ٣١.

٥ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٦.

٦ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٧.

٧ التنبكتي(أحمد بابا): كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج، تح: محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط١، ٢٠٠٠م، ج١، ص٢٠٢.

٨ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٦؛ ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص١٨٧.

أمَّا وفاتَهُ فهي غير معروفةٍ على وجه التحديد، ولكن في الغالب أنَّها كانت قبل سنة(٧٨٠هـ/١٣٧٨م) في مسقط رأسه، والمُرجَّح أنَّها كانت بحدود(٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، وذلك لأنَّ ابن الخطيب الغرناطي ترجمَ له في كتابه" ريحانة الكتاب" الذي وضعه سنة(٧٨٠هـ/١٣٧٨م)[١].

ب- دراسة رحلة البلوي(تاج المفرق في تحلية عُلماء المشرِق):

قامَ البلوي بثلاثِ رحلاتٍ، **الأوَّلى** كانت الى مدينة فاس للدراسة بها، إذ درس بغرب العدوة، وأخذ عن علماء فاس، و**الثانية** كانت إلى المشرق لأداء فريضة الحجِّ، ولم يمرُّ في فاس فيها ذهاباً ولا إياباً، وبذلك كانت رحلته الأولى قبل سنة(٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)، والرحلة **الثالثة** كانت الى شرق الأندلس وغرناطة بعد عودته من المشرق سنة(٧٤٠هـ /١٣٣٩م)[٢].

إذاً كانت رحلته الحجازية إلى المشرق سنة(٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)[٣]، وأخذَ فيها عن أعلام عصره، وسمَّاها" تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، وقد تضمَّنت ترجمة لشيوخه بمختلف المراكز التي زراها، وما أخذ عنهم، وروى من أشعار، ووصف الأماكن التي زراها[٤].

وقال فيها ابن الخطيب الغرناطي: « ورحلَ في هذا العهدِ القريب، وحجَّ وزارَ، واقتحم السُّحب الغزار، ودوَّن رحلته، فأحسن وأطرف، وحلَّى، وعرف، وقفل مُغرِّباً بتشريقه»[٥].

أ-ب- دوافع الرحلة:

الدافع الأول:

رحلَ البلوي من بلده قتوريَّة سنة(٧٣٦هـ/١٣٣٥م) قاصداً حجَّ بيت الله الحرام، لتأدية الفريضة، وزيارة قبر الرسول ﷺ، وبعض الأقطارِ الإسلامية[٦]، وذكر البلوي ذلك قائلاً: « إنِّي خرجت قاصداً الحج»[٧].

---

[١] البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص١٦.

[٢] البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص٣٨، ٣٩، ٤٠

[٣] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٦، ٢٨٧؛ ابن القاضي المكناسي: دُرِّة الحجال، ج١، ص ٢٦٣. ٢٦٣.

[٤] القلصادي(أبو الحسن علي): الرحلة، تح: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د. ت، ص٦٢؛ حسن: الرحالة المسلمون، ص٩٩.

[٥] ابن الخطيب: الكتيبة الثامنة، ص١٣٥.

[٦] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٤٠؛ حسن: الرحالة المسلمون، ص٩٩.

[٧] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص١٤٣.

الدافع العلمي:

كانَ البلوي شغوفاً بلقاءِ الأُدباء والمتصوّفة، لذلك رحلَ إلى المشرق للإتصال بالعلماء ورجال الفكر في العالم الإسلامي، واستزادة للعلم واستجازة للعلماء الكبار[1]، وعبَّر عن ذلك بقوله: « وخرجتُ طالباً للعلم، فوقع اتفاق الخروج ضحوة يوم السبت الثامن عشر من صفر من عام ستة وثلاثين وسبعمائة»[2]، ويبد وأنَّ الرحلة أثَّرت في سلوكه الشخصي، مما دفعَ ابن الخطيب الغرناطي إلى القول: « أنَّه تمشرقَ، فلبِسَ من خشنِ الحجازية، وأرخى من البياض طيلساناً، وتشبَّهَ بالمشارقة شكلاً ولساناً، وصبغ لحيته بالحناء، ولاثَ عمامته واختتم»[3]، وبعد أنْ أدَّى البلوي فريضة الحجِّ وزار عدداً من البلدان عاد إلى مسقط رأسه قتورية سنة(٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) وبذلك يكونُ قد مكثَ في رحلته خمسة أعوام إلَّا شهرين اثنين، وثمانية عشر يوماً[4]، وذكرَ ذلك بقوله: « فجاءت هذه الغيبة المُباركة خمسة أعوامٌ الَّا شهرين اثنين، وثمانية عشر يوماً»[5].

ب-ب- خطُّ سير الرِّحلة:

رحلَ البلوي من بلده قتوريَّة سنة(٧٣٦هـ/١٣٣٥م) ووصف ذلك قائلاً:« إنِّي خرجت في ضحوةَ يوم السبت الثامن عشر من صفر من عام ستة وثلاثين وسبعمائة، مودِّعاً لجميع الأهل ومُتجرِّعاً من ذلك ما ليس بالعذاب ولا بالسهل»[6]، وقد اتَّجه الى تلمسان والجزائر وبجابة وقسنطينة(وهو نفسُ الطريق الذي كان قد سلكه المعاصر له الرحَّالة ابن بطوطة) إلى أنْ وصلَ الى مدينة تونس، ومنها سافرَ بحراً الى الإسكندرية والقاهرة التي غادرها يوم الإثنين الثامن والعشرين من رجب(٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) قاصداً بلاد الشام عن طريق البرِّ، فوصل إلى مدينة غزة في السابع من شهر شعبان، وفي التاسع منه وصل مدينة الخليل، وبقي فيها أربعةُ أيامٍ[7] ثمَّ وصل إلى مدينة القدس في الثاني عشر من شهر شعبان، فبقيَ فيها ما يُقارب الشهرين ثمَّ رحل عنها في الثاني عشر من شوال مع الركب الشامي قاصداً أرض الحجاز لأداء فريضة الحجِّ فوصل الكرك في الثالث والعشرين من شوال[8].

---

[1] البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص١٦، ٣٦.

[2] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص١٤٣.

[3] ابن الخطيب(محمد بن عبد الله): خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، تح: أحمد مختار العبادي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٣م، ص٤١؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٦.

[4] البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص٣٦.

[5] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٥٦.

[6] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص١٤٣، ١٤٤.

[7] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٣٨- ٢٤٠.

[8] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤٥- ٢٧٧.

وسلك الطريق البرِّي المؤدِّي إلى مكَّة حيثُ أدَّى فريضة الحج لتلك السنة(٧٣٧هـ /١٣٣٦م)، وكان وقوفه بعرفة يوم الأربعاء[١]، ومن مكَّة سار مع الركب المصري إلى المدينة المنورة التي وصلها يوم الخميس ٢٤ ذي الحجة، ورحل عنها في اليوم نفسه[٢] إلى عقبة أيله، ومنها اتَّجه الى فلسطين مرَّة أُخرى بقصد بقصد الزيارة (وهذه الزيارة الثانية لفلسطين).

وقد عبَّر البلوي عن ذلك بقوله: « وردنا ماء العقبة الكبرى على ساحل البحر، وهي التي تُسمَّى عقبة آيلة يجتمع عندها الناس من الشام ومصر، و غيرها للقاء الركبان، والسؤال عن الأحباب والإخوان وصلنا إليها ضُحى يوم الخميس السادس عشر لشهر الله محرم مفتح عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة، ثمَّ انقسم الركبان، فبعض انقلب إلى الديار المصرية، والبعض ذهب إلى البلاد الشامية، فكنتُ ممن آثر زيارة تلك البقاع السامية الكريمة واستخار الله تعالى، فاختار له أفضل الغنيمة، ورحلنا من العقبة في ليلة يوم السبت الثامن عشر من شهر الله محرم المذكور إلى أنْ وصلنا الى مدينة الخليل في الثالث والعشرين من محرم سنة(٧٣٨هـ/١٣٣٧م) »[٣].

وبعد ذلك غادرها الى مدينة القُدس حيثُ تمَّ الاجتماع بأخيه محمد[٤] في الخامس والعشرين من محرم وقد عبَّر البلوي عن هذا اللقاء بقوله: « فوصلنا إلى مدينة القُدس الشريف في صبيحة يوم السبت الخامس والعشرين من شهر الله محرم المذكور، وبها اجتمعت بأخي محمد، حيثُ تركته بعدما جالَ في أطراف بلاد الشام[٥]، وكاد يبلغُ مدينة السلام(بغداد) فتلاقينا بتحية الأخوين، اذا التقيا بعد البين، وحُظينا بعد الأثر بالعين، فكان بذلك لنومٍ، ثمَّ عيني سبيل، وعهدي بالنوم عهد طويل»[٦].

وبقي البلوي في القدس نحوَ سبعة أيام، ثمَّ غادرها إلى الرملة، ومنها إلى عسقلان، ثمَّ غزة حتَّى وصل إلى قرية قاطية[٧] في العاشر من شهر صفر إلى أنْ وصل إلى القاهرة في الرابع عشر من صفر[٨]، ومنها اتَّجه إلى الإسكندرية، فطرابلس حتَّى وصل إلى تونس، وأقام بها قرابة عامين، وعاد بعدها إلى مسقط

---

١ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣١٧.

٢ البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٢.

٣ البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٣.

٤ خرج أخوه محمد من قتورية، لأداء فريضة الحج في يوم السبت أول صفر سنة(٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م)، فلقيه أخوه خالد عندما كان قافلاً إلى الأندلس مُيمِّماً باتِّجاه مصر، وأورد البلوي اسم أخيه محمد عند رحيله من الإسكندرية سنة(٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م). البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٤٧، ج٢، ص٢٨.

٥ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٧٥.

٦ البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٤.

٧ قرية في طريق مصر وسط الرمل قرب الفرما. الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٣٧٨.

٨ البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٤- ١٩.

رأسه قتورية، وقد عبَّر عن ذلك قائلاً: « فاجتمعَ والحمد لله الشمل والأحباب والأهل...، فجاءت هذه الغيبة المباركة خمسة أعوام إلَّا شهرين اثنين، وثمانية عشر يوماً»[1].

ج-ب- منهج تدوين الرِّحلة:

أكملَ البلوي رحلتهُ إلى المشرق في شهر ﷺ سنة(٧٤٠هـ/١٣٣٩م)، و فرغَ من تأليفها آخر يوم من شهر ﷺ سنة(٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، و يبدو أنَّ المؤلف كتب رحلته الأوَّلى، وتناقلها الناس عنه، ثمَّ بدا لهُ أنْ يكتبُها مرَّة ثانية وعرضها على أصدقائه من العلماء فقرضوها، وهي النسخة التي حفظ بها حفيده[2]، وأتمَّها في برشانة في الحادي والعشرين من ﷺ سنة(٨١٩هـ/١٤١٦م)[3]، ونشرها لكلِّ الناس وهذا السبب السبب من عدم الاتفاق في بعض النُسخِ، والرحلة مُجلَّدة في جزأين، وقد ذكر كلاً من ابن القاضي المكناسي، وابن الخطيب الغرناطي، ذلك بقولِهُما: « حجَّ وقيد رحلته في سَفْرٍ»[4].

ونهجُ البلوي في رحلته واضح، إذ صرَّح فيه ببداية رحلته، فقال: « هذا تقييدٌ، أطلعه عون من الله وتأييد، قصدتُ به ضبط موارد الرحلة الحجازية، وذكرَ معاهد الوجهة المشرقية، جعلُهَا الله تعالى في ذاته وابتغاء مرضاته، بمنِّه وكرمه، وألممت مع ذلك بذكر بعض الشيوخِ من العلماء الفُضلاء، الَّذين يطئون ذيول البلاغة، ويجرُّون فضول البراعة، ولهم كلامٌ يتألق منه شُعاع الشرق، ويترقرق عليه صفاءُ العقل، وينبثُ فيه فرند الحكمة...، وألمعتُ بذكرِ نُبذٍ من فوائدهم، واختيار طرف من أناشيدهم، ومزجتُها بما جرت إليه العبارة، وحسُنت فيه الإشارة، من قطعِ الشعر المُناسبة قطع النور، المنتظمة من جواهر اللفظ، البعيدة الغور، ولما بوَّبتُ ما ألَّفتُ، ورصَّعتُ ما جمعتُ، وشعشعتُ ما وضعتُ، فجاء كما تراه حُسن الزِّي، عذب الرِّي، عالي القدر، غالي الدر، مسبوك الحلية والتبر، فيه للمسمع مُراد، وللفكر مُعاد، وللألباب مسرح ومرتاد، وسمِّيته: بتاج المفرق، في تحلية علماء المشرق، ودعوت الله تعالى في مواطن الإجابة، أنْ يوفِّقني فيه للإجادة والإصابة، وأنْ ينفع بهِ كلَّ من يلتمس النفع به في المطالعة أو الكتابة»[5].

وقد طغت على رحلتهِ الصبغة الأدبيَّة، يدلُّ عل ذلك ولع صاحبها بالشعر والسجع والتأنُّق باختيار العبارة مع تحلية العلماء الَّذين ترجم لهم بصفات سجعيه جميلة[6]، إذ سجَّلَ مُلاحظاتً عدَّة أدبيَّة وعواطف شخصيَّة، ومثال ذلك انتقاده لديوان الجمارك في الإسكندرية لتفتيشه الصادر والوارد، فقال في ذلك القصد

---

[1] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٥٦.

[2] في سنة(٨١٩هـ/ ١٤١٦م) أخرج خالد بن محمد بن خالد حفيد أبو البقاء البلوي رحلة جدَّه، وعرفت باسم " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، فجاءت بمثابة بياناً علمياً، وأدبياً، وجغرافياً، وعمرانياً. البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص٤٨.

[3] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٥٨.

[4] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٦؛ ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص١٨٧.

[5] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص١٤٢، ١٤٣.

[6] مثالها البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٨، ٢٦١، وغيرها كثير.

والكلام المنثور الذي يدلُّ على ذلك ومن جملتها: « وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين، من ركوب البحر أبدَ الآبدين، فلمَّا وَطِئنا الرَّمل، وسلَّمنا على الأخوان، احتُضِنا بالشرط والأهوان، وحُملنا بأجمعُنا إلى الديوان، وشاهدنا الحساب، وأرِينا العذاب، وملئوا منَّا البيوت والرحاب، ثمَّ أمرت اليدُّ على القليلِ الكثير، والحقير والنقير، والدفتر والقطمير، والرفيع الوضيع والغني والفقير، وفُتِّشت الأوساط، وعمَّ الزُّحام والاختلاط، وكثُرَ الهياط و المياط، حتَّى خرجَ المخزون والموزون، وبرز المعكوم والمختوم، وعند الله تجمع الخصوم، فأخذَ من كلِّ عشرة دنانير ديناران ومن كل عشرة دراهم درهمان، ظُلماً وعدواناً وجوراً وطغياناً فاستشعرت الأسف»[1].

أمَّا منهجَهُ في تراجمه، فقام بذكر أسماء المُترجم لهم، وألقابهم ونعوتهم، وكِنَاهم وتأليفهم مع تاريخ ولادتهم، ثمَّ أخذ عنهم السند ونسخ كتبهم[2]، و كان يُسجِّل لرحلته بدقَّة لغاية علمية، فلا يهتمُّ بالمشاهد المألوفة، ولا يُسجِّل الارتسامات، ويولي عنايته للاتصال بالعلماء والأُدباء ويروي لهم من أدب الأندلس، وهو لا يحتفظ بالآثار بصفته جُغرافيَّاً، إنَّما يذكر ذلك في رحلته ذكراً عابراً ينقصه الوصف الدقيق[3]، و يمزجُ الحديث عنها مما حفظه من الآثار النبوية، والنصوص الحديثيَّة، وقد سجَّل رحلته أثناء سفره، فلم يقع في أخطاء علمية أو جغرافية[4]، و يمتازُ البلوي بالاهتمام بأمانة الرواية، فهو حريصٌ على ذكر الرواة المشهورين بالصدق والمعروفين بأمانتهم العلمية[5]، ولذلك سلسلَ السند حتَّى رَجِع به إلى الأصل، واعتمدَ على فن الرواية في أخذ الحديث، وفن القراءات ورواية الشعر[6].

د-ب- موارد الرحلة:

تُعدُّ التجربة الشخصية أهمّ المصادر التي اعتمدَ عليها البلوي في تدوين رحلته، و تمثَّلت بوقوفه بنفسه على المشاهد، والاتصال بالعلماء مُباشرةً للرواية عنهم[7].

واعتمدَ في وصف المدن وآثارها على مُشاهداته[8]، كذلك تُعدُّ النقوش الكتابية أهمّ مصادره، إذ دوَّن في رحلته جميع النقوش الكتابية التي قرأها، وخاصة تلك الموجودة في المساجد، ومثالها قوله عن نقشٍ في المسجد الأبيض بالرملة: « وعلى بابِ المسجد تاريخان منقُوشان في الرُّخامِ مكتوبٌ على أحَّدهما: بسم

---

[1] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣٥.

[2] مثالها البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٥٦- ٢٥٨.

[3] مثالها. البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٥- ١٧.

[4] البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص٥٢

[5] مثالها. البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤٣- ٢٤٥، ٢٥٥، وغيرها كثير.

[6] البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص٩١.

[7] مثالها البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٥٤، ٢٦٦، ٢٦٨.

[8] مثالها: وصفه لمدن فلسطين والمساجد فيها. البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٥، ج٢، ١٥، ١٧.

الله الرحمن الرحيم، أمرَ بعمارة هذا المسجد الجامع المُبارك إياس عبد الله بن جهة الأمير علم الدين قيصر رحمه الله ورحم من ترحَّم عليه سنة(٥٨٦هـ/١١٩٠م) »[١].

ورُغمَ تكتُّم البلوي بالتصريح عن مصادره الجغرافيَّة، لكن من الواضح أنَّه اعتمد بشكل كبير على رحلة ابن جبير، فأخذَ عنه وصف الإسكندرية، والقاهرة، ومكة، و المدينة[٢] ويتَّضح نقل البلوي عن ابن جبير عند المُقارنةِ بوصف المسجد الحرام[٣] ومسجد قباء[٤] إذ يُوجد تشابه بينهما مع اختلاف بسيط من خلال التلاعب ببعض الألفاظِ، وتقديم بعض الأفكارِ وتأخيرها، وبذلك فإنَّ دفاعَ الحسنُ السائح مُحقِّق الرحلة عن البلوي بعدم نقله من ابن جبير وردَّهُ التشابه إلى تشابه الموصوف غير صحيحٍ[٥].

إضافةً إلى ذلك نقلَ البلوي عن العماد الأصفهاني بشكل كبير، من كتابه" البرق الشامي" ذلك أنَّ البلوي أكثرَ من الأسجاع التي هي للعماد الأصفهاني[٦] دُونَ أنْ يُصرِّح بذلك[٧].

هـ-ب- أهمِّية الرحلة:

تُعدُّ رحلة البلوي ذات قيمةٍ كُبرى من الوجهة التاريخيَّة، والأدبية، والاجتماعية، و الفكرية، فقد سجَّل صاحبها مُذكراته بضبطٍ تام ودقَّة عالية، إذ أُتِيحَ له أنْ يتصل بالأعلام، ورجال الفكر في أهمِّ حواضر الإسلام، فكان أوَّل من حمل إلى الأندلس والمغرب ديوان ابن نباتة، ومجموعة من أشعار أبي الثناء محمود الحلبي، وعدداً من الكتب[٨]، وعبَّر عن ذلك قائلاً: « استنشدني ابن نباتة الكثير من شعرهِ، وشعر وشعر أبي الثناء محمود الحلبي، ثمَّ سألتهُ في تقييدِ شيءٍ من شعره، فأخرجَ لي ما ارتضاه منه واختاره في نسخة، فاستعرتُها منه وكتبتها عنه، وأنا أوَّل من جلبَ ذلك الدُّر النفيس من بحره»[٩].

وتكمن أهمِّيتها كونَ مؤلفها كان حريصاً على لقاء الأعلام في كل بلد، والاستفادة منهم، والرواية عنهم، بحيث تجلَّت فيها صبغةُ الفهرست التي تُشكِّل أحَّد أهمِّ عناصر الثقافة العلمية ببلاد المغرب والأندلس، وتضمَّنت إفادات عن شيوخ التقاهم، وأخذ عنهم، قد لا تتوفر في كُتبِ التراجم الأخرى، حتَّى أصبحت

---

[١] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٦.

[٢] ابن جبير: الرحلة، ص ز .

[٣] للمُقارنة بين البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٩٨؛ ابن جبير: الرحلة، ص٥٦- ٦٥.

[٤] للمُقارنة بين البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٨٥- ٢٨٧؛ ابن جبير: الرحلة، ص١٧٥- ١٨٢.

[٥] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٠٠؛ حسن: الرحالة المسلمون، ص١٣٤.

[٦] المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٥٣٣.

[٧] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٦.

[٨] البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص٤٠.

[٩] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص ٢٦٨- ٢٧٤.

الرحلةَ مصدراً لبعض المُترجِمين[١] أمثال التنبكتي الذي قال: « وقفتُ على رحلته في سَفرٍ، وفيها فوائدٌ ونقلت منها تراجم»[٢]، وقال فيها مخلوف في كتابه" شجرة النور الزكية": « رحلةٌ مشحونةٌ بالفوائد والفرائد، والفرائد، وفيها من الأدب والعلوم ما لا يتجاوزه الرائد»[٣]، ونقلَ منها علي بن محمد التمكروتي(ت ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م) في رحلته" النفحة المسكيَّة في السفارة التركية"، فصولاً بأكملِها لا سيَّما وصفه لمدينة تونس[٤].

وتكمُن أهمِّيتها في حيويَّة صاحبها الذي تحدَّث عن المشاهد الحيَّة كما رآها سواء المدن أو المساجد وغيرها[٥]، إذ اهتمَّ بذكر المدن والقرى والجزر البحرية التي مرَّ بها في طريقه إلى الحجِّ، وبهذا تُعدُّ رحلته رحلته مُعجماً جغرافياً لمدن عدَّة أقام بها في ذهابه و غيابه[٦]، إضافةً إلى أنَّها إسهامٌ فعالٌ في التأريخ الفكري خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ومن جهة أُخرى تُعدُّ رحلة البلوي رحلة أدبيَّة لما في أسلوبها من نثر مُحكم، وتعبير بليغ، وعبارات منتقاة[٧]، واهتمَّ مؤلِفها بقضايا الفكر، وذكرَ الكُتب العلمية والدواوين الشعرية الذائعة في عصره، مثل ديوان ابن نُباتة و غيره[٨]، لذا صُنِّفت بأنَّها أحَّد أهمِّ الموارد عند عُلماءِ التراجم والرحلات[٩]، ويدلُّ على ذلك قول ابن الخطيب الغرناطي: « سافر وحجَّ وزارَ، وطرح الأوزار، واستسقَى السُّحب الغزار، ودوَّن رحلته، فأحسنَ، وأطرفَ، وقفلَ مُغرِّباً بتشريقه، وكتب عن الملوك الكبار بطريقه»[١٠].

ج- بلاد الشام من خلال رحلة البلوي دارسة مُقارنة نقدية:

حقيقةً، اقتصرت زيارة البلوي لبلاد الشام على الأراضي المقدسة في فلسطين فقط، التي زارها مرَّتين، الأوَّلى أقام فيها من السابع من شهر ﺷﻌﺒﺎﻥ سنة(٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) إلى الثاني عشر من شهر ﺷﻮﺍﻝ السنة ذاتها، واهتمَّ خلالها بوصف المساجد، وحلقات العلماء والحديث خاصة في مدينة القدس التي أقامَ بها ما

---

[١] البلوي: تاج المفرق، المقدمة ص٤٠، ٤٢.

[٢] التنبكتي: نيل الابتهاج، ص١٧٤.

[٣] مخلوف: شجرة النور الزكية، ج١، ص٣٢٩.

[٤] التمكروتي(علي بن محمد): النفحة المسكية في السفارة التركية، تح: محمد الصالحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- ارتياد الأفاق، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ص٥٨.

[٥] مثالها: البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤٦، ٢٤٩، ج٢، ص١٥، ١٦، ١٧، وغيرها كثير.

[٦] البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص١٠١.

[٧] مثالها البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٣٦، ٩٢، ١٩٩، وغيرها كثير.

[٨] البوي: تاج المفرق، ج١، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٨ وغيرها كثير.

[٩] البلوي: تاج المفرق، المقدمة، ص٧٢.

[١٠] ابن الخطيب: الكتيبة الثامنة، ص١٣٥.

يُقارب الشهرين، إذ قال:« وشاهدتُ أحَّدَ المساجد الثلاثة التي لا تُشدُّ إلَّا إليها الرِحال، و عاينتُ الحرم الشريف، واخترتُ مجاورته، وآثرتُ مُلازمته»[١].

أمَّا المدنَ فقدَّم وصفاً بسيطاً عنها، إذ كان جلَّ اهتمامه مُنصبَّاً على لقاء العلماء، و اقتصرت زيارته الأولى لفلسطين على زيارة القدس والخليل وغزة فقط، أمَّا زيارتَه الثانية فكانت بعد أداء فريضة الحجِّ، وذلك في الفترة من الثالث والعشرين من محرم إلى الخامس من شهر صفر سنة(٧٣٨هـ/١٣٣٧م)، وزار خلالها كُلَّاً من الخليل، و القُدس، والرملة، وعسقلان، وغزة في آخر إقامته، وبعدها توجه إلى قاطية قاصداً الأراضي المصرية[٢] .

أ-ج- وصف المدن:

1ً- مدينة غزة:

دخلَها البلوي ضَحوة يومَ الثلاثاء السابع من شعبان سنة(٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)، ووصفها بأنَّها زينَة الأرض المشهورة، وحلَّة الروضة المنشورة، التي أهدت من مطارف وَشيها وزخارف نُورها ألطافاً وتُحفاً، وهي بلدٌ من أحسنِ البُلدان، بلدٌ حُسنهُ يفقه من كان بليداً، فسيحةُ الساحة، مُستطيلة المساحة نَزِهَة لعين مُبصرها، منظرُها عجيب وجانبُها رحيب، وأرضُها خصيبة، كثيرة البساتين والأنهار الجارية و الأشجار، والطيور، وبينما تركَّز وصفُ البلوي على طبيعة غزة، يُلاحظ أنَّ وصف العبدري وابن بطوطة تركَّز على الأسواق والعمارات والمساجد، فقد وصفَها العبدري بالمدينة المُتسعة لا سورَ لها، كثيرة العمارة، وهي جسرٌ إلى مصر والشام، وبها أسواقٌ قائمة ومساجد معمورة، ولها جامعٌ مليح حسن، أمَّا ابن بطوطة فذكر أنَّ المدينة مُتسعة الأقطار، كثيرة العمارة حسنة الأسواق، بها المساجدُ العديدةُ، ومسجدُها أنيقُ البناء مُحكم الصنعة، ومنبرهُ من الرُّخامِ الأبيض[٣].

2ً- مدينة الخليل:

دخلَها البلوي في الزيارة الأولى لفلسطين ضَحوة يوم الخميس التاسع من شعبان سنة(٧٣٧هـ /١٣٣٦م) والخليل عند البلوي كثيرة الآثار، جميلة الرونق، صحيحة الهواء، وقليلة الأمراض، وكثيرة الأشجار، وخصبة الأرض، إذ قال فيها: « لحللتُ منها قصراً عظيم البركة، ظاهرُ الرحمة، لائح الأنوار، كريم

---

[١] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٥٤، ٢٥٥.

[٢] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٤- ١٩.

[٣] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٣٨- ٢٤٠؛ العبدري: الرحلة، ص٤٧٧؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٣٩؛ وعلَّق العُليمي على وصف مدينة غزة بأنَّها من أعظم مُدن فلسطين، وهي من الثغور، وبها كثيرٌ من الأشجارِ والنخل، وحولها كثيرٌ مغارس المزارع، وفيها أنواعُ الفواكه. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٣٦.

المآثر والآثار، وحُسنُ آلائها ورقة هوائها وبهجة بهاءها وجَدَا جداولها، وتضوع أريج أسحارها، وتفوحُ بهيجُ أزهارها ورياضها وغرَّة أرضها، وصحة هوائها وقلّة أمراضها»[١].

وعندما عاد البلوي مرَّة ثانية إلى فلسطين زارَ مدينة الخليل عند عصرِ يوم الخميس الثالث والعشرين شهر مُحَرَّمٌ سنة(٧٣٨هـ/١٣٣٧م) واكتفى بالقول: « فقضينا ما تعيَّن من الزيارة، ووجبَ من السلامِ، ولقيتُ ما أمكن من أولئك الفُضلاء الأعلام»، ويتَّضح من كلامه أنَّ زيارتَهُ الثانية للخليل تركَّزت على لقاء العلماء فيها رُغمَ أنَّه لمْ يذكر أحَّداً منهم.

وجعلَها الهروي المكان المُقدَّس الذي يوجد فيه قبور الأنبياء، إذ قال: « وبها مغارةُ فيها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسارة عليهم السلام، وقيل: إنَّ قبر آدم ونوح وسام في هذه المغارة»، وذكر العبدري أنَّ المدينة قليلة الماء والشجر، بينما قدَّم ابن بطوطة وصفاً جميلاً للمدينة إذ وصفها بالمدينة الصغيرة الساحة المُشرقة الأنوار الكبيرة المقدار، وهي في بطن وادٍ وبشرقي حرَمِها تُربة لوط على تلٍ مُرتفعٍ، وبقربها بحيرة لوط، ومسجد اليقين الذي يتسع لمصلٍّ واحد[٢].

3ً- مدينة القدس:

وصلَها البلوي ليلة الأثنين الثالث عشر من شَعْبَان سنة(٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م)، ووصفها بأنَّها مدينة واسعة الرُقعة طيبة البُقعة، سامية الارتفاع مُشرفة البقاع، مباركة الأغوار والقلاع، متنوعة النبات، ممدودة الظلال، ضخمة البناء، واسعة الفناء، تشهد لسُكَّانها بالثراء والسناء، فالقدس عنده مُرتفعة ضخمة البناء، ذات قلعةٍ ضخمةٍ ولها فناء واسع، وأغوار واسعة وأشجار ونباتات كثيرة، وأهلها أثرياء، وبالمقارنة نعتَ الهروي القدس بالمدينة السامية المُقدَّسة بالنسبة للمسلمين والمسيحيين ، وذكر أنَّها كثيرة العيون، وفيها عين ماء تُسمَّى عين سلوان، وماؤه مثل ماء زمزم، وفي حين أغفلَ كلٌّ من البلوي والهروي ذكر مزروعات المدينة، يُرى أنَّ العليمي قدَّم وصفاً لما اشتهرت به من المزروعات إذ قال: « وبظاهر القدس من كلِّ جهة كروم، بها أنواعٌ من الفواكه من العنبِ، والتينِ، والتفاحِ، والمشمش»[٣].

---

[١] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص ٢٤٠، ٢٤١.

[٢] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص ١٣، ١٤؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٥؛ العبدري: الرحلة، ص٤٥٧؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٣٩؛ ويسمِّيها ابن عُثمان المكناسي بحبرون ومدينة مقبرة الأنبياء. ابن عثمان المكناسي: إحراز المعلى والرقيب، ص٣٠١؛ وفي حين أغفلَ الرحَّالة السابقون وصف بناء المدينة، قدَّم العُليمي وصفاً جميلاً لمبانيها وشوارعها إذ ذكر أنَّ المدينةَ مبنيَّةٌ من الحجارة المنحوتة، وفيها عددٌ من الأسواق والمدارس. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٣٩- ١٤٤.

[٣] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص ٢٤٥، ٢٤٦؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٣، ٣٤؛ العُليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١١٥، ١١٦، بينما وصفها ابن بطوطة بالمدينة المنيعة المبنيَّة بالصخر المنحوت، و ليس بها نهرٌ إنَّما جُلب لها الماء من خارجها. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٤، ٢٤٦.

4ً- مدينة الرملة:

زارَ البلوي الرملة خلالَ زيارتهِ الثانية إلى فلسطين، إذ انتقلَ من القُدس ودخل الرملة عشاءً يوم السبت الثاني من ﷺ سنة(٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، وقد أقام فيها أياماً عدَّة وقدم خلالها وصفاً جميلاً للمدينة، فذكر أنَّ المدينةَ غضّةُ المنظر، و حسنة المخبر مُمتعة بالروضِ الناعم والنسيم الأعطر، وهي أحسنُ المُدن في أزقَّتِها وأسواقِها، وكثرة فواكهها وأرزاقها، وبساتينُها مُلتصقة ببعضها، قريبةٌ من البحرِ، بعيدة عن الغور، وكثيرةُ المساجد والخير، ومُعتدلة الهواء، وسامية البناء، وواسعة الفناء ساكنة المساكن، ومكينة الأماكن رائقة المنارة، ورائعة المنازل، وهي ذاتُ صناعاتٍ كثيرة، وكثيرة الأزهار فيها جنَّاتٍ من نخيل وأعناب، وبالمقارنة وصفها ابن بطوطة بالمدينة الكبيرة الكثيرة الخيرات، ذاتُ الأسواقِ الحسنة، والجامع الأبيض، بينما اهتمَّ العُليمي بذكر مزروعاتها فأشار أنَّها أرضٌ سهلة، كثيرة الأشجار والنخل، وحولها المزارع والمغارس، وكثيرة الفواكه[١].

5ً- مدينة عسقلان:

خرجَ البلوي من الرملة يوم الأحد الثالث من ﷺ سنة(٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) متوجِّهاً إلى عسقلان، وحلَّ فيها صبيحة يوم الإثنين الرابع من ﷺ، وقد قدَّم البلوي وصفاً رائعاً لمدينة عسقلان، إذ ذكرَ أنَّ المدينةَ كبيرةٌ، مفروشة بالرُّخام، وكانت دار إبراهيم عليه السلام، وفيها آثار النمرود من كنعان، وذات روضاتٍ أزهارٍ، ثمَّ عاد البلوي ليذكر أنَّ عسقلانَ بلدٌ أقفر وخراب، وأكلَ الدَّهرُ على محاسنها وشرب، ولمْ يبقَ منها إلَّا رسومها الواهية، وأطلالُها العالية البالية، وأزقَّتِها الخاوية الخالية، ومسجدها الحافل، وبالمقارنة ذكر الهروي أنَّها موضعٌ شريف وثغرٌ قليل مثلهُ في البلاد في حُسنهِ وحصانتهِ، وأشار العبدري أنَّها جمعت الكثير من المحاسن، ولها على البرِّ والبحر طرف ممتدٌّ، ولها سور من طرفها، ومبانيها فاخرة تُضاهي مباني بابل[٢].

ب-ج- وصف المساجد:

1ً- مسجد الخليل:

---

[١] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص ١٥- ١٧؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٢٧؛ وذكر الهروي أنَّ بالرَّملة قبرُ عُبادة بن الصامت وقبورٌ لسبعين نبياً، ماتوا كلَّهم جوعاً في يوم واحد، وأخرجهم بني إسرائيل من القدس وألجؤوهم إلى الرملة، ثمَّ أحاطوا بهم. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٧.

[٢] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص ١٧، ١٨؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٦؛ العبدري: الرحلة، ص٤٧٤، ٤٧٥؛ ووصف ابن بطوطة عسقلان بأنَّها خرابٌ، وفيها مسجدُ رأس الحسين وبئر ماء، وبقبلي عسقلان بئر إبراهيم، وبظاهرها وادي النمل، وفي جبَّانتها من قبور الأولياء والصالحين مالا يُحصى لكثرتها. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٢، ٢٥٤

قدَّم البلوي وصفاً جميلاً لمسجد الخليل، فذكر أنَّ للمسجد أبواب حافلة مصنوعة من الحديد، وشبابيكهُ بديعة الصنعة، والمسجد مبنِّيٌ من الرُّخام والأحجار الضخمة المنحوتة، طول الواحدة منها أربعة وثلاثين شبراً، وهو جامعٌ واسع المساحة، بديع الصنعة، يُحيط به سورٌ متين وعالٍ مبنِيٌّ من الحجارة الضخمة البيضاء المُشرقة، وبداخل المسجد موجة القُبلة بالرُّخام المُجزَّع المُختلف الألوان، المُفرَّغ بالذهب والتبر، وفي وسط المسجد تُربة الخليل ﷺ، وفيها شمَّاعات عظام مُذهَّبة، وأستار مُكلَّلة، ومصابيح بديعة، وبمقابله قبرُ زوجته، واتِّجاه ذلك قُبِّة فيها ضريح النبي يوسف ﷺ، ذو الأستار المدبَّجة والرسوم المُذهَّبة، وما بين المسجد والقُبَّة صحن عظيم كبير، فيه مجمع الأغنياء والفُقراء والأُمراء والكُبراء للضيافة المباركة، يُمَدُّ فيه سماط كلُّ يومَ بعد صلاة العصر.

وبالمقارنة قدَّم ابن بطوطة الوصف نفسه للمسجد مع اختلاف ببعضِ الأشياءِ، إذ ذكر أنَّه مبنِيٌّ بالصخر المنحوت، وطول أحَّد أركان حجارته سبعة وثلاثون شبراً، وهو أنيقُ الصنعة، وفي داخلهِ الغار المُكرَّم المُقدَّس، ولمْ يشر ابن بطوطة لدار الضيافة في المسجد، بينما أشارَ إليها ابن فضل الله العمري الذي زار القدس سنة(٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، إذ قال: « ويُعُدُّ فيه كلِّ يوم بعد العصر سِماطاً، ويُفرَّق فيه الخبز على الواردين بحسبهم على قدر كفايتهم»[1].

2ً- المسجد الأقصى:

قدَّم البلوي وصفاً مُطولاً للمسجد الأقصى، وسيقتصر على ذكر أبرز المعالم التي أوردها تفادياً للإطالة، إذ أشارَ أنَّ فيه موضع المعراج والإسراء وهو أعظمُ مساجد الدُّنيا، وطوله سبعمئة وثمانون ذراعاً وعرضه أربعمئة وخمسون ذراعاً، وسواريه أربعمئة وأربع عشرة سارية، وأبوابهُ خمسون باباً، ويُحيط بالمسجد سور سعته ثلاث خطوات، والمفتوح من أبوابه اثنا عشر باب[2]، مبنِيَّة من الحجارة العظيمة، وفي الجهة القبلية المسجد الأعظم الحافل، فيه الخُطبة والمنبر والجمعة، و له مقاصرٌ لا نظيرَ لها، ومحرابٌ مكتوبٌ عليه بالذهب، وفي شرقيه مُتَّصل بمسجد عُمر بن الخطاب ﷺ، وخلفَهُ محراب زكريا ﷺ، وبأعلى المحراب مكتوبٌ بالذهب: « أمر بتجديد هذا المحراب المُقدَّس وعمارة المسجد الأقصى مؤسس عبد الله، ووليه يوسف بن أيوب المُظفَّر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا... من المغفرة والرحمة».

---

[1] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤١؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٣٩، ٢٤٢؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٢٣٤؛ وذكر الرحَّالة العياشي أنَّ قبورَ الأنبياءُ في مسجد الخليل، وكلُّها في مغارة تحت الأرض، وفي المغارة طاقة مفتوحة في وسط المسجد، مثل البئر قد عُلِّقت فيها مصابيحٌ، وفي أرض المسجد شبابيك على شكل قبور= =مغطاة بستور في مقابلة قبور الأنبياء التي في المسجد إلَّا قبر يوسف فإنَّه في الركن الغربي من المسجد. العياشي: الرحلة، ج٢، ص٤٥٧.

[2] وهي أبوابُ: التوبة والرحمة، وهما مغلقان، و الأسباط، و الدويداريه، والغوانمة، و الناظر، و الحديد، و القطانيين و السلسلة، و الجنائز، و المغاربة. العليمي: الأنس الجليل ج٢، ص٦٨، ٦٩.

وفي المسجد الأقصى يوجد مهد عيسى، ويُنزل إليه بدرجٍ وفي غربيه مسجد للمالكية المغاربة[١] تُلاصقه المدرسة الفخرية[٢]، وخارج المسجد الأقصى صحن كبير فيه الكثير من الأشجار المُثمرة والزيتون، وفي هذا الصحن أجبابُ ماءٌ كثيرة منها جبُّ سليمان، وساقية ماء تأتي من مسافة شاقة تُفضي إلى المسجد الأقصى في خسِّة[٣] من رُخام أمام المسجد، وفي وسطها فوَّارة يَجري فيها الماء، وفي وسط الصحن صحن آخر عالٍ، يُصعد إليه بأدراج من جهاته الثمانية، وهو مفروشٌ بالرُّخام الأبيض، وفي وسط الصحن الأخير القُبَّة العظيمة المعروفة بِقُبِّة الصخرة، وهذه القُبَّة غنية عن التعريف فقد تمَّ ذكرها في أكثر من موضوع فيما سبق، ويتطابق وصف كلَّاً من العبدري وابن بطوطة مع وصف البلوي لهذه القبة[٤].

وبالمقارنة قدَّم ابن بطوطة وصفاً قريباً لوصف البلوي للمسجد الأقصى مع إغفاله لذكر النقوش الكتابية فيه، والتي ذكرها البلوي بشكلٍ مُفصَّل، ومن جهة أُخرى اختلف ابن بطوطة معه بطوله إذ ذكرَ أنَّ طوله من الشرق إلى الغرب سبعمئة واثنان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمئة ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً[٥]، وللمسجد أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، أمَّا جهتَه القبلية فلا يوجد فيها إلَّا باب واحد، وذكرَ ابن عثمان المكناسي أنَّ للمسجد الأقصى محراب مكسو بالرُّخام في غايةِ الحسن، والمحراب قُبَّة عظيمة مُزيَّنة بالفصوص المُلوَّنة كاملة الزينة، وعدد أبواب المسجد أحَّد عشر باباً،

---

١ أُطلق عليه جامع المغاربة لغلبة هذا الاسم على ألسنة الجمهور. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٢٢١؛ بناه عُمر بن الخطاب ﷺ، وهو جامع مأنوس، مُهيب تُقام فيه صلاة المالكية. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٧٢، ٧٣.

٢ بجوار جامع المغاربة من جهة الغرب، وهي بداخلِ سور الحرم، وبابُها من داخل المسجد عند البابِ الذي يُخرج منه إلى حارة المغاربة، واقفها فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل، ناظر الجيوش الإسلامية، والمتوفي سنة(٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م). العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٧٧؛ كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص١٤٨.

٣ هي بركةُ الماء العظيمة المبنيَّة من الرُّخام، أنشأها الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام، داخل الحَرم ما بين الصخرة والمسجد الأقصى سنة(٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م). الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٢٥٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٣٣.

٤ للمزيد عن وصف البلوي لقبة الصخرة يُنظر. البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤٩- ٢٥٤، يُقارن مع رحلة العبدري: الرحلة، ص٤٧٠- ٤٧٢؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣١- ٣٣؛ المقدسي: مُثير الغرام، ص٢١٧؛ العُليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٤٩، ٥٣، ٥٤.

٥ وذكر الرحَّالة ناصر خسرو أنَّ طولَ المسجد أربعة وخمسون وسبعمائة ذراع، وعرضهُ خمسةٌ وخمسون وأربعمائة ذراع بذراع الملك. ناصر خسرو: سفرنامه، ص٦٩.

وبالقُرب من صحن المسجد مدارس عدَّة ، وفي هذا المسجد محراب السيدة مريم، ومهد عيسى، وتربة سليمان عليهم السلام ويتَّصل بالمسجد الأقصى مسجدٌ يُقال له: البُقعة البيضاء يتَّسع لمُصلٍّ واحد[١].

3ً- الجامع الأبيض بالرملة:

وصفه البلوي بالجامع الكبير، وذكر أنَّ له صحن كبير، وفيه الأشجار والطيور، والآبار، وجبُّ ماء مياهه عذبة، وفي وسطِ صحنه مغارة عظيمة كبيرة، على أقواس محنية وأرجل مبنية، دُفِنَ فيها جماعة من الأنبياء، يُفضي إليها بدرجٍ، وعلى بابِ المسجد تاريخان منقوشان في الرُّخام مكتوبٌ على أحَّدهما: « بسم الله الرحمن الرحيم، أمرَ بعمارة هذا المسجد الجامع المُبارك إياس عبد الله بن جهة الأمير علم الدين قيصر رحمه الله ورحم من ترحَّم عليه سنة(٥٨٦هـ /١١٩٠م).

وبالمقارنة قدَّم ابن بطوطة الوصفَ نفسهُ مع ذكر أنَّ فيه ثلاثمئة من قبور الأنبياء، وذكر العليمي أنَّ الجامع تمَّ تجديده في عهد الملك الناصر صلاح الدين سنة(٥٨٦هـ/١١٩٠م) على يد الأمير الوارد اسمه في النقش، وهو أَحَّدُ أُمراء الدولة الصلاحية، وأضاف أنَّ الجامع يقع ظاهر المدينة، وحوله مقبرة، وفيه منارة بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهي من عجائب الدنيا، وبجوار الجامع حارة من جهته الشمالية، والمدينة منفصلة عن الجامع، والجامع مُتَّسع مأنوس عليه الهيبة والوقار والنورانية، وتحت صحنه السماوي مغارة تحت الأرض فيها قبر النبي صالح ﷺ، أما قبَّتَهُ التي على المحراب، فعمَّرها الظاهر بيبرس سنة(٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)، وعمَّر الباب المُقابل للمحراب[٢].

ج-ج- لقاء العلماء:

اهتمَّ البلوي في رحلته إلى فلسطين بلقاءِ العلماء، والأخذ عنهم، وقد صرَّح في بدايةِ رحلته، أنَّ دوافع رحلته إلى المشرق لأداء فريضة الحجِّ، ولقاء العلماء للاستزادة من علمهم[٣]، وعُنِيَ البلوي بذكر من لقيه من العماء، وذَكَرَ أسماءهم، ونعوتهم، وألقابهم، وتأليفهم، وتاريخ ولادتهم، ولعلَّ من أبرز العلماء الَّذين لقيهم:

1ً- عُلماء الخليل:

---

[١] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤٦- ٢٤٩؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٦؛ ابن عثمان المكناسي: إحراز المعلى والرقيب، ص٢٩٣-٢٩٧؛ وأضاف العُليمي أنَّه على يسار الداخل للمسجد الأقصى بئر يُسمَّى بئر الورقة في وسط المسجد، أمَّا قُبَّته فعلى الصحن الكبير، وهي قُبَّة مرتفعة على عمدٍ من رُخام وسواري. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٤٩، ٥٣، ٥٤، وللمزيد عن وصف المسجد الأقصى. يُنظَر: الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣١- ٣٣؛ العبدري: الرحلة، ص٢٦٩- ٢٧٢ ؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٢٠٧- ٢٣٠.

[٢] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤؛ العُليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٢٨، ١٢٩.

[٣] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص١٤٣.

قال البلوي في لقاءه بعلماء الخليل: « ثمَّ اختلفت إلى لقاء الفضلاء، و أخذتُ عمَّن بذلك القُطر المبارك من العلماء، مُنهم شيخ الوقت سناءً وسنا، وعلماً وديناً الشيخُ العالم الصالح شمس الَّدين أبو عبد الله مُحمَّد بن كافل الشافعي، شيخ العلم والوقار، ومحلُّ المناقب المُغرِسة في أرفع البقاع، وُلِّيَ القضاء بعدما أُكره عليه، سمعت من لفظه هناك بين المنبر والمحراب أجزاءً غير واحدةٍ، واستفدت من مجالسه، وأجاز لِي وكتبَ لِي خطَّهُ»[١].

2ً- عُلماء القُدس:

شغلَ الحديثُ عن عُلماء القدس الَّذين لقيهم البلوي نصيباً وافراً من رحلته، وركَّزَ البلوي ذكره لخمسة منهم أفاضَ في ذكرِهُم، ودراسته عليهم، وما أخذه عنهم، فقال: « وانتقيتُ منهم هاهنا خمسةَ علماء، يُتبرَّك بذكرهم، وتُعطِّر الأندية بشُكرِهم»[٢] وهؤلاء العلماء هم:

العالم الأوَّل:

ذكرَهُ البلوي بقولهِ: « الشيخ الخطيب العالم، زين الدِّين أبو البركات، عبد الرحيم بن بدر الدِّين أبو عبد الله مُحمَّد بن إبراهيم بن أبي الفضل بن سعد بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكناني الشافعي[٣]، لقيتهُ بالمسجد الأقصى، فأدخلني منزلهُ الكريم الذي التصقَ بابهُ بمحراب ذلك المسجد، فرأيتُ منزلاً جليلَ القدرِ، سامي الخطر، مُكلَّل الجَوانب مُرصَّع الأرض، ولمْ أزل أتردَّدُ عليه وأسمعُ منه، وأقرأ عليه، حتَّى تحصَّلتْ لي منهُ جُملاً مفيدة، ومُقيَّداتً عديدة، وممَّا قرأتُ عليه الجزء المُسمَّى بـ" تنقيح المُناظرة في تصحيح المُخابرة"[٤]، وكتاب" المنهل الرَّوي في علومِ الحديث النبوي"[٥]، وسمعت بلفظه كتاب" غُرر التُبيان لِمنْ لمْ يُسمَّ من القُرآن"[٦]، وبعض كتاب" تجنيدُ الأجناد في وجهاتِ الجهاد"[٧]،

---

[١] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤٢، ٢٤٣.

[٢] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٥٦- ٢٥٨.

[٣] عبد الرحيم بن محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة الشافعي، ولِّيَ خطابة المسجد الأقصى سنة(٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م)، واستمرَ فيه حتَّى وفاته سنة(٧٣٩هـ/١٣٣٨م). الذهبي: ذيل العبر، ج٤، ص١١٥؛ ابن رافع السلامي: الوفيات، ج١، ص٢٥٤، ٢٥٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٦٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣١٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٢١.

[٤] ابن جماعة(محمد بن إبراهيم): تنقيح المناظرة في تصحيح المخابرة، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤.

[٥] ابن جماعة(محمد بن إبراهيم): المنهل الروي في علوم الحديث النبوي، تح: محيي الدِّين عبد الرحمن رمضان، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٦م، ص٥.

[٦] ابن جماعة(محمد بن إبراهيم): غُرر التبيان لِمَنْ لمْ يُسمَّ من القرآن، تح: عبد الجواد خلف، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٩٩٠م، ص٦.

[٧] الوادي أشي(محمد بن جابر): برنامج ابن جابر الوادي آشي ، تح: محمد الحبيب الهيلة، منشورات جامعة أم القرى، ط١، ط١، ١٩٨١م، ص٤٧.

وبعض كتاب" مُستند الأجناد في آلاتِ الجهاد"[١]، وكلُّها من تأليف والده الكتاب الأوَّل، وقد كتبَ لِي، وأجازَني إجازةً تامةً»[٢].

العالم الثاني:

ذكرَهُ البلوي بقولهِ: « الشيخُ العالم الحافظ، مُفتي المُسلمين صلاح الدين خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الشافعي الدمشقي[٣]، نزيلُ بيت المقدس، حضرتُ مجالسَ تدريسه، وقتَ كان مُعتكِفاً شهر رَمَضَانَ في المسجد الأعظم، فحضرتُ الشهرَ كاملاً عنده، وسمعتُ، ونقلتُ من خطِّه كتاب" الشفاء بتعريف حقوق المُصطفى عليه السلام" للقاضي ابن فضل عياض[٤]، وسمعتُ منه كتاب" مُسلم بن الحجَّاج في في تقرير وحدانية الله عز وجل"، وسمعت من شعره الفائق ونثره الرائق»[٥].

العالم الثالث:

ذكرَهُ البلوي بقولهِ: « الشيخُ الفقيه المُحدِّث الأديب، علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المَقدسي الشافعي[٦]، شيخُ النُّظم والنثر، إمام الحديث، سمعتُ عليه بمجلسه في المسجد الأقصى جميع جميع صحيح البخاري، والجزء الذي فيه ثمانية وثمانين حديثاً من مشيخته، وقصيدتيه الرَائِيَتَين في فضائلِ المسجد الأقصى الشريف»[٧].

العالم الرابع:

---

[١] ابن جماعة(محمد بن إبراهيم): مستند الأجناد في آلات الجهاد، تح: أسامة ناصر النقشبندي، دار الوثائق، دمشق، ط١، ط١، ٢٠٠٨م، ص٥.

[٢] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٥٦- ٢٥٨.

[٣] صلاح الدين أبو سعيد، خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الشافعي، الإمام المُحقِّق، درَّس بدمشق، ثمَّ انتقل ليُدرِّس ليُدرِّس بالمدرسة الصلاحية في القدس سنة(٧٣١هـ/١٣٣٠م)، وبقي فيها حتَّى وفاته سنة(٧٦١هـ/ ١٣٦٠م). الحُسيني: ذيول العبر، ج٤، ص١٨٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٦٧؛ ابن قنفد القسطنطيني: الوفيات، ص٣٥٩؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص٩٠ - ٩٢؛ الداوودي: طبقات المفسرين، ج١، ص١٦٩، ١٧٠؛ ابن العماد الحنبلي: شُذرات الذهب، ج٦، ص١٦٠.

[٤] هذ الكتاب للقاضي أبي فضل عيَّاض بن موسى اليحصبي(ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م). اليحصبي(عيَّاض بن موسى): الشفا الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، تح: علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص٨.

[٥] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٥٨ - ٢٦١.

[٦] الأديب علاء الدِّين أبو الحسن، علي بن أيوب بن منصور المقدسي الشافعي، ولد سنة(٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)، درَّس الحديث في دمشق، ودرَّس بالمدرسة الأسدية والباد رائية، ثمَّ انتقل إلى القُدس، وتولَّى تدريس المدرسة الصلاحية، وبقي في القدس إلى أنْ مرِضَ وتوفي متأثراً بمرضه سنة(٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م). الحسيني: ذيول العبر، ج٤، ص١٤٦؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٥٣.

[٧] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٦٥- ٢٦٦.

ذكرَهُ البلوي بقولهِ: « الشيخ الفقيه المُقرئ الصالح، شمسُ الدِّين أبو عبد الله محمد بن علي بن مُثبت الخولاني الأندلسي[١]، أحَّد العُبَّاد الموقوفين، و المتَّقين، كنتُ أحضرُ مجالسه العلميَّة والنحويَّة والفقهيَّة، وسمعتُ منه الكثير من الأحاديث، وكتبَ لِي بخطِّهِ، وأجازني إجازةً تامةً»[٢].

العالم الخامس:

ذكرَهُ البلوي بقولهِ: « جمال الدِّين، أبو بكر مُحمَّد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسين بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن عبد الرحيم بن نباتة[٣]، حامل لواء البيان بين صناديد مصر، وفَحُول الشام، صاحبُ الخُطب الشهيرة، أبرعَ الخلق إذا نظمَ أو كتبَ، لقيتَهُ بحرمِ القُدس، أتاهُ من دمشقَ زائراً، وقد استنشدني الكثير من شعرهِ، ثمَّ سألتهُ في تقييد شيءٍ من شعره، فأخرجَ لي ما ارتضاه منه، واختارهُ في نسخة، فاستعرتُهَا منه، وكتبتُهَا عنه، وأنا أوَّل من جلبَ ذلك الدُرَّ النفيس من بحرهِ، ومن قوله: فيما أنشدني إياه قولهُ: يمدحُ الملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة:

كــــانَ عمــــادُ الــــدِّين غيــــر مُقــــوِّضٍ وقــــد قمــــتُ يــــا أزكــــى الأنــــام وأحزُمَــــا

فــــإنْ يــــكُ مِــــن أيــــوب نجــــمٌ انقضــــى فقــــد أطلعــــتُ أوصــــافك الغــــرَّ أنجُمَــــا[٤].

د- المآخذ على الرحلة:

رُغمَ أهمِّية الرحلة، فإنَّ هُناك انتقادات عدَّة، يُمكن أن توجه لِمُؤلِفها، منها:

أكثرَ البلوي أثناءَ وصفه للمدن من السجعِ والتطويل، والنثر والشعر، ممَّا أدَّى إلى الإخلال بالمعنى في بعض الأحيانِ، ومثال ذلك وصفه لمدينة الخليل التي قال فيها: « وجنَى جذاذلها وتضوعَ أريجُ أسحارِهَا...، والنورُ قد شبَّ وشابَ، والهزار قد لبَّ ولابَ، والحبيب قد ظرفَ وتجنَّى»[٥]، يُلاحظ في هذا

---

[١] شمس الدِّين أبو عبد الله، محمد بن علي بن مثبت الخُولاني الأندلسي، المعروف بابن الفخَّار البيري، نزيل القدس، المُقرئ الخطيب البارع النحوي، توفي بغرناطة سنة(٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م). ابن الجزري: غاية النهاية، ج٢، ص١٧٧.

[٢] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٦٦ – ٢٦٨.

[٣] جمال الدِّين أبو بكر، محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسين بن نُباتة الفارقي الأصل المصري المولد ولد سنة(٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، أشهر شُعراء مصر والشام، توفي في المارستان المنصوري بمصر سنة(٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص٣١١؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٩، ص٧٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص٢١٦؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٧٠٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢١٢.

[٤] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص ٢٦٨– ٢٧٤، والأبيات عند ابن نباتة المصري(محمد بن محمد): الديوان، المطبعة اللبنانية، بيروت، ط١، ١٨٨٦م، ص٦٢.

[٥] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤٠، ٢٤١.

المُقتطف من العباراتِ السَّجعة التي أوردها البلوي كثرة التكلف، والكلمات الغير مفهومة التي قد تُشتِّت انتباه القارئ، وتفقد المقصود المعنى الحقيقي.

ومن جهة أُخرى وقع البلوي بالتناقض في كثير من الأحيان، فكان يذكر عبارة (سنوردها في موضعها)، وعند حديثه عنها، يمرُّ عليها مرور الكرم، ويسهى عن تفصيلِها كما وعدَ، ومثالها حديثه عن علماء الخليل، إذ قال: « ولقيتُ ما أمكن من أولئك الفضلاء الأعلام»[1]، ويتَّضح من كلامه أنَّ زيارته الثانية للخليل تركَّزت على لقاء العلماء فيها، رُغمَ أنَّه لم يذكر سوى عالمٍ واحدٍ منهم، ومن أمثلة التناقضات التي وقعَ فيها عندما ذكر أنَّ عسقلان خاوية خالية، ثمَّ عاد ليذكر أنَّ مسجدها حافل، إذ قال: « فحللناها بلدٌ أقفر وخُرِّب، و أكلَ الدهرُ على محاسنها وشرب...، فأطلعت السجود والركوع في ذلك المسجد الحافل»[2]، فهل من الممكن أنْ تكون مدينةٌ خالية من سكَّانها وخرابٌ، وبنفس الوقت يكونُ مسجدها حافلٌ بالمُصلِّينَ؟!.

ومما يُؤخذ عليه أنَّ مُدِّة اقامته في مدينة غزة، تُعادل المُدَّة التي أقامها في مدينة الخليل، فبوصفه للخليل أفاض بذكر مسجدها، وما فيها من الآثار، ولقاء العلماء، أمَّا بالنسبة لغزة، فأغفلَ ذكر آثارها ومعالمها، واكتفى بوصفِها بعباراتٍ بسيطة، لا سيَّما أنَّه لمْ يتطرَّق لذكر مساجدها، مثل مسجد الأمير المُعظَّم الجاولي[3].

ومن العيوب التي توجَّه لرحلة البلوي عدم تصريحهِ بمصادره الجُغرافيَّة، وربَّما تكتَّم عن ذكرها رغبةً منه بجعل الرحلة كلِّها من جهوده الشخصية، لكن الواضح أنَّ البلوي نقلَ بشكلٍ كبير من رحلة ابن جبير صفحات بأكملها، ومثالها وصف القاهرة والمدينة ومكة[4]، ومسجد قباء[5]، والمسجد الحرام[6]، ولكي يُخفي البلوي نقلهُ عن ابن جبير لجأ إلى اتِّباع أسلوب التلاعب ببعضِ الألفاظِ، وتقديم بعض الأفكارِ وتأخيرها، ومن جهة أخرى أنَّ نقله عن ابن جبير لمثل هذا وصف عن مسجد قباء، والمسجد الحرام، ووصف منارة الإسكندرية، يُعدُّ من أكبر عيوب الرحلة، فالبلوي زار هذه المناطق وشاهدها بعينه، وصرَّح

---

[1] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص ١٣، ١٤.

[2] البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٧، ١٨.

[3] مسجدٌ أنيقُ البناء، مُحكم الصنعة، منبرهُ من الرُّخامِ الأبيض. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٣٩، بناهُ الأمير سنجر بن عبد الله الجاولي، أحد أُمراء الظاهر بيبرس، ونائب السلطنة في غزة، إذ بنَى المسجد المذكور سنة(٧١٤هـ/١٣١٥م)، توفِّي الجاولي في القاهرة سنة(٧٤٥هـ/١٣٤٤م). الحسيني: ذيول العبر، ج٤، ص١٣٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٤٢.

[4] ابن جبير: الرحلة، تح: حسين نصار، ص ز .

[5] للمُقارنة البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٨٥– ٢٨٧؛ ابن جبير: الرحلة، ص١٧٥– ١٨٢.

[6] للمُقارنة البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٩٨؛ ابن جبير: الرحلة، ص٥٦– ٦٥.

في منهجه بأنَّه اعتمدَ على المُشاهدة الشخصية[1]، فهو بذلك خالف منهجه من جهة، ومن جهة أخرى اعتمدَ على مُشاهدات غيره؛ لتدوين رحلته في وصفِ مناطق زارها وشاهدها بنفسه.

وينطبقُ الأمر ذاته بنقله كثيراً من الأسجاع من كتاب" البرق الشامي" للعماد الأصفهاني، فهو لمْ يُشر إلى ذلك، ولكن الملاحظ أنَّ أغلبَ شعره وسجعه منقول من البرق الشامي، وربَّما هذا الأمر دفع مُعاصره ابن الخطيب الغرناطي لذكر هذا العيب إذ قال: « حجَّ وقيَّد رحلته في سَفْرٍ وصف فيه البلاد، ومن لَقِيهُ بفصول جلبَ أكثرها من كلام الأصفهاني»[2]، إضافةً إلى ما وقعَ به من الأخطاء اللغوية والإملائية في كتابة الرحلة، ومثالها كتابة " المآثر" بـ المئاثر، وغيرها كثيرٌ[3].

٤- ابن بطوطة الطنجي، محمد بن عبد الله بن محمد(ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م).

أ- التعريف بالرحالة:

مُحمَّد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف الطنجي اللواتي[4]، المُكنَّى أبي أحمد لوجود ولد له يحمل هذا الاسم، كما كُنِيَّ بأبي عبد الله، عُرِفَ في البلاد الشرقية بشمس الدين، وفي الهند ببدر الدين[5] ونسبتهُ اللواتي تُشير إلى أنَّه ينتمي إلى قبيلة لواته، وهي إحدى القبائل البربرية التي انتشرت بطونها على طول ساحل إفريقية الشمالي من المغرب[6] حتَّى مصر[7]، و يبدو أنَّ أُسرته تُنسَب لسيّدَة تُعرف باسم فاطمة وكان من العادة في القديم يُنسب الشخص لأُمِّه، وفاطمة في المشرق

---

[1] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص١٤٢، ١٤٣.

[2] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٢٨٦.

[3] البلوي: تاج المفرق، ج١، ص ٢٤٠.

[4] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص٢٠٦؛ ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص٢٣؛ ابن حجر العسقلاني: العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٨٠، ٤٨١؛ ابن سودة المري: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص٢٢٩، ٢٣٠؛ السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥؛ البغدادي: هدية العارفين، مج٢، ص١٦٩؛ الزياني(أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم): الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تح: عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط، ١٩٩١ م، ص٥٨١؛ التازي(عبد الهادي): جامع القرويين، دار نشر المعرفة، الرباط، ط٢، ٢٠٠٠م، ج٢، ص٤٩٥.

[5] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، مقدمة ابن جزِّي، ص١٥١.

[6] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٢.

[7] المقريزي(أحمد بن علي): البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تح: فردناد واسطون فيلد، طبعة جوتنجن، ألمانيا، ١٨٤٧م، ص٣٣.

تُدلِّل بطَّة وفي المغرب تُسمَّى بطوطة[١] على مَثَّلِ سفودة كما في تاجِ العروس للزُبيدي الذي ذكره بابن بطوطة[٢].

ولِدَ ابن بطوطة في مدينة طنجة يوم الإثنين السابع عشر من شهر رجب سنة(٧٠٣هـ /١٣٠٣م)[٣]، في أُسرة اشتهرت بالعلم والفقه، إذ عُرفت بالتديُّن والعلم والافتاء، و تولَّى كثيراً من أفرادها منصب القضاء، لذلك عَمِلَ والده على تعليمه إذ علَّمه علوم الدين واللغة[٤]، ودرَّسه الفقه على المذهب المالكي في طنجة[٥]، وحفَّظه القرآن، وبدأ يُدرِّسَهُ على الشيوخ؛ ليكون فقيهاً لكنْ لمْ يتمُّها بسبب رحلته وهو في الثانية والعشرين من عمره[٦]، وفي مسقط رأسه درسَ الأدب[٧]، وعلوم اللغة العربية على والده، وكانَ أملُ أهلَه بأنْ يُصبح واحداً من القُضاة والفقهاء، لكن كان هواه قراءة كُتب الرحَّالة والجغرافيين، فكثيراً ما كان يأخذ كتب الجغرافية والرحلات، ويذهب إلى شاطئ البحر ليقرأ عن بلاد لمْ ترَاها عيناه[٨]، وبرع ابن بطوطة في في الشعر، فكانَ له شعرٌ جيّد مدحَ فيه الَّذين أولوه رعايتهم[٩]، وامتازت قصائدهُ بوضوحِها وسُهولة فهمها[١٠]، كما كانت لهُ مُشاركة يسيرة في الطب[١١].

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٨٠.

[٢] الزبيدي: تاج العروس، ج٥، ص١٠٩.

[٣] السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥؛ البغدادي: هدية العارفين، مج٢، ص١٦٩؛ قنديل: أدب الرحلة، ص٤٨٨؛ كردي(علي إبراهيم): أدب الرحل في المغرب والأندلس، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٣م، ص٦٥؛ التازي: جامع القرويين، ج٢، ص٤٩٥.

[٤] قنديل: أدب الرحلة، ص٤٨٨؛ كردي: أدب الرحل، ص٦٥.

[٥] السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٥٧، ١٥٨؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٥٩؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٨٧؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٢

[٦] مؤنس(حسين): ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٧.

[٧] عفيفي: تطور الفكر العلمي، ص٢٩١.

[٨] فياض(سليمان): ابن بطوطة رحالة الإسلام، مركز الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م، ص٣، ٤.

[٩] السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٥٧، ١٥٨؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٥٩؛ زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٨٧؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٢

[١٠] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٩.

[١١] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص٢٠٦؛ السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥؛ الزياني: الترجمانة الكبرى، ص٥٨١.

وابن بطوطة قويُّ البدن، فكانَ يأكلُ كلَّ طعامٍ ما عدا المُحرَّمات، ويصومُ أحياناً لكي يقوى بدنه، وكانت له معرفة بالأعشاب[1]، وعدا عن ذلك احتلَّ الرَّجُل مكاناً مرموقاً في مجال القضاء، وأُسنِدَ إليه المنصب مرات عدَّة[2]، وعندما بلغَ سن الثانية والعشرين من عمره رغب في أداء فريضة الحج وذلك سنة(٧٢٥هـ/ ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)؛ لذلك لا يُملك الكثير من المعلومات عن طفولته، إذ رحلَ في سنٍّ مُبِّكر، وتُعدُّ رحلته التي استغرقت خمس وعشرين سنة أهمّ مصادر ترجمته التي تُعرِّفُنا بتفاصيل حياته خلال هذه المُدَّة، إذ خرج في رحلته وتركَ والديه على قيد الحياة، وعبَّر عن حُبِّه لوالديه ومشقَّة فُراقهما قائلاً: « فحزمتُ أمريَ على هجرِ الأحباب من الإناث والذكور وفارقتُ وطني مُفارقة الطيور للوكور، وكانَ والدايَّ بقيد الحياة، فتحمَّلتُ لبُعدِهما وصباً، ولقيتُ كما لقيا من الفُراق نصباً، وسنِّي يومئذ اثنتان وعشرون سنة»[3].

لم يتزوَّج ابن بطوطة في طنجة إنَّما تزوَّج في طريقه إلى الحج من ابنة أحَّد أُمناء تونس، لكن خلافاً مع أهلها جعلهُ يفترق عنها[4]، وقد عَرِف الحاج المغاربة رفاقه في السفر فضله ومعرفته في العلوم الشرعية، فجعلوه قاضياً لهم[5]، وبعد أن سار ابن بطوطة في الركبِ المغربي، وصل مكَّة وأدى فريضة الحج، ثمَّ اتَّجه إلى بلاد الشام وتزوَّج مرَّةً أُخرى في دمشق، ولم يُصرِّح بذلك إلَّا بعد زيارته الثانية لها، إذ قال: « وكنتُ تركتُ بها زوجةٌ ليَ حاملاً، وتعرَّفتُ وأنا ببلاد الهند أنَّها ولِدت ولداً ذكراً، وبعثت إلى جدَّهِ للأم، وكان من أهلِ مكناسة المغرب، وحينَ وصُولي إلى دمشق سنة(٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، سألتُ عنه فقالوا: أنَّه مات منذُ اثنتي عشر سنة»[6].

وبعد إقامته في بلاد الشام مُدَّة انتقلَ إلى العراقَ، وفيها تعلَّم على بعض مشايخها وأخذ يحضر مجالسهم العلمية، وفي إحدى المجالس انتقد خطيب البصرة الذي لمْ يحترم قواعد النحو والذي كان مزدهراً بين البصرة والكوفة في ذلك الوقت، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ، فإنَّه يدلُّ على معرفته بالنحو[7]، وبعد مُدَّة قررَ ابن بطوطة السفر إلى إيران، ثمَّ عاد إلى مكة وحجَّ للمرة الثانية سنة(٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، وبقي في مكة ردحاً من الزمن للتبحُّر في العلوم الشرعية واللغوية على يدِ جهابذة الفكر هُناك وحجَّ سنة(٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) و سنة(٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، وفي سنة(٧٣٠هـ/١٣٢٩م) غادر مكَّة إلى شواطئ السودان واليمن والصومال وكينيا وتنزانيا، ثمَّ قفلَ إلى مكَّة فحجَّ للمرة الخامسة سنة(٧٣٢هـ/١٣٣١م)، وفيها سمع عن

---

[1] مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، ص١٩ ، ٢٠

[2] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٧؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٦٩.

[3] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٥٣.

[4] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٧١.

[5] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٧؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٦٩.

[6] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص١٧٧.

[7] ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص١٣.

غرائب وعجائب الهند، فسارعَ إلى زيارتها[١] وفي طريقه مرَّ ببلاد الشام وربَّما بعد عودته لبلاد الشام ثانية تزوَّجَ في نابلس، ودليل ذلك ذكر الزركلي بأنَّ في نابلس تسكنُ أُسرة عربية مغربية من نسل ابن بطوطة[٢].

ثمَّ تابع سيره إلى آسيا الصغرى وهناك طلبَ منه سُلطان بركي أنْ يُؤلِّف لهُ كتاباً في الحديث مما يدلُّ على معرفته به[٣]، وبعد مُدَّة انتقل إلى جنوب روسيا وأفغانستان ووصل إلى دلهي[٤] وفي الهند تزوَّج أربعة نسوة هناك، إذ قال: « كانَ لي بها أربعةُ نسوة وجوار سواهنَّ»[٥]، وفي الهند تولَّى منصب القضاء، القضاء، وممَّا يدلُّ على ذلك قوله لسُلطان الهند: « أمَّا الوزارة والكتابة، فليست شغلي، وأمَّا القضاء والمشيخة شُغلي وشُغلَ آبائي»[٦]، وأكَّد ابن خلدون على تولي ابن بطوطة لقضاء الهند بقوله: « وردِ بالمغرب لعهد السُلطان أبي عنان[٧] من ملوك بني مرين رجلٌ من مشيخةِ طنجة يُعرف بابن بطوطة كان كان رحل منذُ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلَّب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل دلهي حاضرة ملك الهند، واستعمله في خطِّ القضاء في مذهب المالكية في عمله»[٨].

وبعدها عزم الرحَّالة على الرِّحلة إلى الصين[٩] لكنَّه لمْ يُوفَّق بالوصول إلى الصين براً، فأبحر من قليقوتَ إلى جُزرِ الملديف، و أمضى هناك زهاءَ عامين زارَ خلالها سيلان والبنغال[١٠]، وبعد رحلاتٍ طويلة، قرَّر ابن بطوطة العودة إلى وطنه، فعاد إلى العراقَ ثمَّ دخل بلاد الشام وتوجه إلى دمشق سنة(٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وهناك سأل عن والديه فقيهاً من أهالي طنجة لم يُصرِّح باسمه، وكان متواجدٌ في

---

[١] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٧.

[٢] الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٢٣٦.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٨٥.

[٤] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٧.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص٦١.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ، ج٤، ص٧٣.

[٧] فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب، بن عبد الحق المريني، أبو عنان بُويعَ بالملك في حياة أبيه سنة(٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، وتوفي مخنوقاً سنة(٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م) وعمره ثلاثين عاماً. أبو الوليد الأحمر(إسماعيل): روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨م، ص٢٧ وبعدها؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٥٨.

[٨] ابن خلدون: المقدمة، ص٣٢٢، ٣٢٣.

[٩] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٧.

[١٠] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٣.

المدرسة الظاهرية، فأخبرهُ أنَّ والده توفي منذُ خمس عشرة سنة أي سنة(٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، وأنَّ أُمَّه ما تزالَ على قيد الحياة[١].

وأخيراً قرَّرَ ابن بطوطة العودة إلى مسقط رأسه بلاد المغرب، فتركَ بلاد الشام متوجِّهاً إلى مكَّة، فحجَّ الحجة السادسة والأخيرة سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[٢]، ومنها تابعَ طريقه إلى المغرب وفي طريقه عَلِمَ بوفاة والدته[٣]، وتابعَ سيره فوصلَ فاس سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، بعدَ غيبةً استمرَّت خمس وعشرين سنة[٤] قطعَ قطعَ خلالها أكثر من خمسة وسبعين ألف ميل[٥]، وبعد إقامته في فاس مدَّة توجَّه إلى جنوب طنجة لزيارة قبرُ أُمِّه، ثمَّ عاد إلى فاس ولم يبقَ فيها طويلاً، فسافر إلى بلاد الأندلس سنة(٧٥١هـ/١٣٥٠م)، وبقي فيها مدَّة.

ثمَّ قفلَ منها راجعاً إلى المغرب؛ بسبب تدهور أوضاعها، فوصل إلى فاس، ولمْ يقمْ فيها طويلاً، وبدأ رحلته الثالثة سنة(٧٥٢هـ/١٣٥١م) إلى القارَّة الإفريقية، ثمَّ طلبه السلطان في فاس المتوكِّل على الله أبي عنان المريني سنة(٧٥٤هـ/١٣٥٣م)[٦].

ويبدو أنَّ ابن بطوطة ملَّ السفر والارتحال، وأنَّ تقدُّمه في العمر، ورغد العيش في كنف أبي عنان، جعلهُ يترك السفر، فبقيَ مقيماً في فاس، وفي ذلك قال ابن جزي[٧]: « فنَسيَ ما ألفهُ من جولان البلاد، وظفرَ بالمرعى الخصب، بعد طول الارتياد»[٨].

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص١٧٧.

[٢] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٧.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص١٩٣.

[٤] السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥.

[٥] السملالي: الاعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٥٧، ١٥٨؛ زيادة: زيادة: الجغرافية و الرحلات، ص١٨٧؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٢ حسن: الرحالة المسلمون، ص١٢١.

[٦] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٨؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٦٠. حسن: الرحالة المسلمون، ص١١٧، ١١٨ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٧٩، ٣٨٠ ، ٣٨١؛ حسين: أدب الرحلة، ص٣٥، ٣٦.

[٧] أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزي المولود بغرناطة سنة(٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، اجتمع به ابن بطوطة في غرناطة، وروى له الكثير من أخباره، ولم يجد السلطان أبو عنان أفضل من الكاتب ابن جزي في تدوين الرحلة، توفي ابن جزي في فاس ودفن فيها سنة(٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م). ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص١٠- ١٣؛ ابن الخطيب: الكتيبة الثامنة، ص٤٦؛ المقري: نفح الطيب، ج٥، ص٥١٤، ٥١٥؛ المقري: أزهار الرياض، ج٣، ص١٨٤- ١٨٦.

[٨] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص٢٨٠.

وبعد انتهاء أسفاره أرسله السلطان ليتولَّى القضاء في تامسنا عاصمة أنفا في المغرب[1]، وعادَ في آخرِ أيامه إلى فاس، ليُقيمَ بعض وقتِهِ في مسجدها، ويروي على الناس ما رأى وشاهد من غرائب الأمصار وعجائب الأسفار[2]، وبقي فيها إلى أنْ وافته المنية سنة(٧٧٩هـ /١٣٧٨م)[3]، وجاء في بعض المراجعِ أنَّه توفي في طنجة، وأنَّ قبرهُ يُزار هناك في مسجد صغير قُرب سوق أحرضان[4].

لقد كان ابن بطوطة مُتديّنًا تقيًّاً مُكرِماً لرجال الله، مُحبّاً لوالديه، وحفظ هذه العواطف في أسفار رحلته[5]، وقضى حياته كلَّها رحلاتٍ[6]، لكنْ الغريب أنَّه لمْ يُخلِّف إنتاجاً أدبيّ سوى رحلته" تُحفة النُظَّار في غرائب غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" المعروف برحلة ابن بطوطة[7]، ومُؤلَف آخر اسمه" الوسيط في أخبار أخبار من حل تمنطيط" تحدَّث فيه عن رجال مدينة تمنطيط[8] في إقليم توت[9].

وبعد: فهذا قليلٌ من كثير ممَّا يجب أنْ يُذكر عن شيخ الرحَّالين الذي خَبَتْ بوفاتِهِ جُذوة اللهب في رجلٍ تَقاسَمتْ عُمرَهُ الأسفار.

ب- دراسة رحلة(تُحفِة النُظَّار في غرائبِ الأمصار وعجائب الأسفار):

أ-ب- دوافع الرحلة:

إنَّ الحافزَ الرئيسُ الذي دفع ابن بطوطة على الخروج من مسقط رأسه مدينة طنجة هو أداءُ فريضة الحجِّ وزيارة قبر الرسول ﷺ، مُلبِّياً داعي الله سنة (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) وهو في الثانية والعشرين من عمره[10]، و قد صرَّح بذلك قائلاً: « كان خُروجي من طنجة مسقط رأسي يوم الخميس الثاني من شهر الله ﷻ الفرد

---

[1] ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص٢٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٨١.

[2] قنديل: أدب الرحلة، ص٤٨٨، ٤٨٩.

[3] السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص١١؛ البغدادي: هدية العارفين، مج٢، ص١٦٩.

[4] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٤؛ مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، ص١٦.

[5] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٦١.

[6] مؤنس(حسين): ابن بطوطة رحالة الإسلام، مجلة العربي، العدد ٣١٣، ١٩٧٦م، ص٣١.

[7] البغدادي: هدية العارفين، مج٢، ص١٦٩؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٦٠؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٢.

[8] إحدى مدن إقليم توات في المغرب تبعد عن أدرار اثني عشر كيلو متراً. المزمري(محمد بن أب): تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الإيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى، المطبعة الملكية، الرباط، ط١، ١٩٦٢م، ص٣٣؛ الإدريسي الطاهري(أحمد): نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، مخطوط في خزانة المدرسة الرقادية بزاوية كنته، ولاية أدرار، الجزائر، رقم ١٣٣٤، ص١٢.

[9] ابن سودة المري: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص٤٢.

[10] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص٢٠٦؛ السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥؛ محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٥٨؛ حسن: الرحالة المسلمون، ص١٠١؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٦٩.

عام خمسة وعشرين وسبعمائة، مُعتمداً حجَّ بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وسنِّي يومئذ اثنتان وعشرون سنة»[١].

ويبدو أنَّ ابن بطوطة كان مُحبَّاً للمعرفة وزيارة البلدان التي لم يَرَها، خاصة أنَّه سمعَ في مكَّة الكثير عن عجائب وغرائب البلدان، فشدَّ الرحال لاستطلاعها، فكانَ من المُغامرين الَّذين لا يقرُّ لهُم قرار، ومن الَّذين دفعهم حبُّ الاستطلاع إلى ركوب الصعب من الأمور[٢]، ومن هنا تولَّدَ عنده دافع آخر لرحلته، هو الشوقُ إلى المعرفة ورؤية الدنيا والناس[٣].

ب-ب- خط سير الرحلة:

قبلَ ذكر خطُّ سير الرِّحلة لا بُدَّ من ذكر مُلاحظتين مُهمَّتين، الأولى أنَّ ابن بطوطة قام بثلاث رحلات **واحدة** إلى الشرق زار خلالها بلاد الشام وهي التي تُعنِينَا، **وأُخرى** إلى الأندلس، و**الثالثة** إلى السودان ومرَّ ذكرُ هاتين الرحلتين، أمَّا المُلاحظة الثانية التي تخصُّ رحلته المشرقية، فإنَّ ابن بطوطة لمْ يذكر تواريخ وتسلسُلاً زمنياً عن تنقُلاتِهِ إلَّا ما ندر، كما أنَّ خطَّ سيرُ رحلته طويل ومعقَّد، لذلك سيُقتَصَر على ذكر النقاط الرئيسية لخط السير دُونَ التطرُّق لجميع الأماكن تفصيلياً منعاً للإطالة:

أعدَّ ابن بطوطه العدَّة للانطلاق لأداء فريضة الحجَّ، فجهَّز زاده، وامتطى جَمَلَهُ، لينطلق من طنجة برَّاً يوم الخميس الثاني من رجب سنة(٧٢٥هـ/١٣٢٤م) [٤]، ومن طنجة توجَّه إلى مُراكش، فمرَّ بساحل إفريقية إفريقية الشمالي وبعدها إلى الجزائر، فوصل مدينة تلمسان، ومنها انتقل إلى مليانة، ثمَّ إلى بجاية، ثمَّ سار إلى قسنطينة فأمضى فيها بعض الوقت لينتقل بعدها إلى مدينة بونة[٥]، ومنها توجَّه إلى تونس وفي تونس أقام مُدَّة يُعلِّم ويُفقِّه ويُقدَّم الفتاوى في جامع الزيتونة، وبعدها سارَ مع الركب المغربي على طريق الساحل إلى أنْ وصلَ بلدة سوسة، ثمَّ انتقل منها إلى مدينة صفاقس و فيها تزوَّج إحدى بنات أُمناء تونس، وبعدها واصلَ طريقهُ فوصل قابس[٦].

وبعدَ أيام واصلَ الركبُ سيرَه إلى طرابلس في ليبيا، فوصلها سنة(٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م) ومنها عبرَ مسراته، وسرت[٧]، وبعدها تابعَ الركبُ طريقه إلى مصر، فوصل أول شهر جمادى الأولى الإسكندرية[٨] وطافَ بمعالمها،

---

١ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٥٣.

٢ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٦٩؛ عفيفي: تطور الفكر العلمي، ص٢٩٦.

٣ مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، ص١٨.

٤ السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٥٣.

٥ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٥٨، ١٦١، ١٦٤.

٦ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٦٩، ١٧٠.

٧ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٧١، ١٧٤.

٨ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٧٩.

وزارَ علماءها، ومنها توجَّه إلى دمياط ومن دمياط توجَّه إلى فارسكور، ثمَّ ركبَ ليعبر النيل، وانتقل إلى القاهرة، فأم بها مُدَّةً لينتقل إلى منية بني خصيب[١]، ثمَّ إلى أسيوط، ثمَّ قوص في صعيد مصر[٢]، وهناك وهناك تجهَّز على الرحيل إلى الحجاز، فانطلق الركب إلى عيذاب على البحر الأحمر إلَّا أنَّه لمْ يتمكَّن من عبور البحر لما صادفهُ من اضطراباتٍ على ساحله بين البجاة[٣] والمماليك؛ لخلافٍ حصلَ على المراكب بينهما، فتعذَّر الحجُّ في هذه السنة، واضطر للانتظار سنة لحضور موسم الحجِّ سنة(٧٢٦هـ/١٣٢٥م)[٤]، فعاد إلى القاهرة، ومنها توجَّه إلى سيناء ليدخل الصالحية، متوجِّهاً إلى بلاد الشام[٥]، فوصلَ مدينة غزة، ومنها انتقلَ إلى الخليل، وبعدها عبرَ ساحل الشام مُتوجِّها إلى دمشق[٦] وفي وفي كسوتها اجتمعَ ركب الحاج مع القادمين من العراق وآسيا الصغرى ومنها سارَ مع الركب الشامي إلى الحجاز[٧].

وصل ابن بطوطة المدينة، وأقامَ بها مُدَّةً ثمَّ انتقل إلى مكَّة، فحجَّ حجَّته الأوَّلى سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م)[٨]، (٧٢٦هـ/١٣٢٥م)[٨]، وخرجَ بعدها من مكَّة إلى العراق في عشرين ﷺ[٩]، إذ زارَ مشاهد الشيعة وقبر علي كرم الله وجهه بالنجف[١٠]، ثمَّ اتَّجه إلى إيران وزار كلاً من أصفهان وشيراز[١١]، عاد بعدها ليعبر دجلة والفرات، وانتقل من عراق العجم إلى عراق العرب ودخل مدينة الكوفة[١٢]، ثمَّ عبر الحلَّة إلى بغدادَ[١٣]، و قرَّرَ الحجَّ مرَّةً أُخرى فسارَ مع الركب العراقي مُتوجِّها إلى مكة و حجَّ حجَّته الثانية وأقام

---

١ بإقليم الأشمونيين بديار مصر على حافة النيل من الجانب الغربي بالقرب من قرية دهرومط على مسافة يوم منها. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١١٥؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٥٧٥؛ ابن الجيعان (يحيى): التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، المطبعة الأهلية، القاهرة، ١٨٩٨م، ص١٨٣.

٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٨.

٣ اسم يُطلق على الشعب الذي يسكن ما بين ساحل البحر الأحمر ونهر النيل.

٤ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٣٠.

٥ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص ٢٣١.

٦ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص ٢٣٩.

٧ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٤٣.

٨ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٦٤، ٣٦٧.

٩ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص ٤١١.

١٠ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٤٢١.

١١ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٢٩، ٣٣.

١٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٥٤.

١٣ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٥٧.

بمكة نحو سنتين حتَّى عوفي من مرضٍ شديد أصابه[١]، ثمَّ غادر مكَّة متوجِّهاً إلى جدَّة ومنها عبر البحر البحر الأحمر إلى ساحل إفريقية[٢]، ثمَّ عاد إلى جنوبي الجزيرة العربية حتَّى وصلَ الخليج العربي، فزار عُمان والبحرين والإحساء[٣]، ومجدداً زارَ مكَّة وحجَّ حجَّته الثالثة، وخرجَ من مكة إلى جدَّة، وعبر البحر الأحمر إلى عيذاب[٤]، مُنتقلاً إلى مصر ثمَّ إلى بلاد الشام مرَّة أُخرى وتابعَ سيره إلى أنْ وصلَ اللاذقية[٥]، ثمَّ سار إلى الأناضول، فوصلَ إلى مدينة أزمير[٦]، وانتقل عبر البحر الأسود إلى بلاد القرم[٧] القرم[٧] وبعد زيارة القسطنطينية قرر التوجُّه إلى شرق آسيا[٨] فتوجَّه إلى خوارزم ثمَّ بُخارى[٩]، ثمَّ إلى طوس في خُراسان[١٠] ونيسابور وأفغانستان[١١].

انتقل بعدها إلى الهند وأقام في دلهي مُدِّة خمس سنوات[١٢]، وخرجَ مع وفد إلى الصين لكنَّه لمْ يتمكَّن من الوصول إليه براً[١٣]، فتوجَّه إلى جزيرة سيلان وسرنديب[١٤] وخلالها هذه الرحلة زارَ كلاً من جُزر المالديف والبنغال[١٥]، ومنها انتقل إلى جزيرة جاوة[١٦]، ثمَّ أبحر سبعة عشر يوماً ليصل إلى الصين[١٧]، وبعد الصين ركب البحر وقرَّر العودة إلى الهند لكنَّه عَدَلَ عن الفكرة[١٨]، فانتقل إلى جزيرة جاوة مجدداً، ثمَّ ركبَ البحر ثمانية وعشرين ليلة إلى ظفَّار، فوصلها سنة(٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، ومنها ركب البحر متوجِّهاً إلى مسقط، وأقام فيها مدَّة، وانتقل بعدها إلى ميناء هُرمز ومن هرمز سافر براً إلى شيراز ثمَّ

---

١ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٨٨.

٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٩٨.

٣ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص١٣٠، ١٥١.

٤ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص١٥٩.

٥ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص١٦٠.

٦ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص١٨٩.

٧ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٢١٥.

٨ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٢٤٢.

٩ ابن بطوطة: الرحلة، ج٣، ص٧، ١٥.

١٠ ابن بطوطة: الرحلة، ج٣، ص ٥٢.

١١ ابن بطوطة: الرحلة، ج٣، ص ٥٧، ٦٣.

١٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج٣، ص٩٢، ١٠٥.

١٣ ابن بطوطة: الرحلة، ج٣، ص ٢٤٩.

١٤ ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص٧٧.

١٥ ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص ١٠٠.

١٦ ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص ١١٧.

١٧ ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص ١٢٤.

١٨ ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص ١٥٧.

أصبهان ثمَّ العراق فدخل البصرة ثمَّ الكوفة فبغداد فوصلها في شوال سنة(٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، ومنها إلى الأنبار وهيت، فعانة، فرحبة مالك بن طوق، ومنها إلى السخنة في البادية السورية ليصل إلى تدمر ومن تدمر إلى دمشق، إذ أقامَ بها بقيَّةُ السنة، ومن دمشق انتقلَ في جولة إلى حمص وحماه ومعرة النعمان وحلب.

وفي أوائل سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م) وقعَ الطاعون بهذه البلاد، فعادَ إلى حمص، ومنها إلى دمشق، ثمَّ توجَّه إلى عجلون، فبيت المقدس، ومنها إلى غزة والأراضي المصرية، ليدخل دمياط، ثمَّ فارسكور، ومنها إلى القاهرة، وبعدها إلى عيذاب على البحر، لينتقل إلى جدَّة ويتابع طريقه إلى مكَّة ويحجُّ فيها حجَّتهِ الأخيرة، وبعدها انتقلَ مع الركب الشامي إلى المدينة المنورة وتبوك، ومنها إلى بيت المقدس والخليل وعادَ بعدها إلى غزَّة، ليعبُر إلى مصر ويدخل القاهرة، ومن القاهرةِ ركِبَ في سفينةٍ صغيرةٍ مُتوجِّهاً إلى تونس، وهناك سُرِقَ مركَبِهِ، فسافرَ في مركبٍ آخر إلى قابس، ومنها سافرَ بالبحر إلى جزيرة سردانية، وتابعَ بحراً إلى تازة شرقي فاس، ثمَّ سافرَ عنها يوم الجمعة أواخر شعبان سنة(٧٥٠هـ/١٣٤٩م) إلى فاس فوصلها في اليوم نفسه، لينتهي مطافَ رحلته المشرقيَّة فيها بعد أنْ أمضَى ما يُقارب خمسة وعشرينَ سنة[١].

ج–ب– تدوين الرحلة ومنهجها وأسلوبها:

يعودُ الفضل في تدوين الرحلة إلى ثلاثة أشخاص هُم: السلطان أبي عنان المريني، والكاتب ابن جزِّي الكلبي، والوزير ابن ودْرَار[٢] الذي كان له دورٌ كبير في حماية الرحلة من الضياع، فهو مَنْ اقترحَ على السلطان أبي عنان فكرة تدوين رحلة ابن بطوطة، **وبعد:**

فإنَّ السلطان أبي عنان المريني عندما سمعَ ما يقصَّهُ ابن بطوطه على الناس من عجائب وغرائب البلاد وما شاهده فيها أرسل إليه[٣]، وطلبَ من الكاتب ابن جزي الكلبي الغرناطي بتدوين ما يُملِيه ابن

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص ١٦٩، ١٧٣، ١٧٦– ١٨٢، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٢.

[٢] أبو زيان فارس بن ميمون بن ودُرار الحشمي، من جزولة إحدى قبائل زناتة، أحد قواد السلطان أبي عنان، ورسوله إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر ثم أصبح وزيراً للسلطان، وعهد إليه السلطان بالقضاء على حركة التمرد جنوب المغرب سنة(٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م) إذ أنشأ مدينة سماها القاهرة وأحكمَ بها الحصار على المتمردين، فأصبحَ ابن ودرار الرجل الأوَّل في الدولة وهذا ما لم يُرضِ أبو عنان الذي دبر له مؤامرة، إذ أرسل له ناساً إلى بيته أجهزوا عليه يوم عيد الأضحى سنة(٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م). التازي(عبد الهادي): التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المطبعة المحمدية، فضالة– مصر، ١٩٨٦م ج٧، ص٢٠٩– ٢١٠. الناصري: الاستقصاء، ج٣، ص٢٠٣؛ ابن سماك العاملي(أبو القاسم محمد): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة معهد العلوم العليا، الرباط، الرباط، ١٩٣٦م، ص٢١، ٢٢.

[٣] قنديل: أدب الرحلة، ص٤٩٢.

بطوطة[١]، وهذا ما ذكره ابن جزِّي الكلبي بقوله: « ونفذت الإشارة الكريمة بأن يُملَى ما شاهدهُ في رحلتهِ من الأمصار، وما عَلِق بحفظهِ من نوادرِ الأخبار، وبذكرِ من لقيهُ من ملوك الأقطار وعلمائها وأوليائها، فأملَى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة السامع والنواظر من كلِّ غريبةٍ، أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتمائها»[٢]، وبدأ ابن جزِّي الكلبي بكتابة ما يُملِيهِ عليه ابن بطوطة من ذاكرته[٣] وكان ذلك سنة(٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م)، وربَّما كان سبب الإملاء أنَّ ابن بطوطة قد كتبَ شيئاً من أسفاره أثناء رحلته؛ لكنَّها تعرَّضت للسلب، ويدلُّ على ذلك قوله: « وكنتُ قد قيَّدت من ذلك كثيراً، وضاع منِّي في جملة ما ضاعَ لي لما سلبَنِي كُفَّار الهنود في البحر»[٤].

مهما يكن فإنَّ ابن جزِّي الكلبي قد أتمَّ تدوين رحلة ابن بطوطة المُسماة" تُحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" خلال ثلاثة شهور بعد أنْ فرغَ من تقييدها ثالث ﷺ سنة(٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)[٥]، وتدبيجُها وتنميقُها في شهر ﷺ سنة (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م)[٦] قال ابن جزِّي الكلبي: « وهاهنا انتهت الرحلة المُسمَّاة تُحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وكان الفراغُ من تقييدها في ثالث ﷺ عام ستة وخمسين وسبعمائة، وانتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد ابن بطوطة»[٧].

ويبدو دور ابن جزِّي في كتابة الرحلة جليَّاً بقوله: « ونقلتُ معاني كلام أبو عبد الله بألفاظٍ مُوفيه للمقاصد، موضِّحة للمناحي التي اعتمدها، وربَّما أوردتُ لفظة على وضعهِ فلمْ أخلَّ بأصلهِ ولا فرعهِ، أوردتُ جميعَ ما أورَدَهُ من الحكايات والأخبار، وشرحتُ ما أمكنني شرحهُ من الأسماء العجميَّة؛ لأنَّها تلتبس بعجميتها، وبعض الاستشهاداتِ الشعرية في وصف المدن»[٨]، ويدلُّ هذا الكلام على أنَّ ابن بطوطة لمْ يكُنْ يستطع أن يُوفِ معانيه للمقاصد التي قصدها، ولا أنْ يوضِّحَ المناحي التي اعتمدها ممَّا ترك لابن جزِّي الكلبي حُريَّة التصرُّف في إدخال إضافات على الرحلة وبعضهم قال: إنَّ ابن بطوطة كلَّفَ

---

[١] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص٢٧٤؛ ابن سودة المري: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص٢٢٩؛ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٨؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٦٠؛ حسن: الرحالة المسلمون، ص١١٧، ١١٨؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٧٩، ٣٨٠؛ حسين: أدب الرحلة، ص٣٥، ٣٦ .

[٢] ابن بطوطة: الرحلة،ج١، ص١٥٢.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٨ ؛ حسين: أدب الرحلة، ص٤٨.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٦٩.

[٥] السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص١١؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٨١؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٥٢، ١٧٧.

[٦] السملالي: الإعلام بمن حلَّ مُراكش وأغمات، ج٥، ص٥؛ ابن سودة المري: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص٢٢٩؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج١، ص٩٥٦؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٨٣.

[٧] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص٢٨٠.

[٨] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٥٢.

ابن جزِّي الكلبي بكتابتها، لأنَّه لا يُجيد العربية ولا يملكُ ملكةَ الكتابة الأدبيَّة خاصة إذا علمنا أنَّ ابن بطوطة رحلَ في سنٍّ مُبكِّر يُمكِّنَهُ أن يُكمِلَ تدوينه الديني في علوم الدين والشرع، وهذا تعليلٌ لما ذكَرهُ من زواجه المُتعدِّد في الأقطار التي كانَ فيها الطلاق أسهلُ عليه من الزواج، والدليل الآخر أنَّه لمْ يَرِدْ على لسانه أيِّ حُكمٍ شرعي أو نصٍ فقهي في المناسبات التي أوردها[1].

والواضحُ من الرحلة أنَّه يغلبُ عليها أسلوبِ البساطة الذي يميلُ إلى اللغة القصصيَّة واللهجة الشخصية، لما احتوتهُ من حكايات وغرائب[2]، بدليل تقطُّع الحكايات وعدم تسلسل الأحداث[3]، وتفتقرُ الرِّحلة إلى التناسب والتنسيق، ويميلُ أسلوبها إلى السجع المُتكلِّف وحشر الشعر دونَ ارتباطه بالموضوع[4]، وورد فيها فيها جملٌ كثيرة من كلام ابن جبير في وصف بلاد الشام والجزيرة العربية[5]، ومن أمثلة ذلك وصفُ ابن جبير عيونٌ تنبعُ من العراق، إذ قال: « وحولَ تلك العيون بُركة كبيرة سوداء يعلُوهَا شبه الطحلب الرقيق، فتقذفهُ إلى جوانبها، فيُرسِّبُ قاراً»، وقد ورد الكلام نفسه عند ابن بطوطة[6]، إضافةً إلى كلام من رحلة العبدري، ومثالها قول العبدري: « ورحلنا من بدرَ إلى الصحراءِ المعروفة بقاعِ البزواء، وهي بريَّةٌ يضلُّ بها الدَّليل، ويذهل عن خليله الخليل، سيرة ثلاث، وفي مُنتاها وادي رابع»، وقد ورد الكلام نفسه في رحلة ابن بطوطة[7]، وربَّما تقع مسؤوليةُ النقل عن ابن جبير، والعبدري على عاتق مُدوِّن الرحلة ابن جزِّي الكلبي[8] ذلك أنَّ ابن بطوطة لمْ يهتمَّ بالأقطار إلَّا قليلاً، فوصف المدن باعتبار من يقطنها من الناس الَّذين كانوا موضع اهتمامه؛ ولذلك تصدَّى ابن جزِّي الكلبي لذلك فيما عدَّهُ خدمةً فنقل عن ابن جبير والعبدري[9].

وبجانبٍ آخر احتوت الرحلة كثيراً من الطرائف والحكايات، وعجائب المخلوقات من حيوانات ونباتات، ويُلاحظ اعتماد ابن بطوطة على المُترجمين في معرفة أحوال البلاد التي زارها ولا شكَّ أنَّ الترجمةَ أدَّت إلى وجود كثير من الأخطاء فيها[10]، ومال أسلوب ابن جزِّي الكلبي في تدوين الرحلة إلى السجعِ والإطناب والحشو المُتكلِّف ممَّا جعله ثقيلاً واضح الصنعة، ومنهجه يسوغهُ بصنيعٍ من إنشائه الخاص

---

[1] حسين: أدب الرحلة، ص٣٧، ٣٨.

[2] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٨.

[3] حسين: أدب الرحلة، ص٤٨.

[4] مثالها ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص١٣، ١٦.

[5] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٦٠.

[6] ابن جبير: الرحلة، ص٢٠٩؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٨٠.

[7] العبدري: الرحلة، ص٣٤٨؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٦٥.

[8] أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٨٣ ؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٦٠.

[9] حسين: أدب الرحلة، ص٤٥.

[10] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٦١، ١٦٢.

والدليل على ذلك ما أضافهُ من شعرٍ عليها، ممَّا أدَّى إلى اختلاط أسلوب المُمْلِيْ للرحلة مع أسلوب كاتبها، ويشيرُ إلى ذلك بقوله قال ابن جزِّي: « وبعدَ أنْ ينهي ما يُريد إضافته مع الإشارة إلى صاحبه يورد بين قوسين كلمة (ورجع)، إيذاناً بالعودة إلى تسلسُل الإملاء»[١]، ممَّا جعل أسلوب الرِّحلة يتميَّز بالبساطة والانسيابية في السردِ مع خلو عباراتها من السجع والجناس والبديع والبيان باستثناء المقدمة ليقل كثيراً بعد ذلك.

وتتوالى فصول الرحلة في ارتباطٍ وتتابع كامل دونَ الفصل بينها مكانياً أو زمانياً كالبناء الروائي مُعتمداً على ذكر حدث أو موقف أو وصف ومشاهدة، ثمَّ ذكر حكاية ترتبط بهذا الحادث أو ذلك المكان[٢]، وعرضَ ابن بطوطة مُحتويات رحلتهِ بأسلوبٍ فُكاهي ظريف وقصصي مُحافِظاً على قواعد اللغة العربية، وتحرَّى الأمانة والصدق حتَّى لو كان الأمرُ يتعلق به شخصياً، ولهذا السبب لُقِّبَ بالرحَّالة الأمين[٣] ومن هنا تُفسَّر التناقضات في إنشاء الرحلة والتي لا تُخفى على الدارس، والناقد لها، فيكون الأسلوب تارةً مألوفاً ومُبسَّطاً ولكنَّه جديَّاً، عندما يعمل الكاتب نقلاً على لسان ابن بطوطة نفسه، وتارةً أُخرى يُصبح الأسلوب مُنمَّقاً فارغاً عندما يُحاول ابن جزِّي ربط المعلومات المُتفرِّقة، و تزويق الأوصاف الجافَّة التي سمعَها من ابن بطوطة[٤].

ولعلَّ سردَ ابن بطوطة لكثير من الحكايات والكرامات وبعض تعبيراتِهِ الدينيَّة ودعواته كقوله: « جزاهُ الله أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين، واستخرت الله ﷻ» إضافةً إلى اهتمامهِ برجال الدِّين في رحلته، ومدح أهل البلاد بأنَّهم أهل صلاح وديانة مُحافظون على الصلاة، وحفظ القرآن، واستقباحهُ تعرِّي النساء في بلاد السودان تدلُّ على أثر الإسلام في الرحلة، وإنَّ ذكرهُ لملوك وسلاطين البلدان التي زارها، يوضِّح ملامحاً بسيطة للمجتمع السياسي لديهم، فهو لم يوجِّه كلمة نقد لهم على عكس ابن جبير الذي كانت له طباع حادَّة في وصف عيذاب، و في مكة إزاءَ تصرُّف أميرها، وهذا يدلُّ على أسلوب البساطة والسذاجة في وصف الأحداث عند ابن بطوطة، ومن جانب آخر يُحاول شرحَ بعض الأسماءِ الأعجمية ، لكنْ يعود من جديد لذكر عنونات لا يُرتِّب سردها، فجاءت هذه العنونات مُتماشية مع إملاء صاحبها، ومحاولته تصنيف هذا الفيض من المادة تنتهي عن كلِّ خبرٍ أو حكاية وهي تجزئةٌ من جهة، ومحاولة للتنسيق والضبط من جهة أخرى، وكلُّها تقع على عاتق ابن جزِّي الكلبي[٥].

---

[١] حسين: أدب الرحلة، ص٤٨، ٤٩.

[٢] قنديل: أدب الرحلة، ص٤٩٣، ٤٩٤.

[٣] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢١٠.

[٤] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٦٠.

[٥] حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص٤٧، ٥٠.

وعلى العموم حرصَ ابن بطوطة على تأديةِ المعاني، فابتعدَ عن الاعتناء بزخرفة الأسلوب وتنميقه على حساب الفكرة، إلَّا أنَّه لجأ أحياناً إلى تحسين الكلام باختيار عباراته، وتزيّينها ببعضِ السجعاتِ التي تأتيه عفوَ الخاطر دونَ قصد، لكنَّها لم تكنْ تُسيءَ إلى أسلوبه كقوله في وصف: « شيراز مدينةٌ أصيلة البناء، فسيحةُ الأرجاء، شهيرة الذكر»[١]، وممَّا يُلفت النظر أنَّ ابن بطوطة يشفع بعض الألفاظِ الغريبة، و الأعجميَّة، والمحلِّية بشروحها أو بِمَا يُوضِّح المُراد منها، مثل قوله: « وسمعتَهُم يقولونَ: سراكنو، ومعناها المسلمون»[٢]، وقد يُوضِّح بعض الجُملِ الفارسية، مثل قوله: « ويقولونَ: بِلسانَهُم خط خرد، ومعناه بالعربي: إذنْ السفر»[٣].

د-ب- موارد الرحلة:

كما ذُكِرَ سابقاً أنَّ ابن بطوطة أملَى الرِّحلة من ذاكرته على ابن جزِّي الكلبي، وبذلك إنَّ مُشاهداتَه الشخصية تُعدُّ أُولى مصادره، إضافةً إلى النقوش الكتابية المكتوبة على القُطع الحَجَرِيَّة مثل التي قرأها على قبر فاطمة بنت الحسين عليها السلام[٤]، و بجانبٍ آخر يبدو أنَّ ابن بطوطة استعانَ بمؤلفات من سبقه، و يدلُّ على ذلك قول ابن جزِّي الكلبي: « سلكَ في إسناد صحاحها أقوم المسالك، وخرج عن عهدهِ سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك، وقيَّد المُشكَّل من أسماء المواضع والرجال بالشكل و النقط، ليكونَ أنفعُ في التصحيح والضبط»[٥].

ولعلَّ أبرزَ المصادرُ التي نقل منها رحلة ابن جُبير، التي استعان بها عند حديثه عن بلاد الشام وبغداد، ويدلُّ على ذلك قوله في وصف دمشق: « وكلُّ وصف وإنْ طالَ فهو قاصرٌ على محاسنها، ولا أبدعُ ممَّا قاله: أبو الحسين بن جُبير رحمهُ الله تعالى في ذكرها»[٦]، ورُغمَ عدم تصريحه بنقله عن رحلة العبدري، لكنَّ ذلك تجلَّى واضحاً بكثير من الأماكن وربَّما يقعُ ذلك على عاتق ابن جزي الكلبي كما ذُكر، ومثالها نقله وصف صحراء بزواء، ووصف بغداد وحلب، وغيرها[٧].

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٣٤.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٧٢.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج٣، ص٤٠٦.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٣.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٥٢.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٧.

[٧] العبدري: الرحلة، ص٣٤٨؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٦٥.

إضافةً إلى استعانتهِ بكتب أخرى، فعند حديثه عن فضائل الجامع الأموي قال: « وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري»[١]، وقوله:« قال الوادي آشي[٢]، نزيل تونس»[٣]، مما يدلُّ اعتماده على برنامجه، كمَا وردت الإشارة إلى استعانته بكتاب" المُفهم في شرح صحيح مُسلم"[٤] للقرطبي[٥].

هـ-ب- أهمِّية الرحلة:

تكمُن أهمِّية الرحلة من خلال اهتمام المستشرقين فيها، إذ أشار إليه المستشرق سيتزن(seetzen) سنة(١٨٠٨م)، والذي قال مُتسائلاً: « أيُّ سائحٌ أوربيّ يُمكنه أن يفتخر بأنَّه قضى من الزمن ما قضاهُ ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة وتحمَّلَ من مشاقِّ الأسفار ما تحمَّلهُ بصبر وثبات وشجاعة»[٦]، وقدَّم روزغاتن(Rosegarten) تحليلاً للرحلة من خلال مقتطفات مترجمة تحت عنوان" الرحلة الفارسية، والإفريقية، والملديفية، وأعدَّ المستشرق الفرنسي رينان(Renae) دراسة جيدة عن حياة ابن بطوطة اعتمد عليها معظم الدارسين فيما بعد[٧].

وترجمَ القس الإنجليزي صموئيل لي بجامعة كمبردج سنة(١٨٢٩م) قسماً من الرحلة إلى اللغة الانكليزية[٨]، وقد طبعت الرِّحلة في باريس مع ترجمة فرنسية على يد المُستَشرِقَيْن ديفريمري وسانغينيتي

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣١٠، وسفيان الثوري هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أحدُ علماء الحديث، له من الكتب الجامع الكبير، والجامع الصغير، توفي في البصرة سنة(١٦١هـ/ ٧٧٨ م). ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٦، ص٣٧١؛ البغدادي(أحمد بن علي): تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م، ج٩، ص١٥١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٨٦؛ ابن حجر العسقلاني(أحمد بن علي): تهذيب التهذيب، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م، ج٤، ص١١١.

[٢] محمد بن جابر بن قاسم الوادي آشي نسبة لوادي آش في الأندلس، كان معاصرٌ لابن بطوطة وشاعراً رحَّالة، توفي بالطاعون في تونس سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م). ابن الجزري: غاية النهاية، ج٢، ص٩٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤١٣، ٤١٤.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٩.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٢٠.

[٥] أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر أبو العباس الأنصاري القرطبي المالكي، ولد بقرطبة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، قَدِمَ مصر، وسكن الإسكندرية، اختصر صحيحي البخاري ومسلم، وشرح مَسلم وسمّاه " المفهم"، توفي في الإسكندرية سنة(٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م). ابن فرحون: الديباج المذهب، ج١، ص٢٤٠-٢٤٢ (وفيه وفاته سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)؛ المراكشي(محمد بن أحمد): الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ج١/ق١،ص٣٤٨؛ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج١، ص٢٧٨.

[٦] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٦٣.

[٧] محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص١٦٣، ١٦٤.

[8] Lee. S; The Travels of Ibn Batuta, Translated from the Arabic Manuscipt Copes by; Franklin. B; New York, p56.

بين(١٨٧٩م و ١٨٩٣م)، ونشر الأستاذ جب (Gibb) مُلَخَّصاً بالإنكليزية سنة(١٩٢٩م) قدَّم له بتصدير تحدَّثَ فيه عن الرحَّالة وعصره، كما تُرجمت منها فصول إلى الألمانية[١]، ويشهد على أهمِّية الرِّحلة المُستشرق ريجيس بلاشير، إذ قال: « إنَّ لرحلة ابن بطوطة أهمِّية فائقة في التعرُّف على العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي، وهي تحتوي على معلوماتٍ تاريخيَّة دقيقة، ومفيدة لا سيَّما تلك التي تتعلق بعادات وتقاليد الشعوب»، وقال الباحث الياباني ياموتو: « إنَّ وصف ابن بطوطة بلاد الصين لا يخلو من فقراتٍ تعتمدُ على المُلاحظة المباشرة عن الصين، فضلاً عن أنَّه من المُستحيل القول: بأنَّ رواياته التي وجِدت في المصادر الصينية، وفي أسفار ماركو باولو، قد كانت من مُخيّلتهُ»[٢].

وتعُدُّ الرِّحلة من المصادر المُهمَّة للباحثين في ميدان الرحلات الجُغرافية، لاحتوائها على معلوماتٍ في الجغرافية الوصفية للبلاد، والجبال، والمسالك، والمناخ[٣]، ومن جهة أخرى تُعدُّ سِجلَّاً دقيقاً وشاملاً لحياة العالم المعمور، فهي مصدرٌ للباحثين في علم الاقتصاد، وبمنزلة الدليل التجاري للمُهتمِّين بالدراسات الاقتصادية؛ لِمَا احتوت عليه من معلومات اقتصادية عن المحصولات الزراعية، والصناعية في البلدان التي زارها، ومثالها ذكره لزراعات وصناعات بلاد الشام[٤]، وبجانبٍ آخر تبحث طبيعة اقتصاد البلدان وعملاتها المتداولة[٥]، ومثالها إشاراته أنَّ أهلَ الصين لا يتعاملون بدينار أو بدرهم، إنَّما بقطع تُسمَّى الكاغد، وكلُّ قطعة منها بقدر الكف[٦]، ومثلُهَا مُقارنته لأسعار الفواكه بين بلاد الشام والمغرب[٧].

كما تُعدُّ مصدراً لكلِّ المُهتمِّين بعلم الاجتماع ودراسة حياة الشعوب[٨] لِمَا تضمَّنتهُ من ذِكر عادات، وتقاليد سكان البلاد التي ورد ذكرها في الرحلة[٩]، ومثالها ذكره ظاهرة كثرة الأوقاف في دمشق التي شملت مختلف الشؤون الاجتماعية[١٠] وذكره عادة إحراق الموتى في الصين والهند[١١].

---

[١] ابن سودة المري: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص٢٢٩؛ حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٦٤؛ حسن: الرحالة المسلمون، ص١٠٢؛ أحمد: الرحلة والرحالة، ص٣٨٤.

[٢] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥٦٢، ٥٦٤.

[٣] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٩، ٢١٠.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٢، وغيرها كثير.

[٥] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٨؛ حسين: أدب الرحلة، ص٤١.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص١٢٩.

[٧] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص١٩٥.

[٨] ضيف: الرحلات، ص٩٨.

[٩] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢٠٨؛ حسين: أدب الرحلة، ص٤١.

[١٠] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٣٠.

[١١] ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص٤٦٩.

ومن الناحية التاريخيَّة تُقدِّم الرِّحلة معلومات عن أحوال أواسط إفريقية، وأمم الشرق الأقصى بلاد المغول والهند، وأحوال آسيا الوسطى بروسيا الجنوبية الإسلامية[١]، وبذلك تُعدُّ أحَّد مصادر التاريخ الدولي لِمَا احتوت عليه من حديثٍ عن أقطاب الدول الكبرى التي تُهيمن على العالم آنذاك، وهي المغرب، ومصر، والشام، والعراق، و الترك، وتركستان، وما وراء النهر، والهند، والصين، كما أنَّها مصدرٌ مهمَّاً لتاريخ الأناضول، والدولة الأرتقية في ماردين شمال العراق وجنوب الأناضول، كما تُعدُّ مصدراً للكتابات الإيطالية عن تاريخ جنوة، وقيام السلطان أبي العنان بافتداء طرابلس من الجنوبيين بمبالغ سخية[٢] والتي أكدتها تهاني غرناطة لفاس[٣].

وبجانبٍ مُهمٍّ تُعدُّ مورداً لتاريخ العلاقات بين المغرب والمماليك في المشرق، و الصلات فيما بينهم، ومثالها ما ذكرهُ صاحبها أنَّ المماليك بعثوا إلى سُلطان المغرب هدايا من الأكداش استولوا عليها بعد انتصارهم على المغول في معركة الصفار سنة(٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م)، وماثلهم سلطان المغرب بإرساله أجراس ضخمة انتزعها من كنائس الروم[٤].

وبجانبها الديني هي مصدرٌ للعقيدة الإسلامية، لِمَا وردَ فيها من ذكر المساجد و المزارات[٥]، ومصدرٌ للديانات الأخرى مثل المسيحية إذ وردَ فيها معلومات مُهمَّة عن أماكن العبادة لديهم[٦]، وكذلك اليهودية لا لا سيَّما أنَّها تُحدِثُنا عن أماكن وجود اليهود[٧]؛ وتكمُن قيمتها بما احتوته من حكايات نادرة، تدفع القارئ إلى قراءتها بكلِّ إمعان خاصة ما ذكره عن عجائب المخلوقات، وبذلك أثْرَتْ الرِّحلة علمي الجُغرافية والتاريخ[٨].

ج- بلاد الشام من خلال رحلة ابن بطوطة دراسة مُقارنة نقدية:

زار ابن بطوطة بلاد الشام ثلاث مرات كانت **الأوَّلى** عندما غادر طنجة مسقط رأسه سنة(٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، و**الثانية** بعد غيابٍ استمرَّ ست سنوات من رحلته الأوَّلى وذلك سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، وزيارته الثانية لبلاد الشام كانت مُجرَّد مرور لمتابعة رحلته إلى آسيا الصغرى، وبعد غياب خمسة عشر سنة عاد ابن بطوطة ليزور الشام للمرة **الثالثة** سنة(٧٤٨هـ- ٧٤٩هـ/ ١٣٤٧- ١٣٤٨م).

---

[١] عفيفي: تطور الفكر العلمي، ص٢٩٦.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٣٥، ١٣٧.

[٣] ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، ص ٣٢١ .

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص١٣٥.

[٥] مثالها ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣١٩، ٣٢٠، ج٢، ص١٨٩، ٢٥١.

[٦] مثالها ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٩، ٢٩٣، ج٢، ص٢٥٣.

[٧] مثاله ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٢٥، ٣٢٦، ٣٧٥، ج٢، ص٦٩، ١٦٢، ١٨٧.

[٨] الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص٢١٠.

وقبل البدء بالحديث عن وصف ابن بطوطة لبلاد الشام، لا بدَّ من ذكر أمر مُهمٌّ هو أنَّ أغلبَ الرحَّالةُ الَّذين زاروا بلاد الشام قد اقتصرت رحلاتهم على فلسطين فقط، كمَا أنَّ ابن جبير الذي زارها قبل ابن بطوطة لم يتطرَّق لأمور قد ذكرها ابن بطوطة عن أحوال بلاد الشام السياسية والاقتصادية وغيرها؛ لذلك سيُعتَمَد في مقارنة الأوصاف على كتب الرحَّالة، و ما تُوفِّرهُ الكتب التاريخيَّة والجُغرافيَّة المُعاصرة من معلوماتٍ:

أ-ج- الناحية الجغرافية لبلاد الشام في رحلة ابن بطوطة:

قدَّمَ ابن بطوطة وصفاً جميلاً في رحلتهِ لبلاد الشام، وتناولَ بالذكرِ عدداً من مُدنها وقلاعها وحُصونها، ومساجدها ومزاراتها، وحمَّاماتها، وفيما يأتي نماذجٌ لأهمِّ ما وردَ ذكرهُ في الرحلة:

1ً- وصف المدن:

- الرَّملَة:

سمَّاها ابن بطوطة بفلسطين، وذكر أنَّها مدينةٌ كبيرة، كثيرةُ الخيرات، حسنةُ الأسواق، وبها الجامعُ الأبيض، ويقالُ: إنَّ في قبلته ثلاثمئة من الأنبياء مدفونين عليهم السلام، وبالمقارنة ذكر البلوي أنَّ المدينةَ غضَّةُ المنظر، وأحسنُ المُدن في أزقَّتها وأسواقها، وكُثرة فواكهها وأرزاقها، وهي كثيرةُ المساجد، ساميةُ البناء[١].

-عَجلُون:

وصفها ابن بطوطة بالمدينة الحَسنة، ذاتُ الأسواقِ الكثيرة، والقلعة الخطيرة ويشقَّها نهرٌ ماؤهُ عذبٌ، وبالمقارنة ذكر ابن سعيد المغربي أنَّ المدينةَ حصنٌ وربضٌ من الإقليم الثالث بالأردن، في جبل الغور قُبالة بيسان، وفيها بساتينٌ ومياهٌ جارية[٢].

-حِمصَ:

وصفها ابن بطوطة بأنَّها مدينةٌ مليحة، وأرجاؤها مؤنقة، وأشجارها مورقة، وأنهارها متدفقة، وأسواقها فسيحة، وجامعها مُتميّز بالحُسن الجامع وفي وسطه بركة، وبخارج المدينة قبرُ خالد بن الوليد سيف الله المسلول، وبالمقارنة قدَّم ابن جُبير وصفاً مُخالفاً لما قدَّمه ابن بطوطه فذكرَ أنَّ المدينةَ فسيحةُ الساحة ومُستطيلة المساحة، مُوضوعة في بسيط من الأرض لا يخترقهُ النَّسيم بِمسرَاه، ولا ماءَ فيها ولا شَجَر ولا ظلٍّ ولا ثَمَر، وتشتكي ظمأها، وتُستقى على بُعدِ ماءها، فيُجلب لها من نهرها العاصي، وأهَلُها موصوفون بالنَّجدة والتمرُّس، وفي قبليها قلعة حصينة، وبشرقيها جبَّانة[٣].

- تِيزِين:

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤؛ البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص ١٥- ١٧.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٦؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٢.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦، ٢٦٧؛ ابن جبير: الرحلة، ص٢٣١، ٢٣٢.

ذكرَ ابن بطوطة أنَّها تقع على طريق قنسرين، وقد أخطأ بذلك، ووصفها بأنَّها مدينة التُركمان، وأسواقها حَسنة، ومسجدُها في غايةِ الاتقان[١].

- جَبلَة:

حدَّدَها ابن بطوطة على بُعدِ ميلٍ من البحر، وذكر أنَّها ذاتُ أنهارٍ وأشجارٍ، وبالمُقارنة ذكرَ أبو الفداء أنَّها بلدة من ساحل بلاد الشام، ولها أعمالٌ واسعة، وبها قبر الولي الصالح إبراهيم بن أدهم[٢].

- النيرب:

أشارَ ابن بطوطة أنَّها من قُرى ربوة دمشق، وهي ذاتُ بساتينٍ كثيرة وظلال كثيفة، وأشجارٌ مُتدانية، ولها حمَّام مليح، وجامعٌ مفروش صَحنُه بفصوصٍ من الرُّخام، وفيها سقايةُ ماء رائقة الحُسن ومُطهَّرة، وفيها بيوت عدَّة يجري فيها الماء[٣].

2ً- وصف القلاع والحصون والثغور:

- قلعة حلب:

ذكرَ ابن بطوطة أنَّها تُسمَّى قلعة الشهباء، وبداخلها جُبَّان ينبعُ منهما الماء، ويطيفُ بها سوران، وعليها خندق عظيم ينبعُ منه الماء، وسورها مُتداني الأبراج، انتظمت بهِ العلالي العجيبة، المُفتَّحة الطيقان، وكلُّ بُرجٍ منها مسكون، و الطعام لا يتغيَّر بهذه القلعة، وبها مشهدٌ يقصدهُ بعض الناس، يُقال: إنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام كان يتعبَّدُ فيه[٤].

- حُصن الأكراد:

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٨٣؛ وبالمقارنة ذكر ابن خرداذبة أنَّ تيزين كورة من كور العواصم تتبع أنطاكية. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٧٥.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٤، ٢٥٥.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج، ص٣٣٠، و بالمقارنة وصفها ابن جبير بأنَّها كثيرة البساتين، لا يظهر منها إلَّا ما سما بناؤه، ولها جامعٌ لم يُرَ أحسن منه، ولها عشرة أبواب. ابن جبير: الرحلة، ص٢٤٩.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٤، وبالمقارنة وصفها ابن جبير بأنَّها قلعة حصينة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع، حصينة لا تُرام، وهي على مائدة من الأرض مُستديرة منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، عتيقة في الأزل حديثة وإنْ لمْ تزل طاولت الأيام والأعوام، وشيَّعت الخواص والعوام، ولها خندق عظيم ينبع منه الماء، ولها سور كبير من الحجارة البيضاء كلَّه أبراجٍ منتظمةٍ، وفيها العلالي المنيفة والقصاب المشرفة، وداخلها المساكن السلطانية، والمنازل الرفيعة الملوكية. ابن جبير: الرحلة، ص٢٢٥، ٢٢٦.

ذكر ابن بطوطة أنَّ الحصنَ بلدٌ صغير، كثير الأشجار والأنهار، يقعُ بأعلى تلٍ، وبهِ زاوية تُعرف بزاوية الإبراهيمي نسبةً إلى أحَّدِ كُبراء الأمراء وبالمُقارنة وصفهُ شيخ الربوة الدمشقي بالحُصن المنيع الفارق، وأنَّه مُشرفٌ بين الشام والسواحل، وينظرُ الناظرُ منه إلى الشام، وقارة، والنبك، وبعلبك(١).

- حُصن بِغرَاس:

ذكرَ ابن بطوطة أنَّه حصنٌ منيع لا يُرام، وعليه البساتين والمزارع، و منه يُدخَلُ إلى بلاد سيس(٢).

- حُصن المَرقِب:

أشارَ ابن بطوطة بأنَّه من الحُصون العظيمة، ويُماثل حُصن الكرك، ومبناهُ على جبلٍ شامخٍ، وخارجهُ ربضٌ ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته، وافتتحه من أيدي الروم السلطان المنصور قلاوون وبالمقارنة ذكرَ القزويني أنَّه قلعة حصينة مُشرفة على سواحلِ بلاد الشام(٣).

- حُصن الكرك:

وصفه ابن بطوطة بأنَّه من أعجب الحُصون، وأمنعها، وأشهرها ويُسمَّى بحُصن الغُراب، والوادي يطيفُ به من جميع جهاته، وله بابٌ واحد، قد نُحت المدخل إليه في الحجرِ الصلدِ، ومدخلُ دِهلِيزُه كذلك، وبه يتحصَّنُ الملوك، وإليه يلجؤون في النوائب وبالمقارنة وصفهُ شيخ الربوة بأنه بالحُصن منيع على قُبَّة جبلٍ خندقهُ أودية بعيدة السفل، وذكر أبو الفداء أنَّ الحُصن عالي المكان، وأحَّد المعاقل القوية في الشام والتي لا تُرام، وله وادٍ فيه بساتين كثيرة يُزرع فيها المشمش والكمثرى والرُّمان(٤).

3ً- وصف المساجد:

- مسجد غزَّة:

ذكرَ ابن بطوطة بأنَّه يُعرف بمسجدِ الأمير المُعظَّم الجاولي، و تُقام به الجمعة، ووصَفهُ بالمسجد الجامع الحسن، وهو أنيقُ البناء، مُحكم الصنعة، منبره من الرُّخام الأبيض(٥).

- مسجد الخليل:

وصفهُ ابن بطوطة بالمسجد الأنيق الصنعة المُحكم العمل، بديعُ الحُسن سامي الارتفاع، مبنِيٌّ من الصخر المنحوت، وفي أحَّد أركانه صخرة أحَّد أقطارها سبعة وثلاثون شبراً، وفي داخله الغار المُكرَّم

---

١ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٨، ووصفه ابن جبير بأنَّه معقل العدو(الصليبيين) فمنهُ تتراءى نارهُ، ويحرق إذا يطير شراره، ويتعهد إذا شاء كلُّ يومٍ مغاره. ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٢.

٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٨٤؛ وبغراس: مدينة في لحفِ جبل اللُّكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب. الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٤٦٧.

٣ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٤؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٦١.

٤ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٤٤؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٦، ٢٤٧.

٥ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٣٩، وبالمقارنة ذكر الرحالة العبدري أنَّه جامعٌ مليح حسن. العبدري: الرحلة، ص٤٧٧.

المُقدَّس، وفيه قبر إبراهيم، و إسحاق، ويعقوب عليهم السلام، ويُقابلها قبورٌ ثلاث لأزواجهم، وعن يمين المنبر بلصقِ جدار القبلة موضع يُهبط منه على درجٍ رُخام يُفضي إلى ساحةٍ مفروشة بالرُّخام فيها صوَّر القبور الثلاثة، وهو الآن مسدود، وبداخلِ المسجد قبر يوسف عليه السلام، وبشرقي الحرم تُربة لوط[1].

- مسجد اليَقين:

ذكرَ ابن بطوطة أنَّه يقع في غزة بالقُرب من تُربة لوط عليه السلام، وهو على تلٍ مُرتفع، وله نور وإشراق ليس لسواه، ولا يجاوره إلَّا دار واحدة يسكنها قيّم المسجد، وبمقربة من باب المسجد موضعٌ مُنخفض في جحرِ صلد قد هُيِّئ فيه صورة محراب لا يتَّسع إلَّا مُصلِّياً واحداً، ويُقال: إنَّ إبراهيم عليه السلام سجدَ في ذلك الموضع شكراً لله عند هلاكِ قومِ لوطٍ[2].

- الجامع الأبيض:

ذكرَ ابن بطوطة أنَّه يقع في الرَّملة، ويُقالُ: إنَّ فيه قبورٌ لثلاثمائة من الأنبياء عليهم السلام[3].

- المسجد الجامع بنابلس:

ذكرَ ابن بطوطة أنَّه في نهايةٍ من الإتقان والحُسن، وفي وسطه بركة ماء[4].

- مسجد الأنبياء:

حدَّدهُ ابن بطوطة في طبرية، وذكر أنَّ فيه قبر النبي شُعيب عليه السلام، وبَنَتهُ زوج موسى الكليم عليه السلام، وفيه قبر سُليمان، ويهودا، و روبيل صلوات الله عليهم[5].

- جامع حمص:

اقتصرَ ابن بطوطة بوصفهِ على القول: « مُتميّزٌ في الحُسن الجامع، و في وسطه بركة ماء»[6].

---

[1] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٣٩، ٢٤٢، وبالمقارنة قدَّم كُلَّاً من الرحالتين البلوي، والعياشي وصفاً جميلاً لمسجد الخليل، تمَّ ذكره فيما سبق. البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٤١؛ العياشي: الرحلة، ج٢، ص٤٥٧.

[2] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٣، ولعلَّ الرحَّالة العبدري قد قدَّم وصفاً جميلاً للمسجد، تمَّ تناولهُ فيما سبق، للمزيد: العبدري: الرحلة، ص٤٦٦.

[3] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤، وللمزيد عن وصف الجامع: البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٦؛ العُليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٢٨، ١٢٩.

[4] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٦؛ وبالمُقارنة ذكرَ الهروي أنَّه يقع ظاهر المدينة، وقالوا: إنَّ آدم عليه السلام سجدَ في ذلك الموضع. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٠.

[5] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٠، وعلَّق الهروي قائلاً: « إنَّ المسجدَ يقع شرقي بحيرة طبرية، وفيه قبور الأنبياء المذكورة أعلاه». الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢٦.

[6] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦، وأضافَ ابن جبير أنَّ قبرَ خالد بن الوليد سيف الله المسلول، وقبر عُبد الله بن عُمر رضي الله عنهما، يقعان في هذا المسجد. ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٢.

- جامع حلب:

أشارَ ابن بطوطة بأنَّه من أجمل المساجد، وفي صحنهِ بُركة ماء، ويُطيف به بلاطٌ عظيم الاتساع، ومنبرهُ بديع العمل، مُرصَّع بالعاج والأبنوس، و بالمقارنة وصفه ابن جبير بأنَّه من أحسن الجوامع، وأجملها، ويُطيف بصحنه بلاط مُتَّسع مُفتَّح كلَّه أبوابٍ تُفضي إلى الصحن، وعددها يُنيف على الخمسين باباً، وفي صحنه بئران، والبلاط القبلي لا مقصورة فيه، فجاءَ ظاهر الاتساع رائق الانشراح، ومنبرهُ غريبُ الصنعة، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب، وقد قوِّسَ أعلاه، وهو مُرصَّعٌ، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب[١].

أمَّا المسجدَ الأقصى، وقبِّة الصخرة[٢]، ومسجد عُمر ﷺ[٣] والمسجد الأموي[٤] فهي غنيةٌ عن التعريف، إذ إذ تمَّ ذكرها في أكثر من موضعٍ سابق، وذُكِرَ وصفُ ابن بطوطة لها، فلا يُرى داعي للتكرار والإطالة.

4ً- وصف المزارات والمشاهد:

تناولَ ابن بطوطة بالذكرِ عدداً من مزاراتِ ومشاهد بلاد الشام، ولعلَّ من أبرزها:

- تُربة لوط عليه السلام:

ذكرَ ابن بطوطة أنَّها تقع شرقي حرم الخليل، على تلٍ مُرتفع يُشرف منه على غورِ الشام، وعلى قبرهِ أبنية حسنة، وهو في بيتٍ حسن البناء مُبيض لا ستورَ عليه[٥].

- وادي جهنَّم:

ذكر ابن بطوطة أنَّه يقع شرقي القدس، ويُقال: إنَّه مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء[٦].

- مشهد الحُسين عليه السلام:

ذكرَ ابن بطوطة أنَّه يقع في عسقلان، وهو مشهدٌ عظيم سامي العلو، وفيه جبٌّ للماء، أمرَ ببنائه العبيدين[١].

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٦؛ ابن جبير: الرحلة، ص٢٢٧.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٦، ٢٤٧؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣١- ٣٣؛ العبدري: الرحلة، ص٤٧٠- ٤٧٢؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٤٩، ٥٣، ٥٤.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٢؛ العبدري: الرحلة، ص٤٧٦.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٠٦- ٣١٣؛ يُقارن مع الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢٣، ٢٤؛ ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٥- ٢٥٤.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص، وبالمقارنة حددَّها الهروي في منتصف الطريق بين القدس والخليل في قرية تُسمَّى كفر بريك. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٤.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٩، وبالمقارنة ذكرَ الهروي أنَّ بالوادي قبر مريم أمُّ عيسى عليه السلام، وكنيسة هي مشهدٌ لإبراهيم الخليل عليه السلام. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٣.

- مشهد الأقدام:

أشارَ ابن بطوطة أنَّه إحدى المشاهد الشهيرة بقبلي دمشق، وهو مشهدٌ عظيم البركة، له أوقاف كثيرة، والأقدام التي يُنسب إليها هي أقدامُ مصوَّرة في حجرٍ هُنالك، يُقال: إنَّها أثرُ قدم موسى ﷺ، وفي هذا المشهد بيتٌ صغير فيه حجرٍ مكتوب عليه: هاهنا قبرُ أخي موسى ﷺ[٢].

- جبل قاسيون:

أشارَ ابن بطوطة أنَّه إحدى المواضع المُقدَّسة في بلاد الشام، ومن مشاهده الغار الذي ولدَ فيه إبراهيم الخليل ﷺ، وهو غارٌ مُستطيل ضيّق عليه مسجد كبير، وله صومعة عالية، ومن مشاهده مغارة الدَّم بالغرب منه، وفوقها بالجبلِ دمُّ هابيل بن آدم ﷺ، ومنها كهف بأعلى الجبل يُنسب لآدم ﷺ، وعليه بناءٌ، وبأسفلهِ مغارة الجوع[٣].

- بيت لاهية:

أوردَ ابن بطوطة أنَّ موقعها شرقي دمشق، وفيها كنيسة يُقالُ: إن آزر والد سيدُنا إبراهيم كان ينحت فيها الأصنام، فيُكسِّرُها إبراهيم الخليل ﷺ، وأصبحت في زمن ابن بطوطة مسجد جامع بديع مُزيَّن بفصوصٍ الرُّخام المُلوَّنة المُنظَّمة بأعجب نظام وأزين التئام[٤].

5ً- وصف الحمامات:

استغربَ ابن بطوطة من كُثرة حمَّامات بلاد الشام، وأشار إليها دونَ ذكر أسمائِها وأسماءِ مُشيّدِيهَا باستثناء حمَّامات طرابلس التي قال عنها: « وبهذه المدينة حمَّامات حِسان منها حمام القاضي القُرمي[٥] وحمام

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٢، وقدَّم العبدري وصفاً جميلاً للمشهد وذكر أنَّه عبارة عن مسجدٍ كبير مليح مُرتفع، والمسقَّف منه ناحية القبلة. العبدري: الرحلة، ص٤٧٦.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٢٥، وبالمقارنة ذكرَ الهروي أنَّ آثار الأقدام التي في الصخر، هي أقدامٌ لعددٍ من الأنبياء عليهم السلام. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢١.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٢٧، ٣٢٨، وبالمقارنة ذكر الهروي أنَّ في جبل قاسيون مغارة الدَّم، وقيل: قتلَ قابيل هابيل، وبه مغارة آدم ﷺ سكنَ بها، وتُعرف بالكهف، وبه مغارة الجوع، قيلَ: ماتَ بها أربعون نبيَّاً، ولها حكاية. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢٠.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٣٠، بينما ذكرَ الهروي أنَّ الحجر الذي كان يُكسِّرهُ إبراهيم الخليل ﷺ، يقع في درب يُسمَّى درب الحجر. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢١.

[٥] الحسن بن رمضان بن الحسن، القاضي حُسام الدِّين أبو البركات القرمي، ولِّيَ قضاء صفد ثمَّ طرابلس، ثمَّ عُزِل عنه وتوجَّه للإقامة بدمشق وبقي فيها إلى أن توفي سنة(٧٤٦هـ/١٣٤٥م). ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١١٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص١٥.

أسندمر»[١]، و تطرَّق ابن بطوطة لذكر حمَّامات طبرية وأشار أنَّها عجيبة، ولها بَيتَان أحَّدهما للرجال، والثاني للنساء، وماؤها شديد الحرارة[٢]، وذكرَ أنَّ بحماةَ عددٌ من الحمَّامات الحسان[٣]، وبقُرى دمشق الحمَّامات الكثيرة، وفي قرية النيرب بأسفل الربوة حمَّام مليح[٤].

ب-ج- الحياة السياسية:

شَغلَ الحديثُ عن الحياة السياسية لبلاد الشام في رحلة ابن بطوطة حيّزاً لا بأسَ بهِ، فقد زارَ ابن بطوطة بلاد الشام زمن ملكها السلطان الناصر محمد بن قلاوون خلال فترة حكمه الثالثة التي امتدَّت من سنة(٧٠٩- ٧٤١هـ/ ١٣٠٩- ١٣٤٠م)، وممَّا ذكرهُ ابن بطوطة عن الملك الناصر محمد بن قلاوون أنَّه تحصَّنَ في الكرك، وذلك عند مرورِ ابن بطوطة فيهِ ذاهباً إلى الحجَّ إذ قال: « وبهذا الحصنُ يتحصَّن الملوك ولهُ لجأ الملك الناصر، لأنَّه ولِّي المُلك وهو صغيرٌ، ثمَّ أظهر الناصر أنَّه يُريد الحجَّ، فتوجَّه إلى الحجَّ فلمَّا وصل عقبة أيلة لجأ إلى الحصنِ، وأقامَ بهِ أعواماً إلى أنْ قصدهُ أُمراء الشام، واجتمعَتْ عليه المماليك»[٥].

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦، وذكر ابن فضل الله العمري أنَّ حماماتها حسان مُوصوفة. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٧١.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٠، ووصفها الهروي بأنَّها من عجائب الدُنيا، وهي عمارةٌ قديمة، يخرجُ منها الماء من اثني عشر موضعاً وكلُّ موضعٍ مخُصَّص للشفاء من مرض من الأمراض، والماءُ أشدُّ حرارة يكون، وأصفى ما يكون، وأعذب وأطيب رائحة، وهذا الموضع يقصدهُ أصحاب العاهات والزَّمنى والرياح، فيغتسلون فيه. الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢٨، وذكر شيخ البروة أنَّ ماءَ هذه المنابعُ مِلحِيٌّ كبريتي نافع من ترهُّل البدن. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢١١.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٧.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٣٠، واكتفى ابن جبير فيه بالقول: « وفي قرية النيرب حمَّام». ابن جبير: الرحلة، ص٢٤٩، ويُسمَّى هذا الحمام بحمام الزُمرُّد. ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٢٣١؛ ابن كنان(محمد بن عيسى): المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية، تح: محمد أحمد دهمان، مطبوعات مديرية الآثار القديمة، دمشق، ١٩٤٧م، ص٣٠، ٦٦؛ الإربلي(الحسن بن أحمد): مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها، تح: محمد أحمد دهمان، مكتب الدراسات الإسلامية، دمشق، ١٩٤٧م، ص٢٨.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٤٤؛ إذ تولَّى الملك الناصر محمد بن قلاوون الحُكم ثلاث مرَّات، الأولى كانت سنة(٦٩٣هـ/١٢٩٤م)، وذلك بعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل بن قلاوون، ثمَّ عُزِل الناصر بالمنصور حسام الدين لاجين وذلك سنة(٦٩٦هـ/١٢٩٧م)، فلجأ إلى حُصن الكرك، ولمَّا كانت سنة(٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م)، قُتل المنصور لاجين، وأُعيدَ الناصر محمد للحكم، وعُمره يومئذٍ خمس عشرة سنة، وهذه هي العودةُ الثانية للحكم والتي استمرَّ فيها حتَّى سنة(٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م)، أمَّا فترة حُكمه الثالثة فتمتدُّ من سنة (٧٠٩- ٧٤١هـ/ ١٣٠٨- ١٣٤٠م). المنصوري: التُحفة الملوكية، ص١٥٥؛ ابن أيبك الدواداري: الدُرُّ الفاخر، ج٩، ص٧؛ ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص٤٣٠؛ الذهبي:

ومن الأحداث السياسية التي ذُكِرَت في الرِّحلة إرسال الملك الناصر محمد[١] لفرقة الفداوية[٢] الموجودة في حصون الدعوة؛ من أجل قتل الأمير قراسنقر[٣]، قال ابن بطوطة: « فمررتُ بحصُنِ القدموس، ثمَّ العليقة، ثمَّ بحصن مصياف، والكهف، وهذه الحصون لطائفة يُقالُ لها: الإسماعيلية، ويُقالُ لهم: الفداوية ولا يدخلُ عليهم، وهم سهامُ الملك الناصر بهم يصيبُ من يَعدُو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها، ولمَّا هربَ قراسنقر إلى العراق بعثَ إليه الملك الناصر جُملةً منهم فقُتلوا ولمْ يقدروا عليه لأخذه بالحزم»[٤].

ويكادُ ينحصرُ حديثَ ابن بطوطة عن الأحوال السياسية في بلاد الشام على ذكر أشهر نوَّابها، ومنهم نوَّاب دمشق الَّذين ذكرهم في رحلتهِ الأوَّلى سنة(٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، إذ ذكرَ نائبها أثناء حديثه عن القدس، فقال: « ولمْ يكُن بهذه المدينة نهر وجَلبَ لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكز أمير دمشق، وكان من خيار الأُمراء والصالحين»[٥].

وعندما زارَ ابن بطوطة بلاد الشام في المرَّة الثانية أوردَ ذكر نائبها أرغون شاه، وقَتلُهُ لخاطفي الخُبز في دمشق، وذَكَرَهُ عندما حلَّ الطاعون بالشام سنة(٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، إذ قال فيه: « ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه»[٦].

تاريخ الإسلام، ج٥٢، ص٦٣؛ المقريزي(أحمد بن علي): الذهب المسبوك في ذكر من حجَّ من الخلفاء والملوك، تح: جمال الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٢٧.

[١] كان ذلك خلال سلطنته الثالثة وذلك سنة(٧٠٩هـ/١٣٠٨م). أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٧١، ٧٢؛ المقريزي: الذهب المسبوك، ص١٢٩، ١٣٠.

[٢] سمُّوا بالفداوية، لأنَّهم يُفادون بالمال على من يقتلونه، ويُعرفون بالباطنية، لأنَّهم يبطنون مذهبهم ويخفونه، ويُعرفون أحياناً بالملاحدة، وهم يُسمُّون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص١٢٠، ج٤، ص١٤٦.

[٣] شمس الدِّين قراسنقر بن عبد الله المنصوري، أحد الأمراء الَّذين شاركوا بقتل الأشرف خليل بن قلاوون، أرسلَ إليه الملك الناصر فرقة الفداوية لقتله، لكنَّه فرَّ إلى العراق، وبقي فيها إلى أنْ تُوفي سنة(٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م). ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٤١٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٤٠؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٤٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٧٣، ٢٧٤.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٨٦– ٢٨٨؛ يُقَارن مع ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٤٠؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١٤؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٤٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٢٦.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٦، وتنكز هو سيف الدِّين تنكز بن عبد الله الحُسامي، الناصري نائب الشام، تولَّاها سنة(٧١٢هـ/١٣١٢م)، وبقي فيها إلى أنْ قبضَ عليه الملك الناصر، ونقله إلى ثغر الإسكندرية سنة(٧٤١هـ/١٣٤٠م) إذ توفي فيها بالسنة نفسها. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٤٢٠– ٤٣٣؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٢٥١– ٢٥٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٥٢٠.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٢٦، ج٤، ص١٧٨، سيف الدين أرغون شاه الناصري، تولَّى نيابة صفد سنة(٧٤٧هـ/١٣٤٦م)، ثمَّ تولَّى نيابة دمشق، عَظِمَ قدرهُ، وكان يكتب إلى مصر بكلِّ ما يُريد، توفي بدمشق سنة(٧٥٠هـ/١٣٤٩م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٣٥١؛ الصفدي(خليل بن أيبك): أُمراء دمشق في الإسلام، تح:

وعندما زارَ ابن بطوطة حلب في المرَّة الأولى، أوردَ ذكرُ نائبها أرغون الدوادار، وقال فيه:« وبحلب ملك الأُمراء أرغون الدوادار أكبر أُمراء الملك الناصر، هو من الفقهاء، موصوف بالعدلِ لكنَّه بخيلٌ»[1].

كما أوردَ في زيارتهِ إلى بلاد الشام ذكراً لعدد من نوَّاب طرابلس، فقال: « وبهذه المدينة نحوَ أربعين من أُمراء الأتراك، وأميرها طينال الحاجب المعروف بملك الأُمراء ومسكنهُ بالدار المعروفة بدار السعادة، ومن عادتهِ أنْ يركبَ في كلِّ يوم إثنين وخميس، ويركبُ معه الأُمراء والعساكر، ويخرجُ إلى ظاهر المدينة، وإذا عادَ إليها ترجَّلَ الأُمراء، ونزلوا عن دوابهم، ومشوا بين يديهِ، حتَّى يدخلُ منزله، وينصرفون وتُضرَبُ الطبلخاناه[2] عندَ دارِ كلّ أمير منهم بعد صلاة المُغرب من كلِّ يومٍ، وتُوقد المشاعل»[3].

وأوردَ ابن بطوطة ذكراً لأمير طرابلس سيف الدين أسندمر الكرجي(ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، رُغمَ أنَّه لمْ يكُن مُعاصراً له، لكنَّه أورد اسمه عند حديثِهِ عن حمَّامهِ، فقال : « وكان أسندمر أمير هذه المدينة، ويُذكَر عنهُ أخبارٌ في الشدَّة على أهل الجنايات»[4].

وفيما يخصُّ الأوضاع السياسية لمُدن بلاد الشام فإنَّ ابن بطوطة لمْ يُقدِّم وصفاً شاملاً لبعض المدنِ التي قد تمَّ تحريرها، وتخريبها وهدمِها زمن سلاطين المماليك البحرية، مثل مدينة عكَّا بل اكتفى بالقول: وهي

صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص٢٧؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٥٠؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج، ص٣١٤؛ ابن طولون: إعلام الورى، ص٢٠.

[1] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٨٠، سيف الدين أرغون بن عبد الله الناصري، عملَ نائباً للسلطنة في عهد الملك الناصر محمد خلال(٧١٢- ٧٢٦هـ/ ١٣١٢- ١٣٢٦م)، ثمَّ أُرسِلَ إلى حلب وتولَّى نيابتها سنة(٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، وفي عهده أُوصِلَ نهر الساجور إلى مدينة حلب، وبقي في حلب نائباً حتَّى وفاته سنة(٧٣١هـ/١٣٣٠م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٣٥٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٨٨.

[2] معناها بيت الطبل، وتشتمل على الطُبول والأبواق وتوابعها من الآلات، ويتولَّى أمرها في السفر مهتار الطبلخاناه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٣؛ ابن شاهين: زبدة كشف المماليك، ص١٢٥؛ ابن كنان: حدائق الياسمين، ص١٨٢.

[3] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٥، سيف الدين طينال الحاجب، تولَّى نيابة طرابلس ثلاثَ مراتٍ، وفي آخر أمره نُقِلَ عنها ليتولَّى نيابة صفد سنة(٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م)، وذلك في عهد الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد، وتوفي بها في السنة نفسها. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٣٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٨٤.

[4] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦، سيف الدين أسندمر الكرجي، ولَّاه الملك الناصر محمد على طرابلس سنة(٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م)، مكافأة له على مساعدته بقتل الملك المنصور لاجين، وكانَ جباراً شُجاعاً سفَّاكاً للدماء، انتُزِعت منه طرابلس بعد ذلك، وعُيِّنَ نائباً على حماة وفي سنة(٧١١هـ/١٣١١م)، قبضَ عليه الملك الناصر وسجنهُ في حصن الكرك، وتوفي في السنة نفسها. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٧٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢٤٨؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص١٣٢.

خرابٌ، باستثناء مدينة طرابلس، أمَّا صيدا وصور، يكادُ ينحصرُ وصفَهُ لهما قبل تخريبهما، ويبدو أنَّه اقتبس الوصف من رحلة ابن جبير[١].

ج–ج– الحياة الاقتصادية:

1ً– الزراعة:

من المعروف أنَّ بلادَ الشام يمرُّ فيها عدد من الأنهار، ومنها نهر العاصي، و بردى، والفُرات، وقُويق، ونتيجةً لتوفُّر المياه، وخصوبة الأراضي تنوَّعَتْ المحاصيل الزراعية فيها، وقد أورد ابن بطوطة ما اشتهرت به بلاد الشام من الزراعات، إذ ذكر أنَّ مدينةَ سرمين تشتهرُ بزراعة الزيتون[٢]، وأنَّ مدينةَ نَابلُس أكثرُ بلاد الشام زيتوناً[٣]، وفي نابلس يُزرع البطِّيخ الأحمر المنسوب إليها[٤]، وتشتهرُ صيدا بزراعة الفواكه لا سيَّما التين، والكروم الذي يُحمل منها إلى دمشق[٥].

كما تشتهرُ بيروت بزراعة أشجار الفواكه[٦]، ويُزرع المُشمُش اللوزي الذي يمتاز بِلَوزَتِهِ الحمراء في حماة[٧]، ويُزرع التين والفستق في معرة النعمان[٨].

وقدَّم ابن بطوطة وصفاً لجمال الطبيعة والأشجار في بلاد الشام، ولعلَّ أهمَّ ما ذكره أنَّ مدينة طرابلس تحفُّها البساتين والأشجار[٩]، أمَّا نابلُسَ فوصفها بالمدينة الكثيرة الأشجار، والمطردة الأنهار[١٠]، وذكر أنَّ

---

١ عن وصف عكا، وصور، وصيدا، وطرابلس يُنظر: ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٥.

٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٢، وهي بلدةٌ ذات أشجارٍ كثيرة وزيتون. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٤، ٢٦٥.

٣ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤، وقدَّم المقدسي وصفاً لنابلُس، فقال: « نابلس في الجبال كثيرة الزيتون». المقدسي: أحسن التقاسم، ص١٧٤ .

٤ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٦، وبطيخُها من أحلى ثمار بقاع الأرض. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠، ٢٠١ .

٥ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٠، ووصفها الإدريسي بأنَّها مدينة كثيرة الفواكه. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٠.

٦ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٢، ولها غيضة من أشجار الصنوبر. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٣.

٧ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦، بينما ذكرَ ابن جبير أنَّ أكثرَ أشجارها من الأعناب. ابن جبير: الرحلة، ص٢٣١، وأشار ابن فضل الله العمري أنَّ بساتينَ الفواكه كثيرة فيها. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٦، ٣٦٧.

٨ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧١، وأشارَ شيخ الربوة إلى زراعة التين، والفستُق، واللوز، والمُشمُش، والزيتون، والرُّمان، والرُّمان، والتفَّاح في معرة النعمان. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٥، وذكرَ ابن جبير أنَّ في معرة النعمان يُزرع كافة أنواعِ الفواكه، لاسيَّما التين والفستق. ابن جبير: الرحلة، ص٢٢٩.

٩ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٥؛ وقال أبو الفداء: « وبها البساتينُ، والأشجار الكثيرة، وأغلبُها قصب السكر». أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٣.

١٠ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤، وتتميَّز بخصوبة أرضها، وكثرة أشجارها وخضرتها. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠، ٢٠١.

أنَّ حمصَ أشجارُها مُورقة، وأنهارُها مُتدفِّقة[١]، وأنَّ حماةَ تحفُّها البساتين والجنات[٢]، أمَّا حلبَ فخارجها أفيحٌ عريض به المزارع العظيمة، وشجرات الأعناب المُنتظمة، والبساتين على شاطئ نهرها المُسمَّى العاصي[٣]، وذكر أنَّ أنطاكية كثيرة الأشجار والمياه[٤].

ووصفَ صهيون بالمدينة الحسنة ذاتُ الأشجارِ المُورقة والأنهار المُطردة، أمَّا جبلةَ فهي ذاتُ أشجارٍ كثيفة على بُعد ميل من البحر[٥]، وتُحدق البساتين الشريفة، والجنَّات المُنيفة وتخترق الأنهار الجارية مدينة بعلبك[٦]، وأحدقت البساتينَ بمدينة دمشق احداق الهالة، وامتدَّتْ بشرقيها غوطتها الخضراء على امتداد البصر، وفي آخرِ جبل قاسيون الرَّبوة ذات البساتين البديعة، وهي رأسُ بساتين دمشق، وبها منابعُ المياه، وبأسفل الرَّبوة قرية النيرب ذاتُ البساتينِ الكثيرةِ، والظلال الكثيفة، والأشجار المُتدنية[٧].

2ً- الصناعة:

اعتمدت أغلب الصناعات في بلاد الشام على الحاصلات الزراعية، وقد تناولَ ابن بطوطة بالذكر عدداً من هذه الصناعات، ولعلَّ أشهرَ ما أشار إليه هو صناعة الزيت في كلٍّ من نابلس وصيدا؛ ومَردُّ ذلك لاشتهارهما بزراعة الزيتون[٨]، وعرفَت بلاد الشام صناعة الصابون، إذ اشتهرت مدينة سرمين على حدٍّ

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦، بينما ذكرَ ابن جبير أنَّ حِمصَ لا ماءَ فيها ولا شَجَرْ، ولا ظلٌ ولا ثَمَرْ. ابن جبير: الرحلة، ص٢٣١، ٢٣٢.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٧، وذكر ابن جبير أنَّ بساتينها كثيرة الأشجار، وتتهدَّل أغصانها على نهر العاصي. ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٠.

[٣] أخطأ ابن بطوطة في ذكرِ نهر حلب، إذ أنَّ النهرَ الذي يمرُّ بحلب هو نهرُ قويق وليس العاصي. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٧، وأشار ابن جبير أنَّ حلبَ تشتهر بكثرة بساتينها التي تتصل بطولها. ابن جبير: الرحلة، ص٢٢٨.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٨٤، ولها بساتين، وفرضة تُسمَّى السويدية على الساحل عند مصب نهر العاصي في البحر. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٦.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٨٦، ٢٩٠.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٥، وهي تشتهرُ بزراعةِ شجر الخروب و البطم. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٩٩، وأشار أبو البقاء البدري لذلك، فقال: « ينبتُ في بعلبك شجر الصنوبر، وهو ينفعُ في الشفاء من الصداغ البلغمي». أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٣٥١.

[٧] حقيقةً قدَّم ابن بطوطة وصفاً رائعاً لجمال طبيعة دمشق، وهو مشابهٌ لوصف ابن جبير، ويبدو أنَّ ابن بطوطة قد اعتمدَ على رحلة ابن جبير في هذا الوصف. ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٩؛ ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٤، ٢٣٥.

[٨] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤، ٢٦٠، فهي تُصدِّرُ الزيت إلى الديار المصرية والشامية والحجاز والبراري مع العربان، وإلى جامع بني أمية، ويُعملُ منه الصابون الرقِّي. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠، ٢٠١.

قول: ابن بطوطة في صناعة الصابون الآجري، والمُطيَّب لغسل الأيدي، وكان أهلُ سرمين يصبغُونه بالحُمرة والصَفرة[١].

و فيما يخصُّ صناعة الثياب، فقد ذكرَ ابن بطوطة أنَّ مدينةَ سرمين اشتهرت في تصنيع الثياب، وأنَّ أهلها يصنعونَ الثياب الحِسان من القُطن المنسوب إليها، وأنَّ بغراسَ تَصنعُ الثياب الدبيزية[٢]، وفي بعلبك بعلبك تُصنع الثياب المنسوبة إليها من الأحرام وغيرها[٣].

أمَّا صناعةَ الحَلوَاء، فذكرَ ابن بطوطة أنَّ مركزها في مدينة نابلس، وإنَّ أهلُها يطبخون الخروب ثمَّ يعصرونهُ، ويُؤخذ ما يُخرَجُ من الرَّب، فيُصبح حَلواء[٤]، وفي بعلبك يُصنّع الدِّبس، إذ أنَّ أهلَها يعصرونَ العنب ويضعونهُ في تربة، فَيجمَد وتُكسر القلّة التي تكون بها، فيبقى قُطعة واحدة، ويصنعون منها الحَلواء، ويحشونهُ بالفستق واللوز، وتسمَّى عندهم جلدِ الفرس[٥].

ولعلَّ من أهمِّ الصناعات التي اشتهرت بها بلادُ الشام، وأوردَ ذكرها ابن بطوطة، صناعة الأواني الخشبية التي اشتهرت بها مدينةُ بعلبك، وهمْ يسمُّونَها صحاف الدِّست، وربما صنعوا الصُحفة، ثمَّ صنعوا صُحفاً أُخرى تُوضع فوقَ بعضها إلى أنْ يبلُغَ عددها عشرة يُخيَّل للرائي أنَّها واحدة، وعَمِلوا أيضاً في صناعة الملاعق التي يضعونَ عشرةً منها فوقَ بعضها، ويصنعونَ لها غشاءٌ من جلدٍ يسكّها الرجل في حزامه، وإذا حضرَ طعاماً مع أصحابه، أخرج ذلك فيُظّن رائيه أنَّها ملعقة واحدة، ثمَّ يُخرِجُ من جوفها تسعَ مَلاعِق[٦].

3ً- التجارة:

تطرَّقَ ابن بطوطة إلى ذكر عدد من أسواق بلاد الشام التي زخرت بالمُنتجات الصناعية والزراعية، وقدَّم وصفاً جميلاً لها، فوصفَ أسواقَ غزة، و بيروت، وتيزين بالأسواق المُمتازة الحسنة[٧]، وذكر أنَّ أسواقَ

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٢، بينما أشارَ شيخ الربوة إلى صناعة الصابون في نابلس. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠، ٢٠١.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٢، ٢٨٤.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٥، وهي الثيابُ البعلبكيَّة التي تُصدَّر إلى مصر من تُجَّار الشام، ففي سنة(٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)، قَدِمَ تُجَّار عدَّة من الشام إلى مصر بثياب بعلبكية فَخُتِمَ عليها، وأُخِذَ عنها ما جرت العادة من الديوان إلى المكس. المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٣٦.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٥.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص ٢٩٧.

[٧] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٣٩، ٢٦٢، ٢٨٣ .

طرابلس عجيبة، و وأنَّ عجلونَ تشتهر بكثرة أسواقها[١]، وفي حمص أسواق فسيحة الشوارع[٢]، وفي حماه تكثرُ الأسواق الحافلة[٣]، أمَّا أسواقَ حلب، فهي مُتَّسعة مُنتظمة وسقوفها من الخشب[٤].

وذكر أنَّ في دمشق تُكثَر حوانيت السقَّاطِينَ عند الباب القبلي لها المعروف بباب الزيادة، وعن يسارهِ سِماطُ الصفَّارِين، وهو سوقٌ عظيمٌ من أحسنِ أسواقَ دمشقَ، و عندَ بابِ جِيرونَ تُكثَر دكاكين البزَّازِينَ، وحوانيت الجُوهَرِيين، والكَتبِيين، وصُنَّاعُ أواني الزجاج، وسوقُ الورَّاقين الَّذين يبيعونَ فيه الكاغدَ والأقلام، وعند بابِ دمشقَ الغربي المعروف بباب الزيادة تُكثَر حوانيتُ الشمَّاعين، والأسمِطة المُخصَّصة لبيع الفواكه[٥].

ولعلَّ أهمَّ ما أورده ابن بطوطة عن تجارة بلاد الشام ذكره تجارة الزيت والحلواء، إذ قال: « إنَّ زيتَ الزيتونُ، وحَلواء الخروب، تُصدَّر من نابلس إلى مصر، وسائر مُدن الشام»[٦]، ويُحمَلُ التين، والزبيب، والزيت من صيدا إلى مصرَ[٧]، وتُصدِّرُ بيروت الفواكه، والحديد إلى مصر[٨]، ومن معرة النعمان يُحمل التين، والفستق إلى مصر ودمشق[٩].

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٦، ٢٦٥.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦، بينما ذكر ابن جبير أنَّ حمصَ لا إشراق لأفاقها، ولا رونقٌ لأسواقها. ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٢.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٧، وأشار ابن جبير أنَّ في حماة تُكثُرُ الحوانيت التي يُفرَغ منها المسافر حاجته، وأسواقها العُليا أجملُ وأحفلُ من أسواقها السفلى، وهي جامعةٌ لجميع الصناعات والتجارات. ابن جبير: الرحلة، ص٢٣١.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٦، وأورد ابن جبير أنَّ أسواقَها واسعةٌ مُستطيلة، سقوفها من الخشب. ابن جبير: الرحلة، ص٢٢٦.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣١١، ٣١٢، اقتبسَ ابن بطوطة هذا الوصف من رحلة ابن جبير يُقارن. ابن جبير: الرحلة ، ص٢٤٢، ٢٤٣.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٤، فهي تُصدِّرُ الزيت إلى الديار المصرية والشامية والحجاز. شيخ الربوة: نخبة الدهر، الدهر، ص٢٠٠، ٢٠١ .

[٧] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٠، وأشارَ أبو الفداء أنَّ صيدا تُصدَّر الأعناب والتين إلى مصر. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٨، ٢٤٩

[٨] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٢، وذكر الإدريسي أنَّها مدينة بمقربة منها جبل فيه معدن حديد طيب جيد القطع، ويُستخرَجُ منه الكثير، ويُحمَل إلى بلاد الشام. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧١

[٩] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧١، وأشار شيخ الربوة أنَّ التينَ، والفستق، واللوز، والمُشمُش، والزيتون، والرُمان، والتفاح يُصدَّر من معرة النعمان. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٥، وأكَّد ابن جبير شُهرة معرة النعمان بتصدير أنواع عدَّة من الفواكه. ابن جبير: الرحلة، ص٢٢٩.

أمَّا الصابونَ، فيأتي إلى الشام ومصر من سرمين[١]، وتَستُوردُ دمشقَ الألبان وحَلواء المُلبَّن من بعلبك[٢]، بعلبك[٢]، وفي زيارة ابن بطوطة الثانية لبلاد الشام سنة(٧٤٨هـ/١٣٤٧م) تطرَّق إلى ذكر الأحوال الاقتصادية في دمشق فقط، فأشارَ إلى الغلاء الشديد فيها لا سيَّما الخبز الذي انتهى سعره بقيمة سبعَ أواقٍ بدرهم النقرة، كما أشارَ إلى قصةِ خاطفي الخبز ومقتلهم على يد الأمير أرغون شاه[٣].

د-ج- الحياة الاجتماعية:

تناولَ ابن بطوطة في رحلته ذكراً لبعض مناحي الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، و تركَّز أغلبُ حديثه في هذا الجانب على مدينة دمشق، ولعلَّ أبرزَ ما تناوله:

1ً- العادات والصفات:

ومنها ما ذكرهُ عن مدينة صور أنَّ أهلها يتوضؤونَ بطريقة مُخالفة للمعروف، إذ ذكرَ ابن بطوطة أنَّه رأى رجلاً بدأ بغسلِ رجليه ثمَّ وجهه، ولم يتَمَضمَض ولم يَستنشق، ثمَّ مسحَ رأسه فأخذ عليه ابن بطوطة في فعلهِ وقالَ له: « إنَّ البناءَ إنَّما يكون ابتداؤهُ من الأساس»[٤]، وذكر أنَّ أهلَ حمص عربٌ لهمُ فضلٌ وكرم[٥]، وأنَّ أهلَ معرّة النُّعمان يبغَضون العشرة من الصحابة ﷺ وهم رافضة، وأهلُ سرمين سبَّابون يبغَضون العشرة، ومن العجب أنَّهم لا يذكُرون لفظ العشرة، ويُنادي سمَاسِرتهم في الأسواقِ على السلعِ، فإذا بَلغوا العَشرة قالوا: تِسعَة وواحد[٦].

أمَّا أهلَ دمشقَ، فَمِنْ عَاداتِهم أنَّهم لا يعملون يوم السبت عملاً، إنَّما يخرجونَ إلى المُنتزهات وشُطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النضيرة، والمياه الجارية، ويقضون بها يومَهُم إلى الليل، ومِن عَاداتِهم يوم الوقوف بعرفة أنَّهم يخرجونَ بعد صلاة العصر من يوم عرفة، فيَقِفونَ بصحون المساجد

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٦، في حين أشارَ شيخ الربوة إلى أنَّ الصابون يُصدَّرُ من نابلس. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠، ٢٠١ .

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٥، ٢٩٧، وبالمُقارنة ذكر القلقشندي أنَّ في بعلبك يُعمَلُ الدِّهان الفائق من الماعون وغيره، والَّذي يُصدَّر إلى الشام ومصر، وأسعارهُ رخيصة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٠٩.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص١٧٧، ١٧٨؛ للمُقارنة. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٢٤؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ص٦٥.

[٤] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٥٨، وبالمقارنة صفهم ابن جبير بأنَّهم ألينُ إلى الكفرِ طبائع، فخلائِقَهُم أسجعُ، وهم أجرى إلى برِّ غُرباء المسلمين شمائل ومُنازع. ابن جبير: الرحلة، ص٢٧٧.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦، في حين ذكرَ ابن جبير أنَّ أهلَ حمصُ موصوفونَ بالشجاعة والنَّجدة والتمرُّس. ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٢.

[٦] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٢، وأشارَ شيخ الربوة إلى أنَّ أهلَها لهم تأويلاتٌ واستنباطات من الحروف المُقطَّعة في أوائل السوَّر من القُرآن الكريم، وقلبُ معانيها وتأويلهُا إلى أشخاصٍ وأشياء يَرُونَها. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٣.

كبيتُ المقدس، وجامع بني أُميَّة وسِواهُمَا، ويقفُ أئمَتهم كاشفي رُؤوسَهم داعينَ خاضعينَ... فينفرونَ كما ينفرُ الحاج باكينَ على مَا حَرِمُوه من ذلك الموقف الشريف بعرفة.

ومن عَاداتِهم في اتِّباع الجنائز أنَّهم يمشون أمامها، والقُرَّاء يقرأونَ القُرآن، بالأصوات الحسنة والتلاحين المُبكية، وهمُ يُصلُّون على الجنائز بالمسجد قُبالة المقصورة، و يجلسونَ ويقرؤونَ القُرآن، ويرفعونَ أصوتَهُم بالنداء لكلِّ مَنْ يصلَ العزاء، ويقولُ المؤذنونَ: فكِّروا واعتبِرُوا صلاتكم على فُلان الرَّجل الصالح العالم، ومن عَاداتهم عند حلولِ المصائب أنَّهم يصومون ثلاثة أيام، ويمنعونَ الطبخُ في الأسواق، و يخرجونَ بجميع أطيافهم ذكوراً وإناثاً مُسلميهم ونصاريهُم ويهودهم يبكونَ ويتضرعونَ إلى الله[١].

2ً– فضائل أهل الشام:

ذكرَ ابن بطوطة أنَّ من فضائلِ أهلُ الشام، أنَّهم يَتنافسونَ في بناءِ المساجد، والمدارسَ، والزَّوايا، والمَشاهد، ومن فضائِلَهُم أنَّهم يُحسِنُونَ الظنَّ بالمَغَارِبَة، ويُطمئِنُونَ إليهم بالأموال، والأهلين، والأولاد، وكلُّ مَنْ انقطعَ بجهة من جِهات دمشق، لا بُدَّ أن يَتأتى له وجهٌ من المعاشِ، ومِنْ فَضائِلَهُم في رمضان أنَّه لا يفطرُ أحَّداً منهم في ليالي رمضان وحدهُ البتة، إذ يأتِي كلُّ واحدٍ بما عنده، و يجتمعونَ ليفطرُوا جميعاً، ومن فضائِلَهُم أنَّ جامعَ بني أُميَّة لا يخلو من قراءة القُرآن إذ يجتمعونَ بعد صلاة الصُبح، ويقرؤونَ القُرآن بالقراءات السبع، وبعدَ صلاة العصر يجلسونَ في المسجد، ويقرؤونَ القراءة الكوثريَّة من سورة الكوثر إلى آخرِ القُرآن[٢].

3ً– نظام الأوقاف بدمشق:

أُعجِبَ ابن بطوطة بكُثرةِ أوقاف دمشق، وقد تناولَها بالذكر قائلاً: « والأوقافُ بدمشقَ لا تُحصر أنواعها ومصارفها لكُثرَتِها، فمنها أوقافٌ على العاجزين عن الحجِّ، ومنها أوقافٌ على تجهيزِ البنات، ومنها أوقافٌ لِفَكاك الأُسارى، ومنها أوقافٌ لأبناءِ السبيل، ومنها أوقافٌ لتعديل الطريق ورصفُها، ومنها أوقافٌ لسوى ذلك من أفعال الخير»، وذكرَ ابن بطوطة أوقاف قاسيون والرَّبوة قائلاً: « ولكلِّ مسجدٍ من مساجدِ قاسيون

---

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٠٦، ٣٣٣، يُلاحظ أنَّ ابن بطوطة اقتبسَ ذكر عادات أهل دمشق من رحلة ابن جبير، لكنْ بشكلٍ مُختصر، إذ أنَّ ابن جبير ذكرَ عاداتٌ أُخرى لأهل دمشق، منها أنَّهم يمشون وأيديهم إلى الخلفِ قَابضينَ الواحدة بالأُخرى، وفي الصلاة يركعونَ للسلام على تلكَ الحالة، وهم يعتقدونَ ذلك تمييزاً لهُم وتشرِيفَاً. ابن جبير: الرحلة، ص٢٦٩.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣١٠، ٣٣١، وأضافَ ابن جبير أنَّ من فضائل مسيحيين جبل لبنان، أنَّهم إذا رأوا به بعض المُنقطعينَ من المُسلمين، جلبوا لهُ القوتَ وأحسنوا إليه، ومِنْ عظيمُ أمرِهُم تعظيمهم للحاج رغمَ قُرب مسافة الحجِّ منهم. ابن جبير: الرحلة، ص٢٤٤، ٢٥٩.

أوقافٌ كثيرة، أمَّا ربوة دمشق فلها الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين، والرباع، تُقام منها وظائِفُها للإمامُ، والمؤذِّن، والصادر، والوارد»[1].

هـ–ج– الحياة الفكرية في بلاد الشام: تركَّزَ حديثُ ابن بطوطة عن الحياة العلمية في بلاد الشام بذكرِهِ للقُضاة والعُلماء، و من أجازَ له، وذكر حَلقات العلم، وعدداً من المدارس في مُدن بلاد الشام:

1ً– القُضاة:

أوردَ ابن بطوطة خلالَ زيارتِه الأوّلى لبلاد الشام سنة(٧٢٦هـ/١٣٢٦م) ذِكرَ عددٍ من قُضاة بلاد الشام، ففي كلِّ مدينةٍ كان يزورها يَذكرُ قُضَاتها، فَمِنْ أشهر قُضاة دمشق ما ذكره قائلاً:« وبِها قَاضيَ الشافعية جَلالُ الدِّين بن عبد الرَّحمن القزويني[2]، وقَاضيَ المالكية شرفُ الدِّين خطيب الفيُّوم[3]، حسنُ الصُورة والهيئة من كبار الرؤساء، وهو شيخُ الصوفيَّة، وأمَّا قَاضيَ قُضاة الحنفيَّة فهو عماد الدين الحوراني[4]، وكانَ شديدُ السطوة وإليه يَتحَاكمُ النساء وأزواجهن وأمَّا الإمامَ الصالح عز الدِّين بن مُسلم[5]، فهو قَاضيُ الحَنابلة»[6].

---

[1] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٣٠، ٣٣١، وأشارَ ابن جبير إلى أنَّ بجامع بني أُميَّة في أحدِ سواريه وقفَاً معلوماً يأخذهُ المُستند إليها للمُذاكرةِ والتدرِيس، وللأيتام من الصبيان مَحضرة كبيرة لها وقف كبير يأخذُ منه المُعلِّم له وينفقُ على الصبيان ما يقومُ بهم وبكسوتِهم، وفي دمشقَ مرافقٌ عظيمة للإنفاق على الغُرباء. ابن جبير: الرحلة، ص٢٤٥، ٢٤٦، وذكر ابن فضل الله العمري أنَّه توقفُ على جامع بني أُميَّة جلائل الأوقاف، أُضيفَ إليها وقفُ المَصالح. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٢٥٩.

[2] جلالُ الدِّين بن عبد الرَّحمن القزويني، ولد بالموصل سنة(٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)، ولِّيَ الخطابة بجامع دمشق، وفي سنة(٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م) ولِّيَ القضاءَ بدمشقَ، ثمَّ انتقل إلى الديار المصرية، وفي سنة(٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) نُقلَ إلى قضاء دمشقَ، وبقيَ فيها إلى أنْ تُوفيَ سنة(٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٢٤٢؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٩، ص١٥٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٨٥.

[3] شرفُ الدِّين أبو عبد الله، محمد بن مُعين الدين النويري المالكي، ولِّيَ قضاء المالكية بدمشق سنة(٧١٩هـ/ ١٣١٨م)، وتُوفِّيَ بها سنة(٧٤٨هـ/١٣٤٧م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص٢٧٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٩٣.

[4] عماد الدِّين أبو الحسن، علي بن أحمد بن عبد الواحد الطرسوسي الحنفي، ولِّيَ قضاء دمشق سنة(٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، وتوفي بدمشق سنة(٧٤٨هـ/١٣٤٧م). ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٢٩؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص١٨.

[5] شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن مُسلم بن مالك الصالحي الحنبلي، ولي قضاء الحنابلة بدمشق سنة(٧١٥هـ/ ١٣١٥م)، وتوفي بالمدينة المُنوَّرة سنة(٧٢٦هـ/١٣٢٥م). ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٤٠٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٢٦؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٠٨.

[6] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣١٥، ٣١٦.

وفي زيارتِهِ الثانية إلى بلاد الشام، اكتفَى بذكرِ قاضِي المالكية، وقَاضيَ قُضاة الشافعية في دمشق، فقال:« وكان قَاضيُ قُضاةَ المالكية إذْ ذاكَ جمالُ الدِّين المِسلَاتي[١]، وتقي الدِّين ابن السبكي قَاضيَ قُضاة للشافعية»[٢].

وفي زيارتِهِ إلى حلب أوردَ ذِكرَ قُضَاتِها، فقال: « والقضاةُ بحلبَ أربعةٌ للمذاهبِ الأربعة، فمنهم القاضي كَمال الدِّين الزملكاني شَافعي المذهب، عَالي الهِمَّة، كبير القدر[٣]، وقَاضيَ الحنفية نَاصر الدِّين بن العديم[٤]، ومنهم قَاضيَ قُضاة المالكية لا أذكَرهُ، وقَاضيَ قُضاة الحَنابلة لا أذكرَ اسمَهُ»[٥].

ومن القُضاة الَّذين أوردَ ابن بطوطة **ذكرهم**، قَاضيَ الخليل بُرهان الدِّين الجُعبُري أَحَّدَ الصُلحاء المَرضِيينَ والأئمَّة المَشهورين[٦]، وقَاضيَ القُدس شمس الدِّين مُحمَّد بن سالم الغزي[٧]، وكاتبُ السرُّ في طرابلس بَهاء الدِّين بن غانم، أَحَّدَ الحُسباء الفُضلاء ومعروفٌ بالسخاءِ والكرمِ[٨]، وقَاضيَ حِمصَ كمَال الدِّين الشرِيسِي[٩]، أمَّا قَاضيَ حُصن الأكراد، فقد نَزِلَ ابن بطوطه عنده لكنَّه لمْ يتحقَّقَ اسمه[١].

---

١ جَمال الديِّن، محمد بن عبد الرحيم بن علي المسلاتي، ولِّيَ قضاء المالكية بدمشق سنة(٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تُوفي بمصر سنة(٧٧١هـ/ ١٣٦٩م). ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٢٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص١١.

٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص١٧٧، ١٧٨.

٣ الشيخ كمال الدِّين، محمد بن علي الزملكاني، برعَ في البلاغة، وسمع الحديث وقرأ الأصول، تولَّى قضاء حلب، وتوفي سنة(٧٢٧هـ/١٣٢٦م). ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج٢، ص٢٠٧؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٦٢٤– ٦٤٢؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص٧٤– ٧٦.

٤ ناصر الدين محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن العديم، قاضي قُضاة الحنفية بحلب، ولِّيَ قضاءها سنة(٧٢٠هـ/١٣٢٠م)، وتوفي فيها سنة(٧٥٢هـ/١٣٥١م). ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٣٨٧؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٤، ص١٠٦؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٦٦٧.

٥ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٨٠، ٢٨٣.

٦ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٢، بُرهان الدِّين، إبراهيم بن عُمر بن إبراهيم الجُعبري الشافعي، ولد بجعبر سنة(٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)، وتولَّى قضاء الخليل مُدَّة، وتوفي بها سنة(٧٣٢هـ/١٣٣١م). ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٥٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٩٨.

٧ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٩، شمس الدِّين محمد بن سالم بن عبد الناصر بن سالم الكتَّاني الغزي، تولَّى قضاء القُدس سنة(٧٤٣هـ/١٣٤٢م)، وحدَّث فيها وأفتى ودرَّس، وتُوفي فيها سنة(٧٥٠هـ/١٣٤٩م). ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٠٧؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٤٢.

٨ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٥، بهاء الدين، مُحمَّد بن سلمان بن حمائل الدمشقي، كاتب السرِّ في طرابلس ثمَّ دمشق، تُوفي بطرابلس سنة(٧٣٥هـ/١٣٣٤م). ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٤٥٨.

٩ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٧، جمال الدِّين أبو بكر الشريسي، مُحمد بن أحمد بن مُحمد، تولَّى قضاء حمص سنة(٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م)، ثمَّ قَدِمَ دمشق وتولَّى التدريس بالمدرسة البادرائية، وتوفِّي فيها سنة(٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م). ابن تُغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٥٩٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٦٣.

وعندما زارَ ابن بطوطة بلاد الشام للمرَّة الثالثة سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م) مرَّ بفلسطينَ فوجدَ أنَّ أغلبَ عُلمائُها وقُضاتها قد توفُّوا بالطاعون، فقالَ: « ووجدتُ مِمَّن كُنت أعهدهُ من جميعِ الأشياخَ قد انتقلوا إلى رحمة الله، فلمْ يبقَ منهم إلَّا القليل، مثلَ المُحدِّث العالم الإمام صَلاحُ الدِّين خليل بن كليكلدي العلائي، فوصَلنا إلى غزة فوجدنَا مُعظَمِها خالياً من كُثرة مَنْ ماتَ بها من الوباء، وأخبرنَا قاضيهَا أنَّ العُدولَ بها كانوا ثمانين، فبقيَ منهُم الرُّبع، وأنَّ عددَ الموتى بِها انتهى إلى ألفٍ ومئة في اليوم»[٢].

2ً- العُلماء الَّذين أجازوا له:

لقَيَ ابن بطوطة في رحلته كثيرٌ من العُلماء، وقد أخذ وقرأ على أغلبهِم، ولعلَّ مِنْ أبرز مَنْ لقيهُ من العُلماء في دمشق العالم شهاب الدِّين أحمد بن أبي طالب بن أبي النِّعم بن حَسن بن عَلي بن بَيان الدِّين المعرُوف بابن الشُّحنة الحَجَّار[٣]، لقَيَهُ ابن بطوطة بجامع بنِي أُميَّة وسمعَ عليه جميع صحيح البخُاري، ومِمَّن لقيه ابن بطوطة وأخذَ عنهُ الشيخَة الصالحة رحلة الدُّنيا زينب بنت كمَال الدِّين أحمد بن عبد الرحيم المَقدسِي[٤]، ومنهُم الشيخ شِهاب الدِّين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المَقدسِي[٥]، ومنهُم الشيخ الإمام الصالح عبد الرَّحمن بن مُحمَّد بن محمد بن أحمد البجدي[٦]، وكلُّ هؤلاء أجازوا له إجازة عامَّة في دمشقَ سنة(٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)[٧].

3ً- حلقات العلم والعلماء في الجامع الأموي سنة(٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م):

ذكرَ ابن بطوطة أنَّ في الجامع الأموي حلقاتٌ عدَّة للتدريس في مختلف فنون العلوم ، وأنَّ المُحدِّثين يقرؤونَ كتبَ الحديث على كراسي مُرتفعة، وقُرَّاء القُرآن يقرؤونَ بالأصوات الحسنة صَباحاً ومساءً، وبهِ جَماعة من المُعلِّمين لكتاب الله يستنُد كلُّ واحدٍ منهم إلى ساريةٍ من سواريَ المسجد، ويُلقِّن الصُبيانَ

---

١ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦.

٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج٤، ص١٨٠.

٣ شهاب الدِّين، أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدِّين، المعروف بابن الشُّحنة الحَجَّار، ولد سنة(٦٤٢هـ/١٢٤١م)، وحدَّثَ بصالحية دمشق، والقاهرة، وحماة وحمص، وتوفي بصالحية دمشق سنة(٧٣٠هـ/١٣٢٩م). ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص١٤٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٩٣.

٤ الشَيخة زينب بنتُ أحمد المقدسي، شيخة مُسنِدة، سمعت من جماعة، وحدَّثت بالكُتب الكبار، وتفرَّدت بغالب إجازتها وخُرِّج لها، توفيت سنة(٧٤٠هـ/١٣٣٩م). الذهبي: مُعجم الشيوخ، ص١٩٩؛ ابن رافع السلامي: الوفيات، مج١، ص٣١٦-٣١٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص١١٨،١١٧؛ كحالة(عمر رضا): أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، المطبعة الهاشمية، دمشق، ط٢، ١٩٥٩م، ج٢، ص٤٦-٥١.

٥ وردت ترجمته فيما سبق.

٦ الشيخ الإمام الصالح عبد الرحمن بن مُحمد بن محمد بن أحمد البجدي، ولد سنة(٦٦٠هـ/١٢٦١م)، سمع وحدَّث في بيت المقدس، وتوفي فيه سنة(٧٣٧هـ/١٣٣٧م). ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٤٠.

٧ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٣٤- ٣٣٧.

ويُقرِّئهُم، ومعلِّمُ الخطِّ غيرُ مُعلِّم القُرآن، ثمَّ ينصرفُ الصبي من التعليم إلى التكاتيب، ومِنْ المُدرِّسينَ بالجامع المذكور بُرهان الدِّين بن الفُركَاح، ونور الدِّين أبو اليُسر بن الصائغ[١]، مِنْ المُشتَهرينَ بالفضلِ والصلاح[٢].

4ً- مَدارسُ بلاد الشام:

اقتصرَ ذِكرَ ابن بطوطة لمدارس بلاد الشام على دمشقَ وحلبَ فقط، وفيما يخصُّ مدارس حلب، أورد ذكراً إلى وجود مدرسة دونَ تحديدُ اسمها، فقال: « وبقرب جامعها مَدرسةٌ مُناسبة، له في حُسنِ الوضع وإتقان الصنعة»[٣].

أمَّا عن مَدارس **دمشق،** فأوردَ مُسَمَّيَاتِهَا، فقال[٤]:« واعلمْ أنَّ للشافعية بدمشق جُملةً من المدارس أعظمُها أعظمُها العادليَّة[٥]، وبِها يَحكمُ قَاضيَ القُضاة وتُقابلُها الظاهريَّة[٦]، وبها قبرُ الملك الظاهر، وبها جلوس

---

١ وردت ترجمتهما فيما سبق.

٢ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣١٤، ٣١٥، وعلَّق ابن جبير أنَّه في هذا الجامع مُجتمعٌ عظيمٌ، كلُّ يومٍ إثرَ صلاة الصُبح، لقراءة سُبع من القرآن، ومثلهُ صلاة العصر، وفيهِ حلقاتٍ لتدريسُ الطلبة، وللمُدرِّسين فيها إجراءٌ واسع، وللمالكية زاوية في الجانب الغربي للتدريس، يجتمعُ فيها طلبةٌ مَغاربة، ولهم إجراءٌ معلوم، ويُعلَّم فيه الصبيان القرآن، والخطّ في الأشعار وغيرها. ابن جبير: الرحلة، ص٢٤٤، ٢٤٥.

٣ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٦، وأشار ابن جبير أنَّ في الجانب الغربي من جامع حلب، مدرسة للحنفية تُناسب الجامع حُسناً وإتقان صنعة، وهذه المدرسة من أحفل المدارس بناءً وغرابةً صنعة، ومن أظرف ما يُلاحظ فيها أنَّ جدارها القبلي مفتَّح كلَّه بيوتٍ وغُرفٍ ولها طيقان يتَّصلُ بعضها ببعضٍ، وقد امتدَّ بطول الجدار عريش كرم مُثمر عنباً، فحصلّ لكلِّ طاقٍ من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب مُتدلِّياً أمامها، فيمدُّ الساكن فيها يده ويجتنيه مُتكئاً دونَ كلفة. ابن جبير: الرحلة ، ص٢٢٧، ٢٢٨، وهذه المدرسة تُعرف بالمدرسة الحلاوية اتِّجاه الرُّكن الغربي للجامع الكبير، وكانت في بدايتها كنيسة، وكانت تُعرف بمسجد السرَّاجين، وقفها نور الدِّين زنكي وابتدأ عمارتها سنة(٥٤٤هـ/ ١١٤٩م). ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٢١٤، ٢١٥؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٣٩، ٣٤٠؛ ابن الشُّحنة: الدُرُّ المُنتخب، ص٧٧، ١١٥؛ ابن الحنبلي(محمد بن إبراهيم): دُرر الحبب في تاريخ أعيان حلب، تح: محمود الفاخوري، يحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٧٣م، ج١، ص١١٤.

٤ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣١٧- ٣١٩، ٣٢٧؛ بينما ذكرَ ابن جبير أنَّ في البلد ما يزيدُ عن عشرين مدرسة، ومن أحسن مدارسها منظراً مدرسة نور الدِّين زنكي. ابن جبير: الرحلة، ص٢٥٥، ٢٥٦.

٥ المدرسة العادليَّة الكُبرى، شمال الجامع الأموي بغرب، وشرقي الخانقاه الشهابيَّة، وقبلي المدرسة الجاروخيَّة بغرب، واتِّجاه واتِّجاه باب المدرسة الظاهريَّة، أنشأها الملك العادل أبو بكر بن أيوب المتوفى سنة(٦١٥هـ / ١٢١٨م). النُّعيمي: الدارس، ج١، ص٢٧١ وج٢، ص٢٠٢؛ كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص٨١، ٨٢.

٦ مدرسة للشافعية داخل بابي الفرج والفراديس، وجوار الجامع الأموي، شمالي البريد، وقبلي المدرستين الإقبالية والجاروخية، والجاروخية، وشرقي العادلية بناها الملك الظاهر بيبرس سنة(٦٧٠هـ/١٢٧١م). النُّعيمي: الدارس، ج١، ص٢٦٣؛ كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص٨١.

جلوس نوَّاب القاضي، وللحنفيَّة مدارسٌ كثيرة أكبرها مدرسة السُلطان نور الدِّين[١] وبِها يحكمُ قاضي القُضاة الحنفيَّة، وللمالكيَّة بدمشق ثلاثَ مدارس، أحَّدها المدرسة الشرابشيَّة، وعمَّرها شهاب الدِّين الشرابي التَّاجر[٢]، وللحنابلة مدارسٌ كثيرة أعظمُها النجميَّة[٣].

وفي صالحية دمشقَ مدرسةٌ تُعرف بمدرسة ابن عُمر[٤] موقوفة على مَنْ أرادَ أن يتعلَّم القُرآن الكريم من الشيوخ والكُهول، وتجري لهُم ولِمَنْ يُعلِّمَهم كفايتهم من المآكل والملبس، وبداخل البلد مدرسة تُعرف بمدرسة ابن مَنجا»[٥].

د- المآخذ على الرِّحلة:

لاقَتْ رحلةُ ابن بطوطة الكثير من الانتقادات، ولعلَّ مردَّ ذلك أنَّ صاحبها لمْ يُدوِّنها أو يُسجِّلُها بنفسه، كما أنَّ الكثيرَ من مسودَّات الرِّحلة التي سُجِّلَ فيها أسماء الأعلام والمدن مع تحديد مواقعها قد فُقد منها جزءاً في السفن والمراكب التي غرقت، فضلاً عن إضافات ابن جزِّي الكلبي والتي أملاها من اجتهاداته الشخصية فيما عدَّهُ خدمةً للرِّحلة، وأوضحت هذه الإضافات عدمَ فهم ابن جزِّي لكثيرٌ من الأمور التي أضافها خاصةً أنَّ بعضَ الموضوعاتِ لا يُمكن التأكُّد من صحَّتِها إلَّا بمُشَاهدتِها، ومثالها نقلهُ وصف المدن عن ابن جبير، في وقتٍ كانت فيه حالة المُدن عندما زار ابن جبير بلاد الشام تختلفُ عن وضعها في زمن ابن بطوطة، لكنْ ابن جزِّي نقلَها بشكلٍ حرفي من رحلة ابن جبير دونَ أن ينتقدُها، ومثالها وصف حلب ودمشق وبغداد، وغيرها، وإنَّ إضافات ابن جزِّي لبعض الاستشهاداتِ الشعرية لعدد من المواضيع التي لا تتعلق بما يتحدَّث عنه[٦].

ولعلَّ من أهمِّ الأخطاء الجُغرافية التي وردت في الرحلة أنَّ خطّ سير رحلته الأوَّلى لبلاد الشام سنة(٧٢٦هـ/١٣٢٥م) كان غامضٌ أحياناً، ومُفتقراً إلى الدقَّة فكان ينتقل من مدينة إلى أخرى دونَ أن يوضِّح

---

[١] تقع بسوق العصرونية من الجانب الجنوبي، بين دار الحديث الأشرفية، ومدرسة العصرونية وأمام العادلية الصغرى، أنشأها نور الدِّين محمود زنكي المتوفى سنة(٥٦٩هـ/ ١١٧٣م). النعيمي: الدارس، ج١، ص٧٤؛ بدران: منادمة الأطلال، ص٥٨؛ كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص٧٤.

[٢] تقع بدرب الشعارين داخل باب الجابية، أنشأها شهاب الدِّين بن نور الدولة بن محاسن الشرابيشي التاجر السفَّار المُتوفى سنة(٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م). النعيمي: الدارس، ج٢، ص٦؛ بدران: منادمة الأطلال، ص٢٢٥.

[٣] حقيقةُ الأمر لا توجد مدرسة للحنابلة في دمشق تحمل هذا الاسم، وربَّما أخطأ ابن بطوطة في تسميتِهَا، ولا يُعرف ماهي المدرسة المقصودة؟.

[٤] هي المدرسةُ العُمريَّة الشيخيَّة، مدرسة للحنابلة تقع بجبل قاسيون، واقفُها الشيخ أبو قدامة محمد بن أحمد سنة(٥٥٠هـ/ ١١٥٥م). ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص٢٥٩؛ كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص٩٧.

[٥] المدرسة المنجَائيَّة، زواية بجامع بني أُميَّة، تُعرف بزاوية ابن منجا التنوخي الحنبلي، المتوفى سنة(٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م)، وهي من مدارس الحنابلة. النعيمي: الدراس، ج٢، ص٩٤؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٥٠.

[٦] مثالها: ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٩٧.

التسلسُل الجُغرافي للمدن، ممَّا أوقعهُ في أخطاء، وهو لا يذكر تاريخاً ليوم ولا لشهر ولا لسنة، وبذلك يترك القارئ في غموض من أمرِ التسلسُل الزَّمني، ممَّا جعلَ الأحداث السياسية غير دقيقةٍ؛ لعدم ايراده تواريخ هذه الأحداث، ومثالها قوله: « سافرت إلى اللاذقية، ثمَّ إلى جبل لبنان، ثمَّ إلى دمشق»[١]، وذكره أنَّ تيزين تقع على طريق قنسرين، وهذا خطأٌ فقنسرين جنوب شرق حلب، أمَّا تيزينَ في شمال غرب حلب ولا يُمكن أن تكونَ على طريق قنسرين[٢]، وذكره أنَّ حلبَ يمرُّ فيها نهر العاصي[٣]، وهذا غير صحيحٍ وإنَّما يمرُّ فيها نهر قويق[٤].

ومن عيوب الرِّحلة أنَّه اقتبس من رحلة ابن جبير وصف الجامع الأموي، وقاسيون، والربوة، وعادات و تقاليد أهل دمشق، ووصف جامع حلب، ومدينة عكَّا، وصور، دونَ أنْ يَشِرْ إلى ذلك، وربَّما لأنَّه نسِيَ كثيراً من الوقائع فأراد أن يعوِّض نقصها[٥]، ووجدَ عند ابن بطوطة تحريفٌ لبعض أسماءِ الأقاليم والمدن التي زارها، وربَّما مَرَدُ ذلك أنَّه نَسِيَ أسماءها لاعتماده على ذاكرته في سرد أحداث الرِّحلة[٦]، وإنَّ نسيانهُ إلى كثير من المُدن التي مرَّ بها، وعدم قُدرته على وصف كلِّ ما شاهدهُ ومَنْ لقيهُ من العلماء والقُضاة قد أفقد الرِّحلة الكثير من أهمِّيتها، مثل قولهُ: « وقاضي حُصن الأكراد نزلت عنده ولا أُحقِّقَ الآن اسمه»[٧].

وممَّا يُؤخذ عليه أنَّه دوَّن كلُّ ما سمعه، دونَ نقدٍ أو تمحيص، فملكة النقد لا توجد عنده فمثلاً ذكرَ أنَّ الناس يزعمونَ أنَّ درقةَ قُبِّة الصخرة هي درقةُ حمزة بن عبد المطلب[٨]، في حين يُرى أنَّ العبدري لمْ يُصدِّقَ ذلك، وأشارَ أنَّها في الأصلِ مرآة صدئت وزال صقالها[٩]، وممَّا وقع في من خطأ ذكره أنَّ قبرَ يعقوب بن يوسف في بيروت، أنَّما هو في مُراكش بالمغرب[١٠].

ومن جهة أُخرى إنَّ اختصاره الشديد في وصف طريق خروجه من شمال إفريقية، فاذا حاولنَا تفسيرَ ذلك ببعده الزمني لطول المُدَّة التي قضاها، فمَا كانَ أجدرُهُ بوصفهِ في طريق العودة، وكان جديرٌ به أن يُقارن

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٧.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٨٣، وذكر الحموي أنَّها قرية كبيرة من نواحي حلب، وتُعدُّ من أعمال قنسرين. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٦٦.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٧٧.

[٤] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٨.

[٥] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٠٦- ٣٢٥، يُقارن مع ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٥- ٢٧٠.

[٦] الشهابي: الجُغرافيون العرب، ص٩٨؛ عفيفي: تطور الفكر العلمي، ص٢٩٥.

[٧] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٦.

[٨] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٤٧.

[٩] العبدري: الرحلة، ص٤٧٢.

[١٠] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٦٢.

بين أحوال البلاد التي تعدَّدت زياراتهُ لها كما فعلَ في وصف مصر مثلاً[١]، وتفتقرُ الرِّحلة إلى التدقيق والنقد التحليلي و يطبعها طابع الخُرافة؛ لكثرة ما أوردهُ من الحكايات والخرافات، منها حكاياته التي لا تُصدَّق عن وجود غوَّاصينَ يبحثونَ عن اللؤلؤ في الخليج بين سيراف والبحرين و يغوصونَ تحتَ الماء ساعة وساعتين[٢]، وهذا ما دفعَ ابن الخطيب الغرناطي للقول: « وأحاديثه في الغرابة أبعد من هذا»[٣]، وذكرَ ابن خلدون أنَّ ابن بطوطة ذكرَ قُصصاً لا يمكنُ تصديقُها عن ملك الهند، منها أنَّ ملكَ الهند إذا خرجَ إلى السفر أحصَى أهلُ مدينته من الرجالِ والنساءِ والأولادِ، وفرضَ لهم رزق ستة أشهر تُدفع لهم من عطائه، وعندَ رجوعه من سفره يدخلُ في يومٍ مشهود، يبرزُ فيه الناس كافة إلى صحراء البلد يطوفونَ به، وينصبُ أمامه في ذلك الحفل منجنيقات تُرمَى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أنْ يدخل إيوانه، فتُناجِيَ الناس بتكذيبه[٤]، وبذلك فإنَّ الرحلةَ لا تسلمُ من سوء الخلط، وافتقارها إلى تصنيف المعلومات[٥].

ووقعَ ابن بطوطة في خطأٍ تاريخي كبير عندما ذكرَ أنَّ الملكَ الظاهر هو الذي هدمَ سور بيت المقدس، في حين أنَّ الذي هدَمهُ هو الملك المُعظَّم عيسى بن العادل وذلك سنة (٦١٦ هـ /١٢١٥م)، ومن أخطاءه ما يتعلَّق بالتواريخ التي حدَّدها خصوصاً حينما وصفَ القسطنطينية، وما سردهُ من حكاياتٍ عن الصين، ممَّا دفعَ بعضهم إلى القول بأنَّه لم يَزُرْ الصين، ومن هؤلاء الباحث الفرنسي فيران الذي وصل إلى نتيجة أنَّ ابن بطوطة لمْ يَزُر الهند الصينية ولا الصين، بل لفَّق روايتهُ عنهما من مصادر مختلفة دونَ توفيق يُذكر[٦]، وهذا ما أكَّدهُ الزياني بقوله: « اجتمعتُ بالحرمِ الشريف وبمكَّة ببعض عُلماءِ الهند، فأنكروا كثيراً ممَّا في رحلته من أخبار ملوكهم، وأمَّا قضاؤه بالهند ومصاهرته لسلطانه، فقد أبطلوهُ بالكُلِّية وقالوا: هذا غير ممكنٍ»[٧].

ومما يُؤخذ عليه ذِكَرهُ بعض الأحداثِ في غير مَحَلِّهَا مثلَ ذكره للطاعون في دمشق خلال زيارته الأوَّلى في حين أنَّ الطاعونَ الأكبرُ وقعَ في البلاد سنة(٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)[٨]، وبجانبٍ آخر احتوتْ الرِّحلة أحاديثٌ مُضطربة، فيُرى أنَّه أوردَ أسماء بعض القُضاةِ جامعاً بين بعضهم في وقتٍ واحد، ومثالها حديثه

---

[١] حسين: أدب الرحلة، ص٥١.

[٢] ابن بطوطة: الرحلة، ج٢، ص١٥٠.

[٣] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص٢٠٦.

[٤] ابن خلدون: المُقدِّمة، ص١٥٨.

[٥] الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص١٣٤.

[٦] مُحمدين: التُراث الجغرافي الإسلامي، ص١٦١، ١٦٢؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٤٢٨، ٤٢٩.

[٧] الزياني: الترجمانة الكُبرى، ص٥٨١.

[٨] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٢٥.

عن القاضي المالكي والحنبلي في حلب خلال رحلته الأولى سنة(٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، بينما لمْ يكُن بها أثناء الرِّحلة إلَّا قاضٍ شافعيٌّ وآخرٌ حنفيٌّ[١].

الفصل الخامس

[١] ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٢٨٣.

الأدب الجُغرافي- الرحلات الأجنبيّة إلى بلاد الشام

الأدب الجغرافي- الرحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام

شَغِلَ الحديث عن بلاد الشام، والأماكن المُقدَّسَة منها بشكلٍ خاص حيّزاً كبيراً من كتابات الرحَّالة الأجانب، لِمَا لهَا من أهمِّيَّة تاريخيَّة ودينيَّة، إذ شَهدتْ بلادُ الشام زيارة عدد كبير منهُم في أعقاب اعتناقَهُم للمسيحيَّة، وكانَ الدَّافع لهذهِ الرِّحَلات في بداياتِها زيارة أماكن العبادة في الأراضي المُقدَّسة، ولهذا الدافع تَقاطرت الرِّحلات الأجنبية مع بدايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حتَّى صارَ حُضورُ الرحَّالةَ إلى هُناك من الأمور المألوفة، فقد تعرَّفَ هؤلاء الرحَّالة على أماكن العبادة المسيحيَّة والإسلاميَّة، وتناولوا بالوصفِ ما شاهدوهُ مِنها.

لكنْ خلالَ القُرون(٥- ٧هـ/١١- ١٣م)، اتَّخذت هذه الرِّحلات طابعاً جديداً، فكما هو معروف أنَّ الحملاتَ الصليبيةُ انطلقت من الغرب الأوربيِّ إلى الشرق؛ لاحتلال الأراضي المُقدَّسة بدوافع دينيَّة وهميَّة تكمن في زيارة أماكن العبادة، والحجِّ إليها، وهذا في نظرِ الغربِ الأوروبيِّ، في حين أنَّ الدَّافع الحقيقي لها دافعٌ اقتصاديٌّ وعسكريٌّ يكمُن في السيطرة على ثروات الشرق الإسلاميِّ واحتلال أراضيه، إذ بقيت الأراضي المُقدَّسة محطُ أنظار ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد(٥٥٢- ٥٩٥هـ/ ١١٥٧- ١١٩٩م) خلال القرن السادس الهجري القرن/ الثاني عشر ميلادي مصدرُ الهامٍ لاقتلاع العرب في الشرقِ الساحرِ، وبذلك إنَّ الطابعَ الجديدُ الَّذي اتَّخذتهُ الرِّحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام و الأراضي المُقدَّسة منها، هو طابعٌ تشجيعيٌّ يكمُن بقيام الرحَّالة بتقديم وصف عن الأراضي المُقدَّسة وتبيانُ أهميتُها، ووصف جمال طبيعتُها وخيراتُها، وتقديمُ هذا الوصفُ للقُرَّاء في الغربِ الأوروبيِّ، وبالتالي تشجيعهم على الهجرة إلى الأراضي المقدسة، والاستقرار هُناك وتخليص ما تبقَّى من أراضي بيت المَقدس من أيدي العرب المسلمين، وهذا ما تضمَّنتهُ أغلبُ الرِّحلات الأجنبيَّة، والتي لمْ تقفْ عند هذا الحدُّ، بل تضمَّنت وصفاً لجُغرافيَّة بلاد الشام، ومعالمُها الدينيَّة والأثريَّة، وأحوالها الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة مع عدم اغفالها لحركات المقاومة الشعبيَّة العربيَّة الإسلاميَّة لحملاتٍ صليبيَّة ظالمة ظاهرُهَا ديني إلهي، وجوهرُهَا مالي وحشي، هدفت لحلِّ أزمات اقتصاديَّة لبلاد غربيَّة كانت تُعاني الفقر الجوع، والبرد، وظلمَ اقطاعيين غربيين.

أولاً- دوافعُ الرِّحلات الغربيَّة(الأجنبيَّة) إلى بلاد الشام في العصر المملوكي:

مع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أطلَّت الحملاتُ الصليبيَّة إلى المشرقِ العربيِّ لاحتلالَهُ بدافع ديني[١]، و كانَ لأدب الرِّحلات أهمِّيَّة كُبرى في هذه المعركة، فقد درجَ الرحَّالة الغربيين منذُ أقدمِ العصور على الحجِّ إلى الأماكن المُقدَّسة، ولم تنقطع منذُ أنْ اكتشفت القدِّيسة هيلانة حسب الأُسطورة المسيحيَّة الصليب المقدس، وغيرُ ذلكَ من الآثارِ المُقدَّسة خلالَ الحجَّ إلى القُدس، وإلى بيت لحم في عام(٣٢٦ م)[٢]، ولمْ يتوقَّفْ الحجُّ عقبَ الفتح الإسلاميِّ، وكَثُرَ عددَ الحُجَّاج إثرَ سُقوط القُدس، وغيرُها من المناطق في يدِ الصليبيين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وما بعده، رغبةً في التَوبَة والغُفران، والدفاع عن الأماكن المُقدَّسة، وزيارة الأماكن المُرتبِطة بالمسيح والديانة المسيحيَّة[٣]،

---

[١] الشارتري(فوشيه): تاريخ الحملة إلى القدس(١٠٩٥- ١١٢٧م)، تر: زياد العسلي، دار الشروق، عمان- الأردن، ط١، ١٩٩٠م، ص٣١.

[٢] بالار(ميشيل): الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، تر: بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣٥.

[٣] بالار: الحملات الصليبية، ص٣٥.

وبعدَ الانتصار في الحملة الصليبيَّة الأوَّلى، وسقوط القُدس، صارَ هناكَ حماسةٌ للحجِّ إلى بيت المَقدس، فذهبَ حُجَّاجٌ كثيرين إليها، لاسيَّما من كبارِ السادة، وذوي المنزلة الرفيعة[١].

وخلال عصر دولة المماليك البحريَّة، استمرَّت الرِّحلات الغربيَّة إلى المشرق العربي بشكلٍ عام، وإلى بلاد الشام بشكلٍ خاص، فقد زارَ عددٌ من الرحَّالة الأجانب بلاد الشام خلالَ هذا العصرُ مدفوعين بعوامل عدَّة، لكنْ في الحقيقة إنَّ كافَّة الرحَّالة الغربيين الَّذين لم يكونُوا في رحلاتٍ رسميَّة ذات أهدافٍ مُعلنة، ظلُّوا يدَّعُونَ أنَّ رحلاتَهُم إلى المشرق كانت تلبيةً لرغباتِهُم الخاصَّة، ورُغمَ ادعائَهُم لكن يبدو أنَّهم يكتمون هدفاً أساسياً لهذه الرِّحلات، ويعتقد أنَّ لكلِّ رحَّالة غربي- مهما كان الهدف غير المُعلن لرحلتهِ- كانت لهُ أهدافُهُ الخاصَّة، ولا مناصَ من القول: إنَّ أيَّ رحَّالةٌ من هؤلاء كان من مُحبِّي المُغامرة، وعَمِلَ على إشباعِ هذه الروح باستكشاف ما اعتبرهُ مجهُولاً، كما تطلَّع العديدُ منهم إلى تحقيق شُهرة أدبيَّة أو ماديَّة أو سياسيَّة، و قد نالها بعضهم بجدارة[٢]، **ولعلَّ من أهمِّ الدوافع المُعلنة لهذه الرِّحلات:**

١- قامَ كثيرٌ من الرحَّالة الغربيين بالرِّحلة إلى بلاد الشام في العصر المملوكي، وتَدوينَ رحلاتَهُم؛ لتكونَ دليلاً مُرشداً لغيرَهُم من الحُجَّاج الَّذين يقدمون إلى الشرق حتَّى يتعرَّفوا على الأماكن ذات الصلةِ بذكرياتِ المسيحيَّة في عهدها المُبكِّر في الأراضي المُقدَّسة، ومثالها رحلة الرحَّالة الألماني بورشارد من دير جبل صهيون[٣].

٢- الدافع الديني:

ويتجلَّى برغبة الرحَّالة الحُجَّاج بزيارة الأماكن والمواقع المُرتبطة بسيرة السيد المسيح ﷺ، ومثالُها رحلة الألماني لودولف فُون سُوخم، و الإنكليزي جُون ماندڤيل[٤].

٣- الدافع الاقتصادي:

ارتحلَ كثيرٌ من الرحَّالة الغربيين إلى المشرق بهدف التجارة والعمل، ثمَّ عادوا إلى بلادهم ومعهُم العديدُ من المُقتنيات والسلع التجاريَّة من أجلِ بيعهَا في أوطانِهُم على سبيل تحقيق أرباح وفيرة، خاصةً أنَّ العديد من الأسواق التجارية عُقدت في المشرق، وقد مثَّلَ الحُجَّاج قوة شرائيَّة لها شأنِهَا، فضلاً عن ذلك وجِدَ

---

[١] سميث(جوناثان رايلي): حال الصليبيين الذهنية تجاه الشرق، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٢٥.

[٢] إبراهيم(عبد العزيز عبد الغني): روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م، ج١، ص٤٢.

[٣] عوض(محمد مؤنس): الرحَّالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م ، ص١٠.

[٤] عوض: الرحالة الأوروبيين، ص١٦.

كثيرٌ من التُجَّار انضمُّوا إلى صفوف الَّذين قاموا برحلة الحجِّ، ولا ريبَ أنَّهم أرادوا الوقوفَ على احتياجاتِ الشرق التجاريَّة، وهو أمرٌ لهُ أهميتهُ البالغة لديهم.

٤– الرَّغبة المُلحَّة في استجلاءِ سحرِ الشرق وغموضه، ومُشاهدة معالمهُ بوصفه عالماً غريباً عن أعيُن الغرب الأوربيِّ، كذلك وجِدَت رغبةٌ قويةً لدى بعض الرحَّالة بالوقوف على أوضاع إخوانهم المسيحيين الشرقيين خاصةً عندما خضعوا لسيطرة قوى سياسيَّة غير مسيحية، مثلُ القِوَى الإسلامية، ولمْ يكنْ من اليسير معرفة ذلك دونَ الارتحال إلى هُناك، ومتابعة أوضاعهم عن كثب، وربمَّا أنَّ هذا الأمر قد نشِطَ بعد تحرير عكَّا من أيدي الصليبيين سنة(٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)[١].

٥– الرغبة في الاستشراق، والتعرُّف عن قُرب إلى العالمِ العربيِّ الإسلاميِّ، وسُكَّان الأرض المُقدَّسة، فكانت زياراتُ بعضُ الرحَّالة مُبرمجَة بالتنسيق مع كبار رجال الكنيسة في الغرب الأوروبي، والجامعُ المُشترك بينهما تقديم صُورة عن الأماكن المُقدَّسة والمُسلمين القاطنين فيها، وقد كُتِبَ بعضها على شكلِ تقارير تُرسل إلى أوربَّة ليقرأها رجال الدِّين على المسيحيين هُناك، فتكونُ وسيلةً أُخرى من وسائل الترويج الإعلامي والدِّعاية للقيام بحملاتٍ صليبيَّة جديدة، ودعوة للمسيحيين الغربيين للقدوم إلى الأماكن المُقدَّسة، للاستيطان فيها، وتخليصُها من المُسلمين، لأنَّها على حدِّ زعمهم هي أرض الميعاد، وهمُ سُكَّانُها الأصليين، فبذلك تكون هذه الرِّحلات دعاية واقعية، يكتبُها رجالُ دين مخلصين، وخريطة للقادمين الجُدد، وبذلك يتلاقى الاستشراق القديم مع استشراق العصور الوسطى الذي كان فيه الاهتمام الأوروبيِّ سياسياً وقفتْ وراءهُ الثقافة ووجهته[٢].

٦– اتَّبعتْ الرِّحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام في العصر المملوكي نَهجاً يكادُ يكونَ مُتشابهاً في عمليةِ الترويج والتصوير، واعتمَدت على أساليب الإقناع والتأثير، وضربتْ على الوترين الديني والعاطفي، فكانتْ بحقٍّ تجسيداً للوعي المسيحيِّ الغربيِّ ، وللصُورة النمطيَّة المغروسة في أذهانهم عن الأماكن المُقدَّسة، وعن المسلمين المُغتصبينَ لها حسبُ أفكارهُم[٣].

ثانياً– مضامينُ الرِّحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام في العصر المملوكي:

سادَ خلال العصرِ المملوكي نمطين من كتابات الرحَّالة الأجانب عن المشرق، **أوَّلَهُما:** دينيٌّ بحتٌ يهتمُّ بالأرض المُقدَّسة، ويَستقي قصصه من الكتاب المُقدَّس، فرسمَ رحَّالة هذا النمطُ حدود المشرق، ومعالمه بحسب ما نصَّ عليه ذلك الكتاب و شروحاته، ولمْ تهتمَّ هذه الكتابات بالإنسان في القُدس ولا بِمَا يحدثهُ العربي في الأراضي المُقدَّسة، بل تحدَّثتْ عن إنسان آخر صوَّرتْهُ تلك الشروحات الكنسيَّة، فرسَمُوا

---

[١] عوض: الرحالة الأوروبيين، ص١٦، ١٧.

[٢] سعيد(إدوارد): الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص٤٦.

[٣] مثالها عند الرحَّالة لودولف فون سوخم، والرحَّالة الألماني بورشارد، والرحَّالة الإنكليزي جون ماندڤيل.

للمشرق من خلال أعمال الرُّسل صُورة مزوَّرة تعودُ إلى عصرٍ آخر، لا صِلة لها بالإنسان الَّذي يعيشُ فيه، بل أنَّهم لعنوهُ لأنَّهُ لا يُشابه تلكَ الصورة التي استلهَمُوها من مجاهل التاريخ، **أمَّا النمط الثاني:** فقد مثَّلهُ الكُتَّاب الآخرين الَّذين باتوا على انعتاقٍ من قيُود الكنيسة، فلمْ يجدوا عن الشرق غيرَ الأساطير التي أضافوا إليها من خيالهم صوَّراً للإنسان المشرقي[١].

ويمكنُ التعبيرُ عن أساليب ومضامين الرِّحلات الأجنبية بما يلي:

١– العاطِفة الدينيَّة الجيَّاشة التي يتجلَّى فيها الجانب الوعظي والروحاني في أبهَى صوَّرهُ، من خلال تناول الرحَّالة للأماكن المُقدَّسة في فلسطين من وجهة نظر الكتاب المُقدَّس، وربطها بتاريخ الديانة المسيحيَّة، وذكريات السيد المسيح ﷺ و مُعاناته، حتَّى لحظة صلبه[٢].

٢– تجاهلتْ أغلبُ الرِّحلات الأجنبية في مضامينها الوجود الإسلامي في بلاد الشام، وقدَّم أصحابها صورة مُشوَّهة عنهم، فوصفوهم بأنَّهم سراقنة، ووثنين، وأعداء، ومغتصبين، وهمجيين، يَعتدونَ على الحُجَّاج المسيحيين، ويُنَكِّلون بهم، ولم يقدِّموا فيها سوى الصورةِ النمطيَّة عن المسلمين، ومردُّ ذلك؛ أنَّ مُعظم أولئك الرحَّالة لمْ يختلطوا بالمُسلمين أو يحتكُّوا بهم بشكل مباشر، فكتبُوا عنهُم عن بُعدٍ، فخلتْ مُعظم رحلاتِهم من الموضوعية المُبرمَجُ لها من ناحيتهم[٣].

٣– ركَّزت أغلبُ الرِّحلات الغربيَّة على وصفِ جمال الأراضي المُقدَّسة في بلاد الشام، فوصفُوا خصوبَتِها، وكثرةُ أشجارها، وثِمارها، ومزروعاتها، ومياهها، وحيوانها، و هي في عُرفِهم أرض الميعاد التي تدرُّ عَسلاً ولبناً، وبذلك أدَّت الرِّحلات دوراً مُهماً في عمليتي الإقناع والتأثير على الغرب الأوروبيِّ[٤].

٤– ركَّز مُجمل الرحَّالة الأجانب في رحلاتِهم على إبراز صورة إيجابيَّة للصليبيين الَّذين استوطنوا مُدن بلاد الشام، فَوصَفوا قوَّتَهم العسكرية، ومنعة حُصونهم، وغناهم الفاحش، ومعالمهم الحضارية، وعناية ملوكهم وقادتهم بأبناء ملَّتهم، ولا يُخفى ما في هذا الوصف من تشجيع على القدوم إلى هذه البلاد[٥].

ثالثاً– عوامل زيف الرِّحلات الأجنبية في العصر المملوكي:

يُعدُّ اختلافُ الثقافات بين المشرق العربيِّ الإسلاميِّ والغرب الأوربيِّ، مِن أهمْ عوامل زيف الرِّحلات الغربية، فلمْ تكن أهداف الرحَّالة الغربيين من رحلاتهم تتفق مع الأهداف القومية أو الوطنية العربيَّة الإسلاميَّة، رُغمَ أنَّها قد تلتقي معها عرضياً أحياناً، لكنَّها ما تلبث أنْ تتعارض، ولا يُعتقدُ أنَّ أياً من

[١] إبراهيم: روايات غربية، ج١، ص٥٨.

[٢] عوض: الرحَّالة الأوربيون، ص٨٤.

[٣] مثالها رحلة الألماني بورشارد من دير جبل صهيون، و رحلة الإنكليزي جون ماندفيل.

[٤] مثالها رحلة الألماني بورشارد من دير جبل صهيون.

[٥] مثالها رحلة الإنكليزي جون ماندفيل.

الرحالة الغربيين– خاصة الرواد منهم– كانَ يتوقع في ذلك الوقت أنْ تُترجم رحلاته إلى العربيَّة، أو أنْ يقرأها الرأي العام العربيِّ الإسلاميِّ في لُغاتها الأصليَّة، لذلك راحَ أدبُ الرِّحلة الغربيَّة يُخاطب مُجتمعاته على ضوء الثقافة الموروثة لتلك المُجتمعات التي تختلفُ عن ثقافات العرب المسلمين التي خاضَ الرحَّالة الغربيون في أدقِّ تفاصيلها.

ويُمكن القول:

إنَّ كافَّة كتابات الرحَّالة الغربيين قد دَخَلهَا شيءٌ قليل أو كثير من الزيف المُتعمَّد، لإدراكهم أنَّ الَّذين يَكتبونَ عنهم(العرب المسلمين) لا يقرأونَ كتاباتهم وبذلك يطعنُوا في شهاداتهم التي قدَّمتها تقاريرهم إلى دوائرهم العلمية، لتحقيق أهدافها في الدِّعاية للسيطرة والاحتلال وخاصة في عصر الحروب الصليبية.

وإنَّ كلَّ ما قدَّمه أيُّ رحَّالة غربي لا يزيدُ على كونهِ رُؤية لظاهرة عربيَّة إسلاميَّة بعيون غربيَّة، استمرأتْ النظر بدونيَّة إلى المُجتمع العربيِّ الإسلاميِّ، أمَّا المضمونَ الأخلاقي لأدب الرِّحلة الغربية نجده في مرويات كافَّة الرحَّالة حينَ يعملون على تحليل ما شاهدوه، ففيه اختلافٌ وتشاجر، وهو إفراز ذهنية غربية تختلفُ ثقافتها تماماً عن ذهنيّة الرِّحلات العربيَّة في العصر المملوكي[1].

رابعاً– طلائع الرحَّالة الأجانب إلى بلاد الشام:

حقيقةُ الأمر إنَّ المعلومات التي تُقدِّمُها المؤلفات، وكتب الرحَّالة الأجانب عن حياتهم هي معلوماتٌ قليلة، فأغلبُ المصادر لمْ تُسعفُنا بمعلوماتٍ عن الاسم الكامل لجميعِ الرحَّالةِ، كما أنَّ كُتب الرِّحلات الأجنبيَّة نادراً ما أشارت إلى خطِّ سير الرِّحلات؛ وبالتالي سيتمُّ تدوينُ ما أمكنَ التوصُّل إليه.

وبجانبٍ آخر ستتمُّ دراسة مُوجزة لأشهر الرحَّالين الأجانب الَّذين زاروا بلاد الشام قُبيل العصر المملوكي، ولعلَّ الهدفَ من ذلك تقديمُ أوصافَ رحلاتِهم كعُنصر مُقارنة مع أوصاف مثيلاتها من الرِّحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، و بذلك يُفهم من خلالها ما كانت عليها أوضاع بلاد الشام قُبيلَ العصر المملوكي، وما آلت إليه خلالهِ، **وذلك من نواحي عدَّة:**

١– الناحية السياسية والحربية:

يُفهمُ من خلال المُقارنة معرفة ما كانت عليه حركة المُقاومة الشعبيَّة العربيَّة الإسلاميَّة ضد الصليبيين قُبيل العصر المملوكي، وهلْ تطوَّرت هذه المقاومة خلالهُ؟، وما هي طبيعة العلاقة السياسيَّة والحربيَّة السائدة بين العرب المسلمين والصليبيين قُبيل العصر المملوكي، وخلاله؟.

٢– الناحية الحضاريَّة والعمرانيَّة:

[1] إبراهيم: روايات غربية، ج١، ص٥٢، ٥٦.

يُفهمُ من خلال المُقارنة ما كانت عليه مُدن بلاد الشام، وما طرأ عليها من تغيير في العصر المملوكي، لاسيَّما أنَّ أغلب هذه المدن قد تعرَّضت لعمليات احتلال من قبل الصليبيين، ثمَّ جرى تحريرُها من قبل المماليك.

٣- الناحية الاجتماعيَّة:

يُفهم من خلال المُقارنة التركيبة الاجتماعيَّة لمُدن بلاد الشام، أثناء سيطرة الصليبيين عليها، وبعد تحريرها من قبل المماليك، وبجانبٍ آخر يُعرف ما آلت إليه الرِّحلات الاجنبيَّة بتقديمها الأوصاف لسُكَّان بلاد الشام، وعاداتهم وتقاليدهم، ودياناتهم، فهل اختلفت نظرة الرحَّالة الأجانب في العصر المملوكي لا سيَّما بعد تحرير عكا سنة(٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) عن نظرة الرحَّالة الَّذين سبقوهم وقدموا صورة سلبيَّة عن مجتمعات بلاد الشام؟.

٤- الناحية الاقتصاديَّة:

تكمُن أهمِّية المُقارنة فيها بمعرفة ما كانت عليه أوضاع بلاد الشام الاقتصادية قُبيل تحرير مُدنها من الصليبيين، وما طرأ على الاقتصاد من تغيُّرات بعد تحرير البلاد من أيدي الصليبيين خلال عصر المماليك البحريَّة، وهل اقتصرت الأعمال الصناعيَّة والتجاريَّة والزراعيَّة على فئة دونَ غيرها؟.

وبجانبٍ آخر أنَّ السببَ الرئيسي لاعتماد مُقارنة الرِّحلات الأجنبيَّة في العصر المملوكي مع مثيلاتها من الرِّحلات الأجنبية التي تطرَّقت لبلاد الشام قُبيل هذا العصر؛ هو انحسار عدد الرحَّالة الأجانب الَّذين زاروا بلاد الشام بعد تحرير عكا، و حتَّى لا يغلبُ على البحثِ سِمة النقل، وتقديم الأوصاف الجافَّة بالاعتماد على رحلة مُعينة، اضطُر للُمقارنة التحليليَّة الوصفيَّة والنقديَّة مع الرحلات الأجنبيَّة قُبيل هذا العصر.

وفيمَا يلي تعريفٌ بأشهر الرحَّالة الأجانب الَّذين زاروا بلاد الشام قُبيل العصر المملوكي، والَّذين سيُعتَمد على رحلاتِهُم في المُقارنة الوصفيَّة التحليليَّة والنقديَّة مع مثيلاتِها من الرِّحلات الأجنبيَّة في عصر دولة المماليك البحرية.

١- الرحَّالة الإنكليزي سَايلُوف (٤٩٦- ٤٩٧هـ/ ١١٠٢- ١١٠٣م):

رحَّالة إنجليزي، لُقِّبَ سَايلُوف بمعنى كلب البحر؛ لكُثرة ترحاله وأسفاره[1]، رحلَ إلى الأراضي المُقدَّسة في فلسطين سنة(٤٩٦هـ/ ١١٠٢م)، بعد أنْ مضَى على استقرار الصليبيين فيها نحوَ ثلاث سنوات وثمانيةَ أشهر، ومن هُنا تكمُن أهمِّية رحلته، إذ جاءت في بداية الاستقرار الصليبي في الأراضي المُقدَّسة[2]،

---

[1] عوض: الرحَّالة الأوربيون، ص٤٢.

[2] سايلوف: رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأراضي المقدسة(١١٠٢- ١١٠٣م)(وصف الأراضي المقدسة)، تر: سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشروق، رام الله- فلسطين، ط١، ١٩٩٧م، ص٥؛ عوض: الرحَّالة الأوربيون، ص٤٢.

إضافةً لذلك فأنَّها تناولت الأوضاع العُمرانيَّة خلال الفترة المُبكِّرة من الاحتلالِ الصليبي، وتطرَّقت إلى ذكر طريق الحجِّ الَّذي سلكهُ الرحَّالة الأجانب في رحلتهم إلى المشرق العربي[١].

وتُعدُّ رحلتهُ رحلةً صغيرة في عددِ أوراقها قياساً إلى رحلات الآخرين من أبناء جَلدته، وتتقاطع معها بأنَّها ربطت بين الأماكن المُقدَّسة، وتاريخها الوارد في الكتاب المُقدَّس، فكانت عاطفتها الدينية قويَّة جيَّاشة، وفي ثنايا هذه الرحلة، قدَّم سايلوف صُورة للعرب المسلمين، وإن كانت قليلة، لكنَّها تكشفُ عن الخلفيَّة العدائيَّة التي يكنُّها لهم، وعن تحاملهِ عليهِم[٢].

وبالنسبة لتاريخ عودته إلى الغرب الأوروبيِّ، وتاريخ وفاته فهُما غير معروفين على وجه التحديد، ولمْ تردَ أيَّةَ إشارةٍ إلى ذلك في رحلته وفي المصادر التي تناولته بالذكرِ.

٢- الرحَّالة الرُوسي دانيال الراهب(٥٠٠- ٥٠١هـ/ ١١٠٦- ١١٠٧م):

ولدَ في مقاطعة تكرينكوف(Tchernigo) في روسيا الصغرى(Little Russia)، وكلُّ ما يُعرف عنه أنَّه عَمِل في أواخر حياته أسقُفاً لمنطقة سوريف(Suriev) في روسيا سنة(٥٠٩هـ/١١١٥م)[٣] ثمَّ تسلَّم عضواً في الكنيسة الروسيَّة(اليونانيّة)، وتميَّز بأنَّه انسانٌ ذو علمٌ وذكاءٌ، وزارَ هذا الرحَّالة بلاد الشام خلالَ المدَّة الواقعة بين(٥٠٠- ٥٠١هـ/١١٠٦-١١٠٧م)، ذلك بعد سيطرة الصليبيين على بيت المَقدس بثمان سنوات.

أمَّا **الدافعَ** لرحلته فهو دافعٌ الديني تجلَّى بالعاطفة الدينيَّة الجيَّاشة لرؤية أرض الميعاد، والارتحال إلى الأماكن المُقدَّسة، والدليل على ذلك أنَّ رحلته لم تتجاوز رؤية الأراضي المقدسة المُتعلِّقة بالمسيح وأمه؛ وهذا ما عبَّر عنه بقوله: « ورأيتُ الأماكن المقدَّسة، وقمُتُ بزيارة معظم المناطق في الجليل، وجميع الأماكنِ المُقدَّسة حول البيت المقدس التي عانقها المسيح بقُدسيته، وحيث ظهرت عليه المعجزات»[٤].

وفيما يخصُّ **خط سير** رحلته فيتَّضح من خلال تتبُع رحلته أنّه سار من روسيا إلى القسطنطينية، ومنها انتقل إلى مدينة هيراكليوم[٥]، ثمَّ بدأ رحلته بحراً إلى يافا وزار في طريقه جزيرة كريت(Crete)،

---

[١] عوض: الرحَّالة الأوربيون، ص٤٥.

[٢] سايلوف: وصف الأراضي المُقدَّسة، مُقدِّمة الرِّحلة، ص٧.

[٣] الراهب(دانيال): وصف الأرض المقدسة في فلسطين، تر: سعيد عبد الله البيشاوي و داود أبو هدبة، دار الشروق، عمَّان، ط١، ١٩٩٢م، ص٢٥.

[٤] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٢٩، ٣١.

[٥] مدينة تقع على بحرِ مرمرة. دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٤١.

وأفسوس[١]، وجزيرة بانتوس[٢]، وجزيرة قبرص(Cyprus)[٣] ومنها انتقلَ إلى يافا، ومن يافا انتقلَ إلى اللدِّ، ثمَّ عادَ إلى يافا.

وبعدها زار بيت المقدس، واتَّخذ مكاناً لإقامته في ميتوكيا(بيت حجاج القديس سابا)، ومنه قامَ **برحلتين: الأولى** إلى نهر الأردن والبحر الميت، وزارَ خلالها أريحا والأديرة اليونانية في وادي الأردن وفي بريَّة بيت المقدس، **والثانية** كانت إلى بيت لحم، والخليل ثمَّ ذهب إلى بحيرة طبرية، إذ أمضى هناك عشرة أيام في زيارة الأماكن المُقدَّسة على حدود بحر الجليل، ثمَّ زار جبل طابور، والجليل، وعكَّا، ومنها انتقل جنوباً إلى قيسارية ونابلس، وقد أقامَ دانيال الراهب في الأماكن المُقدَّسة ما يُقارب السنتين أمضى منها ستة عشر شهراً في القُدس(دير القديس سابا)، وهو محلُّ إقامة الحجيج، وقد ذكرَ ذلك في مطلع رحلته، فقال: « ستة عشر شهراً في محلِّ إقامة الحجيج، في دير القديس سابا، وهكذا كان بإمكاني زيارة واستكشاف جميع الأماكنِ المُقدَّسة، وقد نجحت في ذلك»[٤].

وخلال إقامته في الأماكن المُقدَّسة وصفَ ما شاهده وصفاً واقعياً حسب رؤيته، إذ بلغَ عدد المواضع التي زارها سبع وتسعين موضعاً، ابتدأها من بيت المقدس وخلصَ بنهايتها بزيارة النُّور المُقدَّس بعد أن أقام أيام عدَّة في دير القديس سابا[٥]، لتنتهي رحلته في هذا المكان ويُقرِّر العودة إلى روسيا، فانطلق في رحلة العودة وسافر عبر دير الصليب[٦]، وعين كارم[٧]، ثمَّ إلى يافا، ومِنْ ثمَّ إلى قيسارية، ومنها إلى صور وصيدا، ثمَّ إلى بيروت، ومنها سار بالقرب من الساحل حتَّى وصلَ ميناء السويدية، فميناء أنطاكية، ومنها إلى ساحل ليسيا قرب باتارا[٨].

---

[١] تقع أفسوس في آسيا الصغرى مقابل جزيرة ساموس(Samos). حبيب(القس صموئيل): دراسات في رسالة ثيموثاوس الثانية، دار الجيل، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص ٢١، ٢٢.

[٢] إحدى جزر بحر إيجة. ديورانت(ول): قصة الحضارة ، تر: محمد بدران، مطبعة الرَجوي، القاهرة، ١٩٧٤م، ج ١١، ص ٢٧١.

[٣] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٣٣؛ عوض: الرحالة الأوربيون، ص٧٧.

[٤] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٣٣، ٣٤، ٣٥-٤٠.

[٥] دانيال: وصف الأرض المقدسة، مُقدمة الرحلة، ص١٤.

[٦] أنشأه الفرنجة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بالقُرب من بيت المقدس. الدباغ (مصطفى مراد): بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤م ، ج٨/ ق٢، ص٥٩.

[٧] تقعُ على بعدِ سبع كيلو مترات جنوب غربي بيت المقدس، وهي من قُرى فلسطين المشهورة بحُسنها وجمالها، و مشهورة بزراعة أشجار الكرمة والزيتون. الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٨/ ق٢، ص١٥٧.

[٨] إحدى مدن آسيا الصغرى، تقعُ على شاطئ آسيا الصغرى غرب جزيرة رودس. سعيد(حبيب): سيرة بولس الرسول، دار دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧م ، ص ١٧٠ .

وفي النهاية وصلَ القسطنطينية ليعود من هُناك إلى روسيا، وهناك قامَ بتدوين رحلته، ولعلَّ السببَ الَّذي دفعه لتدوينها قد تجلَّى بقوله: « وإنِّي أكتبُ عن رحلتي من حُبِّي لتلك الأماكن المُقدَّسة، وحتَّى يتسنَّى لي أنْ أتذكَّر كلُّ ما سمحَ لي الله برؤيته، قُمتُ بالكتابة من أجل المؤمنين ليتسّنى لهم عند سماعِ وصف هذه الأماكن المقدسة أن ينتقلوا ذهنياً من أعماق أرواحهم، وهكذا يكسبون من الله نفس الثواب الذي حصل عليه من زاروا تلك الأماكن».

وبعد أن انتهى من تدوين رحلته تفرَّغ للعبادة ليُقضي حياته في سلك الرهبنة، ولم تتطل حياتهُ بعدها إذ أدركته المنية سنة(٥١٦هـ/١١٢٢م)، ومهما يكُن من أمرٍ تُعدُّ رحلته وثيقة مُهمَّة عن الأراضي المقدَّسة خلال بدايات الاستقرار الصليبي في المشرق، إذ احتوت على جوانب عدَّة مُهمَّة على مستوى العلاقات السياسية والحربية بين مملكة بيت المقدس، والقوى المجاورة لها، فضلاً عن الجوانب الاقتصاديَّة، والكنسيَّة[١].

٣- الرحَّالة الروسي الحاج فيتلوس(٥١٢- ٥٢٥هـ/ ١١١٨- ١١٣٠م):

يُكتَب اسمهُ بصورٍ متعدِّدة مثل فرتيلوس وفيتلوس، ولدَ في مقاطعة تكرينكوف في روسيا الصغرى(Little Russia)[٢]، والمعلومات عنه قليلة، وكلُّ ما هو معروفٌ أنّه تسلَّم رئيساً للشمامسة في كنيسة أنطاكية سنة(٥٤٥هـ/ ١١٥٠م)، أي بعد عشرين عاماً على عودته من رحلته[٣]، ويبدو أنَّ فيتلوس قامَ برحلته إلى الأراضي المُقدَّسة خلال العقد الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، في المدَّة الواقعة ما بين(٥١٢- ٥٢٥هـ/١١١٨- ١١٣٠م)، وعلى وجه التحديد بعد سنة(٥١٩هـ/ ١١٢٤م)[٤]، ودليلُ ذلك يُستَمدُّ من رحلته، إذ قرَّر فيتلوس إشارة مهمَّة عن الداويّة(Templars)، ووصفهم ووصفهم بأنَّهم الفرسان المُحدثون[٥] ومن المعلوم أنَّ الدواية قد تأسس تنظيمهم سنة(٥١٩هـ/١١١٨م)، وبذلك تمَّت رحلته بعد ذلك بقليل[٦].

---

[١] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٢٣، ٢٥؛ عوض: الرحالة الأوربيون، ص٧٣.

[٢] عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٠٤.

[٣] فيتلوس: وصف الأرض المقدسة في فلسطين، تر: سعيد عبد الله البيشاوي و فؤاد عبد الرحيم دويكات، مؤسسة حمادة للدارسات الجامعية، إربد- الأردن، ٢٠٠٨م، ص٢٣؛ عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٠٤.

[٤] فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص١٠؛ عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٠٥.

[٥] فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٣٩.

[٦] خميس(إبراهيم): العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام(٥٨٩- ٦٩٠هـ/ ١١٩٣-١٢٩١م)، جامعة الإسكندرية، ط١، ١٩٨٧م، ص٤٧.

وتكمُن **دوافع** رحلته بالدوافع الدينيَّة، واقناع الصليبيين بالرِّحلة إلى البيت المُقدَّس وتخليصهُ من أيدي العرب المسلمين[١]، أمَّا هدفه من تدوين رحلته؛ لتكونَ مُجرَّد دليلاً جُغرافي للقادمين إلى الأراضي المقدَّسة أو حتَّى أولئك الَّذين لمْ يكنْ في مقدورهم القُدوم إليها، وأرادوا أن يعرفوا الكثير عن تلك البقاع من خلال أحد الأدلَّة[٢].

وعن **الطريق** الذي سلكه فيتلوس فهو الطريق المُعتاد من روسيا إلى أنطاكية، ومنها بحراً إلى جُزر المتوسط، ثمَّ إلى ميناء حيفا، ومنها انطلق لزيارة الأماكن المقدَّسة و زارَ أغلب مُدُنها، وبعد أن أمضى فيها ما يُقارب الست سنوات عاد قافلاً من يافا إلى أرسوف، ومنها انطلق إلى ميناء السويديَّة، ومن ثمَّ إلى خليج أنطاكية، وبعدها عاد إلى روسيا، إذا أدركته الوفاة هناك بعد مدَّة من عودته و أغلب التقديرات نحوَ (٥٦٤هـ/١١٦٨م)[٣].

وتكمُن **أهمّية** رحلته في أنَّها ألقت الضوء على أوضاع الأراضي المقدَّسة من الناحية السياسية، والحربية، وعلاقاتها بالقوى الأخرى المجاورة، كذلك كونَ صاحبها اهتمَّ بالساحل الشامي، وبعض القلاعِ الصليبية، وتناول فيها زاويتها الاقتصادية، وأهمّ الكنائس، والأديرة المُتناثرة[٤].

٤- الرحَّالة الألماني ثيودوريش(٥٥٧-٥٥٩ هـ/١١٦١- ١١٦٤ م):

رحَّالة ألماني لم يُعرف عنه سوى اسمه الأوَّل، أمَّا اسمَ عائلته فهو مجهولٌ، و ثيودوريش مسيحي مُتعصب عملَ أسقفاً في مدينة فورزبورغ[٥] الألمانية[٦]، وتميَّز بدرجة عالية من التديُّن مع ثقافة دينيَّة رفيعة، وقد زارَ بلاد الشام خلال المدَّة الواقعة بين سنة(٥٥٧-٥٥٩هـ/١١٦١-١١٦٤م)، قدَّم خلالها وصفاً لما شاهده، فتناول بالوصف بيت المقدس، والخليل، والجليل، وبيت لحم، وغزة، ويافا، وغيرها،

---

[١] فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص١١، ١٣؛ عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٠٤.

[٢] عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٠٤.

[٣] فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص١٦، ١٧.

[٤] عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٠٤.

[٥] مدينة ألمانية تقع في جنوب غرب ألمانيا إلى الشمال من بافاريا على نهر المين، تبعد حوالي ١٠٠ كم عن مدينة فرانكفورت.

Meisner. M; Hajm, VVurzburg. VVurzburg, 1975. p 113.

Amer. A: Ency VVurzburg, Vol. XX, New Jsrsy, 1981, p. 297.

Amer. E: VVurzburg, Vol, XXXIX, U .S. A, 1985, p. 568. ; Brit. E: VVurzburg, Vol. XXIIV, U. S. A, 1958, p 818, 819.

[٦] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، تر: سعيد عبد الله البيشاوي و رياض شاهين، دار الشروق، رام الله- فلسطين، ط١، ٢٠٠٣م، ص١١؛ عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٨٠.

مُقدِّماً تفاصيل دقيقة عن الأماكن المسيحيَّة المقدَّسة في فلسطين، مع الربط بين هذه الأماكن، وبُعدها التاريخي من الناحية الدينيَّة فقط[1].

أمَّا **دوافعَ** رحلته، فتكمُن برغبته في نقلِ تجرُبته ومشاعره الدينيَّة عقب زيارة الأماكن المُرتبطة بالمسيح وآلامه إلى أولئك الَّذين لم يتمكَّنوا من زيارتها، وتجلَّى ذلك بقوله: « ويحدوني الأمل أن تُثير عقول أولئك الَّذين يقرؤونها أو يسمعونها من أجل محبته من خلال تعرُّفهم عن الأماكن التي تمَّ وصفُها».

ويتضح من قوله أنَّ هدفه التحريض على العرب المسلمين، وبذلك فإنَّ رحلته جزءاً من حرب الدعاية الإعلاميَّة لترويج هدف الحروب الصليبيَّة، وممَّا يدلُّ على ذلك أنَّ التدوين النهائي للرحلة تمَّ بعد عودة ثيودوريش إلى ألمانيا، وذلك بعد استعادة العرب المسلمين بيت المقدس والانتصار في معركة حطين سنة(٥٨٣هـ/١١٨٧م)، إذ صنَّفها باسم(holy land description of the)، ممّا دفعَ رجال الدِّين إلى تنشيط حركتهم الإعلامية داخل أوربة، لإقناع الناس وحثِّهم على زيارة بيت المقدَّس، وبذلك يكون هذا الكتاب من مظاهر الدعاية الدينيَّة التي رعتها الكنيسة، لحثِّ الناس على المُشاركة في تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين[2].

وبعد أن دوَّن ثيودوريش رحلته تفرغ للعمل الكنسي والعبادة، إذ عُين أسقفاً لكنيسة فورزبورغ سنة(٥٨٦هـ/١١٩٠م)، وهذا ما وجِدَ مُدوناً في قائمة أساقفة كنيسة ميونخ الكاتدرائية، واحتفظ بمنصبه لمُدِّة سنة وشهرين وأربعة عشر يوماً أيّ حتَّى(٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)، وهو العام الذي وافته فيه المنيَّة[3].

٥- الرحَّالة الألماني يوحنا الورزبرجي(٥٦٦- ٥٦٨هـ/١١٧٠- ١١٧٢م):

الحاج يُوحنا مواطناً ألمانياً مُتَّقد الحماسة، لا يوجدُ شيءٌ مؤكَّد عنه باستثناء ما يخُبر به هو، بأنَّه كان راهباً في كنيسة فورزبورغ، ثمَّ عُيِّن أسقفاً سنة(٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، رحل الحاج يُوحنا إلى بلاد الشام وهو في الخامسة والعشرين[4]، وبذلك من المُفترض أن تكون رحلته قد تمَّت سنة(٦٦٦هـ/١١٧٠م)[5].

أمَّا **دوافعَ** رحلته، فهي دوافعٌ دينيَّة تجلَّت بالرغبة في زيارة الأماكن المُقدَّسة لفلسطين، مع الرغبة بوصف هذه الأماكن وتقديمها للقُرَّاء لتشجيع الأوربيين على الهجرة إليها، وتجلَّى ذلك بقوله: « لهذا السبب اعتقدُ

---

[1] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص١٤؛ في حين ذكرَ محمد مؤنس عوض أنَّ الرحلة تمَّت نحو(١١٧١-١١٧٣م). عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٨١.

[2] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص١٩، ١٨٤.

[3] الورزبرجي(يوحنا): وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، تر: سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشيماء، رام الله- فلسطين، ط١، ٢٠١١م، ص١٣.

[4] يُوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص١٣.

[5] عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٢٤.

أنَّ هذا الوصف سيكونَ مُرضياً مقبولاً لكم، عندما تتعرفوا لكلِّ هذه الأماكن من خلال الوصف، ستكونَ دائماً مُغرية لكم الزيارات بإلهام ديني وعن طريق الحماية»[١].

ويبدو أنَّ رغبة الحاج يُوحنا في إفادة معاصريه ممَّا شاهده، جعلته يُسرِع في تدوين الرِّحلة سنة(٥٩٦هـ/١٢٠٠م) أيّ بعد عودته إلى ألمانيا[٢]، وضمَّنها سبعة وعشرين فصلاً خصَّص منها ستة عشر فصلاً للقُدس درسَ فيها الأرض المُقدَّسة من خلال المعلومات الواردة في الكتاب المُقدَّس[٣].

وتكمُن **أهمِّية** الرِّحلة أنَّ صاحبها قدَّم فيها معلومات مُهمَّة عن الصليبيين، وأساليب المقاومة للاحتلال الصليبي[٤]، إضافةً لتناوله عناصر الهيئات الحربية الصليبية خاصة الاسبتارية، والداوية بصورة ميَّزته عن غيره من الرحَّالة الأوروبيين بصفة عامة والألمان منهم بصفة خاصة[٥].

وكما ذُكر سابقاً فأنَّ يوحنا عُيّنَ أسقفاً لكنيسة فورزبورغ لمدَّة قصيرة، ثمَّ وافته المنية سنة(٦٢١هـ/ ١٢٢٤م)[٦].

خامساً- دراسة نماذج من الرحالة الغربيين(الأجانب) الَّذين زاروا بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة:

١- الرحَّالة الألماني بُورشارد من دير جبل صهيون(Burchard de Mont Sion)(٦٣٢-٦٨٤هـ/١٢٣٤- ١٢٨٥م).

أ- التعريف بالرحَّالة:

الحاجُّ بُورشارد دي مُون سيون مواطناً ألمانياً من بلدةِ سترازبورغ، غيرُ معروف تاريخ ولادتهُ، امتازَ ببُعدهِ عن التعصُّب، وكان تقياً مُتديناً، مُحبَّاً لكافة الطوائف المسيحيَّة، وعلى درجة كبيرة من التعلُّم[٧]، اشتغلَ في سلكِ الرهبنة[٨]، وأصبح راهباً في هيئة الدومينيكان التي أُسِسَت سنة(٦١٣هـ/١٢١٥م)، وفي سنة(

---

١ يُوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص١٧.

٢ عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٢٥.

٣ يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص١٣، ١٤.

٤ عوض: الرحالة الأوربيون، ص١٢٤.

٥ عبد الوهاب(حسن): تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة(١١٩٠- ١٢٩١م)، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٩م، ص٣٧٩.

٦ يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص١٣، ١٤.

٧ البيشاوي(سعيد): الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص٤٩؛ نعيرات(أسامة): اقطاعية بيسان ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي، مؤسسة الأسوار، عكا، فلسطين، ط١، ٢٠٠٢م، ص٣٨.

8 Aubrey. S; .Cf ; Introduction of Burchard of Mount Sion, Vol.12 , pp 111.

٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) رحلَ بورشارد إلى الشرق، فزارَ كُلّاً من بلاد الشام ومصر، و أمضَى في جبل صهيون نحوَ عشر سنوات[١].

ويبدوُ أنَّ بداية رحلتهِ إلى الأراضي المُقدَّسة في بلاد الشام كانت بعد مُنتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وتحديداً في العصر المملوكي في عهد السُلطان الظاهر بيبرس ثمَّ عهد المنصور سيف الدين قلاوون الألفي[٢]، وقد أمضَى هُناك عشرَ سنواتٍ من سنة(٦٧٣- ٦٨٣هـ /١٢٧٤- ١٢٨٤م)، وهي حقبةٌ زمنيةٌ حرجة، إذ شهدتْ استكمالَ تحرير ما تبقَّى من أراضي عربيَّة إسلاميَّة في فلسطينَ ولبنان من الاحتلال الصليبي وتوِّجت سنة(٦٩٠هـ/١٢٩١م) حينَ تمكَّنَ الأشرفُ خليل بن قلاوون من إخراج الصليبيين نهائياً من بلاد الشام في معركة عكا[٣].

وخلال هذه المُدَّة تجوَّلَ بورشارد في بعض مناطقِ بلاد الشام والأراضي المُقدَّسة، و قدَّم وصفاً دقيقاً لكلِّ معالم الحياة فيها، ولم يَعُد إلى ألمانيا حتَّى أواخر عُمره غيرَ أنَّ تاريخَ وفاتهُ غيرَ معروفٍ على وجه التحديد[٤].

ب- دراسة الرِّحلة:

أ- ب- دوافع الرِّحلة:

تُعدُّ رحلة بورشارد إحدى أهمّ الرِّحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام في العصر المملوكي، ويبدو أنَّ دوافع الرحَّالة بورشارد للارتحال إلى المشرق، لمْ تختلفْ عن دوافع من سبقه من الرحَّالة الأجانب، **ولعلَّ أهمِّهَا:**

1ً- الدافع الديني:

تجلَّى بالعاطفة الدينيَّة الجيَّاشة لرؤية أرض الميعاد(مدينة بيت المقدس)، والارتحال من أجل الحجِّ في الأماكن المُقدَّسَة، وقد عبَّر بورشارد عن ذلك بقوله: « فما وجهُ العجب إذا ما تشوَّق المسيحيين لرؤية الأرض التي تُحدِّثُنا عنها جميع كنائسِ المسيح ولزيارتها؟. فقد بجَّلَ الناس القُدماء قُدس الأقداس، لأنَّه كانَ هُناك تابوت العهد...، أو ليسَ ضريحُ المسيح يستحقُّ العبادة منا أكثر من أيِّ شيءٍ آخر؟!.»[٥].

2ً- الرَّغبة في اقناع الصليبيين بالرِّحلة إلى بيت المَقدس وتخليصهُ من أيدي المسلمين، و تشجيعَهُم على ذلك من خلالِ وصف جمال الأراضي المُقدَّسة، وخيراتها، و خصوبتها، وتجلَّى ذلك بقوله: « وما

---

١ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، تر: سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشروق، عمان- الأردن، ط١، ١٩٩٥م، ص١٦، ١٧.

٢ عبد الله(جوزف): منتخبات التواريخ والآثار مما خلَّفهُ الرحالة الغربيون حول عكَّار والجوار، مكتبة السائح، طرابلس- لبنان، ٢٠١٠م، ص٩.

٣ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، مقدمة الرحلة، ص١١.

٤ البيشاوي: الممتلكات الكنسية، ص٤٩؛ نعيرات: اقطاعية بيسان، ص٣٨.

٥ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٨.

الَّذي أحتاجهُ للقول أكثر؟ من المُمكن أنْ نتنهدَ وننزعج اتِّجاه انعدام الحماسة لدَى المسيحيين في أيامِنَا، الَّذين لديهم أمثلة كثيرة مضروبة أمام أعيُنهم، ويترددونَ في العمل على انتزاع البلاد التي قدَّسها يسوع بدَّمه، من أيدي الأعداء، مع أنَّهم يُغَنُّونَ يوميَّاً بحمده في الكنائس خلالَ العالم كلَّه»[١].

3ً– رغبتَهُ في نقلِ تجربتِهِ ومشاعرِهِ الدينيَّة عقبَ زيارة الأماكن المُرتبطة بالمسيح وآلامه إلى أولئك الَّذين لمْ يتمكَّنوا من زيارتها، وتضمينها في كتاب وتقديمها للقُرَّاء، وقد عبَّر بورشارد عن ذلك بقوله:« وعندما رأيتُ أنَّ بعضَ الناسُ تملَّكتْهُم الرغبة في أنْ يتصوَّروا هذه الأشياء بعقولهم، وهي الأشياءُ التي لم يكونوا قادرينَ على رؤيتها بأعيُنهم، ورغبةً منِّي في تلبيةِ رغباتِهُم، بقدر ما أمتلكُ من طاقةٍ، فكَّرتُ بقدر ما أستطيعْ، في أنْ أكتبَ بكلِّ عنايةٍ وصفَ ما أُشاهده، وأنْ أصفَ بدقَّة مُتناهية تلكَ البلاد»[٢].

ب– ب– خطّ سير الرِّحلة:

حقيقةُ الأمر لم يُصرِّح الرحَّالة بورشارد بالطريق الَّذي سلكه في رحلته، ابتداءً من ألمانيا حتَّى لحظة وصولهُ إلى منطقة آسيا الصُغرى في شمال بلاد الشام، أيّ المنطقة المعروفة باسم أرمينيا، لكنَّه صرَّح بعد ذلك بالمناطق التي زراها، فقال: « سافرتُ حتَّى كبدوكيا، وسلوقيا، وكانَ ذلك بواسطة البحر، وأبحرتُ من هُناك إلى قُبرص، وتجوَّلتُ عبرَ الجزء الأعظم من تلك المنطقة، ومِن هُناك أبحرتُ إلى سورية، وقدمتُ إلى صور، وبعد مُضي عدَّة أيام أبحرتُ من هُناك على طولِ ساحلِ فلسطين، ومررتُ بحيفا والكرمل، ودورا، وقيساريَّة فلسطين، ويافا، وعَكرون، و أشدود، وعسقلان، وغزَّة، وجميع الصحراء الرمليَّة حتَّى مصبَّات نهر النيل ومن هُناك مضيتُ إلى دمياطَ التي كانَ اسمُها القديم ممفيس»[٣].

ومِنَ المُلاحظ أنَّ رحلته قد شملت كلَّ من أرمينيا وسورية، و فلسطين، وبعدها انتقلَ إلى مصرَ، لكنْ بعد وصوله إلى مصر لمْ يُقدِّمَ أيُّ وصفاً لها، ولا يُعرف الطريق الَّذي سلَكهُ أثناء عودته إلى ألمانيا، وربَّما هذا تعليلٌ لِمَا ذهبَ إليه بعضهم بأنَّ بورشارد، عادَ مرَّةً أُخرى إلى فلسطين وتوفي فيها، لكنْ هذا الأمرُ غيرَ مؤكداً[٤].

ج– ب– مضمون الرِّحلة:

عرضَ بورشارد سيرة رحلته في بلاد الشام(ومنها الأراضي المُقدَّسة) وفي أرمينيا في ظلِّ سيطرة المغول، في مؤلف له بعنوان" وصف الأرض المقدسة"(Descriptio Terrae Sanctae)[٥]، وحقيقةُ الأمر أنَّ

---

١ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠.

٢ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠، ١١.

٣ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٨٠، ١٨١؛ زكار(سهيل): الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ج٣٧، ص٢٤٨.

٤ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، مقدمة الرحلة، ص١٢.

٥ عبد الله: منتخبات التواريخ والآثار، ص٩.

تاريخ كتابة الرِّحلة مُختَلفٌ عليه، لكنْ الحوادث التي أتَى على ذكرها تُبرهن أنَّه كتبها بعد سنة(٦٧٠هـ/١٢٧١م)، وقبلَ سنتي(٦٩٠هـ/١٢٩١م) و(٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، وعلى هذا فإنَّ تاريخ سنة(٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) الَّذي ذكره بعضهم يبدو صحيحاً مع أنَّه لمْ يذكرهُ بنفسهِ، وذكرَ بعضُ الكُتَّاب أنَّه أمضَى عشرَ سنوات في الأرض المُقدَّسة أي من سنة(٦٧٤- ٦٨٤هـ/ ١٢٧٥- ١٢٨٥م) لكنْ من المؤكَّد أنَّه أمضَى عامين في كتابة رحلته هناك، و يُستَخلَص هذا ممَّا ذكره في الفصل الرابع، فقد كانَ هُناك في أيامِ حُكم المنصور قلاوون(٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)، وكتبَ قبل ثماني سنوات من تحرير عكَّا، وكانَ ذلك في أيام هنري ملك قبرص والقُدس، وأثناء هُدنة العشر سنوات التي أبرَمَها السلطان المنصور قلاوون في سنة(٦٨١هـ/١٢٨٢م) مع الداويَّة والاسبتاريَّة[١].

كتبَ بورشارد رحلته باللغة اللاتينية الوسيطة، ولسوء الحظِّ أنَّه تولَّى وصف الأرض المُقدَّسة بوساطة خطوط تقسيم كثيرة انطلاقاً من مدينة عكَّا، وهذه خطَّةٌ لمْ تكن مُجدية تماماً في التوضيح والتحديد لكنَّها نُقِلتْ مع أشياءٍ كثيرة[٢] من قبل مارينو سانوتو[٣].

وقد تضمَّنَ مؤلفه تسجيلاً لطبيعة الأرض المُقدَّسة وعُمرانها، ومُدنها الأساسية وآثارها وخاصةً فلسطين التاريخيَّة ومعالمها المُقدَّسة، وعلاوةً عليه فإنَّه وصفَ نباتاتها وحيواناتها، كما قامَ بعرض لشتَّى الفئات الدينية فيها[٤].

بدأ بورشارد وصفهُ للأرض المقدَّسة بالقول: « عليكمْ أنْ تعرفوا أنَّ ما ندعوهُ باسم الأرض المُقدَّسة هو ما وقعَ حُصَّة لأسباط بني إسرائيل الإثني عشر، وهما مملكةُ يهوذا، وكانت حصَّة سبطي يَهُوذا وبنيامين، والقسم الأخر هو مملكة السامرة، والسامرة هو الَّذي يُعرف في هذه الأيامُ بتبعيتهِ لمدينة سبسطية التي كانت عاصمة ديار الأسباط العشرة المُتبقية».

وضمَّنَ بورشارد رحلته أجزاء عدَّة شملَها الحديث عن الأرضِ المُقدَّسة، فابتداءها بذكرِ الجزء الأوَّل وهو الجزيرةُ السوريَّة، وفي هذا الشطر تقومُ مدينة الرها، وسمَّى هذا الجزء باسم سورية الأوَّلى، وسمَّى الجزء

---

[١] وقِّعت الهدنة بين المسلمين والفرنجة في (ربيع الآخر سنة ٦٨٢ هـ/ ٣ نوفمبر ١٢٨٣م)، لمدِّة عشر سنوات، وعشرة أيام، وعشر ساعات، وقد اعترفَ فيها الفرنجة بالسيطرة الإسلامية على جميع البلادِ التي تخضع لحكم السلطان المنصور قلاوون. ابن عبد الظاهر(محيي الدين عبد الله): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز خويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦م، ص٣٥- ٤٠؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،ج٧، ص٢٦٣، ٢٦٤؛ المقريزي: السلوك، ج١/ ق ٢، ص١٠٢.

[٢] زكار: الموسوعة الشاملة، ج٣٧، ص١٣٨- ١٤٠.

[٣] سانوتو(مارينو): الأسرار، تح: سمر الخادم و بلليغرينو رونكاليا، دار الريحاني، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص ٤٥، ٦٧، ٩٩، ٢٣٣، ٢٦٧، وغيرها.

[٤] عبد الله: منتخبات التواريخ والآثار، ص٩.

الثاني باسم سورية الثانية، وهي سورية المُجوَّفة التي تبدأ عندَ نهر الفرات، وتنتهي عند نهر بانياس الذي يصبُّ في البحر المتوسط، أمَّا سورية الثالثة فهي سورية فينيقية التي تبدأ من عند نهر بانياس، و تنتهي عندَ سفحِ جبل الكرمل حيث قلعة عثليت(قلعة الحُجَّاج)، ثمَّ أتَى الرحَّالة على ذكر سورية الرابعة، و هي سورية دمشق حيثُ دمشق العاصمة وتُعرف بسورية لبنان لوجود جبل لبنان فيها.

وذكرَ بعدها التالي لسوريَّة الرابعة أيّ سورية فينيقية، وهي فلسطين التي تُدعى فلسطيم، **وقسَّمها إلى أجزاء ثلاثة، الأوَّل** أطلقَ عليه اسم فلسطين الأولى وعاصمتها القدس، وهي المنطقة المُمتدَّة منها حتَّى البحر الميت، **والجزء الثاني** أطلقَ عليه اسم فلسطين الثانية، وعاصمتُها قيساريَّة وتمتدُّ حتَّى بيسان، **أمَّا الجزء الثالث** فهو فلسطين الثالثة وعاصمتُها بيسان، وتقع على مقربة من نهر الأُردن[١].

د- ب- منهج الرحلة:

إنَّ القارئ لمضمون الرِّحلة يُمكنه مُلاحظة المنهج الَّذي اتَّبعه الرحَّالة بورشارد في تدوين رحلته، فمنهجهُ الوصفي لا يقوم على مُشاهداتهِ فحسب إنَّما على أسئلة بعض السُكَّان والاستفسار منهم عن بعض المواقعِ والمدن، وأشارَ بورشارد إلى ذلك في بداية رحلته، فقال: « فكَّرتُ بقدر ما أستطيعَ، في أنْ أكتب بكلِّ عناية وصف ما أُشاهدهُ، وأنْ أصفَ بدقَّة مُتناهية تلكَ البلاد، التي مررتُ ماشياً عليها مراراً، ذلك أنَّني أُريد أنْ يعرفَ القارئ أنَّني لمْ أضمنَ أوصافي إلَّا ما رأيتهُ بأمِّ عيني، عندما كنتُ في المكان الموصوف نفسهُ، و إذا لمْ أستطعْ الوصول إليه، كُنت أراهُ من فوق أحدَ الجبال المُجاورة، أو من مكان مُوائم آخر، ولقد دوَّنتُ بدقَّة الأجوبة التي قُدِّمَت إليَّ من قبلِ السريان أو المسلمين أو من قبلِ قومٍ آخرين من سُكَّان تلكَ البلاد، وذلك بعدما سألتَهُم بدقَّة مُتناهية»[٢].

أمَّا منهجَهُ في تقسيم كتابهِ، فقد عَمدَ إلى تقسيم المناطق التي وصفها إلى أربعة أقسام، وكلُّ قسمٌ منها إلى ثلاثة أجزاء واضعاً في كلِّ قسمٍ المُدن، والأماكن التي وردَ ذكرها في الكتابات المُقدَّسة، واختار لذلك الوصف نُقطة مركزيَّة هي مدينة عكا، و من ثمَّ إعداد البلاد كلَّها وترتيبها من حولها، وقد عبَّر عن ذلك بقوله: « ولكي يتمكَّن عقل قارئي بسهولة من فهمِ ما سأخبرهُ عنه، رأيتُ اختيار نُقطة مركزيَّة ومنْ ثمَّ إعداد البلاد مِنْ حولها وترتيبها...، وقد مددتُ من هُناك أربعة خُطوط، كلُّ واحدٌ منها مُتَّجه إلى إحدى اتجاهات العالم الأربعة، وقد قسَّمتُ كلَّ ربعٌ إلى ثلاثة أجزاء، حتَّى تتوافق هذه الأجزاء الإثني عشر مع الرياح السماويَّة الإثني عشر...، حتَّى يُمكن بيسر وسهولة إيجاد موضع كلِّ مكان، وجزء العالم الموجود فيه»[٣].

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١١- ١٣.

[٢] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠، ١١.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١١.

وبجانبٍ آخر عُنيَ منهجه بوصف المستوى العلمي للبلدان التي مرَّ بها، ولمْ يكن مُتساهلاً في نقد ما يراعهُ من عادات الناس، وأخلاقهم خاصةً من الناحية الأخلاقيَّة، ولمْ يكن بورشارد مُتحيّزاً، إذ تجلَّتْ موضوعيتهُ بأنَّه تحدَّث عن الفئات والأجناس والديانات المُختلفة التي سكنت الأراضي المُقدَّسة، وقدَّمَ لها صورتين: الأولى سلبية، والثانية إيجابية، وشملت هذه الصورة العرب المُسلمين، وأصحاب الديانات الأُخرى، وكانَ شديدُ الانتقاد لفئات المسيحيين قبلَ المُسلمين، ومن الأمثلة على ذلك قوله واصفاً بعض المسيحيين: « وللحقيقة فإنَّ رجالَنا اللاتين هُم الأسوأ من جميع أهلِ الأرض الَّذين ينحدرونَ من سُلالتهم أحفادٍ أكثر حقارةً ورداءةً، وهُم يعيشونَ في الأراضي المقدَّسة بأقدام مُلوَّثة تُدنِّس المُقدَّسات»، ويبدو أنَّ بورشارد قد شكَّل صورة سلبيَّة نهائيَّة عن سُكَّان الأرض المُقدَّسة، عبَّرَ عنها بأسلُوب قاسي، فقال: « ولكنْ لا يُمكنُني تسمية أولئك الَّذين يقطنُونَ هُناكَ رجالاً أقوياء»[1]، وربَّما أنَّ نقده للمسيحين كانَ مُجرَّد دعوة للأوروبيين ليعودوا مرَّةً أُخرى إلى الأراضي المقدَّسة ويُخلِّصوها من سُكَّانِها الَّذين يقطنون فيها، وبذلك يكونُ قد وضعَ يده على الأسباب الحقيقيَّة التي وقفت وراء الهزائم المُتكرِّرة للأُمَّة الصليبية، وتوِّجَت بضياع القُدس منها.

و قام منهجُ بورشارد على الاعتناء ببيان المواقع الجُغرافيَّة، وذكر المعالم الأثرية وتقديمُ وصفاً مُتكاملاً للطرق والمسالك البريَّة التي عبرَهَا، والحديث عن كلِّ مدينة حلَّ بها من حيثُ السُكَّان ومُعاملة أهلها[2]، واعتمدَ بورشارد أسلوبُ الاستطراد في الحديث عن أيِّ بلدٍ ذكرهُ، ومثالها حديثه عن القدس، وأبوابها، وكنائسها، وما جاورها من الجبال، والوديان، والينابيع[3]، كما استطردَ بذكرِ بعض الآراءِ التي تستُوجب منهُ مُناقشةً وتوضيحاً، كما صنعَ في مُناقشاتهِ العلميَّة عندما تحدَّث عن آبار رأس العين القادمة من لبنان[4].

هـ- ب- أهمِّية الرِّحلة:

تكمُن أهمِّيَّة رحلته كونَهُ ضمَّنها تفاصيلٌ لجميع مظاهر الحياة الاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والعمرانيَّة، والسياسيَّة في بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحرية، ووصف مدُن الأراضي المقدَّسة، وتحدَّث عنها عن معرفة تامَّة[5]، ولأهمِّيّة رحلته ذكره الرحَّالة فابري بالاسم، ونقلَ مارينو سوناتو صفحات كثيرة

---

١ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧١- ١٧٢.

٢ مثالها: بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٩٩، ١١٠، ١٥٥، ١٦٦، وغيرها.

٣ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٤٤- ١٤٧.

٤ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧، ١٨.

٥ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١١.

من كتابه[١] قامَ بانتحالها حُجَّاج آخرين، وفي هذا كلُّه اعترافٌ مُخلص بِمَا قدَّمهُ واعتماداً على بورشارد قامَ الجغرافيون الآخرين باستقاء معلوماته حولَ التقسيم الجُغرافي لفلسطين وسورية والجزيرة العربيَّة[٢].

وبجانبٍ آخر يُعدُّ كتاب" وصف الأرض المقدسة" أوَّل مبحث قروسطوي في الجُغرافية الفلسطينية ، وامتازَ بمُقاربة نقديَّة لواقع المملكة الصليبية في المشرق بالقياس على أزمنة المسيحيَّة الغابرة، فكانَ له تأثيرٌ في شيوع اتِّهام الداويَّة بالخيانة، وعُدَّت كتاباتهُ نموذجاً احتذى به الحُجَّاج من بعده، و لقِيَ في حينه انتشاراً واسعاً في أوربَّة الغربية والوسطى في العصر الوسيط، وكانَ لهُ تأثير كبير على أدب الأرض المُقدَّسة وعلى الرأي العام الأوروبيِّ؛ لأنّ كتاباته عُدَّت بمثابة دليلٌ شاملٌ للأرض المُقدَّسة من شأن الحُجَّاج اعتماده، ولكنَّه لمْ يُستفاد منه عمليَّاً، لأنَّه في سنة(٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) سقطت آخر مواقع الصليبيين في المشرق، وجاءَ بعدها تحريمُ البابوية القيام بالحجِّ بُغية الحؤول دونَ استفادة السلاطين المماليك من وارداتِه، وفرض الحصار على السلطنة، فاعتمد الغرب الأوروبيِّ على قراءة هذا الكتاب الَّذي وضَع فيه بورشارد خطِّة حملة صليبية جديدة، أوصَى فيها باحتلال صربيا الأرثوذكسيَّة والقسطنطينيَّة كمُقدِّمة ضروريَّة للنجاح، وإعادة فرض الحصار على المماليك[٣].

ولأهمِّيّة رحلتهُ فقد حُقِّقت أكثر من عشرين مرَّة، لكنْ لمْ تُعطي كلَّ الطبعات السابقة نصاً كاملاً، ويُقال: إنَّ بورشارد ذاته أخرجَ الكتابَ مرَّتين ففي المرَّة الأولى قدَّمهُ على شكل نشرة خاصة أخذت شكل رسالة مُرفقة بخريطة، وقاد نجاحُ هذه النشرة إلى إخراج نسخة مُصحَّحة نُشرت على شكلِ كتابٍ، وظهرَ منذُ ذلك الحين تَعارُض عظيم في النص[٤]، إذ إنَّ صفحات الرِّحلة اختُلفت من ترجمة لأُخرى، كما اختُلف في ترتيب الأماكن التي زارها بورشارد وقدَّمَ وصفاً لها، وربَّما اختُصِرَت في بعض الطبعاتِ على ذكر الأماكن المُقدَّسة في فلسطين فقط، مع إشاراتٍ بسيطة لبعض مناطقِ سورية ولبنان، ويُمكن مُلاحظة ذلك من خلال المُقارنة بين نص الرِّحلة التي اعتمَدَت عليه الدراسة في هذا البحث، والمُترجم مِنْ قبل سعيد عبد الله البيشاوي، وبين النص الَّذي أوردهُ الأستاذ الدكتور سُهيل زكَّار في الموسوعة الشاملة لتاريخ الحروب الصليبية[٥].

ج- بلاد الشام من خلال الرِّحلة(دراسة مُقارنة):

أ-ج- الجَانب الحضاري والمعماري:

---

[١] سانوتو: الأسرار، ص ٤٥، ٦٧، ٩٩، ٢٣٣، ٢٦٧، وغيرها.

[٢] زكار: الموسوعة الشاملة، ج٣٧، ص١٣٩.

[٣] عبد الله: منتخبات التواريخ والآثار، ص٩، ١٠.

[٤] زكار: الموسوعة الشاملة، ج٣٧، ص١٣٧.

[٥] للمقارنة بينَ اختلاف نصيّ الرحلة يُراجع. زكار: الموسوعة الشاملة، ج٣٧، ص١٤١- ٢٤٩.

تناولَ الرحَّالة الألماني بورشارد في رحلتهِ بعض الجوانبِ الحضاريَّة والمعماريَّة التي اختصَّت بها العمارة العربيَّة الإسلاميَّة، وجاءتْ هذه الإشاراتُ في معرضِ حديثهِ عن بعض القلاعِ والمُدن، والأسوار، والأبواب لاسيَّما أبواب مدينة القدس، وبجانبٍ آخر وردت إشارات قليلة في الرِّحلة عن اهتمام الصليبيين بالبناء، ويبدو أنَّ بورشارد كان مُعجباً بالعمارة العربيَّة الإسلاميَّة لدرجة أنَّه خصَّصَ لها الجزء الأكبر من حديثه، وجعلهُ هذا الإعجاب يُهمِل ذكرَ ما قامَ به الصليبيين من أعمالِ البناء، وقد تجلَّى ذلك في حديثه عن القلعة التي بناها العرب المسلمين في الخليل الجديدة قُرب الكهفين حيثُ دُفنَ آدم، وحواء، وإبراهيم، وسارة، وإسحاق، فقال: « بنى المسلمون قلعةً رائعة قويَّة حول هذا الكهف المزدَوج، الَّذي يوجد داخله مقرُّ الأسقف، وقد رأيتُ على جُدرانها أحجاراً يبلغُ حجمها ستة وعشرين قدماً، وثمانية وعشرين قدماً، وثلاثين قدماً، ولمْ أرَ مكاناً قويَّاً مثل هذا بُنيَ على أرضيَّة جافَّة»[١].

ويبدو أنَّ مراكز تدريب الجيوش، ووجود الحاميات العسكرية عند العرب المسلمين قد أثارَ إعجاب بورشارد، فعبَّر عن ذلك بقوله: « ولديهم ايفيبايه(Ephebia) [٢] في كلِّ مدينة[٣]، وفي سهلِ قاقون في سفح جبل نابلُس أقام المسلمون حامية عسكرية في هذا المكان لمُراقبة قلعة عتليت»[٤].

وبجانبٍ آخر ذكرَ بورشارد أنَّ الصليبيين اهتمُّوا بتأسيس القلاع، والحصون، و الأبراج، والأسوار، وجميع ما يُحقِّق لهم الدفاع عن أنفسهم ويُشعرهم بالأمان، أمَّا بالنسبة لبناء القصور، والمنازل، والكنائس، والأديرة، فكانت مؤجَّلة حتَّى يُحكِموا سيطرتهم على البلاد، فشرعَوا لأجل ذلك بإصلاح أسوارها وتحصيناتها[٥].

وبالمُقارنة فإنَّ ذكر هذا الجانب الحضاري عند الرحَّالة الأخرين جاءَ في معرض استرجاع ماضي هذه الأماكن، والمُقارنة بين حاضرها الصليبي وماضيها العربي الإسلامي، وبدا ذلكَ واضحاً في رحلة الروسي فيتلوس الَّذي أنصفَ العرب المسلمين من الناحية الحضاريَّة، فوصفَ مدينة قيسارية وما كانت عليه قبلَ زيارته لها خلال الحُكم العربي الإسلامي، وما هي عليهِ وقتَ الزيارة، أيّ أثناء الحُكم الصليبي لها، فذكرَ أنَّها كانت مُزدهرة أثناء الحُكم الإسلامي، كازدهار القاهرة وبغداد وقتذاك، ومن مظاهر ازدهارها أنَّ المُسلمين جعلوها جنَّتِهُم على حدِّ تعبيره، ثمَّ وصف الروائح العَبِقة التي حرصَ المسلمون على نشرها في أجوائها، وهي إشارةٌ إلى ترفِ الحياة ونعيمها، فقال في ذلك: « وفي محيطِ المدينة بين الحدائق كان يوجد كُهوف مُتعدِّدة أُنشئت من حجارة، وحيثُ يتمُّ خلط التوابل والعطور فوق النار، و بذلك تُصبح جميع

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٥٩.

[٢] مركز تدريب عسكري للشباب.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٢، ١٧٣.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٣.

[٥] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٤٧.

المدينة مُعبَّقة بنسماتٍ رائحة ممتعة مانعة كلَّ الروائح الكريهة من أجلِ إنعاش ملامح المواطنين، ولكن كلُّ ذلك لمْ يعد موجوداً الآن فهي مُدمَّرة»[١].

وفي الرِّحلة ذاتِها تناول فيتلوس جانباً حضارياً آخر، فتحدَّثَ عن المزارات العلاجية التي يذهبُ إليها المُصابون بالأمراض الجلديَّة للاستشفاء في عيونِ طبريَّة الساخنة[٢]، والحمَّامات الطبيَّة في سهل الزعرور قُرب أمُّ قيس[٣].

ومن جهة أُخرى فإنَّ التعصُّبَ الديني والكراهية للعرب المسلمين من قبل بعض الرحَّالة الأجانب دفعَهُم لتجاهل وجودهم الحضاري، و بدا ذلك واضحاً عند تناولهم لعمارة بعض الأماكنِ المُقدَّسة التي ترتبط بالمسلمين، فتجاهلوا طرازها المعماريّ الإسلاميّ، وركَّزوا في وصفهم على الطراز المعماريّ المسيحيَ، وينطبق هذا الأمرُ على الرحَّالة الألماني ثيودوريش الذي جعلَ قُدسية الأرض مُرتبطة بالديانة المسيحيَّة فقط، وتجلَّى ذلك في حديثه عن كنيسة ضريح المسيح ﷺ، فقال: « الأثر الوحيد الذي ما يزالُ قائماً، ثمَّ ما سنتحدث عنه بخصوص الأماكن المُقدَّسة التي على أساسها تُسمَّى المدينة نفسها مُقدَّسة، لذلك فكَّرنا أنَّه من الصواب البدء بأقدس المُقدَّسات، أيّ من ضريح السيد المسيح، فتُعرف كنيسة الضريح المُقدَّس»[٤].

وينطبقُ الأمر ذاتهُ عند حديثه عن قُبِّة الصخرة وطرازها المعماري، وشكلها المُثمَّن، فلمْ يشرْ إلى اليد العربية الإسلاميَّة التي أسهمت في جعلها على قدرٍ كبير من الروعة والجمال، وإنَّما اكتفى بالوصف والحديث عن ارتباطها بالدين المسيحي، ونقل ما على جوانبها من نقوش مسيحيَّة، فقال: « من الواضح أنَّ المعبدَ نفسُه ذو شكلٌ ثُمَانِي من الجزء الأسفل، أمَّا الجزءَ العلوي، فهو مُزيَّنٌ بالرُّخام الجميل جداً حتَّى مُنتصفه، ومن المنتصف حتَّى جوانبه العُليا، حيثُ يوجد الرووف المُزيَّن بأعمال الفُسيفساء بشكل رائع جداً، ويُشكِّل السور العلوي دائرة ضيقة مُثبَّتة على أقواس داخل المبنى، وتدعمُ رووفاً رصاصياً له عند قمَّته كُرة كبيرة فوقَ صليب مُذهَّب»[٥].

وربَّما جعلهُ تعصَّبهُ الديني يُجري مُقارنة بين النمط المعماريّ الأوروبيّ، والنمط الإسلامي فيما يخصُّ وصف مدينة القدس بتجاهل واضح للأيدي العربيَّة الإسلاميَّة التي أسهمت في بنائها، فقال: « كلُّ شوارع المدينة تقريباً مرصوفة بحجارة مُقنطرة ومثقوبة بنوافذ عديدة لتمرير الضوء، أمَّا المنازلَ فهي مُدعَّمة

---

١ فتيلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٧٣.

٢ فتيلوس: وصف الأرض المقدسة، ص١٧.

٣ فتيلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٥٥.

٤ ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص٦١.

٥ ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص٨١، ٨٢.

بأعمال حجرية ذات شكلٍ رائعٍ، وهي لا تنتهي بطوابقٍ علويَّة مكشوفة من الأعلى طبقاً لأسلوبنا، وإنَّما يقيمونها مُستوية، وذات سطوحٍ مُنبسطة»[١].

وبعد هذا العرضُ لأهمِّ الإشارات الحضاريَّة التي تطرَّق إليها الرحَّالة بورشارد سيُقدَّمْ نماذجاً لأهمِّ الجوانب الجُغرافيَّة المُتعلقة بالمُدن، والقلاع:

1ً- ذكر نماذج المدن:

- عكَّا:

وصفَها بورشارد أنَّها مدينةٌ مُحصَّنة بالأسوار وبتحصينات خارجيَّة، وأبراج وخنادق، وشُرفات وسواتر قويَّة جداً، وهي مُثلَّثة بشكلٍ مثل التُرس، حيثُ يطلُّ طرفان منها على البحر المتوسط، أمَّا الطرفَ الثالث فيطلُّ على السهل المُحيط بها، وفي المدينة عدداً من القلاعِ والحصون مُمتلكة من قبلِ فُرسان الاسبتارية، والداويَّة، والتيوتون، و للمدينة ميناءٌ واسع جداً[٢]، وبالمُقارنة ذكرَها الرحَّالة بنيامين التطيلي باسم مدينة عكُّو الواردة في التوراة، وهي أوَّلُ حدود فلسطين في موقع مُلائم من البحر، ولها ثغر كبير ترسو عنده السُفن، ويمرُّ فيها نهر قدوميم[٣].

- صور:

ذَكرَ بورشارد أنَّها تقع على شاطئ البحر، ولها أسوار واسعة مُحيطة بها، وهي ذاتُ شكلٍ مُستديرٍ، وتقفُ في البحر فوق صخرة قاسية جداً، مُحاطة تقريباً من جميع الجهاتِ بالبحر باستثناء الجهة الشرقية منها، وللمدينة اثني عشرَ بُرجاً، وفيها آثارٌ مُقدَّسة مبنيَّة من الحجارة والرُّخام[٤]، وبالمُقارنة أشارَ بنيامين التطيلي إلى أنَّ المدينة جميلة، ولها خليج يتوسَّطها بين بُرجين عظيمين، ولها ميناء عظيم[٥]، بينما وصفَها الرحَّالة فون سوخم بأنَّها مدينة فائقة الجمال، ومُحصَّنة بواسطة أبراج وأسوار، وهي قائمةٌ فوق جزيرة في البحر[٦].

- صيدا:

---

١ ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص٥٩.

٢ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦.

٣ التطيلي(بنيامين): الرحلة، تر: عزرا حداد، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٣٩.

٤ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧، ١٨.

٥ التطيلي: الرحلة، ص٢٣٧، ٢٣٨.

٦ سوخم(فون): وصف الأرض المقدسة، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تر: سهيل زكار، دار دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م، ص٣٠٢.

ذكرَ بورشارد أنَّها مدينة فينيقيَّة فيها آثارٌ وخرائب، وهي حصينةٌ جداً، ولها على جانبيها قلعتين[١]، وبالمقارنة ذكرَ الرحَّالة بنيامين التطيلي أنَّها هي صيدون الواردة في التوراة، ويقيمُ فيها عدد من اليهود وهم في خصامٍ مع طائفة الدروز الَّذين يبعدُ مقرَّهُم عنها عشرة أميال[٢].

- بيبلوس:

حدَّدها بورشارد على شاطئ البحر، وهي صغيرةٌ جداً، وذكرَ أنَّها أوَّل مدينة في بطريركية أنطاكية، و لها أسقف خاص بها، وصاحبها من أتباع كونت طرابلس[٣]، وبالمقارنة أشارَ بنيامين التطليتي أنَّها تُعرف ببلدة جبال الواردة في التوراة، وفيها أطلال معابد بني عمُّون، إضافةً لتمثالين لحوريتين، ومذبحاً لإحراق البخُّور، ويُقيم فيها عدد من اليهود[٤]، بينما ذكر فون سوخم أنَّ المدينة قويَّة وحصينة، وقد آلت بعد الاستيلاء على الأرض المُقدَّسة إلى فُرسان الداوية، وكانت تُسمَّى بيبلوس، أمَّا في زمن فون سوخم فتسمَّى جبيل[٥].

- الناصرة:

ذكرَ بورشارد أنَّها تبعدُ سبعة فراسخ عن عكَّا وهي المدينة المُباركة للجليل[٦]، وبالمُقارنة عدَّها الرحَّالة يوحنا أنَّها المدينة الرئيسية في الجليل، وتقع على بعد عشرة أميال عن طبرية، وفُسِّرت كلمة الناصرة بمعنى: الزهرة أو البرعم[٧]، ووصفَها الرحَّالة فون سوخم بالمدينة الشهيرة، والجميلة جداً، والمحاطة من كلِّ كلِّ جوانبها بالجبال، وهي ليست مُسوَّرة، ومليئة بالسكان، وفيها كنيسةٌ جميلة، ونبع ماء[٨].

- عين جدي:

أشار بورشارد أنَّها هي عينٌ وبلده معاً، وتقع على الساحل الغربي للبحر الميت، و يُزرعُ فيها الكروم الرائعة الصالحة لإنتاج النبيذ[٩].

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٢٠.

[٢] التطيلي: الرحلة، ص٢٣٥، ٢٣٦.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٢٠.

[٤] التطيلي: الرحلة، ص٢٣٣، ٢٣٤.

[٥] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٠١، ٣٠٢.

[٦] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٣٩.

[٧] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٢٩، ٣٠.

[٨] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٧٧، ٣٧٨.

[٩] بورشارد: وصف الأرض المقدسة ، ص١٢٢، ١٢٣.

وبالمقارنة ذكرَ الرحَّالة يُوحنا أنَّها تقع في عيلون في نطاق سبط بن يَهوذا، حيثُ اختفى داود عليه السلام نفسه في البريَّة، وذلك في منطقة سهليَّة في أريحا، وهي أكبرُ قرية يهوديَّة بجانب البحر الميت، وفيها ينمو شجر البلسم، ومنها يُصدَّر [1].

- صغر:

ذكرَ بورشارد أنَّها تقع على بُعد خمسة فراسخ إلى الجنوب الغربي من أريحا، بالقرب من سفح جبل عين جدي [2].

- نابلس:

ذكر بورشارد أنَّها تقع في وسط فلسطين بين جُبيل دان وجبل بيت إيل، وتسمَّى شَكيم، وهي مدينةٌ فائقة الجمال ومليئة بالأشياء الجيدة، لكنَّها غير مُحصَّنة كما أنَّه من غير الممكن تحصينها بأيَّة وسيلة من الوسائل، وللمدينة بابين [3]، وبالمُقارنة حدَّدها الرحَّالة الألماني يُوحنا على بعد أربعة أميال من السامرة [4].

السامرة [4].

- صفوريَّة:

وصفَها بورشارد بالبلدة الجميلة جداً، مع قلعة موجودة فوقها [5]، بينما ذكرَ الرحَّالة يُوحنا أنَّها تقع في المَعلَم الثاني من الناصرة على الطريق المؤدِّية إلى عكَا، ويقال: أنَّها المدينة التي ولدت فيها حنَّا والدة السيدة مريم العذراء [6].

- العيزرية = بيثاني:

ذكرَ الرحَّالة بورشارد أنَّها تقع في الجنوب الشرقي من جبل الزيتون القريب من القدس [7]، وبالمُقارنة أشار الرحَّالة دانيال إلى وجود الحَجرة التي مرض ومات عليها القديس العازر وأنَّ قبرهُ لا يزالُ قائماً فيها، ووصفَها بالقرية الريفيَّة الصغيرة، وفي القرية ديراً يُعرف باسم بيثاني [8].

---

[1] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة ، ص٩٧.

[2] بورشارد: وصف الأرض المقدسة ، ص١٢١.

[3] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٨.

[4] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٣٨.

[5] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٩٢.

[6] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٣١.

[7] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٢٤.

[8] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٥٨.

- قرية بيت الكرمة:

ذكرَ الرحَّالة بورشارد أنَّ بيت هكاريم(بيت الكرمة) تقعُ بوضوح على جبل الفريديس الَّذي يبعدُ نحوَ أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم، وعُرِفَ جبل الفريديس جبل الفرنج[١].

- بيت صور:

ذكر بورشارد أنَّها تقع شمال غرب قرية حَلحول على طريق الخليل– القدس، وهي أقربُ إلى الخليل[٢].

- كفر قانا = كفر كنا:

أشار بورشارد أنَّها تقعُ في الشمال الشرقي من الناصرة باتجاه الأردن، وهي بلدة جيدة جداً قائمة في مكانٍ جميل، فيه وفرة من جميع سلعِ الدُنيا[٣]، وبالمقارنة ذكرَ الرحَّالة يُوحنا أنَّ قانا الجليل تقع على بُعدِ أربعة أميال من الناصرة وميلين من صفوريَّة باتجاه الشرق[٤].

- حيفا:

ذكرَ بورشارد أنَّ حيفا شُيِّدت في موقع مدينة سيكامينوم(Sycaminum) القديمة وتقعُ خلف نهر المقطع(نهر كيشون) من الناحية الجنوبية، وهي تعدُّ من أشهر المدن الساحلية القديمة الواقعة جنوب عكا والى الشمال من قيسارية[٥]، وبالمقارنة ذكرَ بنيامين التطيلي أنَّها هي جتُ حَفَرْ الواردة في التوراة، و موقعها على شاطئ البحر، وظاهرها جبل الكرمل، وفي منحدرها قبور لليهود، وبظاهرها دير للنصارى، وهو بناءٌ مستدير[٦]، وأوردَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ المدينة كانت مُلكاً لفرسان الداوية، لكنَّها في زمنه مُدمَّرة بشكلٍ كامل[٧].

2ً- نماذج القلاع والحصون:

- قلعة الحُجَّاج:

أشار بورشارد أنَّها تقعُ على بُعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من حيفا، وهي بأيدي فرسان الداويَّة، وهي من أكثر الأماكن حصانةً بين جميع الأماكنِ التي استولى عليها الصليبيون، وقائمة في قلب البحر، ومُحاطة بأسوارٍ، ودفاعاتٍ أُخرى مثلَ السواتر الحصينة، والشُرفات، والأبراج، حتَّى أنَّ العالم كلَّه يعجزُ عن

---

١ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٥٨.

٢ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٥.

٣ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٨٦.

٤ يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٣٢.

٥ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨، ٣٩.

٦ التطيلي: الرحلة، ص٢٤٠.

٧ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣١٦.

الاستيلاء عليها[1]، و بالمقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ القلعةَ حصينةٌ، وكانت جميلة وتُعرف باسم أرسوف، وأُعطيت فيما سبق لفُرسان الداوية، لكنَّها في زمنه مهجورة تماماً[2].

- قلعة بيت صور:

وصفها بورشارد بالقلعة الحصينة، وذكر أنَّها تقع على طرفِ جبلٍ مقابل لبيت لحم، وهي تبعدُ فرسخاً ونصف عن عمواس(نيكوبولس)[3].

- قلعة الملك:

ذكر بورشارد أنَّها بُنيَت على أرضِ قرية معليا، في وادٍ، وفيها وفرةٌ من جميع الأشياءِ الجيدة، وفواكه من أنواع موجودة في تلك المنطقة ونادرة الوجود في مناطق أخرى، وهي في زمنه بأيدي المماليك[4].

- حُصن الأكراد:

سمَّاه بورشارد كراك(Crac)، وذكرَ أنَّه قلعة للاسبتارية، وهو شديد التحصين، وبالغ الضرر على العرب المسلمين، وأضافَ أنَّه لمْ يُغامر بوصف، لأنَّه لمْ يُشاهده شخصياً، ولكنه رائع على حدِّ ما قيل: لهُ، و كان يحرسه في زمن السلم ألفا مُقاتل من الاسبتارية الَّذين أقسموا اليمين[5].

- الحُصن الأبيض:

وصفَهُ بورشارد بالقلعة الكبيرة والمحصنة في الجبل على حدود بلاد شيوخ الجبل[6] الَّذين على حدِّ ما يُقال: ذبحوا الكثير من أُمراء الصليبيين، وهذه القلعة ومُلحقاتها من أكثر القلاع ضرراً على الصليبيين، وفيما بعد تملَّكها فُرسان الداويَّة وحصنوها[7].

- حصن كوليكات(Culicath):

تُعرف باسم(القليعات)، وذكرَ بورشارد أنَّ العرب المسلمون دمَّروها، و أنَّ بالقرب منها حقولاً يُغطِّيها نبات الشمرة، وأشجارٌ مُثمرة يُغطِّيها زغب، سمَّاه بورشارد بصوف الشجر[8].

ب- ج- الحياة الاقتصادية:

---

[1] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٤٤.

[2] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣١٧.

[3] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٥.

[4] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٦٧.

[5] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٩.

[6] المقصود زعيم فرقة الحشاشين السابقة الذكر.

[7] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٩.

[8] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٩.

شَغلَ الحديثُ عن الحياة الاقتصاديَّة في عصر دولة المماليك البحريَّة حيزاً كبيراً في رحلة بورشارد، ولابدَّ من الإشارة أنَّ معظم حديث بورشارد عن الحياة الاقتصادية في بلاد الشام تركَّز على الأراضي المقدَّسة منها في فلسطين، فرسمَ لها صورة إيجابية تُجسِّد الصورة النمطية في أذهان المسيحيين الغربيين عن الأرض التي تدرُّ عَسلاً ولبناً، وهذه الصورةُ حلقة في سلسلة الدعاية والترويج الإعلامي للحروب الصليبيَّة، والدعوة للهجرة والاستقرار في الأراضي المُقدَّسة، ولمْ يصفْ بورشارد هذا الجانب باعتبارِ صورة للعرب المسلمين وأرضهم، فهو يَعدُّها أرضاً مسيحيَّة اغتصبَها العرب المسلمين، فتحدَّث عن خصوبتها، و جمالها، ومياهها ومزروعاتها وأشجارها وحيوانها، وبعض صناعاتها، وأسواقها و جوانب من النشاط التجاري فيها.

1ً- الزراعة:

- تقسيمات الأراضي الزراعية ومُلكيتها:

أبدى الفلاح في بلاد الشام اهتماماً خاصاً بالأراضي الزراعيَّة، فقسَّمها ونظَّمها في وحدات عُرِفت باسم كاريوكا(Carrca)[١]، وهي وحداتٌ غير مُتساوية في المساحة، وتُقسَّم بدورها لنوعين، فالنوع **الأوَّل** منها: عُرِف بالكاريوكا الرسميَّة، وهي وحدةٌ قانونية مُعتمدة من قبل الحكومة الصليبيَّة القائمة في الأراضي المقدَّسة[٢]، وتُساوي ثلاثمائة وثمانية وستين كورداً[٣] مُربَّعاً أيّ ما يُعادل(٦٠٢٧٣١٢) قدم مربع (٢٩٤٤*٢٠٤٨ قدم)[٢]، وقد قُدِّر هذا المقياس بنحو خمسة وثلاثين هكتار[٤] على أساس أنَّه وحدة ضريبية[٥].

أمَّا النوع **الثاني** من الكاريوكات: فُعرفت بالكاريوكا غير الرسميَّة، وهي عبارة عن قطع صغيرة من الأرض، يُمكن لزوج من الثيران حراثتها في يومٍ واحد، وتساوي المقياس الفرنسي(Charruec)[٦]، وهو ما

---

[1] Prawer. J; Crusader Institutions, Oxford, 1980, p 157.

[2] Prawer. J; The latin kingdom of Jerusalem, London, 1972 , p 372.

[٣] مقياس للخُطى يبلغ نحو مئة و ثمانية وعشرين قدماً، ويساوي أيضاً ثمانية عشر(toises) التي تساوي نحو ياردتين على على وجه التقريب، والكورد يُعادل ستة و ثلاثين ياردة.

Conder . C. R; The latin Kingdom of Jerusalem, (1099 -1291 A.D), London, 1897, p 240.

[٤] يُساوي عشرة آلاف متر مربع(عشرة دونمات)، والدونم مقياس للأرض مساحته ألفَ مترا مربعاً. البيشاوي: الممتلكات الكنسية، ص ٤٦٩؛ المغربي(عبد الرحمن): عكا ومنطقتها في العصور الوسطى، مؤسسة الأسوار، عكا، ط١، ١٩٩٧م، ص ٢٢١.

[5] Benvenisti. M; The Crusaders in the Holy land, Jerusalem, 1976, p 216.

Mayer. H; The Crusades, Oxford, 1988, p 168.

[6] Genevieve . B. B; Le Cartulaire de Chapitre de Saint – Sepulcre de Jerusalem , Paris, 1984, p 428.

يَحرثهُ محراثاً في يوم واحد[١]، وتُماثل الكاريوكا غير الرسميَّة الفدان العربي[٢] أربعة دونمات(نحو أربعة آلاف متر مربع) وذلك تميُّزاً للكاريوكا العربية عن الصليبيَّة الرسمية[٣].

أمَّا عن مُلكية الأراضي الزراعيَّة خلال هذه الفترة فلمْ ترد الإشارة لذلك سوى عند الرحَّالة الألماني ثيودوريش الذي ذكرَ أنَّ العرب المسلمون عملوا في الزراعة، ولم تكُن لهم حقوق إلَّا حقوق رقيق الأرض، وإنَّ الصليبيين لمْ يقدروا على التخلي عن الخدمات التي يؤدِّيها العرب المسلمين في المجال الزراعي؛ لكُثرة أعدادهم، ولخبرتُهم الواسعة في هذا المجال، وبالمُقابل أنَّ الصلبيين عانوا من نقص القوَّة البشرية بصورة واضحة[٤]، وهذا ما دفعَ الصليبيين وهم السادة الجُدد كما وصفهم الرحَّالة الأوربيين في الأراضي المغتصبة المفتوحة على حدِّ زعمهم، بأنْ حوَّلوا الفلاحين في القُرى من المُسلمين والمسيحيين إلى أقنان، وقضّى القادمون على آخر بقايا السُكَّان القرويين الشخصية[٥].

- الأساليب المستخدمة في الزراعة ومقوماتها:

تُعدُّ الأساليب التقليدية من أهمِّ الأساليب المُستخدمة في الزراعة خلال العصر المملوكي[٦]، إذ استخدمَ الفلاح المحراث التقليدي الذي يُجَرُّ بوساطة الإنسان و الحيوان[٧]، وأشارت إحدى وثائق كنيسة القيامة إلى أنَّ ستَ بقرَاتٌ خالية من الأمراض، كان باستطاعتها حراثة ست كاريوكات في اليوم الواحد[٨].

ولعلَّ من أساليب الاهتمام بالزراعة ما ذكرهُ الجغرافيين عن اهتمام أهل الغور بزراعة الكرمة والفواكه، فكانوا يستخرجون شيئاً يُسمَّى الحُمر يُلقِّحون به الكروم والتين[٩]، وهذا ما قُصِدَ به التلقيح إذ كانَ يُستخرَج يُستخرَج من سبخات طبريَّة، وتتمُّ صناعته عن طريق حُفر عميقة في الأرضِ كلما كانت أوسع وأعمق

---

1 Richard .J : Agricultural Conditions in the Crusader states, in Setton, Vol. 5, p254.

Smith .J ; The Feudal Nobility and the kingdom of Jerusalem (1174-1277 A.D), 1973, p 42.

٢ مساحة من الأرض تساوي أربعة دونمات، وهناك من يَرى أنَّه بمعنى الثور أو زوج من الثيران و يُقرن الفدان بينهما للحرث أو المحراث. ابن قدامة المقدسي(عبد الله بن أحمد): المغني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٩٨١م ، ج ٥، ص ٤.

3 Richard. J; Agricultural, in Setton, Vol. 5, p254 . ; Smith .J; The Feudal, p 42.

٤ ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص٦٩.

٥ زابوروف(ميخائيل): الصليبيون في الشرق، تر: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م، ص١٣٢.

6 Prawer .J : The world ,p.54.

٧ البيشاوي(سعيد): نابلس (الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية) في عصر الحروب الصليبية، عمان- الأردن، ١٩٩١م، ص ٢١٤.

8 Genvieve .B.B: La Cartulaire,Acte No.134 ,pp.260.

De Rozier. E: Cartulaire de l' eglise du Saint – Sepulcre de Jerusalem, Paris, 1849, p125.

٩ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٣٨.

كانت أجود، ثمَّ تُجمع فيها أنواع الأزبال، والسبخات، والطور، ويُضاف إليها ورق الكرم ويُخلَط بالخشب كلِّ يوم حتَّى تخرجُ منه رائحة مُنتنة، ثمَّ يُجفَّف ويُمدُّ به الكروم[١].

وقد ركَّز الرحَّالة على مقوماتِ الزراعة، وهي خصوبة التُربة والعدد الكبير للفلاحين وطريقة العمل فيها، الأمر الَّذي يدلُّ عليه اهتمام الفلاحين بالزارعة، وممَّا يؤيِّدُ أنَّ أغلب سكان بلاد الشام كانوا يمارسون حرفة الزراعة ما ذكره ابن شاهين عن كُثرة انتشار القُرى إذ كان في صفد وحدها ألف ومائتي قرية[٢]، وقد ورد ذكرُ ذلك عند الرحَّالة الروسي دانيال الراهب، إذ قال: « كانَ الفلاحون يقومونَ بشقِّ القنوات تمهيداً لنقل المياه إلى البساتين خاصة وأنَّ الماء في الخليل يروق لأيَّ إنسانٌ»[٣]، وبذلك فإنَّ الفلاحين قاموا بإنشاء القنوات والمجاري المائية لري الأراضي الزراعيَّة التي وجِدَ الكثير منها بالقُرب من نابلس وأريحا[٤].

- السنة الزراعية:

تبدأُ السنة الزراعيَّة في بلاد الشام قبل سقوط المطر، فتُحرث الأرض وتُترك منتصف شهر تشرين الثاني وتُدعى فلاحة الشتاء(heartshitani)، ثمَّ تُترك محروثة في فصل الخريف، ثمَّ تُحرث مرَّة أُخرى في فصل الربيع[٥]، فمثلاً الأرض التي حُرثت لزراعة الذُرة لمدِّة عام يجبُ زراعتها بمحاصيل أُخرى عامين[٦]، بحيثُ تُقسم الأراضي الزراعيَّة إلى قسمين فيُزرع في نصف أراضي القسم الأوَّل المحاصيل الشتوية، بينما تُزرع بعض أراضي القسم الثاني من القسم الأوَّل بالخضروات، ويُترك بعضها للراحة بعد أن يتمُّ حراثتها، وفي فصل الصيف تُزرع جميع الأراضي بالمحاصيل الصيفية، وفي السنة الثانية تُترك أراضي القسم الأوَّل للراحة، بينما يُزرع القسم الثاني بالحبوب الشتوية[٧].

- مصادر المياه في بلاد الشام:

اشتهرت بلاد الشام بالزراعة، و وصِفت بأنَّها ذات قُرى وأنهارٍ، وفيها الجبالُ العالية المُعتدلة والباردة[٨]، وقد ساعدَ تنوُّع الأقاليم، ووفرة المياه، وتنوُّع المُناخ، وخُصوبة التُربة على انتشار الزراعة فيها[١]، ولا بُدَّ

---

[١] أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٣٧؛ عدوان(أحمد محمد): التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك، دار العلوم، الرياض، ط١، ط١، ١٩٩٨م، ص٨٩.

[٢] ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٤٤.

[٣] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٣٠.

[4] Benvenisti. M; The Crusaders, p 267.

[5] Prawer.J; The Latin, p 372. ; Crusader Institutions, p 171.

[6] Archer .T. H, and Kings Ford .C. L; The Story Of The Latinkingdom Of Jerusalem, London, 1919, 1919, p 292.

[7] Prawer .J; The Latin, p 372. ; Crusader Institutions, pp 169- 171.

[٨] المقدسي: أحسن التقاسيم، ج١، ص١٧٢.

من الاشارة أنَّ مُعظم مصادر المياه في فلسطين تأتي من الأردن وبعضُها من فلسطين نفسها ومياه الأمطار، وتُعدُّ مدينة نابلس من أغنى المُدن بالماء الجاري[٢]، وفي القُدس عيون مياه جارية، ومن أخصب أراضي فلسطين مدينة بيت لحم لتوفر المياه والعيون الجارية فيها[٣].

وقد تناول الرحَّالة بورشارد جُغرافيَّة بلاد الشام وركَّز على الأراضي المُقدَّسة منها، وأكثرَ من عبارات الثناء عليها، وجعلَها أكثر الأراضي جمالاً، وبهاءً، وخصوبةً، وخيرات، ولا يُخفى أنَّه تحدَّث عنها من واقع قُدسيتها المُرتبطة بأذهانهم، ودليلُ ذلك أنَّه عندما ذكرَ شُحَّ مِياهُهَا بيَّن أنَّهُ رُغمَ شُحِّها إلَّا أنَّها خصبة، وجنَّةُ الله في أرضهِ، وتجلَّى هذا بقوله: « يُوجد في الأرض المُقدَّسة مياه وعيون جارية، وينابيع عذبة تروي أراضيها، إذ يوجد هُناك كلُّ الأشياء الجيّدة في العالم، وتفيضُ الأرضُ بالحليب والعسل»[٤]، ومن هُنا فقد كانت الزراعة البعلية في فلسطين تنمو على الأمطار، بينما عُرفت الزراعة المرويَّة في مناطق توافر الأنهار والينابيع، لا سيَّما في مدينة نابلس ذات الماءِ الجاري[٥].

وقد أشارَ بورشارد أنَّ وادي يهوشافاط يُعدُّ عميقاً إلى حدٍّ ما، كما أنَّه مملوء تماماً بالماء، وهو يمرُّ بالجانب الشرقي من بيت المقدس على سفح جبل الزيتون[٦]، أمَّا بُركةَ الضأن الواقعة في أحد الأودية العميقة، فلها خمسة أروقة فضلاً عن كونها البُركة الأولى والرئيسة في المدينة، وأنَّها مخصَّصة لعلاج المرضى، فضلاً عن استخدام مياهها في سقاية الأراضي[٧]، وتحدَّث بورشارد عن نبع الجنات، فقال: « يخرج نبع الجنات[٨] من عند سفح جبل لبنان مندفعاً بسيول عارمة من لبنان، و يبدأُ النبع ضعيفاً في مخرجهِ، ولكنَّه سُرعان ما يتحوَّل في هبوطه إلى نهرٍ جارفٍ وبالغ الحجم، وهو يروي جميع الحقولِ والسهل الكائن بين طرابلس والجبل، ما يَجعل المنطقة على روعة عظيمة، و مياههُ من أعذب المياه وأطيبها، والعديد من المواضع الدينيَّة والكنائس تقوم على ضفافه، وهو يخرجُ، كما يقال: من سفح الجبل

---

[١] الرازي(محمد بن أبو بكر بن عبد القادر): مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص٢٢١؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٢٣٥.

[٢] ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥٧، ١٥٨؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٣٣٩؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٢٣٥.

[٣] ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٩٢.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧١.

[٥] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٧؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٠٧.

[٦] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٧١، ٧٢.

[٧] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٧١.

[٨] هو نهر قاديشا اليوم.

ويحيط جزئياً بجبل الفهود (جبل تربل) مِنْ ثَمَّ ينطلق إلى الحقول فيرويها، ويتقدَّم نحوَ البحر مع ثلاثة أنهار كبيرة أُخرى، والعديدُ من الينابيع التي تتجه إلى البحر من مواضع شتَّى»[١].

وبالمقارنة فقد تطرَّق جميع الرحَّالة الأجانب الَّذين زاروا بلاد الشام لذكر مصادر المياه فيها، فقد تناول الرحَّالة الروسي دانيال الراهب هذا الجانب، وتحدَّث عن نهر الأردن، وأشارَ أنَّ مياهُه تجري مُتدفِّقة، وصالحة للشرب ولا تُؤذي المعدة، و تروي قسم كبير من الأراضي المُقدَّسة، كما تطرَّق دانيال لوصف مصادر المياه في مدينة بيت المقدس، فقال: « على الرغم من أنَّ هذه المدينة يُحيط بها كثير من الأودية القاحلة والجبال الصخرية، والمنطقة خالية من الماء بشكل مُطلق، حيثُ لا يجدُ المرء نهراً أو آباراً أو ينابيع قربُها باستثناء بركة سليمان، وعين سلوان؛ لذلك ليس أمام سُكان المدينة والماشية شيئاً يستخدمونهُ سوى ماءِ المطر»، وتجلَّى هذا الانبهار في وصفه لأرض الخليل، إذ قال: « وفي الوقت الحاضر فإنَّ هذه الأرض هي حقَّاً التي وعد بها الله، ووهبها مع كلِّ الأشياء الحسنة، هي أكثر وأفضل من أيَّ مكان على وجه الخليقة، ولا يُوجد مكان على وجه الأرض يُعادل هذا المكان قيمة»، وقال في جبل طابور غربي طبرية: « ويُعدُّ جبل طابور عملاً رائعاً من صُنع الله لا يستطيع المرء وصفهُ، إنَّه جميل جداً، ومرتفع جداً، وعظيم جداً تُحيط به المياه من كلِّ الجوانب»، كما تناولَ دانيال ذكرَ مصادر المياه في مدن أُخرى، فقال: « فأرضُ أريحا تتسمُ بالخُصوبة والإنتاج، وتنتشر في المناطق التي حولها عيون عدَّة من الماء، وفي بيت لحم كثير من الحقول الخصبة والأودية، ويتخلَّل مدينة نابلس عدد من الينابيع العذبة الباردة المياه، أمَّا بيسانَ فتتدفَّق منها سبعة أنهار»[٢].

أمَّا الرحَّالةَ الروسي فيتلوس، فقد تناول مصادر المياه في بلاد الشام بذكر نهر العاصي (Orontes)، وأطلقَ عليه تسمية فارفار(Pharphar) أو (Far far)، وذكرَ أنَّه ينبعُ من أسفل جبل لبنان[٣].

وفيما يخصُّ الرحَّالة الألماني ثيودوريش فأكثرَ في رحلته من وصف جمال الأماكن المُقدَّسة، وتحدَّثَ عن مياهها، وقد حُظيت القدس وجبالها أكثر من غيرها بالحديث عن هذه الجوانب إذ قال: « والآن تغلُب الطبيعة الجبلية على منطقة جبل القدس بمعظم أجزائها، وترتفعُ حول المدينة المقدَّسة بحلقات فائقة الجمال، ولكن في أيَّة رقعة من الأرض موجودة بين الكتل الصخرية تبدوُ الأرضُ مُلائمة لإنتاج جميع أنواعِ المزروعات».

وأشار ثيودوريش إلى اعتماد أهل القدس على مياه الأمطار في حياتهم، إذ قال: « فهم يجمعُونها ويخزنونها بصهاريج لاستعمالهم، ولا يستخدمونَ ماءً آخر؛ لأنَّه لا يوجد غيره»، و ذكرَ أنَّ فرقة الداويَّة وضعت صهريج ضخم مزود بآلة متحركة من أجل ضخ المياه، وأنَّ مصادر المياه في فلسطين كانت

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٢٨.

[٢] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٢٨، ٦٢، ٦٨، ٧٥، ٨٧، ٩٢، ١٠٨، ١١٠، ١٢٠.

[٣] فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٢٤، ٢٥.

محدودة وانحصرت المياه في نهري الأردن واليرموك، وبحيرتي طبرية والحولة، ومياه الأمطار في الشتاء، و بعض الينابيعِ والعيون والآبار، وفي موضع آخر ذكر ثيودوريش أنَّ مدينة أريحا غنية بالمياه، وقد وردت هذه الإشارة عندما تحدث عن حديقة إبراهيم، إذ قال: « إنَّ الذي يزوِّد هذه الحديقة(حديقة إبراهيم)، والسهول المُحيطة بها نبعٌ عظيم التدفُّق من على سفح جبل القرنطل أو الكرنتينا في وادي الأردن»[١].

- المزروعات في بلاد الشام:

***- الحبوب:**

اشتهرت مُدن بلاد الشام والمناطق المُحيطة بها بزراعة الحبوب، وتُعدُّ منطقة الأغوار في فلسطين غنيَّة بزراعتها، وخاصَّةً القمح حيثُ تتوافرُ الأمطار، كما تُعدُّ المناطق الساحلية حيثُ تتوافر التُربة الخصبة من المناطق الشهيرة بزراعة الحبوب، وانتشرت مزارع الحبوب في الجزء الجنوبي الغربي من فلسطين في المنطقة الواقعة بين الساحل وسلاسل الجبال في القدس[٢]، وكانَ أجودها في منطقة رام الله[٣]، ويَحتاجُ الهكتار من البذار إلى ١,٥٨٤ لتر من القمح أيّ يُساوي ٦٦,٨ كيلو غرام[٤].

وحقيقةُ الأمر لمْ يردَ في رحلة بورشارد عند حديثه عن زراعة الحُبوب سوى الإشارةِ إلى زراعة القمح والشعير، وذكر الرحَّالة الألماني بورشارد أنَّ الأراضي المُقدَّسة خصبة، وغنيَّة بزراعة الحبوب لاسيَّما القمح، وبيَّنَ طريقة زراعته، ووصفه بقوله: « يجب أنْ تعرفوا أنَّ جميع الأراضي المُقدَّسة تُعتبرُ أفضل من جميع الأراضي حتَّى يومنا هذا...، والأرضُ المُقدَّسة خصبة وغنية جداً بالقمح، الذي يُزرع وينمو دون أدنى جُهد»[٥].

وبالمُقارنة ذكرّ الرحَّالة فون سوخم أنَّ سهل نوح، في وادي البقاع بلبنان، فائق الخُصوبة والغنى، ويُزرع فيه القمح[٦]، وأشار دانيال الراهب أنَّ القمح والشعير ينمُوان بشكلٍ مُمتاز في المدينة المُقدَّسة، إذ قال: « فعلى الرغم من أنَّ المدينة يُحيط بها كثير من الأودية والجبال الصخرية، ... فالحُنطة تزدهرُ بشكل جيد في تلك الأراضي الصخرية التي ينقصها المطر، والحمدُ لله على فضله ورحمته حيثُ إنَّ محاصيل القمح والشعير مُمتازة، وعند بذارِ مكيالٍ واحدٍ، نستطيع الحصول على مائة وتسعين عند الحصادِ، أليست

---

١ ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص٥٥، ٥٩، ٦٥، ١٠٥.

٢ براور(يوشع براور): الاستيطان الصليبي في فلسطين(مملكة بيت المقدس)، تر: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص٤٢٨.

3 Prawer.J: The Latin, p.359.

4 Prawer.J: Crusader Institution, p.175.

٥ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٧، ١٦٨.

٦ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٨.

بركات الله تُخيّمُ على هذه الأرض المقدسة؟»، وأضاف دانيال أنَّ نابلس تُوجد في أراضيها حقول غنية بجميعِ أنواعِ الحنطة، كما أثنى على إنتاج القمح في المنطقة الريفيَّة التي كانت تدخُل ضمن حدود إقطاعية الخليل، إذ قال: « زُرع القمح في المنحدرات الغربيَّة والجنوبيَّة إلى جانب مناطق السهول، و الوديان التي تقع على هضبة بلاد الخليل، وكانت الأراضي المزروعة بأشجار الكرمة أو الصالحة لها فقط تُستثنى من زراعة القمح»(١).

أما الرحَّالةَ الروسي فيتلوس فقد أشارَ لزراعة القمح والحبوب في مدن الأماكن المقدَّسة، وعبر عن ذلك بقوله: « وفي سهول القُدس، ومرتفعات الخليل تجُود زراعة كافة أنواع الحبوب، ولا سيَّما القمح القاسي، والشعير الذي ينمو دون أدنى جُهد»(٢).

***– الخضراوات:**

اشتهرت بلاد الشام بزراعة العديد من الخضروات، والتي كانت في غالبها تعتمدُ على الريّ، وفيما يخصُّ زراعة الخضروات فإنَّ الإشارة لزراعتها قليلة، وذكر الرحَّالة الألماني بورشارد أنَّ الخضرواتَ تُكثر بجميع أنواعها في بلاد الشام، وخاصةً في الأراضي المقدَّسة لاسيَّما الخيار والقرع(٣).

وبالمُقارنة أشارَ الرحَّالة دانيال الراهب إلى زراعة الخضروات بقوله: « تُزرع في الأراضي المُجاورة لمُنحدرات جبال الخليل مُختلف أنواع الخضروات لا سيَّما القرع والخيار، والبندورة، والبقدونس، والبطاطا، والثوم، والبصل»، ووصف دانيال ثمارَ جُهد الفلاحين في الخليل من عَمَلَ في الزراعة وإصلاح الجبال العارية، وتحويلها إلى جنة من الخضروات، فكتب: « هُناك أيضاً مُختلف أنواع الخضروات التي تُعدُّ أفضل من أيِّ مكان على وجه الخليقة، و أنَّ الخُضروات في الأراضي المقدَّسة كانت الأحسن والأكبر حجماً بين بقية الخُضروات التي تُزرع على وجه الأرض»(٤).

***– القطن:**

لمْ تردَ الإشارة لزراعة القطن في كتب الرِّحلات إلَّا في رحلة الألماني بورشارد، إذ ذكر أنَّهُ يُزرع في مناطق مُعينة، ولعلَّه يقصدُ المناطق التي تتوافر فيها المياه، وقد قدَّم بورشارد وصفاً لتيلة القطن، إذ قال: « وبلغَ طول الشجرة طول ركبة الإنسان، وأوراقه تُشبه أوراق العنب، ولكنَّها أصغر، وإنَّ الحُجاج(٥) توجهوا من يافا إلى بيت المقدس، وشاهدوا كثيراً من أشجار القُطن، وهي مُزهرة بالقطن الذي كان قد تمَّ نُضُجهُ في ذلك الوقت(أي وقت زيارة الرحَّالة)، ولعلَّ أهمَّ سبب في انتشار زراعته في الأراضي المقدسة

---

١ دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٦٨، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠.

٢ فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٦٤.

٣ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٨.

٤ دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٩٢.

٥ قُصد بهم الحُجاج المسيحيين القادمين من الغرب الأوروبيّ.

هو اقبال الحُجَّاج على شراء المنسوجات القطنية، أثناء توجههم للمُدن المُقَّدسة مثل القُدس، وبيت لحم، وبذلك كانَ لرواج مثل هذه الصناعة تأثير على المجتمع وتوجهاتهُ المعيشية وأنماط زراعة القُطن في الأراضي المُقدَّسة»[١].

***- الأعشاب و الأشجار البريَّة:**

تكثرُ في بلاد الشام وخاصةً في الأراضي المُقدسة النباتات والأشجار البريَّة، التي تنمو في مُعظم أراضيها، ولكنَّها تكثرُ في المناطق الجبلية، وفيما يخصُّ رحلة الألماني بورشارد فقد أوردِ فيها أنَّ العديد من النباتات والأعشاب الطبية تنمو في الأراضي المُقدَّسة منها: الميرمية[٢] ، والسذاب، والفيحن[٣] ، و الشومر[٤] ، وأضافَ صاحب الرِّحلة أنَّ هذه النباتات تنمو في كُلِّ مكان، حسب الأرض التي تُلائمها، و أضاف بورشارد قائلاً: « كثيرٌ في الأراضي المُقدَّسة، بساتين الورود والزهور، والرياحين»[٥].

وبالمُقارنة أوردَ الرحَّالة دانيال الراهب أنواع الأشجار والنباتات التي تنمو في الأراضي المقدَّسة، فذكر أنَّه على ضفاف نهر الأردن غابة من أشجار صغيرة، مثل الصفصاف، و على طول الضفَّة نوع من أشجار الأسل والسمَّار[٦]، وهُناك الكثير من أشجار البوص، وأضاف دانيال قائلاً: « تكثرُ في بيسان أشجار الأسل أو السمَّار على ضفافها، وتكثرُ بساتين أشجار البلح في هذه المدينة، وفي أريحا تنتشر كميات كبيرة من أشجار النخيل العالية»[٧].

---

١ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٢، ١٦٨.

٢ من النباتات الطبيعية التي تنمو بكثرة في الأراضي الفلسطينية، وسُمِّيت بهذا الاسم نسبةً إلى السيدة مريم العذراء، لأنَّها أوَّلُ من استعمله للعلاج، ويطلقُ سكان فلسطين على هذا النبات اسم الميرمية، وتمتازُ أوراق نبتة الميرمية بأنَّها مُرَّة المذاق ولونها أخضر. البيشاوي: الممتلكات الكنسية، ص ٣٩٤ .

٣ نبات بري خريفي، صغير الورق، وأصفر اللون ويُسمَّى الفيحن. الإشبيلي(محمد بن حجاج): المقنع في الفلاحة، تح: صلاح جرار، منشورات مجمع اللغة العربية، عمان- الأردن، ط١، ١٩٨٢م، ص ١١٦،٦١ ؛ البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٢٣؛ مؤلف مجهول: مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، ص ١٥٦؛ النابلسي: علم الملاحة في علم الفلاحة، ص١٤٨.

٤ أحد النباتات البرية ذو رائحةٌ عطره ويستعمل كغذاء مثل الجرجير. البيشاوي: الممتلكات الكنسية، ص٣٩٤.

٥ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٩٩، ١٧١.

٦ شجرٌ له أغصان كثيرة دونَ أوراق، وليس له شوك، ولكن أطرافه محددة، ومنبتهُ الماء الراكد. دياب: المعجم المفصل في الأشجار والنباتات، ص٢٢، ٢٣.

٧ دانيال: وصف الأرض المقدسة ، ص٧١، ٧٥، ١١٠.

وأشار دانيال أنَّ الأعشاب الطبيَّة نَمَت في ريف حيفا وجبالها وأوديتها بشكل كبير، ومنها البلسان أو البلسم[1] الذي يُستخدم في الطقوس الدينية، وغطَّت الغابات والأشجار الحرجية جبال الكرمل ووادي فلاح، واستُخدِمت أخشابُها في صناعة الآلات الحربية من أبراج ومنجنيقات[2].

أما الرحَّالةَ ثيودوريش فقد أشارَ إلى الأعشاب والأشجار البريّة بقوله:« شاهدنا في منطقة جبل القدس التلال والجبال والوديان المُحاطة بمنتوجات الحدائق، وفي أريحا تعجُّ أراضيها بأشجار الخشب والنباتات الشائكة، و أريحا الآن بلدة صغيرة تقع في أرض خصبة حيثُ تنضجُ، وتنمو كثير من الورود، وتتفتح فيها عدد وافر من التبلات(التويجات)»[3].

ولم يُغفِل الرحَّالة يُوحنا الورزبرجي الإشارة للأعشاب والأشجار البرية، إذ ذكرَ أنَّ مدينة الناصرة تنمو فيها زهرة تزوِّد برائحتها مُعظم أرجاء المعمورة، و ذكرها يوحنا في رحلته باسم(that flower)، وأضافَ يُوحنا أنَّهُ في مدينة عين الجدي ينبت شجر البلسم، وبقرب الخليل تنمو أشجار البلوط والسنديان المنبسطة، وهي تُحظى باهتمام وعناية سُكَّان ذلك المكان، ورُغمَ أنَّ الشجرة جافَّة الَّا أنَّ خاصيتها العلاجيَّة مُفيدة جداً[4].

***- الأشجار المثمرة:**

- الزيتون:

اشتهرت مُختلف مناطق بلاد الشام وخاصة الأراضي المقدَّسة في فلسطين بزراعة أشجار الزيتون، وقد اهتمَّ الصليبيون بِمَا فيهم رجال الدِّين اللاتين بزراعة أشجار الزيتون في مُختلف البلاد التي وقعت تحت سيطرتهم، وأشار الرحَّالة والحجاج الأوربيون الَّذين زاروا بلاد الشام أثناء السيطرة الصليبية إلى كُثرة أشجار الزيتون المزروعة في مناطق مختلفة من البلاد[5]، و قد حُظي محصول الزيتون باهتمام كبير من الفلاحين في الأراضي المقدَّسة، وكان يُزرع في معظم مناطق فلسطين، وخاصَّة على الجبال والساحل

---

[1] شُجيرةٌ صغيرةٌ وقصيرةٌ لها أوراق تشبه أوراق الكرمة، ويبلغُ طول ثمرها حوالي ثلاث بوصات، وحينما تنضجُ يتغيَّر لونها إلى أصفر، وتُقطف في شهر حزيران، ثمَّ يُصبُّ عليها الزيت وتُعرَّضُ للشمس، وبعد ذلك يُستخرج منها عصارة يتكوَّن منها. بيركهارت(جون لويس): رحلات بيركهارت في سورية الجنوبية، تر: أنور عرفات، وزارة الثقافة والإعلام، الأردن، د. ت، ج٢، ص٥٧.

[2] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص١٢٠- ١٢٢.

[3] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة ، ص٥٥، ٦٥، ١٠٥، ١٠٩.

[4] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة ، ص١٨، ٥٧، ٥٩.

[5] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٤١؛ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٣٩، ٤٦.

الفلسطيني، وفي عسقلان، وأرسوف، ويافا، ونابلُس، وفي بيت المقدس وخاصة في طور زيتا، و قرية العازرية[١]، وأنَّ جبال القدس كانت تنتج أشجار الزيتون زكي الرائحة[٢].

وأشار الرحَّالة الألماني بورشارد أنَّ قُرى حيفا اشتهرت بزراعة أشجار الزيتون، التي كانت تُلقى عناية خاصة من العرب المسلمين قبل قدوم الفرنجة، فلمَّا سيطر الفرنج على المنطقة توسَّعوا في زراعته، نظراً لما تدرَّهُ هذه الأشجار من أرباح على أصحابها، فانتشرت تلك الأشجار بكُثرة حول حيفا[٣]، وأضافَ بورشارد أنَّ مدينة طرابلس في لبنان جنَّة بفعل بساتين الزيتون التي تشغل مساحات كبيرة منها[٤].

وبالمقارنة أشارَ دانيال الراهب الذي زار المنطقة في بداية الغزو الصليبي للأراضي المقدَّسة إلى شُهرة المناطق المجاورة لبيت المقدس بزراعة هذا النوع من الأشجار، وذكر أنَّ جبل الزيتون يشتهر بزراعة أشجاره، وأُطلق عليه هذا الاسم لكُثرة أشجار الزيتون المزروعة عليه، وأضافَ دانيال أنَّه في بيت لحم تكسو المنحدرات السفلى للجبال أشجار الزيتون، إضافةً لمنحدرات جبل طابور التي تكسوها بأعداد كبيرة، و أنَّ مدينة نابلس تكثر في أراضيها أشجار الزيتون، ودليلُ ذلك وفرة انتاجها من زيت الزيتون[٥].

وبيَّن الرحَّالة الألماني ثيودوريش أنَّ زراعة الزيتون تكثر على سفح جُبيل يُسمَّى جبل الزيتون، وثماره صالح لعصير الزيتون إذ يستخرج منه أفضل أنواع الزيوت، إضافةً لزراعته في مناطق الجبال المُحيطة بمدينة بيت المقدس وقد عبّر ثيودوريش عن ذلك بقوله: « شاهدنا التلال والجبال المزروعة بأشجار الزيتون، و أريحا من أكثر المناطق التي تشتهر بأشجار الزيتون، وغالبُها يعتمد على مياه الأمطار »[٦].

– التين:

يُعدّ التين أحد أهمَّ الأشجار المُثمرة التي تُزرع في بلاد الشام و الأراضي المقدسة، و وردت الإشارة لشجرة التين عند الرحَّالة بورشارد بقوله: « من المزروعات والثمار التي تُكثر في بلاد الشام والأراضي المُقدَّسة منها لا سيَّما في مناطق الجبال، شجر التين»[٧].

وبالمقارنة أشارَ دانيال الراهب أنَّه في بيت لحم تكسو المُنحدرات السُفلى للجبال منها أشجار التين ذو الثمرةُ الصفراء، والأحمر منه كبيرٌ يسرُّ الناظر رؤيته، وهو ذو طعمٌ حلو، يُستخدم للتجفيف في أغلب

---

[١] الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٥٧؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٧٥.

[2] Prawer.J: The Latin, p.362.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص ٩١؛ دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص ١٢٠.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٢٨.

[٥] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٤١، ٤٥، ٨٧، ١٠٨، ١٠٩، ١٢٠.

[٦] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص٥٥، ٦٥، ١٠٣، ١٠٥.

[٧] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٨– ١٧١.

بلاد الشام، و أشار دانيال إلى زراعته بقرب منحدرات جبال الخليل، إضافةً لزراعته على منحدرات جبل الطابور، و أنَّ مدينة نابلس غنية وشهيرة بزراعة هذا النوع من الأشجار المثمرة[١].

- الكروم:

زُرِعت أشجار الكرمة في القدس، والمناطق المجاورة لها، وقد اهتمَّت المؤسسات الكنسيَّة الصليبيَّة التي استحوذت على الأراضي الزراعية اهتماماً كبيراً بزراعة أشجار الكرمة، وبخاصة في القُرى التي استوطنها رهبان كنيسة القيامة، أمَّا التربةَ التي تُناسب زراعة أشجار الكرمة فهي أصناف عدَّة ، فالعنب الأبيض توافقه التُربة المائل لونها إلى السواد والحمرة، مع وجود رطوبة في التربة، والتُربة البيضاء تُناسب العنب الأبيض أيضاً، والعنب الأحمر والأصفر يخصُبان في الأرض الرقيقة والعجيب في أمرِ ثمار العنب أنَّ كلَّ نوع منها يؤدِّي عصيره إلى لون أرضه لا على لونه[٢].

وقد أفاض الرحالة الأجانب – الَّذين زاروا الأراضي المقدَّسة بذكر أشجار الكرمة، وأهمِّ المناطق التي اشتهرت بزراعتها، فقد ذكر الرحَّالة الألماني بورشارد أنَّ أشجار كروم العنب موجودة بكثرةٍ في الأراضي المُقدَّسة، وأضاف أنَّ نبيذه من النوع الجيد والمشهور جداً[٣].

وبالمقارنة أشارَ الرحَّالة دانيال الراهب أنَّ المناطق المجاورة لبيت المقدس تتوافر بها أشجار الكرمة، و أنَّه في بيت لحم تكثر كروم العنب، وأيضاً بقرب منحدرات جبال الخليل، وذكر دانيال أنَّ حيفا اشتهرت بزراعة أشجار الكرمة منذُ القدمِ، بحيثُ كانت أشجاره تُزرع في السهل الساحلي، وعلى سفوح جبل الكرمل لمُلائمة تربتها ومناخها لهذا النوع من المحاصيل، وأضافَ دانيال أنَّه عندما استولى الفرنجة على الأراضي المُقدَّسة، اهتمُّوا بهذا المحصول من أجل استخراج النبيذ، وكانَ معدل ازدياد استهلاكهم من النبيذ يُدلِّل على الازدهار أيضاً[٤].

وأشار الرحَّالة الروسي فيتلوس أنَّ منطقة عين جدي في أريحا من أكثر المناطق التي اشتهرت بزراعة الكرمة، والعنب الأنجادي[٥]، أمَّا الرحَّالةَ الألماني ثيودوريش، فقد ذكر أنَّ أهمَّ مناطق زراعة الكرمة تتركز تتركز في المناطق الجبلية بقرب القدس، وبقرب جبل الزيتون، وفي أريحا، والسامرة(سبسطية) الغنية

---

[١] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٨٧، ٩٢، ١٠٨، ١٠٩، ١٢٠.

[٢] مؤلف مجهول: مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، ص ٢٠٨.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠١.

[٤] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٢٦، ٨٧، ٩٢، ١٢١.

[٥] فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٤٠.

بتربتها وكرومها[١]، ووردت الإشارة لزراعة العنب في رحلة الألماني يُوحنا الورزبرجي بقوله: « وتشتهر الأراضي المُقدَّسة بكروم العنب التي تُسمى عين الجدي، المنسوب لمنطقة عين جدي»[٢].

- قصب السُكَّر:

لعلَّ أهمَّ مناطق بلاد الشام التي اشتهرت بزراعة قصب السُكَّر هي مدينة حيفا وما جاورها بسبب توافر المياه اللازمة، والمُناخ المُناسب لزراعته، فضلاً عن الخبرة الطويلة التي اكتسبها السُكَّان من جراء زراعتهم له في هذه المناطق[٣]، ووردت الإشارة لزراعة قصب السكر عند الرحالة الألماني بورشارد الذي وصف طُرق زراعته وصفاً دقيقاً، إذ قال: « يتمُّ اختيار الأرض الجيدة التي تتوفر فيها المياه، وقد تُزرع الأغوار، إذ تُنظَّف الأرضُ، ثمَّ يتمُّ تسويتها، وتُجرَّف حتَّى تُمهَّد فإذا صلحت وطابت تشقُّ عند ذلك ويقوم الفلاحين بتقطيع القصب إلى قطع عدِّة يبلغُ طول القطعة إصبع الإنسان، وذلك من أجل الحصول على عُقدة وسط كلِّ قُطعة حيثُ يتكوَّن العديد من القُطع في أرض رطبة خلال فصل الربيع، ويُرمى فيها قطعتين قُطعة مُثنَّاه، وقطعة مُفردة وتكون في أحواض تصل إليها المياه في قنوات، وبعد أنْ يتعدَّى نموُّ القصب الشقوق يقوم الفلاح بإعادة التُراب عليه ويُسقى جيداً، وتنمو من هذه القطع قَصبات جديدة، وهكذا تتمُّ زراعة قصب السُكَّر »[٤].

- الجميز:

اشتهرت الأراضي المقدسة بزراعة أشجار الجميز[٥] التي تنتشر في المناطق السهلية والجبلية على حدٍّ سواء[٦]، وأشار المؤرخين أنَّ أشجار الجميز من الأشجار المثمرة في بلاد الشام، واستُخدمت في أغراض البناء، ولعبت دوراً مُهمَّاً في الأزمات الصليبيَّة، إذ كانت مصدراً من مصادر الطعام لجيوشها[٧].

---

[١] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص١٠٥، ١٠٩، ١٢٩.

[٢] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٥٧.

[٣] ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص ١٥٢.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٧- ١٦٩.

[٥] شجرٌ يشبه ثمرة التين، وهو من أصل إفريقي يُعمِّر طويلاً، ويتميَّز بجودة خشبه، وأوراق الجميز كبيرة وتشبه ورق التوت، التوت، وتُثمرُ ثلاث أو أربعة مرَّات في السنة، وثمارهُ صغيرة لا تخرجُ من فروع الأغصان. السمعاني: الأنساب، ج ٣، ص ٣٣٢؛ ابن مماتي(الأسعد بن المهذب): قوانين الدواوين، تح: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص ٢٧٥؛ البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص٢١، ٦٢؛ القزويني: عجائب المخلوقات، ص٢١٠.

[٦] الإصطخري: مسالك الممالك، ص٤٤.

[7] Prawer.J; The latin, p 365.

وقد وردت الإشارة لزراعة الجميز عند الرحالة الألماني بورشادر بقوله: « وتكثُر في المناطق المُحيطة ببيت المقدس أشجار كثيرة من الجميز، ذو الثمارُ الصغيرة»[١]، و بالمُقارنة ذكر دانيال الراهب أنَّ أشجار الجميز كانت توجد في المناطق المجاورة لبيت المقدس[٢]، وأشار الرحَّالة الروسي فيتلوس أنَّ الجميز أحد أهمُّ مصادر الدخل بالنسبة للفلاح، وهو يُزرع بكثرة في مناطق توافر الأمطار، ولا سيَّما بقرب بيت المقدس، وفي منحدرات الخليل، وبالقرب من بيت لحم[٣]،

- التُفَّاح:

تحدَّث الرحَّالة الألماني بورشارد عن زراعة نوع من التُفَّاح يُسمَّى تُفَّاح آدم، يُزرع في حيفا وسهول يافا، وما يُجاور بيت لحم من الأراضي الخصبة، إذ قال: « يصنعُ منه المواطنون المخللات للأكل مع الدجاج، والسمك وأطعمة أخرى، وهي تجعل الطعام سائغاً جداً، أو ذا طعماً لذيذ»[٤]، و بالمقارنة وردت الإشارة لزراعة التُفَّاح في رحلة دانيال الراهب الذي ذكرَ أنَّ زراعة التُفَّاح تنتشر في أريحا، والمناطق المحيطة إذ يُزرع فيها كميات كبيرة من أشجار التفاح لاسيَّما التفاح الأحمر، وأضافَ دانيال أنَّ أشجار التُفَّاح تنتشر بكثرة في منحدرات جبال الخليل، و مناطق يافا وحيفا[٥]، وذكرَ الرحَّالة الألماني ثيودوريش أنَّ هذه الأشجار تكثر زراعتها في مناطق أريحا، إذ قال: « وفي أريحا رأينا حديقة مليئة بالأشجار التي تحمل التفاح الكثير، ولكنَّهُ ذو حجمٌ صغيرٌ »[٦].

- الموز:

تُعدُّ ثمار الموز من خيرات فلسطين، وحُظيت زراعته باهتمام الصليبيين وعنايتهم باعتباره أحد الفواكه اللذيذة الطعم، لدرجة أنَّ الرحالة الألماني بورشارد أطلقَ عليه اسم(تُفَّاح الجنة)، وخصَّصَ بورشارد جزءاً من رحلته للحديث عن الموز الذي لمْ يسبقَ له أنْ رآه في بلاده، وبدا عليه الإعجاب بهذه الفاكهة، إذ وصفها وصفاً دقيقاً فقال: « وهناك نوع آخر من الفاكهة يُدعى الجنَّة(الموز)، وهو فاكهةٌ لذيذةٌ جداً، وينمو مثل عنقود العنب الذي يشتمل على حبَّات عدِّة، وهذا العنقود كبير في حجم سلَّة كبيرة، ويحتوي العنقود في بعض الأحيانِ على ستمائة حبَّة أو أكثر، وجميع هذه الفاكهة ذاتُ شكلٍ مستطيلٍ، ويبلغ طول كلِّ حبَّة منها نحو ستة أصابع، وسُمكِها كسُمكِ بيضة الدجاجة، وهي ذات قشرةٍ سميكةٍ مثل غلاف حبة الفاصولياء، ولونها أصفر ناعم، ويُخرِجُ المرء الثمرة ويأكلها، ويلقي بالقشر جانباً، ومذاقها لذيذ جداً، مثل

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٧.
[٢] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٢٦.
[٣] فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٨٨.
[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٩.
[٥] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٦٢، ٧٥، ٩٢.
[٦] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص١٠٥.

الزبدة والعسل المأخوذ من النحل، ولا تحتوي هذه الحبات على بذور بداخلها، ولكنَّها قابلة للأكل مباشرة، وتحتاج هذه الثمار لأكثر من سنة حتَّى تنمو وتبقى الشجرة لوقت قصير، سنتين في الأغلب، وتذبل بعد ذلك مباشرة، ولكنَّها عندما تبدأ بالذبول تبدأ شجرة أُخرى بالتبرعم أو النمو مُباشرة من جذورها، وتقومُ بنفس ما قامت به الشجرة السابقة، أما أوراقَ هذه الشجرة، فهي طويلةٌ بارتفاع رَجُل، وعريضةٌ بحيثُ يُمكن للمرء أن يُغطِّي كلُّ جسده بورقتين منها»[١].

وبالمقارنة فقد تطرَّق الرحَّالة الروسي دانيال لزراعة الموز في الأراضي المقدَّسة، فذكر أنَّ أشجار الموز تكثرُ في أريحا والمناطق المجاورة لها، وفي قرية بقرب أريحا تُسمَّى النويعمة لاسيَّما الموز الَّذي يتدلى على شكلِ عناقيدٍ تسرُّ الناظر رؤيتها، وهو موز سُكَّري، منه طويل الساق وبعضهُ قصير[٢].

– الخروب:

اشتهرت الأراضي المُقدَّسة بزراعة الخروب[٣]، إذ كانت ثمارها ضمنَ السلع التي تُصدَّر إلى الخارج[٤]، وذكر الرحالة الألماني بورشارد أنَّ الخروب كان مُنتشراً في المناطق المُحيطة بالقدس، وفي أراضي بيت لحم، وبعض سهولِ يافا وحيفا[٥].

و بالمقارنة قدِّم الرحالة الألماني ثيودوريش وصفاً دقيقاً لشجرة الخروب، فقال: « من الأشجار المُثمرة التي لا تُفرِّع ، ولهُ ثمرةٌ طعمها كطعم العسل ذات منافعٍ شتَّى، وهي تكثرُ في جبال القدس، وفي أراضي نابلس والجليل والخليل»[٦].

– البُرتقال والليمون:

لمْ ترد الاشارة لزراعة البرتقال والليمون سوى عند الرحَّالة الألماني بورشارد، إذ قال: « وتشتهر الأراضي المُقدَّسة بزراعة أشجار البرتقال التي تتوافر بكثرة في يافا وحيفا وبيسان، وسهول طبرية، وكانت أشجار الليمون من بين الأصناف التي زُرعت بكثرة في إقطاعيّة حيفا، والتي صُدِّرت إلى أوربَّة»[٧].

– الرُمَّان:

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٩.

[٢] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٧٥.

[٣] من الأشجار الجبلية التي تنمو في بلاد الشام، حيثُ يُغرَس من نواة، ولا يحتاج إلى عناية، لكنْ إلى التقليم لا غير؛ لأنَّه يفرع ولا يدرع، ويُقال فيه: خروب وخرنوب، ويخرج منه عسل وربٌّ له منافع. مؤلف مجهول: مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، ص ٢٠٢،٢٠٣؛ أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص ٢٠٥؛ البيشاوي: الممتلكات الكنسية، ص ٤١٥.

[4] Prawer. J; The Latin, p 365.

[٥] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٢.

[٦] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص١٠٣.

[٧] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٨– ١٧١.

أشار الرحَّالة بورشارد إلى كثرة توافره في الأراضي المُقدَّسة، لاسيَّما في قرى حيفا[١]، ووردت الإشارة لزراعته عند الرحَّالة الروسي دانيال، فقال: « على جبل الكرمل وفي وادي فلاح، والسهل الساحلي حُظيت أشجار الرُمَّان بعناية سكان فلسطين، و اهتمامهم»[٢].

- الخوخ:

وردَ ذكرهُ في رحلة الألماني بورشارد بقوله: « من المزروعات والثمار هُناك أيضاً فاكهة تُدعى الخُوخ، وثمارهُ يتمُّ تصنيعُها، وحفظها في عكَّا بطريقة فائقة وجيّدة»[٣].

2ً- الحيوانات:

أشارَ الرحَّالة الألماني بورشارد إلى وجود كثير من الحيوانات التي يُربَّى بعضُها من قبل السُكَّان المحليين ويُعتمد على غالبها في الزراعة، وبعضها الآخر هو ما يُعرف بالحيوانات البريَّة، وتُعد تربية الجواميس والجمال، من أهمِّ الحيوانات التي اعتنى فيها سُكَّان بلاد الشام، إذ استُخدمت في المعارك الحربية ضدَّ الصليبيين، وأيضاً في حراثة الأرض، وربَّما كان مصدرها الانتصارات التي كان يُحقِّقُها العرب المسلمين على الصليبيين، ودليل ذلك قول المقريزي: « وكثرت المغانم بأيديهم حتَّى لم يجدوا من يشتري البقر والجاموس»[٤]، وقد وردت تلك الإشارات عند بورشارد في مواضع عدَّة منها قوله: « كثُرت الجواميس والمُهر في فلسطين لدرجة لمْ تتسعَ الأسواق لاحتوائها»[٥]، كذلك انتشرت في بلاد الشام تربية الجمال التي التي كانت تُستخدم لنقل المحاصيل من الحقولِ إلى الأجران، وقد أشارَ الرحَّالة بورشارد أنَّ هذا النوعُ من الحيوانات كان يُربى عند القبائلِ البدوية التي وجِدت في أطراف المدن، فقال: « هُناك أعداد غير مُحدَّدة من الجمال العربية... وحيدة السنام»[٦]، وذكرَ بورشارد أنَّ الأرانب توجد بوفرة في الأرض المُقدَّسة، إضافةً لأعداد غير محدودة من المهر[٧].

وبالمقارنة فقد أشار الرحَّالة دانيال الراهب أنَّ في الخليل تُكثر قطعان الأغنام والحيوانات الأخرى التي تلد مرتين في السنة[٨]، كذلك لاقت تربية الثيران أهمِّية كبرى لدى الفلاحين؛ لاستخدامها في حرثِ الأرض، وذكرَ الرحَّالة الألماني ثيودوريش أنَّه شاهد العديد من الفلاحين العرب المسلمين الَّذين يقومون بتربية

---

١ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص ١٧١.

٢ دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص١٢٠.

٣ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٨، ١٦٩، ١٧١.

٤ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٣.

٥ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧١.

٦ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧١.

٧ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧١.

٨ دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٩٢.

العجول والحمير من أجل حراثة الأراضي السهلية و أنَّه شاهد حشداً من الفلاحين المسلمين في الطريق الذي يربط بين نابلس والقدس، وهم يحرثون بثيرانهم في أحد السهول الكبيرة والجميلة[١].

ويدلُّ قول بورشارد : « كثير في الأراضي المُقدَّسة العسل» على تربية النحل، وربَّما اشتهرت فيه مناطق الكرمل بسبب كثرة الكروم والبساتين والزهور، والرياحين التي توجد فيها[٢]، ومثلُ هذه الإشارة وردت عند الرحَّالة دانيال الراهب، الذي ذكر أنَّ سكان بلاد الشام اهتموا بتربية النحل الأمر الذي انعكس ايجابياً على انتاج كميات كبيرة منه، فقال في ذلك: « وهناك أعداد كبيرة من النحل تقوم بصنع خلاياها في صخور تلك الجبال الجميلة»[٣].

وأيضاً أشارَ الرحَّالة الألماني بورشارد أنَّ جبل طابور الواقع على بعد فرسخين من الناصرة، باتِّجاه الشرق، فيه خرائب ثلاث بيعات، وفيه خرائب على غاية من العظمة تشمل أماكن وأبراج وأبنية عاديَّة، وهي مأوى للأسود والحيوانات الضارية، وفيه يتوفَّر مكان للصيد الملكي، إضافةً إلى وجود الخنازير البريَّة، وإناث الظبي، والأرانب البرية، والسمان التي من الرائع رؤيتها، والعديد من الأسود[٤].

و هذه الإشارة وردت عند الرحَّالة فون سوخم الذي ذكر أنَّه على ضفاف نهر الأردن أعداداً لا تُحصى من الحيوانات الكبيرة والصغيرة تشرب منه، وخاصة الأسود، و الثعالب، والظباء، والوعول، والأرانب، والخنازير البرية، والأسود التي لا تؤذي أحد، وهي تسير بين الناس وكأنَّها مُدجَّنة[٥]، كما ذكرَ الرحَّالة دانيال الراهب أنَّ منطقة سدوم البحر الميت تعيش فيها كثيراً من النمُور، وحُمر الوحش، وتُكثر الحيوانات البرية، مثل الدببة، والأسود[٦].

3ً- مصادر الدخل والتجارة:

تطرَّق الرحَّالة بورشارد لذكرِ مصادر الدخل والتجارات التي كانت رائجة في بعضِ مناطقِ بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، وكانت في غالبها تجارة مُبادلة بين المُسلمين والمسيحيين، فذكرَ أنَّ أهمَّ مصادر دخل المُسلمين ودولتهم، تعتمدُ على الجزية التي تؤخذ من المسيحيين الشرقيين في مناطق بيت لحم، وهؤلاء عُرفوا بزراعة الكروم وصناعة النبيذ، ولذلك حصلَ المسلمون على عائدات عظيمة منهم قُدِّمتْ إلى السلطان[٧]، إضافةً إلى ذلك عملَ المسلمون في زراعة الكروم، وبخاصة أولئك الَّذين يقطنونَ

---

[١] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص٦١.

[٢] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧١

[٣] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٩٢، ١٣٠.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٩٤، ١٧١.

[٥] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٧٤.

[٦] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٧١، ٧٩.

[٧] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٥٦.

بالقربِ من المسيحيين، فيبيعونه لهم[١]، وفي مدينة عين جدي الواقعة على الساحل الغربي للبحر الميت، تُزرع الكروم الرائعة الصالحة لإنتاج النبيذ الَّذي يُباع للمسيحين[٢].

وأوردَ الرحَّالة بورشارد ذكراً لتجارة الحرير، فأشارَ إلى أنَّ مدينة طرابلس تشتهر بإنتاج الحرير، وهذا ما عُدَّ مؤكَّداً بحُكمِ وجود الكثير من مغازل الحرير والتُجَّار، وغيرها من الأعمال المشابهة في المدينة[٣]، وأضافَ أنَّ مدينة كفرقنا الواقعة في الشمال الشرقي من الناصرة باتجاه الأردن، وفيها وفرةٌ من جميع سلعِ الدُّنيا المُتَاجَر بها[٤].

ولعلَّ من أهمِّ التجارات الرائجة مَا ذكرهُ بورشارد عن تجارة مادَّة القُطران والشبَّة وعن التُربة التي تُجلب من حقلِ دمشقَ، وقد فصَّلَ في حديثه عن هذه التُربة وعن الدول التي تُصدَّر إليها، والدَّخل الَّذي توفِّرهُ للمُسلمين، فقال: « وغرب الكهف المُزدوج برميةِ سهمٍ يُوجد حقلُ دمشقَ، حيث تمَّ هُناك خلق آدم وحَواء من الصلصال، وفي الحقيقة فإنَّ لهذا الحقلُ تُربة حمراء رائعة يُمكن أنْ تُشكَّل مثل الشمع، وقد أخذتُ كميَّة كبيرة منها معي، وفعلَ نفسُ الشيء بقية الحُجَّاج المسيحيين الَّذين زاروا هذه الأماكن، وعلاوةً على ذلك فإنَّ المسلمين يحملُون هذه التربةُ على ظهور الجمال إلى مصر، وأثيوبيا، والهند، وأماكن أُخرى، ويقومونَ ببيعها مُقابل كميَّات من التوابل القيّمَة، هذا مع تجارتهم بمادَّة القُطران والشبَّة التي يستخرجُونَها من البحر الميت»[٥].

و بالمُقارنة وردَ ذكرُ هذا النوعُ من التجارة عند الرحَّالة الروسي فيتلوس، إذ قال: « و يقوم السُكان الآن باستخراج تلك التُربة الحمراء من حقلِ دمشَق، واستخدامها كما يقومونَ بتصديرها إلى مصر، والأراضي العربية، حيثُ تباع بسعرٍ مُرتفع، ورُغمَ الكميات الكبيرة التي تُستخرج من الحقلِ السالف الذكر، إلَّا أنَّه يكون في نهاية السنة مُتجدِّداً، كما كان عليه الحال من قبل، وذلك بقدرة الله تعالى، وأنَّ أهل الخليل وأريحا يجمعون من البحر الميت مادَّة القُطران والشبَّة وحجارة الطواحين و البيتومين الَّذي كان يستخدمهُ

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ١٧٠.

[٢] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٢٢، ١٢٣، وبالمُقارنة ذكرَ الحاج الروسي دانيال الراهب أنَّ مدينة القُدس كانت تستورد من نابلس ما تحتاجُ إليه من النبيذ. دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٥٨.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٢٨.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٨٦، يُلاحظ أنَّ بورشارد اقتصرَ على ذكر الأسواق التجاريَّة في مدينة كفر قنا، وأغفلَ ذكرَ" سوق دان" الَّذي يُعدُّ أهمَّ أسواق بلاد الشام، و أشارَ إليه كُلَّاً من الرحَّالة فيتلوس، والرحَّالة ثيودورش، فذكرا أنَّه في بدايةِ الصيف يجتمعُ عددٌ غفيرٌ من الناسِ عند هذا السوق، وينصبونَ خيامهم، ومعهُم أصناف الأشياء المُختلفة لبيعها. فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٥٤؛ ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص١٣٥.

[٥] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٥٩.

الأطباء لأغراض عديدة، منها دهنِ الجمال لإزالة الجرب، أو الحكَّة، ولطلاء الكروم لإزالة الديدان التي تتغذى عليها»[١].

4ً- الصناعة:

لمْ يُغفل الرحَّالة الألماني بورشارد أثناءَ حديثه عن بلاد الشام والأراضي المُقدَّسة ذكرَ بعض الصناعاتِ التي اشتُهِرَت فيها، فذكرَ أنَّ مدينة عكا تشتهرُ بتصنيع وحفظ فاكهة الخوخ بطريقة فائقة وجيّدة، وأنَّ المواطنين يصنعونَ المخللات من تُفَّاح آدم للأكل مع الدجاج، والسمك وأطعمة أُخرى، والَّذي يَجعلُ الطعام سائغاً جداً، أو ذا طعماً لذيذاً[٢]، وأضافَ أنَّ إنتاجُ الزيت يكثُر في الأراضي المُقدَّسة[٣]، وأنَّ نبيذ الأرض المُقدَّسة من النوع الجيد والمشهور جداً، كما ذكرَ أنَّ المسيحيين الشرقيون الَّذين يقيمونَ حول القُدس، وفي جهاتٍ مُتفرِّقة أُخرى يقُومونَ بصناعة النبيذ؛ لأنَّ المُسلمينَ لا يشربونهُ[٤]، وأشار إلى أنَّ مدينة حيفا أشهرُ مُدن الأراضي المُقدَّسة بتصنيع النبيذ، خاصةً أنَّ الكروم كانت مُنتشرة في جميع قُرى حيفا وجبل الكرمل، مما زادَ من انتاجها من النبيذ الَّذي عُدَّ في نظر الأوروبيين مُقدَّساً، ويُحظى بشُهرة عالميَّة؛ ولذلك وجدَ إقبالاً من قبل التُجَّار الأوروبيين[٥].

وتناولَ بورشارد الحديث عن صناعة الزُجاج في الأراضي المُقدَّسة، فقال: « كانت الصناعة تعتمدُ على ما تُنتجُهُ الأرض المُقدَّسة وما جاورها من محاصيلٍ زراعيَّة، و مواد طبيعيَّة كالرَّمل البلوري المُستخدم في صناعةِ الزُجَاج»[٦].

وتفيدُ المصادر أنَّ صناعة وتكرير السُكَّر من الصناعات النشطة في إقطاعية حيفا، وقد فصَّل الرحَّالة بورشارد في وصفها، فقال: « إنَّ قصب السُكَّر مَلئ بالمادة النافذة السائلة والرطبة جداً، ويتمُّ تجميع القصب، ويُقطع طولياً، وكلُّ قُطعة بحجم نصف النخلة، وبعدَ ذلك يتمُّ عصر القُطع بالمعصرة، وينزلُ العصيرُ في وعاءٍ نُحاسيٍّ مُعَدٌّ لذلك، ثمَّ يتمُّ غلي العصير على النار حتَّى يصُل إلى درجة التكاثُف، ويُجمعُ في سِلال مصنوعة من غيضاتً رفيعةً، وبعدَ فترة يُصبح السُكَّر جافَّاً وقاسياً، وبهذه الطريقة يُصنع السُكَّر، وقبل أن يجفَّ يتمُّ ترشيح المادة السائلة منه التي تُدعى عسل السُكَّر»[٧].

---

١ فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٣٧، ٣٨، ٤٠، ووردَ ذكر هذا النوع من التجارة عند الرحَّالة الألماني يوحنا الورزبرجي. يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٩٨، ٩٩.

٢ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٩.

٣ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٢.

٤ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠.

٥ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧١.

٦ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٨.

٧ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٨.

وبالمُقارنة وردت الإشارة لتلكَ الصناعات في رحلة الروسي دانيال الراهب، فذكر أنَّ الأراضي المُقدَّسة، ولاسيَّما مدينة نابلس اشتهرت بإنتاج الزيت، والنبيذ، والفاكهة المُجفَّفة بكُثرة، فضلاً عن صناعة السُكَّر المُكرَّر»[1].

ج-ج- الحياة الاجتماعية:

يُعدُّ الرحَّالة الألماني بورشارد أكثرُ رحَّالة زودُنا بمعلوماتٍ عن الحياة الاجتماعية في بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، فقدَّمَ معلوماتً مُهمَّة عن فئات السُكَّان و أجناسهم، وأماكن سكَنِهم، وطبيعة حياتهم، وقوانينهم، وصفاتَهُم الشخصيَّة وأخلاقهم، وبعض مُعتقداتِهم وأفكارهم، **وهذه الفئات هي:**

1ً- اللاتين:

أشارَ الرحَّالة بورشارد إلى وجودِ أعدادٍ كثيرة من اللاتين الَّذين يسكُنونَ في بلاد الشام، و خاصةً في الأراضي المُقدَّسة، و تناولَ بالذكرِ البُلدان التي أتوا منها، وتطرَّق لذكرِ عاداتهم، وديانتهم، وأخلاقهم، ونعتَهم بأنَّهم أسوأ الشعوب وبأنَّهم يرتكبون الحرامَ والزنا ويسرقونَ مُقتنيات بعضهم، وقد عبَّر عن ذلك بقوله: « يسكنُ في داخل الأرض المُقدَّسة أُناسٌ من كلِّ أُمَّة تحتَ السماء، ويتبعُ كلُّ إنسان عقيدته، وفي الحقيقة لا بُدَّ أن أذكرَ، أنَّ قومُنا، من اللاتين، هم أسوأ من الشعوب الأُخرى كلَّها في البلاد، وسببُ هذا كمَا أعتقدُ هو أنَّ أيُّ إنسانٍ اقترفَ إثماً أو جريمة مثل: اللواطة، والنهب، والسرقة، والزنا، يعبرُ البحر كعقوبة، أو لخوفهِ على نفسهِ، حيثُ لا يتجرأ على البقاء في موطنهِ، ولهذا يقدمُ الناس إلى هَا هُنا من جميع الأصقاعِ من ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وإنكلترا، وإسبانيا، وهنغاريا، ومن جميعِ أجزاءِ العالم، ومع هذا فإنَّ كلَّ الَّذي يفعلونهُ مُجرَّد تغيير أجوائهم المناخية، ولكنْ ليسَ عقلياتهم، لأنَّهم بعدما يُصبحونَ هناكَ ويُنفقونَ ما جلبوه معهم، يُباتُ عليهم كسب المال، ولهذا يعودونَ ثانية إلى دَنْسِهم، ويقترفونَ آثاماً أسوأ مما اقترفوهُ من قبل، حيثُ يتولونَ إسكان الحُجَّاج الَّذين هُم من شعوبهم في بيوتهم، وإذا لمْ يعرف هؤلاء الناس كيف يعتنون بأنفسهم يثقون بهم، فيفقدونَ كلَّ مُقتنياتهم وشَرفهم، ويقومونَ أيضاً بإنجاب أولاد، يتولُّون تقليد جرائم آبائهم، وهكذا ينجبُ الآباءَ السيئون أبناءَ أعظمُ سوءاً منهم، ومن هؤلاء ينحدرُ أحفادهم الأكثرُ شروراً وفساداً، وهؤلاء يدوسون على الأماكن المُقدَّسة بأقدامٍ مُلوَّثة، ولهذا السبب كانَ ما وقع، هو أنَّه لذنوب السُكَّان في البلاد ضدَّ الربّ، تعرَّضت البلاد نفسها، وموضعُ مَخلَصِنا إلى العارِ والشنارِ»[2].

2ً- السريان:

ذكرَ الرحَّالة بورشارد أنَّ البلادَ كُلَّها مليئة بهؤلاء، وهم مسيحيونَ لكنَّهم على غير وئامٍ مع اللاتين، ويلبسونَ بشكلٍ بائس جداً، وهُم بخلاءٌ لا يُقدِّمون صدقات، و يسكنونَ بينَ المسلمين، وفي معظمِ الأحيان

---

[1] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٩.

[2] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٢.

كأنَّهم خدمٌ لهُم، ويرتدونَ من الملابس مثلَمَا يرتدي المُسلمون، ويتميَّزون عنهُم بحزام صوفي فقط [١]، وبالمُقارنة فقد ذكرَ الرحَّالة الروسي دانيال أنَّ السريانَ كثيرون في الأراضي المُقدَّسة، لدرجة أنَّهم يُمثِّلونَ نصفَ سُكَّان إحدى القُرى الكبيرة بالقربِ من مدينة الخليل[٢].

3ً- الإغريق:

أشارَ الرحَّالة بورشارد أنَّهم مسيحيون، ولكنَّهم هراطقة مُنشقِّين باستثناء عدداً منهم قد عادوا إلى طاعة الكنيسة إثرَ المُجمَّع المسكوني الَّذي عقدهُ البابا غريغوري العاشر سنة(٦٧٣هـ/١٢٧٤م)، وأضافَ بورشارد أنَّ جميعَ رجالُ الدِّين في الكنيسة الإغريقية رُهبان، والإغريق رجالٌ ذوي حياةٌ صارمة جداً وأصحاب فضائل رائعة، وهم أتقياءٌ بشكلٍ كبير، ويحترمونَ في غالبِ الأحيان رجال الكنيسة لديهم ويبجِّلونَهُم، وقد أكَّد بورشارد ذلك بقوله: « سمعتُ واحداً من بطاركتِهُم يقول بحضوري: إنَّنا على استعدادٍ لأنْ نعيشَ تحتَ طاعة كنيسة روما، و أنْ نحترمُها، لكنَّني مُندهشٌ إزاءَ ترتيبنا بالدرجاتِ دونَ أدنى رجال الدِّين، مثلُ رؤساء الأساقفة والأساقفة، فبعضُ رؤساءِ الأساقفةِ والأساقفة يريدونَ منِّي وأنا بطريرك أنْ أُقبِّلَ أقدامَهُم، وأنْ أكونَ خادماً لهُم، الأمرُ الَّذي لا أجدُ نفسي مُتوجِّبٌ عليها القيام بذلك، وعلى كلِّ حال أنا على استعداد للقيام بهذا مع البابا، ولكنْ ليسَ مع أيُّ إنسانٍ آخر»[٣].

4ً- المدينيون

أطلقّ عليهم الرحَّالة بورشارد في تلكَ الحقبة الزمنية تسمية التُرك والبدو و التُركمان، وذكرَ أنَّ جميعَ سُورية مليئة بهُم، ولكنْ جزءاً كبيراً منهم يقيمُ حولَ نهر الأردن، وفي المنطقة المُمتدَّة من لبنان حتَّى بريَّة باران، وأشارَ إلى أنَّهم يعيشونَ في الخيام مع زوجاتهم وأطفالهم وقُطعانهم ومواشيهم وجمالهم، وقد أُعجِبَ الرحَّالة بمنظرِ جِمَالهم التي شاهد آلاف عدَّة منها، ثمَّ تحدَّث عن طبيعة حياتهم وأعمالهم وأخلاقهم و ملابسهم، فقال: « وقد خصَّصوا أنفسهم للعناية بالماشية والجمال وإطعامها فحسب، وهم يمتلكونَ أعداداً كبيرة جداً منها، ولا يوجدُ لهؤلاء الناس مساكن مُعيَّنة، وهُم على أيِّ حالٍ يقطنونَ وينصبونَ خيامهم حيثُ توجدُ المراعي، وهُم مولعونَ بالحربِ كثيراً، ويستخدمونَ السِهام...، وهُم شُجعان في الحرب، ويرتدونَ قميصاً أحمر فقط، وفوقهُ عباءة واسعة جداً، ويُغطُّونَ رؤوسهم بِقُبَّعة قماش»[٤].

5ً- البدو:

تطرَّق الرحَّالة بورشارد إلى ذكرِ البدو في بلاد الشام والَّذين يقطنونَ في بلدةِ سيجور أو تل الشاغور على شاطئ البحر الميت، والجبال القاحلة الجرداء الواقعة وراء ذلك البحر، وبدَا مُتحاملاً عليهم، إذ نعتَهم

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٣.

[٢] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٨٢.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٣.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٥٥، ١٧٤.

بالبرابرة، ووصفهُم بأنَّهُم رجالاً وقحون أشرار، ولعلَّ سببَ هذا التحامُل أنَّهم كذَّبوا عليه، حينَ أرادَ زيارة عمود الملح الَّذي تحوَّلتْ إليه امرأة لوط ﷺ، فادَّعوا أنَّ المنطقة مليئة بالوحوش والأفاعي والديدان، فمنعتهُ هذه الادعاءات من الزيارة، وهي ادعاءاتٌ اكتشفَ الرحَّالة بُطلانها لاحقاً، و أضافَ بورشارد أنَّ هؤلاء البدو سكنوا في بيوتٍ من الشعر، واعتمدوا على حياة التنقُّل، وأنَّ الأنشطة الاقتصادية التي مارسوها تنوَّعت، لتشمُلَ النشاط الرَعوي فاعتمدوا على تربيةِ الماشية في المناطق الجبليَّة والأودية التي يتوفَّرُ فيها الماء و الكلأ، فضلاً عن النشاط الحربي الَّذي مكَّنَهُم من الحصول على الأسلاب[١].

وبالمقارنة وردت الإشارة إلى البدو عندَ الرحَّالة سايلوف الَّذي وصفَهُم بالخشونة و القوَّة، وذكرَ أنَّهم يعتمدونَ على الماشية في معيشتهم[٢]، وكانَ الرحَّالة الروسي دانيال الراهب قد أشارَ إلى أنَّ البدو وقحون وأقوياء، وذكرَ أنَّه قد تمَّ تجريدُ قوات للحدِّ من مُقاومتهم أثناءَ الحملات الصليبية[٣].

6ً- الحشاشون:

يُطلقُ على هذه الفئة تسميةُ الإسماعيلية والباطنية والفداوية[٤]، أمَّا تسميةَ الحشَّاشين فذلك لاعتمادهم على الحشيشة في تخدير الناس واستقطابهم لمذهبهم وسيطرتهم، وقد شكَّلت هذه الفئة تهديداً كبيراً لحُكَّام تلك الحقبة الزمنية(ق٧هـ/ ١٣م) والَّذين أُغتيلَ عددٌ منهم على أيدي أتباع هذه الفئة، فكان يستعينُ بهم أربابُ الدول وقتذاك للتخلص من منافسيهم أو أعدائهم، فيَقدمُ هؤلاء على مُهمَّتِهم دونَ وجلٍ أو خوف، لا همَّ لهُم سوى طاعةِ شيخهم، وتنفيذُ أوامره، وقد عجزت الدوَّل الإسلامية عن التخلُّصَ من شرورهم وأذاهم إلى أنْ تمكَّنَ هولاكو من السيطرة على قلاعهم ومنها ألَّموت سنة(٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[٥].

وقد وقفَ الرحَّالة بورشارد كثيراً عند هذه الفئة التي استفحلَ خطرُها في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وفصَّل في الحديثِ عن أماكن سكنها، وعن قوَّتِها، وأعدادها، ونمط حياتها، وقوانينها، وأخلاقها، وأفكارها، وطاعتها العمياء لشيخها، ثمَّ بيَّنَ أثرِهَا في المُجتمع الإسلامي، وما كانت تُحدثهُ من خوفٍ وفزع في نفوس غيرها من المسلمين، كما تحدَّث عن دورها في عمليات التصفية، وفشل الدوَّل الإسلامية في التخلُّصِ منها، إذ فقال: « وبجانبِ إرواد البريَّة(انتارادوس) طرطوس، وعلى بُعدِ نصفِ

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٥٤، ٥٥، ١١٨، ١٧٤.

[٢] سايلوف: وصف الأراضي المقدسة، ص٢٣.

[٣] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٧٧، ٨١.

٤ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص١٢٠، ج٤، ص١٤٦.

[٥] كان هولاكو قد سارَ للقضاء على الإسماعيلية في فارس، و وصلَ إلى بلادهم سنة(٦٥٤هـ / ١٢٥٦م)، و السببُ في ذلك أنَّ المغول خافوا من وقوف الإسماعيلية في وجههم إذا قرروا القضاء على الخلافة العباسية، و بالفعل حاصرَ هولاكو قلعة ألموت، فاستسلمَ صاحبها شمس الشموس بن علاء الدِّين، وبذلك استطاع المغول أنْ يقتحموا المقرَّ الأصلي للإسماعيلية، فزالت دولتهم بعد أن عمّرت (١٧١ سنة). الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢/ ق٢، ص٢٨-٣٠.

فرسخٍ من جانبها الشرقي توجد بعض الجبالِ قليلة الارتفاع، و لكنَّها ذات طبيعةٍ صعبةٍ، إذ لا يُمكن تسلُّقُها أو بلوغها، وتعرف هذه المنطقة باسم أرض الحشاشين، ولديهُم العديدُ من القلاعِ والحصون، والمُدن وأرض خصبة جداً...، و يُقالُ: إنَّ لديهُم أربعين ألف مُقاتل، ولهُم رئيسٌ يُدعى شيخُ الجبال الكبير، ولا يتولَّى الشيخ أمرهم بسبب تقدُّمه في السن، أو عن طريق وراثة المنصب، وإنَّما يتمُّ اختياره حسب جدارته الشخصية، ومكانتهُ بين أتباعهُ، ويُقال: إنَّ هؤلاء الناس من أصل فارسي، وهم مُطيعون حتَّى الموت، وأنَّه عندَ أوامر رئيسهم يقومونَ بقتل أيِّ واحدٍ مهما يكُن، قائلين إنَّهم بهذا يفوزون بالجنَّة، حتَّى لو أنَّهم قُتلوا قبل أن يتمُّوا الأوامر وقد رُسِمت الحدود بين هؤلاء الناس وبين المسيحيين بالحجارة، وتمَّ نقشُ الصُلبان في الجانب المسيحي من الحدود في حين نُقِشت السكاكين في الجانب الآخر من الأرض الخاضعة لسُلطة الحشَّاشين، ولمْ يتمكنَ أيٌّ من السلاطين بعدَ ذلك من قهرهم أو إخضاعهم، ولكنَّهم سَنُّوا قوانينهم الخاصة، وعاداتهم الخاصة، واتَّبعوها باختيارهم، وهُم يرعبونَ جميعُ المواطنين الَّذين يقطنون بالقُربِ منهم، بسبب العُنف والصرامة التي يتصفونَ بها»[١].

وبالمُقارنة تناولهم بالذكرِ الرحَّالة بنيامين التطيلي، فذكرَ أنَّ مقرَّهُم بالقُربِ من قلعة جبلة، ووصفهم بأنَّهم زنادقة لا يؤمنونَ بدينِ مُحمَّد، ويتَّبِعونَ تعاليمَ شيخهُم حمدان قُرمط، ويأتمرونَ بأمرِهِ، ويسمُّونَهُ شيخَ الحشَّاشين، ومقامهُ حُصنٌ يُدعَى القدموس أيِّ قدموث، وهُم في نزاعٍ مُستمرٍّ مع المسيحيين من الإفرنج وأميرُ طرابلس الشام[٢].

7ً- المسلمون:

فصَّلَ الرحَّالة بورشارد في رحلته بالحديث عن سُكَّان بلاد الشام من المسلمين، فتناولَ بالذكر أعدادهم، وصفاتهم ونعُوتهم وأخلاقهم، ودياناتهم ومعتقداتهم، وعاداتهم، ولغتهم، ففيما يخصُّ أعدادهم أوردَ في رحلتهِ مُقارنة بينَهم، وبين أعداد المسيحيين القاطنينَ في بلاد الشام، ففي حديثهِ عن القُدس بيَّن أنَّ أعداد سُكَّان القُدس من المسلمين قليلة، و ذلك خشية الحُروب والنزاعات، وخشية أنْ تتعرضَ المدينة لغزوٍ مُدمِّر مثلُ الَّذي تعرَّضت له في الحملة الصليبية الأولى(٤٩٢هـ/١٠٩٧م) ، فقال: « ولكنْ سُكَّان هذه المدينة العظيمة من المسلمين قلائلٌ في هذهِ الأيام، لأنَّ الناس هُناك يعيشون برعُبِ مُستمر»[٣]، في حين ذكرَ أنَّ أعدادَ المسيحيون أكثرُ بكثيرٍ من أعداد المُسلمين، وأضافَ أنَّ المسيحيين الشرقيون بكافَّة طوائفهم من السريان واليعاقبة، والأرمن، والأقباط، و النساطره يُقيمونَ في مناطق عديدة من بلاد الشام، وكثُرت أعدادهم لذلك وُجِدَ مُقابل كُلَّ ثلاثين مسيحياً أو أكثر مُسلمٌ واحدٌ[٤].

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٥٧، ١٧٤، ١٧٥.

[٢] التطيلي: الرحلة، ص٢٣١، ٢٣٢.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٢٧.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٣، ١٧٦.

وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة الروسي دانيال أنَّهُ بعد استقرار الصليبيين في فلسطين، وحاجتهم للعُنصر البشري المُنتج لمْ يلبثوا أنْ أظهروا المودَّة للمسيحيين الشرقيين، فقاموا بإعادة رجال الدِّين الأرثوذكس إلى كنيسة القيامة، وسمحوا لهُم بُمباشرة طقوسهم الدينية، ولذلك كثُرت أعدادهم حتَّى أصبحت أكثرُ من أعداد المسلمين[١].

***- نعوت المسلمين وصفاتهم وأخلاقهم:**

تناولَ الرحَّالة بورشارد في حديثهِ عن المسلمين نُعوتهم وصفاتهم، وأخلاقهم، وقدَّم في هذا الجانبُ صورة سلبية، ولعلَّ أهمَّ ما ذكرهُ:

- مُغتصبون ووثنيون:

آمنَ المسيحيونَ بأنَّ الأراضي المُقدَّسة في بلاد الشام هي من حقِّ المسيحيين المؤمنين، لأنَّها مُرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتاريخ المسيح ﷺ، وإنَّ المُسلمين اغتصبوها اغتصاباً، ولا حقَّ لهُم بها، ومن هُنا يجبُ على المسيحيين استردادها، وإعادة الحقِّ إلى نصابهِ، وقد ركَّز الرحَّالة بورشارد على نعتِ المُسلمين بهذه الصفة؛ لبثِّ العزائم وحثُّ الأوروبيين على تخليصِ الأراضي المُقدَّسة منهم، واقترنتْ هذه الصفة بحديثه عن وثنيّةِ المُسلمين وكفرِهُم، فنعَتُهم بأنَّهم وثنيين مُغتصبين لأرضِ المسيح، وأنَّ هذه الأرض من حقِّ المسيحيين، وقد وردَت تلكَ الإشارة عندما ذكرَ أنَّ المُسلمين كانوا يعتدونَ على أملاكِ المسيحيين، إذ حوَّلوا إحدى الكنيستين اللَّتين بُنيتا تكريماً ليوحنَّا المعمدان" يحيى ﷺ" إلى جامعٍ، وهُم بذلك مُغتصبونَ لأرضٍ ليست من حقِّهُم[٢].

وبالمُقارنة عبَّر الرحَّالة الألماني يُوحنا الورزبرجي عن وجهةِ نظر أبناء ملَّتهِ حينَ صوَّر المُسلمين بأنَّهُم مُغتصبين لبيت المقدس، وأنَّ ما فعلهُ الصليبيين في الحملةِ الصليبيَّة الأوَّلى كان تحريراً للمدينة المُقدَّسة من سلطة المُسلمين، وإعادتها إلى حُضنِها الدافئ، أيّ الحُضن المسيحي، فقال: « عندما وقعتْ المدينة في الأسرِ لفترةٍ طويلة تحتَ حُكم المسلمين الَّذين ينتمون لأجناسٍ مختلفة، فإنَّ المدينة حُرِّرتْ من قبل الجيش المسيحي إحياءً لذكرى أقرُّوها، وهُم يحتفلونَ بذلك بعد تجديد تكرُّس الكاهن بطقوس دينية مُبجَّلة، وذلك بالغناء في بداية صلاة القدَّاس، والقدَّاس العُلى للتكريس»[٣].

---

[١] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص١١٠.

[٢] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٤.

[٣] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة ، ص٧١، ووصف الرحَّالة الألماني ثيودوريش المسلمين بأنَّهم مُغتصبون للأراضي المُقدَّسة، وتجلَّى ذلك بقوله: « وخلفَ هذا يقع الضريح الثالث، وهو يعودُ إلى شقيق الملك جودفري نفسه الَّذي بوساطة سيفه وحكمته استعاد مدينة بيت المقدس، التي تمَّ اجتياحها من قبل المسلمين والأتراك، وقد أعادها للمسيحية». ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص٧٣.

وتجلَّت هذه النظرة للمُسلمين من التراتيل التي تُقال في هذه الذكرى، وقد حضرَ الرحَّالة سايلوف إحدى هذه التراتيل في الذكرى السنويَّة، وهم يحمدون فيها الله على هذا التحريرُ، ومنها: « اللهُ القادر الأبديّ الَّذي أنقذَ بيت المقدس برحمته الفائقة من أيدي الوثنيين وأعادها للمسيحيين، نتوسَّلُ ونتضرَّعُ إليكَ، وتساعدُنا، حيثُ تحفظ هذا اليومُ في كلِّ سنةٍ، وقد يكونُ مُستحقاً تحقيق السعادة لبيت المقدس المُقدَّسة بواسطة المسيح عليه السلام، أيُّها السيد نحنُ نتوسل إليك، تقبَّل هذا القُربانُ الَّذي أحضرناهُ بتواضع...، نحنُ الَّذين نحتفظُ بقداسة هذا اليومُ حيثُ أنقذتَ بيت المقدس من أيدي الوثنيين»[1].

- سراقنة، أو السارازان(Saracens):

يُعتَقدُ أنَّ المقصودُ من لفظة السراقنة عندَ الأجانب هو مُهاجمة المُسلمين الَّذين فتحوا بلاداً كثيرة ونشروا فيها الإسلام، وقد اختُلِفَ في تفسيرِ معنى هذه اللفظة فمنهم من قال: أنَّ اللفظة مُركبة من" سارة" زوج إبراهيم، ومن لفظ" قين" فيكونُ المعنى هو عبيد سارة، وقال آخرون: إنَّه مُشتقٌّ من سرقَ، فيكون المُراد من سراكين، أو سراقين إشارةً لكُثرة غزوهم وسطوتهم، بينما فسرها آخرين بأنَّها مأخوذةٌ من شرقو، والمقصودُ بها سُكَّان الصحراء أو أولاد الصحراء[2]، وقد وردت تلكَ الإشارة عندَ الرحَّالة بورشارد في مواضع عدَّة[3]، منها عندما ذكر أنَّه أرادَ أن يذهبَ إلى عمودِ الملح الَّذي تحوَّلت إليه زوجة لوط عليه السلام، وأنَّ السراقنة منعوه من ذلك[4].

وبالمقارنة يُعدُّ سايلوف أكثر رحَّالة أوروبيّ استخدم لفظة السارازان أو السراقنة في رحلته[5]، كذلك وردَت هذه التسمية في رحلة فيتلوس[6]، وثيودوريش[7]، ورحلة يوحنا الورزبرجي عندما تحدَّث عن نهر دان في سفح جبل لبنان، فقال: « ويتدفقُ دان من مصدرٍ مهمٍّ..، ونظراً لوقوع دان في وسط ميدان دُعي السهل باسم لُغة السراقنة»[8].

- أعداء وهمجيون وغادرون:

بَرزت همجيَّة المُسلمين في رحلة بورشارد الذي صوَّرهُم مُعتدين قتلة للحُجَّاج المسيحيين، ينصبونَ لهُم الكمائن ويذبحونَهُم، وعبَّر عن ذلك خلالَ حديثَهُ عن الحجر الكبير الذي وقف عليه السيد المسيح عليه السلام

---

1 سايلوف: وصف الأراضي المقدسة، ص١٤٤، ١١٥.

2 علي(جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٦م، ج١، ص٢٧، ٢٨.

3 بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٨١، ١٧٠، ١٧١.

4 بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١١٧.

5 سايلوف: وصف الأراضي المقدسة، ص٥١، ٨٨، ١٦٦.

6 فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٥٤.

7 ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص١٠٩.

8 يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٨٣، ١٠٧.

قُربَ مدينة صور اللبنانية، إذ قال: « وفي ذلكَ المكان أيضاً يُوجد عمود ساقط أو مُدمَّر، ويُقال: إنَّه يُحدِّد معالم الموقع حيثُ كان بعض الحُجَّاج المسيحيين يُذبحونَ على نحوٍ غادر من قبلِ المُسلمين عند زيارتهم لذلك الموقع»[١]، وأضافَ أنَّ المُسلمينَ كانوا يعترِضُونَ الحُجَّاج المسيحيين في بعض الأماكنِ، ويمنعونَهُم من الوصول إليها بأمان، وتجلَّى ذلك في حديثه عن ممرِ الكلب الواقع شمال بيروت، فقال: « ويُعرف هذا المكانُ باسمِ ممر الكلب، ولا يُمكن المرور منهُ بسلامٍ بسبب وجود بعض الرِّجالِ من المُسلمين الَّذين بإمكانهم منعُ كلَّ الناس من المرور من هناك»[٢].

وصوَّر بورشارد المسلمين بأنَّهم مُعتدينَ على أملاكِ المسيحيين، إذ حوَّلوا بعض الكنائسِ إلى جوامع، و لكن العناية الإلهية كانت تدافع عن هذه الأماكن[٣]، وسردَ للتدليل على ما ذكرهُ مُحاولة أحد سلاطين المماليك[٤] خلع زخارف كنيسة المهد في بيت لحم، وأعمدتها ولوحاتها، ونقلِهَا إلى القاهرة راغباً بتشييد قصراً خاصاً به شخصياً، وذلك باستخدامِ هذه الأشياءُ في البناءِ، فقال: « و يا للمعجزة ! فعندما حضرَ العُمَّال مع أدواتهم، وكانَ الُسلطان نفسه واقفاً مع الآخرين، حضرَ ثُعبان بحجمٍ مُذهل خارجاً من الجدار الصُلب العازل للصوت، والَّذي بدا وكأنَّه لا يُمكن حتَّى لإبرة أنْ تخترقهُ، وقد خصَّص الثُّعبان ضربةً للوحة الأولى التي وصلَ إليها، وقد انشقَّت اللوحة من جانبها، وقد فعلَ الثُّعبان نفس الشيء مع اللوحة الثانية، والثالثة والرابعة وحتَّى الثالثة عشرة، ونفسُ الشيء أصابَ الجميع، وقد ذُهِلَ الجميع من جراء ذلك، أمَّا السلطانَ فقد تخلَّى مُباشرةً عن هدفه، وتلاشى الثُّعبان عندَ ذلك...، ويُمكنُ رؤيةُ بعضَ آثارِ جسم الثعبان على كلِّ لوحةٍ مرَّ عليها، على الرغُم أنَّه جرى إحراق هذه اللوحات بالنار، وفوقَ هذا كلُّه يبدوُ من خلال المُعجزة أنَّ الثُّعبان كانَ سيتمكَّن من المرور على طولِ الجدارِ الَّذي يُعدُّ ناعماً ومصقولاً كالزُجاج»[٥].

وبالمُقارنة فإنَّ الرحَّالة سايلوف صوَّرَ المسلمين بأنَّهم أعداء للحضارة والمدنيَّة، و تتملَّكهُم رغبةٌ في التدميرِ والتخريب، وبخاصة تدمير الأماكن الدينية المُتعلِّقة بالمسيحيين، ووردَ هذا في سياقِ حديثهُ عن الأماكن المُقدَّسة في المُدن التي زارها، فقال: « مدينةُ الخليل كانت عظيمةٌ وجميلةٌ، ولكنَّها مُدمَّرة الآن من قبل المسلمين، وقد دمَّر المسلمون الناصرة، وفي بيت لحم لمْ يَترُكُ المسلمون شيئاً يُمكن السكنَ بهِ،

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٤٦.

[٢] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٥٠.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٤.

[٤] المقصود السُلطان المنصور سيف الدين قلاوون.

[٥] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٥٥.

ولكنَّهم دمروا كلَّ شيء كما حدثَ في جميع الأماكنِ المُقدَّسة الأُخرى خارج أسوار مدينة بيت المقدس»[١].

ويتَّضحُ هذا الأمرُ بشكل أكبر من خلالِ تتبُع رحلة الروسي دانيال الراهب الَّذي قرن الهمجية والتدمير بالكُفر والوثنية، وصوَّرَ المُسلمين بأنَّهم مُعتدين على الأماكن الدينية المسيحيَّة، فقال: « ففي القُدس حيثُ حاول اليهود إلقاءَ جثة العذراء المُقدَّسة من النعشِ كانَ هُنالك ديرٌ في هذا المكانُ، ولكنَّ الكُفَّار دمَّروه، وفي بيتِ لحم قُرب بئر داود كان هُنالك كهفٌ يعلوهُ كنيسة جميلة سُمِّيت نسبة إلى يوسف، وكان على جانبها ديرٌ جميلٌ، وقد دُمِّرتا من قبل الكُفَّار، كذلك كانت عمواس بلدة كبيرة وقد بُنيتْ كنيسة كبيرة هناك، ولكنَّها هُدمتْ من قبل الكُفَّار»[٢].

- الكذب:

تجلَّت هذه الصفة في رحلة بورشارد الَّذي ذكرَ أنَّ بعض المُسلمين كانوا يكذبون عليه، ويزوِّرونَ الحقائق، وذلك حينَما أرادَ زيارة بلدة سيجور على سفح جبل عين جدي في الجنوب الغربي من أريحا، حيثُ يقعُ عمود الملح الَّذي تحوَّلت إليه زوجة لوط ﷺ، فذكر أنَّ المسلمين كذبوا عليه، ومنعوهُ من الوصول إلى هذا المكانُ، وعبَّر عن ذلك بقوله: « وقد جاهدتُ بصعوبة من أجل رؤية هذا، ولكنَّ السراقنة أخبرونِي أنَّ المكان غير آمن حيثُ تُكثر الحيوانات البرية والأفاعي والديدان المتواجدة هناك، وخصوصاً بسبب البدو المُقيمينَ في تلك الأجزاء، وقد منعتنِي هذه الادعاءات من الذهاب إلى هناك، ولكنِّي علمتُ فيما بعد أنَّ ذلك ليسَ صحيحاً»[٣].

***- معتقدات المسلمين وحياتهم الدينية:**

خرج الرحَّالة الألماني بورشارد في حديثه عن عقيدة المسلمين عن نمطية الرحَّالة الآخرين الَّذين زاروا بلاد الشام والأراضي المُقدَّسة، وربَّما مردُّ ذلك ليس نابعاً من موضوعتيه، وإنَّما تدخَّلت المرحلة وتغيُّراتها في ذلك، فإقامتهُ في الأماكن المُقدَّسة كانت عقبَ تحرير صلاح الدين الأيوبي للقدس بسنوات كثيرة، وتحديداً في العصر المملوكي، وهي خاضعةٌ يومذاك لسُلطة المسلمين، وأتاحت له السنوات العشر التي أقامها في

---

[١] سايلوف: وصف الأراضي المقدسة، ص٣٨، ٤٢، ٤٣.

[٢] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٦٤، ٨٠، ٨٤، ٨٨ ، ١٠٠، ١١٩، على ما يبدو أنَّ المقاومة الإسلامية للاحتلال الصليبي فُهمت من قبل الرحَّالة الروس بأنَّها همجية، وقد تجلَّت هذه الصورة في رحلة الروسي فيتلوس فعرض الصورة التي قُتل بها القائد الصليبي جرفاس بوسوك على يد أمير دمشق طغكتين بعد أنْ وقعَ جرفاس في الأسر، فقال: « انساقَ طغتكين وراء شهوات نفسه، وشرب حتَّى الثمالة، ثمَّ قامَ بقطع رأسه، وبذلك قدَّمه شهيداً من أجل الربِّ، وفي اليوم التالي حيثُ سكنتْ نفسه، كانَ ممتلئاً بالعار والغيظ، لأنَّه قتل رجلاً بجنون، ودفنه بدون رأس، حيثُ احتفظَ به، وزيَّنه بالذهب والأحجار الكريمة، وأبقاه تُحفة لكي يشربَ بها». فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٥٥.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١١٧.

فلسطينَ أنْ يحتكَّ بالمسلمين، وأنْ يتعرَّف عليهم عن قرب، ولهذا خرجَ عن الصورة النمطية في تصويرهم، وتحدَّث في هذا الجانبُ عن بعضِ مُعتقداتهم في المناطق التي زارها، وصوَّر جانباً من حياتهم الدينية، وألقَى الضوءَ على مشاعرهم، وهم يرونَ المُحتلَّ يتحكَّم بأماكنهم المُقدَّسة، وأشارَ إلى ضربٍ من الحُريَّة الدينيَّة التي يتمتعون بها[1]، وتحدَّثَ عن الأماكن المُقدَّسة عندهم، وعن المعتقدات التي كانوا يعتقدون بها حولَ هذه الأماكن، فذكرَ أنَّهم يجلُّون الكهف الموجود على سفحِ جبل عكَّار في لبنان، ويقومون بزيارته، ويقولونَ: إنَّه قبرُ يوشع[2].

أمَّا مُعتقداتَهُم حول الأماكن المُقدَّسة أو المرتبطة بالأنبياء عليهم السلام، فتجلَّت في حديثه عن البئر الموجود في حديقة البلسم في جبل عين جدي بأريحا، حيثُ اختفى داود عليه السلام في هذا الجبلُ حينَ كان شاؤول يبحثُ عنه ليقتلهُ، فذكرَ أنَّ أهل المنطقة من المسلمين يعتقدونَ أنَّهُ من مساء يوم السبت حتَّى يوم الإثنين إنَّ الثيران لا يُمكنُها أنْ تُخرجَ المياه من البئر حتَّى لو قُطِّعت إلى قُطعٍ[3]، ومثلُ ذلك اعتقادهم بالتُربة الحمراء التي خُلِقَ منها آدم عليه السلام، وهي في حقلِ دمشق بالخليل، فيقال: إنَّه لا يُمكن لأيِّ حيوانٌ مفترس مُهاجمة الَّذي يحمل شيئاً من تلك التربة، كما أنَّها تحمي المرءَ من السقوط[4].

وبجانبٍ آخر احتوت رحلة بورشارد إشاراتٌ عن ديانة المُسلمين وأفكارهم، وقدَّم من خلالها معلومات أكثرُها صحيحة، وبعضُها خاطئة، لا تنمُّ عن فهمٍ عميقٍ للإسلام، والقُرآن الكريم الَّذي ذكر أنَّه قرأه واطَّلعَ

---

[1] وبالمقارنة تحدَّث الرحالة يوحنا فورزبورغ عن نوعٍ من الحرية الدينية مُنحها المسلمون في المسجد الأقصى، وتجلَّى ذلك في حديثهِ عن البوصلة التي وضعها المسلمون لتشيرَ إلى جهة القبلة، فقال: « وفي المعبد عند المذبحِ الموجود في الخلاء، وعلى بعدِ ما يزيد على اثنين وعشرين خطوة من المعبد قاسى زكريا بن بركيا آلام الاستشهاد، وفوقَ هذا المذبح تعوَّدَ اليهود في العهد القديم تقديم القبريات والحمام، وتغيَّرتْ بعد ذلك عن طريق المسلمين إلى بوصلة، ويُمكن رؤيتها في هذا اليوم، وهي جديرة بالاهتمام، لأنَّ العديد من المسلمين حتَّى الوقت الحاضر يأتون عندها للصلاة، حيثُ إنها تشير إلى الجنوب، أي إلى الاتِّجاه الَّذي يولونَ وجوههم إليه من أجل الصلاة». يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٤٧.

[2] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٥٣، وبالمُقارنة لم يُغفل الرحَّالة يوحنا الورزبرجي الإشارة إلى بعض المعتقدات الدينية عند المسلمين، وإلى بعض الأماكنِ التي يُبجِّلونها لارتباطها بموروثٍ ديني عندهم، وهذا ما يبدو في حديثه عن شجرة البلوط في مدينة الخليل التي أقام تحتها سيدنا إبراهيم فترة طويلة، كما شاهد تحتها الملائكة الثلاثة، واستضافهم بكلِّ ما يقدرُ عليه، وقدَّم لهم الطعام، وجعلهم يستريحونَ، كما قامَ بتبجيل أحدهم، و قد صرَّح القديس جيروم أنَّ شجرة البلوط سابقة الذكر كانت موجودة زمن الإمبراطور ثيودوسيوس، والشجرة الموجودة حالياً نبتتْ منها، وهي تُرى في هذه الأيام، وتُحظَى باهتمام وعناية سُكان ذلك المكان. يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٩٨.

[3] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٢٢.

[4] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٠، وقد وردت الإشارة عن عقيدة المسلمين حولَ التربة عندَ الرحَّالة الروسي فيتلوس قبل ورودها عند الرحالة بورشارد، فذكر أنَّ معتقد المسلمين حول لون هذه التربة، بأنَّه لما كانت ذات لونٍ أحمر، فإنَّ الاعتقاد السائد لدى أهل الخليل بأن آدم عليه السلام ذو بشرةٌ حمراء. فيتلوس: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨.

عليه، ومن هذهِ المعلوماتُ الخاطئة قولهُ عن المسلمين: « ويقولونَ: إنَّ مُحمَّداً هو رسولُ الله بعثهُ الله إليهم" العرب فقط"، وقد قرأتُ هذا كلُّه في قُرآنهم، الذي يُعدُّ كتابهم المُقدَّس ومصدرُ شريعتهم، فهذا القول يتنافى مع عالمية الإسلام التي أقرَّها القُرآن الكريم ذاته»[١]، كما بيَّنَ أنَّ الإسلام يُبيحُ للمسلمين تعدُّد الزوجات[٢]، ويُحرِّمُ عليهم شُربَ الخمر، وذكرَ أنَّ أغلب المُسلمين يلتزمونَ حرمتهُ باستثناء البعض الَّذي يشربهُ سراً[٣].

ومن جهة أُخرى أوردَ بورشاردِ في رحلتهِ موقف المُسلمين والدِّين الإسلامي من رموز الديانة المسيحيِّة، وكان دقيقاً في عرضِ هذه الرؤية، فقال: « فهمْ يُقدِّمونَ الاحترام و التبجيل الكبير للقديس يُوحنَّا المعمدان، وبعدَ ذلك للسيد المسيح والعذراء المُبجَّلة، وهم يعتقدونَ فضلاً كبيراً لهُ، ويقرُّونَ بصدقِ أنَّ المسيح هو كلمة الله، ولكنَّهم يقولونَ : إنَّه ليس الله، ويقولونَ: إنَّ العذراء قد تسلَّمت الروح المُقدَّسة، وقد حملت به وهي عذراء وبقيتْ عذراء، ويقولونَ: إنَّ يُوحنَّا كان نبياً عظيماً مقدساً»[٤]، والمسلمون في نظر بورشارد يحترمونَ الأماكن الدينيَّة المسيحيَّة، وبخاصة كنيسة المهد في بيتِ لحم، وغيرها من الكنائس التي أُقيمتْ على شرف مريم العذراء[٥]، ويُقدِّسونَ قبر العازر في العيزرية، وهو المكان الذي نهض منهُ وحدثت فيه مُعجزة الانبعاث[٦].

وبالمُقارنة خالفَ الرحَّالة الألماني يُوحنَّا فورزبورغ ما ذكره بورشارد عن موقف المُسلمين من الديانة المسيحيةَّ ونعتهم بالوثنيين الكُفَّار، فذكرَ أنَّ المسلمين لا يؤمنون بآلام المسيح، ولا يُصدِّقونَ ما جرى له من صلب وعذاب، وهذا يُعدُّ وثنية حسب نص القديس أوغسطين، الَّذي أوضحَ أنَّ كلَّ شيءٌ يُعدُّ وثنياً إذا كانَ خارجاً عن الإيمان المسيحي[٧].

***- لغة المسلمين:**

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٤.

[٢] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٢.

[٣] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٠.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٤.

[٥] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٥٤.

[٦] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٢٤، ١٢٥.

[٧] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص١١٤، يُلاحظ أنَّ الرحَّالة الأجانب قد درجوا على نعتِ المسلمين بصفة الوثنية والكفر، وقد برزت هذه السِّمة عند الرحَّالة الألماني ثيودوريش عندما تحدَّثَ عن كنيسة القدِّيسة مريم في جبل صهيون، فقال: « وهي مُحصنةٌ جيداً بالأسوار والأبراج والشرفات ذات الفتحاتِ ضد هجمات الوثنيين» ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص ٩٥.

تناولَ الرحَّالة بورشارد في رحلتهِ الحديث عن لُغة المسلمين، وركَّزَ على نُطقِهُم أسماءَ بعضُ المُدن والأماكن التي قصدها بالزيارة، فبيَّنَ أنَّ المُسلمينَ كانوا ينطقُونَ كابول الواقعة جنوب عكا زابول[١]، وقالَ عن بيت إيل جنوب سبسطية: « ويُحرِّفُ المسلمونَ اسم هذا المكانُ إلى بوت إيل دونَ أنْ يكونَ لديهُم القُدرة على قولِ بيت إيل»[٢]، وبالمُقارنة بيَّن الرحَّالة الألماني يُوحنا فورزبورغ أنَّ مدينة جنين التي تقعُ على بُعدِ ميلين من زرعين تُدعى باسم جالينا العظمى، أمَّا شكيمَ فتُدعى في أيامهِ باسم نيابوليس، وأضافَ قائلاً: « وعلى بُعدِ ميلٍ من الناصرة باتِّجاه الجنوب، وقع الموضعُ الِّذي يُدعى المُنحدر، حيثُ أولئك الَّذين عثروا على السيد المسيح و رغبوا طرحهِ في الأسفل، ولكنَّه جاز في وسطهم واختفَى في لحظةٍ، وفي هذه الأيامُ يَطلقُ العامَّة من المسلمين على المكان موضع وثوب السيد المسيح»[٣].

***- عادات المُسلمين وتأثر الصليبيين فيها:**

ذكرَ الرحَّالة بورشارد أنَّ من أهمِّ العادات المُتعارف عليها عندَ المُسلمين الذهاب إلى الحمَّامات العامَّة، وأشارَ إلى أنَّ الصليبيين تأثروا بهذه العادة وأصبحَ من المُعتاد عندهم تقليدُ المُسلمين في الذهابِ إلى الحمَّامات العامَّة، والتي تحتوي على ثلاثِ قاعاتٍ أو بيوت، فالبيت الأوَّل مُبرَّد مُرطَّب يخلُع فيه المرءُ ملابسَهُ، والثاني مُسخَّن مُرخَّ (بيت الحرارة)، والبيت الثالث مُسخَّن مُجفَّف[٤]، ومن العادات التي تأثرَ بها الصليبيين وتعلَّمُوها مِنَ المسلمين أنَّهم عرفوا صناعة المخللات التي كانت تُقدَّم مع وجبات الدجاج والسمك والأطعمة الأخرى[٥].

إضافةً إلى ذلك ذكرَ بورشارد أنَّ من عادات المسلمين الخروج إلى الصيد، وقد تأثرَ الصليبيونَ بهذه العادة وتعلَّمُوها عن المسلمين، ومارسوا رياضة الصيد حيثُ أُقِيمَت في أوقاتٍ وأماكن مُختلفة مُسابقات الصيد الملكيَّة، وتعدَّدت مواضعه في بلاد الشام، فمِنَ المناطق التي ارتادها الملوك والأُمراء الصليبيين تلكَ المناطق القريبة من بُحيرة الحولة، حيثُ يتواجد الطير والحيوان، وكانت تدورُ هُناكَ مُسابقاتُ الصيد الملكية[٦].

د-ج- العلاقات السياسية والحربية بين المسلمين والصليبيين:

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٦٨.

[٢] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٠٧.

[٣] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٣٠، ٣٩.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٥٥.

[٥] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٩، وبالمقارنة ذكر الرحَّالة الروسي دانيال الراهب أنَّ الصليبيين أخذوا عن السُكان المحليين استخدام زيت الزيتون في طهي الطعام بدلاً من استخدام الزبد ودهن الخنزير، حيثُ كان إنتاجُ الزيتونَ في المناطق المُحتلة وفيراً. دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٩٢.

[٦] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٦٤.

احتوَت رحلة الألماني بُورشارد على إشاراتٍ قيّمَة تُوضِّح العلاقات السياسيَّة الوديَّة التي كانت قائمة بين المُسلمين والصليبيين في بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحرية، ولعلَّ أبرزَ إشارةٌ إلى ذلك وردت عند حديثِهِ عن الصليبيين الَّذينَ يُقيمونَ في بيت لحم، والمناطق المُحيطة بها في قرية بيزك، وفي وادي الصرار، ووادي السنط، ووادي أشكول، فذكر أنَّ هؤلاء الصليبيين كانوا يُقدِّمونَ الجزيَّة للدولة الإسلامية(المماليك) التي كانت تقومُ برعايتهم، وتمنحَهُم حقَّ الإقامة[١]، وأشارَ في موضعٍ آخر عن تبعيَّة المسيحيين الشرقيين للمُسلمين، ودفعهم الجزية لهم، وعلَّلَ هذه التبعية بأنَّ المسيحيين الشرقيون غيرُ مُدرَّبينَ كثيراً، ولم يكونوا قيدَ الاستعمال الحربي، وعندما يُهَاجَمُونَ من قبلِ المسلمين، أو من قبلِ أيِّ جماعة أُخرى يستسلمونَ لهم، وينشدونَ تأمين الأمن والسلام والهدوء مُقابل دفع الجزية[٢].

وبجانبٍ آخر وقفَ الرحَّالة بورشارد كثيراً على العلاقات الحربيَّة العدائيَّة بين المُسلمين والصليبيين، فتحدَّث عن بعضِ العمليات العدائية التي كان يقومُ بها الصليبيونَ ضدَّ المُدن الإسلامية في بلاد الشام، ووصفَ جانباً من جهاد المُسلمين ضد الصليبيين، وفصَّل كثيراً في الحديث عن المُقاومة الشعبية الإسلاميَّة[٣]، وجاءَ ذلك في سياق تشويه صُورة المسلمين، وتصويرَهم هَمجيين، يعتدونَ على أولياء الله من الحُجَّاج المسيحيين، وفي سياقِ رسم خريطة للحُجَّاج الأوروبيين للأماكن الخَطِرةِ في الأماكن المُقدَّسة التي عليهم تجنُّبَها في رحلتهم إلى هُناك، ويُمكن تفصيل ذلك **في النقاط الآتية:**

*– تحدَّثَ بورشارد عن جهادِ المُسلمين ضدَّ الصليبيين في بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، فذكرَ بعض البلدانِ والقلاع والحُصون التي كانت بحوزة فُرسان الصليبيين وبخاصَّة فرسان التيوتون[٤]، والداويَّة[١] واستردَّها المسلمون منهم، مثلَ حُصن المُلك شرقي مدينة عكَّا، ثمَّ قلعة الكرك[٢]،

---

[١] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٥٦.

[٢] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٦.

[٣] وبالمُقارنة فإنَّ الرحَّالة الأوربيين الَّذين زاروا بلاد الشام في فترة السيطرة الصليبية تناولوا هذه العلاقات العدائية بين المُسلمين و الصليبيين منذُ بداياتِ الاحتلال الصليبي للمشرق العربي، ووصفوا وسائل المسلمين في مُقارعة الصليبيين، فقد وقفَ الرحَّالة الانكليزي سايلوف عند الجهودِ التي بذلتها الدولة الفاطمية من أجل حماية المُدن الساحليَّة الفلسطينية التي ما زالت بيد المسلمين، و يتَّضح ذلك من خلال إشارته للنشاط البحري الفاطمي والاشتباكات البحرية بين الفاطميين والفرنجة، وقد أثارت هذه الإمكانات البحرية وذاك النشاط الخوف والفزع في نفوسِ الصليبيين، الَّذين كانوا يعبرونَ البحر الأدرياتيكي، ممَّا كان يمنعهم من التوغل في ذلك البحر بعد أن زاروا الأراضي المُقدَّسة، ثمَّ قفلوا راجعين إلى بلادهم، وقال مُعبِّراً عن ذلك: « وبعدَ أنْ قُمنا بزيارة جميع الأماكنِ المُحرَّمة في مدينة بيت المقدس وحتَّى حدودها...، ذهبنا بعد ذلك على متنِ سفينةٍ من يافا عائدين إلى الوطن...، ولكنْ خوفُنا من المُسلمين لمْ يجعلُنا نُخاطر في الدخول إلى عُمق البحر الأدرياتيكي لأنَّنا كُنَّا خائفين من أسطولهم». سايلوف: وصف الأراضي المقدسة، ص٤٦.

[٤] تأسست الهيئة في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بعدَ أن تمكَّن صلاح الدين من تحرير مملكة بيت بيت المقدس، إذ كانَ فرسان التيوتون يرتدونَ عباءةً بيضاء ذات صليبٍ أسود يُوضع على الكتفِ الأيسر وزوَّدهُم

الكرك[٢]، وبيَّنَ مكانة تلكَ القلاع عند المُسلمين، كما يبدُو في حديثه عن قلعة الكرك، إذ قالَ : « وهي قلعةٌ رائعةٌ مُحصَّنةٌ...، ولكنَّها الآن بيد السُلطان[٣]، ويقبعُ هُناك كلُّ خزائن مصرَ وكنوزها»[٤].

*- وبيَّنَ بورشارد أثرَ سُقوط صفدَ وقلعتها في هيبة الظاهر بيبرس، ثمَّ في تراجعِ السيطرة الصليبيَّة، فقال: « وقد استولَى عليها المُسلمون بسهولة، الأمر الَّذي سبَّبَ حرجاً لجميع المسيحيين، لأنَّ سيطرة السُلطان عليها، مكَّنتهُ من السيطرةِ على جميع الجليل»[٥].

وبالمُقارنة وقفَ الرحَّالة دانيال الراهب عندَ حركات المُقاومة الشعبيَّة في فلسطين عقب سقوط القُدس بيد الصليبيين، و حدَّد الأماكن التي انتشرت فيها المقاومة بِشدَّة وضراوة في الطريقِ من يافا إلى القُدس، وفي عسقلان والمناطق المُحيطة فيها، إذ قال: « وفي هذا المكانُ كثيرٌ من الينابيع حيثُ يستريحَ الحُجَّاج ليلاً، وهم في ذُعرٍ لأنَّ المكانَ مهجورٌ، وهو ليس بعيداً عن مدينة عسقلان حيثُ يقومَ المسلمون بذبح الحُجَّاج على الطريق[٦]، وانتشرت المُقاومة في بيسان حيثُ يقطنُ عدداً كبيراً من المُسلمين، الَّذين يستغلونَ مخاضات الأنهار لمُهاجمة المسافرين»[٧].

و في الوقت الَّذي أغفلَ فيه الرحَّالة بورشارد ذكرَ الآثار الاقتصادية لهذه الحروب و العلاقات العدائيَّة بينَ المُسلمين والصليبيين يُلاحظ أنَّ الرحَّالة الألماني ثيودوريش قد بيَّن أنَّ المُقاومة الشعبيَّة الإسلاميَّة قد تدخَّلت في حياة الصليبيين الاقتصادية فذكرَ أنَّهم لا يجرؤونَ على حراثةِ بعض الأراضي الخاضعة لسيطرتهم، وبخاصة تلك الخاضعة لسُلطة كنيسة القديس ألعازر في بيثاني" العيزرية "، فهذه الأرض، كمَا يقولُ الرحَّالة: لمْ يتمُّ حَرثِهَا و فلاحتِها بسبب غارات العرب المسلمين، وأسهمت المُقاومة الإسلاميَّة في

الإمبراطور فردريك الثاني بالنسر الإمبراطوري الأسود ليكون رمزاً لهم ، ثمَّ تحولت هيئة التيوتون للعمل العسكري سنة(٥٨٦هـ/ ١١٩٠م)، وحظيت بالموافقة البابوية سنة(٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) في عهد البابا أونست الثالث. الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٩٤، ٩٥.

[١] بالمقارنة كشفَ الرحَّالة الألماني يوحنا فورزبورغ في رحلتهِ عن بعض وسائلِ المُسلمين في تخليص بلادهم من الغزو الصليبي، فذكرَ ما كان يقومُ به المسلمونَ برشوة الصليبيين لقاء فك الحصار عنهم، وهذا ما فعلوه مع فرسان الداويَّة الَّذين كانوا يحاصرون دمشق سنة(٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، وهو ما يتجلى في حديثهِ عن سمعة أولئك الفرسان التي تضررت في بلادهم جراء ذلك، إذ قال في معرض حديثه عن الداويَّة: « إنَّ فرسانَ الداوية... لكنَّهم عانوا محنة، وتعرَّضتْ سمعتهم للوم والخيانة، ولا أعرفُ إذا كانت التهمة حقيقة أم كاذبة؟.». يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص٥٢.

[٢] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٦٧، ٦٩، ١١٦.

[٣] الملك الظاهر بيبرس.

[٤] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١١٦.

[٥] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص٦٩.

[٦] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٤٩.

[٧] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص١١٠.

ارتفاعِ أسعار الخشب في القُدس، لأنَّ جبلَ لبنان هو الجبل الوحيد المُحاط بخشب الأرز و السرو والصنوبر، يقعُ على بُعد مسافة شاسعة عن الصليبيين، ولا يستطيعونَ الوصولَ إليه خوفاً من هجوم المُسلمين[1]، وبجانبٍ آخر بيَّنَ ثيودوريش أنَّ شدِّة المقاومة أسهمت في النمط المعماري القويّ الَّذي بُنيت عليه قلاع الصليبيين وحصونَهُم، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها وصفهُ لكنيسة القدِّيسة مريم في جبل صهيون بالقُدس، وكذلك كنسية السيد المسيح على سفح جبل الزيتون، إذ قال: « وهي مُحصَّنة جيداً بالأسوار والأبراج والشُرفات ذات الفتحاتِ ضدَّ هجمات الوثنيين، وكنيسة السيد المسيح مُحصَّنة بالأبراج الكبيرة و الصغيرة بقوَّة ضدَّ الكُفَّار، وكذلك الأسوار والجدران المُفتَّحة من الأعلى، فضلاً عن الدوريات الليلية»[2].

ومن ذلك يُرى:

إنَّ الرحَّالة بورشارد قد اهتمَّ بوصف كافة مظاهر الحياة في بلاد الشام، فتناولَ الجانب المعماري الحضاري، والاقتصادي، والاجتماعي، والحربي، وبذلك أفادت رحلتهُ في تقديمِ معلوماتٍ مُهمَّة عن هذهِ الجوانبُ خلالَ عصر دولة المماليك البحريَّة.

٢- الرحَّالة جون ماندڤيل(Sir Jhon Mandeville)(٧٢٢- ٧٥٦هـ/ ١٣٢٢- ١٣٥٥م).

[1] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص٥٩، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩.

[2] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص ٩٥، ١٠٣، ١٣١.

أ- التعريف بالرحَّالة:

حقيقة الأمر كلُّ ما يُعرفُ عن الرحَّالة جون ماندڤيل، والمُلقَّب بـ(جيهان ذو اللحية)[١] هو ما جاءَ بقلمهِ في رحلاتهِ المكتوبة بلهجة أنكلو فرنسية، والتي كانت شائعة في إنكلترا في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ويُعرِّف به عن نفسه، فيقول: « أنا جون ماندڤيل الفارس المولود في انكلترا، في بلدةِ سانت ألبانز St. Albans »[٢]، وهي مدينةٌ تابعة لمُقاطعة هرتفورد شاير(Hertfordshire).

وكانَ ماندڤيل قد قضى شبابهِ في هذه المدينة، وتعلَّم فيها، وبرعَ في الأدب، وكتابة الروايات[٣]، وبعد أنْ شبَّ وترعرع، قرَّرَ القيام برحلات وأسفار إلى أنحاء مُختلفة من العالم، إذ باشر رحلاته سنة(٧٢٢هـ/١٣٢٢م)، وزار عدداً من أنحاء العالم[٤]، و ذكر ذلك قائلاً: « قد ركبتُ البحر في سنة(١٣٢٢م)، في يومِ القدِّيس مِيخائيل، و منذُ ذلك الحين مضَى عليَّ وقتٌ طويل في البحرِ، وقد رأيتُ وعبرتُ بلاداً مُختلفة كثيرة، وعديداً من الأقاليم والجُزر، واجتزتُ في جميع أنحاءِ تُركية وأرمينيا الصغرى والكُبرى، و بلاد المغول وفارس، وسوريا، وجزيرة العرب، ومصر العُليا والدُّنيا، وليبيا وبلاد الكلدان، و جزءاً كبيراً من أمازونيا، والهند الكُبرى والصُغرى، وجُزراً كثيرة حولَ الهند، حيثُ تقطنُ شعوبٌ مُتباينة الأعراف والعادات والأشكال البشرية»[٥].

لكنْ هناك أمرٌ يجبُ ذكرهُ وإنْ كانَ مشكوكٌ به، فرُغمَ أنَّ ماندڤيل(موندفيل بصيغة الأنكلو فرنسية) كانَ اسماً شائعاً في انكلترا في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فلا يُمكن معرفة شيئاً آخر عن المؤلف، إذ إنَّ المؤرخين ارتابوا في أمرِهِ، فهُم ينكرونَ أنَّه إنكليزي، ويرى بعضهُم أنَّه بلجيكي من أهل لييج، و اسمهُ يُوحنا أو ترميز، وإنَّه انتحلَ الاسم الآخر(جون ماندڤيل) ليكسبَ ثقة مُعاصريه[٦]، ويبدو أنَّ هذه الروايةُ من ابتداع الخيال، وهي تقول: بعد عودتهِ من رحلاته عادَ إلى موطنه الأصلي بلجيكا، وهُناك أضحى طبيباً، مارسَ المهنة بمدينة ليبج في بلجيكا، تحتَ اسم جان دي بورغوني (Jean De Bourgogne)، وأنَّه قام بتدوين أخبار رحلاته هناك حيثُ ماتَ ودُفِنَ، وقد ذكرَ هذه الرواية الروائي والشاعر الرومانسي جان دوترموز(Jean De Outremeuse) صاحب التاريخ الخيالي للعالم والمعروف" مرآة التواريخ"، والمبنِيُ في أساسهِ على روايات رحلات ماندڤيل، و يدَّعي دوترموز أنَّ الطبيب جان دى

---

[١] ديورانت: قصة الحضارة، ج٢٢، ص١٥٩.

[٢] ماندڤيل(السير جون): أسفار السير جون ماندڤيل ورحلاته، تر: أنس الذهبي و رنا جزائري، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٢م، ص٤٣.

[3] Encyclopaedia Britannica, (Micropaedia), vol. VI, 1980, p 559.

[٤] ماندڤيل: أسفار السير، مقدمة الرحلة، ص٧، ٨.

[٥] ماندڤيل: أسفار السير، ص٤٣.

[٦] زيادة(نقولا): رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٤م، ص١٩٦.

بورغوني، وهو أصلاً شخصية معروفة تاريخياً، قد أقرَّ على فراش موته بأنَّه كان هو بالفعل السير جون ماندڤيل من إيرل مونتفورت(Earl of Montfort) في إنكلترا[١].

غير أنَّ الوقائع تتضاد مع مزاعمه، على اعتبار أنَّ نسخة ليبج من رحلات ماندڤيل المكتوبة بالأنكلو فرنسية يعترُوها تحريفٌ بالغ؛ وبذلك أنَّ رواية دوترموز تُعدُّ زائفة بشكلٍ شبه أكيد[٢]، ويدحضُ هذه الرواية ما ذكره ماندڤيل نفسه بأنَّه توقَّفَ في ليبج للنقاهة فقط أثناء عبوره بلجيكا ذاهباً إلى انكلترا، وأشار أنَّه في ليبج التقى بالطبيب الَّذي رآهُ في القاهرة دونَ أنْ يذكرَ اسمه، وهذه المعلومة وردت فقط في نسخة أسفار الرِّحلة الغير مُترجمة للعربية[٣].

وإذا ما قُطعَ الشكُّ بعدم صحِّة هذه الرواية وعُدنا لما يُعرِّفُ به ماندڤيل عن نفسه، فإنَّ ماندڤيل زارَ العديد من البلدان وقضَى أربعة وثلاثين عاماً في أسفارهِ، لكنْ بعدَ هذه الأعوام أرغمهُ داء النُقرس(التهاب المفاصل) على إلقاء عصا التسيار، ليعودَ إلى موطنه سنة(٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، ويدوِّنَ رحلته من الذاكرة[٤]، الذاكرة[٤]، وقد ذكرَ ذلك في خاتمة كتابه، فقال: « وقد مررتُ بأرضٍ كثيرة، وبالكثير من الجُزرِ والبُلدان، و استكشفتُ أماكن غريبة كثيرة، وقد كنتُ برفقة الكثير من الأصحاب الجديرين بالاحترام، والكثيرُ من مواقف القتال مع أنَّي لمْ أقمَ بذلك شخصياً؛ لكونِي غيرُ قادراً على ذلك، والآنَ قد عُدتُ إلى بلادي مُرغماً في السنة المُباركة ألف وثلاثمئة وست وخمسين في السنة الرابعة والثلاثين لمُغادرتي لبلادنا، بسبب داء النقرس الذي انتابني، والَّذي وضعَ حدَّاً نهائياً لمسار تجوالي؛ بخلافُ ما أُريدُ وأشتهي، والله يعلمُ ذلكَ»[٥]. ذلكَ»[٥].

ب- دراسة الرِّحلة:

أ- ب- دوافع الرِّحلة:

انطلقَ الرحَّالة ماندڤيل في رحلتهِ من مسقط رأسه في إنكلترا، وعبرَ بلداناً كثيرة، وزار الكثير من الأماكن، **لدوافع عدَّة:**

1ً- الدافع الدينـي:

تجلَّى برغبتهِ في الحجِّ إلى الأماكن المُقدَّسة في فلسطين، ورؤية أرض الميعاد، وعبَّر عن ذلك بقوله: « إنَّ الأراضي المُقدَّسة هي الأكثرُ شأناً وقيمةً، وذاتُ السيادةِ الرفيعة بينَ جميع البُلدان المباركة، والمُقدَّسة

---

[1] De Outremeuse de Liege. J; Ly myreur des histors, Bruxelles, Hayez, 1880, p 565, 566.

[٢] ماندڤيل: أسفار السير، مقدمة الرحلة، ص٨.

[3] Mandeville. J; Voyages And Travels, Edited By Artgur Layard, D. Appleton & Co, New York, 1901, p 81.

[٤] ماندڤيل: أسفار السير، مقدمة الرحلة، ص٧، ٨.

[٥] ماندڤيل: أسفار السير، ص٣٠٠، ٣٠١.

بجسدِ سيدنا يسوع المسيح ودمَّهُ الثمين...، لذا ينبغي لنَا أيضاً لوجهِ المحبَّة والعبادة أنْ نخشَى، ونعبُدُ مثلَ هذا الربُّ، وأنْ نجلَّ ونوقِّرَ مثلَ هذه الأراضي المُقدَّسة، وهي الأرضُ ذاتَها التي وعدنَا ربَّنا بها في العهد القديم»[١].

2ً- اقناعُ الصليبيين وتشجيعَهُم على الرِّحلة إلى البيت المُقدَّس وتخليصهُ من أيدي المسلمين، وتجلَّى ذلك بقوله: « ولهذا السببُ ينبغي لكلِّ رجلٍ مسيحي صالح، إنْ كانَ ذا سلطة واقتدار ولديه موارد، فعليه أنْ يبذلَ كلُّ قوَّةً لاسترداد تُراثُنا الحقَّ، وطرد جميعُ الرجالِ غير المؤمنين، وذلك لنكونَ مسيحيين أحقاء، نسبةً إلى أبينا المسيح، فعلينا استرجاع التُراث الَّذي تركهُ لنا أبونا، وانتزاعه من أيدي الوثنيين...، ولكنْ انشاء الله، يُبادرُ الحُكَّام الزمنيون والدنيويون إلى الاتفاق، وبِركابهم يمضِي عامَّة الناس في هذه الرِّحلة المُقدَّسة عبر البحر! وساعتهَا فأنا واثقٌ أنَّه في غضونِ وقتٍ قصير يتمُّ لنا استرداد ميراثُنا المذكور، ويوضعُ في أيدي ورثة المسيح الأحقَّاء»[٢].

3ً- رغبتهُ في نقلِ تجربته ومشاعره الدينيَّة عقبَ زيارة الأماكن المُرتبطة بالمسيح وآلامه إلى أولئك الَّذين لمْ يتمكَّنوا من زيارتِهَا، وتضمينها في كتاب وتقديمُها للقُرَّاء، ولتكونَ دليلاً مُرشداً للراغبين في زيارة الأماكن المُقدَّسة، وقد عبَّر عن ذلك بقوله: « وبقدر ما مضَى من زمنٍ طويل لمْ يجرِ فيه عُبور عام للبحر ولا رحلة؛ ولكُثرة الرجال الراغبين في الاستماع إلى الحديث عن الأرض المُقدَّسة، وما فيه من عزاءٍ كبير وراحة للصُدور، فإنَّني أنا جون ماندڤيل الفارس...، قد رأيتُ وعبرتُ بلاداً مختلفة كثيرة...، وعن هذه البُلدان سأتكلمُ بجلاء فيما يلي أدناه، وأُقدِّمُ لكم نُبَذاً عن الأشياء التي توجدُ هناك في حينها، كما تردُ قدرَ الإمكان في ذاكرتي، وخاصةً بالنسبة لِمن ينوونَ الآن أو في المستقبل زيارة مدينة القُدس الشريف والأماكن المُقدَّسة التي حولِهَا»[٣].

ب- ب- خطُّ سير الرِّحلة:

لم يُصرِّح الرحَّالة جون ماندڤيل بشكلٍ واضح بالطريق الَّذي سلكهُ في رحلتهِ وصولاً إلى بلاد الشام، لكنْ من خلالِ تتبُّع المناطق التي زارها، يُلاحظ أنَّه خرجَ من موطنهِ الأصلي في إنكلترا ومنها انطلقَ ليعبُرَ الأراضي الألمانيَّة، ثمَّ تابعَ فوصلَ هنغاريا، و بعدها تابعَ طريق سيره إلى روسيا فوصلَها وتجوَّلَ في بعضِ مُدنها، ومنها انتقلَ إلى بُروسيا، ومن هُناك عبرَ جسراً حجري فوقَ نهر ماروك، فوصلَ إلى القسطنطينية، ومن القسطنطينية أبحرَ باتِّجاه جزيرة رودس، ومنها إلى قُبرص، وبعد أنْ أمضَى أيام عدَّة فيها أبحرَ إلى ميناء صُور، وبقيَ يوماً وليلة على حدِّ قولهُ، ثمَّ انتقلَ إلى صيدا، ثمَّ بيروت، ثمَّ صيدنايا، ثمَّ إلى دمشق، ومنها أخذَ الطريقُ البرِّي إلى القُدس فوصلَ فلسطين بعدَ أيام عدَّة وتجوَّل في مُدنها،

---

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص٤٢.

[٢] ماندڤيل: أسفار السير، ص٤٢، ٤٣.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص٤٣.

وكانت غزَّة آخر مُدنها التي زارها، وانطلقَ منها فوصلَ إلى سيناء وتجوَّل في عددٍ من مُدن مصر، وزارَ بعدها كلاً من ليبيا وأثيوبيا، وتابعَ رحلاته في أنحاءٍ عديدة من العالم، وبعدَ أربعة وثلاثين عاماً عادَ إلى موطنه دونَ أن يُخبرَ بطريقِ عودته[1].

ج- ب- تدوين الرِّحلة ومنهجها:

قرَّرَ الرحَّالة ماندڤيل العودة إلى موطنه بعدَ أربعة وثلاثين عاماً من الأسفار التي قام بها، وأثناءَ طريق العودة وقفَ في مدينة ليبج البلجيكية للنقاهة، وقابلَ فيها الطبيبَ الَّذي رآه في القاهرة، وهو من حثَّهُ على كتابة أسفاره ليُبدِدَ المللَ الَّذي يشعرَ به بعد إصابته بداء النقرس[2]، وبالفعل اقتادَ ماندڤيل لرأيِّ الطبيب وبعدَ وصوله إلى إنكلترا بدأ بتدوين أسفاره وكان ذلك سنة(٧٥٧هـ/١٣٥٦م)، ويدلُّ على ذلك قوله: « وهكذا اتخذتُ عزاءً لي في راحتي الطويلة، بتسجيلِ الزَّمن الَّذي مضَى، وأنجزتُ هذه الأفكار، ووضعتُها في كتابي حسبَمَا وردَ في ذهني، في السنة المُباركة ألف وثلاثمئة وست وخمسين، في السنة الرابعة والثلاثين لمغادرتي لبلادنا»[3].

وبعدَ انتهاءه من تدوينِ أسفاره عنونَها بـ" أسفار الفارس جون ماندفيل ورحلاته"(The Voyages and travels of Sir John Mandeville, Knight)[4]، ثمَّ قامَ بترجمتِهَا من اللغة اللاتينية إلى الفرنسية والإنكليزية، وعلَّلَ سببَ ذلك بقوله: « وستدركونَ أنَّني نقلتُ هذا الكتابُ من اللاتينية إلى الفرنسية، ثمَّ منها إلى الإنكليزية؛ ليفهمَهُ كلُّ فرداً من بنِي قومي، وليتمكَّنَ كلُّ سيداً وفارساً وغيرهم من النُبلاء الَّذينَ لا يعرفونَ إلَّا القليل من اللاتينية من فهمهِ»[5].

وبعدَ أنْ انتهَى من ترجمتها قدَّمَها إلى البابا لكي يقومَ بعضُ القُرَّاء بتدقيقها و المصادقة عليها، وحدَّثُنَا ماندڤيل عن ذلك قائلاً: « وتضرَّعتُ إلى قداسة الأبوية، أنْ يُدقِّقَ كتابي هذا، ليتمَّ تدقيقهُ والموافقة عليه من قبل مجلسه ذاك، وقد أقرَّ المجلس بصحِّة كتابي بمعظمه، وأروني الكتابَ الَّذي دُقِقَ كتابيَ على أساسهِ، والَّذي كانَ شاملاً أكثر بمئة مرَّة؛ ولذلكَ فكتابيَ هذا بالرُغم من أنَّ الكثيرين لمْ يؤمنوا بِمَا جاءَ فيه، فإنَّه بالنسبة لأولئك الَّذين رأوا بأنفسهم لا يُمكن أنْ يكونَ كاتباً ولا شخصاً أصدقُ من هذا، وقد تمَّ الإقرارُ بهِ والمُصادقة عليه من قبل قداسة أبينا، في المعلومات كما كُنت قد قُلتُ»[6].

---

[1] ماندڤيل: أسفار السير، ص٤٥، ٤٦، ٦٣- ٦٦، ١٠٣، ١٠٤.

[2] Mandeville. J; voyages and travels, p 81.

[3] ماندڤيل: أسفار السير، ص٣٠١.

[4] Encyclopaedia Britannica, Vol. VI, p 559.

[5] ماندڤيل: أسفار السير، ص٤٤.

[6] ماندڤيل: أسفار السير، ص٣٠٠.

وقد اتَّبع ماندڤيل منهجاً يقومُ على تقسيمِ أسفارِهِ إلى أربعةٍ وثلاثين فصلاً مُبتدئاً بِمُقدِّمة خصَّصها للحديث عن فضائل الأرض المقدسة، ثمَّ عمدَ إلى تناولِ فصول الأسفار، فتناولَ في الفصل **الأوَّل** تعليم الطريق للذهاب من إنكلترا إلى القسطنطينية، وتحدَّث في الفصلين **الثاني والثالث** عن صليبِ السيد المسيح، ومدينة القسطنطينية، بينمَا خصَّصَ الفصل **الرابع** للحديث عن الطريق من القسطنطينية إلى القُدس.

وجاء الحديثُ عن قبرص في الفصل **الخامس**، و عن برج بابل في **السادس**، وذكرَ في كلٍّ من الفصل **السابع والثامن والتاسع** كلَّ ما يتعلقُ بمصر، وسيناء وكنيسة القدِّيسة كاترين، وخصَّصَ الفصولُ من **العاشر** حتَّى **الخامس عشر** للحديث عن الأراضي المُقدَّسة، ودمشق، وعادات المسلمين، وتناولَ في الفصل **السادس عشر** ما يتعلَّق بليبيا، وجاء الفصل **السابع عشر** بعنوانِ أرضُ أيُّوب والكلدانيين.

أمَّا الفصول من **الثامن عشر** حتَّى **السادس والعشرين**، فتناولَ فيها الجُزر المحيطية بالهند، وعادات أهلها ودياناتهم، وأشجارها وحيواناتها، والخان الأعظم و قصره وحرَّاسهُ، وجاءَ حديثهُ عن إمبراطورية فارس، وأكاي وما يُلحقُ بها من الجُزر، وعادات أهلها ودياناتهم، ومزروعاتهم، في الفصول من **السابع والعشرين** حتَّى **الحادي والثلاثين**، ثمَّ ختمَ الفصول **الثلاثة الأخيرة** بالحديث عن الإسكندر وتلال الذهب، وفيضانات أنهار الجنَّة ، وعادات وتقاليد أهالي أرض يُوحنَّا الكاهن[١].

وفيما يخصُّ المنهج الَّذي اتَّبعهُ الرحَّالة في تدوينِ رحلته، فهو منهجٌ وصفيٌّ قائمٌ على ذكرِ كلِّ المُناطق التي رآها بعينه، إضافةً لِمَا سمعهُ عن أشخاص يعرفونَ المناطق التي سألهم عنها وقامَ بوصفِهَا، وبذلك قامَ منهجهُ الوصفي على المُشاهدة والسماع، وقد ذكرَ ذلك بقوله: « وكلُّ الأشياء التي أوردتُهَا في بحثي هذا، سواءٌ المعلومات التي نقلتُهَا عن أشخاصٍ يعرفونَهَا لكوني لمْ أرَهَا بنفسي، أو الغرائب و التقاليد التي كنتُ قد شهدتُهَا بنفسي، فبنعمةُ الله التي منحنِيَ إياها»[٢].

أمَّا بالنسبة إلى وصفِ المناطق التي لمْ يزرْهَا فلم يردْهَا في أسفاره، لعدم معرفتهُ لها بدقَّة، إضافةً إلى ذلك فإنَّ منهجه الوصفي قائم على أسلوبِ الاختصار في غالب الأحيان، فهو لمْ يتوسَّعَ بوصفِ الكثير من الأماكن التي زارها، مُعلِّلاً ذلك بقوله: « يوجدُ الكثير من البلاد المُختلفة والعجائب فيما وراء ذلك، ولكنَّي لمْ أرَها؛ لذلك لا يُمكنُني الحديثَ عنها بدقَّة، وأيضاً في البلاد التي زُرتُها، يوجدُ الكثير من الأشياء الرائعة أكثر من تلكَ التي ذكرتُها؛ ولكنْ وصفُها يطولُ لكُم جداً؛ لذا ولكونِي قد قمتُ بوصف بلاد مُحدَّدة لكُم، وهي التي حدثتُكُم عنها، ألتمسُ فضلكم ونبلَكُم، لِتكتفُوا بهذا القدر هذه المرَّة، لأنَّني إذا تحدَّثتُ عن كلِّ ما وراء البحار، فلربَّما قامَ رجلٌ آخر وتكبَّدَ العناءَ، وتحدَّثَ عنها»[٣].

---

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص٤١– ٢٩٥.

[٢] ماندڤيل: أسفار السير، ص٣٠٠.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص٢٩٩.

وبجانبٍ آخر فقد عُنِيَ منهجه الوصفي ببيان المواقع الجُغرافيَّة، وذكر المعالم الأثرية وتقديمُ وصفاً مُتكاملاً للطُرق والمسالك البريَّة والبحريَّة التي عبرها مع عدم اغفال ذكرُ البحار والأنهار، والمدن التي زارها، مُتناولٌ كلَّ مدينة حلَّ بها واصفاً أهمَّ معالمها الجُغرافيَّة والأثريَّة[١].

واعتمدَ ماندڤيل في بعضِ الأحيانِ أسلُوب الاستطراد في الحديث عن أيِّ بلدٍ ذكره، ومثالها حديثهُ عن القدس[٢]، كذلك استطرد بذكرِ بعض الآراءِ التي تستوجب منه مُناقشات، ومثالها حدثيه عن السامريين[٣].

ومن جهة أُخرى لم يُغفل ماندڤيل ذكرُ الأقوام والجماعات، والحديث عن عاداتها ولباسها، وأديانها، وما يعتقدون به، ويُلاحظُ هذا الأمرُ في ذكرهِ لغالب المناطق التي زارها[٤]، وقد عمدَ الرحَّالة في بعضِ الأحيانِ إلى شدِّ انتباه القارئ من خلال ذكر بعض الغرائبِ سواءٍ في الحديثِ أم الأوصاف أم الحكايات، ومثالها ذكرهِ إلى بعضِ الغرائب عن ملك أرمينيا، والاحتفالات في قصر الخان الأعظم ببلاد المغول[٥].

د- ب- مصادر الرحلة:

شغلَت أسفار جُون ماندڤيل ومَداها الكُتَّابَ أكثرَ من اسمهِ وأصلهِ، لأنَّ الأساطير التي احتوتهَا الأسفار، وأجيال الناس التي زَعِمَ أنَّهُ رَآها جعلَ بعضهم يقولُ: ليسَ لها وجود، لأنَّها ضمَّت مجموعة مُختاراتٌ من رواياتٍ لرحَّالين أصليين، قامَ ماندڤيل بتحريرها وتزويقها، ثمَّ نسبها إليهِ كمَا لو كانت رحلاته الشخصية[٦]، لكنْ بعد تتبُّع الأسفار يخرجُ القارئ بانطباعٍ، هو أنَّ ماندڤيل جمعَ في كتابهِ بين **ثلاثة أُمور هي:**

الأمر الأول:

أنَّه سافرَ بنفسهِ، ووصل المشرق العربي في سياحتهِ، ووصفَ سورية، ومصرَ و جزءاً من العراق، ووصفهُ كِمِنْ رأى وسَمع، لا كَمَنْ ينقلُ[٧]، إذ كانَ شاهدُ عياناً لكثير من الأحداث، والأوصاف التي قدَّمَها في أسفاره، ويبدو الأمرُ جليَّاً عند ذكره سلاطينَ مصر من المماليك، لاسيَّما ذكره السُلطان الأشرف الصغير، أيّ علاء الدِّين كُجك ابن الناصر محمد سنة(٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)[٨]، وأيضاً روايتهُ عن مُقابلة السُلطان المظفَّر حاجِّي ابن الناصر محمد بن قلاوون الذي حكم بين(٧٤٧- ٧٤٨هـ/ ١٣٤٦- ١٣٤٧م)، إذ قال: « ولهذا يجبُ أنْ أُخبركُم ماذا قال لي السلطان يوماً في مجلسه، إذ سألني كيفَ يحكمَ الرجالُ

---

[١] مثالها: ماندڤيل: أسفار السير، ص١١٨، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨، وغيرها الكثير.

[٢] مثالها: ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٩، ١٣٠.

[٣] مثالها: ماندڤيل: أسفار السير، ص١٣١.

[٤] مثالها: ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤١، ١٤٢.

[٥] مثالها: ماندڤيل: أسفار السير، ص١٦٧، ٢٢٩- ٢٣٣.

[6] Encyclopaedia Britannica, Vol.VI, p 559.

[٧] زيادة: رواد الشرق العربي، ص١٩٦.

[٨] ماندڤيل: أسفار السير، ص٧٢.

المسيحيين بلادهم؟، فأجبتهُ بشكلٍ جيّد، حمداً لله...، فقال لي: لا، الحقُّ أنَّ هذا غيرُ صحيحاً»[١]، ومثالها أيضاً روايتهِ حولَ فئة الحشاشين في قلعة ألموت دونَ أنْ يُسمِّيهَا[٢]، وهي كلُّها تواريخٌ تدلُّ على شيءٍ صحيحٍ عندَ ماندڤيل وأنَّه زار كلَّاً من بلاد الشام ومصرَ.

الأمر الثاني:

نقلَ ماندڤيل عن مصادرٍ مُختلفة لرحَّالينَ أوروبيين، أخباراً وقصصاً مُتنوعة حشَاهَا في كتابه[٣]، فأخذَ عن عن هيتون الأرمني، وغيُّوم آدم(Guillaume Adam)[٤]، و كاربيني(Carpini)[٥]، و بليني (Plinius)، وسولينوس(Sollinus)[٦].

إضافةً إلى ذلك فأنَّ القسم **الأوَّل** من أسفاره والَّذي يختصُّ بذكر طُرقات السفر، و العجائب الموجودة في كلِّ من القسطنطينية، وفلسطين، ومصرَ، اتَّبعَ فيه خط سير رحلة الألماني فلهلم بولدنزيله(Wilhelm Boldensele)[٧]، أمَّا القسمَ **الآخر** الَّذي يأخذُ القارئ صوبَ آسيا وإفريقية فاتَّبع فيه خطَّ سير رحلة أوديريكو دا بوردينونه(Oderico da Pordenone) الموسومة باللاتينية بعنوان(Itinerarius Rebus incognitis) والتي تعني" الرحلة إلى الأشياء المجهولة"[٨].

الأمر الثالث:

جَنَحَ ماندڤيل إلى تلفيقِ بعض الروايات الغريبة، والمُثيرة التي أخذها عن بعض الرِّحلات ليشدَّ انتباه القارئ[٩]، ثمَّ طفقَ يُزوِّق نصوص الرِّحلات ويُطعِّمُها، بأخبارٍ تاريخيَّة، ومعلومات حولَ التقاليد، والأديان والأساطير المُتعلِّقة بالمناطق المذكورة في رحلته، وقامَ بتحوير النصُوص الأصليَّة، وزيادة رونَقِها بمهارته الأدبيَّة ومُخيلتِهِ الثَّرَّة المُبدعة، ثمَّ قَوْلَبَ هذه المواد بصيغة الرواية الشخصيَّة، مُصوِّراً نفسه رحَّالة بسيطاً صادقاً مُنفتح الذِّهن ذا تفهُّم وتقبُّل للشعوب المُختلفة وعاداتها الغريبة، وذا ميلٍ للبحث عن التفسيرات الطبيعيَّة للظواهر الغريبة بدلاً من عزوها للمُعجزات[١٠].

---

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٥٩.

[٢] زيادة: رواد الشرق العربي، ص١٩٦، ١٩٧.

[٣] زيادة: رواد الشرق العربي، ص١٩٦.

[٤] عطية(عزيز سوريال): الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر سيف، دار الثقافة، الثقافة، القاهرة، ط٢، د. ت، ص١٦٢.

[٥] زيادة: رواد الشرق العربي، ص١٩٦.

[6] Newton. P; travels and travellers in the Middle Age, London, 1926, p 160.

[٧] ماندڤيل: أسفار السير، مقدمة الرحلة، ص٨.

[٨] بوردينون(أودوريك أوف): رحلة الفرير أودوريك، تح: جوناثان بولارد، لندن، ط١، ١٩٠٠م، ص٣٥٦، ٣٥٧.

[٩] ماندڤيل: أسفار السير، مقدمة الرحلة، ص١٤.

[١٠] ماندڤيل: أسفار السير، مقدمة الرحلة، ص٩.

وجاءَ بعدهُ عديدٌ من الرحَّالة الغربيين الَّذين استشهدوا بما كتبهَ، مع أنَّهم- جهلوا أمْ علموا- أنَّه انتحلَ الكثير من الروايات التي أعادَ صياغتها ببلاغةٍ أكسبتهُ ريادة أدب الرِّحلة في زمانه، وبدتْ رواياته عن المشرق كأنَّها تتحدَّث عن عالمٍ حقيقي حجبهُ عن الغربيين إنسان المشرق البدائي الغريب، ولكنْ قد يشفعُ للرجل أنَّه بنى العديد من كتاباته على رحلاتٍ حقيقية قامَ بها آخرون، وهذا ما لمْ يعملُ به الرحَّالة الكاذبونَ، الَّذين عاصروه، أو أتوا بعده، وصاغوا رحلات في المشرق لا تعتمدُ إلَّا على الخيالِ الصرف[١]، ورُغمَ شُهرة ماندڤيل كأعظمُ رحَّالة في زمانهِ خلالَ عصر الاستكشاف في القرون الوسطى، فإنَّه فيما بعد فقدَ سُمعته كروائي صادق، ونالَ محلَّها صيتَ" أفَّاق من الدرجة الأولى"، ومع ذلك بقيت لأسفاره شعبية كبيرة، ومازالت تنالُ حظَّاً وافراً من إقبال القُرَّاء[٢].

ج- بلاد الشام من خلالِ أسفار ماندڤيل دراسة مقارنة:

زارَ الرحَّالة ماندڤيل أغلب مناطق بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، وقدَّم وصفاً لأهمِّ مظاهر الحياة العامَّة فيها، فتناولَ الجانب الحضاري المعماري، والاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، وفيما يأتي دراسة وصفية مُقارنة لهذه الجوانب التي وردَ ذكرَهَا في أسفاره، وسيُعتمد مُقارنتها مع رحلاتٍ أجنبيَّة أُخرى لعددٍ مِنَ الرحَّالة زاروا بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك، إضافةً إلى الرِّحلات التي تمَّ تناولها فيما سبق:

أ-ج- الجانب الحضاري والمعماري:

قدَّم ماندڤيل في هذا الجانبُ وصفاً جميلاً لعددٍ من المُدن، والقلاع والحصون، والكنائس والأديرة والمعابد، والقبور والمزارات، والمشافي، وفيما يلي نماذجٌ لأهمِّ ما وصفَهُ:

1ً- ذِكرْ نماذج من المُدن:

- القُدس:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها مدينةٌ في غايةِ الجمال، وتقعُ بين الهضاب، ولا يوجدُ فيها أيَّةُ أنهارٍ أو آبار، و كانت تُسمَّى يَبوس، وبعدها أصبحت تُدعى شليم[٣]، وبالمُقارنة أشارَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ القُدس قائمة على جبلٍ في وسطٍ هوائي صحِّي، وهي مُحصَّنة بشكلٍ جيّد من جهة الشمال بواسطة أبراج وأسوار، ومن جهة الشرق وادي يهوشافاط، ومن جهة الجنوب والغرب بوساطة وديانٍ عميقة، والمدينة ليست فائقة الطول والعرض، و ليست كبيرة جداً، كما أنَّها ليست صغيرة جداً، ومبنِيَّة بشكلٍ مُناسب إلى حدٍّ ما، وفيها هيكل الرَّب، وهيكل سُليمان، وكنائس عدَّة[٤].

---

[١] إبراهيم: روايات غربية، ج١، ص٦٥.

[2] Waters Bennett. J; The Rediscovery of Sir John Mandeville, London, 1954, p 133- 136.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٣.

[٤] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٥٠، ٣٥١.

وأوردَ الرحَّالة سيغولي أنَّ المدينةَ جميلةٌ وقديمةٌ، وكثيرةُ البيوت والسُكَّان، ويُحيط بها سور متينُ الجدران فيه أبراج، وفيها قلعةٌ متينة تُدعى صخرة داوود وهي صُلبةٌ، وتقع على السورِ من جهة جبل صَهيون، وفيها شوارعٌ مُتفرِّعة مُغطَّاة بالآجر الَّذي تُبنَى منه السطوح، وفيها قناطرٌ ونوافذٌ[١].

- صُور:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل بأنَّها تُسمَّى الآن(أيّ في زمن رحلته) سورية، و كانت في ما مضَى مدينةٌ عظيمةٌ، لكنَّ المُسلمين دمَّروا مُعظم أجزائِها، وأبقوا على المرفأ خوفاً من المسيحيين، ويُوجدُ في صور الحجر الَّذي جلسَ عليه السيد المسيح، و أُقيمت عليه كنيسة[٢].

وبالمُقارنة وصفَهَا الرحَّالة فون سوخم بالمدينة الفائقة الجمال، والجيدة التحصين، بواسطة أبراج جيّدة وأسوار، وهي قائمة بمُفردِها فوقَ جزيرة في البحر، والآن مهجورة(أي زمنُ رحلته)[٣].

- الصَر فَند:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها تقعُ على بُعد ثمانية أميال من صور، على شاطئ البحر، وهي مدينة الصيد ونبيين، وقد سكَنَ فيها عددٌ من الأنبياءِ، لاسيَّما النبي يونس عليه السلام[٤].

- يَافا:

وصفها الرحَّالة ماندڤيل بالجنَّة وذكر أنَّها تقع على بُعدِ مسافة يوم ونصف من القُدس، وقد أُنشئت قبل الطوفان أنشأها يافث أحد أبناء نوح عليهم السلام، وهي أحدُ أقدم المُدن في العالم، ومازالَ حتَّى الآن منحوتةٌ في الصخرِ، ولها سلاسل حديديَّة مُثبَّتة، ويبلغُ طولُ ضلع الحجارة المُحيطة بها أربعين قدماً طولاً[٥].

وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ يافا مدينةٌ قديمةٌ وجميلةٌ جداً، وتقعُ على شاطئِ البحرِ، وهي مسكُونة بشكلٍ جيّد، وكانَ طريقُ الحُجَّاج يمرُّ منها[٦].

- عكَّا:

---

١ سيغولي(سيمون): رحلات إلى الأراضي المقدسة، تر: شيرين إيبش، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠١٠م، ص١٣٦.

٢ ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٤، ٦٥.

٣ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٠٢.

٤ ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٥.

٥ ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٦.

٦ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٠٢، ٣١٧.

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى أنَّ المدينة مُطلَّة على البحر، وأنَّها كانت مدينة الناس المسيحيينَ المليئينَ بالعدلِ، ولكنَّها دُمِّرت بالكامل في زمنه[١].

وبالمُقارنة قدَّمَ الرحَّالة فون سوخم وصفاً جميلاً لمدينة عكَّا، فذكر أنَّها تقعُ على شاطئِ البحرِ، و بُنيت بحجارةٍ منحوتة مُربَّعة حجمُهَا أكبرُ من المُعتاد، مع أبراجٍ عالية وفائقة الحَصانة والقوَّة، ولا يبعدُ كلُّ برجٌ عن البرج الآخر أكثرَ من مسافةِ رمية سهمٍ، وذلك على طول مُحيط الأسوار كلَّها، ويقومُ كلَّ بابٌ من أبواب المدينة بين بُرجين، وأسوارها عظيمة إلى حدٍّ يُمكن لعربتين أنْ تمرَّ إحداهما بالأخرى بسهولة فوق أعلاها، ومن جهة اليابسة فالمدينة مُحاطة بأسوار مُتميّزة، وبخندق عميق جداً، وهو مجهزٌ بشكلٍ مُوائم بغطاسين، وعُمال، ومُدافعين، وبوسائط مُوائمة للحراسة، وشوارعُ المدينة مُرتَّبة ومُنظَّمة، أمَّا جدرانَ بيوتها كلَّها ذاتُ ارتفاعٍ واحدٍ، وكلُّها مُتشابهة البناء من حجارةٍ منحوتة مُزيَّنة بشكلٍ رائع بنوافذ زُجاجيَّة ورسوم، وفي المدينة عدداً من القصور المُزيَّنة برسوماتٍ وذات قاعاتٍ مُزخرفةٍ، وشوارعها مُغطَّاة بأقمشة حريريَّة، لتمنعَ أشعة الشمس وتُبقيها نائية، وفي زاوية كلِّ شارعٍ منها بُرج فائق القوَّة، مُحاط ببابٍ حديدي وبأسوار حديديَّة[٢].

-حيفا:

سمَّاها الرحَّالة ماندڤيل بمدينة الناس المسيحيين المليئين بالعدل، وذكرَ أنَّها في زمانهِ مُدمَّرة بالكامل[٣]، وبالمُقارنة أشارَ الرحَّالة فون سوخم إلى أنَّ المدينة كانت مُلكاً لفُرسان الداوية ، لكنَّها في زمنهِ مُدمَّرة بشكلٍ كامل[٤].

- صفُّوريَة:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها تقع على الطرفِ الأيسر من هضبة الكرمل، و فيها كنيسةٌ جميلةٌ، وولدَ فيها القدِّيسان يعقوب ويُوحنَّا[٥]، وبالمُقارنة أوردَ الرحَّالة فون سوخم أنَّها كانت فيما مضَى مدينةٌ جميلةٌ، لكنَّها في زمنهِ مُدمَّرة مُهدَّمة، وفيها ولِدتْ القدِّيسة حنَّة والدة مريم المُباركة[٦].

- غَزَّة:

وصفَها الرحَّالة ماندڤيل بالمدينة السعيدة، الجميلة، الغنية، المليئة بالناس، و ذكرَ أنَّها ليست بعيدة عن البحر، ويوجدُ فيها بوابات على أرضٍ عالية، نصبها شمشون(Samson)[١]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة

---

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٦.

[٢] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٠٣، ٣٠٤.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٦.

[٤] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣١٦.

[٥] ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٦، ٦٧.

[٦] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣١٧.

فون سوخم أنَّ المدينة في زمانه مهجورة[٢]، وأشارَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ غزة تقع على الحدود مع مصر، وهي من أرضِ الميعاد، ويحكمُها ملك وأربعة أُمراء[٣]، بينما ذكرَ الرحَّالة سيغولي أنَّ تجارتَها شهيرةٌ؛ لأنَّ موقعها استراتيجي في سهلٍ، وأراضيها خصبة تُزرع بكلِّ أنواع الفاكهة، وهي حارَّة صيفاً وشتاءً[٤].

بلدة السبع:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها تقعُ على طريق القُدس للقادم من صحراء سيناء في مصر، ووصفَها بأنَّها مدينةٌ جميلةٌ ومليئة بالمسيحيين، وفيها العديدُ من الكنائس[٥].

– الخليل:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى أنَّها المدينة الرئيسة في فلسطين، و تُعدُّ مركزاً كهنوتياً لجماعة يهوذا، وتوجد فيها كلِّ قُبور الأنبياء الأوائل، ويُحظى المكان بتبجيلٍ، وتوقيرٍ كبيرين؛ لوجود هؤلاء الآباء المُقدَّسين الَّذين يرقدون فيها، وهذا المكانُ يُسمَّى الكهف المزدوج، أو الخندق المزدوج[٦]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ المدينةَ جميلةٌ وقديمةٌ، ومأهولةٌ بالسُكَّان، وتقومُ على رابيةٍ قريبةٍ منها كنيسةٌ جميلةٌ[٧].

– بيت لحم:

نعتَها الرحَّالة ماندڤيل بالمدينة الصغيرة، الضيقة، المُحصَّنة بشكلٍ جيدٍ، و ذكرَ أنَّها مُزودة على كلِّ جوانبها بقناةٍ مائية جيّدة الحجم[٨]، وبالمُقارنة وصفها الرحَّالة فون سوخم بأنَّها مدينةٌ جميلةٌ جداً، وليست طويلة، وقائمة فوقَ شُعَبٍ جبلي، وهي مسكونةٌ من قبلِ المسيحيين فقط تقريباً، ومُسيجة بمزروعاتٍ وأعشاب، و وديانٍ من حولها[٩]، بينما ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّها بلدٌ مهجورٌ، إلَّا من بعض الهياكل والحُفر، وهو مكانٌ جبيل ليسَ جافَّاً، ولا خصباً[١٠]، وأشارَ الرحَّالة سيغولي أنَّ حجمَ المدينةُ لا يتعدَّى

---

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٧.

[٢] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣١٤.

[٣] فريسكو بالدي(ليوناردو): رحلات إلى الأراضي المقدسة، تر: شيرين إيبش، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠١٠م، ص٩٧.

[٤] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٤، ١٣٥.

[٥] ماندڤيل: أسفار السير، ص ٩٦.

[٦] ماندڤيل: أسفار السير، ص ٩٦، ٩٧.

[٧] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٤٥.

[٨] ماندڤيل: أسفار السير، ص٩٩.

[٩] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ٣٤٦، ٣٤٧.

[١٠] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠١.

حجمُ الحقل، وبيوتها قرويَّة، لكنَّها تحتوي على مزارعٍ، وأراضيها ليس مستوية، وفيها تلالٌ ومنخفضات[1].
ومنخفضات[1].

– الناصرة:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى أنَّ المدينة كانت عظيمة وجميلة، ولكنَّها في زمنهِ قريةٌ صغيرة فيها بعضُ البيوتُ المُبعثرةُ، وهي غير مسكونة، وتقعُ في وادي صغير مُحاط بالهضاب[2]، وبالمقارنة وصفَها الرحَّالة الرحَّالة فون سوخم بالمدينة الشهيرة، الجميلة جداً، وذكر أنَّها قائمة في وادي مُزدهرٌ وجميلٌ، وهي مُحاطة من كلِّ جوانبِهَا بالجبال، لكنَّها ليست مُسوَّرة، وبيوتُها قائمة بشكل أحدها بعيد عن الآخر، وهي مليئة بالسُكَّان، وفيها كنيسةٌ جميلة، ونبع ماء[3].

– طرابلس:

وصفَها الرحَّالة ماندڤيل بأنَّها مدينةٌ كبيرةٌ وجميلةٌ، ويسكنُ بها الكثير من المسيحيين[4]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّها تقع على شاطئِ البحرِ عندَ سفح جبل لبنان، وهي مشهورة بمزروعاتها، ومرُوجها، ومراعيها، وأعشابها، وأشجار الفواكه، وتُدعى الجنَّة الثانية[5]، في حين ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ للمدينة مرفأً جيّد[6].

– بيروت:

وصفَها الرحَّالة ماندڤيل بالمدينة الجيدة، و ذكرَ أنَّهُ يوجدُ فيها قلعةٌ جميلةٌ، و هي تبعدُ ثلاثة أيام من مدينة صيدنايا قُربَ دمشق[7]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ بيروتَ كثيرةُ السُكَّان، وفيها كنيسةٌ جميلة مُكرَّسة للقدِّيس نيقولا[8].

وأوردَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ في بيروت قلعة مسوَّرة، وكنيسة تنتمي للقدِّيس فرنسيس، و هي جميلة ومباركة[9]، بينما أشارَ الرحَّالة سيغولي إلى أنَّ بيوتَها كبيرةٌ، ومصنوعةٌ من الحجارةِ المصقولة جيداً، لكنَّ المدينة غير مسوَّرة حتَّى لا تُصبحَ محميَّة للمسيحيين فيعتصموا فيها[10].

---

[1] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٥.

[2] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٣٥.

[3] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٧٧، ٣٧٨.

[4] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤٦.

[5] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٠٠.

[6] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١١٣.

[7] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤٦.

[8] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٠١.

[9] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١١٣.

[10] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٤٠.

2ً– ذكر نماذج من الحصون والقلاع:

– حُصن العيزريَّة:

حدَّدهُ الرحَّالة ماندڤيل بالقُرب من جبل الزيتون المُشرف على القُدس، وهو المكانُ الَّذي أعادَ فيه السيد المسيح العازار من الموت إلى الحياة، والعازار هو أحدُ أصدقاء السيد المسيح، ويُقالُ في راوية ثانية: إنَّه أخو مريم العذراء[١].

وبالمُقارنة فقد سمَّاه الرحَّالة فون سوخم قلعة بيت فاجي، الواقعة على جبل الزيتون، وذكرَ أنَّها قلعةٌ جميلةٌ جداً قائمة على طرفِ الرابية، و أُقيمت في المكان الَّذي أُقيمَ فيه العازار من الموت[٢].

– حُصن الكرك:

وصفهُ الرحَّالة ماندڤيل بأنَّه قلعةٌ قويَّةٌ وجميلةٌ، تقعُ على هضبة تُدعى الكرك، وهذا يعني بشكلٍ ملكي تلكَ القلعة التي شيدها الملك بلدوين ملك فرنسا، عندما استولى على الأرضِ، ووضعَها بأيدي الرجال المسيحيين ليُبقيَ على هذا البلدُ ولذلك تُدعى بالجبل الملكي[٣].

– الشُوبك:

حدَّده الرحَّالة ماندڤيل بالقُرب من الكرك في ناحيتها الجنوبية، وذكرَ أنَّه في منطقتها يسكنُ رجالٌ مسيحيين، ولكنَّهم يدفعون الجزية للمماليك[٤].

وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ القلعة تقعُ باتجاه الشرق من البحر الميت، وقالَ: أنَّها أحصنُ قلعة في العالم، وتُسمَّى بالعربية عربة، وفي الكلدانية شوبك، وباللاتينية مونتريال، وقيلَ: إنَّه لا يوجدُ قلعة في العالم يُمكن مُقارنتها بها، ذلك أنَّها مُحاطة بثلاثةِ أسوارٍ، ففي داخل السور الأوَّل صخرة مُرتفعة جداً، فيها ثلاثةُ ينابيع تتدفقُ منها المياه، لتسقي جميع المنطقةِ، وفي داخلِ السور الثاني ينمو ما يَكفي من القمح للناس الَّذين يعيشون فيها، وكانَ من المعتاد أنْ ينموَ داخل السور الثالث الكثير من الكروم، لكنَّ هذه الدوالي اقتُلِعَت، و كانت القلعة فيما مضَى مُلكاً للصليبيين، لكنَّها في زمنه بيد السلطان المملوكي[٥].

– قلعة المرقب:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها تقعُ قرب طرطوس، وهي قلعةٌ منيعةٌ[٦].

---

١ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٢.

٢ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٦٧.

٣ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٨، ١٢٩.

٤ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٩.

٥ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٧١، ٣٧٢.

٦ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٥٠.

- قلعة الحجيج:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها تقعُ قُرب حيفا، وهي قلعةٌ حصينةٌ[١]، و بالمُقارنة أشارَ الرحَّالة فون سوخم أنَّها كانت تُعرف باسم أرسوف، وأُعطيت فيما سبق لفُرسان الداويَّة، لكنَّها في زمنهِ مهجورةٌ تماماً[٢].

3- ذكر نماذج من الكنائس و الأديرة والمعابد:

- كنيسة بيت لحم:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها تقع شرقي المدينة، وهي كنيسةٌ رائعةُ الجمال وأنيقةٌ، ويوجدُ فيها أبرجةٌ عدَّة وبريجات مُدبَّبة وزوايا، وهي قويَّةٌ جداً، ومبنيَّة بطريقة غريبة، وفي داخلها يوجد أربعة وأربعون عموداً من الرُّخام الرائع الجمال[٣].

وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ كنيسة بيت لحم عظيمةٌ وجميلة جداً، ومُحصَّنة بشكلٍ رائع بكثيرٍ من الأبراج والأعمال الخارجية، حتَّى كأنَّها قلعة، وهي مسقوفةٌ بالرصاص، ومُزيَّنة بأعمال الفُسيفُساء، وأحجار اليشب، والرُّخام، والذَّهب، وفيها نحوَ سبعينَ عموداً من الرُّخام النفيس، وليست مُقنطرة، بل مسقُوفة تحتَ الرصاص، بأفضل أنواعِ الخشبِ، وجذوعٍ وعوارضٍ من خشبِ الأرز، وجُدرانها مُذهَّبة تحتَ الزُجاج، وقد عُمِلت بشكلٍ رائعٍ بزُجاج مرسوم[٤]، و ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ موضعُ الكنيسة حيثُ ولِدَ السيد المسيح[٥].

- كنيسة القبر المُقدَّس:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها توجد في القُدس حيثُ دُفنَ السيد المسيح، وهي خارجُ المدينة من الجانب الشمالي، ولكنَّها في زمنه توجد داخل سور المدينة، وهي ذاتُ شكلٍ دائري ومفتوحة من الأعلى، ومُغطَّاة بالرصاص، وفي جانبها الغربي برجٌ جميلٌ توجدُ في أعلاه أجراس متينَة، وفي وسطِ الكنيسة يوجدُ الهيكل، وهو عبارةٌ عن بيتٍ صغير لهُ باب مُنخفض صغير، وهذا الهيكلُ مبنِيٌ بشكلٍ نصف دائرة، وهو مُشبَّعٌ بشكلٍ مُذهل، وغنيٌّ باللون الذهبي، واللازوردي، و غيرها من الألوان الغنيَّة، والجميلة التي تُعطيه مظهراً فخماً، وفي الجانب الأيمن من المعبد يوجدُ ضريح السيد المسيح، ويبلغُ طول هذا المعبدُ ثمانية أقدام وعرضه خمسة أقدام، وارتفاعه أحدَ عشرَ قدماً، وفي العصر المملوكي أمرَ السُلطان بإنشاء جدارٍ حولَ

---

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٥٠.

[٢] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣١٧.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص٩٩.

[٤] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٤٧.

[٥] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٠.

الضريح بحيثُ لا يُمكن لأيَّ إنسانٌ مسَّهُ، ومنعاً لتكسُّر أحجاره، ولكنْ في الجانب الأيسر من الجدار يوجدُ المعبد وعلى علوٍ يُقدَّر بطولِ إنسان يوجدُ حجرٌ كبير بحجم رأس إنسان، حيثُ الضريح المُقدَّس، ويُقبِّل الحجيج الَّذين يُصلُّونَ هناك هذا الحجر، وفي هذا المعبدُ لا توجدُ أيُّ نافذة، ولكنَّه مُضاءٌ بمصابيحٍ مُعلقَّة مُقابل الضريح، كما يوجدُ مصباح مُعلَّق قُبالة الضريح يشعُّ النور، وفي يوم الجمعة العظيمة يشتعلُ من تلقاءِ نفسهِ[1].

وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ فوقَ ضريحُ السيد المسيح توجدُ الكنيسة الجميلة والعظيمة، وقد بُنيت وزُيّنت بالرُّخام، وبأعمال الفُسيفُساء، والرُّسوم، وزيناتٌ أُخرى، ولها أبراجٌ أمام السُدَّة وفوقها، وهي مفتوحةٌ من الأعلى، فوقَ موضح ضريح السيد المسيح، وبالقربِ منها توجدُ بيعةٌ صغيرةٌ مزدوجةٌ لها ثلاثة أبواب، وفي داخلها ثلاثةِ مذابح قائمة هناك، يدخل الإنسان من البيعة الأولى إلى البيعة الثانية، حيثُ يوجدُ ضريح المسيح، ويأتي دخوله من خلال بابٍ مُنخفضٍ وصغيرٍ ومُقنطر على شكل نصف دائري، وقد صُنِعَ على هذا الشكلُ حتَّى يُرغَمَ الإنسان على الدخولِ وهو مُنحنيَ الظهر، وطولُ هذه البيعةُ مع الضريح نحوَ تسعة أشبار، وضريحُ المسيح منجورٌ من صخرٍ أصمٍ، ومُغطَّى بحجارةٍ ورُخامٍ، خشية من سرقته من قبل الحُجَّاج، وتحتوي الحُجرة التي تُغطِّيه من الواجهة على ثلاثِ فتحاتٍ، يستطيعُ الإنسان من خلالها تقبيل الضريح والحجر[2].

بينما ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّه في ساحة القبر المُقدس أربع كنائس الأولى للعذراء، والثانية للقدِّيس ميخائيل الملاك، والثالثة للقدِّيس يُوحنَّا المعمدان، والرابعة للقدِّيسة مريم المجدلية(ماريا مادلين) وأضافَ بالدي أنَّه لدخول القبر المُقدَّس ثلاثة مفاتيح، **واحدٌ** يملكهُ تُرجمان السُلطان، **والثاني** أميرُ القُدس، **والثالث** للكامر لانغ الإكليروسي، وهم ينفقونَ المال المأخوذ من الحُجَّاج عندَ إقامة الشعائر، ويدفعُ كلَّ حاجٌّ ستة دوقيات تخوِّلهُ لقضاء يوماً كاملاً، ويسمحونَ بتمديدِ الساعات إنْ شاءَ الحاج، وإذا أرادَ أحدُ الحُجَّاج الدخول أكثر من مرَّة يدفعُ أربعة دراهم، وفي الصرحِ المُقدَّس حجرٍ أسود طولهُ ثلاثة أذرع فلورنسية، وضِعَ عليه السيد المسيح، ودُهِنَ عندما رُفِعَ الصليب، وفي الكنيسة جزءاً من العمود الَّذي رُبِطَ عليه المسيح، وعمود وضِعَ عليه تاجُهُ الشوكي، وأيضاً السجن الَّذي سِيقَ إليه في ليلةِ الخميس المُقدَّس، وفي الكنيسة مكانٌ يرتفعُ اثنا عشر ذراعاً عن الأرضِ عليه الحجر الَّذي ثُقِبَ فيه مكانُ الصُلبان الثلاثة وعليه مذبَحان[3].

- كنيسة القدِّيس إسطفان:

---

[1] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٤، ١٠٥.

[2] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٥٦– ٣٥٨.

[3] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٦، ١٠٧.

حدَّدها الرحَّالة ماندڤيل فوقَ وادي يهوشافاط بالقُرب من القُدس، وهو المكانُ الَّذي رُجِمَ فيه القدِّيس إسطفان بالحجارة حتَّى الموت[١]، و بالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّها تقع بقرب الحجر الكبير الَّذي ركعَ عليه القدِّيس إسطفان عندما رُجم[٢].

- كنيسة السيدة الكبرى:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها تقع في القدس بالقُرب من مشفى القديس يُوحنَّا باتِّجاه الشرق، وبقُرب كنيسة القيامة، وهي كنيسةٌ رائعةُ الجمال[٣]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّها تقع إلى جهة الشمال من هيكل سُليمان، وأمامها بُركة الضأن التي لها خمس قناطر من حولها[٤]، بينما سمَّاها الرحَّالة فريسكو بالدي بكنيسة الآلام، وذكرَ أنَّها من بناءِ القدِّيسة هيلانة[٥].

- كنيسة السيدة العذراء:

أوردَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ موقعها بالقُرب من جبلِ صهيون داخل مدينة القدس، وذكرَ أنَّها كنيسةٌ رائعةُ الجمال، وقد بُنيت في المكان الَّذي كانت تسكنُ فيه السيدة العذراء وماتت فيه، وفي الكنيسة رئيسٌ للرُهبان والكهنة[٦]، و بالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ الكنيسة تقع على جبل صهيون وليس بالقرب منه، وذكرَ أنَّها كنيسةٌ فائقةُ الجمال[٧].

- دير صيدنايا:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّه يبعدُ عن دمشقَ خمسة أميال، ويستقرُّ على صخرةٍ، وهو مكانٌ جميلٌ، ويبدو وكأنَّه حُصنٌ، وصارَ فيما بعد كنيسة بغاية البهاء، فيها رُهبانٌ وراهباتٌ مسيحيون[٨].

وبالمقارنة وصفَهُ الرحَّالة فون سوخم بالدير الجميل، وذكرَ أنَّه مُحاطٌ من كلِّ جانبٍ بأسوار فائقة القوَّة، مثلهُ في ذلك مثلُ قلعة، وهو مسكونٌ من قبل رُهبان وراهبات إغريق(أرثوذكس)، وفوق البقُعة التي كان إبراهيم سيُضحِّي فيها بابنه إسحاق عليهم السلام تقومُ كنيسةٌ جميلةٌ يوجدُ في داخلها، خلفَ المذبح في قوسٍ نصفُ دائري في الجدار تمثالٍ لمريم المُباركة، وهو مَدهونٌ مرسومٌ من عند الوسط نحوَ الأعلى فوقَ

---

١ ماندڤيل: أسفار السير، ص ١٠٩.

٢ فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٢.

٣ ماندڤيل: أسفار السير، ص ١٠٩.

٤ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٥٣.

٥ فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة ، ص١٠٢.

٦ ماندڤيل: أسفار السير، ص ١١٧.

٧ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٥٤.

٨ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤٤.

منضدة خشبيَّة، ومُسيَّجة بحواجزٍ حديديَّة، غير أنَّ الصورة صارت سوداء داكنة بسبب التقبيل والزمن[١]، بينما أشارَ الرحَّالة فريسكو ذكر بالدي أنَّ الدير مُغطَّى بالقرميد، وفيهِ دهليزُ قناطرٌ وساحة، ويترأسه راهبات مريميات من الروم، وراهبات الحزام المسيحيات، وعددهنَّ في الداخل ثلاث وعشرون راهبة، وفي خارجهِ راهباتِ ونساءِ تقيَّات تخدُمَهُنَّ[٢].

معبد قُدس الأقداس:

حدَّدهُ الرحَّالة ماندڤيل باتِّجاه الشرق من كنيسة القيامة في القُدس، ووصفَهُ بأنَّه بيتٌ جميلٌ جداً، ودائري الشكل، ومرتفع ومُغطَّى بالرصاص، ومرصوفٌ جيداً بالرُّخام الأبيض، ويبلغُ عرضه أربعاً وستينَ وحدة ومثلُها طولاً، كما يبلغُ ارتفاعهُ ستَ وحدات، وفي الداخل تنتصبُ أعمدة رُخاميَّة، ويوجد في منتصفهِ منصاتٍ عدَّة عالية يبلغُ علوَّها أربع عشرة درجة منصوبة على أعمدةٍ، ويدعو اليهود هذا المكانُ قُدس الأقداس، ولهذا المعبدُ أربعةُ مداخل، وبواباتهُ مُزيَّنةٌ بإتقان و مصنوعةٌ من خشبِ السرُو، وعند بوابته الشمالية يوجدٌ بئرٌ جافًّاً[٣].

– هيكل سُليمان:

أوردَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ موقعَهُ في القُدس باتِّجاه الجنوب من هيكل قُدس الأقداس، وهو جميلٌ جداً ومصقولاً بإتقان، ويسكنُ فيه فُرسان الهيكل الَّذين يُدعونَ بالداويَّة، ويقيمُ فيه الكهنة العاديُّون[٤]، وبالمُقارنة وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ الهيكلَ مُستديرٌ، وقد بُنِي وفقَ النمط المعماري الإغريقي، وهو مرتفعٌ جداً، وواسعٌ ومسقوفٌ بالرصاصِ، ومعمولٌ من حجارةٍ كبيرةٍ منحوتة ومصقولة، ولهذا الهيكلُ أربع ساحات كبيرة، وهي ليستُ مسقوفة، لكنَّها مُبلَّطة بشكلٍ جيدٍ، ومُزيَّنة برُخامٍ أبيض[٥].

4ً– ذكر القبور والمزارات:

– جبل الجُلجلة:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ هذا الجبلُ من الأماكن المُقدَّسة عند المسيحيين والمسلمين، ففيهِ وضِعَ السيد المسيح على الصليب، وهو عبارة عن أحجارِ بيضاء موشَّحة قليلاً بالأحمر، وكان الصليب قد هُيَّئ ونُصبَ في نفس هذا الصخر وعلى هذه الصخرة نزفَت جراحُ السيد المسيح عندما ثُبِّتَ على الصليب، وهذا الَّذي يُسمَّى بالجُلجلة، وفوقَ الجبل ببضعِ درجاتٍ ثُقبٌ في الحجرِ حيثُ وجِدَ رأسُ آدم بعدَ طوفان نوح عليهما السلام، وفوقَ تلكَ الصخرة قدَّم إبراهيم عليه السلام أضحيته للربِّ، وعلى الطرف الأيمن يوجدُ المذبحُ

---

[١] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٥.

[٢] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٩.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص١١١، ١١٣.

[٤] ماندڤيل: أسفار السير، ص ١١٥.

[٥] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٥١.

حيثُ يمتدُّ العمود الَّذي رُبطَ إليه السيد المسيح عندما كان يُجلَد، وبجانبهِ أربعة عواميد أُخرى من الصخرِ، وهي دائماً تنقطُ ماءً، وقُربَ المذبح يوجدُ مكاناً تحت الأرض يبلغُ عُمقه نحو اثنين وأربعين درجة، وجِدَ فيه الصليب المُقدَّس، حيثُ خبَّأه اليهود[1]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ بأعلى الجبلُ قبوراً لعددٍ من القدِّيسينَ، وفيه الحجر الَّذي استخدمهُ اليهود لسدِّ مدخلَ سكنَ المسيح، وعلى الجهة اليُسرى من الجبل المكان الذي أرادَ فيه اليهود خطفَ جسد العذراء عندما كان الحواريون يريدونَ دفنها، وفي الجبل كنيسة القدِّيس يعقوب[2].

– قبر لوط عليه السلام:

حدَّدهُ الرحَّالة ماندڤيل على بُعدِ ميلين من الخليل[3].

– قبر النبي صموئيل عليه السلام:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّه يوجدُ فوق جبل المسرَّة(جبل المشهد– الصوانة)، بالقُرب من القُدس، وهو قبرٌ جميلٌ جداً، وقد سمَّاه الناس المسرَّة لأنَّه يُضفي السعادة والبهجة في قلوب الحُجَّاج[4]، وبالمُقارنة حدَّدهُ الرحَّالة سيغولي بالقربِ من الرامة في الجليل بعكس ما ذكر الرحالة جون ماندڤيل[5]، وهذا ما ذكرهُ الرحالة فون سوخم[6].

– قبور الأنبياء في الخليل:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى وجودِ كلِّ قبور الأنبياء الأوائل فيها: آدم، إبراهيم، إسحاق، يعقوب، وزوجاتهم حواء، وسارة، وربقة، وليئة، وهذه القبورُ يُحافِظُ عليها المسلمين بشكلٍ غريب، وذكرَ أنَّ المكان يُحظى بتبجيلٍ وتوقيرٍ كبيرين، لوجود هؤلاء الآباء المقدَّسين الَّذين يرقدونَ هناك، وهم لا يسمحونَ لليهود والمسيحيين بالدخول إلى هذا المكانُ إلَّا إذا كانَ لديهم حظوة من السلطان، لأنَّهم يعدُّونَ اليهود و المسيحيين كالكلاب، وينبغي ألَّا يدخلوا إلى الأماكن المُقدَّسة، وهذا المكانُ يُسمُّونه الكهف المزدوج، أو الخندق المزدوج؛ لأنَّهم يرقدونَ واحداً فوقَ الآخر، وقد سمَّى المسلمون هذا المكانُ بلغتهم مكان الآباء[7]، وسمَّاه اليهود أبُّوت[8](Arboth)[1].

---

[1] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٥، ١٠٧.

[2] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٥.

[3] ماندڤيل: أسفار السير، ص٩٨.

[4] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٠.

[5] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٤٦.

[6] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٧٥.

[7] ربَّما أنَّ هذه التسمية مُحرَّفة عن قبر الآباء؛ لأنَّ التسمية التي أطلقها اليهود آبوت: تعني كذلك الآباء .

[8] ماندڤيل: أسفار السير، ص٩٦، ٩٧.

وبالمُقارنة أوردَ الرحَّالة فون سوخم وجود كنيسة جميلة على رابيةٍ قريبة من المدينة، يوجدُ داخلها الكهف المزدوج، حيثُ دفن الأنبياء المذكورين مع زوجاتهم، وذكرَ أنَ المسلمين يسمحونَ لليهود بالدخول إليها بعكس ما ذكره ماندڤيل، مقابل أنْ يدفعوا المال، وهذه مدهونةٌ بالأبيض الكنيسة من الداخل، ومُزيَّنةٌ بشكلٍ جيّد بالحجارة، وينزلُ الإنسان إلى الكهف في الأسفل، وكأنَّه في قبرٍ، حيثُ جرَى دفنُ الأنبياءَ وزوجاتهم[٢].

5ً- ذكر نموذج من المشافي:

مشفى القدّيس يُوحنَّا: أشارَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها تقعُ مُقابلَ كنيسة القيامة في القُدس، باتِّجاه الجنوب بحوالي مئتي خطوة، وقد اتَّخذها الفُرسان الداويَّة أساساً لهم، وفيها مكانٌ مُخصَّص للمرضى، والمشفى مبنيٌّ على مئة وأربعة وعشرين عموداً من الصخر، و في جدرانِ المكان وعدا العدد السابق يوجدُ أربعةٌ وخمسين عموداً تحملُ المكان[٣]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ المشفى عامَّة للحجاج، وهي كبيرةٌ في حجمها إلى حدٍّ يستطيعُ ألفَ إنسانٌ أنْ يعيشوا فيها بكلِّ سهولة، وأنْ يحصلوا على كلِّ شيءٍ يريدونهُ مُقابل دفعهم للمال[٤]، وهذا ما ذكرَهُ الرحَّالة فريسكو بالدي[٥].

ب- ج- الحياة الاقتصادية:

شَغِلَ الحديث عن الحياة الاقتصاديَّة في رحلة ماندڤيل حيّزاً لا بأسَ به، إذ تطرَّقَ الرحَّالة للحديث عن الزراعة في مُدن بلاد الشام، مُتناولاً في هذا الجانبُ ذكرَ مصادر المياه التي اعتمدت عليها الزراعة، إضافةً لما اشتهرت به من الزراعات.

وبجانبٍ آخر تناولَ الرحَّالة ذكراً لأهمِّ التجارات الرائجة في مُدنِهَا، ولمْ يُغفلَ الإشارة إلى أهمِّ الصناعات التي اشتهرت بها مُدن بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، وفيما يلي دراسة لأهمِّ ما تناولهُ:

1ً- مصادر المياه:

أوردَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ أغلبَ الزراعاتُ في القُدس تعتمدُ على مياهِ الأمطار، وذلك لافتقارِهَا للينابيع والآبار، فأشارَ أنَّه لا يوجدُ داخل أسوار المدينة أيُّ أنهار أو آبار[٦]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ القدس تفتقرُ إلى الماء داخل أسوارها، وبُركها مملوءة بالماءِ المجلوب من حَبرون بوساطة مجاري

---

[١] صواب التسمية(AbbothK) وليس (Arboth) كما وردت في النص فهي مُحرَّفة، ومعنى العبارة في العبرية الآباء.

[٢] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٤٥.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٩.

[٤] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٦٠.

[٥] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠١.

[٦] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٣.

تسيرُ من تحت الأرض مع أقنية، من المُمكن رؤيتها على طرف الطريق[١]، وأكَّد الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ أغلب المياه الموجودة في القُدس تتجمَّع من الأمطار في صهريج مُعدٌّ للريِّ والشُرب[٢]، وهذا ما أكَّده الرحَّالة سيغولي فأشار أنَّ الماءَ العذبُ ينذرُ في القُدس[٣].

وأشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى وجودِ حديقة بالقُرب من أريحا تُسمَّى حديقة إبراهيم، يجري فيها جدولٌ مائيٌّ صغيرٌ، كانَ في القديمِ مُرُّ الطعم، لكنْ بِبرَكة النبي يُوشع عليه السلام أصبحَ حلو المذاقَ وسائغاً للشرب[٤]، وبالمُقارنة أوردَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ نبعَ حديقة إبراهيم يقعُ بقربِ جبل القرنطل[٥].

وتعدُّ مدينة بيت لحم أشهرُ مُدن الأراضي المُقدَّسة، فقد أشارَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ المدينة مُزوَّدة على كلِّ جوانبها بقناةٍ مائيةٍ جيّدة الحجم، تُستخدم للشرب وريِّ الأراضي الزراعية[٦]، وبالمقارنة أوردَ الرحَّالة سيغولي أنَّ في بيت لحم نبعَ ماءٌ عذبُ وطيِّبُ الطعم[٧].

وفيمَا يخصُّ مصادر المياه الرئيسيَّة في بلاد الشام فقد ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ المنطقة غنيَّة بالبُرك، والجداول، والأنهار التي تُستخدم لريِّ الأراضي الزراعيَّة، ومنها صالح للشُرب، ولعلَّ أهمَّ ما أوردهُ:

- بُركة سلوان:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّها تقعُ بالقُرب من جبل صهيون المُشرف على القُدس، وهي البُركة التي غُسِلَ فيها السيد المسيح بعدَ تعميده[٨]، وبالمُقارنة أشارَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ بُركة سلوان تقعُ بالقرب من سفحِ جبلِ جبلِ صهيون، وهي بُركة للاستحمام، وريِّ الأراضي الزراعيَّة، وهي في زمنهِ مجرَّدُ مجموعة من المياه الآسنة[٩].

---

[١] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٥٠.

[٢] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠١.

[٣] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٦.

[٤] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٤.

[٥] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٦٨.

[٦] ماندڤيل: أسفار السير، ص٩٩.

[٧] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٥.

[٨] ماندڤيل: أسفار السير، ص١١٩.

[٩] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٦٣.

- نهر قدرون:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّه نهرٌ صغيرٌ، يجري في وادي يهو شافاط، بين القُدس وجبل الزيتون المُشرف عليها، وفوقهُ شجرةٌ تمتدُّ بين طرفي النهر حيثُ يمرُّ الناس من فوقها[١]، وبالمقارنة أشارَ الرحَّالة فون سوخم، إلى أنَّ جدول(نهر) قدرون تتجمَّعُ فيه المياه التي ترشحُ من المدينة، ومياه الأمطار التي تأتيَ من الهضابِ على كلا الجانبيين[٢]، بينما ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّه نبعٌ صغيرٌ، وعليهِ جسرٌ خشبيٌّ[٣].

- نهر الأُردن:

وصفَهُ الرحَّالة ماندڤيل بأنَّه ليس بالنهر الكبير جداً، ويوجدُ فيه الكثير من أنواعِ الأسماك الجيّدة، وهو ينبعُ من هضبةٍ في لبنان من نبعين يُسمَّيان دان، و جور، ومن هذين النبعين أتَى اسمَهُ، ويعبرُ النهر من بُحيرة تُدعى مارون، وبعدها يعبرُ من تحتِ هضبة جلبوع إلى بُحيرة طبريَّة، وهناك يوجد وادٍ نضير على طرفي النهر، ثمَّ يقسم النهرَ مدينة الجليل إلى قسمين ويجري تحت الأرض مسافة طويلة حتَّى يصل إلى سهلٍ جميلٍ وكبيرٍ يُدعى ميدان ليصُبَّ بعدها في البحر الميت[٤].

وبالمُقارنة أشارَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ طولَ النهرُ خمسةٌ وعشرين ميلاً من أميال البلاد التي يمرُّ بها، ولا يتجاوز عرضهُ عشرَ خطوات، وهو نهرٌ صغيرٌ، وعميقٌ جداً، يفيضُ ويتراجعُ وفقاً للمواسم، ولهذا النهرُ قُعرُ مُوحلُ جداً، ومياهه عذبة، وفيه سمكٌ رائعٌ، وهو ينبعُ من سفحِ جبل لبنان، ويأتي من جدولين هما أر، ودان، ويمرُّ من خلال الجليل، ويأخذ اسميَّ هذين النهرين، فيصبحُ اسمه الأُردن، وعندَ سفح جبل الكرمل جدول يتدفَّقُ من هناك ويصبُّ في الأرِ أحد فروع نهر الأردن[٥].

وخالفَ الرحَّالة فريسكو بالدي ما ذُكرَ سابقاً عن النهر فأشار إلى أنَّه يسيرُ أربعة أميال فقط ليصلَ إلى البحرِ الميّت، وهو شبيهٌ بالمُستنقع ولا تعيشُ فيهِ الأسماكُ ولا أيُّ شيءٍ حيٍّ وكلِّ طائرٍ يطيرُ فوقه يسقطُ ميتاً، وقد أخطأ بالدي في هذا الوصفُ، إذ إنَّ وصفَهُ ينطبقُ على البحر الميّت وليس على نهرِ الأُردن[٦].

- نهر فَرْفَرْ:

---

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٠، ١٢١.

[٢] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٦٣.

[٣] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٢.

[٤] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٧.

[٥] سوخم: وصف الارض المقدسة، ص٣٧٢، ٣٧٤.

[٦] يبدو أنَّ فريسكو بالدي وقع في الخطأ، فهذا الوصف ينطبق على البحر الميت، وليسَ على نهر الأردن. فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٨.

قصدَ الرحَّالة ماندفيل بهذه التسمية النهر المُسمَّى بالعاصي[1]، وذكرَ أنَّهُ نهرٌ كبيرٌ تعبرُ فيه السُفن، وينبعُ من الجبال القريبة من مدينة دمشق[2]، بينما ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ نهر فرفر يجري خلالَ دمشق، حيثُ يُديرُ ببراعةٍ وإبداعٍ كثيراً من الطواحين[3].

- نهر أبانا[4]:

ذكرَ الرحَّالة ماندفيل أنَّه يجري بجانب مدينة دمشق[5]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّه في منتصف الطريق بين مدينة دمشق، وجبل السعير الَّذي يُوصِلُ إلى صيدنايا، وأنَّ من يذهبَ إلى صيدنايا عليه اجتيازُ هذا النهرُ[6].

2ً- الزراعة:

حقيقةُ الأمر لمْ تردَ في رحلة ماندفيل سوى إشاراتٍ قليلة عن الزراعة في بلاد الشام، سواءٌ ما يخصُّ النباتات والأشجار البريَّة، أو ما يخصُّ الأشجار المُثمرة، ولعلَّ أهمَّ الإشارات التي وردت في الرِّحلة فيمَا يتعلَّقُ بالنباتات البريَّة إشارة ماندفيل إلى وجودِ سهولٍ وغياضٍ تبهجُ النفس على الطريقِ الواصل بين الخليل وبيت لحم، وإشارتهِ إلى وجود حقل الربِّ القريب من بيت لحم، وذكرَ أنَّه حقلٌ مزدهرٌ ومليءٌ بالأشجارِ ذواتِ الأزهار البيضاء والحمراء[7]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ الورودَ و الزهورُ تكثرُ تكثرُ في مُدن الأراضي المُقدَّسة، والبساتين المُحيطة بدمشق[8].

وفيما يخصُّ الجانب الآخر من الزراعة أيّ ما وردَ في الرحلة مِن ذكرٍ إلى وجود الأشجار البريَّة والمثمرة، فقدَ أشارَ الرحَّالة إلى وجودِ وادٍ جميلٍ ومليءٍ بالأشجار المُثمرة بالقُرب من شكيم، وأنَّ البساتينَ تنتشرُ حولَ دمشقَ الغنَّاء المُترعة بعمومِ أصناف الفاكهة، ويوجدُ كثيرٌ من الفواكه من جميعِ الأشكالِ والألوان في وادي البقاع في لبنان[9]، ومُقارنةً أشارَ الرحَّالة فون سوخم إلى كُثرة البساتين المُحيطة بمدينة دمشق

---

[1] أخطأ ماندفيل في تسميتهِ، ونهر فرفر هو نهر الأعوج الَّذي ينبعُ من سفح جبل الشيخ إلى الجنوب الغربي من دمشق.

[2] ماندفيل: أسفار السير، ص١٤٩.

[3] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٤.

[4] المقصود نهر بانياس، وهو أحد فروع نهر بردى، ظاهر مدينة دمشق. ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص١٢٨، النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٠٩؛ أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٧١.

[5] ماندفيل: أسفار السير، ص١٤٩.

[6] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٥.

[7] ماندفيل: أسفار السير، ص٩٩.

[8] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٤، ٣٨٥.

[9] ماندفيل: أسفار السير، ص١٢٩، ١٤٤، ١٤٥.

التي يُزرعُ فيها كلُّ أصنافَ الفاكهة الطازجة طوال أيام السنة[١]، بينما أوردَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ أريحا منطقةٌ جميلةٌ يُزرعُ فيها كلُّ أصنافَ الفاكهة[٢].

ولعلَّ من أهمِّ الأشجارِ التي وردَ ذكرها في الرِّحلة:

- الزيتون:

أشار الرحَّالة ماندڤيل إلى وجودِ جبلٍ بالقُرب من القُدس يُسمَّى جبل الزيتون لكُثرة أشجار الزيتون المزروعة عليه، إضافةً إلى زراعتهِ في مناطقِ بيت لحم، والخليل، والجليل، وذكرَ أنَّ أغلب مناطق الأراضي المقدَّسة تشتهرُ بزراعة هذا النوعُ من الأشجار المُثمرة[٣]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ الزيتونَ يكثرُ في أراضي بيت لحم[٤]، في حين أشار الرحَّالة سيغولي أنَّ بالقرب من غزَّة كثيرٌ من مزارعِ الزيتون، وذكرَ أنَّ أراضي بيت لحم تشتهرُ بزراعته، وفي بيروتَ تنمو أشجار الزيتون بكثرة[٥].

- الجميز:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى وجود الكثير من أشجار الجميز بالقُرب من بيت عنيا، وأريحا[٦]، وقد وردت الإشارة فيما سبقَ إلى زراعة الجميز عند الرحَّالة الألماني بورشادر الَّذي ذكرَ أنَّ أشجارَهُ تُكثَرُ بالقُرب من بيت المقدس، والمناطق المُحيطة بها[٧].

- الكروم:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ كرومَ العنبُ الجميلةُ تُكثر بالقُرب من بيتِ لحم، وتُزرعُ الكروم الجميلة في صيدنايا القريبة من دمشق[٨]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ زراعتَهُ تُكثر بالقُربِ من جبل سعير بقربِ دمشق حيثُ توجدُ قريةٌ عظيمةٌ وجميلةٌ جداً، يتوفَّرٌ فيها صيفاً وشتاءً عناقيد العنب الطازج الموجودة فوق الدوالي[٩]، وهذا ما أكَّده الرحَّالة فريسكو بالدي الَّذي ذكرَ أنَّ العنبَ الجيدُ يُكثَرُ في مدينة صيدنايا[١٠].

- التُفَّاح:

---

١ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٤، ٣٨٥.

٢ فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٨.

٣ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٢.

٤ فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠١.

٥ سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٥، ١٤٠.

٦ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٣.

٧ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٧.

٨ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٠، ١٤٤.

٩ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٨.

١٠ فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٩.

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ التفَّاح يُزرع في هضابِ لبنان بالقُرب من منابعِ نهر الأُردن، ويمتاز بطولهِ، إذ تبلغُ ثمرتَهُ حجمَ رأس الإنسان[1]، وبالمُقارنة وردت الإشارة إلى نوعٍ من التُفَّاح يُسمَّى تُفَّاح آدم، يُزرع في حيفا وسهول يافا عند الرحَّالة الألماني بورشارد[2]، ولعلَّ من أهمَّ مناطق زراعتهُ مدينة أريحا وجبال الخليل، وهذا ما وردَ ذكرهُ عند كُلٍّ من الرحَّالة دانيال الراهب[3]، والرحَّالة الألماني ثيودوريش الَّذي أشار إلى نوعٍ من التُفَّاح ذو حجمٌ صغيرٌ يُزرع بالقرب من أريحا[4].

وبجانبٍ آخر تطرَّق الرحَّالة ماندڤيل إلى وجودِ نوعٍ خاصٍّ من التُفَّاح في أطراف البحر الميت، فقال: « بالقُرب من البحرِ الميت، يوجدُ أشجارٌ تَطرحُ ثمارُ تُفَّاحٍ من النوع الجيد، ذي ألوانٍ جميلةٍ عند مُشاهدتها، ولكنْ إذا قطعَهُ أحدٌ أو قسمهُ إلى قسمين، فسوفَ يجدُ بداخلهِ فحماً ورماداً»[5]، وبالمُقارنة وردت الإشارة لهذا النوع من التُفَّاح عند الرحَّالة فون سوخم الَّذي قال: « إنَّ المنطقةَ حولَ البحر الميت مليئةً بالأشجارِ، وبثمارٍ عظيمة، وفائقة الجمال، إذا نظرتَ إليها، لكنْ عندما يجري قطفُ هذه الثمارُ وفتحها، أو تكسيرها، يجدُها الإنسان مليئة بالغُبار والرَّماد في داخلها، إلى حدٍّ أنَّ يد الإنسان الَّذي يقطفُها لا يمكنهُ التخلُّصَ من رائحة النتن المقيتة لمُدِّة ثلاثة أيام»[6].

- البلسم:

حدَّدَ الرحَّالة ماندڤيل مناطقَ وجود البلسم بين أريحا والبحر الميت، فذكر أنَّ في هذه المنطقة تُكثَرُ أشجار البلسم، التي يُستفادُ من جذورِها في تطعيمِ النباتات، ولا سيَّما في بابل[7] التي أخذَ كثيرٌ من أهلها جذوعاً من هذه الشجرة لهذا الأمرُ[8]، وبالمُقارنة وردت الإشارة فيما سبقَ إلى زراعة البلسم عند الرحَّالة دانيال الراهب الَّذي أشارَ إلى زراعته في ريف حيفا وجبالها وأوديتها[9].

- شجر البلوط[10]:

---

[1] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٧.

[2] بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٦٩.

[3] دانيال: وصف الأرض المقدسة، ص٦٢، ٧٥، ٩٢.

[4] ثيودوريش: وصف الأماكن المقدسة، ص١٠٥.

[5] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٥.

[6] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٧٠.

[7] إنَّ تسمية بابل أو بابليون، كان يطلقها الرحَّالة الغربيون في القرون الوسطى على الفسطاط في القاهرة.

[8] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٥.

[9] دانيال: وصف الأرض المقدسة ، ص١٢٠– ١٢٢.

[10] إنَّ التسمية الصحيحة لها هي شجرة الدلبة(Dirpe) أي شجرة الدلب(Plane tree) بالإنكليزية، ولكن تشتهرُ في النصوص الدينيَّة بتسمية بلوطة ممرا، وبالطبع شجر البلوط أو السنديان كما يُسمَّى في بلاد الشام لا علاقة له بالدلب.

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى وجودها في جبلِ ممرا بالقُرب من الخليل، وذكرَ أنَّها موجودة منذُ زمنِ إبراهيم، ويُسمِّيها الناس الشجرة الجافَّة، ويقولون: إنَّها موجودة منذُ بدايةِ العالم، وقد كانت يوماً ما خضراء ومليئة بالأوراق، ولكنَّها جفَّت عندما مات السيد المسيح على الصليب، وللشجرة قيمة كبيرة، وهي تحمي من كانَ مؤمناً من الوقوع في الآثام، فلا يكونْ حصانهُ أعرجاً، ولها فضائل عدَّة أُخرى، ولهذا فالناس ينظرونَ إليها بكثيرٍ من الاعتبار[١]، وبالمُقارنة وردت الإشارة فيما سبقَ عن شجرة البلوط عند الرحَّالة يُوحنا الورزبرجي الَّذي ذكرَ أنَّها تنموَ بالقُرب من الخليل[٢].

أوردَ الرحَّالة ماندڤيل إشارةً إلى وجودِ شجر الأرز الشاهق العلو، وعددٌ من أشجارِ السنديَان، والصُنوبر في هضاب لبنان بالقُرب من منابع نهر الأردن[٣]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ بقربِ بيروت بيروت سلسلة جبال تكسُوها أشجار الأرز، و السنديَان، والصُنوبر[٤].

3ً- التجارة:

تناولَ الرحَّالة ماندڤيل في رحلته الحديث عن بعضِ الأسواق التجاريَّة في بلاد الشام، وما تحتويهُ من المُنتجات المُتاجر بها، فذكر أنَّ مدينةَ دمشقُ مليئةٌ بكلِّ أنواع البضائع، ويَحملُ إليها التُجَّار بضائعَهُم على الجمالِ والبغالِ والخيولِ والهجن والدواب الأخرى، كما تصلُ إليها البضائع بحراً من الهند وإيران وأرمينيا والعراق ومن ممالك أُخرى عديدة[٥].

وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم، أنَّ مدينةَ دمشقُ غنيَّةٌ بجميعِ أنواعِ البضائع، وفيها وفرةٌ عظيمةٌ من الأطعمةِ، والتوابلِ، والأحجار الكريمة، والحرير، واللآلئ، والأقمشة المُذهَّبة، والعطور، التي تأتيها من الهند، ومن بلاد المغول، ومن مصر، ومن أماكنِ مِنْ أوربَّة تأتي عبرَ البحر المتوسط، وفيها جميع الأشياءِ الثمينة التي يشتهيها قلبُ الإنسان أو يتصوَّرها، وفيها عددٌ كبيرٌ من التُجَّار، وكلُّ تجارة مُقيمة بشكل مُستقلٍّ في شارعٍ خاصٍ، ويقومُ التاجر بعرض بضاعته بشكلٍ رائعٍ، غير أنَّهم يبيعونَ بضاعتهم بأثمان باهظة، وفي السوقِ التي تُباع فيه الأطعمة مُمكن رؤية أكبرَ حشداً من الناس، إذ تتوفرُ جميع الأطعمةِ التي يُمكنُ تصوّرها، وقد جرَى طبخُ كثيراً منه بشكلٍ فاخرٍ، وأهل دمشقُ يعتنونَ عنايةً كبيرةً بهذه الأشياء، ويبيعونَ كلَّ شيئاً بالوزن والميزان، وتُباع هُناك أنواع عديدة من الخبز[٦].

---

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص٩٨.

[٢] يوحنا: وصف الأراضي المقدسة، ص١٨، ٥٧، ٥٩.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٢٧.

[٤] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١١٣.

[٥] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤٣.

[٦] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٢- ٣٨٤.

وأشارَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ قوافل التجارة تأتي إلى دمشقَ من الهند، وذكرَ أنَّ مدينةَ دمشقُ مليئةٌ بالدكاكينِ، ولكلِّ حرفةٍ مكانِها، ولا يجوزُ للتاجر تغييرَ مهنته، فإذا كانَ الوالد بائعُ قماشٌ أو صائغٌ أو أي شيءٌ آخر وَجَبَ على بنيه وكلِّ ذُرِّيتِهِ امتهان صنعتَهُ، ولهذا السببُ ترى الأشياء بغاية الاتقان والجمال، وهُناك محلَّاتٌ لا تبيعُ إلَّا زهور البنفسج والورد، وهم يبيعونَ اللحم اللذيذ وطيور الحَجل[١]، بينما أشارَ الرحَّالة سيغولي أنَّ بدمشق عددٍ لا يُحصى من البضائعِ وكذلك المحلَّات التي لا يُمكن عدُّها، ولا يوجدُ مكان دون أن يوجد فيه دُكَّان، و المحلَّات فيها مُرتَّبة ونظيفة وكلُّها مُمتلئة بالبضائع، وذكرَ أنَّ في القُدس سوقاً تجارياً كبيراً، يُباع فيه الخُبز واللحوم[٢].

وبجانبٍ آخر أوردَ الرحَّالة ماندڤيل الإشارة لتجارة الياقوت، فذكر أنَّ على شاطئ صور يوجدُ الكثير من الياقوت الَّذي يستخرجهُ الناس ويبيعونَهُ، وفي وادي ممرا في الخليل يوجدُ حقلٌ يُخرِجُ منه الناس شيئاً من الأرض يُدعى كامبيل(Cambile) ويأكلونَهُ عوضاً عن البهارات ويحملونَهُ للبيع، كما أشارَ إلى أنَّه بالقُربِ من الخليل يوجد حقلٌ يُخرِجُ منه الناس تُربةً، ولا يلزمُ أنْ يحفُرَ الناسُ حُفرةً أو كهفاً، ولكنْ تخرجُ التُربة من الأرضِ بشكلٍ عميقٍ وواسعٍ، وفي نهايةِ العام تعودُ وتمتلئُ حتَّى حوافِهَا بقُدرةٍ من الله وفضله، ويوجدُ في المنطقة حولَ البحر الميت كثيرٌ من المُخلَّفات والقُطران التي يُتَاجِرُ بها الناس، كما يستخرجونَ من أطرافِهِ مادِّة الإسفلت[٣].

وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّه على مقربةٍ من الخليل يُوجدُ الحقل الَّذي صُنِعَ آدم من تُرابِهِ، وكلَّما ازدادَ حفرُ هذه الأرض ونُقلَ منها التربة، كلَّمَا امتلأ مُجدداً من قِبَلِ نفسهِ، وتُحمَلُ التُربة إلى بُلدانٍ نائية للبيع، و بالقُرب من عكَّا نهراً يُسمَّى نهر النعامين(نهر بعل) يجرفُ الرَّمل الزُجاجي الَّذي يستخرجُهُ السُكَّان ويبيعونَهُ إلى بلدان نائية[٤].

4ً- الصناعة:

أوردَ الرحَّالة ماندڤيل في رحلتهِ الإشارة إلى بعضِ الصناعاتِ التي اشتهرت فيها بلاد الشام خلالَ عصر دولة المماليك البحريَّة، فذكر أنَّ بالقُرب من مدينة عكَّا توجدُ حفرة مينون(Fosss of Mennon)، و لها شكلٌ دائري، وتبلغُ مساحتها مائة ذراع، وهي مفروشةٌ بالحصى البرَّاقة والمُشرقة التي يصنعُ منها الناس أواني شفَّافة وبرَّاقة، و كانَ الناس يأتونَ من أماكنٍ بعيدة ليأخذوا منها الحصى، إمَّا في السفنِ عبرَ الماء أو في العرباتِ براً، ومهمَا أخذوا كمياتً كبيرةً منها في يومٍ واحدٍ، تعودُ في اليوم التالي لتمتلئَ مرَّةً أُخرى، وكأنَّها لمْ تنقصَ أبداً، وهذه مُعجزةٌ عظيمةٌ كمَا يوجد فيها رياحٌ قويَّةٌ دائماً، تُحرِّكُ الحصى بشكلٍ دائم،

---

[١] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص٩٩، ١١١، ١١٢.

[٢] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٦، ١٣٨.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٥، ٩٧، ٩٨، ١٢٥.

[٤] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣١٦، ٣٤٥.

وتجعلهُ مُضَّطرباً، وبواسطة بعضِ المعادنِ يُمكن تحويلُ هذا الحصى إلى زجاجٍ، وأيضاً الزُّجاج المصنوعُ من تلكَ الحصى إذ أرادوا إعادته كحصى، فإنَّه يعودُ فوراً كما كانَ، ولهذا قالَ بعض الناس: بأنَّ هذا هو بالغُ حصى البحر[١].

وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ لكلِّ حرفةٍ بدمشقَ شارعاً خاصٌ، ويقومُ كلَّ حرفيٌّ– تبعاً لحرفته وبراعته– بتقديمِ عرض رائع لأعمالهِ أمامَ واجهة بيتهِ، ويظهرُ براعته وأفضلَ ما يُمكن أنْ يعملَهُ في ميدان حرفته، ويُحاول التفوّق على جيرانه إذا كان مُمكناً، ولهذا يُزيّنَ بيتهُ ويجعلهُ فخماً أكثرَ من التصوّر، وإنَّ أهلَ دمشقُ مُشتهرون بصناعةِ الأدواتِ الزُجاجيَّة[٢]، بينما ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ في مدينةِ الخليل مصنوعاتٌ زُجاجيَّةٌ مُتميّزةٌ[٣]، وأوردَ الرحَّالة سيغولي أنَّ أهلَ دمشقُ يصنعونَ أوعيةٌ وأوانٍ نُحاسيَّة، وزُجاجيَّة عليها رسومات أشخاص وأوراق من الفضَّة، ومهمَا باعوا منها فهُم يُجدِّدونَ ويصنعونَ بضائعٌ أُخرى مكانَهَا[٤].

وبجانبٍ آخر أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى صناعة النبيذ، فذكر أنَّ المسيحيين يصنعونَ في بيتِ لحم نوعاً من النبيذ الجيد[٥]، بينما ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ صيدنايا القريبة من دمشق تشتهرُ بصناعةِ النبيذ الفاخر الَّذي يصنعهُ المسيحيين الإغريق[٦].

ولمْ يُغفِل الرحَّالة ماندڤيل الإشارة إلى صناعة الحرير فذكرَ أنَّ المصنوعات الحريريَّة في عكَّا وبيت لحم، من أجود المنتوجات، وهي تُصدَّرُ إلى أنحاءٍ مُختلفة من العالم[٧]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة سيغولي أنَّ أهلَ أهلَ دمشقُ مشهورون بصناعة الأقمشة الحريرية من كلِّ شكلٍ ولونٍ، إضافةً إلى صناعةِ عددٍ من القباع الرفيعة حتَّى تبدو لدقَّتها وكأنَّها صُنِعت من الحرير، وهي موشَّحةٌ ومُقصَّبةٌ[٨].

إضافةً إلى ذلك أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى صناعةِ العطورِ وماء الورد، فذكرَ أنَّ أهلَ دمشقُ يشتهرونَ بصناعة ماء الورد، والعطور؛ لكُثرة بساتين الزهور والرياحين في ضواحيها[٩]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٧.

[٢] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٣.

[٣] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص٩٩.

[٤] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٨.

[٥] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٠.

[٦] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٩.

[٧] ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٧، ١٠٠.

[٨] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٨.

[٩] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٠، ١٤٤.

فريسكو بالدي أنَّ في دمشقَ يُصنعُ ماء الزهر الأجود في العالم[١]، وهذا ما أكَّده الرحَّالة سيغولي فقد أشارَ أنَّ بدمشقَ تُصنَعُ مئاتُ القواريرَ من ماءِ الورد[٢].

ج- ج- الحياة الاجتماعية:

يُعدُّ الرحَّالة الإنكليزي جون ماندڤيل من أكثر الرحَّالة الَّذين قدَّموا معلوماتَ عن الحياة الاجتماعية في بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، فتناولَ في رحلته الحديث عن فئات السُكَّان وأجناسهم، وأماكنَ سكنهم، وطبيعة حياتهم، و قوانينهم، وصفاتهم الشخصية وأخلاقهم، وبعضٍ من مُعتقداتهم ودياناتهم وأفكارهم، وفيما يأتي ذكرٌ لأهمِّ الفئات التي ذكرها، سواءٌ من حيثُ نمط المعيشة، أو مِنْ حيثُ التركيبة الدينيَّة:

1ً- البدو:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى أماكنِ سكنِهُم، فذكرَ أنَّهم يسكنونَ في صحاري الأرض المُقدَّسة، ويُدعَونَ الرُحَّل ويعيشونَ أوضاعٌ قاسيةٌ جداً، وليسَ لهُم منازلٌ وإنَّما خياماً، يصنعونَها من جلود الحيوانات، كالجمال أو من الحيوانات الأُخرى التي يأكلُونَها، وتحتَ هذه الجلودُ ينامونَ ويسكنونَ في مكانٍ حيثُ يوجدُ الماء، ويحدثُ غالباً أنَّهم عندما يجدونَ الماء مرَّة في مكان مُعين لا يجدونَهُ ثانيةً في نفسِ المكان، وبسبب ذلك فإنَّهم لا يمكثونَ هناك، وبجانبٍ آخر تطرَّقَ الرحَّالة لعملهم وصفاتهم، إذ أشارَ أنَّ هؤلاءَ القومُ لا يحرثونَ الأرض، ولا يشتغلونَ بأيِّ شيءٍ، لأنَّهم لا يأكلونَ الخُبز، وإنَّما في حالِ إقامتهم قُرب مدينة كبيرة يذهبونَ هُناك، و يأكلونَ الخُبز أحياناً، كما أنَّهم يشوونَ اللحوم والأسماك فوقَ أحجاراً ساخنة مُعرَّضة للشمس، وهُم أُناسٌ أقوياءٌ ويجيدونَ القتالَ، وعددهم لا يُحصى، وهم لا يهتمُّون بشيءٍ ولا يفعلونَ شيئاً سوى مُطاردةِ الحيوانات وأكلُهَا؛ ولذلك فإنَّهم لا يخافونَ الُسلطان ولا أيُّ أميرٌ، ويتجرؤونَ على مُحاربتهِ إذا فعلَ أيَّ شيئاً فيهِ ضيمٌ لهُم، وقد حاربوا السلطان مرات عدَّة، واحدة منها عندما كان الرحَّالة ماندڤيل بصحبتِهِ، وأضافَ ماندڤيل أنَّهم لا يحملونَ شيئاً سوى درعٍ واحدٍ ورمحٍ واحدٍ، دونَ أيَّة أسلحة أُخرى، ويلفُّونَ رؤوسهم وأعناقهم بكميَّة كبيرةٍ من قماش الكتَّان الأبيض، كما أنَّهم يُعدُّونَ شرسين وكاسرين، ذوي طبيعة ضارية[٣].

ضارية[٣].

وبالمُقارنة وصفَهُم الرحَّالة فون سوخم بالحيواناتِ المتوحِّشة، وذكر أنَّهم يتجوَّلونَ على شكلِ جماعاتٍ مُكوَّنة من مئاتٍ أو آلافٍ مع بعضهم، ويسكنونَ في خيامٍ مصنوعة من اللبَّاد أو الجلود، ويأكلونَ حليب نوقَهُم ومواشيهم، ولا يأكلونَ الخُبز ما لمْ يَصدفْ ويُعطيهم الحُجَّاج بعضهُ، وهم يَرعُونَ الماشية، ذلك أنَّهم لا يبذرونَ ولا يحصدونَ، بل يعيشونَ مثل الحيوانات الأليفة، و وجوههم مُرعبة سوداء ومُلتحية، وهم

---

[١] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١١١، ١١٢.

[٢] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٦.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص٩٥، ٩٦.

شُجعانٌ وسريعونَ جداً، ويستخدمونَ القُسِيَ والنشاب، ولا يهتمُّونَ مُطلقاً بالسُلطان، ولا يُقدِّمونَ إليه أيَّة طاعة، لكنْ السُلطان يُحاولُ إغراءهُم وإسكاتَهُم بالهدايا[١].

2ً- السامريون:

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ السامرة هي المركزُ الكهنوتي الأساسي لجماعة يهوذا، وهؤلاء يُبجِّلُون الهيكل المُقدَّس في المدينة، و يَلفُّون رؤوسهم بقماشٍ أصفر، و يسُكن أكثرهم في السامرة، ويدفعون الجزية للمُسلمين كما يفعلُ المسيحيين، و أضافَ ماندڤيل أنَّ قسماً من هؤلاء أُدخِلَ في المسيحية وعُمِّدَ، وهم يعتقدونَ بإلهٍ واحدٍ ويقولونَ: إنَّه لا يوجدُ غيرُ ربٍّ واحد خلقَ كلَّ شيئاً وسيُنهي كلُّ شيئاً، وهم يحملونَ الإنجيل بعد الرسائل، ويستعملونَ كتاب المزامير كاليهود، ويقولونَ: أنهم أولادُ الله الحقيقيين، ويقولونَ: أنَّهم أكثرُ الشعوبَ قُربى إلى الله، وإليهم سوفَ يعودُ ميراثُ الله الَّذي خصَّصهُ لأولاده المحبوبين، كما أنَّ لهُم لباساً وأشكالاً مُختلفة عن باقي الشعوب، فإنَّهم يلفُّون رؤوسهم بقماشٍ قُطنِيٍّ أبيض[٢].

وبالمُقارنة كانَ الرحَّالة بنيامين التطيلي قد فصَّل في الحديثِ عن السامريين، وعن أماكنِ سكنهم، وعن عقيدتهم وأخلاقهم، فذكرَ أنَّ قسماً كبيرٌ منهم يُسمَّى الرابيين ويسكنونَ في عسقلانَ، وقسمٌ آخر يُقيمُ في نابلس ويُعرفونَ باسمِ السامريين الكوتين، ويتبعونَ أسفارَ موسى عليه السلام، ولا يؤمنونَ بغيرها، وعندهم الكهنة، وهُم يعتزلونَ سائرُ البشرَ، ولا يتزوَّجونَ بنات نحلتهم، ويُلقِّنونَ الناس شعائرهم الخاصة، وينحرونَ الأضاحي في وقفة عيد الفُصح على مذبحٍ لهُم في فلسطين، وادَّعوا أن قبرَ يوسفُ بن يعقوب عليهم السلام عندهم، ولهم كتابة خاصَّة بهم ينقُصَها ثلاثة أحرف هي الحاء والهاء والعين، ويعوِّضونَ عنها بحرف الألف، وعلى هذا فليس في لغتهم لفظة الإحسان أو الهدى أو التواضع، كما أنَّهم لا يستطيعونَ أن يقولوا إبراهيم أو إسحاق أو يعقوب، وهذه الحروف ناقصة في توراة موسى التي عندهم، وهم يبتعدونَ عن كلِّ ما يُدنِّسَهُم، ولا يقربونَ ميتاً أو عظماً بشرياً أو جثةً أو قبراً، وإذا قصدوا أماكنُ عبادتَهُم انتضوا عنهُم أثوابهم، واغتسلوا بالماء واستبدلوهَا بأثوابٍ غيرها، وهذا جاري عادتَهُم يومياً[٣].

3ً- المسيحيون:

تناولَ الرحَّالة ماندڤيل في رحلتهِ الحديث عن أماكنِ سَكنَ المسيحيين، وشعائرَهُم، و أخلاقَهُم، ومعتقداتَهُم، فذكر أنَّ مدينة بئر السبع الواقعة على طريق القُدس للقادم من صحراء سيناء في مصر، مليئة بالمسيحيين، وفيها العديد من الكنائسِ، وإنَّ كلَّ الَّذينَ سكنوا في بيت لحم كانوا مسيحيين، وهم خونةٌ مُخطئين، بينما يقيمُ عددٌ من ملوك القُدس المسيحيين فوق جبل الجلجلة، أمَّا الَّذين يسكنونَ في الأريافِ

---

[١] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٤٣، ٣٤٤.

[٢] ماندڤيل: أسفار السير، ص٩٦، ٩٧، ١٣١.

[٣] التطيلي: الرحلة، ص٢٤٤، ٢٤٥، ٢٦٢.

منهم يلفُّونَ رؤوسهم بقماشٍ أزرق من الهند[١]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ المسيحيين يُكثرونَ في منطقة جبل لبنان، ويسيرونَ وفقَ الطقوس اللاتينية، وأنَّ سكان بيت لحم كلَّهُم تقريباً مسيحيين[٢].

ومن جهة أُخرى أشار الرحَّالة ماندڤيل أنَّ للمسيحيين مِللٌ وأسماءٌ، وكلُّهم كانوا قد عُمِّدُوا، ولديهُم قوانينهُم المُختلفة، ولباسهُم المُختلف، ولكنَّهم كلَّهُم يؤمنونَ بالربِّ الأب، والربِّ الابن، وروح القُدس، ولا يؤمنون بأُخرى، ومن هذه المِللُ:

***– اليعاقبة:**

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّهم سُميُّوا بذلك نسبةً للقدِّيس يعقوب، لأنَّه كانَ قد حوَّلَهُم للمسيحية، وعمدَّهُم القدِّيسُ يُوحنَّا، وهُم يقولون: أنَّ الإنسان يجبُ أنْ يعترفَ لهُ فقط وليس للإنسان، وبأنَّ لله وحدهُ ينبغي للإنسان أن يعترفُ بأنَّه مُخطئٌ في حالِ ضلَّ السبيل، وأنَّ الله لمْ يُعيّنَ أيُّ كاهنٌ، ولمْ يورِّثَ أيُّ نبيٌّ ليُحلِّلَ الناس من خطاياهم(كما يقولون)، ولكنْ يجبُ فعلُ هذا لله وحده، كما كتبَ موسى في التوراة، وكما قال داوود: في المزامير؛ وذلك لأنَّهم يعرفونَ التوراة و المزامير، لذلك يَزعمُونَ بأنَّهم يتَّبعونها، كما أنَّهم يدعونَ بعدمِ ضرورة المرجعية للغة اللاتينية، إذ إنَّ لغتهم واضحة تماماً، ويقولونَ: بأنَّ داوودَ وأنبياءَ آخرين قالوا كذلك، وإنَّ الإنسانَ يجبُ أنْ يُطلعَ اللهَ وحدهُ على أخطاءهِ، ويعترفُ بذنوبهِ ويبكي ويطلبُ منه الرحمة، ولذلك عندما يحلُّونَ أحداً من خطاياه يجلبونَ ناراً، ويضعونها بالقُربِ منه، وينثرونَ فيها مسحوقاً من البخُّورِ، وفي الدُّخان المُتصاعد تذهبُ خطاياه إلى الله، فيُعطيه بدلاً منها رحمة[٣]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ أعدادَهُم قليلةٌ، و كنائسهم صغيرة، وهي موجودة بكُثرة في بيت لحم[٤].

***– السريان:**

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل بأنَّهم يؤمنونَ بنفسِ عقائد اليعاقبة، ومنهم اليونانيين ولهُم لحى كاليونان تماماً، ويصنعونَ سرَّهم المُقدَّس من الخُبزِ، وفي لغتِهُم يستعملونَ الأحرف العربية، ولكنْ بعدَ غموض الكنيسة المُقدَّسة، أصبحوا يستخدمونَ الأحرف اليونانية، ويعترفونَ بخطاياهم تماماً كما يفعل اليعاقبة[٥].

وبالمُقارنة كانَ الرحَّالة الألماني بورشارد أوَّلُ من تناولَ السريان بالذكر، فأشارَ إلى أنَّ البلادَ مليئةٌ بهم، وهم بخلاء، ويسكنون بين المسلمين، ويرتدونَ من الملابسِ مثلهم، ويتميَّزونَ عنهم بحزامٍ صوفيٍّ فقط [٦].

***– الجورجيون:**

---

١ ماندڤيل: أسفار السير، ص٩٦، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٥، ١٣١.

٢ سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٠١، ٣٤٧.

٣ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤٠، ١٤١.

٤ فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠١.

٥ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤١.

٦ بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ص١٧٣.

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ من بشَّرهُم بالمسيحية هو القدِّيس جُورج، وأصولهم من جورجيا، وهؤلاء الناسُ لهُم جُمَّات شعر محلوقة، فالمُحاسب له جُمَّة دائرية الشكل، والفاسقون لهم جُمَّات مُربعة، وهم يتبعونَ القانون المسيحي، كما يفعلُ السريان[١]، وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ أكثر هؤلاء يسكنون في القُدس، ولهم شيوخهم الَّذين يتولُّون الإشراف على مفاتيح بيعة الضريح المُقدَّس في مدينة القدس[٢].

***- المحزَّمين:**

أوردَ الرحَّالة ماندڤيل بأنَّهم سُمِّيوا بذلك؛ لأنَّهم يرتدون الأحزمة[٣]، بينما ذكرَ الرحَّالة فريسكو بالدي أنَّ كثيراً منهم يَقطنُ في ديرِ صيدنايا، إذ إنَّ أغلبَ سُكَّانُهَا من المسيحيين المُحزَّمين[٤].

***- النساطرة:**

ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ أعدادَهُم كثيرةٌ، ومنهم قسم يُدعى بالآريانيين، ومنهم النوبيين، واليونان، وآخرون من الهند، وبعضَهُم من أرضِ الراهب يُوحنَّا، وكلُّ هؤلاء لديهم قوانين ومعتقدات[٥]، وبالمُقارنة أشارَ الرحَّالة فون سوخم إلى أنَّ هؤلاء يُقيمونَ في الجبلِ الأسود في لبنان، وجميعَهُم مُرتبطين بالكنيسة في روما، ومتمسِّكينَ بالعقيدة اللاتينية[٦].

4ً- المسلمون:

فصَّل الرحَّالة ماندڤيل في رحلته بالحديث عن المُسلمين، فتطرَّقَ إلى ذكرِ معتقداتَهُم وأماكنَهُم المُقدَّسة وأعيادَهُم، وصفاتَهُم ونعوتَهُم، ولغتَهُم، وفيما يلي دراسة لِمَا أورده الرحَّالة:

***- مُعتقداتَهُم – أماكنَهُم المُقدَّسة:**

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى أنَّ المسلمين لا يشربونَ النبيذُ أبداً، وفقاً لقانونِ كتابَهُم المقدَّس الَّذي يُحرِّمُ عليهم شُربه، لأنَّ في هذا الكتاب لعنَ الله كلَّ من يشربَ النبيذ؛ إذ إنَّ بعضَ الرجالُ قالوا: بأنَّه مرَّةً قتلَ رجلٌ أحدَ الأحبار وكانَ القاتلُ ثَمِلاً، وكان مُحمَّد(ﷺ) يحبُ المقتول كثيراً، ولهذا لعنَ النبيذُ وكلَّ من يشربَهُ، وبجانبٍ آخر فإنَّ المُسلمين لا يجلبونَ أياً من الخنازيرِ، ولا يأكلونَ شيئاً من لحمِهَا، وذلك بأنَّهم يقولون: إنَّه أخٌ للإنسان، ويعدُّونَ أكلَهُ شيئاً بغيضاً جداً ومكروهاً، وهم لا يأكلونَ إلَّا القليل من لحمِ العجل أو البقر، إلَّا إذا كانت كبيرة في السنِّ فلا يُمكنها التنقُّل لكبرها؛ لأنَّ هذا مُحرَّمٌ، وأيضاً لأنَّهم ليس لديهم إلَّا القليل منها.

---

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤١، ١٤٢.

[٢] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٥٨.

[٣] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤٢.

[٤] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠١، ١٠٩.

[٥] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٤٢.

[٦] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٨٩.

وكتابُهُم المُقدَّس يُسمَّى القُرآن، وبعضُهم يُسمُّونَهُ مصحفاً، وآخرون يُسمُّونَه حُرمَة؛ وذلك وفقاً لاختلاف لغُة البلد، وهذا الكتابُ هو الَّذي هداهُم به مُحمَّد(ﷺ)، وإذا سألَهُم أحدٌ ماذا يعنون بالجنَّة؟، يقولونَ: إنَّ الجنَّة هي ذلك المكان المُضيء حيثُ يجدُ الناسُ كلَّ أنواعَ الثمار في كلِّ الفصولِ، وتجري فيها الأنهار بحليبٍ وعسلٍ، وبخمرٍ ومياهٍ عذبة، وبأنَّه سيكونَ لهُم فيها بيوتٌ جميلةٌ وفخمةٌ، وكلُّ إنسانٌ لهُ فيها أرضُهُ، وجُعِلت من أحجارٍ كريمةٍ وذهبٍ وفضَّة، وبأنَّ كلَّ رجلٌ سيكونَ لهُ أربع زوجات عزباوات، وبأنَّه ينتابهنَّ كلَّ يوماً، ودائماً يجدهُنَّ عذراوات.

كما أنَّ المسلمينَ يعتقدونَ ويتكلمونَ بخيرٍ عن مريم العذراء، ويقولون: بأنَّ مريم عُلِّمت على يدِ ملاك، وبأنَّ جبريل قال لها: بأنَّها قد أُختِيرت من بدايةِ الخلق وقد أراها تجسيد عيسى المسيح، وبأنَّها حملت ووضعت ولدها وهي عذراءٌ، كما يقولون: بأنَّ يسوعَ تكلَّمَ عند ولادته، وبأنَّه كانَ نبياً كريماً وصادقاً بكلماتهِ وأفعالهِ، وإنَّه كانَ مسكيناً ومُستضعفاً، كما أنَّه كانَ على حقٍّ ومُطهَّراً من الرذائلِ والعيوبِ، كما يقولونَ: بأنَّ اليهودَ ملعونون؛ لأنَّهم حرَّفوا دين الله بعدما أُرسل لهم مع موسى، وأنَّ المسيحيين ملعونون أيضاً، لأنَّهم لمْ يحفظوا الوصايا والأوامر التي علَّمهم إياها إنجيل يسوع المسيح، وهم لا يسمحونَ لأيَّ رجلاً مسيحي أو يهودي أنْ يأتيَ إلى أماكنهم الدينية، لأنَّهم يقولونَ: بأنَّ المُفسدينَ والمخطئينَ يجبُ ألَّا يأتوا إلى مكانٍ مُقدَّس.

وهُم يصومونَ شهراً كاملاً في السنة فلا يأكلونَ شيئاً في النهار، وإنَّما يأكلونَ فقط في الليل، كما أنَّهم يبقونَ بعيدينَ عن زوجاتِهم طوالَ الشهر، ولكنْ الناس المرضى لا يُجبرونَ على الصيامِ، والقُرآن عندَهُم شرَّع بأنْ يتزوجَ الرجلُ زوجتان أو ثلاث أو أربع، لكنَّهم الآن يتزوجونَ تسعاً، ومن الجواري يأخذونَ ما يريدونَ، و إذا عصَتْ واحدة من هذه الزوجات زوجَها يُمكنُ له أنْ يطرحَهَا خارج البيت، وينفصلُ عنها ويتَّخذُ غيرها، ولكنْ يجبُ أنْ يُعطيَهَا من مُمتلكاته[١].

وبالمُقارنة فقد خالفَ الرحَّالة فون سوخم ما ذكرهُ ماندڤيل، فأشار إلى أنَّ المُسلمين يشربونَ الخمر، فقال: « وفي عكَا، وبعدَ تحريرَها، أقامَ فيها المسلمين، وكانوا بمثابة حامية للمدينة، وهؤلاء المرتزقة لديهم شغفٌ بالألمان، فعندما يُلاحظون وجودهم من خلالِ مظهرِهُم، يسيرونَ إليهم مُباشرة، ويشربونَ الخمرة معم بعُمقٍ، على الرُّغم من أنَّها محرمة بشريعتهم، وهناك نوعٌ منهم يسكنُ في الناصرة يُسمَّونَ بدهيسٍ، هُم أكثرُ الناسَ شروراً وسوءاً »[٢].

[١] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٠، ١٠١، ١١١، ١١٣، ١٥٥– ١٥٩.

[٢] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣١٣، ٣٧٨.

وفي الوقتِ الَّذي أغفلَ فيه الرحَّالة ماندڤيل الإشارة إلى أعيادِ المُسلمين، يُلاحظ أنَّ الرحَّالة فريسكو بالدي قد ذكرَها في رحلتهِ، فأشار إلى أنَّ المُسلمين يحتفلون في شهر أكتوبر(تشرين الأوَّل) لمُدَّة ثلاثة أيام[1]، وهو عيدٌ للنبي إبراهيم عندما أرادَ التضحية بابنه إسحاق، ويصومُ المسلمينَ شهراً قمريَّاً واحداً، وفي شهرِ الصوم لا يأكلونَ ولا يشربونَ، ولكن في الليلِ يأكلونَ اللحم ويحتفلونَ، وهم يُكنُّون احتراماً وتبجيلاً للسيدة العذراء، ويموِّلونَ الرهُبان في بيتِ لحمٍ في مصاريفِهُم[2]، وهذا ما ذكرهُ الرحَّالة سيغولي فأشار إلى أنَّ في دمشقَ يوجدُ كلُّ شيئاً ماعدا النبيذ، لأنَّه مُحرمٌ في دينهم، وهم يصومونَ شهراً ومدَّتهُ ثلاثين يوماً، ولا يأكلونَ ولا يشربونَ حتَّى المساء، وعندما تظهرُ النجومَ في السماءِ يبدؤونَ بأكلِ اللحوم، ويستمرون في الأكلِ كلِّ الليل، ويدورُ في كلِّ حيٍّ شخصٍ في الليل ثلاث مرّات مع دفٍّ يدقُّ عليه مُنادياً الناسَ بأسمائَهُم: قومُوا ولا تنامُوا[3].

***- صفاتُهم ونعوتُهم:**

درجَ الرحَّالة الأجانب على نعتِ المُسلمين بصفاتٍ سلبيةٍ عدَّة، ويُعدُ الرحَّالة ماندڤيل واحداً منهم، إذ نعتَ المُسلمين بصفاتٍ تُعبِّرُ عن حقدهِ عليهم، فوصفهم بأنَّهم:

- مُغتَصِبُون:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل إلى أنَّ الأراضي المُقدَّسة هي من حقِّ المسيحيين، وإنَّ المسلمين اغتصبوها من أصحابها الحقيقيين، وعبَّر عن ذلك بقوله: « يسكنونَ في القُدس منذُ أكثرِ من أربعين عاماً، ولكنْ لنْ تبقَى معهم طويلاً إنْ شاء الله، وهؤلاء يوجدُ بأيديَهُم بعضَ قبورِ الرجال القدِّيسين والنُسَّاك المُقدَّسين، الَّذين تحدَّثَ عنهم كتابُ حياةَ أبينا، ولكنْ عندما يشاءُ الربُّ القدير، وكما ضاعت الأراضي من أيادي المسيحيين بسبب خطيئتهم، سوفَ يغنمونَها ثانيةً بالرجال المسيحيين، وبمساعدة الرب»[4].

وبالمُقارنة وردت الإشارة إلى ذلك عند الرحَّالة فون سوخم، الَّذي ذكرَ أنَّ المسلمينَ قاموا باحتلال قمة جبل الطور، مع الدير فوقَهُ، ثمَّ ذكرَ تحريرُ عكا مِنْ قِبَلْ المُسلمين، و نوَّه أنَّها من حقِّ المسيحيين وأنَّ المُسلمين مُغتَصِبُونَ لها، وليست من حقِّهم، فقال: « عملَ المسلمون بعدَ دخول عكا على اجتثاث، وتدمير الأسوار، و الأساسات، لكنْ إذا سمحَ الربُّ، مِنَ المُمكن- بعناية كبيرة- استردادُها وترميمُها، و إعادتُها إلى أوضاعها الماضية»[5].

---

[1] الحقيقة هو أربعةُ أيام، وهو عيد الأضحى، ولا يُصادف كما ذكرَ بالدي في شهر أكتوبر تحديداً، بل حسب ما تُصادف الشهور القمرية بما يقابلها من شهور شمسية.

[2] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص٩٩، ١٠١.

[3] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٢٥، ١٣٩.

[4] ماندڤيل: أسفار السير، ص١٠٤، ١٠٧.

[5] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣١٣، ٣٧٩.

بينما وردت الإشارة إلى ذلك بصفةِ اللصوصيَّة في رحلة فريسكو بالدي، فذكر أنَّ المُسلمين لصوصٌ، وذلك عند حديثِهِ عن الكنيسة الواقعة بين نهر الأُردن وأرض أريحا، فقال: « وعلى نهرِ الأُردن وجدنا كنيسة القدِّيس يُوحنَّا المعمدان، وهي جميلةٌ ومتينةٌ لكنَّها بحاجة لأنْ تُحمَى بالأسوارِ، ذلكَ أنَّها تقعُ في منطقةٍ فيها أعتَى لصوصُ تلكَ المنطقة وهم المسلمون، وبتنا الليلَ هُناك، وكانَ علينا أنْ نحرُسَ المكان كلَّ الليل»[1].

– **همجيون ومدمرون:**

وهي صفةٌ اعتادَ الرحَّالة الأجانب ومنهم ماندڤيل، أنْ ينعتوا بِها المُسلمين، ليُبيّنوا أنَّهم قاموا بتدميرِ الأراضي والمدن عن قصدٍ، ليحرمُوا أصحابها الحقيقيين(المسيحيين) من سكنِهَا، وتجلَّت هذه الصفة في رحلة ماندڤيل عندما تحدَّث عن مدينة صور، وعكَّا، وحيفا، وبيت عنيا، وأريحا، وكنائس عدَّة، فقال: « ومدينة صور تُسمَّى الآن سورية كانت في ما مضَى مدينةٌ عظيمةٌ لكنَّ المُسلمين دمَّروا مُعظم أجزائها، وأبقوا على المرفأِ خوفاً من المسيحيين، وعكَّا كانت مدينة الناس المسيحيين المليئينَ بالعدلِ، ولكنَّها دُمِّرت بالكامل الآن، أمَّا حيفا كانت مدينةٌ جميلةٌ، ولكنَّها دُمِّرت بالكامل الآن، وتوجدُ بينَ بيتَ عنيا وأريحا كنيسةٌ، لكنَّ المسلمين دمَّروها بالكامل، وبالقُرب من جبلِ طابور كان يوجد مدينة وكنائس عدَّة لكنَّها دُمِّرت من قِبَلْ المسلمين»[2].

وبالمُقارنة ذكرَ الرحَّالة فون سوخم أنَّ المُسلمين قاموا بقطعِ جميع أنواعِ الكروم و الفاكهة حولَ عكَّا عند مُحاصرتهم لها، وشعَّثوا جميع الحدائقِ والبساتين المُحدقة بها، وهجموا المدينة لمُدَّة أربعين يوماً دون توقف بالنار والحجارة والسهام، وقاموا بإحراق المدينة القائمة بين الأسوار كلِّهَا، ودمَّروا جميع الأسوارِ والأبراج والقصور، كما أنَّهم قاموا بتدمير مُدن جبل الكرمل بعدَ أنْ كانت فيما مضَى جميلةٌ، وقاموا بتدمير قيساريَّة كلياً، كما قامَ السلطان المملوكي بتدمير مرسى مدينة يافا؛ خوفاً من ملك فرنسا، ثمَّ قاموا بتدميرِ مدينة صيدا بشكلٍ كامل[3]، بينما أشارَ الرحَّالة سيغولي أنَّ مدينة بيت لحم في عهده مُدمَّرة بعدَ أنْ كانت كبيرة، إذ دمَّرها المُسلمين[4].

*– **اللغة:**

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل في رحلتهِ إلى اللغةِ السائدة في بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، فذكر أنَّ اللغة العربية هي اللغةُ المُتداولة، وأحرفها هي الألف، باءٌ تاءٌ،...، وأوردَ أنَّ عند العرب أربعةَ

---

[1] فريسكو بالدي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٠٨.

[2] ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٤– ٦٦، ١٢٣، ١٣٦.

[3] سوخم: وصف الأرض المقدسة، ص٣٠٢، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٣، ٣١٧.

[4] سيغولي: رحلات إلى الأراضي المقدسة، ص١٣٥.

أحرف زيادة عن الآخرين، وذلك لاختلاف لُغتهم وكلامهم؛ لأنَّهم يتكلمونَ من حلوقهم، وإنَّ في انكلترا يوجدُ حرفان زيادة عن أبجدية العرب، وهما حَرفان لا يُمكن كتابتَهُما، ويُسمَّيان شوكةgh 30[١].

د- ج- الحياة السياسية:

أشارَ الرحَّالة ماندڤيل في رحلتهِ إلى بعضِ جوانبِ الحياة السياسية في عصر دولة المماليك البحريَّة، فتناولَ بالذكر سلاطين المماليك وسكنَهم، مع إشارتهِ إلى بعضِ الأحداث السياسيَّة والحربيَّة في عهدِ كلِّ واحدٍ منهم، فذكرَ أنَّ السُلطان المملوكي يسكنُ في قلعةٍ[٢] جميلةٍ، قويَّة وعظيمة، شُيِّدت فوقَ الصخر، و يسكُن في هذه القلعة أكثرُ من ستة آلاف شخص لحمايتها وخدمة السلطان، وهؤلاء يأخذونَ كلَّ احتياجاتهم من قصرِ السلطان، ويبدو أنَّ الرحَّالة يعرفُ هذه الأمور جيداً بدليل قوله: « أعرفُ هذا جيداً لأنَّي بقيتُ معه كجُندي لمدَّة طويلة في حربهِ ضدَّ البدو، وكانَ من المُمكن أن يزوِّجَني بنتَ أحدَ الأُمراء، لو كنتُ تخلَّيتُ عن إيماني واعتقادي»[٣].

وأضاف الرحَّالة ماندڤيل أنَّ السُلطان هو الملكُ على خمسِ ممالكٍ، وقد حصلَ عليها كلِّها بالقوَّة والاقتدار، وهي مملكة مصر، وفلسطين، وسورية، وحلب، والمملكة العربيَّة، وفوقَ ذلكَ كلِّهُ كان تحتَ إمرتهُ خُلفاء، وهذا يعني في لغُتهم أشخاصاً ذوي رفعة وشأناً، أي تقريباً مثلَ الملك[٤].

وذكر الرحَّالة ماندڤيل أنَّ أوَّلَ سلاطينُ المماليك هو الملك الصالح[٥]، وفي وقته دخلَ إلى البلدِ لويس[١] ملك فرنسا[٢]، وقاتلهُ ثُمَّ أخذهُ السُلطان أسيراً[٣]، وبعدها قُتل هذا السلطان على يد خدمه، واختاروا سُلطاناً

---

١ ماندڤيل: أسفار السير، ص١٦٣.

٢ المقصود قلعة الجبل، وتقعُ هذه القلعة على قطعة من الجبل، وهي تتصل بجبلِ المُقطم، وتشرفُ على القاهرة والنيل والقرافة، فتصبحَ القاهرة في الجهة البحريَّة منها، والقرَّافة في الجهة القبلية الغربية، والنيل الأعظم في غربيها، وجبل المقطم من ورائها في الجهة الشرقية، أنشأها السُلطان الملك الناصر صلاح يوسف بن أيوب على يد الطواشي بهاء الدين صندل الأسدي سنة(٥٧٢هـ/١١٧٦م)، وصارت من بعدهِ دار المُلك بالديار المصرية طوال العصر المملوكي. ابن عبد الظاهر: الروضة البهيَّة، ص١٣٠، ١٣١؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٣٤، ٣٥.

٣ ماندڤيل: أسفار السير، ص٦٩.

٤ ماندڤيل: أسفار السير، ص٧٠ .

٥ أخطأ الرحَّالة ماندڤيل عندما ذكرَ أنَّ الملك الصالح أيوب هو أوَّلُ سلاطين المماليك، والواقع أنَّه أحدُ أواخر الملوك الأيوبيين، كمَا أخطأ عندما ذكرَ أنَّه قُتِلَ على يد خدمهِ، و الصالح: هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السُلطان الكامل محمد بن العادل، استنابه والده على مصر سنة(٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، وتوفي فيها سنة(٦٤٨هـ /١٢٥٠م). أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٨٢، ١٨٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٦٩-٣٨٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٨٧-١٩٣؛ ابن القيسراني(إبراهيم بن عبد الرحمن): النور اللائح والدُّر الصادح، تح: عبد السلام تدمري، دار الإنشاء، طرابلس، ط١، ١٩٨٢م، ص٥٥، القلقشندي: مآثر الإنافة، ج٢، ص٩٣.

سُلطاناً آخر سمُّوه تورا نشاه[٤]، الَّذي أخرجَ القدِّيس لويس من السجنِ مُقابل فدية، وبعد ذلكَ تسلَّم واحد من هؤلاء المماليك الحُكم ويُدعى قطز، إذ قتلَ تورانشاه ليُصبحَ سلطاناً وسمُّوهُ الملك المظفر[٥].
وبعد ذلك أتى الَّذي دُعِيَ البندقداري[٦] والَّذي قتلَ الملك المُظفَّر، ليُصبحَ سلطاناً، وأسمَى نفسه الملك الظاهر، وفي عهده دخل الملك إدوارد ملك إنكلترا إلى سوريا، وسبَّبَ أذى كبير للمسلمين، وبعد ذلك سُمِّمَ السلطان في دمشق[٧]، وظنَّ ابنه بأنَّه سيلي الحُكم بعده بالوراثة وأن يُسمَّى الملك السعيد[٨]، ولكنَّ شخصاً

---

[١] هو الملكُ لويس التاسع، قادَ الحملة الصليبية السابعة على دمياط، وقع بالأسر أثناء الحملة، ثمَّ أُطلق سراحه وتوجَّه إلى بلاده وتوفي بالطاعون سنة(٦٦١هـ/١٢٦٢م). اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص١٩٩-٢١٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ١٠، ص٣١٣-٣١٦.

[٢] في سنة(٦٤٨هـ/١٢٥٠م) قادَ ملك الفرنج لويس التاسع عساكره، وجموعه إلى ثغرِ دمياط، فانطلقت الحملة من أوربة، وتوقَّفت قليلاً بجزيرة قبرص ثمَّ تابعت سيرها فوصلت إلى دمياط في السنة ذاتها، وخرجَ الملك الصالح نجم الدِّين أيوب بعساكره إلى المنصورةِ وجرَّدَ إلى دمياط جماعة من الأمراء الكنانية لحمايتها لكنَّهم أخلوها، فاستولى عليها الفرنسيس، وهذه هي الحملة التي عرفت بالتاريخ باسم الحملة الصليبية السابعة. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٦؛ ابن أيبك الدواداري: الدّر المطلوب، جـ٧، ص٣٦٥-٣٧٠؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ص٤٣٨، ٤٣٩.

[٣] وقعَ لويس التاسع، وأخوه ألفونسوا كونت بواتو بالأسر، بالإضافةِ إلى أعدادٍ كبيرة من الصليبيين. النويري: نهاية الأرب، مج٢٩، ص٣٥٦.

[٤] الملك المُعظم تورانشاه بن الصالح نجم الدِّين، قتلهُ المماليك البحرية سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م). ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٨، ٣٩؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص١٣٤-١٣٦؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٤٢٦-٤٣١؛ جوانفيل(جان دي): مُذكرات جوانفيل، تر: حسن حبشي، دار المعارف، مصر، ١٩٨٦م، ص١٦٣-١٦٥.

[٥] ماندڤيل: أسفار السير، ص٧٠. أخطأ الرحَّالة ماندڤيل، إذ إنَّ تورانشاه لمْ يكن سُلطاناً مملوكياً، وبعد وفاة والده الصالح نجم الدين أيوب تزوَّجت شجر الدر من عز الدين أيبك الَّذي عُدَّ أوَّلُ سلاطين المماليك البحرية.

[٦] بيبرس بن عبد الله، السُلطان الملك الظاهر تسلَّم منصب أتابك العسكر بمصر أيام المُظفَّر قطز، ثمَّ انقلب على قطز وقتله وتولَّى السلطنة، وتلقَّب بالملك القاهر ثمَّ الظاهر، وقامَ بإحياء الخلافة العباسية بالديار المصرية، مرض مرضاً شديداً، أدَّى إلى وفاته سنة(٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م). ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٢٢٢-٢٢٦؛ المنصوري: زبدة الفكرة، ص١٦٠-١٦٢؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٤٩-٥١؛ ابن عباس(شافع بن علي): حسن المناقب السريَّة المنتزعة من السيرة الظاهرية، تح: عبد العزيز الخويطر، مطبعة سفير، الرياض، ط٢، ١٩٨٩م، ص٣٣٥-٣٤١.

[٧] أخطأ الرحَّالة ماندڤيل، فالسلطان الظاهر بيبرس لمْ يُسمَّم، إنَّما توفي نتيجةَ مرضاً ألمَّ به.

[٨] محمد بن بيبرس، السُلطان الملك السعيد، ناصر الدِّين، أبو المعالي بركة خان، سلطَنهُ والده وعمره خمس سنين، وبُويعَ له بالمُلك وعمرهُ ثمان عشرة سنة، تقنطر من على فرسهِ وهو يلعبُ بالكرة، فتوفيَّ على أثرها، وقيلَ: سُمَّ فمات وكان ذلك سنة(٦٧٨هـ /١٢٧٩م). ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٨٧؛ الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٦٩؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٤٢، ١٤٣؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٥، ص٤٥٩.

آخرٌ يُدعى الألفي[١] طردهُ خارج البلاد وعيَّنَ نفسهُ سلطاناً وأخذ مدينة طرابلس[٢]، ودمَّرَ كثيراً من المسيحيين، في سنة العفو(٦٨٨هـ/١٢٨٩م) وبعدها سُجِنَ من قبلِ سُلطانٍ آخر، وبعدَ فترة قصيرة قتله من سجنه، وبعد ذلك كان ابن عمَّ الألفي[٣] قد أُختيرَ سلطاناً ودُعي الملك الأشرف، وأخذ مدينة عكَّا وطرد المسيحيين خارجاً[٤]، وهذا أيضاً سُجِن ولاحقاً أصبح أخوهُ السلطان وكان يُدعى الملك الناصر[٥]، وبعد ذلك تولى ذاك الَّذي يُدعى كتبغا[٦] ووضعهُ في سجن القلعة ونصَّبَ نفسه سُلطاناً بالقوَّة، وكان يُدعى الملك العادل وقد كان من بلاد المغول[٧].

ولكنْ المماليك طردوهُ خارج البلد وأذاقوهُ صنوفَ العذاب ونصَّبوا واحداً منهم سلطاناً اسمه لاجين[٨]، وقد سُمِّي الملك المنصور، وكانَ يوماً ما يلعبُ الشطرنج وسيفَهُ بجانبهِ، فحدثَ أنْ غَضِبَ أحدُ الأُمراءَ منه غضباً شديداً وقتلهُ بسيفهِ، وبعد ذلك حدثَ خلافاً كبيراً حول من سيكون السُلطان، وأخيراً اتَّفقوا على الملك الناصر الَّذي كان كتبغا قد وضعه في السجن، وبقيَ في الحكم فترة طويلة، إلى أنْ استلمَ الحُكم من بعده

---

[١] المنصور سيف الدِّين قلاوون أبو المعالي الصالحي النجمي الألفي، من أُمراء الألوف في الدولة الظاهرية، تسلَّمَ نيابة السلطنة للملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر، ثمَّ تسلَّمَ السلطنة سنة(٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)، و كسر المغول سنة(٦٨٠هـ/١٢٨١م)، توفي سنة(٦٨٩هـ/١٢٩٠م). ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣١٨ (وفيه وفاته سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١٢٩-١٣١؛ ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص٢٩، ٣٠.

[٢] خبر فتح مدينة طرابلس سنة(٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م) عند العسقلاني: الفضل المأثور، ص١٤٩؛ مؤرخ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، نشره زتر ستين، مطبعة ليدن، ١٩١٩م، ص٢٤٨؛ ابن أيبك الدواداري(أبو بكر بن عبد الله): دُرر التيجان وغرر تواريخ الزمان، مخطوط بدار الكتب الوطنية، مصر، رقم ٤٤٠٩، ورقة ٢٢٥أ ؛ ابن النحاس الدمشقي(أحمد بن إبراهيم): مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام، تح: إدريس محمد علي و محمد خالد إسطنبولي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج٢، ص٩٤٨؛ ابن بهادر المؤمني(محمد بن محمد): فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة، رقم ٤٩٧٧، ورقة ١٦٣.

[٣] أخطأ ماندفيل بذلك، فلمْ يكُنْ الأشرف خليل ابن عمُّ المنصور قلاوون، إنَّما ابنه، تولَّى الحُكم بعد وفاة أبيه سنة (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م)، حرَّرَ عكا من أيدي الصليبيين سنة(٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، وبقي في الحكم إلى أن أُغتيِلَ سنة(٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م). ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٣١٨؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١٢٩-١٣١؛ ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص ٢٩، ٣٠.

[٤] خبر فتح عكَّا عند العسقلاني: الفضل المأثور، ص١٧٧، ١٧٨؛ ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص٤٥؛ مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص١- ٧؛ ابن النحاس: مشارع الأشواق، ج٢، ص٩٤٨، ٩٤٩.

[٥] الملك الناصر محمد بن قلاوون.

[٦] العادل زين الدِّين كتبغا حكم خلال الفترة(٦٩٣- ٦٩٥هـ/ ١٢٩٤- ١٢٩٦م).

[٧] ماندڤيل: أسفار السير، ص٧٠، ٧١.

[٨] المنصور حسام الدِّين لاجين حكم خلال الفترة(٦٩٥- ٦٩٧هـ/ ١٢٩٦- ١٢٩٨م).

ابنه الأكبر الملك المنصور[1]، ثمَّ ذُبِحَ سرَّاً من قِبَلِ أخيه ليستوليَ على السلطنة وليُلقَّبَ نفسه بعد ذلك الملك المظفر[2]، وكانَ سلطاناً عندما غادرَ ماندڤيل الديار المصريَّة[3].

وبجانبٍ آخر ذكرَ الرحَّالة ماندڤيل أنَّ السُلطان يُمكن أنْ يخرجَ من مصرَ على رأس أكثر من مئتي ألف جنديٍّ، كذلكَ الأمرَ في سوريا وكلُّ البلاد التي لهُ سلطة عليها، إذ يمكنهُ أنْ يحشُدَ أكثرَ من خمسين ألف جنديٍّ، وكلُّ هؤلاء يكونونَ تحت تصرفه، ويكونونَ دائماً له بغضُّ النظر عن بقيَّة القوم الَّذين يسكنون في البلاد والَّذين لا يُعدُّون ولا يُحصَونَ، وكلُّ واحدٌ منهم يرتفعُ مرتبه سنوياً بما يُعادل ست فلورنتينات، ولكنْ يتوجَّب عليه أنْ يكونَ مسؤولاً عن ثلاثةِ أحصنة وجملٍ، وعندما يكونُ مسؤولاً عن مُدن يكونَ برتبة أدميرال[4]، كما يكون حاكماً على الناس أيضاً، ومن الممكن أنْ يحكمَ أربع مُدن أو خمسة أو أكثر، وبقدر وبقدر ما يحكمُ الأدميرال من مدنٍ يكون له جنود تحتَ إمرتهِ، ولذلك عندما يُرقِّي السُلطان أياً من الفُرسان يجعله أدميرال، وعند حدوث أيَّة مجاعة وإذا أصبحَ هؤلاء الفُرسان فُقراء فإنَّهم يبيعونَ فُرسانهم وعتادهم[5].

وعتادهم[5].

ولمْ يُغفل الرحَّالة ماندڤيل ذكرَ مراسم استقبال السُلطان للغرباء، فذكر أنَّه إذا أتَى أحداً من الغُرباء إلى حضرةِ السُلطان يجبُ أنْ يكونَ مُرتدياً قماشاً ذهبياً أو تترياً أو من الكمخة، ومُرتدياً بنفس الطريقة التي يرتدي بها المسلمين، وفيما بعد يتوجَّبُ على من رأى الُسلطان عندما يطلُّ من نافذة أو من أيِّ مكانٍ آخر أن يركعَ ويُقبِّلَ الأرض، وهذا تعبيرٌ عن التبجيلِ والامتنان للسُلطان بأنَّه تكلَّم معهم، وعندما تأتي رُسل من بلادٍ أُخرى لمُقابلة السُلطان فهم يتجرَّدونَ من أسلحتِهُم ويضعونَها أرضاً، وترفعُ هذه الأسلحةُ بعيداً لتُضربَ بها رؤوسهم في حالِ فعلوا أو قالوا شيئاً يُغضِبُ السُلطان، كما أنَّ لا أحداً من الغُرباء يُقابل السُلطان، ولكنَّه يُلبِّيَ لهم طلباتهم ويُعطيهم الهدايا إذا ما طلبوا شيئاً معقولاً وغير مُخالفٍ لدينهِ، وكذلك

---

[1] الملك المنصور سيف الدين أبو بكر حكم خلال الفترة(٧٤١- ٧٤٢هـ/ ١٣٤٠- ١٣٤١م).

[2] هو الملك المُظفَّر سيف الدِّين حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون حكم خال الفترة(٧٤٧- ٧٤٨هـ/ ١٣٤٦- ١٣٤٧م)، ١٣٤٧م)، وقد أخطأ الرحَّالة ماندڤيل، فالملك المُظفَّر لم يلِ بعد أخيه الملك المنصور أبو بكر، بل تلاهُ الأشرف علاء الدين كُجك(٧٤٢- ٧٤٣هـ/١٣٤١- ١٣٤٢م)، ثمَّ الناصر شهاب الدِّين أحمد بن الناصر محمد(٧٤٣هـ / ١٣٤٢م)، ثمَّ حكم الصالح عماد الدِّين إسماعيل بن الناصر محمد(٧٤٣- ٧٤٦هـ/ ١٣٤٢- ١٣٤٥م)، ثمَّ جاء بعده أخيه الكامل سيف الدِّين شعبان بن الناصر محمد(٧٤٦- ٧٤٧هـ/ ١٣٤٥- ١٣٤٦م)، وبعدهُ حكمَ الملك المُظفَّر حاجي.

[3] ماندڤيل: أسفار السير، ص٧٢.

[4] ربَّما قصد به نائب السلطنة، كما أنَّ هناك عددٌ من الأمراء الَّذين يتولون الإشراف على عدد من الجنود وتختلف رتبهم بحسب عدد الجنود، فمنهم أمير خمسة، وأمير عشرة، ومقدمو الألوف...إلخ.

[5] ماندڤيل: أسفار السير، ص٧٢، ٧٣.

يفعلُ الأُمراء في البلادِ الأُخرى، فلا يجوز أنْ يُقابل الأمير، ولكنَّه ينبغي أنْ يكونَ مسروراً ويخرجُ أسعد مما أتَى، وذلك لكُثرةِ الهدايا التي يأخذُها[1].

سادساً– مُقارنة بين ميزّات الرِّحلات العربيَّة، والرحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام:

١– زارَ عددٌ من الرحَّالة العرب بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك البحريَّة، ولعلَّ من أهمِّ دوافعِ رحلاتهم زيارة الأماكن المُقدَّسة، إضافةً إلى الدوافع العلمية و الرغبة في تلقِّي العلم على يدِ عددٍ من فُقهاءِ وعُلماءِ ومشايخ بلاد الشام، وبالمُقابل يُعدُّ الدافع الديني، والرغبة في زيارة الأماكن الدينية المُقدَّسة(المسيحية) التي ارتبطت بسيرة السيد المسيح، وفي مقدمتِها كنيسة القيامة، أحدَّ أهمّ دوافع الرِّحلات الأجنبيَّة إلى بلاد الشام و الأراضي المقدَّسة.

٢– اعتمدَ الرحَّالة العرب في وصفهم لمُدن بلاد الشام على المُشاهدة والنقوش الكتابية عن أيٍّ وصفٍ قدموهُ، إضافةً إلى اعتمادِهُم على مؤلفاتِ من سبقَهم من الجُغرافيين، في حين اتَّفقت الرِّحلات الأجنبية باعتمادها في وصفِ الأماكن المُقدَّسة على الكتاب المُقدَّس، وربطُها بالتاريخ المسيحي، واعتمدوا على المُشاهدة في وصف المدن.

٣– إنَّ جميعَ الرحَّالةُ العرب زاروا مُعظم الأماكن المُقدَّسة في فلسطين، وفي مُقدِّمتها المسجد الأقصى وقُبَّة الصخرة، وركَّزوا في كتاباتِهم على بيت المقدس من خلالِ وصفهم للمدينة، ومظاهر الحياة فيها وإبراز أهميتها التاريخيَّة والدينيَّة وخاصة ما أورده ابن بطوطة، إضافةً إلى إبرازِ الجانب الحضاري ومظاهر الحياة العلمية والحركة الفكريَّة في بلاد الشام، وتميَّزت الرِّحلات العربية بالشمولية وكُثرة معلوماتها عن العرب و المسلمين، وأوضاعِهم الاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والسياسيَّة، والعمرانيَّة(الجانب الجغرافي)، والصحية.

وبالمُقابل فإنَّ المعلومات التي قدَّمتها الرِّحلات الأجنبيَّة عن حياة العرب والمسلمين، لا سيَّما ما يخصُّ الجوانب الاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والحياة العلميَّة والحركة الفكريَّة كانت ضئيلة، كما أنَّ رحلاتهم لم تُركِّز على الجانب الحضاري والتاريخي لبيت المقدس الإسلامية، باستثناء الحديث عن بعضِ الجوانب الطبيَّة، ولعلَّ أهمَّ ما ركَّزَ عليه الأجانب ذكرَهُم بعض أخلاقِ المسلمين، وصفاتِهم، ونعُوتِهم، إذ نَعَتوهم بنعوتٍ سلبية تكشف عن الخلفية العدائية عندهم، ودليلُ ذلك أنَّهم لم يتحدثوا عن المجازر البشعة التي ارتكبَها الصليبيين ضدَّ السُكان العرب والمسلمين الآمنين، وخاصة تلك المجازة التي ارتكبَها الصليبيون في القُدس عند احتلالهم المدينة، وبذلك يُمكن مُلاحظة غلبة التكوين الديني على عقليةِ مُعظم الرحَّالة الأجانب، على نحوٍ جعلَهم يُهملونَ الناحية الاقتصادية، والفكرية عند العرب المسلمين، وعدم تقديمهم المعلومات الكافية في هذا المجالُ، مع مُلاحظة اهتمامهم بوصف المظاهر الدينية المسيحية، وربَّما مردُّ ذلك لعملِهم في

---

[1] ماندڤيل: أسفار السير، ص٧٣.

السلك الكنسي، وبجانبٍ آخر شغلَ الحديث عن أوضاع الصليبيين الاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والعسكرية، والطبية حيّزاً كبيراً من مضمون الرِّحلات.

٤- سلَّطت الرِّحلات العربيَّة الأضواء على وصف بعض الكنائسِ المسيحيَّة وعلى رأسها كنيسة القيامة، وكذلك المزارات المسيحيَّة الأخرى، إضافةً إلى ذكر المزارات والأماكن المُقدَّسة عند المسلمين، وبالمُقابل لمْ يُغفلَ الرحَّالة الأجانب الأوصاف الجغرافية لكلِّ مدينة حلَّوا بها، وخاصة وصف الأماكن الدينيَّة المسيحيَّة.

٥- لم يتطرق الرحَّالة العرب إلى أعمال المُقاومة الشعبيَّة الإسلاميَّة ضدَ المُحتلينَ الصليبيين، كما أنَّهم أغفلوا الأعمال الحربيَّة البريَّة التي قام بها المماليك مثل تحرير قيسارية، وأرسوف، وصيدا، وصور، وعكَّا، والحملات البحريَّة إلى جزر البحر المتوسط، وبالمُقابل وردَ في كتابات الرحَّالة الأجانب معلومات عن حركةِ المُقاومة الإسلاميَّة ضد الصليبيين، كما تناولوا بجانبٍ آخر قيام المماليك بتحرير عددٍ من المُدن من أيدي الصليبيين، لا سيَّما صيدا، وصور، وعكَّا، واقترنَ حديثَهم عن هذا الجانبُ بوصفِ المسلمين بأنَّهم همجيُّون ومُدمِّرون.

الفصل السادس

الجغرافية التاريخيّة- فن الخطط الجغرافيّة

الجُغرافية التاريخيَّة – فن الخطط الجغرافيَّة

يتفِّقُ الجغرافيون جميعاً على شيءٍ مُحدَّدٍ عندما يُحاولون تعريف علمهم، هذا الشيء أنَّ الجغرافية هو علم دراسة المكان والأرض، ولكنَّهم يختلفون في تحديد صلة هذا العلم بغيره من العلوم الأخرى، ومع ذلك لا يختلفون في أهمِّية العنصر البشري في المكان، إذ إنَّ الجغرافية وهي علم المكان بدون الإنسان الذي يُعمِّر هذا المكان لا تُعدُّ جغرافية، لأنَّه إذا ما أهملنا العنصر البشري لدخلت دراستها فوراً في نطاق العلوم الأخرى، مثل العلوم التي تتناول الظاهرات الطبيعية المختلفة، ومن ثمَّ فإنَّ الجُغرافية هي العلم الذي يضمُّ بين ثناياه الظاهرات المختلفة، سواء كانت ظاهرات طبيعية أو بشرية في المكان من وجهة نظر إنسانيَّة.

ولكن غايةُ الأمر أنَّ العلوم المختلفة جرَّدت كلَّ ظاهرةٍ وفصَّلتها على حِدَة لتسهيل دراستها، وجاءت الجُغرافية لتنظر إلى هذه العلوم مرةً أخرى بوصفها كلُّاً مُتكاملاً، وتُعيدها إلى وضعها الحقيقي، كوحدة طبيعيَّة بشريَّة إذ تُعدُّ الجسر بين العلوم الطبيعية والإنسانية، وكذلك يُحاول علم الجُغرافية معرفة أثر الإنسان في الظاهرات الطبيعية وتغييرها وتعديلها، لأنَّه العلم الذي يحلِّل الظاهرات الطبيعية أو يبحث عن علاقتها بالنشاط البشري عامّة، ومن ثمَّ كانت الجغرافية علماً تحليلياً كما أنَّها علم تركيبي[1]، وينطبق هذا الأمر على علاقتها بالتاريخ ليجعل البعض منهما مُكمِّلاً للآخر، وهذا ما عُرِفَ باسم الجُغرافية التاريخيَّة، والتي احتلت مكاناً مُهمَّاً في الدراسات الجُغرافية، بعد أن كانت في بداية نشأتها تتأرجح في تبعيتها للجُغرافية، كما اتَّخذت اتِّجاهات مُتباينة من فترة إلى أخرى والشيء المُلفت للنظر أنَّ دراسة الجُغرافية التاريخيَّة أوسع في مجالاتها من اهتمامات فروع الجُغرافية الأخرى، فهي لا تُركِّز على موضوع بذاته أو

[1] غلاب و الجوهري: (محمد السيد و يسرى): الجغرافية التاريخية، مكتبة الإشعاع، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص١١، ١٢.

منطقة مُعيَّنة، بل تهتم بعنصر الكرونولوجيا؛ ولهذا عدَّ بعضهم أنَّ كلَّ الجُغرافية عبارة عن جُغرافية تاريخيَّة على أساس أنَّ الفهم الصحيح للحاضر يتطلَّب دراسة الماضي[١].

أولاً- تعريف الجُغرافية التاريخيَّة(Historical Geography):

وُجِدت تعريفات عدَّة للجُغرافية التاريخيَّة فقيل فيها: أنَّها الجزء الأساسي من الجُغرافية الذي يتناول دراسة تأثير الحوادث التاريخيَّة على الحقائق الجُغرافية، ويَرى بعضهم أنَّ الجُغرافية التاريخيَّة هي دراسة ما قبل التاريخ أو دراسة جغرافيَّة لأيَّة فترة تاريخيَّة أُخرى تحتوي على أدلَّة تاريخيَّة.

وعلى العكس من هذا التعريف يميلُ بعضهم إلى اعتبار أنَّ الجُغرافية التاريخيَّة تهتمُّ بدراسة تأثير البيئة الجُغرافيَّة على مجرى الحوادث التاريخيَّة ومثلُ هذه التعاريف تؤكِّد الصلة بين الجغرافية والتاريخ[٢]، ليُطلق عليها الدراسة التحليليَّة أو النقديَّة لتطور الملاءمة بين الإنسان والطبيعة، كما تظهر في تاريخ المحلَّات العُمرانية، أو استغلال الأرض، أو العلاقات التجاريَّة والثقافيَّة أو في تطوُّر الوحدات السياسية والدول، والعلاقة بين بعضِهَا والبعضُ الآخر[٣]، وبذلك تقوم بشرح توزيع الجماعات البشريَّة، ووصف تكوينها العُنصري وتطوُّر هذا التكوين خلال التاريخ، بالإضافةِ إلى دراسة النواحي الاقتصادية والسياسية لمنطقة ما خلال فترة تاريخيَّة مُعينة[٤].

و أطلق عليها بعضهم تسمية جُغرافيَّة المعنى، التي تهتمُّ بدراسة أيَّة فترة تاريخيَّة أُخرى تحتوى على أدلَّة تاريخيَّة[٥]، وهذا ما حملَ بعضُ الجُغرافيين على التأكيد بأنَّ محور الجُغرافية التاريخيَّة، لابُدَّ أنْ يدور حول دراسة التغيُّر الجغرافي في أيِّ فترةٍ زمنيةٍ، سواءً كانت هذه الدراسة خاصة بظاهرة حضارية أو طبيعية أو بيولوجية، ومهما كانت محدودة الموضوع أو صغيرة المساحة، وهي بذلك تقومُ أساساً على دراسة الحاضر التاريخي[٦].

وبناءً على ذلك درج بعضهم تعريفات عدَّة مُختصرة للجغرافية التاريخيَّة، **منها:**

---

[١] بكير محمد(محمد الفتحي): الجُغرافية التاريخية دراسة أصولية تطبيقية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٩م، ص٢.

[٢] بكير محمد: الجغرافية التاريخية، ص٣.

[3] Roxby. P. M; The Scope and Aims of Human Geography, scot. Geog, Mag, Vol. 49, 1930, p289

[4] Hartshorne. R; The Nature of Geography, Lancaster, Association of American Geographers, 1939, p 132.

[٥] غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص١٦.

[6] Clark. A; Historical Geogrophy in American Geog, Inventory and Prospectsee, New York, 1964, p 233.

١ – دراسة تاريخ علم الجُغرافية.

٢ – دراسة تاريخ الكشوف الجُغرافية.

٣ – دراسة تغيُّرات الحدود السياسية بين الدول[1].

٤ – دراسة تأثير البيئة على مجرى الحوادث التاريخيَّة.

٥ – دراسة الجُغرافية الإقليميَّة للماضي[2].

وهذه التعريفات حملت بعضهم إلى عدِّ الجُغرافية التاريخيَّة جزء من الجُغرافية البشرية[3]، وبذلك تكون الجُغرافية التاريخيَّة، هي إعادة بناء الماضي الجُغرافي، فهي جُغرافية بشريَّة تنظرُ إلى الماضي، أي بمعنى أنَّها طريقة إلى فهم التاريخ وكأنَّه تسلسل لجُغرافيَّات عدَّة في الزمن[4].

ومن هذه التعريفات المُختلفة يُخلَص إلى أنَّ الجُغرافية التاريخيَّة هي جُغرافية الماضي، وليست هذه الدراسة هدفاً في حدِّ ذاتها، ولكن الهدف منها التعرُّض لتطوُّر المكان خلال الزمن، وهذا ما يجعلها تُعطي بُعداً آخر للمكان، وهو البعد الزماني الذي يُضفي عليها حركة وحياة، وتُعطي الباحث فكرة واضحة عن عبقرية المكان، وهذا ممَّا لا يجعلُ الجُغرافية علماً ساكناً، بل تصبح علماً متحركاً(ديناميكياً)، ولا بدَّ وأنَّ لهذه الحركة (الديناميكية) إيقاعاً مُحدَّداً يجبُ على الباحث في الجُغرافية التاريخيَّة أن يُوضِّحهُ وإنَّ تصوُّر ما كانت عليه الجُغرافية القديمة، هو الهدف الأساسي للجُغرافية التاريخيَّة، كما وأنَّ الجُغرافية نفسها تحدُث في فترات زمنية مُختلفة، أي تمتدُّ عبر مرحلة زمنية مُحدَّدة، وبالتالي يُمكن تقسيم الجُغرافية التاريخيَّة إلى مراحل زمنية[5].

ثانياً– ماهيِّة الجُغرافية التاريخيَّة ومنهجُها في العصر المملوكي:

سواءٌ كانت الجُغرافية العلم الذي يدرس الأرض، أم دراسة للعلاقات بين الإنسان والبيئة الطبيعية، أم علم التوزيعات، وعلم التبايُن المكاني، فهي مادَّة تأليفية تتناول عدداً هائلاً من العناصر المُتفاعلة داخل التركيبات المُعقَّدة غير الثابتة زماناً ومكاناً ومقياساً، وفي بداية الأمر برزت الجُغرافية العصريَّة للوجود فعمدَ رُوادها إلى تفادي المُعضِلة عن طريق اختزال المعادلة الصعبة، بإبدال البُعد التاريخي للإنسان أي

---

[1] Geilbert. F. W; What is Historical Geog. Scoot, Geog, 1932, p 132

[2] غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص١٦.

[3] الجوهري و درويش(يسرى و ناريمان): مقالات في الجغرافية التاريخية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص٨، ٩.

[4] الصباغ: دراسة في منهجية البحث التاريخي، ص١٤٢.

[5] غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص١٦– ١٨.

بإسقاط الإنسان الفاعل فرداً ومجتمعاً، والإبقاء فقط على إنسان فلسفي مطموس الوجه غائب عن الأحداث.

لكنْ علاوةً على جانب الصعوبة الذي جعل من الجُغرافية في هذه المرحلة علماً طبيعياً، هناك اعتبارات أخُرى دفعت بها نحو هذا الاتجاه منها الدور الحاسم، والإسهام الفعَّال لكثير من علماء الطبيعة من جيولوجيين، وعلماء النبات والأرصاد الجوية وغيرها في إرساء قواعد الجُغرافية الفنية، وتحديد مسارها ومنها تتخصَّص في الطموحات العلموية التي تُراود الرعيل الأوَّل من الجغرافيين في العصر المملوكي أمثال أبو الفداء، وشيخ الربوة الدمشقي، وابن فضل الله العمري، وزكريا القزويني، وغيرهم، والَّذين عملوا على بناء علم يُحظَى بالقبول سيراً على هدي العلوم الطبيعية[1]، وتتحدَّد ماهية الجُغرافية التاريخيَّة بمعرفة موقعها بين العلوم والسؤال الذي يطرح نفسه هو أين تقع الجُغرافية التاريخيَّة بين العلوم الجُغرافيَّة الأخرى؟.

للإجابة على هذا السؤال نجد أنَّ معظم الباحثين يميلون إلى عدِّ الجُغرافية التاريخيَّة جزءاً من الجُغرافية البشرية في مظهرها التطوري، فكما أنَّ هناك جُغرافية تاريخيَّة بشرية، هناك جُغرافية تاريخيَّة طبيعيَّة، وإذا عُدَّت الجُغرافية علماً واحداً له مظهران طبيعي وبشري، إلَّا أنَّهما شيءٌ واحدٌ ذو شقين، وبذلك نجد أنَّ الجُغرافية التاريخيَّة علم واحد موضوعه جُغرافية العصور السابقة رغم تعرضها لدراسة الجوانب الطبيعية والبشرية، أي أنَّه لا يُمكن إدراجها ضمن أيٍّ منهما فهي فرع مُستقل، ولكن لتسهيل البحث المنهجي عمدَ الجغرافيون لتقسيم علمهم إلى قسمين رئيسيين هما: الجُغرافية البشرية، والجغرافية الطبيعية، ومن ثمَّ تمَّ تقسيمها تقسيماً منهجياً أصولياً، وتقسيماً إقليمياً.

وفي كِلَا الحالتين لابدَّ من الأخذ في الاعتبار ما يأتي:

١– تحديد الإقليم أو المكان موضع البحث.

٢– تحديد الفترة الزمنية أو الزمن الذي يُدرَس فيه هذا المكان، وتتمُّ هذه الدراسة من خلال المناهج التالية:

أ– المنهجُ الموضوعي:

ويتناول تطوُّر ظاهرة معينة قد تكون طبيعية أو بشرية خلال فترة زمنية معينة أو فترات زمنية متتابعة[2]، فعلى سبيل المثال قد تُدرس ظاهرة طبيعية كالرواسب النهرية، أو طريقة تكوُّن الجزر النهرية، أو تغيُّر أماكن رأس الدلتا، أو تآكل الشواطئ، أو المدرجات النهرية خلال فترة معينة، أو تتابع عدد فترات زمنية

---

[1] بلفيقه(محمد): الجغرافية القول فيها والقول عنها، دار النشر العربي الإفريقي، الرباط، د. ت، ص١٩، ٢٠.

[2] أحمد(حسن عبد العزيز): الجغرافية التاريخية– اتجاهاتها الحديثة ومجالات التطبيق فيها، الرياض، ١٩٩٩م، ص١.

مُعينة، أو تدرس سجلاً لفيضانات نهر ما، أو ذبذبة الأمطار خلال فترة ما، في مكان ما خلال فترة زمنية ما، أو دراسة تطوريَّة خلال عدِّة فترات زمنية متتالية.

هذه هي النماذج الطبيعية التي تهتم الجغرافية التاريخية بدراستها، كما أنَّها قد تدرس نشأة مدينة وتطورها خلال فترة زمنية، أو فترات زمنية مختلفة للجغرافية الزراعية لإقليم مُعيَّن خلال فترة ما، أو نشأة وحدة سياسية وتطورها، أو تطوُّر تعمير إقليم ما بالعناصر البشرية، أو تطوُّر السُكان في إقليم ما، وهكذا وهذه نماذج للجغرافية البشرية التاريخيَّة.

ب- المنهجُ الإقليمي:

يتَّجه الاهتمام في هذا المنهج إلى دراسة فروع الجُغرافية طبيعيَّة كانت أو بشرية لإقليم ما خلال فترة زمنية معينة أو فترات زمنية متتالية، وقد يتَّجه الباحث إلى رسم صور عدَّة مُتلاحقة للإقليم في فترات تاريخية مُتعاقبة، أو تناول بعض المظاهر الجُغرافية المُعينة في هذا الإقليم خلال الفترات التاريخيَّة المُحدَّدة للبحث، مثل تطوُّر المناخ أو الغطاء النباتي أو تطوُّر العمران[١]، أو تطوُّر التعمير باستخدام العناصر البشرية، أو تطوُّر النشاط الاقتصادي، أو التطوُّر الديمُوغرافي، أو تطوُّر الأقسام الإدارية وغيره[٢]، سواءً كانت هذه التغيرات خلال عصور ما قبل التاريخ ثمَّ خلال العصور التاريخيَّة الُمتتالية حتَّى يُصل إلى الوقت الحاضر، ليُفهم من خلالها ميدان الجُغرافية التاريخيَّة لإقليم مُعيَّن في فترة تاريخيَّة مُحدَّدة[٣].

ثالثاً- التفسيرُ الجُغرافي للتاريخ في العصر المملوكي:

يرتبطُ التاريخ بالجُغرافية ارتباطاً وثيقاً، ومن الأقوال المأثورة أنَّ التاريخ هو علم الزمان، وأنَّ الجغرافية هي علم المكان الذي له أثره في توجيه أحداث الزمان، و العوامل الجغرافية هي الأسباب الرئيسية في تغيُّير مجرى التاريخ البشري، ونقل الحضارة الإنسانية من مكان إلى آخر[٤]، فالجُغرافي والمؤرِّخ على السواء يُدركان تمامَ الإدراك أنَّ الدراسات الجُغرافيَّة والدراسات التاريخيَّة مُترابطتان، وأنَّ كُلَّاً منهما تستطيع التماس الضوء من الأخرى، بل ويتحتَّم أنْ تفعل ذلك في مشاكل معينة[٥].

فمن ناحية يُصادف المؤرِّخ في محاولاته شرح موقع الأحداث الغابرة، واختلاف النُّظم الزراعية، وهجرات الشعوب، وأصل المدن ونموَّها، والاستراتيجيَّة العسكريَّة والبحريَّة، ووسائل المواصلات والنقل من مكان

---

١ غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص١٩، ٢١.

٢ بكير محمد: الجغرافية التاريخية، ص٥.

٣ غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص١٩، ٢١.

٤ جعفر(نوري): التاريخ مجاله وفلسفته، بغداد، ١٩٥٥م، ص٥٠، ٥١.

٥ الحويري(محمود): منهج البحث في التاريخ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ٢٠٠١م، ص١٢٨.

إلى آخر، يُصادف في ذلك مشكلات لا مفرَّ لحلِّها من معرفة الأساس الجغرافي، ومن ناحية أخرى فإنَّ الجُغرافي الذي يعنيه الحاضر يجدُ نفسه بلا انقطاع أمام مشاكل يملك التاريخ حلَّها[١].

وفي العصر المملوكي جاء التفسير الجغرافي للتاريخ عن طريق عدد من أبرع جغرافيّي العصر، ويأتي في مُقدِّمتهم الجُغرافي التاريخي القزويني الذي عبَّر عن كروية الأرض، مفسراً التاريخ، تفسيراً جغرافياً، بقوله: « الأرض كُرة، والدليل على ذلك أنَّ خسوف القمر، إنْ كان يُرى في بلدان مُختلفة، فإنَّه لا يُرى فيها كلِّها بوقتٍ واحد»[٢].

وجاء التطوُّر المُهمُّ لتفسير التاريخ جُغرافيَّاً على يد العلامة المؤرِّخ الجغرافي عبد الرحمن ابن خلدون[٣] الذي قال في مقدمته: « وقد بيَّنا أنَّ المعمور من هذا المنكشف عن الأرض، إنَّما هو وسط لإفراط الحرّ في الجنوب منه، والبرد في الشمال، ولمَّا كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحرِّ والبردِ وجبَ أن تتدرج الكيفية من كليمها إلى الوسط، فيكون معتدلاً، فالإقليم الرابع أعدلُ العمران والذي صفا فيه من الثالث إلى الخامس أقرب إلى الاعتدال والذي يليهما... والثاني والثالث بعيداً عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد، ولهذا كانت العلوم، والصنائع والمباني، والملابس، والأقوات، والفواكه، بل والحيوانات، وجميع ما يتكوَّن في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً»[٤].

وجاء التوسع في تفسير التاريخ بظواهره الحضارية من فنٍ ودينٍ وأخلاقٍ وسلوكٍ تفسيراً جُغرافيَّاً، من خلال الاعتقاد أنَّ الفوارق في الخلق والمزاج التي تؤثر تأثيراً عظيماً في مصير الشعوب، يرجع شطر كبير منها إلى المُناخ، ففي المناطق الباردة مثلاً يميل الناس إلى النشاط، على حين أنَّهم يميلون في المناطق الاستوائية إلى الكسل[٥]، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ الاتجاهات التاريخيَّة الكبرى لمْ تتأثر إلى حدٍّ كبير بالصفات المميزة للأفراد، لأنَّ الظروف الجُغرافيَّة على مرِّ العصور أقوى أثراً من عبقرية الأفراد وأبعد مدى من المُميزات الجنسية ما لم تكن هذه المميزات وليدة عوامل جُغرافيَّة، وهكذا بدأ التاريخ حين بدأ بفضل الظروف الجُغرافيَّة[٦].

---

١ ولدرج(جوردن إيست): الجغرافية مغزاها ومرماها، تر: يوسف أبو الحجاج، مطبعة النجاح، الفجالة- مصر، ١٩٥٨م، ص١٠٧، ١٠٨.

٢ القزويني: عجائب المخلوقات، ص٣٥، ١٣٥.

٣ الحويري: منهج البحث في التاريخ، ص١٢٩، ١٣٠.

٤ ابن خلدون: المقدمة، ص٤٣.

٥ حجازي(محمد عبد الواحد): العقاد فيلسوف التاريخ، دار الوفاء، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٤م، ص٧٩، ٨٠.

٦ الحويري: منهج البحث في التاريخ، ص١٣١.

ورُغم ذلك عارض بعضهم تفسير التاريخ تفسيراً جغرافياً، وبخاصة ما يتصل بالمناخ، ذلك أنَّه قد تحدُثْ في بعض الظروف البيئية المشابهة أنْ تقوم مُجتمعات وحضارات متشابهة، مثل حضارة وادي النيل والرافدين، ولكنْ في وديان أخرى مثل وادي الأردن ووادي نهر السند لا تُتاح فرصة قيام حضارات مشابهة، كذلك فإنَّ الحضارة الصينية تُعدُّ سليلة النهر الأصفر هوانج هو، بيد أنَّ حوض نهر الدانوب مع مشابهته العظيمة لذلك الوادي في أحوال المناخ والتربة والسهل والجبل، قد أخفقَ في إنجاب حضارة كالحضارة الصينية، وهناك حضارات أُخرى نشأت مثلاً وسط الغابات والأحراش في إفريقية، ولكنَّها لمْ تبرز في وسط أحراش وغابات الأمازون، وعلى هذا فإنَّه لا يُمكن أن يرجع مولد الحضارات إلى عوامل جُغرافيَّة[١].

رابعاً– الجغرافية التاريخيَّة في العصر المملوكي:

من الصعب في كثير من الحالات وضع حدّ يفصل بين علمي التاريخ والجُغرافية، ذلك لأنَّ الجُغرافية الحاضرة ليست إلَّا طبقة رقيقة لا تلبث طويلاً قبل أنْ تُصبح في ذمّة التاريخ[٢]، فالعالم في حركة مُستمرة، كاختلاف الليل والنهار، وتعاقب الفصول وتوالي السنين، وتتابع الأجيال، تلك أمورٌ كلُّها تحملُ عوامل التغيُّر، وفوق ذلك كلَّه الإنسان أكبر عامل من عوامل التغيير على سطح الأرض، لذلك يُمكن عدُّ أنَّ كلَّ ما يهتمُّ التاريخ بدراسته، سوف يُصبح فيما بعد جزءاً من التاريخ الجغرافي.

ويمكن القول:

إنَّ المظهر الثقافي والحضاري للإنسان في أجزاء الأرض المختلفة ليس نتاج التضاريس والتربة والمناخ فحسب، بل هو أيضاً نتاج أثر استغلال الأجيال المُتعاقبة من البشر لهذه العناصر، فالزمن يترك بصمَاته التي لا تُمحى على سطح الأرض، فربَّما يترُكها في شكل حفريات الكائنات البائدة في الصخر، وفي التغيُّرات التي تحدِثُها الأجيال المتعاقبة على سطح الأرض، فالمظهرين الطبيعي والثقافي معاً ليسا أمرين ثابتين حتَّى الأبد، بل هُما في تغيُّر مستمر[٣].

وعندما أخذت حركة التأليف التاريخي بالتطور لمْ يعد بالإمكان التمادي في تجاهل الإنسان التاريخي، وهنا وجد الجغرافيون ضالَّتهم في حلَّين للربط بين علمي التاريخ والجُغرافية، فمنهم من وجد ضالته في تقسيم التاريخ الجُغرافي إلى تخصُّص طبيعي ومنهم من وجد تخصُّصَه البشري هو الأنسب، وسمُّوه بالتاريخ الجُغرافي، ومنهم من وجدهُ في تاريخ الجُغرافية الإقليميَّة التي تُمثِّل في نظرهم ملاك التاريخ

---

[١] شبل(فؤاد محمد): توينبيي مبتدع المنهاج التاريخي الحديث، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٣٢، ٣٣؛ علم الدين(نيفين): فلسفة التاريخ عند توينبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، ص١١٥.

[٢] غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص١٦– ١٨.

[٣] غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص١٨، ١٩.

الجُغرافي وقوَّته الموحَّدة، وهذا الاتجاه تبناه مؤسسو الجُغرافية التاريخيَّة الإقليميَّة التي تتخصَّص بدراسة أحَّد الأقاليم الجُغرافية تاريخياً[١].

وعلى هذا: فإنَّ قضية تمثيل الأرض زمانياً ومكانياً مسألة حيوية عرضت للإنسان منذ فجرِ التاريخ، وبالتالي يرتبط التاريخ بالوصف الجُغرافي ارتباطاً وثيقاً فاطلاع الشعوب على أحوال بعضها البعض وأخبارها لا يقل قدراً وأهمِّيةً عن مسألة تحديد المواقع وضبط المسافات وتدقيق المساحات، لذا عُرفت الرحلة منذ القديمِ، وشغف الناس بالرحلات لوصف البلدان التي زاروها، وفي نفس المجال شغف آخرون بتأليف الكتب الجُغرافيَّة التي تناولت الكثير من عادات البلدان، ووصف المدن في كتب الجُغرافيين الأوائل ليصل إلى نتيجة ارتباط الزمان بالمكان ارتباطاً وثيقاً يجعل من الجغرافية مُتمِّماً للتاريخ ويجعل من التاريخ علماً لفهم أُسس علم الجُغرافية[٢]، وهذا التطور والتغيير المُستمرَّان المعروفان بالبعد الزمني أيّ التاريخ الجُغرافي الذي يتضمَّن بأبعاده الثلاثة الزمانية والمكانية والبشرية، **يشتمل على موضوعات أساسية هي:**

١– تطوُّر الأرض والحياة منذُ نشأتها، وهذا الموضوع عالجتهُ الجيولوجيا التاريخيَّة.

٢– تطوُّر المسرح الجغرافي الذي يدرس الفيزيوجغرافيا والمناخ.

٣– تفاعل الإنسان مع البيئة، وما تتضمَّنه من مظهر مادي وحضاري[٣].

ومن هنا: يُرى أنَّ مجال دراسة التاريخ الجُغرافي هو تاريخ الأرض أو المظاهر الطبيعية (Natural Landscapes)، و بفضل جهود الإنسان يُمكن أن يتحوَّل إلى مظاهر بشرية أيضاً(Cultural Landscapes، وخاصة إذا علمنا أنَّ دراسة المكان ذات مفهومٍ طبيعي بشري، لا يُمكن أنْ تكتمل دونَ الإلمام بما حدثَ لهذا المكان خلال الزمن أي خلال التاريخ.

فمثلاً عند النظر إلى أيِّ منطقةٍ من الأرض تحوَّلت بفعل النشاط البشري من مظهر طبيعي إلى مظهر بشري، فإنَّ هذا المظهر البشري هو في الحقيقة تراكم جهود بشرية سابقة خلال فترات تاريخيَّة سابقة، وليس هذا فحسب، بل أنَّ المظهر الطبيعي نفسه لأيِّ مكانٍ على الأرض قد مرَّ خلال الزمن بتغيرات عدَّة حتَّى استقر على الوضع الحالي، ولا يُمكن فهم الصورة الحالية لهذا المظهر دونَ الرجوع إلى الوراء ودراسة تطوَّره، الذي يُسمى تطوراً تاريخياً جيولوجياً، و يظل هذا التغيُّر يحدث و يتراكم ببطء حتَّى يبدو للعيان بعد أجيال عدِّة.

وقد يحدث هذا التغيُّر فجائياً بحيث يرى الإنسان آثاره بين يوم وليلة، مثل الآثار التي تحدثها الزلازل والبراكين، ولا يتمثَّل التغيُّر في المظهر الطبيعي ما يحدث في ظاهرات سطح الأرض فقط، بل إنَّ

---

[١] بلفيقه: الجغرافية القول فيها، ص٢٠.

[٢] بلفيقه: الجغرافية القول فيها، ص٤٧، ٤٨.

[٣] غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص٥، ٦.

الظروف المناخية تتغيَّر أو يحدث بها ذبذبات، وتبعاً لتغيُّر هذه الظروف يحدث تبدُّل في المظهر النباتي على سطح الأرض، بينما لا يحتاج التغيُّر في المظهر الثقافي أو الحضارة البشرية إلى دليل على وجوده، وبالتالي إنَّ التوزيع الحالي للشعوب والأقوام ما هو إلَّا نتيجةَ هذه العملية التطورية الطويلة[١].

خامساً- علاقة الجُغرافية بالتاريخ في العصر المملوكي:

إنَّ العلاقة بين الجغرافية علم المكان والتاريخ علم الزمان موضوع قديم جداً شغل أذهان الناس منذُ أنْ اهتمُّوا بدراسة النشاط البشري على سطح الأرض والواقع لا يُمكن فصل عاملي الزمان والمكان عن بعضهما، فالتاريخ بغير جُغرافية كالجثَّة الميّتة لا حياة فيها أو حراك على الإطلاق، كما أنَّ الجُغرافية بدون التاريخ يُمكن أن يكون لها حركة وحياة لكن بدون نظام أو نسق، وعلى هذا فإنَّ كثيراً من الحقائق الجُغرافية تبقى غامضة حتَّى يُلقى عليها ضوءٌ من التطور التاريخي فتتصل بجذورها الحقيقة، وبالتالي إنَّ دراسة التطور التاريخي وحده هو الذي يجعل من الحقائق الجغرافية ذات مغزى، و بدون الأساس الجغرافي يبدو أن الَّذين يصنعون التاريخ كما لو كانوا يمشون في الهواء أشبهَ بالصور الصينية تتحرك في غير أرضٍ[٢].

فالجغرافية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ، وهي من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ، لأنَّ الأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ، وهي ذات أثرٍ كبير في توجيه مصائر البشر، وللظواهر الجُغرافيَّة المختلفة أثر كبير في حياة الإنسان وتكوينه النفسي، وفي قوانينه وشرائعه، وفي نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية[٣]، وقد تحكَّمت الجُغرافية في ظهور الحضارات في مواقع محددة، كما منعتها الظهور في مواقع أخرى، وتحكَّمت في اتصالها وصدامها وتفاعلها في أقاليم اختارتها الجغرافية، ولم يختارها التاريخ ولا الإنسان، وبدون المكان الجغرافي يقف التاريخ في الفراغ، وليس من حدثٍ يَجري في فراغ[٤].

وبناءً على ذلك فإنَّ للظواهر الجغرافية المختلفة أثراً كبيراً – مع غيرها من المؤثرات – في الإنسان وبالتالي في التاريخ، وذلك تبعاً لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها، فالسهول، والجبال، والصحارى، والوديان، والأنهار، والبحار، والخلجان، والغابات، والجزر، والمناخ، والرياح، ونوع الثروة الطبيعية، والموقع الجغرافي، تؤثِّر كلِّها في تكوين الإنسان، فيعتقد بعض السكان في المناطق الباردة – مثلاً – أنَّ الجحيم عبارة عن عالم يسوده الظلام الحلك والزمهرير والبرد القارس، ويعتقد بعض الساكنين في المناطق

---

[١] غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص١٢، ١٣.

[٢] غلاب و الجوهري: الجغرافية التاريخية، ص١٣، ١٤.

[٣] الحويري: منهج البحث في التاريخ، ص١٨٠

[٤] مصطفى(شاكر): التاريخ هل هو علم، مجلة عالم الفكر، الكويت، ١٩٧٤م، العدد الأول، ص١٨٣.

الدافئة أنَّ الجحيم عالم تغلب عليه الحرارة والنيران المتأججة المستعرة أبداً، ويرتبط – مثلاً – سير المعارك الحربية بالتضاريس الأرضية، فعلى المؤرِّخ أنْ يعرف هل كان مركز أحَّد المُتحاربين أفضل من مركز الآخر؟، وهل سَيطَر على منافذ بعض الجبال؟ أو هل كانت أرض المعركة أرضاً سهلة، وكان من الميسور التحرك فيها، أم كانت منطقةً مليئة بالمستنقعات، أم احتوت على مخابئ و ثَنيَات؟ وهل كان الجو في يوم أو في أيام المعركة صحواً أم كانَ عاصفاً مطيراً، أم كان حارّاً قائظاً ؟.

ومما يوضح أثر الجغرافية في التاريخ في العصر المملوكي ما نُلاحظه من تدخُّلها أحياناً تدخلاً حاسماً في تغيير مجرى التاريخ، فقد تدخَّل الموقع الجغرافي لمصر وبلاد الشام بالضرورة لرسم سياسة المماليك الحربية، إذ تُعدُّ بلاد الشام امتداداً لحدود مصر حتَّى جبل طوروس وعلى العكس[١]، وأبرز ما شهده عصر المماليك من أحداث تدلُّ على تدخُّل الجُغرافية في مجرى التاريخ توجُّه لويس التاسع[٢] قائد الحملة الصليبية السابعة[٣] إلى مصر سنة(٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، إذ عزمَ الفرنسيس وجيوشه على السير من المنصورة إلى دمياط، وبالفعل ساروا إليها عن طريق جسر عملوه على نهر النيل، لكنَّهم سهوا عن قطعه فتبعهم المماليك وحاصروهم في شوارع المدينة وعملوا فيهم القتل والأسر[٤] وهذا من أكبر الدلائل على تدخُّل العامل الجغرافي في مجرى معارك التاريخ.

كذلك لعب العامل الجغرافي دوراً مُهمَّاً في هزيمة عسكر بغداد أثناء هجوم هولاكو على عاصمة الخلافة إذ أحدث المغول فتوقاً في نهر الملك[٥] القريب من بغداد على البر الذي دار القتال فيه، فوقعت الكسرة على عسكر بغداد، بسبب وقوع بعضهم في الماء التي خرجت من تلك الفتوق، وارتطمت بخيلهم، فكان ذلك سبباً لهزيمة عسكر بغداد وسقوطها بيد المغول سنة(٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)[٦].

ولولا سقوط قلعة حلب بيد المغول سنة(٦٥٨هـ/١٢٦٠م) لِمّا تمكنت جيوش هولاكو من متابعة طريقها، والسيطرة على بقية بلاد الشام، واحتلال غزة وبيت جبريل والخليل[٧]، ولعلَّ مناخَ وطبيعةَ جيرودُ[١] اللذين

---

[١] ماجد(عبد المنعم): نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م، ص١٥٦.

[٢] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٩٩-٢١٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٣١٣-٣١٦.

[٣] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٦؛ ابن أيبك الدواداري: الدّر المطلوب، ج٧، ص٣٦٥-٣٧٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٨، ٤٣٩.

[٤] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٨؛ ابن أيبك الدواداري: الدرّ المطلوب، ج٧، ص٣٧٧.

[٥] قيل: أول من حفره الإسكندر لما خرب السواد في العراق، وهو نهر يأخذ من الفرات ويصب في دجلة. الحموي: معجم البلدان، مج٥، ص٣٢٤؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، مج٣، ص١٤٠٦.

[٦] أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٣٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٦

[٧] الأنطاكي(محمد): معركة عين جالوت، دار الشروق العربي، بيروت، د. ت، ص٤٣.

اللذين يُلائمان سكن حمار الوحش جعل من عامل الطبيعة يتدخل لمعرفة أخبار أحَّد ملول الفرس وهو بهرام جور[٢]، ففي سنة(٦٦٠هـ/١٢٦١م) توجَّه عسكر الشام إلى أنطاكية، فنزلوا جيرود وأقاموا عليها، فاصطادوا حُمر وحشٍ كثيرةً، فذبح رجلٌ حماراً وطبخ لحمه فبقي يوماً يوقد عليه ولم ينضج ولا قارب النضج، فقام واحد إلى الرأس، فوجد عليه وشماً على أُذنه، فقراؤه وإذا هو بهرام جور، وهو بالقلم الكوفي[٣]، وهذا إنْ دلَّ على شيء فإنَّه يدلُّ على عادة الفرس في وشم آذان حمر الوحش، وعلى استخدامهم الخط الكوفي وبذلك إنَّ طبيعة المنطقة(جغرافيَّتها) كانت أحَّد أهمّ العوامل في التعرف على أحداث جرت في الماضي.

ولعلَّ العاملَ الجغرافيُّ، هو الذي دفع الظاهر بيبرس إلى بناء خان لابن السبيل[٤] في القدس سنة(٦٦٣هـ/١٢٦٤م)، الذي كان بمثابة استراحة للمسافرين بين فلسطين والشام وفوَّضَ أمر بناءه إلى المهندس جمال الدين محمد بن نهار[٥]، وربَّما أهمِّية موقع دمياط بالنسبة للظاهر بيبرس وكونها مركزاً

---

[١] قرية في معلولا من أعمال غوطة دمشق. الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص١٣٠؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، مج١، ص٣٢٨.

[٢] يعلق ابن كثير على الخبر قائلاً: « يحتمل أن يكون هذا بهرام شاه الملك الأمجد الأيوبي، إذ يبعد بقاء مثل هذا بلا اصطياد هذه المدة الطويلة، ويكون الكاتب قد أخطأ فأراد كتابة بهرام شاه، فكتبَ بهرام جور وحصل اللبس من هذا». ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٤٣٦، ويُعلق بدر الدين العيني على ذلك فيقول: « كلام ابن كثير بعيد، فايش يحتاج إلى هذه التأويلات البعيدة، ولا ضرورة إليها فإنَّ عيش الحمر الوحشية هذه المدة غير بعيدٍ وعدم وقوعها في الصيد غير بعيدٍ، وأيضاً فإنَّ المواسم التي يوشمون بها آذان الحيوان بأسماء الملوك مقرَّرة عندهم، مكتوبة، صحيحة، حتَّى لا يقع الاشتباه، فكيف يلتبس بهرام شاه ببهرام جور». العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٣٥.

[٣] ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٣٥٤؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٩٩، ٥٠٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨، ص٧٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٤٣٦؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٣٤، ٣٣٥.

[٤] عُرِف بخان الظاهر يقع ظاهر القدس من جهة الغرب، بالقرب من باب العامود بدأ بناؤه في سنة(٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م)، وأوقف عليه أوقاف كثيرة منها طاحون وفرن. العُليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٣١٧، الدبَّاغ: بلادنا فلسطين، ج٩/ ق٢، ص٢٥٨، ٢٥٩.

[٥] الأمير جمال الدين محمد بن نهار الصالحي النجمي، تولى المهمندارية في الأيام الصالحية، ندبه الظاهر بيبرس لعمارة الأوقاف في القدس، ثمَّ لعمارة جسر على نهر الشريعة، ثمّ عُين استاذ دار الصالح بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون، توفي بالقاهرة سنة(٦٨٧هـ/١٢٨٨م). الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١٨، ١٩.

لتجمع عدد من قوات الجيش المملوكي، ومركزاً لتموينه حملته على حفر بحر أشموم[١] سنة(٦٦٣هـ/١٢٦٤م)[٢].

وإنَّ سيطرة الظاهر بيبرس على صفد سنة(٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، واعادة ترميم قلعتها ليجعلها مقرًّا لرجاله للانطلاق لتحرير ما تبقى من مدن الشريط الساحلي من أيدي الصليبيين، يدلُّ على أثر العامل الجغرافي في مجرى أحداث التاريخ[٣].

ولعلَّ أهمِّيةَ المنطقةُ الجغرافية بين غور الأردن وفلسطين هي التي دفعت الظاهر بيبرس لبناء جسر على نهر الشريعة بين دامية وقراوا[٤] سنة(٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، وذلك لتسهيل عملية مرور المسافرين والجيوش المملوكية بين المنطقتين[٥]، و كذلك عاق البحر تقدُّم تيمورلنك عن العبور إلى أوربة بعد أنْ هزمه بايزيد الأول في موقعة أنقرة سنة(٨٠٤هـ /١٤٠٢م)، و بذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية الناشئة[٦].

وكذلك فإنَّ موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب جعلها تجمع – مع غيرها من دول أوربة – ثروة طائلة لمرور التجارة العالمية بأراضيها في أثناء العصور الوسطى، وبفضلها استطاعت أنْ تُشيدَ حضارة مُتقدمة، وأن تقف أمام قوى الغرب في أثناء الحروب الصليبية، وإن كانت هذه قد انتهت – في هذا الصدد – إلى المزيد من النشاط في تلك التجارة العالمية، بعد أن وضعت تلك الحروب أوزارها، وحينما تحوَّل طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح، بفضل الكشوف البرتغالية في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وكجزء مُتمِّم لحركة النهضة الحديثة، التي كانت ثورة إنسانية كبرى، أُصيبت مصر – وغيرها من دول أوربة والبندقية بخاصة – بضربة قوِّية، فهبطت تجارتها، واختلَّت ماليتها، واضطرب نظامها السياسي، حتَّى لم يقوَ السلطان قانصوه الغوري على أنْ يقف في وجه القوات العثمانية الزاحفة عليه سنة(٩٢٢هـ/١٥١٦م)، وبذلك زالت دولة المماليك من الوجود السياسي سنة(٩٢٣هـ/١٥١٧م).

---

[١] بلدة بمصر تُعرف بأشموم طناح، وهي قرب دمياط. مدينة كورة الدقهلية. الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٢٠٠؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، مج١، ص٨٤.

[٢] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٩؛ ص١٩؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١/ ق١، ص٣١٨.

[٣] عبد القادر(محمد فريد): معارك فاصلة في تاريخ الإسلام، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٦٣.

[٤] قرية بالغور من أرض الأردن، وقراوا قرية من أعمال نابلس. الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٣١٩؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، مج٣، ص١٠٧٤.

[٥] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٤٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٩، ص٢٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٤٦٧؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٤٢٧، ٤٢٨.

[٦] عثمان(حسن): منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، ط٨، ١٩٦٤م، ص٣٣.

وإذا نُظِرَ إلى جزء مُعيَّن من إيطاليا نجد البندقية – مثلاً – قد حفظها اللاغون من غارات القوط والهون، فتوفرت لها الفرصة لكي تنشأ وتنمو رويداً رويداً وبالتدريج، ووقوعها على رأس الأدرياتيك، وإحاطتها بطرق بريَّة سهلة جعلاها مركزاً للتجارة العالمية بين الشرق والغرب، فكسبت – مع دولة المماليك – ثروةً طائلةً، ونَمَتْ وامتدَّت في الشرق الأدنى في أثناء العصور الوسطى، ثمَّ تقلَّصت واضمحلت – مع دولة المماليك – حينما تحوَّل طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح ولشبونة، واضطرت البندقية إلى أن تتجه نحو لشبونة في سبيل البقاء.

وهذه كلُّها أمثلة توضح أهمِّية الجُغرافية لدارس التاريخ، وتبيّن إلى أيِّ مدى يرتبط أحدهما بالآخر، وبناءً عليه يتوجب على الباحث في التاريخ أن يعرف الأحوال والعوامل الجغرافيَّة المختلفة التي تحيط بالشعب أو بالعصر أو الناحية التي يدرسها، على النحو الذي يزيد من إمكانيته في البحث والدرس والفهم[١]، وبذلك ينبغي على المؤرِّخ أنْ يكون على دراية بالأحوال الجُغرافية للمكان الذي سيتناوله بالدراسة، وبلغ من أهمِّية الارتباط الوثيق بين الجُغرافية والتاريخ، أن ظهرت نظرية لتفسير التاريخ عن طريق الجُغرافية[٢].

---

[١] عثمان: منهج البحث التاريخي، ص٣٤، ٣٥، ٣٦.

[٢] الحويري: منهج البحث في التاريخ، ص١٨٣.

سادساً- نماذج من كتب الخطط الجغرافيَّة خلال عصر دولة المماليك البحريَّة:

١- كمال الدين ابن العديم، عُمر بن أحمد(ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م).

أ- التعريف بالمؤلف:

كمال الدين أبو حفص، عُمر بن أحمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن أبي جُرادة، المعروف بابن العديم الحنفي الحلبي العُقيلي[١]، الصاحب المُحدِّث[٢] وابنُ أبي جُرادة صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ[٣]، ينتهي نسبُ ابن العديم إلى قبيلة عُقيل، ممَّن كانت إمارتُهم بأرضِ العراق والجزيرة، ولذلك عُرف بالعُقيلي[٤]، وكان لآل جُرادة محلَّة في البصرة تُسمَّى محلِّة بني عقيل[٥].

و قد قَدِمَ أحد أجداد بني العديم في مَطلع القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادي، وهو موسى بن عيسى، من البصرة إلى الشام في تجارة، وفي ذلك الوقت حدثَ طاعون في البصرة، فاستقرَّ الرجلُ وأهله في مدينةَ حلب، و ترك هذا الرجلُ ولدين، **وهما** هارون وعبدالله وشغل أولادُ هارون وعبدالله مناصبَ في القضاء، والحديث، والخطابة، وكان ضِمْنُهم الشعراءَ، والكتاب، والفُقهاء[٦]، ولذلك قال ياقوت الحموي فيهم: « وبيت أبي جرادة بَيْتٌ مشهور من أهلِ حلب، أُدباء، شُعراء، فُقهاء، عُبَّاد، زُهَّاد، قُضاة، يتوارثون الفضلَ كابراً عن كابر، وتالياً عن غابر»[٧].

---

[١] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٥؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٩٥؛ الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٥٨؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢١٥؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٥٦؛ الأدفوي(جعفر بن ثعلب): البدر السافر عن أنس المسافر، مخطوط، مكتبة الفاتح، استانبول، رقم ٤٢٠١، ورقة ٣٧؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص١٢٦، ١٢٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٦؛ أبو الوفاء القرشي: الجواهر المضية، ج٢، ص٦٣٤؛ الزركشي(محمد بن بهادر): عقود الجمان على وفيات الأعيان، مخطوط مكتبة الفاتح، السليمانية، استانبول، رقم٤٤٣٤، ورقة ٢٣٧؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٣٩؛ ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص٢٢٢؛ ابن الغزي: ديوان الإسلام، ج٣، ص٣٣٠، ٣٣١؛ العاملي(محسن الأمين): أعيان الشيعة، تح: حسن الأمين العاملي، دار التعاون للمطبوعات، بيروت،١٩٨٦م، ج٤٢، ص٢٢٢.

[٢] الذهبي: المعين في طبقات المحدثين، ص٢٠٨.

[٣] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ١٥.

[٤] عبد النعيم(محمد): دراسات تاريخية في مصادر عصري الأيوبيين والمماليك، دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٩٩.

[٥] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ١٤؛ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ١٩٩.

[٦] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ١٥؛ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ١٩٩، ٢٠٠.

[٧] ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٥.

ووالد كمال الدين هو أحمد بن هبة الله عالم فاضل كان قاضيُ القضاة[1]، وقد ولد لأحمد بن هبة الله بنات عِدَّة وكَبِرْنَ، ولمْ يُولد له غير ولدٍ واحد ذَكَرْ تُوفِّيَ وعمره خمس سنين، فحزن عليه ويئس، ولكنَّه حلم بأنَّه سيولد له ولداً، يعلو قدره، ويعظم أمره، ويشيع بين الأنام ذكرُه، وكان الوالد قد جاوز الأربعين[2]، فحملت الأمُّ بكمال الدين عمر، وولدته في سنة(٥٨٨هـ/١١٩٢م)، وكنَّاه والده بأبي القاسم على رأيّ أكثر المؤرخين، ويُكنِّيه بعضُهم بأبو حفص[3]، قال ياقوت: « سألته- أدام الله علوَّه- عن مولده، فقال لي: وِلدتُ في ﷺ سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة»[4].

أمَّا نسبته بابن العديم، فقال فيه الحموي: « سألته لماذا سميتم ببيت العديم؟ فقال: سألت جماعة من أهلي عن ذلك فلم يعرفوه وقال: هو اسمٌ محدث لم يكن آبائي القُدماء يعرفون بهذا، ولا أحسب أن جدَّ جدِّي القاضي أبا الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة- مع ثروة واسعة، ونعمة شاملة- كان يكثر في شعره من ذكر العدم، وشكوى الزمان فسُمِّيَ بذلك، فإنْ لمْ يكُنْ هذا سببهُ فلا أدري ما سببَهُ؟.»[5].

نشأ ابنُ العديم بحلب في أسرة واسعة العلم والثَّراء، وكان أبوه ميسورَ الحال، ويدلُّ على ذلك قول ياقوت الحموي: « وخرجنا إلى ضَيْعةٍ لنا»[6]، أيّ لابن العديم.

و كان كمال الدين نحيفُ البنية، لذلك عُنِي به أبوه عناية كبيرة، فحدب على رعاية صحته وسهر على تربيته، ونظراً لمنزلة والده ولِمَا تمتعت به أُسرته من مكانة نال كمال الدين حظاً وافياً من معارف عصره الدينية والدنيوية[7]، فعندما بلغ السابعة من عمره ذهب إلى المكتب، وفي المكتب ظهر نبوغ الطفل، إذ استطاع كتابةَ البسملة رغم صِغَره، واستطاع تقليد خطَّ مُعلمه، فتفرَّس فيه الناسُ النجابةَ والذكاء[8]، وفي التاسعة من عمره ختمَ القرآن الكريم، وفي العاشرة قرأه بالقراءات العشر[9].

---

[1] اللكنوي: الفوائد البهية، ص١٤٧.

[2] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ١٨، ١٩.

[3] الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٩٦؛ ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص٢٢٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٦٦.

[4] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٣٨.

[5] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٦.

[6] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٤٢.

[7] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٨.

[8] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ١٩؛ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢٠١.

[9] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٣٨، ٣٩.

وحفظ اللمع، والقُدُوري[١] في فقه الحنفية، وكان والدُه يجهل أصولَ الخط، ولم يكن خطه بالجيد، فأراد أن يُتقنَ ابنُه هذا الفرع من العلم، ولذلك فقد عمل على تشجيعه[٢]، حتَّى أضْحَى صاحِبَ خطٍّ منسوب[٣] لابن البواب[٤].

ويظهر أنَّ خط ابن العديم سار في شرق البلاد وغربها حتَّى قال عنه ياقوت: « شاع ذكره في البلاد، وعرِف خطَّه بين الحاضر والباد، فتهاده الملوك، وجُعل مع اللآلئ في السلوك، وأمَّا قراءته للحديث في سرعته وصحة إيراده، وطيب صوته وفصاحته، فهو الغاية التي أقرَّ له بها كلَّ من سمعه، فإنَّه يقرأ الخط العقد كأنَّه يقرأ من حفِظِهِ»[٥].

ولم يكتفِ والده بتعليمه علوم الدين والفقه بل اصطحبه معه في رحلاته، فسافر في صُحبته إلى بيتِ المقدس ودمشق مَرَّتين، كانت أولاهما سنة(٦٠٣هـ/١٢٠٦م) وعمره خمس عشرة سنة، وثانيهما سنة(٦٠٨هـ/١٢١١م) وعمره ثماني عشرة سنة، وجمعه بمشايخ القدس ودمشق، فأفاد منهم وتعلَّم، ثمَّ رحل به إلى العراق والحجاز[٦]، وفي هذه البلاد التي زارها، تناول المزيد من علوم الفقه والحديث، إذ تفقَّه في دمشق على البدر الأبيض محمد بن يوسف[٧].

وسمع بالقدس وبغداد[٨] من أبي هاشم عبد المطلب ابن الفضل الهاشمي[٩].

وكذلك سمع عن عمر بن طبرزد[١]، وأبو اليُمن الكندي[٢] و جماعة كثيرة[٣]، ولكثرة ما سمع من الشيوخ الشيوخ أصبح عالماً بالعلوم الدينية، فأجاز له خلقٌ كُثُر[٤].

---

[١] القدوري من أعيان عصر ابن العديم، ولد ببغداد، وانتهت إليه رئاسة الحنفية في العراق، وصنَّف المختصر المعروف بالقدوري في الفقه وتُوفِّي ببغداد سنة(٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م). ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ٢٩.

[٢] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ١٩، ٢٠.

[٣] الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص١٢٦.

[٤] هو علي بن هلال، أبو الحسن ابن البواب، قرأ الأدب، وانتهت إليه الرئاسة في حسن الخط، وهو أول من هذَّب الطريقة بنقل الخط من الكوفيين، توفي سنة(٤١٣هـ/١٠٢٢م). ابن الجوزي: المنتظم، ج١٥، ص١٥٥، ١٥٦؛ ابن هلال الصابئ: الهفوات النادرة، ص٣١٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص١٨.

[٥] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٣٨، ٤٥.

[٦] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٤١.

[٧] اللكنوي: الفوائد البهية، ص١٤٧.

[٨] ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٦؛ اللكنوي: الفوائد البهية، ص١٤٧.

[٩] هو عبد المطلب بن الفضل، الافتخار الهاشمي، العباسي، الحنفي، درَّس وأفتى وناظر، له تصانيف عدَّة أشهرها الجامع الكبير، توفي سنة(٦١٦هـ /١٢١٩م). ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص١٩١؛ التميمي(تقي الدين بن عبد القادر): الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تح: عبد الفتاح الخلوف ، دار هجر، ط١، القاهرة،١٩٨٩م، ج٤، ص٣٨٩.

ويبدو أنَّ ابنَ العديم عمل كأجداده وآبائه، فأخذ من كلِّ علم، إذ قرأ الأدب وأتقنه، ثمَّ درس الفقه فأحسنه، ودرس التاريخ، ونظَّم القريض فجوَّده، وأنشأ النثر فزيَّنه، وقرأ حديث الرسول ﷺ وعرف علله ورجاله، وتأويله وفروعه وأصوله، و لم يعتنِ بشيء إلَّا وكان فيه بارزاً، ولا تعاطى أمراً إلَّا وجاء فيه مُبرزاً، مشهوراً ذلك عنه لا يخالف فيه صديق، ولا يستطيع دفاعهُ عدوٌّ[٥]، وهو مع ذلك كثير التواضع، وحَسَنُ المُلتقى والبشر لسائر الناس مع ما هو منطوٍ عليه من الديانة الوافرة والتحري في أقواله وأفعاله[٦].

وقد ذكر ابنُ العديم أنَّ والدَه خطب له وزَوَّجَه مَرَّتين، ففي المرة الأولى جرى خلافٌ بينهما فطلقَّها، وتزوج مرة ثانية بابنة الشيخ الأَجَلِّ بهاء الدين أبو القاسم عبد المجيد ابن العجمي، وهو من شيوخ الشافعية[٧]، ولَم يَمُتِ الأبُ حتَّى رأى لابنه عُمَرَ وَلداً اسمه أحمد، كان يَمشي يومَ مات جَدُّه[٨].

وبعد وفاة والده، فوِّض إليه تدريس المدرسة النورية المدعوة بمدرسة الحلاوية، و تولى تدريس مدرسة شاذبخت في حلب وعمره ثمان وعشرون سنة[٩].

وقُلِّدَ القضاء، فكان فيه كأبيه وجَدَّهُ يفصل بين الناس في أمور دينهم ودُنياهم، ويتمتع بإعجابهم وإكبارهم[١٠]، فانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة[١].

---

[١] هو عمر بن محمد بن حسان البغدادي المسند الكبير أبو حفص المعروف بابن طبرزد، سمع الكثير وحصَّل الأصول وحفظها وروى عنه خلق كثير، وحدَّث بإربل وحرَّان وحلب ودمشق، توفي سنة(٦٠٧هـ/١٢١٠م). المنذري: التكملة لوفيات النقلة، ج٢، ص٢٠٨،٢٠٧؛ الإربلي: نباهة البلد، ج١، ص١٥٩-١٦٢؛ الذهبي: ميزان الاعتدال، ج٣، ص٢٢٣؛ ابن حجر العسقلاني(أحمد بن علي): لسان الميزان، اعتناء: سلمان عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج٦، ص١٤٢، ١٤٣.

[٢] زيد بن الحسن، العلاّمة تاج الدين، أبو اليمن الكندي النحوي، سمع الحديث وقرأ النحو، توفي بدمشق سنة(٦١٣هـ/ ١٢١٦م). ابن نقطة(محمد بن عبد الغني): التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، حيدر أباد، ١٩٨٣م، جـ١، ص٣٣٣-٣٣٥؛ القفطي: إنباه الرواة، جـ٢، ص١٠-١٤؛ أبو الوفاء القرشي: الجواهر المضية، جـ٢، ص٢١٧،٢١٦.

[٣] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٧٧؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص١٢٦.

[٤] الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص١٢٦.

[٥] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٣٧.

[٦] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٧٨.

[٧] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٤٣.

[٨] الطباخ: أعلام النبلاء، ج٤، ص ٤٤٧؛ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢٠٢.

[٩] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٤٣، ٤٤.

[١٠] عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢٠٣.

وإلى جانب دروسه وحلقاته العلمِيَّة في جوامع حلب ومدارسها- كان كمال الدين يَجتمع إلى الملوك والأمراء والوُلاة والخلفاء[٢] إذ أقام بدمشق مدة أيام الناصر يوسف صاحب الشام بمنزلة عالية، وعرضت عليه الوزارة ولم يوافق[٣]، وناب في سلطنة دمشق وعلَّم عن الملك الناصر في غيبته عن دمشق عندما سافر الناصر إلى بركة زيزاء[٤]، وأيضاً أُختير ابن العديم ليكونَ سفيراً بين الملوك في أمور خطيرة، ومهام سياسية[٥]، ففي السفارة الأولى ترسل عن الملك الناصر يوسف إلى الخلفية العباسي المستعصم ببغداد وذلك سنة(٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[٦]، وأمَّا السفارة الثانية فقد ترسل فيها إلى الديار المصرية، يستنجد المصريين على قتالِ التتار[٧].

وظلَّ نجم ابن العديم يصعد في سماء السياسة في حلب وسواها، ولكن مشاغل السياسة والحياة العامة لم توقف العمل الفكري عنده، فصنَّف ابن العديم العديد من المصنفات[٨]، في التاريخ، والفقه، والحديث، والأدب[٩]، منها كتاب" الدراري في ذكر الذراري"، صنفه للملك الظاهر غازي، وقدَّمه له يوم ولد ولده الملك العزيز[١٠]، وكتاب" ضوء الصباح في الحثِّ على السماح"، صنفه للملك الأشرف[١١]، وكتاب" الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة"[١٢]، قال فيه ياقوت: « وأنا سألته جمعَه فجمعه لي، وكتبه في نحو أسبوع، وهو عشر كراريس وهو كتاب في نسب أهله ومآثر جدوده، وما لهم من فضل في القضاء والفقه والأدب والشعر »[١٣].

---

١ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٥٦؛ ابن سباط المغربي(حمزة بن أحمد): صدق الأخبار تاريخ ابن سباط، تح: عبد السلام تدمري، دار جروس برس، ط١، طرابلس، ١٩٩٣م، ص٤٠٦.

٢ مصطفى (شاكر): التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م، ج٢، ص ٢٦٣.

٣ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٩٦.

٤ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨، ص٤٢٤ ؛ ابن قاضي شهبة(تقي الدين أبي بكر بن أحمد): التاريخ الكبير، مخطوطة مكتبة فيض الله أفندي في إسطنبول رقم (١٤٠٣)، ورقة ١٥٩ و.

٥ النبراوي(فتحية): علم التاريخ دراسة في مناهج البحث، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١١٦.

٦ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٩٦.

٧ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢١٥.

٨ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٢.

٩ أبو الوفاء القرشي: الجواهر المضية، ج٢، ص٦٣٥.

١٠ ابن العديم(عمر بن أحمد): الدراري في ذكر الذراري، تح: علاء عبد الوهاب محمد، دار الهداية، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٨؛ الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٤٤، ٤٥؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٧٢٩. البغدادي: هدية العارفين، مج١، ص٧٨٧.

١١ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص١٠٩٠؛ البغدادي: هدية العارفين، مج١، ص٧٨٧.

١٢ ابن الشعار: عقود الجمان، ج٤، ص٢٣٣؛ البغدادي: هدية العارفين، مج١، ص٧٨٧.

١٣ الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٤٥.

كذلك صنَّف كتاب في الخط وعلومه وآدابه، ووصف طروسه وأقلامه[١]، وكتاب" دفع الظلم والتحرِّي عن أبي العلاء المعري"[٢]، ويغلب على الظنِّ أنَّ ابن العديم ألف هذا الكتاب نحو سنة(٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، فذكر فيه وفاة شيخه ابن شاكر سنة(٦٣٨هـ /١٢٤٠م) بمعرة النعمان[٣]، وصنَّف كتاب" تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد"[٤]، ولعلَّ أهمَّ ما صنَّفه كتاب" بُغية الطلب في تاريخ حلب"[٥] الذي أدركته الوفاة قبل إكمال تبييضه[٦]، ولو تكمَّل تبييضه كان أكثر من أربعين مجلداً[٧]، وقد انتزع منه مُجلدَين وجمعهما في كتاب سمَّاه" زُبدة الحلب في تاريخ حلب"[٨]، ذيَّلَ عليه علاء الدين ابن خطيب الناصرية، وسمَّاه" الدُرُّ المنتخب في تاريخ حلب"[٩].

وبعد تاريخ حافل بالإنجازات السياسية والعلمية للمؤرِّخ ابن العديم، ترك بلاده هرباً عندما قصد المغول أبوابَ الشام سنة(٦٥٧هـ/١٢٥٩م)[١٠]، ووصل إلى برزة بدمشق برفقة الملك الناصر، ثمَّ سافر إلى غزة، ومنها إلى مصر، ووجد في مصر من الاهتمام والحفاوة ما كان يجده في الشام وغيرها من البلاد التي رحلَ إليها، وعاش في مصر خلال الفترة المُظلمة التي مَرَّت بها حلب[١١].

فلما أتت الأخبارُ بأنَّ عسكر سيف الدين قطز صاحب مصر كسرت عسكر هولاكو في موقعة عين جالوت سنة(٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، وأنَّ المغول انهزموا[١٢]، وجَلُوا عن حلب سنة(٦٥٩هـ /١٢٦١م)، عاد

---

[١] الحموي: معجم الأدباء، ج١٦، ص٤٥؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص١٤١٦؛ البغدادي: هدية العارفين، مج١، ص٧٨٧.

[٢] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٧٥٧؛ البغدادي: هدية العارفين، مج١، ص٧٨٧.

[٣] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ٤٥.

[٤] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٣٣٧؛ البغدادي: هدية العارفين، مج١، ص٧٨٧.

[٥] ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢١٥؛ ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص٢٢٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٦٦؛ اللكنوي: الفوائد البهية، ص١٤٧؛ أحمد: فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل، ص١٢١.

[٦] الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص١٢٧.

[٧] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٧٨.

[٨] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص٩٥٢؛ البغدادي: هدية العارفين، مج١، ص٧٨٧.

[٩] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨٣، ١٨٤؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٢٤٩؛ البغدادي: هدية العارفين، مج١، ص٧٨٧.

[١٠] ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢١٥.

[١١] مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢، ص ٢٦٣؛ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢٠٦.

[١٢] أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص٢٠٧-٢٠٩؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٤٧؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ١، ص٣٦٥-٣٦٧؛ ابن أيبك الدواداري: الدرة الزكية، جـ١، ص٤٩-٥١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٧، ص٣٩٩- ٤٠١؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٧٢.

وأهله إلى بلده مرَّةً أُخرى[١]، وعندما رجع إلى حلب، شَهِدَ فيها مظاهِرَ الخراب والدمار، ورأى أنَّ وحشية المغول لمْ تُبْقِ فيها شيئاً، فتألَّم لخرابها، وكآبتها بعد السُّرور[٢].

لم يَرُقْ لابن العديم المقامُ في حلب والعيش بها، ولذلك انطلق عائداً إلى مصر، و لكنَّ المنِيَّةَ لَم تُمهِلْه طويلاً، فلم يمضِ عامٌ على عودتِهِ إلى القاهرة، حتَّى قضى نَحْبَه في العشرين من جمادى الأولى سنة(٦٦٠هـ/١٢٦١م)[٣]، وعمره اثنان وسبعون سنة[٤] ودُفن من يومه بسفح جبل المُقطَّم[٥] وصُلِّيَ عليه عليه بجامع دمشق صلاة الغائب[٦].

لقد انتهت حياة عالم لكنْ لم تنتهِ ذكراه ولم ينسَ المؤرخون فضله ومآثره فقد قال فيه ابن الشعار الموصلي: « صدرُ صدور الآية، وشمسُ عُلماء الأُمَّة، حاز الفضائل بأسرها والمعاني بفخرها والمعالي بعزها، وعقيلة العلوم بحرزها»[٧]، ووصفه اليونيني بأنَّه كان إماماً عالماً له الوجاهة العظيمة، والحرمة الوافرة عند الخلفاء والملوك وغيرهم[٨]، وقال فيه الذهبي: « كان مُحدِّثاً حافظاً، مؤرخاً صادقاً، فقيها مفتياً، مفتياً، منشئاً بليغاً، كاتباً مجوداً»[٩]، ووصفه اليافعي بأنَّه قليل المثل عديم النظير، فضلاً ونبلاً ورأياً وذكاء، وكتابة وبلاغة[١٠]، وقال فيه ابن الوردي: « فاضلٌ كبير القدر»[١١]، وقال فيه ابن تغري بردي: « ومحاسن ابن العديم كثيرة وعلومه غزيرة»[١٢]، وقال فيه ابن قطلوبغا: « جليل القدر، كثير العلوم، أوحد في الكتابة»[١٣]، وقال فيه السيوطي: « الإمام العالم المُحدِّث، المؤرِّخ الأديب الكاتب البليغ» [١٤].

ب- دراسة كتاب بُغية الطلب في تاريخ حلب:

---

[١] عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢٠٦.

[٢] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص٢٧؛ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢٠٦.

[٣] الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٩٦؛ ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص٢٢٣؛ أبو الوفاء القرشي: الجواهر المضية، ج٢، ص٦٣٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٦٦؛ اللكنوي: الفوائد البهية، ص١٤٧.

[٤] الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٥٨.

[٥] الكتبي: فوات الوفيات، ج٣، ص١٢٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٦.

[٦] أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص٢١٧.

[٧] ابن الشعار: عقود الجمان، ج٤، ص٢٣٣.

[٨] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٧٨.

[٩] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨، ص٤٢٣، ٤٢٤.

[١٠] اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٢٠.

[١١] ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢١٥.

[١٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨٤.

[١٣] ابن قطلوبغا: تاج التراجم، ص٢٢٢.

[١٤] السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٦٦.

أ- ب- مُحتوى الكتاب وخطَّتهُ(مَنهجَهُ):

بدأ ابن العديم كتابة مُؤَلَفَهُ في صدر شبابه، وقضى عًمرَه يكتب فيه حتَّى توفي ولم يتمَّهُ، وتركه مسودةً لم يبيِّضه، وقد كان ينتظر أن يُتاح له إتمامه على الخطة التي رَسَمها، لكنَّ الأحداثَ التاريخيَّةُ واشتغاله بالسياسة والسفارة حالت دونَ تحقيق أُمنيته؛ ولذلك ظلَّ الكتاب مبتوراً[١]، غير أنَّ الأجزاء الموجودة – وهي غير قليلةٍ– تُرشد إلى خطَّتهُ وطريقته، إذ بدأ كتابه بتحديد حلب ومُعاملاتها ومُضافاتِها منذ الفتحِ الإسلامي حتَّى عصره[٢]، وخصَّص للحديث عنها **أبواب** عدَّة في فضلها، وأنَّها من الأرض المُقدَّسة، ووصفَ عمارتها، وأبوابها، وما كانت عليه أولاً وما تغيَّرَ منها وما بقي، ثمَّ تناول مدنها وأعمالها، فذكرَ قنسرين وأنطاكية، ومنبج، ورُصافة هشام، وخُناصرة، و بالس، ومعرة النعمان، ومصرين، وسرمين، وكفر طاب، وغيرها من المدن والأعمال، ثمَّ تناولَ ذكر أهمّ حُصُونِها وثغورها، وأفاض في ذكر جبالها وبُحيراتها، وأنهارها، وأورد شيئاً من مزاراتها، وحماماتها، وأفرد باباً خاصاً في تربة حلب وهوائها، وما ورد من الكتابة القديمة على الأحجار بحلب وعملها.

ثمَّ تناول بباب مُنفرد عجائبها وخواصها، وما فيها من الغرائب والطلسمات، وأتى على ذكر مَنْ نزلها من الأقوام، ثمَّ أورد باباً في فتح حلب وقنسرين، وبه انتهى الجزء الأول من كتابه[٣]، ليبدأ ابن العديم بقية أجزاء الكتاب ويُخصِّصُهَا لترجمة كلٍّ من سكنها أو مرَّ بها من الأعلام والأعيان، منذ بدءِ الخليقة حتَّى عصره[٤].

والملاحظ أنَّ ابن العديم اتَّبع منهجاً في الجزء الأوَّل المُخصَّص لجُغرافية حلب يقوم على ذكر المدينة فحدِّدَ موقعها الجغرافي، ثمَّ تناولَ بناءها وزمنه، وما حدثَ فيها من تغيُّرات ومُستجدات على مرِّ العصور حتَّى زمنه، ثمَّ أرَّخ لأهمِّ الأحداث التاريخية التي جرت فيها، ثمَّ يُورد ما قالهُ الجغرافيون والمؤرخون فيها[٥]، كذلك أنَّ منهجه لم يمنعهُ مِنْ أنْ يستطرد في حدود المنطق ليتجاوز التاريخ والجغرافية، شاملاً في في كتابه الناحية العمرانية[٦]، مع ذكر لمصادر المياه[٧] وتعدَّاهُ أحياناً لوصف الجبال[٨]، وذكر ما

---

[١] مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢، ص ٢٦٤؛ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢٠٩- ٢١٠.

[٢] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ٥٦؛ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢١٠.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٩- ٥٨٩.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج٢- ج١٢، ص٥٩٥ – ٤٦٨٩.

[٥] مثال ذلك : ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٦٧، ٢٦٣، وغيرها.

[٦] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٦٥.

[٧] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٧٣.

[٨] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٧٧.

اشتهرت به المناطق التي أورد ذكرها من الزروع[١]، وذكرَ الحركة التجارية لبعض المدن، وما فيها من الأسواق، والتجارات الرائجة والمعادن[٢]، وبجانبٍ آخر أحسَّ ابن العديم بالمطالب الأدبية لعصره فضمَّن كتابهُ مُنتخباتٍ شعريةً لعدد من المناطق التي أورد ذكرها ولا سيَّما قوله النثر والشعر في حلب[٣].

أمَّا منهج التَّراجِمَ فقد بدأهُ على الحروف، فصنعَ كما يصنع المُحدِّثون بذكر الإسناد المتسلسل؛ لإثبات ترجمة الرجُل، وما عُرف عنه، وما نُقل من كُتبه، وما وصل إلى سَمعه من حديثه وشعره وكتبه ونقوله[٤]، ونقوله[٤]، فهو بذلك ذكر الاسم الكامل للعَلَم المُترجم له، وذكر كنيته، والوقت الذي دخل فيه حلب، ثمَّ أوردَ سَمَاعَاتِه وشيوخه، وأهمّ كتبه ونقوله، وشيئاً من شعره إنْ كانَ أديباً[٥].

أمَّا منهجه التاريخي فإنَّه اعتمد منهجَ تثبيت الخبر من مصادره الأصلية، فهو لم يُثبت خبراً إلَّا ذكر المصدر الذي استقى منه، ولم يورد شعراً إلَّا وصف الديوان الذي وصلَ إليه، أو الكتاب الذي قرأه فيه، ولمْ يسرُد حديثاً أو حكاية إلَّا قال: سمعت، قرأت، أخبرنا، حدَّثنا، حضرت، شاهدت، أنبأنا، قال لي عمي[٦]، وقال لي الوزير، ووقع إلَيَّ من كتاب فُلان، وسَيَّر إلَيَّ القاضي أوراقاً بخطه، ذكر أنَّه نقلها من فلان وفلان... إلى أقصى ما يستطيع أن يصنعه رجل ثِقَة، ومؤرِّخٌ حُجَّة، ومُحدِّثٌ ثَبت، وقاضٍ مُنصفٌ حين يعمل التاريخ[٧]، وهو بذلك أحصّى المصادر التي نقلَ عنها، واستقى منها، ذاكراً الخط والورقة، ومقدار ما نَقَلَ، مُعزِّزاً ذلك بالإسناد المُتواتر، وهو بذلك حفظ أثْمن ما في هذه المصادر والكتب التي نقلَ عنها[٨].

أمَّا منهجه في تدقيق رواياته فقد اعتمدَ على منهج علمي دقيق، لَازَمَهُ نقد أغلب مصادره التي اعتمدها، وبَيان ما وقعَ به صاحب المعلومة من خطأ جُغرافي أو تاريخيّ، ولازمه هذا الأمر في أغلب صفحات الكتاب، و مثالها قوله: « هكذا ذكرَ أحمد بن الطيب، وقد أخطأ في موضعين أحدهما: في قوله ينصبُّ من قُنِي مِنْ حَدِّ حلب، والآخر في قوله: والقُنيُ في هذه القريةِ غزيرةٌ كثيرةُ المياه »[٩].

ب– ب– موارد ابن العديم في كتاب بغية الطلب:

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٢٣.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤١١.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٤٣.

[٤] عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢١٠.

[٥] مثالها ابن العديم: بغية الطلب، ج٢، ص١١٨٦.

[٦] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٥٦، ١٤٣، ١٥٢، ١٧٦، ٣٥٧، وغيرها الكثير.

[٧] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص ٥٦؛ النبراوي: علم التاريخ، ص ١١٦.

[٨] ابن العديم: زبدة الحلب، ج١، ص٥٧؛ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص٢١٠، ٢١١.

[٩] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦٤.

إنَّ كتاباً استغرق العمل فيه سنوات عدّة من عُمر مُؤَلِفَهُ، لابدَّ أنَّه احتوى على كمٍّ هائلٍ من المعلوماتِ القيِّمَة، وبِجانبٍ آخر فإنَّ كتاب" بغية الطلب" كتابٌ ضخم تحدَّث فيه مؤلفه عن جغرافية مدينة حلب وكلَّ ما يتعلق بها، ثمَّ أتَى بتراجم لأشهر أعيانها على مدى العصور الإسلامية حتَّى زمن انتهاء العمل بالكتاب؛ من المنطقي تصوُّرُ تعدُّدِ وتشعُّبِ المصادر التي اعتمد عليها المؤلف؛ من أجل إنجازه، وهي بغالبها مصادر مكتوبة، يُضاف إليها بعض المصادر الوثائقية، مع مصادر شفهية، وغيرها، ومن الممكن تقسيم المصادر التي اعتمد عليها الجغرافي المؤرِّخ ابن العديم إلى أقسام **عدَّة أهمها:**

الأولى- المُعاينة والمُشاهدة:

جعلَها بصورة ما مُرتبطة بالمناطق التي مرَّ بها، ولاحظَ خلالها وجود بعض الآثار التي قام بوصفها، مُضافاً إليها المزارات وأماكن المُقدَّسات الدينية التي زارها، ومثال ذلك قوله: « وشاهدت في طريق حماه أثر قناة قيل لي: إنَّ هذه القناة أفامية، وكانت تأتي من السلمية»[1]، وقوله في مدينة كيسوم: « وقد رأيتُها في طريقي إلى الروم»[2].

الثانية- النقوش الكتابية:

وتتجلَّى بالكتابات التي وُجِدتْ على بعض الأحجار في بعض القلاع أو المزارات التي زارها، وقد تناول هذه الكتابات ودوَّنها في كتابه، ومثالِهَا قولَهُ: « وقرأت على حجر رخام في المدرسة الحلاوية بحلب ما نصُّه: عُمِلَ هذا للملك دقلطيانوس والنسر الطائر في أربع عشرة درجةً من برج العقرب، قال: فيكون مقدار ذلك ثلاث آلاف سنة»[3].

الثالثة- الرواية الشفوية:

وهي معلومات دوَّنها ابن العديم في كتابه بعدَ سماعِها من أُناسٍ ذكَروها له، ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ الرواية الشفوية تجلَّت عنده بجانبين، **فالجانب الأول:** اشتمل على معلومات سمِعها مباشرة من الراوي وذلك لِمعرفة الراوي بالخبر الذي نقله له، أو معاصرته له، ولعلَّ أكثر ما سمعه بهذا الجانب كانَ عن طريق والده وأعمامه، وعددٍ من القُضاة وموظفي الدولة، مثالها قوله: « أخبرني والدي وأخبرني عمي»[4].
عمي»[4].

أمَّا الجانب الثاني: فيشمُل على عددٍ من المعلومات سمعها من أُناسٍ كانوا بدورهم قد نقلوها وسمعوها من أُناسٍ قبلَهُم، عن أُناسٍ شهدوا الحدث أو عاصروا الخبر الذي دوَّنَهُ ابن العديم، و تُسمَّى هذه رواية بالسماع عن فلان عن فلان، ومثال ذلك قوله: « أنبأنا محمد بن عبد اللطيف بن يوسف البطي، قال:

---

[1] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٤٣.

[2] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٦٥.

[3] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٥٨.

[4] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٥٦.

أخبرَنا الحميدي، قال: أخبرَنا محمد بن الهلال الصابئ»[١]، وقوله: « أخبرَنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي مشافهة»[٢].

الرابعة- المُسائلة والمُكاتبة:

وتتجلَّى ببعض المعلومات التي دوَّنها المؤلف في كتابه ولم يكُنْ يملك عنها أيَّة معرفة عنها، فسأل أُناساً لهم علمٌ بها، أو شاهدوها فروَوا له الخبر، وهي قليلةٌ جداً بالنسبة لبقية المصادر التي اعتمدها في كتابه، ومثال ذلك قوله: « وحدثَني كهلٌ من أهلِ أذنه، وقد سألتَهُ ببغداد عن مُنصَرَفِهِ»[٣].

الخامسة- الجانب الوثائقي:

شغِلت الوثائق أحّد أهمّ المصادر التي اعتمدَ عليها المُؤلِّف في كتابه، فالمُتتبع للكتاب يُلاحظ كَثرة النصوص الوثائقية التي أوردها المؤلف في متن الكتاب، ومثالها: « وقرأت بخطِّ الحافظ أبو طاهر السلفي في رسالة ، كتبها أبو المُظفَّر إبراهيم الأزدي إلى أبي الفتح الحسن بن عبد الله الأصبهاني يذكُر له فيها سفرته إلى الفرات»[٤].

السادسة- المصادر المكتوبة:

يُعدُّ ابن العديم مؤرِّخاً و جغرافيّاً نقَّالةً، اعتمدَ على كمٍّ هائلٍ من المصادر المكتوبة التي شملت مؤلفات مَنْ سبقه ومَنْ عاصره من المؤرِّخين والجغرافيين، واستعان فيها بأغلب مواضع الكتاب مع الإشارة إليها بدقَّة؛ ولكُثرتِها بشقَّيها الجغرافي والتاريخي سيُقتَصَرْ على ذكر أهمّها **فمنها:**

1ً- أهمّ موارده الجُغرافيَّة:

اعتمد ابن العديم على عدد من كتب الجغرافية الإقليمية، والمسالك، والرحلات، والخطط، والمعاجم الجغرافية، واقتصر ذكر هذه الموارد على الجزء الأوَّل في غالبه الذي تناول فيه حلب ومدنها، وكلَّ ما يتعلق بجغرافيتها، ولعلَّ أهمَّها كتاب" المسالك والممالك" لابن خرذادبه[٥]، و" البلدان" لليعقوبي[٦]، وكتاب" وكتاب" البلدان" لابن الفقيه الهمذاني[٧]، و" مرُوج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي[٨]، و" صفة الأقاليم"

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦١.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٩١.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٩٤.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٥٧.

[٥] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٣٠.

[٦] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٨٨، ١٠٧.

[٧] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٨٤.

[٨] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٩٥، ٣٩٧.

الأقاليم" المعروف" بالمسالك والممالك" للجغرافي الإصطخري[١]، وكتاب الجغرافية المعروف بـ" صورة الأرض" لابن حوقل[٢]، و" المسالك والممالك" للعزيزي المهلبي[٣]، و" معجم ما استعجم" للبكري[٤]، و" الإشارات إلى معرفة الزيارات" للهروي[٥].

2ً- أهمّ موارده التاريخية:

تعددت موارد المؤلف التاريخيَّة ولا سيَّما أنَّ الجانب التاريخي شَغِل جانباً كبيراً من أجزاء الكتاب، والمُلاحظ أنَّ ابن العديم اعتمد في التأريخ لكلِّ حدثٍ دوَّنه على المصادر المعاصرة للحدث، ولعلَّ من أبرز موارده التاريخية كتاب" السيرة والمغازي" للواقدي[٦]، و" سيرة المعتضد بالله" لثابت بن سنان بن قرة[٧]، و" فتوح البلدان" للبلاذري[٨].

واعتمد على كتاب" التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" لسعيد بن البطريق[٩]، و" تواريخ الأمم" لحمزه بن الحسن الأصبهاني(ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م)[١٠]، و" تاريخ حلب" للعُظيمي(ت ٥٥٦هـ /١١٦١ م)[١١]، و" تاريخ دمشق" لابن عساكر(ت ٥٧١هـ/١١٧٦م)[١٢].

3ً- موارد أخرى:

وإلى جانب موارده السابقة، اعتمد ابن العديم على العديد من كتب الفلك والنجوم ولعلَّ أشهرها كتاب" الحافظ لمعارف حركات الشمس والقمر والنجوم في آفاقها" لأبي الحسين ابن المنادي(ت ٣٣٦هـ/٩٤٧م)[١٣]، وكتاب" الكارمتهر في علم أحكام النجوم" للحسن بن أبي الخصيب الكاتب[١٤].

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦٨، ٧٣.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦٦، ٦٧، ٧٢.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٥٨.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٨١، ٤٣٤.

[٥] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٣٧، ٤٤١.

[٦] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٥٤.

[٧] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦٣.

[٨] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٩، ١٠٣.

[٩] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٨٤.

[١٠] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٩٢.

[١١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٥٩.

[١٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٨٥.

[١٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٨٧.

[١٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٨٢.

إضافةً إلى اعتماده على عدد من كتب الأنساب، ويأتي في مقدمتها كتاب" اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار"[١] لعبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي الرشاطي(ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)[٢]، و" الجوهر المكنون في القبائل والبطون" للنسابة محمد بن أسعد الجواني(ت ٥٨٨هـ/١١٩٢م)[٣]، و" جمهرة أنساب اليمن"، ولم يذكر مؤلفه[٤].

أمَّا أهمَّ موارده الأدبية والتي استعان فيه بأغلب مواضع الكتاب فهو كتاب" نزهة النفوس وأنس الجليس" لأبو إسحاق إبراهيم بن الزيات(ت ٦٢٧هـ/١٢٢٩م)[٥].

السابعة- مصادر مجهولة:

اعتمد ابن العديم على عدد غير محدودٍ من المصادر المجهولة بالنسبة للكتب والرواة، ومثال ذلك قوله: « وقرأت في بعض تواريخ المسيحية»[٦]، وقوله: « وقرأت في تاريخ قديم وقع إليَّ وعددَّ فيه ملوك سورية»[٧]، و قوله: « وقال بعضهم، وقال غيره»[٨]، وقوله: « وقرأت في تاريخ وقع إليَّ ذكر جامعة – – ولم أعرف اسمه- أنَّه نقله من تواريخ شتى»[٩]، وقوله: « ووقع إليَّ رسالة في ذكر الدنيا وما فيها من من الأقاليم والجبال والأنهار والبلاد ولم يُسمَ واضعها فنقلت منها في فصل ذكره في المشهور من الأنهار الكبار في الرابع المسكون ومعرفة ابتدائها وانتهائها»[١٠].

الثامنة- الشعر:

لعلَّ إيراد ابن العديم للعديد من القصائد الشعرية في مؤلفه ضِمنَ تناوله للأحداث التاريخية، والأوصاف الجغرافية جعلَ الشعر أحَّد أهمّ مصادره، ومثالها إيراده قصيدة شعر لابن الدنيستر، أبو المُظفَّر محمد بن محمد الواسطي في مدح قنوات حلب[١١]، وغيرها الكثير من المصادر الأدبيَّة الشعريَّة التي وُجِدَتْ في أغلب نصوص الكتاب.

---

[١] الرشاطي(عبد الله بن علي): اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ص٣.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٧٠.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١١٦.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١١٦.

[٥] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦٦.

[٦] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٨٣.

[٧] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٨٤.

[٨] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٥٢.

[٩] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٧٦.

[١٠] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٦٠.

[١١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٥٨.

ج- ب- أهمِّية الكتاب:

يُعدُّ كتاب" بُغية الطلب في تاريخ حلب" من أهمِّ ما صُنِّف في تواريخ حلب[1]، وتأتي أهمِّية الكتاب كون صاحبه أحّد كبار الموظفين في المملكة الحلبية، تناول في كتابه أحداث المملكة خلال حُكم الملوك الحلبيين الثلاث: الظاهر غازي، وولده العزيز محمد، والناصر يوسف، فهو بذلك سلَّط الضوء على مرحلة تاريخية مُهمَّة من حياة الأيوبيين ودولة المماليك البحرية، فقد أورد فيه المؤلف أحداثاً عايشها وعاينها بنفسه[2].

إضافةً إلى أنَّ خزائن البلدان ووثائقها التي زارها ابن العديم كانت تحت تصرفه فأودعَ في كتابه مالمْ ينهلهُ سواه، ومنْ هُنا تكمُن أهمِّية الكتاب، وفي كلِّ مكان زاره ابن العديم كان يلقى الحفاوة من رجال السلطة، وكان في الوقت نفسه يلتقي بالعلماء وشيوخ العصر فيأخذ عنهم، ولقد أودع ما أخذه عن علماء عصره، وما رآه من أحداث وشارك بها، أودعه في كتابه، حتَّى غدا الكتاب أشبه بمنجم للمعلومات لا ينضُب معينه[3].

ومن جهة أخرى يُعدُّ كتابه مصدر أساسياً عن تاريخ أُسرة بني العديم كونه ضمنه العديد من تراجم أفراد أُسرته، وتحدَّث فيه عن نشاطات أفرادها في مجالات الحياة السياسية، والثقافية، والاجتماعية، للقسم الشمالي من بلاد الشام[4]، والكتاب يؤرِّخ لأُمَّهات مُدن بلاد الشام، وهو يكشف ويساعد على تقدير الحياة الاقتصادية والعسكرية والحياة الاجتماعية، وخيرُ دليل لعالم الآثار، ودليل للمُتقصِّين لتاريخ كلِّ مدينة من مدن وأعمال حلب، ومن هُنا تأتي أهمِّيةُ هذا الكتاب وقيمته، فهو سِجِلٌّ مفصَّل لتاريخ الشام على اختلاف عصورها، وتاريخ عظيم لمدينة حلب ورجالها ومنْ مَرَّ بِها، ومنْ دُفن فيها، ومن تحدَّث عنها[5].

وبجانبٍ آخر يغلبُ على الكتاب طابع التاريخ الجغرافي، وتأتي أهميتهُ أنَّه يشمل جوانب الجغرافية والتاريخ في دراسته، فمصادر الكتاب مُتنوعة وقيّمة للغاية، وهو يُفدنا بالتعرف على مؤلفات كثيرة لمْ تصلُنا، منها كتاب" المسالك والممالك" للمهلبي العزيزي[6]، وكتاب " الأديرة" للشمشاطي[7] اللذان يُعدَّان بحكم المفقودَينْ المفقودَينْ فمن خلال بُغية الطلب أمكنَ التعرف ولو على شيءٍ بسيط لمُحتوى الكتابين السابقين، وتزداد

---

[1] مرعشلي(يوسف): علم الجرح والتعديل وأهميته في دراسة الأسانيد والحكم على الحديث، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٩م، ٢٠٠٩م، ص٢٧٩.

[2] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٥١، ٥٥، ٥٦، ١١١، ١٢٧، ٤١٥.

[3] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١١.

[4] الزناتي: دراسات تحليلية، ص١٧٠.

[5] عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص٢١٠.

[6] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٥٨.

[7] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤١٢.

أهمّية الكتاب بالمنهج الذي سار عليه ابن العديم بذكر موارده صراحة واستقاء مادته مباشرة، وبذلك حفظ للقارئ بين دفتيه مكتبة تُراثية عربية إسلامية ضخمة جمعت نفائس المؤلفات التي قل نظيرها، ويُعدُّ هذا الكتاب أوسع مُؤَلَفْ عرفه التراث العربي عن تاريخ حلب، والشام في إطار العالم الإسلامي آنذاك[١].

ولأهمِّية الكتاب فقد استعانَ فيه العديد من المؤرخين، ونقلوا عنه فذكره ابن خلكان، ونقل عنه في مواضع عِدَّة ، منها أنَّه قالَ في ترجمة وهب بن وهب: « وقد نقلتها من خط القاضي كمال الدين بن العديم من مسودة تاريخه»[٢]، ونقلَ عنه ابن شداد في كتابه" الأعلاق الخطيرة" في مواضع كثيرة [٣]، وتبعهُ ابن الشحنة(ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، إذ اختصر من ابن العديم، وأخذ من فصوله وأوجزه في كتاب سَمَّاه" الدُرُّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب"[٤]، وذكره السخاوي، فقال: « وللكمال عمر بن أحمد بن العديم في تاريخها[٥] كتاباً حافلاً، سَمَّاه بُغية الطلب، وقفت على كثير منه»[٦].

ج- بلاد الشام من خلال كتاب بغية الطلب دراسة جُغرافيَّة مُقَارَنَة نقديَّة:

يُعدُّ كتاب" بُغية الطلب في تاريخ حلب" كتاباً في الجُغرافيَّة التاريخيَّة، تناول فيه ابن العديم جُغرافية حلب مُفصلاً ذلك في فضلها وعمارتها، وسورها، ومدنها وأعمالها، وأشهر الأنهار والبحيرات التابعة لها، وبعض خططها، ويجب الإشارة إلى أنَّ هذه المواضيع قد اقتصرها على الجزء الأول من كتابه، واختصَّت بقية الأجزاء بالترجمة لكلِّ الأعيان الَّذين سكنوا حلب وزاروها، وفيما يلي دراسة جُغرافيَّة، لأهمِّ ما تناوله ابن العديم **في كتابه:**

أ- ج- ذكر أشهر مدن حلب:

1ً- حَارِم:

وصفُها ابن العديم بالمدينة الجليلة من ناحية حلب، لها قلعة عظيمة حصينة، وهي عامرةٌ، ولها ربضٌ وأسواقٌ ومسجدٌ جامعٌ، كثيرة البساتين والفواكه، وحدَّدها أبو الفداء بأنَّها من الإقليم الرابع من أعمال حلب، وهي ذات قلعةٍ وأشجارٍ، وأعيُن ونهر صغير، وذكر ابن سعيد المغربي أنَّ بالمدينة الكثير من الأرزاق وقد خُصَّت بالرُمَّان الذي يظهر باطنه من ظاهره مع عدم العجم، وكثرة المياه[٧].

2ً- مَنبِج:

---

١ ومثالها ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦٨، ٨٤، ٨٨، ١٠٧، ٣٣٠، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٤١، ٤٥٩، وغيرها الكثير.

٢ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ١٨٣.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٥، ٥٨، وغيرها الكثير.

٤ عبد النعيم: دراسات تاريخية، ص ٢١١.

٥ المقصود مدينة حلب.

٦ السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص ١٥٧.

٧ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٩٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٩؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٤.

ذكرَ ابن العديم أنَّها مدينة حسنة البناء صحية الهواء كثيرة المياه والأشجار يانعةُ البقول والثمار، وأهلُها خُلقُهم حسنة، ويُقال: أنَّها كانت مدينة الكهنة ودُورها وأسوارها مبنية بالحجارة، ولم تزل أسوارها في أكملِ عمارة إلى أنْ حصَرها الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب سنة(٥٩٨هـ/١٢٠٢م)، ولما فتحَها خرَّب حُصنها، والبلدُ كثيرُ الخيرات، ومعايش أهلها كثيرة جداً، لاسيَّما من استخراج ماء الورد، وخلاف الإبرسيم، وكان اسمُها سرياس ثمَّ أبروقيلس ثمَّ سمَّاها كسرى منبه فعُرِّبت وسُمِّيت منبج.
في حين وصفَها القزويني بأنَّها ذاتُ مدارسٍ ورُبطٍ، وعليها سُور بالحجارة المُهندسة حصينة جداً، وشرب أهلها من قُني تسيحُ على الأرض، برُّها حمراء وسنبلُها صفراء وشجراء[١].

3ً– معرّة النُّعمَان:

أشار ابن العديم أنَّ المدينة حسنة، وكانَ لها سور من الحجارة وأبنيتها أبنية حسنة، وهي كثيرةُ الأشجار والفواكه، لا سيَّما التين والفستق والزيتون، ويغلبُ على أهلها الذكاء المُفرط، وزادت عمارتُها في عهد الملك الناصر صاحب حلب، و المدينة في زمن ابن العديم من أعمر الأماكن، وصارَ عبور القوافل منها، وذكر ابن سعيد المغربي أنَّها مدينة مشهورة بكثرة الزيتون والتين والفستق، وفيها عمودٌ يُحرِّكُه الصغير، فيميل وذلك بهندسة تحته، ووصفها القزويني بالمدينة الكثيرة الزيتون والتين[٢].

4ً– كَفر طَاب:

ذكر ابن العديم أنَّها مبنِّية بالمُدر، وشربُ أهلها من صهاريج ماء المطر وأهلها أهل علم، ودين، وأُدباء، وشعراء، وحدَّدها القزويني بين حلب ومعرِّة النُّعمان، في بريَّة مُعطِشة، وذكر أبو الفداء أنَّ البلدة صغيرة كالقرية قليلة الماء يعمل فيها القُدور والخزف، ويُجلب إلى غيرها، وهي قاعدةُ ولاية حلب، ولها عملٌ، تقعُ على الطريق بين المعرَّة وشيزر، وأهلُها أخلاط من اليمن[٣].

5ً– شِيزَر:

وصفُها ابن العديم بالمدينة الصغيرة، وفواكهها كثيرة، ولها قلعة حصينة ، و مدينة تحتَ مدينة، لكنَّها بلدٌ موصوف بالوخَامة، في حين حدَّدها الحميري أنَّها من أعمال حُمص، وأشار أبو الفداء، أنَّ بينها وبين حماة تسعة أميال، وبينها وبين حمص نفس المسافة، وهي ذاتُ قلعةٍ حصينةٍ ولها سور من اللُبن، ولها

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٠٥، ١٠٦؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٧٤.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٢٧؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٧٢، وقال أبو الفداء: « مدينة جليلة عامرة، كثيرة الفواكه والثمار والخصب، وشرب أهلها من الآبار». أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٥.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٤١؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٤٨؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٣.

ثلاثة أبواب، والعاصي يمرُّ بها من شماليها وينحدرُ عندها النهر، وهي ذاتُ أشجارٍ وبساتينٍ وفواكهٍ كثيرةٍ أكثرها الرُمَّان[١].

6ً- كَفَر لاثا:

ذكرَ ابن العديم أنَّها تقعُ قربَ جبل بني عليم في شُعَبٍ منْ شِعَابه، وفيها نبعُ ماءٌ، وتحتها بساتين تُشرب منه، وهي من أنزه البقاع تُشرف على كورة قنسرين وحلب، وكان بها حصن منيع استولى عليه الفرنج، وذكرَ الحميري أنَّ للمدينة سوراً من اللبُن، وبها نهرٌ خارج عمَّ المدينة وآبار عذبة، وذكر أبو الفداء أنَّها في مستو من الأرض، ذات أشجارٍ وأنهارٍ[٢].

7ً- كَفَر نَجِدْ:

ذكر ابن العديم أنَّها قرية من أعمال حلب، وهي كبيرة كثيرة الأشجار بشرقيها بئر ماء من خاصِّيتَهُ أنَّه يُخرِج العلقَ إذا نشبَ في حلقِّ الإنسان أو الدابَّة إذا شرب ذلك الماء، بينما أشار ياقوت الحموي أنَّها قرية كبيرة من أعمال حلب في جبل السُمَّاق، وفيها عينٌ من الماء جارية، وقال القزويني: « قرية كبيرة في جبل السُمَّاق، بها عينُ ماء حارَّة، لها خاصية عجيبة وهي أنَّ مَنْ تشبَّث بحلقه العلق من الحيوانات شربَ ماءها، ودار حولها فألقاها»[٣].

8ً- دَلُوك:

ذكر ابن العديم أنَّها مدينة قديمة، عامرة، لها قلعة من بناء الرُوم عالية مبنِّية بالحجارة، وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد، قد أفردها مع غيرها، وجعلها من العواصم؛ لأنَّها كانت تعصمُ ما يليها من الثغُور الجزريَّة من الشمال، ولها قناة قد ركبتْ على قناطر يَصعدُ الماء عليها إلى القلعة، وحولها أبنية عظيمة حَسنة منقوشة في الحجر، وحولها مياه كثيرة، وبساتين وهي كثيرة الفواكه والكروم، وقيل: إنَّ مقام النبي داود عليه السلام كان بها، وقال فيها ابن الشحنة: كانت عامرة، ولها قلعة من بناء الروم، وحولها مياه كثيرة وبساتين غنيَّة بالفواكه[٤].

ب- ج- ذكر القلاع والحصون والثغور:

1ً- قلعِة نَجِم:

ذكر ابن العديم أنَّها قلعة صغيرة على الفرات، حسنةُ المنظر مَحمُودة المخبر، كان لها ربضٌ صغيراً، ومسجد لطيف، و زمن الملك الظاهر غازي عمَّرها وبنَى في ربضِها مسجداً جامعاً، وجعل فيه منبراً

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٤٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص٣٥٢؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٣.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٢٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٩٩؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨٤.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٧٧؛ الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٤٧١؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٤٩.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٦١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٢٢٤، وحدَّدها الحموي بأنَّها بلدة من أعمال حلب بالعواصم. الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص٤٦١.

وخطيباً، وبنِى سُوقاً حسناً، فعظم الربض وكثرت أبنيته، وقال ابن سعيد المغربي: « هذه القلعة في السحاب، وقد وصُفت بالوصف البديع، وكان يُقال لها: حُصن منبج، ثمَّ صارت تُعرف بقلعة نجم»، وحدَّدها القزويني بأنَّها مُطلَّة على الفرات، وتحتَها ربضٌ به طائفة يتعاطون أنواع القمار[١].

2ً- قلعة الرَاونْدَانْ:

وصفها ابن العديم بالقلعة الصغيرةِ على رأس جبل عالٍ في مكانه لا يُحكم عليها منجنيق، ولا يصلُ إليها نُبل، ولها ربضٌ صغير في لُحفِ جبلها، وهي من أقوى القلاع، وأحسن البقاع، ويحفُّ بالقلعة وادٍ من جهة الغرب والشمال هو كالخندق وفيه نهرٍ جارٍ، و ذكر أبو الفداء أنَّ لها بساتين وفواكه، ووادياً حسناً[٢].

3ً- قلعة بَهنَسا:

وصفها ابن العديم بالقلعة العظيمة الحصينة المانعة، ولها ربضٌ كبير يسكنهُ جماعة من المسلمين والأرمن، وبلدُها بلدٌ حسنٌ كثيرُ الخيرات، وبها قاضٍ و منبرٌ، وهي على تخوم بلاد الروم، وأشار ياقوت الحموي أنَّ رُستاقها واسع، وهي من أعمال حلب، وذكر ابن شداد أنَّها قلعة عظيمة حصينة مانعة، حولها أنهار وبساتين[٣].

4ً- قلعة عِينتَابْ:

ذكر ابن العديم أنَّها قلعة حصينة، بنَى فيها الملك الظاهر غازي آدراً حسنة وتنوعَ بزخرفته بالرُّخام والذهب، وبنَى أصحابه في الربضِ مساكن سكنوها، وبنَى فيها جوسقاً عملهُ في بستانٍ كبيرٍ ونصب فيه صُنوفاً من الفواكه، أمَّا أبو الفداء فذكر أنَّ القلعة مثقوبة في الصخر حصينة، وكثيرة المياه والبساتين، وهي عن حلب في جهة الشمال على ثلاث مراحل[٤].

5ً- حُصن بُوقَا:

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١١١؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٥؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٤١، وذكر أبو الفداء أنَّها من بناء السلطان محمود بن زنكي. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٣.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٢٤؛ أبو الفداء: تقويم البلدان ص٢٦٧.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٢٦؛ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٥١٦؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١١٦.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٢٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان ص٢٦٩.

ذكر ابن العديم أنَّه حصنٌ من عمل أنطاكية، وله كورة تُنسب إليه، ويُنسب إليه بعض أهل الحديث، وذكر البلاذري أنَّ هشام بن عبد الملك بناه، ثمَّ جُدِّد وأُصلِحَ حديثاً، وأورد ابن شداد أنَّه حصن له كورة، بقرب أنطاكية[١].

6ً- حُصن تَلْ بَاشِرْ:

ذكر ابن العديم أنَّه بلدة وحصن مشهور، وله قلعة معمُورة، وبساتينها كثيرة، ومياهُها غزيرة، وأجاصُهَا موصوف مذكور، وشربُ بلدها من نهر الساجور، وذكر ابن شداد أنَّ التل من أعمال حلب، و له قلعة معمورة، وشرب بلدها من نهر الساجور، وهو نهر أصله من عينتاب، ويجتمع إليه عيون ببلد عينتاب، ويجري إلى قرية تُعرف بالنفَّاخ، ويجتمع إليه عيون آخر البلد من بلد تل باشر، ثمَّ ينتهي إلى الفرات ويصبُّ فيه، أمَّا أبو الفداء فحدَّده على مرحلتين من حلب، وهو كثير المياه والبساتين[٢].

7ً- حُصن عَرَبْسُوسْ:

ذكر ابن العديم أنَّها مدينة من ثغور الشام داخلة في بلاد الروم، وخُرِّبت أسوارها، وبقيت آثارها، وبعض حيطانها قائمٌ، وبعضها قد هُدِمَ، وبها في زمنه سُكَّان من الأرمن، وأسواق دائرة، والناحية المسكونة منها قرية عامرة، وأشار الحموي أنَّها بلد من نواحي الثغور قُرب المصيصة، وحدَّدها ابن شداد آخر حدود الشام، ولها جبل في غربيها يُسمَّى بنحلوس، كان فيه أصحاب الكهف، وهذا الكهف يدخله الإنسان حبواً، لا يمكن للماشي أنْ يمشي قائماً، وقد بُنِيَ عليه مشهدٌ عظيم بالحجر وجُعِلَ له سور[٣].

8ً- ثَغر عَين زَرْبَه:

ذكر ابن العديم أنَّها مدينة من الثغور الشاميَّة والإقليم الرابع، وهي مدينة مذكورة خرجَ منها جماعة من العلماء والحُكماء، وفيها شجرُ النخل وبها مرعى، وهي خصبة واسعة الثِمار، وقال عنها أبو الفداء: « بلد في جبل ذات قلعةٍ مُستَعلِيَةٍ، وهي عامرة آهلة، ولها نهر في شمالي جيحان، و غيَّر الناس اسمها وسمُّوهَا ناوروزا»[٤].

9ً- ثَغر بَيَّاسْ:

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٢٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ج١، ص١٩٧؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٢٢.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٢١؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٠٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٢.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٣٠؛ الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٩٦؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٧٧.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٦٧؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٥١؛ وذكر الحميري أنَّها مدينة في الثغور الشامية، بناها المهدي بن المنصور. الحميري: الروض المعطار، ص٤٢٢.

أورد ابن العديم أنَّها مدينة على البحر خرج منها جماعةٌ من الرواة، وذكر الحموي أنَّها مدينة صغيرة شرق أنطاكية، وغرب المصيصة قريبة من البحر، وقريبة من جبل اللُّكام، ووصفها ابن شداد بأنَّها مدينة على البحر صغيرة، ذاتِ نخلٍ وزرعٍ خصبة[١].

10ً- ثَغر أيَاس:

ذكر ابن العديم أنَّها تقع إلى جانب بياس على شاطئ بحر الروم من الثغور الشاميَّة، وهي في زمنه بيد الأرمن، وأشار أبو الفداء أنَّها بلدة كبيرة من الإقليم الرابع من بلاد الأرمن، على ساحل بحر الشام، وبها ميناءٌ حسن، وهي فرضةٌ تلك البلاد، وقد أحدث الفرنج بالقُرب منها في البحر، بُرجاً كالقلعة يجتمعونَ فيه[٢].

11ً- ثَغر التِينَات:

حدَّده ابن العديم على ساحل البحر بين بياس والمصيصة، وذكر ابن شداد أنَّه حُصن على شاطئ البحر يُجمع به خشب الصنوبر[٣].

12ً- ثَغر مَرعَشْ:

أورد ابن العديم أنَّ المدينة من أعمال حلب، وهي عامرةٌ، ولها مياه وزروع وأشجار، ولها حُصن منيع، وذكر الحميري أنَّها من ثغور أرمينية، وعليها سور من الحجارة، ووصفها أبو الفداء بالمدينة الصغيرة العامرة، فيها مياهٌ وزروعٌ وأشجارٌ كثيرةٌ وهي ثغرٌ[٤].

ج- ج- ذكر أهمّ البحيرات:

1ً- بُحِيرة أفاميَة:

عرَّفَها ابن العديم بقوله: « وهي بحيرة كبيرة مذكورة، يجلب منها السَّمك والسلُّور وهو الجريث، ويُقال: إذا مدَّ في الشتاء وغاض ماؤه في الأجمة بالمطخ يحمرُّ ماء البُحيرة، وقيلَ: إنَّ السلُّور يحيضُ في ذلك الأوان فيحمرُّ ماؤها، ويُضمَّن سلُّورها بمبلغٍ وافرٍ»، وذكر أبو الفداء أنَّها بُحيرة حلوة يشقُّها النهر المقلوب، وذكر شيخ الربوة بأنَّ العاصي يدخلُها، ويخرجُ منها ولها سِكرْ يُصَطاد به سَمَك يُشبه الحيَّات، ويُعرف بالأنكليس[٥].

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٢١؛ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٥١٧؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٦٣.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٢٢؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٠.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٢٣؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٦٥.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٣٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص٥٤١؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٣.

[٥] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٠٩؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٣، وذكر ابن فضل الله العمري أنَّها بحيرة عذبة. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٧٤؛ وقيل: يُغذِّيها نهر العاصي، وأرضها موحلة، ويحيط بها

2ً- بُحِيرة يَغرَا:

وصفها ابن العديم بالبحيرةِ الكبيرةِ، في جانبٍ العُمق، مُستطيلة بعمق أنطاكية، وتُعرف ببُحيرة بَغرَاس، ويُجلب منها السَّمك الكثير، ولها ارتفاع وافر، وأشار أبو الفداء أنَّ قرية يَغرا أهلُها مسيحيون صيَّادون يصطَادونَ السَّمك من بُحيرتها على بُعد مرحلة من دربساك، وذكر شيخ الربوة أنَّ مياهها حُلوة، وكلُّها تأتي من النهر الأسود[١].

3ً- بُحِيرة أنزنيت:

ذكر ابن العديم أنَّها بُحيرة كبيرة على جانبها تلٍ عالٍ، وعليها قرية يُقال لها: أنزنيت بالقُرب من مدينة الحدث، وتخوم بلاد الروم، وأهلُها أرمن، وهي اليوم من عمل بهنسى، بينها وبين الحدث، وذكر الحموي بأنَّها تُعرف ببحيرة الحدث، وهي على تخوم بلاد الروم، وأوَّلُها قرية تُعرف بابن الشيعي على بُعد اثني عشر ميلاً من الحدث، نحو ملطية[٢].

د- ج- ذكر أهمّ الأنهار:

1ً- قُويقْ:

ذكرَ ابن العديم أنَّ للنهر مَخرجان، أحدَهُما: في قرية الحُسينيَّة بالقُرب من أعزاز يخرجُ الماء من عين كبيرة، فيجري فيه نهر، ويخرج بين جبلين، حتَّى يقع في الوطأة التي قبلي الجبل الممتد من بلد أعزاز شرقاً وغرباً، والمخرج الآخر: يجتمع من عيون ماء من سيناب، ومن قُرى كلَّها من بلد الراوندان، فتجتمع تلك الأعين، وتجري في نهر يخرج من فمِّ فجْ سيناب، فيقع في الوطأة، ويجتمع النهران فيصيران نهراً واحداً في بلد أعزاز وهو نهر قويق، ثمَّ يجري إلى دابق ويمرُّ بمدينة حلب وتمدُّه عيون قبل وصوله إليها، وكذلك بعد أن يتجاوز حلب وتمدُّه عين المُباركة، فيقوى وتدور عليه الأرحاء، ويُسقي في طرقه مواضع كثيرةً، حتَّى ينتهي إلى قنسرين، ثمَّ يمرُّ إلى المطخ، فيغيض في الأجمِّ، في حين خالف الحموي أراء الجغرافيين بذكر منبع النهر، وذكرَ إنَّ منبعه من قرية شناذر على بُعد ستة أميال من دابق، وذكر شيخ

القصب والصفصاف من كلِّ جانب، وفيها طيور الأوز، والبجعات، والأصواغ، وفي أيام الربيع ينبت بهذه البحيرة النيلوفر الأصفر بحيث يستر الماء عن آخره بورقه وزهره. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٥؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٦٤، ٦٥.

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٠٩؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦١، وقيل: يغذِّيها نهر يغرا، وتُعرف ببحيرة المسيحيين، لأنَّ صيادي السمك بها مسيحيين، ولهم بيوت في شمال البحيرة، ووسط البحيرة مكشوف، وينبت نبات النيلوفر في طرفها الجنوبي والشمالي، وتحيط بها الأقصاب، وبها من الطير البج والوز وهي طيور تأكل الأسماك، وفيها سمك يعرف بالأنكليس. شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٦؛ سباهي زاده: أوضح المسالك، ص٦٥، ٦٦.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٠٩؛ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٥١.

الربوة أنَّ أهل الخُلاعة يُكنُّوه بأبي الحسن، وانبعاثه على ستة أميال من دابق، ثمَّ يجري إلى حلب، ثمَّ إلى قنسرين، ثمَّ يصبُّ في بحيرة المطخ، وهي بحيرة كبيرة[١].

2ً- نهر جِيحَان:

ذكر ابن العديم أنَّه نهر كبير، يخرج من بلد الروم بقرب أبلستين من شرقيها وقبليها، والماء يخرجُ من شقيف حجر(كنيسة من بناء الروم وقد صوِّر فيها الجنة) إلى أرض بين يدي الشقيف، وهي تتبع الماء جميعها، والنهر يخرجُ منها إلى مدينة أبلستين، فينقسم قسمين، ويحيط بالمدينة، ثمَّ يتجاوزها، فيعود ليجتمع في نهر واحد، ثمَّ يخرج ليصل إلى الشام غربي المصيصة، ثمَّ يعود إلى رستاق يُعرف بالملوَّن حتَّى يقع في بحر الروم، بينما ذكر ابن فضل الله العمري أنَّ نهر جيحان يخرج من بلاد الروم تحت حصن المنقب، يأخذ ما بين عين زربه وكفريثا، ثمَّ يمتدُّ إلى المصيصة، ويصبُّ في البحر الشامي، وذكر أبو الفداء أنَّه يُقارب الفرات في الكبر، ويمرُّ ببلاد سيس وتسمِّيه العامَّة جِهَان، ويسير من الشمال إلى الجنوب بين جبال في حدود الروم، حتَّى يمرُّ بالمصيصة من شماليها، وجَريانُه عندها من الشرق إلى الغرب، ويتجاوز المصيصة مُغرِّباً، ويصبُّ بالقُرب من بحر الروم[٢].

3ً- نهر سِيحان:

أشار ابن العديم أنَّ منبعه من بلاد الروم من فوجة بين جبلين ينبع ماؤه من تحت الجبل من الصخر الأصمّ، ويمرُّ بمدينة يُقال لها: رأس العين، ثمَّ تسير له عيون عدَّة، وتعود وتجتمع في سيحان، ليخرج من بلد الروم، ويمرُّ على بلاد الأرمن، ويمتدُّ على تلك البلاد، حتَّى ينتهي إلى أذنه وهو من شرقيها، ثمَّ يمتدُّ منها فيصبُّ في البحر الشامي، وذكر ابن فضل الله العمري أنَّ نهر سيحان يخرج من شمالي نهر جيحان، ويمرُّ على أذنة، ثمَّ يصب في البحر الشامي، بينما ذكر أبو الفداء أنَّه يمر ببلاد الروم ويجري من الشمال إلى الجنوب غربي مجرى جيحان وهو دونَ جيحان في القدر، ويسير حتَّى يمرُّ ببلاد الأرمن، المعروفة ببلاد سيس ويمرُّ على سور أذنة من شرقيها، ويتجاوز أذنة، ويلتقي مع جيحان تحتَ أذنة ومصيصة، ويصيران نهراً واحداً ويصبَّان في بحر الروم[٣].

4ً- نهر البردَان:

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٤٧؛ الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٤١٧؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٢.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٧٣؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٦٦؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٥٠.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٧٩؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٦٦؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٥٠.

أورد ابن العديم أنَّ منبعه من بلد الروم، وأنَّه يمتد إلى طرسوس، وتجري فيه السفن، ويشقُّ وسط طرسوس، وماؤه موصوف بشدِّة البرد في الصيف، ثمَّ يعود ليصبَّ في البحر الشامي، وذكر الحموي أنَّه بقرب ثغر طرسوس، ومَجيئُه من بلاد الروم، ويصبُّ في البحر على ستة أميال من طرسوس[١].

5ً– نهر العاصي:

ذكر ابن العديم أنّه يُسمَّى بالنهر الأرند، والأرنط، و العاصي، و المقلوب؛ لأنّه يُخالف أنهار الدنيا كلَّها، فهو يجري من الجنوب إلى الشمال، مخرجهُ من أرض بعلبك من موضع يُقال له: اللبوة، ويجري حتَّى يشقُّ بحيرةِ قُدس(قطينة) من عمل حمص، ويمتدُّ غربي حمص، ويأتي إلى الرستن، ثمَّ حماة من غربيها، فيُلاصق دورها، ثمَّ يأتي شيزر فيلصق بسفح قلعتها، ودور المدينة من الغرب والشمال، ويمتدُّ إلى أفامية، ويخرج إلى أنطاكية، فيحفَّ بالمدينة من جهة الغرب، وينفصل عنها فيصبُّ في البحر الشامي، وذكر ابن فضل الله العمري أنَّ منبعه من وراء نهر بعلبك من منابع شتَّى في وطاءة أرض، من قرية اللبوة ومغارة الراهب، ثمَّ يأخذ شمالاً ماراً حتَّى يُقارب غربي حمص، فيصبُّ في بحيرة متوسطة الارتفاع، ثمَّ يخرجُ منها ويمرُّ غربي حمص إلى حماة إلى شيزر إلى أفامية، فيصبُّ في بحيرة أفامية، ثمَّ يشقُّ جبال الغرب، ليصل إلى ديركوش، لينزل بعدها إلى العمق قرب أنطاكية ومنها إلى السويدية ويصبُّ في البحر الشامي[٢].

هـ– ج– ذكر أهمّ الجبال:

1ً– جبل الجُوشن:

أشار ابن العديم أنَّه يقع غرب مدينة حلب، وفي لحفهِ نهر قويق، وهذا الجبل فيه معدن النحاس، وذكر الحموي أنَّ في سفحه مشاهد ومقابر للشيعة، وأشار ابن شداد أنَّ الجبل فيه مشاهد مُقدَّسة منها مشهد الحُسين، ومشهد الأنصاري، وهو جبل يقصدهُ أهل حلب في مُهمَّاتِهم[٣].

2ً– جبل بانقوسا:

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٨٩؛ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٧٦.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٩٠؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص١٦٨، وذكر أبو الفداء أنَّه نهر صغير ينبع من ضيعة قريبة من بعلبك تُسمَّى الرأس في الشمال عن بعلبك، ويسير من الرأس شمالاً حتَّى يصل إلى مكان يُقال له: قائم الهرمل بين جوسية والرأس ويمرُّ بوادٍ ويسير شمالاً حتَّى يتجاوز جوسية، ويصبُّ في بحيرة قدس غربي حمص ويخرج من البحيرة ويتجاوز حمص إلى الرستن إلى حماة فشيزر، ثمَّ إلى بحيرة أفامية، ثمَّ يخرج منها، ويمرُّ على دركوش إلى جسر الحديد وذلك جميعه في شرقي جبل اللكام، فإذا وصل إلى جسر الحديد ينقطع الجبل المذكور، ويستدير النهر، ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً، ويمرُّ على سور أنطاكية حتَّى يصبُّ في بحر الروم عند السويدية. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٤٩.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤١١؛ الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص١٨٦؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٥٢، ١٥٦، ١٥٧.

وصفه ابن العديم بالجبل الممتد، وقليل الارتفاع من شرقي مدينة حلب ، وكان مسكوناً، وفيه آثار صهاريج للماء، ولم يبقَ من أثرِ بُنيانه القديم غير الصهاريج، ثمَّ بُنِيَ في سفحه أبنية كثيرة، جُدِّدَ أكثرها في أيام الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر، واتصلَ البناء إلى سطح الجبل وبُنِيَ عليه منازل كثيرة في دولة الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وفي هذا الجبل منبت خشب السرو ومنه كانت تعمل السقوف بحلب، في حين حدَّده الحموي في ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال، وذكر ابن شداد أنَّ في الجبل عدد من المدارس[١].

3ً- جبل سمعان:

ذكر ابن العديم أنَّه يقع غرب مدينة حلب، وأوله شمالي جبل جوشن، ثمَّ يمتدُّ غرباً ويتصل بجبال عدَّة محسوبة منه، إلى كورة تيزين وهو جبل نزه، كثير الشجر من التين والزيتون والكرم والكمثرى، وفيه آثار عظيمة من بناء الروم، وأشار ابن شداد أنَّه بالقرب من بلدة رُوحين، وفيه مشاهد مقدسة يقصدها الناس للتبرك بها[٢].

4ً- الجبل الأعلى:

ذكر ابن العديم أنَّه جبل عالٍ، و يتصل بجبل سمعان من جهة الشمال، وبجبل السماق من قبليه ومن شرقيه الجزر والحفَّة، وفيه من العمائر وبناء الروم آثار تروق الطرف، وتبسط النفس، وفيه كثير من أشجار التين والزيتون والرمان والجوز والسماق، وفيه قُرى فيها أعينُ ماء، وكذلك القُرى التي في لحفهِ تحفُّ به من جوانبه الأربعة، وذكر ابن شداد أنَّه يتبعُ له ضياع وقرى، وفيه تكثرُ الأشجار التي يُحمل أحطابها إلى بلدان عدَّة [٣].

5ً- جبل السمَّاق:

أشار ابن العديم أنَّه يشتمل على جبال وقرى من أنزه البقاع وأعجبها، وأحسن الأماكن وأطيبها، وفيه من الأبنية الرومية، والآثار والفواكه الحسنة، والثمار ما يتجاوز الوصف ويُزرع في أرضه القطن والقثاء والحبوب، والتين والعنب، والفستق واللوز والجوز، والتفاح والمشمش والكمثرى، وعُرِفَ بجبل السمَّاق؛ لكُثرة نبات السمَّاق المزروع في أرضه، وقراهُ عامرة فيها ماء وعيون وأكثرها من ماء المطر، وحدَّده الحموي من أعمال حلب الغربية، يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع عامتها للإسماعيلية، وفيه بساتين ومزارع كلها عذي، والمياه الجارية به قليلة إلَّا ما كان من كانت عيونٍ ليست بالكثيرة، لذلك تنبت فيه أشجار الفواكه

---

١ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤١٥؛ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٣٣١؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٢٤.

٢ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤١٧؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٥٩.

٣ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٢٢؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٩٩، ٣٠٠، ج١/ ق٢، ص٦٩.

جميعها، حتَّى المشمش والسمسم، وقيل: سُمِّي بذلك لكثرة ما ينبت فيه من نبات السماق، وحدَّده شيخ الربوة بقرب مدينة سرمين، وهو من أعمر الأرض وأكثرها فِلَاحَاً وزروعاً[١].

6ً- جبل الأحصّ:

ذكر ابن العديم أنَّه يقع شرق مدينة حلب وقبليها ومن غربيه سهول، ومن شرقيه بريَّة الرصافة، وهو جبل كبير فيه قُرى عامرة، كثيرة الغلة، وأشار الحموي أنَّ من هذا الجبل يقطع أهل حلب وجميع نواحيها حجارة رحيهم وهي سوداء خشنة، وذكر أبو الفداء أنَّه جبل متسع فيه قرى عدَّة وهو شرقي حلب بينها وبين خناصرة الواقعة شرقيه[٢].

7ً- الجبل الأسود:

أشار ابن العديم إلى وقوعه شرق جبل اللُكام، وفيه أشجار كثيرة غير مُثمرةٍ، يُؤخذ منه الخشب إلى البلاد التي حوله، وفيه حُصن الدربساك المنيع، وسمَّاه الحموي جبل أسود العشاريات، وهو جبل من أعمال حلب، وأضافَ ابن شداد على ذلك أنَّ في هذا الجبل مقام إبراهيم الخليل عليه السلام[٣].

و- ج- ذكر مدينة حلب وخططها:

1ً- وصف حلب:

قدَّم المؤلف وصفاً موجزاً لمدينة حلب، إذ قال: « حلب من الإقليم الرابع وعرضها أربع وثلاثون درجة، وهي مدينة جليلة عامرة آهلة، حسنة المنازل، عليها سور من حجر، وفي وسطها قلعة على جبل لا تُرام، ليس لها إلَّا طريق مُقابِلَة عليه، وعلى القلعة سور حصين وشُرب أهل حلب من نهر على باب المدينة يعرف بقويق، ويكنِّيه أهل الخلاعة بأبي الحسن»، ووصفها القزويني بالمدينة العظيمة، كثيرة الخيرات، ولها سور حصين وقلعة حصينة، وخندق فيه مصانع للماء، وجامع وبساتين، وميدان ودور كثيرة، وفيها مقامان للخليل عليه السلام، وفيها مغارة كان يجمع فيها الخليل غنمه، وفي المدينة مدارس ومشاهد، ومن عجائبها سوق الزجاج، أما أبو الفداء فوصفها بأنَّها مدينة قديمة، ذات قلعةٍ مرتفعةٍ حصينةٍ، وبها مقامُ إبراهيم الخليل عليه السلام، ولها بساتين قلائل، وهي على مدرج طرق العراق إلى الثغور، وهي حسنة المنازل عليها سور من حجر، وفي وسطها قلعة على تلٍ[٤].

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٢٣؛ الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص١٠٢؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠١، ٢٠٥.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٢٨؛ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص١١٤؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٣.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٣٨؛ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص١٩٢؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٥٤.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٥٨، ٥٩؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٨٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٧، وقدَّم ابن فضل الله العمري وصفاً جميلاً لها، فوصفها بالمدينة العظيمة القديمة، وبها معظمُ قلاعِ الشام ومعاقله وحصونه،

2ً- سُور حلب:

ذكر ابن العديم أنَّه كان مبنياً بالحجارة، وهو من بناء الروم، ولما وصل كسرى أنشروان إلى حلب واستولى عليها، شعَّثَ سورها عند الحصار ثمَّ رُمِمَ ما هُدِمَ منه، فبُنِيَ بالآجر الفارسي وهي آجر كبار في الأسوار بين باب الجنان وباب النصر، أما السور الثاني: فقد ابتناه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، فيما بين باب الجنان وباب النصر، وفي أسوار حلب أبرجة جدَّدها ملوك الإسلام بعد الفتوح، وذكر الحميري أنَّ سورها مبني من الحجارة البيضاء.

وتناول القزويني الحديث عن سورها فوصفه بالحصين، وهو من الحجارة السوداء، وفي جانب السور قلعة حصينة؛ لأنَّ المدينة في وطاء من الأرض، وبقرب سورها خندق عظيم وصل حفره إلى الماء، وأشار أبو الفداء أنَّ سورها منيع مبني من الحجارة البيضاء، ونقل ابن شداد وصف سور حلب عن ابن العديم(١)

3ً- ذكر أهمّ القصور:

***- قصر الناعورة:**

ذكر ابن العديم أنَّ هذا القصر كان للخليفة الأموي مُسلمة بن عبد الملك(٦٦-١٢١هـ/٦٨٥- ٧٣٨م)، وهو من حجارة صلدة سوداء منحوتة، وهو ليس بالكبير، وقد انهدمَ، وتقسَّمت حجارته إلَّا القليل منها، وذكر ابن شداد أنَّ الخليفة الأموي مُسلمة بن عبد الملك أنشأه سنة(٩٠هـ/٧١٠م)، وخُرِّب بعده، ولحق الخراب أبراجه وآثاره، وأضاف سبط ابن العجمي أنَّ حجارته نُقلت لبناء باب قنسرين(٢).

***- قصر درب البنات:**

سمَّاه المؤلف قصر الدارين وحدَّده قرب سوق الصناديقين، و أنَّ شرقيه بستان يُعرف ببستان الدار من شمال ميدان باب قنسرين، وهو وقف على المدرسة النورية الشافعية، وذكر ابن شداد أنَّه خارج باب أنطاكية، وفي وسطه قنطرة على نهر قويق، ويقع حوله ربض وله باب حديد كبير، وقال ابن الشحنة: «

وتُسمَّى حلب الشهباء، وهي ذات قلعةٍ بديعةٍ عليَّة المنار، وبها الديارُ العظيمة والجوامع ذات المآذنِ العليا الفائقة، والمارستان، والمساجد، والمدارس، والربط والخوانق، ويجري داخل المدينة فرع ماء يمرُّ في دورها ومساكنها، ولها الصهاريج المملوءة من ماء الأمطار، ولها المروج الفيحاء والبرِّ الممتدُّ، وبها البطيخُ القليل منه في الشام، وأنواع الفواكه أكثرها تجلب منها، ومُتصلة بسيس والروم وديار بكر وبرية العراق. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٧، ٣٦٨.

(١) ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٥١؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٩٦؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٨٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٧؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٥٩.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦٤؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٩١؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٥.

وهو الآن وقف على المدرسة النورية الشافعية، وهو منسوب إلى دار البنات، ودار أخرى بجانبه، تُعرف بدار سيما الطويل»[١].

4ً- ذكر أهمّ الحمَّامات:

أشار ابن العديم إلى وجود عدداً من الحمَّامات في أعمال حلب، تنفع من البلاغم والرياح وكثير من الأدواء، فمنها: حمام السُّخنة من عمل المناظر من ناحية قنسرين وماؤها في غاية الحرارة، وأهلها يغتسلون فيها، ويتعوضون بها عن الحمَّام، كما ينتفعون بها من الريح والبلغم والحبّ، وبناحية العُمق حمَّة أُخرى يُتداوى بها الناس أيضاً.

وفي كورة الجومة من أعمال قنسرين عيون كبريتية تجري إلى الحمَّة بقرية جندراس، ولها بُنيان عجيب معقودة بالحجارة، يأتيها الناس من كلِّ الآفاق، فيسبحون فيها للعلل التي تُصيبَهم، ولا يُدرى من أينَ يأتي ماؤها الكبريتي؟، ولا أينَ يذهب؟، وذكر ابن شداد الكلام ذاته[٢].

5ً- ذكر أهمّ الأديرة:

***- دير مار مروثا:**

ذكر ابن العديم أنَّه يقع شمال مشهد الحسين بسفح جبل الجوشن، وأورد أبو الفرج الأصبهاني أنَّ الدير مطلّ على مدينة حلب، وهو دير صغير وفيه مسكنان للرجال والنساء.

ووصفه العمري بالصغير ويقع على نهر العرجان، وله بساتين قليلة ومباقل وفيه نرجس وبنفسج وزعفران، ويُعرف بالبيعتين لأنَّ فيه مسكنين للرجال والنساء[٣].

***- دير سمعان:**

أشار ابن العديم لوقوعه في سفح جبل سمعان، وأنَّه من الأبنية العظيمة المُستحسنة التي تُقصد لحُسنِها، وفي الدير حُصناً مانعاً، أخربهُ الحمدانيون خوفاً من غلبة الروم عليه ومضايقتهم حلب به، بينما ذكر ابن سعيد المغربي وقوعه تحت قبر عمر بن عبد العزيز، وهو دير مكشوف.

وأخطأ القزويني في تحديد مكانه، فحدَّده بناحية دمشق، وقال: « في موضع نزه محدق بالبساتين والدور والقصور » [١].

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦٥؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٩٢؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٦٠.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٧٨؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٠٦، وللمزيد: ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٢٤؛ ابن الغزي(كامل بن حسين): نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، ١٩٢٣م، ج١، ص٤٧.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤١٢، ٤١٣؛ أبو الفرج الأصبهاني: الديارات، ص٢١؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٦٨.

6ً- ذكر أهمّ المشاهد والمزارات:

***- مشهد الدكَّة:**

ذكر ابن العديم أنَّه يقع في سفح جبل الجوشن في مكان مشرف على صخرة، وأورد الهروي أنَّ به قبر المحسن بن الحسين، وبقُربه مقام إبراهيم عليه السلام، وحدَّده ابن شداد غرب حلب[٢].

***- مشهد برصَايا:**

أشار ابن العديم لوقوعه بسفح جبل برصايا، شمال بلدة أعزاز بينها وبين قورس، ويُقال: أنَّ مقام النبي داود عليه السلام بموضع هذا المشهد، وفيه مقام برصيصا العابد، وهذا كلام الهروي وابن شداد[٣].

***- مقام إبراهيم عليه السلام:**

ذكر ابن العديم أنَّهما مقامان في قلعة حلب، وهما الأعلى والأسفل، فالأعلى: تُقام فيه الخطبة يوم الجمعة، وفيه رأس يحيى بن زكريا عليه السلام موضوع في جرن من الرخام، أمَّا الأسفل: فقد كان موضعه كنيسة للمسيحيين، ويُقال: إنَّ إبراهيم عليه السلام وضع فيه أثقاله، وكان يقيم فيه و يبث رعاءَه منه إلى نهر الفرات والجبل الأسود، وذكر الهروي أنَّ بالمقام صندوق فيه قطعة من رأس يحيى بن زكريا عليه السلام ظهرت سنة(٤٣٥هـ/ ١٠٤٢م)، بينما ذكر ابن شداد بأنَّه عبارة عن مذبح لإبراهيم الخليل عليه السلام، ثمَّ بُنِيَ مسجداً جامعاً، ويُعرف بمقام إبراهيم الأعلى، وبه تقام الخطبة، وهو موضع مبارك يزار[٤].

***- مشهد قرنِبيَا:**

حدَّده ابن العديم شرق مدينة حلب، بينها وبين النيرب على جبل صغير، وقيل: أنَّه رُئِي النبي ﷺ يصلي فيه، وذكر ابن شداد أنَّه كان قديماً يُعرف بمقر الأنبياء، ثمَّ حرقته العامَّة[٥].

***- مشهد الدعاء:**

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤١٧؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٩٦.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤١٢؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٦؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤٧.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٦٦؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٧؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٦٧.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٥٩؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٦؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٢١، ١٢٢.

[٥] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٦٤؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤٤.

في جبانة باب النصر، يُقال: إنَّ الدُّعاء مُستجاب فيه، وحدَّده ابن شداد شمالَ حلب، خارج باب النصر[١].

***- روحين:**

ذكرَ ابن العديم أنَّها قرية من جبل سمعان، فيها مشهدٌ حَسَنْ وبجانبِ المسجد منه قبور سمعان وشمعون من الحواريين، في حين ذكر الهروي أنَّ شمعون الصفا في مدينة رومية الكبرى في كنيستها العظمى في تابوت من الفضة، مُعلَّق بسلاسل في سقف الهيكل، وأوردِ ابن شداد أنَّ هذا المشهد كان مهجوراً لا يُمكن لأحداً الإقامة به؛ وذلك لكثرة اللصوص، إلى أنْ جاء الملك الظاهر غازي، فندب له شخص لرعايته، ثمَّ قام بعمارته، فبنى له بُركة خارجه[٢].

***- مشحَلا:**

ذكر ابن العديم أنَّها قرية من بلد أعزاز بها قبر أخي داود النبي ﵇، وهي قرية قبلي أعزاز وغربها، وبها نهر جارٍ وبساتين، وقد خرجَ منها بعض أهل الحديث، وأورد كلاً من الهروي، وابن شداد الكلام ذاته[٣].

***- قبر يوشع بن نون ﵇:**

حدَّده ابن العديم بمعرة النعمان، وجدَّده الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وهو موضع يُزار ويتبرك فيه، في حين خالف الهروي ما ذكره ابن العديم، فذكر أنَّ قبر يوشع بأرض نابلس، لكنَّ ابن شداد أكد على وجوده في معرة النعمان، وأنَّ الملك الظاهر غازي أوقفَ عليه بالمعرة وقفاً[٤].

7ً- ما ذكره ابن العديم من مدارس حلب:

***- المدرسة الحلاويَّة الحنفية:**

ذكر ابن العديم أنَّ موقعها بحلب، وفيها مذبحٌ من الرُخام الملكي الشفَّاف عليه كتابة باليونانية، وفي المذبح يقرب المسيحيين القربان، وذكر ابن شداد أنَّ المدرسة كانت كنيسة من بناء هيلاني أم قسطنطين، ثمَّ صُيِّرَت مسجداً يُعرف بمسجد السراجين، ولما ملك نور الدين زنكي حلب وقفها مدرسةً، وجدَّد فيها مساكن يأوي إليها الفُقهاء وإيواناً، وكان مبدأ عمارتها في سنة(٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، وجلبَ إليها مذبحاً من

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٦٤؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤٦.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٦٦؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٧؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٦٣، ١٦٥.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٦٦؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٧؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٦٧، ١٦٨.

[٤] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٦٧؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٨؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٧١.

أفامية من الرُخام، وهي أكثر المدارس صيتاً وأغزرها طلبةً، وذكر سبط ابن العجمي أنَّها تقع اتِّجاه الباب الغربي لجامع حلب الكبير [١].

***- المدرسة النوريَّة الشافعية:**

ذكر ابن العديم أنَّها تُعرف بمدرسة بني أبي عصرون، وتقع بالقرب من قصر الدارين في ميدان باب قنسرين، وأشار ابن شداد أنَّ الملك العادل نور الدين بن زنكي أنشأها سنة(٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)[٢].

8ً- باب في ذكر صحة تُربة حلب وهوائها واعتدال مزاجها وخفَّة مائِها:

قدم ابن العديم وصفاً جميلاً لمناخ مدينة حلب، فذكر أنَّ هواء حلب الغربي يَنعشُ الأنفس ويُحييها، ويُربِّي الأجسام ويُغذِّيها، ويُؤثِّر في الأجساد كتأثيره في الزروع بعد الفساد، فإنَّ الزرع بها قد يدبل ويبور، فيخضر عندما تهبُّ عليه الدبور، ومياهها بالرقة والخفة موصوفة، وتربتُها بقلة العفونات مشهورة معروفة، وهذه الأسباب موجبة للصحة والاعتدال مؤثِّرة في دفع الأسقام والأعلال، وبالمقارنة ذكر القزويني أنَّ مدينة حلب طيّبة الهواء صحيحة التربة، وأورد ابن سعيد المغربي أنَّ جهات المدينة في نهاية الحسن والطيبة، والخصب، ومعظم تربتها حمراء، فهي تُفرِحُ النفس، وأكثر ما يُزرع فيها القطن، وقد خُصِّبت أرضُها بالفستق، في حين ذكر ابن فضل الله العمري بأنَّها مدينة باردة الهواء والماء، و معتدلة في صيفها وشتاءَها[٣].

د- المآخذ على الكتاب:

رُغمَ غزارة المعلومات التي قدَّمها ابن العديم في كتابه" بغية الطلب"، إلَّا أنَّ هذه المعلومات كانت في غالبها معلومات تاريخيَّة بالرغم من تخصيص الجزء الأول لجغرافية حلب، فالنقد في هذا الجانب أنَّ ابن العديم خصَّص الجزء الأوَّل لجُغرافية حلب وأعمالها، لكنَّ معلوماتَهُ الجُغرافيَّةُ جاءت ضئيلة بهذا الجانب، فهو لم يتناول أي ذكرٍ لدروبِ حلب، كما أنَّه لم يتطرق سوى لمدرستين، في حين غاب ذكر مساجدها عنه تماماً، وبجانبٍ آخر فإنَّ المعلومات الجغرافية التي قدَّمها المؤلف جميعها كانت منقولة عن مؤلفات من سبقه من الجغرافيين، فهو لم يأتِ بشيءٍ جديد في هذا المضمار.

---

[١] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٥٨؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٦٤، ٢٦٥؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٣٩.

[٢] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٦٤، ٦٥؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٤٨، وللمزيد: سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٢٨٥.

[٣] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٤٩؛ القزويني: آثار البلاد، ص١٨٣؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٤؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٨.

ومن جهة أخرى فإنَّ المؤلف لم يُقدِّم لكتابه بأية مُقدمات، كما أنَّه لم يُحدِّد المنهج الذي اتبعه في كتابه، ولعلَّ إيراده لعبارة: « وقال بعضهم، وقوله: وقد رأيت في بعض التواريخ»[1] ثمَّ سرده حكاية أو حدثاً تاريخياً جعل من رواياته موضع شكٍّ وضعف، فهو بذلك لم يتحقَّق من صحة ما أورده، وإنَّما سرد ما ذكره وترك الأمر للقارئ مُبهماً وجاهلاً مادته العلمية في كثير من الوقائع، والحقائق الواجب معرفة مدى صحتها.

ولعلَّ أنَّ ابن العديم وقع في بعض الأحيان بِنَسْبِ بعضُ الكتب لأصحابها، ومثال ذلك نَسبَهُ كتاب" البداية والنهاية" لابن مُنقد الشيرازي[2]، ونَسبَهُ كتاب" ربيع الأبرار" لأبو هلال العسكري(ت ٣٩٥هـ/١٠٠٥م)[3]، وحقيقة الأمر الكتاب منسوب للزمخشري (ت ٥٣٨هـ /١١٤٣م)[4]، أمَّا كتاب العسكري، فهو" ربيع الآداب"[5].

٢- عز الدين ابن شداد، محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م).

---

[1] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٥٢.

[2] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٤٧٤.

[3] ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١١٣.

[4] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص٨٣٢.

[5] السيوطي(عبد الرحمن بن أبي بكر): شرح شواهد المغني، تح: أحمد ظافر كوجان، لجنة التراث العربي، ١٩٦٦م، ج٢، ص٥٤٦.

أ- التعريف بالمؤلف:

عز الدِّين ابن شداد، أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد بن خليفة بن شداد بن إبراهيم بن شداد الحلبي، المؤرِّخ الجغرافي، الوزير الصاحب، الكاتب، أصله من حلب[١]، ولد فيها سنة(٦١٣هـ/١٢١٦م)، وعاش فيها[٢].

وحقيقة الأمر أنَّ ابن شداد لمْ يكتب ترجمة لنفسه، كما فعلَ الكثيرون من المؤرخين، الأمر الذي جعلَ المعلومات عن حياته الأولى قليلة، فكلُّ ما نعرفه منه أنَّه ولد بحلب، و أشار إلى ذلك بقوله: « وأبدأ بذكر جُند حلب لكونها مسقطُ رأسي، ومحل أُنسي وناسي، والدار التي صبحتُ بها الشباب غضَّاً جديداً، وعاشرت منْ لمْ يزل للمحفل صدراً وللجحفل قلباً»[٣]، وغالبُ الظنِّ أنَّ والده توفي، وهو ما يزالُ حملاً في بطن أُمِّه، أو في السنين الأولى من طفولته المُبكرة قبل أن تتكون لديه القُدرة على التذكر، والدليل على ذلك أنَّه لم يخصَّ والده بأيِّ ذكرٍ[٤].

ولم يكن آل شداد في حلب بين الأُسر المشهورة بالعلم، ولم يُذكر أحَّد منهم في عداد العلماء، فقد كان العز ابن شداد فذَّاً بينهم، إذ تلقَّى علمه الأوَّلي في أحَّد مساجد حلب أو إحدى مدارسها التي ترعَى تعليم القرآن، وتحفيظه بإشراف أحَّد الشيوخ، ثمَّ تابع التحصيل فعُنِيَ بعلوم التلاوة والتجويد والتفسير والحديث، واللغة والأدب والنحو، ودرس الفقه، وتعمَّق في دراسة كُتب الخراج والأموال، ثُمَّ انصرف إلى كُتب التاريخ والجُغرافية فتعمَّقَ في دراستها[٥].

وفي سنة(٦٣١هـ/١٢٣٣م) خرجَ من حلب إلى دمشق، وعمره ثماني عشرة سنة متولياً فيها بعض الأعمال التي أُنيطت به، وأورد ذكر ذلك في كتابه" الأعلاق الخطيرة" قائلاً: « وكنت قد دخلت دمشق سنة إحدى وثلاثين، ثمَّ ترددت إليها مراراً عديدة، ثمَّ قطنت بها في الأيام الناصرية مدَّة عشر سنين»[٦]،

---

١ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٢٧٠، ٢٧١؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١٢٨؛ البرزالي: المقتفي على الروضتين، ج٢، ص٦٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص١٩٤، ١٩٥؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص٣٥٦؛ الكتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص٣٥٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص١٨٩؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٥١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٠٥؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٣٣، ٣٤؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٦، ص٢٣٣، ٢٣٤؛ أحمد: فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة، ج٢، ص٢٠.

٢ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص١٩٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٨٨.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٠.

٤ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، مقدمة التحقيق، ص١٣.

٥ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤.

٦ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٨٨.

وعندما كان ابن شداد في مطلع شبابه وأثناء زيارته لدمشق، روى شيئاً من الحديث عن المعظَّم تورا نشاه بن صلاح الدين[١] وحدَّثَ عنه[٢].

ويُمكن معرفة شيء عن تفاصيل حياة ابن شداد بعد مغادرته لدمشق سنة(٦٤٠هـ /١٢٤٢م) من كتابه" الأعلاق الخطيرة"، كون أغلب الَّذين ترجموا له جاءت ترجمتهم عنه مُقتضبة وغير كافيةٍ بالغرض، وممَّا يُمكن معرفته أنَّ علاقة ابن شداد كانت متينة بالملوك الأيوبيين، وكانوا يثقون به فقد أرسله السلطان الناصر صلاح الدين[٣] إلى حرَّان لتدبير شؤونها المالية[٤]، وفي ذلك يقول: « لما ملكها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب في سنة(٦٣٨هـ/١٢٤٠م) بعثني إليها في سنة(٦٤٠هـ/١٢٤٢م) لأكشفها، فكان ارتفاعها- أعني قصبتها في ذلك التاريخ- ألفي درهم»[٥]، ويدلُّ ذلك على أنَّه كان رجلاً مشهوراً في الدولة[٦]، و شغل منذُ مطلعِ شبابه مناصب إدارية لدى الأيوبيين، وكان خبيراً في شؤون الميزانية والمالية، الأمر الذي ينعكس بجلاء في كتابه، وخاصة فيما يتعلق بالجوانب الجغرافية لبلاد الشام[٧].

وعلى ما يبدو أنَّ ثقة الناصر يوسف بابن شداد، جعلته يختاره رسولاً لفضِّ النزاعات القائمة بين الملوك والأمراء الخاضعين لسلطنته، كما كلَّفه لينوب عنه في شفاعة للملك المسعود[٨]، صاحب الجزيرة

---

[١] تورانشاه بن يوسف بن أيوب بن السلطان صلاح الدين الكبير، وكان الناصر صاحب حلب يعظّمه، ويحترمه، ويثق به ويسكن إليه لعلمه بسلامة جانبه، وكان عنده في أعلى المنازل، يتصرف في خزائنه وعساكره وغلمانه، ولما استولى المغول على حلب اعتصم بقلعتها، ثمَّ نزل منها بالأمان، توفي بحلب في سابع عشرين ﷺ(سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م). الحسيني: صلة التكملة، ص٤٣٢،٤٣٣؛ الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٥٥، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٢٦٨؛ الزبيدي: ترويح القلوب، ص٧٦؛ الطباخ: إعلام النبلاء، ج٤، ص ٤٢٠، ٤٢١.

[٢] البرزالي: المقتفي على الروضتين، ج٢، ص٦٥؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٦، ص٢٣٤.

[٣] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٦١-٤٦٩؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢١٢؛ الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٥٧؛ الصفدي: أُمراء دمشق، ص١١٧، ١٩٨؛ ابن كثير: طبقات الشافعية، ص٨٠٤، ٨٠٥؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٤٠٨-٤٢١.

[4] Cahen. Cl; La Syrie Du Nord A Le Époque Des Croisades, Index, 75 Et N. 5.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٦٥.

[٦] البرزالي: المقتفي على الروضتين، ج٢، ص٦٥

[٧] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٦٩؛ عوض: الجغرافيون والرحَّالة، ص١٣٥.

[٨] هو محمد بن سنجر شاه بن غازي، الملك المعظم، صاحب الجزيرة العمرية تملّكها بعد أبيه وبقي في الملك ثلاث وأربعين وأربعين سنة، بغا عليه صاحب الموصل وغرّقه(سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٥١م). الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٧، ص٤٠٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٤٠.

العمرية[١]، عند بدر الدين لؤلؤ[٢]، صاحب الموصل، وقال في هذا الصدد: « فرسم لي أنْ أشفع لهُ للملك للملك السعيد عنه إلى بدر الدين صاحب الموصل، وأوفّق بينهما»[٣].

وبعد هذه المُدَّة عايش ابن شداد أحداثاً بلغ فيها الصراع بين العرب المسلمين من جهة، و الصليبيين والمغول من جهة أُخرى ذروة الشدَّة لا سيَّما مع بدايات النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

إذ كانت هذه الفترة بمثابة الأيام العصيبة على العرب المسلمين، فقد استطاع المغول بقيادة هولاكو[٤]، حفيد جنكيز خان، أن يستولوا على معظم أقاليم العالم الإسلامي المعروف في ذلك الوقت، فقد قضوا على الدولة الخوارزمية، وحطَّموا قلاع الإسماعيلية[٥]، وأسقطوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية سنة(٦٥٦هـ /١٢٥٨م)، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم[٦].

---

١ بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام لها، ورستاق واسع الخيرات، يحيط بها دجلة من كلِّ الجهات إلَّا جهة واحدة، فهي على شكل هلال. الحموي: المشترك وضعاً، ص١٠٢؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، مج١، ص٣٣٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان ص٢٨٣.

٢ الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل كان مملوكاً أرمنياً، دخل في طاعة هولاكو، وأعانه على مراده، فأقرّه على بلده، وقرر عليه ذهباً كثيراً في السنة، فلما مات هولاكو انخرم النظام، ونازلت المغول الموصل، وعصا أهلها، فحوصرت عشرة أشهر، ثمَّ أُخذت، و توفي لؤلؤ وقتها يوم الجمعة ثالث شعبان وقد كمل الثمانين وذلك سنة(٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م). ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٨٦؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٢٣، ص٣٥٦-٣٥٨، المنصوري: التحفة الملوكية، ص٤٢؛ العيني: عقد الجمان، جـ١، ص١٩٩، ٢٠٠ (و فيه وفاته سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م).

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٢٣٨- ٢٤٠.

٤ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٩٧(وفيه ٦٦٤هـ/١٢٦٥م) ؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٥٣؛ الهمذاني: جامع التواريخ، مج٢/ ج١، ص٢٢٣؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ٢١٨؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٢٥٧-٢٥٩؛ البيضاوي(عبد الله بن عمر): نظام التواريخ، تصحيح: بهمن ميررزا كريمي، شركة مطبعة فرهومند، طهران، ط١، ١٨٩٥م، ص٩٤(وفيه وفاته سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م).

٥ كان هولاكو قد سار للقضاء على الإسماعيلية في فارس، و وصل إلى بلادهم سنة(٦٥٤هـ / ١٢٥٦م)، وكان السبب في ذلك أنَّ المغول خافوا من وقوف الإسماعيلية في وجههم إذا قرروا القضاء على الخلافة العباسية، وبالفعل حاصر هولاكو قلعة ألموت، فاستسلم صاحبها شمس الشموس بن علاء الدين، وبذلك استطاع المغول أن يقتحموا المقر الأصلي للإسماعيلية، فزالت دولتهم بعد أنْ عمَّرت (١٧١سنة). الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢/ ق٢، ص٢٨-٣٠.

٦ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٤٥، ٤٧١، ٤٧٥ ، ٤٧٨؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٤٤، ٤٥؛ ابن الكازروني(علي بن محمد): مختصر التاريخ، تح: مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠م، ص٢٧٣؛ الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٥٣؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج١، ص٢٢٠-٢٢٣؛ القلقشندي: مآثر الإنافة، ج٢، ص٩٠-٩٢؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص١٦٧-١٧٦؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٦٤-٣٧١.

واستولوا على مناطق من بلاد الشام[1]، وعندما حلَّ المغول بميَّافارقين سنة(٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م)، كلَّفه السلطان الناصر يوسف بمرافقة عائلته من دمشق إلى حلب، كما أوكلَ إليه مُهمِّة التفاوض مع المغول، وقد أشار المؤرِّخ إلى ذلك بقوله: « خرجت من دمشق رسولاً إلى المغول النازلين على ميافارقين في مستهلِّ شهر محرم، بصحبة الملك المُفضَّل صلاح الدين يوسف بن الملك المفضل موسى بن صلاح الدين، وأخرجَ معنا الملك الناصر أولاده الثلاثة وحريمه؛ ليكونوا بحلب، وأمرَ أنْ نأخذ معنا من حلب هدية إلى يشموط»[2].

إذ تمتع ابن شداد بدبلوماسية ولباقة وقدرة على الإقناع وامتاز بالقدرة والشجاعة النادرتين، وممَّا يدلُّ على ذلك قوله: « وطلبت منهم ما كانوا أخذوهُ من بلد حرَّان أو العوض عنه، وقلتُ: متى لمْ تنصفُونا خرجنا عن الطاعة»[3]، وهذه الرسالة إنْ دلَّت على شيءٍ فإنَّها تدلُّ على شجاعته النادرة، كما يدلُّ رَفضُهُ مُحاباة المغول للإيقاع بالملك الكامل[4] صاحب ميافارقين على دبلوماسيته القوية، إذ قال: « فأبيت أنْ أحمل هذه الرسالة، هؤلاء يريدون أن يعملوا بيَّ حيلةً حتَّى أُخرِجَ صاحبها، فيقتلوه ويملكوا البلد، فيقتلوا من فيه، وأكونَ السبب في ذلك»[5].

استمر حالُ ابن شداد اتِّجاه السلطان الأيوبي الناصر يوسف، وفي خدمته حتَّى سنة (٦٥٨هـ /١٢٦٠م) حينَ هجم المغول على حلب، وجفلَ الناس إلى دمشق والديار المصرية[6] ، ففرَّ مؤرخنا إلى الديار المصرية مع من فرَّ من حلب[7]، وقد حدَّد ابن شداد سنة خروجه من حلب ناجياً بنفسه، فقال: « وهذه الحمامات التي ذكرتها بحسب ما وصل إليه علمي، وفارقت بلدي في سنة سبع وخمسين و ستمائة»[8]، و

---

[1] ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٧٤-٤٧٦؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٦، ٢٣٧؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨، ص٣٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٣٥٨-٣٦٢.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق٢، ص٤٩١- ٤٩٢.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق٢، ص٤٩٣، ٤٩٤.

[4] محمد بن غازي بن محمد بن أيوب، السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي صاحب ميافارقين تملك البلد سنة(٦٤٥هـ/١٢٤٧م)، كان ملكاً شجاعاً كثير التعبد، استشهد بأيدي المغول بعد أخذ ميافارقين منه وقطع رأسه وطيف به بدمشق سنة(٦٥٨هـ/١٢٥٨م). أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص٢٠٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨، ص٣٦٦-٣٦٨؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢٩٣؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٨٧، ٣٨٨.

[5] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق٢، ٤٩٥، ٤٩٦.

[6] الإيبش و الشهابي(أحمد و قتيبة): دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب المسلمين، منشورات منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨م، ج١، ص٤٠٩؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص٣٦٩.

[7] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٨٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٨، ص٦٩؛ ابن أبي الفضائل(المفضل): النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد، تح: إدغار بلوشية، اصدارات بريبولس، بلجيكا، ١٩٨٣م، ج٢، ص٥٥٦.

[8] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٣٨.

و بعدها وصل مصر مُحتمياً بالسلطان الظاهر بيبرس الذي أحسن وفادة السياسي اللاجئ وأكرمه وقدَّر ما يُليق بمنزلته، وقال في ذلك: « وبعد فإنِّه لمَّا حللتُ بمصر المحروسة، وتبوأت محالها المأنوسة، وشملَني إنعام مولانا السلطان، صاحب الديار المصرية والممالك الشامية والبلاد الجزرية»[١].

وفي مصر أصبح ذا حُرمة ومكانة عند الملك الظاهر[٢]، إذ عاش في كنَفِهِ قرابة عشر سنين لم يُغادرها، فلمَّا عاد الملك الظاهر إلى الشام عاد ابن شداد بصحبته[٣]، وقال في ذلك: « ولما رحلتُ في سنة تسع وستين وستمائة إلى دمشق بصحبة مولانا السلطان الملك الظاهر– خلَّد الله ملكه»[٤]، لكنَّه لم يلبث أنْ عاد إلى القاهرة سنة(٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، وبقي فيها، في خدمة الملك الظاهر بيبرس[٥].

وتعبيراً عن إخلاصه للظاهر بيبرس وضع له **كتابين**: **الأوَّل** في حياته، وهو الجزء **الأوَّل** من" الأعلاق الخطيرة(تاريخ حلب)"، وقدَّمه إليه، و أشار إلى ذلك في مقدمته إذ قال: « ورأيت انتهاز الفرصة في شكر إنعامه العميم وإدراك البغية في وصف إكرامه الجسيم أنْ أضعَ كتاباً أذكُر فيه ما سنى الله له من الفتوحات التي لمْ تكن تتوهمها الأطماع»[٦]، أمَّا الكتاب **الثاني** فهو" السيرة– سيرة الملك الظاهر"[٧].

وهكذا استمر حال ابن شداد مُكرَّماً عند الملك الظاهر بيبرس حتَّى توفي الأخير في السابع والعشرين من شهر مُحَرَّمٌ سنة(٦٧٦هـ/١٢٧٧م)[٨]، وفي عهد الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان[٩]، تمتع ابن شداد باحترام وتكريم كبير من قبله، وجعله مستشاراً ووكيلاً له، واستشاره في اختيار المكان المناسب لدفن والده، وكلَّفه بحلِّ اشكالاته وشرائه، وأنْ يُوقفْ نيابةً عنه مكان دار العقيقي[١٠] قديماً وما تجدَّد بها من العمائر[١١]، ثمَّ عرض عليه الوزارة فامتنع عنها[١٢].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٨.

[٢] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص١٩٤.

[٣] زناتي: دراسات تحليلية في مصادر التراث العربي، ص٦٩.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٨٧، ١٨٨.

[٥] زناتي: دراسات تحليلية، ص٦٩.

[٦] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٩.

[٧] الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص٣٥٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص١٩٠.

[٨] زناتي: دراسات تحليلية، ص٦٩.

[٩] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٧٢، ٤٧٣.

[١٠] اتِّجاه المدرسة الظاهرية، وشمالي الجامع الأموي بغرب، وشرقي الخانقاه الشهابية. النعيمي: الدارس، ج١، ص٢٧١ و ج٢، ص٢٠٢؛ كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص٨١،٨٢.

[١١] المقريزي: السلوك، ج٢، ص١١٠.

[١٢] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص١٩٥.

وبعد وفاة الملك السعيد لازم ابن شداد الملك العادل بدر الدين سلامش، والملك المنصور قلاوون، وعاش بجوارهم مُعظَّماً، فحملوا إليه الكسوة والغلة والدراهم[١]، وخلال هذه المدَّة تعلَّم على ابن حنا[٢] وبهاء الدين الدين هذا أَحَدُ رجال الدهر حزماً وعزماً ورأياً ودهاء، وخبرة وتصرفاً،...، ولم يكن على يده يد[٣]، إذ أفاض حبُّ المطالعة والتثقيف الذاتي على العز ابن شداد ما أغناه عن مُلازمة الشيوخ، وتلقِّيه العلم على أيديهم، والتي غفلت المصادر عن ذكر أسمائهم، ولا يُعرف أحَّد منهم سوى ما ذكره مؤرخنا لبعضهم في" الأعلاق الخطيرة"، فذكر منهم القاضي بهاء الدين أبو المحاسن ابن شداد فيما أجازه برواية الحديث أخذاً بإفادته[٤].

وروى العز ابن شداد شيئاً وسمع منه المصريون، مما يدلُّ أنَّه كان شيخٌ مُعترفاً به في مصر، وأنَّه أَحَدُ شيوخ الحديث فيها، وسماع المصريين منه[٥].

ثمَّ انصرف إلى العلم والتصنيف وحصر اهتمامه بالتاريخ وعمَّق معلوماته فيه استناداً إلى مؤلفات من سبقه في هذا المضمار[٦]، ويبدو أنَّ الاطلاع الواسع الذي توفر لهُ جعله يتمتع بثقافة عميقة مكَّنته من كتابة العديد من المؤلفات فقد برع بالتأليف في التاريخ والجغرافية التاريخيَّة، والتفسير، وتعدَّدت المجالات الجُغرافيَّة الإقليمية لمؤلفاته، إذ تناول بلاد الشام والجزيرة، واليمن، ولم يجعلها قاصرة على نطاق جُغرافي محدود، كما أنَّه تجاوز عصره، وانتقل إلى العصور القديمة[٧].

ولعلَّ أشهر ما صنَّفه في هذا المجال كتاب" جنى الجنتين في أخبار الدولتين"، وهو كتاب في الخوارزمية لمْ ينجزه المؤلف[٨]، وقد أشار إليه في الأعلاق بقوله: « وكتابُنا الموسوم بجنى الجنتين في أخبار الدولتين»[٩]، وصنَّف كتاباً في سيرة السلطان الملك الظاهر بيبرس[١٠]، وكتاب" القُرعة الشدادية

---

[١] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٣٤.

[٢] علي بن محمد بن سليم الصاحب الوزير ابن حنَّا المصري استوزرته شجر الدُّر، ثمَّ الملك الظاهر بيبرس، له مدرسة وأوقاف ومتاجر، توفي سنة(٦٧٧هـ / ١٢٧٨م). الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٦٩؛ ابن حجر العسقلاني: تبصير المنتبه، ج١، ص٤٧٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١/ ق، ص٣٤٤.

[٣] الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٥٢.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤.

[٥] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص١٩٠.

[٦] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، مقدمة الكتاب، ص١٦، ١٧.

[٧] عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٣٦.

[٨] حاجي خليفة: كشف الظنون، مج٢، ص١٠١٦.

[٩] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق٢، ص٣٥٩.

[١٠] البرزالي: المقتفي على الروضتين، ج٢، ص٦٥؛ عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٣٦.

الحميرية"، أو" تحفة الزمن في طرائف أهل اليمن"[1]، وله" كروم التهاني لتفسير السبع المثاني"، وهو كتاب في مجال التفسير كما يتضح من عنوانه[2]، ولعز الدين بن شداد كتاب" تاريخ حلب"[3].
على أنَّ شهرة ابن شداد ترجع كمؤرِّخ وجغرافيّ إلى مُصنَّفِه الأكبر الذي يحمل اسم " الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة[4] وهذه التسمية لا تُعبِّر بدقة عن فحوى الكتاب، فهو لا يقتصر على تاريخ هاتين المنطقتين[5]، بل يُمثِّل في الواقع دراسات مُستقلة ذات طابعٍ تاريخي جغرافي للمقاطعات والمدن المختلفة، الأمر الذي جعل بعضهم يضع الكتاب في صنف كتب الخطط الجغرافية الشبيهة بنمط الخطط المصرية[6] وقد أنجزه سنة(٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وخلال السنوات الأخيرة من عمره التزم بيته يقرأ الكتب ويُصنِّف في مجالات التاريخ والجغرافية وغيرها، إلى أنْ وافته المنية في سابع عشر صَفَرَ سنة(٦٨٤هـ/١٢٨٥م)[7] وهو في السبعين من عمره[8]، ودفن بسفح المقطم[9]، وصُلِّيَ عليه بدمشق صلاة صلاة الغائب في ثامن عشر رَبِيعٌ أوَّل[10].
لقد انتهت أيام علمٍ من أعلام عصر المماليك ممَّن عُرِفوا بعلمهم الوافر وشهرةِ تصانيفهم، وممَّا يدلُّ على ذلك قول المؤرِّخين فيه، إذ قال فيه اليونيني: « و كان له مكانة عند الملك الظاهر ركن الدين بيبرس والملك المنصور سيف الدين قلاوون، وحرمته وافرة وله توصلٌ ومداخلة، وعنده بشرٌ كبيرٌ ومُسارعة إلى قضاء حاجة من يقصده»[11].

---

[1] سيد(أيمن فؤاد): مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٣م، ص١٢٩.

[2] الباباني: ايضاح المكنون، مج٢، ص٣٥٢.

[3] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص١٩٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص١٩٠؛ أخطأ بعض الباحثين في نسب الكتاب خطأً للمؤرِّخ الحلبي بهاء الدين بن شداد(ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٦م)، ومنهم: حمزة: الحركة الفكرية، ص٣٠٩؛ العريني: مؤرخو الحروب الصليبية، ص٢٠٢.

[4] عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٣٦.

[5] الإيبش و الشهابي : دمشق الشام، ج١، ص٤٠٩.

[6] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٧٠؛ الإيبش و الشهابي : دمشق الشام، ج١، ص٤٠٩، ٤١٠.

[7] الصقاعي: تالي وفيات الاعيان، ص١٤٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٠٥؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٥١؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٦، ص٢٣٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٨٨.

[8] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص٢٠١.

[9] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص١٩٥.

[10] البرزالي: المقتفي على الروضتين، ج٢، ص٦٥.

[11] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٢٧٠.

وقال فيه الصفدي، واليافعي: « ابن شداد الرئيس المنشئ البليغ»[١]، ووصفه الذهبي بأنَّه كان أديباً فاضلاً، حسن المحاضرة، وكان من خواص السلطان الملك الناصر يوسف صاحب حلب، وترسل عنه إلى هولاكو وغيره من الملوك، وله صورة في الدولة ويرجع إلى إشارته ورأيه[٢]، وقال ابن كثير: « كان فاضلاً معتنياً بالتاريخ»[٣]، وترجم له ابن الفرات فقال: « كان الصاحب الوزير المشير عز الدين فاضلاً، ديّناً، مؤرِّخاً، رئيساً، مُعظَّماً عند الأمراء، محبُوباً إليهم»[٤].

ب- دراسة كتاب الأعلاق الخطيرة في ذكر أُمراء الشام والجزيرة[٥]:

إنَّ كتاب الأعلاق الخطيرة ليس الأوَّل من نوعه من بين المؤلفات الجغرافية العربية الذي يحمل عنوان الأعلاق، فمن قبل ألَّف الجغرافي ابن رسته كتابه" الأعلاق النفيسة" وإنَّ أوَّل ما يعكسه تعبير الخطيرة ثقة مؤلفه فيما ألَّفه خاصة أنَّه استغرق في تأليفه قرابة العقد من الزمن، والأعلاق: جمع علق، وهو النفيس من كلِّ شيءٍ والخطير من الأمور هو ما كان له شأن كبير وأهميته قُصوى، وكأنَّما أُريدَ بهذه التسمية نفائس أخبار أُمراء الشام والجزيرة، وأعظمها أهمِّيةً واعتباراً، ويُلاحظ أنَّ الكتاب اهتمَّ بوصف الظواهر الجغرافية، والطبوغرافية، ثمَّ تبع ذلك تناول التاريخ السياسي، لتلك المناطق التي تصدَّى ابن شداد للكتابة عنها[٦].

ويرى أحَّدُ المستشرقين ما نصَّه: « إنَّ التأثيرَ الذي خلقته خبرات الصليبيين التاريخيَّة عن الحياة الفكرية في سورية تجلَّى في مؤلف آخر عن التاريخ المحلي السوري إلَّا وهو" أعلاق الحاضرة في أمراء وحُكَّام الشام والجزيرة" لابن شداد»[٧]، و الواقع أنَّ هذا التصوُّر لا ينطبق إلى الواقع بصلة، إذ إنَّ الصليبيين لم تتفوق لديهم المعارف التاريخيَّة بالصورة التي تجعل العرب المسلمين يُفيدُون منها، وعلى العكس تماماً فإنَّ الصليبيين هم من استفادوا من تجربة العرب المسلمين، ودليلُ ذلك أنَّ مؤرِّخهم وليم الصوري الذي كان

---

١ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص١٩٠؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٥١.

٢ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥١، ص١٩٤.

٣ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣٠٥.

٤ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٣٣.

٥ لابدَّ من الإشارة إلى قضية مهمة جداً فقد نسب البعض الكتاب إلى ياقوت الحموي، كون إحدى نسخ الكتاب المخطوطة تحمل عنوان مجمع البلدان، لكن مما يدحض هذا الادعاء أنَّ الكتاب يحمل في طياته أحداث ووقائع وصل التأريخ لها حتَّى سنة(٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م)، في حين أن ياقوت الحموي توفي سنة(٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، وبجانبٍ آخر أنَّ" كتاب الأعلاق الخطيرة" ذُكر فيه أسماء كتب أخرى وهي" جنى الجنتين في أخبار الدولتين"، و" سيرة الملك الظاهر بيبرس"، وهي كتب مثبتة لابن شداد ، ثمَّ أنَّ سفارته لدى هولاكو في ثنايا الكتاب كلَّها أدلة تؤكد أنَّ الكتاب هو من تأليف عز الدين ابن شداد الحلبي. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٥٧، ٥٨.

٦ عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٣٦، ١٣٧.

٧ روزنتال(فرانز): علم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص٢١٥.

يجيد العربية اطّلع على المؤلفات التاريخيَّة العربية وأفاد منها، إضافةً إلى ذلك فإنَّ الباحث أورد عنوان ما ألفه ابن شداد خطأً[١] والصواب هو كتاب" الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة"[٢].

أ- ب- دوافع و زمن تأليف الكتاب وتسميته:

لعلَّ السببَ الرئيسُ الذي دفع ابن شداد إلى تأليف كتابه" الأعلاق الخطيرة" هو العُرفان بالجميل وإخلاصه لسيده الملك الظاهر بيبرس، وقد أوضح ابن شداد المُقتضيات التي اقتضت منه القيام بتأليفه فقال في بيانها: « وبعد فإنَّه لما حللتُ بمصر المحروسة وتبوَّأتُ محالها المأنوسة وشملني من انعام مولانا السلطان السيد الأجلِّ المجاهد المرابط رافع كلمة الإيمان...، رأيت انتهاز الفرصة في شكر إنعامه العميم وإدراك البغية في وصف إكرامه الجسيم أنْ أضع كتاباً أذكرُ فيه ما سنى الله له من الفتوحات التي لمْ تكنْ توهمها الأطماع وملكه ما كان بأيدي الكفر من منيعات الحصون والقلاع، وما وطئه سنابك خيوله، واسترجعتْه مواضع لهادمه ونصوله من البلاد التي يئست الأطماع من ردها، وألزمت العيون مداومة سهدها، و جرعت النفوس الصبر بعد شهدها»[٣].

إذاً بدأ ابن شداد بتأليف كتابه في مصر، وهو أشبه بخُلاصة للوضع في العالم العربي الإسلامي شرق البحر الأبيض المتوسط قبل تحركات المغول التي تكاثفت في خاتمة القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بقيادة قازان[٤]، وقد أتمَّ ابن شداد الجزء **الأول** الذي أفرده للكتابة عن تاريخ حلب وقنسرين والثغور والعواصم وملحقاتها في حدود(٦٧٣هـ /١٢٧٤م)، و ذكر ذلك عند الحديث عن أعزاز فقال: « ثمَّ كانت في يد مولانا السلطان الملك الظاهر إلى عصرنا، وهو سنة ثلاث وسبعين وستمائة»[٥].

---

[١] عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٣٧.

[٢] حقيقة الأمر أن هناك عدداً من الباحثين خلطوا في نسب كتاب" الأعلاق الخطيرة"، فقد نسبه البعض للمؤرِّخ بهاء الدين بن شداد(ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٦م)، مؤلف" النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين". ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٤. ولعلَّ من أبرز الباحثين الَّذين نسبوا كتاب" الأعلاق الخطيرة" خطأً لبهاء الدين بن شداد هم: حاجي خليفة: كشف الظنون، مج١، ص١٢٣؛ زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، ص٦٣؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج١، ص١١؛ بدوي(أحمد): الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر، الفجالة- القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢٦٥، إذ قال: « كما وضع ابن شداد الحلبي المتوفى سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٦م كتابه الأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة»؛ ماجد(عبد المنعم): العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م، ص٢٧١؛ الورقي: مصادر التراث العربي، ص١٥٦.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٨، ٩.

[٤] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٧٠.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٩٢.

أمَّا الجزء **الثاني** المفرد لجنوبي الشام وهو الجزء الخاص بدمشق ومدن جنوبي بلاد الشام فقد أتمَّه سنة(٦٧٨هـ/١٢٧٩م)[١]، فاستغرق فيه حوالي خمس سنوات متتالية على مدى الأعوام من سنة(٦٧٤-٦٧٨هـ/١٢٧٥- ١٢٧٩م)، وأمَّا الجزء **الثالث** و المخصَّص لتاريخ الجزيرة فقد انتهى من وضعه سنة(٦٧٩هـ/١٢٨٠م)، والمُرجَّح أنَّ ابن شداد كان يكتب في تاريخ الجزيرة، وهو يكتب تاريخ دمشق ويدلُّ على ذلك قوله في تاريخ الجزيرة: « واستمرت رأس العين في يده إلى عصرنا الذي وضعنا فيه هذا التاريخ، وهو سنة خمس وسبعين وستمائة»[٢]، وبذلك يكون ابن شداد قد استغرق في تأليفه مُدَّة زمنية طويلة خلال الرحلة الواقعة من سنة(٦٧١- ٦٨٠هـ/ ١٢٧٢- ١٢٨١م)[٣].

وقد اتَّبع المؤلف في تسمية كتابه الأسلوب الجاري في عصره، وفي العصور الأخرى أسلوب السجع؛ ليجعل وقعَ اسمَ كتابه في السمعِ، وقال في تسميته: « وعندما تمَّ كتابي وكَمِلَ، وارتدى بالفوائد واشتمل، سمَّيتهُ بالأعلاق الخطيرة في ذكر أُمراء الشام و الجزيرة»[٤].

ب- ب- محتويات الكتاب:

إنَّ موضوع كتاب" الأعلاق الخطيرة" لا ينصبُّ على أخبار الأُمراء في الشام و الجزيرة فحسب، بل خرجَ المؤلف إلى بحث مُدن الشام والجزيرة ودرس بالمدن الإقليم الشامي دراسةً قيِّمةً، فكشف عن الواقع الطبوغرافي الذي يقوم عليه واقع البلد بالكشف عن تضاريسه وسهوله ووديانه، وآثاره العمرانية وواقعه البشري، وما واقع الأُمراء إلَّا طَرَفٌ من أطراف البحث، ونجد أنَّ الأقسام المخصَّصة لذكر أُمراء الشام لا نلمس لها أثراً وربَّما أنَّ المؤلف قد بدا له أمر، فأغفل ذكرها أو أنَّ المؤلف كان قد كتبها في مسودته، ولم يجرِ تبييضها[٥].

وكتاب" الأعلاق الخطيرة" يتضمَّن جُغرافيَّة البلاد ووصف دروبها ومسالكها، ورسم المدن والقرى والكور والجبال، إلى تاريخ الأحداث التي تقلبت على هذه الربوع، وما أصابها من انتصار وانكسار، فهو تاريخ وجُغرافية، و أدب وفن، يُصوِّر البلاد خلال سبعة قرون، يجمع فيه دور العلم والعبادة والنسك والزهد، إلى أبواب المدن وأسوارها، ومنابع الأنهار وروافدها، في تأليف طريف لا تفوته الدقَّة والإحكام، ولا ينقصه الوضوح والترتيب، وقد بدأه مؤلفه بمُقدمة بيَّن فيها سبب تأليف الكتاب، ثمَّ منهجَهُ العام، وتسميتهُ للكتاب، وبعد ذلك عَمدَ المؤلف إلى تقسيم كتابه إلى **ثلاثة أجزاء**، وكلِّ جزء منها إلى **ثلاثة أقسام**، وضمَّن كلَّ قسمٍ من أقسام الكتاب عدداً من **الأبواب** وفق الآتي:

---

[١] الإيبش و الشهابي: دمشق الشام، ج١، ص٤١٠.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١٥٠.

[٣] عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٣٦.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٢.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٢.

الجزء الأول:

خُصِّصَ للتأريخ لحلب[١] وقنسرين والثغور والعواصم وملحقاتها وجعله **ثلاثة أقسام** هي:

القسم الأول:

خصَّصه لحلب، وضمَّنه **سبعة عشر** باباً في أمر البلد، وما اشتمل عليه بنيانه ظاهراً وباطناً، فالباب **الأوَّل:** في ذكر موضعها من المعمور، **والثاني:** في ذكر الطالع التي بنيت فيه ومن بناها، **والثالث:** في ذكر تسميتها واشتقاها، **والرابع:** في ذكر صفة عمارتها، **والخامس:** في ذكر عدد أبوبها، **والسادس:** في ذكر بناء قلعتها والقصور القديمة، **والسابع:** في ذكر ما ورد في فضلها، **والثامن:** في ذكر مسجدها الجامع والجوامع التي بظاهرها وضواحيها، **والتاسع:** في ذكر المزارات التي بباطنها وظاهرها، **والعاشر:** في ذكر المساجد التي بباطن حلب وظاهرها، **والحادي عشر:** في ذكر الخانقات والربط، **والثاني عشر:** في ذكر المدارس، **والثالث عشر:** في ما بحلب وضواحيها من الطلسمات والخواص، **والرابع عشر:** في ذكر الحمامات **والخامس عشر:** في ذكر نهرها وقنيتها، **والسادس عشر:** في ذكر ارتفاع قصبتها، **والسابع عشر:** في ذكر ما مدحت به نظماً ونثراً.

القسم الثاني:

خصَّصَهُ لذكر ما اشتملت عليه جند قنسرين، وما أضافه إليه من بلاد العواصم والثغور وبلاد حمص، وضمَّنه **سبعةَ أبواب** فيما اشتمل عليه حدود نواحيها الخارجة عنها، فالباب **الأوَّل:** في تعديد بلاد جند قنسرين وصفاتها، **والثاني:** في ذكر الثغور وتحديد بقاعها، **والثالث:** في ذكر العواصم وحصونها، **والرابع:** في ذكر ما حوى جند حمص من البلاد، **والخامس:** في ذكر ما في مجموع هذه البلاد من الأنهار، **والسادس:** في ذكر ما فيها من البحيرات، **والسابع:** في ذكر ما فيها من الجبال[٢].

القسم الثالث:

في ذكر أمرائها منذ فُتِحت إلى عصر المؤلف وقد صفح المؤلف عن تأليفه، ولا يعرف ما هي الأسباب التي دفعته لذلك؟ رغم ذكرها في منهجه، أو أنَّه مفقود[٣].

الجزء الثاني:

خُصِّصَ هذا الجزء لمدينة دمشق، ومدن بلاد الشام الجنوبية، وينقسم إلى عدد مماثل من الأقسام، **فالقسم الأوَّل:** مُخصَّص لدمشق وتتناول فيه ذكر اشتقاق اسمها ومن بناها، وذكر أبوابها وقلعتها ومسجدها الجامع، وذكر مزاراتها وخوانقها وربطها ومدارسها وكنائسها وحماماتها، وما مدحت به شعراً ونثراً[٤]،

---

[١] زناتي: دراسات تحليلية، ص٦٩، ٧٠.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٤- ٣٦.

[٣] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٧٠.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٩، ١٠.

والقسم الثاني: في ذكر أنهارها وقنواتها، وجبالها، وبلاد جند الأردن وفلسطين[١]، **أمَّا القسم الثالث:** في ذكر أمراء دمشق ومَنْ فتحها حتَّى مُنتهى تاريخه[٢]، وهذا القسم بحكم المفقود[٣].

الجزء الثالث:

فهو مكرس للجزيرة وفقاً لمناطق مضر وديار ربيعة وديار بكر، مع وصف لأهمِّ المدن التابعة لكلِّ منطقة[٤]، وينطوي هذا الجزء على **مقدمة وثلاثة أقسام** مفصلة، ففي المقدمة عرض المؤلف جغرافية الجزيرة الفراتية، فعيَّن موقعها وحدودها وطبيعة سطحها، وحدَّد إقليمها وموقعه، ثم بيَّن سبَبَ تسمية هذا الصقع بالجزيرة، وسبب إضافتها إلى أثور أو أقور، واستشهد بأقوال من سبقه من الجغرافيين والمؤرِّخين بخصوصها[٥]، ثمَّ أتى المؤلف على ذكر ما عُرِفَ من ديارها مُقسِّماً هذا الجزء إلى **ثلاثة أقسام هي:**

القسم الأول:

حدَّدَ فيه ديار مضر، وما فيها من أمهات المدن الواقعة في نطاق المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من الجزيرة.

القسم الثاني:

حدَّدَ فيه ديار ربيعة، وما فيها من أمهات المدن الواقعة في نطاق المنطقة الواقعة في الجنوب الغربي من الجزيرة.

القسم الثالث:

حدَّدَ فيه ديار بكر، وما فيها من أمَّهات المدن الواقعة في نطاق المنطقة الشمالية من الجزيرة[٦]، وفي ثنايا أقسام هذا الجزء وفصوله ذكر مَنْ حلَّ في الجزيرة، وأقام في ديارها أولاً وأخيراً من أُمم وأقوام وقبائل وشعوب كان لها دور في جغرافيتها البشرية مثل العرب، والفرس، والكرد، والأرمن، واليونان، والروم، والسلاجقة، والخوارزمية، والمغول، ثمَّ أخذ المؤلف في الكلام على تاريخ أُمَّهات مُدن الجزيرة وتعقبها مدينةً إثْرَ مدينة اعتباراً من تاريخ فتح الجزيرة على يد عياض بن غنم في السنة السابعة للهجرة زمن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ﷺ، وحتَّى دخول المغول لديارها وإقامتهم فيها سنة(٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، ثمَّ استمرارهم في احتلالها وإقامة نوابهم فيها إلى زمن المؤلف وكتابته عن بعض أخبارها في سنة(٦٧٩هـ/١٢٨٠م)، وقدَّم المؤلف في هذا الجزء جغرافية كلّ مدينة بتحديد موقعها، وكشف طبيعة أراضيها،

---

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٠.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٠.

٣ زناتي: دراسات تحليلية، ص٧٠.

٤ الإيبش و الشهابي : دمشق الشام، ج١، ص٤١٠.

٥ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٤.

٦ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٥- ٧.

وما يجاورها من نهر أو جبل أو سهل، وذكرَ كيفية إروائها واستقاء أهاليها، والوسائل المستخدمة في استنباط مياهها، وذكر المواد الأولية المستخدمة في بناء كلِّ مدينةٍ، ووصف طبيعة صخورها وتربتها.

ثمَّ ذكر ما احتوت عليه كلَّ مدينةٍ، وما عُرِفَ فيها من قلاع وحصون، وما أحاط بها من أسوار، وما احتوت عليه من أرباضٍ، وما فيها من فصيل، وما أقيم لها من أبواب، وما في داخل كلِّ مدينةٍ من شوارعٍ وأسواقٍ، وما أُنشئ فيها من مساجدٍ، وزوايا، ومدارس، وخانقاهات، ومزارات، وديارات، وصوامع، وما بُنِيَ فيها من مارستانات، وجواسق، وما في داخلها من حمامات، وفنادق، وما في أطرافها من رُبط، وتكايا، وما في جوارها من منتزهات وبساتين، وما أُقيم على أنهارها من معابر وجسور، وما جُرَّ إلى داخلها من سُرابات، إلى غير ذلك.

ويُطالع في هذا الجزء من الحوادث، قيام الحمدانيين بامتلاك الجزيرة وخروجهم عن طاعة الخلافة العباسية، وأخبار العقيلين، وخاصة أخبار شرف الدولة مسلم بن قريش، ونطالع أيضاً توالي الأمراء الزنكيين في الموصل والجزيرة وسنجار وحلب ودمشق، وطرفاً من أخبار الدولة الموحدة التي أقامها نور الدين محمود الشهيد في مصر والشام ودوره في تصديع القوى الصليبية الغازية الوافدة من أوربة، وطمع الغرب الصليبي في الشرق الإسلامي وامتلاك أقاليمه، وأمدَّنا هذا الجزء بأخبار البيت الأيوبي وأمرائه الَّذين توالوا على حكم الجزيرة وامتلاك مدنها، وقصَّ المؤلف خبر الغزو المغولي لمدن الجزيرة وسقوطها بيدهم سنة(٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، وأخيراً تعرَّض المؤلف فيه إلى قيام دولة المماليك البحرية في مصر، والدور التي قامت به في إيقاف الزحف المغولي بعد انتصارهم على المغول في موقعة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)[١].

ج- ب- منهج ابن شداد في كتابه:

تُوصف منهجية ابن شداد بأنَّها نوع من الكتابة الجُغرافية التاريخيَّة لبلاد الشام، فكتاب" الأعلاق الخطيرة" فضلاً عن أنَّه كتاب في التاريخ لكنَّه حملَ في طياته الكثير من الجوانب الجُغرافية للمُدن التي تعرَّض لها، وما يُلحق بها من المساجد والمدارس وغير ذلك[٢].

والمنهج العام الذي اتبعه ابن شداد في تقسيم كتابه هو ذكر المنطقة الجغرافية بأعمالها وما اشتملت عليه حتَّى يُقدِّم للقارئ صورة مفصلة عنها جُغرافيَّاً وتاريخيَّاً ذاكراً لأهمِّ الأحداث التاريخية، إذ قال: « رأيتُ انتهاز الفرصة في أنْ أصنعَ كتاباً أذكُر فيه ما سنى الله له من الفتوحات، مُفصِّلاً كلَّ جندٍ من أجنادِ الشام والجزيرة بأعماله وحدوده ومكانه من المعمور وأطواله وعروضه ومطالع سعوده مُلتزماً في كلِّ بلدٍ ذكر مَنْ وليه من أوَّل الفتوح وإلى الوقت الذي فُرِغَ فيه هذا الكتاب»[٣].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٤٦- ٥١.

[٢] عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٤١.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٠.

ولكي يُطمئِن القارئ لجأ ابن شداد إلى إيراد المعلومات التي تأكد من صحتها من أولي النقد والحلِّ، وأخضع بعضها للنقد والتحليل، مُعتمداً في ذلك على عدد من المصادر المعاصرة، إذ قال: « وأُجري في ذلك طلق جهدي معتمداً فيه على ما صح عندي، ولا أدَّعي الإحاطة فيما ذكرتُ، ولا أقول إنِّي أحرزتُ الغاية، وما قصرتُ عن إدراكها بل جعلتُه دستوراً يسترجعُ به عارب الإنس، ويُستفادُ منه ما حدث باليوم والأمس...، إذ لا حولَ إلَّا به ولا معوَّل إلَّا عليه ولا قوَّة إلَّا منهُ سائلاً من وقف على ما جمعتُه، ولفقتُه، ووضعتُه، ونمقتُهُ من ذوي الأخذ، والنقد، وأولي الحلِّ في المعارف، والعقد»[1].

كذلك فإنَّ المتتبع للكتاب يُلاحظ أنَّ ابن شداد كان يذكر الكثير من المعلومات بشكل مُفصَّل، بينما اقتصر على بعضها الآخر بشكل موجز، وهذا راجع لأهمِّية المكان الذي يتحدث عنه أو الحدث التاريخي، وراجع أيضاً لتوفر المادة العلمية التي اعتمد عليها، إذ قال: « إصلاح ما يُرى فيه ممَّا لا يقبله التمييز ويرتضيه من تقصير في العبارة أو تطويل في مكان الإشارة أو خلل، وقع في الترتيب أو زلل أخلَّ به مُقتضى التهذيب مُلتمساً منه أنْ يسبلَ عليه سترَ المُسامحة عالماً أنَّ الاعتداد إنَّما هو بالنيَّة الصالحة متيقنَّاً أنَّ التأريخ مُعرَّض للتصديق والتكذيب وأنَّ واضعه سائقٌ نفسه إلى التعنيف والتثريب والله تعالى أسأل غفراً وآمل ستراً وأرغب أنْ يشرحَ لي صدراً ويُبدل عسري يُسراً وأصدر القول بالأهمِّ من تكميل غرضي في هذا الكتاب»[2].

وعمدَ المؤلف إلى تقسيم كتابه إلى أقسام سمَّاها المقاصد، وهي **أربعة مقاصد**، فجعل **المقصد الأول:** في ذكر الشام واشتقاق اسمه، **والمقصد الثاني:** في ذكر أول من نزل به، **والمقصد الثالث:** في ذكر ما ورد من فضل الشام، **والمقصد الرابع:** في ذكر موضعه من المعمور وحدوده، وإلى ما انقسم إليه من الأجناد[3].

واقتفى ابن شداد في كتاباته التاريخيَّة في كتابه آثارَ موطنه الحلبي ابن العديم، ونحا في أسلوبه أسلوب ابن عساكر، ولا يكاد الناظر أنْ يُميّز ما كان مِنْ سرده أو مِنْ سرد ابن عساكر، ونحا في مُقدمة الكتاب مَنْحَى الكُتَّاب المُترسلين في القرنين الخامس و السادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، فاعتنى بالصناعة اللفظية والزخرفية القولية، والإكثار من استخدام البديع والموازنة والترصيع والسجع والازدواج، واستخدام الجمل القصيرة ذات الفواصلِ في كتابته[4]، إلَّا أنَّ ابن شداد كان ينطلق من هذا

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٣.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٣.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤.

[4] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧.

الأسلوب المُنمَّق، عندما يُركِّز على نقل الأفكار والإفهام، فيأتي بالسهل المُمتنع، ويؤدي أفكاره بواجز العبارة، وأنصع البيان[١].

ولعلَّ الصفةَ البارزة بالنسبة لكتابة ابن شداد أنَّه يوصف بالأمانة العلمية، والدقة في التحري، والتوثيق المصدري، إذ أنَّه عندما لا يجد ضالته في المصادر المتوافرة تحت يديه يُعلن ذلك صراحة دونما مواربة، من ذلك عندما يبحث عن تاريخ حصن من الحصون، ولم يحالفه التوفيق في تتبُّع أصوله الأولى يُصرِّح بأنَّه لمْ يعثر له على ذكر في كتاب من كتب التواريخ في صدر الإسلام، ومثال ذلك قوله في سمسياط: « ثمَّ إنَّ الدمستق أخذ ملطية وقصد سمسياط، ولم أعثر لها بعد ذلك على ذكر فيما قرأته من التواريخ المبسوطة والمختصرة»[٢].

واعتمد ابن شداد في تدقيق رواياته على منهج علمي دقيق، لازمه نقد أغلب مصادره التي اعتمدَ عليها، وبيان ما وقع به صاحب المعلومة من خطأ جغرافي أو تاريخي، وقد لازمه هذا الأمر في أغلب صفحات الكتاب ومثال ذلك توجيه النقد لكلّاً من اليعقوبي، وابن خرداذبه اللذين لم يُقدِّما معلوماتٍ وافية عن الجزيرة، إذ قال: « وأمَّا من تقدَّم من مُصنِّفي المسالك والممالك، كابن خرداذبه، وابن واضح فإنِّهم لم يُفصِّلُوها»[٣].

كذلك أنَّ منهجه لمْ يمنعهُ من أنْ يستطرد في حدود المنطق ليتجاوز التاريخ والجغرافية، شاملاً في كتابه الناحية العمرانية، مع ذكر لمصادر المياه وتعدَّاه أحياناً لوصف الجبال، وذكر ما اشتهرت به المناطق التي أوردها، من الزروع والحيوانات والمعادن وغير ذلك[٤].

واعتمدَ ابن شداد في منهجه التاريخي، منهجاً يقوم على ترتيب الأحداث الزمنية ترتيباً تسلسلياً، فكان يذكر مثلاً بناء مدينة، ثمَّ يذكر ما جرى فيها من الأحداث والتغيرات في زمن الأمويين والعباسيين، وهكذا حتَّى عصره، وقد أوضح ذلك بشكل صريح في منهجه إذ قال: « وأتوخَّى في ترتيب ذلك أيام الخلفاء الراشدين، ومَنْ خلفهم من بني أمية والعباسيين...إلخ»[٥]، كما أحسَّ ابن شداد بالمطالب الأدبية لعصره، فضمَّن كتابه مُنتخبات شعرية لعدد من المناطق التي أورد ذكرها، لا سيَّما قوله النثر والشعر في حلب، وغيرها[٦].

د– ب– موارد المؤلف:

---

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٨، ٢٩.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٩٣.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٦.

٤ مثالها ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٧٣، ١٨٠، ١٨٤، وغيرها.

٥ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٢.

٦ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٦٥، ٣٦٧، ٣٧٨، ٣٨٨، وغيرها.

لا نزاعَ أنَّ كتاباً مُتعدد الأجزاء، استغرق من مؤلفه العمل به نحو عشر سنوات من أجل تأليفه؛ من المنطقي تصوُّر تعدُّدِ وتشعُّبِ المصادر التي اعتمد عليها المؤلف، من أجل انجازه، ومن الممكن تقسيم المصادر التي اعتمد عليها الجغرافي والمؤرِّخ ابن شداد إلى **أقسام عدَّة هي:**

الأولى- المعاينة والمشاهدة:

جعلها بصورة ما مرتبطةً بالمزارات، وأماكن المقدسات الدينية[١]، ومثال ذلك قوله عن قبر أبي عبيدة بن الجراح في غور نابلس: « وقد زُرناه بطبرية»[٢].

الثانية- المصادر المكتوبة:

يُعدُّ ابن شداد مؤرخاً و جغرافياً نقَّالة، اعتمد على كمٍّ هائلٍ من المصادر المكتوبة التي شملت مؤلفاتِ من سبقه، وعاصره من المؤرِّخين والجغرافيين، التي استعان فيها المؤلف في أغلب مواضع الكتاب مع الإشارة إليها[٣]؛ ولكثرة عدد هذه المصادر بشقِّيها الجغرافي والتاريخي، سيُقتَصر على ذكر أهمِّها، **فمنها:**

1ً- أهمّ الموارد الجغرافية:

يأتي في مقدمتها" أسماء البلدان" لهشام بن محمد بن السائب الكلبي[٤]، و كتاب" البلدان" للجغرافي اليعقوبي[٥]، و" المسالك والممالك" لابن خرذادبة[٦]، و" البلدان الكبير" لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري[٧]، و" صورة الأرض"[٨]، وكتاب" القانون المسعودي" للبيروني[٩]، و" المسالك والممالك" للمهلبي[١٠]، و" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي[١١]، بالإضافةِ إلى كتاب" الإشارات إلى معرفة الزيارت" للهروي[١٢]، ورحلة ابن جبير[١٣].

---

[١] عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٣٨.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق٢، ص١٣٢.

[٣] عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٣٨.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٥٣.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٧، ٣٨.

[٦] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٦.

[٧] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٣٨، ٤٤.

[٨] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١٤٠.

[٩] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٤٤.

[١٠] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٢٩.

[١١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٦٩.

[١٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٦٩.

[١٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٤١٢.

و ينبغي الإشارة إلى أنَّ ابن شداد اعتمد عند تفصيله لخطط دمشق وفضائلها على كتاب مؤرِّخ دمشق الكبير الحافظ بن عساكر، رائد الأسلوب التاريخي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وزاد عليه ما استجد في عصره[١]، كذلك اعتمد على" معجم البلدان" لياقوت الحموي[٢]، وهنا لا بدَّ من توجيه النقد للمستشرق الروسي كراتشكوفسكي الذي قال: « الغريب أنَّ ابن شداد لمْ يشرْ أبداً إلى معجم البلدان لياقوت الحموي والمتداول في عصره»[٣]، فمن المستبعد أن يكون كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي مجهولاً بالنسبة لعز الدين بن شداد وكلَّاً منهما شامي الإقامة ولا سيَّما في حلب كما أنَّ المرحلة الزمنية بينهما لم تكن طويلة، ومن المرجح أنَّ كتاب ياقوت كان متوفراً في نسخ عدَّة مخطوطةٍ في زمن ابن شداد، خاصة إذا علمنا أنَّ المؤرِّخَ الجُغرافيُّ أبا الفداء قد أفاد منه فائدة كبيرة، وهو غير بعيدٍ عن زمن ابن شداد.

ويعدُّ كتابا" زبدة الحلب في تاريخ حلب"، و" بغية الطلب في تاريخ حلب"[٤] لكمال الدين ابن العديم من أهمِّ المصادر التي استقى منها ابن شداد معلوماته عن خطط حلب[٥].

2ً- أهمّ الموارد التاريخية:

تعدَّدت موارد المؤلف التاريخية لا سيَّما أنَّ الجانب التاريخي قد غطَّى جزءاً كبيراً من محتويات الكتاب، وخاصة إذا عُلِم أنَّ ابن شداد كان يؤرخ لكلِّ حدثٍ تاريخي من خلال المصادر المعاصرة لذلك الحدث.

ولعلَّ من أهمِّ هذه المصادر كتاب" فتوح البلدان" للبلاذري[٦]، و" تاريخ الكامل بفضائل الحكمة في التاريخ"، وهو كتاب حافل بالمعتقدات اليهودية والنصرانية لمحبوب المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين(ت ٣٣١هـ/٩٤٢م)[٧]، و" ربيع الأبرار في محاسن الأخبار" للحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري[٨]، و" تاريخ حلب" للعظيمي[٩]، وكتاب" الاعتبار" لأسامة بن منقذ الشيزري[١٠]، واستفاد من كتابي" تاريخ حلب"[١١]، و" عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر"[١] لابن أبي طيء(ت ق٧هـ/ ١٣م)[٢]، وأفاد ابن

---

١ الإيبش والشهابي : دمشق الشام، ج١، ص٤١١.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٥٠.

٣ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٧١.

٤ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٥، ٥٨.

٥ زناتي: دراسات تحليلية، ص٦٩.

٦ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٤٢، ٥٥، ٦٦، ٦٧.

٧ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٢٩.

٨ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٣٤. وقد نسبه خطأً لهذا المؤلف.

٩ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٢٢.

١٠ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٩٤.

١١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٩٩، ٢٠١.

شداد من أهمِّ مصادر التاريخ الإسلامي وهو كتاب" الكامل في التاريخ" لابن الأثير[٣]، و" النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لبهاء الدين بن شداد(ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)[٤].

الثالثة- المصادر الشفهية:

وهي قليلة بالنسبة للمصادر المكتوبة، وجعلها مستمدة من كبار العلماء، والفقهاء، ورجال الحكم مما عكس أهميتها[٥]، ومن أمثلتها قوله: « أخبرني الرئيس بهاء الدين أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الخشاب الحلبي»[٦].

وتجدر الإشارة إلى إنَّ ابن شداد كان حتَّى سنة(٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) يعتمد اعتماداً كلياً على رواية الغير[٧]، ولكن ابتداءً من ذلك التاريخ أخذ يبدو على عرضه طابع الأصالة التامة الذي يعكس بجدارة اتساع تجربته وملاحظته الشخصية[٨].

الرابعة- الجانب الوثائقي:

شغلت الوثائق أحَّد أهمّ المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في كتابته للأعلاق الخطيرة، فالمتتبع للكتاب يلاحظ كثرة النصوص الوثائقية التي أوردها في متن الكتاب، ومثالها رسالة عمر بن الخطاب ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص بفتح الشام والعراق[٩]، وغيرها الكثير.

الخامسة- الشعر:

لعلَّ إيراد ابن شداد للعديد من القصائد الشعرية في مؤلفه ضمن تناوله للأحداث التاريخية جعل الشعرَ أحَّدَ أهمِّ مصادره، ومثال ذلك إيراده لقصيدةٍ لمحيي الدين بن عربي في مدحه لمدينة حلب، وذكره فيها المسجد الجامع[١٠].

السادسة- المصادر المجهولة:

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٣١٢.

[٢] يحيى بن أبي طيء، النجار الغساني الحلبي، ألَّف العديد منها:" كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين"، وكتاب" معدن الذهب في تاريخ حلب"، وكتاب" سيرة ملوك حلب"، وكتاب" سلك النظام في تاريخ الشام"، و" تاريخ مصر"، توفي في القرن السابع الهجري/ الثاني عشر الميلادي. الكتبي: فوات الوفيات، ج٤، ص٢٦٩- ٢٧٠.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٢٠.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٣٣.

[٥] عوض: الجغرافيون والرحالة، ص١٤٠.

[٦] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٤١، ٥٠.

[٧] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٧١.

[٨] الإيبش و الشهابي : دمشق الشام، ج١، ص٤١١.

[٩] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص ٨.

[١٠] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٦٥.

اعتمد ابن شداد أيضاً على عدد غير محدودٍ من المصادر المجهولة بالنسبة للكتب والرواة، ومثال ذلك قوله في إحدى المواضع: « ووجدت في بعض الكتب»[١]، أو قوله: « وذكر أرباب التواريخ»، أو قوله: «ذكر بعض جماعة»[٢]، لكنْ تلك المصادر قليلة، ونادرة.

هـ- ب- أهمِّية الكتاب:

يغلب على الكتاب طابع التاريخ الجغرافي، وتأتي أهميته كونه يشمل جوانب الجغرافية والتاريخ في دراسته، ومن جهة أخرى، فمصادر الكتاب متنوعة وقيّمة للغاية، وهو يُفيدنا بالتعرف على مؤلفات كثيرة لم تصلنا[٣]، فقد أخذ المؤلف من كتاب" المسالك والممالك" للمهلبي العزيزي[٤] المفقود قسم منه فعرفنا على أهمِّ ما اشتمل عليه هذا الكتاب من معلومات جغرافية، وبجانبٍ آخر تعدُّ استعانةُ عز الدين ابن شداد بما ألَّفه ابن أبي طيء مُهمَّةً على اعتبار فقد مؤلفات ذلك المؤرِّخ الحلبي وعدم وصولها إلينا إلَّا من خلال نقول ابن شداد عنه في" الأعلاق الخطيرة" وبذلك يُمكن من خلاله معرفة ولو شيئاً عن هذا المؤلف وما تضمنته مؤلفاته[٥].

وعلى الرغم من أنَّ المؤرِّخين المتأخرين لم يُفيدوا كثيراً من كتاب ابن شداد، باستثناء الأقسام المتعلقة بالشام وبدمشق بصفة خاصة، فإنَّ مادة ابن شداد في تاريخ دمشق وخططها من أكمل ما قدَّمه عصره، وقد تردد صدى ذلك عند جميع المؤلفين الَّذين كتبوا عن فضائل دمشق في العصور التالية له[٦]، ومما يزيد من أهمِّية الكتاب أنه يكاد يكون الممثل الأخير للجغرافية التاريخية على الأساس الإقليمي الذي درس الشام في وحدة عضوية مع أرض الجزيرة[٧]، فهو بذلك أحَّد أهمّ مصادر التأريخ العمراني لبلاد الشام في العصور الإسلامية[٨]، فصاحبه أقام من خلاله هياكل التخطيط الطبوغرافي لمدن الشام وحلب والقدس، وأمهات مدن الجزيرة، وكشف عن تاريخ كلِّ مدينة[٩].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٤٥.
[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٢٦٠.
[٣] الإيبش و الشهابي : دمشق الشام، ج١، ص٤١٠؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٧١.
[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٢٩.
[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٩٩، ٢٠١، ٣١٢.
[٦] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٧١.
[٧] الإيبش و الشهابي : دمشق الشام، ج١، ص٤١١.
[٨] الإيبش و الشهابي : دمشق الشام، ج١، ص٤١٣.
[٩] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، مقدمة التحقيق، ص١.

وتأتي أهميته كونه يؤرخ لأمَّهات مدن بلاد الشام، وهو يكشف ويساعد على تقدير الحياة الاقتصادية والعسكرية والحياة الاجتماعية الذي قدر فيه ارتفاع الواردات ليس للمؤرخين، لكن لكلِّ المهتمين بالحياة الاقتصادية والاجتماعية لهذه المدن، وهو خير دليل لعالم الآثار ودليل للمتقصِّين لتاريخ كلِّ مدينةٍ من مدن الجزيرة، ولأهمِّية الحوادث التي يذكرها المؤلف لأنَّه شاهد عيان لها، وكونه سفيراً مُطَّلعاً على خفايا الأمور وأسرارها، وكونه كان وزيراً للظاهر بيبرس، ومُطَّلعاً على كلِّ الأخبار، فقام بتدوين كلِّ هذه المعلومات التي يعرفها[١].

وتكمن أهمِّية الكتاب، كونه يُسلِّط الضوء على مرحلة تاريخية مُهمَّة من حياة الأيوبيين ودولة المماليك البحرية، فقد أورد فيه ابن شداد أحداثاً عايشها وعاينها بنفسه، لا سيَّما أحداث الصراع بين العرب المسلمين مع المغول من جهة، والصليبيين من جهة أخرى إذ استطاع المغول بقيادة هولاكو[٢]، حفيد جنكيز خان، أن يستولوا على معظم أقاليم العالم الإسلامي المعروف في ذلك الحين[٣]، وأسقطوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية[٤] واستولوا على بلاد الشام بأسرها، ولم يبق أمامهم إلَّا مصر آخر معقل للإسلام في الشرق[٥] وهالَ العرب المسلمين ما حلَّ بهم من نكبات، فرأوا في القتال ضد المغول ضرورة حتمية يتوقف عليها مصير ما تبقى لهم من وجود، فكانت وقعة عين جالوت بمثابة المعركة الفصل التي انتهت بهزيمة المغول وانحسارهم نهائياً عن بلاد الشام، وفي ظل هذه الأحداث الدامية، وعلى مقربة منها، كان ابن شداد شاهد عيان لها يعرف دقائقها وتفاصيل أمورها، ولهذا كان لما كتبه عنها قيمة تاريخية بالغة[٦].

ويمكن وصف كتاب الأعلاق الخطيرة بأنَّه شامل حافل، يغني عن غيره ممن جاء قبله وبعده، ولا يغنى غيره عنه[٧]؛ ولأهميته فقد استدعى انتباه كثير من الباحثين المستشرقين والعرب، فأشاروا إليه في أبحاثهم ونوهوا به ونشروا منه قطعاً غير كاملةٍ، ومن هؤلاء المستشرق السويسري أمدروز(H. F. Amedroz)،

---

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٥٥.

٢ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٩٧(وفيه ٦٦٤هـ/١٢٦٥م) ؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٥٣؛ الهمذاني: جامع التواريخ، مج٢/ ج١، ص٢٢٣؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ٢١٨؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٢٥٧-٢٥٩؛ البيضاوي: نظام التواريخ، ص٩٤(وفيه وفاته سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م).

٣ الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢/ ق٢، ص٢٨-٣٠.

٤ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٤٤، ٤٥؛ ابن الكازروني: مختصر التاريخ، ص٢٧٣؛ الذهبي: الإشارة إلى وفيات الأعيان، ص٣٥٣؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج١، ص٢٢٠-٢٢٣.

٥ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٧٤-٤٧٦؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٣٦، ٢٣٧؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ٤٨، ص٣٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٧، ص٣٥٨-٣٦٢.

٦ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، مقدمة الكتاب، ص٩، ١٠.

٧ زناتي: دراسات تحليلية، ص٦٩.

والأب شارل لودي(Ch. Ledit)، والمستشرق الفرنسي كلود كاهن(C. Cahen)، والمستشرق الفرنسي الشهير جان سوفاجيه(J. Sauvaget)، غير أنَّ أول من بدأ بنشر الكتاب بشكل منهجي ومحقق كان المستشرق الفرنسي دومنيك سورديل (D. Sourdel)، الذي نشر القسم الأوَّل من الجزء الأول منه، وهو القسم المخُصَّص لتاريخ حلب، وصدر عن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق عام ١٩٥٣م[١].

ولأهمِّية الكتاب اعتمد عليه عدد من جغرافيّي الخطط الَّذين جاؤوا بعد ابن شداد، فتناولوا خطط حلب ودمشق، ونقلوا معلوماتً عنه غاية في الأهمِّية، فُعدَّ أحَّد أهمّ الموارد الأساسية لمن كتب في فن الخطط الجغرافية وخاصة لمن تناول خطط حلب، فمثلاً نقل عنه سبط ابن العجمي في كتابه" كنوز الذهب في تاريخ حلب" في مواضع عدةّ [٢]، وهو أحَّدُ أهمُّ الموارد التي اعتمدها ابن الشحنة الحلبي في كتاب" الدُّرُّ المنتخب في تاريخ حلب"[٣]؛ ولأهميته اعتمد عليه جغرافيو خطط دمشق، فيُرى أنَّ النعيمي، اعتمد عليه تاريخياً وجغرافياً في كتابه" الدارس في تاريخ المدارس"، و نقل عنه الكثير من الأحداث التاريخية، إضافةً لنقله عنه معلوماتٍ مُهمَّة عن خطط دمشق[٤].

ج- بلاد الشام من خلال كتاب الأعلاق الخطيرة دراسة مقارنة نقدية:

تناول ابن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة بلاد الشام ومدنها، فخصَّص الجزء **الأول** من كتابه لمدينة حلب وما تضمنته من المدن والأمصار مع ذكر بعض خططها، وفي الجزء **الثاني** جاء الحديث عن مدينة دمشق والمتتبع لمضمون هذا الجزء يلاحظ اتباع ابن شداد لنفس المنهج في الجزء الأول وذلك من خلال تناوله مدن الشام، وذكر بعض خططها، أمَّا الجزءَ **الثالث** فجاء خاصاً بالجزيرة مُضمِّناً إياه ديارها وبعض مدنها.

وحقيقة الأمر أنَّ مؤرخنا أوَّل ما ابتدأ به هو ذكر الشام واشتقاق اسمه، وما ورد في فضلها وذكر المعمور منها وما انقسمت إليه من الأجناد فهو بذلك قدم دراسةً لأغلب مدن الشام وثغورها وقلاعها وحصونها[٥]، وقدم عناية كبيرة لمسقط رأسه حلب، ومدينة دمشق، فدرس خططهما متناولاً أبواب المدينتين، إضافةً لأشهر الميادين، مع تقديم معلومات عن قصورهما ومدارسهما، وآدر الحديث، ودروبهما، والمزارات والربط والخوانق في كلتا المدينتين، ثمَّ تطرق لذكر أشهر المساجد والحمامات، مُقدِّماً نظرة عن خطط بلاد الشام، وهذا ما دعا بعضهم إلى عدِّ كتاب" الأعلاق الخطيرة" كتاباً جغرافياً من فن الخطط الجغرافية.

---

[١] الإيبش و الشهابي : دمشق الشام، ج١، ص٤١٢.

[٢] سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص١١٠، ٢٥٦، ٢٧٨.

[٣] ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ١٢٤، ١٢٦، ١٨٥.

[٤] النعيمي: الدارس، ج١، ص٦٧، ١١٤، ١١٨، ١٧٨، ٣٥١، ٣٩٨، ج٢، ص٥٠، ١٢٦، ١٥١، ٢٤٢، ٣٤١.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤.

لكن يجب الإشارة إلى أمر مُهمّ، هو أنَّ ابن شداد اقتصر في غالب دراسته لخطط المدينتين(حلب – دمشق) على أسلوب يتضمَّن ذكر أشهر معالم المدينتين دونَ تقديم معلومات كافية عنهما واكتفى بتعداد خططها وسردها دونَ دراستها جغرافياً أو وصفها، وإنْ وجدَ شيءٌ من هذه الدراسة من الناحية الجغرافية فهو ضئيل جداً، لذلك سيُعتَمد ذكر ما أورده ابن شداد مع مقارنة ما ذكره مع غيره من المصادر؛ حتَّى يتسنَّى فهم ولو شيئاً يسير عما تضمنتهُ جغرافية مؤرِّخُنا، وفيما يلي دراسة جغرافية لبلاد الشام **من خلال الكتاب:**

أ- ج- ذكر المدن:

1ً- بَالس:

ذكر ابن شداد أنَّها من جند قنسرين، وهي مدينة قديمة صغيرة في سفح جبل أوَّل بلاد الشام على شاطئ الفرات الغربي عليها سوران، وبينها وبين الفرات بساتين، ويُنسب لأهلها قلَّة العقل، وفي ظاهرها مدرسة، وخان، وسبيل، وهي مدينة تجارية تُحملُ منها التجارات التي ترِدُ من مصر وسائر أرض الشام في السفن إلى بغداد، وقال القزويني: « فلمْ يزل الفرات يشرق عنها قليلاً قليلاً حتَّى صار بينهما أربعة أيام»[١].

2ً- الرُّصَافة:

أشار ابن شداد أنَّها من بناء هشام بن عبد الملك بن مروان(١٠٥- ١٢٥هـ/٧٢٤- ٧٤٣م)، ولها سور من الحجر، وفي داخلها مصنع كبير لماء المطر، يشربُ منهُ أهلها، وهي منيعة لأنَّها في بريّة ولا ماء عندها، في حين يُسمِّيها أبو الفداء برُصافة هشام[٢].

3ً- خُناصرَة:

ينتعها ابن شداد بالبلدة القديمة، وذكر أنَّ لها حصنٌ بناؤه من الحجر الأسود على سيف البرية، وهي كورة واسعة، وهي في زمنه مسكونة من الفلاحين، وخُرِّبَ حُصنها، وأبنيتها ونُقِلت حجارتها، أمَّا ابن العديم فقد جعلها من كورة الأحص، وبلاد بني أسد[٣].

4ً- سرميْن:

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٤، ١٥، ٢٨؛ القزويني: آثار البلاد، ص٣٠٦، وذكر أبو الفداء أنَّها أول مدن الشام، وفرضة على الفرات لأهل الشام وفي شرقيها الرقة. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٩.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٣٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٧١، وجعل القزويني سبب بنائها وقوع الطاعون بأرض الشام، وهي في البرية ليس بها نهرٌ، وشرب أهلها من الصهاريج داخل المدينة، وقد تفرغ في الصيف، فيأخذون ماءهم من الفرات وأهلها مشهورون بعمل الأكيسة، والجوالق، والمخالي. القزويني: آثار البلاد، ص١٩٨.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٣٦؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١١٥؛ وللمزيد ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٦٤، ١٦٥.

حدَّدها ابن شداد بطرف جبل السماق، وهي واسعة الرستاق، لها مسجدٌ جامعٌ وأسواق، وكان لها سور خُرِّبَ في زمن المؤلف، وبها مساجدٌ كثيرة دائرة كانت معمورة بالحجر النحيت عمارةً فاخرةً، وقيل: عددها ثلاثمئة مسجد.

في حين ذكر ابن العديم أنَّ بها ثلاثمئة وستين مسجداً، و ليس بها في زمنه مسجد يُصلَّى فيه إلَّا المسجد الجامع، وأكثر سكَّانها إسماعيلية، ولهم بها دار دعوة.

وتناول أبو الفداء المدينة واصفاً إياها بأنَّها ذات أشجارٍ كثيرةٍ وزيتونٍ، وليس لها ماء إلَّا ما يَجتمع من الأمطار في الصهاريج، ولها ولاية وعمل مُتَّسِع جملته قرى وضياع، وبينها وبين حلب مسيرة يوم[1].

5ً– معرة مصرين:

ذكر ابن شداد أنَّها بلدة مشهورة محفوفة بالأشجار، وشُرب أهلها من مياه الأمطار، ولها سورٌ مبنِّيٌ بالحجارة، وأهلها ذوو يسار وأموال وأملاك، أمَّا ابن العديم فهي عنده مشهورة بباب الرزق، وفيها طلبُ الرزقُ مفتوح، باطنها حسن وظاهرها أغنى محفوفة بالأشجار، ويُجلب منها الزيت الكثير، وأرضُها عدي يزرع فيها البصل والثوم، وسمَّاها أبو الفداء معرة نسرين ووصفها بالمدينة المتوسطة ليس بجميع نواحيها ماء جارٍ ولا عين[2].

6ً– أعزاز:

وصفها ابن شداد بالمدينة العامرة، ومحاسنُها ظاهرة، وكثيرة البناء، ومتسعة الفناء، ولها قلعة مبنِّية باللُبن، ولها كورة كبيرة تشتمل على قُرى يُناهز عددُها ثلاثمئة قرية، أمَّا القزويني فحدَّدها بقرب حلب، ولها قهندز ورستاق، وهي طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة التُربة من عجائبها أنَّه لا يوجد بها عقرب، وتُرابها إذا ذُرَّ على العقرب ماتت، وليس بها شيئاً من الهوام[3].

7ً– تل باشر:

هي عند ابن شداد من أعمال حلب، ومشهورة ولها قلعة معمورة، و بساتينها كثيرة ومياهها غزيرة، وشرب بلدها من نهر الساجور، وهو نهر أصلَه من عينتاب، ويَجتمع إليه عيون ببلد عينتاب، ويجري إلى قرية

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٨؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٣٩؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٥.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٥٠؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٣٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣١.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٧٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص٢٢١، وذكر ابن سعيد المغربي أنَّ لهذه المدينة جهات في نهاية الحسن والطيبة والخصب معظم تربتها حمراء، فهي تفرح النفس، وأكثر ما يزرع فيها القطن الذي يحمل في المراكب إلى سبتة فيعمُّ بلاد المغرب، وقد خصبت أرضها بالفستق الكبير. ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٤.

تُعرف بالنقّاخ، ويجتمع إليه عيون، آخر البلد من بلد تل باشر، ثمَّ ينتهي إلى الفرات ويصبُّ فيه، أمَّا أبو الفداء فحدَّدها على مرحلتين من حلب، وذكر أنَّها كثيرة المياه والبساتين[١].

أما فيما يخص مدن الشام وخاصة الجنوبية منها: فقد تمَّ دراستها مُسبقاً بشكل مُفصَّل ولا يُرى دواعٍ لإعادة ذكرها؛ وذلك لتشابه ما ذكره عنها ابن شداد وغيره مما دُرس لهم سابقاً، ومنعاً للإطالة.

وفيما يخصُّ بلاد الجزيرة:

فقد تناولها ابن شداد بذكر تسميتها وبأنَّها سُمِّيت بذلك بالجزيرة للدلالة على الجزء الشمالي من الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات، وعلى مُلحقاتها من الأقاليم والمدن الواقعة إلى الشمال، وإلى الشرق عبر دجلة الأعلى، التي تضمُّ ميًا فارقين، وأرزن، وأسعرت، وكذلك على الشقة الغربية من الأراضي الفراتية التي تُجاور الطريق البري الموازي لمجرى الفرات في الأراضي السورية، واستوطنت الجزيرة ثلاثُ قبائل عربيَّة عدنانيَّة، هي بكر، وربيعة، ومضر، فاستقرت ربيعة في الشرق، ومضر في الغرب، و بكر في الشمال، وتسمَّت ديار الجزيرة بأسماء هذه القبائل التي حلَّت فيها، فقيل: ديار ربيعة، وديار مُضر، وديار بكر[٢].

وقد تناول المؤرِّخ ابن شداد هذه المناطق وتحدَّث عن مُدنِها، بعد أن عرض لجغرافية الجزيرة، إذ تناول موقع كلُّ مدينة، و طبيعة أراضيها، وما يُجاورها، وشُرب أهلها وتناول في بعض الحالات بناء المدينة وشوارعها، ومساجدها، ولعلَّ أشهر ما ذكره ابن شداد مِنْ **مُدنها:**

1ً- ديار مضر:

ذكر ابن شداد أنَّ قصبتها حرَّان، ووصفها بأنَّها مدينة مبنية بالحجر والكلس، مُتَّسِعة الشوارع، ولها سورٌ منيع، وربضٌ عليه سور أيضاً مُتَّصل بسور المدينة، وقلعة كانت تُسمَّى قلعة المُدوَّر، وهي أحَّدُ هياكل الصابئة، وللمدينة سبعة أبواب هي: باب الرقة، والكبير، والبيَّار، ويزيد، والفدان، والصغير، والسر، والماء، وهي بين نهري دِيصان وجلَّاب، وفيها أربعةُ مدارسٌ كلُّها حنبلية، إضافةً إلى بيمارستان وخانقاه، وفيها من المزارات مسجد إبراهيم الخليل، وبالمقارنة المدينة في زمن أبو الفداء خراب، والجبل منها في سمت الجنوب والشرق على فرسخين، وتربتها حمراء وشربُ أهلها من عيون خارج المدينة، ومن آبار[٣].

ومن مدن ديار مضر:

***- الرَّها:**

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٠٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣٢.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٣٩، ٤٠.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٤٠- ٤٢؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٧٧، ووصفها الحميري بأنَّها مدينة قديمة عتيقة قليلة الماء والشجر، وفيها رساتيقٌ وعماراتٌ، وموضعها في مستوٍ من الأرض، وهي مدينة مسورة، ومسجدها جامع داخل مدينتها. الحميري: الروض المعطار، ص١٩١.

أشار ابن شداد أنَّ المدينة تتصل بمدينة حرَّان، وأكثرُ أهلها من المسيحيين، وفيها لهم كنيسة من عجائب الدنيا، وهي مدينةٌ روميةٌ ذاتُ عيونٍ كثيرة تجري منها الأنهار، ولها سور من حجر يُحيط بأشجار وأرحاء وبساتين، وتجري فيها عينان الأول: تُسمَّى العين الطويلة، والثانية: تُسمَّى العين المُدوَّرة، وللمدينة ثلاثة أبواب هي: باب حران، و أقساس، وشاع، ولها قلعة على جبل يتصل بها سور المدينة من الجانب الغربي، أمَّا ابن الوردي فذكر أنَّ الغالب على أهلها دين النصرانية، وبها من الكنائس ما يزيد على مئتي كنيسة ودير، ولم يكن للمسيحيين أعظم منها، وكان بكنيسها منديل المسيح الذي مَسحَ به وجهه فأثَّرت فيه صورته، فأرسل ملك الروم إلى الخليفة رسولاً وطلبه منه، وبذلَ فيه أسارى كثيره فأخذه وأطلق الأسارى[١].

***- سروج:**

وصفها ابن شداد بالمدينة الحسنة الحصينة، والكثيرة الأشجار، والمياه والفواكه، والزبيب، ويُعمَل من زبيبها الناطف، وذَكرَ ابن سعيد المغربي أنَّ المدينة كثيرة البساتين، وبها الرُمَّان المُفضَّل، والكمثرى، والخوخ، والسفرجل[٢].

2ً- ديار ربيعة:

ذكر ابن شداد أنَّ قصبتها مدينة نصيبين، وهي مدينةٌ في مستوٍ من الأرض، ومَخرجُ مائِها من شُعَبٍ يُعرف ببالوسا، وهو أنزه مكان بها، ثمَّ يبسط بساتينها ومزارعاها، ويدخل إلى كثير من دورها، وبالمدينة عقارب قاتلة، وبقربها جبل ماردين، وارتفاعه نحو فرسخين، عليه قلعة تُعرف بالباز، وفيها مشهد علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، ومشهد زين العابدين ﵇، ومسجد بني بَكرة، وهو أوَّل مسجد عُمِّر فيها، وأوضح أبو الفداء بأنَّ المدينة مخصوصة بالورد الأبيض ولا يوجد فيها وردة حمراء، وسمَّى ابن سعيد المغربي جبلها بالجودي، وهو الذي يُقال: إنَّ سفينة نوح ﵇ استقرت عليه[٣].

ومن مدن ديار ربيعة:

***- رأس العين:**

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٨٥- ٨٧؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١١٢، ووصفها أبو الفداء بالمدينة الرومية وفيها آثارٌ عجيبةٌ. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٧٧.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١٠١؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٥؛ وذكر أبو الفداء أنَّ البلد خراب في زمنه. أبو الفداء : تقويم البلدان، ص٢٧٧.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١٢٤، ١٢٥؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨٣؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٦، و ذكر القزويني أنَّ لها، ولقراها أربعين ألف بستان، ظاهرها في غاية النزاهة وباطنها يُضاد ظاهرها، وهي وخمة لكثرة مياهها وأشجارها، مُضرَّة لا سيَّما بالغرباء، وبها عقابيلُ المرض وصفرة اللون. القزويني: آثار البلاد، ص٤٦٧، ومن عجائبها ما ذكره ابن الوردي بوجود عقارب قاتلة فيها. ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١١١.

ذكر ابن شداد أنَّ المدينة في مستوٍ من الأرض، و لها سور يشتمل على طواحين ومزارع و بساتين، وبها أكثر من ثلاثمائة عين جارية صافية، تصبُّ كلُّها في شبَّاك من حديد عُمِلَ لها ليجري بعدها باسم الخابور، في حين ذكر القزويني بأنَّها في فضاء من الأرض، وبها عيونٌ كثيرةٌ عجيبةٌ صافيةٌ تجتمع كلَّها فتصير نهر الخابور، وأشهرها عين الصرار، وسمَّاها أبو الفداء بعين وردة[١].

***- قرقيسيا:**

أشار ابن شداد أنَّها كورة الخابور، عند مصب نهره في الفرات، وفي كورتها من البلاد ماكسين، وعربان، والمجدل، وحدَّدها الحميري بالجانب الشرقي من الفرات، أمَّا أبو الفداء فذكر أنَّ بالمدينة عمارة حسنة، وهي مدينة الزبَّاء صاحبة جذيمة الأبرش[٢].

***- سنجار:**

أشار ابن شداد أنَّ المدينة في في وسط البرية، في سفح جبل، وبها أنهارٌ جاريةٌ، وعيونٌ مُطردة، ومباخسٌ وإسقاء، وضياعٌ، وعليها سور من الحجر والكلس المنيع، ولها قلعتان على تلين، **أحدهما:** من بناء العقيلين، **والثاني:** من بناء الزنكيين وتُسمَّى الجديدة، وفي وسط المدينة نهران أحدهما يُعرف بنهر دار العين، والآخر يخرج من عين في البلد ثرَّة تُسمَّى عين الأحتات، فتجري في البلد، ثمَّ تخرج من تحت السور، ولها أربعة أبواب هي: باب الماء، والعتيق، والجديد، والجبل، ويطلُّ عليها من شماليها جبل كثير البساتين، وللمدينة ربضان فيهما الأسواق العامرة والمساجد، وفيها ست مدارس، وثلاث خانقات، وذكر ابن سعيد المغربي إنَّها من أحسن المدن، وجبلها من أخصب الجبال فيه الجوز واللوز اللذان يُكسران بصحن الكف، ومنها يُجلب الرمان والتين الناشف، وفي داخلها عين تخرج إلى ظاهرها وينضاف إليها ما يكون منه نهر، وينضاف إلى ذلك نهر نصيبين ويصبُّ الجميع في الثرثار المشهور الذي كانت عليه مدينة الخضر وهي الآن خراب وفي غياض هذا النهر الأُسُود الكثيرة وهو يصبُّ في الصحارى، أمَّا أبو الفداء فحدَّدها في ذيل جبل، وذكر أنَّ فيها البساتين الكثيرة، ومياها من القنى[٣].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١٤٥؛ القزويني: آثار البلاد، ص٣٧٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٧٩، وذكر ابن سعيد المغربي بأنَّها كثيرة المياه والبساتين، وفي خارجها بحيرة غاية في العمق ترمى فيها الدنانير، فيقاس كيف تنزل إلى قعرها وينحدر في إثرها الغاطسون فيلتقطونها، وفيها ورد النيلوفر الكثير ذو الألوان المختلفة المبهجة. ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٦.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١٥١؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٥٥ ؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨١؛ و ذكر ابن سعيد المغربي أنَّها بين الفرات والخابور النازل من رأس العين. ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٥.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١٥٤- ١٥٧؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٧؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨٣، وذكر القزويني المدينة، ووصفها بالطيّبة جداً، وكثيرة المياه والبساتين، والعمارات الحسنة كأنَّها مختصر دمشق، وحمَّاماتها حسنة، وبيوتها واسعة وفرشها فصوص، وكذلك تأزيرها، وتحت كلِّ أنبوبةٍ حوض حجرية مُثمنة في غاية

***- جزيرة ابن عمر:**

وصفها ابن شداد بالمدينة المسورة، ويحيط بها دجلة مثل الهلال، و هي مدينة إسلامية مُحدثة، لسورها ثلاثة أبواب هي: باب الجبل، والجديد، والماء، و بها جامعان، وأربع مدارس شافعية، وخانقتان، و بيمارستان، وأربعة عشر حمَّاماً، وهي عند أبو الفداء صغيرة غربي دجلة فيها البساتين الكثيرة[١].

3ً- ديار بكر:

يشتمل هذا الخبر على أمصار وحصون، فأهمّ الأمصار آمد، وميَّافارقين، والحصون منها رومي، ومنها مُحدث في العصر الإسلامي:

***- آمد:**

ذكر ابن شداد أنَّها تقع على نهر دجلة، ويُحيط بها سوران أحَّدهما فصيل والآخر كبير، ولها خمسة أبواب هي: باب الماء، والتل، والفرح، والروم، وباب وراء سور قلعتها، المصنوع من الحجر الأسود المانع الذي لا يُعمل فيه الحديد، وفيها عينان تجريان، إحداهما داخل السور، تُسمَّى عين سورا، والأخرى تعرف بعين زعورا، وللجامع من مياههما حُصَّة تجري لتصبَّ في بركة كبيرة، وفيها مدرستان الأولى شرق جامعها، والأخرى بجواره، وبالمقارنة ذكر أبو الفداء أنَّ مدينة أولية من ديار بكر، وهي غرب دجلة، كثيرة الأشجار والزروع، عليها حُصن عظيم، وسور من الحجارة السود التي لا يعمل فيها الحديد، ولا تضرَّها النار، والسور يشتمل عليها، و على عيون ماء، ولها بساتين ومزارع كثيرة[٢].

***- ميافارقين:**

ذكر ابن شداد: ميَّا اسم الأودية، وفارقين اسم امرأة بنتها، فإنَّهم قالوا: أودية فارقين، ولها سور عدد أبرجته اثنان وأربعون سوراً ولسورها أربعة أبواب، ولها خندق جميعه بُرك، وفيها داخل البلد قصر عظيم، وفي جهة القبلة منها ربض المُحدثة فيه أسواق و خانات، وفي طرفها سوق الخيل، وفي رأس السوق جامع بني مروان، وفي شماليها جبل يُسمَّى جبل حرم عباد فيه عدد من الأديرة، وفي شرقيها ميدان وجوسق،

الحسن، وفي سقفها جامات ملوَّنة بالأحمر والأصفر والأخضر والأبيض على وضع النقوش. القزويني: آثار البلاد، ص٣٩٣.

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٢١٣- ٢١٥؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨٣، وللمزيد: الحموي: المشترك وضعاً، ص١٠٢.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٨؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٨٧، وذكر القزويني أنَّ المدينة حصينة ومبنية بالحجارة، وفي وسطها عيون وآبار عُمقها ذراعان، وهي كثيرة الأشجار والبساتين والثمار والزروع، ومن عجائبها جبلها الذي يوجد في بعض شعابه صدع سيف مَنْ أدخل يده في ذلك الصدع وقبض على قائم السيف اضطرب السيف في يده وارتعد هو. القزويني: آثار البلاد، ص٤٩١، ٤٩٢.

وفيها مدارس للحنفية وأخرى للحنابلة، وعدد من الحمَّامات، وجعلها ابن سعيد المغربي قاعدة ديار بكر، وذكر أنَّها كثيرة المياه والبساتين، وبها قبر سيف الدولة بن حمدان(١).

ب- ج- القلاع والحصون:

1ً- شقيف كَفَر دبِّين:

أورد ابن شداد أنَّ القلعة حصينة، وتقع على نهر العاصي، ولها جامع وربض، وولاية من أعمال حارم من جند قنسرين، وحدَّدها الحموي بقرب أنطاكيَّة و ربضُها دبين، في حين ذكر ابن الشحنة أنَّ أغلب أهلها فلاحون أرمن(٢).

2ً- الرَاونْدَان:

أشار ابن شداد أنَّها من أعمال حلب، وهي قلعة صغيرة على رأس جبل عالٍ مُنفردٍ في مكانه لا يُحكم عليها منجنيق، ولا يصلُ إليها نُبل، ولها ربضٌ صغير في لحفِ جبلها، وهي من أقوى القلاع وأحسن البقاع، وذكر ابن العديم أنَّ القلعة صغيرة، ويحفُّ بها وادٍ من جهة الغرب والشمال، هو كالخندق وفيه نهرٌ جارٍ(٣).

3ً- عينتاب:

وصفها ابن شداد بالقلعة الحصينة الواقعة على جبل، ولها ربض وكورة، ونهر الساجور يخرجُ منها، ولها عليه بساتين وأرحبة، بينما أورد ابن العديم أنَّ القلعة مُزخرفة بالرخام والذهب، وفي ربضها منازل وفيها جوسقٌ وبُستان كبير فيه صنوف كثيرة من الفواكه، أمَّا أبو الفداء فأشار أنَّ القلعة مثقوبة في الصخر حصينة، كثيرة المياه والبساتين، وهي عن حلب في جهة الشمال على ثلاث مراحل(٤).

4ً- الشُغر وبكاس:

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٢٦٩، ٢٧٥- ٢٧٧؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٧١؛ و سمَّاها القزويني بمدينة الشهداء، وجعل لها ثمانية أبواب، فيها جرن من رخام أسود في منطقة الزجاج وفيه دم يوشع بن نون ﷺ، وهو شفاء من كلِّ داءٍ. القزويني: آثار البلاد، ص٥٦٥، ٥٦٦.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٧١؛ الحموي: معجم البلدان، مج٣، ص٣٥٦؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٦٧.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٩٤؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٢٤، وذكر أبو الفداء بأنَّ لها بساتين وفواكه ووادياً حسناً. أبو الفداء: تقويم البلدان ص٢٦٧.

[4] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٠٩؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٢٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان ص٢٦٩.

ذكر ابن شداد أنَّهما قلعتان قويتان حصينتان، من النواحي الغربية لحلب، والشغر قلعة قريبة من بكاس يعبُر من أحدهما إلى الأخرى بجسر على نهر العاصي، بينما ذكر ابن العديم أنَّ القلعتين تقعان على جانب نهر الأرنط، ولبكاس نهر يخرج من تحتها وهما في غاية المنعة والقوَّة[١].

5ً- در بساك:

ذكر ابن شداد أنَّ الحصن قاطع النهر الأسود، على لحف جبلٍ من جبال اللُّكام، وطوله أكثر من عرضه، ويُحيط به سور من حجر أبيض منحوت، وأشار ابن فضل الله العمري أنَّ القلعة حصينة منيعة. وحدَّدها أبو الفداء بالإقليم الرابع من جُند قنسرين، وهي قلعة مرتفعة، ولها أعين وبساتين، وهي خصبة، ولها مسجد جامع ومنبر، ولها من شرقيها مروج متسعة حسنة كثيرة العُشب يمرُّ فيها النهر الأسود[٢].

6ً- الموزر:

ذكر ابن شداد أنَّها قلعة حصينة، و لها عمل مُتسع بين بلاد ديار مضر وبلاد ديار بكر، على يوم من حرَّان، استولى عليهما المغول سنة(٦٥٨هـ /١٢٦٠م)، وذكر الحموي أنَّها كورة بالجزيرة[٣].

7ً- قلعة جعبر:

أشار ابن شداد أنَّ القلعة برية بحرية جزرية، وتقع على تلٍ مشرف على الفرات، ولها ربض، وعامرة بالأسواق، وكثيرة الأرزاق، وكانت تعرف قديماً بقلَّة دوسر، و ذكر أبو الفداء أنَّها من الإقليم الرابع من ديار بكر، وهي بين الرقة وبالس على الفرات من الجانب الشمالي في برِّ الجزيرة، وهي على صخرة لا تُرام وكانت تعرف باسم الدوسرية، وهي خرابٌ ليس بها ديار[٤].

8ً- البيرة:

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٣٣؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٣٢٧، ووصفهما أبو الفداء بأنَّهما حصينان على جبل مستطيل، وتحتهما نهر يجري، ولهما بساتين وفواكه، ولهما مسجد جامع ومنبر ورستاق، وهما بين أنطاكية وأفامية على قريب منتصف الطريق بينهما، وفي شرقيهما جسر كشفان، وهو على النهر، وله سوق يجتمع الناس فيه،، وهما من الإقليم الرابع من جند قنسرين. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦١.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤١٩؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٩؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦١.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٦٨؛ الحموي: معجم البلدان، مج٥، ص٢٢١.

٤ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١١٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٧٧.

أشار ابن شداد أنَّ القلعة حصينة على جبل مشرف على الفرات، من شرقيها إلى الطول، ولها مما يلي الفرات حائط ممتد، ومما يلي البر سور و أبرجة، وحدَّدها الحموي بالقرب من سمسياط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رُستاق واسع[١].

9ً- حصن منصور:

وصفه ابن شداد بالحصن الصغير، وله رساتيق وقرى، ويقع بين ملطية وسمسياط، وذكر الحميري أنَّ الحصن في الثغور الجزرية، وعليه سور من الحجارة، وهو حصن رومي[٢].

ج- ج- ذكر الثغور:

1ً- أذنة:

ذكر ابن شداد أنَّها مدينة قديمة من بناء الروم، وجدِّدت عمارتها في عصر الدولة العباسية، وذكر الحميري أنَّ هارون الرشيد بناها وأتمَّها الأمين، وبها كانت منازل ولاة الثغور لسعتها، وهي على نهر جيحان، وهي مدينةٌ عامرةٌ ذاتُ أسواقٍ وصناعاتٍ[٣].

2ً- الهارونية:

حدَّد ابن شداد موقعها في جبل اللكام من غربيه، في بعض شعابه، وهي حصينة صغيرة، وذكر ابن العديم أنَّ هارون الرشيد بناها، وحدَّدها أبو الفداء بأنَّها آخر حدود الثغور الشامية مما يتصل بالحدود الجزرية[٤].

3ً- الكنيسة السوداء:

وصفها ابن شداد بالمدينة القديمة المبنية بالحجر الأسود، من بناء الروم، وأغارت عليها الروم وأحرقتها، وذكر ابن العديم أنَّها ثغر بمعزل عن البحر، ولها حصن قديم أُخرِبَ فأمر الرشيد ببناءها وتحصينها، وسمَّاها ابن الشحنة بالمحترقة، وذكر أنَّها مدينة قديمة مبينة بالحجر الأسود[٥].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١٢٠؛ الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٥٢٦، وذكر أبو الفداء أنَّ القلعة من الرابع من جند قنسرين، وهي قلعة حصينة مرتفعة على حافة الفرات، في البر الشرقي لا ترام، ولها واد يعرف بوادي الزيتون، وهي بلدة ذات أسواقٍ وعملٍ، وقلعتها على صخرة وهي فرضة على الفرات، في الشرق عن قلعة الروم على نحو مرحلة، وفي الجنوب والغرب عن سروج. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٩.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٢٤٨، ج١/ ق٢، ص١٨٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص٢٠٣، والحصن في زمن أبو الفداء خراب، و به مزدرع. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٩.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٥٠؛ الحميري: الروض المعطار، ص٢٠.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٥٨؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢١٩؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٣٦.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٥٩؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص١٧٣؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٨٧.

4ً- أولاس:

ذكر ابن شداد أنَّه حصن على جانب البحر، وهو آخر ما على بحر الروم من العمارة للمسلمين، وسمَّاه ابن العديم بُحصن الزُهَّاد، وهو على ساحل البحر[١].

5ً- بياس:

ذكر ابن شداد أنَّ موقعها على البحر، وهي مدينة صغيرة، وذات نخلٍ وزرعٍ وخصبة، بينما أشار ابن الشحنة أنَّ موقعها شرقي أنطاكية، وغربي المصيصة[٢].

6ً- الحَدث:

ذكر ابن شداد أنَّها قلعة حصينة بين ملطية وسمسياط ومرعش، وتعرف بالحدث الحمراء لحمرة أرضها، وهي كثيرة الماء والزرع، وحولها أنهار كثيرة، ولها حُصن منيع خُرِّبَ وبقيت المدينة.

بينما أشار ابن العديم إلى أنَّ المدينة كثيرة الماء والزرع، وحولها أنهار كثيرة، وتُسمِّيها الأرمن كينوك، والأكراد تُسمِّيها الهت، ويُسمِّيها العرب الحدث، فيما كانت تُعرف قبل ذلك بالمهدية؛ لأنَّها بُنيت في زمن الخليفة العباسي المهدي(ت ١٦٩هـ/ ٧٨٥م)[٣].

7ً- زبطرة:

أشار ابن شداد أنَّ البلدة تقع بين ملطية وسمسياط والحدث، في طرف بلد الروم، وهي مدينة كثيرة معدن الحديد الذي يُحمل منها إلى البلاد، وذكر الحميري أنَّها حُصن رومي منيع قديم، وهو من الثغور الجزرية، بينما أشار ابن العديم إلى أنَّها أقرب الثغور إلى بلاد الروم[٤].

8ً- ملطية:

وصفها ابن شداد بالبلدة العامرة، ويحتف بها جبال، وكثيرة الجوز، وهي من قرى بلاد الروم على مرحلة، وذكر ابن سعيد أنَّها قاعدة الثغور، وهي شمال الجبل الدائر الذي تقع سيس في غربيه، وهي بلدة مُسوَّرة في بسيط والجبال تحتفُ بها من بُعد، وبها نهرٌ صغيرٌ، وعليه بساتين كثيرة يستقيها، ويمر بسورها، وهي

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٦١؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢١٨.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٦٣؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٨٨.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٧٣؛ ابن العديم: بغية الطلب، ص٢٣٩.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٨٠؛ الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٥؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٤٧.

شديدة البرد، وذكر القزويني أنَّ المدينة بأرض الروم، وبها جبلٌ فيه عين، يخرج منها ماء عذب ضارب إلى البياض، فإذا جرى مسافة يسيرة، صار حجراً صلداً[١].

9ً- سمسياط:

وصفها ابن شداد بالمدينة الصغيرة المطلة على الفرات في شرقي جبل اللكام، ويحتفُّ بها جبال كثيرة فيها سائر الفواكه، الصرود والجروم، ولها قلعة حصينة، وحدَّدها أبو الفداء في الإقليم الرابع من أقصى الشام، وهي على الفرات في الغرب عن قلعة الروم[٢].

د-ج- ذكر العواصم:

سُمِّيت عواصم لأنَّ أهل الثغور كانوا يعتصمون بها إذا حَزبهم أمر من الأمور، و كانت الثغور مُضافة لجند قنسرين، فلما ولِّي الخليفة هارون الرشيد أفرد أنطاكية، وتيزين، ودلوك، ورعبان، ومنبج، وقورس، وصيَّرها جُنداً، وسمَّاها العواصم[٣]، **ولعلَّ من أشهرها:**

1ً- أنطاكية:

ذكر ابن شداد أنَّ للمدينة سور من حجر، وبُقعتها في لحفِ جبلٍ مُطلٍّ عليها من شرقيها، وهذا السور يدور بسهلها، ثمَّ يطلع إلى نصف الجبل، وإلى أعلاه، ثمَّ ينزل حتَّى يستدير عليها من السهل، وفي داخل السور أراضٍ، ومزارع، وأرحية ومياه تتخرق من عيون في الجبل، مُقنَّاة إلى البلد، والأسواق، والمنازل، وأبنيتُها كلُّها بالحجر، وبظاهرها نهر يُسمَّى المقلوب أو الأرنط، عليه عمارات وضياع وبساتين، و بها كنيسة القسيسان، وهي كنيسة جليلة عظيمة البناء والقدر عند المسيحيين، وذكر شيخ الربوة أنَّه يُحيط بها سور على أربع جبال وشعارى، ولها بساتين وفرضة تُسمَّى السويدية على الساحل عند مصب نهر العاصي في البحر[٤].

2ً- تِيزين:

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٨٤؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٧١؛ القزويني: آثار البلاد، ص٥٦٤، وذكر ابن الوردي أنَّ المدينة عظيمة، وكثيرة الخير والأرزاق، وأهلها ذوو ثروة ورفاهية. ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١١٠.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص١٩١؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٦٧.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٣٥٣.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٣٥٤، ٣٥٥؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٦؛ وقال فيها ابن الجواليقي: « وهي بلدة كبيرة من الشام من الإقليم الرابع، وهي قاعدة العواصم. ابن الجواليقي(موهوب بن أحمد): المُعرَّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح: أحمد محمد شاكر، طهران، ١٩٦٦م، ص٢٥؛ ووصفها القزويني بالمدينة العظيمة على طرف بحر الروم بالشام موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء،، وفي داخلها مزارع وبساتين وسورها مبني على السهل والجبل، ولها قلعة عالية، وبها مسجدُ حبيب النجار، وفيها نوعٌ من الفأر يعجز السنون عنه. القزويني: آثار البلاد، ص١٥٠، ١٥١.

أشار ابن شداد أنَّ المدينة صغيرة و قديمة، ولها سور، وكورتها مشهورة وقصبتها أرتاح، ولها حصن منيع، وبها كنيسة، وبساتين وعيون وأرحاء وقُرى، وذكر ابن الشحنة أنَّ سورها تهدَّم، وللمدينة حُصن منيع، وبها كنيسةٌ كانت مقصودة من المسيحيين، ولها بساتين وأرحى[١].

3ً- رُعبان:

أشار ابن شداد أنَّ المدينةَ صغيرةٌ، وقديمة البناء، ولها قلعة حسنة، وبينها وبين الحدث سبعة فراسخ، وذكر ابن العديم أنَّ بالمدينة آثار أبنية قديمة، وبينها وبين الحدث سبع فراسخ، ووصفها ابن الشحنة بأنَّها مدينة بالثغور، وتقع بين حلب وسميساط قرب الفرات، وقد أخربتها الزلازل، وأعادها سيف الدولة الحمداني[٢].

4ً- دلوك:

ذكر ابن شداد أنَّ المدينة قديمة، ولها ذكر، وكانت عامرة، ولها قلعة عالية من بناء الروم، مبنِّية بالحجارة، ولها قناة ركبت على قناطر يصعدُ عليها الماء إلى القلعة، وحولها أبنية عظيمة حسنة، منقوشة في الحجر، وحولها مياه كثيرة، ووصفها ابن العديم بالمدينة الكثيرة الفواكه والكروم، وقيل: إنَّ مقام دواد عليه السلام كان بها، وذكر ابن الشُحنة أنَّ المدينة كانت عامرة، ولها قلعة من بناء الروم، وحولها مياه كثيرة، وبساتين غنية بالفواكه[٣].

5ً- قورس:

أشار ابن شداد إلى أنَّ المدينة قديمة من بناء الروم، وبها آثارٌ عظيمةٌ، وذكر أبو الفداء أنَّها بلدة مشهورة من العواصم وهي كورة وقاعدة، بينما أشار ابن الشحنة أنَّ بالمدينة آثار، وهي خراب في زمنه[٤].

6ً- كيسوم:

وصفها ابن شداد بالمدينة الكبيرة القديمة، والولاية العظيمة الواسعة، وأشار إلى أنَّ حُصنها حصيناً، وبناؤه قويَّاً ركيناً، وحدَّد ابن العديم موقعها على بعد سبعة فراسخ من الحدث[٥].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٢٣؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٢٢٢.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٢٨؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٥٩؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٢٢٢.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٣٥؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٦١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٢٢٤.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٤٢؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٣١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٢٢٤، ٢٢٥.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٤٢؛ الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٤٩٧؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١، ص٢٦٥.

7ً– منبج:

وصفها ابن شداد بالمدينة الحسنة البناء، والصحيحة الهواء، وكثيرة المياه والأشجار، ويانعة البقول والثمار، ولأهلها خُلقٌ حَسنة، ويقال: أنَّها مدينة الكهنة، ودورها وأسوارها مبنِّية بالحجارة، و ذكر ابن سعيد المغربي أنَّ للمدينة جسر يُجتاز به إلى حرَّان، وفوقه حصن هدايا يُوصَل منه إلى سروج، وأنَّها كثيرة المنتزهات، و فيها ماء سائح، وأكثر شجرها التوت لتربية دود الحرير[١].

هـ – ج– ذكر خطط مدينة حلب:

بدأ ابن شداد حديثه عن حلب بتحديد موقعها من المعمور، إذ حدَّدها في الإقليم الرابع، ثمَّ تناول تاريخياً من بناها، وعرض فصلاً في تسميتها ولقبها، فقال: تُلقَّب بالشهباء والبيضاء لبياض أرضها، لأنَّ غالب أرضها من الحجارة الحوَّارة وترابها يضرب إلى البياض وإذا أشرف عليها الإنسان ظهرت له بيضاء، ثمَّ أتى بكلام عن بناء سورها وقلعتها[٢].

وبعد ذلك بدأ ابن شداد بعرض لأهمِّ خطط حلب، مُتناولاً بعضُها بشكل تفصيلي، والبعض الآخر بشكل موجز، **ولعلَّ أول ما بدأ بذكره:**

1ً– ميادين حلب:

حقيقة الأمر لم يتناول ابن شداد في حديثه عن ميادين حلب سوى أطوالِها وعروضها، وهو بذلك لم يتطرق لذكر عمارتها، وصفتها، ولعلَّ أشهر ما تناوله:

***– الميدان الأخضر:**

تناوله ابن شداد من ناحية طوله وعرضه، فحدَّد طوله بسبعمائة وخمسين ذراعاً، وعرضه من القبلة ذراعاً ومن الشمال سبعون ذراعاً، وذكر سبط ابن العجمي أنَّه جُدِّدَ زمن الملك الظاهر غازي، وهو يقع شمال حلب، وخارجه دكة عظيمة، لا يصعدها من الملوك للنزول عليها إلَّا السلطان، وقد عمَّرت فيه الملوك كثيراً وحَسَّنتُهُ[٣].

***– ميدان باب قنسرين:**

ذكر ابن شداد أنَّ طوله ألف ومائة و خمسون ذراعاً، وأكد ابن الشحنة ما ذكره ابن شداد[٤].

***– ميدان باب العراق:**

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٤٤٤؛ ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص١٥٤.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٥، ٤١ ، ٥٥، ٥٩.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٦٦؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، جـ١، ص٥٦١.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٦٦؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٣٩.

ذكر ابن شداد أنَّ طوله خمسمائة وعشرون ذراعاً، وعرضه من القبلة خمسة وثمانون ذراعاً، ومن الشمال مئة وخمسون ذراعاً، وأشار ابن العجمي أنَّه سُمِّي بذلك لأنّه يشرف على باب العراق، وطوله خمسمائة وعشرون ذراعاً، وعرضه من القبلة خمسة وثمانون ذراعاً ومن الشمال مئة وخمسون ذراعاً[١].

2ً- أبواب حلب:

***- باب قنسرين:**

أشار ابن شداد أنَّه قبلي حلب، وسمِّي بذلك لأنَّه يُخرج منه إلى جهة قنسرين، وهو من بناء سيف الدولة الحمداني، وبُنِي عليه أبرجة مُحصنة كالقلاع المُرجَّلة، وعُمِلَ فيها طواحين وأفراناً وجباباً للزيت وصهاريج للماء، وحُمِلَ إليها السلاح، وقد خُرِبَ هذا الباب عندما استولى المغول على حلب سنة(٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.

وذكر سبط ابن العجمي أنَّ الملك الناصر يوسف جدَّده سنة(٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، ونقل إلى بنائه الحجارة من قرية الناعورة من بُرج من أبرجة القصر الذي بناه سُليمان بن عبد الملك، ونقل إليه باب الرافقة، وهذا الباب كان أولاً على سور عمورية، فلما فتحها المعتصم سنة(٢٢٣هـ/ ٨٣٧ م) نقله إلى سرِّ من رأى لمَّا شرع في بنائها سنة(٢٢١هـ/ ٨٣٥ م)، وبنى على هذا الباب أبرجة مُحصنة كالقلاع المُرجَّلة، وذكر ابن الشحنة أنَّه بعدما استولى المغول على حلب(٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، وأخربوها قام الظاهر ركن الدين بيبرس بنقل حديد الباب المُصفَّح به، ومساميره إلى مصر[٢].

***- باب العراق:**

ذكر ابن شداد أنَّه يقع شرق باب قنسرين، وسمِّي بذلك لأنَّه يُخرج منه إلى ناحية العراق، وهو باب قديم، مكتوب على بعض أبرجته: أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس، وكان ثمال بحلب بعد العشرين وأربعمائة، وقد أنشأ الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ميداناً بين يدي هذا الباب سنة(٥٥٣هـ/ ١١٥٨م)، وذكر سبط ابن العجمي أنَّه لم يعد لهذا الباب أثر، وأمَّا الخندق المجاور له الذي كان فيه الباب فإنَّه صار داخل السور الذي حوِّل إلى قبلي الباب، أمَّا ابن الشُحنة فذكر أنَّ بين يدي هذا الباب ميدان له بابان[٣].

***- الباب الصغير:**

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٦٦؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٦١.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٦٩، ٧٠؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٥؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٤١.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧١؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٦؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٤١.

أشار ابن شداد أنَّه هو نفسه الباب الذي يُخرج منه من جانب قلعة حلب، وخانقاه القصر إلى دار العدل، ومن خارجه البابان اللذان جدَّدهُما الملك الظاهر غازي في السور الذي جدَّده على دار العدل، وأحدهما يُدعى الباب الصغير و يُفتح على شفير الخندق، ويخرج منه إلى الميدان الأخضر، والآخر مغلق، وذكر سبط ابن العجمي أنَّ السور كان يأخذ من البرج الذي على جانب قلعة الشريف إلى خندق القلعة، ويأخذ من الخندق من جهة الشمال إلى الغرب، وقد جدَّد الظاهر غازي السور الثاني الذي يأخذ من ثُمْ الخندق المذكور من القبلة وشمالاً، ثُمَّ أُزيل السور الوسطاني، وسُدَّت الفَرجتان من القبلة والشمال[1].

***- باب النيرب:**

ذكر ابن شداد أنَّه سُمِّي بذلك لأنَّه يُخرَج منه إلى القرية المُسماة باسمه والمعروفة باسم النيرب، والكلام ذاته عند سبط ابن العجمي، وابن الشحنة، وابن الغزي[2].

***- باب القناة:**

ذكر ابن شداد أنَّه سُمِّي بهذا الاسم، لأنَّ القناة التي ساقها الملك الظاهر غازي من حيلان إلى المدينة تعبر منه، وأشار سبط ابن العجمي بأنَّه نفسه الباب المعروف باسم بانقوسا قرب القناة التي ساقها الظاهر غازي إلى المدينة من حيلان، بينما ذكر ابن الشحنة أنَّ الباب في حارة كبيرة تسمى بانقوسا، وتقع ظاهر حلب من جهة الشرق والشمال[3].

***- باب النصر:**

أشار ابن شداد أنَّه كان يُعرف قديماً بباب اليهود، لأنَّ اليهود تجاوره بدورهم، ومنه يخرجون إلى مقابرهم، واستقبح الملك الظاهر وقوع هذا الاسم عليه فسمَّاه باب النصر، وجعل عليه أربعة أبواب لكلِّ باب دركاه يُسلك من إحداهما إلى الأخرى في حنية معقودة، وبنى عليه أبراجاً مُحكمة البناء ويخرج منه على جسر معقود على الخندق إلى فنادق أمر بإنشائها، تُباع فيها الغلات.

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧١، ٧٢؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٧؛ وذكر ابن الغزي أنَّه هو الباب الذي يُخرَج منه من تحت القلعة من جانب خندقها وخانقاه القصر إلى دار العدل، ومن خارجه بابان جدَّدهما الملك الظاهر غازي. ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٨.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧٣؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٨ ؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٤٣؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٨.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧٣؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٨؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٤٤.

وكرر سبط ابن العجمي ما قاله ابن شداد، بينما ذكر ابن الشحنة أنَّه كان على ظاهره تلول عالية من التراب والرماد وكنائس المدينة، فنسفها الظاهر غازي وأزالها، وجعلها مستوية وبنى عليها خانات تُباع فيها الغلَّات والحطب[1].

***- باب الفراديس:**

حدَّده ابن شداد غربي حلب، وأنشأه الملك الظاهر غازي، وبنى عليه أبرجة عالية حصينة، ثُمَّ سُدَّ هذا الباب بعد وفاته، والكلام ذاته عند سبط ابن العجمي، و ابن الشحنة، وابن الغزي[2].

***- باب الجنان:**

أشار ابن شداد أنَّ سبب تسميه بذلك، لأنَّه يُخرج منه إلى البساتين، وذكر ابن الشحنة أنَّ بعضهم يُسمِّيه باب العبَّارة والله أعلم، وكرَّر سبط ابن العجمي كلام ابن شداد في ذكر صفة هذا الباب[3].

***- باب أنطاكية:**

ذكر ابن شداد أنَّ سبب تسميته بذلك، لأنَّه يُخرج منه إلى جهة أنطاكية، وكان ملك الروم نقفور قد خرَّبه، ثمَّ بناه الملك الناصر صلاح الدين يوسف سنة(٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م) وبنى عليه برجان عظيمان، وعمل له دركاه، وحنايا ينفذ بعضها على بعض، وأشار سبط ابن العجمي أنَّه باب حلب الأعظم، أمَّا ابن الشحنة فكرَّر ما أورده ابن شداد عن صفة هذا الباب[4].

***- باب السعادة:**

أشار ابن شداد أنَّه يُخرج منه إلى ميدان الحصى، وأنشأه الملك الناصر يوسف سنة(٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م)، وبنى عليه أبرجة وله دركاه وبابان، والباب في زمن سبط ابن العجمي مسدود، وذكر أنَّه ما فُتح إلَّا وتشاءمَ به أهل البلد، وهو إلى جانب برج كان يُعرف ببرج الغنم، ويُعرف في زمن سبط ابن العجمي ببرج المزنر، ومنه يُخرج إلى باب قنسرين.

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧٤؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٨؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٤٥.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧٤؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٤٥؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٩؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٩.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧٤؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٤٦؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٩.

[4] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧٤، ٧٥؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٩؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٤٦.

بينما ذكر ابن الشحنة أنَّه لم يبقَ للباب رسوم وآثار؛ لكونه قد دُثِرَ وعندما أمر الملك المؤيد شيخ المحمودي(ت ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) بتجديد الأسوار ظهر هناك باب مسدود لعله هو، والله أعلم[١].

3ً- ذكر أهمّ القصور:

***- قصر الناعورة:**

ذكر ابن شداد أنَّ الخليفة الأموي مُسلمة بن عبد الملك أنشأه سنة(٩٠هـ/ ٧٠٩م)، وخُرِّبَ بعده ولحق الخراب أبراجه وآثاره، وذكر سبط ابن العجمي أنَّ بعد خرابه نُقلت حجارته لبناء باب قنسرين، وأشار ابن الشحنة أنَّ الخليفة الأموي مُسلمة بن عبد الملك كان ينزل فيه حينما كان متولياً لحلب[٢].

***- قصر الحاضر السليماني:**

ذكر ابن شداد أنَّه من بناء الخليفة الأموي سُليمان بن عبد الملك، وهو في غاية الحُسن والزخرفة، وأشار ابن الشحنة أنَّ حي الحاضر السليماني يُنسب إليه، والحاضر محلَّة عظيمة ظاهر حلب، وهو يطلق على الحي العظيم[٣].

***- قصر الدارين:**

أشار ابن شداد أنَّه يقع خارج باب أنطاكية، وفي وسطه قنطرة على نهر قويق، ويقع حوله ربض، وله باب حديد كبير، وبُستان يُعرف ببستان الدارين شمالي باب قنسرين، وهو وقف على المدرسة النورية الشافعية، وذكر ابن الشحنة أنَّه منسوب إلى دار البنات، ودار أخرى بجانبه تُعرف بدار سيما الطويل[٤].

4ً- ذكر أشهر المزارات:

***- مشهد عليﷺ:**

ذكر ابن شداد أنَّه موضع يُستجاب الدعاء فيه، وحدَّده الهروي عند بابِ الجنانِ، و ذكر ابن الشحنة أنَّه يقع بسوق الحدادين[٥].

***- مقام إبراهيم عليه السلام:**

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٧٥؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٦٠؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٤٦.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٩١؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٥٥؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٥٨.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٩١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٥٨.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٩٢؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٦٠.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٣١؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٦؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٧٩.

ذكر ابن شداد أنَّه يقع خارج مدينة حلب ممَّا يلي القبلة وقد حُوِّل إلى جبانة، وهو مشهد مقصود من كلِّ الأقطار في مِحرابُه حجر يُقال: إنَّ إبراهيم عليه السلام كان يجلس فيه، وفي الرواق القبلي مما يلي الصحن صخرة مرتفعة فيها نقرة قيلَ: إنَّه كان يحلُب غنمه فيها.

بينما ذكر الهروي أنَّه يقع بقلعة حلب وبه صندوق فيه قطعة من رأس يحيى بن زكريا عليه السلام ظهرت سنة(٤٣٥هـ/ ١٠٤٢م)[١].

***- مشهد الدكة:**

حدَّده ابن شداد غرب حلب، وسُمِّي بهذا الاسم لأنَّ سيف الدولة كانت له دكة على الجبل المطل على المشهد يجلس عليها للنظر إلى حلبة السباق، فإنَّها كانت تجري بين يديه في ذلك الوطاء الذي فيه المشهد، وذكر الهروي أنَّ به قبر المحسن بن الحسين، وبقربه مقام إبراهيم عليه السلام، بالجبانة التي بجواره[٢].

***- مشهد الأنصاري:**

حدَّده ابن شداد قبلي جبل جوشن في الياروقية، وذكر الهروي أنَّ بالمشهد قبر عبد الله الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، بينما أشار ابن الغزي إلى أنَّه يقع في قرية الأنصاري المعروفة بالياروقية، وقد ذكر جماعة أنَّ امرأة من الياروقية رأت في منامها أنَّه يوجد في هذه المحلَّة قبر عبد الله الأنصاري فنبشوه فوجدوا قبراً فبنوا عليه مشهد، وعندما استولى المغول على حلب كان من جملة الآثار التي دُثِرَت[٣].

***- معبد براق:**

ذكر ابن شداد بأنَّه يقع في قرية براق من أعمال حلب، ويقصده الزمنَى والمرضَى من الأماكن البعيدة، فيبيتون به، بينما أشار الهروي أنَّه في نواحي حلب و هذا المعبد يقصده الزمنَى والمرضَى، فإمَّا أنْ يُبصر المريض من يقول له:" دواؤك في الشيء الفلاني"، أو يُبصر من يمسح بيده عليه، فيقوم وقد بُرِئَ كما ذَكَرَ أهل الموضع[٤].

***- جبل برصايا:**

---

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤٣؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٦.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤٧؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٦.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٥٦؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٦؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٢٨٥، ٢٨٦.

٤ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٥٨؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٧.

ذكر ابن شداد أنَّه مكان مُقدَّس، وفيه مقام داوود عليه السلام، بينما ذكر الهروي أنَّ بالجبل قبر برصيصا العابد، ومقام النبي داود عليه السلام، بينما جاء في" الدُرُّ المنتخب" لابن الشحنة أنَّ مشهد برصايا بأرض كفرشعيا من ناحية أعزاز في الجبل المطل عليها، وهو موضع مقام داود ومعبده[١].

5ً- ذكر المساجد:

عدَّد ابن شداد مساجد حلب فذكر أنَّ في باطنها أسماء مائتي وسبع عشرة مسجداً جديدة داخل سور البلد، وقد نسب تسمية بعضها لبانيها كمسجد الظاهر الذي بناه عند دارِ العدل، ونسب البعض الآخر لما عرَّفه عنها بالخطة كالمسجد المجاور للمدرسة الظاهرية تحت القلعة[٢]، وذكر المساجد التي بأرباض حلب فعدَّها خمسة عشر مسجداً[٣] وذكر منها ممَّا هو بالحاضر السليماني مئة وعشرة مساجد[٤]، وذكر مساجد الرابية وجورة جفال، فعدَّها مئة وثمانية وستين مسجداً[٥]، وذكر المساجد التي بالظاهرية فعدَّها تسعة وتسعين مسجداً[٦].

وعدَّها بالرمادة أربع وثلاثين مسجداً[٧]، ومساجد بانقوسا وعدَّها ثلاثة عشر مسجداً[٨]، ومساجد الهزَّازة وعدَّها اثنا عشر مسجداً[٩]، ولابدَّ من الإشارة أنَّ ابن شداد اقتصر على تعداد هذه المساجد فقط، دونَ تقديم شرح عن موقعها أو بانيها أو صفاتها، وغير ذلك، وقد أمكن الحصول على تعريف بعضها من الكتب التي اختصَّت بالتأريخ لحلب، **ويُذكَرُ منها:**

***- مسجد غوث:**

ذكر ابن شداد أنَّه يقع داخل باب العراق، وبه حجر عليه كتابة، وذكر الهروي أنَّ الكتابة التي على الحجر، زعموا أنَّها بخط علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، وكلام ابن الشحنة مكرر فيما ذكره ابن شداد[١٠].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٦٧؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٧؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٩٧.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٨١، ١٨٢.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٩٦.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٩٧.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٠٣.

[٦] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢١٤.

[٧] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٢١.

[٨] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٢٤.

[٩] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٢٥.

[١٠] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٣١؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص١٦؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٧٩.

***- مسجد النور:**

حدَّده ابن شداد بالقرب من باب قنسرين، في برج من أبراج حلب، وذكر إنَّه سُمِّي بذلك لأنَّه رؤي النور ينزل عليه مراراً، بينما أورد ابن الشحنة أنَّه سُمِّي بذلك نسبة إلى شخص يُدعى ابن أبي نمير كان يتعبد فيه، وتوفي بحلب سنة (٤٢٥هـ/ ١٠٣٤م)، وقبره خارج باب قنسرين تحت قلعة الشريف بالقرب من الخندق، تُنذر له النذور ويُزار[١].

***- مسجد الغضائري:**

أشار ابن شداد بأنَّه يُعرف بمسجد شعيب، وهو أوَّل مسجد اختطه المسلمون بحلب عند فتحها، وذكر ابن الشحنة أنَّ العرب المسلمين لما فتحوا حلب ودخلوها من باب أنطاكية، وضعوا أتراسهم في مكان بُني فيه هذا المسجد، ويُعرف باسم مسجد الشعيبية، وقد رُتِّب فيه مُدرِّس على المذهب الشافعي[٢].

***- مسجد الحدادين:**

تناوله ابن شداد بالذكر فقط دونَ تقديم أيَّة معلوماتٍ عنه، وذكر ابن الغزي أنَّ هذا المسجد قديم جداً، وهو منسوب للحدادين؛ لأنَّهم كانوا يوجدون في السوق الذي على بابه، وهذا المسجد له صحن كبير، وبابان أحدهما مُوجَّه شرقاً و منه يُنفذ إلى سوق الدجاج، والآخر مُوجَّه غرباً، وفي شمال صَحنهِ ثلاث حُجراتٍ وعند البابِ الموجَّه غرباً حُجرة كبيرة، وللمسجد منارة تحتها حُجرة، وأمام بابهِ الغربي مَيضَأة يُنزل إليها بدرجاتٍ فيها مَغسل وحَوض[٣].

***- مسجد الأصفر:**

لم يتطرق ابن شداد لذكر أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكر ابن الغزي أنَّه يقع قرب سبيل الأصفر، باتصال دور بني الياف المعروفين ببيت الجزار، والمسجدُ عامرٌ، تُقام فيه الجُمعة والصلوات، وكان يُعرف بجامع الجُرن الأصفر[٤].

***- مسجد باب أنطاكية:**

لم يتطرق ابن شداد لذكر أيَّة معلوماتٍ عنه، وذكر ابن الغزي أنَّ موقعه على يمين الداخل من باب أنطاكية إلى المدينة، وتُقام فيه الصلاة[٥].

***- مسجد القيمري:**

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٣٣؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٧٩.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٣٧؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٧٩، ٨٠.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٨٥؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٣٩٦، ٣٩٧.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٨٩؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٦٨.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٩٥؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٧٦.

لم يتطرق ابن شداد لذكر أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكر ابن الغزي أنَّه يقع في محلّة بوابة الصفصاف، وقد دُثِرَ، ثُمَّ عُمِّر من وصية بعض أهل الخير[١].

6ً- الخوانق والربط والترب:

***- خانقاه القصر:**

ذكر ابن شداد أنَّها تقع تحت القلعة، وأنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة(٥٥٣هـ/ ١١٥٨م)، وأشار سبط ابن العجمي أنَّها تقع تحت القلعة بالقرب من السلطانية وبابها يفتح إلى الغرب، وسُمِّيت بهذا الاسم، لأنَّه كان في مكانها قصر، وقد اختصرت فيما بعد وأصبحت مسكناً[٢].

***- خانقاه البلاط:**

ذكرَ ابن شداد أنَّها أول خانقاه بُنيت بحلب في سنة(٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، وذكرَ سبط ابن العجمي أنَّها تقع في سوق البلاط، وهو سوق الصابون في زمنه، ولها بابان أحدهما من السوق، والآخر من شارع شرقيها[٣].

***- الخانقاه البهائية:**

ذكر ابن شداد أنَّ الفقيه بهاء الدين، أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد(ت ٦٣٢هـ /١٢٣٤م)، أنشأها، وكانت داراً يسكُنها، وذكر سبط ابن العجمي أنَّه أنشأها بجانب مدرسته وتربته[٤].

***- الخانقاه الكاملية:**

أشار ابن شداد أنَّها كانت قديماً داراً قرب دار بني الخشاب، وكلام سبط ابن العجمي مُكرَّر لما ذكره ابن شداد، وأشار ابن الغزي إنَّها محلٌّ يسكُنهُ الفقراء، ويُعرف بالخانقاه الكاملية قرب دار بني الخشاب التي كانت في هذا الموضع، وهذه الخانقاه في زمنه خَربَة ضيّقة استولى الجيران على أطرافها[٥].

***- رباط الخادم تحت القلعة:**

لم يتطرق ابن شداد لذكر أيَّة معلوماتٍ عنه، وذكر ابن الشحنة أنَّه يقع تحت القلعة برأس الزُقاق المُبلَّط، وبينه وبين السلطانية طريق[١].

---

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢١٣؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٧٦.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٣٣؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٩١.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٣٣؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٨٤.

٤ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٣٦؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٠١.

٥ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٣٧؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٠٣؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٧٣.

***- رباط قرب مدرسة النفري:**

ذكر ابن شداد أنَّه يُعرف بإقامة عبد الولي البعلبكي[٢].

***- التربة الخشابية:**

ذكر ابن شداد أنَّها تقع قرب منطقة الجرن الأصفر، وأشار سبط ابن العجمي أنَّ موقعها عند بابِ قنسرين، وتجددت سنة(٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م)، ثمَّ صارت معصرة وفرناً، وهي في زمنه مُهدَّمة وبها شبابيكٌ، ولها وقف مزرعة الدوير في منطقة بليرمون شمال حلب.

بينما ذكر ابن الغزي أنَّها تقع اتِّجاه مسجد أبي الدُجين، وهي حوش في شرقيها رواق، فيه قبران، وهي مشرفة على الخراب يسكنها بعض الفقراء[٣].

***- التربة الكاملية:**

ذكر ابن شداد أنَّها تقع قرب دار بني الخشاب، وأشار سبط ابن العجمي أنَّ موقعها شرقي التربة المهمازية جانب المدرسة الكاملية، وهي بناء كبير تشتمل على قبلية وايوانين، وبأحدهما قبور، وبحائطها الغربي قناطر إلى الفضاء[٤].

***- التربة القليجية:**

حدَّدها ابن شداد بقرب المدرسة القليجية، بينما حدَّدها سبط ابن العجمي بالدرب المُتوجِّه إلى مقام إبراهيم الخليل، وهي مُشتملة على حوش، وبه قبَّة من النحيت، وهي مُتركة من خارجها، وليس عليها كتابة، وتحت هذه القبَّة محراب وبناء هذا المكان وثيق وإلى جانب الحوش آثار عمارة[٥].

7ً- ذكر المدارس وآدر الحديث:

***- المدرسة الزجاجية:**

ذكر ابن شداد أنَّها أوَّل مدرسة بُنيت بحلب للشافعية، وذلك سنة (٥١٦هـ/ ١١٢٢م)، وعلى حائطها مكتوب سنة سبع عشرة، أنشأها أبو الربيع سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب، وذكر سبط ابن العجمي أنَّها سُمِّيت باسم السوق الذي هي فيه، وكان هناك معمل للزجاج، وهي أوَّل مدرسة بُنيت في

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٣٨؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٢٦؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٠٩.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٣٨؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٢٦.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٤٨؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٢٧؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٦٧.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص ٢٣٧؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٣٧.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص ٢٨٠؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٣٧.

حلب وكانت تعرف بالمدرسة الشرفية، وهذه المدرسة كبيرة عظيمة لها إيوان من أعاجيب الدنيا، ولها قبلية عجيبة، وشمالية، وأرضها مفروشة بالرخام الأبيض والأسود، ولها أعمدة، وحائطها الشمالي اندثرَ غالبهُ، وجُدِّد بعد ذلك والبقية التي فيه من الكتابة هي من العمارة القديمة، ولها باب صغير إلى جانب الباب الكبير يدخل منه المُدِّرس، والمدرسة في زمن ابن الشحنة خراب داثر، وعُمِّرَ مكانها دور للسكن[1].

*- **المدرسة العصرونية:**

ذكر ابن شداد أنَّ الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي أنشأها سنة(٥١٤هـ /١١٢٠م)، وهي مدرسة للشافعية، وأشار سبط ابن العجمي أنَّها كانت روضة العلماء، وكانت في بداية أمرها داراً فانتقلت إلى نور الدين زنكي بالطريق الشرعي، فجعلها مدرسة، وجعلَ فيها مساكن للمرتِّبين بها من الفقهاء، وذلك سنة(٥٥٠هـ/ ١١٥٥م)، وهذه المدرسة يُدخل إلى داخلها بدرج، ولها باب آخر من الغرب، وبها قاعةٌ لمُدرِّسها، ووقف لها واقفها أوقافاً حوانيت، وقرى داخل حلب و خارجها، وأورد ابن الغزي أنَّ محلَّها على الجادة في شمالي الناصرية، وشرقي خان الوزير[2].

*- **المدرسة الظاهرية:**

حدَّدها ابن شداد اتِّجاه القلعة، وهي مدرسة مشتركة للشافعية والحنفية، أنشأها الملك الظاهر غياث الدين غازي سنة(٦١٣هـ/ ١٢١٦م)، وذكر سبط ابن العجمي بأنَّها تُعرف بالمدرسة السلطانية، ومبنية بالحجارة الهرقلية المُحكمة ومحرابُها من أعاجيب الدنيا في جودة التركيب وحُسن الرخام، وهي كثيرة الخلاوي للفقهاء، وبركتها يُنزل إليها بدرج، بينما ذكر ابن الشحنة أنَّه نُقشَ على بابها أنَّها وقفٌ على الشافعية والحنفية[3].

*- **المدرسة القيمرية:**

ذكر ابن شداد أنَّها من بناء حسام الدين الحسن بن أبي الفوارس القيمري في مجاورة المقام، إذ بناها سنة(٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، وورد عند سبط ابن العجمي كلام ابن شداد ذاته، وهي في زمن ابن الشحنة خراب[4].

*- **المدرسة الشاذبختية:**

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٤١؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٢٧٠- ٢٧٢؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١١٠.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٤٨؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٢٧٨، ٢٧٩؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص١٤١.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٥٢؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٢٩٤؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١١٢.

[4] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٦٢؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٣١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١١٤.

أشار ابن شداد إلى أنَّها مدرسة للحنفية، وأنشأها الأمير جمال الدين شاذبخت نائب نور الدين محمود زنكي بحلب، وذكر سبط ابن العجمي أنَّها تقع بدرب العدول بمدينة حلب، ومحرابُها عجيب، ولها إيوان وخلاوي للفقهاء، وأشار ابن الغزي أنَّها عُرِفت قديماً بالعديمية نسبة إلى أحَّدِ مُدرِّسيها من بني العديم، وفي زمنه تُعرف بجامع الشيخ معروف، نسبةً إلى صاحب ضريح مدفون بها[1].

***- المدرسة الحدادية:**

ذكر ابن شداد أنَّها تقع بظاهر حلب، وهي مدرسة للحنفية، و أشار سبط ابن العجمي بأنَّها سُمِّيت بالحدادية؛ لأنّها تقع بسوق الحدادين، وهي بالدرب المتوجِّه إلى المدرسة السفاحية، وقد أنشأها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين بن أخت صلاح الدين، وكانت من الكنائس الأربعة التي كانت بحلب وهدمت ومن ثَمَّ حولت إلى مدارس[2].

***- المدرسة الجاولية:**

ذكر ابن شداد أنَّها تقع بظاهر حلب وهي مدرسة للحنفية، وأشار سبط ابن العجمي أنَّها تقع بالقرب من السهلية، وهي سُويقة حاتم، ولها بوَّابة عظيمة مبنيّة بالحجر الهرقلي، وأنشأها عفيف الدين عبد الرحمن الجاولي النوري[3].

***- المدرسة الكمالية العديمية:**

ذكر ابن شداد أنَّها تقع بظاهر حلب، وهي مدرسة للحنفية، أنشأها كمال الدين عمر ابن العديم شرقي حلب، وبنى جوارها تُربةً وجوسقاً وبُستاناً وابتدأ عمارتها سنة(٦٣٧هـ /١٢٣٩م)، وتمَّت سنة(٦٤٩هـ/١٢٥١م)، ولمْ يُدرِّس بها؛ لأنَّ الدولة الناصرية انقرضت قبل استيفاء غرضه فيها، وحدَّدها سبط ابن العجمي خارج باب النيرب، والكلام مُكرَّر ذاته عند ابن الشحنة، وابن الغزي[4].

أمَّا أهمّ آدر الحديث التي تطرق ابن شداد لذكرها:

***- زاوية بالجامع الأموي ودار أُخرى:**

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٧١؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٤٥، ٣٤٦؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٧٨.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٧٣؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٤٨، ٣٤٩.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٧٧؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٥٤.

[4] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٨٥؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٦٨؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٢٢، ١٢٣؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج٢، ص٧٨.

وكِلَاهما وقف الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وذكر سبط ابن العجمي أنَّه وقفها الملك العادل؛ لتدريس مذهب الإمام مالك، وهي بجامع حلب الكبير، وأشار ابن الشحنة إلى أنَّ الذي منها في باطنها زاوية بالجامع، وهي دار أُخرى لقراءة الحديث على مذهب مالك(١).

***- الدار البهائية:**

أنشأها القاضي بهاء الدين بن شداد، حدَّدها سبط ابن العجمي بجانب المدرسة البهائية، وهذه الدار كانت مجمعاً لأهل الحديث، يسكنون بها، ويقرؤون و يسمعون، ويكتبون الطباق، ويرحلون إلى الآفاق، ثمَّ يرجعون، ومن وقفها قُرى ببلد أعزاز (٢).

***- دار البدوية:**

ذكر ابن شداد أنَّها اتِّجاه زاوية الفردوس، أنشأها الصاحب مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف القفطي، بينما ذكر ابن الشحنة أنَّها كانت تُعرف بالبدرية، وتقع اتِّجاه زاوية الفردوس بقرب جامع حلب الكبير (٣).

8ً- الحمامات التي يُنتَفَع بمائها:

ذكر ابن شداد أنَّ في بلدة السُّخنة من أعمال قنسرين، حمِّة ماء في غاية الحرارة يُنتَفع بها من البلغم والجرب والريح(٤)، وبكورة الجُمَّة من أعمال قنسرين عيون كبريتية تجري إلى جُمَّة يُنتفع بمائها، وفي قرية جندراس من أعمال حلب حمَّة لها بُنيان عجيب معقود بالحجارة، يأتيها الناس من كلِّ الآفاق، فيسبحونَ فيها للشفاء من العلل، ولا يُدرى من أين يأتي ماؤها ولا أين يذهب؟، وذكر ابن الغزي أنَّها حمَّة كبريتية، تبلغ حرارتها اثنتين وأربعين درجة، وهي من أشهر الحمامات، وينبع ماؤها من حوض مُربَّع مصنوع مساحته خمسة أذرع في مثلها وفي أعلاه ثقب سعتَهُ ثمانية سنتيمترات، ويفيضُ منه الماء إلى أراضي العمق، وعلى هذا الحوض قبو معقود بالحجارة، وفي أطراف الحمام عدَّة عيون كبريتية حارَّة(٥).

9ً- الدروب:

***- درب الحطابين:**

---

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٨٦؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٧١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٢٣.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٨٦؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٣٧٧، ٣٧٨.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٨٧؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٢٤.

٤ قرية بنواحي حلب. الحموي: معجم البلدان، مج٢، ص١٨٩.

٥ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٠٦؛ ابن الغزي: نهر الذهب، ج١، ص٤٧.

ذكر ابن شداد أنَّه من أشهر دروب مدينة حلب، وفيه مدرسة للحنفية ومسجد، وأشار سبط ابن العجمي أنَّ في هذا الدرب يوجد مدرسة الحطابين وخانقاه الحطابين، وبرأسه من جهة السوق مسجد مُعلَّق، وقد جُدِّدَ سنة(٧٣٩هـ /١٣٣٨م)، وهذا الدرب يُعرف بدرب بني سلَّار، وخارجه مسجد[١] .

***- درب أنطاكية:**

لم يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكر سبط ابن العجمي أنَّه يُسمَّى درب البزادرة، وهو ملاصق لسور أنطاكية من جهة القبلة، وبه حجر ينفع به للبرقا(مرضى برق الضهر)[٢].

***- درب الخراف:**

لم يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكر سبط ابن العجمي أنَّ في رأسه مسجد ومسمط في زمنه[٣].

***- درب الزيدية:**

ذكر ابن شداد أنَّ به مدرسة تسمى باسمه، وأشار سبط ابن العجمي أنَّ بهذا الدرب مدرسة، وبرأسه مسجد تحت الساباط، وكان هذا المسجد قد جُعِلَ داراً وأُبيع، ثمَّ انتُزِع وأُعيد مسجداً، وكان على باب الدرب سبيل ماء[٤].

***- درب الحدادين:**

ذكر ابن شداد أنَّ بهذا الدرب مسجداً، وأشار سبط ابن العجمي إلى أنَّ المدرسة الموجودة فيه تُسمَّى بالحدادية، وفيه مسجدان أحدهما: كان فوق الحوض الذي على باب المدرسة، والمسجد الآخر: باقٍ، وبرأس هذا المسجد حمَّام يُسمَّى حمَّام ميخان[٥].

***- درب الست:**

لم يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكر سبط ابن العجمي أنَّ بالدرب فندق يُسمَّى فندق عائشة، وخان يُسمَّى خان القواسين لبني العجمي[٦].

***- درب العفيف:**

لم يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه وأشار سبط ابن العجمي أنَّ بالدرب حمَّام يُسمَّى العفيف، وكانَ به حبس، وشجرة دلب، فُسمِّي بدرب الدلب، وعلى رأسه مسجد وهو في زمن ابن العجمي مُغلق[٧].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ،ج١/ ق١، ص١٤١، ١٨٩؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٥٢.

[٢] ابن شداد: الاعلاق الخطيرة،ج١/ ق١، ص٧٥؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٥١.

[٣] ابن شداد: الاعلاق الخطيرة،ج١/ ق١، ص١٩١؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٥٢.

[٤] ابن شداد: الاعلاق الخطيرة،ج١/ ق١، ص٢٥٩؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٥١.

[٥] ابن شداد: الاعلاق الخطيرة،ج١/ ق١، ص١٨٥؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٥٦.

[٦] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص ٢١٣؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٥٤، ٤٥٥.

[٧] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص ٣١٤؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٤٥٥.

10ً- ذكر أشهر الأسواق:

***- سوق النطاعين:**

ذكر ابن شداد أنَّ موقعه شرقي الجامع الكبير بحلب، بينما ذكر سبط ابن العجمي بأنَّه يُعرف بسوق الصاغة، ويقع شرقي الجامع الكبير، وكان سوق الصاغة القديم بالقرب من حمَّام السِّت، ويُقال: له تل فيروز؛ لأنَّه كان تلاً[١].

***- سوق البز:**

ذكر ابن شداد أنَّ موقعه على يمين الداخل من الباب القبلي إلى الجامع الكبير، وذكر سبط ابن العجمي بأنَّه يُعرف بسوق الحِبال، ويُسمَّى قديماً سوق البز الخليع، ويقع غربي جامع حلب الكبير[٢].

11ً- طرف مما كُتِبَ على الأحجار بحلب وأعمالها:

قال ابن شداد: وجد بقنسرين حجر مزبور مكتوب عليه بالعبرانية(نصَّه العربي):

إذا كـــــانَ الأميـــــــر وصُـــــــحباه وقاضـــي الأرضِ يـــدهنُ فـــي القضـــاءِ

فويـــــــلٌ للأميـــــــر وصاحـــــــبهُ وقاضـــي الأرضِ مـــن قاضـــي الســـماءِ

بينما ذكر الحميري نصاً مُختلفاً عمَّا أورده ابن شداد، إذ قال: وجِدَ بقنسرين حجر مكتوب فيه بالعبرانية(نصَّه العربي):

إذا جـــــارَ الأميـــــــرُ وحاجبـــــاه وقاضـــي الأرضِ داهـــن فـــي القضـــاءِ

فويـــــلٌ، ثـــــمَّ ويـــــلٌ، ثـــــمَّ ويـــــلٌ لقاضـــي الأرضِ مـــن قاضـــي الســـماءِ[٣].

وذكر ابن شداد أنَّه رُوي عن ابن عباس ﷺ أنَّ الكنز[٤] الذي جاء ذكره في القرآن كان بأنطاكية[١]، وهو وهو لوحٌ من ذهب[٢] مكتوبٌ في أحَّدٍ جانبيه " لا إلهَ إلَّا الله الواحد الصمد﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَهُ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ *﴾[٣].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص ٣٤٥؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٢٣.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٠٧؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ص٥٢٣.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٠٨؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٧٣، ٤٧٤.

[٤] إنَّ الكنز الذي جاء ذكره في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ * وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي * ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾. القرآن الكريم: سورة الكهف، الآية ٨٩.

وكُتِبَ في الجانب الآخر" عَجباً لِمَنْ أيقن بالموت كيف يَفرح، وعَجباً لِمَنْ أيقنَ بالنار كيفّ يضحك؟ وعَجباً لمن رأى الدُّنيا وتقلُّبها بأهلها، ثمَّ هو يَطمئنُ إليها، وعَجباً لِمَنْ أيقنَ بالحساب فداً ثمَّ لا يعمل"[٤].

بينما جاء النص عند البعض بشكل مخالف لما أورده ابن شداد وهو كالتالي: عَجباً لِمَنْ أيقنَ بالقدر ثمَّ هو ينصب! عَجباً لِمَنْ أيقنَ بالنار كيفَ يضحك؟! عَجباً لِمَنْ يؤمن بالموت كيفَ يفرح؟! عَجباً لِمَنْ يُوقن بالرزق كيفَ يتعب؟! عَجباً لِمَنْ يُؤمن بالحساب كيفَ يَغفل؟! عَجباً لِمَنْ رأى الدُّنيا وتقبلَّها بأهلها كيفَ يطمئنُ إليها؟! أنا الله لا إلهَ إلَّا أنا، مُحمَّد عبدي ورسولي".

وفي الشق الآخر: " أنا الله لا إلهَ إلَّا أنا وحدي لا شريك لي، خلقتُ الخير والشرَّ، فطوبى لِمَنْ خلقته للخير وأجريته على يديهِ، والويلُ لِمَنْ خلقتَهُ للشرِّ وأجريتُهُ على يديهِ"[٥].

و- ج- خطط مدينة دمشق:

بدأ ابن شداد حديثه عن دمشق بتحديد موقعها من المعمور، ثمَّ تناول تاريخياً من بناها، وبعد ذلك عرض فصلاً في تسميتها ولقبها، ثمَّ أتَى بكلام عن بناء سورها وقلعتها، وبعدها بدأ بعرض لأهمِّ خططها، مُتناولاً بعضها بشكل تفصيلي، والبعض الآخر بشكلٍ عابرٍ وموجزٍ، ولعلَّ أوَّل ما بدأ بذكره:

1ً- أبواب مدينة دمشق:

***- الباب القبلي:**

ذكر ابن شداد أنَّه يُعرف بالباب الصغير، وسُمِّي بذلك، لأنَّه كان أصغر أبواب مدينة دمشق، حين بُنِيت، ويُسمَّى باب الجابية الصغير، وذكر ابن طولون الصالحي أنَّه هو باب المدينة الجنوبي، وهو باقٍ في مصلبةٍ الشاغور، وفي جانبه الغربي زُقاق، يُقال: له زقاق العمادية، ومن شرقه طريق يُوصل إلى حارة الزط[٦].

---

[١] البيضاوي(عبد الله بن عمر): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨م، ص٣٩٨؛ النسفي (عبد الله بن أحمد بن محمود): مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، تح: يوسف علي بديوي ومحي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ١٩٩٨م، ج٢، ص٣٠٥.

[٢] قال ابن الجوزي: « فسمِّي كنزاً من جهة الذهب، وجعل اسمه هو المغلب، وقيلَ: إنه كان ذهباً وفضة». ابن الجوزي(عبد الرحمن بن علي): زاد الميسر في علم التفسير، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٨٦٦.

[٣] القرآن الكريم: سورة الإخلاص، الآيتان ٣، ٤.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٣٠٨، ٣٠٩.

[٥] البيضاوي: أنوار التنزيل، ص٣٩٩؛ النسفي: مدارك التنزيل، ج٢، ص٣٠٧.

[٦] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٤؛ ابن طولون الصالحي(محمد بن علي): الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٢٩م، ص٩، وذكر ابن كنان الصالحي أنَّه يقع بالجهة القبلية ويعرف بباب الجابية. ابن كنان: المواكب الإسلامية، جـ١، ص٢٠٨، وللمزيد المنجد(صلاح الدين): دمشق القديمة (أبوابها، أسوارها، أبراجها)، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٤٥م، ص٤٨.

***- باب كيسان:**

ذكر ابن شداد أنَّه يلي باب الصغير إلى جهة القبلة بشرق، وذكر ابن طولون الصالحي أنَّه إلى الشرق من باب الجابية، وهو منسوب إلى كيسان مولى بشر بن عُبادة بن قرطي الكلبي، وقد سدَّه السلطان نور الدين زنكي، وفتح باب الفرج ، ثمَّ جُدِّدَ في أيام المماليك سنة(٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م)، وكان بقربه مسجداً جَدَّده نائب الشام سيف الدين منكلي بغا[١].

***- الباب الشرقي:**

أورد ابن شداد بأنَّه سُمِّي بذلك، لأنَّه يقع شرقي البلد، وهو ثلاثة أبواب باب كبير في الوسط، وآخران صغيران على جانبيه، وذكر أبو البقاء البدري بأنَّه سُمِّي بذلك، لأنَّه شرقي البلد، وعليه نزل خالد بن الوليد، ودخل عنوةً[٢].

***- باب توما:**

أشار ابن شداد بأنَّه يُنسَب إلى عظيم من عُظماءِ الروم اسمه توما، وكان على بابه كنيسة حوِّلت مسجداً فيما بعد، وهو مسدودٌ في زمنه، وقيل فيه: يلي الباب الشرقي، وهو في القسم الشمالي من سور المدينة[٣].

***- باب الجينيق:**

ذكر ابن شداد أنَّه منسوبٌ إلى محلِّة الجينيق، وهو مسدودٌ في زمنه، و كان به كنيسة حوِّلت مسجداً، وذكر ابن طولون الصالحي أنَّه يُنسب إلى رومي اسمه الجينق، وإليه تُنسبُ محلِّة الجينق، وكانت محلَّة كبيرةِ فيها كنيسة جُعِلت مسجداً، وهي بين باب توما وباب السلامة خارج السور، وتُسمَّى حارة الفرائين، وقد سُدَّ منذُ زمنٍ بعيد، وآثارهُ اليوم ظاهرة، أمَّا المسجد فقد استحال دوراً للسكن[٤].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٤ ؛ ابن طولون: الشمعة المضيئة، ص١٠، وحدَّده ابن كنان الصالحي قبلي دمشق من شرقيها، وهو مسدود في زمنه. ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٢٠٩.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٥؛ أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٤، وقد بني أيام الرومان، وكان له شأن كبير، يتألف من ثلاثة أبواب، كبير في الوسط، وبابين صغيرين على جانبيه، وهو على نمط باب الجابية الباقي. المنجد: دمشق القديمة، ص٣٩.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٥ ؛ ابن طولون: الشمعة المضيئة، ص١٠؛ أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٤؛ ابن كنان : المواكب الإسلامية، ج١، ص٢٠٩.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٥؛ ابن طولون: الشمعة المضيئة، ص١٠، وللمزيد: أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٥؛ المنجد: دمشق القديمة، ص٦١.

***- باب السلامة:**

ذكر ابن شداد أنَّه سُمِّي بذلك للتفاؤل، لأنَّه لا يتهيأ القتال على ناحيته لما دُونِه من الأنهار والأشجار، وكان يُسمَّى باب الشريف.

وذكر أبو البقاء البدري أنَّ موقعه في سور دمشق الشمالي، وسُمِّي باب الشريف، وهو داخل دمشق، وكان يصعب دخول الأعداء عليه؛ لكثُرة الأشجار والأنهار من ناحيته، وقد أحدثهُ السلطان نور الدين الشهيد، ثُمَّ تهدَّم، فجدَّده الملك الصالح نجم الدين أيوب[١].

***- باب الفراديس:**

أشار ابن شداد بأنَّه منسوبٌ لمحلِّة الفراديس وهي خراب في زمنه، و الفراديس هي البساتين، وذكر ابن كنان الصالحي بأنَّه يُسمَّى باب العمارة، وهو باب مزدوج في شمال مدينة دمشق، ومنسوب إلى محلِّة الفراديس خارج المدينة، ولا يزال قائماً[٢].

***- باب الحديد:**

ذكر ابن شداد أنَّ هذا الباب خاص بالقلعة التي أُحدثت، وسُمِّي بذلك لأنَّه كلُّه حديد، و حدَّده أبو البقاء البدري في الجهة الشمالية الغربية من قلعة دمشق ، وأنَّه كان أعظم أبوابها وأهمِّها[٣].

***- باب الفرج:**

ذكر ابن شداد أنَّ الملك العادل نور الدين زنكي أحدثه، وسمَّاه بهذا الاسم تفاؤلاً، وذكر ابن طولون الصالحي أنَّه في الجهة الشمالية من سور دمشق بالقرب من القلعة في السوق التي يُقال لها المناخلية، وأحدثه نور الدين وسمَّاه باب الفرج تفاؤلاً لما وُجِدَ من الفرج لأهل البلد بفتحه، وكان يدعى باب البوابجية، وباب المناخ[٤].

***- باب الجابية:**

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٥؛ أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٦، وللمزيد: ابن طولون: الشمعة المضيئة، ص١٠؛ المنجد: دمشق القديمة، ص٤٤.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٥؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٢١٠، وللمزيد: المنجد: دمشق القديمة، ص٥٨.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٦؛ أبو البقاء البدري: نزهة الانام، ص٢٧، وللمزيد: دهمان(محمد أحمد): ولاة دمشق في عهد المماليك، دار الفكر، دمشق ،١٩٨٠م ، ص٢٦.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٦؛ ابن طولون: الشمعة المضيئة، ص١٠، وللمزيد: أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٢٦؛ المنجد: دمشق القديمة، ص٥٥.

حدَّده ابن شداد غربي دمشق، وهو منسوبٌ لقرية الجابية، وكان ثلاثة أبواب، الأوسط كبير، ومن جانبيه بابين صغيرين، ونسبه ابن كنان إلى قرية الجابية وكانت في القديم مدينة عظيمة، وباب الجابية كان ثلاثة أبواب: صغيران وكبير، والباب الشرقي مقابلة كذلك، و كان للأبواب ثلاثة أسواق من شرقي الجابية: الأوسط للمُشاة، وواحد لِمَنْ يُشِّرق بدابته، والآخر لمن يُغرِّب حتَّى لا يلتقي راكبان[1].

2- ذكر الجوامع والمساجد:

***- جامع المصلى:**

ذكر ابن شداد أنَّه يقع قبلي البلد، وأنشأه الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وحدَّده ابن عبد الهادي قبلي البلد في الميدان الوسطاني" باب المصلى" خارج محلِّة ميدان الحصى، أنشأه الملك العادل بن أيوب سنة(٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)[2].

***- جامع التوبة:**

ذكر ابن شداد أنَّه يقع بمحلِّة العقيبة، وأنشأه الملك الأشرف موسى بن العادل بن أيوب سنة(٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، وذكر النُعيمي أنَّ موقعه بمنطقة العقيبة ظاهر دمشق، وكان يُعرف بخان الزنجاري، وكان به كلُّ مكروه، ثمَّ حوِّل إلى جامع لذلك عرف بجامع التوبة[3].

***- جامع الجراح:**

ذكر ابن شداد أنَّ موقعه خارج باب الصغير، وأنشأه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل سنة(٦٣١هـ/١٢٣٣م)، وأوقف عليه قرية الزغيرية بمرج دمشق، وشرطَ فيه للخطيب في كلِّ شهر خمسين درهماً، وأشار ابن كنان الصالحي أنَّه يقع في منطقة الشاغور في درب الجراح، خارج باب الصغير، بمحلِّة سوق الغنم ، وكان يعرف بمسجد الجنائز[4].

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٦؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٢١٠، وللمزيد: ابن طولون: الشمعة المضيئة، ص١٧؛ أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٣٥؛ المنجد: دمشق القديمة، ص٥٢.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٨٦، ٨٧؛ ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص١٥٢، ١٥٣، وللمزيد: النعيمي: الدارس، ج٢، ص٢٨٠.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٨٧؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص٣٢٨، وللمزيد: ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٦٢؛ بدران، منادمة الأطلال، ص٣٧٠؛ طلس: ذيل ثمار المقاصد، ص٢٠٢، ٢٠٣.

[4] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٨٨؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٦٥، وللمزيد: النعيمي: الدارس، ج٢، ص٢٢٥؛ بدران: منادمة الأطلال، ص٣٧١؛ طلس: ذيل ثمار المقاصد، ص٣٠٥

***- مسجد الطرايفين:**

عُرِفَ في زمن ابن شداد بمسجد الرمَّاحين، ويقع في سوق السراجين، وله إمام ومؤذن، وذكر النُعيمي بأنَّه يُعرف بمسجد الجلادين، وله منارة، و إمام ومؤذن، وله سقاية وقناة[١].

***- مسجد الجلادين:**

ذكر ابن شداد أنَّه أحَّدٌ مساجد دمشق المُعلَّقة، وله إمام ومؤذن ووقف، وكرَّر النعيمي كلام ابن شداد ذاتهِ[٢].

***- مسجد النيرب:**

أشار ابن شداد إلى وجود ضريح حنَّة أمُّ مريم عليها السلام في هذا المسجد، وذكره النعيمي بأنَّه من مساجد القُرى، بالقُرب من الربوة، وأورد ابن طولون الصالحي أنَّ موقعه بالقُرب من بستان بدري بن معتوق بالربوة[٣].

3ً- ذكر أشهر المزارات:

***- جبل بردة:**

ذكر ابن شداد أنَّه من الأماكن المقدَّسة؛ لوجود قبر قابيل وهابيل ولد آدم عليه ، وأشار الهروي إلى ذلك، وقيل: قائين وهو الأصح والله أعلم[٤].

***- النيرب[٥]:**

ذكر ابن شداد أنَّها أهمُّ المزارات لوجود قبر حنَّة أمُّ مريم بجامعها، بينما ذكر الهروي بأنَّها ليست مريم بنتُ عُمران[٦].

***- جبل قاسيون:**

أشارَ ابن شداد لوجود مغارة الدَّم به، وبه قُتِل قابيل وهابيل، وبه مغارة آدم، ومغارة الجوع، وأضاف الهروي أنَّه مات بمغارة الجوع بجبل قاسيون أربعون نبياً ولموتهم حكاية، بينما أورد ابن بطوطة أنَّ من

---

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٩٥؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص٢٣٦.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٩٦؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص٢٣٦، وهذا كلام أبو البقاء البدري أيضاً. أبو البقاء البدري: نزهة الأنام، ص٦٣.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٣٠؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص٢٧٢؛ ابن طولون الصالحي(محمد بن علي): القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تح: محمد أحمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠م، ج١، ص٣٥٥.

٤ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٨٠؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢٠.

٥ قرية مشهورة بدمشق على بعد فرسخ في وسط البساتين. الحموي: معجم البلدان، مج٥، ص٣٣٠.

٦ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٨١؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢٠.

مشاهدِ الغار الذي ولِد فيه إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو غار مُستطيل ضيّق عليه مسجد كبير، وله صَومعة عالية[١].

***- بَرزَة:**

ذكر ابن شداد أنَّ بها ولد إبراهيم الخليل عليه السلام، بينما خالفهُ الهروي و ذكر أنَّ الصحيح هو مولده بالعراق بكوثى ربًّا[٢].

***-عذرا:**

أورد ابن شداد أنَّ بها قبر عُدِّي بن حجر وأصحابه الَّذين قتلهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وأشار ابن طولون الصالحي أنَّ موقعها شرقي دُوما، و هي بلدة كبيرة، بها كان قَتْلُ عُدي بن حجر وأصحابه[٣].

***- مشهد الأقدام:**

ذكر ابن شداد أنَّ به آثارُ أقدام يُقال: إنَّها آثار أقدام الأنبياء، وذكر الهروي أنَّ آثار الأقدام في الصخر، و يُقالُ: إنَّها أقدام الأنبياء عليهم السلام، وأشار ابن بطوطة أنَّه من مشاهد دمشق الشهيرة في جهتها القبلية، وهو مشهدٌ عظيمُ البركة له أوقافٌ كثيرةٌ، والأقدام التي يُنسب إليها هي أقدام مصوَّرة في حجرٍ هُنالك يُقال: إنَّها أثر قدم موسى عليه السلام، وفي هذا المشهد بيتٌ صغير فيه حجر مكتوب عليه: هاهنا قبر أخي موسى عليه السلام[٤].

***- ميدان الحصا:**

أشار ابنُ شداد أنَّه من أشهرِ المزارات لوجود قبر عَاتكة أُخت عمر بن الخطاب رضي الله عنه به، وحدَّده الهروي قبلي دمشق، وبه قبر ذكروا أنَّه قبر أمُّ عَاتكة أُخت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبقربه قبر صُهيب الرُّومي وأخيه، والصحيح أنَّ صُهيب، وعَاتكة بالمدينة[٥].

4- ذكر أشهر الخوانق والربط:

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٨١؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢٠؛ ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٢٧، ٣٢٨.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٨١؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢١.

[٣] ابن طولون الصالحي(محمد): ضرب الحوطة على جميع قرى الغوطة، مجلة المجمع العربي العلمي، دمشق، ١٩٤٦م، ص١٥٩.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٨٣؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢١؛ ابن بطوطة: الرحلة، الرحلة، ج١، ص٣٢٥.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٨٤؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢١، وللمزيد: كاتبي صيادي: الروضة البهية، ص٦٩.

***- الخانقاه السمسياطية:**

ذكر ابن شداد أنَّها منسُوبة لأبو القاسم السمسياطي، والمتوفى سنة(٤٥٣هـ/١٠٦٠م)، وحدَّدها النُّعيمي شمال الجامع الأموي بدمشق، لصيقة به عند بابه المُسمَّى باب النطفيين، ووقفها أبو القاسم علي بن محمد السلمي السميساطي، أحَّد أكبر الرؤساء بدمشق ، وكانت في مبدأ أمرها داراً لعبد العزيز بن مروان بن الحكم، ثمَّ انتقلت لابنه عُمر بن عبد العزيز، وتناولتهَا الأيدي إلى أنْ قَدِمَ أبو القاسم السمسياطي دمشق، وأوقفها على فُقراء الصوفية[١].

***- الخانقاه الحسامية:**

ذكرَ ابن شداد أنَّها منسُوبة لأمُّ حُسام الدِّين عُمر بن لاجين، وأشار ابن طولون الصالحي أنَّ مُوقعها بالشرف القبلي، شمالي المدرسة الشبلية البرانية عند جسر كحيل، وهي منسوبةٌ لأمُّ حُسام الدِّين عُمر بن لاجين، وهي أختُ السُلطان صلاح الدين الأيوبي[٢].

***- الخانقاه الشبلية:**

ذكرَ ابن شداد أنَّها منسوبة لشبل الدولة كافور المُعظمي المُتوفى سنة(٦٢٣هـ/١٢٢٥م)، وتقع بسفح جبل قاسيون، وحدَّدها النُّعيمي بسفح جبل قاسيون فوق جسر ثُورا في صالحية دمشق[٣].

***- خانقاه خاتون:**

ذكر ابن شداد أنَّ خاتون بنت معين الدين أنر زوجة نور الدين الشهيد(ت ٥٨١هـ /١١٨٥م)، بنتها بدمشق، وذكر ابنُ كنان الصالحي أنَّ موقعها في ظاهر باب النصر، وفي أوَّل الشرف القبلي على بانياس بظاهر دمشق، وشمالي جامع تنكز[٤].

***- خانقاه الطواويس:**

لمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنها، وذكر ابن عبد الهادي أنَّها تقع بالشرف الأعلى بمحلِّة البحصة، وهي منسوبة إلى شمس الملوك دقاق أبي نصر بن تاج الدولة(ت ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م)[٥].

---

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩١؛ النعيمي: دور القرآن، ص٧٨، وللمزيد: ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٥١؛ الحصني: منتخبات التواريخ، ص٩٦٢.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩١؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية، ص٢٧٨، وللمزيد: النعيمي: الدارس، ج٢، ص١١٢.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩٢؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٢٧؛ وللمزيد: ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٥٢؛ بدران: منادمة الأطلال، ص٢٨٠.

٤ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩٢؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٢٧١، وللمزيد: النعيمي: الدارس، ج٢، ص١١٣؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية، ص١٠٤؛ بدران: منادمة الأطلال، ص١٦٧.

٥ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩٢؛ ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص١٢٢؛ وللمزيد: النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٢٩؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٥٤؛ بدران: منادمة الأطلال، ص٢٨٢.

***- الخانقاه الأسدية:**

حدَّدها ابن شداد بدرب الوزيري، وأضاف ابن كنان الصالحي أنَّها داخل باب الجابية بدرب الهاشمين، المعروف بدرب الوزير، وأنشأها أسد الدِّين شيركوه(ت ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)[١].

***- رباط أبي البيان:**

أشار ابن شداد أنَّه بناه بحارة درب الحجر، وحدَّدهُ النعيمي داخل باب شرقي، وبُنِيَ بحارة درب الحجر، بناه أبو البيان بنَّا بن محمد بن محفوظ القُرشي الشافعي المعروف بابن الحوراني(ت ٥٥١هـ /١١٥٧م)[٢].

***- رباط زهرة خاتون:**

لمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، وحدَّدهُ النعيمي بقرب حمَّام جاروخ بجوار دار الأمير مسعود ابن الست عذرا صاحبة المدرسة العذراوية، ومن ثَمَّ صارت هذه الدار للأمير جمال الدين موسى بن يغمور بن جلدك الياروقي(ت ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م)[٣].

***- رباط عذرا خاتون:**

لمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، وذكر ابن طولون الصالحي أنَّ موقعه خارج باب النصر، وحدَّد النعيمي موقعه على نهر بانياس، أوَّل الشُرف القبلي[٤].

5ً- ذكر أشهر المدارس:

أورد ابن شداد معلوماتٍ مُهمَّةً عن مدارس دمشق، فتناول في كتابه مدارس الحنفية، والشافعية، والحنابلة، والمالكية، وبعد ذلك ذكر عدداً من مدارس الطب التي اشتُهِرَت في دمشق، ولعلَّ من أهمِّ ما ذكره:

***- أهمّ مدارس الحنفية:**

- المدرسة الصادريَّة:

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩٣؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٥١؛ وللمزيد: ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص٩٥؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٠٩.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩٥؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٥٠؛ النعيمي: دور القرآن، ص٦٨.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩٥؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٥.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩٦؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج١، ص١٠٧؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٥٢.

ذكرَ ابن شداد أنَّ موقعها بباب البريد على الباب الغربي للجامع الأموي، وأورد النُّعيمي أنَّ شجاع الدولة صادر بن عبد الله أنشأها، وهي أوَّلُ مدرسة أُنشِئت بدمشق سنة(٤٩١هـ / ١٠٩٨م)[١].

– المدرسة النوريَّة:

حدَّد ابن شداد موقعها بخط الخواصين، أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة(٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)، وحدَّدها النُّعيمي بسوق العصرونية من الجانب الجنوبي، بين دار الحديث الأشرفية، ومدرسة العصرونية، وأمام العادلية الصغرى[٢].

– المدرسة الخاتونيَّة:

ذكر ابن شداد أنَّها من بناء خاتون بنتُ مُعين الدين أنر زوجة نور الدين الشهيد، لكنَّها ماتت ولم تُعقب، وحدَّدها ابن كنان الصالحي بمحلّة داخل باب الفرج، وشرقي القلعة، وغربي الجامع الأموي[٣].

– المدرسة القليجيَّة:

أشار ابن شداد أنَّ واقفُها سيف الدين علي بن قليج النوري(ت ٦٤٥هـ/١٢٤٧م)، وذكر النُّعيمي أنَّها تُعرف بدار الفلوس، وتقع قبلي الجامع الأموي، وشمالي المدرسة الصدرية، وغربي التربة الجمالية[٤].

– المدرسة الشبليَّة:

ذكر ابن شداد أنَّ بانيها هو شبل الدولة كافور المُعظَّمي، بينما أورد ابن طولون الصالحي أنَّ الشبلية مدرستان **هُما**: الشبلية البرَّانية، والجوَّانية، والبرانية: تقع بالقرب من ثورا أحَّد روافد بردى، وشمالي جسر كحيل، انتهى كافور المُعظَّمي من بنائها سنة(٦٢٣هـ /١٢٢٥م). أمَّا الشبلية الجوانية، فتقع على طريق الصالحية قُبالة المدرسة الأكزية الشافعية[٥].

– المدرسة الإقباليَّة:

---

١ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٩٩، ٢٠٠؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٤١٣، وللمزيد: ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٤٥؛ بدران: منادمة الأطلال، ص١٧٨.

٢ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٠٣؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٧٤، وللمزيد: بدران: منادمة الأطلال، ص٥٨؛ كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص٧٤.

٣ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٠٥؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٤٤، وللمزيد: النعيمي: الدارس، ج١، ص٣٨٨، ٣٨٩؛ كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص٩٢.

٤ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٠٧؛ النعيمي: الدارس، جـ١، ٤٣٧، ٤٣٨، وللمزيد: ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٤١.

٥ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٠٨؛ ابن طولون: القلائد الجوهرية، ص١٩٤، وللمزيد: النعيمي: الدارس، ج١، ص٤٠٧ ، ٤١٣؛ ابن كنان: حدائق الياسمين، ص١٥٢؛ بدران: منادمة الأطلال، ص١٧٦.

ذكر ابن شداد أنَّ مُنشِئُهَا خواجا إقبال خادم نور الدين الشهيد، و حدَّدها النعيمي بين باب الفرج وباب الفراديس، شمال الجامع الأموي، وأنشأها جمال الدين إقبال خادم نور الدين المُتوفى سنة(٦٠٣هـ /١٢٠٦م)[١].

***- أهمّ مدارس الشافعية:**

- المدرسة الأمينيَّة:

ذكر ابن شداد أنَّ بانيها أمين الدولة كمشتيكين الأتابكي المُتوفى سنة(٥٤١هـ/١١٤٦م)، وحدَّدها ابن كنان الصالحي قبلي باب الزيادة أحَّد أبواب الجامع الأموي، والآخذ إلى القبلة، وتقع شرقي المدرسة المُجاهدية، وبجوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح[٢].

- المدرسة الرُكنيَّة:

ذكر ابن شداد أنَّ واقفها ركن الدين منكورس عتيق فلك الدِّين سليمان العادلي أخو الملك العادل، والمتوفى سنة(٦٣١هـ/١٢٣٣م)، وأورد ابن كنان الصالحي بأنَّها هي المدرسة الرُكنيَّة الجوانية الشافعية، في زُقاق بني مفلح، داخل بابي الفراديس والفرج، بحارة الأفتريس شرق المدرسة الفلكية إلى الشرق من الصالحية بدمشق[٣].

- المدرسة العادليَّة:

ذكرَ ابن شداد أنَّ أوَّلُ من أسسها نور الدين زنكي بن محمود، وأتمَّها الملك العادل أبو بكر بن أيوب المتوفى سنة(٦١٥هـ/١٢١٨م)، وحدَّدها النعيمي شمالي الجامع الأموي بغرب، وشرقي الخانقاه الشهابية، وقبلي الجاروخية، واتِّجاه باب المدرسة الظاهرية[٤].

- المدرسة الناصريَّة:

أورد ابن شداد أنَّها من بناء الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب، وبناها سنة(٦٥٣هـ/١٢٥٥م)، وكانت تُعرف بدار الزكي المُعظَّمي، وذكر ابن كنان الصالحي أنَّها هي المدرسة

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢١٠، ٢١١؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص١١٨، وللمزيد: بدران: منادمة الأطلال، ص٨١، ١٥٢.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٣١؛ ابن كنان، محمد بن عيسى: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٣٤، وللمزيد: بدران: منادمة الأطلال، ص٨٦.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٣٦؛ ابن كنان: حدائق الياسمين، ص١٤٨، وللمزيد: بدران: منادمة الأطلال: ص٩٩.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٤٠؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٢٧١ و ج٢، ص٢٠٢، وللمزيد: كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص٨١، ٨٢.

الناصرية الجوانية، الواقعة داخل باب الفراديس وشمال الجامع الأموي، وشرقي المدرسة الرواحية، والمُقدَّمية الجوانية[١].

- البادرائية:

ذكر ابن شداد أنَّ بانيها نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائي في آواخر سنة(٦٥٤هـ /١٢٥٦ م)، وحدَّدها النعيمي داخل باب الفراديس والسلامة، وشمال جيرون بدمشق، وشرقي المدرسة الناصرية الجوانية، أنشأها البادرائي، وأوقفَ عليها أوقافاً حسنة، وجعلَ بها خِزانة كُتب[٢].

- الزاوية الغزالية:

ذكر ابن شداد أنَّها منسوبة للإمام الغزالي، لكونَهُ دخل دمشق وقصد الخانقاه السمسياطية، فمنعه الصوفية، وذكر ابن كنان الصالحي أنَّها هي الزاوية الغربية من الجامع الأموي، شمالي مشهد عثمان، وكانت تُعرف بالزاوية الدولعية، وبزاوية النيسابوريُ، وسمِّيت بالغزالية؛ لأنَّ الإمامُ الغزَّالي عندما توجَّه إلى دمشق منعهُ الصوفية من قصد الخانقاه السمسياطية، فأقامَ في الزاوية المذكورة وسُمِّيت باسمهِ[٣].

- الزاوية القوصية:

أورد ابن شداد أنَّ واقفها شهاب الدين أبو العز إسماعيل بن حامد القوصي الخزرجي المتوفى سنة(٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، وذكر النُّعيمي أنَّها تقع بالجامع الأموي، داخل باب شرقي أحَّدَ أبواب دمشق[٤].

***- مدارس المالكية:**

- المدرسة الأمجديَّة:

ذكر ابن شداد أنَّ بانيها الملك المُظفَّر نُور الدِّين عُمر بن الأمجد، ابتناها سنة(٦٢٨هـ /١٢٣٠م)، وحدَّدها النُّعيمي بالشُرف الأعلى على المرجة، وبالقرب من نهر بردى[٥].

- المدرسة الصلاحيَّة:

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٤٤؛ ابن كنان، محمد بن عيسى: حدائق الياسمين، ص١٥١؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٣٥٠، ٣٥١.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٤٥؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص١٥٤؛ ابن كنان: المواكب الاسلامية، ج١، ص٣٣٥.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٤٦، ٢٤٧؛ ابن كنان: حدائق الياسمين، ص١٤٩، وللمزيد: النعيمي: الدارس، ج١، ص٣١٣، ٣١٤.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٤٧؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٣٣٣.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٥٢؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص١٢٦، وللمزيد: ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص ٣٣٤؛ بدران: منادمة الأطلال، ص٨١، ١٢٥.

أورد ابن شداد أنَّ مُنشِئَها صلاح الدين يوسف فاتح بيت المقدس، ابتناها بقُرب البيمارستان النوري، وذكر ابن كنان الصالحي أنَّها قد دُرِسَتْ وضاعت معالمها، وحدَّد النُّعيمي مَوضعها في سوق الحريقة في الجنوب الغربي للجامع الأموي[١].

***- مدارس الحنابلة:**

- المدرسة الصدريَّة:

ذكر ابن شداد أنَّ واقفها صدر الدين ابن منجا، وحدَّدها كُلَّاً من النُّعيمي، وابن كنان الصالحي في رأس درب الريحان جنوبي قصر العظم ناحية الجامع الأموي بدمشق[٢].

- المدرسة العذراويَّة:

ذكر ابن شداد أنَّ الست عذراء بنت صلاح الدين، أنشأتها داخل باب النصر بحارة الغرباء سنة(٥٣٠هـ/١١٣٥م)، وهي مدرسة مشتركة بين المذاهب الأربعة، وذكر كُلَّاً من النعيمي، وابن كنان الصالحي أنَّها تقع بحارة الغُرباء داخل باب النصر المُسمَّى بباب دار السعادة، وهي وقف على الشافعية والحنفية، أنشأتها الست عذراء بنت أخ صلاح الدين بن أيوب المتوفاة سنة(٥٩٣هـ/١١٩٦م)[٣].

***- مدارس الطب:**

- المدرسة الدخواريَّة:

أورد ابن شداد أنَّها من بناء مُهذَّب الدين عبد الرحيم المعروف بالدخوار، ابتناها بسوق الصاغة العتيقة سنة(٦٢١هـ/١٢٢٤م)، وحدَّدها النُّعيمي بسوق الصاغة العتيقة بدرب ابن العميد جنوب الجامع الأموي، أنشأها مهذب الدين الدخوار، و أوقفَها على الأطباءِ لتدريس الطب، وأوقفَ عليها ضياعاً[٤].

- المدرسة اللبوديَّة:

ذكر ابن شداد أنَّ نجم الدين بن اللبودي أنشأها سنة(٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م)، وأشار النُّعيمي إلى أنَّها تقع شرقي بُستان اللُبودي، في أراضي باب السريجة بدمشق، عند حمَّام الفلك[٥].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٥٣؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٣٤٩؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٢٥٠ و ج٢، ص٨، ١٨، وللمزيد: الحصني: منتخبات التواريخ، ص٩٥٩.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٥٧؛ النعيمي: الدارس، جـ٢، ص٦٨؛ ابن كنان: حدائق الياسمين، ص١٥٦.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٦٠؛ النعيمي: الدارس، جـ١، ص٢٨٣، ٤٢٢؛ ابن كنان: حدائق الياسمين، ص١٤٩.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٦٥؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٠١، وللمزيد: بدران: منادمة الأطلال، ص٢٥٢.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٦٦؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص١٠٦، ١٠٧.

6ً- ذكر أشهر الكنائس والأديرة:

***- كنيسة اليعقوبيين:**

ذكر ابن شداد أنَّها تقع بقرب حمام الأكافين، وحدَّدها النُّعيمي في حارة حنانيا بالقرب من باب شرقي بدمشق، وهي كنيسةٌ صغيرةٌ للسريان اليعاقبة[١].

***- كنيسة مريم:**

ذكر ابن شداد أنَّها أكبر كنائس دمشق، ولم يُحدِّد موقعها، في حين أشار ابن فضل الله العمري بأنَّها كنيسة للمسيحيين الأرثوذكس، بالقُرب من الجامع الأموي بدمشق[٢].

***- كنيسة حميد بن دُرَّة:**

لم يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنها، في حين حدَّدها النُّعيمي بالقرب من الجامع الأموي بجانب سوق الجُبن، وقد أعطاها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك للمسيحيين عندما بَنَى الجامع الأموي[٣].

***- كنيسة المصلبة:**

حدَّد ابن شداد موقعها عند السور بين باب شرقي وباب تُوما، وذكرَ النُّعيمي أنَّها بالقرب من مسجد الحرَّاقة عند باب شرقي بدمشق[٤].

***- دير صليبا:**

أورد ابن شداد أنَّ هذا الدير، بدمشق مُطلٌّ على الغوطة، ويليه من أبوابها باب الفراديس، ويعرف بدير خالد لأنَّ خالد بن الوليد نزلَ عليه أيام حاصرَت العرب المسلمين دمشق، وفتحها، وهو في موضعٍ حسن كثيرُ البساتين والمياه، عجيب البناء، وأرضه مفروشة بالبِلاط المُلُّون، وسمَّاه ابن فضل الله العمري بدير السائمة، وذكرَ أنَّه موضعٌ نزه، كثير البساتين، وبناؤه حسنٌ عجيب، وذكر أبو الفرج الأصبهاني أنَّه ديرٌ يُشرف على غوطة دمشق، وبجانبه دير للنساء، فيه رُهبان و راهبات[٥].

***- دير مُرَّان:**

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٧٢، ٢٧٣؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص٢٤٨، وللمزيد: القسطالي: الروضة الغناء، ص١٠٣.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٧٣؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، جـ١، ص٢٣٤، وللمزيد: ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص٧١؛ النعيمي الدارس، ج٢، ص٢٤٣، ٢٩٠؛ القسطالي: الروضة الغناء، ص٢٠١.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٧٥؛ النعيمي الدارس، ج٢، ص٢٩٠.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٧٥؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص٢٤٦، ٢٩٠.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٧٧؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٨٠؛ أبو الفرج الأصبهاني: الديارات، ص٢١، وللمزيد زيات: الديارات النصرانية، ص١٦٤- ١٧٠؛ عواد: ذيل ديارات الشابشتي، ص٣٣٩، ٣٤٠.

ذكر ابن شداد أنَّ موقعه ظاهر دمشق، وهو مشرفٌ على مزارع نَزِهَة ورياضٌ وبساتين، وحدَّدهُ العمري بالقرب من دمشق على تل في سفح جبل قاسيون، وبناؤهُ بالجصِّ، وأكثر فرشِه بالبلاط المُلوَّن، وفي هيكلهِ صورة عجيبة دقيقة المعاني وقلاليه دائرة به، وأشجاره متراكبة، وماؤه يتدفق، وَوُصِفَ بأنَّه ديرٌ جميل البناء مُشرفٌ على مزارعٍ ورياضٍ نَزِهَة[١].

7ً- ذكر أشهر الحمَّامات:

***- حمَّام نور الدين:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكر ابن عبد الهادي أنَّ موقعه بسوق البزورية اتِّجاه دار الذهب، بالقرب من دار القرآن، والحديث التنكزية، وقد بناهُ الملك العادل نور الدين، محمود بن زنكي بن أقسنقر المتوفى سنة(٥٦٩هـ /١١٧٣م)[٢].

***- حمَّام النحَّاس:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما حدَّدهُ النُّعيمي بطريق الصالحية العتيق، في حي الأكراد إلى الشرق من المدرسة الرُّكنيَّة بسفح جبل قاسيون[٣].

***- حمَّام العرايس:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكر ابن كنان الصالحي أنَّه من حمامات السِّهم في الصالحية بدمشق، أنشأه الصاحب بهاء الدين بن عليم المتوفى سنة(٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)[٤].

***- حمَّام سويد:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، وحدَّدهُ النعيمي شرقي حمام نور الدين الشهيد بسوق البزورية، واتِّجاه دار الذهب، وهُدِمَ فيما بعد، وبُنِيَ مكانه دار الحديث والقرآن التنكزية[٥].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٨٢؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ص٣٨٣، و للمزيد: ابن محمد الدمشقي: البدور المسفرة، ص٣٤-٤٧؛ ابن فضل الله المحبي: نفحة الريحانة، ج٢، ص٩٦-٩٨.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٩٢؛ ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص٨٥، وللمزيد: النعيمي: الدارس، جـ١، ص٩١؛ طلس: ذيل ثمار المقاصد، ص٢١٥.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٩٢؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص٣٤٠، وللمزيد: ابن كنان: المروج السندسية، ص٣٠؛ كيّال(منير): الحمامات الدمشقية وتقاليدها، مطبعة وزارة الثقافة، ط١، دمشق، ١٩٦٦م، ص٤٩،٤٧.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٩٥؛ ابن كنان: المروج السندسية، ص٣٠، وللمزيد: ابن زفر الإربلي(الحسن بن أحمد): مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها، تح: محمد أحمد دهمان، مكتب الدراسات الإسلامية، دمشق، ١٩٤٧م، ص٢٨.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٩٣؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٩١.

***- حمَّام العقيقي:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكرَ النُّعيمي أنَّ موقعه اتِّجاه المدرسة الظاهرية الجوانية، داخل بابي الفرج والفراديس، وجوار الجامع الأموي وشمالي باب البريد، وقبلي المدرسة الجاروخية، وشرقي المدرسة العادلية الكُبرى[١].

8ً- في ذكر أشهر الأسواق:

***- سُوق الحَريقة:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكرَ النُّعيمي أنَّه يقع في الجنوبِ الغربي للجامع الأموي، بالقُرب من المدرسة الصلاحية[٢].

***- السُوق الكبير:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، وحدَّدهُ النعيمي بالقرب من باب شرقي بدمشق[٣].

***- سُوق البزوريين:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد معلوماتٍ عنه، وذكر النُّعيمي أنَّه يقع اتِّجاه دار الذهب[٤].

***- سُوق القمح:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكر ابن عبد الهادي أنَّ موقعَهُ بمنطقة البزورية بدمشق، قُربَ الجامع الأموي[٥].

9ً- ذكر أشهر القصور:

***- قصر حُجَّاج:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، بينما ذكرَ ابن كنان الصالحي أنَّه هو القصر الذي بناهُ حُجَّاج بن عبد الملك بن مروان في جنوب غربي دمشق خارج باب الجابية، فسُمِّيت المنطقة المحيطة به بِمحَلَّة قصر حُجَّاج[٦].

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٢٩٧؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٢٦٣.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٩٣؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٢٥٠ و ج٢، ص٨، ١٨.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٠٠؛ النعيمي: دور القرآن، ص٦٩.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٩٩؛ النعيمي: الدارس، ج١، ص٩١.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١١٢؛ ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص٨٨، وللمزيد: طلس: ذيل ثمار المقاصد، ص٢٦٥.

[٦] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٥٤؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ج١، ص٤١٤؛ الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٣٥٧.

***- قصر الجنيد:**

لَمْ يُقدِّم ابن شداد أيَّة معلوماتٍ عنه، وحدَّده النُّعيمي في غربي باب مصلَّى بدمشق[1].

10ً- طرف مما وجد مكتوباً على بعض الأحجار بدمشق:

ذكَرَ ابن شداد أنَّه وُجِدَ في أعلى حُصن دمشق(قلعة دمشق) عباراتٍ مكتوبةٌ منها: « لا تغترَّ بهواءِ دمشقَ ولا بِشعرِهَا، ولا بِناسِها، إنْ أحببتَ أنْ تسكُنَهَا».

ومنها: « أُسِسَت هذه المدينة على الحصا، وظهرَ في أكثر الأمكِنة منها الماء، وجُعِلت أبوابها مِنَ النُحاس، وتحصَّنت فيها الأعداء».

ووُجِدَ مكتوبٌ على حجرٍ كبيرٍ في قناطر المزَّة:« لا تَتعرض لِمَا لا تعرفهُ، تتعبُ فيمَا تعرفهُ، اتَّبِعْ الرئيس فيمَا يأمُرُكَ بهِ، تنجَا مِنْ الخَطَايا»[2].

د- المآخذ على كتاب الأعلاق الخطيرة:

رُغمَ أهمِّية ما قدَّمهُ ابن شداد من معلوماتٍ تاريخيَّة وجغرافيَّة عن بلاد الشام ومُدنها، إلَّا أنَّ المؤلف وقع في أخطاء وتناقضات عدَّة، لمْ يستدركها من جاء بعده من جُغرافيّي الخُطط وأخذ عنه، ولعلَّ أهمَّ المُلاحظات النقدية التي توجَّه للكتاب المُتناول أنَّ ابن شداد لم يلتزم بالمنهج الذي حدَّدهُ في مُقدِّمته.

فمثلاً حدَّد القسم الثاني من الجزء الأول بسبعة أبواب وقال: « إنَّه يبحثُ في ذكر ما اشتملت عليه جند قنسرين، وما أضفناه إليه من بلاد العواصم والثغور وبلاد حمص، وقُلنا إنَّهما جندان»[3]، لكن بالرجوع إلى الكتاب يُلاحظ أنَّ المؤلف لم يلتزم في هذا القسم إلَّا بكتابة الأبواب الثلاثة الأولى، وأعرض عن كتابة الأبواب الأربعة الأخيرة، والتي كشف عنها في منهجه بأنَّه سيتناول فيها الكلام عن جُند حمص، وما في هذا الجُند من البلاد، والأنهار، والبحيرات، والجبال.

وينطبقُ الكلام على القسم الثالث من الجزء الأول، والجزء الثاني، و الجزء الثالث، وهي في ذكر أُمراء البلاد فقد صفحَ المؤلف عن ذكرها، مع العلم أنَّه صرَّحَ في منهجه بأنَّه سيتناولها بالذكر، إذ قال:« وأُرتِّب الكلام فيه على ثلاثة أقسام، حلَّت منه محلِّ الأرواح في الأجسامِ...، والقسم الثالث في ذكر أُمرائها منذُ فُتِحت إلى عصرنا الذي وضعنا فيه هذا الكتاب»[4].

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٥٥؛ النعيمي: الدارس، ج٢، ص٢٧٧.

[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٣٢، ٣٣.

[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٧.

[4] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٨، ٢٩.

كذلك لم يُوفِ المؤلف بشرطه بذكر الموصل، والتي قرر ذكرَها في ديباجة مُقدِّمته بالجزء الثالث بقوله: « ونختمُ بذكر الموصل، وإنْ لمْ تكُنْ من الجزيرة، وإنَّما ساقنا إلى ذكرها المجاورة والمصاقبة، ولأنَّها كانت معدُودة في الولايات الجزرية في صدر الإسلام في أيام بَنِي أُميَّة، وبعض ملوك بَنِي العباس»[1].

وإذا ما نُظِرَ إلى الجانب الاجتماعي والتاريخي لذكر الأقوام، فإنَّ المؤلف لم يُقدِّم مادَّة علمية مُفيدة تُوضِّح أصل ما ذكره من أقوام وقبائل وجماعات، فجاءت معلوماتُه بهذا الجانب ثانوية ومبهمة، أدَّت لعدم تفسير الأصول التاريخية وحتَّى المكانية لِمَا ذُكِرَ، فمثلاً عند حديثه عن الأكراد، اكتفى بذكرهم دونَ استرسال في وصف أحوالهم ومن أيِّ صقعٍ جُغرافي جاؤوا، وإلى أيَّة قبيلة كُردية ينتمون[2]، وينطبق هذا على جماعات وعناصر سكانية عدِّة، موجودة في المناطق التي تطرقَ لذكرها، دونَ بحث أصول ساكنيها، وهذا الأمر أفقدَ الكتاب الكثير من قيمته الاجتماعية والتاريخية والجغرافية.

وافتقرَ الكتاب إلى ملكة التدقيق والنقد التحليلي في بعض المواضع، إضافةً إلى أخذه معلومات عن مصادر دونَ التأكد من صحتها فهو يقول: « وحاصرت الفرنج حلب سنة(٥١٨هـ/١١٢٤م)، وعَمدوا إلى نبش قبور المسلمين فنبشوها» [3]، فالمؤلف خلال هذه السنة لمْ يكُن شاهداً على الحدث، وبجانبٍ آخر لمْ يُقدِّم مصدره التي استقى منه المعلومة، ولمْ يُقدِّم تحليلاً منطقياً لها مما يجعل القارئ في موضع الشك لصحة ما أورده.

وأيضاً مثالها حكايتهُ عند مُحاصرة الفرنج لحلب سنة(٥٧٣هـ/١١٧٧م)، وقولهُ: « إنَّ أحَّدَ أعيانُ حلب خرج إلى سور القلعة وسجد عليه فنام في آخر الليل، وهو ساجد فرأى في المنام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجه يقول له: ارفع رأسك يا شيخ، فقد قُضيت حاجتك. فحكى للناس ذلك فتباشروا به»[4]، فمن جهة أنَّ هذه الرواية بعيدة عن التصديق فكيف يُمكن أنْ يكون الفرنج مُحاصرين لقلعة حلب ونيرانهم وأسلحتهم تدكَّها ويوجد هذا الرجل، وهو نائم على سور القلعة، ومن جهة أخرى أنَّ ابن شداد قدَّم هذه الرواية دونَ إخضاعها للنقد أو تحليلها وتمحيصُها، أو إعطاء أيَّ احتمالٍ بصحتِها وتكذيبها، فجاء حُكْمَهُ قطعي بذكر صحة الرواية دونَ التأكد منها.

وإنَّ القارئ للكتاب يُلاحظ أنَّ ابن شداد جُغرافياً ناقلاً جمَّاعاً لمؤلفات من سبقه من المؤرِّخين والجغرافيين فهو بهذا نموذجٌ لأولئك الجامعين الناقلين الَّذين عجزوا عن الإبداع فاقتصروا على تكثيف، وترتيب واختصار معلومات من سبقهم، وبذلك لم يأتِ بشيء جديد، فقد أكثر من النقل من كتاب" بُغية الطلب"

---

[1] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٤.
[2] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٧.
[3] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص١٤٠.
[4] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٣٥.

لابن العديم عند حديثه عن حلب[١]، ومن كتاب" تاريخ دمشق" لابن عساكر عند ذكره خطط دمشق [٢]، فجاء الكتاب في أكثر صفحاته بصورة مُختصرة لكتابي" بغية الطلب"، و" تاريخ دمشق"، فجاء كتابهُ على شكل مَجمَع احتوى كلام من سبقه دونَ إيراد شيء جديد، فظهر بشكل واضح على أنَّه نقَّالة جمَّاعاً.

ولعلَّ إيراده لعبارة « وقال بعضهم، وقوله: وقد رأيتُ في بعض التواريخ»[٣]، ثمَّ سردهِ حكاية أو حدث تاريخي، يجعل من رواياته موضعَ شكٍّ وضعف، فهو بذلك لم يتحقق من صحة ما أورده، وإنَّما سرد ما ذكره وترك الأمر للقارئ مُبهماً وجاهلاً مادَّته العلمية في كثير من الوقائع والحقائق الواجب معرفة مدى صحَّتها[٤].

ومن جهة أُخرى أنَّ اختصاره الشديد في ذكر خطط حلب ودمشق، أفقد الكتاب الكثير من قيمته الجغرافية، فالمؤلف تناول الجغرافية التاريخية فقط لمدن الشام، فقدَّم معلوماتٍ عمَّا ذكره من الأمكنة منذُ فتحها – الأحداث التي جرت فيها، دونَ أنْ يُقدِّم أي معلومةٍ جغرافية كافية عن موقعها وغير ذلك، فاتباعه لأسلوب الاختصار جعلَ كتابه يَفتقد إلى كثير من الحقائق الجغرافية، وخاصةً إذا علمنا أنَّه تحدَّث عن كثير من خطط حلب ودمشق ولم يُعطِها حقَّها، ولمْ يُحدِّد جوانبها المكانية، ومثالها حديثه عن مساجد، وحمامات، حلب ودمشق، وربطها وخوانقها، وغير ذلك[٥].

وعلى الرغم من غزارة مادَّتِه التاريخية إلَّا أنَّ أخطاءه فيها كانت كثيرة، فمن زلَّاته ذكره أنَّ الجزيرة فتحت على يد عياض بن غنم سنة(١٦هـ/٦٣٧م)، في حين أنَّ فتحها كان سنة(١٩هـ/٦٤٠م)، وهذا أثبته المؤرخين[٦].

كذلك فإنَّ ابن شداد أغفل ذكر كثير من الخلفاء، ولا سيَّما عند ذكر لخُلفاء بني أمية مُرتِّباً إياهم ترتيباً زمنياً، فهو بدأ بذكر يزيد بن عبد الملك، ثمَّ هشام بن عبد الملك، و الوليد بن عبد الملك وغيره، لكنَّه أغفل ذكرَ خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان[٧].

كذلك وقعَ في بعض الأحيان بخطأ تحديد البُعد الزماني لكثير من الوقائع، ومثالها ذكره أنَّ هارون الرشيد ولَّى مُحمَّد بن فروخ على الجزيرة سنة(١٧٧هـ/٧٩٤م)، ثُمَّ عزلهُ وقتلهُ، لكن الصواب أنَّ الحدث كان

---

[١] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٢٣، ١٣١، ١٣٤.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص١٧، ٤٦، ٥٠، وغيرها الكثير.

[٣] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٢/ ق١، ص٤٥.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٤٩.

[٥] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٨١– ٢٢٩، ٣١٣– ٣٢٤، ج٢/ ق١، ص٩٢– ١٢٨، وغيرها.

[٦] ومنهم: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٧٣.

[٧] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص١٦، ١٧.

سنة(١٧١هـ/٧٨٧م)[١]، وذكره أنَّ وفاة الخليفة العباسي المعتضد سنة(٢٨٧هـ/٩٠٠م)[٢] في حين أنَّ الصواب هو سنة(٢٨٩هـ/ ٩٠٢م)[٣].

ومن أخطاءه قوله: « وبَنى هشام بن عبد الملك الرُّصافة»[٤]، ولكن حقيقة الأمر أنَّ هشام لم يبتنِ الرُّصافة، إنَّما جدَّدَ بناءها وسكنها، وقد ورد ذكرها في النصوص الأشورية، وكان يُطلق عليها الروم اسم سرجيبيوليس، وسكنها الملوك الغساسنة قبل الإسلام[٥].

وممَّا يُؤخذ على كتابه أنَّه أكثر أثناء وصفه للمدن من الشعر والسجع والنثر والتكلُّف إذ حاول أنْ يصوغَ نثراً وشعراً مسجوعاً تغلبُ عليه الصنعة، مُحاولاً إبراز معارفه الشخصية، ممَّا أدَّى إلى الإخلال بالمعنى في كثير من الأحيان[٦].

وربَّما وجود مثل هذه الأخطاء في كتاب" الأعلاق الخطيرة"، هو ما دفعَ مُؤَلِفْ الكتاب للقول: « سائلاً منْ وقفَ على ما جمعتهُ ولفقتهُ ووضعتهُ من ذوي الأخذ والنقد، وأوليّ الحلِّ في المعارفِ والعقدِ، إصلاحَ ما يُرى فيه ممَّا لا يقبلُه التمييز ويَرتضيهِ من تقصيرٍ في العبارةِ، أو تطويلٌ في مكانِ الإشارة، أو خلل وقع في الترتيب، أو زَللٍ أخلَّ به مُقتضى التهذيب، مُلتمساً منه أنْ يسبُلَ عليه سُترَ المُسامحة، عالماً أنَّ الاعتداء، إنَّما هو بالنية الصالحة، مُتيقِّناً أنَّ التاريخ مُعرَّض للتصديق والتكذيب، وأنَّ واضعَهُ سائقٌ إلى التعنيفِ والتثريبِ»[٧].

---

[١] وهذا المثبت من كتاب الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢٣٥.

[٢] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣/ ق١، ص٣٢.

[٣] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٠٠.

[٤] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق٢، ص٣٣.

[٥] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٢٠٦، ٢٠٧.

[٦] مثالها كثرة ما أورده من قصائد في مدح حلب ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص٢٣٢. وكذلك الأمر نفسه في في مدحه لدمشق.

[٧] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١/ ق١، ص١٣.

الخاتمة:

تناولَ هذا البحث بالدراسة الأدب الجُغرافيّ، والرحلات إلى بلاد الشام في عصر دولة المماليك البحريّة(٦٤٨- ٧٨٤ هـ/١٢٥٠ – ١٣٨٢م)، وتمَّ دراسة الأدب الجغرافيّ بتناول عوامل تطوره وازدهاره، والعلوم المساعدة له، ونماذج من كُتب فنِّ التقاويم الجغرافية المتخصّصة بالجانب الفلكيّ الرياضيّ، وكُتب الخطط في الجُغرافية التاريخيَّة، المعروفة بالجغرافية الوصفيَّة، والإقليميَّة، يُضاف إليها الرحلات العربيَّة والأجنبيَّة إلى بلاد الشام خلال هذا العصر. ومن خلال البحث في تلك الخطوط العريضة، وما تطويه بينها من تفاصيل مهمَّة، فقد توصَّلت هذه الدراسة المُتواضعة إلى جُملةٍ من النتائج، **من أهمِّها:**

١- تمثَّلت المعرفة الجُغرافيَّة عند العرب قبل الإسلام بنوع من المعرفة الجغرافيَّة الفلكيَّة والوصفيَّة و كانت بسيطة وأوليَّة، مُعتمدة في أغلبها على ما ورد في أشعار العرب من دلالاتٍ وإشاراتٍ جغرافية، وما نقله التُجَّار الَّذين يجوبون البلاد لسكَّان الجزيرة العربيَّة، فحفظ الرواة معلوماتَهُم على شكل قُصص وروايات.

٢- شهدت المعارف الجُغرافيَّة، فيما بعد تطوّراً عند العرب القاطنين في بلاد الرافدين ومصر، لتشمل بعض الدراسات الفلكيَّة، وفنّ رسم الخرائط الجغرافيَّة، وادراج قوائم بالبيانات الجُغرافيَّة للأقاليم التي عرفوها، والتي تُعدُّ بمثابة إرشادات للسفر، و معلومات عن الطُرق، إضافةً إلى معارف جُغرافيَّة عن بعض الرحلات، والحملات البحريّة.

٣- كان للمعرفة الجُغرافيَّة عند العرب المسلمين بعد ظهور الإسلام خلفيَّة تاريخيَّة، وركائز وضعها سُكان الجزيرة العربية، إضافةً إلى معارف جُغرافيَّة أخذوها عن الرومان، واليونان، والهنود، هذه الركائز وإنْ اعتمد عليها العرب المسلمين بعد ظهور الإسلام، في فتح مجال التطور الجغرافي واكتشافاته، إلَّا أنَّها كانت قاصرة في أيام من وضعها عن تحقيق هدفها بتسخير علم الجغرافية لخدمة الناس، وبقيت في إطار محاولات تمَّ بلورتها في البحث بتناول تطوّر علم الجغرافية عند العرب المسلمين في عصر دولة المماليك البحريَّة.

٤- تطوَّرت المعرفة الجُغرافيَّة عند العرب المسلمين بعد حركة الفتوح العربيَّة الإسلاميَّة، واتِّساع رقعة الدولة العربيَّة الإسلاميَّة، إذ دفعت الحاجة الماسَّة للوقوف على أحوال البلاد، وأجواءها، عُلماء الجغرافية من العرب المسلمين للاهتمام بها، لاسيَّما الوصفيَّة منها، والفلكيَّة الرياضيَّة، فبرَعوا في هذا المجال بعد تصحيح أغلاط من سبقهم في ميدان البحث الجُغرافيّ، و أضافوا إليها ما قدَّموه من وصف مُتميّز للمعالم والبلدان، وبعض الانجازات، التي برهنوا على صحتها، مثل قضية كُرويَّة الأرض، وتحديد مساحتها، ودورانها حول نفسها، وتحديد خطوط الطول والعرض، ورسم بعض الخرائط، يُضاف إليها بعض الاكتشافات التي قاموا فيها في قارِّة آسيا، وإفريقية، و أوربَّة، وأمريكا.

٥- كانت الانجازات العربيَّة الإسلاميَّة في مجال الجغرافية وليدة عوامل أسهمت في إذكاء جذوة المعرفة الجُغرافيَّة، مثل العوامل الطبيعيَّة، والبشريَّة، وحركة الفتوح العربيَّة الإسلاميَّة، وما وُجد في الفروض الدينيَّة الإسلاميَّة من إشارات جغرافيَّة أسهمت بهذا التطوّر، ليبلغ هذا التطوّر ذُروته خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين نتيجة الاتِّصال بالشعوب الأخرى وتبادل المعرفة الجغرافيَّة مع شعوب اليونان والهند والرومان، إضافةً للتشجيع الذي لقيَهُ عُلماء الجُغرافية من الخلفاء والسلاطين. لكن رغم هذا التطور فإنَّ مُصنفات الفترة السابقة بقيت تشُوبُها الكثير من الأساطير والخرافات، ويُلاحظ في مناهج مُصنَّفاتها التحيُّز لموضوع الدراسة، مع قلّة الدقَّة في وصف الأبعاد والمسافات، وعدم التدقيق في تعيين مواقع البلدان والمدن.

٦- شهدت البلاد العربيَّة الإسلاميَّة في العصر المملوكيّ، مجموعة من الحروب والنزاعات أخطرها الغزو المغولي للعراق سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وتدمير عاصمة الخلافة، وإحراق الكُتب، فكان ذلك سبباً لهجرة العُلماء إلى بلاد الشام ومصر، فحملَ هؤلاء مسؤولية إعادة إحياء ما تمَّ دفنه، مع إبراز صورة جديدة للتطوّر بزيادة المعارف والإضافات من خلال ما تمَّ قراءته واكتشافه، فكان ذلك عاملاً فعَّالاً في تطوّر علم الجُغرافية في العصر المملوكيّ، يُضاف إليه اهتمام سلاطين المماليك بالعلم، ورعايتهم العلماء، وإنشائهم دُوراً لتعلُّمه.

٧- تطوَّر علم الجغرافية وزادت معارفه وإنجازات علمائه، واكتشافاتهم، في عصر دولة المماليك البحريَّة، وذلك بعد ربط علم الجُغرافية بعدد من العلوم أسهمت في تطوره، لاسيَّما علم الفلك، والحياة، والهندسة، والتاريخ، وغيرها، حتَّى يمكن القول: إنَّ أغلب من كتب بهذه العلوم كانوا من أصحاب المعرفة الجُغرافيَّة، أو من أشهر الجغرافيين في هذا العصر، ونتيجة ذلك ازدادت المعرفة الجُغرافيَّة خلال هذا العصر، وأُعيد النظر ببعض المسائل الجُغرافيَّة، كقضية دوران الأرض حول نفسها، وإثبات كرويَّتها، و تحديد خطوط الطول والعرض، واكتشاف قارَّة أمريكا، إذ أتى عُلماء هذا العصر بنظريات جديدة، وصحيحة فيما يتعلق بذلك، أُثبِت صحتِهَا فيما بعد على يد عُلماء الجُغرافية في العصور اللاحقة للعصر المملوكيّ.

٨- نتيجة تطوّر المعرفة الجُغرافيَّة في عصر دولة المماليك البحريَّة ظهرت مؤلَّفات ضخمة في هذا المجال، كان بعضها على شكل موسوعاتٍ متخصِّصة بالجغرافية. وشملت هذه المؤلفات كلّ المجالاتِ الجُغرافيَّة، لا سيَّما كتب التقاويم الجُغرافيَّة الفلكيَّة الرياضيَّة، التي انتشرت بشكل كبير، محتوية في مضامينها وصفاً لمظاهر عُمران البلاد والمدن، ومظاهر الطبيعة، وما تحتويه من معادن وأحجار وحيوانات، مع بعض جوانب الحياة الاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والسياسيَّة، فشكَّلت مصدراً مُهمَّاً من وجهة نظر التاريخ الطبيعيّ للباحثين فيه، ومصدراً لا غنى عنهُ للمُهتمِّين بالدراسات الأدبيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والسياسيَّة.

٩- إنَّ أدب الرحلة الذي بلغ ذروته في العصر المملوكيّ، وتمثل بزيارات ورحلات عربيَّة، وأجنبيَّة إلى بلاد الشام خلال هذا العصر، تمثَّلَ بمُصنفات كانت في غالبها على شكل أسفار، ورحلات احتوت في طيَّاتها الكثير من القصص، والأساطير، والخرافات التي لا يُمكن تصديقها. وكان لتلك الرحلات أهداف مُتنوِّعة منها دينيَّة، و منها سياسيَّة رسميَّة، و منها اقتصاديَّة، و منها علميَّة. تلك الأهداف دفعت الكثير من المغامرين لركوب القوافل، وعبور البحار، و الانتقال من مكانٍ لآخر، وتقديم وصف لكلِّ ما شاهدوه.

١٠- رُغمَ بعض المآخذ التي تشوب كُتب الرحلات العربيَّة، والأجنبيَّة، لكنَّها تُعدُّ مصدراً مُهمَّاً من مصادر المعرفة الجُغرافيَّة في عصر دولة المماليك البحريَّة، إضافةً إلى أنَّها دليل، ومُرشد سياحيّ للرحالة الجُدد، وذلك بتوضيحها الكثير من الطرق، و المسالك البريَّة، والبحريَّة.

١١- قدَّمت هذه المصادر معلومات جُغرافيَّة لا غنى عنها، عن الحياة العمرانيَّة، ومنها الإشارة إلى المُدن الداثرة والعامرة في عصر دولة المماليك البحريَّة، إضافةً لمعلومات مُهمَّة عن الحياة الحضاريّة، والفكريَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والسياسيَّة لا سيَّما ذِكرها لحركات المقاومة الشعبيَّة التي شهدها العصر المملوكيّ ضدَّ الصليبيين، فكانت بحُكم مُصدر للمُهتمِّين بالدراسات السابقة.

١٢- بجانب آخر تُعدُّ كُتب الرحلات مصدراً مُهمَّاً لكثير من تراجم الأعلام كونها احتوت بين طيَّاتها على ذكر لكثير من الأعلام، وخصوصاً العُلماء منهم، والَّذين افتُقِدَت تراجمهم في الكتب الأخرى.

١٣- زارَ جميع هؤلاء الرحَّالة أغلب الأماكن المُقدَّسة، وركّزوا في كتاباتهم على إبراز أهمِّيتها التاريخيَّة والدينيَّة، إضافةً لإبراز الجانب الحضاريّ في بلاد الشام، و سلَّطت رحلاتهم الضوء على بعض الكنائس، والمزارات المسيحيَّة، إضافة لذكر المزارات، والمساجد، والأماكن المُقدَّسة عند المسلمين.

١٤- اتّفقت الرحلات الأجنبيَّة باعتمادها في وصف الأماكن المُقدَّسة على الكتاب المُقدَّس، وربطُها بالتاريخ المسيحيّ، بالتالي يُمكن مُلاحظة غلبة التكوين الدينيّ على عقليَّة معظم الرحَّالة الأجانب على نحو جَعَلَهُم يُهملون الناحية الاقتصاديَّة، لذلك لمْ يُقدِّموا المعلومات الكافية في هذا المجال، مع مُلاحظة اهتمامهم بوصف المظاهر الدينيَّة المسيحيَّة، وربَّما يعود ذلك لعملهم في السلك الكنسيّ، مع ملاحظة أنَّ الحديث عن الأوضاع الاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والعسكريَّة، والطبيَّة للصليبيين شغلت حيّزاً كبيراً من مضمون رحلاتهم.

١٥- بدا التحيُّز في مضامين الرحلات الأجنبيَّة واضحاً بقوَّة، وتجلَّى ذلك بنعتهم المسلمين بصفات سلبية منها: وثنيُّون، همجيُّون، ومدمِّرُون، كما أنَّهم تغاضوا عن ذِكر المجازر البشعة التي ارتكبها الصليبيين بحقِّ السُكَّان المُسلمين الأصليين.

١٦- يُعدُّ علم التاريخ من أهمِّ العلوم التي ارتبطت ارتباطا وثيقاً بالجُغرافية في عصر دولة المماليك البحريّة، فأسهمت العلاقة بين هذين العِلمين في تطوّر المعارف الجُغرافيَّة، لا سيَّما في ميدان ما يُعرف

بالجُغرافية التاريخيَّة، التي اهتمَّت في أغلبها بوصف معالم المدن، وهو ما عُرِف بفن الخطط الجُغرافيَّة، التي ازدهرت بشكل كبير خلال هذا العصر، وأُنتجت مؤلَّفات ضخمة في مجاله، أسهمت بتقديم معلومات قيّمة عن مدن بلاد الشام، وما احتوته من الخُطط والآثار، وذكر الأبواب، والكنائس والأديرة، والمساجد والجوامع، والمزارات، والمدارس، وما تعرَّضت إليه من تدمير وترميم، وتجديداتٍ وإضافاتٍ.

١٧- أسهمت كُتب الخُطط الجغرافيَّة، في دراسة الحياة الاقتصاديَّة، والعسكريَّة، و الاجتماعيَّة، والعمرانيَّة، وكانت بمثابة الدليل لعالم الآثار، ودليل للمُتقصِّينَ بتاريخ كلِّ مدينةٍ ذُكِرت، إضافةً لأهمِّيتها التاريخيَّة التي شغلت حيّزاً كبيراً من مضمونها، فعُدَّت بذلك مصدراً مُهمَّاً من مصادر التاريخ الجُغرافيّ للعصر المملوكيّ.

الملاحق

أصـــــل المماليـــــك

المماليك في اللغة : هم العبيد أو الرقيق، وبخاصة هم الذين سُبُوا ولم يُسب آباؤهم ولا أمهاتهم. والمملـوك، جمعـه مماليك، وهو العبد الذي يُباع ويشترى. (العبد الـذي سُبِي أبواه يعرف بالعبد القن وليس المملوك).

ومـع أن لفـظ المماليك بهـذا التعريف يعد عامًّا على معظم الرقيق، إلا أنـه اتخذ مدلولاً اصطلاحيًّا خاصًّـا فـي التاريخ الإسلامي، وذلك منذ أيام الخليفة العباسـي المأمون، والذي حكم من سنة ١٩٨هـ إلى ٢١٨هـ، وأخيـه الخليفـة المعتصم الذي حكم من سنـة ٢١٨هـ إلى ٢٢٧هـ. ففـي مدة حكم هذين الخليفتـين استجلبـا أعـداداً ضخمـة من الرقيـق الأبيض عـن طريق الشـراء من أسـواق النخاسة، واستخدموهم كفرق عسكرية خاصة، بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم[1].

وبذلك - ومع مرور الوقت - أصبح المماليك هم الأداة العسكرية الرئيسة - وأحياناً الوحيدة - في كثير من البلاد الإسلامية. وكان أمراء الدولة الأيوبية بوجه خاص يعتمدون على المماليك، الذين يمتلكونهم فـي تدعيم قوتهم، ويستخدمونهم في حروبهم، لكن كانت أعدادهم محدودة إلى حد ما، إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحدثت فتنة خروج الخوارزمية من جيشه، فاضطر - رحمه الله - إلى الإكثـار من المماليـك، حتى يقوِّي جيشه ويعتمـد عليهم، وبذلك تزايدت أعـداد المماليك بشكل ملفت للنظر، وخاصة في مصر.

مستند تاريخي

(وفـي أيـام الملك الصالح نجم الديـن أيوب بن الكامـل حضر الإفـرنج، وملكوا دمياط وزحفـوا إلى فارسكـور، واستمـر الملـك الصالـح يحاربهم أربعـة عشر شهراً وهـو مريض، وانحصـر جهـة الشـرق، وأنشـأ المدينـة المعروفة بالمنصـورة ومات بهـا سنة سبـع وأربعين وستمائـة، والحـرب قائمة، وأخفت زوجتـه شجر الدر موته، ودبرت الأمـور حتى حضر ابنه تـوران شـاه من حصن كيفـا، وانهزم الإفرنج وأسـر ملكهم ريدا وكانوا طائفـة الفرنسيس. والملـك الصالح هذا هو أول من اشترى **المماليك**، واتخـذ منهم جنداً كثيفاً، وبنى لهم قلعة الروضة، وأسكنهم بها، **وسماهم البحرية**، ومقدمهم الفارس أقطاي).



مصادر المماليك: كان المصدر الرئيس للمماليك؛ إما بالأسر في الحروب، أو الشراء من أسواق النخاسة. ومن أكثر المناطق التي كان يجلب منها المماليك بلاد ما وراء النهر، وكانت الأعراق التي تعيش خلف هذا النهر أعراق تركية في الأغلب، وكانت هذه المناطق مسرحاً دائماً للقتال وعدم الاستقرار، ولذلك كثر الأسرى القادمون من هذه المناطق، وكثرت أسواق الرقيق هناك، ومن أشهر مدن الرقيق في ذلك الوقت كانت "سمرقند" و"فرغانة" و"خوارزم" وغيرها؛ لذلك كان الأصل التركي هو الغالب على المماليك، وإن كان لا يمنع أن يكون هناك مماليك من أصول أرمينية، ومن أصول مغولية، كما كان هناك مماليك من أصول أوروبية، وكان هؤلاء الأوربيون يعرفون بالصقالبة، وكانوا يستقدمون من شرقي أوروبا بوجه خاص . المرجع السابق.

إن الأمر الذي استحدثه الملك الصالح أيوب –وتبعه بعد ذلك سلاطين دولة المماليك– أنه كان لا يأتي إلا بالمماليك الصغار في السن، أي في مرحلة الطفولة المبكرة، وكان أكثرهم من بلاد غير مسلمة، وإن كان يحدث أحياناً أن يؤسر بعض الأطفال المسلمين غير الناطقين بالعربية، فلا يُعرفون، ولا يُعرف أصلهم أو دينهم، فيعاملون معاملة الرقيق.

خريطة توضِّح مناطق مصادر المماليك[1].

[1] المغلوث(سامي بن عبد الله): أطلس تاريخ العصر المملوكي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠١٣م، ص١٢.

جدول بأسماء سلاطين دولة المماليك البحريَّة وفترة حكمهم

م	السلطان	تاريخ الحكم
١	شجر الدر	٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م
٢	المعز عز الدين أيبك	٦٤٨ - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠- ١٢٥٧م
٣	المنصور نور الدين علي بن أيبك	٦٥٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢٥٧- ١٢٥٩م
٤	المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩- ١٢٦٠م
٥	ركن الدين الظاهر بيبرس البندقداري	٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠- ١٢٧٧م
٦	السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بن بيبرس	٦٧٦ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٧- ١٢٧٩م
٧	العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس	٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م
٨	المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩- ١٢٩٠م
٩	الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠- ١٢٩٣م
١٠	الناصر ناصر الدين بن محمد بن قلاوون المرة الأولى	٦٩٣ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣- ١٢٩٤م
١١	العادل كتبغا	٦٩٤ - ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤- ١٢٩٦م
١٢	المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦- ١٢٩٩م
١٣	الناصر ناصر الدين بن محمد بن قلاوون المرة الثانية	٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٩- ١٣٠٩م
١٤	المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩- ١٣١٠م
١٥	الناصر ناصر الدين بن محمد بن قلاوون المرة الثالثة	٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣١٠- ١٣٤٠م
١٦	المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	٧٤١ - ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠- ١٣٤١م
١٧	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م
١٨	الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	٧٤٣ - ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢م
١٩	الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	٧٤٣ - ٧٤٦ هـ / ١٣٤٢- ١٣٤٥م
٢٠	الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	٧٤٦ - ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥- ١٣٤٦م
٢١	المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	٧٤٧ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦- ١٣٤٨م
٢٢	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد المرة الأولى	٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٨- ١٣٥١م
٢٣	الصالح صلاح الدين بن محمد بن الناصر محمد	٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١- ١٣٥٤م
٢٤	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد المرة الثانية	٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤- ١٣٦١م
٢٥	المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	٧٦٢ - ٧٦٤ هـ / ١٣٦١- ١٣٦٣م
٢٦	الأشرف أبو المعالي شعبان بن حسين	٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣- ١٣٧٧م
٢٧	المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين	٧٧٨ - ٧٨٣ هـ / ١٣٧٧- ١٣٨١م
٢٨	الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	٧٨٣ - ٧٨٤ هـ / ١٣٨١- ١٣٨٢م

جدول الخلفاء العباسيين في مصر

م	الخليفة ولقبه	تاريخ الحكم
١	أبو القاسم أحمد بن محمد الظاهر (المستنصر بالله)	٦٥٩ - ٦٦٠ هـ ١٢٦١ م
٢	أبو العباس أحمد بن الحسن (الحاكم بأمر الله الأول)	٦٦٠ - ٧٠١ هـ
٣	أبو الربيع سليمان بن أحمد (المستكفي بالله)	٧٠١ - ٧٣٦ هـ
٤	أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أحمد (الواثق بالله الأول)	٧٣٦ - ٧٤٢ هـ
٥	أبو العباس أحمد بن سليمان (الحاكم بأمر الله الثاني)	٧٤٢ - ٧٥٣ هـ
٦	أبو الفتح أبو بكر بن سليمان (المعتضد بالله الأول)	٧٥٣ - ٧٦٣ هـ
٧	أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوكل على الله الأول) ١	٧٦٣ - ٧٧٩ هـ
٨	أبو يحيى زكريا المستعصم بالله (المستعصم بالله) ١	٧٧٩ - ٧٧٩ هـ
٩	أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوكل على الله الأول) ٢	٧٧٩ - ٧٨٥ هـ



خريطة الدولة المملوكية في بداياتها[1].

[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٢٤.



خريطة توضِّح الزحف المغولي نحو القلاع الإسماعيلية[1].

[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٢٧.



خريطة توضِّح الزحف المغولي نحو عاصمة الخلافة العباسيَّة بغداد[١].

[١] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٢٩.


منمنمة تبين كيفية القتل والتنكيل بالمسلمين من قبل الجيش المغولي الذي استباح بغداد عاصمة الخلافة

منمنمة تبين كيفية القتل والتنكيل بالمسلمين من قبل الجيش المغولي[1].

[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٣٢.



خريطة توضِّح زحف الجيش المغولي نحو حلب سنة[١].

---

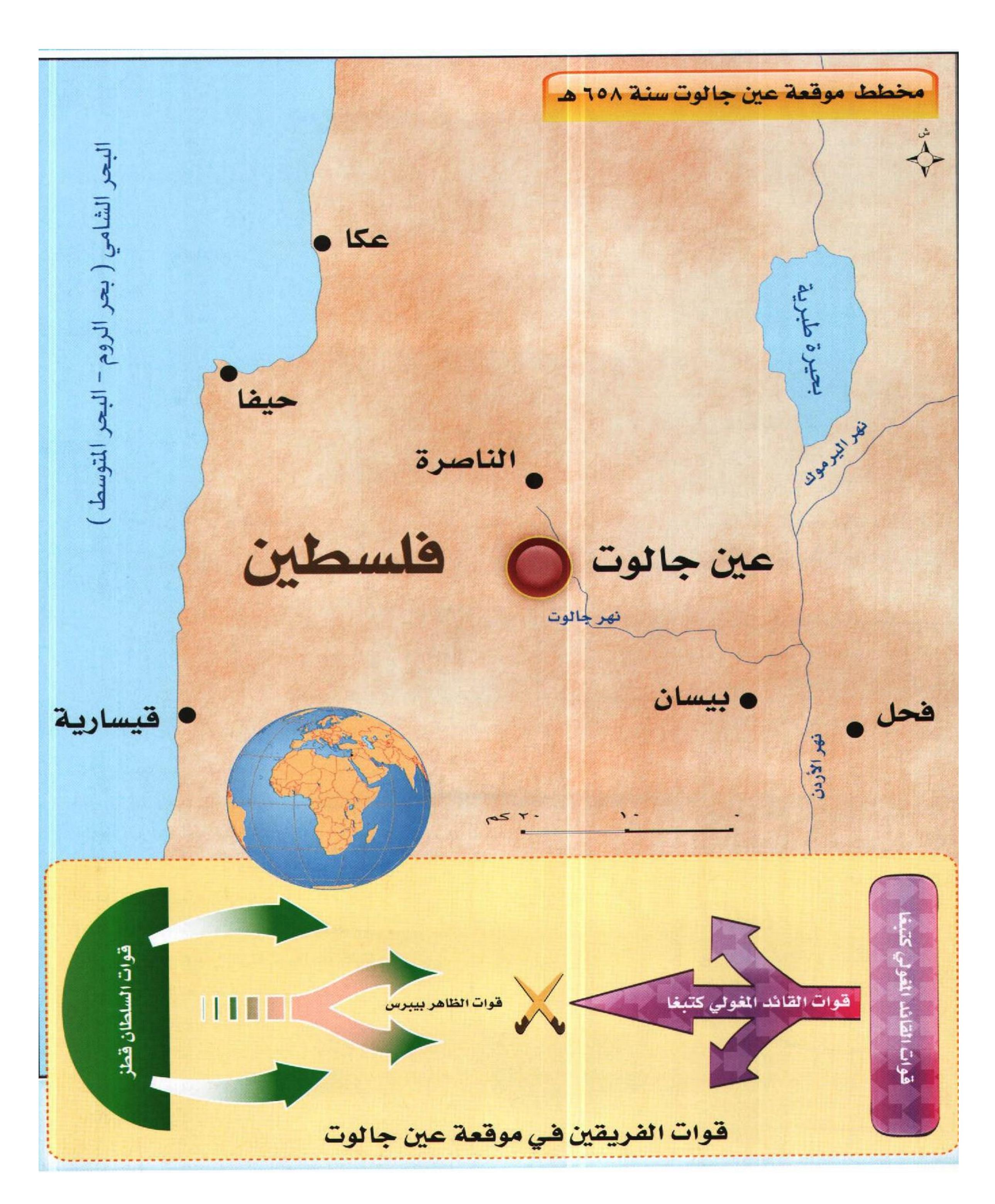
[١] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٣٩.



خريطة توضِّح موقع التقاء الجيش المملوكي بالجيش المغولي في عين جالوت[1].

---

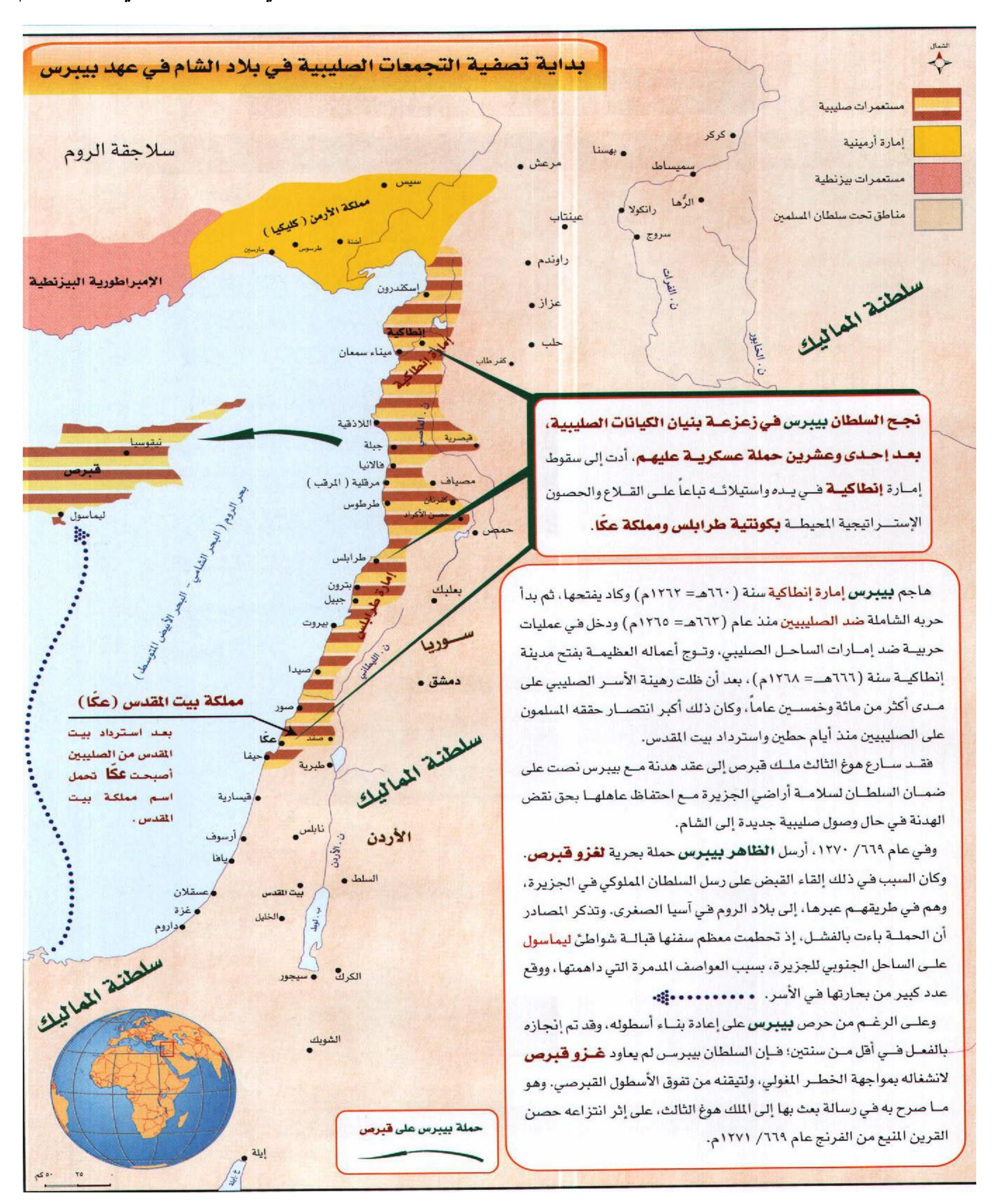
[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٤٧.



مخطط موقعة عين جالوت بين المماليك والمغول[١].

---

[١] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٤٨.



خريطة توضِّح بدايات تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام زمن الملك الظاهر بيبرس[1].

---

[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٥٤.



خريطة توضِّح تصفية الوجود الصليبي زمن السلطان المنصور قلاوون[1].

---

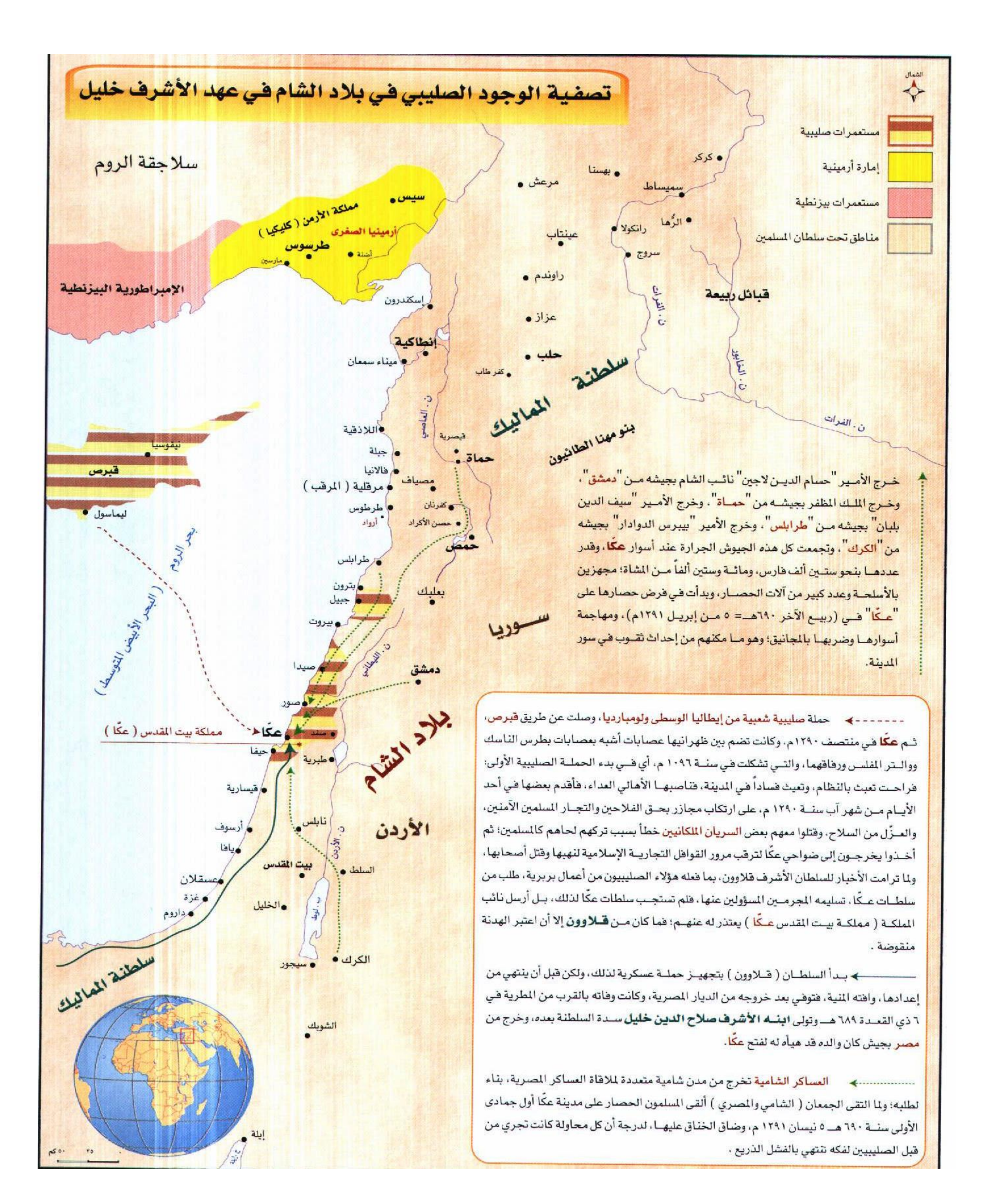
[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٦٥.



خريطة توضِّح أرضية معركة حمص بين المماليك والمغول[1].

---

[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٧٣.



خريطة توضِّح عمليات تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام[1].

[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٨١.



خريطة توضّح كيفية تحرير عكًّا من أيدي الصليبيين[1].

---

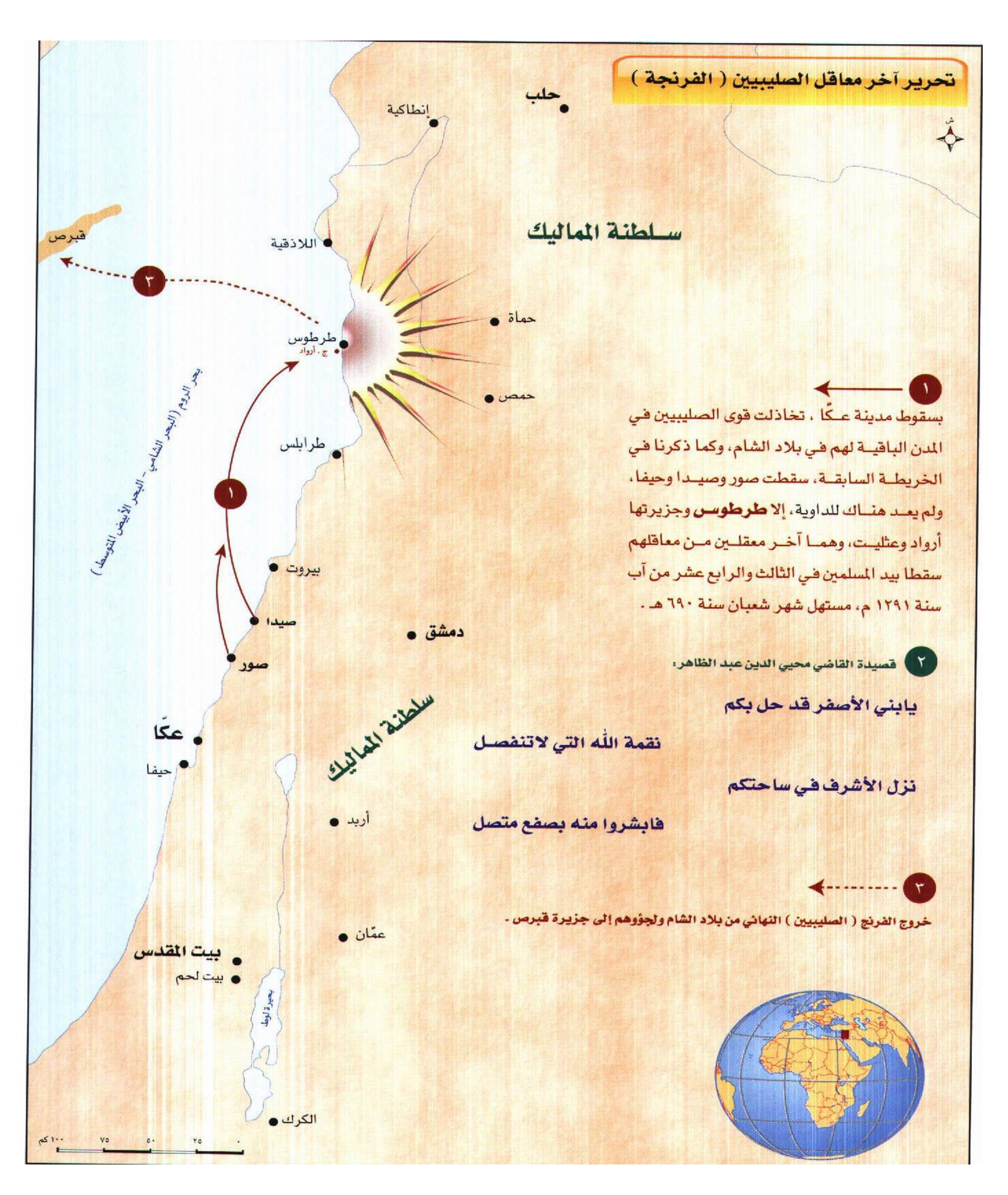
[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٨٢.



رسم تخيلي لتحرير عكًّا من أيدي الصليبيين[١].

---

[١] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٨٥.



خريطة توضِّح كيفية تحرير آخر المعاقل الصليبيَّة في بلاد الشام[١].

---

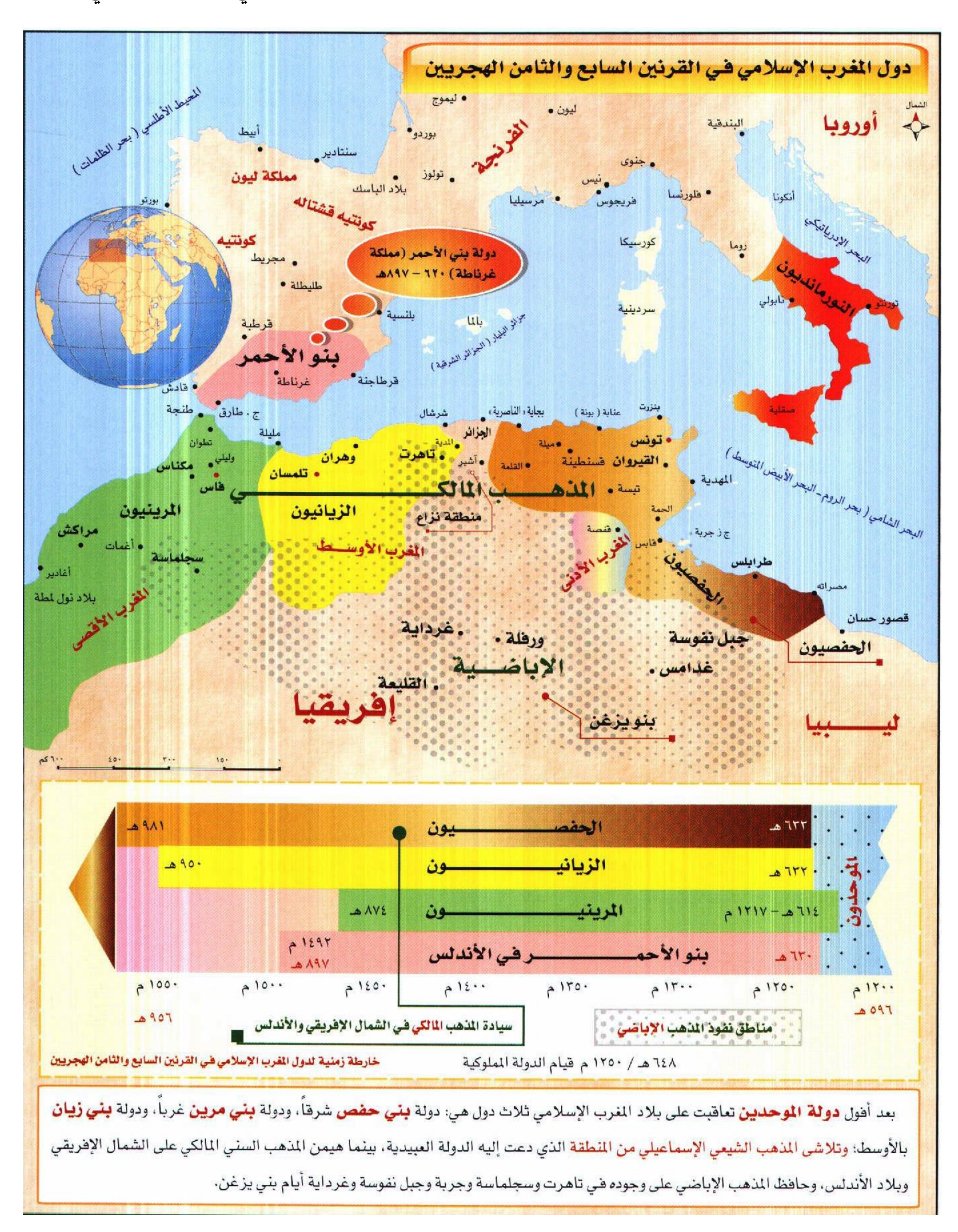
[١] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٨٧.



خارطة لبلاد الشام بعد تحرير مناطقها من السيطرة الصليبيَّة[1].

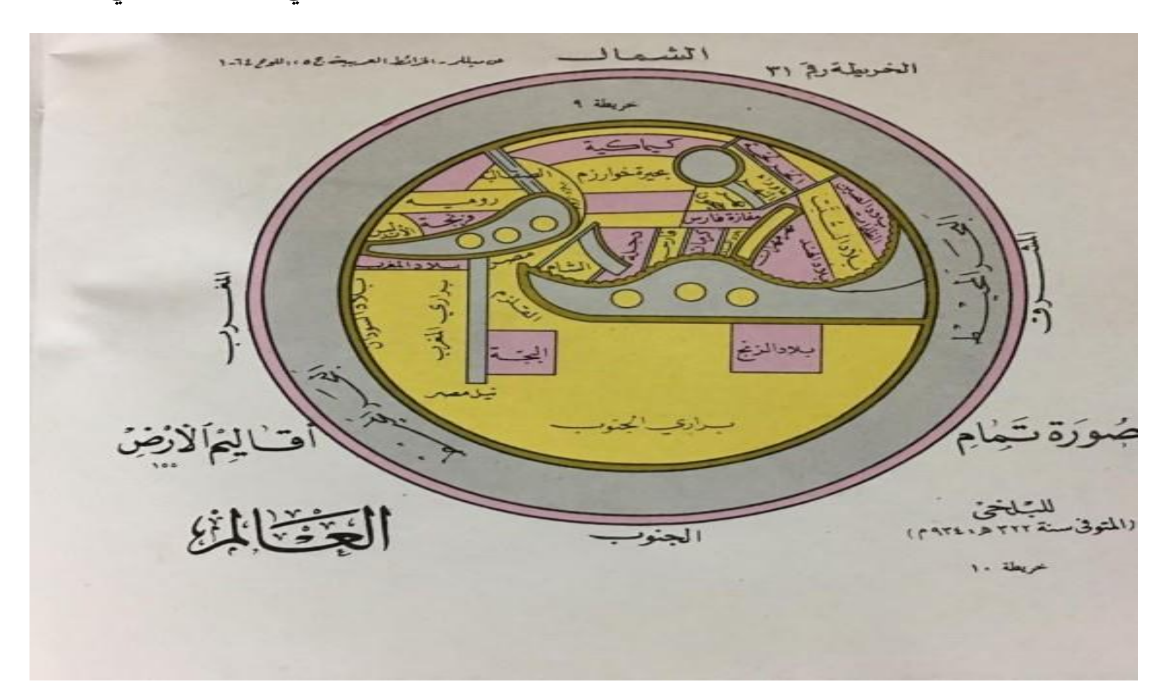
---

[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٨٨.



خريطة لدول المغرب العربي الإسلامي في القرنين السابع والثامن الهجريين[1].

[1] المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص١٢٩.



صورة العراق للبلخي[1].



خارطة العالم للإصطخري[2].

---

[1] الإيبش و الشهابي: دمشق الشام في نصوص الرحالين، ص١٠٦.

[2] الإيبش و الشهابي: دمشق الشام في نصوص الرحالين، ص١٦١.



خريطة العالم لابن حوقل (ت بعد 367هـ، 977م).

خارطة العالم لابن حوقل[١].



خارطة العالم لابن الوردي[١].

---

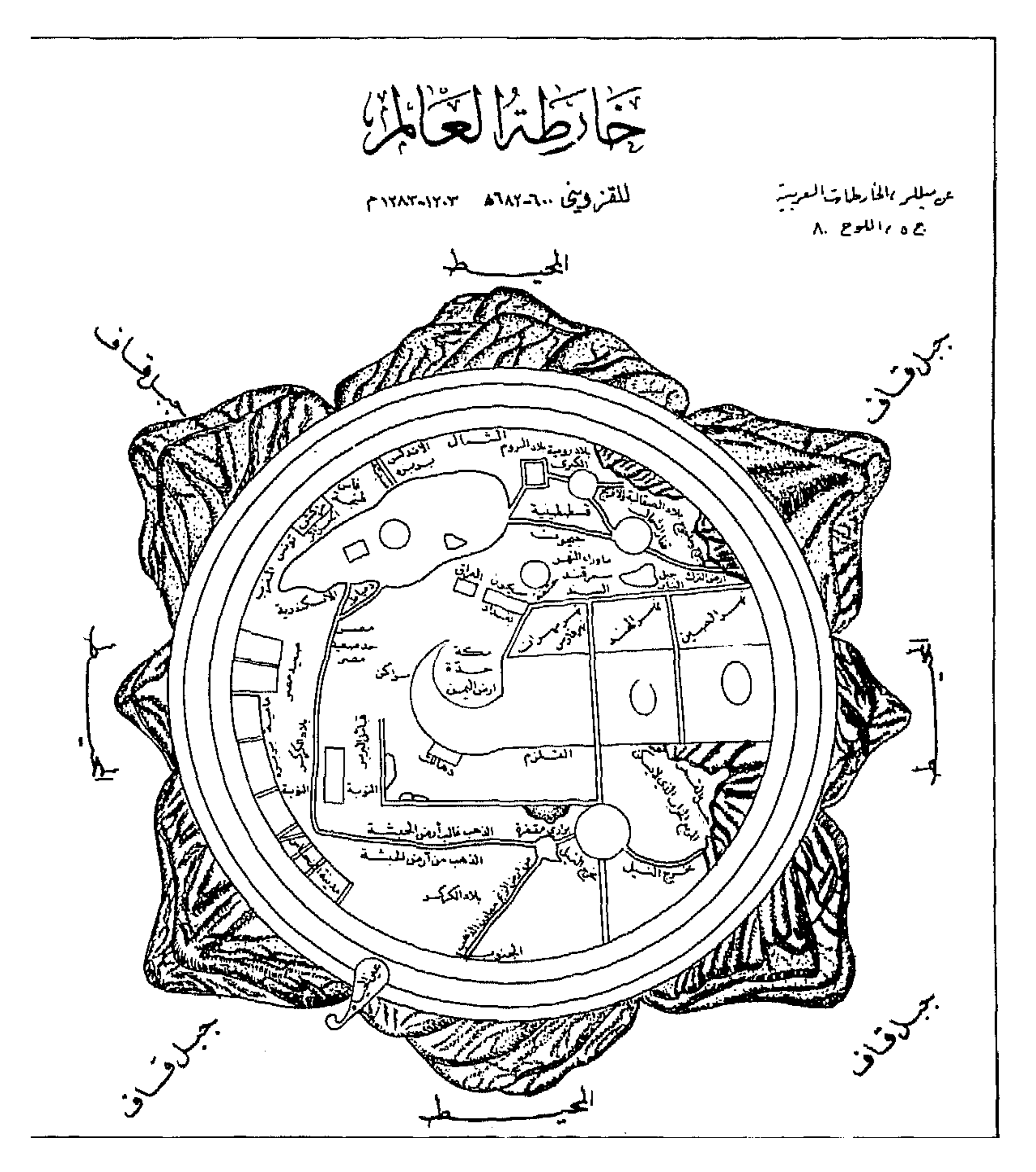
[١] الإيبش و الشهابي: دمشق الشام في نصوص الرحالين، ص١٩٧.



خارطة الكرة الأرضية للإدريسي[٢].

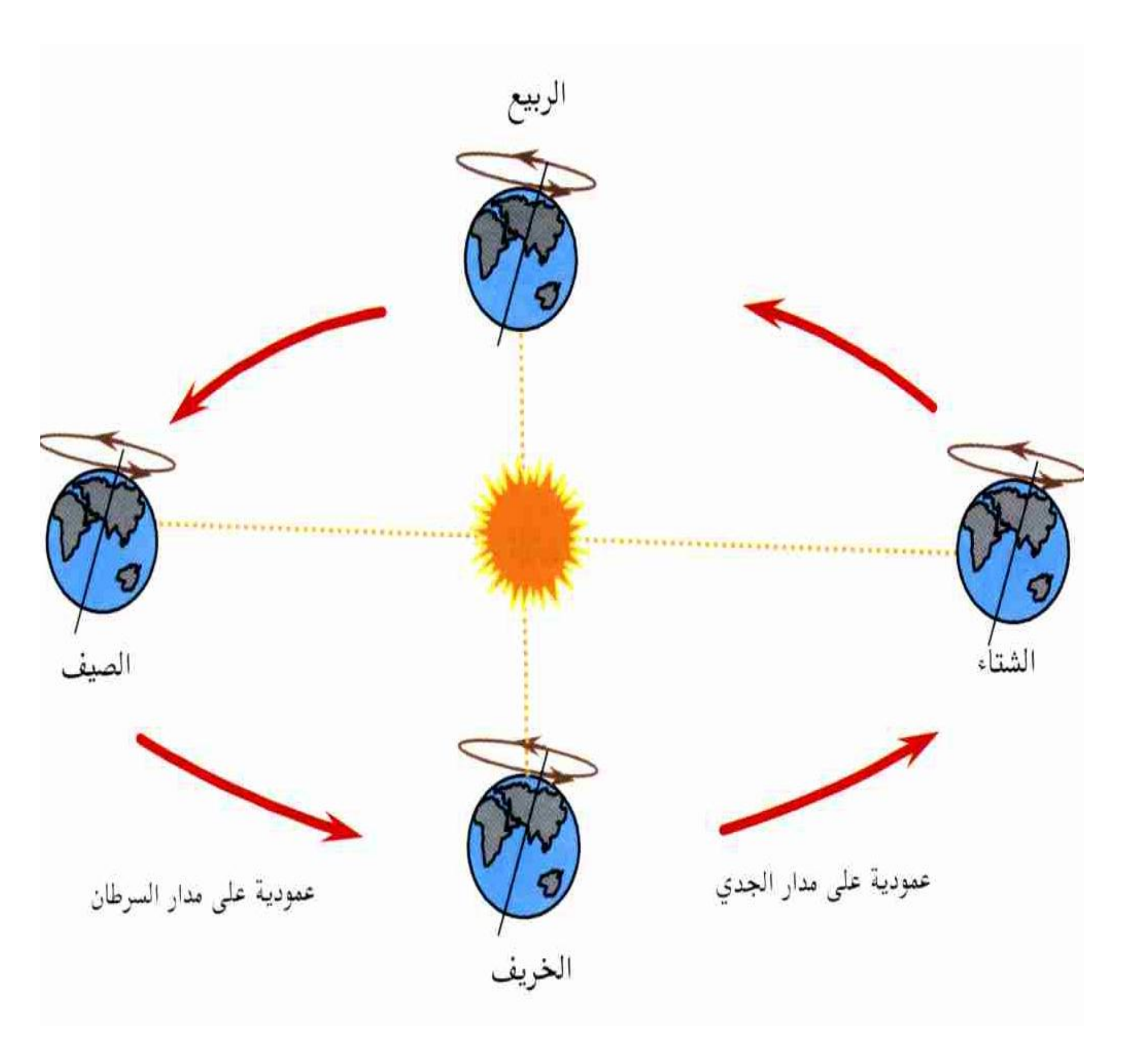
[١] الإيبش و الشهابي: دمشق الشام في نصوص الرحالين، ص٢٥٠.

[٢] الخروصي: الطبوغرافية وتطور علم الخرائط، ص٢٦.



خارطة العالم للقزويني[1].

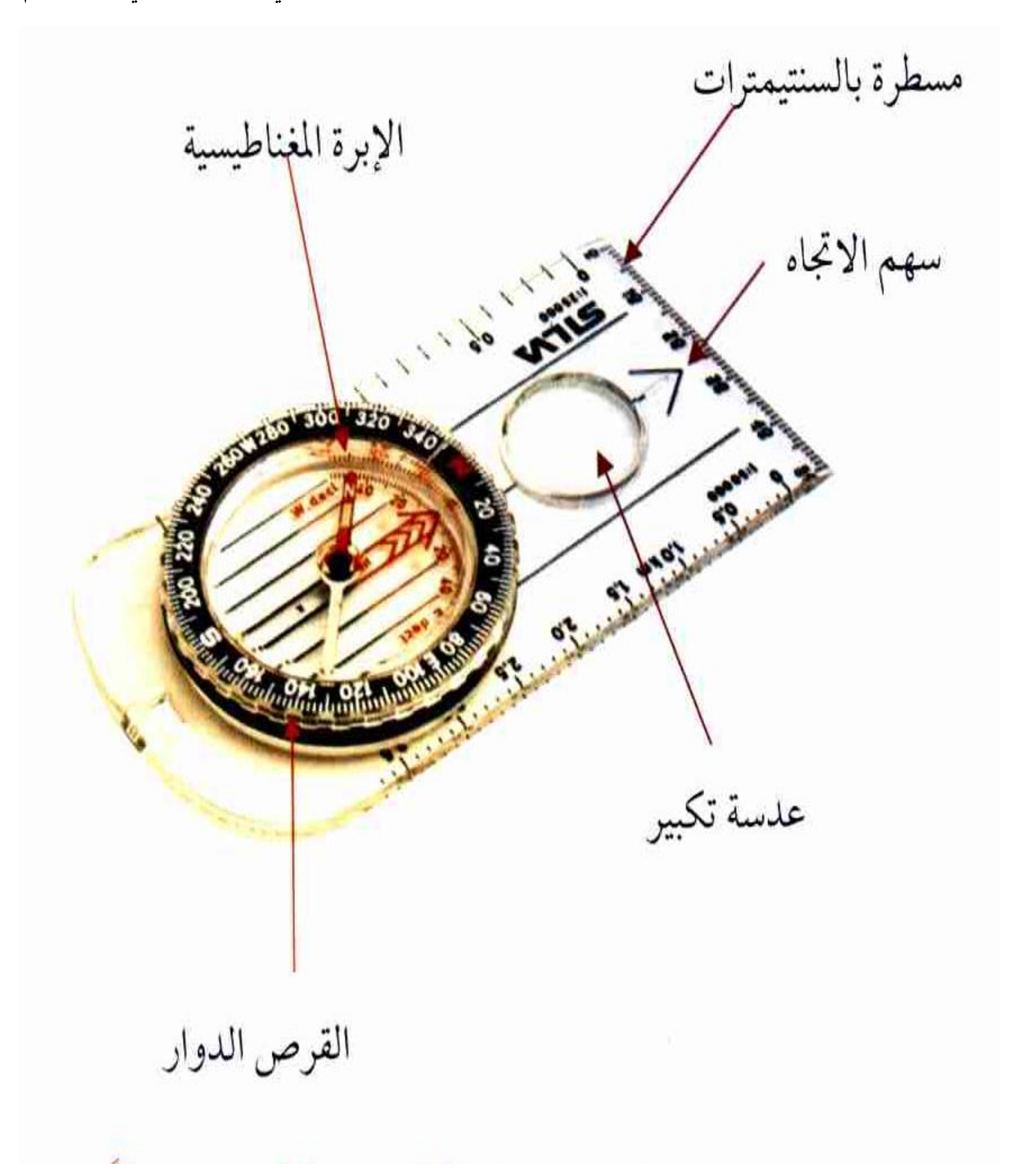
[1] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص٥١٢.



علامة ميل الأرض ودورانها حول الشمس[١].

---

[١] الخروصي: الطبوغرافية وتطور علم الخرائط، ص٣٦.



البوصلة الملاحية من نوع سلفا[1].

[1] الخروصي: الطبوغرافية وتطور علم الخرائط، ص٩٦.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر

- **القُرآن الكريم.**

أولاً- المصادر المخطوطة:

- **الأدفوي(جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):**

١. البدر السافر عن أُنس المسافر، مخطوط مكتبة الفاتح، إستانبول، رقم ٤٢٠١.

- **الأنطاكي(داود بن عمر ت ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م):**

٢. تذكرة أُولي الألباب والجامع للعجب العجاب، مخطوط مكتبة جامعة لايبزيك، ألمانيا، رقم Ms. or. 365.

- **ابن أيبك الدواداري(أبو بكر بن عبد الله ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):**

٣. دُرر التيجان وغُرر تواريخ الزمان، مخطوط بدار الكتب الوطنية، مصر، رقم ٤٤٠٩.

- **ابن بهادر المؤمني(محمد بن محمد ت ٨٧٨هـ/ ١٤٧٤م):**

٤. فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، مخطوط دار الكتب المصرية، القاهرة، رقم ٤٩٧٧.

- **البيروني(محمد بن أحمد ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م):**

٥. تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض، مخطوط جامعة الملك سعود، رقم ٥٦٥٧.

- **الجلدكي(أيدمر بن علي ت ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م):**

٦. المصباح في أسرار المفتاح، مخطوط مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، رقم ١٤٦٧٠.

٧. نهاية الطلب في شرح المُكتسب في زراعة الذهب، مخطوط مكتبة الملك عبد العزير العامة، الرياض، رقم ١٦١٨.

- **ابن رشيد السبتي(محمد بن عمر ت ٧٢١هـ/١٣٢١م):**

٨. الاستدعاء، مخطوط خزانة القرويين، فاس، رقم ٧.

٩. رحلة ابن رشيد، مخطوط مكتبة الاسكوريال، إسبانيا، رقم ١٧٣٩.

- **الزركشي(محمد بن بهادر ت ٧٩٤هـ/١٣٩٢م):**

١٠. عقود الجمان على وفيات الأعيان، مخطوط مكتبة الفاتح السليمانية، إستانبول، رقم ٤٤٣٤.

- **السُّرَّمرِّي(يوسف بن محمد بن مسعود ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م):**

١١. شفاء الآلام في طب أهل الإسلام، مخطوطة مكتبة الفاتح، إستانبول، رقم ٣٥٨٤.

- **ابن سيد الناس اليعمري(محمد بن محمد ت ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م):**

١٢. بُشرى اللبيب بذكرى الحبيب، مخطوط المكتبة التيمورية، القاهرة، رقم ١١٥٦٨.

- **ابن الشاطر(علي بن إبراهيم ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م):**

١٣. الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ١١٠٥٣.

١٤. جدول ميل الشمس لكلِّ عرض وجدول طول البلاد وعرضها، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ١٥٥٦٦.

١٥. ربع الأوتار، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ف م ٩٧.

١٦. الربع التام لمواقيت الإسلام، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ٣٢٦٤.

١٧. الربع الكامل، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم أ ف م ٩٧.

١٨. رسالة في الإسطرلاب، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ٥٨١٦.

١٩. رسالة في العمل بالربع المجيب، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ٩٣٦٧.

٢٠. الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ١٤٤٩٧.

٢١. الزيج الجديد، مخطوط مكتبة المخطوطات، الكويت، رقم ٢٥٧٣.

نزهة السامع في العمل بالربع الجامع، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ش م ٣٢٦٤.

٢٢. نهاية السؤل في تصحيح الأصول، مخطوط مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، رقم م ف م ٦٨٠.

- **الشيرازي(محمود بن مسعود ت٧١٠هـ/ ١٣١٠م):**

٢٣. نهاية الإدراك في دراية الأفلاك، مخطوط المكتبة البريطانية(مخطوطات شرقية– قسم الفلك)، رقم ١٠٣٣.

- **الطاهري(أحمد بن إدريس ت ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م):**

٢٤. نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، مخطوط خزانة المدرسة الرقادية في زاوية كنته، ولاية أدرار – الجزائر، رقم ١٣٣٤.

- **ابن الطوَّاح(عبد الواحد بن محمد ق٨هـ/ ١٤م):**

٢٥. سبك المقال لفك العقال، مخطوط بالخزانة الملكية، الرباط، رقم ١٠٥.

- **أبو الطيب الرندي(صالح بن يزيد ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م):**

٢٦. روض الأنس ونزهة النفس، مخطوط مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، رقم ٧٩.

- **ابن قاضي شهبة(تقي الدِّين أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م):**

٢٧. التاريخ الكبير، مخطوطة مكتبة فيض الله أفندي في إسطنبول رقم ١٤٠٣.

- **المقريزي(أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م):**

٢٨. شذور العقود في ذكر النقود، مخطوط جامعة الملك سعود، الرياض، رقم ٢١٧٠، نشر بتاريخ ١٩٧٥م.

- **المنتوري(عبيد الله بن محمد ت ٨٣٤هـ/ ١٤٣١م):**

٢٩. فهرسة المنتوري، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم ١٥٧٨.

- **ابن النفيس(علي بن أبي الحزم ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م):**

٣٠. شرح كُليات القانون، مخطوط مكتبة الإسكوريال، إسبانيا، رقم ٩٠٥.

ثانياً- المصادر المطبوعة:

- **الإدريسي(محمد بن محمد ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٦م):**

١. نزهة المُشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- **الإربلي(الحسن بن أحمد بن زفر ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م):**

٢. مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها، تح: محمد أحمد دهمان، مكتب الدراسات الإسلامية، دمشق، ١٩٤٧م.

- **الإربلي(علي بن عيسى ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م):**

٣. التذكرة الفخرية، تح: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.

- **الإشبيلي(محمد بن حجاج ت ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م):**

٤. المقنع في الفلاحة، تح: صلاح جرار، منشورات مجمع اللغة العربية، عمان- الأردن، ط١، ١٩٨٢م.

- **الإصطخري(إبراهيم بن محمد ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):**

٥. مسالك الممالك، مطبعة ليدن، بريل، ١٩٣٧م.

- **ابن إياس(محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م):**

٦. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، دار الباز، مكة، ط١، ١٩٦١م.

- **ابن الآبار القضاعي(محمد بن عبد الله ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م):**

٧. التكملة لكتاب الصلة، تح: عبد السلام الهرَّاس، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٨. الحلّة السيراء، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م.

- **ابن الأثير(علي بن أبي الكرم ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):**

٩. الكامل في التاريخ، مر: محمد يوسف العقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠٠٣م.

١٠. اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.

- **ابن الأحمر(أبو الوليد إسماعيل ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م):**

١١. نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تح: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.

- **ابن الأخوة(محمد بن محمد ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م):**

١٢. معالم القرابة في أحكام الحسبة، تصحيح: روبن ليوي، مكتبة المتنبي، القاهرة، ٢٠٠١م.

- **الأدفوي(جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م):**

١٣. الطالع السعيد الجامع أسماء نُجباء الصعيد، تح: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط١، ١٩٦٦م.

- **الإسنوي(عبد الرحيم بن علي ت ٧٧٢هـ/١٣٧١م):**

١٤. طبقات الشافعية، تح: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

١٥. نهاية الراغب في شروح عروض ابن الحاجب، تح: شعبان صلاح، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

- **الأصفهاني(محمد بن محمد بن حامد ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م):**

١٦. البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

١٧. الفتح القُسِّيّ في الفتحِ القُدسيّ(حروب صلاح الدين)، دار المنار، د. م، ٢٠٠٤م.

- **الأصفهاني(محمود بن عبد الرحمن ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):**

١٨. بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب، تح: محمد مظهر بقا، دار المدني، جدة، ط١، ١٩٨٦م.

- **الأصفوني(عبد الرحمن بن يوسف ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م):**

١٩. المسائل الجبرية في إيضاح المسائل الدورية في الجبر والمقابلة، مكتبة الأوقاف العامة، بغداد، ١٨٠٣م.

- **ابن أبي أُصيبعة(أحمد بن القاسم ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م):**

٢٠. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية، مصر، ط١، ١٨٨٢م.

- **ابن الأقسراني(محمد بن عيسى ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م):**

٢١. نهاية السؤل والأمنية في تعليم أعمال الفروسية، تح: خالد أحمد الملا السويدي، دار كنان، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م.

- **ابن الأكفاني(محمد بن إبراهيم ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):**

٢٢. غنية اللبيب في غيبة الطبيب، تح: صالح مهدي عباس، مركز إحياء التراث العلمي ، بغداد، د. ت.

٢٣. كشف الرين في أحوال العين، تح: محمد ظافر وفائي و محمد رواس قلعجي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ط١، ١٩٩٣م.

- **ابن الأنباري(محمد بن القاسم ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م):**

٢٤. شرح القصائد الطوال السبع الجاهليات، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٨م.

- **ابن أيبك الدواداري(أبو بكر بن عبد الله بن أيبك ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):**

٢٥. الدُّر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تح: هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٠م.

٢٦. الدّر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تح: سعيد عاشور، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٢م.

٢٧. الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تح: أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٧١م.

- **البابانى(إسماعيل باشا البغدادي ت ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م):**

٢٨. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، اعتناء: رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت.

٢٩. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مطبعة وكالة المعارف، إستانبول، ١٩٥١م.

- **البرزالي(القاسم بن محمد الإشبيلي ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م):**

٣٠. المقتفي على كتاب الروضتين، تح: عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

- **ابن بسام الشنتريني(علي ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م):**

٣١. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د. م.

- **ابن بشكوال(خلف بن عبد الملك ت ٥٧٨هـ/١٠٨٣م):**

٣٢. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

- **البصروي(علي بن يوسف ت ٩٠٥هـ/ ١٥٠٠م):**

٣٣. تاريخ البصروي، تح: أكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٨م.

- **ابن بطوطة(محمد بن عبد الله ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):**

٣٤. الرحلة(تُحفة النظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تح: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م.

- **البعلبكي(قسطا بن لوقا ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م):**

٣٥. الفلاحة الرومية، تح: وائل عبد الرحيم عبيد، الجامعة الأردنية، الأردن، ط١، ١٩٩١م.

- **البغدادي(أحمد بن علي ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م):**

٣٦. تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.

٣٧. الكفاية في علم الرواية، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.

- **البغدادي(عبد اللطيف بن يوسف ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م):**

٣٨. الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تح: غسان سبانو، دمشق، ١٩٨٣م.

- **البغدادي(عبد المؤمن بن عبد الحق ت ٧٣٩هـ/١٣٣٩م):**

٣٩. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح: علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

- **أبو البقاء البدري(عبد الله بن محمد ت ٨٩٤هـ/١٤٨٩م):**

٤٠. نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٣م.

- **أبو بكر الحازمي(محد بن موسى ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م):**

٤١. عجالة المبتدي وفضالة المنتهي، تح: عبد الله كنون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٧٣م.

٤٢. ما اتفق لفظه وافترق مُسمَّاه من الأمكنة، تح: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٩٥م.

- **البكري(عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٥م):**

٤٣. المسالك والممالك، تح: أدريان فان لوفن و أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، د. م ، ط١، ١٩٩٢م.

٤٤. معجم ما استعجم، تح: مصطفى السقا، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٥م.

- **البكلجري(مغلطاي بن قليج بن عبد الله ت ٧٦٢هـ/١٣٦١م):**

٤٥. الزهر الباسم في السيرة النبوية، تح: أحسن أحمد عبد الشكور، دار السلام، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م.

- **البلاذري(أحمد بن يحيى ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢ م):**

٤٦. فتوح البلدان، تح: عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

- **البلوي(خالد بن عيسى ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م):**

٤٧. تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح: الحسن السائح، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، ط١، ١٩٦٤م.

- **البوني(أحمد بن قاسم ت ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م):**

٤٨. التعريف ببونة بلد سيدي أبو مروان الشريف، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠١م.

- **البوصيري(محمد بن سعيد الصنهاجي ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م):**

٤٩. الديوان، تح: محمد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣م.

٥٠. الديوان، دار الأرقم، مكة المكرمة، ٢٠٠٤م.

- **البيروني(محمد بن أحمد ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م):**

٥١. الآثار الباقية على القرون الخالية، تقديم: أحمد سعيد الدمرداش، دار ومكتبة ببيليون، جبيل- لبنان، ٢٠١٢م.

٥٢. التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، تح: محمد باسل الطائي وآخرون، دار عالم الكتاب الحديث، إربد- الأردن، ط١، ٢٠٠٤م.

٥٣. الصيدنة في الطب، تح: عباس زرياب، مركز نشر جامعة طهران، طهران، ١٩٩١م.

٥٤. القانون المسعودي، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند. ١٩٥٤م.

٥٥. مفتاح علم الهيئة وتحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد الدكن- الهند، ١٩٥٨م.

- **البيضاوي(عبد الله بن عمر ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م):**

٥٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨م.

٥٧. نظام التواريخ، تصحيح: بهمن ميررزا كريمي، مطبعة فرهو مند، طهران، ط١، ١٨٩٥م.

- **ابن البيطار(عبد الله بن أحمد المالقي ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م):**

٥٨. الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

- **التبريزي(محمد علي بن أحمد ت ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م):**

٥٩. ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب، دائرة المعارف الإسلامية، طهران، ط٢، ١٩٥٠م.

- **التّجَاني(عبد الله بن محمد ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م):**

٦٠. رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط١، ١٩٨١م.

- **التجيبي(القاسم بن يوسف ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م):**

٦١. مُستفاد الرحلة والاغتراب، تح: عبد الحفيظ منصور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٥م.

- **الترمذي(محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢ م):**

٦٢. الجامع الصحيح(سنن الترمذي)، تح: أحمد شاكر وأخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٧م.

٦٣. الشمائل المحمدية، تح: عزت عبيد الدعاس، دار الحديث، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م.

- **ابن تغري بردي(يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م):**

٦٤. الدليل الشافي على المنهل الصافي، تح: فهيم محمد شلتوت، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م.

٦٥. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تح: محمد أمين، دار الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

٦٦. النجوم الزاهرة في ملوك في مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

- **التمكروتي(علي بن محمد ت ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م):**

٦٧. النفحة المسكية في السفارة التركية، تح: محمد الصالحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر– ارتياد الأفاق، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

- **التميمي(تقي الدين بن عبد القادر ت ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م):**

٦٨. الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تح: عبد الفتاح الخلوف، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

- **التنبكتي(أحمد بابا ت ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م):**

٦٩. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج، تح: محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط١، ٢٠٠٠م.

٧٠. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس– ليبيا، ط١، ١٩٨٩م.

- **التهانوي(محمد علي ت ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م):**

٧١. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: رفيق العجم و علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

- **ابن ثابت الأنصاري(حسان ت ٤٠هـ/ ٦٦٠م):**

٧٢. الديوان، تقديم: عبدا مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.

- **ابن جبير(محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م):**

٧٣. الرحلة، دار الهلال، بيروت، ١٩٨١م.

- **ابن الجزري(محمد بن إبراهيم ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م):**

٧٤. تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تح: عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

- **ابن الجزري(محمد بن محمد ت ٨٣٣هـ/ ١٤٣٣م):**

٧٥. غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

٧٦. منجد المقرئين ومرشد الطالبين، اعتناء: محمد بن علي العمران، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

- **الجزيري(عبد القادر بن محمد ت ٩٧٧هـ/ ١٥٧٠م):**

٧٧. الدرر الفرائد المنتظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تح: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

- **ابن جعفر البغدادي(قدامة ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م):**

٧٨. الخراج وصناعة الكتابة، تح: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.

- **ابن جلجل الأندلسي(سليمان بن حسان ت بعد ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م):**

٧٩. طبقات الحكماء والأطباء، تح: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

- **ابن جماعة(عبد العزيز بن محمد ت ٧٦٧هـ/١٣٦٦م):**

٨٠. المختصر الندي في سيرة النبي، تح مسعد السعدني، مكتبة القرآن، القاهرة، د. ت.

- **ابن جماعة(محمد بن إبراهيم ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م):**

٨١. تذكرة السامع والمتكلم، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٥٣م.

٨٢. تنقيح المناظرة في تصحيح المخابرة، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

٨٣. غرر التبيان لمن لمْ يسمَّ من القرآن، تح: عبد الجواد خلف، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٩٩٠م.

٨٤. مستند الأجناد في آلات الجهاد، تح: أسامة ناصر النقشبندي، دار الوثائق، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م.

٨٥. المنهل الروي في علوم الحديث النبوي، تح: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٦م.

- **ابن الجواليقي(موهوب بن أحمد ت ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م):**

٨٦. المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح: أحمد محمد شاكر، طهران، ١٩٦٦م.

- **ابن الجوزي(أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م):**

٨٧. تلبيس إبليس، دار القلم، بيروت، د. ت.

٨٨. زاد الميسر في علم التفسير، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢م.

٨٩. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

- **ابن الجوزي(يوسف ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م):**

٩٠. الإيضاح لقوانين الإصلاح في الجدل والمناظرة، تح: محمد السيد دغيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

- **ابن الجيعان (يحيى ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م):**

٩١. التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، المطبعة الأهلية، القاهرة، ١٨٩٨م.

- **ابن الحاج النميري(إبراهيم بن عبد الله ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م):**

٩٢. فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

- **ابن الحاج الفاسي(محمد بن محمد ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م):**

٩٣. المدخل، دار الفكر، بيروت، ١٩٩١م.

- **حاجي خليفة(مصطفى بن عبد الله ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م):**

٩٤. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، ١٩٤١م.

- **الحاكم النيسابوري(محمد بن محمد ت ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م):**

٩٥. الأسامي والكنى، تح: يوسف بن محمد الدخيل، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ١٩٩٤م.

- **أبو حامد الغزالي(محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م):**

٩٦. إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

- **ابن حبان البستي(محمد بن أحمد ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م):**

٩٧. المجروحين من المحدثين، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط١، ٢٠٠٠م.

٩٨. مشاهير علماء الأمصار، تعليق: مجدي بن منصور الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

- **ابن حبيب الناصرية(الحسن بن عمر ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):**

٩٩. تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

١٠٠. المقتفى من سيرة المصطفى، تح: مصطفى محمد الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

١٠١. النجم الثاقب في أشهر المناقب، تح: بلعمري محمد فيصل الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

- **ابن حَجَر العسقلاني(أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م):**

١٠٢. إنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٢م.

١٠٣. تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تح: محمد علي النجار وآخرون، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٦٤م.

١٠٤. تهذيب التهذيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.

١٠٥. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

١٠٦. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تعليق: عبد السلام بن علوش، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٤م.

١٠٧. لسان الميزان، اعتناء: سلمان عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٠٨. المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، تح: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٢م.

١٠٩. هدى الساري مقدمة فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٦٠م.

- **ابن أبي حجلة التلمساني(أحمد بن يحيى ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م):**

١١٠. سكردان السلطان، تح: علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

- **ابن حجة الحموي(أبو بكر بن علي ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م):**

١١١. ثمرات الأوراق، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

- **ابن الحريري(أحمد بن علي ت ٩٢٦هـ/١٥٢٠م):**

١١٢. الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تح: سهيل زكار، دار الملاح، دمشق، ط١، ١٩٨١م.

- **ابن حزم الأندلسي(علي بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م):**

١١٣. جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٢م.

١١٤. رسائل ابن حزم، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

١١٥. طوق الحمامة في الألفة والألاف، تح: الطاهر المكي، القاهرة، ١٩٧٧م.

١١٦. الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، ١٩٢٩م.

• **الحسيني(أحمد بن محمد ت ٦٩٥هـ/١٢٩٦م):**

١١٧. صلة التكملة لوفيات النقلة، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

• **الحسيني(أبو بكر بن هداية الله ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م):**

١١٨. طبقات الشافعيَّة، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.

• **الحسيني(محمد بن علي ت ٧٦٥هـ/١٣٦٤م):**

١١٩. التذكرة لمعرفة رجال الكتب العشرة، تح: رفعت فوزي عبد المطلب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

١٢٠. ذيول العبر في خبر من غبر، تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

• **الحلبي(شهاب الدين محمود بن سلمان ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م):**

١٢١. حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تح: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.

١٢٢. منازل الأحباب ومنازة الألباب، تح: محمد الديباجي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.

• **ابن حماد العقيلي (محمد بن عمرو ت ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م):**

١٢٣. الضعفاء الكبير، تح: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

• **الحموي(ياقوت ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م):**

١٢٤. المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، دار عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

١٢٥. معجم الأُدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١٢٦. معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٧م.

• **الحميري(محمد بن عبد المنعم ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):**

١٢٧. الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.

• **الحنبلي(أحمد بن إبراهيم ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م):**

١٢٨. شفاء القلوب في ذكر مناقب بني أيوب، تح: ناظم رشيد، المكتبة الوطنية، بغداد، ط١، ١٩٧٨م.

• **ابن الحنبلي(محمد بن إبراهيم ت ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م):**

١٢٩. در الحبب في تاريخ أعيان حلب، تح: محمود الفاخوري و يحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٧٣م.

- **ابن حوقل(محمد ت ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م):**

١٣٠. صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م.

- **ابن حيان الغرناطي(محمد بن يوسف ت ٧٤٥هـ/١٣٤٤م):**

١٣١. ارتشاف الضرب من لسان العرب، تح: رجب عثمان محمد و رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م.

١٣٢. تذكرة النحاة، تح: عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.

١٣٣. التذييل والتكميل في شرح التسهيل، تح: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م.

١٣٤. المبدع في التصريف، تح: عبد الحميد السيد طلب، دار العروبة، د. م، ط١، ١٩٨٢م.

١٣٥. مجاني العصر في شعراء العصر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

١٣٦. النافع في قراءة نافع، دار المنار، بيروت، ١٩٩٥م.

- **ابن خاقان الإشبيلي(الفتح بن محمد ت ٥٢٨هـ/١١٣٣م):**

١٣٧. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار الأردن، ١٩٨٩م.

- **ابن خرداذبة(عُبيد الله بن عبد الله ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٥ م):**

١٣٨. المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩م.

- **ابن الخطيب(محمد بن عبد الله ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م):**

١٣٩. الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م.

١٤٠. أوصاف الناس في التواريخ والصلات ، تح: محمد كمال شبانة، لجنة التراث الإسلامي، الإمارات، ١٩٧٧م.

١٤١. خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، تح: أحمد مختار العبادي، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٣م.

١٤٢. ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تح: احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

١٤٣. الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

١٤٤. معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

١٤٥. نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تعليق: أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د. ت.

- **ابن خلدون(عبد الرحمن ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م):**

١٤٦. تاريخ ابن خلدون مع المقدمة، مر: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.

.١٤٧ العبر وديوان المبتدأ والخبر(المقدمة)، تح: علي عبد الواحد وافي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٤٨. مقدمة ابن خلدون، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

- **ابن خلكان(أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م):**

١٤٩. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.

- **الخوانساري(الميرزة محمد باقر ت ١٣١٣هـ/١٦٠٤م):**

١٥٠. روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، الدار الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

- **الداوودي(محمد بن علي ت ٩٤٥هـ/١٥٣٨م):**

١٥١. طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

- **ابن دقماق(إبراهيم بن محمد ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):**

١٥٢. الانتصار لواسطة عقد الأمصار، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت، د. ت.

١٥٣. الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تح: محمد كمال الدين علي، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

- **ابن دقيق العيد(محمد بن علي ت ٧٠٢هـ/١٣٠٢م):**

١٥٤. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تح: أحمد شاكر، دار عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

- **الدلجي(أحمد بن علي ت ٨٣٨هـ/١٤٢٩م):**

١٥٥. الفلاكة و المفلوكون، مطبعة الشعب، مصر، ١٩٠٤م.

- **ابن الدمياطي(أحمد بن أيبك ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م):**

١٥٦. المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، تح: أبو فرح دي – فل برنسق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٩٧٩م.

- **الدولابي(محمد بن أحمد ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م):**

١٥٧. الكنى والأسماء، تح: نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم، د. م، ٢٠٠٠م.

- **الدومسكي مرمرجي(أغسطس بن يوسف بن شمعون ت غير معروف):**

.١٥٨ بلدانية فلسطين العربية، منشورات المجمع العلمي الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٩٩٧م.

- **الدويهي(إسطفان ت ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م):**

١٥٩. تاريخ الأزمنة، تح: بطرس فهد، دار لحد خاطر، لبنان، ط١، ١٩٠٠م.

- **الذهبي(محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م):**

١٦٠. الإشارة إلى وفيات الأعيان، تح: إبراهيم صالح، دار ابن الأثير، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

١٦١. الإعلام بوفيات الأعلام، تح: مصطفى بن علي عوض، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١٦٢. الأمصار ذوات الآثار، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٥م.

١٦٣. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

١٦٤. تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

١٦٥. ذيول العبر في خبر من غبر، تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

١٦٦. سير أعلام النبلاء، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

١٦٧. زغل العلم، تح: ناصر بن محمد العجمي، مكتبة الصحوة الإسلامية، د. م، ١٩٨٤م.

١٦٨. الطب النبوي، تح: أحمد رفعت البدراوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م.

١٦٩. طبقات الحفاظ وأسماء المدلسين، اعتناء: محمد زياد التكلة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

١٧٠. طبقات القراء، تح: أحمد خان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

١٧١. العبر في خبر من غبر، تح: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٩٨٥م.

١٧٢. العقد الثمين في تراجم النحويين، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٧٠م.

١٧٣. المختار من تاريخ ابن الجزري، تح: خضير عباس المنشداوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

١٧٤. المستملح من كتاب التكملة، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠٠٨م.

١٧٥. معجم شيوخ الذهبي، تح: روحية عبد الرحمن السيوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

١٧٦. المعجم المختص بالمحدثين تح: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط١، ١٩٨٨م.

١٧٧. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تح: طيار آلتي قولاج، إستانبول، ط١، ١٩٩٥م.

١٧٨. المعين في طبقات المحدثين، وضع حواشيه: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

١٧٩. المغني في الضعفاء، تح: نور الدين عتر، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، ط١، ١٩٦٩م.

١٨٠. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح: علي محمد البجّاوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٣م.

- **الرازي(محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م):**

١٨١. حدائق الحقائق، تح: سعيد عبد الفتاح، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

١٨٢. مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥م.

- **ابن رافع السلامي(محمد ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م):**

١٨٣. تاريخ علماء بغداد، تعليق: عباس العزاوي، الدار العربية للموسوعات بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م.

١٨٤. الوفيات، تح: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

- **ابن الراهب القبطي(بطرس بن أبي الكرم ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):**

١٨٥. تاريخه، تح: سركيس، مطبعة الآباء اليسوعين، بيروت، ١٩٠٧م.

- **ابن رجب(عبد الرحمن بن أحمد ت ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م):**

١٨٦. الذيل على طبقات الحنابلة، تح: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٥م.

- **ابن رستة(أحمد بن عمر ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م):**

١٨٧. الأعلاق النفيسة، مطبعة ليدن، بريل، ١٨٩٣م.

- **الرشاطي(عبد الله بن علي ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م):**

١٨٨. اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

- **ابن رشيد السبتي(محمد بن عمر ت ٧٢١هـ/ ١٣٢١م):**

١٨٩. إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٩٠م.

١٩٠. السنن الأبية والمورد الأمعن في المحاكمة بين الإمامين في السند المعنعن، تح: صلاح بن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩٦م.

١٩١. ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

- **الرفاء(السري بن أحمد ت ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م):**

١٩٢. المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، تح: ماجد حسن الذهبي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

- **الروداني(محمد بن سليمان ت ١٠٩٤هـ/١٦٨٢م):**

١٩٣. صلة الخلف بموصول السلف، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

- **الزبيدي(أحمد بن عبد اللطيف ت ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م):**

١٩٤. التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح، دار الآثار، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- **الزبيدي(محمد بن الحسن ت ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م):**

١٩٥. مختصر العين، تقديم: علال الفاسي، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، د. ت.

- **الزبيدي(محمد مرتضى ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م):**

١٩٦. تاج العروس من جواهر القاموس، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٠م.

١٩٧. ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

- **أبو زرع الفاسي(علي ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م):**

١٩٨. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار منصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م.

- **الزركشي(محمد بن بهادر ت ٧٩٤هـ/١٣٩٢م):**

١٩٩. إعلام الساجد بأحكام المساجد، تقديم: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

- **الزركشي(محمد بن عبد الله ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م):**

٢٠٠. البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٧م.

٢٠١. اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

- **الزوزني(الحسين بن أحمد ت ٤٦٨هـ/ ١٠٩٣م):**

٢٠٢. شرح المعلقات العشر، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣م.

- **ابن الزيات الشاذلي (يوسف بن يحيى ت ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م):**

٢٠٣. التشوف إلى رجال التصوف، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٧م.

- **الزياني(أبو القاسم بن أحمد بن علي ت ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م):**

٢٠٤. الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تح: عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط، ١٩٩١م.

- **أبو زيد البلخي(أحمد بن سهل ت ٣٢٢هـ/ ٩٣٤ م):**

٢٠٥. مصالح الأبدان والأنفس، تقديم: مالك البدري، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات، الرياض، ٢٠٠٢م.

- **ابن الساعاتي(محمد رضوان ت ٦١٨هـ/ ١٢٢١م):**

٢٠٦. علم الساعات والعمل بها، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٨١م.

- **ابن الساعي البغدادي(علي بن أنجب ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م):**

٢٠٧. مختصر أخبار الخلفاء، المطبعة الأميرية، بولاق- مصر، ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م.

- **ابن سباط المغربي(حمزة بن أحمد ت ٩٢٦هـ/١٥١٩م):**

٢٠٨. صدق الأخبار تاريخ ابن سباط، تح: عبد السلام تدمري، دار جروس برس، طرابلس ، ط١، ١٩٩٣م.

- **سباهي زاده(محمد بن علي ت ٩٩٧هـ/ ١٥٨٩م):**

٢٠٩. أوضح المسالك إلى معرفة البلدان و الممالك، تح: المهدي عيد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

- **سبط ابن العجمي(أحمد بن إبراهيم ت ٨٨٤هـ/١٤٧٩م):**

٢١٠. كنوز الذهب في تاريخ حلب، تح: شوقي شعث و فالح البكور، دار القلم العربي، حلب ، ط١، ١٩٩٦م.

- **السبكي(أحمد بن علي ت ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م):**

٢١١. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية ، صيدا– بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

- **السبكي(علي بن عبد الكافي ت٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م):**

٢١٢. شفاء السقام في زيارة خير الأنام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

- **السبكي(عبد الوهاب بن علي ت٧٧١هـ/ ١٣٧٠م):**

٢١٣. طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧١م.

٢١٤. معيد النعم ومبيد النقم، تح: محمد علي النجار وآخرون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م.

- **السخاوي(علي بن أحمد ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م):**

٢١٥. تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، تعليق: محمود ربيع وحسن قاسم، مطبعة العلوم والآداب، القاهرة، ط١، ١٩٣٧م.

- **السخاوي(محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م):**

٢١٦. الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ، تح: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٢١٧. البلدانيات، تح: حسام بن محمد القطان، دار العطاء، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.

٢١٨. التبر المسبوك في ذيل السلوك، تح: لبيبة إبراهيم مصطفى وآخرين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

٢١٩. الذيل التام على دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار العروبة، الكويت، ط١، ١٩٩٧م.

٢٢٠. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، د. ت.

- **ابن سعد(محمد الهاشمي ت ٢٣٠هـ/٨٤٤ م):**

٢٢١. الطبقات الكبرى، تح: محمد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

- **ابن سعيد المغربي(علي بن موسى ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م):**

٢٢٢. الجغرافية، تح: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

٢٢٣. المُغرِب في حِلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٦٤م.

- **ابن سماك العاملي(أبو القاسم محمد ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤م):**

٢٢٤. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة معهد العلوم العليا، الرباط، ١٩٣٦م.

- **السمعاني(عبد الكريم بن محمد ت ٥٦٢هـ/١٠٦٩م):**

٢٢٥. الأنساب، تح: عبد الرحمن بن المعلمي اليماني، دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد، ١٩٧٧م

- **السنوسي(محمد ت ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م):**

٢٢٦. الرحلة الحجازية، تح: علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط١، ١٩٧٦م.

السهمي(حمزة بن يوسف ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م):

٢٢٧. تاريخ جرجان، تح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد- الهند، ١٩٤٩م.

- **السهيلي(عبد الرحمن بن عبد الله ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م):**

٢٢٨. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تح: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

- **ابن سودة المري(عبد السلام بن عبد القادر ت ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م):**

٢٢٩. دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- **ابن سيد البطليوسي (عبد الله بن محمد ت ٥٢١هـ/ ١١٢٧م):**

٢٣٠. المثلث، تح: صلاح مهدي الفرطوسي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.

- **ابن سيد الكل القفطي(هبة الله بن عبد الله ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م):**

٢٣١. الأنباء المستطابة في مناقب الصحابة والقرابة، تح: علي أحمد و عبد الجبار زكار، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٩٢م.

- **ابن سيد الناس(محمد بن محمد ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م):**

٢٣٢. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تح محمد العيد الخطراوي و محي الدِّين مستو، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٩٩٢م.

- **السيرافي(حسن بن يزيد ت ٣٣٠هـ/ ٩٤١م):**

٢٣٣. رحلة السيرافي، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م.

- **السيوطي(عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ/١٥٠٥م):**

٢٣٤. الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، دار الكتاب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٣٥. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

٢٣٦. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٣٧. تنوير الحوالك شرح موطأ الغمام مالك، تصحيح : محمد عبد الغني الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٣٨. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٧م.

٢٣٩. شرح شواهد المغني، تح: أحمد ظافر كوجان، لجنة التراث العربي، ١٩٦٦م.

٢٤٠. طبقات المفسرين، تح: علي محمد عُمر، مكتبة وهبة للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٧٦م.

٢٤١. كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تح: محمد كمال الدِّين عز الدِّين، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.

- **الشابشتي(علي بن محمد ت ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م):**

٢٤٢. الديارات، تح: كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، د . ت.

- **الشاطبي(القاسم بن فيّرة ت ٥٩٠هـ/١١٩٣م):**

٢٤٣. حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، تح: محمد تميم الزعبي، دار الهدى، المدينة المنورة، ط٤، ٢٠٠٥م.

- **أبو شامة المقدسي(عبد الرحمن بن إسماعيل ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م):**

٢٤٤. الذيل على الروضتين، مر: عزت الحسني، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.

٢٤٥. عيون الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، تح: أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩١م.

٢٤٦. المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تقديم وتعليق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

- **ابن شاهين الظاهري(خليل ت ٨٩٣هـ/١٤٨٨م):**

٢٤٧. زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتناء: بولس راوس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤م.

- **ابن شاهين(عبد الباسط بن خليل ت ٩٢٠هـ/١٥١٤م):**

٢٤٨. نيل الأمل في ذيل الدول، تح: عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

- **ابن الشحنة(محمد بن أبو الوليد ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م):**

٢٤٩. الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تح: يوسف بن الياس سركيس الدمشقي، بيروت، ١٩٠٩م.

- **ابن شداد(محمد بن علي ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م):**

٢٥٠. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م.

٢٥١. تاريخ الملك الظاهر، اعتناء: أحمد حطيط، دار فرانز شتايز، فيسبادن،١٩٨٣م.

- **ابن شداد(يوسف بن رافع ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م):**

٢٥٢. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م.

- **الشرقاوي(عبد الله بن حجازي ت ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م):**

٢٥٣. تحفة الناظرين فيمن وليَّ مصر من الملوك والسلاطين، تح: رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦م.

- **ابن الشعار الموصلي(المبارك بن أبي البركات ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م):**

٢٥٤. عقود الجمان في شعراء هذا الزمان، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

- **ابن شهاب الرملي(محمد بن أحمد ت ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م):**

٢٥٥. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م.

- **الشهرستاني(محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م):**

٢٥٦. الملل والنحل، تعليق: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.

- **الشوكاني(محمد بن علي ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م):**

٢٥٧. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت.

- **شيخ الربوة الدمشقي(محمد بن أبي طالب الأنصاري ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م):**

٢٥٨. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطرسبورغ– روسيا، ١٨٦٥م.

- **ابن الصائغ(محمد بن أحمد ت ٧٢٠ هـ/١٣٢٠ م):**

٢٥٩. شرح مقصورة ابن دريد، تح: فخر الدين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

- **ابن صاعد الأندلسي(صاعد بن أحمد ت ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م):**

٢٦٠. طبقات الأمم، المكتبة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٢م.

- **الصفاء و الوفاء(إخوان و خلّان ق ٣هـ/ ٩م):**

٢٦١. رسائل إخوان الصفاء، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.

- **الصفدي(خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م):**

٢٦٢. أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.

٢٦٣. أُمراء دمشق في الإسلام، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

٢٦٤. تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٩٦٩م.

٢٦٥. الشعور بالعور، تح: عبد الرزاق حسين، دار عمار، د. م، ط١، ١٩٨٨م.

٢٦٦. غوامض الصحاح، تح: عبد الإله نبهان، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٢٦٧. لوعة الشاكي ودمعة الباكي، تح: محمد أبو الفضل محمد هارون، المطبعة الرحمانية ، مصر، ١٩٢٢م.

٢٦٨. نصرة الثائر على المثل السائر، تح: محمد علي سلطاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٧١م.

٢٦٩. نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية، مصر، ١٩١١م.

٢٧٠. الوافي بالوفيات، اعتناء: رمضان عبد التواب، دار فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٨٥م.

- **الصقاعي(فضل الله بن أبي الفخر ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م):**

٢٧١. تالي وفيات الأعيان، تح: جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٤م.

- **الضبي(أحمد بن يحيى بن أحمد ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م):**

٢٧٢. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

- **طاش كبرى(أحمد بن مصطفى زاده ت ٩٦٨هـ/ ١٥٦١م):**

٢٧٣. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

- **الطبري(محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م):**

٢٧٤. تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
٢٧٥. جامع البيان عن تأويل القرآن، تح: محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٥٥م.

- **ابن الطقطقي(محمد بن علي ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م):**

٢٧٦. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.

- **ابن الطواح(عبد الواحد بن محمد ت ٧١٨هـ/ ١٣١٩م):**

٢٧٧. سبك المقال لفك العقال، تح: محمد مسعود جبران، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس- ليبيا، ط٢، ٢٠٠٨م.

- **ابن طولون الصالحي(محمد بن علي ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م):**

٢٧٨. إعلام الورى بمن وليَّ نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٤م.
٢٧٩. تاريخ المزة وآثارها، تح: محمد عمر حماده و محمد علي سلطاني، دار قتيبة للطباعة ، دمشق، ١٩٨٣م.
٢٨٠. الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٢٩م.
٢٨١. ضرب الحوطة على جميع قرى الغوطة، المجمع العربي العلمي، دمشق، ١٩٤٦م.
٢٨٢. القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تح: محمد أحمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠م.
٢٨٣. نقد الطالب لزغل المناصب، تح: محمد وخالد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
٢٨٤. نوادر الإجازات والسماعات، تح: مطيع الحافظ، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

- **ابن ظهيرة(برهان الدين إبراهيم بن علي ت ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م):**

٢٨٥. الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تح: مصطفى السقا، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٦٩م.

- **العاملي(زين الدين بن علي بن أحمد ت ٧١٢هـ/ ١٣١٢م):**

٢٨٦. منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، تح: عبد الأمير شمس الدين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م.

- **العباسي(الحسن بن عبد الله الصفدي ت بعد سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م):**

٢٨٧. نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من وليَّ مصر من الملوك، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

- **طرفة ابن العبد(عمرو ت ٥٦٩ م):**

٢٨٨. الديوان، تقديم: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.

- **ابن عبد البر النميري(يوسف بن عبد الله ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م):**

٢٨٩. الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمَّنَه الموطأ من معاني الرأي والأثار وشرح ذلك كلَّه بالإيجاز والاختصار، تح: عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق- بيروت، ١٩٩٣م.

٢٩٠. اختلاف أقوال مالك وأصحابه، تح: حميد محمد لخم و ميكلوش موراني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

- **ابن عبد السلام السلمي(عبد العزيز بن عبد السلام ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م):**

٢٩١. الإمام في بيان أدلة الأحكام، تح: رضوان غريبة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٢٩٢. بداية السول في تفضيل الرسول ومناقب المصطفى وشمائله، تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٢٩٣. القواعد الكبرى، تح: نزيه حماد و عثمان ضميرية، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

- **ابن عبد الظاهر(محيي الدين عبد الله ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م):**

٢٩٤. تشريف الأيام و العصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، مصر، ط١، ١٩٦١م.

٢٩٥. الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز خويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦م.

.٢٩٦ الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزيّة القاهرة، تح: أيمن فؤاد السيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

- **ابن عبد الهادي(محمد بن أحمد ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣م):**

٢٩٧. طبقات علماء الحديث، تح: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.

- **ابن عبد الهادي(يوسف ت ٩٠٩هـ/١٥٠٣م):**

٢٩٨. ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تح: محمد أسعد طلس، منشورات المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٥م.

- **العبدري(محمد بن محمد ت ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م):**

٢٩٩. شموس الأنوار وكنوز الأسرار في علم الحروف وروحانيته، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٣٠٠. رحلة العبدري، تقديم: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م.

٣٠١. رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم الكردي، دار سعد الدين، دمشق، ط٢، ٢٠٠٥م.

٣٠٢. الرحلة المغربية، تح : أحمد بن جدو، مطبعة البعث، نشر كلية الآداب الجزائرية، قسنطينة، ط١، د. ت.

٣٠٣. مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة، دار التراث الإسلامي، الكويت، ط١، ١٩٩٩٠م.

- **ابن العبري(غريغوروس بن أهرون ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م):**

٣٠٤. تاريخ مختصر الدول، تصحيح: أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

- **ابن عثمان المكناسي(محمد بن عبد الوهاب بن عثمان ت ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م):**

٣٠٥. إحراز المعلى والرقيب في حجِّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تح: محمد بوكبوط، دار السويدي، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٣م.

٣٠٦. الأكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، الرباط، ط١، ١٩٦٥م.

- **العثماني(محمد بن عبد الرحمن ت ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م):**

٣٠٧. تاريخ صفد، تح: سهيل زكار، دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٩م.

- **ابن عدلان الموصلي(علي بن عدلان بن حماد ت ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م):**

٣٠٨. الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٨٥م.

- **ابن العديم(عمر بن أحمد بن أبي جرادة ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م):**

٣٠٩. بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

٣١٠. الدراري في ذكر الذراري، تح: علاء عبد الوهاب محمد، دار الهداية، القاهرة، ١٩٨٤م.

٣١١. زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٤م.

- **ابن عذاري المراكشي(أحمد بن محمد ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م):**

٣١٢. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

- **ابن العراقي(أحمد بن عبد الرحيم ت ٨٢٦هـ/١٤٢٢م):**

٣١٣. الذيل على العبر في خبر من غبر، تح: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

- **ابن عربي المالكي(محمد بن عبد الله ت ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م):**

٣١٤. عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

٣١٥. قانون التأويل، تح : محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

- **العرضي(أبو الوفاء بن عمر ت ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م):**

٣١٦. معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، تح: عيسى سليمان أبو سليم، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م.

- **ابن أبي عزفة(أحمد بن محمد ت ٦٣٣هـ/١٢٣٦م):**

٣١٧. إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تح: محمد الشريف، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م.

- **العسقلاني(شافع بن علي ت ٧٣٠هـ/١٣٣٠م):**

٣١٨. حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية، تح: عبد العزيز الخويطر، مطبعة سفير، الرياض، ط٢، ١٩٨٩م.

٣١٩. الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تح: عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- لبنان، ط١، ١٩٩٨م.

- **ابن عصفور الإشبيلي(علي بن مؤمن ت ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م):**

٣٢٠. ضرائر الشعر، تح: إبراهيم محمد، دار الأندلس، القاهرة، ط١، ١٩٨٠م.

- **ابن عطاء الإسكندري(أحمد بن محمد ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م):**

.٣٢١ لطائف المنن، المطبعة الفخرية، القاهرة، ط١، ١٩٧٢م.

- **العظيمي (محمد بن علي ت ٥٥٦هـ/١١٦١م):**

٣٢٢. تاريخ حلب، تح: إبراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٤م.

- **العلموي(عبد الباسط بن موسى ت ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م):**

٣٢٣. مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس، تح: عارف أحمد عبد الغني، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ٢٠١٣م.

- **أبو علي القالي(إسماعيل بن القاسم ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م):**

٣٢٤. البارع في اللغة، تح: هاشم الطعان، دار الحضارة العربية، بيروت، ط١، ١٩٧٥م.

- **العُليمي(عبد الرحمن بن محمد ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م):**

٣٢٥. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المطبعة الحيدرية، النجف، ط١، ١٩٦٦م.

- **ابن العماد الحنبلي(عبد الحي ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م):**

٣٢٦. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

- **أبو عمر الداني(عثمان بن سعيد ت ٤٤٤هـ/١٠٥٣م):**

٣٢٧. التيسير في القراءات السبع، تح: أوتو برتزل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

٣٢٨. المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، تح: نورة بنت حسن بن فهد الحميد، الدار التدمرية، الرياض، ط١، ٢٠١٠م.

- **ابن العميد(المكين جرجس ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م):**

٣٢٩. أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.

- **العياشي(عبد الله بن محمد ت ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩م):**

٣٣٠. رحلة العياشي، تح: سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٦م.

- **العيني(محمود ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م):**

٣٣١. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.

- **الغبريني(أحمد بن أحمد ت ٧١٤هـ/١٣١٤م):**

٣٣٢. عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، دار الآفاق، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

- **الغزولي(علي بن عبد الله ت ٨١٥هـ/ ١٤١٢م):**

٣٣٣. مطالع البدور في منازل السرور، مطبعة إدارة الوطن، د. م.

- **ابن الغزي(محمد بن عبد الرحمن ت ١١٦٧هـ/١٧٥٣م):**

٣٣٤. ديوان الاسلام، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

- **الغزي(محمد بن محمد ت ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م):**

٣٣٥. الدر النضيد في آداب المفيد والمستفيد، تعليق: عبد الله محمد الكندري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

- **الغساني(إسماعيل بن عباس ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م):**

٣٣٦. العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تح: شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٧٥م.

- **ابن فارس(أبو الحسن أحمد ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م):**

٣٣٧. معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٧٩م

- **الفاسي(محمد بن أحمد ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م):**

٣٣٨. ذيل التقييد في رواة السنن و الأسانيد، تح: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

٣٣٩. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تح: فؤاد دسسيّر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

- **أبو الفداء(إسماعيل بن علي ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):**

٣٤٠. التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم، محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

٣٤١. تقويم البلدان، اعتناء: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.

٣٤٢. المختصر في أخبار البشر، تح: محمد زينهم، محمد عزب، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.

٣٤٣. اليواقيت والضرب في تاريخ حلب، تح: محمد كال الدين، فالح البكور، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٩٨٩م.

- **ابن الفرات(محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م):**

٣٤٤. تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق و نجلاء عز الدين، المطبعة الأميركانية، ١٩٣٩م.

- **أبو الفرج الأصبهاني(علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧ م):**

٣٤٥. الديارات، تح: خليل العطية، مكتبة رياض الريس، لندن، ط١، ١٩٩١م.

- **ابن فرحون(إبراهيم بن علي ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م):**

٣٤٦. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢م.

- **ابن أبي الفضائل(المفضل ت ٧٥٩ه/١٣٥٨م):**

٣٤٧. النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد، تح: إدغار بلوشية، اصدارات بريبولس، بلجيكا، ١٩٨٣م.

- **ابن فضل الله العمري(أحمد بن يحيى ت ٧٤٩ه/ ١٣٤٨م):**

٣٤٨. التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٣٤٩. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٢م.

٣٥٠. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: عبد الله بن يحيى السريجي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ٢٠٠٣م.

٣٥١. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تح: دورويتا كرافولسكي ، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

- **ابن فضل الله المحبي(محمد أمين ت ١١١١ه/١٦٩٩م):**

٣٥٢. نفحة الريحانة ورشة طلاء الحانة، تح: عبد الفتاح الحلو، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م.

- **ابن فضلان(أحمد بن العباس ت ٣١٠ه/ ٩٢٢م):**

٣٥٣. رحلة ابن فضلان، تح: سامي الدهان، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٦٠م.

- **ابن الفقيه الهمذاني (أحمد بن محمد ت ٣٤٠ه/ ٩٥١م):**

٣٥٤. البلدان، تح: يوسف هادي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦م.

٣٥٥. مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٤م.

- **فنديك(إدوارد ت ١٢١٥ه/١٨٠٠م):**

٣٥٦. اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٨٩٦م

- **ابن الفوطي(عبد الرزاق بن أحمد الشيباني ت ٧٢٣ه/١٣٢٣م):**

٣٥٧. الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تح: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٣٥٨. مجمع الآداب في معجم الألقاب، تح: محمد الكاظم، وزارة الثقافة والارشاد الإسلامي ، طهران، ط١، ١٩٩٥م.

- **الفيروز أبادي(محمد بن يعقوب ت ٨١٧هـ/١٤١٤م):**

٣٥٩. البُلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تح: محمد المصري، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

- **الفيومي(أحمد بن علي ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م):**

٣٦٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.

- **القادري(محمد بن الطيب ت ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م):**

٣٦١. نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، الرباط، ط١، ١٩٧٩م.

- **ابن قاضي شهبة(أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م):**

٣٦٢. طبقات الشافعية، اعتناء: الحافظ عبد العليم خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط١، ١٩٧٨م.

٣٦٣. الكواكب الدرية في السيرة النورية، تح: محمود زايد، بيروت، ١٩٧١م.

- **ابن القاضي المكناسي(أحمد بن محمد ت ١٠٢٥هـ/١٦١٦م):**

٣٦٤. جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م.

٣٦٥. درة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٧١م.

- **ابن قدامة المقدسي(عبد الله بن أحمد ت ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م):**

٣٦٦. المغني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٩٨١م.

- **ابن قرقول(إبراهيم بن يوسف ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م):**

٣٦٧. مطالع الأنوار على صحاح الآثار، تح: أحمد عويس جنيدي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ٢٠١٢م.

- **القرماني(أحمد بن يوسف ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م):**

٣٦٨. أخبار الدول وآثار الأوّل في التاريخ، تح: أحمد حطيط، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

- **القزويني(زكريا بن محمد ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م):**

٣٦٩. آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادق، بيروت، ١٩٦٠م.

٣٧٠. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٠م.

- **القزويني(محمد بن عبد الرحمن ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م):**

٣٧١. الإيضاح في علوم البلاغة، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٣٧٢. التلخيص في علوم البلاغة، تح: عبد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م.

- **القسطلاني(أحمد بن محمد ت ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م):**

٣٧٣. لطائف الإشارات لفنون القراءات، تح: عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ط١، ١٩٧٢م.

- **ابن قطلوبغا(قاسم السودوني ت ٨٧٩هـ/١٤٧٤م):**

٣٧٤. تاج التراجم، تح: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٢م.

- **ابن القف(يعقوب بن إسحاق ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م):**

٣٧٥. جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض، تح: سامي خلف العمارنة، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩م.

- **القفطي(علي بن يوسف ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م):**

٣٧٦. إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مطبعة دار السعادة، مصر، ١٩٠٨م.

٣٧٧. إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

- **ابن القلانسي(حمزة ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م):**

٣٧٨. ذيل تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٣م.

- **القلصادي(أبو الحسن علي ت ٨٩١هـ/ ١٤٨٧م):**

٣٧٩. الرحلة، تح: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د. ت.

- **القلقشندي(أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):**

٣٨٠. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤م.

٣٨١. قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٨٢م.

٣٨٢. مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار عالم الكتب، بيروت ، د. ت.

٣٨٣. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القاهرة، ط١، ١٩٥٩م.

- **ابن قنفذ القسطنطيني(أحمد بن حسن ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):**

٣٨٤. أنس الفقير وعز الحقير، تح: محمد الفاسي، أدولف فور، الرباط، ١٩٦٥م.

٣٨٥. الوفيات، تح: عادل النويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م.

- **القنوجي(صديق بن حسين ت ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م):**

٣٨٦. أبجد العلوم(السحاب المرقوم الممطر بأنواع الفنون وأصناف العلوم)، وضع فهارسه: عبد الجبار زكّار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨م.

- **القيس(امرؤ ت ٥٤٠م):**

٣٨٧. الديوان، تح: مصطفى الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٥، ٢٠٠٤م.

- **ابن القيسراني(إبراهيم بن عبد الرحمن ت ٧٥٣هـ/١٣٥٢م):**

٣٨٨. النور اللائح والدُّر الصادح، تح: عبد السلام تدمري، دار الإنشاء، طرابلس، ط١، ١٩٨٢م.

- **ابن قيم الجوزية(محمد بن أبي بكر بن أيوب ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م):**

٣٨٩. تحفة المودود بأحكام المولود، تح: عثمان بن جمعة ضميرية، دار عالم الفوائد، جدة، ٢٠١٠م.

٣٩٠. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تح: محمد أجمل الإصلاحي و زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، جدة، ٢٠٠٨م.

٣٩١. زاد المعاد في هدي خير العباد، تح: شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

- **كاتبي الصيادي(محمد عز الدين عربي ت ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م):**

٣٩٢. الروضة البهية في فضائل دمشق المحميّة، مطبعة المقتبس، دمشق، ١٩١١م.

- **ابن الكازوروني(علي بن محمد ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م):**

٣٩٣. مختصر التاريخ، تح: مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد،١٩٧٠م.

- **الكتّاني(محمد بن جعفر ت ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م):**

٣٩٤. الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُنة المشرّفة، دار البشائر الإسلامية، بيروت ، ط٥، ١٩٩٣م.

٣٩٥. سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: محمد حمزة الكتاني، د. م ، د. ت.

- **الكتبي(محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م):**

٣٩٦. عيون التواريخ، تح: نبيلة عبد المنعم داوود، فيصل السامر، دار الحرية، بغداد، ط١، ١٩٨٤م.

٣٩٧. فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٣م.

- **ابن كثير(إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م):**

٣٩٨. البداية والنهاية، تح: عبد الله المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

٣٩٩. طبقات الشافعية، تح: عبد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

- **ابن كنان(محمد بن عيسى ت ١١٥٣هـ/١٧٤٠م):**

٤٠٠. حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تح: عباس صباغ، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٤٠١. المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية، تح: محمد أحمد دهمان، مطبوعات مديرية الآثار القديمة، دمشق، ١٩٤٧م.

٤٠٢. المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تح: حكمت إسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.

- **كوهين العطار(داود بن أبي النصر ت. بعد سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م):**

٤٠٣. منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان، تح: حسن عاصي، دار المناهل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

- **اللكنوي(محمد عبد الحي ت ١٣٤١هـ/١٩٢٢م):**

٤٠٥. الفوائد البهية في تراجم الحنفية، تعليق: محمد بدر الدين النعساني، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

- **ليون الإفريقي(الحسن بن محمد الوزان الفاسي ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م):**

٤٠٦. وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

- **ابن مالك الحميري(مالك بن أنس ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م):**

٤٠٧. الموطأ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٨٥م.

- **ابن مالك الطائي(محمد بن عبد الله ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م):**

٤٠٨. إكمال الإعلام بتثليث الكلام، تح: سعد بن حمدان الغامدي، مكتبة المدني، مكة المكرمة، ١٩٨٤م.

٤٠٩. تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي، د. م، ١٩٦٧م.

٤١٠. شرح التسهيل، تح: عبد الرحمن السيد و محمد المختون، دار هجر، القاهرة، ١٩٩٠م.

- **مبارك(علي باشا ت ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م):**

٤١١. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الأميرية، بولاق – مصر، ط١، ١٨٨٧م.

- **ابن مبارك المروزي(عبد الله ت ١٨١هـ/ ٧٩٧م):**

٤١٢. الزهد والرقائق، تح: أحمد فريد، دار المعراج الدولية، الرياض، ١٩٩٥م.

- **ابن محمد الدمشقي(محمد بن علي ت ٧٦٧هـ/١٣٦٥م):**

٤١٣. البدور المسفرة في نعت الأديرة، تح: هلال ناجي، مطبعة الحرية، بغداد، ١٩٧٥م.

- **المقدسي(أحمد بن محمد ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م):**

٤١٤. مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تح: أحمد الخطيمي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

- **المقدسي(محمد بن أحمد ت ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م):**

٤١٥. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٩٩١م.

- **المقدسي(مطهر بن طاهر ت ٣٥٥هـ/٩٦٥م):**

٤١٦. البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.

- **المراكشي(الحسن بن علي بن عمر ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م):**

٤١٧. جامع المبادئ والغايات في علم الميقات، منشورات المكتبة الوطنية، باريس، ١٨٣٤م.

- **المراكشي(محمد بن أحمد ت ٧٠٣هـ/١٣٠٣م):**

٤١٨. الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.

- **المرتضى(أحمد بن يحيى ت ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م):**

٤١٩. البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥م.

- **المروزي(شرف الزمان طاهر ق ٦هـ/ ١٢م):**

٤٢٠. طبائع الحيوان، تح: فلاديمير مينورسكي، لندن، ١٩٤٢م.

- **ابن مريم التلمساني(محمد بن محمد ت ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م):**

٤٢١. البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، اعتناء: محمد بن أبي شلب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ١٩٠٨م.

- **المزمري(محمد بن أب ت ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م):**

٤٢٢. تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الإيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى، المطبعة الملكية، الرباط، ط١، ١٩٦٢م.

- **المزي(يوسف بن عبد الرحمن ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م):**

٤٢٣. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

- **ابن المستوفي(المبارك بن أحمد ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م):**

٤٢٤. نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل، تح: سامي بن السيد خمّاس الصقّار، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط١، ١٩٨٠م.

- **المسعودي(علي بن الحسين ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م):**

٤٢٥. التنبيه والإشراف، مطبعة ليدن، بريل، ١٨٩٣م.

٤٢٦. مروج الذهب ومعادن الجوهر، مر: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥م.

- **ابن مفلح العليمي(إبراهيم بن محمد ت ٨٨٤هـ/١٤٧٩م):**

٤٢٧. المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تح: عبد الرحمن العثيمين، مكتبة الرد، الرياض، ط١، ١٩٩٠م.

- **ابن مفلح الراميني(محمد بن مفرج ت ٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م):**

٤٢٨. الفروع، تح: عبد الستار فرَّاج، دار عالم الكتب، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م.

- **المقري(أحمد بن محمد ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م):**

٤٢٩. أزهار الرياض في أخبار القاضي عيَّاض، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة فضالة، المغرب، ط١، ١٩٨٠م.

٤٣٠. فتح المتعال في مدح النعال، تح: علي عبد الوهاب، دار القاضي عياض، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

٤٣١. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

- **المقريزي(أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م):**

٤٣٢. الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة، ١٨٩٥م.

٤٣٣. الأوزان والأكيال الشرعية، تح: سلطان بن عيد المسمار، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

٤٣٤. البيان والاعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب، تح: فردناد و اسطون فيلد، طبعة جوتنجن، ألمانيا، ١٨٤٧م.

٤٣٥. الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تح: جمال الشيَّال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

٤٣٦. السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٤٣٧. المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٤٣٨. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

- **ابن الملقن(عمر بن علي الأنصاري ت ٨٠٤هـ/١٤٠١م):**

٤٣٩. العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

- **ابن مليح السراج(محمد بن أحمد ت ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٣م):**

٤٤٠. أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم و الأعارب، تح: محمد الفاسي، فاس، ط١، ١٩٦٨م.

- **ابن مماتي(الأسعد بن المهذب ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م):**

٤٤١. قوانين الدواوين، تح: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

- **مؤرخ مجهول:**

٤٤٢. تاريخ سلاطين المماليك، نشره زتر ستين، مطبعة ليدن، ١٩١٩م.

- **مؤلف مجهول:**

٤٤٣. مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، تح: محمد عيسى صالحية و إحسان العمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٩٨٤م.

- **المنذري(عبد العظيم بن عبد القوي ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م):**

٤٤٤. التكملة لوفيات النقلة، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م.

- **المنصوري(بيبرس بن عبد الله ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م):**

٤٤٥. التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية– اللبنانية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٤٤٦. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح: دونالد. س. ريتشاردز، الشركة المتحدة، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

- **ابن منظور(محمد بن جلال الدين مكرم ت ٧١١هـ/١٣١١م):**

٤٤٧. سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

٤٤٨. لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت.

٤٤٩. نثار الأزهار في الليل والنهار، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، ١٨٨١م.

- **ابن منقذ(أُسامة بن مرشد ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م):**

٤٥٠. الاعتبار، تح: قاسم السامرائي، دار الأصالة للثقافة، الرياض، د. ت.

- **ابن منكلي(محمد الناصري ت: ٧٧٨هـ/١٣٧٦م):**

٤٥١. الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر، جامعة الإسكندرية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٨م.

٤٥٢. الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، تح: نبيل أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

- **ابن المنير(أحمد بن محمد ت ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م):**

٤٥٣. التفسير العجيب في تفسير الغريب، تح: سليمان أوغلو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

- **المهلبي العزيزي(الحسن بن أحمد ق ٤هـ/١٠م):**

٤٥٤. المسالك والممالك، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٦م.

- **المهلّبي(زهير ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م):**

٤٥٥. الديوان، تح: محمد طاهر الجبلاوي وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.

- **النابلسي(عبد الغني ت ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م):**

٤٥٦. الملاحة في علم الفلاحة، تح: عادل محمد الشيخ، عمان، ط١، ٢٠٠١م.

- **ابن ناصر الدين الدمشقي(محمد بن أبي بكر عبد الله ت ٨٤٢هـ/١٤٣٨م):**

٤٥٧. توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكتابهم، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.

٤٥٨. الرد الوافر، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

- **الناصري(أحمد بن خالد ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م):**

٤٥٩. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر ومحمد الناصري، الدار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧م.

- **ابن ناظر الجيش(محمد بن يوسف ت ٧٧٨هـ/ ١٣٧٧م):**

٤٦٠. تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تح: رودلف فسلى، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧م.

- **ابن نباتة المصري(محمد بن محمد ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م):**

٤٦١. الديوان، المطبعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٣م.

٤٦٢. الديوان، المطبعة اللبنانية، بيروت، ط١، ١٨٨٦م.

- **ابن النحاس الدمشقي(أحمد بن إبراهيم ت ٨١٤هـ/ ١٤١٢م):**

٤٦٣. مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام، تح: إدريس محمد علي و محمد خالد إسطنبولي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

- **ابن النديم(محمد بن إسحاق ت ٤٣٨هـ/١٠٤٧م):**

٤٦٤. الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء المحدثين وأسماء كتبهم، تح: رضا تجدّد، طهران، ط١، ١٩٧١م.

- **النسفي(عبد الله بن أحمد بن محمود ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م):**

٤٦٥. مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، تح: يوسف علي بديوي و محي الدِّين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ١٩٩٨م.

- **ابن نظيف الحموي(محمد بن علي ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م):**

٤٦٦. التاريخ المنصوري، تح: أبو العيد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١م.

- **أبو نعيم الأصبهاني(أحمد بن عبد الله ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م):**

٤٦٧. تاريخ أصبهان، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

- **النعيمي(عبد القادر ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م):**

٤٦٨. الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٠م.
٤٦٩. دور القرآن في دمشق، تعليق: صلاح الدِّين المنجد، دمشق، ١٩٤٦م.

- **ابن النفيس(علي بن أبي الحزم ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م):**

٤٧٠. شرح فصول أبقراط، تح: يوسف زيدان، دار النهضة، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٤٧١. المهذّب في الكحل المجرب ، تح: محمد ظافر الوفائي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ط٢، ١٩٩٤م.
٤٧٢. الموجز في الطب، تح: يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

- **ابن نقطة(محمد بن عبد الغني ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م):**

٤٧٣. التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط١، ١٩٨٣م.

- **النووي(محي الدِّين يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م):**

٤٧٤. صحيح مسلم بشرح النووي، تح : محمد سيد عبد رب الرسول، مكتبة أبو بكر الصديق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦م.

- **النويري(أحمد بن عبد الوهّاب ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م):**

٤٧٥. نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: محمد ضياء الريس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٧م.

- **الهروي(علي بن أبي بكر ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م):**

٤٧٦. الإشارات إلى معرفة الزيارات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- **الهروي(القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ/ ٨٨٣ م):**

٤٧٧. غريب الحديث، تح: عبد السلام هارون، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م.

- **ابن هشام الأنصاري(عبد الله بن يوسف ت ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م):**

٤٧٨. الإعراب عن قواعد الإعراب، تح: علي فودة نيل، جامعة الرياض، د. ت.
٤٧٩. تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد، تح: عباس مصطفى الصالحي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
٤٨٠. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٤٨١. قطر الندى وبَلْ الصدى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠٠٤م.

٤٨٢. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك و حمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٤م.

- **ابن هلال الصابئ(محمد ت ٤٨٠هـ/١٠٨٧م):**

٤٨٣. الهفوات النادرة، تح: صالح الأشتر، دار الأوزاعي للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

- **الهمداني(الحسن بن أحمد بن يعقوب ت ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥م):**

٤٨٤. صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٨م.

٤٨٥. صفة جزيرة العرب، تح: محمد بن علي الأكوع الحوالي ، مكتبة الإرشاد، صنعاء ،١٩٩٠م.

- **الهمذاني(رشيد الدين فضل الله ت ٧١٨هـ/١٣١٨م):**

٤٨٦. جامع التواريخ، تح: فؤاد عبد المعطي الصيّاد، الدار الثقافية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

٤٨٧. جامع التواريخ، نقله إلى العربية: محمد صادق وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت.

- **ابن الهيثم(أبو علي الحسن بن الحسن ت ٤٣٠هـ/ ١٠٤٠م):**

٤٨٨. الشكوك على بطليموس، تح: عبد الحميد صبره و نبيل الشهابي، دار الكتب الوطنية ، القاهرة، ط١، ١٩٧١م.

- **الوادي آشي(محمد بن جابر ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):**

٤٨٩. برنامج ابن جابر الوادي آشي، تح: محمد الحبيب الهيلة، منشورات جامعة أم القرى، ط١، ١٩٨١م.

- **ابن واصل(محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م):**

٤٩٠. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: حسين محمد ربيع، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م.

- **الواقدي(محمد بن عمر ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٣ م):**

٤٩١. فتوح الشام، تح: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.

- **الورثيلاني(الحسين بن محمد ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م):**

٤٩٢. نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.

- **ابن الوردي(عمر بن المظفر ت ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م):**

٤٩٣. خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح: أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م

- **الوزير السراج(محمد بن محمد ١١٤٩هـ/ ١٧٣٧م):**

٤٩٤. الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح: محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية، تونس، ط١، ١٩٧٠م.

- **الوطواط(محمد بن إبراهيم ت ٧١٨هـ/١٣١٨م):**

٤٩٥. مباهج الفكر ومناهج العبر، تح: عبد الرزاق الحربي، الدار العربية للموسوعات، د. م، ط١، ٢٠٠٠م.

- **وكيع(محمد بن خلف ت ٣٠٦هـ/٩١٨م):**

٤٩٦. أخبار القضاة، مر: سعيد محمد اللحم، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٨م.

- **أبو الوليد الأحمر(إسماعيل ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م):**

٤٩٧. روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨م.

- **أبو الوفاء القرشي(عبد القادر بن محمد ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م):**

٤٩٨. الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تح: عبد الفتاح الحلو، دار هجر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م.

- **اليافعي(عبد الله بن أسعد ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م):**

٤٩٩. مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- **اليحصبي(عياض موسى عياض ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م):**

٥٠٠. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م.

٥٠١. الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، تح: علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

- **اليعقوبي(أحمد بن إسحاق بن جعفر ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧ م):**

٥٠٢. البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ط١، ١٨٦٠م.

- **أبو يعلى الفراء(محمد بن الحسين ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م):**

٥٠٣. الأحكام السلطانية، تعليق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

- **اليماني(عبد الباقي بن عبد المجيد ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م):**

٥٠٤. بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تح: عبد الله الحبشي وآخرون، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط١، ١٩٨٨م.

- **اليوسفي(محمد بن موسى ت ٧٥٩هـ/١٣٥٨م):**

٥٠٥. نزهة الناظر في سيرة الناصر، تح: أحمد حطيط، دار علم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

- **اليونيني(موسى بن محمد ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م):**

٥٠٦. ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٩٥٥م

ثالثاً- المصادر الأجنبيَّة المُعرَّبَة:

- **بوردينون(أُودوريك أوف ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):**

١. رحلة الفرير أُودوريك، تح: جوناثان بولارد، لندن، ط١، ١٩٠٠م.

- **بورشارد(ق٧هـ/ ١٣م):**

٢. .وصف الأرض المُقدَّسة، تر: سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشروق، عمان- الأردن، ط١، ١٩٩٥م.

- **بولو(ماركو ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) :**

٣. رحلات ماركو بولو، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.

- **بيركهارت(جون لويس ت ١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م):**

٤. رحلات بيركهارت في سورية الجنوبية، تر: أنور عرفات، وزارة الثقافة والإعلام الأردنية، د. ت.

- **التطيلي(بنيامين ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م):**

٥. الرحلة، تر: عزرا حداد، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٢م.

- **ثيودوريش(ت ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م):**

٦. وصف الأماكن المقدَّسة في فلسطين، تر: سعيد عبد الله البيشاوي و رياض شاهين، دار الشروق، رام الله- فلسطين، ط١، ٢٠٠٣م.

- **جوانفيل(جان دي ت ٧١٧هـ/ ١٣١٧م):**

٧. مذكرات جوانفيل، تر: حسن حبشي، دار المعارف، مصر، ١٩٨٦م.

- **الراهب(دانيال ت ٥١٦هـ/١١٢٢م):**

٨. وصف الأرض المُقدَّسة في فلسطين، تر: سعيد عبد الله البيشاوي و داود أبو هدبة، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٢م.

- **سانوتو(مارينو ق ٨هـ/ ١٤م):**

٩. الأسرار، تح: سمر الخادم و بلليغرينو رونكاليا، دار الريحاني، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

- **سايلوف(ق٦هـ/ ١٢م):**

١٠. رحلة الحاج سايلوف إلى بيت المقدس والأراضي المُقدَّسة ١١٠٢- ١١٠٣م(وصف الأراضي المقدسة)، تر: سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشروق، رام الله- فلسطين، ط١، ١٩٩٧م.

- **سبهري(سهراب ق٤هـ/ ١٠م):**

١١. عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة، تح: هانس فون مزيك، مطبعة أدولف هولزهوزن، فيننا، ١٩٢٩م.

- **سوخم(فون ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م):**

١٢. وصف الأرض المقدَّسة، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تر: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م.

- **سيغولي(سيمون ق٨هـ/ ١٤م):**

١٣. رحلات إلى الأراضي المقدَّسة، تر: شيرين إيبش، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠١٠م.

- **الشارتري(فوشيه ت ٥٢١هـ/ ١١٢٧م):**

١٤. تاريخ الحملة إلى القدس(١٠٩٥- ١١٢٧م)، تر: زياد العسلي، دار الشروق، عمان- الأردن، ط١، ١٩٩٠م.

- **الصوري(وليم ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م):**

١٥. تاريخ الحروب الصليبية والأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تر: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م.

- **علوي(ناصر خسرو ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م):**

١٦. سفرنامة، تر: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

- **فريسكو بالدي(ليوناردو ق٨هـ/ ١٤م):**

١٧. رحلات إلى الأراضي المقدسة، تر: شيرين إيبش، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠١٠م.

- **الورزبرجي(يوحنا ت ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م):**

١٨. وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، تر: سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشيماء، رام الله- فلسطين، ط١، ٢٠١١م.

- **الفيتري(يعقوب ت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م):**

١٩. تاريخ بيت المقدس، تر: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٨م.

- **فيتلوس(ت ٥٦٤هـ/١١٦٨م):**

٢٠. وصف الأرض المقدَّسة في فلسطين، تر: سعيد عبد الله البيشاوي و فؤاد عبد الرحيم دويكات، مؤسسة حمادة للدارسات الجامعية، إربد- الأردن، ٢٠٠٨م.

- **القلوذي(بطليموس ت ١٥٣م):**

٢١. الجغرافية، تصدير فؤاد سزكين وآخرون، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلاميَّة، ألمانيا الاتحادية، ١٩٨٧م.

- **ماندڤيل(السير جون ت. بعد سنة ٧٥٦هـ/١٤٥٥م):**

٢٢. أسفار السير جون ماندڤيل ورحلاته، تر: أنس الذهبي و رنا جزائري، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٢م.

- **الناخذاه الرامهرمزي(بزرك بن شهريار ت. بعد سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥٦ م):**

٢٣. عجائب الهند برِّه وبحره ، تح: فان درليت، مكتبة بيبليون، جبيل- لبنان، د. ت.

- **هيرودوت(ت ٤٢٥ ق. م):**

٢٤. تمحيص الأخبار، تر: عبد الإله الملَّاح، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٦م.

- **هوميروس(ق ٩ ق. م):**

٢٥. الأُوديسة، تر: دريني خشبة، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

رابعاً- المصادر باللُغة الأجنبيَّة:

1- Benvenisti. M;

The Crusaders in the Holy land, Jerusalem, 1976.

2- Cosmas Indicopleustes;

The Christian topography of Cosmas, an Egyptian monk, Translated by; McCrindle J. W, Burt Franklin, New York, 1967.

3- Curtius Rufus;

The history of Alexander. Translated by John Yardley. Harmondsworth: Penguin, 1984.

4- De Rozier. E:

Cartulaire de l' eglise du Saint – Sepulcre de Jerusalem, Paris, 1849.

5- Diodorus of Sicily;

Library of History, Translated by; C. H. Oldfather, London and Cambridge, Loeb Classical Library, 1935.

6- Gaudefroy. D;

le Afrique moins le egypte, le- Masalik al- absar fimamlik al- amsar par ibn fadi Allah al- Omari, BGA II, Paris, 1927.

7- Genevieve. B. B;

Le Cartulaire de Chapitre de Saint – Sepulcre de Jerusalem , Paris, 1984.

8- Mandeville. J;

Voyages And Travels, Edited By Artgur Layard, D. Appleton & Co, New York, 1901.

9- Strabo;

The Geography, Translated by; Horace Leonard Jones, Loeb Classical Library, London and New York, 1930.

قائمة المراجع

أولاً المراجع العربيَّة:

- **إبراهيم(عبد العزيز عبد الغني):**

١. روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

- **إبراهيم(عيسى علي):**

٢. الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

- **إدة(إميل):**

٣. الفينيقيون واكتشاف أمريكا، دار النهار، بيروت، ١٩٦٩م.

- **إسماعيل(أحمد علي):**

٤. الجغرافية العامة(موضوعات مختارة)، دار الثقافة، الفجالة – مصر، ١٩٩٥م.

- **إسماعيل(شفيق):**

٥. حقيقة المماليك، دمشق، ط١، ٢٠٠١م.

- **الإيبش و الشهابي(أحمد و قتيبة):**

٦. دمشق الشام في نصوص الرحالين و الجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨م.

- **أباظة و أبو خليل(نزار وشوقي):**

٧. موسوعة الأوائل والمبدعين، دار المنبر، دمشق، ٢٠٠٣م.

- **أحمد(إمام إبراهيم):**

٨. تاريخ الفلك عند العرب، المكتبة الثقافية، القاهرة، ١٩٦٠م.

- **أحمد(أحمد رمضان):**

٩. الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، د. ت.

- **أحمد(أحمد عبد الرزاق):**

١٠. دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، مكتبة سعيد رأفت، د. م، ١٩٧٤م.

- **أحمد(حسن عبد العزيز):**

١١. الجغرافية التاريخية. اتجاهاتها الحديثة ومجالات التطبيق فيها، الرياض، ١٩٩٩م.

- **أحمد(سالم عبد الرزاق):**

١٢. فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ط٢، ١٩٨٢م.

- **الأحمد(سامي سعيد):**

١٣. السومريون وتراثهم الحضاري، منشورات الجمعية التاريخية العراقية، بغداد، ١٩٧٥م.

- **أحمد(نفيس):**

١٤. جهود المسلمين في الجغرافية، دار القلم، القاهرة، ١٩٤٧م.

- **أرسلان(شكيب):**

١٥. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية، بيروت، د. ت.

- **الأعلمي(محمد حسين):**

١٦. مقتبس الأثر ومجدد ما دثر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، كربلاء، ط١، ١٩٩٣م.

- **الألوسي(محمود شكري):**

١٧. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تصحيح: محمد بهجت الأثري، دار الكتاب المصري، القاهرة، د. ت.

- **أمين(أحمد):**

١٨. ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- **أنساعد(سميرة):**

١٩. الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى للنشر، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م.

- **الأنطاكي(محمد):**

٢٠. معركة عين جالوت، دار الشروق العربي، بيروت، د. ت.

- **ابن باز(عبد العزيز):**

٢١. الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب، مطبوعات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٩٧٥م.

- **باشا(عمر موسى):**

٢٢. الأدب في بلاد الشام في – عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، دمشق، ط٢، ١٩٦٣م.

- **بدران(عبد القادر):**

٢٣. منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، مطبعة الروضة، دمشق ،١٩٦٠م.

- **البدري(عبد اللطيف):**

٢٤. التعليم الطبي في الإسلام، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ٢٠٠١م.

- **بدوي(أحمد):**

٢٥. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر، الفجالة – القاهرة، ١٩٧٢م.

- **البدوي(خليل):**

٢٦. الموسوعة الفلكية، دار عالم الثقافة، عمان، ١٩٩٩م.

- **برصوم(مار أغناطيوس أفرام):**

٢٧. اللؤلؤ المنثور في تأريخ العلوم و الآداب السريانية، مكتبة بيبليون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٢٨. نزهة الأذهان في تأريخ دير الزعفران، المطبعة السريانية، القاهرة، ط١، ١٩١٧م.

- **البستاني(بطرس):**

٢٩. دائرة المعارف، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٨٤م.

٣٠. محيط المحيط ، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.

- **البستاني(سليمان):**

٣١. إلياذة هوميروس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.

- **أبو بكر محمد(أسماء):**

٣٢. ابن بطوطة (الرجل والرحلة)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

- **بكير محمد(محمد الفتحي):**

٣٣. الجغرافية التاريخية دراسة أصولية تطبيقية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٩م.

- **بلفيقه(محمد):**

٣٤. الجغرافية القول فيها والقول عنها، دار النشر العربي الإفريقي، الرباط، د. ت.

- **البيشاوي(سعيد):**

٣٥. الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

٣٦. نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية، عمان، الأردن، ١٩٩١م.

- **التازي(عبد الهادي):**

٣٧. التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المطبعة المحمدية، فضالة– مصر، ١٩٨٦م.

٣٨. جامع القرويين، دار نشر المعرفة، الرباط، ط٢، ٢٠٠٠م.

- **توفيق(عمر كمال):**

٣٩. مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية، ط١، ١٩٥٨م.

- **توني(يوسف):**

٤٠. معجم المصطلحات الجغرافية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٧م.

- **جباوي(علي):**

٤١. الجغرافية التاريخية، مطبعة طربين، دمشق، ١٩٨٢م.

- **جعفر(نوري):**

٤٢. التاريخ مجاله وفلسفته، بغداد، ١٩٥٥م.

- **الجندي(أنور):**

٤٣. صفحات مضيئة من تراث الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

- **جوبان(محمد محفوظ):**

٤٤. انتشار الإسلام في الحبشة، منشورات جامعة الموصل، ٢٠٠١م.

- **جوهر(دلال):**

٤٥. جغرافية العالم الإسلامي، مطبعة الصباح، دمشق، ١٩٩٢م.

- **الجوهري و درويش(يسرى و ناريمان):**

٤٦. مقالات في الجغرافية التاريخية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م.

- **الجوهري(يسرى):**

٤٧. الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٤م.

- **جيدة(أحمد):**

٤٨. المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

- **الحافظ (محمد مطيع):**

٤٩. دور الحديث الشريف بدمشق، دار المكتبي، ط١، دمشق، ٢٠١٠م.

- **حبيب(القس صموئيل):**

٥٠. دراسات في رسالة ثيموثاوس الثانية، دار الجيل، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

- **الحجاج(صالح حمد):**

٥١. التعليم في مدينة دمشق في العصر المملوكي الأول، جامعة مؤتة، ١٩٩٧م.

- **حجازي(محمد عبد الواحد):**

٥٢. العقاد فيلسوف التاريخ، دار الوفاء، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٤م.

- **الحجي(حياة ناصر):**

٥٣. صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٩٢م.

- **الحجي(صالح):**

٥٤. فهرس مخطوطات جامعة الرياض، ط١، ١٩٧٥م.

- **حدادي(أحمد):**

٥٥. رحلة ابن رشيد السبتي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط١، ٢٠٠٣م.

- **الحريري(محمد مرسي):**

٥٦. الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته، دار المعارف، الإسكندرية ، ١٩٨٥م.

- **حسن(زكي محمد):**

٥٧. فنون الإسلام، دار الرائد، بيروت، ١٩٩١م.

٥٨. الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

- **حسن(سليم):**

٥٩. أقسام مصر الجغرافية في العهد الفرعوني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٤م.

- **حسن(علي إبراهيم):**

٦٠. استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام وفي التاريخ المصري الوسيط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٨٠م.

- **حسين(حسني محمود):**

٦١. أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

- **الحسين(خليل):**

٦٢. تاريخ المماليك، منشورات جامعة البعث، حمص، ٢٠١٦م.

- **حسين(عبد الرزاق عباس):**

٦٣. الإطار النظري للجغرافية، منشورات جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٠م.

- **حسين(فالح):**

٦٤. الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، مطابع دار الشعب، الأردن، ط١، ١٩٧٨م.

- **الحصني(محمد أديب):**

٦٥. منتخبات التواريخ لدمشق، المطبعة الحديثة، دمشق، ط١، ١٩٢٧م.

- **الحفناوي(محمد بن إبراهيم الغول):**

٦٦. تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فوفتانة، الجزائر، ١٩٠٦م.

- **الحكيم(عمر):**

٦٧. تمهيد في علم الجغرافية، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٥م.

- **حمادة(محمد ماهر):**

٦٨. المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٦، ١٩٩٤م.

- **حمزة(عبد اللطيف):**

٦٩. الحركة الفكريّة في مصر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٧٠. القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م.

- **الحمصي(فايز):**

٧١. حلب القديمة، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٨٣م.

- **حميدان(زهير):**

٧٢. أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦م.

- **حميدة(عبد الرحمن):**

٧٣. أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.

- **الحويري(محمود):**

٧٤. منهج البحث في التاريخ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ٢٠٠١م.

- **الخروصي(خالد بن سليمان):**

٧٥. الطبوغرافية وتطور علم الخرائط، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٦م.

- **الخزيمي(مسعود بن عبد الله):**

٧٦. المراجع العربية، دار عالم الكتب، الرياض، ط٢، ١٩٩٧م.

- **خصباك(شاكر):**

٧٧. الجغرافية عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٧٨. في الجغرافية العربية(دراسة للتراث الجغرافي العربي)، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٥م.

- **خفاجة(محمد صقر):**

٧٩. هيرودوت يتحدث عن مصر، دار القلم ، القاهرة، ١٩٦٦م.

- **خميس(إبراهيم):**

٨٠. العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام(٥٨٩- ٦٩٠هـ/ ١١٩٣- ١٢٩١م)، جامعة الإسكندرية، ط١، ١٩٨٧م.

- **خير(صفوح):**

٨١. غوطة دمشق، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٦م.

- **الدباغ(مصطفى مراد):**

٨٢. بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤م.

- **الدفاع(علي عبد الله):**

٨٣. إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٨٤. إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

٨٥. أعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

٨٦. رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة النوبة، الظهران، ١٩٩٠م.

٨٧. الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، مطبعة جون وايلي وأولاده، نيويورك، ط١، ١٩٧٩م.

- **دهمان(محمد أحمد):**

٨٨. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٠م.

ولاة دمشق في عهد المماليك، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠م.

- **دياب(كوكب):**

٨٩. المعجم المفصل في الأشجار والنباتات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

- **دنون طه(عبد الواحد):**

٩٠. الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقية والأندلس، بغداد، ١٩٨٢م.

- **الرافعي وعاشور(عبد الرحمن و سعيد):**

٩١. مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م.

- **رفاعي(قاسم):**

٩٢. بعلبك في التاريخ دراسة شاملة لتاريخها ومساجدها ومدارسها وعلمائها، المكتب الإسلامي، بيروت،١٩٨٤م.

- **رمضان(أحمد):**

٩٣. المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مؤسسة روز، القاهرة، ١٩٧٧م.

- **رمضان(عبد العظيم):**

٩٤. تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.

- **الزبيدي(محمد حسين):**

٩٥. ملامح من النهضة العلمية في العراق في القرنيين الرابع والخامس الهجريين، بغداد، ط١، ١٩٨٠م.

- **الزحيلي(محمد مصطفى):**

٩٦. مرجع العلوم الإسلامية، دار المعرفة، دمشق، ط٢، ١٩٩٢م.

- **الزرقالي(محمد عبد العظيم):**

٩٧. مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

- **الزركلي(خير الدين):**

٩٨. الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.

- **زقزوق(عبد الرزاق):**

٩٩. النواعير أهم وسائل الري القديمة، دمشق، ١٩٩٢م.

- **زكار(سهيل):**

١٠٠. الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

- **زكي(عبد الرحمن):**

١٠١. تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٩م

- **الزكي(عبد الرحمن):**

١٠٢. موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٨٧م.

- **الزناتي(أنور محمود):**

١٠٣. دراسات تحليلية في مصادر التراث العربي، دار زهران، الأردن، ط١، ٢٠١١م.

- **الزيات(أحمد):**

١٠٤. تاريخ الأدب العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ت.

- **زيات(حبيب):**

١٠٥. خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا، دار المأمون للنشر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م.

١٠٦. الديارات النصرانية في الإسلام، دار المشرق العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

- **زيادة(نقولا):**

١٠٧. الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الأهلية للنشر، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٠٨. دليل البحر الإريثريّ وتجارة الجزيرة العربيّة، سلسلة دراسات في تاريخ الجزيرة العربيّة، الكتاب الثاني، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٤م.

١٠٩. دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٦م.

١١٠. رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٤م.

- **زيدان(جرجي):**

١١١. تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، القاهرة، ١٩٨٣م.

- **الساعاتي(أحمد عبد الرحمن البنا):**

١١٢. الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار بيت الأفكار الدولية، عمان، ٢٠٠٩م

- **سالم(عبد العزيز):**

١١٣. قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م.

- **السامرائي(إبراهيم):**

١١٤. المجموع اللفيف، دار عمار، عمان، ١٩٨٧م.

- **السامرائي(كمال):**

١١٥. مختصر تاريخ الطب العربي، بغداد، ط١، ١٩٨٤م.

- **السجلماسي(عبد الرحمن بن محمد):**

١١٦. اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.

- **سراج(النبوي جبر):**

١١٧. السيدة نفيسة كريمة الدارين، المكتبة التوفيقية، القاهرة ، د. ت.

- **السرجاني(راغب):**

١١٨. ماذا قدم المسلمون للعالم(إسهامات المسلمين في الحضارة الانسانية)، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.

- **سركيس الدمشقي(يوسف إليان):**

١١٩. معجم سركيس، دار إحياء الكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٣١م.

١٢٠. معجم المطبوعات العربية والمعربة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.

- **أبو سعد(أحمد):**

١٢١. أدب الرحلات، دار الشروق، بيروت، ١٩٦١م.

- **سعيد(حبيب):**

١٢٢. سيرة بولس الرسول، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧م.

- **سلام(محمد زغلول):**

١٢٣. الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.

- **سليمان(مصطفى محمود):**

١٢٤. تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى ومكانة الحضارة الإسلامية فيه، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م.

- **سليم(محمود رزق):**

١٢٥. عصر سلاطين المماليك ونتاجه العالمي والأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢م.

- **السملالي(العباس بن إبراهيم):**

١٢٦. الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام، مر: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٩٩٨م.

- **سوسة(أحمد):**

١٢٧. الشريف الإدريسي، مكتبة صبري، بغداد، د. م.

١٢٨. العراق في الخوارط القديمة، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٩م.

- **سيد(أيمن فؤاد):**

١٢٩. مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٣م.

- **السيد(فؤاد صالح):**

١٣٠. معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

- **سيدة(إسماعيل الكاشف):**

١٣١. أحمد بن طولون، المؤسسة المصرية للتأليف، القاهرة، د. ت.

- **الشاذلي(سيد قطب إبراهيم حسين):**

١٣٢. في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط٣٢، ٢٠٠٣م.

- **شاكر(محمود):**

١٣٣. الكشوف الجغرافية دوافعها حقيقتها، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

- **الشامي(صلاح الدين علي):**

١٣٤. الإسلام والفكر الجغرافي العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٨م.

١٣٥. جغرافية العالم الإسلامي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٤م.

١٣٦. الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠م.

- **شبل(فؤاد محمد):**

١٣٧. توينبي مبتدع المنهاج التاريخي الحديث، القاهرة، ١٩٧٥م

- **شريف(شريف محمد):**

١٣٨. تطور الفكر الجغرافي، مكتبة العصور القديمة ، القاهرة، ١٩٦٩م.

- **الشكعة(مصطفى):**

١٣٩. مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٩١م.

- **الشكيل(علي جمعان):**

١٤٠. الكيمياء في الحضارة الإسلامية دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

- **شلبي(أحمد):**

١٤١. موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٨٦م.

- **الشنقيطي(أحمد الأمين):**

١٤٢. شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، تح: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ٢٠٠٥م.

- **الشهابي(مصطفى):**

١٤٣. الجغرافيون العرب، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م.

- **الشوابكة(نوال عبد الرحمن):**

١٤٤. أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٨م.

- **الشيال(جمال الدين):**

١٤٥. رفاعة رافع الطهطاوي(١٨٠١ – ١٨٧٣م)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م.

- **شيخو(لويس):**

١٤٦. مجاني الأدب في حدائق العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٨٨٢م.

- **الصابوني(أحمد بن إبراهيم):**

١٤٧. تاريخ حماة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

- **الصادق(حسين محمد):**

١٤٨. البيت السبكي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٨م.

- **صالح(عبد العزيز):**

١٤٩. تاريخ الشرق الأدنى القديم، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ٢٠١٢م.

- **الصباغ(ليلى):**

١٥٠. دراسة في منهجية البحث التاريخي، منشورات جامعة حلب، ط١٠، ٢٠٠٣- ٢٠٠٤م.

- **صديق(عمر سلهم):**

١٥١. الحركة الصليبية في ساحل شرق إفريقية، منشورات جامعة الموصل، ٢٠٠١م.

- **الصعيدي(عبد الحكيم عبد اللطيف):**

١٥٢. الرحلة في الإسلام : أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.

- **الصياد(محمد محمود):**

١٥٣. الجغرافية والجغرافيون، دار العلوم، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

١٥٤. من الوجهة الجغرافية، جامعة بيروت العربية، بيروت، ط١، ١٩٧١م.

- **ضيف(شوقي):**

١٥٥. الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٥٦م.

- **الطائي(فاضل):**

١٥٦. موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

- **أبو طالب(عبد الهادي):**

١٥٧. معجم تصحيح لغة الإعلام العربي، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

- **الطباخ(محمد راغب):**

١٥٨. أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تعليق: محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، ط٢، ١٩٨٩م.

- **الطرابلسي(نوفل):**

١٥٩. صنَّاجة الطرب في تقدمات العرب، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

- **الطراونة(طه ثلجي):**

١٦٠. مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

- **طوقان(قدري حافظ):**

١٦١. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٤م.

- **الطويل(توفيق):**

١٦٢. في تراثنا العربي الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥م.

- **عاشور(سعيد):**

١٦٣. أوروبا في العصور الوسطى، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط١٠، ١٩٨٦م.

١٦٤. العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦م.

١٦٥. العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٤م.

١٦٦. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م.

- **العاملي(زينب فواز):**

١٦٧. الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

- **العاملي(محسن الأمين):**

١٦٨. أعيان الشيعة، تح: حسن الأمين العاملي، دار التعاون للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٦م.

- **عباس(إحسان):**

١٦٩. مقدمات في التعريف بمناهج التراث، دار الفارس، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م.

- **عبد الحكيم(محمد صبحي):**

١٧٠. دراسات في الجغرافيا العامة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م .

- **عبد العليم(أنور):**

١٧١. الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.

- **عبد القادر(محمد فريد):**

١٧٢. معارك فاصلة في تاريخ الإسلام، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.

- **عبد الله(جوزف):**

١٧٣. منتخبات التواريخ والأثار مما خلفه الرحالة الغربيون حول عكار والجوار، مكتبة السائح، طرابلس– لبنان، ٢٠١٠م.

- **عبد الله(دولت):**

١٧٤. معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي، مطبعة حسان، القاهرة، ١٩٨٠م.

- **عبد الله(يسري عبد الغني):**

١٧٥. معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

- **عبد المهدي(عبد الجليل):**

١٧٦. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصر الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٠م.

- **عبد النعيم(محمد):**

١٧٧. دراسات تاريخية في مصادر عصري الأيوبيين والمماليك، دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠٤م.

- **عبد الوهاب(حسن):**

١٧٨. تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة(١١٩٠- ١٢٩١م)، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٩م.

- **عثمان(حسن):**

١٧٩. منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، ط٨، ١٩٦٤م.

- **عدوان(أحمد محمد):**

١٨٠. التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك، دار العلوم، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.

- **العدوي(إبراهيم):**

١٨١. ابن بطوطة في العالم الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٥٤م.

- **العربي(إسماعيل):**

١٨٢. تاريخ الرحلة والاستكشاف، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م.

١٨٣. المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م.

- **العزاوي(عبد الرحمن حسين):**

١٨٤. التاريخ والمؤرخون، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٩٣م.

- **العزاوي(عباس):**

١٨٥. عشائر العراق، مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ١٩٣٨م.

- **العسلي(كامل جميل):**

١٨٦. معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م.

- **العطاري(جلال يوسف):**

١٨٧. حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، دار الفكر، عمان، ٢٠١١م.

- **عطية(عزيز سوريال):**

١٨٨. الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، ط٢، د. ت.

- **عفيفي(محمد الصادق):**

١٨٩. تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٦م.

- **العقاد(عباس محمود):**

١٩٠. أثر العرب في الحضارة الأوربية، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.

- **أبو العلا(محمود):**

١٩١. الفكر الجغرافي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.

- **العلبي(أكرم حسن):**

١٩٢. دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م.

١٩٣. خطط دمشق، دار الطباع، دمشق، ط١، ١٩٨٩م

- **أبو علم(توفيق):**

١٩٤. السيدة نفيسة، منشورات وزارة الاوقاف، القاهرة، ١٩٩٣م.

- **علم الدين(نيفين):**

١٩٥. فلسفة التاريخ عند توينبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٩١م.

- **علي(جواد):**

١٩٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٦م.

- **علي(عبد اللطيف إبراهيم):**

١٩٧. المكتبة المملوكية، دار الشعب، القاهرة ، ١٩٦٢م.

- **علي(عبد اللطيف أحمد):**

١٩٨. مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠م.

- **علي(محمد كرد):**

١٩٩. الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م.

٢٠٠. خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧١م.

- **أبو علي(نبيل):**

٢٠١. البوصيري شاهد على العصر المملوكي، دار المقداد للطباعة، غزة، ط٤، ٢٠٠٥م.

- **عنان(محمد عبد الله):**

٢٠٢. تاريخ الجامع الأزهر، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م.

٢٠٣. مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م.

٢٠٤. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مطبعة لجنة التأليف القاهرة، ط٣، ١٩٦٦م.

- **عوض(محمد مؤنس):**

٢٠٥. الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

٢٠٦. الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م .

- **عواد(كوركيس):**

٢٠٧. ذيل ديارات الشابشتي، دار الهدى للثقافة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

- **عيسى بك(أحمد):**

٢٠٨. تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار القرآن العربي، بيروت، ١٩٨١م.

٢٠٩. معجم الأطباء، مطبعة فتح الله إلياس نوري، مصر، ط١، ١٩٤٢م.

- **غانم(محمد الصغير):**

٢١٠. التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط، بيروت، ١٩٨٢م.

- **ابن الغزي(كامل بن حسين):**

٢١١. نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، ١٩٢٣م.

- **غلاب و الجوهري(محمد السيد و يسرى):**

٢١٢. الجغرافية التاريخية، مكتبة الإشعاع، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

- **غليونجي(بول):**

٢١٣. موسوعة العلوم الإسلامية والمسلمين، مؤسسة المعارف، بيروت، د. ت.

٢١٤. ابن النفيس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٩١م.

- **غوانمه(يوسف درويش):**

٢١٥. التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، د. ت.

- **الفرا (محمد علي عمر):**

٢١٦. علم الجغرافيا دراسة تحليلية نقدية، منشورات جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٠م.

- **فرغلي(إبراهيم):**

٢١٧. الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

- **فرغلي(أبو الحمد محمود):**

٢١٨. الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

- **فروخ(عمر):**

٢١٩. تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٤م.

٢٢٠. تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م.

- **الفندي(جمال):**

٢٢١. الجغرافية عند المسلمين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

- **فهيم(حسين محمد):**

٢٢٢. أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.

- **فياض(سليمان):**

٢٢٣. ابن بطوطة رحالة الإسلام، مركز الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م.

- **قاسم(محمود الحاج):**

٢٢٤. تاريخ طب الأطفال عند العرب، دار تهامة، جدة، ط٢، ١٩٨٣م.

- **قدامة(أحمد):**

٢٢٥. معالم وأعلام في بلاد العرب، مطبعة الأديب، دمشق، ١٩٦٥م.

- **القسطالي(نعمان):**

٢٢٦. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

- **قنديل(فؤاد):**

٢٢٧. أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٢م.

- **كامل(حسين باشا):**

٢٢٨. مختصر الجغرافية، المطبعة الخديوية، بولاق، ١٨٧٣م.

- **كامل(وهيب):**

٢٢٩. استرابون في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٣م.

- **الكتاني(محمد عبد الحي بن عبد الكبير):**

٢٣٠. فهرس الفهارس والأثبات، اعتناء: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط٢، ١٩٨٢م.

٢٣١. نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، د. ت.

- **كحالة(عمر رضا):**

٢٣٢. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، المطبعة الهاشمية، دمشق، ط٢، ١٩٥٩م.

٢٣٣. التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٢م.

٢٣٤. العلوم البحتة في العصور الإسلامية، المكتبة العربية، بيروت، ط١، ١٩٧٢م.

٢٣٥. العلوم العملية في العصور الإسلامية، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٧٢م.

٢٣٦. معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

- **الكحلاوي(محمد):**

٢٣٧. آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٤م.

- **كرد علي(محمد):**

٢٣٨. الإدارة الإسلامية في عز العرب، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤م.

٢٣٩. غوطة دمشق، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٩م.

٢٤٠. كنوز الأجداد، أضواء السلف، دمشق، ٢٠١٠م.

- **كردي(علي إبراهيم):**

٢٤١. أدب الرحل في المغرب والأندلس، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٣م.

- **الكردي(محمد طاهر):**

٢٤٢. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، تح: عبد الملك بن دُهيس ، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

- كريم(مسعود عياد):

٢٤٣. مراحل تطور الفكر الجغرافي، دار الكتب الوطنية للكتاب، بنغازي، ٢٠٠٧م.

- كيّال(منير):

٢٤٤. الحمامات الدمشقية وتقاليدها، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٦٦م.

- الكيلاني(أحمد):

٢٤٥. حماه مدينة النواعير، حماه، د. ت.

- ماجد(عبد المنعم):

٢٤٦. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٨٦م.

٢٤٧. العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م.

٢٤٨. نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م.

- ماهر(سعاد):

٢٤٩. قباب مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧١م.

٢٥٠. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٩م.

- مجموعة من المؤلفين:

٢٥١. المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط٤، ٢٠٠٤م.

- محفوظ(علي):

٢٥٢. هدية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، دار الاعتصام، مصر، ط٩، ١٩٧٩م.

- محمد أمين(محمد):

٢٥٣. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة القاهرة، ط١، ١٩٨٠م.

- محمد(صباح محمود):

٢٥٤. دراسات في التراث الجغرافي العربي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.

- محمدين(محمد محمود):

٢٥٥. التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٩م.
٢٥٦. الجغرافية والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٦م.

- **مخلوف(محمد بن محمد):**

٢٥٧. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

- **المدخل(زيد بن محمد):**

٢٥٨. الأفناد الندية، دار علماء السلف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٣م.

- **مراياتي وآخرون(محمد):**

٢٥٩. علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.

- **مرعشلي(يوسف):**

٢٦٠. علم الجرح والتعديل وأهميته في دراسة الأسانيد والحكم على الحديث، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٩م.

- **مصطفى(شاكر):**

٢٦١. التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.

- **مظهر(جلال):**

٢٦٢. حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤م.

- **معروف(ناجي):**

٢٦٣. تاريخ علماء المستنصرية، بغداد، ط٢، ١٩٦٥م.

- **المغربي(عبد الرحمن):**

٢٦٤. عكا ومنطقتها في العصور الوسطى، مؤسسة الأسوار، عكا، ط١، ١٩٩٧م.

- **المغلوث(سامي بن عبد الله):**

٢٦٥. أطلس تاريخ العصر المملوكي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠١٣م.

- **مقبل(فهمي توفيق):**

٢٦٦. دور العرب في اكتشاف العالم الجديد، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م.
٢٦٧. مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوربية(الفكر الجغرافي أنموذجاً)، دار المأمون، عمان، ٢٠١٣م.

- **الملائكة(إحسان):**

٢٦٨. أعلام الكتاب الإغريق والرومان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠١م.

- **المناوي(عبد الرؤوف):**

٢٦٩. الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفي، تح: عبد الحميد حمدان، المكتبة الأزهرية، القاهرة، ١٩٩٩م.

- **منتصر(عبد الحليم):**

٢٧٠. تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م.

- **المنجد(صلاح الدين):**

٢٧١. أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٨م.
٢٧٢. دمشق القديمة (أبوابها، أسوارها، أبراجها)، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٤٥م.
٢٧٣. المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٣م.
٢٧٤. معجم المؤرخين الدمشقيين، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.
٢٧٥. منازل قبائل العرب حول دمشق، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٥٥م.

- **المنوني(محمد):**

٢٧٦. المصادر العربية لتاريخ المغرب، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٣م.

- **الموافي(ناصر عبد الرزاق):**

٢٧٧. الرحلة في الأدب العربي حتَّى نهاية القرن الرابع، مكتبة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

- **مؤمن(عبد الأمير):**

٢٧٨. قاموس دار العلم الفلكي ، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٦م.

- **مؤنس(حسين):**

٢٧٩. ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٢٨٠. الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٣م.

- **النباهين(سالم):**

٢٨١. نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٠م

- **النبراوي(فتحية):**

٢٨٢. علم التاريخ دراسة في مناهج البحث، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٦م.

- **الندوي(عبد الحليم):**

٢٨٣. منهج النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.

- **النساج(سيد حامد):**

٢٨٤. مشوار كتب الرحلة قديماً وحديثاً، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م.

- **نصار(حسين):**

٢٨٥. أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر لوتجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

- **نعيرات(أسامة):**

٢٨٦. اقطاعية بيسان ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي، مؤسسة الأسوار، عكا، فلسطين، ط١، ٢٠٠٢م.

- **النهار(عمار محمد):**

٢٨٧. تاريخ المماليك، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠١٤م.

٢٨٨. دور علماء الحضارة العربية والإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة(الأصول الكيميائية والفلكية)، دار البركة، دمشق، ط١، ٢٠١١م.

٢٨٩. سبق علماء الحضارة العربية الإسلامية في إبداع منهج البحث العلمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥م.

- **نواب(عواطف محمد):**

٢٩٠. الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٦م.

- **الهيتي(صبري):**

٢٩١. الفكر الجغرافي نشأته و مناهجه، دار عمان، عمان، ٢٠٠٥ م.

٢٩٢. الفكر الجغرافي وطرق البحث، منشورات جامعة الموصل، العراق، ١٩٨٥م.

- **وتار(محمد رياض):**

٢٩٣. توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م.

- **الورقي(السعيد):**

٢٩٤. في مصادر التراث العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٠م.

- **الوشلي(عبد الله قاسم):**

٢٩٥. المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت، ١٩٨٠م.

- **وهبة و المهندس(مجدي و كامل):**

٢٩٦. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.

- **وهيبة(عبد الفتاح):**

٢٩٧. حضارة العرب في العصور الوسطى، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.

- **يحيى(لطفي عبد الوهاب):**

٢٩٨. اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٩م.

- **يسرى(الجوهري):**

٢٩٩. الخرائط الجغرافية، مكتبة الإشعاع، الإسكندرية، ١٩٩٧م.

ثانياً- المراجع الأجنبيَّة المُعرَّبة:

- **أفرالاغ(فلورانس):**

١. عبقرية الحضارة العربية، تر: عبد الكريم محفوق، دمشق، ١٩٨٢م.

- **أوليري(دي لاسي):**

٢. مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، تر: تمام حسان، المكتبة الثقافية، القاهرة، ١٩٥٧م.

- **بارتولد(ف):**

٣. تاريخ الحضارة الإسلامية، تر: حمزة طاهر، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٦٦م.

- **بالار(ميشيل):**

٤. الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، تر: بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

- **براور(يوشع براور):**

٥. الاستيطان الصليبي في فلسطين(مملكة بيت المقدس)، تر: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

- **بروكلمان(كارل):**

٦. تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٦٥م.

٧. تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النجَّار، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٥٩م.

بريل(جي):

٨. دائرة المعارف الإسلامية، تر: زكي خورشيد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفني، الإمارات، ط١، ١٩٩٨م.

- **بلسنر(مارتن):**

٩. مبحث العلوم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.

- **بوكاي(موريس):**

١٠. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث، تر: حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت، د. ت.

- **بيرين(جاكلين):**

١١. اكتشاف جزيرة العرب، تر: قدري قلعجي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.

- **ديورانت(ول):**

١٢. قصة الحضارة ، تر: محمد بدران، مطبعة الرجوي، القاهرة، ١٩٧٤م.

- **روزنتال(فرانز):**

١٣. علم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

- **ريسلر(جاك):**

١٤. الحضارة العربية، تر: غنيم عبدون، الدار المصرية للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٩م.

- **زابوروف(ميخائيل):**

١٥. الصليبيون في الشرق، تر: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م.

- **سارتون(جورج):**

١٦. تاريخ العلم والإنسية الجديدة، تر: إسماعيل مظهر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م.

- **س.(بروشكين):**

١٧. أسرار الفيزياء الفلكيَّة والميثولوجيا القديمة، تر: حسان ميخائيل إسحاق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠٦م.

- **سعيد(إدوارد):**

١٨. الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٥م.

- **سميث(جوناثان رايلي):**

١٩. حال الصليبيين الذهنية تجاه الشرق، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٢٠. ما هي الحروب الصليبية، تر: محمد فتحي الشاعر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م.

- **فيلارز(يوهانس):**

٢١. كنوز علم الفلك، المتحف القومي الألماني، نورنبرج- ألمانيا، ١٩٨٣م.

- **فيرنيت(خوانت):**

٢٢. فضل الأندلس على ثقافة الغرب، تر: نهاد رضا، دار إشبيلية، دمشق، ١٩٩٧م.

- **كراتشكوفسكي(أغناطيوس):**

٢٣. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف و الترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧م.

- **كلوزيه(رينيه):**

٢٤. تطور الفكر الجغرافي، تر: عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢م.

- **لابيدوس(إيرامارافين):**

٢٥. مدن إسلامية في عهد المماليك، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م.

- **لسترنج(لكي):**

٢٦. بلدان الخلافة الشرقية، تر: بشير فرنسيس و كوركوويس عوّاد، بغداد، ١٩٤٥م.

- **لوبون(جوستاف):**

٢٧. حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.

- **لويس(أرشيبالد):**

٢٨. القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، تر: أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٦٠م.

- **مان(جون):**

٢٩. جنكيز خان الحياة والموت والانبعاث، تر: حسن عبد العزيز عويضة، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٣م.

- **متز(آدم):**

٣٠. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تر: محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٩م.

- **م. ف(مينورسكي):**

٣١. الجغرافيون والرحالة المسلمون، تر: عبد الرحمن حميدة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٩٨٥م.

- **مييلي(ألدو):**

٣٢. العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، تر: عبد الحليم النجار، دار القلم، بيروت، ١٩٦٢م.

- **نالينو(كرلو):**

٣٣. علم الفلك(تاريخه عند العرب في القرون الوسطى)، روما، ١٩١١م.

- **هارتشون(ريتشارد):**

٣٤. نظرة في طبيعة الجغرافية، تر: عبد العزيز آل الشيخ و عيسى موسى الشاعر، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٨م.

- **هـ. ج(وود):**

٣٥. الارتياد والكشف الجغرافي، تر: شاكر خصباك، دار المكتبة العصرية، بيروت، د. ت.

- **هنتس(فالتر):**

٣٦. المكاييل والأوزان الإسلامية وما يُعادلها في النظام المتري، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ط١، ١٩٧٠م.

- **هونكه(زيغريد):**

٣٧. شمس العرب تستطع على الغرب، تر: فاروق بيضون و كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.

- **ولدرج(جوردن إيست):**

٣٨. الجغرافية مغزاها ومرماها، تر: يوسف أبو الحجاج، مطبعة النجاح، الفجالة– مصر، ١٩٥٨م.

ثالثاً– الرسائل العلمية:

- **سبانو(أحمد غسان):**

١. نظام الحكم والإدارة في بلاد الشام في العصر المملوكي (رسالة دكتوراه)، كلية الآداب– جامعة دمشق، ٢٠١٠م.

- **يعقوب(نضال):**

٢. تطور المفتاح في منظومة التعمية عند العرب، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، ١٩٩٧م.

رابعاً– الدوريات والأبحاث:

- **الشامي(صلاح الدين علي):**

١. الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية، مجلّة عالم الفكر، مج ١٣، الكويت، ١٩٨٣م.

- **صالح(عبد العزيز):**

٢. شبه الجزيرة العربيّة في المصادر المصريَّة القديمة، مجلّة عالم الفكر، مج١٥، العدد١، ١٩٨٤م.

- **عدرة(هشام):**

٣. النواعير في مدينة حماة، مجلّة المنهل، العدد ٥١٢، د. م، ١٩٩٤م.

- **الكرملي(أنستاس):**

٤. عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها الغرب، مجلّة المقتطف، العدد ١٠٦، مصر، ١٩٠٦م.

- **محمدين(محمد محمود):**

٥. كيف يُستفاد من الشعر الجاهلي في دراسة جغرافية الجزيرة العربية، مجلة الدارة، العدد ٣، الرياض، ١٩٧٩م.

- **مصطفى(شاكر):**

٦. التاريخ هل هو علم؟، مجلّة عالم الفكر، العدد ١، الكويت، ١٩٧٤م.

- **المنجد(صلاح الدين):**

٧. إجازات السماع في المخطوطات القديمة، مجلّة معهد المخطوطات، مج١، ج٢، القاهرة، ١٩٥٥م.

- **مؤنس(حسين):**

٨. ابن بطوطة رحَّالة الإسلام، مجلة العربي، العدد ٣١٣، الكويت، ١٩٧٦م.

- **الميداني(محمود عاصم):**

٩. المعجمات الجغرافية العربية ودورها الثقافي، مجلة التوباد، العدد ١٣، الرياض، ١٩٩١م.

- **نصر(محمد سيد):**

١٠. تطور علم الجغرافية وفضل العرب فيه، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية، العدد ١، الكويت، ١٩٦١م.

خامساً- المراجع الأجنبيّة:

1- Archer .T. H, and Kings Ford .C. L;

The Story Of The Latinkingdom Of Jerusalem, London, 1919.

2- Amari. M;

Al- Umari, Condizioti Dei Cristiani Dell Occidente Secon- De Una Relazione Di Domenichino Dorio Da Genova In Atti Della R . Acca Demia Deilincei, Serie III. XI ,1883.

3- Aubrey. S; .Cf ;

Introduction of Burchard of Mount Sion, Vol.12.

4- Bunbury. E.H;

A History of ancient geography . amon the Greek and Ramans from the Earliest Ages Till the fall of the Rom Empire, vol. I, New York, 1959.

5- Byl. S. A;

The Essence and Use of Perfume In Ancient Egypt, University Of South Africa, 2012.

6- Cahen. Cl;

La Syrie Du Nord A Le Époque Des Croisades.

7- Campbell .R. D;

Question Of Place, Virginia, 1969.

8- Casanova. P;

Historie Et Description De La Citadelle Du Caire, MMAF VI, 1891.

9- Clark. A;

Historical Geography in American Geog, Inventory and Prospectsee, New York, 1964.

10- Conder . C. R;

The latin Kingdom of Jerusalem, (1099 -1291 A.D), London, 1897.

11- Degiulhem. R;

Le Waqf Dans Lespace Islamique, Damas, 1995.

12-Demombynes. G;

Quelques passages des Masalik al- Relatifs au Maroc, dans Absar Memorial Henri Basset, I, paris, 1928.

13- De Outremeuse de Liege. J;

Ly myreur des histors, Bruxelles, Hayez, 1880.

14- De Slan. R;

Geographie De Aboulfeda, Paris, 1848.

15- Encyclopedia Britannica, Inc, London, 1985.

16- Geilbert. F. W;

What is Historical Geog. Scoot, Geog, 1932.

17- Glenister. C. L;

Profiling Punt: Using Trade Relations To Locate God's Land', Stellenbosch University, 2008.

18- Hartshorne. R;

The Nature of Geography, Lancaster, Association of American Geographers, 1939.

19- Hogarth. D. G;

The penetration of Arabia, Beirut, 1966.

20- Kimble. G. H. T;

Geography In the Middle Ages, London, 1938.

21- Klaproth Lettera J . M;

Le Paron De Humoeldt Sur l'invention De La Boussole, Paris, 1834.

22- Lee. S;

The Travels of Ibn Batuta, Translated from the Arabic Manuscipt Copes by; Franklin. B; New York.

23- Mayer. H;

The Crusades, Oxford, 198.

24- Meisner. M;

Hajm, VVurzburg. VVurzburg, 1975.

25- Newton. P;

travels and travellers in the Middle Age, London, 1926.

26- Philippe. P;

Marine Biological Report in the Nuẖbat Al-Dahr Fī ʿağāʾib Al-Barr Wa-Al-Baḥ, Arabic Sciences and Philosophy, No. 24, (1), 2014.

27- Prawer. J;

Crusader Institutions, Oxford, 1980.

28- Prawer. J;

The latin kingdom of Jerusalem, London, 1972.

29- Quatremere. M;

Notice De Louvrage Qui A Pour Titre Mesalek Al- Absar Fi Memalek Al- Amsars Manuscrit, No. 583, 2325 Dans Notices Et Extraits Des Manuscrits De La Bibliotheque Du Roi Et Aurtes Bibliotheques .

30- Richard .J :

Agricultural Conditions in the Crusader states.

31- Roxby. P. M;

The Scope and Aims of Human Geography, scot. Geog, Mag, Vol. 49, 1930.

32- Salibi. K;

Lists Chronologiques Des Groends Cadis De Le Egypte Sous Les Mamellouk RETI XXV, , Fadl Allah El Emri, II, 1957 .

33- Schefer, Ch;

Notice Sur Les Relations Des Peuples Musulmans Avec Les Chinois, Depuis L Extention De l Islamisme Jusqua La Fin Du XV Siècle), Dans Centenaire De PEOV, 1895.

34- Shea. W. H;

A Date for the Recently Discovered Canal of Egypt, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, No 226, 1977.

35- Smith .J ;

The Feudal Nobility and the kingdom of Jerusalem (1174-1277 A.D), 1973.

36- Tiesenhausen, R;

De Matieres Relatives A L Histoire De La Horde Or, St. Petersbourg 1884.

37- Worthington. I;

Ptolemy I King and Pharaoh of Egypt, Oxford, 2016.

Arabic Abstract

The study dealt with the study of geographical literature and trips to the Levant during the Mamluk era (648-784 AH / 1250-1382 AD).

The study of the subject was studied through the definition of geography and its concepts, sections and branches, and the factors of the evolution of Arab Islamic thought and prosperity, and the study of trends of geographic knowledge among Arab Muslim scientists in both the astrophysicist and the regional.

Then came the talk about the factors of development and prosperity of the geographical literature in the era of the Mamluk maritime state, the definition of the most important scientific centers in the Levant and Egypt, and a study of the most important sciences that were associated with geography, and contributed to progress, in addition to the most important achievements of scientists of this age in the field of geographical research.

The study dealt with the research in the art of geographic calendars, through studying models of the months of geographical calendars, including the definition of the life of each geography, and studying the book in terms of content, methodology, resources and importance, and study aspects of life in the Levant through these models, With other calendar books.

The literature of Arab and foreign trips to the Land of the Levant during the Mamluk era was studied by describing the aspects of urban, economic, social, political and military life through examples of the months of Arab and foreign travelers who visited them. Arabic, and other foreign.

The study tackled the study of one aspect of geographical knowledge (geography plans) related to history by presenting a description of the geography and plans of the Levant, through models of geographical months of this art, as compared to other geographic plans.